حمدان حمدان

عقود من الخيبات

كيف وصلنا إلى هنا؟





بيسان

عقود من الخيبات

كيف وصلنا إلى هنا ؟

حمدان حمدان

عقود من الخيبات

كيف وصلنا إلى هنا ؟





بيسان

عقود من الخيبات

حمدان حمدان

طبعة أولى ١٩٩٥ تشرين الأول

الناشر: بيسان للنشر والتوزيع

ص.ب. ٥٢٦١-١٣

﴿ إهــداء ﴾

يبدو أن الإنصاف أصبح من مخلفات المسمارية أو الهيروغليفية .. وبحكم إعجابي بشمرا وحجر الرشيد وما بدا لنا من أسبقية على الكون لهذا الصرح الشامخ فإنني أضع أبجديتي هذه بين يدي الرجل الكبير الذي لم يُنصف حتى الساعة : أكرم الحوراني ..

من جهته فإن شاعر البحر والجبل الواقف مع الشجر أبداً ، نديم محمد كان قد سبقني إلى هذا بقوله :

" إلى الذي رعى الشجرة .. فصلب عليها"

ما أكثر ما صلبت الحقيقة في وطننا على مر الدهور.

مقـــدمـــة

ليس من قبيل المصادفة التعسة ، أو الحظ العاثر ، أن عرب اليوم يجتمعون على التفكك ، بالعزم نفسه الذي تمضي فيه الأمم الأخرى ، نحو وحدتها ونهوضها ، ويجري تفسير المشهد أحياناً ، على أنه نبوة سيف أو رمية نرد أو كبوة حصان ، وما يحفل به الشعر العربي ، من حلاوة الجرس وسحر الموسيقا ، إلا أن ذلك ، على ساحريته ، لم يأخذ بيدنا للوقوف على سر ما جرى والقادم على الطريق . .

هذه المقاربة الرمزية المغالية ، لاترمي لأكثر من الاعتراف ، بأن الخطاب العربي الفكري ، الذي يتخلله الشعر أحياناً ، وهي لازمة حياتية في تاريخ العرب ، لم يستطع حتى الآن ، أن يحلل في مختبر العلم وقياساته ، كثافة الطلسم ، لأسباب انكفاء واقعي متواتر لا يقبل التوقف . .

عن التحديدات النظرية ، في سؤالنا ، لماذا وصلنا إلى هنا ؟ سنجد دزينة من الإجابات النظرية أيضاً ، وفي طباق للأشياء وضدها ، الموت والحياة مثلاً ، يجب على صعيد الفرد والأمة ، التوجه إلى الحياة لا الموت ، فإذا ما تمت الدعوة لاطلاق صراعنا ضد أسباب موتنا لتعزيز عملية الخروج من هنا . . عندها لا جواب ! . . وقد يكون الجواب ، هو سياسة الضرب المفتوح . .

يهتبل كتابنا هذا ، الفرصة السانحة ، ليجول مع الجوّالين ، في عالم معقد وغريب ، ومن أجل الإمساك ببداية الطريق ، على الأقل ، فإنه يجد توافقاً في مرافقة الامبراطورية الاسلامية لآل عثمان أواخر عهودها . . فهو يزعم أنه ليس قليلاً أن العرب عاشوا في عهدة الامبراطورية مدة أربعة قرون ونيف ، وفي العادة فقد درجنا على ربط علتنا بمعلول غيرنا ، إذ أين كان العرب أصلاً ، قبل الفاتح العثماني الكبير ، أين كانوا منذ السقوط في قيعان الدويلات والأمارات مما هب ودبّ منذ تحويل الخلافة إلى كسروية - فراق للقوم ما فعلوا . .

ويميل العربي عادة ، إلى إلقاء اللوم ، لا على نفسه ، بل على ما هو خارجها على الدوام ، فبالنسبة لمحيطه الأقرب ، فإن السلطات الحاكمة هي المسؤولة ، والسلطات هي قدر مقدور ، لا سبيل إليها من قريب أو بعيد ، وحين تتسع الدائرة في فلسفة الإلقاء على الغير ، يتم اتهام الخارج الأجنبي ، وهكذا لنجد (أننا هنا) ربما بسبب الصليبيين أو المغول والتتار ، ربما بسبب الهكسوس قبل ذلك ، أو ربما بسبب فارس أو المماليك . . ومع ذلك فنحن (مازلنا هنا) تحت رحمة التاريخ الثقيل ، لوطأة هجمات خارجية لاترحم . . .

كان الغرب خلال القرن الأخير من عمر الامبراطورية الاسلامية ، (لا من عمر السلطان عبد الحميد) ، قد حقق تقدماً ، لايقل عن ثلاثة قرون بين الثورة الصناعية الهائلة ، وثورة أتاتورك الاصلاحية ، فإذا كان فارق التطور بين المركز الامبراطوري وأعدائه الغربيين يشكل هذا المدى ، فكيف تكون المفارقة إذن عندما تتم المقارنة بين الغرب وأطراف الامبراطورية على التخوم ؟ . .

ما وصل إليه الواقع العربي ، لا يرتبط ذيلاً بانحطاط الامبراطورية ، وإلا لماذا بقينا الأدنى في مقاربة (عثماني – عربي) عندما كانت القسطنطينية تعيش ذروة عزها وأمجادها من قبل ؟ .

ومثلما الخارج هو المسؤول عن تعسنا ونكسنا ، فإن بمقدوره أن يكون المسؤول أيضاً ، عن إزالة الغمّة عنا ، وذلك كأن يأخذنا من أيدينا للخروج من النفق المظلم ؟ . .

وعلى شاكلة هذا الرهان ، فقد قبلنا الوعود لاسترداد أنفسنا على جناح الخارج الغربي ، حين أُطلقت الرصاصات الأولى ، فاستفاقت مكة تستطلع الخبر .

كان عنوان المشروع ، دون تسلسل ، دولة واحدة لأمة واحدة ، ولم يكن قد أدركنا بعد ، أن الفارق بين الدولة الواحدة ودول الانتشار المبعثرة ، لا يكمن في رصاصة أطلقت بيد عربية ، بل في الرصاصة التي أطلقت بيد مخترعها الأول ، وكان ذلك يساوي بالتمام والكمال ، ثلاثة قرون أيضاً ! . .

بالطبع سيخفق المشروع - لا لشيء ، وإنما ببساطة ، لأنه لم يكن ذاتي الدفع ، بل ذاتي الاندفاع ، وهو ما يمثل فرق الزمن أيضاً ، فقد ظلت ثورتنا العربية الكبرى ، منذ ارهاصاتها الأولى وتحديد صِغَرها وابتدائها ، مع أخلص النوايا ، محمولة على أكتاف الخارج ، ثم ظنّت أنها ستظل محمولة هكذا ، حتى هدفها الأخير ، وحين تراءى ، بتخطيط الخارج وقوته ، أن ثمة انحرافاً عن الهدف ، عجزت قوة الدفع الذاتية ، عن تصحيح الانحراف وتقويم اعوجاجه . .

حين قدّم المستشارون العسكريون الغربيون ، خلاصة قرارهم بخصوص إنشاء جيش عربي مستقل ومنظم ، فإن زبدة القرار كانت تقول (إن العرب بحكم طراز حياتهم القبلي ، لا يصلحون لأكثر من حرب الإغارات) . وامتَنَّ العرب لتعبير الإغارة ، الذي يعني ضرباً من ضروب الشجاعة والإقدام . .

لم يكن عدم الإنتباه ، هو علّة الثورة الأولى ، حيث لا يمكن تفسير التاريخ بعلل الغفلة دائماً ، بل والتغافل أحياناً ، فعندما نبش جمال باشا السفاح أوراق القنصلية الفرنسية التي كان يترأسها بيكو في بيروت ، عثر على أسماء عربية بدا أنها تتعاون مع فرنسا تعاوناً لا يعرف الخطّ بين الحليف والوكيل ، كما لم تتنبه القيادة لاحقاً ، كيف تقيم الفارق (في سرّها على الأقل) بين مَنْ يعمل لداخله ومن يعمل لخارج غيره في زمن حاسم .

عندما نشر لينين فضائح القسمة الدولية ، معرضاً بسمعة السمسارين سايكس وبيكو حتى الحضيض ، تناهى إلى أسماع العالم خطورة ما يجري ، وحين اكتفينا بوقر أسماعنا على رد مهذب من لدن الخارجية البريطانية * ، أقرّ الغرب بجهلنا وجهالتنا ، ثم أودع الحالة السرية للعرب ، في ردهات خارجياته وختم عليها . .

كا ن نصيبنا من دمائنا في الثورة العربية ، وثيقتين دامغتين :

- وعد بلفور . وسايكس بيكو .

---

* تعتذر الرسالة البريطانية الموجهة إلى الشريف حسين فتقول عن مؤامرة القسمة (إنما هي مجرد مناظرات تتعلق بأحوال العالم بعد الحرب ، وبمقدوركم سيدي ، أن تعتبروا هذه المناظرات بحكم الميت الآن) .

ولما أردنا أن نستيقظ ، وهو استيقاظ دون رباط الخيل مع ذلك ، كان قطار الغرب السريع ، يحمل الناس إلى المنافي في سيشل ومالطة وصقلية ورودس . .

في مرحلة أعلى من الطريق إلى هنا ، صارت سايكس بيكو واقعاً يُدافع عنه بالظفر والناب ، صارت دولة ثم صارت سيادة لا يجوز لكائن من كان أن يتدخل في شؤونها الداخلية . .

لقد ظهرت دول سايكس- بيكو العربية ، وفرح (المؤمنون) باقتراب دولة أكبر ، وحين بدت (فظاظة مطاليب) الدولة الأكبر ، تراجع (المؤمنون) عن فرحهم ، واستكانوا لقوانين القدر المقدور ، وهكذا ظهرت الدويلة الإقليمية العربية ، كحقيقة غير قابلة للتجاوز . .

في حرب فلسطين العربية ضد إسرائيل ، سيحمل هذا الواقع (القطري) نفسه مع مهارشاته إلى ميادين القتال ، وجميلٌ أن ترى أمة تقاتل بعضها وعدوها بآن واحد ! . .

كان الأردن يحارب بقيادة إنكليزية تحت وهم من بقية حلم اسمه سوريا الكبرى ، حيث ستبدأ هذه السوريا الكبرى ، من منطقة وسط فلسطين ، أي ما سُمي بالضفة الغربية، وكان الملك عبد الله يرى في حتمية الحقائق الصادرة عن العمالقة الكبار ، ما يشير إلى أن نتائج الحرب في فلسطين ، مسقوفة بسقف عالمي لا يمكن اختراقه . . . وكان العراق يخوض حربه الخاصة في فلسطين من منظور دوره المؤمل في هلال خصيب أو غير خصيب ، وكانت سوريا تدفع بجيش استقلالها الغض ، مدفوعة بشعارات كبيرة مع قدرات أقل ، إلى ساحة التاريخ في اليرموك والقادسية ، دون الانتباه إلى موت خالد وسعد منذ زمن بعيد ، وبدلاً من أن ترجع ببشارات اليرموك ، أو القادسية ، رجعت بخيبات كريات شمونة وسمخ ، فيما سيعلن أحد الخائبين نفسه ، بأنه هو خالد المنتظر بعد خيانات الساسة المدنيين ! . . .

كانت مصر تحارب بعزّتها المصرية - الاسلامية مثقلة بهاجس الخلافة بعد العثمانيين ، مكدودة بحزب وفدها خصيم الملك أو الخليفة المقبل . . .

وكان الفلسطينيون يحاربون حربهم الواهمة الأخيرة ، بانتظار تدفق الجيوش ، بعد أن بلغ العناء مبلغه ، منذ أيام الثورة الكبرى عام ١٩٣٦ قبلها وبعدها أيضاً . .

وانتظرت فلسطين ، لا لتجد جيوشاً محاربة ، بل مختصمة ، حيث ستة جيوش بست قيادات متنافرة ، لا تعرف متى تحارب وأين تقف . . . **ولأول مرة في التاريخ ، تصرع الأهداف الخاصة ، مصير أمة بحالها ، ويكفي أن نستذكر شوارد القيادات العليا آنذاك ، لنعرف أو نتعرف على عمق الكارثة التي آلت إليها نتائج حروب شخصية بهذا القدر ! . .**

غير أن القطيعة العربية بحكم قسمات سايكس - بيكو على الخريطة العربية - لم تكن قد استكملت دورتها بعد ، كذا لتجد المقاتل الفلسطيني (عبد القادر الحسيني) والمكافح السوري (أكرم الحوراني)* والمحارب اللبناني (فوزي القاوقجي) والقومي العربي (ساطع الحصري) والقانوني المصري (السنهوري وعزام ومبارك) جنباً إلى جنب ، في ثورة العراق وحرب فلسطين دون تمييز . . .

وكان يعني هذا ، أن القطيعة فوقية ، وأن الخصومات متعلقة بالمُلك العضوض ، وأن الدّرة اليتيمة تقع في فلسفة مَنْ يحكم . . . وأن هذا لم يكن متصالحاً مع الأحلام المتواضعة ، لشعب لا يبتغي سوى استرداد نفسه ودولته . .

كانت قيادة فلسطين العسكرية ، تحارب بنفسها ولنفسها ، وكانت المآرب ما وراء فلسطين هي الأساس ، وحتى لو كانت فلسطين هي المأرب الواحد والوحيد ، فإن قوة الدفع الذاتية لستة جيوش ، كانت أقل من الاعتراض على مهمة جيش واحد ، علماً بأن الفارق سيزداد بوناً فيما بعد . . .

فقدرة الجيوش الستة ، كانت شبه متكافئة مع قدرة الجيش الاسرائيلي الواحد ، وكان بمقدورها في حالة تنسيق حقيقية ، أن تلحق الهزيمة بجيش بن غوريون في العديد من المواقع ، إلا أن التنسيق ليس بالكلمة القليلة حين يتصل الأمر خاصة بوضع جيوش محاربة ، لذلك نجد نابليون مثلاً يقول : (إن جندياً مملوكياً واحداً ، يستطيع إلحاق الهزيمة

---

* با لاستئذان من العماد طلاس وزير الدفاع السوري .

بثلاثة جنود فرنسيين ، لكن كتيبة فرنسية واحدة ، تستطيع الحاق الهزيمة ، بالجيش المملوكي كله) .

ثم جاء عصر الانقلابات والحركات والشركات ، ليعلن عن مسرحية باسم فلسطين ، وحمل العسكريون أفكارهم ، عن الدّلس والعَسَسْ التي عاشتها العروبة في مخادع الرجعيين من أنصار الغرب المخادع ممن كالوا للقضية المقدسة ، دون وازع من ضمير . . غير أن الانقلاب الأول في سوريا ، جاء مع عربة اسمها الرغبة ، وكانت الرغبة هي نفسها ، شركة أرامكو ، حيث أرادت لخطّها النفطي عبر سوريا أن يصل إلى مياه المتوسط .

كان النفط يومها ، قد أطلّ برأسه من منطقة القرون الغافية مع أهل الكهف ، وكانت الحياة التي تستمر ، تشق طريقها عبر سراب الصحراء ، باحثة عن مواطن الكلأ والمرعى لقطعان هزيلة ، فيما أهل الشطآن يغنون (للدانا) وما يتيح الحظ العاثر لاستخراج ما في بطون البحار من لآلي وأسماك . . وكانت الثروة شيئاً من حكايات بغداد الخرافية ، أما من الناحية الواقعية فإن الحصول عليها (أي الثروة) يستلزم تأهباً لغزو قبيلة أخرى ، وفي دائرة أعلى ، فإن قبائل نجد ستغزو قبائل الحجاز ، وما بين الهاشمية الموروثة ، والسعودية المنحولة ، ستشهد شبه الجزيرة العربية صراعاً ذا خاتمة تراجيدية . .

(سأبني دولة عند كل بئر نفط أكتشفه في المنطقة) هذا ما قاله السير وينستون تشرشل لأصدقائه ، وبالفعل فإن شارعاً هو ما يفصل بين الدويلة والأخرى في الخليج ، فقد صارت آبار النفط دولاً ، ثم صار للدولة قانون سيادة وجيش ورأس ، ولما فهمت الدويلات طريقة توليدها ، فإنها آثرت الإنضواء تحت جناح (مولّدها) ليظل المولّد راعياً حتى يومنا هذا . .

قبل آلاف السنين ، كتب أحد الكهنة على شاهدة قبر دانيال النبي بالقرب من كركوك :

(ستشهدين يا أرض الرافدين ، انبجاس النار حتى قيام الساعة) . ولم يكن دانيال يعلم يومها ، أن تحت أرض الرافدين إلى الجنوب ، سيكون موطن النار الأول ، وأن النار

جاءت للنور لا للعذاب .

وفي المحصلة فإن زعيم الانقلاب الأول في سوريا ، كان قد ظهر نتيجة لرهان النفط في المنطقة . وهكذا ظل الزعيم طوال أيامه الثلاثين بعد المئة ، يصرخ في واد غير واديه ، إلى أن استفاق ذات ليلة مبهوراً على صراخ آخر (اخرج يا حانث العهد فقد أزفت ساعة العقاب) ، وبالفعل فقد كان قائد سرية الاقتحام إلى غرفة نومه ، أحد الضباط من السوريين القوميين فبصق في وجهه ، وكال له بمكيال يساوي تسليم سعادة في ليلة غدر شائنة (ومثلما تكيلون يُكال لكم وأزود . . السيد المسيح) .

ثم كانت قيادة الانقلاب الثاني باسم الحناوي ، الذي رقص ذات ليلة أمام الزعيم المخمور ، بمكيال اغتيال الديموقراطيات السياسية ، وأعقب ذلك اتهام آخر : أنه وقف ضد وحدة الشعبين في سوريا والعراق .

لقد استحق شنآن الزعيم على ماورد ولم يرد ، اعداماً عاجلاً في مقبرة مجهولة بالقرب من العاصمة دمشق .

ما بين التحرير والوحدة والديموقراطية ، وأهداف معسولة أخرى ، سيطول الخطاب العربي على ألسنة المنقذين واحداً بعد الآخر ، فيما ستشهد السجون أو المنافي نهايات محتمة للمنقذين في مراحل لاحقة ، وقد صادف أن شهدت المنطقة عصراً في عصرين : ثورة تموز في القاهرة وانقلاب الشيشكلي في دمشق .

لقد تحصّن القادمون الجدد ، خلف سافر الأخطاء التي وقعت فيها الأنظمة المسؤولة عن ضياع فلسطين ، أو خلف خطايا المحرومين من الحياة ، أولئك الذين أكلهم الفقر والمرض والأمية . . غير أن الخطيئة التي ما كانت لتغتفر . . فهي تلك التي أسقطت وحدة الأمة من قاموسها ، حيث استبد الوضع القطري على حالة لا تتغير .

سيأتي الخطاب القومي الذي بدا معتمداً ، والمعبر عن روح الأمة في تاريخها ، ورسالتها الخالدة ، ليستقر في أفئدة الحيارى من الباحثين عن الطريق ، ففلسطين في جملة التخلف ، سبب ونتيجة للتجزئة ، وان استردادها يتوقف على وحدة العرب . وأن

الوحدة قدر الأمة المحتوم ولا طريق آخر .

ستأخذ الوحدة السورية - المصرية ، بعد طول عناء في سوريا ، وتردد أقل في مصر ، موقعها المؤمل في مركز التحرير المنشود . .

لعل العرب ، بالرغم من سفينة ترحالهم الصحراوية ، وما اندرج على تسمية الجمَل بالملك الصبور ، هم أقل الشعوب صبراً في العالم ، فقد توهموا أن الوحدة تصير ، بمجرد التوقيع على ميثاقها ، كما تصوّروا أيضاً في عملية حسابية ساذجة ، أن مجموع سوريا ومصر على ورق المراسيم ، يستطيع الحاق هزيمة فورية باسرائيل ، أو لعلّه يستطيع أن يقلب الأسود إلى أبيض في ليلة من ليالي الشعر الحالمة . . **ثم كانت أخطاء صادرة عن قلة التجربة ، وبصورة أدق ، عن سيكلوجية إقامة مديدة في حضن التجزئة (الإقليمية) والتخلف (التوغل بعيداً عن العصر) لدهور .**

جابهت الوحدة بعمرها الذي لم يبلغ سن الفطام ، أول تحدياتها في فتنة نائمة ، على يد صائد الغزلان والإنسان ، الرئيس كميل شمعون ، فقد تحدث الأشقر الوسيم ، على الطريقة الأوروبية ، عن خطر داهم اسمه عبد الناصر ، ثم طفق يرسل مشروعه الخيري لصالح لبنان إلى ما وراء دستوره ، وكانت دولة الوحدة بالطبع ، تنتظر انتهاء ولايته بفارغ الصبر ، فلما بدا أنه سيعيدها ثانية بتعديل الدستور ، خرج لبنان من فتنته النائمة ، إلى فتنته القائمة ، وهكذا أقحمت دولة الوحدة في حرب ليست حربها ، وكان من الطبيعي أن تنتبه الوحدة لما يجري حولها وبجوارها ، لأن تاريخ الغفلة أو التغافل ، كان قد أوعرنا منذ حين . .

كانت الولايات المتحدة الأمريكية ، على غير ود مع منتجات الاستعمارين الفرنسي والإنكليزي في منطقة النفط ذات الحساسية البالغة ، وقد ارتأت أمريكا آنذاك ، عكس حلفائها بالطبع ، أن مشروعاً لوضع اليد مع القادمين الجدد ، هو أفضل بما لا يقاس ، من الاستمرار في معاكسة رياح التغيير في المنطقة ، وكان شمعون بالنسبة إلى أمريكا ، صنيعة أوروبية ، وهكذا كان عليه أن يخلي الساحة ، ولطالما سنجد أن لبنان تعرّض في تاريخه

المتهارش ، إلى مثل هذه المعادلة ، حتى إلى يومنا هذا ، فقد ظل لبنان فرق عملة بين الدولار والفرنك الفرنسي أحياناً ، أو بين الدولار والجنيه الاسترليني بصورة أقل ، وربما في أواخر عهده ، بين الدولار والشيكل الاسرائيلي أيضاً . . وكان مفهوماً أن لبنان لا يمثل قطب الرحى في الصراع الكبير في المنطقة ، بل الرحى نفسها ، حيث يُصب الماء في فيها كلما التهبت عوامل المنطقة ، بحيث لا تخرج عن السيطرة أبداً . سيشهد لبنان في مرحلة لاحقة ، فترة رئاسية ستنطبع باسمه ، وذلك حين رد الجنرال شهاب ، الرئيس المنتخب الجديد ، لبنان إلى وعيه الجغرافي المقدور ، حيث مثّل ذلك عن جدارة ، استشرافاً للمستقبل كان قبل زمانه وفي مكانه . .

سيعود الكتاب في فصول لاحقة ، للولوج في قلب الوحدة المحكومة (أصبحت محكومة) بمزيج غير متحد ، من بساطة المشير ودهاء السرّاج ، ثم لتستيقظ سوريا الأحزاب ، على نشيج الاتحاد القومي (حزب مصر الوحيد آنذاك) ، فتجد أن الفاعل أصبح مفعولاً ، وأن المفعول أصبح فاعلاً ، وأن سدنة الاتحاد الجدد ، هم أنفسهم مَنْ غمزوا بقناة الوحدة من قبل . .

لا يعرف مركز القاهرة المركزي في كل شيء ، تعقيدات الخارطة السياسية السورية ، إلا عن طريق ذي اتجاه واحد ، سفارة مصر في دمشق ، ثم رجال الاستخبارات من العسكريين الذين كانوا في مناصب قيادية داخل ما سُمي بالاتحاد العسكري بين مصر وسوريا من قبل . . ثم أدرك جمال عبد الناصر في مرحلة لاحقة ، أن واحدة من أخطائه الجسيمة ، هو السماع لمثل هذه التقارير والاستسلام لها دون النظر في حقائق أخرى . . ولم يكن ذلك عيب عبد الناصر ، بل عيوب نصف العالم من موسكو إلى أديس أبابا . .

ثم جاءت أزمة النهرفي بلد نهري ، فأنشبت خصومة التحويل أظفارها ، بين منطقين ورجلين :

فعبد الناصر ابن مصر بتاريخ سلالاتها ، المقيمة منذ الأزل ، على جانبي نيلها ونخيلها ، الحائزة على عبقرية المكان والزمان ، كان ينظر إلى القناة من العريش ، ثم إلى

فساد عابدين من الفالوجة ، ومع الرصاصة الاسرائيلية التي تلقاها القرآن في صدره ، ليعيش بعدها ، فقد أيقن أن في الاسلام مخرجاً ، وبعد إمعان في النظر أو النظرية ، فقد عثر على دوائره الثلاث : العروبة والاسلام وأفريقيا ، وبذلك صنع مزيجاً مركباً من الجوار والذهب والجغرافيا . . أما اسرائيل فقد تم النظر إليها (حتى عام ١٩٥٥ حين هاجمت اسرائيل كامل قطاع غزة فقتلت المئات من المصريين والفلسطينيين) ، على أنها حالة شريرة من بعيد ، إذ لم تكن بنداً مباشراً على جدول أعمال الثورة المصرية ذات السعة التاريخية والاجتماعية المعقدة . .

كان الإنكليز في القناة . . ثم كان فساد القصر . . والأحزاب . أما رجل الطباق الآخر ، فكان نائبه السيد أكرم الحوراني ، حين بدا كقطب معارض لسياسة الموقف من تحويل الأردن . .

كان أكرم الحوراني ابن المحيط السوري ، بل من قلبه ، ينظر إلى فلسطين من بغداد عالي الكيلاني ، ثم من ملحمة القلعة الحموية ، حين تصدى مع لفيف من شباب السوري القومي للحراس الفرنسيين فأجلوهم عنها ، وكان يجد في ضياع يافا سبباً في الظلم الإجتماعي القائم في دنيا العرب ، وقد تمثله أمامه (حيّة تسعى) في المنطقة الوسطى من سوريا .

سمعته ذات مرة يقول : (الجندي الجائع يابني ، لايقاتل) ، وقد استلهم درسه القاسي ، من بطاح صفد حيث كان يقاتل هناك . .

بين النظر من الفالوجة إلى عابدين ، والنظر من البرلمان السوري إلى حيفا ، بدت خطوط سياسة متوازية لا تلتقي ، فعبد الناصر كان يرى مركز المشكلة في عابدين (والأحزاب) ، فيما رآها الحوراني في قصر آغودات اسرائيل ، أو في تل أبيب نفسها ، وما بين اصلاح الداخل والانتظار مع تجاهل اسرائيل موقتاً ، وما بين الانتقال بما نملك لمواجهة اسرائيل ، نشبت أزمة تحويل نهر الأردن بين عبد الناصر ونائبه ممثل الحزب الذي سبق حلّه . .

كان عبد الناصر يجد الخسارة الساطعة ، جراء مواجهة غير متكافئة نسبياً مع اسرائيل ، والإحجام بحد ذاته ، كان يعني شيئاً من التغاضي عن تحويل النهر ، وسيقول السادات لأكرم الحوراني وقتها (إيه يا أكرم، إنت عايز تشقلب الدنيا ، علشان شوية ميّه)! . . وكان الحوراني يجد الخسارة المحتمة في تحويل النهر لا في عديد القتلى أو الجرحى ، حتى مع كل النتائج التي ستنطوي عليها معركة غير متكافئة ، وقد وجد لنفسه تبريراً ، أن القوة العملاقة لحلفائنا في المنظومة الشيوعية ، مع تسعير الحرب ، لن تقف مكتوفة اليدين ، ومثلما ربح عبد الناصر قناته بفعل صراع الدول العظمى ، يمكن للعرب إذا صبروا على القتال ، أن يربحوا نهرهم فلا يضيع إلى الأبد . .

والمحصلة ، أن أكرم الحوراني كان فلسطينياً من عرب سوريا ، وأن عبد الناصر كان مصرياً من إسلام فلسطين ، وكان للمرحلة الغضة من التعارف والاعتراف ، أن ألقت بكلكلها في توسيع شقة الخلاف والاختلاف ، بين طالب المدرسة النيابية في سوريا ، ومحاضر الأركان في القوات المسلحة في مصر . .

لم يكن الإنفصال بين سوريا ومصر ، ضربة من ضربات معلم داخلي ، حتى ولو أراد بعض المعلمين الوطنيين (الحوراني والعظم مثلاً) ، إلقاء التبعة على ما ملأ كيان الوحدة من أخطاء مقصودة أو غير مقصودة ، فالإنفصال من حيث الجوهر ، كان برهاناً على فرضية النشاز الوحدوية لدى العرب ، واسترداد الوعي التفككي مهمة مزدوجة ، داخلية اجتماعية ، وخارجية استعمارية بآن معاً ، وليس من المحتم أن يتطابق ازدواج المهمة في زمان ومكان بآن واحد ، **فالإقليمية العربية بحد ذاتها ، ودون حاجة للتدخل الخارجي أحياناً ، هي المكافئ التاريخي لحياة قبلية تعرف جيداً ، وجهة غزوها ، وحدود كلئها ومراعيها وموطن المياه في ربوعها** . . وقد بدا أن الإسلام يريد إخراج العرب من دائرة القبيلة إلى الدائرة الأوسع في القبائل ، وهكذا ليصبح الفتى أسامة بن زيد ، قائداً على كل الوجاهات القبلية عبر التاريخ الجاهلي بأسره ، وقد امتعض حتى كبار المسلمين من أصحاب الحنين إلى العزّة الأولى ، من إجراء صادر عن الرسول نفسه ، **ولما كان**

الاسلام دين تهذيب وأدب ، فقد صمت الجميع أمام واقعة لا سبيل إلى تفسيرها . .

بوفاة الرسول ، عادت الجيوش الاسلامية ، تقاتل في كراديس ارتفعت فوقها أعلام القبائل المقاتلة من جديد ، وبرهن الاسلام بذلك على ظرفية نجاحه في توحيد القبائل . فلما غاب نبيُّه الكريم ، عادت القبائل إلى سيرتها الأولى ، وعاد الانتفاخ يظهر من جديد . .

لم يشكل الاسلام في تاريخ فتوحاته الغابرة ، دولة مركزية على الاطلاق ، فمفهوم الخلافة لا يتصالح مع مفهوم الدولة ، والخليفة بحد ذاته إمام المسلمين في دينهم ودنياهم ، وهو يتوجه إلى مركز قد يبعد آلاف الكيلومترات في صلواته ، وهكذا مثلما ظلت مكة قبلة المسلمين ، كان الخليفة رمزاً لوفاقهم وطاعتهم ، ولم يكن الاسلام بحاجة إلى المركزية لادارة شؤونه في الأمصار ، إذ يكفي نداء من ابن الخطاب ، أو صرخة من المعتصم ، حتى يتأهب الجميع لمنازلة الموت دون حساب ، أما اللامركزية الخلافية ، فكانت حالة العرب حتى في مجد دولهم العظمى ، في دمشق وبغداد والقاهرة . .

والخلاصة أن الانفصال كان شاهداً في محكمة العالم ، على عوراتنا ، فالشعب الذي قام على الانتظار آلاف السنين ، في صراع مع نفسه وغيره ، من أجل قيام الوحدة ، فوجئ أنه فقدها في ليلة شؤم واحدة ، وفي ظل سياسة الثدجين القائمة على الإنابة ، فقد بدا أن الشعب على غير وصال مع الأحداث ، فما وقع قد وقع ، ولا راد له غير المدفع بمواجهة المدفع ، وأن شعباً يُزال عنه يقينه ، لا يستطيع المبادرة إلى مجابهة السلاح ، ولا يعني ذلك أن الشعب ظل متفرجاً ، بمقدار ما كان متألماً ، وحين لمح منفرجاً لآلامه ، خرج إلى الشوارع ، وظل يتظاهر طوال سنة وثلاثة أشهر ، وهي عمر الانفصال نفسه . . إلا أن الانفصال العربي بعده ، ظل ساكناً في كل حركة من حركات أنفاسنا وتنفسنا حتى يومنا هذا . .

لقد شهدت المنطقة بعد الإنفصال ، غرائب من الأطوار ، مما ساهم فعلياً في وصولنا إلى هنا ، **فالصراع الدامي بين القوميين والشيوعيين في العراق ، ثم الصراع الآخر بين**

القـوميين والقـوميين في سوريا (بعثي - ناصري) ، ثم عاد هاجس (الدور الأول) في إقليمية بائسة ، أو حزبية متفاخرة ، يشد أزر نفسه ، بين العراق وسوريا ، (٨ شباط و٨ آذار) ، وحصل ذلك بعد أن وصلت المباحثات المصرية - السورية - العراقية ، إلى أجلها المحتوم . .

هذا وسيكون اليمن ، الذي أوعر الامبراطورية العثمانية ، بجباله ووديانه ، بسهوله ومخاطر انزلاقاته حيث قبلية القرون الأولى ، هو محطة العرب الإضافية ، للوصول إلى كارثتهم العظمى في حزيران .

كان عبد الناصر يرى في الجنوب رداً على ما جرى في الشمال ، فطفق يخصف من ورق عدن ، وكانت السعودية التي غرقت حتى الثمالة في غياهب القرون ، مع دهاليز السياسة الأمريكية ، تجد في شيوعية الثورة المصرية ! . . مالا يبشر بخير . وكانت الشيوعية تهمة لصيقة بكل مَنْ يرفض الغرب ، ثم تحول القلق إلى فزع مصطنع وعداء حقيقي ، **وقد غلى الماء في قدر الملك ، حين اقترب جيش القاهرة ، معيداً إلى الأذهان ذكريات محمد علي في الدرعية الوهابية ، وكان اليمن الذي يعيش حجرية عصره ، بحاجة إلى السند والنصير** ، إذ كل ما حوله ، مصمم على استرداد عرش ابن حميد الطوسي ، وقد رأى اليمن الجديد ، أحلامه في قاهرة عبد الناصر ، فطلب غوثها وأجيب إلى الطلب الحق .

لم تفهم الولايات المتحدة ، الرسالة المصرية بمحدودية هدفها في اليمن ، أو لعلّها تذرعت بعدم الفهم ، فقد تم انجاز خطة لاصطياد الفهد الافريقي سواءً أكان اليمن أم لم يكن ، وعلى يد الأخوين دالس ، وساقي السيدة التي لا أخت لها (ماتيلدا كريم) راح العشيق التكساسي الهائم ، أمام العيون الناعسة ليهودية نصف شرقية ونصف غربية ، يشهر مسدساته بمناسبة وغير مناسبة . والحقيقة أن الرجل الطاعن وقع في هوى الحسناء التي كانت قد سدت عليه أفقه وآفاقه ، وبالنسبة إلى أمريكا ، فقد تناولت تقارير الـ C.I.A والـF.B.I ، قصة غرام محرم ، بين الرئيس جونسون واليهودية كريم .

وعلى طريقة التكساسي ذي القبعة التي تحجب العقل ، فقد أرسل جونسون كرمى لعيون ماتيلدا ، واللوبي الصهيوني ، طائرات مراقبة إلي الحدود اليمنية - السعودية ، حيث تم تأجيج السعار القائل بغزو السعودية ، وكما العراق أراد غزو السعودية من الكويت ، فقد أظهرت صور الطائرات الأمريكية (ربما من الكونغو ، أو من معركة واترلو . . مَنْ يدري ! . .) أن عبد الناصر يستعد لاقتحام السعودية من اليمن . .

ما بين غنج ماتيلدا ، ومتطلبات اللوبي الصهيوني والحاحات السعودية من جهة ، وما بين تقديرات واهمة ، بنقل التاريخ من عام السويس (١٩٥٦) إلى عام حزيران (١٩٦٧) من جهة أخرى ، أكل العرب ما تبقى لهم من كرامة في حزيران .

لقد تذكر الملك فيصل لتوّه ، مآسي أخيه الملك سعود الذي انجر إلى اللجوء للقاهرة ، ثم تذكر عصيانات عسكرية وقبلية هنا وهناك ، وها هو اليمن الذي يمكن أن يأتي على طريق نجران وجيزان ، يلوح في الأفق ، وأن مملكة السيف الوهابية - السعودية ، مهددة اليوم بأكثر مما لاحت جيوش طوسون في نجد ، وأن امتشاق السيف هو الخيار الوحيد في تاريخ القبائل . .

ثم رسم الأمريكيون بأقلام خرائطهم وسلاح اسرائيل وايماءات السعودية ، حدود المواجهة المرتقبة ، وكانت العناوين : **احتلال سيناء ، واسقاط عبد الناصر ، ثم اجتياح الضفة الغربية ، إذا ما بدر من عمّان ، ما يبيح ذلك . .**

هذه التحديدات النظرية الأمريكية ، ليس لها ما يقابلها في قاموس الحرب الإسرائيلية ، فالحرب هي الحرب ، فإذا ما قُدّر لها أن تقع ، فإن الله وحده ، هو الذي يعلم في أي مكان ستضع أوزارها . . ثم كانت مشكلة سفينة المراقبة ليبرتي ، التي أرادت أن تحل محل الله في المعرفة ، فأقدمت اسرائيل على إغراقها دون أسف . .

ستة أيام لاسرائيل . . وخمسة عقود على العرب حتى الآن . .

كانت حزيران قاصمة الظهر العربي ، مدعاة لكل ما هو جنوني ويائس في دنيا العرب ، فقد أقدم عبد الناصر على تقديم استقالته ، واعتبر نفسه أنه المسؤول الأول

والأخير ، ثم بدأ البرهان لدى عوالم عربية أخرى ، يشق طريقه تأكيداً على عقم فرضية القومية العربية ، وقد دعت هزيمة حزيران إلى نبش كل ما هو سلبي في حياة العرب وتاريخهم الأول ، غير أن شيئاً واحداً لم تزعم حزيران أنها أتت عليه ، هو انتقال الأمة إلى جوار ربها ، وكالمجنون الخارج من تحت السياط ، انطلقت جماهير مصر كلها . طوال ليلتين باكيتين ، ومنعت عبد الناصر من الخروج مهزوماً ، فقد تم الإدراك بالعمق ، أن هزيمته هو ، كانت تعني هزيمة العرب والمسلمين بآن واحد .

وفهم عبد الناصر الرسالة التي صاغتها اسرائيل ، ووقعتها الولايات المتحدة ، وشهد عليها فيصل الملك . .

كانت العداوات بين ملوك القبائل أو الطوائف ، بطابعها الثأري التاريخي . تجرف أمامها كل مصير ووطن ، فالأنا الفردية غالباً ما تربعت فوق الوطن والمواطن ، فوق الشعب ومؤسساته ، فوق دستوره وقوانينه ، فوق أغنيائه وفقرائه ، بل حتى فوق قبائله وطوائفه . . وفي الظاهر ، فإن هذه (الأنا) ، كانت تتسامح مع شيء واحد ، وهي أنها تحت الله وحده . . فقط . وكانت الأحزاب تجري في مستقر عقائدي لها ، لاتحيد عنه ولاتميد ، ويبدو أن الإمام الشافعي نفسه ، كان أكثر تطوراً من أحزابنا المعاصرة حين قال (مذهبنا صواب قد يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا بنظرنا خطأ قد يحتمل الصواب ، فإذا ما أثبت الغير قوة صوابه في وجه صوابنا فرجح عليه ، ماشيناه وانضممنا إليه) . .

كان الشيوعيون في افتنان دائم بوثنية الايدولوجيا التي وضعها الجيورجي الراسب في امتحان القوميات أمام الفكر الثوريّ الذي استمده لينين من ماركس ، ثم كان الجورجي الراسب في امتحانات الكلية الحربية ، قد وضع عينه على انتصارات جوكوف في الحرب العظمى ، فأدى ذلك إلى تنصيبه قيصر الشيوعية الجديد بلا منازع ، وكان عناد ستالين في تحدي التاريخ لامثيل له ، فقد نجح في تأسيس اتحاد عملاق يضم فيما يضم ، شعوباً من المرحلة البدائية أو الرعوية ، إلى شعوب سبق لها أن دخلت عالم الاكتشاف والصناعة . .

لقد انتصرت عملية ليّ عنق التاريخ ، أو هكذا بدت ، حين وفّى ستالين باستكمال

سياسة معلمه التاريخي ، وهكذا ليتم حرق مراحل التاريخ ، فبرهن ستالين أن التاريخ في يد إرادة الإنسان ، تماماً مثل ما هو في يد موضوعيته المستقلة . .

لقد اجتمعت في الرأس ، حامل الشارب الأكبر في الاتحاد السوفييتي ، ثلاث سياسات تم ارساءها على محور سوڤييتي واحد :

العملية الأمريكية كسياسة تطوير ، والجلافة الروسية كسياسة حياة ، ثم النظرية الماركسية ، كرافعة تحول تاريخية . . وحسب إعجاب أولي بالدهاء البريطاني ، فقد صار الجيورجي شريكاً في يالطا . .

كان الشيوعيون هنا ، مأخوذين بما يجري هناك ، وكانت الثورة العالمية التي تتصل بجياع العالم ، قد جعلت من موسكو قبلة لها ، وحسب دكتاتورية البروليتاريا ، التي هي ديمقراطية أوسع طبقات الشعب ، فإن الرأي الآخر ، صار محل شقاق ونزاع ، ثم في مرحلةمتوترة لاحقة ، صار محل سجون ودماء ، ففي العراق سحل الشيوعيون (سياسة السحل الجديد هذه ! . .) ، (أوغاد) الشوفينية القومية من زبانية طبقات الاقطاع والرأسمالية ! . . وشهدت ساحات وأزقة بغداد والبصرة والموصل ، حمامات دماء مسفوحة دون أسف ،وفي سوريا ، قبل العراق ، اصطدام القوميون مع الشيوعيين ، إثر اعتراف السوڤييت باسرائيل ، وكانت الحكمة تقع على فارق التطور بين العرب واسرائيل ، وبالإضافة إلى رفض بريطانيا ، دولة واحدة غير مقسمة ، ديمقراطية وعلمانية بين العرب واليهود في فلسطين ، فإن الاتحاد السوڤييتي ، الذي بدأ يجيد اللعبة الدولية ، كان يرى في زرع اسرائيل ، وحسب منظور الحتمية التاريخية ، ما من شأنه تحريك مياه المستنقع (التاريخي والاجتماعي) الراكد في المنطقة الاستراتيجيه . . وهكذا كان . . .

في مصر حيث بلغ التعداد ثلاثين مليوناً من البشر ، كان ثلاثة آلاف شيوعي من حدتو(حركة التحرير الوطني الديمقراطي الشيوعية) ، يتحدثون بلغة (أو يرطنون حسب الشيخ حسن البنا) ، غريبة على إسلامية مصر وقبطيّتها بآن واحد ، وفي تقرير لاحق لوزارة الداخلية المصرية على مسؤوليتها أثناء حكم الملك ، سيعلن أن نصف الشيوعيين في

مصر من الجالية اليهودية ، وأن النصف الآخر يتقاسم نفسه ، بين أصول يونانية وأرمنية وعربية . . .

وللإنصاف ، فقد بدا الشيوعيون ربما بحكم أساسهم العربي ، يذهبون إلى ماركس بأكثر من ذهابهم إلى الماركسية ، وإلى لينين بأكثر من اللينينية ، أما ستالين فهو قطب الرحى الذي سعى لذلك وامتلكه . .

كان الانتقال من جماعية الحزب إلى قيادة اللجنة المركزية ثم إلى مركزية المكتب السياسي وشخص القائد فيه ، ما يعيد إلى الأذهان ذكريات شيخ القبيلة عندنا ، ولما كانت القبائل غير ذات وجود في عوالم أوروبا ، فقد دُعي إلى عبادة الفرد بدلاً من ذلك .

لم تكن المنطقة حسب أنماط انتاجها ، بصدد ثورة صناعية ولا زراعية ، كي يتم الحديث عن بروليتاريا قادمة على الطريق . . فالمنطقة احتفظت بتاريخ أسلافها ، حسب اسلوب التطور الشرقي (مصر بشكل خاص) دون تعديل يذكر ، فكل ما في المنطقة كان اقطاعياً بدائياً ، تماماً مثل اسلوب الإنتاج البدائي القائم في عالم الزراعة ، ومن الأساس المادي العريض ، وحتى أم كلثوم ، كان الزمن يجري بأقل من مهله أو استمهاله ، وكان بادياً للعيان ، أن الحياة المادية هنا ، ظلت تجول ما بين (الكوشان العثماني) في بلاد الشام ، وحياة الترعة والجاموسة في الصعيد المصري ، أما المدن فقد تحولت من بلادة الاستهلاك المحلي أو الخارجي لندرة من الناس ، إلى مراكز مقرات عسكرية للحلفاء ، ثم ما لبثت بعد الاستقلال أن تحولت إلى أناشيد وطنية وأعلام مرفوعة . .

كانت المدينة العربية ، قرية كبيرة سواء في مبناها أو معناها ، وكان كل كائن يدب فوقها ، يتباهى بأصله الريفي ، قبيل الجد الثاني ليس أكثر . .

كان القوميون هائمين في دنيا الروح الجماعية التي ظلت تحلق في سماء الأمة وصولاً إلى الملأ الأعلى ، حيث جاءت رسالتها (كشعاع للإنسانية بأنوار الروح - الأرسوزي) ، أو (كعملية ارتقاء بالحاضر إلى مستوى الماضي العظيم للأمة ، وهذا بجوهره نضال روحي يمكننا من اكتشاف أنفسنا أولاً وقبل كل شيء - **عفلق**) .

وبصوفية أقل كان صلاح البيطار يحفظ من قوانين العلوم أو الطبيعة ، بأكثر مما يحفظ عن قوانين التطور البشري أو إشارات التاريخ الغامضة ، فيما لا يوضع تحت مجهر أو يقاس بمقياس . . وكان الجامع ما بين الرجلين (عفلق والبيطار) فكرتين كبيرتين : الوحدة والحرية ، وأن علّة الأمة في عدوين أيضاً : الاستعمار والرجعية الداخلية . . وكان في الأفكار من اللبس ما يكفي للتصدع عند أول نقلة على طريق التطبيق . .

ما بين الرومانسية الظليلة الصادرة عن كُتّاب انسانيين وصوفيين ومثاليين (أندريه جيد . رومان رولان . تولستوي . . وأحياناً هيجل) وبين الانشائية الراقية ذات المستوى الرفيع عن شكل ومضمون الدعوة الاسلامية (في ذكرى الرسول العربي) في التاريخ ، ثم ما بين اشتراكية البعث واشتراكية الماركسيين وما نُحت من فروق للبرهنة على ذلك . . ما مكّن من القول :

أن الأدب خسر عفلق ، ولم تربحه السياسة . . وكان قولاً ظالماً بحق الرجل والتاريخ ، في كل القيم والمقاييس .

على صعيد آخر ، كان الناصريون أو القوميون العرب ، أقل أداءً ، سواء على صعيد الفكر أو العمل ، فالحركة التي ولدت في ردات فعل متوترة على سقوط فلسطين ، لم يكن لديها أكثر من برنامج عاجل لاسترداد القوة العاصفة ، وقد وجد القوميون العرب ، في شخص عبد الناصر ، ما يضمن ذلك ، ثم راحت ردات الفعل نفسها ، في أجواء محمومة مع البعثيين إثر الانفصال ، تقيم الفوارق التي لا لقاء بعدها ، حيث سادت (العقائدية الراسخة) للأطراف جميعاً ، فأرتجت على القوم فهمهم وتفاهمهم * . .

كان الناصريون عبر تاريخهم الحديث ، لا يمتلكون أكثر من مواقف القاهرة السياسية ، وكانت الناصرية بهذا المعنى ، رجع صدى لما يقوله ويفعله شخص الرئيس عبد الناصر ، ولم يكن ذلك غريباً ، إذ أن تاريخ المنطقة نفسه ، هو تاريخ الأبطال ، وقد حلمت المنطقة منذ قرون ، ببطل لا بد له أن يظهر . . ومع نتائج حزيران وعلى فداحتها ، كانت تقتضي التراجع السريع لاقفال ملفات الصراع كلها ، سواءً بين القوميين

***انتقلت حركة القوميين العرب إلى النظرية الماركسية بعيد حزيران ، أما القسم الفلسطيني منها – مع العديد من رفاقهم العرب – فقد انخرطوا في العمل الفدائي تحت اسم الجبهة الشعبية بقيادة الحكيم جورج حبش ، ويبدو أن الحركة مالت إلى النزاع مع عبد الناصر بخصوص الجبهة القومية في اليمن . . إلا أن النزاع توارى بعد هزيمة حزيران .**

والشيوعيين، بينهم وبين الأصوليين الاسلاميين ، بين القوميين والقوميين في سوريا والعراق ، حيث المعركة ذات طبيعة وطنية ، إلا أن شيئاً من هذا لم يتحقق ، ومع وفاة عبد الناصر فقد هدأت الصراعات إلى حين . .

كانت أحداث المنطقة بعد الهزيمة ، تبعث على الفزع ، فقد بدا أن الأمة لا تريد أن تستفيد من درسها القاتل في حزيران ، إذ ما أن انقضى العام الثالث على الهزيمة ، حتى كان الفلسطينيون يصرخون ملء الحناجر والصدور (يا وحدنا) ، وكان الصراخ مغلفاً بوشاح أسود يؤذن بغروب الأمة من جديد ، فبعد رحيل معظم الأنظمة العربية التي كانت قائمة أثناء النكبة ، لم يبق في الساح إلا ورثة الملك الهاشمي في عمان .

كانت المقاومة الفلسطينية بعد حزيران ، على استعداد نفسي للاصطدام مع كل شيء . . حتى عبد الناصر نفسه ، فقد تم الاصطدام معه بعد الموافقة على مشروع روجرز ، وكانت عمان هي المكان الذي أصدرت منه المقاومة أحكامها ضد عبد الناصر ، (علماً بأن في روجرز ما يستدعي التأمل بعد هذا الذي حدث لاحقاً) ، كانت المقاومة نتيجة الفوضى التي ضربت المنطقة حتى في المنطق (بحيث ما قصدته اسرائيل في حزيران ، اسقاط النظام في سوريا ، واسقاط عبد الناصر في مصر . . ثم تحويل الأردن إلى وطن بديل للفلسطينيين . . الخ) ، قد استسلمت لوهم الصراع ضد اسرائيل تحت شعار (يا وحدنا) نفسه ، وفي ظل غياب أو غيبوبة الأوضاع الرسمية بعد الصدمة ، فقد تمكنت المقاومةمن الحصول على سيل من الأسلحة بطرق شتى ، ومع اشتداد عودها التدريجي ، فقد أعلنت المقاومة نفسها ، بأنها المقاتل الوحيد الذي مازال يمتلك الثقة والرجاء في مرحلة الاضطراب العربية .

كانت سوريا – قبل حزيران – هي قاعدة انطلاق الثورة في الأساس ، ومع حزيران ، صارت عمان هي قاعدة الإقامة لمناضليها في المدن والأغوار ، وكان الملك حسين ، الذي لا يريد لأحد أن ينازعه مُلك أجداده بالطبع ، قد أجاز الثورة تحت شعارها نفسه : عدم التدخل في الشؤون الداخلية . وكان الشعار من الناحية النظرية ، لاشيّة فيه ولاغبار

عليه ، لكنه من الناحية العملية كان شيئاً آخر . .

كانت إسرائيل تجد في المقاومة الصاعدة ، ما ينذر بالخطر المحتم ، وقبل استفحاله ، فقد راحت تضرب على أوتار عدة ، لعلها في صميم الحياة العربية من الأساس ، وحسب معادلة بسيطة تم وضعها بدهاء ، **فإن المقاومة مضطرة لأن تهاجم عبر حدود ما ، فتقصف اسرائيل الحدود وما وراءها ، وعندها يضطر النظام الاقليمي داخل الحدود ، إلى محاولة نزع أسباب التهديد ، فإذا ما رفضت المقاومة ، فإنها تكون قد مسّت شأناً داخلياً يتعلق بالسيادة . . ثم تبدأ الحكاية من جديد . . أثناء سخونة الجرح ومرارة الهزيمة ، فإن الغموض عن السيادة كان لازماً للجميع ، فهو لازم للأنظمة لتمرير محنتها ، وهو لازم للمقاومة -حسب درجة غموضه وهامش تسامحه بما في ذلك غض النظر عن البدء بإقامة قواعد فدائية وما يلزم للانطلاق . . وهو لازم للجميع لأن المرحلة لم تكن تحتمل غير ذلك .**

في غمرة نسيان الذاكرة العربية ، التي تمتلك شهادة بورد في شأن النسيان ، ومع الروح المرتدة في سنوات ما بعد الهزيمة ، فإن الغموض (أو التغميض) بات جلياً ، ثم تفتحت العيون بسبب من حركة الحياة اليومية التي لا تتوقف ، فالأردن الذي يشكل فلسطينيّوه أكثر سكانه ، مهدد بالتحول إلى الوطن البديل (شارون بشكل خاص) والمقاومة هي مشروع قوته القادمة على الطريق ، ثم إن الحياة اليومية دفعت بدهماء القوم من كل فريق ولون إلى الإمساك بالمفصل الأضعف في الأمة ، كذلك ليتم التنادي على الهوية الاقليمية ، ثم بدا أن يساراً طفولياً أراد الإمساك بفرصته ، ومن المشين حقاً ، أن هذا اليسار صار يزاول الحاديته أمام الجوامع في بلد بدوي مسلم ،وكانت عيون الأمن فرحةً بما جاءها من عند اللـه ، وهكذا دخل الفلسطينيون إلى قلب الشباك المنصوبة، بعد أن غذت كل دسيسة ميلاً لداحس والغبراء ، أو الجمَل وصفين ، ولما كان جهاد السمكة في الشبكة يزيدها عرقلة ، فقد كان الوضع يشهد ذروة انقسامه وتمزقه على الطريق في الوصول إلى هنا . .

لم يكن في نيّة المقاومة الفلسطينية ، ولا دار في خلدها ، باستثناء حواش على الطريق ، أن تقاسم الهاشميين ميراثهم التاريخي ، وبالعكس ، فإن هذه الإهانة الموجهة لشعب ينسى وطنه ، كانت في الصميم ، ولعل المقاومة نفسها ، هي أول مَنْ بادر للرد على الوطن البديل ، الذي أطلقه الجنرال شارون وصقوره في اسرائيل . غير أن المقاومة من جهة أخرى ، لم تكن (ماركة مسجلة) ، بالوصف أو المواصفات ، بل لعل ثورة في الكون كله ، لا يمكن أن تكون كذلك ، وكما العادة في تاريخ الثورات المقروء من الخلف ، فقد حملت النقائض من كل صنف ولون ، نفسها مع دخول تيارات شتى دون استئذان ، وكان لكل نظام عربي نصيبه في فصيل أو أكثر داخل المقاومة ، وعند المصب ، كانت تتدافع تيارات فكرية – سياسية ، من القومية إلى الشيوعية عبر وطنية دينية متسامحة .

كانت المقاومة ملاذ الهاربين من أنظمة حكم سياسية كانت ترى في الحجّاج تاريخاً من الحكمة ، ثم ظهرت هي نفسها كمدرسة كفاحٍ جديدة ، طالما افتقرت لها مدارس الأحزاب العربية ، وهي في المحصلة ، لأكثر من سبب نظري وعملي ، كانت بؤرة الحالمين المعجبين بتشي غيفارا ، كي يكون لحياتهم دور ومعنى . .

أصبحت منظمة التحرير حاضنة العمل الفلسطيني ، خلية نحل عربية ، للذكور والإناث معاً ، فهي بيت الضيافة لكل شارد وطريد ، وهي محطة الانطلاق لقطار نحو وجهة غير متلاقية مع الوعود القومية ، التي طال انتظارها ، ولا مع اليسار الداعي لجنّة في الأرض تحل محل جنّة السماء ، ثم ما لبثت أن صارت حصن الوطنية والتضحية ، لكل مَنْ كان يحمل قضيته في صدره . .

وكالأواني المستطرقة ، ففي أحداث أيلول ، سينجر الجميع إلى المجابهة ، علماً بأن الفارق كان واضحاً ، بين طائرات الشعبية المختطفة إلى الزرقاء ، وكومونات الديمقراطية في إربد ، وبين نداء فلسطيني كان يدعو إلى التعقل والحكمة . . لقد صعد الماء في الأواني المستطرقة إلى سائر الفروع ، ثم ما لبث أن طفّ على المراكز والأطراف ، ليشهد تهدئة موقتة على يد عبد الناصر ، ومع غروب أيلول ووفاة الرجل ، كانت المقاومة تشهد نزاعها

الأخير في السلط وعجلون وجرش .

لا محل في التاريخ للوقوف عند حياد بلجيكا كسبب لنشوب الحرب العالمية الثانية ، ولا عند الإلزاس واللورين لتوضيح أسباب الحرب العالمية الأولى ، إذ أن الأهم من ذلك ، أن وراء الحروب أسباباً تاريخية معقدة وطويلة ، ولطالما كان أدولف هتلر ، ظاهرة الضد لمعاهدة ڤرساي ، ولطالما فهم هتلر ، أن وراء ڤرساي اليهود والسلاف . . وبسبب من لغز مجهول ، فإن الطبيعة البشرية تقرأ التاريخ كأحداث ونتائج ، فإذا ما سُوّي وضع التاريخ على هذا الأساس ، فإن ايلول دمرّ الروح العربية قبل أن يدمر المخيمات أو مدن الأردن ، فقد سالت الدماء من الجسد الواحد ، لسكان ضفتي النهر الواحد ، وقد دمرّ أيلول روح التعايش إلى حين ، بين شعب يفصل بينه نهر أقل من نهر الدانوب لعاصمة واحدة ، وبسبب أيلول غادرت المقاومة حدوداً لا تقدر بثمن مع فلسطين ، وبسبب أيلول ستنحشر المقاومة في واجهة لبنانية - فلسطينية يمكن حساب مساحتها على جدول عدٍّ خشبي ، وبسبب أيلول أخيراً ، سيسود سوء التفاهم والفهم بين عمان والقدس ودمشق . . ربما إلى يومنا هذا .

مات عبد الناصر وهو يكابد موقفاً علّه ينفذ من خلاله إلى إزالة الدخان الأسود من المدافع والنفوس ، ثم غابت شمس القومية العربية ، مع غياب ابن الصعيد الذي ما تبدّل ولا تغيّر ، مات أسير الفالوجة في الحصار ، وقائد تموز في مصر ، وزعيم العرب في التاريخ ، تاركاً لأبنائه فضلة معاشه ، وشيئاً من أمنية لم يصلها ، مات خطأً في نقطة الوسط بين عهدين ، أو تاريخين ، وعندما يتأمل المرء صراعه مع أقداره ، يجد أنه كان من الإنصاف بحق الرجل أن يموت بعد ربحه معركة السويس ، أو بعد الوحدة مع سوريا ، أو ربما بعد العبور إلى الضفة الأخرى من التاريخ ، لكن لا اعتراض . .

ستجسم أخطاء المقاومة ثانيةً وفق سيناريو مشابه ، على أيدي الملوك الجدد ، لكتائب الجميل أو نمور شمعون في لبنان . فقد انتقل الشيخ بيير الجميّل في جزيرة مطلة على الدردنيل ، فجأة هكذا ، من عالم الرياضة إلى عالم السياسة ، وجرى ذلك بتمهيد

غامض هدفه الحرص على صيانة موروثات الأقلية المذهبية في المنطقة خشية الاضمحلال. علماً بأنها ظلت تعيش هنا آلاف السنين، دون أن تضمحل، وكان الوسيم الأشقر، صائد الغزلان والانسان، الرئيس كميل شمعون، أو آرشيدوق السياسة المارونية، قد أسس من قبل، مدرسة التطرف على الهوية المذهبية في لبنان.

وفي حركة ذات مقدمة طويلة في بكركي، سيعلن الثالوث الماروني، كميل شمعون وبيير الجميل وريمون إده في حينها، عن الخطر القادم عبر الحدود السورية من الأردن، علماً بأن المقاومة قررت النأي بنفسها إلى جزيرة كروزو في الجنوب، وهكذا ولأول مرة، بدا الجنوب جميلاً في عيون الحكومة اللبنانية، وفي محاولة للاستفادة من درس عمان في البداية، فقد راحت المقاومة تنسج شبكة من العلاقات المتكافئة مع جميع الأطراف دون تعقيد، **فعقدة الهوية المذهبية، كانت آخر ما يتم السؤال عنه في الصفوف الفلسطينية، وقد تصادف أن الأقصى والقيامة كانا هناك منذ فجر العهد مع ابن الخطاب، وفي تدوين معلق فوق رأس القضاء العربي، هناك وصية عمر (لاتهدموا صوامع وبيع يُذكر فيها اسم الله)**، وكان الفلسطينيون من أشد المسلمين الذين حظي ابن الخطاب باحترامهم واعجابهم.. فحفظوا الوصية عن ظهر قلب.. إلا أن ذلك لم ينفع مع الجبهة اللبنانية..

استهدف النمور فريستهم الأولى في عين الرمانة، بعد محاولة إلصاق التهمة بالكتائب، ثم بجمع ما لا يُجمع، أقدم الكتائبيون والنمور على مذبحة يوم السبت الأسود، ومنه إلى تل الزعتر، ثم توالت الدعوات لاستضافة اسرائيل في لبنان، رداً أو نكاية بالدخول السوري من قبل، علماً بأن هذا الدخول نفسه، تم بناء على طلب شرعي ماروني من الرئاسة، ومع عوامل أشد تعقيداً، أصبح لبنان ساحة اقتتال نفسه والمنطقة وربما العالم أيضاً، هذا وسيعزى للفلسطينيين أخطاؤهم المكرورة في التدخل بشؤون الحياة السياسية اللبنانية، علماً بأن الخيار الصعب لم يكن خيارهم بمقدار ما دفعوا إليه، **إذ من الطبيعي أن يتحالف المرء مع مَنْ أراد حمايته، ضد من يريد إبادته**.. هذا وسيُعزى للفلسطينيين مخاطر تحولات ديمغرافية بعيدة المدى والمغزى، بحيث في توطين إرغامي

لاحق ، سترتفع النسبة المسلمة في الموزاييك اللبناني ، وكان على الفلسطينيين بعد رحيل مقاومتهم ، أن يوقفوا مشاغل ليلهم في ولاداتهم إلى حين انقشاع الموقف ! . .

وقبل انقشاع الضباب فوق الدلتا المصرية ، كان السادات ذو البشرة الداكنة التي ستعمل عملها في نفسية الفتى نصف المصري ونصف السوداني ، يشكل مع ذلك مرآة لوحدة وادي النيل عبر التاريخ ، فقد قرر الرجل أن يكون رقماً صعباً في نزال الرئاسة ضد علي صبري أو خصومه الآخرين . .

ولما كان السادات خارج معادلة الحساب ، فقد تم إهماله ، باتفاق الجميع على أن يكون خليفة عبد الناصر للرئاسة . .

وكانت المسألة مسألة وقت بالنسبة لمراكز القوى الكبيرة في مصر ، غير أن السادات الذي كان قد تلقى علومه في مدارس النازية ، ثم في مدرسة (الحرس الحديدي) الملكي قبل الثورة ، استطاع أن يقذف بالمتصارعين خارج الحلبة ، وتمّ ذلك في مشهد أقرب ما يكون إلى مشهد القلعة يوم خطف محمد علي باشا السلطة من المماليك . وعلى الرغم من (تلطّيه) في مرحلة صعود ناصر ، إلا أن ذلك أفاده حيث تعز الإفادة ، حين أطلق خصومه عليه بأنه صفر الثورة على اليسار .

في مرحلة لاحقة ، سيكثر الحديث عن عام الحسم ، وظنّ الناس يومها ، بأن واحدة من معارك السادات الخداعية قد حانت ، خاصة وأن ضباب مصر هو المسؤول ! . .

ولما كان الضباب نادراً إلا في الدلتا ، فقد تم ترشيح السادات لمنصب المراوغ من جديد، كما تم إحالة عام حسمه إلى مدرسة النكات المصرية التاريخية . .

لقد تلقى السادات لتوّه ، كل موروثات عبد الناصر التي تكسر الظهر ، إلا أن إغواءات المفارقة ظلت تلعب في مخيلة الرجل على أن تتم بخطوة محسوبة . .

وبعد أن نفث مجّة من غليونه ، تلقف السادات المهمة التي كان لا بد من تلقفها ، فالسويس ما زالت تحت أقدام الاسرائيليين ، وسيناء من ورائها تشهد تحركات الجيش

الاسرائيلي صباح مساء ، وما بينهما خط أريد له أن يكون على غرار ماجينو ، لكنه مع ذلك قرر أن يكتب بقلمه سطور أخطر قرار عربي في العصر الحديث ، وقد تشجع بعد أن رأى الرئيس الأسد ، أمامه في معركة لاسترداد الكرامة العربية . .

وهكذا . . نجحت ساعة الصفر في متوسط توقيتها ويوم اختيارها (يوم كيبور - يوم الغفران في اسرائيل) ، المصادفة للسادس من تشرين في العام ١٩٧٣ ، وهزّ دوي المدافع سماء سيناء والجولان ، مثلما هزّ بقوة أكبر ، أفئدة المواطنين العرب من المحيط إلى الخليج . .

كانت الدبابة الأولى عابرة الجسر تحمل علم مصر إلى الضفة الأخرى من التاريخ ، كما كان علم سوريا العربي ، يخفق خفقات القلوب فوق الحصن المنيع في جبل الشيخ . .

كانت الأيام الأولى من حرب تشرين ، توقظ الأمل الذي غفا على يأس الهزيمة في حزيران ، ثم كانت لحظات مستردة من نسائم اليرموك والقادسية وحطين . .

لم تبلغ حرب تشرين مع ذلك ، هدفها المنشود ، فقد قيل عن هدفين متناقضين بين رفاق السلاح الواحد والمعركة الواحدة ، وقيل أيضاً ، أن معركة الدبابات الحاسمة يوم ١٥ تشرين أمام ممرات سيناء ، بعد الوقفة التعبوية المبهمة ، هي التي أدت إلى انكفاء السادات واقعياً ، فقد خسر الرجل في يوم ، بل في ثلاث ساعات (حسب رئيس الأركان الفريق الشاذلي) مئتين وخمسين دبابة ، وهو مجموع ما خسرته مصر خلال تسعة أيام حربها منذ البداية . . هذا فضلاً عن تناثر القوات الهجومية والاحتياطية عكس الخطّة العسكرية المعدة . . وهو ما سيؤدي إلى الثغرة في الدفرسوار مع تطويق الجيش المصري الثالث . .

وفي المحصلة ، فإن تشرين خسرت زخمها الأول ، بعد أن بُحَّ صراخ موسكو (أنْ أطلقوا الدبابات نحو الممرات) ، ولما كانت الحرب كلعبة الشطرنج على الرقعة ، فقد أذنت تشرين المصرية في التراجع عند الكيلومتر ١٠١ ، ثم ازدادت تراجعاً مع اتفاقيتي الفصل في سيناء . . إلى أن تتهاوى في كامب ديڤيد ، لتخرج مصر كلها ، من معادلة الصراع مع اسرائيل .

كان تشرين درساً للاسرائيليين حين بدأوا على عجل ، بفك طلاسمه والغازه وعبراته . . وقد كلفت تشرين حزباً ظل يحكم اسرائيل منذ تأسيسها ، ليخرج مهيض الجناح من لعبة الحكم وأكثرية الكنيست الاسرائيلية .

وكان تشرين درساً على العرب ، حين بدأوا باسترداد وعيهم التفككي من جديد .

كان انتقام الغرب – الصهيونية من تشرين بعيداً ومدروساً ، فمن حرب الطوائف في لبنان ، إلى حرب اخراج المقاومة الفلسطينية منه ، إلى تثبيت سوريا وعزل كل ما من شأنه التعويض عن خسارة مصر ، بتدشين جبهة شرقية بديلة ، إلى تدمير العراق بالثورة الاسلامية في إيران ، أو تدمير إيران بالعراق ، وكانت الحروب والنزاعات تطول (عقود بحالها) فلا تجد مَنْ يوقفها ، ولم يبق في طول الساحة وعرضها ، غير ورقة الانتفاضة في ميدان أمل التحرير . .

كانت الإنتفاضة هي الأخرى ، مسقوفة محلياً ، مهجورة عربياً ، ومحاربة اسرائيلياً، **ومع الظروف وبحكمها ، فإن دور الانتفاضة لم يكن يتجلى في وهم دحر اسرائيل ، بل المواظبة على تأجيج الصراع كنمط حياة دائم بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وكانت الانتفاضة قادرة على منع اسرائيل من أن تتخذ قراراً ، ولم تكن تتوهم يوماً ، أن بمقدورها وحدها أن تكسر القرار نفسه ، وقد أعلنت أكثر من مرة ، أنه بدون قومية المعركة ، فإنه لا سبيل إلى فلسطين** ، أو حتى إلى سلام عادل ، وأنها حالة صراع منتظرة للوعد العربي .

ثم بدا أن العرب كانوا قد نسوا الوعد واحتفظوا بالوعيد ، فمع تدمير كل شيء ، على مساحات شاسعة من دنيا العرب ، جاء موعد تدمير العراق في حرب الخليج الثانية ، **وبصرف النظر عن كويت صدام أو يمن عبد الناصر ، فقد التقت حزيران الـ ٦٧ مع كانون الـ٩١ ، لقاءً لا مصادفة في أسبابه ودواعيه ، خاصة عندما يرسم بلد عربي ما ، خريطته للخروج من النفق . .**

وهكذا . . أصبحت مدريد عاصمة التلاحم والملحمة في تاريخ عربي اسباني مديد ،

مستعدة للاستقبال والقبول .

كان التقابل مكسوراً في كل شيء ، وقد أدرك الرئيس الأسد حساسيّة الموقف فوجّه وفده قائلاً (لا تتصرفوا كمنهزمين أثناء المفاوضات) لكن الحقائق لم يكن بمقدورها أن تخفي نفسها :

- فمصر بلا دور ، أو لعلّه دور الوساطة المحايد بين عرب ويهود ! . .
- وخلجان النفط بكوفياتهم أو بأزيائهم الباريسية ، خلف النسق الأمامي ، يجلسون بكبرياء المنتصر ، لكنْ على العراق ، لا على اسرائيل بالطبع ! . .
- والعراق تم إخراجه من المعادلة وربما بسببها ، فإلى أن يعود ، تكون المدن ليست هي المدن ، ولا القبائل هي القبائل ، وربما يكون الوطن العربي بقوميته واسلامه ، قد تحوّل إلى شرق أوسط جديد ، له علاقة بتاريخه مثلما للهنود الحمر في أمريكا الشمالية . .
- ثم إن سوريا ، حتى كتابة هذه السطور ، تحارب وحدها حرب المفاوضات دون سند أو نصير .
- (ويا وحدها) فلسطين ، فقد قادها اليأس إلى أن تلقي بنفسها فوق ثلوج أوسلو ، بعد هجير القيظ في الأغوار ، أو ربما بعد عذاب الجلجلة في لبنان ، أو بعد مراحل قاتمة من اسوداد الوضع العربي وفقدانه لنفسه ويقينه . .

لم تكن أوسلو ، بقوة الواقع لا بحجة التبرير ، أكثر من نسخة منقولة عن انهيار مدريد ، من حيث هو محصلة الانهيارات جميعاً ، فقد قبل العرب مما لا بد من قبوله ، فكانت مدريد محصلة الامتحان الفاشل لعقود من الخيبات ، ثم كانت مكان وزمان هذا الامتحان ليس أكثر . .

كانت المادة الأولى ، التي أعطت علامة الصفر ، تكمن في امتحان عزم الأمة (والأدق عزم الأنظمة) ، حيث وافق الممتحنون ، على ثنائية المفاوضات المستقلة ، وكان

ذلك أول ما يعني ، هو أن كل اقليم يجري في مستقر له ، فلا هو بحال إقليم آخر ، ولا شأن له به ، ثم أظهر الممتحنون خداع النفس في التنسيق ، ولم يعلم (مراقب الإمتحان) حتى الآن ، كيف يمكن لأمة أخفقت في تنسيق حربها ، ستظفر في تنسيق سلامها ، وطال أمد السؤال فما استقرّ على جواب .

كان لتنسيق العربي كالعادة ، موضع مظنّة أكثر منه موضع ثقة ، وكان يعني ذلك في المحصلة ، أن سباق ماراثون قد أطلق ، إذ فيه الأول وفيه الأخير ، أو فيه السلام المجزأ السابق ، ثم يأتي أولا يأتي دور اللاحق دون أسف .

لقد تأكد اليوم أن الوضع العربي الذي نشاهده الآن ، على امتداد عقوده التاريخية ، حيث معظم الأنظمة العربية هي هي منذ ربع قرن على الأقل ، بحيث لا تستطيع إلقاء التبعية على موروثات الماضي البغيض ، ومن حيث هي الماضي نفسه ، أن هذا الوضع برمته ، لم يكن هابطاً ، من فراغ ، بل لعلّه هو فراغ هابط باستمرار ، فإذا ما قيض لنا أن ندخل يوم السلام الاسرائيلي بالجمع ، أو بصورة أدق ، يوم الصلح والتطبيع ، فإن ذلك يعني وداع الأمة لنفسها ، لوحدتها ، ولدورها في المستقبل . .

إن أسوأ ما في سلام اليوم ، وليس السلام نفسه (من حيث هو خاتمة صراع بين فريقين طبيعيين . .) هو أنه يأتي في حالة كلية من انعدام التكافؤ ، ومهما أذّن بلال في الاسلام ، فإن الهزيمة في التفاوض هي موقعنا ، وأن زمان السلام ، قد اختير بعناية مع زمان الهزيمة العربية ، لا مع جريان الدم الذي لم يجف في أرض الرافدين فحسب ، بل مع زمان أشد ما في النفق العربي من ظلام . .

الفصل الأول

عصـــور متعاقبـــة

اولا / ثلاث أمهات لابنة واحدة

تعتقد أوروبا ، سليلة المجد ، بأنها وليدة ثلاث أمهات في التاريخ :
المعجـزة الاغـريقيــة والتـوراة اليـهـودية والامبراطورية الرومانية .
لم يبق على شموس الأمهات الأخرى سوى أن تغرب .

بين جبال الأناضول في الشمال ، وحوافي شبه الجزيرة العربيةمع الأردن ، وبين صحراء سيناء إلى الجنوب الغربي ودلتا النهرين في أرض الرافدين إلى الشرق ، امتدت هذه البقعة التي ستعلن عن نفسها بأنها مهد البشرية الأول ، وعندما صنع (ويلبور ورايت) أول طائرة فعلية في العام ١٩٠٣ ، ثبت بعد أن كان ثابتاً بالإستنتاج ، أن هذه المنطقة حقاً ، هي على شكل هلال ، وأن خصوبته تمتد إلى قرون ، وأن فلسطين هي زاويته الجنوبية الغربية على البحر . .

ويتعين دور فلسطين في المجموعة الهلالية لا من خلال موقعها وتجوال الشعوب في تاريخها فحسب ، بل من خلال كونها بندول ساعة ، بين الهيروغليفيةفي مصر والمسمارية في الرافدين . .

وبفعل الغزوات المتلاحقة، فقد أصبح لفلسطين سمة خاصة لم تصل أبداً . إلى حد الكيان المنعزل عن مجموعته المجاورة ، وبالعكس ، فإنه لا حدود طبيعية تقسم هذه المجموعة ، فسكان فلسطين حتى يومنا هذا ، يسمّون ولايتهم بأنها الولاية الجنوبية من

سوريا ، كما أن فلسطين منذ فجر التاريخ الأول ، لم تكن إلا كياناً عضوياً لم ينفصل عن مجموعته الهلالية ، أي عن تلك المنطقة التي ما انقطعت عنها هجرات الجزيرة العربية ، **حيث بات من المرجح أن هذه الهجرات كانت تستقر بصورة دائمة أو مؤقتة في (بلاد ما بين الدلتَّين) ، دلتا النيل ودلتا الفرات .**

إنه لمن المجحف تاريخياً ، ألا تُسمى الأشياء بأسمائها ، فالعموريّون الذين استوطنوا المنطقة في نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ، والآراميون الذين جابوا المنطقة في نهاية الألف الثاني وما أطلق عليه اسم الكنعانيين فيما بعد ، لم يكونوا عديداً من الأجناس البشرية المتفارقة ، بل تتابعاً تاريخياً مارسته الشعوب نفسها التي تنتمي إلى المجموعات البشرية التي ترجع بجذورها إلى الجزيرة العربية .

وللتاريخ ، فإن الطباق (أو ذاك التعارض الحاسم) الذي يريد أن ينشؤه كهنة التاريخ بين بدو وحضر ، إنما هو احتيال على التاريخ نفسه ، فالبدوي لا يمكن أن يبقى في مجتمع صرف من البداوة إلى الأبد ، كما أن الحضري لا يستطيع أن يحيا حياة الحضر دون بداوة أو رعي أو زراعة حولها ، وهذه الألوان من التداخل والتناوب بين أنماط الحياة المتفاوته ، ظلّت تتدفق وتمور وترتقي فوق أرض المنطقة قرابة ألف عام ، وهي ما آلت إلى ضرب من التجانس والتماسك لشعوب كانت قد انحدرت من أصل واحد .

لم يكن هذا التماسك ضرباً من اللغو الإنشائي نجازف برفع أشرعته اليوم ، فمدينة صور التي تقول عنها الاسطورة الغربية بأنها (ولدت كإبنة حملها الثور على قرنيه وقدمها هدية فكانت القارة الجديدة – أوروبا) . . . **صور هذه ، كانت تقيم سلسلة من العلاقات الوطيدة بين أقصى الجنوب (مصر) وشاطئ المتوسط من جهة ، وبين بلاد ما بين النهرين عند الخليج من جهة ثانية** ، أما التجانس التاريخي لشعوب المنطقة سواءً في المستوى الثقافي أو الروحي ، فيعبر عن نفسه في اكتشافات أوغاريت وايبلا وماري . وقد بلغت المنطقة أوجها حين استقر فيها الكنعانيون في الألف الثاني قبل الميلاد ، حيث كانوا يتكلمون اللغة العربية وهي لغة أجدادهم في الجزيرة العربية .

وعن طريق الهكسوس والأشوريين ، انتقلت كبرى المسائل الفلسفية أو الروحية المتعلقة بما وراء الطبيعة أو (المطلق) ووحدة الآله المتجانس ، الذي يوحي لأنبيائه بارادة إلهية لا تناقش . .

ومن أرض حمورابي إلى مصر أخناتون (١٣٥٠ ق . م) كانت تنتشر أرقى الحضارات في التاريخ البشري كله . .

هكذا كان يتوضع من تعاقب الشعوب رسوبات لا تلبث أن ترتقي في البناء الفوقي لثقافة متجاورة ، وعن طريق التناحر والتمازج ، والتشاحن والتداخل ، والغزو المضاد ، كانت في كل مرحلة أو مراحل ، تنضاف مكتسبات متعاقبة إلى القديم الشائع ، لتخرج من رحمه ، ولادة جديدة لعهد جديد ، حيث المولود ليس نسخة أصلية عن والديه . .

لقد أنجز السومريون والأكاديون حضارات رفيعة فيما بين النهرين ، وتمثّل العموريون تلك الحضارات بزمن قياسي ، رغم أن بابل كانت قد شيدت على أنقاض أور ، وفي ظل الملك البابلي السابع (حمورابي) ، كان البابلي الجديد يسنّ أعرق قوانين التاريخ* .

لم تكن المرحلة بادئة عصرها من الصفر ، فهي وليدة مراحل سابقة من النشاط الإنساني الذي لا يتوقف ، فالتاريخ الحلزوني المتصاعد للمنطقة كان سيعطي ما أعطاه ، ومع هذه الشرائع كان المرء يجد نفسه مع تلك المعطيات المستقاة من سومر وأكاد وسائر التشريعات الساميّة الأخرى ، ثم جاءت الشرائع اللاحقة لتستقي من ذاك المعين الذي لا ينضب .

ليس من الضروري القول إذن ، أننا نقف هنا ، **أمام سلالات ملكية متعاقبة** ، وليس أمام أصول عرقية مختلفة ، فالغرب هو أول من أسّس هذه النظريات العرقية ، حين أقام تلك الفواصل الحاسمة ، بين حضارات مدنية ، وأخرى همجية ، أي بين حضر الشواطئ وأشرطة الأنهار وبين بدو الصحارى الداخلية ، وليس غريباً أن يخلع الغرب رداءه ، بعد أن تحوّلت (أُمه الروحية) من صور إلى أثينا في القرون الوسطى ، ففي العصر الذهبي

---

* في بابل نفسها ، فضّ حمورابي النزاع بين تاجر بابلي وآخر صيني ، باعادة الملف إلى محكمة صينية ، من حيث أن الاتفاقية التجارية بين التاجرين كانت قد أبرمت وصدقت من المحاكم الصينية !. . .

لأوج أثينا . كانت الأعراف التي هي بمثابة القوانين في عصرنا ، تقتضي تكافل أهل المدينة مع أي مواطن مديني ، سواءً أكان مصيباً أم مخطئاً إذا نشب خلاف بينه وبين أي مواطن من خارج المدينة ، وكان العرف يسمح للأثيني أن يقتل غريمه (الخارجي) مع مساندة أهل المدينة في عملية القتل ، علماً بأن الخصومات لم تكن تتجاوز النزاعات التجارية أو المالية بصورة عامة . لقد كان الحق الوحيد الذي يحكم القانون لجانبه هو حق ابن المدينة ، لأن (الآخر) هو الغريب البربري الذي جاء من خارج الأسوار حيث لا يعني شيئاً .

من حمورابي إلى المدرسة الرواقية مروراً بالإنتشار الكنعاني شرقي المتوسط ، والأدلة الراقية لأساليب التعاطي العملي مع الشعوب - إبان الاجتياح السلمي للعالم القديم - تشكل في سياق (المجموعة الهلالية) مجالاً ومدىً لمدنية ذلك الزمان ، وما كان سجع الكهان في التوراة اليهودية (صاحب الإبادة المقدّسة - يوشع) . ولا أعراف أثينا الإجتماعية أكثر من بقعتي شذوذ في بحر القاعدة الواسع .

كانت الامبراطورية الرومانية ترى كما يرى اليونان ، وهو رأي الغرب الضمني اليوم، أن كل من لا يتكلم لغتها أو يشاطرها ثقافتها ليس إلا بربرياً لا يستحق أن يكون أكثر من عبد * ، هذا في الوقت الذي لم يعرف فيه الهلال الخصيب توجهاً مثل هذا ، فحضاراتهاالكبرى لم تكن مؤسسة على حذف الآخر ، أو إبادة ثقافاته ، وإلا لما وصلتنا آكاد بعد سومر ، وآشور بعد آرام ، كذلك العموريون والكنعانيون والبابليون بعد أفول ممالكهم ، وفي كل مرة كان يتاح للمهزومين أن يتمثّلوا ثقافات المنتصرين كما استقى اليهود من بابل مثلاً أو العكس عندما استنسخ العموريون المنتصرون من سابقيهم السومريين والأكاديين . أو مثلما فعل الهكسوس (المتهمين بالهمجية) ، حينما راحو يجمعون ثقافات ما بين النهرين لينشروها على طول شاطئ المتوسط ومنه إلى مصر ، حيث اصطدمت طبقة الكهّان في عهد أخناتون بمبدأ التوحيد العمّوري نفسه .

وهكذا على امتداد الهلال الخصيب لم يصطدم الغزاة القادمون من وسط آسيا بالحدود والجيوش فحسب ، وإنما واجهتهم حضارات لا يكفي أن يُدافع ضدها بقوة السلاح . وعلى الرغم من تغلّب الغرباء أحياناً ، فإنهم سرعان ما كانوا يستسلمون

*** تحديد هذا الشخص ليس (من) ولا (في) ذاته ، بل تحديده يتم بالنسبة لي ولك . فإذا ما انفلشت ثنائية المتكلم والمخاطب في دائرة الجماعة ، فإن تراتب التسلسل الرقمي لا يعود مهماً . فالآخر هو من ليس (نحن) فهو المجهول بدون الـ (التعريف) لأنه نكرة ، والأصح إنه النكرة مع الـ (التريف) ميشيل نبعة — مجلة فكر . لبنان . خريف ١٩٩١ ص ٢٥.**

لثقافات المغلوبين أنفسهم، وهو شأن (الكاشيين) الذين اندمجوا في حضارة المنطقة فدامت مملكتهم زهاء أربعة قرون ونصف القرن ، في الوقت الذي لم تدم فيه مملكة (الجوطيّون) أقل من قرن ، لعنادهم في التمسك بأعراف سهوبهم الآسيوية المتخلفة .

وطوال المرحلة الممتدة حتى القرن السادس قبل الميلاد ، أي موعد التاريخ مع المرحلة البابلية الثانية (سقوط نينوى وصعود نبوخذ نصر الثاني ٦٠٥ – ٥٣٧ ق . م) فقد شهدت المنطقة هجمات متبادلة من قبل أقوامها (الحثيين والكاشيين والآشوريين) وطالما تحدث المؤرخون في كتبهم عن الأساليب الوحشية والفظائع التي يرتكبها الأعداء المتحاربون (إذ ماذا تفعل البشرية بعصرها الحديدي الذي اكتشفته لتوّها) . غير أن دموية المعارك المريعة ، لم تكن حائلاً دون التمازج واستنساخ الحضارات المتعاقبة بعضها عن بعض ، صحيح أن الآشوري مثلاً كان يهدم قصور المغلوبين وحصونهم ، وربما وصلت بعض الروايات إلى حد بناء أهرامات من جماجم المهزومين ، لكن الصحيح أيضاً ، حسب اكتشافات لاحقة ، أن الآشوري المنتصر لم يكن ليمسّ معابد المغلوبين ولغاتهم وثقافاتهم ، هكذا كانت نينوى عاصمة آشور مسرحاً لثقافات مختلفة من ميديا وآرام وبابل الأولى ، كما كانت بابل بعدها من أعظم حواضر الدنيا ، حيث امتدت من العراق إلى سوريا والأردن وفلسطين حتى نهر النيل ، كما كانت بحدائقها المعلقة حول العاصمة (وهي إحدى عجائب الدنيا السبع) رمزاً لرهافة الذوق وسمو المخيّلة ، سواءً في قصورها وأماكن عباداتها ونظم طقوسها أو في فلسفاتها المتلوّنة من السابقين . حتى قورش الواصل إلى جدران المدينة الأسطورية ، فإنه رفض تهديم أماكن العبادة (التي كانت رمزاً لثقافات الآخرين) وقد قبل وشاية رجال الدين البابليين ، عندما أباحوا له بسر هزيمة بابل ، ذاك بأن (مردوك وهو إله بابل ، لم يعد بحاجة إلى سيف نبوخذ نصّر ، وأنه انتقم منه لأنه تمادى ولم يقف عند حدوده) * : –

وفي واقعة مقابلة فإن نبوخذ نصّر نفسه ، لم يكن متعصباً لآلهته . بل ربما لمملكته ، كما في النص التالي : –

---

* نبوخذ نصّر ، تابوي . دار الروائع ص ٣٢٢ .

- مردوك ، مردوك ، أنقذ عاصمتك التي بنيتها لمجدك . . ولا من مجيب .

ويتابع النص قائلاً على لسان نصّر : -

- ولكن من يكون هذا الأمير الأجنبي الواقف في ظل برج بيل الظافر . . أتراه ملك الفرس . . هل هو ڤورش الممسك بيد الله أكثر مني . . إذن . . وأنت أيضاً يامردوك ؟! . .

ثم ينتفض من جديد :

لتفنى بابل ، وتفنى الهتها ، لكنها لن تكون لفاتح أجنبي .

هذه الغرزمات وما تلاها ، ليست نزعة أدبية أو شاعرية هدفها تصوير حالة أمام المجهول ، ولا هي الغربة الهابطة من عوالم أخرى ، بل إنها تتضمن موقفاً من (الآخر) فعندما يتساوى مردوك إله نبوخذ نصر ، مع إله ڤورش ، أو لعلّه يتغلب عليه ، فإنه الاعتراف الضمني (بالآخر) كقوة غاشمة ، أو كحق صريح . .

للنظر الآن إلى إرميا نبي اليهود كيف يخاطب (الآخر) * :

اهبطي من عليائك إلى الحضيض يا بنت بابل .

اجلسي على الأرض لا على العرش يا ابنة الكلدانيين .

لن يدعونك الآن بالمرهفة والمغرية . . خذي حجارة الرحى

واطحني الحنطة . . انزعي الحجاب عن وجهك وارفعي ثوبك .

اكشفي عن ساقيك لتعبر السيول . . أبيحي عريك ليشاهدوا عارك . تقوقعي في الصمت واختبئي في الظلمة . .

ياا بنة الكلدانيين . . تيقني الآن ، ألا أحد سيدعوك بمملكة الممالك بعد اليوم .

هذا الموقف من (الآخر) تلقفته أوروبا من تاريخين :

---

* تابوي . المصدر نفسه .

تاريخ الأباطرة في أثينا . وتاريخ الكهنة في التوراة .

ولقد كان لعملية اسقاط اللاهوت على التاريخ ، اثار جسيمة ، حين اعتبر ما في التوراة وكأنها وقائع حقيقية ، وهكذا بات العهد القديم والجديد نقطة الارتكاز في كل تفسير وتأويل ، وتسبب ذلك في تعمية وتضليل علماء الآثار فيما بعد ، ولطالما اصطدمت هذه المسلمات اللاهوتية * التي كتبها أحبار اليهود في مراحل لاحقة (حتى بعد ميلاد السيد المسيح بحوالي مئتي عام) بالحقائق المكتشفة عن طريق التنقيب ، والتي تثبت تدريجياً وجود توراة سامريةوهيروغليفية ، وسبعينية وبابلية وكنعانية ، كما أن هناك أسفاراً خفيّة لكل الأقوام المتقلبة في جهات هذه المنطقة الأربع ، ومثلما صوّر (المزعم الديني اليهودي) القائل (بامتياز شعب الله المختار) ، على أنه قد بزغ هكذا كالبرق وسط خواء المنطقة الديني ، حيث تبدأ مسيرة التاريخ بابراهيم الخليل لتنتهي بفلسفة التاريخ عند هيغل ، كذلك تم استخدام (المزعم الثقافي اليوناني) القائل بالمعجزة الاغريقية ، على أنها الطباق أو التعارض نفسه بين البرق والصحراء الثاوية ، الحضري والبدوي ، أو البربري ، (وكأن هذه الثقافة قد خرجت أو كادت تخرج من العدم خروج منيرڤا كاملة مكتملة من رأس جوبيتر) ، كما يقول روجيه غارودي (فلسطين أرض الرسالات ص ١٨) .

لقد آن الأوان لعالمنا الشرقي هذا ، أن يشرع باكتشاف تاريخه وثقافته اللتين لولاهما لبدا الغرب فارغاً من كل محتوى ، وإنه لمن غير المنطق أن يفرض علماء الغرب الموسوعيون عن طريق تفوقهم اليوم ، مثيولوجيات مؤسسة على أساطير التوراة المنحازة ، أو عن مخطوطات اغريقية أو رومانية مكتوبة بعد عدة قرون من الحوادث التي تعود إليها بتفصيل ناجز ! . . وإنها لفضيحة بحق العلم والوجدان ، أن تعطى الحياة لشخصيات مخترعة ، كأصحاب السيناريو ، فيما يضع الصانع نفسه أعمدتها العقائدية المنشودة ، وإنه لمن المخزي حقاً ، أن يعطي هؤلاء العلماء (الصانعون) لأنفسهم مرجعية الحقائق ، انطلاقاً من وثائق غير موجودة ، أو مشكوك فيها ، أو لا دليل على صحتها . ليضعوا أسس الوقائع ، أو لينفخوا روح الحياة في عصور كاملة من الزمن .

---

* أكثر من ثلاثة آلاف دراسة صدرت حول مخطوطات ولفائف البحر الميت . وقد نشرت باللغات العالمية ، وما هو مشترك في هذه الدراسات – رغم محاولات اسرائيل إخفاءها أو تشويهها – وجود العديد من الكتب التوراتية أو التلمودية لسائر شعوب المنطقة من نهر دجلة وحتى النيل . . .

وعوضاً عن استرداد الحق في إعادة النظر في التفاسير التوراتية على ضوء من اللغة والثقافة العربيتين ، فإن أكاديميات بكاملها قد انهارت أمام مصالح العهدين القديم والجديد، لإبقاء ما هو مزيف على حاله ، ولتنحية العربية من أن تكون لغة الترجمة للنصوص القديمة ، مما أربك (علماء الاسرائيليات) الذين يعاندون في ألا يروا غير الترجمة العبرية لتلك النصوص طريقا .

ولم يحدث ما هو مماثل في التاريخ ، إلا بعد ثلاثة قرون على ولادة السيد المسيح ، حيث صيغت النصوص القديمة باللغة العربية - الآرامية ، أما النص العبري للتوراة اليهودية فقد تم تثبيته في وقت متأخر جداً ، (القرن العاشر الميلادي) ، وقد استخدم (علماء مدرسة طبرية) أربعة مصادر للوصول إلى النص العبري وهي : النص الإغريقي القديم ، ترجمة القديس جيروم اللاتينية ، النص الآرامي وهو الأهم ، ثم عناصر من اللغة السريانية التي ما تزال تدرس حتى اليوم .

لقد كان للإسرائيليين دوماً ، مصلحة في التفتيش عن اثبات توراتي يسوغ لمطامعهم التوسّعية ، وعندما ظهرت فرصة الاكتشاف البريئة لمخطوطات البحر الميت * ، بدا الحذر على وجوه علماء التاريخ في اسرائيل ، وعندما أظهرت هذه اللفائف لغتها الآرامية والفينيقية ، صدرت الشبهات حول هذه المخطوطات ، التي دارت الشكوك حولها من كل جانب . ويرد السؤال هنا : -

مَنْ الذي نصّب الغرب واسرائيل حجة في بحوثنا الشرقية ؟ لماذا تصبح الانكليزية والفرنسية والعبرية هي لغات الترجمة لتاريخنا ، بينما يجد العالم تحت تصرفه لغة عربية حية موثوقاً بها كأداة تعبير أمينة عن عدة آلاف من السنين المتواصلة لايضاح القديم من العصور بصورة كافية . لقد كان زيفاً وضلالاً أن يتم باسم الساميّة المدّعاة ، فصل الأقوام العربية يمنة ويسرة من خلال مجموعاتها اللغوية ، من أجل إعطاء مكانة خاصة للغة العبرية ، وهي التي جاءت في آخر الأطوار اللغوية العربية السحيقة .

---

* اكتشفها راعي من عرب التعامرة اسمه محمد الذيب .

وطبقاً للروايات فإنه من المرجح أن ابراهيم الخليل وهو أبو الأنبياء ، كان في مرحلته يتكلم الأكادية التي هي لغة بابل الأولى ، إذ لم يكن ثمة لغة خاصة اسمها العبرية ، والعبرية اليوم هي من مخلفات اللغة الآرامية * التي إذا ما قورنت بالسومرية والبابلية والكنعانية والهيروغليفية . . . تعتبر قريبة العهد حيث تعود لبضعة قرون قبل ميلاد السيد المسيح نفسه .

يقول بيير روسي المؤرخ والبحّاثة الفرنسي في كتابه (مدينة ايزيس - التاريخ الحقيقي للعرب) :

(إن الحدود المرسومة عسكرياً أو سياسياً حسب مقتضيات آراء الأساتذة أو علماء الآثار لا تتجاوز بالضرورة قلوب الناس ، وإننا عندما نؤكد من خلال نظرة شمولية ، **أن الشرق يتعين من خلال ثقافة عربية في مساحة عربية ، فإننا لا نخترع شيئاً جديداً ، إننا هنا لا نفعل أكثر من جمع وإحكام العناصر الجغرافية والثقافية التي توطد إحداها الأخرى عن طريق التعاقب)*** .

علينا إذن ، كي نضع المنطقة ضمن إطارها التاريخي الطبيعي ، أن ننزع عنها صفة التفوق الغربي (العرقي) بدءاً من الاسطورة المزعومة للمعجزة الاغريقية ، ومروراً بآلهة الجنود ، وقصص الخليقة في توراة اسرائيل ، (التي لا تزيد عن سابقاتها من القصص لدى البابليين والآشوريين والكنعانيين وقبلهم السومريين ، إلا بنتائجها - الدموية - العنصرية - حيث يراد للشعب المختار أن يبقى صافياً) ، ثم انتهاءً بمفهوم المواطنة الروماني ، المؤسس على تشريع جوستنيان والقائم على التمييز بين ما هو (مديني) و (بربري) . . حيث الثاني هو العبد الطبيعي للأول .

إنه لمن المحزن حقاً ، أن الغرب الذي هو صاحب الريادة العلمية في هذا القرن من الأسبرين إلى الإخصاب البشري وحتى لغة الكومبيوتر وغزو الفضاء . . . مازال يعتبر ، مع تقدّم هذه الأهوال من العلوم الخارقة ، أن التاريخ العبري هو النموذج الأمثل للأديان .

---

* وهي فرع لاحق للجذر اللغوي العربي الأول .. فأكاد هي العقاد اليوم واشور هي عاشور أما اللحن فجاء من اللاتينية .

* نقله حسين عمر حماده في كتابه الشيق عن مخطوطات البحر الميت . دار منارات . ص ١٣٣ .

وأن المعجزة الإغريقية هي الأساس الأمثل للثقافات * ، وأن الامبراطورية الرومانية التي بدأت بتأسيس روما في العام ٧٥٣ قبل الميلاد ، هي المثل المحتذى للوحدة السياسية . .

وليس بالضرورة أن الثقافة الغربية بكل تنوعها وشمولها واتساعها ، حيث بعدها العالم بأسره ، ساذجه إلى حد الإعلان الصريح عن الانحياز ، فالغرب نفسه قد يكون أكثر قارات العالم مجونية في التعرض للأديان (وعلى رأسها التوراة) أو التعريض بها ، والغرب نفسه هو مَنْ يضع المعجزة الاغريقية على رفوف المتاحف المغبّرة اليوم ، وهو يتجنب مع نداءاته الداعمة لحقوق الإنسان (حيث تقتضي المصالح – والمصالح أبداً – أن يتم الاعلان عن المطالبة بالحقوق ، وإغماط الأخرى) بأن يعلن إعجابه بقوانين جوستنيان القائلة بالتمييز المطلق بين ما هو (داخل السور) وخارجه ، أي بين السيد المديني والعبد البربري ، غير أن التاريخ لا يمكن أن يكون محايداً ، وكما أن الإنسان لايقيّم نفسه ، فإن المرجعية هنا لا تقوم على أساس ما يقوله الغرب ، بل فيما يفعله ، فالتوراة التي قد يتم التعريض بها أو التطاول عليها ، لم تكن حائلاً دون المضي قدماً في مساندة اسرائيل التوراتية رغم العدوانية الطافحة التي تضجّ بها * . والمعجزة الاغريقية يتم الانتساب لها دون حاجة لتصريح ، وها هي تقف منذ حجر الرشيد الهيروغليفي (أيام غزو نابليون لمصر) حائلاً في وجه الحضارات المصرية ، أو على حساب الحقائق التاريخية القائلة بمعجزات سومرية وبابلية وكنعانية قبلها ، أما ما بين السور وخارجه ، فقد انتقل الوضع من (عبودية الفرد إلى عبودية الشعوب – مصطفى كامل – مصر) وتم ذلك بمختلف الغزوات العسكرية ، وحتى الطور الأعلى من الرأسمالية العالمية ، إنه قائم بين ما هو خير (ابن المدينة) وشر (البربري) شرق وغرب ، حق وباطل (**فقد حسمتُ كل المسائل الأخلاقية في ذهني ، هذه**

---

* لقد تم تسيب كل ما لم ينحدر من ماضي اليونان إلى اليونان نفسه . علماً بأن الينابيع الأولى كانت قد نُهلت من أصول آسيوية ، فالفلاسفة اليونان من أمثال : تاليس وأنكسيمين وبارميندس وهرقليطس في المرحلة السابقة لسقراط ، جميعهم ولدوا وعاشوا في المنطقة المنداحة بين الهلال الخصيب والاسكندرية اليوم .

* يقول الرب يهوه وهو يخاطب أتباعه من بني اسرائيل ، : متى أتى بك الرب إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها ، فاطرد شعوباً كثيرة من أمامك ، اطرد الحثيين والجرجاشيين والعموريين والكنعانيين والغرزيين والحويين واليبوسيين . سبع شعوب .. أكبر وأعظم منك وقد دفعهم يهوه إلهك أمامك فضربتهم .. إنك تحرّمهم ، فلا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم . (سفر التثنية) ، ثم لا يعتم يهوه إله القبيلة في أن يتحول – بعد قرون - إلى إله عالمي في (سفر الخروج) .

مسألة أبيض وأسود ، ومسألة خير ضد شر ، إننا نقاتل في صف الله)* . وما الحروب القومية والأثنية والعرقية التي يطفح بها العالم اليوم ، إلا امتداداً سحرياً للمعجزة والأسطورة والقانون ، وهكذا في سيرورة التاريخ ، أو صيرورته ، فقد شاهدنا كثيراً ارتطام الخير بالشر ! . .

فالشرق يمثل قوى البربرية الطائشة التي يتوجب احتواؤها وزجرها والسيطرة عليها من قبل قوى الخير أو العقل والصواب ، ومرة تلو مرة ، يتوجب على هذه العجوز أوروبا ووليدها الحضاري أمريكا أن تذبح التنّين أو علاء الدين ، كما يتوجب على صليبيي الأمم المتحدة أن يهزموا الوحوش وامبراطوريات الرعب التي يسيطرون عليها .

بات من السهل إذن ، أن يحيل الغرب كل الشرور على رمال الصحراء ، ثم يصدق أن الأمور على خير ما يرام في حديقته الخضراء ، فتجسيد الشر وتحويله إلى رمز يحمل وزره الغير ، يُراد به تطهير ثقافة الغرب وحضارته ، كما أن الطيش واللاعقلانية والزعرنة التي يتم بها وصم (الآخر) تعطي الغرب هويته ودوافعه العقلانية بصفته الضد أو النقيض ، ومع عصر التنوير وتنظيم دروس الموت عبر الأساطيل الجوّابة لأعالي البحار ، فإن شيئاً جديداً خرج من رأس جوبيتر ألا وهو منيرڤا : (التوسع الهائل في المخيّلة الغربية بحيث آن الأوان لوضع اليد على جميع موجودات الكون - البرت حوراني) .

لقد تعلم الغرب هنا ، أو لعلّه كان من المصلحة أن يتعلم ، كيفية تحديد فرادته ضد (الآخر) من جديد ، وأسفار التوراة بحاجة إلى تحديث متناغم مع اتجاهات البوصلة الجغرافية ، فإذا كان هذا العالم الجغرافي - وليس بالضرورة الشعوبي حسب التوراة - محل نزاع وتفكك ، فذلك لأنه بعيد بعد المحيطات عن الحداثة ، أما الغرب فإنه يشكل طباقاً أو (ضداً) لهذه العوالم التي تعيش لاحداثتها المغرقة ، وحين تعلّم الغرب توظيف اختلافه عما هو (غير أوروبا) ذهب بأجنحة سوبرمانيته لاغتيال التاريخ بمفعول رجعي ، كي يفرض هيمنته على ثقافات الغير الأدنى .

---

* من خطاب لجورج بوش قبل توجيه جيوشه إلى الخليج عام ١٩٩٠ - نقله كيين روبنز في مجلة الماركسية اليوم .
عدد اذار ١٩٩١ .

على هذا الأساس وقبل قرنين فقط ، صارت أوروبا نقطة مرجع الكون ، وحيث أنها رسمت خريطتها الرمزية بمقاييس الحداثة ، فإنها هي التي اكتشفت التاريخ والشعوب ، والمكتشف بمثابة الخالق ، وإذن فإنه لولا الغرب لما كان بمقدور الشرق أن يوجد * ، والموجِد (بكسر الجيم) غير الموجَد (بفتحها) وعليه فإن ما أقامه الغرب تجاه الشرق ليس سوى الدونية والعجز والإذلال .

وهكذا فإن هذه المواجهة تتخذ أشد أشكالها صدامية مع الاسلام ، فمنذ عهود الصليبية الأولى (حيث المتهم هو الصليب دائماً) والعلاقة بين الشرق والغرب * تقوم على فقدان الثقة وانعدام التواصل وسوء النوايا ، فهناك تاريخ من الدماء والسلب والتدمير والنشاطات المفجعة الأخرى ، وهناك لاحقاً ، التجربة الالزامية غير الطوعية ، التي يريد الغرب الحديث أن يفرضها ، كغزو صليبي جديد على المنطقة العربية - الاسلامية ، وفي غمار النزعة الكونية التي ينسبها الغرب لنفسه ، ينشب الصدام مع جانحة الأصالة في المنطقة ، غير أن الصدام بحد ذاته ليس صراعاً يدور حول الحداثة أو ضدها ، فهناك في الشرق جملة من الأفكار النزّاعة لحداثة غير حداثة الغرب (تلك التي أودت إلى الايدز والمخدرات والعُنف) ، وكل ما هو غير متصالح مع مفهوم الله ، وهناك الدور التاريخي الذي لا يريد الغرب أن يعترف به ، وهناك إنكار غربي لجسر الوصل الراقي الذي قدمته علوم الاندلس (للعالم الآخر) الذي هو أوروبا آنذاك ، ثم هناك تاريخ من نصاعة حضارة مشرقية لا يحب الغرب أن يراها في مرآة حاضره ، والحقيقة أن الغرب هو المأزوم مع نفسه في العمق الانساني ، وكما أن الذرة تبني وتقوض حسب توجيهها (لو كنت أعلم ما الذي سيؤدي إليه اكتشافي - النظرية النسبية عام ١٩٠٥ - لدمرته دون أن أبوح به - آينشتاين) .

---

* ها هنا تحايل على العلم ، فعدم اكتشاف الشيء لا يعني عدم وجوده ، أما المكتشف فليس خالقاً في جميع المقاييس .

* يسعى الغرب عادة لتسمية المسلمين والمسيحيين كطرفي عداوة تاريخية في النزاع ، وقد بات معروفاً باقرار من الغرب نفسه ، بأن المسألة آنذاك لم تكن تدور حول الصليب وحمايته ، ومبدأ الصلب أساساً ينبع من مفهوم عقابي وحشي غربي أي روماني ، أما الصليب كمفهوم شرقي إنساني فهو دليل افتداءٍ وتضحية .

كذلك الحداثة لها جانب وحشي لطالما استخدمه الغرب ضد الانسانية وحتى نفسه ، وعلى سبيل المثال لا الحصر ، فإن (القنبلة الذرية - آرثر كاميثون ١٩٤٥ والقنبلة النيوترينية - صموئيل كوهين ١٩٥٨ والقنبلة الهيدروجينية - ادوار تيللر ١٩٥٢) وغيرها من الجوانب التطبيقية لمكتشف آينشتاين ، **كان يمكن أن يذهب لاخضرار الحياة فوق مجموع الكرة الأرضية ، بدلاً من أن يذهب لقتل الناس بالجملة ، وهنا تتبدى الوحشية ، أو وحشية الحداثة التي سرعان ما تنتصب كحكم إذا ما ووجه المشروع الغربي بأية مقاومة محلية أو اقليمية أو عالمية . .**

أما الاسلام كما يوصف هناك ، فليس وحشاً دخيلاً على المدنية ، وهو ليس متخلفاً مناهضاً للحداثة ، ولا هو بدين ازدراء العقل * ، والمشكلة أن الغرب هو الذي يحول دون حداثة الشرق وعقله ، وها هو جان بيير شوفيمنان وزير الدفاع الفرنسي إبان حرب الخليج يقولها علناً (لأربع مرات في غضون قرن واحد ، ابتداءً من محمد علي باشا ومروراً بالشريف حسين فعبد الناصر وانتهاءً بصدام حسين ، يحطم الغرب بوحشية السلاح ، حلم نهضة عربية ، ودخولاً عريضاً إلى خط صناعة التاريخ العالمي المعاصر)* .

فإذا ما انخرط الشرق في سيرورة التحديث ، لا بد عندها من اعتباره عملاً معادياً للحداثة ، حيث لا يمكن أن يكون مقبولاً لدى العالم المتمدّن ، فهو مثل (وحش فرنكشتاين) الذي قتل مخترعه ، ولا بد هنا من (استعادة العقل) باسم التقدم الكوني للانسانية ، بيد أن الشرق بصفته جزء من العالم ، فهو إذن جزء من حداثته ، فكيف يمكن فصله من حلقة الكون بغير العنف ، ومع نشوء العنف على الجانبين - شرق وغرب - يتم تصدير إعلامي هائل ، عن الفروق بين (السلوك العقلاني) (والسلوك الهمجي) وأن العقل الغربي إذا استوطن العنف ، فهو على حق ، وأن عقل الشرق العنفي إنما هو الشرّ

---

* أحاول هنا استخدام التعابير نفسها التي يطلقها الغرب عموماً على الآخر ، والاسلام هو بؤرة هذا (الآخر) اليوم ، وعلى طريقة التضاد ، هناك ثقافتهم وبربريتنا ، وهناك إنسانيتهم أمامها وحشيتنا ، وهناك عقلانيتهم يقابلها تخلّفنا والمشكلة أن هذه الصفات ، ستبقى سرمدية ، حسب مفهومهم عنّا . .

* في كتابه الأخير (فكرة ما عن الجمهورية تقودني إلى . .) أي إلى الإستقالة من منصبي . يذكّر شوفيمنان بالعديد من الوقائع التاريخية الوحشية التي مارسها الغرب حيال الشرق في غضون قرن فقط .

بعينه ، (وعلى مسرح الشرق كم يغوينا ما يقوم به علم الغرب باسم الحرية والحضارة - مرآة الجهالة - كيڤن روبنز - حرب العالمين الأولى - شركة الأرض للنشر ص ٧٠) .

إن الفكرة الغربية سوف تحمل بعناد ، طورها التاريخي الذي سيظل محكوماً بالأوهام ذاتها وبمركب الخوف من الآخر ، تماماً مثلها مثل تاريخها البائس الحافل بالاقتتال الدموي على ما هو (أنا) ، أبيض على أسود ، مدني ضد بربري ، وخير ضد شر (فنحن ضد كل من يقف في وجه مشروعنا بأي ثمن - المصدر السابق) .

في بغداد أو بيروت ، في الخليل أو عند مدرسة بحر البقر في مصر ، وقفت امرأة عربية يغلي في عينيها غضب حبيس ، ما لبث أن انفجر كرعد السماء ، وأمام حشد من صحفيي الغرب صرخت :

- أهذه إذن هي حضارتكم الغربية ؟! . .

ثانيا / وقفة على ضفاف البوسفور

> إن هناك جمالاً مفجعاً في هذا الإيمان العميق بالقدر وتقطيع الأوصال ، ومع ذلك يحارب هذا الرجل حتى آخر نَفَسْ ، أستطيع أن أتصور نبوءة عبد الحميد الآن . . حيث لا يمكننا بالفعل امتلاك فلسطين دون انهيار الامبراطورية العثمانية وتقطيع أوصالها .
>
> تيودور هرتزل .

لا مجال للتعويض في التاريخ ، فقد انتقل مركز العالم الجديد إلى قارة الصناعة الأوروبية ، وانهزمت الامبراطورية التي رعت العرب والمسلمين خمسة قرون أو أكثر .

ولم تكن الوقائع عند هذا التاريخ ، تدور بين شرق وغرب ، بل بين غرب وغرب ، فيما مثلّت الامبراطورية الاسلامية إحدى حلقاتها على الأطراف ليس إلا .

كانت الامبراطورية قد ذوت في عزلتها ، وذبلت فروعها قبل ذلك بكثير ، وها هو زعيم الاصلاح مدحت باشا يبعث للسلطان من منفاه في الطائف (**إن الحقيقة دوماً هي آخر ما يسمح له بدخول قصور السلاطين**) ومن غرفة خاصة نافرة ، كان السلطان عبد الحميد ، يداوي جروح الامبراطورية المثخنة ، فيما ممتلكاته كانت ماتزال تمتد من البلقان إلى جزر اليونان فالهلال الخصيب كله مع الحجاز وحتى الساحل ما بعد ليبيا .

كان الخيار دامياً ، فبعد أن قبعت امبراطوريته في حياة الجاريات ومستنبت المؤامرات ، كان عليه إما أن يترك مناطق من امبراطوريته تعبث فيها الذئاب الكاسرة ، أو أنه يعند ويتمسك بها بقوة فتزيد الحركات الانفصالية عنفاً ، كتلك الحركات التي كانت تنتظر

فرصتها للإنفجار أو الثورة في كل حين .

وفي مستهل حياة السلطان الأصغر ، لم يخف عبد الحميد اعجابه بالغرب على الطريقة الألمانية ، ذلك بأن الامبراطورية الألمانية تتشابه من حيث انقسامها إلى مجموعات من الممالك والدوقيات ، مما جعلها عرضة للهجمات الفرنسية والروسية ، أما وقد اتحدت ألمانيا وتمركزت ، فإنها سرعان ما الحقت الهزيمة بالنمسا بعد أن هزمت روسيا العدوّة التقليدية للامبراطورية العثمانية . . .

لقد ارتاب عبد الحميد بالغرب في الأيام المفعمة بالأمل حين رأى بريطانيا وهي تربط مصر – أيام اسماعيل – بقلادة من الكلمات الواهية ، وزادت ريبته حين تولى الأوروبيون شؤون مصر المالية ، فقدّموا المكافآت السخية لثوار البلقان ضد الامبراطورية ، وحين نضج (الأمير عيد الحميد) فهم ما الذي تحتاج إليه الامبراطورية ، وكانت هذه الآراء قد تبلورت حين دعاه مدحت باشا زعيم المصلحين إلى ارتقاء العرش عوضاً عن أخيه مراد الذي أسرف في المجون والسكر والعربدة .

القوة هي الشيء الأهم ، فأيام كان المشاة العثمانيون أقوياء والنظام العثماني قوياً في القرنين الخامس عشر والسادس عشر اتسعت الامبراطورية ، والحال فإن القوة هي مفردات على الواقع ، فبدون ادخال السكك الحديدية وخطوط البرق وتنظيم البريد . . الخ وإزالة الفساد والفوضى ، فإنه لا مجال للوصول إلى القوة . أما قوة الغرب نفسه ، فليست مستمدة من الدساتير والكلمات سواءً أكانت مكتوبة كأمريكا ، أو مفهومة كبريطانيا ، أو متغيرة كفرنسا ، بل هي مستمدة من الآلات والسكك الحديدية والمدافع والعربات ، وهو فصلٌ مُتعسف للنتائج عن مقدماتها . .

لقد كابد الاصلاحيون مشقة اقناع عبد الحميد باستصدار دستور جديد للبلاد ، ورغم

امتثاله لاحساسه بأن الدستور يقدم بعض الفوائد ، إلا أنه كان مقتنعاً بأن الصراع الحقيقي ليس حول الأفكار والكلمات بل العمل من أجل استرداد قوة الامبراطورية ، فأوروبا تطمع في أرض تحتل موقعاً استراتيجياً أو تخفي ثروة ، والامبراطورية تمتلك مثل هذه المواقع والثروات ، ولا بد من مشروع عاجل يضمن سلامة الامبراطورية واستمرارها .

وعلى مبدأ أرخميدس ، عثر السلطان على جواب لسؤاله : **كيف يمكن جمع هذه الامبراطورية المترامية ، أو على الأقل ما هو الرابط الذي يوحّد ثلثي سكان هذه الامبراطورية ؟**

وبتحديد السؤال حول الثلثين فقد وصل إلى مقاربة مع الجواب ، وكان قد سمع لتوّه من المسجد العائد منه يوم الجمعة ، بأن (الفتنة عند الله أشد من القتل) لذلك قرر العودة إلى ما انطلق منه أجداده ، ورأى أن في الاسلام خير مخرج للامبراطورية . . .

فالسلطان بقبوله الاسلام كرابطة سياسية لم يخالف التقليد الاسلامي ، بل بالعكس ، فقد رجع إلى تقاليد أسلافه من قبل ، والاسلام لم يفصل بين المسجد والدولة ، كذلك فإن الخلفاء أداروا شؤون الدين والدولة ، والسلالة العثمانية ارتفعت إلى المجد أواخر العصور الوسطى بدفاعها المستميت عن الاسلام ، فهزمت بيزنطة وكان الدفاع عن حدود أرض المسلمين يقوم على اخلاص نادر ، يتحمّله السلاطين الأشداء مهما كان الحرمان والإجهاد ، ولم يكن ليفسدوا بسرعة فساد ملوك اللاتين ، ثم إنهم أظهروا جرأة وواقعية على خلاف ما ترسّب في أذهاننا من صور الإنكشارية والفوضى ، وحتى الخلافة فإنهم لم يدعوها لأنفسهم فالخليفة يكون من قريش ، وهكذا اصطحبوا معهم حين احتلالهم مصر في القرن السادس عشر آخر خلفاء بني العباس إلى القسطنطينية ، ولم تمتد أيدي السلاطين العثمانيين إلى الخلافة ، إلا بعد أن وهنوا ، أي بعد زمن طويل من عمر الامبراطورية الفتيّة . . .

كان السلطان عبد الحميد بعزوفه عن الغرب ، يرى أن راية الاسلام لا تستطيع أن تكسب قلوب المسيحيين من مواطني امبراطوريته ، فجزر اليونان (العثمانية) كانت قد انفصلت منذ العشرينات ، والبلغار والرومانيون والصرب وأهل الجبل الأسود كانوا يعدون لاتباع الطريق نفسه ، وظلّت الجزيرة الشاذة في هذا المحيط وهي ما تمثّله (البوسنة والهرسك) إلى اليوم ، فقد وجد مسيحيّوا الامبراطورية دعماً أوروبياً قوياً سيؤدي إلى انفصالهم عن الجسد العثماني ، لكن اللجوء إلى الاسلام من جديد ، يمكن أن يجمع مسلمي البلقان والقسطنطينية والأناضول ومسلمي الشرق الأوسط كله ، كذلك مسلمي ايران من الشيعة ، فقد بدا الاشمئزاز على وجوه الشباب الايراني جراء ملكيتهم الفاسدة ، وبدأوا يتطلعون إلى القسطنطينية ، وفي هذه المرحلة كتب الدبلوماسي والعسكري الايراني المعروف حسن عرفه ما يلي : (لقد كنت أحلم بتحالف بين ايران وتركيا ، يتبعه اصلاح شامل لأحوال الدول الاسلامية الأخرى ، واشتعلت فيّ الرغبة لأن أقوم بشيء من أجل ذلك ، كنت شاباً مؤمناً بالإسلام ، على الرغم من حياتي الطويلة في باريس ومونت كارلو ، ومع أني لم أكن في بلد اسلامي ، ولم أعرف شيئاً عن شعائر الاسلام ، حيث ربتني والدة مسيحية اعتنقت الاسلام واحتفظت بعواطفها لدينها الأول ، إلا أنني كنت أعتبر ، بألا مخرج للمسلمين بغير رجوعهم إلى ينابيع سلفهم الصالح) *.

« إن الاسلام هو الطريقة الفعلية الوحيدة التي يمكن بها مقاومة الغرب المعتدي ، وإن صيحة (الله أكبر) خير مثل أعلى يلمّ شعث الامبراطورية » هذا ما قاله جمال الدين الأفغاني لعبد الحميد ، ومن يومها فقد لبس السلطان ، رداء خليفة المسلمين من جديد . .

لقد طَبعَ الخليفة - السلطان ألوف النسخ من القرآن الكريم على نفقته الخاصة ، ووزعها على كافة أنحاء العالم الإسلامي ، وما أن أشرفت سكة حديد بغداد على سلسلة

---

* دزموند ستيوارت ، تاريخ الشرق الأوسط . دار النهار ص ١٣٢ .

جبال طوروس واكتشفت أوائل آبار النفط في بلاد ما بين النهرين ، حتى شعر الخليفة بأنه قاب قوسين أو أدنى من تحقيق السعادة الروحية والمادية لمواطني الامبراطورية المسلمين . لكن العالم كان قد وصل إلى مشارف القرن العشرين ، والتداعي كان قد بدأ منذ العام ١٥٧٠ م حين توالى على الامبراطورية ثلاثة عشر سلطاناً غير أكفاء على التوالي ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن النتائج لم تظهر جليّة إلا بعد قرن من هذا التاريخ ، وهذا الإنحناء كان نتيجة طبيعية للإفراط في التوسع العثماني الذي حاول الذهاب إلى أقصى أرجاء الأرض . وكان لذلك كلفة باهظة في المال * ، والرجال فالجيوش المتمركزة وسط أوروبا ، والبحرية التي تتطلب تكاليف باهظة ، والقوات المنتشرة في شمال أفريقيا ، وجزر بحر ايجه وقبرص وحتى البحر الأحمر ، والتعزيزات المرسلة على الدوام إلى بلاد القرم للوقوف ضد الأطماع الروسية . . . الخ .

وفي الشرق الأدنى بدأت تلوح في الأفق علائم انشقاق ديني خطير ، وهو ما حدث عندما تحدى الشيعة في فارس والعراق ، الممارسات العثمانية المرتكزة إلى مذهب السنة ، ولم تكن الامبراطورية - الخلافية لتستطيع أن تحافظ على هيمنتها إلا بسحق المعارضة في كل مكان ، وعلى أي حال ، كانت مملكة الشيعة في فارس وفي ظل عباس الأكبر ، مستعدة تماماً للتحالف مع الأوروبيون ضد العثمانيين ، وكان ذلك في حينه يمثل الخطر الأكبر على الامبراطورية العثمانية ، ومع هذا العدد المتكاثر من الخصوم ، كانت الامبراطورية في حاجة ماسة إلى قيادة قوية وماهرة للحفاظ على ازدهارها ، ولم يتقيض لها ذلك . غير أن الأعداء الخارجيين وفقدان المبادرات القيادية التاريخية ، لا تقدم التفسير الكامل لبداية انهيار الامبراطورية ، إذ هناك عيوب ظلت تكمن في جوهر النظام من حيث مركزيّته واستبداديته وتشدده في مواقفه تجاه روح المبادرة والمعارضة والتجارة . وفي ظل

---

* كانت النزعة الامبراطورية العثمانية على عكس الإسبانية والهولندية بعدها الإنكليزية ، إذ بواعز من التعاليم الاسلامية الحقيقية ، لم تحقق الكثير من المكاسب الاقتصادية في بداية النهوض .

هذا الوضع ، كان بمقدور سلطان أحمق ما ، أن يشلّ حركة الامبراطورية كلها ، بنفس قوة السلطات الاستبدادية التي كانت في أيدي الأباطرة والملوك وبابوات أوروبا ، فبدون أوامر سلطانية عليا ، كانت تتصلب الشرايين في العروق ، وتختنق كل سانحة للإبتكار ، وقد تسبب توقف التوسع وما يصحبه عادة من غنائم تغذّي خزائن السلطان ، مع الزيادات الكبيرة في الأسعار - منذ منتصف القرن السادس عشر ، إلى تحوّل في الانضباط العسكري وبزوغ نزعات إنكشارية فوضوية تجلّت أكثر ما تجلّت في عمليات النهب الداخلية ، ووجد التجار أنفسهم في حالة مطالبات دائمة من الضرائب المضافة التي لم تكن موجودة من قبل ، وتسببت الرسوم التي كانت ترتفع صعداً ، إلى القضاء على التجارة التي كانت تلقى كل تشجيع سلطاني ، وربما كان الفلاحون هم الأكثر تضرراً ، فقد كان الجنود ينهبون جنى مزروعاتهم وأحياناً أراضيهم نفسها ، ومع شيوع الفساد ، تحوّل الموظفون المدنيون إلى الرشاوى والسلب والمصادرة (باسم الواقعية) ، كما أدّت نفقات الحرب المتصاعدة خلال الصراع مع فارس ، إلى أن تبحث الامبراطورية عن عوائد جديدة ، وهو ما كان يعطي للسلطات المالية ، المجردة من الضمير ، منافع خاصة لا علاقة لخزينة الدولة بها .

على صعيد آخر ، فقد أدى التّحدي الشيعي الخطر ، إلى تصلب المواقف تجاه كافة أشكال حرية الفكر ، وتم حظر الصحافة المطبوعة خشية إنتشار الآراء الخطرة ، وظلت تبعاً لذلك ، الأفكار الاقتصادية بدائية ، فيما أصبحت القوات المسلحة ملاذاً للمحافظة والتخلّف . فعلى الرغم من معرفة الإنكشارية بمزايا السلاح الأوروبي الحديث ، سواءً في البر (المدفع) أو البحر (نمط الفرقاطة البرتغالية التي أصبحت تجوب المحيطات) ، فإن الأساطيل العثمانية غالباً ما ظلت في المياه الهادئة ، كالبحر الأحمر والخليج العربي ، لأن

نموذجها القديم لم يكن يستطيع الخروج إلى أعالي البحار المائجة ، لمواجهة الأساطيل الأوروبية خاصة البرتغالية ، ذات السرعة العالية والمدافع الخفيفة ، وخلاصة القول فإن أسباباً داخلية - أقوى منها خارجية - كانت قد لعبت دوراً حاسماً في التّحول من الشباب إلى الشيخوخة ، وكان على امبراطورية عبد الحميد الموروثة ، أن تستحث خطاها لسباق بين فتى وشيخ ، بعد أن بلغ الغرب نهضته الفكرية والصناعية الكبرى .

وكان أول ما أذن بانهيار الامبراطورية ، هو ذلك الانفجار الرهيب الذي وقع على الحدود الأوروبية في مقدونيا .

فقد قام ضباط من الجيش الثالث التركي - العثماني بإلقاء القفاز في وجه السلطان لأول مرة ، وكانت العلاقة بين ضباط هذا الجيش (شركة الاتحاد والترقي - جون هاسلب السلطان الأحمر - دار الروائع ص ٣١١) قد توطدت مع المحافل الماسونية في سالونيك* ، وليس دفاعاً عن السلطان ، الذي غرق في الأخطاء وأجداده من قبله ، بحيث أُديرت الامبراطورية كمصلحة سجون ومنافي واغتيالات ، لكن الحقائق ظلت تشير إلى تسلل المؤامرة الدولية - اليهودية في المطالب العادلة للاصلاحيين الأتراك ، فمدحت باشا أبو الدستور ، الذي ظل منفياً بين أوروبا والطائف ، كان شيئاً آخر عن ضباط مقدونيا ، وقد مثّلت الشراكة بين أنور باشا وطلعت باشا وجمال بك (الثلاثي الذهبي من قادة الجيش الثالث) بؤرة تنبعث من بين جنباتها روائح الشكوك والارتباطات ، ولم يكن من المستغرب أن يعلق سفراء غربيون ، طبقاً لمصالح دولهم مع الامبراطورية ، بأن هذا الثلاثي (يعرف معرفة تامة ، بأن المحفل الماسوني الغربي - اليهودي ، كان وراءه ، وأنه يحركه كالدمية في كل صغيرة وكبيرة - المصدر السابق ص ٣١١) . ومن حيث لا يحتسب ، فقد تبلغ السلطان رسالة تحمل تواقيع اللجنة المركزية للاتحاد والترقي . وستدور

---

* حيث ظلت هذه المدينة ذات الثلث اليهودي والثلثين الآخرين المسيحي الاسلامي . مزدهرة بفعل سياسة تدليل غربية وڤاتيكانيّة .

الرسالة حول الدستور ، وهي تنذره بأنه (إنْ لم يعلن الدستور خلال أربع وعشرين ساعة ، فإن الجيشين الثاني والثالث سيزحفان إلى العاصمة) ، وكان أول إنذار يتلقاه السلطان من جيشه في حياته .

هكذا بدت علائم تفكك الامبراطورية ، من خلال إشارات صادرة من أوروبا ، وكما أن الأحداث لا يمكن تفسيرها من نهاياتها ، فإن بضعة سنوات قريبة كانت ما تزال ماثلة في الذاكرة ، عندما زار هرتزل القسطنطينية وتمكن من مقابلة السلطان ، وظل هرتزل يقدم عروضه عن المشروع اليهودي في فلسطين ، وهو مشروع سيكون موالياً للسلطان ، خاصة إذا أضيف له حسنات المعونات المالية اليهودية للامبراطورية * ، كذلك قوة الصحافة التي ستحسّن من سمعة العثمانيين التي أوعرتها القضية الأرمنية ، (**فإذا استقر المستوطنون الموالون للسلطان من اليهود في فلسطين فإنه يمكنهم تقديم المساعدة أيضاً في حال نزاع محتمل بين الامبراطورية والعرب**) (المصدر السابق) .

كان السلطان يستمع لهرتزل متعباً ضجراً إلى أن صدرت عنه إيماءةُ الرغبة بالرد فقال : (**أنصحك ألا تتقدم خطوة واحدة أخرى في هذا الشأن ، لا أستطيع أن أبيع قدماً واحدة من البلد لأنه ليس ملكي إنما هو ملك شعبي ، فقد ربح هذه الامبراطورية وغذّاها بدمائه ، وسنغذيها مرة أخرى بدمائنا قبل أن نسمح بتمزيقها ، اثنتان من فرق جيوشي جاءتا بالأمس من سوريا وفلسطين وقاتلتا في (بليڤيا) حتى آخر رجل ، ولم يستسلم رجالها ، بل سقطوا جميعاً في سبيل هذه الامبراطورية ، إن شعبي هو المالك وليس أنا ، لا أستطيع التخلي عن شبر واحد مهما كانت المغريات ، ويستطيع اليهود أن يوفروا ملايينهم ، فحين تقسم الامبراطورية سيأخذون فلسطين بلا مقابل ، لكن لن تقسم إلا جثتنا أولاً ، لأنني لن أسمح أبداً بتشريحنا ونحن أحياء**)* .

---

* كانت ديون الامبراطورية قد وصلت إلى ١٠٦ مليون جنيه في العام ١٨٨١ قبل خلافة عبد الحميد .

* نقله ديزموند ستيوارت – تاريخ الشرق الأوسط – دار النهار ص ١٥٨ ، وآخرون .

وكان هرتزل قد التقط الجواب بحسّه اليهودي المتحجر :

(إنني أتصور تماماً ما تكهّن السلطان به ، فامتلاك فلسطين لن يتم إلا على أشلاء الامبراطورية العثمانية وتقطيع أوصالها) .

هكذا وصلت فلسطين إلى سالونيك ، ثم ظهرت أجواء التقارب الفرنسي - الانكليزي بعد طول انقسام ، وتكللت المساعي الحميدة لملك بريطانيا ادوارد الثالث بالنجاح حين سعى للمصالحة بين فرنسا وايطاليا ، كذلك فإن النمسا وروسيا اتفقتا على التعاون المشترك في مجال البلقان ، على أن تبقى مقدونيا خارج الأمارات المتزاحمة ، كما انتهى الوضع إلى التفاهم بين روسيا وبلغاريا حول مسألة العرش البلغارية .

وها هي أوروبا تتنادى باسم المصلحة والعقل ، لرسم خارطة الانسجام ، بعد أن أوعرتها حروب المصالح والممالك والأمارات ، وما عدا ألمانيا التي ظلت على حلف مع تركيا حتى الحرب العالمية الأولى لشعورها بغبن القسمة العالمية ، التي أدارها خبثاء لندن وباريس ، فإن أوروبا مجاورة ، بدأت بالتفكير جدياً ، - بعد أن بدت الشعلة الذهبية لغازات النفط تلوح في الأفق البعيد - في تركة الرجل المريض ، وبعد أن عانت سكرات الموت في البلقان وجزر اليونان ومصر وممتلكاتها الأخرى .

لقد فقد عبد الحميد مهارته في السياسة - القائمة على النفاذ من نزاع الخصوم ، وأعيته ألاعيب الكبار ، بعد تحوّل الامبراطورية وانكفائها ، ومع اطلاق صرخته المريرة المدوّية : (لماذا يحاربني الجميع) ؟ كان يقف أربعة نواب (ثلاثة منهم من أصل يهودي ويوناني وأرمني) يطلبون إليه توقيع قرار بخلع نفسه ، وباستثناء رئيسهم التركي الجنرال أسعد ، فقد كانوا جميعاً أعضاء نافذين في الاتحاد والترقي ! . .

ومن سالونيك منفاه الأخير ، سيعود السلطان بعد ثلاث سنوات كمواطن عادي إلى

بلاده ، بعد أن أوشكت مدينة الثورة التركية الأولى (سالونيك) على السقوط في أيدي التحالف الثلاثي الجديد : صربيا والجبل الأسود ، وبلغاريا واليونان . . ومع ضياع ليبيا وفقدان مصر ، إثر هزيمة عرابي ، وآخر ممتلكات الامبراطورية في أفريقيا ، وسقوط جزر ايجه ، وبداية الهجرة اليهودية إلى فلسطين دون الحاجة لفرمان سلطاني ، سيقول السلطان قبل مماته بسنوات * (**لقد وقّع خليط من الخونة والجهلة على صكّ اعدام امبراطوريتهم**) . وربما أساء السلطان في استنتاجه قراءة التاريخ من قبل ، فالإمبراطورية كانت قد تخلّفت عن ركب العالم قبل انهيارها بأكثر من قرن ونصف القرن ، أما اقتسام تركة الامبراطورية المريضة ، فكانت تتفاعل في أوروبا الصناعية (في العام ١٧٦٩) منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وطوال فترة خلافته التي امتدت زهاء ثلاثين عاماً ، لم يربح عبد الحميد على طريقة أجداده ، إلا بالإعتماد على حليف خارجي أو نزاع قارّي ، وقد كانت مباريات الامبراطورية في المرحلة التي وصلت إليها بطبيعتها خاسرة ، فمصدر القوة لم يعد ذاتياً ، والنزعات الداخلية باتت تطبق بخناق الامبراطورية ، فيما يلدز - ما قبل عبد الحميد - يسهر على الشموع والجواري ، وحتى عبد الحميد الذي لم يكن مولعاً بكثرة النساء والمحظيات ، فإن التاريخ يتحدث عن مئتي جارية في قصره ، غير أن عبد الحميد المختبئ وراء حذره ، ظل بحكمة هنا ومراوغة هناك يمنع أياً من أعدائه الخارجيين من القضاء عليه ، كما أن نصف عمره السلطاني قضاه في رسم خطط اتقاء أعدائه الداخليين ، (أخيه مراد ومدحت باشا وآخرين) ، هذا فضلاً عن النزاعات العالمية التي كان لها اليد الطولى في استمرار أو سقوط عرشه ، **ومع كل هذه الظروف والشروط ، فإنها قليلة هي الأمثلة في التاريخ ، للاعب شطرنج يلعب بأقل ما يمتلك من القطع (التي ورثها) ، وفي وضع عرضة للخطر من جميع الجهات ، ويستطيع مع ذلك ، أن يستبقي نفسه بعيداً عن الهزيمة المحتومة إلى هذا الحد . . .**

---

* توفي السلطان عبد الحميد في كانون الثاني من العام ١٩١٨ ، فيما كان العالم يشهد الفصول الأخيرة من الحرب العالمية الأولى .

سيرسم ضابط شاب ممن ذاقوا مرارة الهزيمة في ميادين شتى صورة (تركيا تركية) أو تركيا حديثة بمعنى آخر ، وقد آمن برؤياه بُعيد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها . وكان عليه أن ينتظر أربع سنوات أخرى ليتلقف ثمار نضاله بإعلان جمهوريته - الديمقراطية ، والتي سيصبح هو مركزها . . ذلك الرجل هو مصطفى كامل * الملقب - بأتاتورك - وقبل ذلك بنصف عقد من الزمان ، كانت قد جرت مياه غزيرة في أنهار الأرض العربية ، وذلك هو موعد المنطقة مع الثورة العربية الكبرى بقيادة أوروبية ، وهكذا يكون الرجل المريض المتوفى لمرض تاريخي ، قد عاد فتقمص أبناءه في ولاياته التاريخية ، ومع أن المريض انتقل إلى رحمته ، إلا أن عدوى مرضه المتفشية كانت قد أصابت بالشلل كل ما حوله ، وسيمضي زمن طويل (لم ينته حتى الآن) ، قبل أن تستفيق المنطقة على (لغز الحلول) الذي تم بموجبه استبدال الخارج - القديم بالخارج الجديد ، حيث من جديد ، ستدور المنطقة حول حوافي الفعل التاريخي ، الذي ظل قائماً ومستمراً بمعزل عنها ، أي رغماً منها ، فيما يكمن دورها في تلقّيه أو الاستسلام له ، وكل ما كان يخرج من منطقتنا في السنوات التالية للثورة العربية ، إنما كان يخرج عن ردة الفعل وليس الفعل بذاته ، وفي الأساس بدا تاريخنا الخارج لتوه من بطن الامبراطورية العثمانية ، وكأنه ليس تاريخنا ، ذلك أن زمانه لم يكن زماننا ، وإن كان في مكانه مكان لنا ، إلا أننا لم نكن نوثّر أو نشارك في التأثير بصنعه ، أو بمتغيّره أو بمحركه الفعلي ، فوجودنا التاريخي بات ملحقاً بتاريخ الآخرين ، منذ سقوط هذه المنطقة على خرائط الغير ، حيث لم نرسم خارطة خاصة حتى الآن ، أما لزومية أن نكون في هذا التاريخ ، فذلك ما يتم بالقسر ، أو بمقتضيات الفعل التاريخي لغيرنا ، وهو ما يفرض علينا وجودنا ومستوى حضوره .

حتى الآن ، وكأنه ليس لنا خيار سوى المثول لهذه الآلية الالحاقية المستبدة ، حيث يشكل الخروج عليها (استمرار الثورة العربية حتى الوصول إلى الدولة الواحدة مثلاً) ضرباً من الهروب إلى الوجود الانتحاري أي اللاوجود أصلاً .

---

* قائد معركة غاليبولي المظفرة ضد الجيوش الإنكليزية والاسترالية والنيوزلندية .

في الواقع فإن هذه الآلية تأسست تاريخياً وفق نظم المفهوم الأوروبي ، وليس شيئاً آخر ، فتاريخ سايكس- بيكو لم يكن أول مثال على هذه الآلية ، إذ منذ القرن السادس عشر وما بعده ، وأوربا ساهرة على تأسيس (ذاتها الأوروبية) والإنطلاق إلى مجالها الحيوي ، ورغم ظهور الثورات وسيلان الدماء نهاراً جهاراً ، فإن أوروبا لم تظهر مطامعها وكأنها مستندة إلى القوة الغاشمة ، بل السعي إلى (تمدين الآخر) ، فالاستعمار كان ذو رسالة حضارية شاملة ، وهو يستند في جوهره إلى طبيعة قيمية ، أما الشرق الخارج من أنغال بني عثمان ، فإنه يتعرض للاكتشاف لأول مرة في تاريخه ! . .

من هنا ، فإنه بوسعنا القول مع السياق نفسه ، بأن المنطقة سبقت من اللاتاريخ إلى التاريخ ، وبموجب تحديدات غربية ، فقد وُصمت المنطقة بأنها لا تمتلك خصوصية ذاتية ، بل ربما (ذات خاصة) ملقاة أو ضائعة في بريّة الأزل ، فهي إذن طبيعة غافية خارج الزمن التاريخي ، وهنا لابد للمكتشف أن يعلن اكتشافه وتطبيقاته ، فهو بصفته تلك ، يمتلك قدرة التحكم الخاصة للصانع إزاء المصنوع ، وهكذا إلى أن تشيع (التطبيقات) في أرجاء العالم المُكتشَف ، فتتم السيطرة على المكان الخاوي الذي هو بحد ذاته (الموجود الطبيعي) لصالح (الموجود التاريخي ، وقد شاهد العالم فضائل التطبيقات في أمريكا الشمالية والجنوبية (الهنود الحمر) كما شاهدها في حالة استلاب شاملة لقوة عمل الانسان المجلوب على وقع السياط من القارة السوداء ، ثم بدا أنه يشاهدها في المنطقة السمراء لعرب فلسطين ، بل ومناطق أخرى لعرب وغير عرب في قارات العالم ، ومع تحسين الأداء أوائل القرن العشرين ، فإن الرياح ستقذف بأشرعة السفينة العربية ، من شاطئ إلى آخر ، عن طريق وسيط في الأحداث ، اسمه الثورة العربية الكبرى ، حيث قُيض للغرب أن يكتشف المنطقة عن طريقها ، وذلك بعد أن عزّ عليه الاكتشاف منذ حطين .

ثالثاً / عاصفة في الصحراء ...

حين دخلنا دمشق ، اشتعل الناس حماساً ، وفي المدينة هتف الشعب باسم الثورة العربية، وحين جاء فيصل إلى مؤتمر الصلح ، قاتلت إلى جانبه نصف قتال ، وحين أخرج من دمشق لم أسارع لنجدته كما كنت أفعل أثناء الحرب .. هل كان كل شيء تزويراً بتزوير .

أعمدة الحكمة السبعة – لورنس .

كان الراسم الأول لخطة الثورة العربية ، كما تقول المصادر الغربية ، المقيم العام الانكليزي في مصر ايرل كيتشنر ، ومع ذلك فقد غرق مع أول يوم من انطلاق الثورة العربية ، وقبل ذلك ستفتح أبواب الوكالة البريطانية في القاهرة ، كي يلج أمير عربي يرتدي عباءة حريرية مع كوفية وعقال مُذهّب ، وسيعرف كيتشنر بأن الزائر هو ثاني أنجال الشريف واسمه الأمير عبد الله .

كان عبد الله كما تصفه السيرة ، من أبرع أبناء الشريف وأشدهم دهاءً ، ويصف لورنس في أعمدة حكمته السبعة أبناء الشريف فيقول (كان عبد الله حاذقاً أكثر من اللزوم ، وعلي عفيفاً أكثر مما ينبغي ، وزيد بارداً إلى درجة الصقيع ، ثم توجهت إلى فيصل نجل الشريف الثالث ، فألفيته زعيماً لا ينقصه التوازن بين الحماس والحكمة) .

أمام الفيلد مارشال كيتشنر ، أثار الأمير عبد الله قضيته الحجاز ، فلما رأى تواصلاً من المارشال ، مدّد عبد الله سؤاله خلف الحجاز وقال :

– ماهو موقف بريطانيا من ثورة عربية شاملة ؟ .

ولم يشأ المارشال المتمرس بسياسات المنطقة ، أن يجيب بصراحة السؤال واكتفى بالقول : (إن الصداقة التقليدية بين تركيا وبريطانيا * تجعل من المستحيل على البريطانيين أن يتدخلوا في شؤونها الداخلية ، أما الاضطراب في الحجاز فشأن داخلي) .

قام الأمير عبد الله بتذكير المارشال ببسط الحماية البريطانية على الكويت ، وهي محمية عثمانية ، غير أن الانكليزي الحذر اكتفى بابتسامة باردة .

ومع أن مكّة لم تكن بالضرورة مركزاً للخلافة التي حاول الهاشميون منازعة السلطان العثماني عليها ، إلا أنها احتفظت بمقامها الديني عبر القرون ، فهي محجّ المسلمين وأولى القبلتين ، وهي مسقط رأس الرسول العربي ،أما العائلات الهاشمية التي ترجع إلى شجرته – آل البيت – فقد أصبح رجالها من ذوي الزعامة ، وكان نفوذهم يتناسب طرداً مع ضعف السلطة التركية – العثمانية .

وبدهائه المعهود ، كان السلطان عبد الحميد ، لا يرغب بتقويض الزعامة الدينية للأشراف الهاشميين ، بل التخفيف من دورهم ، أما السنوات الخمس عشرة التي قضاها الشريف حسين في القسطنطينية كشريف ذي عقل راجح كبير المقام ، فقد مكّنته من الاطلاع على الأمور عن كثب ، وبالبصر مع البصيرة ، رأى الحسين بن علي ، ضعف الامبراطورية العثمانية إذ انفصلت عنها شعوب البلقان واحداً إثر آخر ، ثم جاءت الضربة التي تلقتها الامبراطورية جراء هيمنة بريطانيا على مصر وتعزيز دور الخديوي فيها ، كذلك شاهد البرلمانات الأوروبية التي تحكم عوالمها بالحوار والأكثرية ، ولم تتبدل استنتاجاته بظهور تركيا الفتاة بديلاً للسلطنة ، وها هي تُظهر شيئاً مجاوراً للعنصرية التركية ، حتى قبل أن تتسلم الحكم بصورة نهائية .

فدعاة القومية التركية كانوا من أطراف الامبراطورية ، كذلك هم دعاة القومية العربية أبناء الصحراء البعيدة ، وهكذا بدأ الإنتشار الأول في مصر ، البعيدة عن مركزية الصدر

---

* كانت المرحلة المحمومة للتنقيب عن النفط قد بدأ سعارها في العام ١٩٠٨ عندما تم خلع السلطان عبد الحميد ، وكانت المنطقة المليئة بالنفط مازالت تابعة لتركيا ، ولن يجازف كيتشنر بابداء آراء خرقاء ، وتركيا مازالت مترددة في الإنضمام لأطراف الحرب العالمية الأولى .

الأعظم . وساعد كرومر حاكم مصر الفعلي آنذاك ، في تغذية النهضة الصحفية الموجهة ضد الأتراك . وكان الإعجاب بطريقة الحياة الغربية وديمقراطيتها ، مصدر إلهام للعودة إلى التاريخ ، فالعرب غير العثمانيين ، وقد سهّل ذلك في البدايات ، تكوين القناعة التي فضلت التردد ، بضرورة الانفصال عن الامبراطورية التي أعلنت نفسها حامية للإسلام نفسه .

كان العرب يشعرون بفخر الرجوع إلى الإسلام الأول ، الذي أُوحي به إلى نبي عربي في كتاب عربي ، وأن فرسان ابن الوليد والجراح والوقاص وأبناءهم من بعد ، على قلّة معرفتهم بحروب البحار والحصار - استطاعوا أن يستولوا على نصف الامبراطورية الرومانية في الشرق ، وأن يخضعوا الأكاسرة في فارس ، وظهرت امبراطوريات عظمى كانت تدين لدمشق وبغداد ، **أما الخليفة الحقيقي بناءً على حديث نبوي ، فيجب أن يكون من قريش ، ومع هذا ، يجب أن يكون أمير المؤمنين عربياً له أنف كمنقار الصقر ، لا تركياً أفطس الأنف ، لكن انحلال العرب في تاريخهم ، هو الذي أودع في نفوسهم ، ذلك الشعور بالاستكانة والنقص . . .**

كان فرسان العروبة قد بدأوا بالظهور في شوارع القاهرة الأمامية ، فيما آثر الآخرون في دمشق وبيروت ، حياة التقيّة والاختباء ، إلى أن يفرّ المسيو فرانسوا جورج بيكو من قنصليته العامة (الفرنسية) في بيروت تاركاً ، أوراقه السرّية خلفه ، وهي التي ستدين العديد من العروبيين الذين ستعلّق رقابهم على أعواد مشانق جمال باشا السفّاح في بيروت ودمشق .

وإلى هذا التاريخ ، أو ما قبله ، لم يكن الوضع حاسماً بالنسبة لآخرين من مواطني الامبراطورية الاسلامية ، فقد رأوا في المارونية المسيطرة في لبنان ، ارتباطاً بفرنسا واتصالاً بروما ، كما رأوا في الدروز اعتماداً على بريطانيا ، وفي الأقباط ارتباطاً بمصر ككيان منفصل ، وإن تذمّر العرب من الأتراك ، يجب ألا ينفصل عن تذمر الأتراك أنفسهم أو الفراق ، وأن المسألة كامنة في العجز الذي تسببه السلاطين - لا الإسلام - في وجه

الغرب ، فلماذا تفكيك الامبراطورية على أساس من قومية وقومية ، والاسلام نفسه يقول أن الفضل للأتقى ، لا للعنصر أو السلالة ، والطريف أن دعاة هذا الرأي ، لم يخفوا إعجابهم بالغرب نفسه ، وقد قيض لبعضهم ، ممن تولّوا القيادة ، أن سافروا إلى أوروبا واعجبوا بالمنجزات الغربية رغم مقاومتهم للسيطرة الغربية على المنطقة الاسلامية ، وقد تمّ اعترافهم بالتقدم المادي الذي أحرزته مصر في عهد محمد علي بمساعدة المستشارين البريطانيين والفرنسيين ، وقالوا أن العلم يجب أن يؤخذ من لندن أو باريس ، لا من بلد الشريف نفسه .

غير أن المشكلة الخلقية التي سيعاني منها ، أصحاب شعار الامبراطورية الاسلامية الموحّدة ، ستكون في (إعلان الجهاد المُضخّم *) الذي سينتشر انتشار النار في الهشيم ، فالجهاد لا لخليفة المسلمين بل لأنصاره من الألمان المسيحيين ، والمشكلة أن رفض الدعوة الجهادية من قبل أنصار وحدة الاسلام ، لكونها بدعة خبيثة ، ستضع الرافضين المسلمين ، في عداد الرافضين الآخرين : (من المسيحيين الذين ربطوا أنفسهم بفرنسا وبريطانيا أصحاب السجل الأسوأ في إخضاع المسلمين ، من سجل الألمان حلفاء تركيا المسلمة - دزموند - تاريخ الشرق الأوسط - ص ١٩٧) .

لقد رأى الشريف في هذه المرحلة ، وشاركه في رؤيته إبناه عبد الله وفيصل ، بأن الفرصة قد أينعت للخروج من المأزق ، لكن بطريقين متعاكسين تماماً ، ففيما كان يرى عبد الله انتهاز الفرصة للانقضاض على الأتراك من الخلف ، كان يرى فيصل العودة لوضع اليد مع تركيا المسلمة ، فبريطانيا وفرنسا احتلتا مساحات واسعة من العالم الاسلامي ، وهما بنيّة توسيع هذا الاحتلال بجشع لا نظير له . وكان فيصل يحلم أن تتحول تركيا إلى امبراطورية مزدوجة ، تركية وعربية ، فإذا جاء الرهان خاسراً ، يكون الشعبان قد قاتلا عدوهما المشترك تحت راية دينية واحدة .

---

* قرار تركيا الدخول في الحرب العالمية الأولى ، إلى جانب طرف المحور ، إذ ما دخل الجهاد حين تلج دولة إسلامية صراع المصالح بين طرف مسيحي وآخر مثله ؟ . .

بالنسبة لفيصل ورهانه ، فقد خسره قبل أن يبدأ ، ففي ربيع ١٩١٦* أعلن جمال باشا عن اكتشاف خلايا انفصالية في بيروت ودمشق (أوراق القنصلية الفرنسية في بيروت) ، وسرعان ما قدم الحاكم التركي المتآمرين إلى المحكمة ، التي ستحكم بشنقهم فوراً (شهداء أيار في بيروت ودمشق) ، وسنسمع يومها صرخة الحسين الشهيرة : فقد طاب الموت ياعرب .

وحيث أن الصراخ في المعارك لا يكفي ، فقد تعثرت الثورة أمام أبواب المدينة المنورة ، بعد أن كانت مكة قد فتحت أبوابها ، وكان الاتراك المحاصرون في المدينة قد أعلنوا عدم استعدادهم للاستسلام أو الإنسحاب ، وبدا أن الحسين سيقف عاجزاً إن لم تسعفه النجدات البريطانية بالسلاح والمال ، ويبدو أن هذا التلكؤ كان مقصوداً ، واللعبة يجب أن تنطلق من البداية ، فقد ذكرت إحدى وثائق الخارجية البريطانية ذات الرقم ٨٨٢/ ٢٥ التي أفرج عنها بعد فوات زمانها في الصفحة ٨٣ منها ما يلي :-

(لا بأس أن يُمنى الحسين بهزيمة محدودة غير حاسمة ، فهذا من شأنه أن يدفعه في دروب التواضع ، ويقنعه بأن نجاحه يتوقف على مساعدتنا)* .

ويتضح من هذا أن البريطانيين قد قرروا العمل باتجاه واحد ، وهو أن يمسكوا بدفة السفينة في كل الأجواء والأنواء ، بحيث لا تفلت فتكون رهناً بمشيئة الحسين الطامح لأكثر مما تتحمله استراتيجية الامبراطورية العظمى ، كما قرر البريطانيون السعي في آن واحد ، لأن يفهم الحسين هذا المغزى دون مواربة ، وهو ما يتيح المجال لفتح الصفحات القادمة من كتاب الثورة العربية الكبرى ، هذا وسيُرفض طلبُ الحسين تزويده بالطائرات والمدفعية والبنادق الحديثة ، حيث بعد مماطلات مضنية تم امداد الحجاز بكمية صغيرة من الأسلحة القديمة .

---

* كانت إعدامات أخرى مماثلة قد جرت في آب من العام ١٩١٥ وكان الشريف حسين قد شرع لتوّه باعداد الأجوبة على رسائل مكماهون .

* هناك رأي آخر - لوتسكي في كتابه تاريخ الأقطار العربية الحديث ص ٤٥٦ - يقول : إن هذه الوقفة المقصودة كان هدفها جلب انتباه الأتراك إلى الحجاز لا إلى القوات البريطانية االتي تعمل في مكان آخر .

لقد خصصت في نهاية العام ١٩١٦ بندقية واحدة لكل خمسة من المحاربين في جيش فيصل ؛ وبدل الأسلحة فقد أرسل مدربون ومستشارون عسكريون (من الإنكليز والفرنسيين) ، وتوصلوا في تقاريرهم إلى أن العرب لا يصلحون إلا الحرب غوريلا أو حرب عصابات ، وبهذا فإن ثورة الحجاز لم تكن لتلطف الأجواء الحادة التي بدأت بالظهور بين الحسين وبريطانيا من قبل ، ورداً على رسائل مكماهون غير المرضية ، فقد أعلن الحسين - بعد أيام معدودة من اندلاع الثورة - بياناً عاماً إلى العالم الإسلامي ، يعلن فيه استقلال العرب وإعلان دولتهم القومية ، وهكذا انتظمت وفود من الأقاليم العربية لإعلان تأييدها المفتوح ، وكان ذلك في الثاني من تشرين الأول عام ١٩١٦ .

وثانيةً سيرسل مكماهون رسالةً إلى الشريف ، يعرب فيها عن سخط الامبراطورية الشديد لما فعل ، بعدها ستعلن الحكومتان البريطانية والفرنسية بأنهما لن يعترفا بالدولة الجديدة ،وكان فيما أرسله (السير) ، بأن حكومة صاحب الجلالة ، (لا تعتبر الحكومة الهاشمية ممثلة لكل العرب) .

ثمة تقرير تحت عنوان (سياسة مكة) ظل لورنس يبعث به إلى ذوي الشأن في لندن ، وهو مستقى من مذكرات الشريف حسين أيام كان في القسطنطينية ، حيث المذكرات حملت عنواناً مستقبلياً هو (فتح سوريا إذا ماتمّ . .) ويقوم لورنس هنا بالتحليل والتعليق فيقول :

(تداعب الحسين فكرة الحلول يوماً محل الأتراك ، فإذا تمكنا من جعل هذا التبديل يتم بوسائل العنف فإننا نقضي بذلك على خطر الإسلام ، إذ سينقسم على ذاته في أقدس معاقله ، وسينجم عن هذا الإنقسام قيام حرب دينية بين خليفة الأتراك وخليفة العرب . إن قبائل العراق الأوسط ترفض البقاء تحت النير التركي ، ويؤجج ذلك شعور قومي حاد خاصة شمال بغداد ، ولن يكون شيئاً أقل مدعاة للفخر إذا تركت تحكم نفسها بنفسها ، أما

سوريا فالمفروض أنه إذا تمكنا من الاستيلاء عليها ، فمن المستحسن أن نقتسم أسلابنا مع فرنسا)*.

سيؤلف لورنس كتاباً كاملاً ، يوحي فيه للمستشارين البريطانيين النافذين ، بجميع (أعمدة الحكمة) و (كيف تؤثر بالعربي) . . حيث يفضي في النهاية إلى جواب على سؤاله : كيف تحكم المنطقة من وراء ستار ، وهو ينهيه بتراجيديا وصفية عن فيصل (قائد ملهم ، **فإذا ما اقتنع ذهب بالفكرة حتى مداها الأخير ، لقد اكسب الثورة العربية حيويّة أخاذة وصورة قويّة**) إلى أن يقول :

(مسكين فيصل ، لقد أدرك بصورة متأخرة جداً ، تلك الفكرة التي دفعت إلى عاصفة الصحراء ، هذه العاصفة التي سار في وسطها مبجلاً لينتهي كئيباً).

لقد غدت الثورة كعاصفة في الصحراء ، تحمل أزهاراً قصيرة العمر ، وكأي حرب من حروب الضعيف مع القويّ ، فقد استغرق تأثيرها زمناً غطى المنطقة بأسرها ، لكنها لم تربح الهدف . .

من الرجوع إلى الماضي ، لا يسعنا أن نفهم لماذا لم ينظر معظم الناس في المنطقة إلى الخطر الحقيقي الذي سيشكله اتفاق سايكس - بيكو على المستقبل والمصير ، ومع أن الاتفاق ظلّ سرياً حتى عن مكماهون نفسه ، بحيث يمكن أن يظل مكتوماً على العرب أصحاب الشأن ، إلا أن الشيوعيين المنتصرين في روسيا (اكتوبر ١٩١٧) كانوا قد أذاعوا جميع بنوده دون تردد ، ثم قامت تركيا باطلاع فيصل على حقائق الاتفاق ، وكان العرب بقيادة فيصل آنذاك ، قاب قوسين من العودة إلى الاتفاق مع تركيا من جديد ، وقد اكتشف لورنس - الذي كان من عادته تفتيش الملفات في مكتب فيصل وهو خارجه - بأن ثمة رسائل سرّية تم تبادلها بين فيصل وجمال باشا ، فما كان من الممثل البريطاني في جدّه إلا أن بعث برسالة عاجلة إلى الشريف يقول فيها :

---

* لا مجال للإتيان على التقرير بكامله ، فهو يسهب في العديد من المسائل من اللباس الذي يجب أن يتزيّا به رجل الغرب في المنطقة إلى التقاليد ، والنفسية العربية ، إلى كيفية التحكم بالعرب مع أوصاف أنجال الشريف . .الخ ،

(المخفي من حياة لورنس العرب - ناتالي وسمبسون - المؤسسة العربية ص ٧٠).

(عثر الشيوعيون في وزارة الخارجية بمدينة بتروغراد على سجل لمحادثات قديمة وتفاهم مؤقت - وليس معاهدة رسمية - بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في بداية الحرب تجنباً لقيام المشاكل بين الحلفاء - وقد أغفل جمال باشا حين نشر الاتفاق ، ضمان مصالح السكان الوارد فيه ، إن الثورة العربية قد غيرت الأوضاع تغييراً شاملاً ، وهل لي أن أضيف ياجلالة الملك ، أننا نعتبر الاتفاق ميتاً في الأصل) . (المصدر السابق) .

وهكذا يكون جواب الشريف لابنه فيصل (الحلفاء أكبر وأرفع من أن يخلّوا باتفاقاتهم معنا *) .

لم يكن التكتم على الإتفاق يعود إلى خشية الحلفاء من العرب ، بمقدار ما كان حاجة تكتيكية يجب الحفاظ عليها ، فالحرب الطاحنة التي كانت تدور في الغرب ، بحيث مئات الأمتار مقابل آلاف الجثث ، كانت في أمسّ الحاجة لاتباع تكتيكين ، الأول وكان يتمثل بالحفاظ على التحالف مع الشريف بالمراوغة ، والثاني في العمل لكسب يهود العالم (ذلك الخليط من الذهب القديم والوحل الراهن - لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا آنذاك) إلى جانب الحلفاء .

أما بفور الذي لم يرسل تعميماً عن (عرق الذهب والوحل) . فقد آثر أن يظل لا سامياً صامتاً . .

لقد كانت المبادئ هي آخر ما يُنظر إليها في السياسة الأوروبية ، خاصة البريطانية ، وفي الصيغة الجذابة لتناقضات وعد بلفور ، فقد لامستْ هذه الجاذبية شغاف قلب لويد جورج ، وها هي حكمة مزدوجة تقف على قدميها ، حين يتم إرسال هذا الخليط من الذهب الموحل إلى فلسطين ، ويتم إنقاصه بنفس الكمية في أوروبا خاصة بريطانيا ، فإذا ما أصبحت فلسطين تحت السيطرة البريطانية * ، كان لهذا الوعد دوره المؤثر في حماية

---

* كأن المسألة أخلاقية تماماً ، وفي الواقع سيحار الشريف في أمره ، عندما سيقول : لقد اجتمعت مع سايكس وبيكو مرتين في جدّة ، ولم يأتيا على ذكر الإتفاق ، وهكذا إلى أن اطلعت عليه بعد ستة أشهر من اجتماعنا .

* لم تكن بريطانيا قد احتلت فلسطين بعد ، بل كانت تقاتل على خط العريش - بئر السبع . قبل الوعد بشهر كامل .

السويس ، وضمان الوصول الآمن إلى العراق الذي تم احتلاله حتى تكريت .

غير أن هذا التصريح (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) جاء متزامناً مع الثورة الشيوعية (اكتوبر ١٩١٧) التي سرعان ما فضحته مثل ما فضحت اتفاقات سايكس - بيكو من قبل ، وبدخول الولايات المتحدة الحرب ، سيجد الشاب (ديڤيد غرين) الذي سيصبح بن غوريون فيما بعد ، فرصة ذهبية في تطوع يهود نيويورك ، كفرقة خاصة إلى جانب الحلفاء في الحرب ، وسيعزو بن غوريون حماس اليهود الأمريكيين للقتال ، إلى وعد بلفور صاحب (الوطن القومي للشعب اليهودي في فلسطين) .

سيصرخ وزير التموين الحربي البريطاني ادوين مونتاج : (أي هراء ينطوي عليه هذا الوعد ، المسألة واضحة وفيها ما يكفي من التجديف ، فيهود انكلترا ويهود مراكش لا يكوّنون شعباً واحداً ، تماماً كما لا يكوّن مسيحيّو فرنسا ولبنان شعباً واحداً ، ياللهول ، إن هذا الوعد سيتسبب في تشجيع أوروبا اللاسامية بطرد يهودها ، ثم يضعهم في وضع يطردون فيه سكان فلسطين الأصليين)* .

أما سير مونتاج هذا ، فسيبحر بعد اسبوع من نشر مذكرته إلى الشرق كوزير للهند ، **وتكون اللاسامية الإنكليزية والسامية اليهودية قد تخلّصتا منه على حد سواء .**

أمام الشريف حسين وأبنائه ، فقد تم إخفاء الوعد ، وحين لفت الألمان نظر الشريف لهذا الوعد ، عن طريق مبعوثين سرّيين إلى الحجاز ، حاول المسؤولون البريطانيون التقليل من أهميته ، وأن الحقوق السياسية مع ذلك ، داخلة في الحقوق المدنية والدينية التي حافظ التصريح عليها ، غير أن عبارة (الطوائف غير اليهودية) كانت قد أثارت حفيظة الشريف ، ورغم مذكرة هوغارت * التطمينية ، فقد طالب فيصل عن طريق الوطنيين السوريين في القاهرة (رفيق العظم وعبد الرحمن الشهبندر) في حزيران ١٩١٨ بتحديد موقف نهائي

---

* مذكرة بقلم ادوين مونتاج ، بعنوان « لا سامية حكومتنا الحالية » الخارجية البريطانية - الأول من اكتوبر ١٩١٧ .

* استاذ في جامعة اكسفورد وخبير في الشؤون العربية ، وقد قابل الشريف في جدّة أوائل العام ١٩١٨ وقدم النصائح تلو النصائح ، وكان من ضمنها تطوير التعاون مع الصهاينة الجدد بما يضمن تطور المنطقة وازدهارها .

لبريطانيا تجاه الأقطار العربية ، ثم ما عتم أن طالب الحسين نفسه في الثلاثين من آب ١٩١٨ المندوب السامي في مصر (وينغيت) بتنفيذ الالتزامات التي أخذها مكماهون على عاتقه ، والتي تنص على إنشاء دولة عربية بعد الحرب وضمان حدودها ، كما طالب بتبديد الافتراءات الشائعة حول اتفاقه مع انكلترا حول كل شيء - كما كانت توحي الصحافة الانكليزية آنذاك - وقد قرن الشريف مطالباته بتهديدات علنية مفادها أن ثورة قومية ستنشب هنا ضد انكلترا ، ولكن المصير لم يكن بأفضل من مصير أواخر المسلمين في الأندلس ، مع الفارق ، بأنه لم يكن بمكنة الصهيونية أن تقوم بطرد أربعين مليوناً من الفرات إلى النيل .

ستدخل الجيوش الحليفة مدينة دمشق في الثلاثين من أيلول ١٩١٨ ، وسيكون لمفارز فيصل العربية شرف دخولها أولاً ، حيث سيجد في انتظاره ودون علمه ، حكومة محلية موقتة برئاسة محمد سعيد الجزائري (وهو الأخ الأصغر « لعبده » القادر الجزائري) ترفع العلم الهاشمي ، وستثور في غمرة الأفراح ونشوة النصر الوهمية ، ثائرة الإنكليزي لورنس ، الذي رمى الجزائري بتهمة العمالة لفرنسا ، بعد أن كان عميلاً للأتراك ، وسيُقتل أخوه عبده في أحداث لاحقة !.

وعلى جانبيه فإن الصراع بين العملاقين الإنكليزي والفرنسي كان قد حسم منذ اللحظات الأولى لدخول دمشق ، فقد عقد في الحال (مساء اليوم الخامس من دخول دمشق) اجتماع حضره القائد العام اللنبي ورئيس أركانه بولز والأمير فيصل والكولونيل نوري السعيد والشريف ناصر والجنرال الفرنسي شوفيل ورئيس أركانه الجنرال جودوين ، وكان ملخص الإجتماع ، كلمات وجهها الجنرال اللنبي لفيصل ، تضمنت توزيع الغنائم الأولى كما يلي :-

- فرنسا هي التي ستتولى الحماية على سوريا .

- سيتولى فيصل حكم سوريا – باستثناء فلسطين ولبنان – وذلك تحت اشراف فرنسي مقرون بمعونات مالية .
- السيادة العربية تشمل سوريا الداخلية فقط .
- يلتحق ضابط فرنسي للعمل كضابط اتصال مع الأمير فيصل يعاونه الكولونيل لورنس بكل ما يحتاج إليه من مساعدة .

اعترض فيصل بشدة على ما تقدّم وقال إنه لا يعترف لفرنسا بأي شأن في هذه البلاد ، وأنه مستعد لتلقي المعونة المالية من بريطانيا فقط . وفيما تصاعدت حمى النقاش الدائر ، قطع اللنبي الجدل بصوت جهوري :

– (فيصل أنت ضابط برتبة جنرال تحت أمرتي ، وأنا السير ادموند اللنبي القائد العام هنا ، وعليك أن تطيع أوامري وتقبل بالوضع الراهن إلى أن تتم تسوية الأمور بعدما تضع الحرب أوزارها * .)ورماها بجفاء .

أدرك فيصل بعد أن سمع الخطاب ، أن بوادر القسمة الخفيّة ، بدأت بالظهور عن طريق الأوامر العسكرية المباشرة ، أو كأن المجتمعين لا علاقة لهم بالسياسات العليا ، وخرج ليرى ماذا تضمر المصائر في المستقبل ، أما لورنس صديقه ، فلم يكن أقل استنتاجاً منه – وهو الخبير الذي كان يبطن كل شيء في سرّه ، فقرر طلب إجازة مفتوحة ، بعد أن أيقن أن مصير الشرق الأوسط بعد سقوط دمشق ، سيتقرر هناك في لندن .

كانت القوات البريطانية التي اقتحمت العراق من منطقة كوت العمارة في آخر شهر من العام ١٩١٦ ، قد دخلت بغداد في ربيع العام ١٩١٧ ، وخلال العام نفسه ، كانت القوات البريطانية تطبق على بلاد ما بين النهرين حتى تكريت على نهر دجلة .

---

* تلك هي الرواية الفرنسية عن الاجتماع (الجنرال شوڤيل) وهناك رواية للسير اللنبي نفسه . وأخرى للكولونيل لورنس ، وما نفع التفاصيل إذا كان القاسم المشترك بينها هو القسمة .

وفي العراق أقام الإنكليز سياسة الاستيلاء الاستعمارية بالكامل ، إذ كانت السلطة المطلقة خاضعة لحكومة أنكلو - هندية ، وترأس الإدارة مباشرة السير برسي كوكس الموظف القديم في الخدمة الاستعمارية الانكليزية في الهند . . .

بنهاية العام ١٩١٧ سيحل مقيم بريطاني آخر ، يتقن الفنون التجسسية ألا وهو ضابط الاستخبارات آرنولد ويلسون ، وقد خضع الضباط الإنكليز للمفوضين بامتياز برسي وويلسون . كما حل محل الموظفين العرب والأتراك ، موظفون من الحكومة الأنكلو- هندية . فيما تم استبدال العملة التركية بالعملة الإنكليزية ، كما تم إرساء النظام المتعلق بالإدارة والقضاء على الطراز الهندي ، وفي المحصلة ، فقد تحوّل العراق إلى أحد أقاليم الهند البريطانية .

. . . . .

بالنسبة لمصر فقد مات اللورد كرومر الذي ظل حاكماً فعلياً لمصر قبل أن يتركها لمندوب بعده ، وكان كرومر قد امتدح سعد زغلول بصفته زعيماً وطنياً معتدلاً ، وقد بذل جهداً حثيثاً من أجل إسناد منصب وزير التربية لسعد ، فكان له ما أراد .

لقد أظهرت الحرب العالمية الأولى لسعد ، مدى قوة الوطنية بين الشباب المصري مرةً أخرى بعد دنشواي* ، فيما كانت هزيمة عرابي قد أخضعت معاصريه ، إلا أن الجيل الجديد الذي أثاره مصطفى كامل كان يتمتع بروح فدائية ، وقد أظهر انتصار الأتراك في معركة غاليولي ، أن الامبراطورية يمكن أن تُقهر ، وإذ اقتربت الحرب من نهايتها ، وأعلن الرئيس الأمريكي ويلسون نقاطه الأربع عشر ، فيما رددت صحافة لندن وباريس صداها ، عاد سعد إلى سياسته التي شغف بها ، وترأس (ابن العمدة) وفد مصر الذي سيطالب بالاستقلال ، لكن رفض بريطانيا المتغطرس ، حتى مجرد البحث في هذا المطلب . وقيامها

---

* قرية في محافظة المنوفية ، وقد اعترض السكان ضباطاً إنكليز كانوا يتلهون باصطياد حمام القرية ببنادقهم الحربية ، مما أدى إلى الإعدامات الشهيرة بمذبحة دنشواي .

بنفي سعد إلى مالطة ، أججا ما سيذكره التاريخ عن ثورة ١٩١٩ .

لقد طاف الطلبة شوارع القاهرة وهم ينادون بالاستقلال ويهاجمون بريطانيا . ورفعت النساء نصف المحجبات علم مصر الأخضر بهلاله وأنجمه الثلاثة ، وأطلق الجنود البريطانيون النار على المصريين ، واشتبك المصريون مع الجنود الإنكليز ، وهكذا أطلق العنان لثورة كامنة . . .

كان سعد في مصر العشرينات أوسع شهرة من أتاتورك تركيا ، فقد أيده المسلمون والأقباط . الأغنياء والفقراء ، أبناء الصعيد والمدن على حد سواء . لكنه لم يتمكن من التحكم بمصر كما فعل أتاتورك في تركيا ، وقد يكون السبب في ذلك إنما يعود إلى أن ، ابن العمدة الباشا الذي كان قد تزوج من ابنة رئيس الوزراء في شبابه (صفيّة – أم المصريين) بواسطة نازلي الأميرة ابنة أخت الخديوي اسماعيل ، فضلاً عن كونه لم ينحدر من مدارس التربية العسكرية ، هو الذي كان يبعده عن الاهتمام بالمشكلات العميقة ، أو إشاعة أفكارمبتكرة للتغيير الاجتماعي في مصر ، فقد كان أبعد ما يكون عن تفكير جذري إجتماعي يمكن أن يتعرض لتلك المشكلات التي رسمت مصر ككعكة ذات طبقات شاهقة، ولا كان في الإمكان التفكير بكيفية إطعام شعب متزايد ، أو إقامة نظام تعليمي جديد ، فالإخلاص الوطني الذي لا حدود له ، كان ينصب على سعد الرمز ، وحين كان عدلي باشا يجاهد لأهداف مماثلة * ، مع جماعاته التركية – الشركسية كان يتصدى له السعديون بعنف (الإحتلال على يد سعد ، ولا الاستقلال على يد عدلي) **علماً بأن القضية الكبرى كانت تتطلب وحدة كفاحية ، لا معركة زعامات شخصية** .

وبسبب من نصائح اللورد اللنبي الذي أصبح مندوباً سامياً في مصر ، من أن المشكلة المصرية لا يمكن حلها باطالة المفاوضات واستمرار سياسة القتل والهياج . فقد قدمت

---

* كان عدلي باشا بالرغم من تحدره من أسرة نصف تركية ونصف شركسية . وطنياً مصرياً يكافح من أجل الاستقلال التام وطرد الإنكليز من مصر ، غير أن المنافسات الشخصية كانت قد حالت دون توحيد الجهود . . .

بريطانيا وثيقة الاستقلال لمصر مربوطة بشروط أربعه ، هي :

- الاشراف على قناة السويس والدفاع عنها .
- التعهد بالدفاع عن مصر .
- حماية الأقليات غير المسلمة في مصر .
- إبقاء السيطرة على السودان في منطقته الجغرافية الواسعة .

وحيث أن الشرط الأول يعني بقاء الجيش البريطاني في مصر ، وأن الشرط الثاني يضع الجيش المصري في مرتبة مساعد ، وأن الشرط الثالث يترك مصر في حالة استباحة التدخل عند كل ذريعة ، وأن الشرط الرابع يعني القضاء على وحدة وادي النيل والسيطرة على منابع النيل الذي هو هبة مصر الطبيعية . . . فقد قاوم سعد هذه القيود المقيدة للسيادة المصرية، وظل كذلك حتى وفاته، بعد خمس سنين من تاريخ هذه الشروط ، أي في العام ١٩٢٧ ، حين ستبكي مصر كلها ، مع ضجيج صراخ يتعالى (مصر ولاّدة ياسعد) .

على الجانب الآخر من دنيا العرب ، وعلى ظهر مدرعة إنكليزية بحرية ، سيعود الأمير فيصل من مؤتمر الصلح في فرساي ، ليلقي كلمة في المستقبلين (**إن الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى فعلينا أن نأخذه بكل ما لدينا من حكمة وقوة ، ومن لا يريد الاستقلال فهو عدو الله والوطن**)* .

لقد افتتح مؤتمر الصلح يوم ١٨ كانون الثاني من العام ١٩١٩ ، بمظهر زاه متلألئ يخفي وراءه خناجر المتقاسمين المشحوذة ، وما بين الجلسات كان يتحلق حول الموائد العامرة وتحت ألوان من الثريات المشعّة والخمور المعتقة ، العديد من المستشارين والخبراء الغربيين الذين أتقنوا ألعاب الغدر السياسي من كل لون ، وكان يتظاهر المؤتمرون بأن موضوع التعويضات الألمانية هو الموضوع الأساسي في المؤتمر ، فيما ظهر موضوع الشرق الأوسط كموضوع ثانوي غير عاجل ، إلا أن التآمر حوله كان أكثر دهاء وأقل تركيزاً .

---

* نقله يوسف الحكيم في كتابه : سوريا والعهد الفيصلي - دار النهار ص ٧١ .

وقد بدأ النقاش بصراع مع الوفد الفرنسي ، حول ما إذا كان يمكن لفيصل أن يشترك في المؤتمر أم لا . ونشر الفرنسيون نص نداء لفيصل يدعو فيه إلى الجهاد من أجل استقلال العرب . واستهجن الفرنسيون ذاك الدور الذي تمنحه لنفسها (هذه الدولة الحجازية الواسعة الشهية والتي ليس لها وجود في التاريخ المعاصر) وكان فيصل يشعر بمرارة الغربة في عالم غادر وغريب ، غير أن لورنس لم يتركه وحيداً ، فبدعم من وزارة الخارجية البريطانية ، تمكن لورنس لا من تأمين إشراكه في المؤتمر فحسب ، بل وتخصيص مقعد لرفيقه القادم معه إلى المؤتمر .

سيقول عوني عبد الهادي ، وهو مرافق فيصل إلى المؤتمر في مذكراته :

(لورنس كان يعمل كل ما في وسعه من أجل بلاده ، وقد عقد العزم أن يتفانى في خدمة فيصل لشيء بسيط ، وهو أن يلتصق الأمير ببريطانيا بحيث لا يرى صديقاً له سواها .)

وهكذا بينما كان فيصل يعتقد أنه عن طريق لورنس يستطيع أن يحصل على ما يريده العرب ، كانت الخارجية البريطانية تعتقد أنها تستطيع عن طريق لورنس أن تحصل على ما تريده من العرب .

وفي الحقيقة ، فإن هذه الغايات المتباينة ، أدت في النهاية ، إلى أن يلعب لورنس دوراً مزدوجاً ، وقد حصل ذلك بعيداً عن كل العواطف الشخصية الأخرى ، فبعد وصول المؤتمر إلى لا شيء ، بخصوص الشرق الأوسط ، تقرر بناء على إلحاح من الرئيس الأمريكي ولسن ، إيفاد لجنة إلى المنطقة لتحقيق أماني أهل البلاد انطلاقاً من حرية تقرير المصير ، وقد سمّى الجانب الإنكليزي اثنين من خيرة العاملين في سلك دبلوماسيته . وتباطأ الفرنسيون إلى درجة التسويف الممل ، وقد حدا ذلك بعضو اللجنة المُسمى الدكتور هوغارت استاذ التاريخ في اكسفورد ، بأن يبعث مع صديقه لورنس الرسالة التالية :

(لقد أعطينا حكومة صاحب الجلالة مهلة حتى نهاية أيار كي تطلقنا في مهمتنا ، أو على الأقل لتنجح في مسعاها لاستكمال تأليف اللجنة والمباشرة بعملها ، وما لم يتم ذلك فإننا نستقيل من المهمة والألم يحز في نفوسنا لهذا الفشل وضياع أربع سنوات من الجهود المضنية . **إننا لا نستطيع أن نتصور تسليم سوريا إلى الجنود السنغال ، كما لا نستطيع أن نتصور وجودنا في فلسطين مكبلي الأيدي والأقدام (هنا إشارة إلى وعد بلفور) ، كذلك فإننا لن نلوم العرب في البلدين إذا ما جنحوا للعصيان المسلح ، كما أنني أنا الدكتور هوغارت ، لن تطأ قدماي أرض العرب بعد اليوم)*** .

ومن أجل القضاء على قدرة فيصل التفاوضية ، فقد وقع ما كان في الحسبان ، فقد شن ابن سعود في هذه المرحلة الحرجة تماماً ، حربه ضد الشريف في مكة ، واتسعت دائرة القتال حتى مداها ، وكاد ابن سعود الذي تقف وزارة شؤون الهند البريطانية وراءه ، أن يصل إلى مكة ، لولا تهديد الخارجية البريطانية بضربه بالطيران ، وقد علق أرنولد توينبي على التزاحم الاستعماري بين وزارتين بريطانيتين قائلاً : (**كان عصب الحرب لكل من الفريقين المتحاربين ، العون المالي الذي كانت كل من الوزارتين تقدمه إلى حليفها ، وكان يؤخذ هذا المال من جيب الشعب البريطاني الواحد ، ألم يكن أجدر برجال هاتين الوزارتين ، أن يتقاتلوا مباشرة من أن يكلفوا شعبنا كل هذه التكاليف ؟**) (المصدر السابق).

وفيما كان الاقتتال على أشدّه في الجزيرة العربية * (لاثبات مَنْ هو الملك) كان وايزمن ينشط في المؤتمر ، للحصول على شيء من التأكيد حول فلسطين ، وفي مسعاه من أجل ذلك ، راح يصف العرب أمام جلسائه من الإنكليز والفرنسيين (**إنهم شعب ذكي وفطن بشكل سطحي ، وانهم يعبدون شيئاً ، بعد الله أو قبله ، ألا وهي القوة المسيطرة والمصحوبة بالنجاح**) .

---

* رسائل خاصة في الخارجية البريطانية مودعة تحت رقم ٨١ .

* تمكن ابن سعود من القضاء على حملة كاملة كان يقودها الأمير عبد الله ، وكان قوام الحملة التي جهزها الحسين لإنهاء ظاهرة السعوديين الوهابيين ، عشرة آلاف فارس وخمسة آلاف من المشاة .

وكان مما لفت النظر إليه ، حكم الأكثرية العددية في فلسطين بحيث أن ذلك يتم على حساب الديمقراطية وليس لصالحها ، (فالفلاح العربي متخلف بما لا يقل عن أربعمئة سنة من أزمنتنا الحاضرة ، والأفندي شخص لا أمانه له ، وهو شره قليل الوطنية بمقدار ما هو قليل الفعّالية ، ولا يمكن على المدى الطويل مقارنة الولاء المشكوك فيه ، الذي يبديه العرب بالسياسة الموزونة التي تتبعها بريطانيا في فلسطين ، مثلما يفعل الشعب اليهودي) . . .

وبينما كان وايزمن ينتظر ماذا سيحل بفلسطين ، كان فيصل ينتظر قدوم اللجنة المقترحة إلى دمشق ! . . ثم طال الانتظار .

كان من الواضح أن توزيع الغنائم في المؤتمر ، باتت تتصل باستراتيجية المستقبل ، فالبترول أصبح سلاحاً أودى بدول الحلف المركزي (المحور) إلى الهزيمة ، ونتيجة خطأ سياسي بريطاني (لا خطأ جيولوجي) فقد وضعت الموصل بمقاطعتها الغنية بالنفط في دائرة المنطقة الفرنسية ، وقد ظهرت الاستماتة البريطانية من أجل استردادها فيما بعد على يد لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ، وبموجب صفقة تمت مع كليمنصو تم تنازل فرنسا عن الموصل لقاء حصة من البترول ، مع دعم بريطانيا لوحدة دمشق وبيروت كحصة فرنسية غير مشوبة ، وهكذا تخلت بريطانيا عن فيصل وسوريا لقاء عصب المستقبل ، ومع خريف عام ١٩١٩ دعت الحكومتان البريطانية والفرنسية إلى اتفاق حاسم بشأن سوريا ، وقد دعي فيصل هذه المرة إلى لندن ، لأخذ موافقته على ما صار أمراً واقعاً ، فبريطانيا هي المسيطرة على حقول النفط في العراق ، وهي التي تمتلك سلطة الانتداب على فلسطين والعراق وشرق الأردن ، أما فرنسا فتتولى السلطة في لبنان ، كما ستأخذ جيوشها مكان الجيوش البريطانية في غرب سوريا وشمالها ، كذلك فإن لفرنسا سلطة الانتداب على سوريا بكاملها (وتم تثبيت القسمة بموجب معاهدة سان ريمو في نيسان من العام ١٩٢٠) .

واعترض فيصل على طول الخط ، فاقترح لورنس أن يلعب دوراً باقتراح وسط . إلا

أن المؤتمر السوري (المشكل من نواب من سورية وفلسطين ولبنان والأردن) كان قد وجه احتجاجاً شديد اللهجة ، إلى جميع معتمدي الحلفاء في دمشق ، وهو يستنكر فيه المساس بالاستقلال أو تقسيم البلاد (مع استعدادنا للدفاع عن هذا الاستقلال مهما كلّف الثمن)* . . .

كان آخر ما قاله لويد جورج لفيصل : أنصحكم أن تتفاهموا مع فرنسا . وبهذه تكون مهمة فيصل في لندن قد انتهت ، مما اضطره للسفر إلى باريس من جديد .

كانت مباحثات فيصل - كلمنصو كما سيرويها في قصره بدمشق ، تنطوي على شروط تجعل من فرنسا (حليفة) لسوريا (تضمن استقلالها ووحدتها بين الداخل والساحل عدا جبل لبنان ، كما تضمن اعتراف جمعية الأمم باستقلال سوريا ، كما ستمدها بأسباب العون المالي والفني مع التدريب اللازم للجيش العربي إلى أن يستطيع النهوض بأعباء الدفاع فيستغني عن جنود فرنسا ، فلا يبقى منهم أحد) (المصدر السابق)* . وفي الحقيقة فإن الوجوم الذي ساد الجمع ، ينم عن عدم الرضى ، لا القبول بما قيل ، لكن أحداً من المجتمعين لم يشأ أن يعكر على الأمير صفو أحلامه الوقتية ، علماً أن الأمير نفسه أصبح يبيت معظم لياليه بأحلام متراجعة مثقلةً وحزينة . .

في آذار من العام ١٩٢٠ ، سيصبح الأمير ملكاً (لقد اخترنا باجماع الرأي سموكم ملكاً دستورياً على البلاد السورية ، وقد ضربنا موعداً لمبايعتكم نهار الإثنين الموافق ١٧ جمادى الثانيه سنة ١٣٣٨ هـ المصادف ٨ آذار ١٩٢٠ ميلادية ، وأعلنا انحلال الحكومات الاحتلالية في المناطق الثلاث ، على أن يقوم مقامها حكومة ملكية مدنية مسؤولة تجاه

---

* يوسف الحكيم - سوريا في العهد الفيصلي - دار النهار ص ١١٩ .

* باتت هذه مدرسة في السياسة العربية اللاحقة ، فميل الحاكم صار يُعرف من كلامه ، وفيصل هنا يتحدث براقعية اللاخيار الآخر ، خاصة حين سيقفل خطابه بما يلي : (أنبقى كريشة في مهب الريح ، أم نجني ثمرة جهادنا في الحرب ، وما قدمناه من ضحايا ، أياً كان حليفنا . . فكّروا معي في الأمر وليدلي كل منكم برأيه صراحةً ، فالوطن لنا لا لبريطانيا ولا لفرنسا . .

وهو صحيح لكن اللاخيار العربي ظل قائماً ربما حتى يومنا هذا . . .

مجلس الأمة ، وعلى أن تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الادارية وعلى أن تراعي أماني اللبنانيين في إدارة مقاطعتهم لبنان ، ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب . شرط أن تكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي ، إننا نحتفظ باسم الأمة بصداقة الحلفاء ، محترمين مصالحهم ومصالح سائر الأجانب كل الإحترام ، وإن لنا الثقة في أن يتلقى الحلفاء عملنا هذا ، المستند إلى الحق الطبيعي والشرعي ، بما نتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية ، فيوافقون على استقلالنا التام وإجلاء جنودهم عن المنطقة الغربية والجنوبية ، أي السواحل وفلسطين ، فيقوم بحفظ الأمن وإدارة الشؤون فيهما . . . وقبل أن نختم خطابنا هذا ، لا نرى بدأ من أن نذكر بملء الفخر ، الخدمة الجليلة التي قام بها إخواننا العراقيون في سبيل النهضة العربية أثناء الحرب ، وإننا لا نزال نؤيد بقوة ، إعطاء العراق حقه في الحرية والاستقلال ، وإننا نعضد إخواننا العراقيين في جميع مطالبهم والله يكلأ مولانا ويحفظ هذه الأمة - آمين) .

وفي اليوم الذي كانت تجري فيه مبايعة فيصل ملكاً على سوريا الطبيعية ، كان العراق في حالة سخط وهيجان ، ومن جراء الهجمات التي شنّها رجال العشائر أخذ الحفاظ على النظام يفقد هيبته ، وكانت الحكومة البريطانية تحاول إخفاء الحقائق ، حتى أن الصحف البريطانية راحت تكيل الاتهامات إلى الإدارة (إلى متى سنظل نسمع بتضحية الملايين من الجنيهات ، وآلاف الجنود وعشرات الألوف من العرب في العراق ، إكراماً لإدارة استعمارية لا تفيد إلا القائمين عليها - الصنداي تايمز والإبزيرڤر - آذار - ١٩٢٠) . وبسبب من سياسة الأرض المحروقة ، التي اتبعتها وزارة شؤون الهند في العراق كتب لورنس في الوقت نفسه مقالة صاخبة (الصنداي تايمز) قال فيها :

(من المستغرب ألا نلجأ إلى الغازات السامة في حالة كهذه ، إن هذه الوسيلة تؤمن لنا إفناء السكان في المقاطعات الثائرة بصورة كليّة ، وهي من الناحية الأخلاقية . لا تزيد بشاعة عن الوسائل الخبيثة التي نلجأ إليها الآن) .

على أن سخرية لورنس كانت وصفاً حقيقياً لتلك الامبراطورية التي حكمت العالم بالسخرية والعنف . فهيئة أركان الحرب البريطانية اعترفت بمذكرة رسمية موجهة إلى وزير المستعمرات ونستون تشرشل ، بأنها غير قادرة على تأمين النظام العسكري في العراق ، (كما تود هيئة الأركان إبلاغكم بأنكم إذا كنتم مستعدين لتولي الأمور في العراق ، فقد يترتب على ذلك القيام بغارات جوية ضد العشائر الثائرة ، تستخدمون فيها نوعاً من قنابل الغاز التي تسبب الشلل لا القتل ، وبعد عشرة أيام عهد تشرشل إلى ترينشارد القيام بالمهمة بصورة رسمية ، وطلب إليه أن يعد خطة يتولاها سلاح الطيران وأن يبدي رأيه ، فيما إذا كان ذلك يضمن الحفاظ على الأمن الداخلي في البلاد) * .

في أوائل العام ١٩٢١ شعر لويد جورج رئيس الوزراء أن منطقة الشرق الأوسط أصبحت عرضة للفوضى جراء تزاحم وزارة الخارجية مع وزارة شؤون الهند ، فقرر رفع يد كورزون وزير الخارجية ومونتاقيو وزير الشؤون الهندية ، وقد استدعى تشرشل للنظر في وضع تلك المنطقة البائسة والخطرة ، وقد حمل تشرشل المهمة .

كان أول ما توصل إليه تشرشل مع معاونيه اللامعين ، هو تحويل الخطط التي طرحت في مؤتمر القاهرة (آذار ١٩٢١) إلى واقع ، وفي الأساس ، فإن هذه الخطط كانت قد أبصرت النور في لندن قبل القاهرة ، وكان من جملتها عرض سيناريو جديد ، يقبل الملك فيصل بموجبه اعتلاء عرش العراق بدلاً من سوريا .

وكان العرض قبل ولادته قد دُرس دراسة مستفيضة في دوائر الخارجية البريطانية ، فهو من جهة يؤمن التخلص من المشكلات المزعجة بين الشريف وأبنائه من جهة وبين فرنسا ، فقد عكف الأمير عبد الله على إطلاق تهديدات بشن إغارات ضد الفرنسيين إنطلاقاً من شرق الأردن - وقد تدخلت بريطانيا المرة تلو المرة ، لمنع الأمير من تحقيق خطته ، خشية تمدد الفرنسيين نحو الأردن . .

---

* أوراق ترينشارد الخاصة . المخفي من حياة لورنس - ص ١٤٤ .

كما أن العرض اشتمل على فكرة التعويض عن عرش سوريا بعرش العراق ، ودون استمهال ، فقد غزت جيوش غورو سوريا ، ثم سقطت دمشق بعد المعركة الخالدة التي قادها يوسف العظمة وزير الدفاع في ميسلون ، وكان لفظاظة غورو وأركانه ، ما أيقظ الناس قبل ايقاظه لصلاح الدين جانب المسجد الأموي ، ومع سياسات فرض الغرامات الحربية ونزع السلاح من أيدي الجيش العربي ، واصدار عقوبات بالإعدام ، راح الجنود السنغال في القوات الفرنسية الغازية يعيثون فساداً فوق فساد .

كانت الشكوك تساور بريطانيا فيما سيكون عليه الموقف في المنطقة ، فهناك ابن سعود الذي ينتظر فرصته في نجد ، وهناك زعيم الأشراف طالب النقيب المطالب بميزات أجداده في العراق ، ومع انضمام الوافد الهاشمي القوي ، فقد بدا أن الحلبة لا شاغر فيها ، ومع هذه المخاوف ، فقد ضغط مجلس العموم في سبيل تقديم شيء ما إلى الملك الذي سيزور لندن في كانون الأول من العام ١٩٢٠ ، بناء على إيفاد رسمي من أبيه ، ويروي اللورد ونترثون ، أحد زعماء حزب المحافظين في مجلس العموم ، في كتابه (الاقتراب من العظمة) ، سيرة العرض فيقول : (**قدّمتُ عرش العراق للملك ، كاقتراح من أصدقائه في بريطانيا ، وصارحته بأنني مع لورنس ، نقف إلى جانب الاقتراح بقوة ، لكن الرجل كان حانقاً أشد الحنق ، إذ لم يلتفت إلى الاقتراح ، وراح يسهب في الطرق الملتوية التي عامله بها البريطانيون والفرنسيون ، ولأول مرّة حيث التهذيب من صفاته ، يبدي ملاحظات جارحة عن أخلاق البريطانيين بوجه عام**) .

من جهة أخرى ، فإن فيصل في العراق ، يمكن أن يضمن لبريطانيا ، هدوءاً نسبياً ، خاصة وأنه (من الجوهري أن تصدر البادرة الحقيقية بالمطالبة بفيصل ملكاً ، من قبل العراقيين أنفسهم)* .

---

* مكتب المحفوظات العامة وزارة الخارجية تحت رقم ٨٥/٦٨٦ وهي من رسالة لتشرشل موجهة إلى رئيس الوزراء لويد جورج ، كما أن فيها إشارة لجهود برسي كوكس المندوب السامي في العراق ومستشارته غردترود بل لتبني العراقيين لهذا المطلب ...

كان طاقم الحكم الفعلي في العراق ، أناس خبروا طبيعة الشعب العراقي وعاداته وتقاليده بصورة عميقة ، وكان على رأس هذا الطاقم المندوب السامي برسي كوكس ومستشارته الآنسة غرترود بل (التي كانت تحلم برؤية بغداد عباسية من جديد) ، وجون فيلبي . . غير أن لندن كانت قد أعلنت انتدابها على العراق ، بما يفيد تقييد العراق واخضاعه للحكم المدني الإنكليزي ، وقد نشبت ثورة عاتية أطلق شرارتها القبائل العربية جنوب العراق . ثم ما لبثت أن امتدت إلى الشمال ، ولم تنطفئ هذه الثورة إلا عند مطلع السنة التالية ١٩٢١ ، ولا بد من الإشارة هنا ، إلى أن الأحداث في سوريا ، كانت تغذي الشعور القومي المتصاعد في العراق ، فسقوط سوريا في براثن الفرنسيين ، كان يوحي بحالة مماثلة في العراق ، ولم يهدأ الهيجان إلا في ربيع ١٩٢١ حيث تم تنصيب فيصل ملكاً على عرش العراق رسمياً ، وتتناقض الروايات حول مشاعر العراقيين تجاه هذا الحدث ، ولو أنه من الطبيعي أن الملك الجديد (الذي بويع بعد خمسة أشهر من اعتلائه العرش) لا يستطيع امتلاك قرار نفسه ، إلا بعد أن يجد طريقه إلى المندوب السامي البريطاني ، تماماً كما كان سائداً في مصر عند مطلع القرن نفسه .

لقد حمَل الرجل إرث أبيه ، وهو إرث وبيل في كل المقاييس ، فمن انتخاب الجمعية التأسيسية للبلاد ، إلى وضع الدستور ، إلى النزاع مع تركيا حول الموصل ، إلى زرع الفتن الإنكليزية بين القبائل ، إلى انفجار النفط في كركوك ، إلى عهد الشركات النفطية ، إلى اندلاع المظاهرات والمطالبة بالغاء الانتداب ، إلى المعاهدات البريطانية اللاحقة ، (الهادفة لمزيد من تكبيل العراق) ثم إلى احتجاجات الجمعية التأسيسية (البرلمان الأول) التي تجاوزت حدّتها جميع الخطوط ، لتنتقل في بعض الأحيان من قاعدة الجمعية إلى الشارع ، ومع إطلالة العام ١٩٢٤ سيصدر المجلس النيابي الدستوري قراراً يعلن فيه العراق بلداً ملكياً مستقلاً ذا سيادة وأنّ الحكومة فيه مسؤولة أمام المجلس النيابي . . .

لقد تمكن فيصل خلال إحدى عشرة سنة من توليه الـمُلك ، من أن يفعل ما كان يَعدُ نفسه به في سوريا ، وها هو يحقق الاستقلال في العام ١٩٣٠ ، بإنهاء عهد الانتداب والدخول في عصبة الأمم كبلد مستقل ، ثم تحوّلَ المندوب السامي إلي سفير لبلاده في بغداد ، وفي العام ١٩٣٣ سيموت فيصل في سويسرا موتاً مكبوتاً مثلما حفلت سنوات عمره بتجربة المرارة مع ذئاب الغرب . .

وفوق قبر دانيال النبي في كركوك ، كان يشير السفر إلى (أتون النار المتقّدة أبداً) ، حيث سيلعب النفط دوره العالمي المحموم .

. . . . .

في فلسطين كان النفط الشعبي يشتعل منذ صيف العام ١٩٢٩ منذراً بالخطر ، ذلك أن اليهود كانوا يطمعون بالاستيلاء على حائط المبكى ، وقد استغلوا مناسبة عيد الغفران (يوم كيبور) ، للدعوة إلى الاستيلاء عليه .

وتصادف أن عقدت الصهيونية مؤتمراً لها في زوريخ - سويسرا ، حيث أثيرت قضية المبكى أيضاً ، واغتنم اليهود فرصة الغفران للقيام بمظاهرات صاخبة ، رد العرب عليها بأكبر منها ، وقد شهد الاسبوع الأخير من شهر آب ، هيجانات شعبية مسلحة بالفؤوس والعصي ، اجتاحت معظم المدن الفلسطينية من القدس وحتى صفد مروراً بحيفا ويافا واللد وطبريا . . .

ولم يكن ليوقف هذا الإنفجار ، الذي فاق ما قبله من الإنفجارات ، سوى لجلجة القيادة الوطنية ، وخشيتها مما لا يحمد عقباه ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى عرض آراء احتجاجية أمام المندوب السامي البريطاني ليس أكثر .

ستزداد الهجرة اليهودية إلى فلسطين في الثلاثينيات ، وستشهد المناطق المحيطة بتل

أبيب ويافا وطبريا ، ازدهار مستعمرات على طريقة الغرب في أفريقيا ، حتى إذا جاء العام ١٩٣٦ اندلعت الثورة الكبرى في فلسطين ، لتتخذ شكل حرب دامية تدوم ثلاث سنوات، حيث منها إلى النفي في جزيرة سيشل في المحيط الهادي *.

أمام استشراء الهجرة وإنشاء الحاميات اليهودية المسلحة ، وحرس المستعمرات ، وضعت القيادة الوطنية الفلسطينية خطة من فرعين ، الأولى وتدعو إلى انعقاد مؤتمر اسلامي ، والثانية لمؤتمر عربي ، وكان الحاج أمين رجل السياسة والدين ، قد ساهم من قبل في نشاطات الحركة العربية في أرجاء المنطقة كما سبق له أن بايع الشريف حسين ، خليفة على المسلمين ، وقد أدت هذه المبايعة في حينه ، إلى استشاطة غضب فؤاد الأول ملك مصر ، الذي كان يطالب بدوره في أن يكون خليفة على المسلمين ، ورغم المقاومات التي تعرضت لم فكرة عقد المؤتمر ، من قبل البريطانيين والسعوديين والمصريين والفرنسيين والصهيونيين ، وحيث أن بريطانيا كانت هي المهيمنة على الأوضاع ، فقد كان بمقدورها فعلياً أن تحول دون انعقاد مثل هذا المؤتمر ، لكنها لم تشأ المصادمة المباشرة مع مشاعر المسلمين في العالم ، على أنها حاولت صدعه من الداخل ، فألّبت المعارضة الفلسطينية المتمثلة بآل النشاشيبي ضد المؤتمر ، وكان لها اليد الطولى ، في تأليب السعوديين والمصريين من قبل ، وقد سمحت بانعقاد المؤتمر في القدس أخيراً ، بعد أن نالت وعداً بعدم التطرف أثناء مناقشة مسائل الاستعمار ، ولما كان عبد الرحمن عزام قد أفحش في القول ضد الطليان في ليبيا – في خطبة له أمام المؤتمر – فقد قامت السلطة بطرده من فلسطين .

هذا وستُترك النتائج الناجحة والقوية للمؤتمر على كاهل التنفيذحيث اتخذ عدداً من القرارات أهمها : (تحويل المؤتمر إلى منظمة دائمة ، وإنشاء جامعة اسلامية كبرى في

---

* تشكلت اللجنة العربية العليا في العام ١٩٣٩ مع انفجار الثورة ، وفي العام ١٩٣٩ نفسه ، ستعمد السلطات البريطانية إلى نفي العديد من أعضائها إلى جزيرة سيشل . فيما يفر الحاج أمين الحسيني رئيسها إلى لبنان .

القدس ، والدفاع عن فلسطين لأهميتها الاسلامية والعربية ، وتشكيل شركة اسلامية لانقاذ الأراضي الفلسطينية ، وتسليم شركة سكة الحديد الحجازية إلى هيئة اسلامية تنبثق عن المؤتمر . مع استنكار جميع السياسات الاستعمارية : الطليانية في ليبيا ، والروسية في تركستان والفرنسية في سوريا ولبنان والمغرب العربي ، والانكليزية في فلسطين ومصر والسودان وجزيرة العرب)* .

أما المؤتمر العربي الذي حدد انعقاده في ربيع ١٩٣٣ فقد فشل قبل انعقاده ، فرغم الديباجة القومية * التي تدعو لانعقاده ، إلا أن وفاة راعية ، الملك فيصل ، (حيث كان مكان المؤتمر بغداد) لم تترك أحداً يتبناه من بعده .

....

في مصر ، كان حسن البنا المولود في ريف مصر في السنة نفسها (١٩٠٦) التي نسفت فيها حادثة دنشواي حكاية التعايش السعيد بين البريطانيين والمصريين ، ينشر الدفء في حياة الفلاحين الفقراء من خلال صوفيته وحلقات ذكره ، وفي العام ١٩٢٩ بدأ البنا تحدّيه العلني لتقليد الغرب في مصر ، ولم يجد المعلّم الشاب المعيّن لتوه في سلك التعليم ، ما يعجبه في الاسماعيلية التي أُوفد إليها ، فهي تعج بالأجانب الذين جاؤوا لاستغلال موقعها الجغرافي ومعظم تجارتها ، كما وجد فَرْقاً بين الأحياء الأوروبية المشجرة والعريضة ، وبين الأحياء القذرة التي يسكنها المصريون ، هذا فضلاً عن أسماء الشوارع التي تحمل رمزاً عبودياً يتمثل بوجود الفرنسيين والانكليز معاً .

---

* محمد عزت دروزة . حول الحركة العربية الحديثة ص ٧٥ .

* كانت هذه الديباجة عبارة عن ميثاق قومي ، نال توقيع خمسين سياسياً عربياً . وكان قد وضعه رجالات من حزب العربية الفتاة ، ورجال الحكم العربي في الشام والعراق ، أمثال: رشيد رضا ، علي ناصر الدين ، محمد العفيفي ، ورياض الصلح وشكري القوتلي وعوني عبد الهادي وسعيد ثابت : وكان مما جاء فيه : - إن البلاد العربية وحدة واحدة لا تعترف بالتجزئة ، وأن هذه البلاد تناضل من أجل الاستقلال التام ثم الوحدة فيما بينها . كما ترفض الأمة العربية كل أشكال الاستعمار ...

في هذه التربة زرع حسن البنا أول بذور حركته فنمت في الحياة المصرية طوال عشرين سنة التالية . .

كانت أهداف البنا سياسية وثورية منذ البداية ، فلم يشأ الاهتمام بالنشاطات الترفيهية على طريقة الأندية الانكليزية ، لكنه كان يعتبر النوادي الرياضية هدفاً نضالياً ينبغي العمل من أجل الوصول إليه .

استعمل حسن البنا مواعيد ذهاب وإياب القطارات كرجل أعمال متميِّز ، فكان دائم التجوال نشيط الحركة يخاطب الألوف في المساجد والمقاهي ، مع أولئك الذين جمع بينهم الشعور بالهوان ولدغة الفقر في الصعيد .

كان على رأس جدول جهاده الاتصال بالفلاحين مباشرة ، بعد أن فهم أن أياً من الأحزاب السياسية لم يتصل بهم بأكثر من فولكلور ، **وهكذا مثّل الشيخ ما هو ظاهرة التكرار الدوري في التاريخ الاسلامي** ، فالمجتمع المصري يجب أن يُعاد تنظيمه على أسس من الخطط الاسلامية النقيّة ، وعليه أن يقاوم الثقافة الغربية لا أن يعتنقها ، وكان حاسماً في هذا الموضوع ، على نقيض محمد عبده الذي أراد الاصلاح عن طريق الموازنة بين العقل والنقل ، أما رأسماله الفكري فكان يتمثل في ذاكرة قوية حفظت القرآن ومعظم الأحاديث النبوية الراجحة في الإسناد ، وكانت هذه الذاكرة تحفظ الكثير والمتنوع من الشعر العربي والأقوال المأثورة والحكم الشعبية الايجابية .

كان البنا مزيجاً مؤثراً من الإدارة والعمل والهمّة :-

(إننا ندعوكم إلى الإسلام ، إلى تعاليم الإسلام ، ومبادئ الاسلام ، وإرشاد الاسلام ، فإذا عنى ذلك لكم سياسة ، فهي سياستنا ، إن الطلاق بين شريعة الدين وقانون الدولة هو كفر فعلي) .

في تلك المرحلة ، كانت حركة العودة إلى السلف الصالح ، هي ما يعم الشعب المصري ، فقد بدا الاحتلال البريطاني أبدياً ، وهبطت أسعار القطن (بترول مصر آنذاك) وهدد ذلك بمزيد من انتشار البطالة والفقر ، وجاء الرجوع إلى الاسلام - كما هو اليوم - تعويضاً عن خيبات مُني بها الجميع ، أما الذين حققوا مستوى من الحياة والضمان والثقافة فكانوا أقل تأثراً بوهج هذه الحركة الجديدة . .

سيجد الغرب في حركة الإخوان المسلمين المصرية ، حاجزاً ضد الشيوعية ، كما وجد في الصهيونية حاجزاً ضد مخاطر الوحدة القومية ، على أن معظم المصريين كانوا قد فقدوا الثقة تماماً بما يمكن أن يقدّمه الغرب ، خاصة وأن أحداث بلاد الشام والعراق ، كانت ماثلة في الأذهان ، وهكذا أخذت الحركة بالانتشار تدريجياً بين شعب بات يربو على عشرين مليوناً من المصريين .

في أواسط الثلاثينيات ، وحينما راحت رائحة البارود العالمية ، تنتشر في الشرق الأوسط ، إثر عدوان إيطاليا على الحبشة ، اضطرت بريطانيا إلى اللجوء لمناوراتها المعهودة ، فأعطت المزيد من التنازلات الشكلية للحركة الوطنية المصرية ، **وسيشهد العام ١٩٣٦ معاهدة بريطانية - مصرية يتم بموجبها الغاء قانون الحماية التي فرضته بريطانيا على مصر** ، وهكذا أصبحت مصر دولة ذات سيادة ، غير أن معاهدة التحالف هذه لم تكن أكثر من معاهدة شكلية ، ومن سوء حظ مصر أنها في (عبقرية مكانها) . كانت تشكل مركز مواصلات الامبراطورية الحساس ، ومثلما أصبح المندوب السامي في العراق (كوكس) سفيراً لبلاده في بغداد ، إثر وثيقة الاستقلال ، صار السير لامبسون المندوب السامي في مصر ، سفيراً لبلاده في القاهرة . والفارق أن السير لامبسون أخذ ألقاباً إضافية ذات مغزى فهو (سفير صاحب الجلالة مطلق الصلاحية وفوق العادة) . وسيُمنح لقب لورد

لقاء خدماته الجلي بعد حين . لقد استند نفوذ لامبسون في مصر ، إلى حراب القوات البريطانية ، التي كان لها بموجب المعاهدة ، حق البقاء في مواقع استراتيجية ، حوالي القاهرة والاسكندرية وقناة السويس ، كما احتفظت البحرية البريطانية بقاعدة ممتازة غرب الاسكندرية ، أما في الداخل السياسي ، فقد اعتمدت السياسة الانكليزية على أحزاب (مثل حزب الوطن والدستوريين الأحرار) وغيرها ممن اعتبرت موالية لبريطانيا ، ورغم المعاهدة الاستقلالية ، فإن النضال من أجل الحصول على استقلال ناجز ، بدأ يأخذ أشكالاً مختلفة على يد حزب الوفد ولو أنه كان ميالاً للهدوء والدبلوماسية في هذه المرحلة . . .

لقد ترأس مصطفى النحاس باشا زعامة الحزب الوفدي في العام ١٩٢٧ ، **وقد ووجه الحزب بمقاومة ضارية ، من الإنكليز والأحزاب الموالية على حد سواء ، وعلى الصعيد الرسمي ، فقد كان بلاط الملك فاروق أشد عداوة ، وسيقوم الحرس الحديدي التابع للملك ، وهو منظمة سرية إرهابية ، بنسف بيت النحاس باشا ، في مرحلة لاحقة .**

كانت العداوة بين القصر والوفد آخذة في الازدياد ، ففي حين يسعى بلاط الملك مع الأحزاب الموالية إلى تعزيز سلطة الملك وتحويلها من دستورية إلى أوتقراطية ، كان الوفد يكافح من أجل تثبيت سلطة الملك كسلطة دستورية خاضعة لاستفتاء الشعب وحقّه في انتخاب ممثليه ، وفي كل مرة كان ينجح فيها الوفد إثر انتخابات نيابية ، كان يلجأ القصر بمختلف الأساليب لإقالة حكومة النحاس لاستبدالها بأخرى موالية . .

ولعل من المستحيل أن يوجد في مصر كلها شخص يكرهه الملك الشاب الطامح لأن يكون قيصر مصر ، أكثر مما كان يمقت مصطفى النحاس ، ولعبت الدبلوماسية البريطانية ورقة الكراهية بمهارة ، فعلى طول مجرى المرحلة ، كانت الخارجية البريطانية تقدم الدعم

المتناقض لمختلف القوى المتصارعة بالتناوب ، وهو ما سيحول دون اتحاد الجبهة الوطنية الداخلية عبر مراحل الصراع .

. . . .

في سوريا سيبلغ عدد الجنود الفرنسيين الذين تصدوا للثورات الرئيسية الثلاث * ، ما يقارب مئة ألف جندي ، وقد أدت الحماقة الفرنسية المتغطرسة ، إلى قصف مدن بكاملها ، وهكذا تمّ العدوان على دمشق وحماة والسويداء وراشيا وحاصبيا والنبك ، كما تم تدمير العديد من القرى في وادي التيم ، وجبل العرب والقلمون وقرى عكار .

هذا وستشهد المرحلة ، الولادة الأولى لحزب سياسي ، يتم تأسيسه في دمشق هو حزب الشعب * ، وهو أول حزب سياسي يقوم في البلاد في عهد الانتداب نفسه .

وقد أصدر المفوض السامي الجديد بونسو - بعد أن أفلح سلفه ديجوڤينيل في شق الحركة الوطنية وإثارة الفتن الداخلية - بياناً دعا فيه إلى تشكيل حكومة موقتة برئاسة تاج الدين الحسني مهمتها الإشراف على انتخابات اللجنة التأسيسية التي ستضع دستوراً دائماً للبلاد ، وقد تمكنت الكتلة الوطنية (وهي من بقايا حزب الاستقلال والخارجين من حزب الشعب) برئاسة هاشم الأتاسي من تحقيق فوز ساحق ، وقد لاحظ رجال الكتلة اتساع قاعدتهم الشعبية ، فعقدوا أول مؤتمر لهم في حلب (١٩٣٠) حضره هنانو ، وما لبثت أن تحولت الكتلة إلى هيئة سياسية بزعامة هنانو ورئاسة الأتاسي وعضوية كل من سعد الله الجابري وجميل مردم وشكري القوتلي وعبد الرحمن الكيالي وفارس الخوري .

---

* ١- ثورة الساحل من العام ١٩١٨ - ١٩٢٠ قبل ميسلون ، الدنادشة ، الشيخ صالح العلي ، الحمام ، الشوف والحولة .
٢- ثورة الداخل من العام ١٩٢٠ - ١٩٢٥ بعد ميسلون ، حوران ، القنيطرة ، دمشق وحمص وحماة ، وابراهيم هنانو في الشمال .
٣- الثورة السورية الكبرى من العام ١٩٢٥ - ١٩٢٧ وهي التي أطلق شرارتها سلطان باشا الأطرش وامتدت إلى دمشق وبقية المناطق السورية .

* كانت قيادة الحزب مشكلة من الدكتور عبد الرحمن الشهبندر رئيساً . حسن الحكيم أميناً للسر ، ومن السادة لطفي الحفار وفوزي الغزي وسعيد حيدر وإحسان الشريف وتوفيق شاميه وفارس الخوري وعبد المجيد الطباع وأبو الخير الموقع ، وأديب الصفدي ، أعضاء في القيادة . وستغادر هذه القيادة بأكثريتها وعلى رأسها الشهبندر إلى مصر إثر ملاحقات فرنسية وحشية .

وها هو صدع جديد ، بين حزب الشعب والكتلة الوطنية ، يلقي بثقله على كاهل الحركة الوطنية السورية ، فيمتد تأثيره إلى المؤتمر السوري - الفلسطيني ، الذي سينشق نتيجة جهود هاشم الأتاسي ، الرامية لتأسيس مؤتمر سوري - لبناني . . .

كانت الكتلة الوطنية في تتبعها لسياسة حزب الوفد الهادئة في مصر ، **تجد أن الوطنية لا حاجة للانتساب إليها ، وهي لا تشكل حزباً سياسياً يحمل ايدولوجية معينة ، بل هي ملتقىً للوطنيين في جميع الديار الشامية ، وقد عبر قانونها الأساسي ، عن عدم الرغبة بحمل اسم الحزب** ، فضلاً عن عدم رغبة القيادة بتشكيل أحزاب سياسية داخل البلاد ، ورغم ذلك ، فقد أعلن الحزب الشيوعي السوري عن تعاونه مع الكتلة الوطنية (طالما أن البرجوازية المحلية تستهدف تصفية الاستعمار - مجلة النهج عام ١٩٨٣ ص ١٠٢) كما أعلن مكتب البعث العربي مؤازرته للكتلة في العام ١٩٤٣ (حتى تقف البلاد أمام الأحداث المنتظرة موقفاً حازماً وصلباً يعزز موقف الكتلة الوطنية تجاه الفرنسيين - نضال البعث الجزء الأول ص ٢٧) .

وفي مطلع العام ١٩٣٦ ، سيعلن المفوض السامي (دي مارشيل) عن إجراء انتخابات نيابية ، وستفوز الكتلة الوطنية بأغلبية ساحقة . وهكذا فقد تمت استقالة محمد علي العابد من رئاسة الجمهورية ليحل محله هاشم الأتاسي ، وعطا الأيوبي من رئاسة الحكومة ، ليحل محله جميل مردم بك ، أما فارس الخوري فقد جاء رئيساً للمجلس النيابي . وفي كانون الأول من العام نفسه التأم المجلس النيابي للنظر في أمر المعاهدة التي كان قد تم التوقيع عليها في باريس .

وكالقشة التي قصمت ظهر البعير ، انقسم المجلس وخلفه الشارع ، ما بين مؤيد ورافض .

ففي حين وصفها فارس الخوري بأنها (معجزة القرن العشرين) وعلق عليها سعد الله الجابري متهكماً (لم يبق لفرنسا إلا أن تعطينا مارسيليا) ووصفها البيان الوزاري بأنها (صك الحرية والسيادة الذي مهره الأبطال بجهودهم ودماء شهدائهم الأحرار) ، وجد سياسيون آخرون (عبد الرحمن الشهبندر الذي عاد من منفاه إثر صدور عفو عام) بأن المعاهدة محبطة للآمال الوطنية ، التي لن ترضى عن الاستقلال التام بديلا . . (فقد كبلت المعاهدة سوريا بالقيود عندما أعطت لفرنسا حقاً مزعوماً بحماية الأقليات الدينية وحق سن القوانين المتعلقة بأحوالها المدنية) ، كما اتهم كل من منير العجلاني وزكي الخطيب رجال الكتلة بقصر النظر ، حين أتاحوا لفرنسا التفاوض مع تركيا لسلخ لواء اسكندرون * .

أما شكري القوتلي فقد آثر الإنزواء ، بعد أن انسحب من وزارة مردم ، مفضلاً الصمت على إثارة المزيد من سعار الإنشقاق . كان الشارع السوري في حالة اضطراب لا يعرف أين يذهب ، إذ في مثل هذه الهيجانات غالباً ما يغيب التوجّه ، وقد زاد النار اشتعالاً ، أن فرنسا بدأت على الطريقة الإنكليزية بالمراوغة ، فقد توجّه جميل مردم إلى باريس ثلاث مرات لإقناع الجمعية الوطنية الفرنسية بالمصادقة على المعاهدة . إلا أن محاولاته باءت بالفشل . فبدلاً من الحصول على مرسيليا ، سلخ الفرنسيون لواء اسكندرون ، هذا وستترى حكومات متعاقبة ، من لطفي الحفار إلى نصوح البخاري إلى بهيج الخطيب (الذي كان بائع زيت من بلدة الشحيم اللبنانية) ليس أمامها برامج تذكر .

وإلى أن يشكل الخطيب حكومة المديرين ، سيكون موعد سوريا مع حدثين كبيرين هما : الغاء المعاهدة من طرف فرنسا ، واغتيال الدكتور عبد الحمن الشهبندر * ، الذي سبق لحكومة الحفار أن فرضَتْ الإقامة الجبرية بحقه .

---

* كان سنجق اسكندرون تابعاً لدولة حلب ، بعد أن قسّم غورو سوريا إلى خمس دول بوازع طائفي .

* حاول بهيج الخطيب رئيس حكومة المديرين أن يلصق تهمة الاغتيال بالكتلة الوطنية . أما الملفات الرسمية فتشير إلى أن مجموعة القتلة كانوا من مجلس الشيخ مكي الكتاني الذي أفتى بقتل الشهبندر لأنه امتدح الحلفاء في إحدى خطبه ، وأما القتلة فهم : سعيد المصري بائع متجول ، أحمد بن محمد عصاصة عامل نجارة ، صالح معتوق ضابط سابق . أحمد طرابيشي عامل مصبغة ، وعزت الشماع صانع أحذية ، والأرجح أن المفوضية الفرنسية هي مدبرة الحادث ، حيث سينجو الكتاني من عقوبة الإعدام ، ويُعدم المنفذون في الرابع من شباط عام ١٩٤١ .

كان همّ الخطيب الأول ، أن يقحم الكتلة الوطنية بحادثة الاغتيال ، وقد نظم لذلك خطة لاستجواب المزيد من شهداء الزور ، واستصدر مذكرات توقيف بحق كل من شكري القوتلي وجميل مردم ولطفي الحفّار وسعد الله الجابري ، وقررت قيادة الكتلة الفرار إلى العراق ، باستثناء القوتلي الذي آثر الإحتماء بالقنصلية السعودية بدمشق ، وهكذا أصبحت قيادة الكتلة شاغرة لسببين: الأول وفاة هنانو زعيم الكتلة والثاني فرار معظم قادتها إلى العراق ولم يبق سوى القوتلي الذي ستقع عليه مهمة استعادة تنظيم الصفوف . .

في لبنان حلّت فرنسا البرلمان اللبناني في أيلول من العام ١٩٣٩ ، واستعاضت عن الحكومة بما سُمي في حينه (بسكرتاريا السلامة العامة) ، وبعد استسلام فرنسا للجيوش الألمانية ، أعلنت عن رغبتها (بمواصلة رسالتها في بلدان المشرق ! . .)* ، وأخذ المفوض السامي الجديد الجنرال دانز يعمل تحت رقابة لجنة خاصة من دول المحور ، ولم تتأخر قوات المحور بمؤازرة القوات الفرنسية التابعة لفيشي ، من تهيئة الأراضي اللبنانية كطرق مواصلات ومطارات لاعداد عمليات الجيوش المقبلة ، وقد قامت مظاهرات وعصيانات نظراً للحالة الاجتماعية المتردية التي وصل إليها لبنان ، واضطرت سلطات المحور المحلية لطلب المواد الغذائية من فرنسا وايطاليا ، ولم يدم الحكم المحوري في لبنان طويلاً ، فبعد سنة من دخوله ، خرج على أيدي القوات البريطانية التي كانت تؤازرها قوات (فرنسا الحرة) ، وفي تموز من العام ١٩٤١ كانت بقايا قوات المحور بقيادة الجنرال دانز تعلن استسلامها ، وهكذا بدأت مرحلة جديدة من عودة الحلفاء السابقين إلى لبنان الكبير ، وهذه المرة برتوش ديمقراطية ، هذا وسيتم الإتفاق بين بريطانيا والجنرال ديغول ، على

---

* ومع ذلك فهي لم تعد كونها رسالة قتل وتدمير بالرغم من الحديث المسهب عن الرسالات الحضارية للغرب ، ففي كل منطقة سورية أو لبنانية كانت تشهد خراباً وتقتيلاً ، كان يعلم المرء بأن جيوش فرنسا مرّت من هنا . .

الاعتراف بالمصالح الخاصة لفرنسا في كل من سوريا ولبنان ، مقابل اعتراف فرنسا بالقيادة العامة البريطانية لجميع العمليات الحربية في الشرقين الأدنى والأوسط ، ورغم الاتفاق ، فقد سارعت بريطانيا لضم لبنان إلى منطقة الجنيه الاسترليني ، كما أخضعت جميع نشاطات لبنان التجارية من استيراد وتصدير لرقابة بحرية صارمة .

وفي جو من اشتداد التزاحم بين فرنسا وبريطانيا على المنطقة ، وتحت ضغط من نضال الوطنيين ، فقد اضطرت (لجنة فرنسا الحرة) ، لاصدار بيان رسمي يلغي الانتداب ويمنح الاستقلال للبنان ، وفي مستهل العام ١٩٤٣ وافق الجنرال كاترو ، الذي عيّن مندوباً سامياً في كل من سوريا ولبنان ، على إحياء دستور عام ١٩٢٦ والمباشرة باجراء انتخابات نيابية .

بالنسبة لفرنسا وطوال العقد اللافح الذي هبّ على أوروبا قبيل الحرب الثانية ، فقد عمدت إلى مصادرة الحريات الحزبية والصحفية . وقد لاقى أنصار الفلسفتين الشيوعية والفاشية عنتاً تبدى في المداهمات الصارمة والاعتقالات المتلاحقة ، وفي شوارع بيروت وأسواق دمشق - كانت الشيوعية والفاشية ، تدللان على فلسفتين خارجيتين متناقضتين ، وحتى الهزع الأخير من الثلاثينيات فإن الحزب الشيوعي المصري مثلاً ، لم يستطع أن يجند من مجموع عشرين مليوناً ، أكثر من ألفين ، وتقول ملفّات الداخلية المصرية آنذاك ، أن نصف الأعضاء كان من اليهود وثلثي النصف الثاني من الجاليات اليونانية والأرمنية إضافة إلى القليل من العرب .

وقد زادت في صعوبات الحزب ، الاتصال بالعمال والفلاحين والمثقفين الذين لم يروا في صراع الطبقات ما هو أهم من الصراع في سبيل التحرر ، وقد نشر الانكليز والفرنسيون دعاياتهم التحريضية في منطقة لا تقبل إنكار الله ، أو مشاعية المرأة بالتطاول

على المحرمات المقدسة . . ويبدو أن الغرب قد أفلح في نشر صور سوداء عن الشيوعية في المنطقة ، غير أن نجاحها في مقاومة الفاشية كان أقل فعّالية . فألمانيا كانت حليفة لتركيا المسلمة ، وألمانيا تريد أن تخلع الغرب عن كاهل المنطقة التي عاشت عقدين دامين في ظل الحراب الانكليزية والفرنسية ، ثم أن ألمانيا لم تخضع بلداً إسلامياً لسلطتها الغاشمة ، وكان الاعجاب بالشباب ، والموسيقى العسكرية ، ومواكب حملة المشاعل ، والإخلاص للزعيم المعصوم ، قد وقعت في قلب الشاب الذي سيولد في البرازيل عام ١٩٠٤ والذي سيرسم (نشوء أمته) على ضوء شعلة فكرية ايطالية * .

يقول دزموند ستيوارت ف كتابه تاريخ الشرق الأوسط ص ٢٨٥ :

(على الرغم من أن الحزب السوري القومي ، لم يتوصل إلى الحكم في أي بلد من بلدان الشرق الأوسط ، إلا أن قوميته المتطرفة وتنظيمه العسكري وعنفه أظهرت في الشرق، كما أظهر الاخوان المسلمون في مصر ، الموجات الصدامية التي أرسلتها أوروبا إلى أضعف شواطئ البحر المتوسط . إن كثيرين من الرجال الذين كان لهم أثر في العالم العربي الشرقي ، بعد الحرب العالمية الثانية ، مهما كانت اتجاهاتهم السياسية ، أمضوا مراهقتهم السياسية في أوساط الحزب السوري القومي) .

. . . .

في الأردن حيث الفصل كان قد تم عن ولاية دمشق ، عززت بريطانيا وضعها بتمديد صك انتدابها بحيث يشمل فلسطين وشرقي الأردن ، وبعد أن صارت هذه المنطقة المفرزة

---

* أنطون سعادة ، حيث من الواضح أنه تأثر بالمفكر الإيطالي باسكال منتشيني : (الأمة هي مجتمع طبيعي من الناس ذو مُتحَّدٍ أرضي جغرافي أصلي ، ووحدة عادات ولغة ، وكله خاضع للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي .) ويقول سعادة : نأخذ مثلاً سورية وبلاد العرب فنرى سورية مُتحداً تاماً . . . وفي زمن الدولة الاسلامية أصبح هذان المجتمعان الطبيعيان ، مجتمعاً مصطنعاً واحداً . فاشتركا في دولة واحدة ، ولكنهما ظلا مجتمعين طبيعين منفصلين في الحياة . فمن استقر من العرب في سورية أصبح جزءاً من المجتمع السوري وطلق البادية .

نشوء الأمم – الكتاب الأول – أنطون سعادة ص ١٥٢ .

أمارة ، شكلت بريطانيا أول حكومة مركزية لها برئاسة رشيد بك طليع . ولم تكن الحكومة أكثر من هيئة إستشارية للأمير عبد الله .

وفوق ما هو تعويض عن فقدان سوريا وخروج فيصل منها لصالح الفرنسيين . فإن أسباباً جوهرية هي التي حدت ببريطانيا لفرز شرقي الأردن كدولة منفصلة ، ويذكر المؤرخون السوفييت في كتابهم تاريخ الأقطار العربية المعاصر ص ٢٤٢ ، أن من أسباب الفرز أيضاً : (**إنشاء حزام غير منقطع من الأراضي التابعة لبريطانيا يمتد من البحر المتوسط إلى الخليج العربي ، مع تحويل الأردن إلى (مصدّة) لتغلغل النفوذ الفرنسي إلى الجزيرة العربية والعراق ، هذا فضلاً عن حصر مجال انتشار الهجرة اليهودية إلى فلسطين**) .

وكما يحب الأمير عبد الله أن يقول في مذكراته ، فقد توالت وزارات عديدة (من الطليعية - نسبة إلى رشيد بك طليع ، إلى الركابية - رضا باشا الركابي - إلى السراجية نسبة إلى الشيخ عبد الله أفندي سراج ، فالرفاعية نسبة إلى سمير باشا الرفاعي إلى الهاشمية نسبة إلى ابراهيم باشا هاشم ، فوزارات توفيق باشا أبو الهدى) * ، وما بين هذه الوزارات من فواصل زمنية ١٩٢٢ - ١٩٤١ جرت تطورات سيكون لها علاقة مؤثرة بالأحداث اللاحقة ، فمن تنازل الشريف حسين عن العرش وحلول ابنه البكر علي محله ، إلى إلحاق معان والعقبة بشرقي الأردن مما سيثير حفيظة السعوديين - الوهابيين ، في المستقبل ، إلى تشكيل الجيش العربي في عجلون والبلقاء والكرك ، حيث سيشكل (قوة قمع وارضاخ للذين يخرجون على القانون - ص ١٩٩ ، المصدر السابق) ، إلى ما يسميه الأمير في مذكراته (الفتنة الكبرى في العراق - نفس المصدر ص ٢٠٢) ، وهي الثورة التي سيقودها رشيد عالي الكيلاني ضد الانكليز في العراق .

---

* مذكرات الملك عبد الله كما نشرها مصطفى الخرسا تحت اسم ملك وتاريخ صفحات ١٨٠ . ١٩١

إن شرق الأردن ، هو الجزء الثاني بعد فلسطين ، من جنوب سوريا ، وكما أن النهر الصغير (الأردن) ليس فاصلاً بين قسمين من أرومة واحدة ، فقد كان تضامن الشعب العربي في الأردن كاملاً مع أبناء فلسطين ، وسوف نجد على قسمات التاريخ القريب في فلسطين ، مشاركة واسعة ومسلحة ، طالما كانت تعبر النهر من الشرق إلى الغرب ابان ثورات ١٩٣٣ و ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، وقد امتزجت العمليات المسلحة ضد الصهاينة فوق أراضي شرق النهر وغربه على حد سواء ، فكانت فصائل الثوار العاملة في جبال عجلون ، تهاجم وسائط النقل البريطانية وتقطع خطوط الهاتف وتقوم بهجمات متكررة على خط أنابيب البترول التابع لشركة نفط العراق ، وكانت عمليات الثوار متشابكة على ضفتي النهر ، تلقى المساندة والتأييد من جميع السكان .

. . . .

في الجزيرة العربية ، سيستفيق الهاشميون على وقع الكارثة بواحة تُربة ، حيث الواقعة الكبرى بين قوات ابن سعود الوهابية ، وقوات الأمير عبد الله بن الحسين ، ونتيجة للمعركة الفاصلة ، فقد انفتح الطريق أمام ابن سعود إلى الحجاز ، غير أن تهديداً بريطانياً حال دون ذلك ، وفي العام ١٩٢٠ احتل السعوديون - الوهابيون ، منطقة عسير الاستراتيجية المطلة على البحر الأحمر ، ثم زحفت القوات السعودية على واحة الجوف الكبرى ، وهي عقدة القوافل في الجزيرة ، وفي تشرين الثاني من العام ١٩٢١ سقطت أواخر معاقل آل الرشيد * ، في جبل شمر في نجد ، وفي تموز من العام ١٩٢٢ احتل

---

* كان الوهابيون بزعامة ابن سعود يزاحمون خمسة وعشرين ألفاً ، جاؤوا يجرّون الحجر والشوك .. وكانت الملحمة حيث استشهد من الأشراف ثلاثة وخمسون ، ولم ينج من الجند النظامي إلا ثلاثة ، والذي سلم من القوة الحجازية مائة وخمسون رجلاً ، أما هم فقد حُصدوا حصداً ، وكان قتلاهم فوق سبعة آلاف ، وكانت نجاتي منهم معجزة من المعجزات (مذكرات الأمير عبد الله - تجميع مصطفى خرما - ص ١٥٠) .

* سمحت بريطانيا بهذا الإنتصار لصالح ابن سعود خوفاً من شن قبائل شمر العربية هجوماً على خطوط مواصلاتها بين العراق وفلسطين ، وقد أجاز مؤتمر القاهرة برئاسة تشرشل تقديم معونة إلى ابن سعود قدرها مئة ألف جنيه تدفع بنهاية كل شهر ، وخمسة آلاف جنيه تدفع للأمير عبد الله كمصروف شخصي شهري - المحفوظات العامة .
سلاح الطيران الملكي تحت رقم ٣٧/٨ .

الأمير فيصل بن عبد العزيز ، الذي سيصبح ملكاً على السعودية ، منطقة أبها والحقت مع عسير بأكملها بالمنطقة السعودية .

في مؤتمر عفير سيرغم الانكليز ابن سعود على توقيع معاهدة يتم بموجبها رسم الحدود الشمالية الشرقية لنجد ، كذلك بين نجد والكويت ، وبعد عدة هزائم ألحقها الانكليز بالوهابيين ، فرض الانكليز خرائطهم الخاصة بخصوص مراكز الحراسات والتحصينات حول آبار النفط ، ولقاء تنازلات ابن سعود اعترفت بريطانيا بسلطته على نجد وجبل شمر والجوف . ستصبح مسألة الخلافة ، بعد أفول نجم الخليفة التركي ، من المسائل الساخنة بين الشريف الذي أعلن عن نفسه خليفة للمسلمين في الحجاز ، وبين ابن سعود الذي استشعر بأنه يستطيع الحصول عليها بالقوة ، ومن أجل هذا الهدف ، فقد شرع ابن سعود بالعمل مرة أخرى ، فعقد مؤتمراً لعلماء الدين وشيوخ قبائل نجد ، واتخذ قراراً بمهاجمة الحجاز ، وقد زعمت بريطانيا وراءها فرنسا ، بأنهما سيقفان موقفاً محايداً في هذا النزاع ، غير أن الحقيقة كانت شيئاً آخر ، فقد اتخذت بريطانيا قرارها بخلع الشريف حسين ، بسبب موقفه من قرار الحلفاء الخاص بالمناطق العربية ، وتقول وثائق مكتب المحفوظات العامة التابع لسلاح الطيران الملكي تحت رقم ٨/ ٣٧ ، بأنه من جملة توصيات مؤتمر القاهرة (دفع معونة للشريف تبلغ مئة ألف جنيه شهرياً اسوة بابن سعود ، كيلا ندع مجالاً للحسد والتعليقات غير المرغوب فيها) .

لكن لكي يقبل الشريف حسين بالمعونة ، عليه أن يقبل بشروط معاهدة ڤرساي (مؤتمر الصلح الذي خرج فيه الوطن العربي مقسماً بين سايكس وبيكو) ، ولم يكن بمقدور أي كان بأن يتصور صعوبة الموقف ، إذ كان الشريف في هذا الوقت ، بأمس الحاجة للمعونات المالية ، وقد صادف أن كلف تشرشل صديقه لورنس بهذه المهمة * ، وما حصل فعلاً هو

---

* يقول فيليب ناتيلي في كتابه المخفي من حياة لورنس : بأن الشريف كان بحاجة إلى المال وقد أعطاه لورنس على مسؤوليته قرضاً بمبلغ ثمانين ألف روبية ، وهو ما يعادل ثمانية آلاف جنيه استرليني ، وقد ذعر لورنس لما علم فيما بعد بأن الشريف اشترى عشر طائرات حربية معظمها من إيطاليا لمعاودة القتال ، وحتى موعد قرار ابن سعود بالزحف على مكة ، كان الصراع لم ينته بعد بين بريطانيا والشريف .

أن الشريف كان قد رفض المعونة ورفض الشروط . . .

ثم استمرت المفاوضات خلال سنتي ١٩٢٢ و ١٩٢٣ إلا أن الحسين لم يرضخ ، وظل يشعر بالأسف المرير لقيامه بالثورة ضد الاتراك ، وهكذا إلى أن سمحت بريطانيا لابن سعود بالاستيلاء على مكة ، في العام ١٩٢٤ ، فتنازل عن العرش وغادر إلى قبرص ، ثم عاد في العام ١٩٣٠ إلى عمّان ليموت فيها .

سيعقد ابن سعود مجلساً للشورى الحجازي يقول فيه (إن أمامكم اليوم أعمالاً كثيرة ، من موازنة لدوائر الحكومة ، ونظم من أجل مشاريع عامة ، ولقد أمرت ألا يُسن نظام في البلاد ويجري العمل به قبل أن يعرض على مجلسكم فتناقشوه بمنتهى الحرّية ! . . إنكم تعلمون أن أساس نظامنا وأحكامنا هو الشرع الاسلامي ، وأنتم ضمن تلك الدائرة أحرار لما ترونه في صالح البلاد ، بشرط أن يكون متوافقاً مع الشريعة الاسلامية) * .

ويتابع رياض الريس في تعليقه على المرحلة ، (**ما أن جاء عام ١٩٣١ حتى كانت معظم أحكام التعليمات الأساسية قد ألغيت صراحة أو ضمناً ، والحقيقة التي يجب أن تذكر هو أن الملك عبد العزيز آل سعود ، كان كل شيء في الدولة – المصدر السابق**) .

ومما لاشك فيه ، أن الشريف أواخر أيامه ، كان عجوزاً عنيداً غضوباً ، فبدأت بريطانيا تستشعر صعوبة التعامل معه ، لكن بريطانيا كانت قد عاملته بكل ألوان الخسّة والكذب ، فكانت تطريه عند حاجتها إليه ، وتتركه وحيداً عندما لا يخضع لمشيئتها ، حتى أن لورنس الذي تسربل بالعروبة والصداقة ، كان قد ضاق ذرعاً بالرجل ، فراح يُجمّل للخارجية البريطانية استبداله بابن سعود ، وتقول وثيقة من وثائق الخارجية البريطانية تحت رقم ٦٠٨/ ٨٠ بأن لورنس كان قد أرسل تعليقاً منذ ١٩١٩ ، يقول فيه :- (**إذا تخلى ابن سعود عن عقيدته الوهابية ، هان الأمر بالنسبة إلينا ، فهو البديل الوحيد ،**

---

* رياح السموم ، رياض نجيب الريس – الريس للكتب والنشر ص ١٥٤ . ثم يتابع فيقول : ما أن تم تأسيس المملكة العربية السعودية في العام ١٩٣٢ ، حتى غدا كل حديث في الشورى أو الإصلاح أو المشاركة السياسية من أي نوع ، نسياً منسياً .

أما إذا استمر عليها ، فبإمكاننا أن نبعث إليه بالفرق الاسلامية من جيش الهند ، إنني مستعد بأن أقوم بالمهمة بمعونة عشر دبابات من جيش الشرق فقط) .

. . . .

في العراق ، وبالرغم من إنهاء حالة الانتداب رسمياً ، فإن العراق من الناحية العملية ، ظل يجول في دائرة النفوذ البريطاني حتى فترة متأخرة من أواسط هذا القرن ، وقد لعبت بغداد نوري السعيد * ، دور حاضنة للأحلاف الغربية الموجهة ضد الاتحاد السوفيتي ، وفي سبيل إقامة القواعد العسكرية الخاصة بحماية المنشآت النفطية ، فقد راحت بريطانيا تربط العراق بمعاهدات شتّى ، وكان لمعاهدة ١٩٣٠ التي وقّعها نوري السعيد لمدة خمسة وعشرين عاماً ، أكبر الأثر في الهياج ، وقد حلّ السعيد مجلس النواب السابق ، ليجري انتخابات سافرة ، يكون من نتائجها تصديق المعاهدة من المجلس الجديد ، وفي العام نفسه ، سيولد حزب جديد هو حزب الإخاء الوطني بزعامة ياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني وحكمت سليمان وناجي السويدي ، وسيضم هذا الحزب تحالفاً عريضاً لجميع كتل المعارضة المناوئة للسعيد ، وكان من أهم مطالب هذا التحالف الجديد ، حل البرلمان المزيف ، وتشكيل وزارة جديدة لاعادة النظر في معاهدة ١٩٣٠ (حيث تربط هذه المعاهدة العراق بحلف مع بريطانيا يُقدم بموجبه حق استخدام سكك الحديد والمطارات والموانئ والأنهار العراقية) .

وطوال العامين ٩٣٢ - ١٩٣٣ امتدت العصيانات والاضرابات بحيث شملت بغداد والبصرة والكوفة وكربلاء والنجف وبعقوبة وغيرها من المدن العراقية في الشمال .

ورغم دخول العراق عصبة الأمم ، فإن الممارسات البريطانية لم تتراجع . فطوال أربعة عشر عاماً من الهيمنة البريطانية حتى ذاك الوقت ، لم يتبدل في العراق الزراعي المتخلّف

---

* لقد أقام (بيرسي كوكس) وسكرتيرته (جيرترود بل) بناءً على كثبان الرمل . فأورثا العراق ما أورثه اللنبي لمصر ، فلو صرف كوكس النظر عن هذه الواجهة الديمقراطية لكان أصدق وأبقى . ولما جُرّبت الديمقراطية نصف تجربة ثم انهارت ، كان السفير الذي سفارته إلى الجانب الغربي من نهر دجلة ، هو كل شيء في العراق ، إذ لم يكن يتدخل بتعيين الوزراء فحسب . بل والمديرين أيضاً ، حتى صغار الموظفين في الدولة .

شيئاً ، وماعدا صناعات استخراج النفط ، فإن سنوات الانتداب لم تشهد أية مؤسسة صناعية ذات شأن ، **وقد خلّف نظام الانتداب تركة ثقيلة تتمثل في تعسف الوجهاء والاقطاعيين والمرابين يقابلها إملاق الفلاحين المحرومين وجيش من العاطلين المدقعين ، وشبكة معقدة من النزاعات التي أجادت الاستعمارية البريطانية تأجيج سعارها .**

وفي غمرة التحريضات المتداولة ، فقد أثيرت مشكلة الآشوريين في وجه وزارة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٣٣ ، فقد استخدم الانكليز هذه الأقلية الآشورية لمكافحة الحركات الوطنية شعبياً ، وفي شهر تشرين الأول من العام نفسه ، نشبت مذبحة بحق الآشوريين وجدت حكومة الكيلاني نفسها في خضمّها ، ولم يكن قد مضى أكثر من شهر ونصف على وفاة الملك فيصل ، فاضطرت هذه الوزارة بتأثير من الوصي ونوري السعيد للاستقالة ، لتخلفها وزارتا جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي ، وقد تصادف أن جرت انتخابات مزيّفة جديدة في ظل هاتين الوزارتين ، مما أدى إلى نشوب هيجانات شعبية شديدة انطلقت من الفرات الأوسط إلى جميع المناطق العراقية ، وأدى الوضع إلى استلام حكومة (الإخاء الوطني) برئاسة ياسين الهاشمي التي لم يكن أمامها ما تفعله ، سوى الوعود والتهدئة .

وبالنظر للوضع الرخو الذي تحلّت به حكومة الهاشمي ، من سياسات ترضية ومراوغة ووعود ، فقد اشتعل العراق من جديد ، وتخلى زعماء الإخاء الوطني عن منهاجهم الديمقراطي ليوسعوا المعارضة تنكيلا ، وحلّ الهاشمي حركة الإخاء الوطني وداهم مكاتب الأحزاب في المدن الكبرى ، كما عمل على اغلاق الصحافة المناوئة ، لكن العديد من زعماء تحالف الإخاء الوطني ، كانوا قد انفضوا في مسعى لتأسيس نواة صوت الأهالي (وهو اسم جريدة بغدادية كانت واسعة الانتشار منذ بداية الثلاثينيات) ثم قامت

جماعة الأهالي * ، بنشاط هام في معارضة حكومة الهاشمي واجراءاتها التعسفية .

في التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٣٦ ، ستعلن الفرقتان الأولى والثانية بقيادة الفريقين بكر صدقي وعبد اللطيف نوري ، تمردهما ، وتنذر العرش بوجوب تنحية وزارة الهاشمي عن الحكم ، (وقد طلب قادة الانقلاب من الملك غازي أن يعهد بالوزارة الجديدة إلى حكمت سليمان ، وهكذا شارك في تأليف الوزارة جماعة الأهالي : (كامل الجادرجي وجعفر أبو التمنّ . أما يوسف عز الدين فمن أعضاء الجمعية السرّية - ومن المعروف أن الخلافات قد بدأت مبكرة داخل الحكومة الجديدة بعد أن بدأ بكر صدقي في فرض نزعته الفردية - الدكتاتورية ، على رئيس الوزارة والوزراء - كامل الجادرجي ، تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي ص ٤٣) .

وكما هي العادة المتأصلة ، فقد جرت انتخابات جديدة لعب فيها صدقي دوراً ضاغطاً لنقل أعوانه إلى قاعة المجلس النيابي ، ورغم هروب نوري السعيد وياسين الهاشمي إلا أن نتائج الانتخابات كانت مماثلة لما كان يجري في السابق ، هذا إنْ لم يكن أكثر من نصف النواب من أنصار السعيد وطاقمه الحكومي ، وظل الشغل الشاغل لصدقي ، وحكمت سليمان الذي تخلى عن أنصاره نهائياً ، هو ضمان تأييد المجلس النيابي ، وشراء الذمم وقمع حركات المعارضة بوحشية كاملة (إذ من المعروف أن بكر صدقي هو قائد القوات التي قمعت حركات الآشوريين إلى درجة المذابح) ، ولم يعد بمقدور أنصار الأهالي البقاء في الوزارة ، وهكذا استقال أربعة وزراء دفعة واحدة وهم : أبو التمنّ ، الجادرجي ، يوسف عز الدين وصالح جبر ، وقد تم إملاء شواغرهم بأوساط مماثلة ، وبدا أن بكر صدقي يعد العدّة لانقلاب جديد . . وفي آب من العام ١٩٣٧ سيُقتل بكر صدقي ، وستقدم حكومة حكمت سليمان استقالتها ، فاسحة المجال لعودة نوري السعيد إلى بغداد

---

* في البداية لعب الدور القيادي لهذه الجماعة ، كل من عبد الفتاح ابراهيم ومحمد حديد . ثم انتمى إليها كل من كامل الجادرجي وجعفر أبو التمنّ ، وقد شارك في نشاطها عزيز شريف . وعمل معها حكمت سليمان العضو البارز في حركة الإخاء الوطني ، كما أن ثمة صلة بين الضابط بكر صدقي صاحب أول انقلاب في العراق وبين جماعة الأهالي .

من جديد .

بعد الإخاء الوطني والأهالي ستتشكل وزارات في العراق (المدفعي ثم نوري السعيد) وستضطرب البلاد بدخول العالم حربه الثانية ، وسيسارع السعيد إلى فرض إجراءات بحق خصومه ، وسيُقتل الملك غازي في العام ١٩٣٩ إثر حادثة غامضة (لم تُفك طلاسمها حتى يومنا هذا) وستخلوا الساحة للسعيد والأمير عبد الآله (خال الملك وابن عم أبيه) الذي سيصبح وصياً على العرش طالما أن فيصل الصغير (الثاني) لم يدخل عامه الخامس بعد .

سيقطع العراق علاقاته الدبلوماسية مع ألمانيا بإيعاز من بريطانيا ، وستخضع البلاد لجائحة الغلاء وفرض الرقابة الصارمة ، على كل ما هو سياسي وتجاري بذريعة أحكام الطوارئ المتخذة .

أمام الأجيال المولودة في الثلاثينيات والأربعينات من هذا القرن ، فإن العراق المحكوم من الثنائي عبد الاله ونوري السعيد ، ليس خافياً على أحد ، فقد اتسمت المرحلة بطابع التفرد الاستبدادي والانحياز (والأصح الارتهان) المطلق للسياسة الانكليزية ، وبسبب من تسارع الأحداث العالمية ، فقد استكان الوضع في العراق ، وبدأت في ظل الركود العام ، تتشكل خلايا سريّة داخل أوساط الشعب والجيش ، (ومن البديهي أن تنظر هذه التشكيلات إلى دول المحور (ألمانيا ، إيطاليا ، واليابان) أعداء الانكليز نظرة إعجاب وتعاطف ، وقد تمكنت مجموعة عسكرية - مدنية من كسب التأييد من كل من سوريا ولبنان وفلسطين ، بتوجيه من الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني المقيم في بغداد، وهكذا إلى أن نشبت ثورة رشيد عالي الكيلاني في أول يوم من نيسان في العام ١٩٤١ - الخليج بيننا - حمدان حمدان - دار بيسان ص ٢٣) .

لقد سيطر الإتجاه الجديد ، الذي هرع إليه مقاتلون سوريون وأردنيون وفلسطينيون

ولبنانيون ، لا للتحالف مع النازية كما قيل ، بل لطرد الانكليز من البلاد ، وهكذا تمت تنحية عبد الآله ، وهرب السعيد مع رهط من أعوانه (جميل المدفعي وعلي جودت الأيوبي) ، فيما تم الاتفاق على استمرار سلطة الملك فيصل الثاني ، وانتخاب الشريف شرف (وهو والد عبد الحميد شرف رئيس وزراء الأردن الأسبق) وصياً على العرش .

كانت بريطانيا ما زالت تحتفظ بقواعد لها في الحبّانية والبصرة ، وبعد الاستنجاد بالجيش العربي في الأردن ، بقيادة جلوب باشا ، تم تشكيل رأس حربة لقوات بريطانية ، شرق أردنية * ، ضد مواقع الانقلابيين في المدن العراقية ، وظل الكيلاني وأنصاره مدة شهرين ينتظرون عوناً من المحور ، وهكذا إلى أن تمكن الإنكليز من إلحاق الهزيمة بهذه الثورة الوطنية ، وسيهرب الكيلاني مع لفيف من أنصاره إلى ألمانيا ، فيما سيودع السجن كل مَنْ كان يُشك بولائه لبريطانيا .

لقد تميزت ثورة الكيلاني بالطابع القومي ، حيث اشترك فيها أطراف عربية من سائر الأقطار ، كذلك قام ساطع الحصري ، وكان يشغل منصب مدير المعارف العراقية ، بتشجيع تيار (الشبيبة القومية) إضافة إلى واقع الكلية العسكرية التي تخرج منها العديد من الضباط العرب غير العراقيين ، فضلاً عن التعليم الجامعي ، الذي كان يتمتع بنواة تضم خيرة الأساتذة العرب ، أمثال عبد الرزاق السّنهوري ، وعبد الوهاب عزام وزكي مبارك وغيرهم .

ومع احتدام العمليات الحربية في الشرق (رومل - العلمين) ، ومع عودة عبد الآله ونوري السعيد ، فقد دخل العراق ضمن النفوذ البريطاني العسكري المباشر ، وما أن وضعت الحرب العالمية أوزارها عام ١٩٤٦ بهزيمة المحور ، وخروج الغرب مثخناً ، حتى

---

* علمنا من تصريحات وزير خارجية بريطانيا المستر إيدن ، أنه ليس في نيّة بريطانيا العظمى ، الانتقاص من حقوق العراق الاستقلالية ، أو سيادته الدستورية ، كما أنها (أي بريطانيا) لا تعلم بوجود خلاف أو عداء مع الشعب العراقي ، هذا وإن العزم معقود على إعادة الأحوال إلى طبيعتها السابقة كما كانت (مذكرات الأمير عبد اله . ص ٢٠٣) ، علماً بأن الثورة لم تكن تستهدف الهاشميين أصلاً ، فوجود الملك فيصل الثاني في مكانه ، وجعل الشريف شرف وصياً على العرش يثبت صحة العرض .

سمح الانكليز بتأليف الأحزاب السياسية فخرج إلى ساحة العمل السياسي كل من حزب الاستقلال وحزب الشعب وحزب الأحرار والحزب الوطني الديمقراطي وحزب التحرر الوطني ، ومع هذا ، فإن أياً من هذه الأحزاب لم يتمكن من المشاركة الفعلية في الحكم ، أو بتقرير سياسة البلاد الداخلية أو الخارجية على حد سواء .

سيتم في شباط من العام ١٩٤٨ توقيع معاهدة بورتسماوث الشهيرة بمعاهدة جبر - بيڤن ، وستعم المظاهرات الصاخبة سائر المدن العراقية احتجاجاً على المعاهدة ، وسيكون (يوم الوثبة) وهو ما يشبه العصيان المدني ، هو اليوم الموعود لاسقاط الحكومة والغاء المعاهدة ، فيما بدا أن الجيش العراقي يقتفي آثار حركة الضباط الأحرار في مصر ، حين أُعلن عن نجاح ثورة يولية عام ١٩٥٢ واسقاط الحكم الملكي هناك .

في فلسطين وحتى العام ١٩٣٢ فقد بلغ عدد المهاجرين اليهود ، زهاء مئة وعشرين ألفاً ، وكان تسعون ألفاً من هؤلاء قد قدموا بفضل الهجرة ، وانتقل زهاء مائتي ألف دونم من الأراضي الصالحة إلى الطرف الآخر (الانكليزي أو اليهودي) بقوة قانون بيع الأراضي قسراً من أجل أغراض النفع العام * .

وحسب تسلسل الوقائع ، فقد نشبت الثورة في يافا في الشهر العاشر من العام ١٩٣٣ ، حيث بدأت باغلاق جميع المؤسسات والمخازن وتوقفت وسائل النقل وامتلأت الشوارع بالمتظاهرين ، وحدثت الاصطدامات مع قوات البوليس الانكليزي ثم مع أرتال الجيش التي بدأت تهرع إلى المدينة ، وانتشرت حوادث يافا إلى بقية الأرجاء ، فهاجم المتظاهرون في حيفا أماكن تواجد الشرطة الانكليزية ، بما فيها السجن الذي حاولوا السيطرة عليه . وفي نابلس اشترك حوالي ثلاثة آلاف في هجمات على مواقع القوات البريطانية ، كذلك جرت اضطرابات كبيرة في عكا وجنين ، حيث أحرق الثوار مبنىً

---

* كانت بريطانيا قد أصدرت قانوناً غريباً في العام ١٩٢٨ يتم بمقتضاه بيع الأراضي قسراً إذا كان الغرض من هذا البيع ، هو نفع عام ، وهكذا كانت تجيّر الأراضي إلى قواعد ومستوطنات وطرق وسكك وامتيازات .

حكومياً ونزعوا سلاح رجال الشرطة ، وشنت فصائل مسلحة هجمات ضد مستعمرات صهيونية ، كما سارت مظاهرة نسائية حاشدة في شوارع القدس ، وأنشدت النساء الأناشيد الوطنية والقومية ، وهب رجال العشائر من شرقي الأردن (زهاء ثلاثة آلاف) لنجدة الأخوة في فلسطين .

وفي مصر وتونس والحبشة والهند جرت حشود التضامن مع الثورة الفلسطينية ، لكن بريطانيا لم تكن على استعداد للتسامح بشأن هذا الجسر الواصل بين مصر والعراق ، فاستخدمت كل ما لديها بمساعدة التشكيلات الصهيونية المسلحة ، للقضاء على الثورة في المدن أولاً ، ثم الانتقال فيما بعد إلى الريف .

لقد ساعد إنقسام القيادة السياسية في فلسطين على اخفاق الثورة ، فقد تحوّلت المطالب من الهجرة اليهودية واغتصاب الأراضي ، إلى مجرد مطالبة بالإفراج عن المعتقلين، وبموت موسى كاظم الحسيني ، الذي جرح في المظاهرات (كان قد جاوز الثمانين) ، تكون اللجنة التنفيذية قد فقدت أهم رجالها ، حيث ستحل نفسها في العام ١٩٣٤ (بسبب عدم الانسجام) * - جريدة الجامعة العربية - منيف الحسيني - القدس ٨/ ٤/ ١٩٣٤) .

وعلى ما يبدو فإن البشرية منذ سبارتكوس ، وكومونة باريس . . . لا تنتظر اللجان ، فقد نشبت ثورة جديدة ضد الاحتلال البريطاني والحركة الصهيونية ، وقد قادها هذه المرة ، رجل الدين الوقور عز الدين القسام، ولم تكن ثورة القسام وليدة حاضرها في العام ١٩٣٥ ، بل إن العمل على إنشاء حركته العقائدية المسلحة ، كانت قد بدأت منذ العام ١٩٢٨ ، واستعمل القسام منبر المسجد في حيفا لاستثارة روح الكفاح في المصلّين ، وقد خشيت القيادة الوطنية الفلسطينية ممثلة بالحاج أمين الحسيني من التهور . ويقول ناجي

---

* كتب أبو الفتح المقدسي في مجلة العرب التي أصدرها (عجاج نويهض ، عضو الهيئة المركزية لحزب الاستقلال) عن اللجنة التنفيذية للحركة الوطنية ما يلي :

اللجنة التنفيذية عدد أعضائها أربع دزينات (٤٨ فقط لاغير) وحقيقة لو طُلب من فلسطين أن تشترك في معرض بشري متنوع الصور ، مختلف القدّ ، متباين الأغراض والأهداف . لوجب أن تفوز فلسطين بكأس فضي .

علوش في كتابه المقاومة العربية في فلسطين ص ١١٦ ، أن المفتي كان قد اجتمع بالقسام . وكان جوابه على دعوة القسام (بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذه الأعمال ، وأن الجهود السياسية التي تبذل بمؤازرة إخواننا العرب ، تكفي لحصول عرب فلسطين على حقوقهم) .

وكما المؤمن يستعجل الشهادة ، فقد دارت رحى معركة طاحنة بين القوات الانكليزية التي حوّلت قضاء جنين إلى ساحة حرب، وبين جماعة القسام التي قررت المقاومة حتى النفس الأخير ، ثم كانت آخر كلماته لرجاله : موتوا شهداء . .

كان ما فعله القسام أبلغ رد على السياسة الوطنية التقليدية ، (فقد علّم ونظّم وقاتل ، غير آبه لجاه أو باحث عن زعامة ، وكانت سيرته مثلاً يحتذى ، بعكس السياسة التي ظلت قائمة على المناصب لا المتاعب والمساومة لا المقاومة (المصدر السابق) .

أما الوليد الشرعي لثورة القسام ، فقد كانت الثورة الفلسطينية الكبرى التي امتدت أحداثها من العام ١٩٣٦ إلى العام ١٩٣٩ .

ففي نيسان من العام ١٩٣٦ ، (حيث وصل التعداد اليهودي المهاجر ، زهاء ثلاثمائة ألف مهاجر) أعلنت اللجنة العربية العليا الإضراب العام في فلسطين ، ودام الاضراب ستة أشهر كاملة ، لم يفتح فيها حانوت في مدينة أو قرية ، وتوقف السكان عن دفع الضرائب الحكومية ، وتحولت العصيانات إلى مصادمات مع القوات المسلحة ، واندلعت نيران (حرب الأنصار) بقوة غذّتها الجبال والأودية والمغاور ، فاضطر الانكليز إلى استقدام تعزيزات عسكرية جديدة ، ودفعوا جيشاً تأديبياً ضخماً بقيادة الفيلدمارشال ويڤيل ، وبدأ تحريك الفصائل الصهيونية المسلحة ، وشرع الجيش البريطاني بحرق القرى والمزروعات مع حركة اعتقالات واسعة النطاق ، وبالحاح من الملوك العرب (ملك العراق ، والعربية السعودية ، واليمن وأمير شرقي الأردن) الذين ضمنوا حسن نوايا

بريطانيا ، فقد دُعيت اللجنة العربية إلى وقف الكفاح ، بانتظار نتائج اللجنة الملكية التي ستفد إلى فلسطين برئاسة اللورد بل .

هذا وستخلص اللجنة الملكية في نهاية العام ١٩٣٦ إلى أن نظام الانتداب قد أخفق ، وأنه في حال إلغاء الانتداب فإن اللجنة توصي بتقسيم فلسطين إلى كيانات ذات أنظمة دولية مختلفة * . .

أمام هذا الاخفاق ، فقد تم عقد مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن أوائل العام ١٩٣٩ ، واشترك في هذا المؤتمر زعماء الأحزاب السياسية في فلسطين ، ومندوبو مصر والعراق والعربية السعودية واليمن وشرقي الأردن (مع ممثلي الوكالة اليهودية) . وقد رفض المندوبون العرب الجلوس على طاولة واحدة مع ممثلي الوكالة اليهودية ، الأمر الذي اضطر الخارجية البريطانية إلى مفاوضة كل فريق على حده بالتناوب * .

لقد دار الجدل في مؤتمر الطاولة المستديرة ، حول مشروع يدور في مجال دولة عربية - يهودية واحدة ، خلال عقد من الزمن ، على أن تعقد هذه الدولة الجديدة معاهدة تحالف مع بريطانيا ، وفي غضون السنوات العشرين من المرحلة الانتقالية ، يُعهد إلى وزراء عرب ويهود بممارسة الحكم باشراف بريطاني . وقد رفض العرب واليهود هذا الاقتراح على حد سواء ، وطالب مندوبو الوكالة اليهودية بتقسيم فلسطين بين دولتين يهودية وعربية ، مع عدم التعرض لمسيرة الهجرة اليهودية ، فيما طالب العرب برحيل بريطانيا واعلان استقلال فلسطين . . . ولم يعر المندوب البريطاني في المؤتمر ، أي اهتمام لصخب الجانبين ، وأعلن أنه سيصدق مشروعه من جانب واحد ، وأن وثيقة رسمية (هي الكتاب الأبيض) ستخرج

---

* وصف زعيم حزب الأحرار البريطاني هذا الاقتراح بقوله : إن بيل يوصي بإنشاء ما يشبه بمنطقة السار والممر البولوني ونصف دزينة من المدن على طراز دانزيغ في رقعة من الأرض لا تتجاوز مساحة أمارة ويلز .

* مع ذلك فإن المفاوضات عملياً دارت بين فريق عربي وآخر يهودي ، ولم تكن لتدور بين مصري وعراقي وفلسطيني ، كما حدث بالأمس القريب في مدريد ، هذا فضلاً عن أن ممثلي الوكالة اليهودية كانوا في الجانب الآخر من مبنى وزارة الخارجية البريطانية . ولم يكونوا وجهاً لوجه في عملية مصالحة بين القتيل والقاتل .

إلى العلن بعد أيام .

سيقبل العرب بعد تردد سياسة (الكتاب الأبيض)* الانكليزية ، من حيث هي أقل موالاة للصهيونية ، وعلى الرغم من انتصار العرب في الظاهر ، إلا أن هذا الانتصار شكل نكبة حقيقية ، ذلك بأن القيادة الفلسطينية الوطنية كان قد قضي على معظمها ، وبعد ثلاث سنوات من العصيان والثورة (٩٣٦ - ١٩٣٩) كان المجتمع قد أُنهك . وقد سلبت الإستكانة للكتاب الأبيض أي حافز للعمل من جديد ، وإذ مال الشعب للهدوء المطلوب ، فإنه هو المطلوب بعينه ، بعد أن دخلت بريطانيا ساحة الحرب العالمية ، وعلى الجانب الآخر من نهر الأردن ، كان الجيش العربي يعد العدة للقضاء على ثورة الكيلاني في العراق ، وهكذا لم يحصل عرب فلسطين على أية خبرة قتالية جديدة ، من جهة أخرى ، فقد أطلق (الكتاب الأبيض) ، إرادة اليهود الكامنة بتأسيس دولة قومية ، كما ركّز طاقات الصهيونية العالمية ، للانتقال من لندن إلى واشنطن ، ولم يفت الكتاب من عضد الوكالة اليهودية في ارسالها المتطوعين ضمن جيوش الحلفاء إلى ساحات الحرب ، وقد أطلقت شعاراً صائباً يوم قالت : (محاربة الكتاب كأنْ لا حرب هناك ، والقتال في الحرب كأن لا كتاب هناك) وهكذا بدأ يولد جيش جديد هو الهاغاناة .

لقد شعر بن غوريون ، أن مصدر القوة سيكون الآن في أمريكا ، لأن الحرب ستترك بريطانيا خائرة القوى ، منهوكة حتى العظم مهما كانت نتائجها ، وقد عمل بن غوريون في الولايات المتحدة وتوصل إلى نتيجة كتلك التي توصل إليها وايزمن في انكلترا قبل ربع قرن ، وكان جزء من انجازاته عكس سياسة وايزمن القائمة على التحالف مع الانكليز ، وفيما كان وايزمن يكره الغوغائية ويمجد النظام ، فإن بن غوريون لم يكن ليكره شيئاً يحقق هدفه ، وقد تأكد انتصاره على وايزمن في مؤتمر نيويورك الشهير بمؤتمر بيلتمور * .

---

* سمح الكتاب الأبيض بهجرة خمسة وسبعين ألف يهودي فقط خلال السنوات الخمس التالية . على أن تقف الهجرة بعد ذلك نهائياً ، إلا إذا كان عرب فلسطين مستعدين للقبول بها ، فإنه ينظر إليها وفق تنظيم جديد !..

لقد عرف زعماء الصهيونية العالمية ، شيئاً لم يتعلمه زعماء العرب حتى الآن ، وهو ملاحقة الهدف على عدة مستويات بآن واحد ، ففي الخارج مثّل وايزمن اعتدال رجل الدولة الراشد ، وفي فلسطين أظهر بن غوريون عدم الاعتدال المدروس ، وعمل جيش الهاجاناة مع الوكالة اليهودية بصورة مسؤولة ، فيما هاجمت عصابتا آرغون وشتيرن أهدافاً مدنية لا يقرها رأي العالم ، وقد أدان الراشد (وايزمن) ، والحازم (بن غوريون) أعمال المتطرف (بيجن) ولكنها في النهاية إدانة من أجل نصاعة السجّل ليس أكثر .

في سورية ، سيجابه قرار الجنرال كاترو تعيين الشيخ تاج الدين الحسني رئيساً للجمهورية بالرفض والاضطرابات ، كذلك جوبه القرار المماثل بتعيين ألفرد نقاش رئيساً لجمهورية لبنان ، وكانت الكتلة الوطنية قد استردت أنفاسها - بعد حادثة الشهبندر - وقد قادها في هذه المرحلة زعيمها الجديد شكري القوتلي .

ردت فرنسا باعلان استقلال سوريا (أيلول ١٩٤١) وكلّف الشيخ تاج السيد حسن الحكيم بتشكيل الحكومة ، ولما كان الاستقلال صورياً ، إذ لم تسمح فرنسا بتحويل صلاحيات الانتداب إلى الحكومة الجديدة ، فقد استقالت حكومة الحكيم بعد سنة من تشكيلها .

ويقول جميل مردم بك في الأوراق التي جمعتها حفيدته سلمى مردم بك (أوراق جميل مردم بك - استقلال سوريا - شركة المطبوعات ص ١٧١) بأن اختيار الشيخ الحسني لرئاسة الدولة لم يفاجئ الوطنيين ، وأن تاريخ الأحداث السورية منذ العام ١٩٢٨ وحتى العام ١٩٤١ ، يثبت بأن الشيخ الحسني كان دائماً - وتحت شعار وجوب التفاهم مع فرنسا - يسعى لاستلام الحكم ولو بشروط فرنسية ، أي قبول الاستقلال غير التام ، ومن استعراض الشخصيات السياسية وقتئذ ، لم يكن هناك غيره ليقبل استلام السلطة بتلك

---

* طالب المؤتمر برفض سياسة بريطانيا الرسمية في فلسطين ، مع إعلانها دولة يهودية . كما طالب بدفع التعويضات الألمانية بعد أن أصبحت نهاية هتلر مفهومة ، وكان وايزمن يرى ضرورة الابقاء على التحالف مع بريطانيا ، وعدم الانتقال بصورة معادية إلى الصف الأمريكي . أما بن غوريون . فقد رأى استخدام النفوذ الأمريكي لإلغاء مضمون الكتاب الأبيض الانكليزي .

الشروط *، فقد كان يحتسب نفسه سراً وجهاراً، شفهياً وكتابياً بأنه نصير السياسة الفرنسية) . لقد أظهرت مرحلة الشيخ تاج الدين الحسني ، تقاطع المصالح العالمية في مركز سوريا ولبنان . وليس غريباً أن الحسني بالرغم من صداقته لفرنسا ، لم يكن بمعزل عن النفوذ البريطاني الذي أراد تصديره ، فالجنرال ديغول كان قد تلقى رغبة ملكية سامية برؤية أنصار الشهبندر في الحكومة السورية الجديدة ، وقد علق الوطنيون آنذاك ، بأن الوضع الجديد (أي دولة الحسني) لم تكتف بقبول الشروط الفرنسية فحسب ، بل والانكليزية أيضاً .

ويستدل من مواقف الدول العربية بخصوص الاعتراف ، أن بريطانيا سعت حثيثاً للضغط على العراق والسعودية ومصر ، من أجل الاعتراف بالوضع الجديد لسوريا ، وقد رفض العراق وترددت السعودية وقبلت مصر (حيث لم يكن الحكم للوفد بل للأقلية الحزبية التي جمعها القصر) . كما سعت بريطانيا عالمياً لكسب اعتراف الولايات المتحدة، غير أن الخارجية الأمريكية التي مازالت متأثرة بروح نيلسون ، رفضت الاعتراف معقبة بقولها :

(إن الولايات المتحدة لا تستطيع الاعتراف باستقلال سوريا ما دام في شكله الحالي ، من حيث دورانه في إطار الانتداب الفرنسي ، كما أن أمريكا لا تجد ما يحفظ حقوقها في المنطقة في ظل غياب معاهدة تبرمها مع السوريين)* .

وخلاصة القول ، أن أمريكا كانت مترددة حتى بالاعتراف بحكومة فرنسا الحرة حتى ذلك الوقت ، وقد عبرت في تصريح لاحق : عن عطفها على تطلعات الشعبين السوري واللبناني للاستقلال التام كما ترى في مساعي فرنسا خطوة نحو الغاية المنشودة . . وكان لا بد من مرور وقت طويل كي تعترف الولايات المتحدة (أيلول ١٩٤٤) اعترافاً غير

---

* إذ رفضها قبله كثيرون من أمثال السادة : هاشم الأتاسي وجميل مردم بك وخالد العظم وسواهم من الوطنيين .

* أوراق جميل مردم بك ، استقلال سوريا – سلمى مردم بك ص ١٧٨ .

مشروط باستقلال سوريا ولبنان * .

سيشهد العام ١٩٤٢ اضطرار السلطات العسكرية الفرنسية للاقدام على تنازلات جديدة مفادها إعادة العمل بالدستور الجمهوري ، والسماح باجراء انتخابات حرة . . .

كانت بريطانيا قد صممت على الحد من سلطة الفرنسيين ، خاصة وأن المزاعم المثارة عن علاقة الكتلة الوطنية بدول المحور قد أخذت في الانتشار ، وأن النحاس باشا في مصر والجنرال نوري السعيد في العراق هما في غاية الاستعجال من أجل وضع النظام في البيت السوري ، وأن زيارة جميل مردم بك ونجيب الريس إلى القاهرة ، مقدمة التوطؤ من أجل تشكيل فيدرالية عربية ، وكانت الحرب الدائرة في العلمين تنذر بأوخم العواقب لجيش الحلفاء شمال أفريقيا . . .

وهكذا في أواخر شهر نيسان من العام ١٩٤٢ ، وافقت الخارجية البريطانية على توصية وزيرها المفوض في سوريا الجنرال سبيروس ، وأصبح من واجب الجنرال كاترو استشارة الجنرال ديغول عن إعلان انتخابات نيابية وتشكيل حكومة موقته لهذه الغاية .

وقد طالب الجنرال سبيروس من الجترال كاترو أن يعلمه مسبقاً عن جميع المراسيم الهامة التي يود إصدارها ، وتحمل كاترو الضغوط البريطانية من حيث أن بريطانيا في النهاية هي التي تمسك بزمام القيادة العسكرية في كامل المنطقة ، وأن الجنرال كاترو نفسه ، خاضع لهذه القيادة التي بمقدورها أن تضع حداً لموقعه في سوريا . .

لقد بدأ التجاوز في المطالبات البريطانية ، حين تعدّى سبيروس ، على نص اتفاقية بريطانية - فرنسية هي (معاهدة ديغول - ليتلتون) ، وطالب بحصة بريطانية في إجراءات الأمن التي تفرضها فرنسا على سوريا . .

---

* في هذا العام أيضاً ١٩٤٤ ، أقيمت العلاقات الدبلوماسية مع الاتحاد السوفييتي بناء على طلب من الحكومة السورية .

سيكتب الجنرال كاترو إلى الجنرال ديغول في أواسط العام ١٩٤٢ ما يلي :

﴿ إن الحكومتين في سوريا ولبنان ، على الرغم من صلاحيتهما الواسعة ، سببتا خيبة أمل كبرى للسكان ، أما الأسباب فتعود إلى المخاطر التي تأتي من الآخر (المقصود بريطانيا) ومن الجوار (والمقصود مصر والعراق) ﴾ .

وكان جواب ديغول : (فيما يتعلق بالانتخابات ، فإننا نوافق على أن تضعوا الآلة الدستورية في سوريا على الطريق ، كما ننتظر مقترحاتكم بخصوص لبنان لدراستها واتخاذ القرار بشأنها) . غير أن اجتماعاً ثلاثياً في القاهرة (كيزي الوزير المفوض في مصر ، سبيروس وكاترو) كان قد عطّل كل شيء . فمصر والعراق يصّران على إجراء انتخابات سورية ولبنانية مقابل اعترافهما بحكومة فرنسا الحرة ، وإن الانتخابات يجب أن تجري في خريف العام ١٩٤٢ .

وهكذا ذهبت أوامر ديغول في مهب الرياح البريطانية من جديد . وبسبب من المجهود الحربي المشترك في ميادين القتال العالمية ، فقد ارتأت الخارجية البريطانية عدم إيصال النزاع إلى ما لا يُحمد عقباه ، فطلبت إلى الجنرال سبيروس أن يخفف من غلوائه تجاه كاترو ، الأمر الذي سيفقده مصداقيته كدبلوماسي بريطاني في الساحة السورية ، وكان سكرتير الدولة في الخارجية البريطانية السيد باترسون قد وجه تعليقاً ساخناً ضد سياسة سبيروس في سوريا (تلك السياسة التي أدت إلى نزاع شامل في كل من سوريا ولبنان مع فرنسا ، كما أن الأمريكيين يعتبرونه كارثة ، ولا أستطيع أن أتصور بأنه على علاقات حسنة مع الزعماء الوطنيين ، وفيما يتعلق بواحد منهم (هو جميل مردم بك) فقد شنّ هجوماً دموياً ضده بسبب زيارته القريبة العهد إلى مصر) * .

سيقول الجنرال ديغول في مذكراته : أن الوزير المفوض في مصر السيد كيزي ، طالبه

---

* هذه النصوص وما قبلها ، نقلتها سلمى مردم بك في كتابها أوراق جميل مردم ، صفحات ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٠ .

باجراء انتخابات في سوريا ولبنان ، وقد أجابه بأن هذا شأن من شؤون فرنسا وحدها ، وفي زيارة ثانية ، لم يأت الوزير كيزي على ذكر الانتخابات ، **فقد كان الألمان في دلتا النيل ، وقد وضع الإنكليز كلاً من غاندي ونهرو في السجن ، وإن من حق فرنسا أن تدير شؤونها في ممتلكاتها كما تشاء ، وأن العاصفة الآن ، هائجة فوق رأس الانكليز . . وكل ذلك بسبب من سوء نواياهم** - المصدر السابق - .

هذا وقد تدهورت العلاقات بين الجنرال ديغول وبين البريطانيين بصورة شبه سافرة ، ففي زيارة له لكل من سوريا ولبنان (آب وأيلول من العام ١٩٤٢) أقام اتصالاً مع القنصل العام الأمريكي في بيروت ، وكان مما جاء في هذا اللقاء (**إذا لم يتوقف البريطانيون عن التدخل في شؤون دولتيّ المشرق ، فإنه سيطلب إلى البريطانيين أن يرحلوا عن «أراضيه» ، وإذا ما رفضوا فإنه سيتخذ الإجراءات لحملهم على الرحيل بالقوة**) (نفس المصدر) .

ومع انتقال مسرح العمليات الحربية إلى شواطئ المتوسط وشمال أفريقيا ، فقد قرر الأمريكيون بالإتفاق مع الإنكليز ، استبعاد الجنرال المنفي ، عن المسرح إلى حين .

في مطلع العام ١٩٤٣ ، وهي الأيام الأخيرة من حياة الشيخ تاج الدين الحسني ، الذي اكتسب لقب (الداهية) بجدارة ، سيحل جميل الإلشي محل حسني البرازي في الوزارة الجديدة * ، وسيتوفى الشيخ الحسني إثر مرض عضال ، وبوفاته يكون الزمن قد وضع حداً للصورة الملتبسة ما بين نصف استقلالي ونصف انتدابي ، حيث الحياة يمكن أن تتحمل بمرونة قياسية (كدفتر التاجر الدمشقي) الذي يسجل ويصبر ، ثم يأخذ ويعود ليطالب من جديد .

---

* قام حسني البرازي ، وهو رئيس لوزراء الحكومة ، بإلقاء خطاب في مهرجان خصص لمناسبة الذكرى السابعة لوفاة المجاهد ابراهيم هنانو ، وكان المهرجان في قاعة سينما روكسي بدمشق . وقال فيه : أي شكل من أشكال الاستقلال يجب على الدول العربية أن تعترف به . إنهم بإسم الحفاظ على الأمن سلبوا سلطتنا ، وباسم المصالح المشتركة فقدنا مصالحنا ، هذا الادعاء السخيف الذي اسمه الاستقلال ، أعلن بكلمات الملك فيصل ، بأن الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى أبداً . . .

ستجري الانتخابات لصالح الكتلة الوطنية التي قادت نضال الشعب في سوريا من أجل الاستقلال والوحدة * ، وفي منتصف العام ١٩٤٣ سينتخب الزعيم شكري القوتلي لرئاسة الدولة ، وستلغى المادة المتعلقة بالانتداب الفرنسي من الدستور السوري ، وقد تفاءلت البلاد بعودة رجالاتها إلى السلطة ، وانبعث الأمل بقرب تحقيق الاستقلال التام ، حيث قدم المبعوثون الدبلوماسيون اعترافات دولهم باستقلال الجمهورية السورية .

قدّم (سولود) الوزير المفوض السوفييتي أوراق اعتماده للرئيس القوتلي ، وفي تشرين الثاني من العام ١٩٤٤ ، قدم (وود وورث) الوزير المفوض الأمريكي أوراق اعتماده أيضاً ، وفي كانون الأول من العام نفسه ، قدم (ترانس شو) الوزير البريطاني المفوض أوراق اعتماده للقصر الجمهوري في دمشق .

وقد عبرت خطب المبعوثين عن موقف حكوماتهم المؤيد لاستقلال سوريا الناجز ، دون إعطاء أية إشارة لامتياز فرنسي في ربوع الدولة المستقلّة .

في مطلع العام التالي (١٩٤٥) سيتبدل موقف بريطانيا على لسان تشرشل ، حين سيطالب بالحفاظ على مركز خاص لفرنسا في سوريا ، وفي خطاب للرئيس القوتلي ، بمناسبة إعلان سوريا الحرب على دول المحور ، سيشير الرئيس في مجلس النواب ، احتمالات مريبة في هذا الشأن :

(لا يساور أحد الشك في أنه سيجري تساهل ما بحقوق البلاد أو أنه سيُمس استقلالها ، فيما يمكن أن يُعقد اتفاق بيننا وبين فرنسا . . فإذا فعلنا ذلك فسيكون تبعاً لحقوق متقابلة) * .

---

* جرت الإنتخابات في عهد السيد عطا الأيوبي الذي كان رئيس دولة بالوكالة ، وفازت الكتلة الوطنية ، وأصبح القوتلي رئيساً للدولة وفارس الخوري رئيساً لمجلس النواب ، وسعد الله الجابري رئيساً للوزارة الجديدة .

* وثائق مجلس الشعب السوري بتاريخ ٢٦ شباط ١٩٤٥ . وأضاف :

(إن كل دولة يمكن أن تعقد صلات مختلفة تجارية واقتصادية وثقافية ورعاية مؤسسات خاصة وغير ذلك من الحقوق المتقابلة . .) .

وسيهرع مكتب البعث العربي ، الذي بدأ شبابه بالتكون ليدلي بدلوه ، فيقول (٨ آذار ١٩٤٥) : (**يظهر من خطاب الرئيس أن النية متجهة إلى الاستجابة لطلب فرنسا في عقد معاهدة . . إن كل معاهدة تعقد مع فرنسا تعني التسليم لهذه الدولة بمركز ممتاز في سوريا وهو ما سيكبل استقلالنا ، ويعرض مستقبلنا للذل والعبودية** - أورده وليد المعلم في كتابه سوريا - التحدي والمواجهة - شركة بابل صفحة ٣٤ -) .

ويضيف البيان قائلاً : (ليس من البراعة في شيء أن نكتشف فجأة ، حقيقة حقوقية تقول بأن عقد المعاهدات دليل على الاستقلال والسيادة ، وأن يأتي هذا الاكتشاف في الوقت الذي يعلن فيه تشرشل ووزارة الخارجية البريطانية رغبتهما في أن تعقد سوريا وفرنسا معاهدة تضمن لهذه الأخيرة مركزاً ممتازاً . . إن رفض مثل هذه المعاهدة ، ينال تأييد الدول العربية ، مثلما ينال تأييد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي على حد سواء) - المصدر السابق - .

وفي بيان آخر سيصدره الحزب الشيوعي السوري يقول فيه :

(سوريا ولبنان دولتان مستقلتان داخلتان في مجموعة الأمم المتحدة وقد اعترفت الدول العظمى باستقلالهما ، وعليهما أن ترفضا منح أي مركز ممتاز لأية دولة من الدول ، وتطالبان بجلاء جميع القوات الأجنبية من أراضيها ، ولهما ملء الحق في عقد ما تريانه ملائماً لمصلحتيهما من اتفاقات ومعاهدات .

إن الطريق أمام القضية السورية واللبنانية ، هو طريق معالجتها على أساس مبدأ الحرية والمساواة بين الشعوب أي بروح مؤتمر يالطا * ، ومبادئ دمبرتون أوكس ومقررات سان فرنسيسكو - وثائق الحزب الشيوعي السوري في حزيران ١٩٤٥) .

---

* **هذا المؤتمر الذي انعقد بروح الانقسام بين روزفلت وتشرشل وستالين .**

هذا وسيتلقى رئيس الوزارة السورية سعد الله الجابري في الرابع من أيار ، طلباً من الحكومة الفرنسية مفاده ، إرسال تعزيزات فرنسية جديدة إلى قوات المشرق ، في الوقت الذي كانت الحكومة السورية فيه ، تعد العدّة لاستلام جيش المشرق وتحويله إلى جيش وطني ، ثم عقدت الوزارة برئاسة الجابري اجتماعاً كان من نتائجه إرسال برقية احتجاج ، على أن هذا العمل يشكل مظهراً من المظاهر التي تمسّ بالسيادة السورية ، وهو نقض للاستقلال الذي اعترفت به معظم دول العالم .

ثم واصلت فرنسا تحدّيها فأرسلت الطرّاد جان دارك إلى المياه اللبنانية ، وأنزلت زهاء ١٥٠٠ جندي توزعوا بين سوريا ولبنان ، وكان على رأس القوة الجديدة الجنرال بينيه الذي زار القصر الجمهوري واضعاً شروطه الجديدة :

(إن فرنسا مستعدة لتسليم الجيوش السورية إلى الحكومة مقابل منحها قواعد بحرية في لبنان وجوية في سورية ، كما تطالب الحكومتين بضمان مصالحها المادية والمعنوية ، كالنواحي الثقافية والإقتصادية والاستراتيجية - **مع وضع القوات السورية تحت سلطة القيادة العليا الفرنسية خلال الظروف الراهنة)** * .

وسرعان ما التأم اجتماع على مستوى رؤساء الوزارات بين سوريا ولبنان (جميل مردم بك ورياض الصلح) وقد خلصا بنتيجة هذا الاجتماع إلى عدم الدخول في أية مفاوضات مع الجانب الفرنسي والقاء جميع التبعات على عاتق حكومة فرنسا ، كما أبديا استعداداً للدفاع عن سيادة البلدين بشتى صور التعاون .

ويقول جميل مردم بك في أوراقه ، كلما زادت حدة التوتر بين فرنسا وسوريا كان يزداد الارتباك في السياسة البريطانية ، فقد كان أول رد فعل لإيدن على التقارير الواردة إليه من سوريا ولبنان ، أن أوعز إلى سفيره في باريس السيد داف كوبر بأن يقول لبيدو

---

* تاريخ أمة في حياة رجل ، مجموعة من المؤرخين ، دار دمشق ص ٤٢ وما بعدها .

وزير الخارجية الفرنسية ، بأنه على الرغم من استجابة الحكومة البريطانية الدائمة لوجهات النظر الفرنسية ، فإنها لا تستطيع أن تسمح للفرنسيين أن يتصرفوا على هواهم في الشرق . . إن عليهم أن يواجهوا هجوماً عالمياً على مركزهم في هذه المنطقة ، **كما يجب عليهم أن يعلموا بأن هناك حدوداً للطاقة التي يمكننا أن نتحمل بها اللعنة والعداء مما يهدد وضعنا في الشرق الأوسط برمته .**

وعلى الطريقة الانكليزية ، فقد بعث إيدن برسالة إلى الحكومة السورية يطالبها فيها بابرام اتفاق دولي يحفظ بموجبه وضع الأقليات الدينية في سوريا * .

وفي رسالة ثالثة مختلفة ، أرسلت بريطانيا إلي الخارجية الأمريكية ، ما مفاده ، بأن (دولتي الشرق تصران على رفض الدخول في مباحثات مع الفرنسيين رغم عدم معرفتهما المسبقة بتفاصيل المقترحات الفرنسية ، لذا فإن الخارجية البريطانية تطلب من واشنطن اصدار تعليمات إلى الوزير الأمريكي المفوض في دمشق لدعم الممثلين البريطانيين في هذا الموضوع) .

وفي حشدطلابي كبير أمام السراي ، كان الطلاب يهتفون بإنشاء جيش وطني جديد ، وقد أكد جميل مردم بك لهم ، بأن الحكومة مصممة على استعادة جيش المشرق (لأنهم أبناءنا الذين وجدوا أنفسهم غيلة بين أيدي القيادة الاستعمارية) .

سيسود هرج في مجلس النواب السوري أثناء مناقشته للموازنة العامة حيث سيطلب زعماء النواب خاصة أكرم الحوراني وقاسم الهنيدي وجمال أديب ، تخصيص مبلغ هام من أجل تشكيل الجيش الجديد ، وقد هرع رئيس الوزراء إلى المجلس ، ليؤكد بأنه (ليس هناك من سبب لصرف النظر عن المطلب السوري بتسليم قطعات جيش المشرق ،

---

* كان رئيس الحكومة السورية نفسه – فارس الخوري – من أقل الأقليات الدينية في سوريا . فهو من الطائفة البروتستانتية ، لكن بريطانيا ، كانت ولم تزل ، تلعب على وتر آخر . يمكن أن يتم بموجبه ضمان مستقبلها في المنطقة بعد طرد الفرنسيين منها .

وستصرف سوريا على تدريبها وتجهيزها من الأموال السورية ، وقد اقتنع زعماء النواب بهذا العرض ، وصوتوا على الموازنة المقدمة من الحكومة) * .

في آذار من العام ١٩٤٥ سيغادر الجنرال بينيه سوريا غاضباً ، وستشن الطائرات الحربية الفرنسية غاراتها على مدينة حماة ، كما سيقوم الجنود من الفرنسيين والسنغال باعتداءات مسلحة ضد الشعب والمنشآت في محافظتي دمشق وحلب ، وفي دمشق توجهت الآليات المدرعة إلى مبنى مجلس النواب (في ٢٩ أيار ١٩٤٥) وطلبت إلى الحامية الوطنية تحية العلم الفرنسي ، ورفضت الحامية ، فبدأ إطلاق النار من المدافع والرشاشات على واجهة البرلمان مما أدى إلى مقتل جميع رجال الشرطة والدرك من الوطنيين السوريين ، وبالإضافة إلى ٦١٦ شهيداً فقد كان عدد الجرحى يربو على ألفين حسب بلاغ من وزارة الداخلية السورية في الخامس من حزيران .

وقبل لأحداث بأشهر ، وفي اجتماع له مع تشرشل في القاهرة ، يقول الرئيس القوتلي ، بأن تشرشل نصحه ، من أن الجيش البريطاني لن يبقى في سوريا ولبنان إلى ما لا نهاية ، وإن من مصلحة السوريين أن يحلّوا قضاياهم مع فرنسا مع وجود هذا الجيش ، وأن السوريين عليهم أن لا ينتزعوا المسألة غصباً ، ولا يدوسوا على الكرامة الفرنسية .

غير أن القوتلي فهم من هذه النصائح المتتالية عدم الإشارة نهائياً إلى الوضع المميز الذي تطالب به فرنسا في سوريا . وكان أكثر مما لفت نظره عبارة (**أن تحلّوا مشاكلكم مع وجود الجيش البريطاني قبل انسحابه**) . .

وخلال العدوان ، فقد عمت المظاهرات كلاً من مصر والعراق وفلسطين وشرقي الأردن ، وقد أراد قائد الجيش التاسع الانكليزي ، الاتصال بالجنرال أوليفار روجييه قائد

---

* من محاضر مجلس النواب السوري في كانون الثاني ١٩٤٥ ، وكان الحوراني من أكثر الزعماء تشدداً حين قال : إذا ظهرت منا بادرة ضعف ، فإن الحكومة لا تفقد احترامها فحسب . بل إن سوريا ستفقد استقلالها أيضاً .

القوات الفرنسية في سوريا ، للاستفسار عن الموقف ، وقد أحرج الوزير البريطاني المفوض ، الذي كان يقوم بزيارة للرئيس القوتلي ، وقد كتب اللورد كيلرن من القاهرة لوزارة خارجيته يقول : **مع الاحترام فإنني أجد كثيراً من الصعوبة في إعطائه جواباً مقنعاً ، إذا ما سألني رئيس الوزراء المصري عمّا يدور في سوريا من أحداث مؤسفة .**

وفي القصر الجمهوري في دمشق ، كان تبادل الكلمات القاسية بين الرئيس القوتلي وجميل مردم بك من جهة ، والوزير البريطاني المفوض من جهة أخرى ، (كان لبريطانيا من القوات ما يمكّنها من منع العدوان الفرنسي على شعبنا ، لكن البريطانيين لم يفعلوا شيئاً ، فإذا ما ظلّت سياستهم على هذا النحو فإن عليهم أن يتحملوا النتائج ، لا أمام العرب فحسب ، بل والعالم أيضاً) أما جميل مردم بك فقد قال للمفوض البريطاني : (كانت بريطانيا مخادعة في جميع مراحلها ، فبدلاً من تقديم نصائحكم إلينا ، كان عليكم كدولة حرة ، واجب وقف تقتيل شعبنا على يد الفرنسيين)* .

ولم يكتف الفرنسيون بالعدوان على مبنى البرلمان وسجن القلعة حيث دكوه بقنابل المدفعية (وقد أمر فخري البارودي وهو قائد الشرطة آنذاك باخلاء جميع السجون فوراً) بل استأنف الفرنسيون قصفهم المدفعي في ٣٠ و ٣١ أيار بحيث طال معظم الأحياء السكنية في العاصمة ، وحين طُلب إلى الرئيس القوتلي مغادرة منزله ، رفض بحزم (**إنني أفضل أن أموت على أن ألجأ إلى الفرار بينما يُذبح مواطنونا في الشوارع**) .

وبانتظار الجواب الأمريكي فقد تأخر تدخل الجيش التاسع البريطاني مدة ٤٨ ساعة ، وقد أبدت المدن السورية خلالها مقاومة ضارية ، ولعل أشدها ما حصل في مدينة حماة . حين تمكن الوطنيون من إسقاط طائرتين فرنسيتين ، مع قتل قائد القوات الفرنسية على ضفاف العاصي ، كما تمكن الوطنيون من أسر وجرح عدد من الجنود الفرنسيين ، كما تم إلحاق هزيمة نكراء بالجنود الفرنسيين في كل من جبل العرب وحوران ودير الزور ، وتمكن

---

* **هذا النص وما قبله مأخوذ من كتاب السيدة سلمى مردم بك .**
في أوراق جميل مردم بك – استقلال سوريا ص ٤٣٧ .

الناجون منهم من إيجاد ملجأ آمن في دار المحافظ في السويداء أو درعا ، وطلب قائد القوات الفرنسية الجنرال بينيه تعزيزات إضافية ، خاصة وأن الجنود في قوات المشرق ، كانوا قد التحقوا بالدرك السوري ، وأعلنت بيروت الإضراب العام ، وأرسل المفوض البريطاني ببرقية عاجلة من دمشق ، ذكر فيها (**أن الفرنسيين أقاموا دولة إرهاب في سوريا**) .

وهكذا تسلم الجنرال باغيت الإنكليزي تعليمات من تشرشل يأمره بموجبها تسلم القيادة العليا للقوات في الشرق ، وتبليغ الجنرال بينييه بأنه أصبح خاضعاً لأوامره ، وأن أول هذه الأوامر أن يتوقف الفرنسيون عن أي عمل عسكري في سوريا ، وأن على القوات الفرنسية الانسحاب إلي ثكناتها ، وقبل أن يصل الجيش التاسع إلى مشارف دمشق ، كان الفرنسيون يستخدمون أقصى ما لديهم من وحشية لارغام الحكومة على الفرار أو الاستقالة، **غير أن الحكومة بكامل أعضائها كانت مع رئيس الوزارة اللبنانية وأعضاء حكومته ، في القصر الجمهوري الذي ظل يتصدر جلساته الرئيس القوتلي ، حتى وصول الجنرال باغيت إليه** .

أرادت بريطانيا أن تستثمر التدخل لصالحها عن طريق العودة إلى دمج المصلحتين البريطانية والفرنسية ، بعد تقرير مفاده أن الجانب السوري قد تعب ، وكان واضحاً من رسالة الرد التي بعث بها تشرشل جواباً على شكر الرئيس القوتلي لموقف بريطانيا ، حيث جاء في هذا الرد : (الآن وقد جئنا لمساعدتكم ، فإنني آمل ألا تجعلوا مهمتنا صعبة ، وأن تعاملوا الفرنسيين بالعدل ، ونحن البريطانيين لا نريد شيئاً مما تملكونه سوى الاعتدال والعون الذي نستحقه بسبب جهودنا النزيهة) .

كان سعد الله الجابري يلقي خطابه المشحون في مجلس الجامعة العربية المنعقد في القاهرة (**إن سوريا بدلاً من أن تستسلم للألم مما أصابها ، إنما تشعر بالإطمئنان العميق يغمرها ، ولما تنفرج جراحها عن دمائها السخينة المراقة ، وها هي يفترّ ثغرها في تواضع ابتسامة الجندي الذي أدى واجبه في شجاعة وإيمان**) .

واتخذ مجلس الجامعة قراراً بتبني جميع المطالب السورية واللبنانية بجلاء جميع القوات الأجنبية عن الأراضي السورية واللبنانية . . .

سيصوّت فشنسكي المندوب السوفييتي على جلاء الجيوش الأجنبية من سوريا ولبنان فوراً في مجلس الأمن الذي بدأ مناقشة القضية في شباط من العام ١٩٤٦ ، وسيتبعه صوت الصين الوطنية التي أوصت ببدء الجلاء النهائي بأقصى ما يمكن من السرعة ، وسيرمي المندوب الانكليزي بقفاز التحدي حين سيعلن (عزم حكومته على سحب جيوشها في أقرب وقت ممكن) وسيسارع المندوب الأمريكي بالإعراب عن (ثقته بجلاء الجيوش الأجنبية عن سوريا ولبنان بأسرع وقت ممكن) وستتكاثر أصوات المندوبين إلى جانب الجلاء الفوري ، وسيعود كل من مندوبي بريطانيا وفرنسا للإدلاء بصوتيهما على أن (حكومتيهما ترغبان بوضع قرار مجلس الأمن موضع التنفيذ) وأنهما مع أكثرية المجلس! . . .

وهكذا ربح الوطنيون استقلال سوريا وتمّ الجلاء عن الأراضي السورية في ١٧ نيسان من العام ١٩٤٦ ، وباستثناء ميثاق الجامعة العربية وميثاق الأمم المتحدة ، لم ترتبط سوريا بأية معاهدة ، فقد تحمّل أولئك الرجال ممن قارعوا الانتداب طوال وجوده ، مهمة تحقيق الاستقلال ، وهي مهمة صعبة ، وكان دفاعهم عن المبادئ الدستورية بالقوة نفسها التي دافعوا بها عن الاستقلال . . .

. . . .

في مصر ، ومع اندلاع العمليات الحربية في الحرب العالمية الثانية ، صار لتوجه مصر السياسي الخارجي أهمية قصوى ، ففي أيلول من العام ١٩٣٩ ، قامت الحكومة المصرية ،

وفقاً لأحكام معاهدة ١٩٣٦ بقطع العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا النازية ، ثم مع ايطاليا في العام ١٩٤٠ ، ولكن مصر أحجمت عن إعلان حالة الحرب ضد دول المحور ، كما أنها ظلت متمسكة بموقفها حتى بعد استيلاء القوات الايطالية على ليبيا ، ودخول التشكيلات الألمانية المدرعة بقيادة رومل للهجوم على محور الاسكندرية ، ويُعزى هذا الموقف إلى إسناد فاروق رئاسة الوزارة إلى علي ماهر باشا الذي كان يكنّ البغضاء - مع أعضاء حكومته - للإنكليز - فضلاً عن المناصرة السرية لسياسة دول المحور ، وقد سادت في تلك الحقبة شائعات مفادها أن الملك فاروق نفسه ، ينطوي على تأييد متكتم لدول المحور ، غير أن سياسته العلنية ظلت تنادي باستمرار الصداقة مع بريطانيا الحليفة . . .

وفي ظل هذه الظروف ، كان حزب الوفد يرى في استثمار الوضع مع تليين السياسة المصرية حيال بريطانيا ، ما يمكن أن يؤدي في النهاية إلى تحرير مصر من تسلط الانكليز ، وفي نيسان من العام ١٩٤٠ عرض الوفد - الذي كان معارضاً آنذاك - على الحكومة البريطانية دعماً سياسياً شريطة أن تلتزم بريطانيا رسمياً بسحب جميع قواتها العاملة في مصر بعد انتهاء الحرب ، كذلك ضمان اسهام مصر في مؤتمر السلام كدولة ذات سيادة ، والاعتراف بسيادتها على السودان ، وكان المقصود عملياً من هذا الأداء الوفدي ، إعادة النظر في البنود الأساسية لمعاهدة عام ١٩٣٦ ، الأمر الذي كان يتعارض جذرياً مع جوهر السياسة البريطانية في الشرق الأوسط ، وقد رفضت بريطانيا هذا العرض متذرعة (**بالوقت غير المناسب**) ، لكن الدبلوماسية البريطانية عادت لاعطاء الوعود ، حيث وجدت ضرورة التعاون مع الوفد الذي نمت شعبيته بسرعة متزايدة .

وهكذا بدأ التعاون في العام ١٩٤٢ ، حينما كان الوضع في الشرق الأوسط يميل إلى الإنهيار ، حيث تم إخماد العمليات الهجومية البريطانية في ليبيا ، وبدا أن فيلق رومل

يحكم استعداداته للإطباق على الاسكندرية ، وقد نشط أنصار المحور في مصر في هذه الآونة ، وبدأ العمل التخريبي خلف الخطوط البريطانية ، وقامت جماعة الاخوان المسلمين بالهجوم على بعض القواعد البريطانية داخل مصر نفسها ، ونشطت الاذاعات الموالية للمحور ، فيما بدا التأكيد على أن هتلر إنما يهدف إلى طرد الانكليز من المنطقة العربية ، وأنه يكنّ احتراماً كاملاً للاسلام ، وكادت القلاقل التي تسببها جماعة الإخوان إلى أن تتحول في بعض المراحل إلى عصيانات مدنية ، وكان حياً في أذهان الشعب المصري ، ذلك النموذج الذي تبدى في العراق إثر الثورة الناشبة ، التي قادها رشيد عالي الكيلاني ضد الإنكليز .

بعد استقالة ماهر باشا – بناء على ضغط إنكليزي متواصل – لم تنجح حكومة سري باشا في عمل شيء يذكر ، وبالعكس ، فقد اضطربت شوارع القاهرة والمدن الرئيسية ، مطالبة بعودة ماهر باشا ، **كما انطلقت مظاهرة حاشدة في شوارع القاهرة في الأول من شباط ١٩٤٢ داعية رومل للتقدم إلى الأمام** ، وقد تم أخذ هذا الوضع على محمل من الجدية بالنسبة لبريطانيا ، فطالب اللورد كورليّان ، الملك بتشكيل حكومة قادرة على تلطيف الجو السياسي ، موصياً باسنادها إلى النّحاس باشا ، إلا أن الملك فاروق رفض الطلب رفضاً قاطعاً ، ولم تفلح الدبلوماسية البريطانية في ثنيه عن رأيه ، وفي ظهيرة الرابع من شباط طلب اللورد كورليّان ثانية من الملك إصدار مرسوم فوري بتسمية النّحاس باشا ، وجاء الطلب بصيغة إنذار ، إلا أن الملك عاد للرفض ثانية ، موجهاً كلمات فظة للورد ، ولم يتلكأ الانكليز حين اتخذوا الإجراء السريع بتطويق القصر بالمشاة والدبابات ، وقام اللورد بصحبة الجنرال ستون قائد القوات البريطانية في مصر بزيارة عاجلة إلى القصر، وقدما نصاً لمرسومين إثنين :

إمّا النّحاس وإما الاستقالة ، وفي الحالة الثانية ، فإن ثمة طائرة في الانتظار (سيدي جلالة الملك) . وسمى ستون وجهة النفي هذه المرة إلى جنوب أفريقيا .

صمت الملك برهة ، وقام من مكانه يجيل النظر من خلال نوافذ القصر ، وقد وقعت عيناه على منظر الجيش الانكليزي الذي يطوق القصر ، وكان جوابه :

- لا أعتزم التنازل عن عرش ورثته عن أجدادي ، لكن تأكدوا أنني لن أنسى هذا اليوم ما حييت .

وفي مساء اليوم نفسه ، أصبح زعيم الوفد رئيساً للوزراء ، وبالفعل فإن الوفد كان قد حاز في هذا العام على ٢١٨ مقعداً من مجموع ٢٦٤ في البرلمان المصري .

شرعت الحكومة الجديدة بشن حرب لا هوادة فيها ضد أنصار الحكومة السابقة ، حتى أن علي ماهر باشا نفسه أودع السجن بحجة تسليمه خطط العمليات الإنكليزية السرية إلى الايطاليين ، كما أن حكومة النّحاس ، لم تتردد في اعتقال أمراء من العائلة المالكة ووزراء سابقين ، وطالت خطواتها هذه أوساط العديد من ضباط الجيش ، **على رأسهم اللواء عزيز المصري ، الذي كان رئيساً لأركان الجيش المصري .**

لقد حاولت بريطانيا دفع الشرق الأوسط ، كما حاول المحور إثارته ، ولكن لا الحلفاء ولا المحور كانوا مهتمين فعلاً بشعوب هذه المنطقة ، وقد قابلتهم تلك الشعوب بالمثل ، ونظر الضباط الشباب إلى الحرب كحادث في منتهى الخطورة ، على أن يُدرس بحذر ، فالحرب العالمية مهما كانت أسبابها ونتائجها ، تشكل زلزالاً سياسياً ، فما كان يبدو ثابتاً سيتحرك ، وما كان سائلاً قد يتبخر (أو يتجمّد كما في أوروبا) وقد عنى الاستعمار بواقع من التجزئة أشياء مختلفة بالنسبة للعرب ، فهو بريطاني بالنسبة

للمصريين والعراقيين والفلسطينيين ، وهو فرنسي بالنسبة للسوريين واللبنانيين وعرب شمال أفريقيا ، وهو إيطالي بالنسبة لليبيين ، وقد بدت حرب أوروبا الأهلية الطاحنة - الحرب العالمية - وكأنها فرصة حسنة لإضعاف نفوذ الاستعماريين في المنطقة على حد سواء .

لقد أمضى الملازم ناصر حرباً هادئة خلال سنوات خدمته الثلاث مع صديقه عامر في السودان ، فقد كان بعيداً عن القاهرة إبان احتدام معارك أفريقيا ، وقد تمكن من التفرغ لقراءة التاريخ والاستراتيجية العسكرية ، ويوم أُهين الملك ، كان ما يزال في السودان ، وقد بقي القسم الأعظم من الشعب المصري جاهلاً بما جرى ، لكن شيئاً من الموضوع كان قد وصل إلى أسماع ضباط الجيش ، **فقدم الضابط محمد نجيب استقالته لأن الجيش لم يُعط فرصة الدفاع عن ملك بلاده ، وكتب ناصر إلى أحد أصدقائه (تسلمت رسالتك ، وأشعلتني القصة غضباً ، لكن ما عسى أن نفعل أمام حقائق الواقع ، إنني أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة ، وهو يقصد التهديد فقط ، ولكن لو أحس أن بعض المصريين مستعدّون للتضحية بدمائهم ومقابلة القوة بالقوة ، لانسحب كأي مومس من مومسات العالم** * .

وفي أعقاب الحادث مباشرة - يقول خالد محي الدين في مذكراته - أبلغني أحد زملائي الضباط ، بأن هناك اجتماعاً في نادي الضباط ، كان الانكليز في هذه الآونة ، يحرقون أوراقهم في مقر المندوب السامي البريطاني استعداداً للهرب عند اقتراب الألمان من الاسكندرية ، وقد وضعوا خططاً لاغراق الدلتا في وجه أي هجوم ألماني لاحق ، **وفي نادي الضباط كان اللقاء عاصفاً وغاضباً وحزيناً ، بكى الضباط بمرارة وغيظ وقهر ، كنا أكثر من أربعمئة ضابط ، وقد انطرحت فكرة تنظيم مسيرة عسكرية إلى قصر عابدين ،**

---

* يقول خالد محي الدين في مذكراته (والآن أتكلم) ص ٣٤ : مثلّ حادث شباط إهانة مريرة لمصر والملك والجيش .. لم أكن أحب الملك ، كذلك لا أدعي أنني كنت في ذلك الحين أكرهه ، فهو رمز الوطن وقائد الجيش ، ولم يكن هذا إحساسي وحدي ، محمد نجيب أكد أن هذا الحادث كان نقطة تحول في حياته ، عبد الناصر بعث برسائل من السودان تحمل المعنى نفسه . وأنا أقرر أن هذا الحادث شكل نقطة تحول في حياتي .

تأييداً للملك ، لكن الانضباط العسكري لا يسمح بالمظاهرات للعسكريين ، ثم ألقى أحمد عبد العزيز ، وهو ضابط محترم ، تعلمنا على يديه في الكلية الحربية دروساً في الوطنية الحقة ، كلمة قال فيها : (إن ضابط الحرس الملكي أحمد صالح حسني قد أضاع فرصة تاريخية لأنه كان يتحتم عليه ضرب الضابط الانكليزي بالرصاص ، فإن قتلوه كان شهيداً قادراً على أن يقدم لمصر رمزاً آخر من رموز رفض الاحتلال والتضحية . (والآن أتكلم صفحات ٣٦ - ٣٧) .

لقد أثر هذا الحادث على الضباط ، وعلى مختلف اتجاهاتهم السياسية ، **فقد بدا الابتعاد عن حزب الوفد ضرورة وطنية ، حتى أن أحدهم وهو ضابط في خفر السواحل (لقبه شبانة) ألقى بحذائه على النّحاس باشا وهو خارج من مسجد الرفاعي ، واستعد العديد من الضباط للقتال لحمايته من المحاكمة*** .

ولم يكن الضباط يتحركون بعزلة أو في فراغ ، فقد كانت لهم صلات بالقوى السياسية خارج الجيش ، ولم يحل نشاطهم السياسي دون العمل العسكري الذي نذروا أنفسهم له - وقد قدم تشرشل وضباط إنكليز شهادات عن (المساعدات العظيمة التي قدمها الجيش المصري في حراسة المرافق وأعمال المراقبة والأنوار الكاشفة والبطاريات المضادة للطيران ، مما خفف الضغط عن قواتنا إلى حد كبير - الجنرال أوكنلك قائد القوات البريطانية في مصر - .

سيشكل مكرم عبيد سكرتير الوفد في السراي ، الذي أصبح زعيماً - للكتلة الوفدية- وهي كتلة منفرطة من مسبحة الوفد نفسه ، سيشكل اتجاهاً جديداً ، يرمي إلى التشهير بسياسة المحسوبية والنفعية التي انتهجها الوفد خدمة لأنصاره ، غير أن التاريخ كان

---

* كان اليوزباشي عز الدين ذو الفقار الذي أصبح مخرجاً سينمائياً ، والملازم مجدي حسنين ، قد شهدا بأن شبانة لم يكن هو قاذف الحذاء ، بل إن الفعل قد جاء من أحد المصلّين خلف الضابط المذكور ، علماً بأن ذو الفقار وحسنين لم يكونا في المسجد أثناء وقوع الحادثة ! . .

شاهداً على إنجازات وفدية لها قيمتها في تلك المرحلة ، فخلال سنوات حكمه الثلاث من (٤ شباط ١٩٤٢ وحتى موعد اقالته في ٨/ ١٠/ ١٩٤٤) قدمت وزارة الوفد برئاسة النحاس ، العديد من الانجازات ذات التأثير الاجتماعي والسياسي ، فقد أصدرت قانون مجانية التعليم الابتدائي ، وأنشأت جامعة الاسكندرية وديوان المحاسبة العام ، وأمرت باستخدام اللغة العربية في جميع مكاتبات الشركات ، كما استصدرت قانون استقلال القضاء ، وخفضت الضرائب عن كاهل صغار المزارعين ، ووضعت مشروعاً لتأسيس المراكز والمجموعات الصحيّة ، ثم أصدرت قوانين تنظيمية للعمل ونقابات العمال . . . وكان آخر أعمالها تمثيل مصر بالتوقيع على بروتوكول إنشاء الجامعة العربية .

لقد أُقيلت وزارة الوفد بعد هدوء المدافع في معركة العلمين ، وبدأ سراي القصر ألعابه ، بإثارة زوبعة جديدة ، حين كلف أحزاب الأقلية بتجميع وزارة جديدة يرأسها زعيم السعديين أحمد ماهر باشا .

ثم كان حل البرلمان تمهيداً لاجراء انتخابات جديدة في مطلع العام ١٩٤٥ ، وحين تداعى البرلمان لعقد أولى جلساته ، كان أحمد ماهر يخر صريعاً على أيدي المحامي المتدرب محمود العيسوي ، حيث تم إعلان الدافع السياسي فوراً (من أن ماهر أعلن اشتراك مصر في الحرب إلى جانب الانكليز) .

ثم جاءت وزارة محمود فهمي النقراشي ، حيث بدأت مرحلة أخرى بانتهاء الحرب العالمية ، فخُففت الرقابة على الصحافة ، وأُلغيت الأحكام العرفية ، وسمح للعديد من الأحزاب بالظهور إلى ساحة العمل السياسي ، فطالب الوفد بواسطة مذكرة أرسلها النحاس إلى السفير البريطاني ، بتحقيق الجلاء الكامل عن مصر ، والاعتراف بوحدة مصر

والسودان ، وكان رد الخارجية البريطانية ، أن معاهدة العام ١٩٣٦ سليمة في جوهرها ، وأن سياسة حكومة صاحب الجلالة ، هي المحافظة على الود والتعاون القائمين بين مصر ومجموعة الأمم البريطانية * ! . . .

وحين أعلن الوفد رد بريطانيا على مذكرته ، كانت حشود المتظاهرين تملأ شوارع القاهرة عند جسر عباس (كوبري عباس) وتصدى البوليس للمظاهرة بشراسة ، حيث أدى اطلاق النار إلى سقوط ستين قتيلاً من الطلبة ، واعتقال مائتين من المتظاهرين . ولم تجد الوزارة أمام هذه المذبحة إلا أن تقدم استقالتها ، خاصة بعد أن ديست صور الملك بالأقدام ، وأقام الأزهر صلاة الغائب على روح الشهداء بمهابة جماعية ليس لها نظير . .

سيكلف اسماعيل صدقي برئاسة الوزارة الجديدة ، بعد استقالة النقراشي يوم ١٥ شباط ١٩٤٦ ، وسيقوم صدقي ، وهو رئيس حزب الشعب السابق ، وصاحب دستور ١٩٣٠ وعضو مجلس إدارة شركة قناة السويس ، بعرض التعاون على حزب الوفد ، وقد رفض مصطفى النحاس هذا العرض ، واشترط إعادة إجراء انتخابات نيابية جديدة .

واستعر أداء المظاهرات من جديد ، حيث انعقد مؤتمر شعبي في ميدان الأوبرا ، ثم تحركت المظاهرات إلى ميدان قصر النيل (ميدان التحرير فيما بعد) وظهرت العربات المصفحة الانكليزية ، التي باشرت باطلاق النار مما أدى إلى سقوط عشرات الشهداء ، وقد غلى الدم في عروق المتظاهرين ، فانقضوا على نادي الطيران البريطاني ، وثكنات جنود أفريقيا ، وجميع المحلات الأجنبية ، وظلت الحشود الغاضبة تطوف شوارع القاهرة المغلقة، وتلوح بالمناديل المخضبة بالدماء ، أمام قصر عابدين طوال الليل .

لقد أدى تدهور الموقف ، إلى تغيير في طبيعة اسماعيل صدقي رئيس الوزراء ، وتمثل

*** لم تغر هذه السياسات الانفتاحية جماعة الاخوان المسلمين ، فقد ظلوا في مكمنهم يتدبرون أمورهم بالسهر والحذر والحيطة ، حيث كانت الجماعة تعتبر ، على طريقة الحزب الوطني القديم ، الاغتيال وسيلة من وسائل النضال المشروعة ، وما قتلة كليبر وبطرس غالي وأحمد ماهر إلا شهداء عند الله .**

ذلك في منع المظاهرات ومصادرة الصحف (خاصة الوفدية) واتهم النحاس باشا بأنه يقيم العراقيل في وجه المفاوضات مع الانكليز للحصول على الجلاء . .

كانت حكومة العمال البريطانية التي كان لها حظ النجاح بعد الحرب فد أرسلت وزير خارجيتها بيڤن لاجراء مفاوضات سريعة مع صدقي ، وانتهت هذه المفاوضات باصدار بيان مفاده توطيد عرى التحالف بين أمتين تجمع بينهما مصالح مشتركة ، كما أن الجلاء يتم بالمفاوضات بعد تحديد مراحله ومواعيده ، وأن هناك اتفاقاً ينظم التعاون في حالة نشوب حرب وشيكة بين مصر وبريطانيا . . .

ونقلت وكالة رويتر في يوم التوقيع على بيان (بيڤن - صدقي) الذي صدر في السابع من أيار ١٩٤٦ عن مصدر بريطاني رفيع المستوى قوله : أن على الشعب المصري ألا ينتظر الجلاء بالسرعة التي تم بها عن سوريا ولبنان ، وذلك بسبب ضخامة القوات في مصر ، وبسبب ما يحتاجه الجيش المصري من استعدادات تؤهله لتحمل التبعات التي قد تنشأ * .

ومن نشاط الشارع إلى نشاط ضباط الجيش ، وطبقاً لنظام الطوارئ ، فقد أُستخدم الجيش في وزارتي النقراشي وصدقي ، كهراوة بوليسية في مواجهة الشعب ، وقد أصابت هذه المظاهر كرامة العديد من الأوساط العسكرية ، خاصة صغار الرتب ، واستقر الرأي ، مع انطلاق الحركة الشعبية في الأعوام ٩٤٦ - ٩٤٧ على عدم إطلاق النار مهما كانت الظروف والأوامر ، وبذلك ترتب أول عصيان مسلح صغير بين الضباط الذين ينتمون لاتجاهات وطنية أو دينية أو يسارية . . ولم تكتف نواة العصيان الوطني المسلح ، بذلك ، بل راحت توزع المنشورات السرية ضد بريطانيا والقصر ، وعلى الرغم من شقة المسافة بين الضباط والوفد (حيث ظل الوفد يعتبر بأن للعسكريين مهمات أخرى لا شأن لها بالسياسة)، إلا أن هذه المنشورات كانت تشير أحياناً إلى براءة حزب الوفد ، من الجازر

---

* مكتب المحفوظات العامة في لندن - وكالات ١٩٤٦/٤/٧ .

التي طالما ارتكبتها أحزاب الأقلية الشعبية ، ثم بدأت أسرار الائتلاف العسكري المتضامن بالذيوع عن طريق مخابرات الجيش والقصر ، فعكف الملك على اتخاذ قرار باجراء مقابلات وزيارات لثكنات الجيش كثكنة المدفعية في الماظة ، وكان الصاغ عبد المنعم رياض (شهيد حرب ١٩٦٧) قد أظهر من ضروب الاستخفاف بالزيارة الملكية ما يلفت الأنظار ، وقد استدعي على إثر ذلك إلى السراي ، وفهم الملك أن حالة غليان قصوى تسود أوساط الجيش . . .

كان الاتجاه الغالب ، كأول فعل عسكري دموي ، هو اغتيال رئيس أركان الجيش اللواء ابراهيم عطا الله ، ربيب القصر والمسؤول عن فقدان الجيش لمهابته وتدريبه ، غير أن المحاولة تم اكتشافها ، وأودع السجن كل من البكباشي رشاد مهنا وأحمد يوسف حبيب والصاغ عثمان نوري واليوزباشي عبد الرؤوف نور الدين وعاطف سعد ومحمد حسن والملازمين عبد القادر طه وأحمد فؤاد ، رهن التحقيق . ولم ينته الاعتقال كالعادة إلى التحويل للمحاكم العسكرية ، بل إن ما جرى بعد ذلك ، هو إعفاء ابراهيم عطا الله من منصبه ، وخروج (الحرس الحديدي)* إلى ساحة العمل السري . وفي الحقيقة ، فقد تحوّل العديد من الضباط الذين أرادوا اغتيال عطا الله إلى تشكيل الحرس الحديدي فيما بعد .

لقد أطلق عبد الرؤوف نور الدين (اليوزباشي المعتقل بقصة اغتيال عطا الله) النار مع زميله أنور لسادات على موكب لمصطفى النحاس في الخامس من نيسان ١٩٤٨ فأخطآه ، وبعد مضي أقل من ثلاثة أسابيع ، قام كل من كمال صدقي (ضابط المخابرات) وعبد الرؤوف نور الدين وأنور السادات بنسف منزل النحاس باشا مما أدى إلى مقتل الخادمة

---

* تنظيم عسكري ملكي إرهابي ، كان يهدف للقضاء على خصوم الملك كمدنيين أو عسكريين ، وكان ارتباطه المباشر بالسراي عن طريق يوسف رشاد طبيب البحرية المصرية ، وكان محمد حيدر وزير الحربية الجديد قد أخذ دوره في مساندة هذا التشكيل .

وزوجها (إذ كان النحاس خارج المنزل مع عائلته) *.

قبل هذه الحادثة بسنتين ، كان حسين توفيق أحد أبرز قادة العمل السري ضد الانكليز ، قد تمكن بمعاونة السادات من اغتيال أمين عثمان ، حلقة الوصل الرئيسية بين الوفد والقصر ، وبموجب محاكمة جرت في الشهر الأول من العام ١٩٤٨ ، تمت براءة ١١ متهماً ، بمن فيهم السادات ، وحكم على حسين توفيق بالسجن خمسة عشر عاماً ، ثم ما لبث أن قام القصر بتهريبه إلى سوريا .

ولعله من السهل الآن ، الحديث مطولاً عن مخاطر اللجوء إلى الارهاب الفردي ، لكن أعوام ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ ، ١٩٤٧ ، شهدت العديد من هذه المحاولات نظراً ، وكما شرحها اللواء عزيز المصري (لصعوبة المواجهة المباشرة مع الاحتلال أو حتى غير المباشرة لانكسار ميزان التكافؤ) .

لقد كان الجيل كله متأثراً بعزيز المصري ، هذا ما يقوله خالد محي الدين في مذكراته ، وكان عبد الناصر أحد المتأثرين بمواقفه * . . ولم تكن السياسة الوطنية المبنية على أسس

---

* كان أنور السادات الوحيد بين جماعة الضباط الأحرار الذي غامر بحروبه الخاصة ، وقد اجتمع فيه من الجرأة والانتهازية وسوء الحظ ، ما مثّل العديد من شباب جيله ، لقد كان يهتبل الفرص بصورة نادرة ، وها هو يرى فرصة مصر فيما تتعرض له بريطانيا من مخاطر على يد المحور ، ولم يكن منحازاً لتفكيره فحسب ، بل كان مستعداً لازعاج الانكليز حين قرر تهريب اللواء عزيز المصري رئيس الأركان السابق ، الذي حارب مع أتاتورك في معركة غاليولي الشهيرة وتمسك بواجب المسلم في تأييد السلطان وحلفائه الألمان .
لقد رسم السادات خطته لتهريب اللواء المصري عن طريق غواصة ألمانية ، ولما فشلت ، لجأ لخيار آخر وهو تهريبه بطائرة مصرية مسروقة من الجيش ، وفشل الخيار الآخر واعتقل المصري بينما أفلت السادات ، ليخوض مغامرة تجسسية مع ضابطين ألمانيين ، يُطرد على أثرها من الجيش .. وقد هيأت مغامرات السادات المتكررة ، والسيطرة البريطانية على مصر ست سنوات أخرى للضباط الأحرار الذين سيجدون أنفسهم عام ١٩٤٨ داخل حصار الفالوجة ، وأن فالوجة أكبر تنتظرهم هناك على ضفاف النيل .

* يروي خالد محي الدين قصة تحريضه وقبوله بالاشتراك في اغتيال أحد المرشحين لعضوية مجلس الشيوخ وهو ذو ارتباطات مع الانكليز ، ولم تنجح المحاولة لعدم مجيء المرشح في الوقت المحدد . كما يروي تأثير الصاغ حسن عزت في هذا المجال ، وكيف أن عبد الناصر فشل هو الآخر في المحاولة الشهيرة لاغتيال حسين سري عامر .

الارهاب الفردي ، أو تلك المنبثقة من سياسات القصر وخصوماته ، هي الجاذب الوحيد لشباب يزداد إعجابه بالضرب على طريقة الصاعقة الخاطفة ، فقد كان ثمة تيارات آخذة طريقها لأوساط الضباط ، تمثلت بالاخوان المسلمين ، وهي ما تعتبر الاغتيال مشروعاً ، وتشير الوقائع إلى اجتماعات سرية جرت بين حسن البنا والعديد من الضباط في تلك المرحلة ، حتى أن الشابّين عبد الناصر وخالد محي الدين أقسما على المصحف والمسدس في غرفة مظلمة من غرف الجماعة ، وإلى جانب هذا الالتزام ، **فقد توطدت عرى التعاون بين يوسف رشاد وعبد المنعم عبد الرؤوف (قادة الحرس الحديدي) وبين جمال عبد الناصر ، ولو أنها كانت تتم عن طريق وسطاء من أمثال مصطفى كمال صدقي وعبد المنعم وأنور السادات ، ولم تكن علاقة مباشرة بين رشاد وعبد الناصر .**

وسيتبين فيما بعد ، أن عبد الناصر كان يستخدم هذا التواصل ، لأغراض عدة ، منها معرفة ما يدور خلف أسوار القصر من خفايا ، وحماية الضباط الذين بدأوا بالتحلق حول تشكيلهم الخاص ، ذلك كما حدث حين تمت الوساطة مع رشاد لاعادة الضابط خالد محي الدين من حرس الحدود إلى سلاح الفرسان ، وكما حدث حين نجا عبد الناصر من ويلات محاكمة خطرة ، بتهمة تسريب (كتاب حربي ، عن استخدام القنابل اليدوية) إلى مدنيين من جماعة الاخوان المسلمين .

كان هناك اتجاهات يسارية في أوساط ضباط الجيش أيضاً ، وقد عكفت هذه الاتجاهات على توجيه النقد المرير لجماعة الإخوان من معاداة للحياة الحزبية ، والتمسك بالغيبيات والخضوع المطلق لشخصية المرشد العام ، مع إثارة مفاهيم طائفية أو عنصرية تودي إلى انشطار البلد وطنياً . .

ومع تدفق العديد من الضباط إلى جناح الإخوان المسلمين ، فإن كثيراً من الضباط لم يجدوا في الجماعة جواباً وافياً ، لما تثيره الحياة من أسئلة ، فهناك الدين والدنيا . وهناك برنامج العمل السياسي في أكثر مناحي الحياة تعقيداً ، في الاقتصاد والمصارف ، في التربية والتعليم ، في العلوم والاتصال مع الغرب المتطور ، في محاكم الزواج والطلاق ، في مصرية الاسلام والأقباط ، وفي الوضع الشرعي لمصر الخلافة أو المملكة أو الجمهورية .

وهكذا كان يجري الانتقال من اتجاه لآخر ، وكان سلاح الطيران وورشاته المتعددة ملاذاً لليساريين الذين مثلتهم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (حدتو) ، فيما شهد سلاح المشاة والمدفعية والفرسان ، تغلغلاً إخوانياً وافياً . .

كانت الأحداث السياسية قد بدأت تأخذ اتجاهاً مؤثراً في صفوف القوى العاملة في القوات المسلحة ، إثر استقالة اسماعيل صدقي من رئاسة الوزارة وتكليف محمود فهمي النقراشي بتشكيل وزارة جديدة ، وقد جاء هذا التحول نتيجة لفشل المفاوضات مع الانكليز على الجلاء ، وسافر النقراشي إلى نيويورك لعرض القضية المصرية على مجلس الأمن ، وكانت الولايات المتحدة قد غيرت موقفها من مبادئ رئيسها ويلسن ، بدخول ترومان إلى سدة الرئاسة ، وبات التدخل في شؤون اليونان وإيران وتركيا سياسة يومية أمريكية ، خاصة بعد أن أصبحت (جمهورية الشر الشيوعية) بعبعاً يهدد العالم ، وكشفت القضية المصرية أثناء عرضها على المجلس ، حقيقة اتجاهات الدول الكبرى بطريقة عملية ، حين لم يقف إلى جانب الجلاء الكامل غير الإتحاد السوفييتي ، واندلعت المظاهرات الشعبية وظهرت الدعوة للكفاح المسلح (الجلاء بالدماء) واستدعي الجيش للتدخل ، فأضربت جموع العمال إلى جانب الطلبة وبقية جماهير الشعب ، وكان اضراب رجال البوليس أنفسهم ، من أشد وقائع هذا العصيان تأثيراً ، وأعلنت الحكومة

حالة الطوارئ ، فغادر معظم ضباط القاهرة مكاتبهم ، ثم كان الإزدلاف إلى نادي الضباط حيث اجتمع زهاء خمسمئة ضابط ، تلقوا برقيات التأييد من ألفين آخرين ، وقرر ضباط الاسكندرية الاعتصام في ناديهم ، ورغم حركات النقل والتشتيت التي باشرتها الحكومة بحق الضباط المعتصمين ، وتأليب ضباط الجيش ضد ضباط البوليس ومظاهرات الشعب ، إلا أن هذه الفترة (**كانت من أمجد فترات نضال الشعب المصري في حركة سياسية واجتماعية مشتركة ، وفي تناسق وطني بين الشعب والجيش**)* .

ومع انفجار القضية الفلسطينية ، فقد كان طبيعياً أن ينتقل مركز الفعل من الداخل إلى الخارج ، وهكذا تم إجهاض هذه الانتفاضة الشعبية ، التي ستجد ردة فعلها القصوى داخل صفوف الوطنيين في القوات المسلحة .

على الجانب الآخر من شواطئ البحر الأحمر ، فقد رُفعت الستارة عن مسرح الألعاب الانكليزي في الجزيرة ، **وتبين بعد استقرار المشهد ، أن سايكس وبيكو لا عمل لهما هنا ، فالجزيرة بمساحتها القاريّة غير قابلة للتجزئة ، وأن مملكة واحدة ومضمونة فيها ، خيرٌ من توزيع كامل جيوش الامبراطورية لضبطها ، وهكذا تمت عملية الضبط بالنيابة ، وصار ابن سعود ملكاً على الجزيرة بكاملها دون منازع . .**

سيوقع ابن سعود معاهدات شتى ، مع البريطانيين أولاً في العام ١٩٢٧ ، ومع الكويت الدولة المستقلة عام ١٩٣٠ ، ومع ألمانيا في العام ١٩٢٩ ، ومع العراق في العام ١٩٣١ ، ومع إيطاليا في العام ١٩٣٣ . . الخ ، وفي شباط من العام ١٩٣٤ بدأت الحرب بين الجزيرة العربية (التي أصبح اسمها المملكة العربية السعودية) واليمن ، واقتطعت السعودية مناطق الحدود اليمنية عسير ونجران وجيزان ، وفي أيار من العام نفسه تمت

---

* قصة الثورة . مصر والعسكريون . أحمد حمروش – مدبولي – الجزء الأول صفحة ١٢٥ .

المصالحة مع اليمن في الطائف ، وكانت مصالحة الأقوى مع الضعيف ، حيث بقيت المناطق اليمنية في حوزة السعوديين ، وفي العام ١٩٣٦ عقدت السعودية معاهدة صداقة وتمثيل دبلوماسي مع مصر ، وفي العامين ١٩٣٦ و ١٩٣٧ عقد ابن سعود معاهدتي أخوة وتحالف مع كل من العراق واليمن .

وكانت هذه المعاهدات بمجملها ، صورة لقوة بريطانيا في المنطقة ، ولكن ليس في العالم ، وها هي قوة عالمية جديدة تزاحم بريطانيا على الجواهر السوداء ، أو منطقة الكنز في الجزيرة العربية .

فعندما ضربت الأزمة الاقتصادية العالم بين أعوام ٩٢٩ - ١٩٣٣ سارعت الولايات المتحدة الأمريكية لتغطية الوضع المتردي في السعودية ، فبدأ هاملتون الأمريكي (ممثل ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا) مباحثات خاصة للحصول على امتياز بترول في المنطقة الشرقية من السعودية (وهي بالضبط منطقة الكنز الجديد) ومنحت الحكومة الأمريكية سلفة على الحساب ، على شكل قرض طويل الأجل ، بلغ مئة وثلاثين ألف دولار ، مقابل التنقيب في مساحة تبلغ ٩٣٢ ألف كم٢ لمدة ٦٦ عاماً ، (المساحة تساوي ضعف مساحة منطقة الهلال الخصيب كله) .

ثم توالت الشركات الأمريكية التي بدأت بالتفريغ بدءاً من العام ١٩٣٦ (أرابيان - كاليفورنيا ستاندارد أويل كومباني وتكساس أويل كومباني) كما حصلت شركة (إيسترن كومباني) على اتفاقية بخصوص توريد الآليات والسيارات وقطع الغيار مع الإطارات ، ونالت شركات أمريكية أخرى (أمريكان سميلتنغ وأمريكان تسيانا) امتيازاً لاستخراج الذهب والفضة ، وكانت معظم هذه الشركات ذات ملكية يهودية ، وبلغت المساحة

الإجمالية لمناطق الامتياز الأمريكي في السعودية عام ١٩٣٦ زهاء مليون ومائة ألف كم٢ أي حوالي نصف مساحة المملكة . .

لقد حالت الامتيازات الأمريكية الضخمة في السعودية دون تجرؤ الآخرين على الاعتداء عليها ، وعندما كانت تصل الأمور إلى عنق الزجاجة مع الإنكليز ، كان الأمريكيون يسارعون للتوسط ، وهكذا تراجعت الامبراطورية عن كونها الأولى في هذه المنطقة الحساسة من العالم ، بل والعالم كله ، ففي ١٩٤٠ بعد أن استلمت بريطانيا قرضاً ضخماً من الولايات المتحدة لدواعي الحرب ، كان شرط أمريكا ، أن تمنح بريطانيا جزءاً منه لابن سعود.

هذا وستعلن أمريكا في العام ١٩٤٣ أن العربية السعودية ، تتسم بأهمية حيوية بالنسبة للدفاع الأمريكي ، وقد حصلت السعودية نتيجة لهذه الحيوية على قروض خلال فترة الحرب العالمية ، وصلت إلى تسع وتسعين مليون دولار ، وفي العام نفسه ، تم استبدال اسم شركة (أرابيان - كاليفورنيا ستاندرد أويل أوف كومباني) باسم (أرابيان - أميركان أويل كومباني) وهي تلك التي ذاع صيتها في المنطقة العربية تحت اسم (أرامكو).

وستلعب أرامكو دوراً في القلاقل السياسية التي بدأت تظهر في الأقطار العربية ، **خاصة ذلك المشهد المسرحي الذي تبدى في الإنقلاب العسكري الأول في سوريا ، فيما ظل يُلقى على مشجب فلسطين كل شيء . .**

في شباط من العام ١٩٤٥ سيجتمع الرئيس الأمريكي روزفلت مع الملك ابن سعود على ظهر طراد أمريكي سابح في البحر الأحمر ، وسيظهر نتيجة الاجتماع - طبقاً لضرورات الحرب ! . . - اتفاق الطرفين على منح تسهيلات بحرية في المرافئ السعودية

للاسطولين الأمريكي والبريطاني ، ومع حق استخدام قاعدة الظهران ، (وهي في الحقيقة قاعدة أمريكية بُنيت فوق وتحت الأرض لسلاح الجو الأمريكي) ولضرورات الحرب وما بعدها ، طالما أن النفط هو محرك الحياة في الغرب ، كما راحت الحكومة الأمريكية تؤكد في هذه المرحلة ، أنها ستلتزم جانب العدل في القضية الفلسطينية ، وأنها لن تقدم على خطوة ما دون استشارة الأطراف المسبقة .

سيوقع ولي العهد الأمير سعود في القاهرة بروتوكولات وميثاق جامعة الدول العربية، وبناء على طلبه فقد أدرج في الميثاق وجوب ضمان استقلال سوريا ولبنان (أي كل ما هو فرنسي وغير بريطاني) كما سيطالب سعود (بثبات حدود الدول العربية) ، (أو الحفاظ على سايكس - بيكو) مما يحول دون تحقيق نوايا العراق في الهلال الخصيب ، أو نوايا الأردن في سوريا الكبرى ، ونتيجة لهذه السياسة فقد انتهج ابن سعود سياسة التقارب مع مصر منذ البداية ، وذلك للوقوف في وجه الهاشميين سواء في الأردن أو العراق * ، وقد قابلت مصر هذه الرغبة بأحسن منها ، حيث النزاع على خلافة المسلمين بين والد الملك فاروق (فؤاد) ووالد الملك عبد الله (الشريف حسين) كان قد أودع تأثيره في أسرار النزاع اللاحق ، هذا فضلاً عن أن مصر ، ظلت تعتبر نفسها في المركز الأول بالنسبة لقيادة العرب ، وهو مركز لا تريد أن ترى أحداً ينازعها عليه . .

هذا وسيأتي التعرض لهذه القضية الشائكة سواء الهلال الخصيب ، أو مشروع سوريا الكبرى في الفصول القادمة من كتابنا هذا ، حيث أن الانكليز لم يكونوا مع ضم الكويت إلى العراق (مرحلة غازي ونوري السعيد) ولا مع دخول الكويت في الإتحاد الهاشمي نفسه ، فكيف إذن بمشروع سوريا الكبرى (سوريا ، فلسطين ، الأردن ولبنان) أو الهلال الخصيب حين يضاف العراق إلى سوريا الكبرى ، حتى ولوكان النظام ملكياً ، امبراطورياً

---

* يقول محسن البرازي في مذكراته (تجميع د . خيرية قاسمية صفحة ٣٠ و ٣١) .
أنه حينما اشتكى لابن سعود ، مواقف الملك عبد الله من سوريا ، أجابه : (سعد الله . الله يرحمو . كان ضيق الصدر وعصبي ، هذا جميل بك اتركوه يشتغل ، وهو كذوب والكذب لازم . . أنا ويّاه . . تكذب أحياناً ، والسياسة ؟ أليست الكذب ؟ احزموا أمركم والذي يخاصمكم أضربوه ، واقضوا عليه ، السيف هو الناجح ، استعملوا المال وأنا أعطيكم . . وإذا جدّ الجد . اصمدوا عشر أيام وأنا آتيكم . .) .

أو جمهورياً . فمن يصنع سايكس - بيكو لا يصنع هلالاً خصيباً ، ولا ندري علام كان يدور الاقتتال إذن ؟* .

في مرحلة لاحقة من فصول الكارثة العربية في فلسطين ، سيعلن ابن سعود من بعيد ، بأن فلسطين في عينيه ، وسيقسم كما أقسم غيره ، بأن فلسطين عربية وستبقى كذلك ولو أطبقت عليها شعوب الأرض ، هذا إن لم يكن خافياً أن شعباً صغيراً واحداً هو الذي أُطبق عليه وليس غيره ! . .

إلى الشمال الغربي من الجزيرة العربية ، فقد ضُمت العقبة ومعان إلى أراضي الدولة الجديدة في شرقي الأردن ، وكان ذلك نتيجة مساومة بين الانكليز وابن سعود (١٩٢٥)، حيث اشترط ابن سعود قطع المعونة المالية التي تقدمها بريطانيا لملك الحجاز علي بن الحسين. وسيضم ابن سعود الحجاز كله بعد هذا الاقتطاع الانكليزي لصالح الأردن * . .

كان شرق الأردن بالنسبة لبريطانيا مصلحة استراتيجية ، فهو الحد الفاصل في القسمة مع الفرنسيين عن سوريا ، وهو الحد الفاصل أيضاً عن أطماع الصهيونية في فلسطين (التي تتم الهجرة إليها فقط دون شرق النهر) وهو الحد الواصل بين العراق ومصر عن طريق فلسطين ، وهو همزة الوصل فوق ألف الجزيرة العربية ، وهو استرضاء لبقايا الهاشميين في المنطقة ، وهو قاعدة عسكرية (لقيادة الشرق الإنكليزية) إذا ما تطلب الموقف تأمين

---

* كانت المكائد الكبرى تكمن في عدم إظهار الموقف البريطاني الحقيقي من هذه المسائل ، فهي في الظاهر ليست ضدها طالما أنها تنطوي تحت جناحها ، وفي الباطن كانت تحول دون تحقيقها ، وما بين الظاهر والباطن كان يتم تأليب الأطراف بعضها ضد بعض . فالملك عبد الله إنكليزي لدى الملك فاروق ، وهاشميو العراق إنكليز لدى ابن سعود ، وفاروق وابن سعود من هما إذن ؟ كان حلفاء بريطانيا من العرب يقتتلون على ما لا تريده بريطانيا في الأساس ، فمن يصنع سايكس - بيكو ، لا يصنع هلالاً خصيباً ؟ حقبة كانت تعيش تاريخها خارج التاريخ . . .

* يقول الملك عبد الله عن واقعة الالحاق هذه ، في مذكراته ، تجميع الاستاذ مصطفى الخرسا صفحة ١٨٦ ما يلي :- (في ٢٤ حزيران من العام ١٩٢٥ أصدرنا الإرادة التالية ، نظراً لتسبيب (يقصد لاستنساب) صاحب الجلالة الهاشمية الملك علي المعظم ، ملك البلاد المقدسة الحجازية . بضم ولايتي معان والعقبة إلى أمارتنا . . وفي اليوم التالي أي يوم الخميس ، وصلنا معان ، وكان معي رئيس النظار (رئيس الحكومة) وجرت مراسيم الإنضمام الرسمية ، ورفعنا علم شرق الأردن على الولايتين .

اليابسة على الشريط الساحلي الهام من اسكندرون إلى رأس الناقورة ، ولم يكن في المملكة المُنشأة ، ما يغري على البقاء أكثر من ذلك ، فمنطقة شرق النهر ، إضافة إلى كونها جنوباً تاريخياً من سوريا ، شأنها كشأن فلسطين ، لم تتمتع بمزية اقتصادية تمكنها من الوقوف إلي جانب أرخبيلات سايكس - بيكو على قدم المساواة ، ولقد ظلت عبر التاريخ القريب والبعيد ، تناثر آثار لسيّاح التاريخ ، فوق ما هي ساحة حل وترحال لشيوخ القبائل من الشمال والجنوب ، لذلك فإن الأردن لم يحظ بعوامل ذاتية حضرية أو ريفية ، كما حظي جيرانه في دولهم المجزأة ، وكان لعدم إطلالته على البحر الواسع ، عاملاً راسخاً في بقاءه داخلياً يتحرك كبندول الساعة بين شرقه الصحراوي وغربه الأخضر الذي ظل يعمل للوصول إليه .

بعد سنوات الحرب ، ستكسو سحنة الأردن ، تلك الصورة العسكرية ، التي تبدت في الفيلق العربي (أنشأه الانكليز بقيادة جلوب باشا ، بعد أن كان قائداً لحرس الصحراء البدوي) حيث استلم مهماته الحربية الانكليزية ، في المشاركة بقمع ثورة الكيلاني في العراق ، وحيث سيساهم مع اقتراب رومل من مصر ، في بناء التحصينات الدفاعية في شبه جزيرة سيناء ، كما سيساهم مرة أخرى في القتال شمال أفريقيا ، فيما خصص له مهمات إضافية لفتح جبهة في البلقان ، وعندما كان (المليون) ، رقماً فلكياً * ، فقد بلغت المعونات المالية الإنكليزية (أسلحة ومعدات ورواتب . .) لهذا الفيلق خلال عام واحد من ١٩٤٣ إلى ١٩٤٤ ، زهاء مليون وثمانمائة ألف جنيه فلسطيني (وكان مساوياً للجنيه الاسترليني تقريباً) هذا وستنتهي المعاهدة البريطانية - الأردنية التي أبرمها الأمير عبد الله مع الانكليز في العام ١٩٢٨ ، ستنتهي في العام ١٩٤٦ حيث استعيض في أيار من السنة ذاتها ، عن اسم شرقي الأردن ، باسم المملكةالأردنية الهاشمية ، ونودي بالأمير

---

* كان بعض العرب في تلك الأيام ، يعتقدون أنه في عالم المال ، لن يكون هناك أكثر من ألف جنيه استرليني مثلاً ، إن قداحة ثلاثة الأصفار كانت تتجلى عندما يقول المرء : قلت كذا أو فعلت كذا ألف مرّة ، وكأنها آخر الأرقام . .

ملكاً على الأردن .

وفي آذار من العام ١٩٤٨ ستعقد معاهدة جديدة بين الأردن وبريطانيا ، يحدد على أثرها تحديد مواضع القوات البريطانية في (منطقة عمان والمفرق) فقط ، على أن تسرع الحكومة البريطانية بتهيئة الشروط والظروف لتوحيد الأردن وفلسطين ، وأثناء الحرب الفلسطينية ، تمكن الفيلق العربي من احتلال الجزء الأعظم من فلسطين الوسطى (الضفة الغربية والقدس) وخضعت هذه المناطق لسلطة حاكم عسكري مرتبط بالملك شخصياً ، وفُهم ذلك على أنه تقاسم مع الاسرائيليين على حساب فلسطين ، فهرع الفلسطينيون إلى غزة بتأثير من مصر والسعودية ، يقيمون حكومتهم الخاصة ، وباستثناء الملك عبد الله ، فإن دول الجامعة العربية سارعت للاعتراف بهذه الحكومة ، ورد الملك بعقد مؤتمر لحلفائه في أريحا حيث نودي به ملكاً على الأردن وفلسطين ، وفي جلسة نيسان من العام ١٩٥٠ ، صادق البرلمان الأردني على قرارات أريحا ، وكان البرلمان قد انعقد لتوه من أعضاء يمثلون الضفتين ، فيما كان الصراخ في الكنيست الاسرائيلي يتعالى **(للنهر الأردن ضفتان ، الضفة الأولى لنا ، والضفة الثانية لنا أيضاً) . . .**

ستنساب مياه غزيرة تحت جسور الأردن ، حيث عند بحيرة التجمع ستغرق سفن العرب فرادى ، حين تبدّى أن شعوب العرب قبل قادتها كانوا في واد ، وعالم ذاك العصر في واد آخر .

في العراق ، وفي أعقاب الوثبة * ضد معاهدة بورتسموث - جبر - بيفن - فقد تشكلت وزارة جديدة برئاسة محمد الصدر في الشهر الأول من العام ١٩٤٨ ، وكان الائتلاف الثنائي بين حزبي الاستقلال والأحرار هو دعامة الوزارة الرئيسية ، وبعد تأليف

* يقول كامل الجادرجي في مذكراته عن تاريخ حزبه الوطني الديمقراطي ص ٣٢٠ : (إن الأسباب التي تدعوني إلى أن أقول لكم بأن مسؤولياتكم في هذا الدور من تاريخ العراق ، خطيرة وخطيرة جداً ، لأن قوى مختلفة ولا تستهينوا بها ، أخذت تتجمع للحيلولة دون مجيء مجلس يمثل أكثرية الشعب . . . إنها تعمل ليل نهار كي تبرهن على أن الوثبة التي قمتم بها كانت رعناء وأنها ليست منبعثة من صميم الشعب ، ألا برهنوا أنكم لا تعملون إلا بوحي من ضمائركم وروح تلك الوثبة .

هذه الوزارة ، تمّ إصدار بيان حكومي (شهر شباط) بإلغاء معاهدة بورتسموث . ومع ذيوع أخبار قرار التقسيم ، فقد أصدرت الأحزاب العراقية ، بيانات تطالب فيها الحكومة، بأن تقوم مشتركة مع الحكومات العربية ، أو منفردة ، باتخاذ موقف حازم لانقاذ فلسطين من محنتها ، ثم أصدرت نداءاً مشتركاً (الأحرار والاستقلال والوطني الديمقراطي والشعب والاتحاد الوطني) دعت فيه إلى وقف الهجرة اليهودية فوراً ، وإلى إعلان الإضراب العام في العراق ، واعتبار العراق في حل من جميع الاتفاقيات المعقودة مع بريطانيا ، وأن تعلن الجامعة العربية ألا حل لفلسطين ، إلا باعلان استقلالها دولة عربية ديمقراطية حرّة (مذكرات مهدي كبة ص ١٢٥ ومنشورات حزب الاستقلال العراقي - التقرير السنوي) .

في المجلس النيابي العراقي ، كانت برقيات الاحتجاج المرسلة إلى برلمانات العالم ، أشد حرارة من آب العراق اللاهب ، وقد طالب العديد من النواب (وتحدث باسمهم النائب ابراهيم عطار باش) بقطع العلاقات التجارية مع أمريكا ، وإلغاء أية اتفاقات مع بريطانيا ، ودعوة الجامعة للإلتزام بواجباتها ، وإعلان الجهاد المقدس مع سائر إسلام العالم لإنقاذ فلسطين . . هذا في حين ذهب بعض النواب إلى حد ، دخول فلسطين وذبح كل من يهاجر إليها من اليهود . .

ويذكر الجمالي في مذكراته (ذكريات وعبر ، صفحة ٢٨) ، أن الحكومة العراقية في هذا الوقت ، كلفته بعد عودته من مؤتمر بلودان ، أن يعد مذكرتين شديدتي اللهجة إلى الحكومتين الإنكليزية والأمريكية ، حول تساهلهما في قضية فلسطين ، كذلك حول تقرير اللجنة الإنكليزية - الأمريكية الذي جاء مائعاً ومنحازاً ، وقد ضمّن الجمالي مذكّرتيه تهديداً بالعواقب الوخيمة لمثل هذه السياسات في المنطقة ، (فما كان من السفير الإنكليزي

في بغداد إلا أن رفض استلام المذكرة ، ورجاني بكل حرارة ، أن تبلغ الحكومة العراقية ، الحكومة الإنكليزية مضمونها شفهياً ، وألا نضع شيئاً قاسياً على الورق فقط *) .

وفي تعليق للجمالي على مؤتمر بلودان يقول : (كان العراق أكثر الدول العربية اندفاعاً ، وكنا نعي حكومة وشعباً ، بأن الحمل الأثقل سيكون من نصيبنا ، وكان الثاني في الإندفاع ، سوريا ولبنان ، لكنهما حديثا العهد بالاستقلال ولا يريدان توريط نفسيهما بما يتجاوز الحدود مع فرنسا وبريطانيا ، وأما مصر ، فإن فكرة إنقاذ فلسطين لم تختمر فيها بعد ، ومساعدتها إلى الآن أدبية ، أما السعودية فإن مندوبها جاء بتصريح معناه الاستسلام لقوات أمريكا وانكلترا ، وطلب الرحمة والإنصاف منهما ، وعدم توريط عرب فلسطين بأي صدام مع هاتين الدولتين ، ولكن مندوب السعودية عاد فتراجع أمام معارضة الوفد العراقي قائلاً : نمشي معكم ، ولا نتخلّف . . وما أنا إلا من غزّية إنْ غوتْ - ذكريات وعبر - الجمالي ص ٢٩) .

وسيعلق الشقيري على طابع المؤتمر الرسمي (الذي كان يدور وراء الكواليس والاجتماعات الجانبية ، لا لدرء الخطر عن فلسطين ، ولكن لدرء الخطر الذي تلقيه فلسطين على كاهل الدول العربية - أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية ص ٢٧٠) .

بعد فشل مؤتمر لندن (شباط ١٩٤٧) الذي انعقد بحضور مندوبي الدول العربية - وفلسطين جمال الحسيني ، وممثل عن الوكالة اليهودية وإحالة القضية برمتها إلى الأمم المتحدة ، تمت الدعوة إلى جلسة مشتركة بين مجلسي النواب والأعيان العراقيين ، وانتهى الاجتماع العاصف ، بضرورة الحصول على قرار إجماعي من جامعة الدول العربية يتضمن إبلاغ أمريكا وبريطانيا عن خطورة الوضع الحرج الذي أصبح قائماً في فلسطين ، والذهاب إلى الأمم المتحدة لاعلان استقلال فلسطين أمام العالم كله ، كما حظر قرار

* يبدو أن السفير الإنكليزي ، كان قد يئس من امتشاق حسام الكلام العربي ، وحول المعنى ذاته ، سيقول الدبلوماسي العربي أحمد الشقيري آنذاك ، أن الاجتماعات مع سفيري أمريكا وانكلترا التي كنا نعقدها كدبلوماسيين عرب في الغرف السرية ، لم تكن أكثر من اعتذارات عما كان يجري في الشارع .

المجلسين أي تصدير للمواد الأولية التي تغذي المعامل الصهيونية وخُتم القرار بقوله (إن مجلس الأمة العراقي يعلن على رؤوس الأشهاد تمسكه باقتراحاته هذه ، ويجعل العراق في حلٍ من تحمل كل مسؤولية تنتج عن عدم الأخذ بها - برقية الخارجية العراقية إلى وزيرها في القاهرة بتاريخ ٢٦/ ٣/ ١٩٤٧) .

سيرد يوسف ياسين* مندوب السعودية لدى جامعة الدول العربية ، على القرار الصادر عن مجلس الأمة العراقي بقوله (يوجد هناك مَنْ يعيق عمل الجامعة ، إنني لا أستطيع أن أصفهم إلا بكلمات معدودة : إنهم أعداء العرب - محضر مجلس الجامعة بتاريخ ١٧/ ٣/ ٤٧) وقد فُهم هذا الرد السعودي بأنه بمثابة اتهام لكل من العراق والأردن الهاشميين ، خاصة بعد أن تم ابرام معاهدة التحالف والأخوة بين البلدين .

وسيعلن سبيرز أحد كبار العاملين في الخارجية البريطانية على هذا التراشق ، (إن العرب لا يحركون ساكناً تجاه أي شيء يحل بهم ، أو يدور حولهم ، إنهم ملوك التهديدات ليس إلا) ، أما جريدة السجل العراقية ، فقد كتبت تعليقاً على الخطب النارية التي كان يطلقها نوري السعيد في وجه الجامعة العربية فقالت :

(هذه إذن نتيجة الغضبة المضرية الصادرة عن فخامة نوري السعيد ، قرارات أُبلغت للجامعة العربية التي شكرت العراق على غضبه ، ثم هدأت العاصفة ، وتوقفت القذائف ، ولم تتخذ أية تدابير فعّالة لتطبيق قرارات مؤتمر بلودان ، ولم تواصل حكومة العراق جهودها ، وتصرّمت الأيام والناس في حيرة من غضبة الباشا . . ترى هل سيستمر سكوته طويلاً ! . . جريدة السجل عدد ٣٠/ ٤/ ١٩٤٧) .

وأمام شهادتي كل من رئيس الأركان العراقي صائب الجبوري ، وقائد القوات الآلية

---

* الشيخ يوسف ياسين عمل كوكيل للديوان الملكي منذ تأسيس المملكة وهو سوري من أبناء اللاذقية ، وفد إلى السعودية عام ١٩٢٣ وعمل محرراً في صحيفة أم القرى ، وقد أصبح من مستشاري الملك فيصل فيما بعد ، ولم تكن ثمة اجتماعات غاية في الحساسية تعقد بين الملك عبد العزيز ومن بعد ابنه فيصل ، مع آخرين ، دون حضور الشيخ ياسين .

اللواء نور الدين محمود ، : (لو بُذلت جهود أخرى لكان في الإمكان تضييق الخناق على الصهيونيين في فلسطين ، لكن أوامر الحكومة كانت صريحة حين تمثلت في الحفاظ على منطقة المثلث العربي ، وعدم القيام بزية تحركات عسكرية خارجها ، علماً بأن القوات الاسرائيلية في البداية لم تكن تملك ما يوازي قدرات الجيش العراقي الذي اندفع إلى فلسطين)* .

ورغم أن الهزيمة يتيمة ، فإن في الخطاب العسكري الآنف ، ما يوحي باللجلجة وإلقاء التبعة على كاهل الحكومة المدنية ، علماً بأن الحكومة المعنية (مزاحم الباجه جي) قدمت استقالتها وكان عمرها ثلاثة أسابيع فقط ، لسبب وحيد وهو قبول العرب بالهدنة الأولى ، وهو ما سنراه في بحثنا عن الحرب العربية - الاسرائيلية الأولي ، غير أنه يمكن المضي منذ الآن ، لإقرار حقيقة لم تعد خافية على أحد ، وهي أن الوزارات العربية - ومنها العراقية - المتعاقبة قبل نشوب الحرب لم يكن لها خطة مستقرة في معالجة القضية الفلسطينية ، فلكل حكومة عربية وجهة تحاول السير عليها ، فإذا ما انتهى حكمها انطوت معها وجهتها وخطتها لتعود الحكاية من جديد .

لم تشهد الأقطار العربية كافة ، ما يوحي باقبال البلاد على حرب تحريرية ، ولم تُعبّأ قوى البلاد ومواردها لا كلياً ولا جزئياً ، ولم تستكمل النواقص التي تعاني منها وحدات العرب العسكرية ، ولم تتخذ الاحتياطات اللازمة لتعزيز أي مجهود حربي ، وأكثر من هذا لم يسمح بتنظيم (ميزانيات حرب) لتنهض بالأعباء الطارئة في مواجهة جيش اسرائيل النظامي والمدجج ، كان النقراشي باشا رئيس وزراء مصر يقول قبل اسبوع واحد من دخول الحرب ، (إننا لا نستطيع أن نحارب ومشاكلنا مع بريطانيا كثيرة) وكان بوسع السوريين المستقلّين ، أن يقولوا لقد خرجنا لتونا من حكم الانتداب ، وكان بوسع

---

* صائب الجبوري هو رئيس أركان الجيش العراقي أثناء حرب فلسطين ، واللواء نور الدين محمود كان قائداً للقوة الآلية العراقية ، وقد أفادوا بأن وقفة العرب الأولى - الهدنة - لم تكن ذات أسباب عسكرية بل سياسية بالتأكيد ، وقد أذعن العراق حرصاً على وحدة الصف العربي ! . .

الأردنيين أن يقولوا شيئاً عن إحكام الخناق على سلاح الجيش الأردني - حيث كان سلاحه ماضياً في ثورة الكيلاني ، وكان بوسع العراقيين أي شيء آخر ، أو من القبيل نفسه . فالكل له ألسنة لزجة ، والمشكلة أن فلسطين وحدها ، كانت قد أصبحت بكماء دون لسان! . .

في فلسطين الممتلئة بالغضب والغيظ ، نتيجة تصريح بن غوريون (ليس في بلدنا مكان إلا لليهود ، سنقول للعرب : انجوا بأنفسكم وإذا لم تذعنوا ولجأتم للمقاومة ، فسوف نرمي بكم خارج البلاد بالقوة - مقدمة كتابه تاريخ الهاغناه) * .

وسيصرح اللورد موين أحد كبار المسؤولين البريطانيين في القاهرة ، في جلسة عاصفة بمجلس اللوردات عام ١٩٤٢ ، (بأن يهود اليوم ، ليسوا أحفاد العبرانيين القدامى ، وإنه ليس من حقهم ادعاء الحق الشرعي أو التاريخي في المطالبة بأرض مقدسة) ، وقد لاقى (هذا العدو الشرس لاستقلال العبرانيين) مصرعه في القاهرة على يد عضوين من عصابة شتيرن بزعامة اسحاق شامير عام ١٩٤٤ . وبدلاً من أن يثور تشرشل رئيس وزراء بريطانية لعملية قتل دبلوماسي بريطاني كبير كاللورد موين على يد اليهود ، فإنه بالعكس ، راح يوجه تهديده لاولئك الذين يريدون (تبديد أحلامنا وسط دخان المسدسات ، فإذا لم تثمر جهودنا من أجل المستقبل إلا بولادة عصابة جديدة من الارهابيين اللائقين بألمانيا النازية ، فإن كثيرين مثلي سيعيدون النظر في ذلك الموقف الذي درجنا على تبنيه يما سبق - المقصود هنا الكتاب الأبيض - أما هؤلاء المسؤولون عن النشاطات الشيطانية اللعينة فلا بد من استئصالاهم بالقتل والشنق) . وهكذا تحاكم النعجة من قبل الذئب ، على تعكير صفو مائه من الأسفل ، ليغتال اليهود موين ويحاكم العرب . .

---

* رداً على الكتاب الأبيض . وكان بن غوريون في مسعاه العالمي ، قد وضع الأساس لنقل ثقل الصهيونية إلى أمريكا نهائياً .

لقد جرى التصديق من الوكالة اليهودية على مقررات بلتيمور عام ١٩٤٥ ، وكانت المقررات جهاراً نهاراً تدعو إلى :-

دولة يهودية في كل فلسطين ، لها جيشها الخاص ، وليس بوطن في فلسطين فقط ، كما يزعم بلفور .

هجرة يهودية لا حد لها ، تشرف عليها الوكالة اليهودية .

مساعدات ألمانية عن الضحايا لبناء الدولة اليهودية * .

إن بن غوريون المنتصر في معركة بلتيمور ، فضّل أن يستهدي بهتلر لا بغيره ، حين برهن أن التاريخ لا يستهدي بالعقل بل بالقوة ، وقد أعلن رئيس الجامعة العبرية دكتور ماغنس على رؤوس الأشهاد ، حين ألقى كلمة بمناسبة العام الدراسي الجديد ١٩٤٦ (**إن صوت اليهود الجديد ينطلق الآن من أفواه البنادق ، لقد حكم جنون القوة هذا العالم ، فلتحمنا السماء من أن تُحكم اليهودية وشعب اسرائيل بهذا الجنون نفسه ، إنها ليهودية وثنية تلك التي تسيطر علينا الآن ، وأن أمريكا هي المسؤولة بعد بريطانيا عن هذه اللعنة ، لقد تخدّر الحس الأخلاقي حتى أصيب بالشلل**) .

* إن الصهاينة يضاربون بضمير الغرب السيء ، ويودّون أن ينجوا إلى الأبد من كل إدانة مهما ارتكبوا من آثام باسم ضحايا أفران الغاز الهتلرية ، إنهم يتاجرون بالجثث ، مثلما كان رجال الدين في أوروبا يتاجرون بصكوك الغفران ، وهم يجدون في أنفسهم الوارث الشرعي لضحايا النازية أو بصورة أدق لأعمال النازية ، هذا الاستغلال الذي لاحياء فيه لقتلى داخاو وشويتز وترتبلينكا يستغلّه الأحياء هو (نشترة) كاملة ، فإذا كان النازيون يصنعون من جثث اليهود قطعاً من الصابون ، فالصهاينة يحاولون أن يصنعوا منها قطعاً من الذهب .

عربياً ، وبعد توقف نشاطات الثورة الكبري (٩٣٦ - ١٩٣٩)* ، وانتهاء مؤتمر الطاولة المستديرة في لندن إلى الفشل ، وخروج القيادة الوطنية من فلسطين إلى سوريا والعراق ، وتأييد الدول العربية الحلفاء ضد دول المحور ، عاشت فلسطين مرحلة من الركود والإنهاك ، وعلى الرغم من انبثاق جيل جديد ، إلا أن هذا الجيل - الذي كان يتميز بتحصيل علمي وثقافي - لم يجد أمامه الكثير ، لتعديله ، فقد كان الإرث وبيلاً ، وكانت أحوال العالم بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية قد تبدلت ، وربح الطرف الذي راهن عليه اليهود ، وخسر الطرف الذي راهن عليه بعض العرب (الكيلاني في العراق ، عزيز المصري في مصر والحاج أمين في فلسطين) ولم يكن ذلك غراماً بالنازية أو الفاشية ، قدر ما هو تشوق لنيل الاستقلال والكرامة ، وقدر ما هو شغف برؤية القاهرين مقهورين . .

وبينما كان المستعمرون الجدد (الأمريكيين) بالتعاون مع أصدقائهم القدامى ، يفتشون عن مخرج للقضية الفلسطينية ، كان الصهاينة يواصلون حربهم الارهابية ، ففي تموز أدى الانفجار الذي نسف فندق الملك داوود في القدس ، إلى مقتل شخصاً بين عربي وبريطاني ، ثم راح اليهود ينسفون سكك الحديد الواصلة بين حيفا والقاهرة ، وفي الداخل بين عكا وطرشيحة ثم سكة حديد القدس - اللد .

كان عام ١٩٤٧ يؤذن بغروب فلسطين ، فقد بدت الأحداث أنها تجري لصالح الاسرائيليين في كل شيء ، وفي مناورة من قبلها ، رفعت بريطانيا القضية إلى هيئة الأمم المتحدة أملاً في تبرئة الذمة ، كذلك بدعم الولايات المتحدة المفتوح ، وامتدت مناقشات الأمم المتحدة زهاء عام (من أيار ١٩٤٧ إلى أيار ١٩٤٨) ثم اتخذت الجمعية العمومية في تشرين الثاني من العام ١٩٤٧ (كذلك في دورة استثنائية بين نيسان وأيار من العام ١٩٤٨) قرارات بتقسيم فلسطين ، وفي ليلة الرابع عشر على الخامس عشر من أيار . أعلنت

---

* ثمة أسباب عديدة لهذا الفشل عملياً ، فالقيادة التي هي اللجنة العربية العليا ، كانت قد تبعثرت ما بين السجن والفرار والإختباء ، ولم تعد الثورة برأس قيادي مباشر ، وحيث أن الثورة كانت قد نشأت بصورة من صور الغليان على طريقة ردة الفعل ، فقد حرمت من قيادة عسكرية مركزية أيضاً ، ورغم تشكيل مجلس أعلى للقادة صيف عام ١٩٣٨ إلا أنه من الناحية العملية . كان لقواد المناطق وما يجرمن تجزئة العمل العسكري ، اليد العليا ، هذا فضلاً عن روح المساومة التي تسللت إلى مسام الكفاح الفلسطيني من خلال قيادته المتأثرة بما كان يجري في الجوار العربي .

الحكومة البريطانية انتهاء المفعول القانوني لانتدابها على فلسطين ، وقبل شروع القوات البريطانية بالرحيل ، كان ديڤيد غرين (بن غوريون) يعلن قيام دولة اسرائيل في الجزء المخصص لها حسب التقسيم ، إلا أن عينه كانت على الجزء الآخر من دولة التوراة التاريخية حيث كُتب على مدخل أول كنيست اسرائيلي : حدودك يا اسرائيل من الفرات إلى النيل .

... ...

- الفصل الثـاني -

صراعـات دول القبـائـل

اولا / لا كبرى ولا خصيب .

كانت بريطانيا تتظاهر بتأيدها الأفكار الداعية لمشاريع اقليمية ، سوريا الكبرى ، أو الهلال الخصيب وقد تشتت القوم فوق شتاتهم جراء أحلام واهمة . .

فـمن كـان يصنع سايكس - بيكو لا يصنع هلالاً خصيباً ، ولا حتى غير خصيب . .

مـاذا كـان بمقـدور التاريخ أن يفعل ، أمـام مضارب الشيوخ والقبائل ؟

إنهم يقتتلون على مجرد التصريح - كذلك يتصالحون على التصريح المضاد . . . هذا ما سيقوله مستر كيرك أحد الدهاة العاملين في وزارة الخارجية البريطانية ، ثم يضيف : **كنا في وضـع تجـريبـي ليس أكـثـر ، وكـانـت سيـاسـتـنا تقـوم على مـبـدأ انتظر ثم أنظر (waiting and seeing) ، فإذا ما أتيح لك أن تتعرف على المشرق العربي ، فإنك لن تندهش لشيء ! . .**

مستر بتلر الوكيل المساعد في الخارجية نفسها سيعقب بدوره : إننا لا يمكن أن نكون وراء مايسميه الملك عبد الله بسوريا الكبرى ، فهو موضوع يخصّ العرب أنفسهم . وهو يتوقف على جامعة الدول العربية ، أكثر مما يتوقف على بريطانيا . .

وكان مستر بتلر ، ضامناً لما (يخصّ العرب) ، وما (يخصّ الجامعة العربية) على حدٍ سواء . . .

كان أنطوني ايدن وزير الخارجية البريطانية ، هو الذي أطلق مبادرته التشجيعيه لدفع مصطفى النحاس باشا للقيام بالإعلان ، وكان يرمي لا قتناص عصفورين برمية واحدة، فمن جهة ، ستمانع فرنسا فكرة خلق وحدة اقليمية أو عربية عن طريق منظمة اسمها الجامعة العربية (أيار ١٩٤١) ، ومن جهة أخرى ، فإن بريطانيا ستحظى بالمزيد من تأييد المنطقة العربية . .

ثم أن ايدن ، وهو الماسك لمفاتيح المنطقة ، والعالم ببواطنها كان يعلم (**أن جمع الضعفاء لا يجعل منهم قوة حسب نظرية جمع الأصفار ، لكنه أراد أن يبدو في موقف المؤيد لأهداف العرب** - خالد العظم - مذكرات - الجزء الثالث - الدار المتحدة للنشر ص٨٣) .

ثم يضيف (المصدر نفسه) : كان إيدن يعرف تماماً أن تاريخ المنطقة ، إنما هو تاريخ عروش لا تاريخ شعوب ، فإذا ما قُيِّض لأفكار الامبراطورية أن تنجح هنا ، فإن أي تجمع عربي سيكون تحت السيطرة ، كما سيتم اخراج فرنسا من نافذة العداء للأماني العربية) .

كان اطمئنان بريطانيا يزداد رسوخاً ، كلما قاست درجات الحرارة على مقياس الكراهية بين الخائفين على العروش ، فيما كانت المواقف تتفجر بين الهاشميين والسعوديين، وفي مرحلة لاحقة بين العراقيين والسوريين .

ومع الدعوات المخادعة لوحدة اقليمية أو عربية ، كان الوضع يزداد استقطاباً على محاور متنازعة ، وسيقول خالد العظم :

(لقد أضاع العرب فرصة عمرهم في العام ١٩٤٣ ، وكانت الفرصة بسبب أوضاع العالم السانحة ، إذ لم يكن اخفاق الوحدة إلا بسبب الكره المتبادل بين القوتلي من جهة ونوري السعيد وعبد الآله من جهة أخرى ، وبين عبد العزيز آل سعود والهاشميين ، وطمَعُ فاروق بالخلافة والسيطرة على زعامة العرب ، وحُلُم عبد الله بالعودة إلى الحجاز

لاستعادة ملك أبيه الذي اغتصبه السعوديون ، ومناورات رياض الصلح وعبد الحميد كرامي في ممالئتهما للمسيحيين من أجل الحفاظ على مركزيهما في لبنان . وكان القوتلي يخشى فكرة سوريا الكبرى لأنها تسلبه رئاسة الجمهورية* ، كما كان يقاوم فكرة الهلال الخصيب للسبب نفسه ، وهكذا قس على سائر الملوك والرؤساء) . (المصدر السابق) .

لقد استثمر نوري السعيد مبادرة إيدن في وقت متأخر من العام ١٩٤٢ ، فقدم مذكرته الشهيرة ، وهي التي سنقوم بسرد مرتكزاتها الرئيسية من كتاب (استقلال العرب والوحدة لنوري السعيد نفسه في العام ١٩٤٣ - بغداد مطابع الحكومة) ، حيث يفضي بأن المذكرة كانت قد سلمت لريتشارد كيزي (أو كايسي) وزير الدولة البريطانية لشؤون الشرق الأوسط .

تقول المذكرة بعد استعراض لحالة الأقطار العربية في العهد العثماني ، ومشاركة العرب الفعّالة (الثورة العربية) في طرد العثمانيين من دنيا العرب ، ورغم العهود والوعود، فقد انتهى الوضع إلى الانتدابات التي كانت سبباً للثورات والاضطرابات سعياً للاستقلال والوحدة . .

إن الروابط التي تجمع أقطار العرب مع العراق ، كاللغة والدين والثقافة والاقتصاد . . هي التي تدفع من أجل الوحدة ، حيث بدونها لن يحتل العرب مكانهم اللائق ، ولن يستعيدوا مجدهم الغابر . .

كان العراقيون يؤمنون بأن اتحاد العرب لا يمكن تحقيقه إلا بالاستقلال الحقيقي لجميع الأقطار العربية ، بعدها تختار مع الزمن شكل الاتحاد الذي يتفق ومصالحها ، وقد دعم العراق هذه المطالب الحقة . . وكل ما جرى في سوريا ولبنان وفلسطين ، كان يتردد صداه في العراق . .

---

* غير أن القوتلي تنحى عن الرئاسة طواعية في العام ١٩٥٨ لصالح الوحدة المصرية - السورية . هل تراه فعل لأسباب داخلية كانت تتعلق بالأوضاع الجديدة في سوريا ، وهو الذي ظل يستذكر تجربته المرّه ، حين أطلق زعيم (السمن الفاسد) حسني الزعيم العنان لغطرسة مصطنعة (كرامة الجيش) وزعرنة فيصل العسلي وأعوانه ؟! . .

يجب البحث عن حل بديل لفكرة إقامة فلسطين مستقلة وسوريا مستقلة . . . وكما وعد الحلفاء باستقلال سوريا التاريخية مستقبلاً، **لذا فإن من حق هذه الأقطار التحرك باتجاه التضامن في دولة اتحادية والتعاون معاً في جامعة واحدة** . . . وحيث أن الدول الصغيرة لا تستطيع الدفاع عن نفسها منفردة ، مما يعرض سلام العالم للخطر ، فإنه يجب فرض الاتحاد أو الوحدة ، خاصة إذا كانت الأقطار المعنية تؤلف بالفعل جماعة واحدة لغوياً وثقافياً واقتصادياً . . .

وتعرضت المذكرة للسياسة البريطانية إزاء عرب فلسطين وطالبت بالعودة إلى التعهدات التي قدمت للشريف حسين بإعادة ضم فلسطين إلى سوريا ، حيث يمكن إنشاء نواة لدولة متحدة من سوريا ولبنان وفلسطين وشرقي الأردن . .

وانتقلت المذكرة إلى الشؤون الاقتصادية ، فامتدحت تعاون الأقطار العربية في هذا المجال خاصة وأن المنطقة قد اتيح لها بفضل النفط موارد ضخمة لم تكن متوفرة من قبل . . **فالعراق النفطي بحاجة إلى منفذ على البحر لتسويق بتروله ، وفلسطين بحاجة لتطوير منتجاتها إلى أسواق ووقود . . وكل هذا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار . .**

أما مصر والسعودية ، تقول المذكرة ، فإنه بالرغم من المشكلات أو الاقتصاديات أو العادات المختلفة ، فإن جامعة مقبلة يمكن أن تتسع للجميع . . إن نجحت التجربة بين العراق وسوريا التاريخية . .

ويلخص نوري السعيد مذكرته قائلاً :-

من أجل ضمان سلم دائم ورخاء وتقدم في المناطق العربية ، ينبغي أن تعلن الأمم المتحدة ما يلي :

- إعادة توحيد سوريا وفلسطين ولبنان وشرقي الأردن في دولة واحدة .
- الحكم ، كان ملكياً أو جمهورياً يقرره السكان بالتصويت .

- إنشاء جامعة عربية يتم بموجبها انضمام العراق للاتحاد المذكور .
- للجامعة مجلس ورئيس وأعضاء يتم اختيارهم باتفاق أقاليم الدولة الواحدة .
- مجلس الجامعة مسؤول عن الدفاع والشؤون الخارجية وصك العملة وشؤون الجمارك والمواصلات وحماية الأقليات .
- يمنح اليهود في فلسطين حكماً ذاتياً يتصل بشؤون التعليم والصحة والبوليس ، وكله تحت اشراف الدولة السورية .
- القدس لجميع الأديان ، ويمكن أن يتم إنشاء لجنة خاصة من ممثلي الأديان الثلاثة لضمان هذا الأمر .
- يمنح الموارنة نظاماً خاصاً ، إذا طالبوا بمثل ما كان لهم أيام الحكم العثماني .

ولم يضف الأمير ، عبد الله في نظرته لهذه المذكرة وما تضمنت ، إلا خطوة واقعية ، وهي استمهال إنضمام العراق للإتحاد ، فقد كان يرى في توحيد الأقطار الأربعة تحت قيادته ، منهاجاً عملياً قابلاً للتحقيق ، خاصة إذاتم كسب تأييد البريطانيين لمشروعه ، فإذا لم يتحقق توحيد الأقطار الأربعة عاجلاً ، فيمكن البدء بتوحيد سوريا مع شرقي الأردن ، والتهيئة في مرحلة لاحقة لضم فلسطين ولبنان ، وسوف تزدحم مراسلات عبد الله إلى السياسيين السوريين بهذه الأفكار ، كما سيشدد في تعليماته لممثليه أثناء المجابهة الكبرى حول الوحدة العربية مع مصطفى النحاس في العام ١٩٤٣* .

في إثر عودة نوري السعيد من القاهرة ، بعد مقابلة مع النحاس باشا سيصرح في مجلس النواب العراقي بأنه لن يدخر جهداً لتأييد وحدة سوريا الكبرى ، كنه سرعان ما سيتراجع عن موقفه ، حين سيقول (بعد شهر من تصريحه في مجلس النواب) :

---

* أما الجامعة العربية ومركزها مصر ، فهو أمر خطير للغاية ، اسم كبير ودعاية طويلة عريضة ، واجتماع ممثلين ليس لهم من الاتصال بالرغائب القومية ولا بوسيلة من الوسائل . وكل دولة من دول الجامعة مرتبطة بدولة أجنبية كبيرة لا تمكنها من التصرف خارج الالتزامات التي تعهدت بها . . فاعتبروا يا أولي الأبصار .
- مذكرات الملك عبد الله ص ٢١٧ .

إن العراق يحترم ويؤيد رغبات وأماني سكان جميع الأقطار العربية ، ومن ضمنها سوريا ولبنان مهما كانت . . (في مذكرته أُشير إلى ضرورة فرض الاتحاد ! . .) وعليه ليس لنا أن نخوض في هذا البحث الآن . . (محاضر جلسات المجلس النيابي العراقي عامي ٤٣/ ٤٤) .

ترى ما الذي حدث ولماذا انكفأ نوري السعيد حيث تريد الخارجية البريطانية ؟

يقول أحمد طربين في مؤلفه الوحدة العربية ص ٢٣٤ ما يلي :

(إن القول بأن مشروع نوري السعيد كان يحظى بتأييد بريطانيا ، كما هو الموقف بالنسبة لمشروع الأمير عبد الله ، عار عن الصحة تماماً ، فتصريح إيدن الثاني في شباط ١٩٤٣ بعد المخاوف السعودية ، وضع مشروع السعيد على الرف . . وإن صح أن بريطانيا كانت تشجع مساعي الأمير عبد الله أو السعيد ، فذلك بهدف الضغط على العرب - أو تخويفهم - للقبول بخطة بريطانيا الجديدة الرامية لتشكيل الجامعة العربية) .

وسيقول أنيس صايغ في كتابه عن الهاشميين وفلسطين كلاماً مشابهاً (ففي مشروع الجامعة العربية ، الذي بقي دون دفاع مشترك ، أمنّت بريطانيا نفوذها في المنطقة كلها ، **فضلاً عن أن الجامعة كما خُطط لها كانت مطاطية وشكلية ، فيما يدعو المشروعان إلى وحدة حقيقية ، لا تريدها بريطانيا بأي شكل من الأشكال) .**

أما الوفد السوري الذي سافر برئاسة سعد الله الجابري إلى مصر فكان أشد جرأة حين قال بمواجهة النحاس باشا : -

(نحن لم نطلع على نتيجة مشاوراتكم السابقة مع غيرنا من ممثلي الأقطار العربية ، ومع ذلك فنحن على استعداد لأن نُسلّمكم ورقة بيضاء موقعة تخطّون فيها ما تشاؤون من الحلول ، ونحن ننفذها دون تردد . . إن أحب أنواع الاتحاد لدينا هو الاتحاد ذو الصبغة التنفيذية .)*

---

* نقله وليد المعلم في كتابه سوريا ٩١٨ - ١٩٥٨ ص ٤٣ عن جريدة الأهرام القاهرية الصادرة بتاريخ ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٣ .

سيقول عبد العزيز آل سعود عن سعد الله الجابري بأنه كان ضيق الصدر وعصبي المزاج وهو ولو كان وطنياً ، فإن سياسته كانت خاطئة (مذكرات محسن البرازي للدكتورة خيرية قاسميه ص ٣٠) .

هذا وسيعود إيدن للتأكيد في أيار من العام ١٩٤٤ بأن الحكومة البريطانية تنظر بعين العطف إلى أية حركة من العرب (ولم يقل حركة عربية) تخرج بهدف تحسين وحدتهم الاقتصادية والثقافية والسياسية ، غير أن ذلك يجب أن يصدر من العرب أنفسهم ، وعلى ما أعلم فإنه لم يوضع حتى الآن مشروعٌ كهذا يتمتع بالاستحسان التام .

وسيعود نوري السعيد للتراجع خطوة إضافية حين سُيسأل من جريدة العالم العربي ، عن موقفه بشأن سوريا الكبرى فيقول :-

(أنا كعراقي لا شأن لي في هذا الموضوع ، ولست بصاحب فكرة ، إن سوريا الكبرى تخص الشعب السوري وحده ، ويجب أن تحكم رغبة هذا الشعب نفسه ، لا رغبة الأفراد).

غير أن الأمير عبد الله لم يترك فرصة تمر دون أن يدعو فيها لمشروعه ، فعلى امتداد السنوات منذ العام ١٩٤٣ - ١٩٤٧ ، كان الأمير يرسل وكلاءه إلى صناديق الاقتراع في دمشق ، وقد تجددت دعوات الملك مع بداية العام ١٩٤٧ ، وقد جابهت بريطانيا هذه الدعوات بخشونة ظاهرة ، فقد أطلقت وزارة خارجيتها تصريحاً رسمياً قالت فيه ، **بألا علاقة لبريطانيا مطلقاً بما يقال عن مشروع سوريا الكبرى ، وأنها لا تعلم عنه شيئاً ، وهي لا تؤيده أو تفكر فيه (الأخبار المصرية في ١٨/ ٢/ ١٩٤٧)**.

ويروي نجيب الأرمنازي وزير سوريا المفوض ذكريات اجتماعه مع الأمير الوصي عبد الآله في لندن ، بناء على تعليمات الرئيس القوتلي (إثر رسالة الملك عبد الله إلى شكري القوتلي يدعوه فيها إلى الاتحاد) ، فيقول : دارت محاورة مع الوصي حول

الموضوع فأبدى شيئاً من الحذر ، إلا أنه تماسك وقال :-

الوصي - أليس الأردن جزءاً من سوريا فلماذا لا تتحدان ؟ .

الوزير - لأن الجزء هو الذي يجب أن يتبع الكل وليس العكس .

الوصي - لو أن الملك ابن سعود لم يتدخل في هذا الموضوع لما وصلنا إلى هنا .

الوزير - لولم يتعرض الملك عبد الله للتدخل في شؤون سوريا لما سوّغ لابن سعود فرصة التدخل .

الوصي - هذا شأنكم وليس لأحد أن يرغمكم على ما لا تقبلوه . .

وتوصل الارمنازي إلى أن الهاشميين ليسوا على وفاق تام حيث اكتفى الوصي بابداء ملاحظته الأخيرة ثم غادر القاعة .

وكما طار الأرمنازي إلى لندن ، فقد طار غيره من دبلوماسيي الرئيس القوتلي إلى الرياض والقاهرة وبغداد .

ويروي محسن البرازي في مذكراته (د . خيريه قاسمية ص ٣٨) قصة مقابلته للشيخ يوسف ياسين ، الذي نقل له بدوره تفاصيل مقابلة الملك عبد العزيز للقائم بالأعمال البريطاني في السعودية فقال * :

ذكر الملك باسهاب تاريخ مواقفه مع البريطانيين واخلاصه لهم وقارنها بمواقف الهاشميين ، ثم أضاف :

إن عبد الله يرسل رئيس ديوانه إلى شكري حاملاً رسالة يطلب فيها منه أن يتنحى ليحل محله ، وتبلغ الوقاحة أن يطلب مني بواسطته أن أقبل ذلك ، إن عبد الله بنفسه لا

---

* هذه الديباجة من إنشاء الشيخ يوسف ياسين ، فالملك لا يتحدث اللغة الفصحى . بل العامية البدوية كتالك التي يستشهد بها الملك عبد الله في مذكراته قبل موقعة مدينة تربة . حيث وصله كتاب ابن سعود يقول فيه :
(بلغني أنك جئت تجر الأطواب والعساكر ، تريدنا بتجد وحنا (أي نحن) ما عندنا بنجد إلا الرمث نتظلل به ، حنا وعولاتنا (أي نحن وعائلاتنا) فأنت أعلم أن أهل نجد كافة جاؤوك يمشون . مرتهُمْ تسبق ريّالها (أي امرأتهم تسبق رجلها) . . وعليه فأنت انكف لديرتك (عد إلى بلادك) فإن فعلت أمنع عنك الإخوان ، وإن لم تفعل فبصرك بنفسك (أي انظر ماذا أنت فاعل) . . . الخ .

يساوي شيء ، وأنا قادر على منعه من الخروج من بيته ، ولكنني رعاية لكم أيها البريطانيون مازلت أغض الطرف عن أعماله ، ففي السنة الفائتة أخرج مذكراته وفيها يشتمنا ويشتم أسرتنا فسكتنا إكراماً لكم . . . الخ . وليس صحيحاً أن المذكرات تشتم السعوديين أو الوهابيين عموماً لكنه الحديث الذي يثلج صدر الدبلوماسي البريطاني ، وابن سعود يعرف بدهائه ذلك ، فقد ذكر عبد الله في مذكراته (أن العقيدة الوهابية هي عقيدة إعرابية محضة ، حيث كان الأعراب هم التربة الخصبة ، لتعاليم مؤسس الدعوة محمد بن عبد الوهاب) وأنكر عبد الله على الوهابيين ، اتهامهم لبعض المسلمين بالشرك لأنهم كانوا يقولون في أدعياتهم ، يا محمد ، يا رفاعي ، يا جيلاني . . . وقد عاب عبد الله على هذه الأفكار تشتيتها لوحدة الصف الاسلامي . .

وفي حديث ابن سعود عن مقابلته للوزير الأمريكي المفوض في جدّة ، أفاد (الأمريكان جد متحمسين لتأييدنا - المصدر السابق) بخصوص عبد الله ومحاولته الاعتداء على سوريا .

وسيقول الملك فاروق من جهته أيضاً (نعم الأمريكان لا يريدون مشروع سوريا الكبرى) ، ويتابع البرازي في مذكراته :

عرضت على الملك فاروق إثارة تعديات الأردن على سوريا أمام الجامعة العربية وموافقة الملك ابن سعود على ذلك فأجاب :

(كويس ، ولكن ليس الآن ، فمصر مشغولة في خلافات مع الإنكليز ، وأرجح أن يكون ذلك « بعد شوية ») .

ثم يضيف الملك قائلاً : -

(والله أنا حريص على الجامعة العربية ، وأحببت دائماً أن تقوى ، وعملت لذلك ، ولكن هؤلاء الهاشميين يخلقون المشاكل وكأنهم يعادون الجامعة . . فمتى تفرغنا لا يهمنا أنْ يخرج عبد الله بل ربما نتمنى ذلك) .

سيقوم الرئيس القوتلي الذي يصفه باتريك سيل (نصف الإنكليزي ونصف السوري) بأنه سليل عائلة دمشقية عاشت حياتها وتحسنت أحوالها بفضل التجارة مع السعوديين ، سيقوم بارسال تقرير واف عن نتائج زيارة محسن البرازي إلى مصر ، وكان مضمون التقرير الموجه إلى الملك ابن سعود يدور حول المسعى الذي يجب أن تقوم به كل من مصر والسعودية لدى الجانبين البريطاني والأمريكي (**لالهام عبد الله الامتناع عن التفكير بمشاريعه السخيفة .**) وأن الملك فاروق سيعلم الإنكليز بأنه لن يستطيع الوقوف مكتوف الأيدي في حالة الاعتداء على سوريا من قبل عبد الله . (وإن جلالته ينتظر معرفة الوقت الذي ترون جلالتكم (أي ابن سعود) القيام بمسعى فيه ، ليقوم جلالته بالمسعى من قبله ، فالرجاء أن تتفضلوا باعلامنا عن ذلك وإن رأيتم جلالتكم أن تبلغوا جلالته بواسطة موثوقة فالرأي لجلالتكم - جريدة الحياة في ٢٩/ ١/ ٥٣ - المصدر السابق) .

وتعقيباً على المعاهدة الأردنية - العراقية التي ابرمت في أيار من العام ١٩٤٧ ، ستعلق جريدة الإيكونومست على مشروع سوريا الكبرى بالقول : **المسيحيون في لبنان لا يعتقدون أنَّ جواراً إسلامياً بهذا القدر سيكون ملائماً لهم ، والمصريون يجدون في هذا المشروع ما يدل على الرغبة في إيجاد زعامة تنافس مصر على دورها ، والملك عبد العزيز لا يريد محوراً هاشمياً على حدوده الشمالية ، إلا دهاة الصهاينة فهم يؤيدوه لكي يرفضه العرب .**

وأكثر من ذلك ، فقد نظر شيخ الدبلوماسية السورية ، نظرة براغماتية إلى مشروع سوريا الكبرى ، حين سأل مراسل الأهرام * ، السيد فارس الخوري عن رأيه بالمشروع وكان سابقاً من مؤيديه :

---

* لم يذكر الدكتور ممدوح الروسان في كتابه ص ١٥٥ تاريخ أو رقم العدد ، واكتفى بالقول : (عام ١٩٤٩ إثر انقلاب الزعيم) .
(العراق وقضايا الشرق العربي) .

(عندما دعوت لهذا المشروع ، كانت سوريا تحت النفوذ الفرنسي ، **والآن وقد تمتعت سوريا باستقلالها ومارسته في ظل دستورها ، فلم يعد هناك من مبرر للسير وراء هذا المشروع بعد أن زالت أسبابه**) .

سيكون لخطاب الرئيس القوتلي اتجاهاً مغايراً عندما يتعلق الأمر برغبة السعودية ومصر الاستعاضة عن هذه المشاريع بالجامعة العربية ، وسيدوّي خطابه على لسان وزير خارجيته (جميل مردم) في القاهرة حين يقول بنبرة راجفة (لا أجد كلمات أبلغ مما قاله رئيس جمهوريتنا في هذا المقام : إن البلاد السورية تأبى أن يرتفع في سمائها لواء يعلو على لوائها إلا لواء واحد ، هو لواء الوحدة العربية) .

في مرحلة لاحقة ، وبعد أن يتخلى أنصار الهلال الخصيب عن هلالهم ، سيحسم جلوب باشا الشهير هذا النزاع بقوله :

(**لو شاءت بريطانيا التي أطاحت بثلاثة كيانات عربية في شهرين ، وأن تسقط حكومة كيان رابع في ساعتين ، لوّحدتْ سوريا مع الأردن ، أو لسمحت حتى باقامة سوريا الكبرى ، ولصفق السوريون قبل غيرهم لهذا المشروع** - بريطانيا والعرب خلال خمسين عاماً - لنون جون جلوب - ص ٢٧٢) .

. . . .

كان مشروع الملك عبد الله الذي أذاعه في صيف العام ١٩٤٧ يدعو حسب بيانه الملكي إلى عقد مؤتمر قومي توحيدي بين الأقاليم الشامية أو حكوماتها الرسمية لتقرير ما يلي :-

أولاً / وضع تصميم الوحدة أو الاتحاد السوري موضعياً وفي حدود المواثيق الدولية والأماني القومية والمصالح المشتركة .

ثانياً : اعتبار الوحدة أو الاتحاد السوري قضية خاصة بالدول السورية الإقليمية وبارادة الشعب السوري وحده ، وفي حدود وطنه التاريخي جغرافياً وقومياً .

ثالثاً : وضع التحفظات الضامنة ، ضد كل ما يشوب الوحدة أو الإتحاد ، من انتقاص للحقوق القومية الاستقلالية المكتسبة دولياً وفي حدود ميثاق الأمم المتحدة .

رابعاً : تحديد مركز فلسطين من الوحدة أو الاتحاد السوري على الوجه الذي سيوقف خطر الصهيونية وقفاً تاماً .

خامساً : دعوة الحكومات السورية الاقليمية إلى اتفاق مشترك ينتهي إلى عقد جمعية عمومية - مجلس تأسيسي - تضم ممثلي الأقاليم السورية جميعاً لوضع دستور الدول على أساس الوحدة أو الاتحاد في ضوء التصميم المقرر .

سادساً : التنادي حال قيام الدولة السورية الكبرى إلى الاتحاد العربي العهدي في الهلال الخصيب - الشام والعراق - تحقيقاً لما رسمته مبادئ الثورة العربية التحررية ، وأوجبه ميثاق ٨ آذار ، وأفسحه ميثاق جامعة الدول العربية .

واختتم عبد الله بيانه الملكي قائلاً :

(هذا ما ندعو إليه ونعمل على تحقيقه لا نبغي من أجله إلا وجه الله الكريم ومستقبل العرب العظيم ، وإنه الحق المبين ، وليأتينكم نبأه بعد حين) .

عمان في ٧ رمضان المبارك ١٢٦٦ هـ

الموافق لـ ٤ آب سنة ١٩٤٧ م

سارعت السعودية بعد أيام فقط من إذاعة بيان الملك عبد الله ، وهي لا علاقة لها بالبيان ، إلى شجبه بحجة منافاته للقوانين الدولية ومعارضته مع ميثاق الجامعة العربية وتدخله في الشؤون الداخلية لسوريا ، ثم هرع جميل مردم بك* إلى وصف العرض وكأنه زوبعة في فنجان ، (وأن شعب الأردن لا يؤيد هذه الأفكار ، وهو قد ملّ من حكم مليكه ، وليس هناك سوى نفر ضئيل الأثر يؤيده - غالب عياشي - الإيضاحات السياسية - صفحة ٥٠٤) .

وجاء دور مصر في وصف المشروع وكأنه ضربة مسددة إلى جامعة الدول العربية ، فضلاً عن تدخله في الشؤون الداخلية لسوريا (- الأهرام ١٤ أيلول - ١٩٤٧) .

وفي نقلة نحو الديمقراطية ، فقد استُفتي مجلس النواب السوري ، وكان في أول انعقاد له بعد الجلاء (٢٩ أيلول ١٩٤٧) فخرج باستنكار لمشروع سوريا الكبرى (ذلك المشروع الذي تتستر وراءه أطماع شخصيّة وقيود إلزامية من شأنها المس باستقلال البلاد ونظامها الجمهوري - محاضر الجلسات) .

سيكتب حبيب كحالة عن هذا المجلس الذي كان نائباً فيه (ذكريات نائب ص ٤٧) والذي ترأسه فارس الخوري مايلي :

(نظرت حولي ، وكان ما رأيته فقط ، رجالاً لا يوجد بينهم شيء ، ولا يشتركون في أية مبادئ ، ولا يربطهم تنظيم حزبي ، وقد وصلوا إلى البرلمان بأساليب مخادعة مقنّعة تحت ستار الحرّية ، وهي لم تزد عن انتخابات فوضوية ، فكان بعضهم أميّاً ، وآخرون أدباء مرموقون ، وكانت لغة بعضهم ، الكردية أو الأرمنية ، ولم يعرف آخرون سوى اللغة التركية فقط ، إن بعضهم ارتدى الطربوش وآخرون أعتمروا الكوفية ، وكان بينهم رجال من البادية أو المدينة ، ولم يزد الأمر كله عن مسرحية وتمثيل أدوار * .)

---

* هذا جميل بك ، اتركوه يشتغل فهو كذوب ، ولكن الكذب لازم ، وأنا ويّاه .. نكذب أحياناً، والسياسة أليست الكذب ؟ . :-
من حديث الملك عبد العزيز آل سعود إلى محسن البرازي يوم الجمعة ٢٢ آب ١٩٤٧ ، أي بعد اسبوعين من بيان سوريا الكبرى .
المصدر : مذكرات محسن البرازي ص ٣٠ نقلاً عن جريدة الحياة في ١٩٥٣/١/٢٢ .

* نشرته مجلة المضحك المبكي أيضاً .

(إضافة إلى مجلة المضحك المبكي ، فقد نشرت جريدة البعث في ١١ تشرين الأول من العام ١٩٤٧ مقالة بعنوان سوريا الكبرى جاء فيها :

(لقد وقف حزبنا دوماً موقف المعارض مما يسمونه مشروع سوريا الكبرى ، وذلك بسبب انتقاص المعاهدة الأردنية البريطانية من استقلال الأردن ، وبسبب حرص الشعب والحزب على النظام الجمهوري) .

إذن . .

فقد ووجه المشروع بقوى اقليمية معارضة على رأسها السعودية ومصر ، كما حظي بتردد مشوب بالحذر من قبل الهاشميين أنفسهم في العراق ، هذا فضلاً عن القوى الداخلية في سوريا ، سواءً كانت رسمية أو شعبية ، باستثناء حزب الشعب الذي كان مؤيداً للهلال الخصيب منذ البداية ، وفي فلسطين فقد انقسم الجمع بين مؤيد ومعارض ، بموجب قطبية متنافرة بين المفتي ومعارضيه ، وكان أهم ما يقال ، معارضة بريطانيا نفسها ، فيما دأب المعارضون على حشرها فيه .

لم تكن بريطانيا بصدد سوريا كبرى بل صغرى ، وهو ما تفسره سايكس - بيكو دون اجتهادات إضافية .

ولم تكن المعارضة على حق ، حين خشيت على استقلال سوريا ، فيما كانت تهلل للجامعة العربية ، التي هي ميثاق بين دول مسلوبة الاستقلال والارادة ، فضلاً عن كونها مبادرة بريطانية ، وفي الوقت الذي كانت بريطانيا تعلن (اللاموقف) بخصوص سوريا الكبرى ، كانت السعودية (وهي بارومتر السياسة الانكليزية آنذاك) تعلن استعدادها لاقتحام الأردن نفسه (إذا ما تطاول عبد الله وهاجم سوريا) ! . .

أما عرش سوريا وكثرة الطامعين من حوله ، **فإن سوريا ليست بالضرورة ذات عرش**، أو لعلها لم تكن كذلك إلا في السنوات الخوالي لولادة الملوك والعروش في هذه المنطقة من العالم . .

وفي الأساس فإن سوريا وطن في التاريخ والجغرافيا ، إنها اللاوطن في مشروع سايكس - بيكو فقط ، وليس في سوريا الكبرى . . ولم يكن أشد سوءاً من الدفاع الذرائعي - غير المنزّه في أحيان كثيرة - عن أوضاع صممها الغرب بأفضل ما له وأسوأ ما على غيره ، فبأي حق كانت المعارضة آنذاك ، تتحدث عن الأصل والفرع * «الاستقلال» والملكي والجمهوري ؟ . . أليس ذلك كيداً بريطانياً في أصله ، وأساسه ؟

في فترتنا المعاشة ، ستجرنا المقارنة بين ما كان متاحاً بالأمس ، وما هو مقفل اليوم ، إلى متاعب مفترضة ، إذ هل كان الملكي أو الجكهوري هو فارق الديمقراطية بين بلد عربي وآخر ؟ وكي نبتعد عن المتاعب ، سنوجه سؤالاً إلى خارج المنطقة كلها ، هل كانت بريطانيا مثلاً توافق على قلب نظامها الملكي إلى نظام جمهوري بالاستفتاء ؟

وبالاستفتاء أيضاً ، هل كانت اسبانيا في شباب فرانكو ، تقبل أن يتحول نظامها الجمهوري إلى نظام ملكي ؟ .

وإلام تُنسب الممانعة في الأجوبة ، هل لأن بريطانيا ديكتاتورية في ملكيتها ؟ واسبانيا ديمقراطية في جمهوريتها مثلاً ؟ .

أليس ثمة رؤساء جمهوريات بمثابة ملوك في بلادهم ، وأن ملوكاً في بلاد أخرى يملكون بالنظر ولا يحكمون في الواقع ؟

أليست خطابات عروشهم السنوية ، أقرب ما تكون إلى الموعظة الدينية ؟ منها إلى البيانات والطنين والصراخ ؟

أية جمهورية وأية ملكية ، في اقليميات أُريد لها أن تكون مزارع خاصة لمالكيها مع فوارق متواضعة في أسس الثقافة والمعرفة بين الحكام والمسؤولين ، وهي عائلية أو شخصية في جميع المقاييس ! . .

---

* سوريا هي الأصل والأردن هو الفرع ، فلماذا لا يلتحق الثاني بالأول ؟ . . مَنْ يلتحق بمَنْ . . ياللهول ، مفردات لا تتعدى كونها مناظرات شعرية ، أو مفارقات لفظية !. . لا هدف لها سوى استرداد الوعي التفككي ! . .

هل حقاً أن الملك عبد الله ، فرّط بفلسطين لقاء الوعد بسوريا الكبرى ؟ وليس دفاعاً عن الملك ذي الارتباط ببريطانيا ، إذ مَنْ هو الذي لم يكن مرتبطاً أو مجروراً لارتباط ذي مسغبة . . ثم ألم تكن المرحلة بكليتها ، هي مرحلة الخضوع الكامل إما لبريطانيا أو فرنسا ، وفي وقت لاحق الولايات المتحدة الأمريكية .

ثم يرد السؤال في مرحلة أعلى (أو أدنى بصورة أدق) ، لماذا وافق المعارضون على (الكبرى والهلال) فهلّلوا لخروج الجامعة العربية من بين أصابع تشرشل ومن بعده تلميذه إيدن ، دون النظر إلى المآرب أو الغايات . . ألم يكن الاستقلال مستلباً مع ميثاق الجامعة في الاسكندرية ؟ . . . وليس ضد الجامعة أصلاً ، هل كان من الكفر أن تنشأ الجامعة مع مشروع اقليمي اتحادي مواز آخر ؟ فإذا كان الأمر كذلك ، لماذا ارتضت الجامعة أن تكون البديل الوحيد في مواجهة أي مشروع اقليمي وحدودي آخر ، هل لأن الجامعة كانت هي الوحدة العربية ، في حين لم تستطع في أوج فخارها ، أن تتوصل حتى إلى تعاون (عسكري أو اقتصادي) حقيقي مشترك . .

لقد غابت سوريا الكبرى في بطون أمهات التاريخ ، فكانت أثراً بعد عين ، ثم غاب الهلال في ليلة كسوف عربية ، فيها من الجهل والضغينة (والأنا) ما يعجز شكسبير عن كتابة أشد مسرحياته لؤماً أو دخولاً إلى ما في جسم الإنسان من خلايا وأحاسيس . .

ثانيا / عزف منفرد على الجبهات . او نشاز الاوركسترا .

خرجت بريطانيا بعد ثلاثة عقود مضطربة من فلسطين ، وقد أنذرت بعدم انتهاز الفرصة أثناء الرحيل ، وكان الموعد المضروب هو ١٥ أيار من العام ١٩٤٨ ممهدة لنذيرها هذا قبل وقت كاف . .

وفي عاليه بلبنان ، التأم مجلس الجامعة العربية للنظر في المخاطر المقبلة ، فيما دار النقاش حول إمكانات إدخال جيوش نظامية ، مع ما يلزمها من أسلحة وأموال ، مع

إعطاء دور للهيئة العربية العليا (قيادة فلسطين الداخلية) ، ثم خرج المجلس بمقررات هي :

- أن تحشد الدول العربية قطعات من جيوشها على حدود فلسطين .
- أن تقدم الدول العربية السلاح إلى عرب فلسطين .
- أن يتم تدريب الشباب العربي على استخدام السلاح .
- أن يتم إنشاء قيادة عربية تتولى شؤون الحرب والتنسيق .
- أن يوضع بتصرفها مبلغ مليون جنيه مبدئياً .

وكانت الأمم المتحدة قد اتخذت قرارها بتقسيم* فلسطين في تشرين الثاني من العام ١٩٤٧ ، أي في الوقت نفسه ، الذي كانت تدور فيه اجتماعات عاليه لمدة أسبوع واحد . .

سيقول خالد العظم (مذكرات الجزء الأول - صفحة ٣٥٠) : لم يكن الأمريكيون ولا الانكليز ، يعتقدون بكلام العرب وضجيجهم ، فقد اعتادوا على سماع هذا الضجيج كثيراً ، لذلك لم يخففوا من تماديهم في دعم اليهود ، ولو أنهم رأوا مصالحهم في البلاد العربية مهددة تهديداً فعلياً لما تمادوا إلى هذا الحد ، ولكن كيف يمكن تصور ذلك ، **(وعاهل المملكة السعودية ينتظر آخر الشهر كالموظف البسيط ، لقبض حصته من ريع الزيت الذي تستخرجه شركة أرامكو من الظهران لينفقه هو وأولاده على ما لا يعود على أمته وبلده بالخير والنفع ، ولو أن الدول العربية نفذت ما قررته في مؤتمر بلودان وأسمته بالقرارات السرية - لابقائها مكتومة فقط عن الشعوب العربية - وهو الوعيد بمنع الزيت عن الدول الأجنبية ، لكان ثمة أمل على الأقل في وقوف أمريكا وبريطانيا وفرنسا على الحياد في النزاع العربي - اليهودي) . .**

---

* ذهبت الولايات المتحدة قبل ذلك إلى اعتبار قرار التقسيم بمثابة كارثة على المنطقة ، وأن الحل الأمثل يكمن في تجديد وصاية دولية على فلسطين ، وقد لعبت بريطانيا دوراً في ثني الأمريكيين عن عزمهم هذا ، وهكذا إلى أن جاءت سياسة ترومان المتفوقة إلى جانب اليهود .

في الوقت الذي ساد الأوضاع المشحونة قبل اندلاع النشاطات الحربية في فلسطين ، كان قادة الدول العربية ، الذين ظلوا يفتقرون إلى أسس العمل الموحد (وكأنه لم تكن لتكفيهم تجارب ثلث قرن من المرارة مع الغرب ، مع أسلوب عمل الصهيونية العالمية) وبهدف مليئ بالنزاعات القبلية ، رغم انبثاق الدول رسمياً ، سارعت الحكومات العربية إلى استدعاء فوزي القاوقجي من التقاعد وكلفته بقيادة جيش غير نظامي في فلسطين ، وتمركزت قيادة هذا الجيش في دمشق ، حيث تم تقديم بعض الأسلحة من سوريا ولبنان ، وقد تم اقرار تعيين الضابط العراقي العميد طه الهاشمي في مركز القائد الاداري يعاونه الضابط العراقي الآخر العميد اسماعيل صفوت ، أما المسؤول عن الشؤون الخلفية (تموين ، ذخائر ، اسعاف . .)- فكان العقيد السوري محمود الهنيدي ، وبقي القاوقجي يتمتع بسلطة القائد الميداني لجيش التحرير العربي الذي صار يعرف بجيش الإنقاذ فيما بعد .

في الوقت نفسه ، أعلن الحاج أمين الحسيني ، عن دخول جيش الجهاد المقدس ، ساحة الأعمال القتالية ، وهو من المتطوعين الفلسطينيين بقيادة عبد القادر الحسيني ، الذي كان يفتقر إلى الخبرة العسكرية ، رغم تمتعه بسمعة ، جعلت منه أكفأ قائد ميداني للفصائل المسلحة غير النظامية .

لقد سعى القائد الحسيني أول ما سعى إلى تنسيق الجهود مع قادة جيش الإنقاذ ، ولانفاذ هذا الأمر سافر إلى دمشق طالباً المشورة والمعونة ، إلا أن طه الهاشمي رفض الطلب قائلاً بنصف عربية ونصف تركية (**نحن لا نقدم الأسلحة للباش بوزوك ، أي للعصابات المسلحة**)* .

لقد أدى وجود هذين الجيشين (الإنقاذ والجهاد) المتصارعين سلفاً ، إلى فقدان

---

* الحروب العربية الاسرائيلية ، تريفور دوبوي ، مركز الدراسات العسكرية ، دمشق ، صفحة ٣٧ .

التعاون تماماً ، مما سيُفضي إلى فقدان التفوق العددي العربي على اليهود ، وقد كان التنسيق الوحيد الذي تم بين هذين الجيشين هو اقتسام المناطق الفلسطينية ، بحيث بات الشمال من صلاحية جيش الإنقاذ والجنوب من صلاحية الجهاد ، دون أن يتم الانتباه أصلاً، إلى أن أبشع اختراقات الحروب العسكرية كانت تتسرب عملياً من بين هذه الفواصل حتى بالنسبة للجيش الواحد (ثغرة الدفرسوار لاحقاً) ، فكيف إذا اتصل الأمر بجيشين ذي قيادتين وعقليتين وتوقيتين ، وكل ما هو (اثنين) إلى حد القطيعة والافتراق؟ . .

حتى حجم القوات التابعة لقيادة القاوقجي لم يكن مستقراً بل متبدلاً باستمرار ، وكانت طاعة هذه القوات محل تساؤل ، ففوج اليرموك الأول بقيادة محمد صفا ، وفوج اليرموك الثاني بقيادة أديب الشيشكلي ، وفوج حطين بقيادة ضابط عراقي مدلول عباس ، وفوج الحسين بقيادة ضابط عراقي آخر هو عبد الرحيم الشيخ علي ، وفوج لبنان بقيادة شكيب وهاب ، وفوج أجنادين بقيادة ميشيل عيسى من فلسطين ، وفوج القادسية بقيادة المقدم العراقي مهدي صالح ، وفوج سوريا بقيادة غسان جديد ، وغيرها من التشكيلات الصغيرة كسرية اليوغوسلاف الاسلام وسرية البادية العربية * .

وكانت هذه التشكيلات على تجزئها ، حيث جاوزت تسع تشكيلات أساسية ، معبأة بعديد بشري لا يتجاوز سبعة آلاف رجل ، بمعدل سبعمئة للتشكيل الواحد ، أما من الناحية العملية ، فقد مضت (تسع جيوش صغيرة) في تدبير أمورها القتالية كل على حدة ، كما يمضي حاطب ليل في وعثاء غابة موحشة ليس لها دليل . . .

وفي الجنوب ، كانت قيادة جيش الجهاد (عبد القادر الحسيني) قد تدبرت أمورها هي الأخرى ، وكان قوامها لا يزيد على ألفي رجل ، وقد وزعت مواضعها القتالية ، بحيث

---

* تستطيع كثرة المسميات هذه ، تغطية جيوش هتلر في الحرب العالمية الثانية !..

منطقة اللد المركزية بقيادة حسن سلامة ، ووحدة القدس بقيادة عبد القادر الحسيني ، أما فصائل المتطوعين من الفلسطينيين والمصريين (الاخوان المسلمين) فألحقت تحت أمرة الضابط السوداني طارق الافريقي ، الذي سيحل محلّه ضابط الخيّالة الأنيق ، العقيد المصري أحمد عبد العزيز ، وهي رغبة ملكية سامية لا تُرد . .

في نيسان من العام ١٩٤٨ قررت اللجنة السياسية للجامعة العربية ، بعد ثبوت العجز البيّن لهذه القوات (الإنقاذ والجهاد) ، وبعد مظاهرات صاخبة اتهمت الحكومات العربية (والجامعة بالذات) بالجبن والتخاذل ، قررت الجامعة إدخال الجيوش النظامية العربية إلى فلسطين ، ويبدو أن الخشية من الجماهير (أو لعلّه التزلف) قد قادت رؤساء العرب وملوكهم إلى الاتفاق النسبي ، وصارت عمان مركزاً لهذا النشاط .

ففي اجتماع في عمان أواخر نيسان ١٩٤٨ ، حضره رؤساء الوزارات والأركان ، تقرر اسناد القيادة العامة للملك عبد الله ، ولم تكن مصر والسعودية راغبتين بذلك ، لكن السعي مضى قدماً (وسيكون لذلك تأثيرات حاسمة أثناء سير المعارك) ، كما تم تكليف اللواء العراقي نور الدين محمود بالقيادة الميدانية ، هذا وستقسم فلسطين من جديد ، بين الجيوش العربية كمهمات قتالية ، بحيث يكون من نصيب السوريين واللبنانيين - بمعونة جيش الإنقاذ ، شمال فلسطين ، والمنطقة الوسطى من اختصاص الجيشين الأردني والعراقي ، أما المنطقة الجنوبية - بمعونة جيش الجهاد - فتكون من حصة مصر والسعودية .

- كان قوام الجيش السوري ثمانية آلاف رجل ، يتوزعون على لوائين وكتيبة ميكانيكية تتضمن سرية دبابات فرنسية ، أما القوة الجوية فكانت حوالي خمسين طائرة عشرة منها كانت من جيل عصرها آنذاك .

- وكان قوام الجيش اللبناني ثلاثة آلاف رجل يتوزعون على خمس كتائب مشاة تعززها بعض العربات الفرنسية المدرعة .

- وكان قوام الجيش الأردني – الفيلق العربي – يتشكل من تسعة آلاف رجل موزعين على ثلاثة ألوية وأربع كتائب مدرعة معززة بمدفعية جبلية حديثة* ، وكان ـ ا الفيلق الذي أشرف على بنائه الجنرال جون غلوب ، معدلاً لفرقة بريطانية ميكانيكية فضلاً عن أن قيادته العسكرية ، كانت تضم ٣٧ ضابطاً انكليزياً إضافة إلى غلوب نفسه .

- أما الجيش العراقي الذي بلغ عديده زهاء ٢٠ ألف رجل حتى العام ١٩٤٨ ، فقد تم التخطيط لإرسال خمسة آلاف جندي ، موزعين على كتائب مشاة وكتيبة مدرعة مع وحدات الدعم الأخرى ، وما كان يميز الجيش العراقي ، قوة نيران المدفعية لديه ، أما القوة الجوية فهي كبيرة نسبياً إذا ما قورنت بمقدرة الجيوش الجويّة ، وكانت قد بلغت آنذاك زهاء مئة طائرة ، العدد الأكبر منها من طراز عصرها .

- أما الجيش المصري ، الذي قررت قيادته السياسية إشراكه في الحرب قبل يومين فقط من رحيل الانكليز عن فلسطين ، فكان قد وصل في عديده البشري عام ١٩٤٨ إلى خمس وخمسين ألفاً من الجنود ، ورغم حداثته النسبية ، فقد كان يفتقر إلى الكفاءة القيادية الميدانية ، ومع ذلك فقد اكتسبت المدفعية المصرية المضادة للطائرات خبرة واسعة ، نظراً لإشراكها في العمليات القتالية كحماية المرافئ والمراكز الحيوية ضد الطائرات الألمانية في الحرب الثانية .

ورغم أن الجيش المصري هو الأكبر بين الجيوش العربية (٥٥٠٠٠ جندي) فإن القاهرة لم ترسل إلى خطوط القتال في فلسطين ، أكثر من خمسة آلاف جندي وزعوا على تشكيلات مشاة ومدفعية ، وقد عززتهم وحدة مدرعة فقط . . أما الجنرال عبد العزيز ، فلم يكن يملك قوة محاربة حقيقية ، وقد ظلت هاوناته ورشاشاته مستعصية لقدمها ، ولم يكن في حوزته أكثر من سبع عربات قديمة ، يشرف عليها الضابط الذي سيصبح عضواً في

---

* كنا في فلسطين نعتقد بأن هذا النوع من المدافع يستطيع – نظراً لاسمه – أن يزيح جبلاً بحاله ، وقد تم فهم المعنى فيما بعد ، على أن التسمية مأخوذة من تصميم المدفع نفسه ، بحيث يمكن فكّه إلى أقسام خفيفة ليتم نقله بيسر إلى المناطق المرتفعة – المؤلف - .

مجلس قيادة الثورة المصرية كمال الدين حسين * .

كانت الجيوش العربية ، بعيدة عن تنظيم المعارك ، ولم تكن لتعرف نظام التشكيلات في التنسيق والتوزيع والتجميع وغيرها من ضروب المناورات التي غدت علماً قائماً بحاله ، وكان ظهور الجيش في أية عاصمة عربية ، يعني أن قمعاً إضافياً سيأخذ طريقه إلى الظهور ، كما حدث عندما تحركت القطعات العسكرية السورية نحو دمشق ، لقمع الغوغاء الصاخبة ، لتراخي الجيوش في فلسطين (أواخر العام ١٩٤٨) ، أو كما كان يتحرك الجيش المصري إلى الصعيد أو القاهرة والاسكندرية لأغراض مماثلة . .

سيقول اللواء عثمان المهدي رئيس أركان الجيش المصري لضباطه ، أنتم ذاهبون إلى فسحة ، ولما سئل عن قدرة مصر على تحريك طيرانها الحربي ، فيما هذا السلاح مازال بيد الضباط الانكليز ، لاذ بالصمت . .

ويقول أحمد حمروش في كتابه قصة الثورة - مدبولي ، الجزء الأول - ص ١٣٣ :

(كانت أول كتيبة مشاة مصرية دخلت أرض فلسطين ، محمولة بعربات أوتوبيس مدنية ، أحضرها أحد المقاولين في مصر) .

بالمقابل يروي بن غوريون في مذكراته ، أن تعداد الهاغاناة (جيش الدفاع الاسرائيلي فيما بعد) قد وصل إلى زهاء أربعين ألفاً * من الرجال المتدربين تدريباً متفاوتاً ، وقد

---

* عندما سأل فؤاد سراج الدين زعيم المعارضة الوفدية ، رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي الذي وافق على إشراك الجيش المصري في الحرب الفلسطينية في ١١ أيار ١٩٤٨ عن سبب هذا التغير ، أجاب :-

(لأنني متفائل ونحن نعرف اليهود ، وأنا أحب أن أطمئنك إلى أن الانكليز هم الذين شجّعوني على ذلك) ، وعندما اعترض اسماعيل صدقي (عضو مجلس الشيوخ) على سياسة الارتجال هذه ، أجاب النقراشي : لا داعي إلى الخوف ، المسألة عبارة عن نزهة .

* حتى العديد البشري الاسرائيلي فقد كان موازياً للعديد البشري العربي .

أي أن كل ٣٠٠٠ عربي قدموا ٤ مقاتلين

وكل ٣٠٠٠ اسرائيلي قدموا ٢٣٣ مقاتلاً .

وهو الفرق بين ٣٠ مليوناً عدد سكان الدول العربية المشتركة في الحرب و ٦٠٠ ألف وهو عدد اليهود المفترض في فلسطين آنذاك .

أما النسبة العددية فكانت ٤٥ إلى ١ .

توزعت على ثلاثة ألوية من (البالماخ) وخمسة ألوية من الجنود المتدربين العاديين ، وهناك فرع التدريب الذي يضم ٣٩٨ ضابطاً وجندياً ، والقوى الجوية ٦٧٥ ومدرسة المدفعية ٦٥٠ وتشكيل الهندسة ١٥٠ ، والشرطة العسكرية ١٦٨ ، ووحدات نقل ١٠٠٠ عامل ، وهناك اللواء الثامن دبابات وعربات مصفحة ، كما أن هناك كتيبة مغاوير على عربات جيب بلغت حوالي ١٥٠٠ مقاتل بقيادة الرائد الشاب موشي دايان .

بالإضافة إلى هذه الأعداد ، فإن هناك عشرة آلاف رجل ، كلفوا بأعمال الدفاع المدني في المدن والمستوطنات ، كما أن بن غوريون لم يمط اللثام عن وحدة خاصة بلغت أعلى مراتب التدريب الخاص بأعمال الأمن ، وما سمي لاحقاً بالموساد .

أما العتاد والسلاح ، فليس ثمة مصادر دقيقة ولو أن المؤشرات التقريبية تتحدث عن توفر ٣٣ ألف قطعة من البنادق والمسدسات ، وزهاء ١٥٠٠ رشاش متوسط وخفيف ، و ٩٠٠ مدفع هاون من نوع بريطاني ، و ٨٦ مدفعاً مضاداً للدرع ، وخمسة مدافع ضخمة من نوع الهاوزر الأمريكي ، و ٢٠ دبابة ثقيلة ، و ٦٠ أخرى خفيفة .

وبعد النتائج التي تمخضت عنها الأسابيع الأولى للحرب ، يتضح أن هذه الأسلحة ، قد أُحسن استخدامها ، رغم أن مئات الأخطاء العسكرية المرتكبة ، كان قد تم تداركها في المعارك اللاحقة بعد الهدنة الأولى .

لقد غُذى الفيلق اليهودي الذي شارك في الحرب العالمية مع الحلفاء ، المؤسسة العسكرية الوليدة ، بخبرات لا تقدر بثمن ، وكان الضباط الأوائل منه ، الذين ستسمى ألوية الجيش ومصنوعات أسلحته بأسمائهم ، أمثال ناحوم غولان ، وموشي كارمل ، وشمعون أقيدان ، واسحاق صادح ، هم البناة الحقيقيون للمعبد الثالث في اسرائيل .

. . . .

ثالثا / وهكذا دخلنا الحرب .

افتتح الجيشان السوري واللبناني خطة التحرك بالتوجه إلى الجبهة الغربية أو ما يسمى باصبع الجليل الأعلى ، وكان يفصل بين الجيشين عدة أميال ، وكانت ساعة الصفر المحددة هي ليلة ١٤ على ١٥ من أيار ، ومن مستعمرة رامات نفتالي ، شنت قوة من البالماخ تقدر بقوام كتيبة هجوماً على قرية قَدَس الواقعة على الحد بين لبنان وفلسطين ، وعند الفجر شن الجيش اللبناني هجوماً معاكساً نحو المالكية إلى قدس ، وتمكن من استرداد المنطقة بعد إخلاء القريتين من القوات الاسرائيلية ، وكالعادة ، لم يستفد الجيش اللبناني من هذين الانتصارين المتتاليين ، فتجمّد عند حدود المنطقة وقام بأعمال التحصينات والدفاع .

وقد اندهش الاسرائيليون من هذا التوقف ، بعد أن وضعوا الخطط لاستقبال اللبنانيين عند سهل الحولة ، فانتقلوا للهجوم على مركز الشرطة في قرية النبي يوشع وتمكنوا من احتلاله .

في الوقت ذاته ، وخشية هجوم لبناني محتمل على الطريق الساحلي ، قام الاسرائيليون بمهاجمة مدينة عكا ، التي كانت في حالة اشتباك ضد هاغاناة المستعمرات ، وتمكن اللواء المهاجم بقيادة موشي كارميلي من احتلال تلة نابليون شرقي المدينة ، وفي تطوير لاحق احتل اللواء القرى العربية التي تفصل بين عكا ونهاريا ، وهكذا لم يعد أمام عكا سوى البحر . . فسقطت في السابع عشر من أيار فاتحة الطريق إلى قَدَس والمالكيه من جديد .

ظل الجيش اللبناني متسمراً في مكانه ، حتى ليلة الثامن والعشرين من أيار (عشرة أيام كاملة فيما زمن الحروب يقاس بالدقائق) ، تابع الاسرائيليون هجومهم باتجاه المالكية

وقَدَس ، وبمناورات متقنة استطاع شموئيل كوهين قائد اللواء يفتاح من احتلال القريتين من جديد .

مع نهاية الاسبوع الأول من حزيران ، شن الجيشان السوري واللبناني ، يؤازرهما جيش الانقاذ ، هجوماً مشتركاً على المالكية ، وكان الهجوم بمثابة مفاجأة كاملة بالنسبة للقوات الاسرائيلية ، ورغم حقول الألغام المبثوثة بشكل كثيف ، تمكن الهجوم العربي المنسق من استرداد المالكية مطوراً هجومه إلى مستعمرة رامات نفتالي وقدَس ، وهكذا تم فتح الطريق بالقوة نحو سهل الحولة والجنوب . .

على الجبهة السورية ، تم إنفاذ أمر للعقيد عبد الوهاب الحكيم قائد اللواء الأول (مشاة + كتيبة مصفحات + سرية دبابات) بالانتقال من جنوب لبنان إلى الجولان تمهيداً للهجوم على مدينة سمخ (جنوب بحيرة طبريا) .

صباح السادس عشر من أيار تعرضت سمخ والمستوطنات المحيطة بها (دغانيا آ و ب) للقصف الجوي السوري ونيران المدفعية ، وفي عملية كماشة شمال البحيرة وجنوبها ، شنت القوات السورية هجمات متقدمة على محاور المستوطنات اليهودية ، ثم قام اللواء الأول الذي أصبح بقيادة الزعيم حسني الزعيم بالهجوم على موقع متقدم أمام سمخ ، ونجحت العربات المدرعة السورية من اختراق الموقع مهددة دغانيا التي بدأ الاسرائيليون عملية انسحاب منها .

سرعان ما أرسل الاسرائيليون بتعزيزات إضافية مأخوذة من قوام تشكيل اللواء (يفتاح) الذي كان في مواجهة القوات اللبنانية ، إذ لم يكن ثمة ضغط لبناني يستأهل بقاء اللواء هناك بكامل تشكيلاته ، وقد أسند للرائد موشي دايان مهمة تنسيق الجهود الدفاعية بين القوات المدافعة والقوات المنجدة * .

---

* موشي دايان من مواليد فلسطين ، ولد في مستعمرة دغانيا نفسها في ١٤ أيار ١٩١٥ فهو ابن المنطقة من حيث المعرفة بجغرافيتها التفصيلية ، فَقَدَ عينه اليسرى في معركةَ مع قوات فيشي بالقرب من قرية اسكندرون جنوب لبنان ، وقد قال له الجراح البريطاني وهو يعالجه : هناك شيئان أكيدان . أنك فقدت عينك ، وأنك ستعيش ، لكن لا يسعني في الوقت الحاضر ، اصدار أحكام بصدد دماغك . (الغاشيّة - يوميات موشي دايان ص ٦٣) .

لم يكن في نية القوات السورية تطوير هجومها جنوب البحيرة ،بل شمال البحيرة عبر محور جسر بنات يعقوب ، وقدتم الاستعداد لذلك ، إلا أن طلباً من القوات العراقية لحماية خاصرتها اليمنى أدى إلى البلبلة ، وعادت القوات السورية لتركيز الجهد نحو الجنوب ، وتمكنت بالفعل من اختراق دفاعات مستوطنة دغانيا آ ، إلا أن التنسيق بين الدبابات التي اخترقت الدفاعات الاسرائيلية ، والمشاة كان ضعيفاً ، وبتخلف المشاة عن الدبابات المتقدمة أمكن لدفاعات المستوطنة من إيقاف الهجوم السوري بتدمير جزء من الآليات المهاجمة . .

هذا وستظهر مدفعية فرنسية حديثة في ساحة المعركة لأول مرة ، كما سيكون الافتقار إلى الذخيرة سبباً في توجيه الأوامر بالتراجع .

أقام السوريون قاعدة تموين وذخيرة بالقرب من بناية الجمرك قرب جسر بنات يعقوب شمال البحيرة من جديد ، لكن عبور النهر الذي تم بمبادأة اسرائيلية من المنطقة اللبنانية ، أدى إلى تدمير مستودعات القاعدة المذكورة ، وكان ذلك في الثامن عشر من أيار . وحتى السادس من حزيران ستشهد الجبهة السورية هدوءاً نسبياً لم يقطع صمته سوى تراشق متقطع بين الحين والآخر .

صباح السادس من حزيران ، شن اللواء السوري الثاني بقيادة العقيد علم الدين قواص ، هجوماً مفاجئاً تمكن من خلاله من عبور النهر إلا أنه لم يستطع الوصول إلى مستعمرة (مشمار هايرون)* التي كانت هدف الهجوم في الأساس .

في العاشر من حزيران ، وإثر هجوم فعلي منسق ، نجح اللواء الثاني في خرق الدفاعات الاسرائيلية حول المستعمرة ، ورغم كثافة الرمايات المعادية – التي اشترك فيها قسم من اللواء يفتاح – فقد تمكن اللواء السوري من إسقاط المستعمرة ، ودخلتها القوات السورية بعيد الظهر من اليوم نفسه .

---

* وهي مستعمرة على رأس أصبع الجليل ، حيث تلتقي الحدود السورية والفلسطينية واللبنانية ، وكان هدف الهجوم اللاحق ، إقامة الاتصال مع القوات اللبنانية وجيش الانقاذ في منطقة المالكية التي ظلت تتعرض للهجمات والهجمات المعاكسة .

هذا وسيقوم الجيش السوري بمحاولات عديدة لاحتلال مستعمرة (عين غيف) على الشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا في الجنوب ، إلا أن أياً منها لم يفلح ، لأسباب جغرافية وتعبوية .

سيفتتح العراقيون جبهتهم بالهجوم على مستوطنة جيشر ، المقابلة لقرية الشونة الأردنية ، حيث يخرج نهر الأردن من الرأس الجنوبي لبحيرة طبريا (القوات السورية كانت على يمينهم من الشرق حسب الخارطة العسكرية) .

ولافتقار التنسيق بين المشاة والمدرعات ، فقد فشل الهجوم على جيشر مرتين ، إلا أن المستعمرة أصبحت في وضع يائس ومعزول ، وكان بمكنة القوات العراقية اسقاطها مثل الثمرة الناضجة ، إلا أن محاولة ثالثة لم تتم . .

توجه العراقيون جنوباً على مسار الغور من الجانب الأردني ، وتمكنوا من عبور جسري دامية واللنبي ، حيث قوات الإنقاذ كانت قد أمنت حماية هذين الجسرين ، وتمكنوا من نقل قواتهم وعتادهم إلى محيط مدينة نابلس ، وهناك ظلت القوات العراقية دون عمل حتى وصول الامدادات ، حيث في الشهر الأخير من أيار ، وصلت القوة العراقية المشاركة في الحرب إلى مستوى لوائين مشاة ولواء مدرع .

في الأسبوع الأخير من أيار تحرك العراقيون غرباً انطلاقاً من مدينة نابلس ، مروراً بطولكرم ، وتمكنوا من احتلال ثلاث مستعمرات اسرائيلية كانت تفصل طولكرم عن مستعمرة ناتانيا الشهيرة . . .

استقدم الاسرائيليون خيرة ألويتهم (جولاني وكارميلي) تحسباً من هجوم عراقي خطير قد يقطع البلاد إلى نصفين ، وعززت هذه القوات بإضافة لواء ثالث يطلق عليه اسم (الاكسندروني) ، ومن غير انتظار لوقت ضائع ، شنت طلائع جولاني هجوماً واسعاً

باتجاه جنين عبر قرى مجيدو واللجّون الفلسطينيتين ، ونظراً للتطور السريع للقوة الجوية الاسرائيلية ، فقد أصبح بالإمكان تقديم معلومات عن أماكن توضع القوات العربية ، فاحتلت كتيبة من قوات جولاني المنطقة شمال جنين ، كما احتلت قوات اللواء كارميلي المنطقة الواقعة جنوب جنين ، ولم يقم - لأسباب مجهولة - اللواء الاسكندروني ، بالمناورة اللازمة حول طولكرم لاجتذاب العراقيين في عملية خداع مرسومة .

في الصباح الباكر من يوم ٤ حزيران ، قامت القوات العراقية بشن هجوم كاسح منطلقة من المنطقة الغربية لمدينة جنين ، وقام الطيران العراقي باسناد هذا الهجوم ، وحاولت قوات كارميلي التشبث بالأرض ، إلا أن قوة عراقية إضافية كانت قد وصلت إلى منطقة القتال ، وتمكنت من إجلاء الاسرائيليين عن المنطقة بكاملها ، وفي الوقت الذي بدأت فيه أنوار تل أبيب الزرقاء تلوح في أفق المجهول ، أبرق اللواء نور الدين محمود قائد القوات العراقية إلى بغداد يقول : (القوات العراقية محتفظة بمواقعها الحالية ، وسوف تبقى في حالة دفاعية في الوقت الحاضر ، وإن قواتها تكفي للقيام بهذا الواجب الدفاعي)* .

على الجبهة الأردنية في مواجهة مدينة القدس ، فقد تمكن الجيش الأردني يوم ١٤ أيار من استعادة الشيخ جرّاح ، الذي احتلته قوات من الأرغون من قبل ، كما تمكن الأردنيون من قطع الاتصال بين مستعمرات جبل سكوبس (جبل الزيتون) وبين القدس الغربية ، وقد حاولت وحدة أردنية احتلال (قرية عتاروت) باتجاه النبي يعقوب إلا أن المحاولة لم تفلح ، ورغم ذلك فقد انسحب اليهود من هذه المنطقة تاركين وراءهم أعتدتهم ومتجهين إلى مستشفى هداسا الذي هو في متناول المدفعية الأردنية . .

---

* وحين سئل اللواء محمود في العام ١٩٧٣ . . لماذا ؟ أجاب :

مهمتنا كانت تتمثل في الحفاظ على المثلث العربي ، وعدم القيام بنشاطات عسكرية استفزازية . هكذا كانت الأوامر (العراق . د . روسان ص ٢٦٤) .

وهكذا تبدو الحرب وكأنها السياسة لانفاذ واقع التقسيم . السوريون عند الجسر ، اللبنانيون عند قدَس والعراقيون عند جنين . . . !

في ١٧ أيار تمكن الجيش الأردني من احتلال الذرى المشرفة على طريق تل أبيب - القدس ، أي منطقة اللطرون ودير أيوب ، وهكذا أصبحت تل أبيب على مسافة ٣٠ كيلومتراً من مقدمة الجيش الأردني الذي بدأت طلائعه بالدخول إلى بيت لحم . .

خلال ليلة ١٩ على ٢٠ أيار سيتمكن الجيش الأردني من دخول مستوطنة عربة ، كما ستحتل إحدى سراياه محطة الضخ المائية التي تعيش عليها مستعمرة بتاح تكفا وهي المستعمرة الزراعية الأولى في اسرائيل .

على الجبهة المصرية فقد نصت الخطة على دخول فلسطين من محورين ، وبآن واحد ، ويتبع الرتل الأول الرئيسي الذي يقوده اللواء أحمد علي المواوي ، يعاونه في القيادة الميدانية العميد محمد نجيب ، يتبع الطريق الساحلية على خط سكة الحديد باتجاه تل أبيب ، ثم يتلاقى مع وحدة صغيرة تنزلها السفن الحربية في قرية المجدل ، أما الرتل الثاني فيمسك بطريق بئر السبع - الخليل لتحقيق الاتصال مع الجيش الأردني عند ضواحي مدينة القدس .

قبل ذلك فقد تمكن العقيد عزيز بقوات من المتطوعين المسلمين ، من السيطرة على قلعة استراتيجية (عراق سويدان) استطاع من خلالها عزل النقب عن فلسطين تماماً .

كان في مواجهة القوات المصرية لواءان اسرائيليان هما لواء جفعاتي ولواء النقب ، ويوم الخامس عشر من أيار عبر التشكيلان المصريان حدود فلسطين وتابع الأول طريقه إلى خان يونس ، فيما مضى الثاني إلى النقب ، وقبل خان يونس اصطدم الرتل بمقاومة من مستعمرة نيريم ، ولكن العميد نجيب لم يشأ الوقوف طويلاً عند المستعمرة ، فأفرز لها سرية من المشاة تساندها بطارية مدفعية ، وتابع تحركه إلى خان يونس ، إلا أنه اصطدم من جديد مع مقاومات صادرة من مستعمرة كفار داروم ، ومرة أخرى أفرزقائد الرتل سرية للاشتباك والقضاء على المستعمرة . .

كانت نتائج الاصطدام مع المستعمرتين فادحة بالنسبة للمصريين ، وكان السبب يعود إلى شيء من الاستخفاف لما تنطوي عليه قوة المستعمرات التي أنشئت أساساً بتخطيط حربي ، وهكذا فإن اللواء المواوي لم يجازف بمواجهة المستعمرة الثالثة (ياد مردخاي) إلا بخطة منسقة ، وبعد محاولات مستميته ، تمكن المصريون ظهيرة يوم الثاني والعشرين من أيار من احتلال المستعمرة بعد أن تم تدميرها .

في الوقت نفسه تمكن الرتل الثاني من الوصول إلى بئر السبع دون مقاومة اسرائيلية جديّة ، وقد أمّن الرتل الاتصال بقوات الجيش الأردني في بيت لحم ، وتولى الجيش المصري الاشراف على المدينة بعد أن انضمت إليه قوات العقيد عبد العزيز من المتطوعين ، وأسندت القيادة للعقيد عزيز نفسه .

تابع الرتل المصري طريقه الساحلي فالتقى بالوحدة التي تم انزالها بحراً في المجدل ، ثم تمكن من دخول بلدة أسدود بعد مقاومة اسرائيلية ضعيفة ، وعند الجسر الواقع شمال البلدة ، تقابل الجيش المصري مع قوات اللواء جفعاتي وكتيبة من قوات الأرغون وسريتي مشاة محمولة على عربات جيب من قوات اللواء النقب ، وصمم العميد نجيب على القتال في أسدود حتى النهاية . . .

فشلت محاولات الهجوم الاسرائيلية لاسترداد أسدود ، رغم دخول الطائرات الاسرائيلية الحديثة في المعركة ، كذلك ظهور أنواع جديدة من المدافع عيار ٦٥ م .

استماتت قوات نجيب بالدفاع عن أسدود وكبدت المهاجمين الاسرائيليين ما لا يقل عن ٤٠٠ قتيل وجريح .

وانتقل جزء من الرتل المصري بعد معركة الدفاع عن أسدود لمهاجمة مستوطنة استراتيجية هي نتسانيم ، وكانت الخطة الجيدة التي وضعها اللواء المواوي شبيهة بخطة

احتلال مستعمرة ياد مردخاي ، وقد تعثرت المحاولات الأولى للهجوم المصري على المستعمرة ، وقد طلب اللواء المواوي تدخل الطيران فأجيب إلى طلبه ، وهكذا ظلت نتسانيم صامدة طوال يوم ٦ ونصف نهار يوم ٧ من حزيران ، وعندما أيقن المدافعون استحالة الاستمرار في الدفاع ، أعلنوا استسلامهم بعد تكبيدهم خسائر فادحة في الأرواح .

ارتفعت معنويات الجيش المصري بعد هاتين المعركتين الناجحتين أسدود ونتسانيم ، غير أن خطوط الامداد الخلفية تكفلت بعدم الاحتفاء بالنصر من جديد .

بالنسبة إلى معارك القدس ، وفي الخامس عشر من أيار ، فقد علم القاوقجي بدخول الجيوش العربية فقرر الانسحاب - أو طُلب إليه الانسحاب * من منطقتي : الجليل إلى لبنان ، والقدس إلى الجسور ، وخلال الفترة من ١٦ - ٢٢ من أيار كان الجيش الأردني يقيم المساتر والتحصينات الدفاعية في منطقة الشيخ جرّاح شرقي القدس ، وكان الهدف الذي استعد له الفوج الرابع الأردني بقيادة المقدم حابس المجالي ، هو احتلال اللطرون .

على الجانب الآخر ، فقد دفع الاسرائيليون بمئتي مقاتل من الهاغاناة ومئة من الأرغون إلى الحي اليهودي في القدس العربية ، وكان أول تحرك مشترك لهذه القوات هو احتلال كنيسة الروم تمهيداً للاشراف على غرب المدينة ، غير أن بطريرك الكنيسة أعلن احتجاجه ضد احتلال دور العبادة ، فخرج الاسرائيليون شريطة عدم السماح للعرب بدخولها ، هذا وسيسمح البطريرك للمقاتلين العرب غير النظاميين بالتمركز داخل الكنيسة بعد يومين .

وفي التاسع عشر من أيار شن الاسرائيليون هجوماً مزدوجاً الأول وهدفه اختراق الجانب الغربي من المدينة عبر بوابة يافا بقيادة اللواء عتصيوني . والثاني وهدفه جبل

---

* لا نعرف شيئاً عن حكمة هذه الانسحابات ، خاصة وأنها تمت دون معارك مع الاسرائيليين . ربما تكون العزّة قد أدارت رؤوس القادة من الجيوش النظامية ، بحيث أن (الباش بوزوك) لا يصلح لمثل هذه المهمات التي تطلع بها الجيوش النظامية وليس غيرها !... وهكذا :

لا تعكروا علينا صفو نزهتنا وأفسحوا لنا الطريق !...

صهيون وصولاً إلى الحي اليهودي المحاصر في المدينة ، وقد أخفق الفرع الأول من الهجوم إخفاقاً ذريعاً . فيما نجح الثاني في تحقيق الاتصال بين جبل صهيون والحي اليهودي بقيادة اللواء هارئيل .

في العشرين من أيار ، تمكنت القوات المصرية بقيادة العقيد عبد العزيز من تحقيق الاتصال مع القوات الأردنية في بيت لحم (وكان معظم القوات المصرية من المتطوعين) ودون إضاعة للوقت فقد شُن هجوم مشترك مصري - أردني مستهدفاً مستوطنة رامات راشيل الضخمة والتي تقطع الطريق بين القدس والشمال ، ودارت رحى معارك عنيفة ، تمكنت القوات العربية المشتركة من خلالها احتلال المستوطنة وتم تطهيرها ، ثم بدأ الاستعداد للتوجه شمالاً وكان الهدف التالي احتلال عقدة دير نوتردام القريب من بوابة يافا . .

زاد الأردنيون ضغطهم ، وتمكنوا من تحقيق رمايات فعّالة باتجاه جبل صهيون والحي اليهودي ، مما اضطر قوات اللواء هارئيل للإنسحاب من الحي المذكور ، وطوّر الأردنيون هجومهم المدفعي وتمكّن فوج المقدم حابس المجالي بعد ظهر الثامن والعشرين من أيار من استرداد جبل صهيون والدخول إلى الحي اليهودي ، وبعد معارك شوارع ضارية ، استسلم الحي اليهودي ، وتم سوق مئتين من الضباط والجنود أسرى إلى عمّان * . .

قررت القيادة العسكرية الاسرائيلية شن هجوم كبير يستهدف منطقة اللطرون بأكملها وحشدت لذلك خيرة قواتها من المشاة والمدرعات بقيادة اللواء شلومو شامير .

بدأ هجوم شامير بفرعين أيضاً من الغرب والشرق بآن واحد ، وبعد تقدم بطيء ووصول القوات الاسرائيلية إلى أمدية الرمايات الأردنية ، اشتبك الفوج الرابع الأردني مع طلائع القوات الإسرائيلية المتقدمة على محاور الهجوم ، وتمكن الفوج الأردني من

* مصدر آخر قدّر عدد الأسرى من الضباط والجنود اليهود بمئتين وخمسين أسيراً تم سوقهم جميعاً إلى مدينة عمان - (الحروب - دوبوي ص ١١٢) .

إيقاف الهجوم الذي تكبد خسائر مادية وبشرية ، فقرر اللواء شامير خطة عاجله للإنسحاب تاركاً سرية خلفه لحماية التراجع المقرر ، غير أن الفوج الأردني تمكن من طرد هذه السرية بعد ساعات ، وهكذا أصبحت الطريق المؤدية إلى اللطرون من جهة الشرق نظيفة ومأمونة . .

في الثامن والعشرين من أيار ، عيّنت القيادة العسكرية الاسرائيلية جنرالاً من ملاك الجيش الأمريكي واسمه داڤيد ماركوس (ميكي) لقيادة هجوم جديد باتجاه اللطرون سيطلق عليه اسم (الخطة بن نون) . . وتقوم هذه الخطة على شق طريق تبادلية تمتد من بئر محسير إلى باب الواد ومن أجل عدم لفت الانتباه ، فقد كان العمل يجري في الليل ويتوقف في النهار ، وقد أطلق على هذا الطريق اسم طريق بورما ، لكن القيادة العسكرية الاسرائيلية عادت وغيرت رأيها بخصوص طريق بورما ، ورتبت خطة عسكرية ينفذها اللواءان يفتاح وهارئيل بقيادة ميكي بغية الالتفاف على اللطرون واسقاطه . . وقد سميت الخطة باسم (يورام) .

هاجمت القوات الاسرائيلية بموجب خطة يورام منطقة اللطرون من الشرق والجنوب ، وكانت القوات المهاجمة بقيادة الجنرال الأمريكي تتعرض لنيران كثيفة من الكتيبتين الثانية والرابعة من الجيش الأردني ، وعند منتصف ليل ٨/ ٩ من حزيران تمكنت الهجمات المعاكسة والشرسة التي شنها الأردنيون من دحر قوات ميكي ، حيث تم تدمير كتيبة كاملة من القوات المهاجمة .

حاول الأردنيون تطوير هجومهم المعاكس باتجاه مستوطنة جيزرفي العاشر من حزيران ، وتمكنوا من الاستيلاء على أجزاء منها ، **إلا أن قرار مجلس الأمن بفرض الهدنة في ١١ حزيران ، حال دون استكمال العملية ، فيما ستسترد قوات اللواء يفتاح المستوطنة بعد سريان وقف القتال** * .

---

* استميح القارئ عذراً للاطالة النسبية الحاصلة في تفاصيل المعارك ، ولكن إذا كانت الحرب هي السياسة بأسلوب آخر ، فإنني أخشى أن كل مشهد من مشاهدها التفصيلية هنا . يكمن خلفه مأرب سياسي مباشر ، فالحرب تدور رحاها على تخوم التقسيم ، وحتى لو نجح أحد الأطراف حربياً بتجاوز خطوط التقسيم ، فإنه سرعان ما يرد على أعقابه ، فالكتيبة قادرة على طرد ألوية ، والألوية غير قادرة على إزاحة كتيبة وكله في مدى التقسيم وترتيباته . .

كانت الهدنة الأولى تقتضي وقفاً للأعمال الحربية لمدة شهر كامل ، على أن تلتزم الأطراف المتحاربة بعدم تحسين المواقع أو تحريك القوات والمعدات أو استبدال بعضها ببعض ، أما تموين المدينة فيتم بقوافل يشرف عليها الصليب الأحمر الدولي ، وكان الوسيط الدولي الكونت برنادوت قد أقام مقره في المدينة .

ستكون هذه القوافل التموينية بمثابة حصان طروادة ، حين راح الاسرائيليون - دون رقابة أو تفتيش - يدفعون بقوافل جرارة ، كانت تبلغ أحياناً زهاء ٢٠٠ سيارة ، من خلال باب الواد الذي هو مفتاح مدينة القدس (**لقد شعرت منذ أن وصلتني أخبار القوافل هذه ، أننا خسرنا معركة القدس سلفاً - عبد الله التل - مذكرات ص ٢١٤**) .

يختصر عبد الله التل قائد القوات الأردنية في منطقة القدس ، ما قام به الاسرائيليون خلال فترة الهدنة الأولى فيقول :-

- أعيد العمل بطريق بورما السري الذي ربط تل أبيب بالقدس ، وكان صاحب فكرته الجنرال لأمريكي ماركوس ، وكان هذا الطريق الذي يشق أوعر منطقة جبلية ، قد أصبح صالحاً لمرور الآليات ، بعد أعمال مضنية ، وكان هذا الطريق يستحق مثل هذا الثمن .
- دأب اليهود دون اهتمام باتفاقية الهدنة ، على تعزيز مراكزهم الدفاعية فحفروا الخنادق ونصبوا الأسلاك الشائكة وبثوا الألغام بالمئات .
- استوردت اسرائيل أنواعاً جديدة من الأسلحة (أمريكا وتشيكوسلوفاكيا) وكانت هذه الأسلحة تشتمل على مدافع حديثة ، وطائرات مقاتلة وقاذفة (مع طياريها) كانت تستخدم في أواخر سنوات الحرب العالمية الثانية .

- أقامت اسرائيل مزيداً من معسكرات التدريب حول عكا وطبريا وتل أبيب ورحوبوت والقدس .
- تم توحيد المجهود الحربي بعد اغراق الباخرة آلتانيا المعبأة بالأسلحة لحساب الأرغون الخاص ،وانصاعت كل من شتيرن والأرغون لأوامر بن غوريون في وضع قواتهما تحت قيادة الهاغاناة ؛ التي باتت تتمتع بضباط جدد أمثال : يادين وآلون ودايان . . .

على الطرف العربي المقابل ، فقد حاولت الدول العربية استثمار فرصة الهدنة بإضافة بعض التعزيزات للجيشين المصري والعراقي ، وقام السوريون واللبنانيون بحفر المزيد من الخنادق ، مع محاولات فاشلة لاستيراد بعض الأسلحة ، أما الأردنيون ، فقد اكتفوا بفتح طريق جديدة بين القدس وبيت لحم ، مع إعادة تنظيم مواقع الدفاع عن كل من اللد والرملة . . .

ويمكن القول كخلاصة ، أن ما فعله العرب لم يكن شيئاً إذا ما قورن بما فعلته اسرائيل أيام فترة الهدنة الثمينة .

وما أن غربت شمس اليوم الأخير من أيام الهدنة (٩ تموز) حتى كانت الخطة الاسرائيلية الجديدة (داني) الهادفة لاحتلال اللد والرملة ، تأخذ طريقها للتنفيذ ، أما هدف الخطة التالي فهو احتلال اللطرون .

تقدمت الألوية الاسرائيلية الثلاثة (٢ مشاة + ١ مدرع) على محور شمال القدس ، وقامت الطائرات الاسرائيلية الحديثة باسناد الهجوم عن طريق غارات مكثفة على اللد والرملة ، فيما كانت كتيبة اسرائيلية إضافية تقوم بالتفاف شمال مطار اللد ، وكان دايان بكتيبته الميكانيكية قد استكمل الإلتفاف هو الآخر حول دير طريف إلى الشمال الشرقي من مدينة اللد ، وقبل استسلامها ، (قامت وحدة مدرعة أردنية بشق طريقها إلى قلب المدينة ،

حيث دارت رحى معارك طاحنة في الشوارع ، وظل القتال يجري من بناية لأخرى ، وبالسلاح الأبيض ، إلى أن تمكن الاسرائيليون من فرض سيطرتهم التامة على المدينة – الحروب العربية – الاسرائيلية ٩٤٧ – ١٩٧٤ – تريفورن دوبوي مركز الدراسات العسكرية – دمشق . ص ١٣١) .

هذا وسيصل اللواء الاسرائيلي الرابع (كرياتي) في اليوم التالي من سقوط اللد (١٢ تموز) إلى الرملة ، التي ستعلن استسلامها دون قتال .

سيعزى سقوط اللد والرملة إلى مؤامرة ، خاصة بعد أن راجت الأقاويل حول اجتماع الملك عبد الله مع بعض القادة الاسرائيليين في رودس . غير أن الحقائق العسكرية كما هي ، أو كما تصفها المصادر الغربية – المحايدة نسبياً – تقول شيئاً آخر ، فالقيادة العسكرية الأردنية التي كان على رأسها جنرال غلوب * ، كانت عالمة باتجاه الضربة الاسرائيلية التالية وهي اللطرون ، ونظراً للأهمية الاستراتيجية ، فقد سحب قوات الجيش الأردني من محيط اللد والرملة ، لتشكيل خط دفاعي متين يسمح بالدفاع عن منطقة اللطرون ، وكانت تقديرات غلوب صحيحة ، ففي الساعة الثالثة من صباح يوم ١٥ تموز ، هاجمت الألوية الثلاثة بفرجة لا تزيد عن ثلاثة كيلومترات (في الوضع الطبيعي تكون الفرج بين ثلاثة ألوية من ٥ – ٧ كم) ، شمال اللطرون وجنوبه الشرقي ، واحتدم القتال الضاري طيلة يومين كاملين ، وبدا واضحاً أن ما كسبه الاسرائيليون في اللد والرملة سيفقدوه في اللطرون ، وهكذا تجنباً لمزيد من الخسائر فقد تراجع الهجوم الاسرائيلي ، مما شجع القوات الأردنية على استرداد بعض القرى التي كانت قد سقطت في أيدي القوات الاسرائيلية من قبل .

سيعود الاسرائيليون قبيل إعلان الهدنة الثانية ، إلى تكثيف عملياتهم القتالية داخل

---

* ينبغي مراجعة التاريخ بدقة ، فهذا الجنرال الذي أصبح من ملاك الجيش الأردني ، كان على غير ود مع اليهود ، وهو ميّال لكراهيتهم ، فضلاً عن أن سمعة جنرال من جنود الأمبراطورية لا يمكن تعريضها هكذا ببساطة .

القدس بهدف احتلال الشطر القديم من المدينة ، وقد دارت رحى معارك تميزت بالعنف داخل المدينة ، لاحتلال بناية مندلبوم . وبالقرب من باب دمشق ، نجح الجيش الأردني بالسيطرة على البنايات المجاورة ، فيما احتفظ الاسرائيليون ببناية مندلبوم ، رغم كثرة الهجمات والهجمات المعاكسة من قبل الطرفين . .

على الجبهة الجنوبية ، فقد تزايد حجم القوة المصرية بحيث بلغت حدود أربعة ألوية وزعت مهامها حسبما يلي : -

- لواء الشريط الساحلي من غزة إلى تخوم المجدل بيد اللواء المواوي .
- لواء المشاة الثاني ومقر قيادته في المجدل بقيادة العميد محمود فهمي .
- لواء المشاة الثالث بقيادة العميد محمد نجيب وقيادته في الفالوجة .
- اللواء الرابع من بيت لحم إلى بئر السبع بقيادة العقيد عبد العزيز .

وضع الاسرائيليون خطة جديدة تحت اسم (آن فار) أي ضد فاروق ، يتم بموجبها طرد المصريين من أسدود وتطهير الطرق المؤدية إلى النقب . ولاحظ المصريون استعدادات الألوية الاسرائيلية جفعاتي والنقب وكتيبة مدرعة يقودها موشي دايان . وقبل ٣٦ ساعة من انتهاء الهدنة الأولى (بداية ٨ تموز) شن لواء العميد محمد نجيب هجوماً ضارياً على موقع كوكبا الذي يدافع عنه القسم الشمالي من لواء النقب الاسرائيلي . وتمكن اللواء المصري من إزاحة الدفاعات الاسرائيلية عن المواقع ، وقد طور الهجوم بحيث استولى المصريون على موقع يتحكم بعقدة الطرق إلى النقب هو (المرتفع ١١٣) .

رد الاسرائيليون بهجوم معاكس تمكنوا من خلاله احتلال قرى عربية ، بيت عفا وعبديس وجزء من عراق سويدان ، وقد قوبل الهجوم بهجوم مضاد من قبل المصريين

حيث اصطدم المقاتلون عند مستوطنة نقبا ، وبعد قتال مرير لم يحرز أي من الطرفين انتصارات تذكر ، وبقي الوضع جامداً طيلة ليل ١٠/ ١١ تموز ، وقد نشب خلاف بين اللواء المواوي والعميد محمد نجيب * بشأن الهجوم على مستوطنة نقبا ، كما أن العميد نجيب لم يوافق على هجوم مستعجل ضد مستوطنة أخرى هي (بيروت يتسحاق) مما كبد المصريين مئتي إصابة أخرى . . .

في هذه الأثناء أُسند للواء جفعاتي واللواء هارئيل مهام الضغط على المصريين جنوب منطقة القدس ، كما أُسند للواء النقب مهمة الهجوم على الفالوجة ، وقد أفلح في البداية في احتلال موقع هام جنوب الفالوجة ، غير أن القوات المصرية في العليقات وكوكبا كانت قد استردت الموقف موقعة خسائر فادحة في وحدة المشاة البحرية التي نزلت لتعزيز موقف لواء النقب حول الفالوجة .

وعند هذا الحد من المعارك ، كانت الهدنة الثانية قد أُعلنت ، ولا ريب أن الجولة المصرية الأولى قبل الهدنة كانت أفضل من الناحيتين الميدانية والمعنوية ، وقد أدت خسارة ستمئة شهيد في معركتي (نقبا وبيروت يتسحاق) إلى هبوط معنويات المقاتلين .

على الجبهة الشمالية ، وبقوة لواء من المشاة تعززه أسلحة الدبابات والمدفعية ، كان السوريون قد أتموا رأس الجسر الدفاعي عن مستعمرة مشمار هايردن ، بالمقابل ، كانت الألوية الخمسة الاسرائيلية (جولاني - كارميلي - اسكندروني - عوديد واللواء السابع) وهي مزيج من المشاة والمدرعات والمدفعية ، قد وضعوا جميعاً للاضطلاع بمهمة الخطة الجديدة (بروش) لاسترداد المستعمرة الصعبة وإزاحة السوريين إلى الشرق منها .

وفي التاسع من تموز عبرت طلائع القوات الاسرائيلية في خطة بروش النهر ، فيما تعثرت الوحدات الخلفية أثناء عبوره ، وقد صب السوريون نيران مدافعهم باتجاه رأس

---

* كان الخلاف عسكرياً محضاً ، ولا نعرف تماماً لماذا أصر اللواء المواوي على مهاجمة المستوطنة التي كان يتجمع فيها حسب استطلاع مسبق ، القوام الرئيسي للواء النقب الاسرائيلي ، كانت وجهة نظر العميد نجيب ، طلب الدعم الكافي من الطيران الحربي المصري مع تمهيد مدفعي طويل . ويبدو أن اللواء المواوي ، قد استعجل الهجوم مما أدى إلى سقوط أكثر من مئتي شهيد مصري .

الهجوم والقوات الخلفية بصورة موفقة ، نجح السوريون بإثارة البلبلة في صفوف القوات المهاجمة ، حين سرت شائعات مفادها أن مستعمرة روشبينا (شمال شرق صفد ٧ كم) ستتعرض لهجوم سوري كبير . .

وفي فجر العاشر من تموز بعد ليلة من الاشتباكات العنيفة ، كان الطيران الحربي السوري يشن هجومه على القوات الاسرائيلية المتراجعة فيما كان لواء المشاة المتمركز حول مشمار هايردن ينتقل إلى الهجوم المعاكس لطرد آخر فلول (الخطة بروش) غرب النهر . .

كانت قوات القاوقجي البالغة زهاء ٢٥٠٠ رجل ، تخطط لهجوم مزدوج : الأول يستهدف مدينة طبريا عن طريق الشجرة والثاني إلى الغرب منه ، يستهدف مدينة عكا بهجوم عرضاني من الشرق إلى الغرب مع الانحراف إلى الشمال ، حيث قاعدة الهجومين : مدينة الناصرة العربية . ولمدة ثلاثة أيام متوالية ، ظل القاوقجي يهاجم على محوري الخطة المقررة طبريا – عكا ، بدعم من المدفعية والطيران السوريين ، إلا أن الحظ لم يكن يحالفه ، وفي تفسير آخر (لا علاقة له بالحظوظ) ، فإن المدينتين اللتين استهدفهما القاوقجي في خطته كانت تعني شمال فلسطين كله ، إذ كانت الخطة طموحة إلى درجة يمكن فيها القول بأنها ربما كانت تستعصي على ما هو أكبر من جيشين نظاميين ، ففي المنطقة حسب اتجاهاتها الجغرافية لواء يفتاح في الشمال ولواء كارميلي إلى الغرب حول عكا ، ولواء جولاني إلى الجنوب عند طبريا ، وكانت هذه الألوية موضوعة كما في الخطة للدفاع عن شمال فلسطين ضد السوريين واللبنانيين معاً ، ولما حانت فرصة الهجوم المعاكس الاسرائيلي ، بالإطمئنان إلى عدم توفر مشاريع هجومية خطيرة لدى الجيشين السوري واللبناني ، شنت وحدة منتقاة من الألوية الثلاثة هجوماً مشتركاً أدى إلى تطويق الناصرة من الشمال والغرب والجنوب ، وقد ترك الاسرائيليون مخرج المدينة الشرقي

مفتوحاً ، ليتم الإعلان عن سقوط المدينة وخروج ما تبقى من قوات الانقاذ مع غياب شمس السادس عشر من تموز .

ودخلت الهدنة الثانية الساعة السابعة من يوم الثامن عشر من تموز حيز التنفيذ ، وبذلك تكون الصفحة الثانية من حرب فلسطين قد طويت عند حدود التقسيم مع نتوءات هنا وهناك سيتم تشذيبها فيما بعد .

حمل قرار الأمم المتحدة بخصوص الهدنة الثانية موعد بداية إلا أنه لم يحمل موعد نهاية ، وظل هكذا مفتوحاً ، إلى أن أخذت الخطة (يوآب) حيز التنفيذ في الجبهة الجنوبية ضد المصريين فجر الخامس عشر من تشرين الأول ، وافتتحت الألوية (يفتاح – جفعاتي – البالماخ) الخطّة بالهجوم جنوباً بهدف اختراق المواقع المصرية وقطع الطريق الواصلة بين عراق المنشية وبيت جبرين .

كان الجنرال آلون الذي يقود الخطة يرمي إلى رفع العزلة عن مستوطنات النقب (٢٣ مستوطنة كانت واقعة في طوق ضربه الجيش المصري حولها) ، وقطع الطريق بين المجدل وبيت جبرين على أن تبدأ الخطة بمهاجمة القوات المصرية عبر بئر السبع وغزة .

وعندما شنت مغاوير البالماخ هجومها الأول على عراق المنشية ، تكبدت خسائر فادحة نتيجة تصميم الدفاع المصري على الاستماتة ، وقيل إن الخسائر الاسرائيلية في معركة عراق المنشية كانت جسيمة بحيث لم تكف ليلة بطولها لنقل القتلى والجرحى . .

نتيجة للخسائر الباهظة التي مُني بها الهجوم الأول ، فقد قرر آلون الابتعاد عن عراق المنشية والتركيز على المواقع الشمالية والغربية ، وقد لاحت بوادر الإنهيار المصري حين تمكن اللواءان (جفعاتي ويفتاح) من احتلال المرتفعات المشرفة على عقدة تقاطع الطرق إلى النقب ، وتطويق موقع العليقات الذي ظل صامداً حتى تلك اللحظة .

في الأثناء نفسه ، كان الجهد الرئيسي لقوات اللواء يفتاح قد نجحت في قطع الطريق الساحلية عند بيت حانون ، واضطر المصريون عن طريق تبادلية إلى الإنسحاب من أسدود والمجدل ، وهكذا بقي أكثر من ٤٠٠٠ جندي مصري معزولاً بين عراق المنشية ومنطقة الفالوجة ، في حين كان العقيد السوداني (السيد طه) هو قائد القوات المحاصرة هناك .

استقدم آلون لواءً إضافياً كان في الشمال هو اللواء (عوديد)* ، وكان هدفه استكمال الطوق حول الفالوجة ، وبعد أربعة أيام بلياليها ، سقط موقع العليقات الاستراتيجي في يد الاسرائيليين .

لقد نجح الاسرائيليون في فتح طريق آمن لتحركهم نحو النقب ، رغم فشلهم في اسقاط قلعة عراق سويدان المحصنة ذات الأهمية الثانوية على محور النقب المذكور .

ومن أجل استكمال الخطة يوآب ، فقد اتجهت القوات الاسرائيلية جنوباً إلى بئر السبع ، حيث العقدة الأخيرة لشطر القوات المصرية ما بين الداخل (الخليل والقدس) والساحل (غزة ورفح) . .

بين ١٧ إلى ٢١ تشرين الأول حيث دارت العمليات على الجبهة الجنوبية ، آل الوضع

---

* أصبحت جل الألوية الاسرائيلية في جبهة الجنوب ، فقد كان الوضع العربي عند هذا التاريخ (أيلول وتشرين الأول من العام ٩٤٨) في ذروة الأزمة مما أوصل الوضع على جبهات القتال إلى قاع الحضيض ، فالملك عبد الله كان يدعو إلى عدم استئناف القتال وقبول مشروع برنادوت لتقسيم خاص حول تقابل القوى المتحاربة وموقف الدول الكبرى من الأزمة ، وكان العراق مسايراً للنظرة الأردنية ، وكانت هزيمة القاوقجي في الناصرة قد ضربت المعنويات في الجبهة الشمالية ، وكانت القوات الاسرائيلية قد وصلت إلى ضعفي عدد الجيوش العربية في فلسطين فضلاً عن معظم الأسلحة الحديثة مع أطقم المدربين الغربيين . . .

كان العرب في هذه المرحلة ، يقاتلون ويقتتلون ، وكانت اسرائيل تقاتل على جبهة واحدة فقط هي الجبهة المصرية .

إلى تقسيم القوات المصرية إلى أربعة أقسام منعزلة : قوة مصرية معزولة شمال المجدل وأسدود على الساحل ، وقوة أخرى في منطقة رفح - غزة على الشريط الساحلي أيضاً ، وقوة معزولة ومحاصرة في منطقة الفالوجا ، ثم قوة العقيد عبد العزيز التي بقيت في منطقة الخليل - القدس .

أدت هذه الكارثة إلى تنحية اللواء المواوي (علماً بأنه كان قد تنبأ بها حين طالب القيادة المصرية بارسال المزيد من القوات ، لتغطية هذه المساحة الشاسعة)* أو بتعزيز الجبهة الداخلية بسحب جزء من قوات الساحل إلى صحراء النقب ، وكانت القيادة المصرية تجابه طلبات اللواء المواوي بالرفض . .

لقد جاء اللواء أحمد فؤاد صادق (بديل المواوي) ليجد برفقة صديقه العميد محمد نجيب ، مهمة عسيرة ، بل مستعصية على أي منطق عسكري ، والخلاصة ، أنه لم يجد الكثير أمامه ليفعله .

في الجبهة الوسطى على واجهتي الجيشين الأردني والعراقي ، لم يعد ما يمكن عمله سوى اللقاءات السلمية بين العقيد موشي دايان والعقيد عبد الله التل ، وقد وافق العقيدان يوم ٣٠ من تشرين الثاني ، على وضع اللمسات الأخيرة لاتفاقية صارمة لوقف اطلاق النار ، وبعد يوم واحد كان قد تم تنصيب عبد الله ملكاً على الأردن وفلسطين .

في الجبهة الشمالية ، لم يكن غير القاوقجي يريد استثمار الفرصة التي هيأها له سحب الألوية الاسرائيلية إلى الجبهة الجنوبية ، ولما كان القاوقجي وقاعدة انطلاقه في لبنان ، فإنه أصر على السباحة حتى بيدين موثقتين ، وسيتمكن القاوقجي في النهاية من تشكيل أربعة ألوية ، هي في الحقيقة أربعة كتائب ، وكان هدفه مستوطنة المنارة شرقي بحيرة الحولة التي جففتها اسرائيل فيما بعد . .

---

* أكثر من أربعين ألف اسرائيلي زجوا بمعركة الجنوب ، وكان عديد القوات المصرية لم يصل إلى خمسة عشر ألفاً ، هذا فضلاً عن الفارق النوعي في السلاح والخبرة ، والحقيقة أنه في آخر أيام الحرب الفلسطينية الأولى - وبعد الهدنة الثانية - لم يكن سوى الجيش المصري يقاتل وحيداً ومكشوفاً . فيما وصلت الضغائن العربية أو (الأعرابية) إلى حد التمنيات بهزيمة الجيش المصري . يريدون رأس فاروق بمصر كلها . . .

وضعت اسرائيل خطتها (حيرام) ذات الأهداف الثلاثة :

اخراج لبنان من المعركة نهائياً ، القضاء على جيش القاوقجي ، ثم إحكام السيطرة على منطقة الجليل الأعلى . .

وكانت الخطة قابلة للنجاح بيسر ، بعد نتائج القتال على الجبهة الجنوبية ، وهكذا تم إعادة اللواء عوديد من الجنوب لينضم بموجب الخطّة إلى اللواء جولاني واللواء كارميلي .

كانت مهمة اللواء جولاني مشاغلة العراقيين في الجنوب خشية تسرب قوات عراقية من المرتفعات المشرفة على الأغوار جنوب بحيرة طبريا . وكانت مهمة اللواء عوديد التحرك من الغرب انطلاقاً من نهاريا عبر ترشيحا ، أما اللواء كارميلي فمهمته التحرك إلى سعسع اللبنانية للالتقاء باللواء عوديد هناك . .

وكانت القوات الجوية الاسرائيلية على استعداد لتلقي ساعة صفر الهجوم ، وفي إثر التحرك العسكري الاسرائيلي ، نجح القاوقجي في سحب أرتاله باتجاه الشمال عن طريق عكا - صفد . ومع اندلاع القتال والقصف الجوي ، تحرك اللواء كارميلي باتجاه قرية ميرون ، ثم الصفصاف حيث تم التغلب على قوات جيش الإنقاذ المدافعة ، ومن هناك جرى التحوّل غرباً باتجاه سعسع اللبنانية ، حيث تتحكم بعقدة الطرق بين فلسطين ولبنان .

من جهة أخرى ، تابع اللواء عوديد تقدمه إلى سعسع واستولى على ترشيحا بعد قصف عنيف لا مبرر له - حيث كان السكان قد أخلوها - وفي ٢٩ من تشرين الأول التقى اللواءان الاسرائيليان في سعسع ثم اتجها إلى الشمال الشرقي لاحتلال قرية الصالحية ثم المالكية ، وقد حاولت القوات الاسرائيلية المتقدمة استرداد مستعمرة مشمار هايردن بعد قصف عنيف ، إلا أن القوات السورية المدافعة أحبطت الهجوم ، ولم يجازف (اللواء كارميل) قائد الحملة باعادة الكرة ضد مشمار هايردن من جديد .

ومع نهاية شهر تشرين الأول ، تكون القوات الاسرائيلية قد تمكنت من تحقيق خطة حيرام بالكامل ، حيث تم القضاء على قوات جيش الانقاذ بانسحابها وتشتيتها ، كما تم تأمين السيطرة على الجزء الأعلى من الجليل ، وأخرج لبنان من المعركة عسكرياً بعد أن تم احتلال الشريط اللبناني بين الليطاني والمالكية .

في عمليات النقب الجنوبي ، فقد هاجم اللواء الثامن الاسرائيلي في التاسع من تشرين الثاني آخر حصن للمصريين في عراق سويدان وتمكن من الاستيلاء عليه ، وأدى ذلك إلى استكمال الطوق المضروب حول عراق المنشية - الفالوجة ، وقد حاولت القيادة المصرية بواسطة الأمم المتحدة الحصول على موافقة لامداد القوات المحاصرة بالمؤن ، إلا أن اسرائيل رفضت هذا الطلب .

ولم يعد أمام المصريين إلا التحرك للقتال من جديد ، فرغم اجتماعات مجلس الجامعة العربية في العاشر من شهر تشرين الثاني ، إلا أن الشجار لم يكن يترك للوضع مخرجاً ، وكانت القيمة العملية لهذا الاجتماع هو موافقة كل من الأردن وسوريا على وقف القتال ريثما يتم استدراك أوضاع الجيوش ، وتلقّت مصر توصية من الأمم المتحدة بالدخول في مفاوضات هدنة جديدة ، إلا أن مصر تجاهلت الطلب .

اتخذ القائد المصري الجديد اللواء صادق قراراته القاضية بتقصير خطوط مواصلات الجيش ما أمكن ، فأعاد تجميع القوات المتواجدة في أسدود والمجدل كلها في منطقة غزة - رفح ، وبتاريخ ١٩ تشرين الثاني تحركت قافلة مصرية من منطقة غزة - خان يونس لتعزيز قوات الفالوجة في الجنوب ، إلا أنها لم تتمكن من الوصول .

في الثاني والعشرين من كانون الأول ، أبلغت اسرائيل الأمم المتحدة بأنها حُرّة في اتخاذ أية مبادرات هجومية ضد القوات المصرية ، طالما أن مصر ترفض المفاوضات بشأن

الهدنة . . وهكذا قامت طائرات اسرائيلية بقصف مكثف لتجمعات المصريين في غزة وخان يونس ورفح ، ثم توجه لواء جولاني لقطع الطريق الساحلي بين غزة ورفح ، ورد العميد محمد نجيب قائد المنطقة هناك بارسال رتل مدرع حيث تم التصادم طوال يوم ٢٣ من كانون الأول ، وجرح العميد نجيب في هذه المعركة جرحاً بليغاً . . إلا أن الاسرائيليين كانوا قد ردوا على أعقابهم .

ونتيجة لفشل الهجوم على هذه المحاور ، قرر آلون بتذكير من يادين نائب رئيس الأركان العامة ، باتباع الطريق الروماني القديم بين بئر السبع والعوجا ، إلا أن الأمطار الشديدة كانت قد أغرقت الطريق المقصود . .

في السابع والعشرين من الشهر نفسه ، هاجمت قوات اسرائيلية محيط العوجا ولم تفلح ، وفي الثامن والعشرين أعادت الهجوم بقوات إضافية مع قصف مدفعي وجوي شديدين ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح هي الأخرى . .

مساء اليوم نفسه ، تلقى قائد حامية العوجا أمراً باللاسلكي يتم بموجبه الانسحاب بهدوء من العوجا ، ودخلت القوات الاسرائيلية المنطقة الخالية دون مقاومة في اليوم التالي .

تقدمت ألوية آلون بعد سقوط العوجا داخل الصحراء على طريق أبو عجيلة ، وبعد معركة غير متكافئة مع حامية الموقع ، انتقلت الأرتال الاسرائيلية نحو القسيمة وبئر حَسَنة ، وانفصلت بعض الأرتال لتتجه إلى الشمال الغربي نحو العريش ، ومع هبوط الليل وصلت القوات الاسرائيلية إلى مشارف العريش ، إلا أنها فشلت في اختراق المواقع الدفاعية المصرية ، فيما تم تثبيتها عند تلك المشارف ، وطبقاً للمعاهدة البريطانية - المصرية فقد أنذرت بريطانيا الاسرائيليين بضرورة الانسحاب من سيناء تماماً . وعندما تجاهلت

الحكومة الاسرائيلية هذا الانذار ، شنت خمس طائرات من السلاح الجوي الملكي البريطاني منطلقة من قواعدها في السويس ، هجوماً على الأهداف الأرضية الاسرائيلية . إلا أن الدفاعات الأرضية الاسرائيلية أسقطت جميع الطائرات البريطانية ، ولم تقبل الحكومة البريطانية بهذه النتيجة ، فوجهت إنذاراً آخر - بعد تعزيز قواتها في منطقة العقبة - يقضي بالإنسحاب الفوري من سيناء ، واستجابت الحكومة الاسرائيلية للانذار الآخر .

في عمق النقب ، بموجب خطة (أوفدا) سيشق اللواءان جولاني والنقب ، طريقهما نحو خليج العقبة (أم رشراش) وهو (ايلات) لدى الاسرائيليين ، حيث في السابع من آذار ١٩٤٩ ، تكون اسرائيل قد احتلت النقب بكامله ، مع إطلالة على البحر الأحمر من إيلات .

قبل معارك النقب الجنوبي بأسابيع ، كانت تجري مفاوضات الهدنة في المنطقة مع الوسيط رالف بانش ، وقد وافقت مصر على الهدنة يوم ٢٤ شباط ١٩٤٩ حيث يساير خط وقف إطلاق النار الحدود الفلسطينية - المصرية قبل اندلاع الحرب ، مع الاحتفاظ بقطاع غزة وفك الطوق عن قوات الفالوجة المحاصرة * .

وقّع اللبنانيون اتفاقية الهدنة يوم ٢٣ من آذار . ثم لحقهم الأردنيون في الثالث من نيسان بعد مباحثات سابقة ضمت الملك عبد الله وموشيه شاريت (وزير الخارجية) وموشي دايان ، وقد خلص الاجتماع إلى اتفاق يقضي : -

* صحيح أن مصر كانت أول من وقّع على اتفاقية الهدنة ، ولكنها كانت آخر مَنْ أوقف القتال فعلاً ، فقد كانت المدافع العربية صامتة على جبهات القتال الأخرى مع انتهاء أمد الهدنة الثانية ، ولم يكن ثمة جولات عسكرية تستأثر الاهتمام سوى الجبهة الجنوبية ، حيث توجهت اسرائيل بمعظم قواتها إلى الجنوب . ومهما كان السبب ، فإن اسرائيل تعلمت درساً نموذجياً في القتال على جبهة واحدة . فاستفراد الجبهات أصبح تقليداً حربياً لدى اسرائيل ، ولم ينجح العرب - سوى في بدايات معركة تشرين فقط - في إجبار الاسرائيليين على القتال في أكثر من جبهة ، وعندما حدث ذلك كان دايان يصرخ : إلى بارليف ثم يعود ثانية للصراخ : إلى دغانيا ، دغانيا أهم ، لكن صراخ دايان لم يدم طويلاً ، حيث أطال السادات وقفته عند بارليف ، فيما تقول الوقائع أن يوم ١٥ تشرين حيث شهدت سيناء أعظم معارك الدبابات في التاريخ شكل منعطفاً حاسماً لوجهة الحرب كلها ...

- بالإشراف الأردني على المناطق التي تسيطر عليها القوات العراقية طالما أن العراق يرفض توقيع الهدنة .
- قبول الأردن بضم النقب إلى اسرائيل ، حسب حدود فلسطين أيام الانتداب البريطاني.
- الوصول إلى اتفاق يرضي جميع الطوائف في مدينة القدس ومحيطها .

بالعودة إلى السوريين ، فقد وقّعوا اتفاقية الهدنة يوم ٢٠ تموز من العام ١٩٤٩ ، على أن تكون الأراضي الفلسطينية - حسب الانتداب - والتي سيطر عليها السوريون مجردة من السلاح ، كما يسمح للجانبين من العرب واليهود باستثمار أراضيهم في المناطق المجردة ، تحت إشراف الأمم المتحدة وعن طريق لجان الهدنة المشتركة (ضباط من الطرفين) كما تم اعتبار منتصفات سطوح المياه هي خط الهدنة المائي .

في جميع اتفاقيات الهدنة (العربية - الاسرائيلية) التي جاءت كسير القتال ، بين متقدم ومتأخر ، فقد تم الاتفاق على تبادل الأسرى ، وبالفعل فقد جرى تبادل جميع الأسرى ، باستثناء أسير واحد ، هو فلسطين ، حيث سيجد هذا الأسير نفسه داخلاً في (قميص عثمان) الفلسطيني ، حين كانت نوائب الانقلابات العسكرية* ، تدق أبواب السياسة ، ثم تدخل دون استئذان .

---

* تمسك الانقلابيون الجدد ، باتهام خطير وسهل بآن واحد ، فالخيانة مثلاً ، تريح من الوقوف على الحقائق العميقة لضياع فلسطين ، ولم تكن المسألة بمثل هذا التبسيط المريح ، وها هو عبد الناصر يقول: لقد فاجأني الواقع تماماً ، كنا نظن أن المسألة منتهية بدك سور الطغيان والمؤامرة ، وكم فجعت حين رأيت الصورة على هذه الدرجة من القتامة ، لم ينته شيء بعد .. بل لعلّه لم يبدأ ! . .

– الفصل الثالث –

العسكريون قادمون

اولاً / عاصفة على السفينة سوريا - من الزعيم* إلى الشيشكلي

.. بدت الصورة يومها قاتمة مخيفة ، أحسست وقلبي تقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته ، بل إنها بدأت منذ الساعة..

كنا في حاجة إلى نظام فلم نجد إلا الفوضى ، والاتحاد فلم نجد سوى التفكك ، والعمل ولم نجد إلا الخنوع والتكاسل ...

فلسفة الثورة – عبد الناصر.

سيكون للدفعة المتخرجة عام ١٩٤٦/ ١٩٤٧ من الكلية العسكرية في حمص ، أهمية خاصة ، فقد ضمّت الجيل الأول من الضباط الوطنيين الذين انصاعوا إلى آبائهم العسكريين في الانهماك بتحويل جيش الشرق القديم ، أيام الانتداب ، إلى جيش وطني..

كانت حمص وهي منتصف سوريا والقريبة من مدينة حماة ، موطناً لتجمّع الشباب اليافع الذي قرر أن يرهن مصيره بمصير القوات المسلحة ، وغير الأسباب المعيشية التي كانت تضغط على حياة الريف ، فإن أسباباً وطنية وعلى درجة من الوعي كانت تمثل دافعاً إضافياً ، وقد شهدت الكلية العسكرية في حمص ، تخريج العديد من الدورات من أبناء المدن والريف على حد سواء .

---

* باستثناء المشهد الضاحك الباكي لبيان الزعيم عن مبرراته الداخلية لانقلابه العسكري ، فإن مصفحات الزعيم التي قادها الشيشكلي كانت قد تسربت من أنابيب نفط التابلاين . ثم من أنابيب شركة نفط العراق البريطانية ، كانت سياسة توازن عالمية . أمريكا ثم بريطانيا ، ولكن الدفعة الأولى كانت قد جاءت من الولايات المتحدة برضى فرنسا .

كان الجيش هو قوة التغيير الأولى ، وكانت الأحزاب السياسية الجديدة هي القوة الثانية (السوريون القوميون ، البعث العربي الاشتراكي) ، وكان من المفترض أن تكون الثانية هي عقل الأولى المدبّر * .

كانت ظروف المنطقة ، الهلال الخصيب كله مع مصر ، تدفع بشكل يومي للمشاركات السياسية الفعلية ، فعندما كانت فلسطين تودع ثورتها الوطنية الكبرى ١٩٣٩ ، نشبت في العراق ثورة كان رشيد عالي الكيلاني قد أجج لهيبها ضد الانكليز .

وفي ١٩٤١ موعد الثورة الكيلانية - الحسينية (نسبة إلى الحاج أمين الحسيني واضع أفكار العصيان الأول) كانت سوريا ولبنان وفلسطين ، تسارع إلى نجدة العسكريين الذين صمموا على التخلص من الاستعمار البريطاني ، وما آل إليه العراق على صعيد الوضع والحكم معاً .

كان أكرم الحوراني ، الشخصية التي ستلمع في سماء سوريا السياسي ، قد أوثق الصلة ، مع شبان (حزب الشباب) وكلية حمص العسكرية ، وفي العام ١٩٣٩ كان الحوراني قد تسلّم عملياً قيادة حزب الشباب أو حركة الشباب ، حيث كان ابن عمه (عثمان الحوراني) أول من أرسى دعائمها من قبل ، وقد رأى الحوراني في الحزب السوري القومي ، محارباً قوياً ضد الفرنسيين ، فقرر أن يربط المنظمة الوليدة بهذا الحزب ، وسيكون لمرحلة انضمام الحوراني - وتشكيله - إلى السوري القومي ، أقاويل شتى ، لكن الحكم المنطقي ، يمكن أن يخرج من خلال معرفتنا اللاحقة بهذه الشخصية التي لا تكل من العمل * .

---

* لسبب ما ، ربما يتعلق بالاختلاف بين حياة الجيش ، نظام ، طاعة ، تدريب (وفي سوريا سياسة أيضاً) وحياة الأحزاب المدنية ، حرية الفرد ، أفكاره ، تكويناته . انتماءاته الاجتماعية ، ريف ، مدينة ، عائلة ، طائفة ، وأمزجته أحياناً أو ولعه بهذا القائد دون ذاك ، وثقافاته الفردية . . . الخ ، لهذا السبب وسواه ، كان الجيش يجد نفسه في غنى عن عقله السياسي المدبر ، فيقتحم الساحة (بعد أن يتوكل على الله ! . .).

* أنا مؤلف هذا الكتاب ، انتسبت إلى حزب البعث أواخر الخمسينات وقبل الوحدة بقليل . عن طريق أصدقائي الحمويين في جامعة دمشق ، وكان الدافع الحقيقي هو وقوف أكرم الحوراني إلى جانب القضية الفلسطينية بقوة لا توصف ، هذا فضلاً عن إقراره مرسوماً يقضي بمعاملة الفلسطينيين كالسوريين تماماً في مجلس النواب .

فالحوراني بادئ ذي بدء ، رجل عمل يومي ، أكثر مما هو رجل اعجاب بالنظريات ، وقد وجد في تشكيلات السوري القومي المنظمة ، ما طابق هواه ، سواء في التشكيلات الرياضية والاجتماعية الأخرى ، أو في التشكيلات السرية شبه المسلحة . .

لم يجد الحوراني صعوبة في إقناع لفيف من صغار الشبان والعسكريين ليصحبهم إلى بغداد ، من أجل نجدة الثورة الكيلانية في العراق ، وقد ظل فعلاً مع أصدقائه الوطنيين من العسكريين والمدنيين ، حتى الأيام الأخيرة من فشل ثورة الكيلاني ، وعاد إلى سوريا ، كما سيعود من فلسطين ، حاملاً خزّان كآبة لا ينضب .

كان شديد التوتر عند إيابه من العراق ، وقد وجد في السوريين القوميين - محاربي فرنسا الأشداء - ضالته لاستئناف العمل . . تمكن من اقتحام قلعة حماة - مع رفاقه السوريين القوميين ، وكان بصحبته أديب الشيشكلي وأخيه صلاح ، وعندما سقطت القلعة في أيدي الشباب الوطني ، وتم طرد الحامية الفرنسية من القلعة ومحيطها (عام ١٩٤٤) بدأ نجم الحوراني الصاعد ، ينير الأمل في سماء سوريا .

كانت خطته الأولى ، اسقاط واقع الظلم الذي شهده وضع الفلاحين في سوريا ، خلال سنوات الجور العثمانية والاقطاعية العربية بعدها .

وكان ملخصه السياسي : الحريّة ثم التحرير . . وكان يرى الحرية في تخليص الفلاحين والمظلومين من قوانين جائرة عفى عليها زمن الأمم المتطورة . .

وهكذا صار الحوراني سياسياً مستقلاً ، وقد افترق عن السوريين القوميين لعلّة اجتماعية سرعان ما انقلبت إلى دوافع بعيدة المدى* ، ثم جاءت القومية العربية لتفرقه عن إطار تعيينات إقليمية محددة ، وقد رأى في انقلاب الزعيم ما شجّعه بالالتحاق بهدف التبديل المأمول .

---

* كان السوري القومي ، شأنه شأن أي حزب قومي ، معادياً لنظرية الطبقات ، أو الصراع الطبقي ، وكان ينشر في نظرته الاجتماعية طريق العمل المقدّس ، على أن يعيش ما فوق وما تحت في ظل الكرامة والوئام . لا صراع في طبقات الأمة السورية .

لقد أنتج تحالف الحوراني مع عفلق والبيطار فيما بعد ، أكبر قوة ديناميكية في الحياة السياسية السورية ، وأثناء العدوان الفرنسي على المجلس النيابي السوري ١٩ ، لعب التحالف البعثي الاشتراكي الجديد ، دوراً فعّالاً في مناشدة الضباط العرب ، الهرب من القوات الخاصة (جيش فرنسا العربي) والالتحاق بالثوار في جميع المحافظات . .

كانت نظرة الحوراني للتبديل الاجتماعي ، تخالف نظرة عفلق لها ، ففي حين أن الأول ، كان يعمل لحركة تدفع بقوانين التاريخ عن طريق قوة ذاتية ، كان الثاني يرى في موضوعية قوانين التاريخ ، ما يجعلها أقل استجابة (للذات) في مراحل التاريخ المتعاقبة . .

كان استثناء لينين شاذاً في فكر ابن السوربون الماركسي . .

وكان مثلاً يحتذى في عيون خريج جامعة دمشق الحموي . .

كان الأول يريد قوة الحاضر بمن حضر . .

وكان الثاني يأمل بثورة هي وليدة التاريخ وليس توليده . .

كان الإثنان حتى هذا الوقت في حالة تصالح مع الأداة : السلطة التشريعية دون دماء . .

ولكن هذه السلطة يمكن أن تُحمل على عربة أسرع ، إذا كانت المفارقة مع الوعي الشعبي الهابط هبوط الظلام في السديم ، ولو أن هذه العربة ستحمل سلاحاً لعنف موقت . .

وبدأ الخلاف ثانية من جديد ، ابتدأ على الهدف لينتهي إلى الأسلوب ، ولم يكن ذلك مدهشاً ، فبين ابن السوربون الهادئ الحادب على نهل الثقافة من منابعها ، وبين ابن

ينابيع العاصي المتوتر من (جنود السوربون) حتى رعشة الأصابع ، بون شاسع ، وسيظهر هذا البون مأساوياً ، حين سيضطر البعث في مؤتمره القومي الخامس (حمص) إلى التنصل من العربي الاشتراكي في معركة قاسية اسمها : الوحدة والإنفصال .

. . .

سنعود إلى الزعيم * الذي أعلن بلاغه الأول في الثلاثين من آذار ١٩٤٩ حيث نصت الديباجة (كما ستدبج بلاغات العسكريين فيما بعد) على الوضع المخزي الذي وصلت إليه البلاد ، والإهانة التي لحقت بالقوات المسلحة في حرب فلسطين ، كما وعد البيان بتأليف حكومة قومية ديمقراطية ، تنقذ البلاد من أهوال الأوضاع الماضية . . . الخ .

بعدها صدرت سلسلة من البلاغات حتى الرقم التاسع ، وبين كل بلاغ وبلاغ ، كان الزعيم يرسل ببعض المجرمين ، ممن استحقوا حكم الإعدام أيام الرئيس القوتلي (لم يكن القوتلي يوقع على هذه الأحكام ، بل يكتفي بالحكم المؤبد) إلى ساحة المرجة لينفذ فيهم أحكام القانون في حملة استعراضية لإخافة الشعب . .

كان الوضع الداخلي في سوريا ، كما سنكتشف فيما بعد ، أقل سوءاً من أن ينقذه شخص كالزعيم المولع بمعاقرة الخمرة وحب النساء ولعب القمار . . .

ولكن الشعب الذي لا يستطيع أن يضرب برمل المستقبل ، وجد في الحركة الانقلابية ما يبعث على الأمل والتأييد ، خاصة وأن صدمة فلسطين ، مع أوضاع الفوضى والتسيب، التي آلت إليها الحركة الوطنية في سوريا ، والعديد من حوادث الفساد التي بدأت تظهر للعلن ، فضلاً عن العائلية والمحسوبية الشخصية (هذا من شيعته وهذا من عدوّه) . . كل ذلك وغيره أدى إلي ظهور الموقف الشعبي بمظهر المؤيد للانقلاب ، وحيث أن الفاصل بين عفوية الشعب ووعي الأحزاب السياسية كان ضيقاً ، فإن الأحزاب نفسها

---

* ثمة حادثة طريفه قبل وقوع الإنقلاب ، فقد اكتشفت القيادة السياسية (القوتلي وخالد العظم رئيس الوزراء) أثناء زيارة لخطوط الجبهة ، تلاعباً في تموين الجيش ، وكانت قصة السمن المغشوش، هي مقدمة هذا الاكتشاف ، وستجر الفضيحة صديق الزعيم البستاني وهو ضابط التموين في الجيش ، وثمة روايات تضع الزعيم في موضع الشريك في هذا التلاعب .
(باتريك سيل ، وليد المعلم ، هاني الخير وآخرون) . . .

قامت بتأييد الزعيم تحت أمل الاصلاحات الديمقراطية المنشودة . .

غير أن حزب الشعب (الحلبي) ظل على مسافة من هذا التأييد ، ورغم أن الزعيم قد ولد في حلب (العام ١٨٨٩) ، فقد استشعر حزب الشعب المؤيد لوحدة مع العراق ، أن رائحة الأمريكيين النفطية مع إيماءة فرنسية بالقبول ، كانت تنبعث من قرقعة سلاسل الدبابات التي حركها الزعيم نحو دمشق .

كان ترداد إهانة الجيش* ، تجري متصاعدة في أروقة الأركان السورية التي رئسها الزعيم حين وقوع انقلابه ، وكانت قصة (السمن المغشوش) التي ضخّمها الزعيم على أنها إهانة لجميع ضباط الجيش ، قد أخذت بالانتشار ، مما ساعد على التسريع قبل مثول الزعيم وصديقه البستاني أمام محكمة عسكرية . .

لم يكن الحوراني وراء الانقلاب ، غير أن بهيج الكلاس نائب الزعيم في القيادة ، وأديب الشيشكلي الذي قاد الانقلاب ميدانياً إلى دمشق ، كانا من أقرب الضباط للحوراني ، وهكذا تم إلقاء القبض على رئيس الجمهورية (القوتلي) ورئيس وزارته (العظم) وأودعا سجن المزة العسكري . .

ويقول باتريك سيل في كتابه الصراع على سوريا - دار طلاس صفحة ٧٠ :

(لقد مضى العهد القديم غير مأسوف عليه ، وكان قائماً على رجال اكتسبوا الخبرة السياسية من خلال مقاومة الانتداب ومقارعته ، فهم ليسوا بالخونة * ، كما أطلق عليهم خلفاؤهم أحياناً ، لكن الظروف لم تسعفهم لتعلّم بناء الدولة ، لقد حرمهم الفرنسيون من

---

* كان فيصل العسلي نائب الزبداني في البرلمان ، ما فتئ يكيل للزعيم وبعض العسكريين كيلاً طافحاً بالتقصير في حرب فلسطين ، وكانت القيادة العسكرية تلقي باللوم على عاتق القيادة المدنية التي لم تؤهل الجيش وتمده بما يلزم من أجل دخول الحرب .

تحت غطاء فلسطين تبين أن فيصل العسلي كان قد طلب إلى الزعيم نقل أحد أعوانه أو أقربائه من وحدة عسكرية لأخرى ورفض الزعيم الطلب ! . .

* ظل هذا الاتهام طائراً عشرات السنين بعد سقوط فلسطين ، وفيه تم تغييب الوقوف على الأسباب الموضوعية والذاتية للسقوط ، فما هو موضوعي انقلب إلى ذاتي محض ، فالخيانة شملت الجميع دون استثناء أو تدقيق ، وقد خشي حتى عامل الفرن من الاتهام في حينه ! . .

التمرس في شؤون الحكومة ، وتقاسمت كتلتهم الوطنية سلطة الاستقلال بالأسلوب التقليدي مع إدراك وفهم لما تعطيه حكومة نيابية شعبية الأسس) .

كان الزعيم ، ضابط الجيش العثماني الذي حارب الحلفاء ، وضابط الجيش الفيصلي الذي حارب العثمانيين ، وضابط الجيش السوري الذي حارب الاسرائيليين ، يعرف مفاهيم عسكرية أقرب ما تكون إلى البدهية الاستراتيجية ، قوة الصديق وقوة الخصم ، وطالما أن صديق سوريا هو جوارها ، فكان لا بد من التعامل مع هذا الجوار بصورة تكتيكية مدروسة ، كان يعرف شيئاً سياسياً بالغ الأهمية ، بستان سوريا التي تريد (النواطير) أن تأكله من جانبيه ، العراق والأردن من جانب ، والسعودية ومصر من جانب نقيض آخر (هكذا كان يُنظر لمسألة الوحدة الحقيقية . . مَنْ يأكل مَنْ ! . .) .

وهكذا قرر القائد العسكري أن يستعرض جبهة الأصدقاء من جانبها الشرقي فبدأ بالعراق ، أو لعل العراق هو الذي بدأ به . . فما أن ترددت أصداء الانقلاب السوري* ، حتى سارع العراق بارسال مندوبيه في اليوم التالي (٣١ آذار) وكان المندوبان هما : وزير الخارجية بابان ورئيس اللجنة العراقية لمفاوضات الهدنة الفلسطينية عوني الخالدي ، ولما كان العامل الحاسم في ذهن الزعيم ، هو مسألة الاعتراف بشرعية انقلابه ، فقد استعجل خطوات تشكيل وزارة داخلية يرأسها رئيس مجلس النواب السوري فارس الخوري ، كما استعجل نشاطاً تحالفياً مع العراق .

بالنسبة للسياسة الخارجية فقد أنبأ الزعيم مندوبي العراق ، بأنه أعلم كلاً من أمريكا وبريطانيا استعداده للتوصل إلى اتفاقيات والإفادة من مشروع (مارشال) الأوروبي بعد الحرب الثانية .

---

* رنت أصداء الانقلاب في العالم العربي كناقوس خطر ، وكانت جميع الدول العربية (خاصة محور مصر - السعودية ومحور بغداد - عمان) تريد أن تعرف تماماً مَنْ يقف وراء الزعيم . وإلى أين سيسير ؟
ودارت خلال أربعة شهور ونصف - هي حكم الزعيم - رحى معارك يائسة لاجتذاب سوريا إلى المحورين المتنابذين . .
ولم يكن ثمة إيماءات خارجية حاسمة ، ففوضى الانتقال من الحقبة الاستعمارية الانكليزية إلى الحقبة الأمريكية ، كانت تجعل الموقف رخواً ، ولو أن متطلبات البترول الجديدة آخذة طريقها للتحقيق ! . .

أما في الداخل فقد فشل في إقناع الخوري العجوز في تشكيل وزارة تشير إلي شرعية حكمه . . واقترح بدلاً من ذلك ، سماع استقالة رئيس الجمهورية السجين ، وطرح مشروع دستور جديد .

هذا وستبدأ وساوس الزعيم بالازدياد ، خاصة بعد أن رفض حزب الشعب القريب من شعار الوحدة مع العراق ، أن يشكل حكومة بمفرده . . فسارع في الأول من نيسان إلى حل المجلس النيابي بقرار من عنده ، وفي جلسة ملفقة (٧٦ نائباً من أصل ١٣٦) تم تأييد الزعيم في خطواته (المباركة) .

في أواسط نيسان حيث موعد العرب مع الهدنة الأخيرة في فلسطين ، سيبعث الزعيم بطلب معاهدة عسكرية دفاعية مع العراق على أن يجري توقيعها فوراً ، وأثناء المداولات ، تناهى إلى أسماع بغداد ، أن الزعيم أرسل بعثتين دبلوماسيتين لمقابلة كل من الملك فاروق والملك ابن سعود . .

وهكذا تباطأ العراق حتى تنجلي صورة الموقف المزدوج *.

في ١٤ نيسان سيعود موفدو الزعيم من القاهرة والرياض ، لينقلوا له بعبارات واضحة : (إن القاهرة والرياض تنتظران منه حماية الاستقلال السوري من التعديات الهاشمية ، وأنك مثلما استلمت سوريا من القوتلي مستقلة ، فحافظ على هذا الاستقلال)، وعلى الفور عادت الطائرات المدنية السعودية (بمعدل طائرة كل اسبوع) لتحمل ما يوازن الذهب بالعملة السورية ، ثم طار الزعيم إلى القاهرة ليقابل الملك فاروق هناك .

وهكذا (كانت رحلتي إلي القاهرة مفاجأة غير سارة للأردن . . فقد اعتقد سادة بغداد وعمان ، أنني أكاد أن أقدم تاج سوريا على طبق من فضة ، ولكن خاب فألهم ،

---

* سافر نوري السعيد إلى دمشق في ١٦ نيسان لاجراء مفاوضات مع الزعيم حول سبل إنفاذ المعاهدة العسكرية التي طلبها الزعيم من العراق ، وكان مما قاله : إذا بادر العراق من جهته فسوف يساء فهم نواياه ، أما إذا تقدمت الشقيقة سوريا باقتراحات رسمية ، فنحن على استعداد لبحث كل اقتراح على حدة . . ثم تحدث السعيد عن احتمال معاهدة عسكرية تشمل الجميع . . وكأنه كان يقصد حلف بغداد الذي سيأخذ طريقه إلى الظهور فيما بعد .

فالجمهورية السورية لا تريد هلالاً خصيباً ولا سوريا كبرى . . سنقدم المتعاونين مع بغداد أو عمان من السوريين إلى المحاكم . . وسوف نعدمهم بجريمة الخيانة العظمى . . أما قواتنا فستكون كفيلة بمجابهة الاجراءات العسكرية التي اتخذتها حكومة عمّان (الحياة البيروتية - ٢٢ آب ١٩٤٩) .

في أواخر حزيران سيقوم الزعيم بنقلة غبية بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية حيث سيحصل على نسبة ١١٦٪ نتيجة التصويت ، وقد أفتى له (مفتي القوانين الجمهورية محسن البرازي الذي سيصبح رئيس وزرائه) حيث ارتبط دوره بمهمة تقديم « الطلاء الشرعي » لأوضاع الرؤساء الدستورية . .

كان الزعيم قبل أن يصبح مشيراً * ، قد أفصح عن مواقفه الداخلية والعربية والعالمية : -

في الداخل تم تصفية العلاقات المالية والاقتصادية والعقارية المعلقة مع فرنسا ، وكان ذلك ثمن اعتراف فرنسا بشرعية نظامه .

وفي أوائل حزيران أصدر الزعيم قراراً بالتصديق على القرار الموقع مع شركة المصافي البريطانية وما سُمي باتفاقية المصّبْ ، لتصدير البترول العراقي عبر بانياس .

ومع أواخر حزيران سمح بموجب مرسوم تشريعي يحمل الرقم ١٤٠ بحل جميع المماحكات العالقة بين شركة التابلاين وحكومات الجابري والعظم وغيرهما ، وقد اقتضى المرسوم بأن تمارس الشركة النفطية جميع نشاطاتها كإنشاء المطارات وسكك الحديد وإقامة المنشآت وشراء السلع والبضائع من الخارج ، مقابل عشرين ألف جنيه استرليني ، تدفعها الشركة للخزينة السورية في كل عام .

---

* سن الزعيم مرسوماً مفاده أن رتبة رئيس الجمهورية إذا كان عسكرياً هي رتبة المشير ، وابتاع لذلك عصا الماريشالية من فرنسا بقيمة ثلاثة آلاف دولار في وقتها ، كما وضع المونوكل وهي عدسة وحيدة توضع على العين اليمنى ، كما كان يفعل كبار ضباط الفوهرر ! . . وبعد أن لبس كل ذلك . قال لزوجته : ستصبحين ملكة عما قريب (مذكرات أرسلان عادل) .

هذا وحصلت التابلاين على حقوق أفضلية في الموانئ والمطارات ، كما حصلت على حق إنشاء وصيانة محطات الضخ والأنابيب والمصافي في الأراضي السورية لمدة سبعين عاماً ، على أن تؤول ممتلكات الشركة بعد انتهاء مفعول امتيازها للحكومة السورية . وفي سبيل إقامة توازنات نفطية ، فقد سمح الزعيم بتسهيلات مماثلة لشركة نفط العراق البريطانية . . .

لقد سمح الزعيم بقوة بلاهة لا توصف ، بتجميع أكبر قوة سياسية معادية له في سوريا ، كما كان لتصرّفاته مع ضباطه المعاونين ، أو سياسيّيه المتعاونين ، آثاراً كبرى في الانفضاض عنه ، وهكذا فقد سمح لمحور عمان - بغداد في السياسة السورية بأن يطلق عليه لقب (أزعر شيكاغو) . . ومن شكري القوتلي وجناحه ، إلى أكرم الحوراني وأصدقائه من الضباط ، إلى البعث ورفاقه من طلبة الجامعات ، إلى حزب الشعب وحلفائه من بورجوازيّي الشمال إلى عالم البداوة والعشائر والمدن ، التي كان النفوذ الهاشمي يمتد إليها ، إلى أركانه من الضباط الذين شعروا بالجزع لاقتراحاته بخصوص الهدنة مع اسرائيل ، إلى احتكار السلطة وغنائم المنصب التي تبعث على التيه والاستكبار ، بحيث أن وزير خارجيته الأول انفض عنه وانقلب عليه ، وقد كتب الأمير عادل أرسلان أسوأ مذكراته عن تلك الصفحة من تاريخ سوريا ، ثم إلى الكارثة الفظيعة التي ستؤول إلى موته ، عندما قام كذئب غادر ، بتسليم ضيفه وصديقه الذي أهداه مسدسه (أنطون سعادة) إلى ساحة الإعدام في بيروت *

*** كان سعادة يرى في الزعيم إمكانية - أداة لمشروعه ، يمكن الاستغناء عنها طالما هي مجرد أداة ، وهكذا قبل سعادة السلاح من الزعيم لكنه لم يقبل الرجال ، وخلال تخطيطه للثورة في لبنان انطلاقاً من مراكز الثورة الاجتماعية الأولى ، قبض عليه الزعيم غيلةً وقام بتسليمه في ٦ تموز إلى مدراء الأمن اللبنانيين فريد شهاب ونور الدين الرفاعي ، وبعد ٢٤ ساعة فقط وفي محاكمة سرية ملفقة تم تنفيذ الإعدام بزعيم الحزب السوري القومي . .**

كان المشهد الصارخ صورة من صور الغدر في التراجيديا الاغريقية ، فيروتس الغادر كان صديقاً لقيصر ، والاسخريوطي كان مشايعاً للسيد المسيح ، وأبو رغال كان من بني قومه الذين غدر بهم . . إلا أن الزعيم كان صديقاً لنفسه فقط ، كان يعتقد بأنه في تسليمه لسعادة سيربح رضا المصريين والسعوديين الذين كانوا على حلف مع رياض الصلح وبشارة الخوري ، لكنه نسي القول المأثور : ماذا يفيد أن تربح العالم وتخسر نفسك ! . .

كانت حقبة الزعيم على قصر أجلها ، مسيرةً إضافية تنغرز في قاع الانحطاط العربي لتزيده عمقاً تحت عمق ، فقد تمّ اغتيال الديمقراطية باستخفاف ليس له نظير ، ومن يومها باتت الديمقراطية تسلية الحاكمين العسكريين ، وبدلاً من استخدام الجيش ، الذي هو مدرسة الوطنية المنظمة والمسلحة ، في الاسهام بتحقيق آمال التغيير ، فإنه بالعكس ، استُخدم كفزّاعة ضدّ كل منْ يخطر له الكلام بصوت مسموع ، والأنكى أن الحياة السياسية في سوريا (وربما في المنطقة كلها) أصبحت واقع تحزّب لا واقع حزب ، فقد استحكمت الدوافع الإجتماعية والشخصية والأسروية بل والمزاجية ، لهذا الإنتساب أو ذاك ، كما ظلت الأحزاب القومية أو اليسارية الجديدة ، في حالة تجريب لهذا الموقف أو ذاك ، دون الاستناد للعمل بجدية برنامج ما ، إذ ما أن تعلن ولاءها حتى تعود عنه إلى القهقرى النقيضة بعد أسابيع ، وكان ذلك يجري على حساب الديمقراطية والمصداقية .

ومع ذلك ، فإنه يمكن القول ، بأن الشعب قبل بمضاد الديمقراطية ، على أمل استرداد الكرامة في فلسطين ، ثم طالت سنوات الوعد في ظل من الأحكام العرفية وقوانين الطوارئ ، إلى أن أصبحت هي القاعدة وغيرها الاستثناء ، وقد بدا أن الضحية الثانية بعد فلسطين هي الديمقراطية وليس غيرها ، وبالرغم من كل ما قيل أو يقال بحق ديمقراطية البرلمانات (الانتخابات الشعبية الحقيقية دون تدخل من الدولة) ، فإنه على ما يبدو لا خيار آخر ، وما من ريب أن ألاعيب الحياة البرلمانية في حينها ، كانت تقذف بالأكثرية اليمينيّة أو الاقطاعية إلى مقاعد المجلس النيابي ، فضلاً عن العديد من النواب الجهلة حولها ، **لكن الحقيقة أيضاً كانت تكمن في وعي الشعب الموروث ، فليس قليلاً أن الشعب كان يعيش ربع قرن غربي - استعماري ، وقبله خمسمئة سنة (عثمليّة) ، أما نصف الحقيقة الآخر ، فإن الأقلية الوليدة في مجلس النواب ، كانت تمثل خطوط الوعي ، أو ارهاصاته الأولى ، ومن السذاجة بمكان ، أن نعتقد بأن عملية ترفيع الوعي وزرع الشعور**

بالتضامن الجماعي العام والتمركز خلف شعارات وطنية أو قومية مرحلية راسخة ، كان يمكن أن يتم برفة عين أو في ليلة يسطع في سمائها نور القمر المضيء . . .

كانت حياتنا بدوية رعوية ، وهذه تستلزم برنامجاً لتحقيق الإنتقال ، وتركت السنوات العثمانية أجيالها من العرب ، دون قراءة أو كتابة ، فكان أمام الأحزاب معركة ضد الأميّة ، وكانت حياتنا زراعية اقطاعية ، وكان لا بد من العمل والانتظار معاً ، لتحقيق نقلة إلى أعلى ، سواءً في تحديث الزراعة أو الانتقال إلى عالم الصناعة ، كانت برامج طويلة المدى قيد الانتظار ، ولا يمكن تحقيقها إلا في ظل ديمقراطية برلمانية حقيقية دون تدخل من سلطة النظام التنفيذية أو من زوّار الفجر الذين يدورون في فلكها . .

وغام الهدف ، وغامت معه قوة التغيير الشعبية ، وحلّ العسكريون في (سياسات مغامرة وأثرة) للاستيلاء على المنصب الذي لم يعد مَنْ يحرسه رغم توهجه ، ثم دخل العسكريون من باب فلسطين والظلم والتجزئة ، لا ليخرجوا إلى باب التحرير والعدالة والوحدة ، فقد كان المشوار طويلاً ، بعد أن ظنّوا بأن الواقع يمكن أن ينصاع لأمر عسكري ، واكتشفوا فجأة أن الصفوف العسكرية المتراصّة ، لا تتصالح مع الصفوف الشعبية المنتشرة ، أما أن يتم تنظيم الشعب وفق صور تنظيم القطاعات في الجيوش ثم يجري الانتقال إلى الهدف المحدد بموجب الخطة ، فأمر أقرب ما يكون إلى ألف ليلة وليلة ، منه إلى الواقع الصعب .

وطال الانتظار وعبقت في المكان روائح (المُلك العضوض)* ، فمن دخل بالسيف لا يخرج إلا بحد سيف آخر ، وهكذا إلى أن يدخل الحناوي رفيق السلاح القديم ، شاهراً سيفه باسم الديمقراطية التي ديست والعهد الذي نُحر ! . .

كانت طرقات أقدام الحناوي ، تخطو دون رأس إلى المجهول ، وتتقدم على ايقاع

---

* كانت زوجة معاوية بن أبي سفيان تقول لزوجها أواخر أيامه :

ما أحلى صلاتك يا أمير المؤمنين ، فيرد قائلاً : لولا أنني قتلت حجر بن عدي . ثم يضيف : المُلك عضوض يا امرأة ، فما رأيك فيما يفرّق بين الابن وأبيه ، والأخ وأخيه ، ما رأيتُ في زماني سحراً يؤول إلى جهنم مثل هذا ! . .

الشركات العملاقة الكبرى المتنازعة على المنطقة والامتيازات فيها ، وسينتصر في انقلاب الحناوي ، الإنكليزي على الأمريكيوالفرنسي من جديد ، فدهاقنة العمل الانكليزي (سترلنغ - سبيرز - غلوب) ما زالوا في المنطقة ، إضافة إلى الخبرة التي لا تجارى ، في مجال معرفة تضاريس المنطقة وأحوال سكانها على كل تخم من التخوم ، في البوادي أو المدن وعلى ضفاف الأنهار . . .

هكذا ربحت شركة نفط العراق البريطانية ، المعركة ، فدخلت سوريا حلبة المحور النقيض لما أسسه الزعيم وبنى عليه ، ورداً على الصمت الواجف في كل من القاهرة والرياض ، قامت بغداد دون تلكؤ ، بخطوة لاستعراض القوة في دمشق ، وأعلنت على الملأ ، بأنها في صدد مفاوضات تؤول إلى الاتحاد بين العراق وسوريا .

ثانيا / انقلاب القوة المشروع - الحناوي يعود إلى الثكنات .

كان المقدم سامي الحناوي قائد كتيبة معززة في اللواء الثاني السوري الذي هاجم مستعمرة مشمار هايرون ، بأمرة العقيد علم الدين قواص ، على الجبهة الشمالية من خط الحدود الدولي بين سوريا وفلسطين . . ولم يكن له كعسكري سجل مُميّز .

وبعد أن أسدى الزعيم لنفسه رتبة المشير ، كان الحناوي صديقه المخلص يرتفع إلى رتبة الزعيم على يد الزعيم نفسه .

كان الأمر المفاجئ الوحيد ، في انقلاب الحناوي المتوقع يوم ١٤ آب ، هو أن الانقلاب قد جاء على يد الحناوي نفسه ، فقد كان الحناوي من أقرب المقربين إلى حياة الزعيم العسكرية والمدنية ، لذلك فقد عهد إليه بعد أن عمل على ترفيعه استثنائياً ، بمهمة قائد الجبهة السورية ، وسيكون لعديله السيد أسعد طلس دوراً كبيراً حين كان سفيراً لسوريا في طهران ، حيث سيقوم بعمل ضابط الاتصال بين الحناوي ونوري السعيد ، وبين الوصي وأوساط من حزب الشعب . .

قاد الزعيم سامي الحناوي قطعاته العسكرية من قطنا إلى دمشق ، كما تمكن من سحب ست مصفحات إضافية من الجبهة بقيادة الملازم الأول فضل الله أبو منصور .

واتجهت مفارزه المؤللة ، إلى منزل رئيس الوزراء ، ورئيس الشرطة العسكرية المقدم ابراهيم الحسيني ، ومراكز الدرك والشرطة والهاتف الآلي والاذاعة والمصرف المركزي ، وكان منزل الرئيس (حسني الزعيم) من نصيب مصفحات أبو منصور ، حيث سينتقم لمعلمه أنطون سعادة ، في حفلة ثأر تاريخية . . .

وبعد أن بدرت علائم نجاح الإنقلاب ، سيق الزعيم ورئيس وزرائه البرازي إلى جانب مقبرة الفرنسيين في المزة ، ومن هناك كان الملازم الأول أبو منصور قد تلقى مكالمة هاتفية في سجن المزة العسكري ، من الرئيس عصام مريود (طيّار) ينبئه فيها بأن المجلس العسكري قد اتخذ قراراً باعدام الزعيم ورئيس وزرائه ، وكان في هذا الأمر ما أثلج صدر أبو منصور ، حيث سارع إلى إنهاء حياة الرجلين بطلقات مصحوبة مع السباب واللعنات .

كان أعضاء المجلس العسكري بحسب البلاغ العسكري رقم / ٢/ قد تألف من :

العقيد بهيج الكلاس ، العقيد علم الدين قواص ، المقدم أمين أبو عساف ، والنقباء : محمد معروف ، عصام مريود ، خالد أبو جاده ، محمود الرفاعي ، محمد دياب ، حسين الحكيم ، والملازم الأول : فضل الله أبو منصور .

وكانت الخطوة الأولى للانقلاب ، رفع الحظر عن نشاطات الأحزاب السياسية باستثناء الشيوعيين وحزب فيصل العسلي التعاوني ، مع تسليم السلطة (للسياسيين الوطنيين المخلصين) ، والعودة إلى ثكنات الجيش ، وفي حركة عملية لتعزيز الثقة بوعود قائد الانقلاب الجديد ، سارع الحناوي لاستدعاء هاشم الأتاسي من أجل تشكيل حكومة مدنية ، وبالفعل فقد تم تشكيل حكومة برئاسة الأتاسي ، فاز فيها حزب الشعب بحصة الأسد . .

وقد شارك في الحكومة كل من السيد ميشيل عفلق ، حيث اسندت له حقيبة المعارف ، والسيد أكرم الحوراني لحقيبة الزراعة ، وهكذا يكون البعث والعربي الإشتراكي قد شاركا في العهد الجديد .

بالنسبة لأكرم الحوراني ، لم تكن المسألة مسألة مشاركة عن بعد ، فقد كان للحوراني دوراً متقدماً في تأليب الضباط ضد حسني الزعيم ، خاصة بعد أن قام الزعيم بتسريح الضابطين الحمويين بهيج الكلاس وأديب الشيشكلي من الجيش ، ثم قام بحركة كيدية حين قرّب الحموي الاقطاعي محسن البرازي وأسند إليه مهمة كبير المستشارين ، ثم منصب رئيس الوزراء .

كان الحوراني يومها ناشطاً على صعيدي الحياة السياسية المدنية والعسكرية ، وقد لقي استجابة من الضباط القوميين للاطاحة بالزعيم ، كذلك الضباط من السوريين القوميين أمثال فضل الله أبو منصور وغيرهم من الضباط الآخرين .

أما اشتراك السيد عفلق أمين عام البعث ، فقد أثار جدلاً داخل أوساط الحزب ، حيث اعتبرت الخطوة متسرعة لا مبرر لها ولا تنسجم مع مبادئ وأهداف الحزب ، فيما دافع آخرون عن هذه الخطوة باعتبارها رداً على ما عاناه الحزب إبان حكم الزعيم ، وما لاقاه أمين الحزب نفسه من إهانات .

في جميع الأحوال ، فقد أصبحت الأرض ممهدة ، والرأي العام متيقظاً لتلك المساجلة الكبيرة ، التي ستجري في الصحافة العراقية والسورية ، بشأن تقارب ما بين البلدين .

كان عبد الآله الوصي ، أشد حماسة لاتحاد فوري بين العراق وسوريا . وكان نوري السعيد في هذه المرحلة يريد أن ينتظر ليرى . .

وقد جاءت لهفة الوصي حين زار فجأة دمشق وهو عائد من لندن إلى بغداد ، وحينها ازدان مطار المزّة بالأعلام السورية والعراقية .

وقد جرى نقاش مطوّل بين الوصي وحاشيته من جهة ، والمستقبلين السوريين على رأسهم هاشم الأتاسي وأعضاء وزارته ، بالإضافة إلى الحناوي (وفارس الخوري وصبري العسلي) حيث قدما تصريحاً عن السياسة الجديدة للحزب الوطني* .

سيقول ناظم القدسي ، الذي سيخلف الأتاسي في زعامة حزب الشعب ، عن الوصي ، بأنه كان ساذجاً إلى حد ما ، فقد ظن بأنه سيجمع السوريين بمجرد ظهوره في وسطهم . .

أما السعيد ، فكان يرمي إلى سماع المبادرة من سوريا ، قبل أن يُتهم العراق بأنه يريد أن يفرض نفسه فرضاً . .

كان أمام حزب الشعب ، الذي وجد نفسه فجأة على رأس السلطةالسياسية في سوريا ، خيارين :

- إما إحياء العمل بالدستور القديم وإعادة مجلس النواب الشرعي الذي حلّه الزعيم ، وبذلك يعود القوتلي رئيساً للبلاد من جديد .
- أو الاستمرار في تجاهل الوضع الشرعي قبل انقلاب الزعيم ، والتمهيد لاخراج دستور جديد (من قبل مجلس تأسيسي انتقالي) والشروع بعملية انتخابات نيابية جديدة .

وبالطبع فقد آثر السيد رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب الفعلي ، الخيار الثاني ، وأصبح رئيساً للمجلس التأسيسي الذي سيخرج الدستور من بين يديه . .

في أوائل أيلول ١٩٤٩ أُعلن عن إجراء انتخابات لجمعية تأسيسية فيما أعلنت الوزارة

---

* وهي سياسة مغايرة لما اختطه الرئيس شكري القوتلي زعيم الكتلة الوطنية . حيث ظل على تحالفه مع القاهرة والرياض ضد محور الهاشميين ، وكان يقضي أيامه منفياً في مدينة الاسكندرية ، فيما شق الخوري والعسلي وغيرهما ، طريقاً جديداً تم بموجبه (تحويل السكّة) نحو الهاشميين ! . .

نفسها كحكومة موقته لاعادة الحياة الدستورية إلى البلاد . . وقد صرح رئيس الوزراء الأتاسي آنذاك ، (إن حكومتي هي محض انتقالية ، ولايمكنها أن تلزم البلد بسياسة طويلة الأمد قد يكون لها تأثير حاسم على مستقبلها ، إذ أن مثل هذه الأمور (والقصد هنا اتحاد سوريا والعراق) لا يمكن أن يقررها سوى برلمان منتخب يمثل إرادة الشعب الفعلية) .

في هذه الأيام ، ستعبئ المعارضة لاتحاد سوريا والعراق ، قواها وسيشكل كل من عفلق والحوراني تحالفاً قوياً ضد هذا الاتجاه . .

مع ذلك فقد نجح عفلق في انتخابات البالوتاج * ، وفاز أكرم الحوراني في حماة ، بالاقتراع الأول ، وكانت الانتخابات التي جرت قد حملت إلى مقاعد الجمعية التأسيسية ، بالإضافة إلى بعض أصوات المعارضين لاتحاد سوريا والعراق ، (٥١) عضواً (من أصل ١١٤ العدد الكامل لأعضاء الجمعية التأسيسية) ، وكان هذا النصف كله تقريباً من أعضاء حزب الشعب فضلاً عن الحلفاء الآخرين .

لم يكن حسب التقاليد الديمقراطية ، بمقدور المعارضة أن تفعل شيئاً لو أقدم حزب الشعب واستجاب العراق لمطلب الاتحاد المطروح ، لكن صورة الوضع داخل حزب الشعب نفسه ، لم تكن كوضع الماء في الأواني المستطرقة تجاه مشروع الاتحاد ، كما أن صورة الداخل العراقي ، كانت أشد تعقيداً من أن يؤخذ قرار عاجل باتجاه هذه الخطوة * .

---

* يعني الإنتخاب في الاقتراع الثاني ، حيث المرشح لم يصل إلى الأصوات المطلوبة في الانتخاب الأول .

* صرح ناظم القدسي للكاتب البريطاني باتريك سيل يوم ٣ تشرين ١٩٦٠ ما يلي :

(كنا إلى جانب الوحدة ، ولم نكن أبداً في صف الهاشميين ، ذلك إدعاء اختلقه أعداؤنا . . كل ما يمكن قوله أن الرأي العام جعل الحزب مرتبطاً مع العراق . . أي مع بريطانيا ، لكن تحفظاتنا لم ترد على بال الخصوم أيضاً . .) وبالفعل ، فقد حافظ حزب الشعب على تردده بخصوص الاتحاد مع العراق حتى النهاية ، وبالرغم من أنه امتطى صهوة الجواد السوري وحيداً في هذه المرحلة . فإنه كان يفكر باتحاد تدريجي يشمل أولاً توحيد مجلسي النواب في القطرين ، إضافة إلى أمور الدفاع والخارجية والاقتصاد ، على أن يجري تصريف سائر الأمور الأخرى وفق نظام ذاتي محلي . . (الأسد والصراع على الشرق الأوسط) .

مع ذلك ، فإن صدّيق سنشل زعيمحزب الاستقلال العراقي ، لخص الاجتماع السري (أواسط كانون الأول ١٩٤٩) الذي عقد في بغداد بين وفد سوري ضم ناظم القدسي وأكرم الحوراني وخالد العظم ،ووفد عراقي رسمي بقوله :

(لقد أرادوا التأكد من أنه في حال قيام وحدة لن تمتد إليهم يد المعاهدة البريطانية مع العراق فتشملهم ، وقد طرح السيد ناظم القدسي سؤالاً رسمياً على القائم بالأعمال البريطاني في دمشق حول هذه النقطة بالذات ، ولم يتلق رداً ، وكان واضحاً أن اتحاداً مستعجلاً تحت عرش واحد ، سيقوضه الجيش السوري بين ليلة وضحاها) (المصدر السابق) .

أما ميشيل عفلق فسيرفض بداهة وقوف بريطانيا إلى جانب الاتحاد ، وقد قال : **كان يصعب علينا تصديق أن دولة استعمارية يمكن أن تعمل على توحيد بلدين عربيين لكن المسألة ربما عنت ، أن بريطانيا تريد جر سوريا إلى مناطق نفوذها ، ومع ذلك ، فإن الوحدة عملياً يمكن أن تؤدي إلى تبديلات معيّنة في العراق نفسه ، وعندها ستصبح المصالح مهددة ، وهذا يضع بريطانيا عند حد التوقف دون الوحدة ، وفوق الصداقة ليس أكثر .**

هذا وسيقول خالد العظم والدكتور الأرمنازي سفير سوريا في لندن آنذاك ، شيئاً من هذا القبيل ، **فبريطانيا لا تريد ، وفرنسا رافضة ، وأمريكا غير راغبة ، والاتحاد السوفييتي يقف ضد الوضع برمته من الأساس .**

بعد أسابيع ، سيتمكن الوصي عبد الآله من إزاحة نوري السعيد من الطريق موقتاً ، وكان ذلك بناء على رغبة سوريا ، وستضم وزارة عراقية جديدة ، يترأسها علي جودت ، نجوماً وطنية بارزة في العراق أمثال : كامل الجادرجي ومحمد حديد وحسين جميل ، وفي جلسة مع الوصي ، كان التوجه لاستدعاء ناظم القدسي من جديد ، غير أن وزارة

القدسي كانت قد سقطت ، ليكلف خالد العظم بتشكيل وزارة جديدة . .

وفي غمرة الإستقالات والتكليفات ، كان أديب الشيشكلي يدق أبواب السلطة السياسية الثالثة في سوريا .

ولو نظرنا إلى الوراء قليلاً ، سنجد أن الاتحاد مع العراق ، كان قد قُضي عليه من قبل ، لكثرة المتصدّين الداخليين والعالميين إضافة إلى المحور العربي القوي المتمثل بالقاهرة والرياض ، وقد حفلت هذه المرحلة بالاتهامات ، والإتهامات المضادة ، إلى درجة اختلط فيها الحابل بالنابل ، فالشعب يتهم الوطني ، ليرد عليه الوطني بما هو أقسى ، **وكانت دراهم السعودية تطير فوق الأجواء دون حسيب ، وكانت بغداد ترد بالمكيال نفسه ، أما البعث والشيوعي والاشتراكي ، فقد حزموا أمرهم جميعاً متحلّقين حول شعار واحد : ضد الاتحاد مع العراق (البريطاني) . .**

وحين دخل الشيشكلي ، فإنه كان موضوعياً ، يركب على عربة مصرية بجواد سعودي ، وسوف نرى أن الشيشكلي يوم الإنقلاب عليه ، لاذ بالسعودية تحت وهم إعادته من جديد ، وكان الشيشكلي نفسه ، قد نسي قاعدة من أهم قواعد السياسة السورية : فالنازل لا يصعد ، تماماً مثل الميت لا يعود إلى الحياة أبداً . .

. . . .

ثالثاً / الشيشكلي حارس الجمهورية الجديد .

لم يكن الأمر صعباً ، فدبابات الشيشكلي التي اخترقت شوارع دمشق هذه المرّة ، لم تكن تقصد - حسب ظاهرها - السياسة المدنية في سوريا ، بل العسكرية فقط ، وكان طلب الشيشكلي الأول ، اعتقال الحناوي واخراجه من البلاد ، بعد أن تم الوعد بالشرف

العسكري ، ألا يكون مصير الحناوي كمصير سابقه الزعيم ، وكان للإنقلاب ما أراد في خطوته الأولى . .

وفي الحقيقة ، فإن الحناوي لم يكن مقصوداً ، بمقدار ما كان القصد ، سياسة حزب الشعب الآيلة إلى تحقيق خطوة الاتحاد مع العراق ، وظهر ذلك جلياً في الخلاف على القَسَم الذي سيؤديه كلٌّ من رئيس الدولة الموقت ، وأعضاء الجمعية التأسيسية المنتخبة ، قبل ازدلافهم لممارسة مهامهم الجديدة . .

لقد شُطب من نص القسَم ما يشير إلى الحفاظ على الجمهورية ، أو النظام الجمهوري ، مما أثار حفيظة المعارضين في الجمعية ، وقاد كل من أكرم الحوراني وعبد الباقي نظام الدين تدعمهما الجبهة الاسلامية بزعامة مصطفى السباعي ، مع بعض المعارضين الآخرين ، حملةً صاخبة ضد القسَم الجديد ، وفي السابع عشر من كانون الأول ، كان حزب الشعب قد أمّن الأغلبية في الجمعية التأسيسية ، مما أفضى إلى نجاح مشروع القسَم بنصّه كما هو دون تعديل . .

وليلة التصويت على القسَم ، كان الحوراني يسعى عند أصدقائه الضباط (أمين أبو عساف وفضل الله أبو منصور) * ، لانقاذ سوريا من خطر محقق ، ويروي أبو منصور في كتابه أسير دمشق صفحة ٩٦ ، بأن الاستاذ أكرم الحوراني كان شديد الهياج حين قال لنا :

(أنتما فقط تستطيعان إنقاذ البلد . . فإذا ما ترددتما ولو لبضعة أيام فإن الفرصة ستضيع ، وسيدخل جيش استعماري سوريا تحت ستار الجيش العراقي ، وسيخضع بلدنا للاستعمار من جديد) .

---

* العقيد أبو عساف والنقيب أبو منصور كانا على رأس اللواء الأول المدرع بالقرب من مدينة القنيطرة . وكان بيدهما تحريك اللواء إذا أمرا من الشيشكلي بذلك ، وكانت العلاقة الوثيقة بين الحوراني والشيشكلي في ذروتها ، الأمر الذي حقق المهمة دون عقبات أو دماء .

صباح التاسع عشر من كانون الأول ١٩٤٩ كان بيان الشيشكلي الأول متواضعاً (لقد أُرغم الجيش على وضع حد لمؤامرات رئيس الأركان العامة وعدد من السياسيين المحترفين الذين بالتواطؤ مع عناصر أجنبية هددوا سلامة الجيش وبنيان الدولة والنظام الجمهوري) .

وسيق الذين اتقوا (وحدَتهم العراقية) من العسكريين إلى السجن زمرا ، فكان الحناوي وعديله طلس ورئيس الشرطة العسكرية محمد معروف ورئيس المكتب الثاني (المخابرات العسكرية في حينه) محمود الرفاعي وآخرون . . وظل هؤلاء يسهرون لياليهم الثلاثين ، إلى أن جاء الإفراج فابعدوا خارج سوريا . .

هذا وسيقتل الحناوي بعد شهر من خروجه السجن يوم ٣١ تشرين ١٩٥٠ على يد حرشو البرازي انتقاماً لاعدام ابن أخيه محسن البرازي .

هكذا فقد بدّل قادة الجيش في إنقلاب الشيشكلي وجهة المستقبل في مسيرة سوريا السياسية ، لتنقلها من النقيض إلى النقيض ، لكن النظام السياسي الواقع في قبضة حزب الشعب بقيادة رشدي الكيخيا السياسية ورئاسة الأتاسي للدولة والقدسي للوزارة ، ظل على حاله دون أن يمس ، فقد تعلّم الشيشكلي من أخطاء الزعيم القاتلة ، فقرر ألا يمضي في الرعونة الذاهبة لتحميل السياسة المدنية كل أوزار الماضي ، وكان برقابته الدائمة لما يجري في الساحة السياسية ، ما يحدوه للانتظار والصبر ، فالسياسيون لم يدركوا في الحال تلك القيود الحريرية التي فرضت على كامل سلطاتهم ، وفي حالة عراك عمياء بينهم ، استمروا في لعبتهم البرلمانية العشوائية ، يكتبون البيانات ويسطرون مسودات الدساتير ومشاريع الانتخابات ويحيكون الدسائس ضد بعضهم بعضا ، وبدعم خارجي أو بدونه ، وكأنهم كانوا في غفلة عما يُحاك في رئاسة الأركان الساهرة ، بدأ الوقوع في القبضة الحريرية التي يسندها الفولاذ المسلح ! . .

بين عامي ١٩٥٠ – ١٩٥١ سيظل الشيشكلي كامناً يرقب نتيجة المعركة السياسية الدائرة ، وكانت الفترة بمجملها ، هي فترة كشف حساب بين الجيش والساسة ، ولما آن أوان تقديم الكشف ، كان السياسيون قد وقعوا بشر تكرارهم للخطيئة ، فالعقل المدبر الذي أراد أن يستخدم الجيش كأداة سياسية مرحلية ، أثبت لا واقعيته من جديد ، وما بدا أن الجيش قد وضع يده على العقل نفسه ، فقد راق له أن يلعب لعبته بنفسه ولنفسه دون شريك . .

مع بروز العسكرية الشيشكلية ، فقد بدأ الوهن يتسرب إلى عزم الهاشميين ، خاصة في العراق ، إلا أن هذا الوهن لم يكن يصل إلى درجة اليأس ، فقد أرسل علي جودت رئيس الوزارة العراقية نائبه (مزاحم الباجه جي) إلى القاهرة ، وكان محبوباً من المصريين ، وتمكن السياسي العراقي من احراز خطوته الأولى في ابرام اتفاق جنتلمان يقضي بعدم التدخل في شؤون سوريا الداخلية ، وقد أشير في الإتفاق صراحة إلى مشروعي الهلال وسوريا الكبرى ، وحين عاد الباجه جي يحمل مشروعه المسالم إلى بغداد ، كان الوصي في حالة غليان ، وفي جلسة ضمت الوصي وصالح جبر وصدّيق شنشل ومهدي كبّة في قصر الرحاب ، كان الوصي يمطر اتفاق الباجه جي باللعنات ، وهكذا لم تجد وزارة جودت ، بعد انسحاب وزراءها المستقلّين غير الاستقالة .

أعلنت وزارة توفيق السويدي التي أعقبت الوزارة المستقيلة بيانها الوزاري ، حيث نص صراحة على وجوب العمل من أجل مشروع الاتحاد الفيدرالي بين سوريا والعراق ، (ففلسطين إنما ضاعت بسبب تفرق العرب ، واسرائيل لم تتغلب على العرب إلا لفقدان روح الوحدة الحقيقية بينهم) .

سيرد المصريون على هذه المحاجة الوحدوية ، باطلاق مشروع الدفاع المشترك

والتعاون الاقتصادي ، وبعد أخذ ورد ، واطلاق قذائف الاتهامات والاتهامات المضادة ، وافق مجلس الجامعة العربية في أواسط نيسان من العام ١٩٥٠ على مسودة المشروع .

وهكذا أضيف إلى تراجيديا الهاشميين ، تراجيدية جديدة ، كانت لعلّها من بنات أفكار الولايات المتحدة ، حيث بدأ الرئيس الأمريكي ترومان باطلاق مشروعه الخاص عن (النقطة الرابعة) الأمريكية . .

كانت النقطة الرابعة ، مشروع مارشال آسيوي ، لكنه أقل بكثير ، فقد هدف من وراء إنشاء الطرق الاقليمية العريضة (اوتسترادات) ، وبناء الجسور وإنشاء الخطوط الحديدية. . . الخ ، **إلى ربط المنطقة بشبكة مهيأة لمواجهة خطر الاتحاد السوفييتي في المنطقة ، ويتحقق ربط هذا كله بصورة طبيعية ، عندما تستدعي الحاجة – كما في العام ١٩٤١ . ثورة الكيلاني – لجلب مئات الألوف من جنود الحلفاء إلى بلاد المشروع . .**

وفي جميع الأحوال ، فقد اعتبرت معاهدة الدفاع المشترك بين العرب ، خطوة إلى الأمام نحو التكامل القومي من الناحيتين العسكرية والإقتصادية ، وفي الحقيقة ، فإنه حتى العام ١٩٥٣ ، **فإن شيئاً لم يجر إلا على الورق ، فالجيوش لم تتوحد ، وشراكة الأركان العربية لم تظهر ، والتنسيق العسكري ظل مفقوداً ، والاقتصاد القطري تراجع إلى الوراء ، وبدا أن الهدف لم يكن أكثر من إزاحة العراق عن الطريق ، وهكذا ليعود إلى مصر – فاروق دورها الأول .**

إن دوراً سلبياً بهذا القدر ، لم يكن يفسره إلا النزاع على الدور نفسه ، (فإما نحن أو الجحيم) ، وحتى تلك الفترة ، فإن التفكير بإعادة بناء الأمة ، لم يكن أكثر من مشاريع استعراضية هدفها كسب رضا الشعب ، فالرجال الذين أوثقوا مصائرهم بايماءات الخارج ، لم يروا غير المصير الإقليمي كملاذ أخير لمصائرهم الذاتية ، وربما يكون لعامل اليأس

والشعور بالدونية أمام تفوق الغرب ، دور في ذلك . . وها هي صحيفة الإنشاء الدمشقية ١٨ شباط ١٩٥١ ، تنقل على لسان حسن الحكيم أحد رؤساء الوزارات في سوريا ما يلي :

(دعونا نلتحق بالمعسكر الغربي عن طيب خاطر ، قبل أن نجد أنفسنا مضطرين إلى ذلك بفعل الحوادث ، إذ أننا إذا ما أُلحقنا بالمعسكر قسراً ، فلن نجد من يوجه الشكر لنا ، سنجد أنفسنا مقحمين بالحوادث الدولية سواءً للأحسن أو الأسوأ ، إن ضعفنا لا يسمح لنا بأي مهرب آخر) .

وفي اندماج الذاتي بما هو واقع انفصالي مقرر ، عاشت المنطقة عجزها التاريخي ، فلا الدفاع المشترك كان جدياً (فهو مشروع من أجل تخريب مشروع آخر) ، ولا الاتحاد بين سوريا والعراق حتى في ظل المعاهدة العراقية - البريطانية - تحت ظلال العرش - كان مقصوداً* ، **وكانت المشاريع تتطاير فوق سماء المنطقة ، باسقاطات غربية ، كي تزيد تعقيد المنطقة فوق تعقيد ، أما بريطانيا فكانت تؤثر دائماً حكمتها الخاصة القائلة : بأن كفاح السمكة داخل الشبكة يزيدها عرقلة ! . .**

في هذه السنوات ، ومع هدوء المدافع على الجبهات العالمية بعد الحرب الثانية ، ازداد اهتمام الغرب بالمنطقة التي تقع على تخوم الاتحاد السوفييتي الجنوبية ، وكان الاتحاد السوفييتي هو العدو المرشح لحرب عالمية ثالثة ، وقد جرت سيناريوهات غربية خطيرة مفادها تحويل خنادق القتال مباشرة إلى الجبهة الشرقية بعد انهيار هتلر ، وكان الرأي السائد، أن يستفيد الغرب من فارق التفوق النوعي المتمثل بالوصول إلى اختراع القنبلة النووية التي استخدمت في هيروشيما وناغازاكي ، فيما كان على الاتحاد السوفييتي أن ينتظر زهاء ست سنوات أخرى للوصول إلى هذا المخترع الجهنمي الذي يمتلكه الغرب دون

---

* يقول خالد العظم في مقابلة مع باتريك سيل يوم ٨ ت ١٩٦٠ : لم يرغب البريطانيون يوماً في إقامة وحدة عراقية - سورية ، فهم لم يكونوا واثقين من مقدرتهم على ترويض الجانب الثائر من الشخصية السورية ، وقد يكون لنوري السعيد توجهات جدية نحو ذلك من قبل ، لكنه في سنواته الأخيرة ، كان في أعماقه يفكر كرجل إنكليزي .

(الأسد والصراع على الشرق الأوسط).

سواه . . وتم العدول عن مجازفة خطيرة ، (كان تشرشل يحرّض عليها) كادت أن تودي بالعالم إلى استئناف حرب جديدة مدمرة .

كان الرأي الغالب في البنتاغون ودوائر الأركان البريطانية ، هو التوجه باتجاه إنشاء أحلاف عسكرية إقليمية على شكل دوائر تشمل العالم بأسره . .

في أوائل شباط من العام ١٩٥١ ترأس مساعد وزير الخارجية الأمريكي ماغي مؤتمراً في استامبول أعلن في نهايته عن الرضا (لذلك التقدم الكبير الذي أحرزته كل من تركيا واليونان وإيران في السنة المنصرمة بخصوص بناء دفاعاتها المتينة) . .

وفي منتصف الشهر ذاته ، أعلن الجنرال البريطاني روبرت ستون عن رغبته بزيارة دمشق ، وقد أدى ذلك إلى قيام مظاهرات في المدن السورية شملت دمشق وحلب وحمص وحماه ودير الزور . . .

وكان وراء المظاهرات حزب البعث والعربي الاشتراكي والجبهة الاسلامية الاشتراكية (الشيخ محمد المبارك) وقد أصدر التحالف الجديد ، بيانات صاخبة تدعو إلى سياسة عدم الإنحياز بين الشرق والغرب ، والوقوف موقف الحياد في صراعات الدول العظمى . .

في الفترة نفسها من العام ، شهدت المواقع العسكرية على الحدود الدولية بين سوريا واسرائيل ، موجة من موجات القتال على طريقة حرب المواقع ، وكانت اسرائيل تزيد من ضغطها العسكري تمهيداً لضمّ المناطق المجردة (بحسب بنود الهدنة !) وتجفيف بحيرة الحولة ، وفي أواسط أيار مع تصاعد العمليات القتالية ، طلبت سوريا عقد جلسة طارئة لمجلس الجامعة العربية ، ثم توجهت حكومة العظم المشكلة حديثاً ، بطلب المساعدة العسكرية العاجلة من كل من مصر والعراق . . وقد تلقف العراق هذه الفرصة دون إضاعة للوقت فأعلن نوري السعيد في مجلس النواب العراقي في السادس عشر من أيار ما يلي : -

في هذه اللحظة التي أتحدث فيها إليكم تكون مدافعنا المضادة للطائرات تأخذ طريقها إلى الجبهة السورية ، ويجب أن يكون من المفهوم ، أن وحداتنا القتالية ومدفعيتنا ومحاربينا سوف يبقون في الأراضي السورية ، وتحت تصرف القيادة السورية ، ما دعت الحاجة إلى ذلك) (صحيفة لوريان البيروتية ١٧/ ٥/ ١٩٥١) .

وكان تجاوب العراق السريع ، يدق الباب على صمت الأركان المصرية المطبق . . وخشيت الحكومة المصرية من احتمالات فرض الهلال الخصيب بالقوة ، وتحرك المفوض الفرنسي في بيروت ، وكان الجميع يتصرفون كما يتوقع كل إنسان خبر كهانة السياسة الغربية في المنطقة .

في النصف الثاني من العام ١٩٥٠ ، وقبل أن يصعد الشيشكلي إلى المسرح علانية ، اهتزت حكومة العظم لتصريح أحد وزرائها وهو معروف الدواليبي حين قال متجاوزاً حدود وزارته : -

(أعلن بصفتي الشخصية لا بوصفي وزيراً في الحكومة ، أنه إذا ما استمر الضغط الأمريكي على العرب لجعلهم يسيرون في سياسة لن تنتهي إلا بتهديد بقية أبناء الأمة العربية ، فإنني اقترح استفتاءً شاملاً في الوطن العربي ، ليعرف الملأ كله ، ما إذا كان العرب يفضلون ألف مرة أن يصبحوا جمهورية سوفييتية على أن يكونوا طعمة لليهود) .

وهز تصريح الدواليبي عالم الغرب كله ، وبدت مشاريع إضافية تترى على المنطقة ، في الوقت الذي نبّه هذا التصريح جميع حواس الغربيين وما يمكن أن تقدم عليه المنطقة من المخاطر . .

بين أيار ١٩٥٠ ونيسان ١٩٥١ ، سيضطرب الوضع السياسي في سوريا ، بمعدل وزارة لكل ثلاثة أشهر تقريباً ، **ولما كانت الوزارات في بلادنا لا تعمل كفريق عمل متصل ، فإن كل وزارة كانت تعمد إلى البدء من جديد ، شاطبةً معها كل مخلفات الماضي** ، فخالد العظم كان على سياسة شبه حيادية تريد النأي عن المحاور ، والقدسي كان على خط الوحدة السورية - العراقية ، وليس بالضرورة أن تكون هاشمية الهوى والنظام ، وحسن الحكيم يريدها وحدة هاشمية الهوى والنظام ، والدواليبي يتحدى الجيش باسم الشعب والديمقراطية ، دون أن يتنبه لما تبيت له أركان الشيشكلي في المستقبل . . وهكذا عاشت سوريا أجواء اضطراب ما لبث أن تبعها عنف متفرّق هنا وهناك .

ففي ٣١ تموز من العام ١٩٥٠ ، قُتل العقيد محمد ناصر قائد القوى الجوية في منطقة كيوان القريبة من دمشق ، واتُّهم الحسيني رئيس المكتب الثاني (المخابرات العسكرية) ولفيف من أعوانه بهذا الاغتيال ، ومنعت وزارة الدفاع أي تناول صحفي للحادث ، وفي غضون أقل من سبعين يوماً بعد اغتيال ناصر (أي ١٠ تشرين الأول) ، وقع حادث مروع آخر أرهب الجميع ، فقد قامت عصبة أطلقت على نفسها كتائب الفداء العربي بمحاولة فاشلة لاغتيال الشيشكلي نفسه ، (حسين توفيق مصري ، هاني الهندي ، وجهاد ضاحي وآخرون) ، وقد قيل أن محاولة أخرى جرت في عمان لاغتيال الملك عبد الله وأديب الشيشكلي معاً ، واتهمت شخصيات سياسية سورية لها ارتباطات بالسعودية ، وفي خضم التحركات العلنية والسرية ، انفرط عقد حكومة الحكيم لخلاف دب بين أعضائها حول مشروع الدفاع المشترك ، فنُقل الموضوع برمته إلى مجلس النواب ، وفي الوقت الذي كانت الاذاعة فيه تنقل مناقشات المجلس على الهواء مباشرة ، انقطع النقل الحي فجأة دون أن يُفهم سبب هذا الانقطاع . .

لقد ران الصمت المطبق حين استقالت حكومة حسن الحكيم ، وتم تكليف الشيخ

معروف الدواليبي ، بتشكيل وزارة جديدة . . وما أن ظهرت مراسم التشكيل حتى بدا أن الدواليبي يحتفظ لنفسه بحقيبة الدفاع أيضاً ، وقد رأى الشيشكلي في ذلك تحدياً له . (حيث يرى العسكريون أن حقيبة الدفاع والشرطة والدرك يجب أن تكون من مسؤولية ضابط عسكري) ، وهكذا وجد الشيشكلي فرصته في هذا التحدي الجديد ، فأعلن بلاغه الأول يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥١ ، وبدلاً من مجلس النواب ، أحيلت وزارة الدواليبي بمعظم أعضائها إلى السجن ، وبدأت مرحلة الشيشكلي المباشرة . .

سيحاول الشيشكلي في هذه الفترة ، ايجاد ركائز لبنائه الجديد ، وستشمل هذه الركائز كلاً من : حزب البعث والعربي الاشتراكي والجبهة الاسلامية الاشتراكية وجبهة الجمهوريين والقوميين السوريين ، وقد اشترط من أجل إطلاق سراح الدواليبي وأعضاء وزارته الموافقة على الاستقالة وحل المجلس النيابي ، وبذلك يدفع بحزب الشعب ومشاريعه إلى خارج السلطات ، فكان له ذلك . .

لقد أطاح الجيش بكل (مزاعم) النظام البرلماني ، وبات يشرف مباشرة على السياسة الواعدة بنصر مؤزر .

كان الاستاذ أكرم الحوراني إلى جانب الشيشكلي في هذه الأيام العصيبة ، لكنه كان يستشعر خطورة السوريين القوميين اللاعبين من خلف ستار ، وكان البعث لا يثق بالأنظمة العسكرية أصلاً ، وقد تحدث جلال السيد (أحد مؤسسي الحزب) عن مخاطر تدخل الجيش في السياسة ، ورأى في مشاركة الحزب ، ما ينأى به عن جادة المبادئ (الأصيلة) التي قام عليها . .

وكان الشيوعيون المحظورون ، قد صاغوا نضالهم السري ليوم تشخصُ فيه الأبصار . . ربما من ثقوب الأبواب الحديدية الصدئة (لزنزانات) المنفردة في سجن المزة أو الشيخ حسن . . في دمشق .

وكان حزب الشعب الذي مازال ينمتع بمؤيديه ، يضرب على باب الدستور ، أو الديمقراطية المفقودة ، فلا يجد إلا شعباً واجماً بات يتفرّج . .

وكان الجميع في حالة انتظار لما سيفعله السيد الحقيقي في الحلبة ، لكن الشيشكلي لم يكن أكثر عبقرية من سابقيه ، حين آمن (بالترتيب والنظام والعمل) ، على أساس نظرية مبسطة تقول : بأن الشعوب يمكن أن تدار بنفس الخط الذي تدار به الجيوش ، وأن الفارق يمكن أن يكون في تحويل المحاكم القضائية إلى محاكم ميدانية ! . . لكلّ ذي تطلّع أو إطلاع .

كان البرنامج الذي بُني عليه مرسوم توزيع أراضي الدولة (المرسوم رقم ٩٦ بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٢) حسَن النّية من جميع جوانبه الإنسانية ، لكنه كان يفتقر إلى الإعداد ، فأراضي الدولة كانت ما زالت مجهولة (غير مسجلة) وغالباً ما كانت التعديلات تحل محل المرسوم نفسه ، بحيث بات هو التعديلات ، فيما الاستثناء هو نصّه الأصلي ، كانت الرومانسية السياسية بطلب العدالة تجرف كل شيء أمامها ، فالاشتراكيون الذين يقودهم أكرم الحوراني ، أعلنوا بأن (الأرض للفلاحين) ، وقد هاجم الفلاحون ملاّك الأراضي في أواسط سوريا ، وكان اجتماع حلب الحاشد ، منتصف أيلول ١٩٥١ ، قد ضم ألوف الفلاحين الذين وفدوا من جميع المحافظات السورية ، وكان المهرجان بمثابة تحذير بشن حرب طبقية ، في حين مُنعت الاتحادات التجارية من النشاط السياسي . .

على الصعيد الداخلي ، فقد أُخضع الأجانب والأقليات العنصرية لرقابة صارمة ، وقد صدرت لوائح عديدة ، تنظم العلاقات مع الأجانب (تجارة ، صناعة . . .) ومع الدول الأجنبية أيضاً . .

عمد الشيشكلي بمؤازرة أمنائه العامين في الوزارات ، إلى تنظيم المجتمع والدولة .

لدرجة أن بعض الصحف الغربية (التايمز مثلاً) ذكرت بأن سوريا هي البلد الأكثر تنظيماً في الشرق الأوسط كله ، وأصدر الشيشكلي في الأشهر الستة من انقلابه الثاني ، زهاء ٢٢٥ مرسوماً حكومياً تحمل الأوامر والنواهي ، بما فيها رفع سقف العقوبات المدنية . . وحين تمت له السكينة بدكتاتورية عسكرية صارمة ، والرضا بسنوات منعمة بالخير (أمطار غزيرة ومواسم وفيرة لسنوات) استدار الشيشكلي ليتفحص رفيق سلاحه المصري الذي أعلن ثورة تموز في مصر لتوّه .

كان الشيشكلي مستديراً للقاهرة دون ثورة ، وفي الأساس ، فإن نظام الشيشكلي كان محسوباً على المحور الآخر (القاهرة - الرياض) لكن دون قطع شعرة معاوية تماماً مع الهاشميين . . وبسياسة الأمر الواقع التي تفرضها القاهرة على الجامعة العربية ، جنحت الدول العربية للاعتراف بنظام الشيشكلي الجديد ، وقد ربط الشيشكلي تفاهمه مع حلف الأطلسي بانهاء النزاع المصري - الإنكليزي حول استقلال مصر التام ، وقد رفض الشيشكلي مشاريع النقطة الرابعة الأمريكية لأن حلفاءه الداخليين ، واظبوا على اطلاق شعار الحياد ، واعتبروا التقارب مع الغرب خيانة ، ونظراً للمعايير المبدئية التي كان البعث والعربي الاشتراكي يضعانها في المقام السياسي الأول ، فإن قيداً بدا أنه يسبب للشيشكلي عرقلة الحركة ، وقد ارتأى كخطوة أولية أن يستنجد برفاق الماضي من السوريين القوميين (عصام المحايري كان صديقه الدائم) ، على أن يشرع بحل الأحزاب السياسية بما فيها البعث والاشتراكي . . وكانت مقدمة الاحتكاك الأولى مع الأحزاب السياسية الفاعلة في الحياة السورية .

في الخطوة الثانية ، سيجد الشيشكلي بديله الوحيد في حركة التحرير العربي ، وهي منظمة سياسية مصنوعة في دوائر النظام الليلية ، وهو ما ستدأب على صنعه ، الانقلابات العسكرية فيما بعد . .

وهكذا وضمن برنامج اشتمل على واحد وثلاثين نقطة ، دخل الشيشكلي (وحركة تحريره) عالم السياسة . .

ومنذ أن نصب نفسه رئيساً للجمهورية ، بدلاً من الدريئة التي كان يكمن خلفها (اللواء فوزي سلو) ، فقد راح الشيشكلي يزيد من صلاحياته الديكتاتورية .

سيتهم الحوراني في بيان له لصحيفة الدستور اللبنانية (٥ كانون الثاني ١٩٥٣) بأن الشيشكلي أقدم كأسلافه على (كبت الحريات وتقييد الصحافة واضطهاد المعارضة ، وهو دائب على تنفيذ خطط الدفاع الغربية) ثم أضاف متسائلاً بسخرية :

كيف يمكن للإنسان أن يفسر بناء هذه الطرق والمطارات الاستراتيجية بأموال الضرائب؟ ونحن نعلم جيداً ما هي إمكانتنا ، والاتفاقات التي وقعت مع شركات البترول ، يمكن أن تجيب على ذلك .

وما بين كانون الأول من العام ١٩٥٢ حتى أوائل شباط من العام ١٩٥٣ فقد جرت مياه غزيرة في نهر بردى ، وكان العاصي فائضاً ، فانتشرت القلاقل في أوساط الطلبة والجيش ، وكانت الصحافة تزيد النار اشتعالاً حين تم إطلاق دستور الشيشكلي الجديد فيما ملامحه تشير إلى نظام رئاسي على الطريقة الأمريكية ، ليس فيها من أمريكا إلا (الرئاسة) نفسها . .

كانت المادة الأولى من الدستور تشير إلى أن (سورية جمهورية عربية ديمقراطية ذات سيادة) وفُهم أن التأكيد على الجمهورية ، كان يعني النأي عن احتمالات فيدرالية سورية - عراقية بنظام ملكي ، ولكن الذي كان أبعد ذلك ، اسقاط عبارة (برلمانية) من نص الدستور . .

وفي المسرحية المكرورة لنتائج التصويت (سواء على الدستور أو على منصب الرئاسة) سيجد التاريخ نفسه بحالة تورط مع التكرار ، وذلك نقيض ما يقول به ماركس عموماً . .

ستكتسح حركة التحرير الشيشكلية مقاعد المجلس النيابي الذي صيغ على طريقة العسكريين (إذ قاطعت أو مُنعت جميع الأحزاب من المشاركة الفعلية) باستثناء التحرير والسوريين القوميين ، وانتُخب السيد مأمون الكزبري رئيساً لهذا المجلس الجديد . .

وبارتقاء المجلس مقاعده النيابية تحت قبة البرلمان السوري ، كانت الأمور قد وصلت إلى الذروة ، ولم يكن يخفى على الضابط المُحنّك ، ما كان خافياً تحت الرماد ، ولأكثر من مرة ، كان يصرح لأصدقائه المقربين أن (أعدائي يشبهون الأفعى رأسها في جبل الدروز وبطنها في حمص وذنبها بين حماة وحلب . . والمهم أن تقطع الرأس) ، وقد آن قطع الرأس ، حين وصلت نسخة من ميثاق حمص الشهير* ، إلى الشيشكلي تدعو إلى العصيان المسلح في جميع المحافظات السورية ، وكان ذلك في تموز من العام ١٩٥٣ ، وقد استبق الشيشكلي العصيان بموجة داهمة من الاعتقالات مع محاصرة منزل قائد الثورة السورية سلطان باشا الأطرش ، وقد وجه الشيشكلي قواته المسلحة إلى الجبل ، فاصطدمت طلائعها بجمهرة مسلحة كبيرة كانت ترابض عند القريا ، ثم ما لبث الصدام أن أخذ منحى آخر ، حين راحت الأسلحة الثقيلة تعززها الطائرات بدك مواقع الجبل ، في الوقت الذي بدأ فيه هروب الزعماء إلى الأردن . .

وكانت هذه المذبحة ، مقدمة للأيام المعدودة من عمر الشيشكلي حين أعلن النقيب مصطفى حمدون ، إشارة البدء العسكرية من مدينة حلب .

ومن إذاعة حلب نفسها ، أعلن حمدون يوم ٢٥ شباط ١٩٥٤ ، بيانه التالي : (إن هذا ليس ببلاغ ، لكنه بيان عهد ونداء ، إنه اعتراف بحالة أوصلت الجيش والشعب إليها ، حفنة من الأشرار ، وهو عهد لمحو الخزي والعار ، وهوَ نداء لحمل السلاح والدفاع عن الشرف*) .

---

* اتفقت جميع الأحزاب في جلسة سرية عقدت في حمص ، على ترتيب الوضع للبدء بالعصيان ، وكان في المخطط أن تقوم كل محافظة بما تملك ذاتياً بتحرير نفسها ، على أن تكون إشارة البدء من جبل العرب ، وقد أخطأ البعث يومها ، حينما عمد إلى توزيع منشورات سرية في السويداء وبعض القرى الأخرى تدعو إلى إسقاط الدكتاتور . .

* عن صحافة سورية ولبنانية . . أما لماذا لم يقاتل الشيشكلي وهو الأقوى بكل المقاييس آنذاك ، فيردّه البعض إلى رفض الشيشكلي مبدأ اقتتال الجيش واضعاف سوريا ، فيما يردّه البعض الآخر . إلى النفسية التي عاشها بعد اقتتال الجيش مع الشعب في الجبل ، فآثر الانسحاب ، وقد تردد أيضاً أن الشيشكلي غادر سوريا خشية تدخل الجيش العراقي في النزاع .

وبعد لأي ، حيث كان ضباطه يرفضون الاستسلام ، أذاع الشيشكلي بياناً وطنياً لا يفتقر إلى قوة الحجة :

(رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الذي أُحب ، والجيش الذي أُعز ، والأمة التي خدمتْ . . أتقدم باستقالتي إلى الشعب السوري المحبوب . . وابتهل إلى الله أن يحفظه من كل سوء ، وأن يوحّدهُ ويزيده منعة ، وأن يسير به إلى قمة المجد) .

ثم غادر الشيشكلي دمشق إلى بيروت ليلاً ، ومن هناك إلى السعودية . هذا وسيرحل مع طائرة الشيشكلي ذلك النسق من الانقلابات العسكرية في سوريا ، لكن إلى حين . .

فقد استعدّ رفاق أكرم الحوراني في الجيش (حمدون وقنوت والباشا والأمير . . .) الذين كانوا وراء الانقلاب مع قطعات أخرى في دير الزور واللاذقية . . استعدوا جميعاً لتسليم مقاليد السلطة إلى المجلس الذي حُل من قبل .

رابعا / ثورة على الجندول - عابدين*

تحولت فرصة الاحتفال بميلاد الأمير إلى ذهول، حين راحت سماء القاهرة تلتهب . وفهم الأمر، وافترّ ثغره عن ضحكة نيرونية مصغّرة ، لكنها دون عزف ، كانت بين المرارة والشماته . .
كان حزيناً للقاهرة التي تحترق . .
وكان شامتاً لما آل إليه حزب الوفد خصمه . .
ترى هل تمضي مصر مع مليكها هكذا . .
بين الضحك والبكاء ؟ ! . .

---

* إشارة إلى قصر الملك فاروق في القاهرة .

لُخصت رسالة حرب فلسطين بآخر كلمات نطق بها الضابط المصري الذي استُشهد في النقب وهو العقيد أحمد عبد العزيز :

(اسمع يابني . . إن ميدان الجهاد الأكبر هو هناك . . . في مصر) .

كانت كلماته الوداعية تدعو للبكاء مرتين : مرة على الشهيد الجسور الذي راح ضحية خطأ من حارس صديق ، ومرة على فلسطين التي راحت ضحية استهتار الملك وألاعيب البريطانيين وجشع مجتمع الباشوات مع القياصرة والآخرين . أما الذين عرفوا الشهيد في قتاله المقدام نحو القدس ، فربما أضافوا إلى كلماته الوداعية عبارة : الجهاد ضد عدم الكفاءة أيضاً .

كانت معركة الفالوجة التي استدارت من حالة الهجوم إلى حالة الحصار ، قد قررت الحاجة إلى الثورة ، وقد تأكد لناصر أنه قائدها ، عندما حماه مصحف في صدره ، من رصاصة اسرائيلية بدت قاتلة ، وخلال السنوات التالية التي اشتد فيها اليأس الوطني أطلق أفكاره في استطلاع للمستقبل ، فكانت النتيجة (فلسفة الثورة) ، وقد خشي عبد الناصر من عواقب تنصيب نفسه فيلسوفاً فاستدرك قبل أن يمضي في مشروعه قائلاً : -

(قبل أن أمضي في هذا الحديث ، أريد أن أقف قليلاً عند كلمة فلسفة ، إن هذه الكلمة ضخمة وكبيرة ، وأنا أحس حيالها أني أمام عالم واسع ليس له حدود) .

ومن فترات الدراسة ، رغم العثرات والتجريب ، تبرز كإحدى أغاني أم كلثوم الطويلة ومضات من الحقيقة ، هي أقرب لاشتقاقات واقعية منها إلى الفلسفة : (لكل شعب من شعوب الأرض ثورتان ، ثورة سياسية يسترد بها حقه في حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فُرض عليه ، أو من جيش معتد أقام في أرضه دون رضاه ، وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد) .

ومهما تكن وجوه الحقيقة المقنّعة ، فقد بدأ ادراك المسألة على الشاكلة ذاتها في تركيا – أتاتورك أولاً ، وربما يفسر الاستقلال الوطني غير المنقوص ، وإشاعة العدالة الاجتماعية، إحدى وجوه هذه الحقيقة في مصر ، مثلما جاءت على يد أتاتورك كبرنامج وليس كفلسفة . .

لقد كان بالإمكان ، أن يستخدم صاحب معركة غاليبولي المظفرة *، تعابير من نوع : استكشاف أهدافنا والطاقات التي يجب أن نحشدها . . غير أن الفالوجة لم تكن نصراً ، بل هزيمة مريرة ، وكان السبب في ذلك خصمه الداخلي ذاك الذي يحمل آثاراً أوروبية ، لا في ملبسه وظاهرية تقدّمه كما أُوحي لأتاتورك ، بل وفي روحه أيضاً . .

كان أتاتورك يعزو هزيمة تركيا لذاك الانتساب المتخلّف إلى الشرق وعقليته البائدة ، وكان يرى في الغرب مثلاً لاسترداد الدور التاريخي لتركيا في العالم ، وليس المنطقة فحسب ، وكان عبد الناصر يعزو هزيمة مصر لخصومها الأوروبيين – الذين لم يكن فاروق نفسه – بيدهم أكثر من دمية ، ونقيض الخصم هو الصديق ، فلا يمكن لمثَل الغرب أن يُحتذى ، بل العودة إلى عوامل التخلف العميقة في الشرق نفسه ، لاستخلاص عروق الذهب من تراثه التليد . .

كان أتاتورك يريد أن يسحب تركيا من الشرق ليحيلها إلى الغرب وحضارته المتقدمة ، وكان عبد الناصر يريد أن يسحب مصر من الغرب ، ليردّها إلى أصالتها المشرقة في القومية والدين . .

لقد رأى ناصر مصر – المُسيطر عليها بسبب عبقرية الزمان والمكان – قوة جذب لدوائر ثلاث : العربية ، الأفريقية ، والإسلامية .

فمصر تتكلم العربية ، وهي في أفريقيا ، وتسعة من كل عشرة مسلمون ، لكن

---

* سبق ذكر هذه المعركة في الكتاب ، حيث تمكن أتاتورك من سحق هجوم يوناني على الأراضي التركية ، وكانت النتائج في غاليبولي هزيمة مريعة للجيش اليوناني الذي بدأ يفر مذعوراً إلى الوراء . .

عصب التحرك المادي ، كان معطوباً ، فالذهب المخزون عند تجار بغداد ، وقطن اليشوية في مصر ، ولؤلؤ الخليج . . كلها لا تكفي لوضع قاعدة الانطلاق ، ولما كان عبد الناصر الميّال لغاندي والكاره للعنف ، قد رأى كيف انتقلت عاصمة انتاج البترول من الولايات المتحدة إلى السعودية ، فقد غض الطرف على حكم يمكن أن يسعفه حين الحاجة ، من أجل تأمين الوقود المطلوب . .

كان عبد الناصر يراقب من الفالوجة ، مملكة فاروق الآيلة إلى السقوط ، أما حسن البنا الذي مات شهيداً ، فلا يستطيع أن يحكم من القبر ، ولما أعلن فاروق نفسه ملكاً على مصر والسودان ، ضحك عبد الناصر من الألقاب الطائرة في الهواء ، فالجيوش البريطانية ما زالت في مصر فضلاً عن السودان ، ثم بعد المملكة الصورية ، تزوج فاروق من ناريمان صادق * ، لكن الزواج جاء كمسرحية ملكية ، لم يحضرها الشعب ، وبالرغم من دعم فاروق للهجمات الوطنية المصرية ضد قواعد الإنكليز في القناة ، إلا أن النتيجة لم تكن أفضل من نتائج الحرب في فلسطين ، فقد وضع الشعب في قرارة نفسه ، أن كل ما يجيء من القصر ملهاة ، وأن كل ما يفعله الوفد مبكاة ، وبينما المسرحية على أشدها ، نشب حريق القاهرة في أواخر كانون الثاني من العام ١٩٥٢ .

إن قصة حريق القاهرة ، تعطي من بين الدخان والآكام ، حقيقة الوضع الذي وصلت إليه مصر قبيل منتصف سنة الثورة المصرية . . أما الشرارة التي أشعلت النار ، فجاءت من قائد منطقة القناة البريطاني ، حيث وجّه أوامره لمركز بوليس مصري بالرحيل عن المنطقة . . أو التسليم . . وبتعليمات من وزير الداخلية الوفدي ، رفض قائد المركز المصري الإذعان لتحذير القائد البريطاني ، وسرعان ما فتح الإنكليز النار على مركز البوليس المصري ، فيما بدا أن الصدام المسلح سيسفر عن نتيجة متوقعة ، ورغم ذلك ، فإن الاستبسال المصري لم يمكن الإنكليز من احتلال المركز ، ودارت رحى معركة إضافية سقط

---

* لا نعلم إن كانت ثمة قرابة مع اللواء أحمد فؤاد صادق ، الذي أرسل بديلاً عن اللواء المواوي في الأشهر الأخيرة من حرب فلسطين ، غير أن اللواء صادق كان متفهماً لحقيقة أوضاع الجيش المصري وتطورات الوضع القتالي على الجبهات ، وقد أخذ بنصائح اللواء المواوي والعميد نجيب في كثير من الملاحظات العسكرية التي أبدياها . .

خلالها سبعون شرطياً مصرياً شهداء على أرض المعركة ، وانفجر الدم في شرايين شعب النيل ، وتدفق الألوف إلى شوارع القاهرة ، حيث بدأ احراق الملاهي والخمارات ودور السينما والمخازن الأجنبية الضخمة وفندق شيبرد . . . ودلّت الأهداف المحترقة ، على أن الاتجاه الشعبي الاسلامي ، كان وراء ذلك ، وبدت إشارة الاتهام للاخوان المسلمين . . وعند المساء دُعي الجيش لاخماد الحريق .

تعاقبت على الحكم بعد حريق القاهرة ، ست حكومات بمعدل حكومة لكل شهر ، **وفي ١٠ تموز كان عبد الناصر ولفيف من أقرانه الأحرار ، يستمعون على (اسطوانة كايرفون) مقطوعة لكورساكوف اسمها شهرزاد ، وحين رفع الإبرة عن الاسطوانة ، كان الديك يؤذن بانتهاء ليلة جديدة ، لكنها كانت الليلة الأخيرة بعد الألف ، من ليالي شهريار الملك ، وضرب عبد الناصر على طرف الطاولة الصغيرة وقال : سنضرب أواخر هذا الشهر ، ولما تناهى إلى الاسماع خبر اكتشاف فاروق لبعض من خيوط العمل السري ، قدّم عبد الناصر موعد ضربته اسبوعاً واحداً ، إلى ليلة ٢٢/ ٢٣ من تموز . .**

كان الانقلاب سهلاً كصيد فرس النهر ، أو ما يسمى مصرياً بـ(سيد قشطة) ، إذ لم يبد أن قصر عابدين يحاول الدفاع عن مُلك أجداده ، وربما جاء الحظ العاثر على جنديين صعيديين كانا بحراسة القصر آنذاك ، وغيرهما لم تسفك دماء ، وأعلن السادات بصوته التمثيلي الرصين ، نبأ الانقلاب من راديو القاهرة ، وتبين أن الملك لم يكن في القصر ، بل في استجمامه السنوي على شواطئ الاسكندرية ، ويقال أن السفير الأمريكي (جيفرسون) في القاهرة ، كان قد نصح الانكليز بعدم التحرك (هؤلاء الضباط الشباب بمثابة أولاد لي) وهكذا كان فاروق مديناً في حياته لا للضغط الأمريكي فحسب ، بل لشيَم عبد النّاصر الأخلاقية ، ويروي السادات في كتابه (يا ولدي . . هذا عمك جمال) أن عبد الناصر لم يكن يوافق إطلاقاً على قتل الملك فاروق ، ويقول السادات على لسان عبد الناصر (**رأيتُ أننا إذا بدأنا بالعنف والدم كثوار فرنسا ، فإننا لن نتوقف أبداً . . فآثرتُ ڤولتير**) (وكان عبد الناصر متوتراً حين هدد بالإنتحار إذا أقدم أي منا على قتل الملك) . .

أما محمد نجيب ذو الرتبة الأعلى في قيادة الثورة ، فعلى الرغم من أنه لم يكن منذ البدايات ، إلا أنه كان معجباً بقرار عبد الناصر الأول : عدم جواز قتل الملك .

سوف يبحر حفيد الخديوي الذي افتتح قناة السويس على متن يخت ملكي ، بعد أن وقف احتراماً لنشيد مصر ، فيما كان قادة الثورة ، يؤدون له التحية العسكرية الواجبة .

كانت كلماته المختلطة مع أصوات موج البحر ، تشبه واقعة هرقلية حديثة * ، تكاد لا تُسمع ، وحين أتاحت موجة طويلة مجال الصمت المسموع ، كانت كلماته أشبه ما تكون بمأثرة ملكية عندما تجيء لحظة الحقيقة :

- أتمنى لكم التوفيق في مهمتكم الصعبة .

وغادر فاروق مصر إلى الأبد ، ليدفن في خمرة الليالي الأوروبية ، ذكريات تليدة عن أمجاد أجداده الغابرين .

كانت أيام الثورة الأولى ، حافلة بالشباب والحيوية ، وعلى الرغم أن عبد الناصر كان قد أجرى اتصالات سرّية مع جيفرسون كافري سفير الولايات المتحدة قبيل الثورة عن طريق ضابط في المدفعية هو عبد المنعم أمين ، إلا أن عبد الناصر كان يتفهم وضع القوى المختلفة في عالمه الجديد ، فالولايات المتحدة ، بعد حوادث الاحتكاكات النفطية مع الشركات البريطانية في السعودية ، بدأت تفكر بالدخول العريض إلى منطقة الشرق الأوسط ، **ولم يكن عبد الناصر خاضعاً للمشيئة الأمريكية ، بل بالعكس ، فقد أراد توظيف التناقض لمصلحة مصر ، خاصة وأن أمريكا بدأت بالتحول إلى قوة كبرى ، وأن بريطانيا المتحولة إلى دولة عادية ، بدت في حالة تلقّي لتأثيرات أمريكية مباشرة *** .

---

* حين بدا أن الجيش الاسلامي بقيادة خالد بن الوليد ، بات على مشارف دمشق بعد هزيمة اليرموك ٦٣٦ ميلادية ، وقف امبراطور الروم هرقل على جبل قاسيون مودعاً : السلام عليك ياسوريا ، سلاماً لا لقاء بعده .

* كانت معونة أمريكا الاقتصادية لترميم الامبراطورية بعد الحرب ، تقدر بالمليارات ، ولم تكن بريطانيا تستطيع الوقوف على قدميها ثانية لولا المساعدات الاقتصادية والمالية والعسكرية الأمريكية .

أما الاتحاد السوفييتي فقد هاجم الثورة المصرية ، ورماها بالعمالة لأمريكا على حساب الانكليز ، وكانت الأحزاب الشيوعية في المنطقة باستثناء (حركة حدتو) الشيوعية المصرية ، تعزف معزوفة موسكو في الاتهام الموجه (للانقلاب العسكري الذي حدث في القاهرة) .

لقد حاول الأمريكيون منذ البداية ، جر مصر - الثورة إلى دائرة الأفكار الجديدة عن الدفاع المشترك (الشرق الأوسط) أو الأحلاف الجديدة بما فيها مشروع أيزنهاور ، إلا أن عبد الناصر كان يرد على ذلك ، بتحقيق الجلاء والاستقرار والاصلاح ، إذ كيف لبلد متخلف أن يدخل شريكاً مع قوة عظمى سواءً في حالة حرب أو علاقات اقتصاد متبادل ، وهو على هذه الدرجة من الضعف والتفكك . .

وكانت إجابات عبد الناصر من المراوغة ، ما يتيح المجال لعدم إفساد الموقف مع الأمريكيين ، بعد أن أصبحت المعركة مع الانكليز على مسافة رؤية النظر . .

يقول خالد محي الدين في كتابه (والآن أتكلم ص ١٩٢) :

(لقد كنا ككل المصريين ، أعداء للاحتلال البريطاني ، بل لعل مبرر نشأتنا كتنظيم ، ومبرر قيامنا بالثورة ، كان بالأساس العمل على تحرير مصر من يد الاحتلال البريطاني ، وظلت قضية الجلاء هي الهم الأول لنا جميعاً ، فإنْ لم يتحقق الجلاء كاملاً وناجزاً تكون الثورة بعيدة عن تحقيق هدفها ، بل وستفقد مبرر بقائها) .

أما القضية الوطنية الشاملة في ذلك الوقت ، فلم تكن تعني تحرير مصر وحدها فقط ، بل كانت تشمل وحدة وادي النيل أيضاً .

كان السودان هو الصخرة التي غالباً ما تحطمت عليها مفاوضات مصر مع بريطانيا ، وكان حزب الوفد يرفض مقولة الاستفتاء الإنكليزية في السودان ، ويقول فؤاد سراج

الدين نائب النحاس في الوفد (**فكرة الاستفتاء كانت مرفوضة من أساسها ، لأنه لا يمكن استفتاء أسيوط مثلاً ! . .**) .

هكذا كانت مصر تنظر إلى الوحدة العضوية لوادي النيل .

وكان من بين ١٤ عضواً في مجلس قيادة الثورة ، ثلاثة لهم صلات تاريخية أو خاصة مع السودان : محمد نجيب وصلاح سالم وأنور السادات . فقد ولد نجيب في السودان لأبوين مصريين قُبرا هناك ، كما أن صلاح سالم ولد في جبال السودان أيضاً ، وكانت أم أنور السادات سودانية . .

وفي أوائل العام ١٩٥٢ قبيل الثورة ، كان النحاس باشا قد ألغى معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتي السودان ١٨٩٩ (باسم مصر عقدنا المعاهدات وباسم مصر نلغيها) وعندها أعلن الحاكم البريطاني العام دستور الحكم الذاتي للسودان . .

كانت التنظيمات الشيوعية في وادي النيل ، قد أصدرت برنامجها في السابع عشر من نيسان عام ١٩٥١ ، حيث في جملة ما تضمن البرنامج (حرية الشعب السوداني وحق تقرير مصيره بنفسه ، وتأييد كفاحه من أجل التحرر الكامل **وجلاء جميع القوات الاستعمارية البريطانية والمصرية من أراضيه**) .

وفي مفاوضات الأحزاب السودانية مع قادة الثورة المصرية في تشرين الثاني من العام ١٩٥٢ ، اتفق الجميع على توحيد الأحزاب في هيئة حزب واحد هو (الحزب الوطني الاتحادي) وباستثناء حزب الأمة السوداني ، وأصبح اسماعيل الأزهري رئيساً للحزب الجديد . .

كان صلاح سالم مكلفاً بالمسألة السودانية ، أما محمد نجيب فقد أرسل بمذكرة إلى البريطانيين تحمل اقتراحات لا قبل للإنكليز برفضها : -

١- تهيئة الجو المحايد من أجل تقرير المصير في السودان .

٢- تمكين السودانيين من ممارسة حكمهم الذاتي بالكامل .

وكان هذا التبدل المفاجئ في موقف المفاوض المصري ما دعا الإنكليز للدهشة والقبول . .

لم تستمر المفاوضات الإنكليزية – المصرية بخصوص السودان طويلاً ، فبالإضافة إلى عدم الإكراه الذي كان يؤمن به محمد نجيب ، إلا أنه كان واثقاً من أن المواطن السوداني لن يقبل بأقل من وحدة وادي النيل بديلاً . .

كان الاستفتاء يجري بالتصويت على أحد بندين : –

– الاستقلال التام للسودان (أي برحيل الانكليز والمصريين على حد سواء)

– ارتباط السودان بمصر على أية صورة (وقد يكون بما فيها بقاء الانكليز في السودان) .

وكان التصويت على الاستقلال التام ، أملاً بالوصول إلى اتحاد مع البلد الشقيق في المستقبل . .

كانت مياه غزيرة قد تدفقت من نهر النيل ، خلال سنوات الانتقال الثلاث التي فرضتها الاتفاقية الإنكليزية – المصرية ، فحيوية صلاح سالم وأسلوبه الذي كان يتفق مع طبيعة تكوينه* . . كل ذلك كان قد مهّد السبيل لاسترداد وحدة وادي النيل ، فقد فاز الوطني الاتحادي بأغلبية ساحقة في انتخابات كانون الثاني من العام ١٩٥٤ وتولى اسماعيل الأزهري أول وزارة سودانية بعد الاتفاق . . .

قبل ذلك بعام ، أي في كانون الثاني من العام ١٩٥٣ ، كان عبد الناصر يخطب في شبين الكوم خطاباً مشتعلاً (إما الجلاء عن القنال أو القتال حتى الموت) وقد أتبع خطابه بتصريح لجريدة الأخبار القاهرية يوم ١١ كانون الثاني من العام نفسه ، (لن تستطيع الدول الغربية أن تخدعنا بوعودها المعسولة إذا ما نشب صراع ثالث ، ونحن بعد غير معترف

---

* وصفته الصحافة الإنكليزية بالصاغ الراقص في الغابات السودانية ، وقد حدا ذلك بتشرشل إلى التعليق ساخراً : على وزير خارجيتنا أن ينزع ثيابه ويشرع في تعلم الرقص الافريقي على جناح السرعة !. .

على أن صلاح سالم كان أخطر من مجرد راقص افريقي ، فقد بدا لتوه قادراً على سحب البساط السوداني من تحت أقدام الانكليز فعلاً . .

بحقوقنا المشروعة بالاستقلال التام) ، وورد محمد نجيب على تشرشل برسالة متوترة (إن معاهدة ١٩٣٦ الملغاة فُرضت على مصر تحت حراب قوات الاحتلال ولم تكن برضاها) .

غير أن ثورة تموز آثرت منذ البداية ، طريق التفاوض على طريق الكفاح المسلح ضد الانكليز ، وكانت بذلك توازن بين ٨٠ ألف جندي بريطاني مع أكبر قاعدة مسلحة في الشرق الأوسط ، مقابل الألوف من الجنود المصريين العائدين بمرارة الخسران من فلسطين . .

وكان في نجاح المفاوضات مع السودان ، ما يبعث على المضي قدماً ، في الطريق نفسه ، ففي نيسان من العام ١٩٥٣ تشكل وفد مصر المفاوض لمباحثات جديدة مع الإنكليز ، وكان الوفد برئاسة محمد نجيب وعضوية عبد الناصر وصلاح سالم والدكتور محمد فوزي وآخرين . . .

كان الجانب البريطاني يستهدف ربط مصر بحلف دفاعي عن الشرق الأوسط ، مع ابقاء القناة كقاعدة رئيسية لعملياته في المستقبل . . وكانت الاتجاهات البريطانية المعروضة محل رفض تام من الوفد المصري ، مما أدى إلى توقف المباحثات في الأسبوع الأول من أيار ، واستدعى ذلك تنشيط المقاومة المسلحة على ضفاف القناة ، غير أن هذا النشاط الجديد ، لم يأت كشريط متصل للمقاومة المسلحة العفوية التي شهدتها مصر في الأعوام السابقة للثورة المصرية . .

كان التفاوت واضحاً بين طريقتين ، فقد انطوت الأولى على مجازفات شعبية فدائية عفوية ، لا تأخذ للنتائج أي حساب ، وبدا أن الثانية تتم على أيد خبيرة في سلاح المخابرات المصرية (زكريا محي الدين ، كمال رفعت ، لطفي واكد وآخرون) ، تتحرك ضمن خطوط مسقوفة ، وتحقق عمليات ناجحة ، ولكنها لم تكن لتلتقط حرارة الجماهير أو تتحرك في أحضانها ، مما يعمل على بعث مدرسة وطنية تزداد اتساعاً وتأثيراً . .

وهكذا اختفت من المعركة أعلام الاخوان المسلمين ، وكتائب الوفد ، ومصر الفتاة والشيوعيين ، ولم يعد هناك سوى علم واحد ، هو علم الثورة المصرية ، أو بصورة أدق ، علم الضباط الشبان ، الذين لا يعرف أحد ، من أين أتوا ولماذا ، وإلى أين هم ذاهبون . . كانت فرحة القضاء على الملكية ، تغيب شعبياً مع مقدمات انتزاع السودان من وحدة الوادي ، وزيارات جون فوستر دالس وتقرّب الأمريكيين المراوغ . .

وكانت القوى الوطنية المصرية ، رغم وجه أمريكا الجديد ، ضد السماح للأمريكيين باداء دور سياسي بديل ، وظهر ذلك جلياً في سياسة الوفد وأحزاب مصر الفتاة والوطن الجديد والشيوعيين . . وقد كشفت أمريكا الستار عن موقفها أثناء عرض النقراشي لقضية مصر على مجلس الأمن ، حين ربطت المعونات الأمريكية بضرورة التفاهم مع الإنكليز أولاً . . غير أن ذلك لم يحل دون النصائح الأمريكية المتكررة فقد ظلت الاتصالات مع الانكليز تجري في هذه الفترة ، بهدوء وبعيداً عن الصحافة في كثير من الأحيان ، حتى كانت زيارة دالس* بعد استقالة محمد نجيب من مجلس قيادة الثورة ، واستلام عبد الناصر مهام رئيس الوزراء ، وقد أجرى دالس مفاوضات مطولة (حيث قبلت أمريكا أن تلعب دور الوسيط : مفاوضات مباشرة مع الانكليز ، ووساطة أمريكية دائمة تنسقها السفارة الأمريكية في القاهرة – خالد محي الدين – المصدر السابق ص ١٩٣) .

وهكذا ، تشكل الوفد المصري الجديد ، بعد إبعاد محمد نجيب ، برئاسة عبد الناصر وعضوية عبد الحكيم عامر ، والبغدادي وصلاح سالم والدكتور فوزي أما الوفد البريطاني فقد ضم السفير في القاهرة سير رالف ستينفنسون والميجر بنسون قائد القوات البريطانية والوزير المفوض في السفارة مستر موروي كما حضر المراحل الأخيرة وزير الحربية البريطانية مستر انتوني هيد . .

---

* علق رئيس القسم المصري في وزارة الخارجية البريطانية على علاقات ناصر الوطيدة بالأمريكيين قائلاً : إنني لا أفهم لماذا يفرق الكولونيل ناصر بيننا وبين أمريكا في المعاملة ، يتحدث ضدنا بغضب ، ويتحدث إلى الأمريكيين بعتاب ... من الواضح أن هذا الكولونيل يريد أن يمسّ عصباً حساساً لدى الأمريكيين .

لم يكن الشرق الأوسط يومها هادئاً ولا كان العالم ، ففي ٥ نيسان أعلن راديو موسكو وفاة المارشال ستالين . . وكان العالم يمضي على متن سفينة بدا أنها فقدت بوصلتها البحرية وبات الاتجاه مجهولاً . .

ولم تستغرق المفاوضات طويلاً هذه المرة ، ففي غضون اسبوعين ، تم التوقيع بالأحرف الأولى في مبنى رئاسة مجلس الوزراء المصري ، وناب عن مصر جمال عبد الناصر ، وعن بريطانيا مستر أنتوني هيد . .

ولم تكن السرعة في توقيع الاتفاق ، الذي سيغلق مشكلة سبعين سنة بريطانية في مصر ، إلا نتيجة الوساطة الأمريكية ، وهو ما يذكره زكريا محي الدين وخالد محي الدين والسادات . . وآخرون .

في ٢٢ حزيران سيخاطب جمال عبد الناصر الشعب قائلاً : (إننا نعيش الآن لحظة مجيدة في تاريخ وطننا ، ونقف على عتبة مرحلة حاسمة من مراحل كفاح شعبنا ، لقد وضع الهدف الأكبر من أهداف الثورة منذ هذه اللحظة موضع التنفيذ الفعلي) .

بعد خمسة أيام على الخطاب التبشيري ، كانت الاتفاقية المصرية - الانكليزية تأخذ طريقها إلي التنفيذ فعلاً ، وكان ذلك في ٢٧ حزيران من العام ١٩٥٤ .

لم تكن اتفاقية الجلاء وفق صيغتها الأخيرة ، بحاجة إلى الإعلان كي (تنقسم الأمة) ما بين مؤيد ومعارض وحائر ، فأخبار الاتفاقية قبل أن يشرحها عبد الناصر في ميدان المنشية في الاسكندرية ، كانت قد وصلت إلى الشارع المصري ، وكان أول ما تبدى للعيان ، أن الاتفاقية كانت قد سوّيت على عجل خلافاً لعادة المفاوض المصري في مثل هذه المسائل الحساسة والمعقدة ، وقد نصت الاتفاقية كعناويين رئيسية ، على انسحاب القوات البريطانية في مدة لا تتجاوز ثمانية عشر شهراً ، وعينت مصر قائداً عاماً لقناة السويس هو اللواء علي علي عامر ، كما أنهت الاتفاقية معاهدة ١٩٣٦ وكافة ارتباطاتها : (وكان الوفد قد ألغاها قبل الثورة من طرف واحد) ، واعتبرت قناة السويس جزءاً لا يتجزأ من مصر ، أما حرية الملاحة فمضمونة حسب اتفاقية ٢٩ تشرين الأول ١٨٨٨ في الآستانة .

كما نصت الاتفاقية على بقاء أجزاء من القاعدة صالحة ومعدة للاستخدام ، لتعود إليها القوات الانكليزية ، إذا ما هوجمت دولة من دول معاهدة الدفاع المشترك لجامعة الدول العربية أو تركيا .

وفي حالة التهديد بالهجوم تقوم بريطانيا قبل تحريك قواتها بالتشاور مع مصر .

كان انتوني ناتنغ وزير الدولة البريطاني أحد الأساسيين في الوفد البريطاني المفاوض، ويروي واقعة طريفة في ذكرياته عن هذه المفاوضات فيقول : لم أكن أحمل قلماً للتوقيع على مسودة الاتفاقية بأحرفها الأولى ، فاستعرت قلماً من عبد الناصر ، وبصورة لا شعورية أردت أن أضع قلم عبد الناصر في جيب سترتي الداخلية ، فما كان من عبد الناصر إلا أن توجّه إلي وقال بصورة مداعبة : - (أظن أنكم أخذتم الكثير مني في هذه الاتفاقية ، هل تسمح باعادة قلمي) ! . .

كان لعالم العربي ، الحالم باستقلال غير منقوص ، لا يرى في المواقف السياسية يومها ، إمكانية الحلول الوسط (عدا ندرة من سياسييه) ، وكان (موقف الأبيض والأسود) صحيحاً من الناحية المبدئية ، لو أن الطرف المفاوض كان يمتلك ناصية القوة ، والقوة لا تولد بعد انقضاء شهرها التاسع كالإنسان ، ولم تكن الثورة المصرية تطيق انتظاراً أكثر أمام هدفها الأول ، وربما الوحيد آنذاك ، وكان عبد الناصر يؤكد بقناعة الواثق ، أن تحقيق الجلاء وفق الاتفاقية ، إنما هو انتصار تاريخي ، (فإذا أراد الإنكليز العودة إلى مصر نمنعهم بعد أن نكون قد كسبنا قدراً كافياً من القوة ، فإذا لم نتمكن سنعالج الموقف مع الشعب وفق مستجداته ، لكننا دعونا اليوم نحقق حلماً كبيراً طالما راود المصريين لسنين - خالد محي الدين - الآن أتكلم ص ١٩٤) .

رغم واقعية عبد الناصر ، فإن الاتفاقية جلبت البلبلة إلى الصفوف ، وكان أكثر ما يعاني هو صف الثورة ذاته ، فقد اتهم عبد الناصر باقالة نجيب لأنه يريد تمرير هذه الصفقة،

وتصاعدت الاتهامات حين رمي بميوله للأمريكيين يوم طلب قرضاً لتمويل السد العالي .
ودار لغطٌ حول عدم اعتبار اسرائيل من الأعداء حسب أولويات عبد الناصر ، ولم تصعد اسرائيل على سلّم الأعداء إلا بعد أحداث غزة وحلف بغداد ، ويعتقد خالد محي الدين في كتابه الأخير ص ١٩٢ ، (أن العلاقة مع اسرائيل كانت قائمة بصورة سرية بين السفارتين في باريس وذلك عبر وساطة الولايات المتحدة ، وأن هذه العلاقة استمرت طويلاً عبر قناتين تصب كل منها عند عبد الناصر وحده : عبد المنعم أمين وعلي صبري ، وأن الهدف من ذلك كله ، هو الوقوف على أفكار الاسرائيليين ورؤيتهم للثورة وموقفهم إزاءها) ، وزاد الطين بلة ، يوم بدا أن صلاح سالم دخل مرحلة التخبط في السودان ، مما حدا بالأزهري زعيم تيار الوحدة مع مصر ، إلى التحوّل أمام سياسة توزيع الأموال المصرية في السودان ، وهكذا رفض هدايا مصر العسكرية والمالية ، كما رفض إرسال ضباطه للتدرب في مصر كما كانت تجري العادة أيام الحكم الملكي ، وكانت الخاتمة الحزينة في استقالة نجيب الثانية في ١٤ تشرين الثاني ١٩٥٤ ، ثم كانت مشكلات عمّال كفر الدوار ، حيث أعدمت الثورة عاملين (بسبب الاضراب) ، والحقتهما بثالث اقطاعي هو عدلي لملوم ، في سياسة اعدامات متوازنة ، وما أن قارب العام ١٩٥٤ على الانتهاء (٢٦ تشرين الثاني) حتى انطلقت رصاصات الاخوان المسلمين فوق رأس عبد الناصر وهو يخطب بالمنشية في الاسكندرية ، ورغم أن حسن الهضيبي المرشد العام للجماعة كان قد أقسم على القرآن الكريم ، بأنه لم يكن على علم بالاغتيال ، وأنه سمع به من الاذاعة كما يسمعه أي مواطن عادي ، وعلى الرغم أن شهادة الجاني محمود عبد اللطيف ، لم تشر للهضيبي لا من قريب أو بعيد ، إلا أنه (لا بد من القول إحقاقاً للحق أن الأحكام التي صدرت في قضية محاولة الاغتيال ، كانت شديدة القسوة ولم تقتصر على الفاعلين أو المحرضين ، وإنما وصلت إلى ما فوقهم بكثير - محمد حسنين هيكل - ملفات السويس ص ٣١٢) . .

وكانت سلسلة الاعدامات التي شملت الكبار والصغار بمن فيهم سيد قطب*

---

* صرخ وهو صاعد إلي حبل المشنقة : سيكون دمي لعنة على الثورة ، وقد عاشت الثورة أتعس سنواتها ، حين كانت تنطلق المظاهرات العارمة في شوارع العواصم العربية ، خاصة دمشق . ضد عبد الناصر . .

نفسه، ترمي إلى اجتثاث الحركة من جذورها ، وكادت الاتفاقية أن تكلف عبد الناصر حياته ونظامه ، وهو لمّا يدرج في طور الحضانة بعد ، وكانت الكلفة النهائية ٤ آلاف معتقل مصري في السجون ! . .

ستطوي السنوات اللاحقة ، عثرات الثورة المصرية الأولى ، وسينشر عبد الناصر فلسفة ثورته في نهاية العام ١٩٥٤ ليعلن فيها :

(كنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أتصور أن دورنا هذا لن يستغرق أكثر من بضع ساعات ، ثم يأتي بعدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة إلى الهدف الكبير ، ثم فاجأني الواقع ، فقد قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس ، وطال انتظارها ، جاءتها الجموع ولكنها كانت أشياعاً متفرقة وفلولاً متناثرة ، وبدت الصورة يومها قاتمة ومخيفة ، أحسست وقلبي تقطرمنه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته ، بل إنها بدأت هذه الساعة ، كنّا في حاجة إلى نظام فلم نجد إلا الفوضى ، وكنا في حاجة إلى الاتحاد فلم نجد إلا الخلاف ، وكنا في حاجة إلى العمل ، فلم نجد إلا التكاسل ، وحين ذهبنا نلتمس الخبرة من أصحابها ، فلم نجد سوى أنانيين متحمسين لأخذ الثأر ، أو لاظهار مواهبهم) .

وإنني أضيف اليوم : ومواهبهم النفاقية أيضاً . . .

ستصبح فكرة (الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة) ، مصدر الهام الفنانين في العالم الثالث كله ، وكان من الواضح حتى تلك الفترة ، أن الشعار الرومانسي يحمل خلفية عسكرية لا شعبية ، حيث جاءت صورة الشعب على شكل أشياع وفلول لا على شكل صفوف منتظمة ، كما تصور فلسفة الثورة نفسها ، على أن ما ضايق عبد الناصر ، ذلك البطء الذي منحه الشعب به محبته ، ولم يكن الشعب ملوماً ، إذ لم يقصّر في الاحتفال بإزاحة الملَكية عن صدره ، لكن عرضية الحدَث ، لم تكن تستهوي شعب

مصر، بالقوة التي تستهويه في الجوامع أو المقاهي وصفوف الجامعة وبدرجة أقل في الصالونات والأندية السياسية ، فقد قبع بعد حادثة المنشية في حالة ترقب واستطلاع . ولم يكن الشعب يعرف أحداً من أعضاء قيادة الثورة بعد ، كل ما في الأمر ، أن الثكنات كانت قد خلفت قصر عابدين كمحور للحياة السياسية المصرية ، ولم يكن الجيش مؤسسة شعبية، إضافة إلى أن خيبة فلسطين ، كانت قد وضعته في موقف صعب ، ربما أفضل من ملك ، ولكنه أقل من منقذ .

.....

- الفصل الرابـع -

حروب المصالح الكبرى

اولاً / صراع بين الحلفاء - امريكا وبريطانيا .

المصلحة هي الشيء الوحيد الثابت
في المواقف السياسية .
ميكيا فيلي

لم يكن الخلاف بين الولايات المتحدة وبريطانيا بعد هدوء المدافع في الحرب العالمية الثانية يدور حول هوية الخصم المقبل ، فقد تحدد لتوّه ، وكان يتمثل بامبراطورية الشر الشيوعية ، إلا أن استراتيجية المواجهة المقبلة ، كانت محل نزاع بين لندن وواشنطن على الدوام .

وقد أخفت استراتيجيات المواجهة بين العملاقين الغربيين ، صراعاً كان يضطرم تحت الرماد ، فدور السيد المقبل في منطقة النفط الحيوية ، بدأ يظهر للعيان على غير استحياء ، وفيما فضلت بريطانيا استراتيجية دفاعية تقوم على أساس منظمة عربية - اسلامية مدعومة بقو عد عسكرية غربية استراتيجية ، فإن الولايات المتحدة سعت لبناء استراتيجية مخالفة .

وكان الهدف النهائي للاستراتيجية البريطانية ، يرمي إلي زرع القواعد العسكرية بشكل تضمن معه السيطرة على المنطقة دون منازع ، أما الولايات المتحدة فقد عارضت نظرة الدفاع عن الشرق الأوسط ، ورأت في انفاذها ديمومة للسيطرة البريطانية وحيدة الطرف في المنطقة ، ولذلك سعت إلى استراتيجية مغايرة ، تقول بإنشاء سد عسكري أمريكي - غربي على الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتي . .

ولم تكن المسألة ، استراتيجيات أمنية متضاربة ، قدر ما كانت استراتيجيات مصالح مقبلة ، وقد تفجّر الخلاف صريحاً ، أثناء المفاوضات المصرية - الانكليزية على اتفاقية الجلاء ، ففي حين أصرت بريطانيا على تحقيق الجلاء عن مصر ، بشرط المساهمة المصرية في التنظيم الدفاعي عن الشرق الأوسط (تنظيم بريطاني) ، آثر الأمريكيون الضغط من أجل الإقلاع عن هذا الشرط . .

(إن أمريكا لا ترغب أن يكون لها المركز الثاني في المنطقة ، رغم أنها لا تتحمل المسؤولية الأولى فيها ، إنها ترغب في الوصول إلى حل سريع وبأي ثمن مع المصريين ، وهي تخشى من فقدان التعاطف الشعبي وخسارة تأثيرها على نظام العالم الجديد . . . مما كان له تأثير عظيم إن لم نقل حاسم على مفاوضاتنا مع القاهرة - إيدن - مذكرات . الجزء الثالث ص ٢٥٦) .

وتعود المبادرات الأمريكية بخصوص مسائل الدفاع عن الشرق الأوسط ، إلى بداية الزيارات التي كان يقوم بها مستر دالس* وزير الخارجية أوائل العام ١٩٥٢ أي قبيل اندلاع الثورة المصرية بنصف سنة تقريباً ، لكن عبد الناصر فيما بعد ، لم يشأ الدخول في مجابهة مع الأصدقاء المحتملين ، فظل يشرح محاذير التورط بأحلاف عسكرية اقليمية فضلاً عن خسارة الدعم الشعبي لها ، حيث من المشكوك أن حكومة تفعل ذلك ، ستكون قادرة على قيادة الشعب فعلياً ، إضافة إلى الحجج التي ساقها عبد الناصر أمام دالس ، بأن الأحلاف العسكرية الاقليمية ، لا قيمة لها أمام الصواريخ النووية التي ما عتمت تعبر القارات دون استئذان . .

كان عبد الناصر يريد أن يكسب الوقت ، وكان دالس على خط مماثل . . ومما شجع أمريكا على المضي قدماً ، نجاح الحزب الديمقراطي التركي في أيار من العام ١٩٥٠ ، وقد

---

* يذكر إيدن في مذكراته ، أنه طلب إلى تشرشل رئيس مجلس الوزراء التدخل لدى الرئيس الأمريكي من أجل تبديل دالس بوزير خارجية آخر، وكان يقول عنه : هذا المحامي الذي يريد إدارة السياسه ، مثلما يدير مجالس إدارة الشركات في أمريكا !. . أما كافري السفير الأمريكي في القاهرة فكان يحظى بالمقام الأول من العداوة . .

سبق لتركيا أن اشتركت في الحرب الكورية مع الولايات المتحدة ، وكانت تتلقى منها دعماً (عسكرياً ومالياً) لم يتوقف . .

في آب ١٩٥٣ ستسقط حكومة مصدق في إيران ، وبمجيء حكومة الجنرال زاهدي ، كانت ايران تتلقى دعماً أمريكياً مماثلاً . . وفي كراتشي كان دالس الزائر للباكستان يهتف : إن شحنات ضخمة من القمح الأمريكي أوقفت مجاعة وشيكة في هذا البلد . .

كانت تركيا وايران وباكستان ، نواة الحلف الأمريكي المقبل ، وكانت مصر التي بدأت بتلقي القمح الأمريكي هي الأخرى ، مرشحة لدور مماثل ، وكان عبد الناصر يعلم جيداً خطورة هذا الدور المطلوب ، وراحت الولايات المتحدة تمضي بعيداً لتأسيس (الطوق الشمالي) ضد الاتحاد السوفييتي ، كما راحت بريطانيا تشكو من أن المخططات الأمريكية لا تمر عبر لندن إلا للاعلام وليس المشورة ، وكان دالس (كبلدوزر أمريكي) يريد أن يطيح بكل شيء يعترض طريقه . .

لقد انصب اهتمام بريطانيا بخصوص المبادرات الأمريكية على ردة فعل دول الكومنولث : الهند ومصر وباكستان ، بالدرجة الأولى ، وقد استفادت من انهيار فرنسا في الهند الصينية (معركة ديان بيان فو - نيسان ١٩٥٤) لإعادة ترتيب أوضاع الغرب الدفاعية . .

وعندما دعا دالس كلاً من بريطانيا وفرنسا واوستراليا ، ونيوزيلاندة ، والفيلبين وتايلاند ، ودول الهند الصينية للاجتماع في واشنطن ، بغية النظر في خطط الدفاع الغربي الجماعي ، أعطى إيدن تعليماته لسفيره في واشنطن بعدم الحضور . . (كيف يمكن لأي شخص في هذا البلد ، أن يقيم علاقات إنكليزية - أمريكية وثيقة ، وحليفتنا في الأطلسي ، لا تقيم وزناً لمتاعبنا في الشرق الأوسط ؟ ! . . إيدن - المذكرات) .

لقد شعرت بريطانيا بالسعادة ، وراحت تجلس في استراحة المحارب ، بعد أن تم التوقيع على اتفاقية الجلاء المصرية ، لا لشيء ، وإنما لاعادة استجماع قدرتها واسترداد نفوذها في المنطقة التي بدت وكأنها تعد العدة للانتقال إلى أحضان القوة الأمريكية الصاعدة . . وقدّم نوري السعيد الفرصة الذهبية لبريطانيا حين دعا إلى تقوية ميثاق الجامعة

العربية بادخال تركيا المسلمة ، وبمساعدة المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية ، لتأمين نظام دفاعي يقع على عاتق بلدان المنطقة . .

كان المشروع العراقي الجديد ، بديلاً واضحاً لخطط دالس الدفاعية ، وبدلاً من (الطوق الشمالي الأمريكي) ، فإن مشروع السعيد ، يعيد الوزن إلى العالم العربي من جديد ، وقد أسهب السعيد في وصف محاسن مشروعه الجديد حين قال (سيعود مركز الثقل في النظام الدفاعي إلى العالم العربي ، فالمشاركة العربية الواسعة من كل الموقعين على ميثاق الأمن العربي الجماعي ، سيعطي العراق الدور الأول كهمزة وصل بين العرب وتركيا من جهة ، وبينهم وبين الغرب من جهة أخرى) .

أما المشروع المقترح ، فواضح أنه سيكون تحت الإشراف الإنكليزي وليس الأمريكي ، وسيكتب إيدن بعد التوقيع على حلف بغداد (في ٢٤ شباط ١٩٥٥) : -

(إن مشكلتي مع دالس في العمل ، كانت تنشب في تقرير ما يقصده بالضبط . . إذ لم أكن أفهم مثلاً ، هذا البرود الطويل للسياسة الأمريكية تجاه حلف بغداد في أكثر مراحله حرجاً) .

وكان تقرير إيدن المراوغ ، لا بمثابة وصف حالة راهنة ، بل التهكم عليها . . وفازت بريطانيا في معركة الحلف ، وستتصاعد دراما الصراع في العام ١٩٥٦ ، حين وقوع العدوان الثلاثي على مصر .

ثانيا / مواقف عربية بشأن الحلف ..

لم يكن العراق سعيداً مثل سعادته ، يوم أعلنت الثورة المصرية بيانها الأول على لسان السادات ضد الملكية التي عاثت فساداً في مصر ، وكان طرد الملك ، الذي كان يشكل محوراً مع السعودية ضد العراق ، بمثابة دعوة للعراق كي يطرق الباب من جديد .

وانتظر العراق زهاء سنتين عاصفتين من عمر الثورة الوليدة ، ريثما تصفي حساباتها

الطويلة : مع نجيب والاخوان المسلمين ، ومع الانكليز ، ومع نفسها في المرحلة الأخيرة* ، لكي تستقر على وضع بيّنْ .

وكانت الزيارة الأولى التي قام بها الوصي العراقي عبد الآله بتاريخ ٨ حزيران ٩٥٤ بمثابة جس نبض للسياسة المصرية الجديدة . .

سيقول عبد الآله لعبد الناصر في اللقاء الأول * :

(كنا في حيرة دائمة مع الملك فاروق ، فقد كان يبادرنا بعداء لم نعرف سببه ، وقيل لنا مرات أنه يتهمنا بمحاولة إقامة عرش هاشمي في دمشق . . . ثم قيل لنا ، إننا نحاول إحياء الخلافة الاسلامية على أننا نحن الخلفاء . . وكان يقفل في وجهنا أبواب التفاهم . . ليفتحها في وجه أعدائنا السعوديين الذين اغتصبوا مُلكنا في الحجاز . . .) .

ثم سأل عبد الناصر إذا كان لديه رأي مسبق بالأسرة المالكة في العراق ؟ . .

ورد عبد الناصر بعد أن أسهب بمقدمة تاريخية عريضة عن أهمية ائتلاف وادي الفرات مع وادي النيل على الرقعة الجغرافية والسياسية والانسانية ، مختتماً أنه مؤمن بضرورة التلاقي بين بغداد والقاهرة ، وأنه يبدأ مع العراق بصفحة جديدة ، لا دخل لرسوبات الماضي فيها ، (أو العلاقات الحسّاسة بين الأسر المالكة) . وهنا أخرج عبد الآله سيجارة من علبة تبغه وأشعلها ، فيما ارتسمت على وجهه أمارات التحرّج .

تابع عبد الناصر قائلاً : يا أخ عبد الآله ، لا أكتمك في أمرين : أنني جمهوري النزعة بالطبيعة ، وأننا مهتمون بالمملكة السعودية بحيث نخرجها من العزلة التي يريد البريطانيون والأمريكيون ضربها عليها ، لتخرج بعدها إلى دورها العربي الصحيح . . من هنا فقد أدليت بتصريحات ضد الحلف الذي أقامته تركيا وباكستان (قبل حلف بغداد بالطبع) ، فهذا الحلف يحول أنظارنا إلى جبهة غير الجبهة الحقيقية التي تعنينا .

---

* إشارة إلى خلافات الضباط حول مسائل الثورة والدستور ، البرلمان والديمقراطية ، مع التعددية أم مع حل الأحزاب . . والمسالك الشائكة التي كان لا بد من تجاوزها وصولاً إلى الاستقرار ! . .

* هذا المقطع عن لقاءات المصريين مع العراقيين مأخوذ من كتاب هيكل – ملفات السويس – حرب الثلاثين سنة . ص ٣١٤ – ٣١٥ . والمشكلة أن هيكل لم يظهر صراحة جذور الصراع البريطاني – الأمريكي في مسألة الأحلاف العسكرية في المنطقة ، بل دمجها في سياق مصلحي واحد ! . .

وختم عبد الناصر كلامه قائلاً :

- هم لايريدون مصر بوزنها السكاني وموقعها الاستراتيجي كعنصر في معادلة الأمن العربي .
- وهم لا يريدون العراق لنفس الأسباب وفوقها البترول .
- وهم لايريدون السعودية لنفس الهدف كذلك .
- ومن الضروري لنا جميعاً أن نتنبّه وأن تكون لنا خططنا للدفاع عن أمننا القومي ومصالحنا فلا نكتفي بالتوجه عمياناً إلى خطط الآخرين .

في ١٤ أيلول وصل نوري السعيد بنفسه أخيراً إلى القاهرة ، واستقبله عبد الناصر في المطار ، وفي اليوم التالي ، دعا نوري السعيد جمال عبد الناصر إلى حفلة غداء في السفارة العراقية ، لكنه رجا عبد الناصر أن يحضر قبل وقت كاف من الموعد المقرر .

بدأ نوري السعيد بعرض واقعيته حين قال : لا أستطيع أن أفهم موقفك ضد الأحلاف ، فهذا العصر هو نفسه ، عصر العمل الجماعي ، والدليل على ذلك ما فعلته أوروبا بإقامتها حلف الأطلسي ، وما حدث في آسيا بإنشاء حلف جنوب شرقي آسيا ، ثم أسهب نوري السعيد في تعداد مزايا الالتحاق بالعالم المتطور .

ورد عبد الناصر قائلاً : هذا العصر بالفعل هو عصر العمل الجماعي ، ولهذا فنحن نادي بالإعتماد على ميثاق الضمان الجماعي العربي ، لأنه لم يعد بمقدور أي دولة منفردة أن تقف وحدها .

وأجاب نوري السعيد : على مَنْ يقوم هذا الضمان الجماعي ؟

ثم أردف ساخراً : على اليمن ، أوعلى ليبيا أو لبنان ؟ . .

قال عبد الناصر : لا وإنما على مصر وسوريا والعراق والسعودية . وفي نفس الوقت ، يمكن لليمن ولبنان وتونس أن يكون لها جميعاً أدوار مؤثرة في المستقبل .

تساءل نوري السعيد : ولكن مَنْ يعطينا السلاح ؟ من سيساعدنا إذا هوجمنا ؟ . أنا لست ضد الاعتماد على النفس ، لكن ذلك قد يستغرق عشرات السنين ، ماذا سيحدث

لنا خلال هذه السنين ؟ . .

عمد عبد الناصر عند هذه النقطة إلى إثارة ما هو عسكري في تاريخ (الضابط العثماني نوري السعيد) فقال :

- يجب أن نسأل أنفسنا ياحضرة الباشا* ، ونجيب على السؤال :

من هو العدو المحتمل أن نواجهه ، وما هو مصدر أو مصادر التهديد على العرب ؟ . . وأضاف : عندما نحدد الإجابة عن هذا السؤال نكون قد حددنا في الوقت نفسه ، المهمة التي تنتظرنا ، أنا في رأيي ورأي الشعب المصري ، أن الخطر علينا والتهديد المحتمل مصدره اسرائيل .

قاطعه نوري السعيد : والروس ؟ .

أجاب عبد الناصر : الروس ليسوا خطراً الآن ، فهم بعيدون عنا ، فإذا ما اقتربوا خطوة واحدة ، فمعنى ذلك حرب عالمية ، ماذا سيكون دورنا في حرب ذرية إذا ما نشبت؟ .

رد السعيد : هذا صحيح بالنسبة لمصر ، ولكن ليس بالنسبة إلى العراق ، ما يفصلنا عنهم عبر جبال راوندوز الإيرانية ليس أكثر من ثلاثين كيلومتراً . .

قال عبد الناصر : مع ذلك فهذه الثلاثين ، تعني نشوب حرب عالمية . .

وقفز نوري السعيد من مقعده ليقول لعبد الناصر : أنت لا تصدقني إنها ثلاثون كيلومتراً ، وطفق إلى الباب صارخاً في أعضاء سفارته :

أين الخارطة ، ائتوني بخريطة كبيرة . . وحاول عبد الناصر أن يفهمه بأنه يعرف الحدود تماماً كما شرحها نوري السعيد ، لكنه لم يرد ، وعاد يحمل الخريطة ويفرشها على أرض الغرفة وجثا على ركبته لإمعان النظر في التفاصيل الصغيرة ثم صرخ :

---

* هذا اللقب يمكن أن يمنح لضابط في الجيش يصل إلى رتبة اللواء فما فوق . . وهو لقب مازال سائداً في أوساط الجيش الأردني حتى الآن .

- ها هي راوندوز تعال وانظر .

(فما كان من عبد الناصر إلا أن جثا هو الآخر ، وكان منظر الرئيسان وهما يحبوان حول الخريطة ، يبحثان ويدققان في موقع راندوز مشهداً غريباً - هيكل . ملفات السويس ص ٣٢٠) .

وعاد نوري السعيد يشرح مخاطر الشيوعية الماحقة ، وهنا سأله عبد الناصر ، وأين اسرائيل في ذلك كله ؟ . .

أجاب السعيد : السلاح الذي نأخذه من الغرب لمحاربة الروس ، يمكن أن نحارب به من نشاء أيضاً . .

سأل عبد الناصر : وهل يسمح لنا الغرب بذلك ؟

ويجيب السعيد : إنك ترغمني على البوح بأسرار خطتي قبل أوانها ، مارأيك بستين فرقة إضافية لمحاربة اسرائيل ؟ . .

دُهش عبد الناصر ورماها بالمصرية الشائعة : إيدي على كتفك . .

فاندفع السعيد ليقول بحرارة الواثق : أتراك ، باكستانيون مسلمون . . إذا دخلنا معهم فسيدخلون معنا . .

رد عبد الناصر : لن يسمح لهم الغرب بذلك .

فأجاب السعيد : لن نطلب يومها إذناً من أحد .

وسأل عبد الناصر : كيف نضمن ذلك ؟

ورد السعيد : اعتمد عليّ ياجمال .

قال جمال : أنا أريد أن أعتمد عليك يا باشا ، ولكنني لا أريد أن ألغي عقلي . .

ثم راحت النقاشات تتطاير في الهواء ، وتدور في حلقة مفرغة و بدا واضحاً أنها لن تصل بهما إلى شيء .

. . . .

كانت سياسة مصر الخارجية قد حددت بصورة حاسمة :

- إقامة كتلة حرة عربية لا تأثير استعماري عليها وتكون ضامنة لمصالح الشعوب الإسلامية والعربية والافريقية .
- عقد معاهدة تربط بين هذه الشعوب معاً .
- تأسيس كتلة افريقية تضم جميع البلدان الإفريقية المكافحة ضد الاستعمار .

ثم جاء دور إذاعة صوت العرب ، التي أعلنت لأول مرة في تاريخ مصر الحديث ، أن مصر ضد سياسة الأحلاف الغربية ، وأن لها سياسة محددة لا تحيد عنها ، وأن أي دولة عربية يجب ألا تنضم إلى الحلف التركي - الباكستاني الذي يتجاهل مصالحنا الأمنية في الشرق الأوسط . .

ثم أعلن راديو القاهرة الرسمي في الوقت نفسه :

(إن لمصر سياسة واحدة لا لبس فيها ولا إيهام ، فهي تدعم بقوة وحدة العرب حتى يستطيعوا مجابهة العدوان والظلم والاستعباد كرجل واحد - الإذاعة البريطانية - تاريخ ١٤ نيسان و ٤ حزيران ١٩٥٤) .

وفي الذكرى السنوية الثانية للثورة المصرية أي في ٢٣ تموز ١٩٥٤ ألقى عبد الناصر خطاباً قال فيه (إن هدف الثورة المصرية أن يكون العرب أمة واحدة ، إن الثورة تؤمن أيضاً ، أن عبء الدفاع عن البلاد العربية يقع أول ما يقع على العرب ، وهم جديرون للقيام به - إذاعات) .

وقد عادت إذاعة القاهرة لتؤكد بعد اتفاقية الجلاء : إن هذه الإتفاقية الإنكليزية - المصرية ، ليست حلفاً جديداً ، إن لمصر حلفاً واحداً تؤمن به ألا وهو ميثاق الأمن الجماعي

العربي ، فلا أحلاف مع الغرب ، ولكن معكم أنتم أيها العرب)* .

ومع ذلك ، فإن سياسة الثورة المصرية حتى أواسط العام ١٩٥٥ لم تكن مفهومة تماماً ، مما حدا بعبد الناصر إلى إلقاء خطاب صريح :

(أصبحت سياستنا في العام ١٩٥٥ واضحة جداً ، إذ آمنا بأن على العالم العربي أن يحمي استقلاله الكامل قبل أن ينضم إلى أية اتفاقية عسكرية مع الدول الأجنبية ، فقد كنا ضعافاً جداً ، ونعلم أن أي ارتباط مع حلف أجنبي لن يجعلنا أقوياء بمقدار ما سيجعلنا تابعين) .

ثانيا / سوريا التي حشرت الحلف في بغداد .

لم يخرج حلف بغداد عربياً ، خارج الحدود الإقليمية للعراق ، ولعلّ الفضل في ذلك ، يعود لا إلى صوت العرب ، بل إلى سوريا بالدرجة الأولى ، ولو أن سوريا في تلك الفترة ، خطت قدماً واحداً باتجاه الحلف ، فإن من الأرجح أن تفرط السلسلة السورية الأخرى بعدها .

نالت وزارة فارس الخوري ، وهي أول وزارة دستورية ، بعد الإنقلاب على الشيشكلي ثقة مجلس النواب بأغلبية ضئيلة (٩٣ صوتاً ضد ٤٨ صوتاً) . ويعزو المؤرخون ذلك ، إلى الموقف الغائم الذي وقفته وزارة الخوري إزاء حلف بغداد ، فقد كان خط

---

* حتى هذه الفترة وماقبلها ، فقد كان الصاغ صلاح سالم هو الناطق الرسمي باسم الثورة المصرية ، وقد ظل الصاغ (سالماً) إلى أن بدَتْ الضعضعة في السودان . حيث فوض باسم الثورة لحل المشكلات هناك ، ويبدو أن أسلوبه هناك بعد أن بدا ناجحاً في ثلاث سنواته الأولى ، بدأ يأخذ مسار التقريب والإبعاد ، فضلاً عن سياسة (المعونات المالية السرّية) لهنا دون هناك ، وقد جعلت مباحثات سرسنك مع نوري السعيد في العراق وضعه صعباً . حين أعطى دون دراية لنوري السعيد ما يريده من وراء الإجتماع بخصوص الأحلاف الجديدة . مشكلة الصاغ أيضاً – ربما بالإستقواء بأخيه جمال سالم – أنه كان يضع رأسه برأس الكبار : محمد نجيب ، وعبد الناصر فيما بعد .

أفل نجم الصاغ ذو اللسان الطلق والجرأة المتهورة ، أيام العدوان الثلاثي على مصر ، وقد توفي مبكراً ، إلا أن الثورة لم تأكل أولادها . فأطلقت على أهم شارع من شوارع العاصمة المصرية : اسم صلاح سالم .

الوزارة عموماً ، متأرجحاً بين الشعب (٣ وزراء) والوطني (٣ وزراء أيضاً) من أصل ثمانية وزراء هم كامل الوزارة .

وخلال جلسة الثقة طلب خالد العظم إجلاء صورة الموقف بخصوص حلف بغداد فأكد الخوري بأنه (لا ارتباط مع الأحلاف الأجنبية) وهكذا نالت وزارة الخوري الثقة بحدودها الدنيا .

وقد شهد المجلس جلسة صاخبة ، عندما وصل السيد عدنان مندريس رئيس الوزارة التركية إلى دمشق فجأة ، وكان مداد قلمه في التوقيع على مسودة الحلف الأولية في بغداد - قبل ليلة واحدة - لم يجف بعد ، وقد ادعت حكومة الخوري ، بأن مرور الوفد التركي كان عارضاً ، فيما يؤكد العظم في مذكراته ، الجزء الثاني ص ٣١٢ ، بأن هذا المرور كان مبيّتاً .

وفي مطلع العام ١٩٥٥ دعت القاهرة لاجتماع على مستوى رؤساء الوزارات العرب ، واعتذر العراق عن الحضور بحجة مرض رئيس الوزارة نوري السعيد ، وقد عقد الرؤساء ما بين ٢٢ كانون الثاني و ٨ شباط خمس عشرة جلسة ، دون الوصول إلى نتيجة ملموسة . وقد كان موقف الوفد السوري كما يصفه هيكل - ملفات السويس - ص ٣٢٨- كما يلي :-

(كان الوفد السوري برئاسة فارس (بك) الخوري ، حائراً بين مصر والسعودية من جهة ، وبين العراق من جهة أخرى ، وكان يريد أن يرفض سياسة الأحلاف ولكنه لم يستبعد كما قال مجيء حكومة سورية أخرى بعد حكومته لتقرر أمراً آخر) .

وتشير محاضر اجتماعات مجلس الجامعة العربية - شباط ١٩٥٥ - إلى ما يشبه الموقف الآخر لكلام هيكل حيث تقول :

(كان موقف الوفد السوري في القاهرة كما يلي : أكد السيد الخوري وجوب جعل الوحدة العربية حقيقة واقعة ، فسوريا تدعو إلى حياد العرب أيام السلم ، وما يتفق مع مصالحهم أيام الحرب ، ثم تساءل الخوري عن كيفية مناقشة مسألة تتصل بالعراق دون حضوره ، وأكد على ضرورة حضور وزير الخارجية العراقية فاضل الجمالي إذا كان رئيس

الوزارة مريضاً ، واسترسل الخوري مؤكداً بأن الحرص على الوحدة موجود في فكر كل منا . . **فإذا كان العراق مرتبطاً مع بريطانيا ونقبله ، فماذا يضير العراق ارتباطه مع تركيا ؟ . دعونا نستمع إلى رأي العراق أولاً ، فقد نصل إلى الإقتناع بما أنجزه ، لظروفه مع جواره ، إننا في سياستنا الخارجية نركز على ميثاق الجامعة العربية ومعاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي ، ولا نقر عقد أحلاف)** .

ويروي خالد العظم في مذكراته ، أن هذه السياسة بحد ذاتها ، كانت كالمشي على الحبال بصورة متوازنة ، (فهم ليسوا مع حلف بغداد ، ولكنهم ليسوا ضده) ، وعندما عرض الوفد الأردني في ختام جلسات القاهرة ، اقتراحاً محدداً يرمي إلى عدم الإنضمام للحلف مستقبلاً ، أجاب وزير الخارجية السورية السيد فيضي الأتاسي (إننا لا نملك صلاحية مثل هذا التوقيع) .

بنظر القاهرة ، فقد أدى موقف الوفد السوري إلى البلبلة ، وهو ما سيقوله محمود رياض السفير المصري الجديد في دمشق ، وأدى ذلك من جهة أخرى ، إلى اعتراض الأوساط السياسية والعسكرية في سوريا ، على سياسة حكومتها التي بدت غامضة بين موقف (اللا والنعم) ، هذا وسيشنّ حزب البعث مع حلفائه (الشيوعيين وكتلة العظم وكتلة الوطنيين من جماعة صبري العسلي) ، حرب بيانات في الشوارع .

في شباط من العام ١٩٥٥ ستسقط وزارة الخوري لتحل محلها حكومة جديدة برئاسة صبري العسلي ، ثم ليعلن في مساء الرابع والعشرين من شباط ، أن بغداد وأنقرة وقعتا على اتفاقية حلف بصورة رسمية ، وجلجل صوت العرب بالشجب (سيمزق شعب العراق هذه الورقة القذرة . . .) . وخرجت مظاهرات الاستنكار من الجامعة السورية في اليوم التالي ، وبدا أمام حكومة العسلي ، ما ينبغي عمله على الفور ، إلا أن المذكرة الأمريكية (٢٦ شباط ١٩٥٥) كانت تطرق باب الوزارة الجديدة دون استئذان :

(يجب مساندة الحكومة الأمريكية في جهودها الرامية للوصول إلى أعلى درجة من الاستقرار والأمن . . . وتعزيزها لصدّ أي عدوان شيوعي ، مع ترحيبها بالإتفاق التركي – العراقي ، وهي على استعداد لمساندة الجهود الرامية إلى إقامة ترتيبات دفاعية فعّالة . . .

ينبغي تحسين العلاقات العربية – الاسرائيلية ، لأن الحكومة الأمريكية لا تستطيع أن تبدد مواردها بين قوى غير متجانسة ، وإنها تعترف بقيمة ميثاق الجامعة العربية ومعاهدة الضمان الجماعي العربي ، وتأمل الحكومة الأمريكية ألا تقوم سوريا بأي جهد يجعل موقف العراق صعباً . . وأن تتصرف بشكل يجعل الطريق مفتوحاً لإمكانية انضمامها في المستقبل إلى منظمة الدفاع الناميه والفعاله)*.

تُرى هل فهمت السياسة السورية آنذاك ، مغزى الرسالة الأمريكية بدقة ، أم أن الشارع هو المسؤول عن جرف الفهم التفصيلي ، بحيث دمج حلف بغداد ، والمشاريع الأمريكية بسلّة واحدة . . إن السيل الجارف من الأدبيات السياسية للأحزاب التقدمية ، يشير إلى عدم ضرورة إنشاء الفوارق بين قوى الغرب الاستعمارية ، مما فوت الفرصة لإمكانية الاستفادة من الصدوع ! . . .

وجاء مع يوم المذكرة الأمريكية نفسها (٢٦ شباط) حدث آخر ، شغل سوريا في حينه ، فقد قدم وزير الإرشاد المصري الصاغ صلاح سالم بمهمة إيجاد البديل الفاعل لمواجهة حلف بغداد ، وقد عرض تصوراته عن اتحاد فيدرالي يشمل الشؤون العسكرية والخارجية ، مع توحيد الشؤون الاقتصادية والثقافية على أن تُدعى جميع الدول العربية لهذا الاتحاد الفيدرالي عدا العراق . .

ويروي صلاح سالم كيف تعرّض لهجوم ضار من السياسيين المؤيدين للعراق ، حين استثمروا الهجوم الاسرائيلي الكبير على غزة (في ٢٨ شباط) حيث استخدمت الدبابات والطائرات وقتلت عشرات الجنود المصريين وألحقت خسائر فادحة في الممتلكات ، ويصف الصاغ سالم موقف هؤلاء باللؤم حين يقول : (هل جئت لتساعد سوريا في الدفاع عن نفسها ، ألم تعلم ما حصل في غزة ! . . لربما كان من الأفضل أن تنظم شؤون الدفاع عن بلادك أولاً) (سيل – الصراع . ص ٢٩٣) .

---

* هذه المذكرة في الحقيقة لم تكن دعوة لمساندة الحلف التركي – العراقي الجديد ، بمقدار ما هي تلميح أو تصريح ، لخطط الدفاع الأمريكية الخاصة المقبلة ، وكما ورد في النص . فإن أمريكا التي بدأت تخطو كقوة عالمية أولى ، كانت تتوقع من الجميع ، الإنضواء تحت جناحها في المستقبل ، وفضلاً عن المذكرة فإنها سياسة جس نبض لسوريا ! . .

إلا أن سالم لم ييأس ، وبصفته جدلياً من الطراز الأول ، فقد كان يشرح بأن ما حصل في غزة ، إنما هو انعكاس لوضع التجزئة العربي ، وأنه ممكن أن يحدث في أي مكان ، يمكن أن تستفرد فيه اسرائيل الوضع المجزأ لهذه الجبهة أو تلك . . .

لم تكن قوة حجة الصاغ في الحقيقة ، هي التي أدت في المهاية إلى التوقيع على الاتفاقية الثنائية المصرية – السورية ، بل الاجتماع العسكري الذي عقد في بداية آذار في مكتب رئيس الأركان شوكت شقير وبحضور نائبه العقيد عدنان المالكي . وقد حضر الإجتماع لفيف من السياسيين كان أبرزهم أكرم الحوراني ، وفي ذلك الإجتماع تم الاعلان (إن سوريا توافق على إقامة حلف كامل مع مصر ، توحيد الجيشين أولاً ، وتحضير القيادة المشتركة واستكمال أسباب التعاون الاقتصادي والثقافي) .

وتمّ التوقيع على الاتفاقية في ٢ آذار ١٩٥٥ بقلمي صبري العسلي وصلاح سالم .

كان الدور الأول في نجاح هذه الاتفاقية يعود لحزب البعث العربي الاشتراكي ، وكان العظم مؤيداً ، كذلك ضباط الجيش دون استثناء يذكر . . .

طار الصاغ إلى عمان للهدف نفسه ، إلا أنه لقي من الملك الشاب حسين ، تأكيدات بدراسة المقترحات بروح إيجابية وأخوية . . في الرياض محطة الصاغ الأخيرة ، أبدى الملك سعود ووزير خارجيته الأمير فيصل رغبتهما باستبدال (الاتحاد الثلاثي) (بالتصريح الثلاثي أو الميثاق الثلاثي) نظراً لرغبة السعودية في الإنضمام إليه . . وفي الثلاثين من آذار قدم الصاغ صلاح سالم مسودة المشروع إلى كل من سوريا والسعودية الحاضرتين في مؤتمر باندونغ ، وانفض المؤتمر في الثاني من نيسان دون توقيع يذكر . .

لقد اكتفى السعوديون باسلوب متابعة المفاوضات بالطرق الدبلوماسية الهادئة ، على أن تستمر المشاورات لوضع (الميثاق الثلاثي) موضع التنفيذ ، غير أنه لم يتم التوصل إلى أي اتفاق موقع مع السعوديين رغم أن الصحف المصرية آنذاك ، صورت الوضع على أنه بات وشيكاً ، وفي (الفرملة) السعودية ، ما يشير إلى وصول إيماءات جديدة من الخارج ! . . إذ لم ينتقل الحلف الجديد من حالة المشروع إلى الحالة التنفيذية ، بسبب

إصرار السعودية على عدم التخلي عن سيادتها الإقليمية ، وكانت مصر عاجزة عن تحمل عبء ميزانية الدفاع المشترك وهيئة الأركان العامة ، وحين كان يأتي الدور على مناقشة التنسيق الاقتصادي ، يسود الصمت صفوف الفقراء (سوريا ومصر) ، فيما يمتنع الأغنياء عن الحديث ! . . .

ومع ذلك ، فقد كان في الاتفاق السوري - المصري ما يبعث على الأمل ، فللمرة الأولى يحدث الاتصال بين البعث والمصريين ، وبالرغم من أن البدايات لم تكن مشجعة ، إلا أن قيادة الحزب (عفلق ، الحوراني ، البيطار) كانت ترى في الإنطواء المصري والتحفظ ضمن الحدود ، ما هو مبرر من الناحية التاريخية ، فشباب الثورة المصرية ، حديثو عهد بالقومية العربية ، ولا بد من تشجيعهم للإندماج تماماً ببقية العالم العربي .

سيروي عبد الناصر حكايته مع الإندماج في مرحلة لاحقة (١٩٥٩) حين يقول : (لكي نحمي البلاد العربية يجب أن ننشئ جبهة عربية موحدة ، بتحديد أدق ، يجب أن تستقل الأقطار العربية وتتخلص من النفوذ الأجنبي الذي يجعلها في حالة دائمة من التجزئة ، هذا شيء ، والاعتبارات الدستورية والاجرائية شيء آخر ، إنه لا يستوجب بالضرورة أن الوحدة العربية يجب أن تعني الاندماج الكلي في دولة واحدة ، ما يهمني هو خلق تضامن عربي ونضال عربي موحد بسبب وحدة المصير والمستقبل ، إن أهم شيء على الإطلاق ، هو أن هذا التضامن يجب أن يسود الأقطار العربية في كل الظروف) .

ولكن قبل هذه المأثرة السياسية لعبد الناصر ، كان علينا أن نعود أربع سنوات إلى الوراء (آذار ١٩٥٥) كي نتفحص فحوى الإنذار التركي لسوريا على عجل .

(إن الميثاق السوري المصري يهدف إلى عزل تركيا عن العالم العربي بينما يهدف الحلف مع العراق إلى الوقوف ضد أي هجوم سوڤييتي محتمل ، وترى الحكومة التركية أنه لولا وجود هذا الحلف الذي يضع إمكانات تركيا والعراق تجاه أي اعتداء اسرائيلي ، لكان محو سوريا من الخارطة لا يستغرق سوى بضعة أيام . . .

إذا ما حققت سوريا هذا الميثاق ، فإن تركيا تنظر إلى هذا العمل ، على أنه من

الأعمال العدائية ازاءها - من أرشيف الخارجية السورية - آذار ١٩٥٥) وهذا ما ستعلنه الخارجية التركية على الملأ . .

وعلى الرغم من التصريحات المتكررة التي كانت تصدر عن الخارجية السورية ، بالتزام سوريا جانب الحياد التام في الصراعات الدولية ، إلا أن تركيا أردفت انذارها بحشد قواتها المسلحة على الحدود الشمالية السورية . .

لقد أيقظت خطط الغرب الدفاعية اهتمام السوڤييت في المنطقة وكان مالينكوف قد أعلن صراحة في المؤتمر التاسع والعشرين في موسكو ، أن (من حق الشعوب أن تختار أيدولوجيتها الخاصة) ، وقد وجه نداءً باسم شيوعيي العالم بضرورة التعاطف مع الحكومات التي تتبع سياسة سلمية مستقلّة . .

لقد زال الحد الستاليني الحاسم بين (اشتراكي) (ورأسمالي) وبات للحياد معناه الأخلاقي ، بعد أن وصم طويلاً باللاأخلاقية من قبل الغرب ، وباللاواقعية من قبل الشرق، على حد سواء . . لكن موسكو الجديدة بعد ستالين ، بدأت تنظر (للحياد الإيجابي) نظرة احترام وتعاطف ، خاصة بعد أن استقطبت هذه السياسة الجديدة بقادتها الثلاث (نهرو وعبد الناصر وتيتو) ثلثي سكان الكرة الأرضية ، مع الصين .

وكانت سوريا قد استرعت اهتمام السوڤييت فعلياً منذ سقوط الشيشكلي ، حيث بات من المؤكد أن موسكو جادة في منع التجمعات الدفاعية التي يرعاها الغرب في منطقة الشرق الأوسط .

وكان لنجاح خالد بكداش وأكرم الحوراني وخالد العظم في المجلس النيابي السوري الأخير (أيلول عام ١٩٥٤) ما حدا بموسكو للقول : بأن ذلك كان نجاحاً لخط الجبهة الوطنية التقدميةالواسع .

لم ينل الاتحاد السوڤييتي شعبية عربية ، رغم السلاح الذي مرره عبر بوابة براغ إلى دمشق (أواسط عام ١٩٥٤) ، بل لعله نال الشعبية الكبرى ، حين أعلن على لسان وزير خارجيته مولوتوف في ٢٣ آذار (**إن الاتحاد السوڤييتي يؤيد موقف سوريا كاملاً** ، وهو

يرغب في تقديم كل أنواع المساعدات لسوريا ، بهدف حماية استقلالها وسيادتها من الطامعين) .

وكانت لكمة موجهة إلى تركيا ، حين بدا أن الدب الأكبر في الشمال لم يكن غافياً تماماً عما يحدث عند حدوده الجنوبية ، وفي ٣١ آذار استقبل صبري العسلي رئيس الوزارة السورية ، السفير السوفييتي في دمشق ، **حيث أكد له جدّية التصريحات السوفييتية بخصوص الحشود على سوريا ، وراحت الصحافة تنقل مضمون اللقاء بعناوين بارزة .**

لقد بدا أن سوريا تقيم حلفاً استثنائياً داخل حلبة الكبار ، وكان ذلك فرْضاً مفروضاً ، فالغرب الذي بدأ جولته الفظّة دون رادع ، كان لا بد من أن يرى سخونة الجو العالمي ، ربما من خلال إزاحة أغطية الرؤوس النووية لأول مرة في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب .

في ٢٢ نيسان ١٩٥٥ ، وبعد هدوء عاصفة الحشود التركية ، أقدمت قيادة ما ، من قيادات الحزب السوري القومي ، على اغتيال العقيد عدنان المالكي نائب رئيس الأركان العامة في الملعب البلدي بدمشق* .

كان المالكي ضابطاً مقداماً جُرح في حرب فلسطين ، كما أن جرأته النادرة أمام الشيشكلي كانت قد سرّحته من الجيش ، وما أن استرد الحكم الوطني أنفاسه ، حتى أعاده إلى الجيش مع لفيف من أقرانه الضباط القوميين . . لم يكن المالكي عضواً رسمياً في حزب البعث ، إلا أنه كان رائداً لجيل شبابه في الدعوة إلى الوحدة العربية ورفض الأحلاف الغربية برمتها ، والمضي قدماً في تحقيق معاهدة الدفاع المشترك مع مصر .

وبعد شهر من توقيع المعاهدة فقط ، حدثت واقعة الاغتيال على يد رقيب من السوريين القوميين اسمه يونس عبد الرحيم ، وقد أنكر السوريون القوميون تدبير الاغتيال من جانبهم (حيث روى لي الاستاذ عصام المحايري في سجن الشيخ حسن في دمشق آذار

---

* سياسة الاغتيالات السياسية ، التي بدأها الاخوان المسلمون في مصر انتهت إلى العبثية حيث أنكرها حسن البنا نفسه في أواخر حياته ، ومع ذلك فقد تعرّض هو نفسه للإغتيال ، وقد انتقل التقليد بحكم الأنظمة الصارمة لبعض الأحزاب ثم إلى البلاد السوريّة ، حين أقدم فاعلٌ على اغتيال رياض الصلح في عمان ، وفاعل آخر على اغتيال الملك عبد الله في القدس . مع ذلك ، فإن هذه السياسة كانت منبوذة من الأحزاب الأخرى . .

١٩٦٨ ، كامل الواقعة التي وراءها جورج عبد المسيح الطامح لزعامة الحزب ، بخلق زلزلة تديم حالة الطوارئ داخل الحزب ، وأنه - أي الاستاذ محايري - كان صديقاً شخصياً للمالكي ، حين كان يتبادل الأنخاب معه في نادي الضباط قبل ليلتين من اغتياله - المؤلف).

من الغريب أيضاً ، أن السوري القومي لم يكن مع اتفاقية العراق - تركيا حسب جريدته البناء ، فقد دأبت الجريدة على مهاجمة الحلف الجديد : (إن شجب الحلف هو واجب محتوم علينا ، لأن ما بيننا وبين تركيا من المشاكل والقضايا المعلقة ينبغي أن يمنعنا من أن نساهم بتقويتها قبل أن نثبت سيادتنا وننال حقنا القومي في كل شبر من أراضينا ، وتتبدد نهائياً الأطماع والحركات التي تطالعنا بها كل يوم جارتنا الشمالية - البناء في ٦ شباط ١٩٥٥ ، العدد ٢٩٣) .

وقد لا تعكس السياسة العلنية لحزب ما ، حقيقة جميع تكتلاته وميوله ، فالحزب ليس قطعة واحدة من قماش بشري ، بل إن فسيفساء الأحزاب القومية في سوريا كانت هي الطابع الغالب ، والحقيقة المشتركة في السوري القومي ، أنه لا يطيق تركيا ، فكيف بالتحالف معها ، والحقيقة الثانية أنه كان معارضاً للخطوات السرية التي كانت تتم مع مصر أيضاً :

(لو أن ساستنا وعوا ، ولو أن لهم عيون ترى وآذان تسمع ، لكانت سوريا هي مركز الثقل في الشرق الأوسط ، بدلاً من أن تبقى في هذا الإنجرار المتضارب في عاصف أهواء ساستنا ، وتغيب في ستائر المباحثات السرية على ضفاف النيل ، التي هي على جانب عظيم من الأهمية - البناء - ٧ كانون الثاني ١٩٥٥) .

أما الحقيقة الثالثة ، فإن السوري القومي انتهى من سوريا يوم اغتيال المالكي . وان سياسة الإبادة التامة لحزب بحاله ، شكّلت سابقة خطيرة في الحياة السياسية السوريّة ، وأن الطريق صار ممهداً لذبول العنفوان السياسي الذي كان يمور في أفئدة الشباب من جميع الأحزاب العاملة في المنطقة ، وأن الجريمة والعقاب ، كانا على درجة واحدة من الفظاظة ،

وأن سوريا بعد ذلك ، تعرضت لفوضى الحياة الديمقراطية والحزبية ، بشكلٍ لا مثيل له ، وأن هذه الفترة حدثت بقائد بعثي مؤسس مثل جلال السيد لأن يقول : (اتسمت هذه الفترة بما يسمى بنشاط اليسار ، فقد قامت جبهة من البعثيين والشيوعيين كان معهم - ولو من خارج اليسار - أنصار مصر والسعودية ، والجبهة لم تكن رسمية بل ودّية ، وعندما اغتيل المرحوم عدنان المالكي على يد شاب من السوريين القوميين ، استغلت الجبهة الحادث ، فقامت بتصفية الحزب ، وادعى البعثيون أن المرحوم المالكي كان منهم ، وإن قتله كان بقصد التشفي من الحزب ، والشيوعيون هم أعداء طبيعيون للسوريين القوميين فنفخوا في النار ليل نهار "وكان من الأمر ما كان") .

بعد اغتيال المالكي وامتداد موجات التصفية ، قامت محاكمة بعض اليمينيين وشيوخ العشائر بتهمة تدبير مؤامرة مع حكومة العراق ، وأعطى بعض من يسمّون (باليمين) الفرصة لليسار حين أدانوا أنفسهم فجرّوا إلى المصيدة جميع الأحزاب التقليدية ، ولم يكن ذلك صحيحاً بالطبع ، وقد استفاد الشيوعيون من هذه البلبلة ، مما ألقى في الروع أن اليمينيين جميعاً هم مجرمون حقاً ، بل ومتآمرون على الوطن وعلى سلامة واستقلال البلاد - جلال السيد - حزب البعث العربي - دار النهار - ص ١٥٢ وما بعدها)* .

لقد جاء اغتيال المالكي ، ليثبت مرة أخرى ، أن سوريا مصبّ الصراعات الخارجية ، قد بدأت تطوي صفحة من صفحات صراعها الداخلي السلمي تمهيداً للإنتقال إلى طور

---

* كان الأستاذ جلال السيد يظن الظنون من ناحية المقولة الشائعة بأن أكرم الحوراني وراء الإنقلابات العسكرية في سوريا ، وعندما سأله عن انقلاب الشيشكلي ضد الحناوي ، قال : لم أطلع عليه ولم يؤخذ رأيي فيه . ويضيف الأستاذ جلال : ثم سألته : ليس هذا هو المهم ، هل صحيح أنك استهدفت الوحدة السورية العراقية بانقلاب الشيشكلي ، وانتفض الأستاذ أكرم للسؤال قائلاً :-

يا أخ جلال ، لم أسمع عن موضوع وحدة بين العراق وسوريا ، كل ما كنت أسمعه هو عرش ملكي للوصي في سوريا مع بقاء الوضع على حاله بين الدولتين ، هل تسمح بإقامة هذه الوحدة حتى في ظل النظام الملكي لأوقع لك عليها ، ثم أضاف : أنا مستعد الآن لاصدار بيان أنشره على الشعب بهذا المعنى .

(جلال السيد - حزب البعث - ص ٢٩٢) .

تناحري مسلح بحذف الآخر من الوجود ، ولم تكن سوريا ذات الفسيفساء الاجتماعية الملونة ، من بحيرة طبريا وحتى الخابور ، قادرة على المضي بعيداً في هذا المنحى ، إذ سرعان ما ستنقلب سياسة القتل الفردية إلى اقتتال جماعي ، ومهما قيل في اغتيال المالكي حيث تم تصويره كصراع بين ضباط الوحدة العربية أنفسهم (السرّاج والسفارة المصرية . .) فإن الحقيقة ظلت تشير إلى جناح عبد المسيح في ارتكاب الجريمة ، أما سلسلة الردود التي نحتها البعض من السوريين القوميين فيما بعد (الرد على الجرّاح ، ثم لماذا قُتل يونس عبد الرحيم . . . الخ) ، فإنها لا تشير إلى البراءة ، قدر ما تشير إلى التورط ، وأن قابلية المواجهة الدموية ، كانت تسري في شرايين العديد من شباب السوري القومي بكل جلاء*، وكان على السوري القومي أن يعترف منذ البداية ، أن جناحاً صغيراً من حزبه هو الذي أقدم على ذلك ، وأن ذلك كله كان أكبر من الجريمة بحق الحياة السياسية في سوريا .

أواخر آب من العام ١٩٥٥ ، سيقدم دالاس مشروعه عن الشرق الأوسط ، وقد تضمن المشروع أفكاراً صريحة عن وضع المنطقة ، إذ بينما كانت المشاريع السابقة ترسل تحت عناوين مداورة مثل الدفاع عن الشرق الأوسط ، حلف بغداد ، المشاريع الاقتصادية (جونستون وتحويل نهر الأردن) ، النقطة الرابعة . . . الخ ، فإن مشروع دالس ، لم يكن مداوراً ، بل نص صراحة ، على ما يلي : -

- إيجاد أراضي زراعية صالحة للاجئين الفلسطينيين الذين بات عددهم يقارب ٩٠٠ ألف ، كما أن من واجب اسرائيل التعويض عليهم ، فإذا لم تستطع فبقرض دولي يُمنح لاسرائيل .

---

* في كراسة صادرة عن السوري القومي تحت عنوان ، لماذا قتل يونس ، تقول رسالة موجهة من املاء غسان جديد (تحت اسم محمود) ما يلي : -
أفتش عليك فلا أجدك ، فأين أنت ، لقد بكيت عليك عميقاً يا رفيقي . لكن البكاء لم ينفعني ، بكيت الضعف البشري لا قوتي الآلهية . .
أين أنت يا يونس . . أين يونس الصاعقة . . يونس المدفع . .
أين يونس الحرب . . يونس الجرأة . (لماذا قُتل يونس ص ٤٢)

- إغلاق ملف الرعب المخيم فوق الشعبين العربي والاسرائيلي وإنهاء حالة النزاع كلياً، مع استعداد أمريكا للإنضمام لأية معاهدة رسمية بين العرب واليهود (وقد فوضني بذلك الرئيس آيزنهاور) .
- حسم مسألة الخطوط الحالية للهدنة بين العرب واليهود ، إذ لا بد من وجود حدود معترف بها ، وتقبل بها جميع الأطراف .

وقد بدا من خلال الإلحاح الأمريكي الدائم ، على مسألة الصلح بين العرب واسرائيل ، أن النظم الدفاعية الأمريكية الجديدة لا تستقيم مع بقاء حالة الصراع الاقليمية في المنطقة ، وكان هذا الحافز هو الأول في استراتيجية الأمن الأمريكية ، أما وجود اسرائيل نفسها ، فقد بات جزءاً من هذه الاستراتيجية ، التي لا تناقش حقاً تاريخياً ، بل وضعاً حقيقياً على الأرض . .

كانت الحوادث تتوالى كأنها بترتيب زمني مُبيّت ، فمن اتفاقية الجلاء إلى حلف بغداد، إلى هجوم اسرائيل على غزة ، إلى الاتفاق المصري السوري ، ثم إلى الحشود التركية فاستيقاذ الدب الروسي ، إلى مسألة السلاح الشرقي ، التي ستقيم دنيا العرب ولا تقعدها ، وكانت السحب تتجمع على حدود الأفق من كل الاتجاهات* ، ومما زاد في تجمّعها ، ذلك التصريح الصادر عن وزارة الخارجية السوفييتية في ١٣/ ٢/ ٩٥٦ :

(إن أي محاولة لتعقيد الأمور في الشرق الأوسط وزيادة حالة التوتر في المنطقة ، سوف تسبب قلقاً مشروعاً للاتحاد السوفييتي ، وان الاتحاد السوفييتي لا يستطيع أن يقف موقف اللامبالاة تجاهه ، لأنه مرتبط ارتباطاً واضحاً بأمن الاتحاد السوفييتي المجاور لمنطقة الشرق الأوسط خلافاً لدول أخرى) .

---

* انتهى الوضع الرئاسي في سوريا إلى انتخاب السيد شكري القوتلي رئيساً للجمهورية وكان منافسه السيد خالد العظم الذي حظي بتأييد البعثيين والشيوعيين وبعض المستقلين والديمقراطيين . قد خسر الجولة بفارق التصويت ، حيث فاز الرئيس القوتلي بـ (٩١ صوتاً) من أصل مئة وأربعين نائباً. وقد اعتذر ناظم القدسي عن تشكيل وزارة كان قد كلفه بها الرئيس الجديد :
(العقبة في وجه الوزارة هي السياسة السورية برمتها) . . .

وبدا أن الأحلاف الإقليمية بدأت تجر المنطقة إلى حلبة الكبار بصورة مباشرة ، إذ ما كادت مفاعيل الإخطار السوڤييتي الجديد ، تتوالى على كل من واشنطن ولندن وباريس ، حتى أعلنت القاهرة في ٦ آذار ١٩٥٦ ، عن اتفاق اقليمي جديد يضم مصر وسوريا والسعودية ، وهو ما سيعرف بالميثاق الثلاثي (وقعه سعود عن المملكة) والذي يتضمن تعاوناً في الشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية مع الاتفاق على مساندة الأردن ضد أي ضغط خارجي . .

كانت سفن الشحن العسكرية السوڤييتية ، بين التصريح والتصريح المضاد ، تفرغ حمولتها من الأسلحة الجديدة ، في الاسكندرية واللاذقية ، وكان حلف بغداد يتوعد ، فيما وصل الوضع إلى عنق الزجاجة دون رجعة .

كانت الأوضاع الداهمة ، سبباً للوصول إلى الميثاق الوطني بين الأحزاب والتكتلات النيابية بعد نزاعات طويلة ومضنية* ، ففيما كانت الأحزاب اليمينية ترى في الشيوعية (عدوى العراق السعيدي) خطراً ماحقاً على الوحدة العربية ، كان البعثيون والشيوعيون والديمقراطيون ، يرون أن الاستعمار الغربي والصهيونية العالمية واسرائيل ، هم الأعداء الماثلون لكل ما هو عربي في المنطقة والعالم .

كانت الجبهة الوطنية - القومية في سوريا - لا تريد حرباً مع خصومٍ مُصطَنعين (جرى اصطناعهم كأعداء من قبل الغرب في الحقيقة) ، وكان اليمينيون يرون في حربهم هذه ، مصير وجودهم في الساحة السياسية أو الإقليمية ، ولم تكن المعركة على هذه الدرجة من القساوة بين الغرب والشرق أبداً ، فشعار التعايش السلمي لم يتأخر طويلاً ليعلن عن نفسه بعد موت ستالين ، أما صراع (الوكيل الغربي في منطقة القبائل) فقد كان يستلهم ، (منحىً قبلياً) أو (دينياً آخر) ، وكان صراع الشرق والغرب يأخذ على احتدامه منحى عقلياً من

---

* الميثاق القومي أو الوطني تضمن نصاً طويلاً حول السياسة الخارجية والداخلية بتفرعاتها الدولية والعربية والإقليمية ، كما تضمن نصاً خاصاً بسياسة الدفاع السورية ، مثل استكمال التسليح والمباشرة بتدريب الشعب والشبيبة على استعمال السلاح ، مع سياسة كل مواطن خفير . كما تضمن الميثاق بنوداً على (ضرورة التصنيع الحربي في بلادنا والتخلص من تخلفنا باللجوء إلى خبرات أصدقائنا في أرجاء العالم كله) . . . كما اتسع الميثاق للحديث عن كيفية الخروج من الوضع الاداري الداخلي لما هو قانوني وحديث .

الصعب تجاوزه ، وكان صراع اليمين مع اليسار في الشرق يأخذ منحىً دموياً ، يريد أن يتجاوز حدود العقل إلى الغرائز دون وسيط .

لقد نشرت جريدة البعث في ٢٨ حزيران ١٩٥٦ مقالاً هاماً صارحت فيه الشعب ، (بأن الحزب ما كان ليقبل الاشتراك في وزارة العسلي الأخيرة* ، لولا تعهد رئيسها ببدء محادثات للوحدة مع مصر ، وأن الحزب قد وافق على الاشتراك على أساس هذا الوعد) . وقد وفّى رئيس الوزراء بوعده حين أعلن أمام المجلس النيابي ، أن الحكومة ستشرع بتوثيق العلاقات مع مصر من خلال محادثات فورية ، (ونأمل أن تؤدي إلى سياسة مشتركة بين البلدين ، كما ندعو الدول العربية المتحررة إلى اتباعها ، كيما يصبح بالإمكان تحقيق وحدة عربية شاملة - جريدة الأيام الدمشقية ٢٨ حزيران ١٩٥٦) .

هاجت جموع الطلبة لسماعها ما يدور في المجلس النيابي السوري ، عن عزم الحكومة إجراء مباحثات بهدف إقامة وحدة فورية مع مصر (وكنتُ أنا بين الجموع الهائجة) حين خرج ما ينوف على ثلاثة آلف طالب جامعي في مسيرة معبّرة طافت شوارع دمشق ، ثم أنهت مسيرتها بالتوقيع على العرائض المحمولة إلى مجلس النواب . . . لكن صيفاً ساخناً كان ينتظر المنطقة ، إذ أمام مؤتمر شعبي حاشد في الاسكندرية وبمناسبة عيد الثورة المصرية ، ألقى عبد الناصر خطاباً تاريخياً هزّ العالم : (قرار باسم رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس ، شركة مؤممة مصرية . . .) .

وكان ذلك رداً على سحب أمريكا تمويلها لمشروع السد العالي ، (موتوا بغيظكم ، سنبني السد العالي بأيدينا ولو بالمقاطف) . وقامت الدنيا ولم تقعد . .

---

* صبري العسلي للرئاسة ، مجد الدين الجابري (وطني) للأشغال ، أحمد قنبر (شعب) للداخلية ، عبد الوهاب حومد (شعب) للتربية ، رشاد جبري (شعب) للزراعة ، صلاح الدين البيطار (بعث) للخارجية ، خليل الكلاس (بعث) للاقتصاد ، محمد العايش (ديمقراطيين) وزير بلا وزارة ، عبد الباقي نظام الدين (ديمقراطيين) للصحة ، مصطفى الزرقا (دستوريين) للعدل ، عبد الحسيب أرسلان (دستوريين) للدفاع .

ثالثا / ما الذي جرى في عاصمة الرشيد .

سيجمع المؤرخون بصورة عامة ، على أن ما جرى في العراق قبيل توقيع حلف بغداد ، كان نتيجة لسياسة قطبية عالمية قادتها بريطانيا ونجحت في إيصالها إلى هدفها النهائي ، ففي ٢٤ من شهر شباط ١٩٥٥ ، كانت الاتفاقية التركية - العراقية ، بدفع من بريطانيا ، قد وضعت الأساس لحلف جديد ، ثم انضمت بريطانيا في الخامس من نيسان إلى الاتفاقية المذكورة ، وما لبثت كل من الباكستان وايران أن التحقتا بالركب ما بين أيلول وتشرين من العام نفسه .

كانت بريطانيا تبني خططها الاستراتيجية ضد الاتحاد السوفييتي داخل اعتبارات مصالح الامبراطورية العظمى دون منازع . وكانت الولايات المتحدة ، تذهب في خططها العسكرية ضد الاتحاد السوفييتي ، مذهب المصلحة الأمريكية العليا في العالم ، وكان واضحاً أن معركة (وراثة) على المنطقة العربية ، بدأت تظهر للعيان بصورة جليّة .

وحده العراق صدّق (مبدئية) الصراع ! . . فأقدم على إغلاق ممثليته في موسكو دون سابق انذار ! . . ثم أعلن بصورة مفاجئة في مطلع العام ١٩٥٥ عن قطع العلاقات الدبلوماسية مع الإتحاد السوفيتي ، فكان بذلك ملكياً أكثر من الملك ، حيث بريطانيا نفسها لم تفعل ذلك ، وكذلك الولايات المتحدة .

لقد وضعت الخطط العسكرية البريطانية ، بموجب هذه الاتفاقيات موضع التنفيذ العاجل ، حين راح الأخصائيون العسكريون البريطانيون يتوافدون إلى العراق بمهمة تدريب الوحدات العراقية المسلحة للحفاظ على الاستعداد الحربي التام لدى الجيش العراقي . . والتزمت الحكومة البريطانية بوضع قواتها المسلحة تحت تصرف الحكومة العراقية ، بناءً على طلب العراق نفسه ، كما جرى تكثيف لتدريب القوات الجوية ، والدفاعات الأرضية ضد الطيران المعادي . وانطلاقاً من ذلك ، فقد أصبحت مطارات العراق - بما فيها الحبانية والشعبية - تحت تصرف سلاح الجو الملكي البريطاني . . أما العراقيون ، فقد وجهوا جهودهم ، للخروج من مأزق الركود الشعبي لتحقيق الخروج من حلف بغداد . . يقول الجادرجي في مذكراته عن هذه الفترة - ص ٦٦ (بعد أن ضرب

الجمود أوصال الجبهة الوطنية في العامين ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ، جراء الحملة العنيفة من الإرهاب والقمع التي وجهها نوري السعيد من أجل تمرير حلف بغداد ، عاد الحديث في العراق من أجل تكوين جبهة وطنية جديدة) .

وعن الشيوعيين يتحدث المصدر نفسه فيقول : كان رأيهم العمل من أجل إيجاد مخرج في جبهة عريضة تضم العناصر اليسارية والوطنية المستقلة وأحرار الفكر حتى أقصى اليسار . . .

ويصف الجادرجي تحول الشيوعيين السياسي في هذه الفترة فيقول : لقد أيدت وثيقة شيوعية استعداد الحزب للعمل في إطار جبهة ليس من الضروري أن يكون زمام أمرها بيد الشيوعيين أو اليساريين وأن هؤلاء يعتبرون أنفسهم جزءاً من الحركة الجبهوية الوطنية . . وأن تزعم الغير بالإكراه فكرة طائشة ، كما أن سياسة التوريط بفرض الأحداث كأمر واقع أثبتت نتائجها الكارثية في كل مرة ، كان يعمد فيها فريق ، دون علم الفرقاء الآخرين ، لاحداث زلزلة مفاجئة دون استعداد أو تحضير . . .

ثم تنتهي الوثيقة إلى القول (من الطبيعي أن يكون من المستحسن دخول القوميين ضمن التعاون المنشود ، غير أن الجهود التي بُذلت سابقاً لا تبعث على التشجيع ، وقد يكون من جملتها وهم التزعّم الذي أشرنا إليه آنفاً . . مع ذلك فإنه لمن المهم جداً ، أن تكون الأحزاب القومية في عداد التعاون الشامل - المصدر السابق ص ٦٦) .

كانت إجراءات نوري السعيد على الطرف الآخر ، تزداد تطرفاً إلى درجة أنها جرفت معها حتى العديد من أوساط السلطة الحاكمة في بغداد ، (الذين عمدوا رغم ولائهم للعهد ، إلى محاولات التكتل في نوع من أنواع الهيئات المعارضة ، حيث ظهرت لدى البعض منهم فكرة التعاون مع الأحزاب الوطنية - المصدر السابق) .

سينتظر العراق عاماً كاملاً لولادة جبهة الاتحاد الوطني المؤلفة من حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال ، وقبل ذلك كانت قد جرت دماء في دجلة . .

ففي تشرين من العام ١٩٥٦ ، ومع أزمة السويس واقتراب العدوان الثلاثي ، اجتاحت العراق موجة عارمة من تظاهرات الاحتجاج ضد نذر العدوان على مصر ، وكان النهوض الشعبي شديداً حيث اشتدت وطأته خلال العدوان الثلاثي ، فاضطر نوري السعيد للإعلان عن استعداد حكومته لتقديم العون العسكري إلى مصر ، وقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا ، والالتزام بعدم حضور الجلسات الخاصة بحلف بغداد مع البريطانيين . . .

وكمن ينحني أمام العاصفة راح السعيد يهذي على غير عادته ، فمعونة عسكرية يقدمها العراق إلى مصر ، في ظل الجيش البريطاني في قواعد العراق الاستراتيجية ، مسرحية لفظية تفتقر إلى الأداء المقنع ، وقطع العلاقات مع فرنسا ، مسألة قد تجد ترحيباً بريطانياً بأكثر مما تجد غيظاً أو حرجاً ، أما الالتزام بعدم حضور جلسات الحلف ، فيشفع له قيام الطائرات البريطانية السوداء من قاعدة الحبانية لضرب بور سعيد والسويس . .

لقد استشعر السعيد في لحظة من لحظات اليأس وفقدان الصبر ، أن سياسته باتت كلعبة بوكر مكشوفة ، تحتاج إلى السند الفعلي للوصول إلى الربح ، فقرر المغامرة الكلامية من جديد :

(إن الأزمة لن تنفرج والخطر لن يزول إلا بزوال اسرائيل من الوجود وإعادة شذاذ الآفاق الغاصبين من حيث أتوا - جريدة البلاد العراقية - تاريخ ١٧/ ١٢/ ١٩٥٦) .

وعلقت المعارضة العراقية على تصريح نوري السعيد اللاهب بمذكرة رفعتها إلى الملك فيصل ٢٠/ ١١/ ٩٥٦ ، تقول فيها :

(بصرف النظر عن هذا التحوّل السريع في موقف نوري السعيد ، من مسؤول يدعو إلى الصلح مع اسرائيل ، إلى مستجيب لبعض مطالب الشعب ، فإن هذه الاستجابة لا تكون جدّية ما لم تقترن بالعمل على احباط خطط الاستعمار . إن أول خطوة على الطريق، هي إعلان الإنسحاب من حلف بغداد) .

كان نوري السعيد بركوبه زورق الحلف ، يصارع موجة عاتية ، سرعان ما تتداركها موجة لاحقة ، فمن قبول مبدأ الصلح مع اسرائيل ، إلى العودة لقرارات التقسيم ١٩٤٧ ، إلى معاداة مصر ، ثم الهبّة لنجدتها ، إلى العودة لطرح شعار إزالة اسرائيل ، وغيرها مما أزاح اللثام عن فترة باتت مشبعة بالتخبط ، وكان عليه أن يقتنع للمرة الأولى في حياته ، أن القاهرة في مباراة المحاور الخشنة ، هي التي انتصرت ، وأن محور بغداد عندما رمى بنفسه في أحضان الغرب جهاراً نهاراً كان قد حكم على نفسه بالعزلة الداخلية . . ثم بالعزلة الخارجية ، حين لم يبق للعراق من أنصار إلا بريطانيا وأنظمة الحكم المماثلة في العالم الثالث ، وكان السعيد قد بدا وكأنه يخبط خبط عشواء في رمل سراب الصحراء ، ومما زاد الأمور تعقيداً ، أن الأردن بدأ حركة تراجع عن السعيد إلى الوراء ، فاستوقفته حكمة دزرائيلي القائلة : **أيها السيد ، إذا كان لديك كل هؤلاء الأصدقاء ، إذن فما حاجتك إلى الأعداء ! . . .**

في الأردن حيث تم التراجع عن السياسات الصارمة التي كان يتخذها الملك عبد الله بعد اغتياله في الجامع الكبير في القدس ، وبعد فترة انتقال من حكم الملك طلال وبدواعي مرضه ، فقد نودي بالحسين ملكاً على الأردن . .

مع حلف بغداد ، سيحاول البريطانيون استثمار علاقة القربى التي تربط ما بين الملكين العراقي والأردني (أبناء عمومة) ، لجر الأردن إلى الحلف ، بعد أن أحكم طوق العزلة على العراق في الجامعة العربية . .

ومع نهاية العام ١٩٥٥ ، وفد إلى عمان الرئيس التركي جلال بايار حيث اقترحت تركيا انضمام الأردن إلى حلف بغداد ، وفي الوقت نفسه ، اقترحت الحكومة العراقية انضمام الأردن إلى لجنة الحلف الاقتصادية ، وكان الاقتراح بمثابة اغواء لمد يد المساعدة الاقتصادية إلى عمان ، والشروع بالعمل من أجل تطوير حقول الفوسفات ، وبناء المحطات الكهربائية . . ومن أجل الزيادة في التأثير ، فقد وصل تميلر رئيس هيئة الأركان العامة البريطانية بعد شهر من زيارة الرئيس التركي لعمّان ، وقد أظهر السيد سعيد المفتي رئيس مجلس الوزراء الأردني ميلاً للاستجابة ، فقدم أربعة وزراء استقالاتهم من الوزارة

للحيلولة دون الإنضمام إلى حلف بغداد ، وبعد سقوط الحكومة ، كلف الملك السيد هزاع المجالي ، وهو من الرؤوس الحامية للإنضمام إلى الحلف ، بتشكيل وزارة جديدة . . ومباشرة دون مواربة ، فقد أعلن المجالي استراتيجية الوزارة الجديدة ، بتوطيد علاقات الصداقة مع كل من بريطانيا والعراق ، وضم الأردن إلى حلف بغداد بأسرع ما يمكن من الوقت . . وغادر تمبلر الأردن واثقاً مطمئناً .

لقد أغرت سياسة (اليد الحديدية) رئيس الوزارة الأردنية حين أطلق تهديداً يتوعد فيه مثيري الفتن بيد من حديد ، غير أن مظاهرات حاشدة ، خرجت من المدن والمخيمات الفلسطينية غير آبهة لتهديدات المجالي وأركان وزارته ، تطالب بالتنديد بحلف بغداد ، واستقالة الحكومة وحل البرلمان الأردني . . وبعد مجابهات بدت وكأنها تنذر بالعواقب ، استقالت حكومة المجالي ، بعد خمسة أيام من تشكيلها . .

وفي مستهل العام ١٩٥٦ ستجتاح عاصفة المد القومي أرجاء المنطقة ، وكان (لإعادة الديمقراطية) إلى أوصال الحياة السياسية في سوريا بعد الانقلاب على الشيشكلي ، أبعد الأثر في الصعود الشعبي الأردني ، وقد استطاع الملك الشاب ، احتواء هذا الصعود بالإنضمام إلى مطالبيه ، فكان أول قرار ملكي حظي بتأييد قطاعات شعبية واسعة ، هو إعفاء الجنرال غلوب باشا من منصبه ، فيما مثّلت النقلة انقلاباً حقيقياً ، خاصة بعد أن تم صرف العديد من الضباط البريطانيين من الخدمة في الجيش الأردني ، وفي أمد قصير ، راح الملك يعلن تجاوبه الفعلي ، مع تطلعات الوطنيين ، حين عهد إلى اللواء علي أبو نوار بمهمة رئاسة الأركان العامة للجيش الأردني (الفيلق العربي كما كان يسمى آنذاك) ، وفي بداية أيار من العام ١٩٥٦ عقدت الحكومة الأردنية اتفاقاً عسكرياً مع مصر ، وسمي باتفاق (القيادة الموحدة) ، كما عقدت اتفاقاً مماثلاً مع سوريا بملحق إضافي يتضمن اتفاقية بشأن الوحدة الاقتصادية بين الأردن وسوريا ، ودعم الملك الشاب قرار مصر بتأميم قناة السويس ، وكانت نتائج الانتخابات النيابية في تشرين الأول من العام ١٩٥٦ ، صورة لتصاعد الخط البياني الوطني والديمقراطي ، حيث عهد بتشكيل الحكومة إلى السيد سليمان النابلسي ، زعيم الحزب الوطني الاشتراكي في كل من الأردن وما بقي من فلسطين .

جاءت حكومة النابلسي لتعلن برنامجها العازم على إلغاء المعاهدة البريطانية - الأردنية المعقودة عام ١٩٤٨ ، وتصفية ما للبريطانيين من قواعد في الأردن ، وإعلان المعارضة لحلف بغداد والأحلاف الغربية الأخرى ، والاستعاضة عن المعونات المالية الإنكليزية بمعونات عربية ، وتوطيد عرى الصداقة مع الاتحاد السوفييتي ، مع تعميق الاتفاقيات مع كل من سوريا ومصر ، أما على الصعيد الداخلي ، فقد أكد برنامج حكومة النابلسي ، على الحقوق المتساوية للمواطنين ، والغاء القوانين التي تحد من حرية المواطن والتعبير عن رأيه ، مع تطبيق إجراءات تهدف إلى تطوير الاقتصاد الوطني .

لقد ركزت مصر في هذه المرحلة ، على تدعيم دفاعات الأردن عن الخط الطويل (زهاء ٦٥٠ كيلومتر) بين الأردن واسرائيل ، فأرسلت ما تستطيعه من شحنات الأسلحة وأسراب من الطائرات كهدية من الشعب المصري ، وقد ألقى الملك حسين خطاباً قبل العدوان الثلاثي بثلاثة أيام قال فيه : (إن الأردن الصابر وهو يتلقى من مصر العزيزة العون الأخوي ، ويرى المشاركة القوية المتمثلة في شحنات الأسلحة من مصر الشقيقة والطائرات النفاثة التي تضمّها مصر العروبة ، إلى قوة سلاح الأردن الجوّي ، ليجد نفسه عزيزاً قوياً بهذا التأييد الصادق ، وفخوراً بهذا الاسهام المشجع الذي يجعلنا ومصر بل وأمة العرب جنباً إلى جنب في ميادين الشرف وجهاد العروبة . .) .

وحين العدوان على مصر ، أعلن الأردن التعبئة العامة ، وقطع علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا ، كما أعلن الملك منع الطائرات البريطانية من استخدام المطارات الأردنية ، كما سمح بدخول قوات سورية وعراقية وسعودية إلى الأراضي الأردنية ، خشية هجوم اسرائيلي محتمل . .

وهكذا أعاد الملك حسين إلى الأردن وجهه الشاب والقومي ، في مرحلة استثنائية بدت وكأنها تجري عكس مشتهاها ، حيث كان متوقعاً للزورق الأردني أن يمخر عباب دجلة لا النيل ، ولا نعلم تماماً ، إذا كانت الرياح الجارية هي التي قادت السفينة الأردنية ، بأشرعة المرحلة وقوة زخمها ، أم أن الموقف كان بهداية داخلية محصنة لاشية فيها . .

رابعا / ماذا يجري وراء حائط المبكى ؟ ..

تلقفت اسرائيل قرار مصر الوطني بتأميم قناة السويس ، على أنه سيترتب عليه نتائج كبيرة على الصعيد الدولي ، وكان بالفعل أول قرار عملي بين الدولتين المتضررتين فرنسا وبريطانيا ، هو التشاور المباشر . .

فقد قرر رئيس وزراء فرنسا غي موليه ، التوجه إلى لندن في اليوم التالي للتأميم ، للاجتماع مع إيدن على جناح السرعة ، وكان اللافت في الإجتماع حضور قادة عسكريين من لدن الطرفين ، وفهمت اسرائيل الرسالة ، حيث اشتمت من حضور العسكريين ، رائحة عملية عسكرية مقبلة . .

كان دايان قد تلقى من وزارة الدفاع الفرنسية ، لوائح بمعلومات دقيقة تتطلب الإجابة عن قوة الوحدات البرية المصرية والبحرية والجوية مع أنواع الأسلحة الشرقية وفاعليتها . . الخ ، وكيهودي يغتنم الفرصة لنيل الجائزة قبل الإجابة عن مواضيع حساسة لهذه الدرجة ، فقد راح الإسرائيليون ينقلون أحدث ما وضع سلاح الجو الفرنسي في الخدمة ، وهكذا وجدت ١٢ طائرة ميستر طريقها إلى تل أبيب كمقدمة لسلسلة من الجوائز الأخرى . .

كانت اقتراحات دايان على بن غوريون ثلاث عمليات محتملة :

١ - احتلال شبه جزيرة سيناء حتى القناة .

٢- الاستيلاء على شرم الشيخ ووضع حد للحصار .

٣- الاستيلاء على شريط غزة الساحلي .

ورفض بن غوريون عمليات دايان بذريعة أن الأسلحة الثقيلة لم تصل إلى اسرائيل بعد . .

وفي الحقيقة فإنه لا يعزى رفض بن غوريون لنقصٍ في السلاح ، قدر ما يُعزى لسياسة الانتظار التي قرر من خلالها معرفة ما الذي سيؤول إليه وضع القناة المؤم ، فكان بانتظار ما ستفعله بريطانيا وفرنسا ، ثم لاحت نذر عملية عسكرية تأخذ في الإنقشاع .

لم يتأخر الوفدان الإنكليزي والفرنسي في تبيان مقاصدهما بعد التأميم ، فقد قررت الحكومتان القيام بعملية عسكرية للاستيلاء على قناة السويس ، وكان الهدف الآخر للحملة : اسقاط عبد الناصر .

ولم يكن الطريق مجهولاً إلى الشرق الأوسط ، فقد عهدت الدولتان إلى الجنرال كايتلي قيادة الحملة ، في حين رشحت فرنسا الأميرال بارجو نائباً للقائد البريطاني في العمليات .

كانت بريطانيا تعلم جيداً بأن الولايات المتحدة لن توافق على الحلول العسكرية لمشكلة القناة* ، وأنها سوف تعارض العملية التي تعدّها حليفتاها الأوروبيتان ضد مصر ، وقد بقي التردد سيد الموقف بالنسبة لإيدن ، حتى بعد أن دقت الساعة الحاسمة على الجدول الزمني للقوات المهاجمة .

ومع انقسام أوروبا والولايات المتحدة حول كيفية التصرّف ، كان وضع العالم السياسي متدهوراً ، وقد لاحظ بن غوريون ما يجري ، فقرر اغتنام الفرصة .

وهكذا وجّه إلى القيادة العسكرية الاسرائيلية ، تعليمات في شهر أيلول ، تقضي بعمليات مكثفة لاعداد القيادات وتدريب أطقم المدرعات على الأسلحة الجديدة ، كذلك الطيران والبحرية . .

لقد أُعيد النظر بالخطط الاسرائيلية الموضوعة على الجبهة المصرية ، وكانت تتراوح بين احتلال سيناء بالكامل ، إلى مستوى عمليات محدودة مثل احتلال مضائق تيران أو شريط غزة . . وبدى أن اسرائيل على وشك الدخول في الحرب .

كانت الأسلحة الأساسية حتى ذلك الوقت ، فرنسية الصنع ، وقد سافر مدير عام

---

* لأن في نجاح هذه العملية العسكرية المباشرة ، عودة للنفوذ الغربي القديم إلى المنطقة ، لكن الزمن لا يرجع إلى الوراء ، وكان من الصعب على رجل مثل إيدن من الجيل القديم ، أن يصدق بأن العالم قد تبدّل ، وأن الوقائع الحديثة غير متصالحة مع نمط مدرسته ، فالقوى العملاقة التي بدأت بالحلول محل بريطانيا المهترئة في العالم ، صارت واقعاً وهي تريد أخذ نصيبها من مرحلتها . .

وزارة الدفاع ، شمعون بيريز إلى فرنسا بغية حث القيادة الفرنسية على دعوة اسرائيل للدخول في العمليات المقبلة ، وقد أوصى دايان وفد بيريز السري ، أنه إذا ما وافقت فرنسا على الرغبة الاسرائيلية ، فإنه لا بد (من محاولة للتحرر من وضع قاصر ، أشبه ما يكون بوضع طفل قاصر إزاء ثلاثة أوصياء ، والوصول إلى وضع حلفاء - شركاء متساوين في الحقوق ، خصوصاً إذا أثبتت ميادين القتال صلاحية هذه الشراكة - دايان - الفاشية - يوميات - دار المسيرة ص ١٧١) .

أما الوصية الثانية لدايان (المصدر نفسه) فكانت تتمثل بضرورة اقناع فرنسا لشريكتها بريطانيا في الحملة ، أن تعمد الثانية إلى ضبط النفس ، إذا ما اضطرت اسرائيل للتعامل الميداني مع (حلفاء بريطانيا) في المنطقة ، إذا ما أقدم هؤلاء الحلفاء على نجدة مصر .

والوصية الثالثة ، كانت تتعلق باقتسام الغنائم بعد الحملة ، إذ سيكون بوسع اسرائيل تعديل حدودها : في سيناء وشرم الشيخ وأبو عجيلة ورفح ، وأن حرية الحركة البحرية في ايلات ستكون مضمونة . .

ما أن عاد بيريز من مسعاه في باريس ، حتى كانت القيادة العسكرية وأجنحتها الاستخباراتية كلها في فرنسا ، وكان ذلك في النصف الثاني من شهر أيلول ١٩٥٦ حيث شهدت بلدة سيغر القريبة من باريس وقائع الاجتماعات . . .

ودون مقدمات ، فإنه لم يكن يعكر صفو المحادثات بين الاسرائيليين والفرنسيين سوى تردد بريطانيا لسببين : الأول ويدور حول حقيقة الامتناع الأمريكي عن تأييد الحملة ، وقوة هذا الامتناع ومداه . .

والثاني : حلول الشريك البغيض (اسرائيل) بمستوى حليف في الحملة ، ويقول دايان ، **إن الوفد الاسرائيلي في باريس ، كان قد غضب غضباً شديداً ، عندما تناهى إليه ، أن بريطانيا لا تريد تلطيخ سمعتها في المنطقة جراء اقحام اسرائيل في الحملة ، فيما كان الفرنسيون يؤيدون ذلك كل التأييد . . كانت بريطانيا حسب سياسة متوارثة ، مستعدة لاستغلال حرب تقع بين اسرائيل والعرب ، وليس العكس ، أما أن يأتي بن غوريون ليستثمر نزاعاً بين بريطانيا والعرب ، فتلك إذن آخر أيام بريطانيا في المنطقة . .**

فبريطانيا تعلم ما يبيت له الاسرائيليون من وراء شراكتهم هذه ، لذلك فقد حرصت على إظهار النزاع مع مصر ، على أنه نزاع يدور حول مسألة القناة ولا شيء آخر . . وقد ظل الفرنسيون أمام أهداف بريطانيا المعلنة ، يناقشون حتى اللحظات الأخيرة ، احتمال انسحاب بريطانيا من الحملة ، وكبدائل محتملة ، راح الفرنسيون يكشفون كامل أوراقهم أمام الاسرائيليين وخاف الاسرائيليون من عواقب التوجه نحو ثنائية الحملة ، وزاد من مخاوفهم أن فرنسا بدت وكأنها موافقة (على ثنائية الحملة : فرنسية - اسرائيلية) ، حين ذهبت إلى توجيه أسئلة استراتيجية تتعلق بصلاحية المطارات الاسرائيلية للقاذفات الثقيلة ، والمرافئ البحرية لاستقبال السفن الحربية الضخمة ، كذلك وضعْ القوات المظلية في اسرائيل ومستواها . . ثم دارت نقاشات أخرى تتعلق بحجم الإمدادات ونوعيات الأسلحة الصالحة للعمل في الصحراء ، ووصلت الأمور في تفاصيلها إلى مناقشة التوقيتات والمحاور وأسلوب عمل الطيران شرق القناة وغربها . . . ثم غادر الوفد الاسرائيلي في نهاية أيلول بصحبة بعثة عسكرية فرنسية للاطلاع على الحقائق ميدانياً . .

كان بن غوريون أكثر حذراً بعد أن بُسطت أمامه وقائع اللقاءات في باريس ، فقد خشي من مغبة الدخول في الحرب دون اشتراك بريطانيا ، وقد فهم أن اسرائيل ستصبح (قبرص - فرنسية) بغياب قبرص - الإنكليزية ، وأن ذلك سيمنع الحملة من ميزة القاذفات البريطانية التي هي بمثابة عماد الاستراتيجية كلها . . مع ذلك فإن بن غوريون لم يرفض (خطة باريس) لكنه لم يوافق عليها ، وقد وصلت النقاشات إلى عنق الزجاجة ، حين راح بن غوريون يسأل الوفد العسكري الفرنسي ، (عن الخطة التي لم يرها أو يسمعها ، والقاضية باسقاط عبد الناصر) ، فإذا كانت القناة هي همّ فرنسا في الحملة ، فليس هناك أي ارتباط بين هذا الهدف ، واسقاط عبد الناصر . . وقد وافق الفرنسيون على هذا الاستنتاج ، وأن حملتهم تقتصر على احتلال القناة فقط . .

في النصف الثاني من تشرين الأول ، جرت مياه كثيرة بين السين والتايمز ، واستقر الرأي على سيناريو تبادر اسرائيل بموجبه على فتح جبهة مع المصريين ، ثم يقدّم البريطانيون والفرنسيون إنذاراً للطرفين بالابتعاد عن القناة ، وأقلعت الطائرة السياسية - العسكرية إلى

باريس من جديد . لم ترق الفكرة لبن غوريون ، فيما أيّدها دايان ولفيف من العسكريين حوله ، وكان رأي القيادة العسكرية الاسرائيلية ، أن السيناريو عبارة عن ورقة للتغطية ، وأن فرنسا وبريطانيا تستطيعان الحاق الهزيمة بمصر دون اسرائيل ، وأن بن غوريون سيفوّت فرصة تاريخية من الصعب أن تعود ، وأن اسرائيل نتيجة لذلك ، فإنها ستواجه مصر وحيدة في المستقبل ، وأن الاستيلاء على شرم الشيخ وتأمين حرية الملاحة في العقبة واحتلال غزة . . أهدافٌ تستأهل التضحية . . والمجازفة أيضاً ، وكان الحوار يدور في الطائرة قبل باريس ، هكذا تمكنت القيادة العسكرية الاسرائيلية من اقناع بن غوريون الكهل ، بفضائل السيناريو المعروض ، وأن اسرائيل لا يمكن أن تصل لأهدافها التاريخية! . . دون اتهام بالاعتداء * .

لم يبق أمام الاسرائيليين في سيغر ، سوى مناقشة التفاصيل الأخيرة المتعلقة بالمساومات حول الغنائم بعد المعركة ، مع وضع الخطّة لما بعد السويس : كأن يكون بتنصيب نظام أكثر مسؤولية في مصر ، ليجد الجواب على مسائل الشرق الأوسط المعقدة ، وإعادة ترتيب المنطقة بكاملها من جديد .

كانت خطة بن غوريون لما بعد السويس ، أبعد من ذلك بكثير ، فهو يرى ضرورة تقسيم الأردن (تلك المنطقة غير القابلة للحياة) بين اسرائيل والعراق ، بحيث يتم توطين اللاجئين الفلسطينيين في المنطقة (العراقية من الأردن) ، كما أنه رأى في تقسيم لبنان بين المسلمين والمسيحيين مدعاة لاستقرار المنطقة ، وفي الخريطة الجديدة ، تُعطى بريطانيا حق الاشراف على المناطق العراقية - الأردنية بصورة كاملة ، كما تُعطى فرنسا حق الرقابة على

---

* نشب نقاش ساخن أثناء الجلسات الثلاثية ، حين رفض الانكليز ولحقهم الفرنسيون اشراك طائراتهم في الدفاع عن المدن الاسرائيلية في الاسبوع الأول من القتال ، متذرعين بأن ذلك سيعطل السيناريو المتفق عليه ، لكن دايان انفجر قائلاً : كنت أعلم أن شكسبير أعظم كاتب سيناريو في التاريخ ، ولكنني كنت أجهل أنه موجود في مجلس الوزراء البريطاني ، تطلبون إلينا أن نكون أول البادئين ، وهذا معناه أن تكون طائراتنا مشغولة فوق القناة ، ثم تعتذرون عن الدفاع عن مدننا بحجة عدم تعكير السيناريو ، هل نفهم من هذا ، أنكم ستركلون مؤخراتنا بجزمكم عندما تهدأ المدافع في هذه الحملة ؟! . .

كل من سوريا ولبنان ، أما قناة السويس فتوضع تحت نظام دولي مضمون . وأما اسرائيل فلها أن تتصرف في حدودها إلى الجانب الشرقي من القناة ، وأن تجعل تيران تحت السيطرة الاسرائيلية الكاملة .

في النقاش المسائي الخاص ، عاد العسكريون الاسرائيليون يلحّون على بن غوريون بعدم إثارة مسائل مستقبلية الآن ، لأن هناك (مشكلةً اسمها أمريكا ، وترددأ اسمه بريطانيا ، وعصبيةً اسمها فرنسا) ، وأنه أسوأ التوقيتات لإثارة مثل هذه المسائل في النقاشات ، هو توقيتات هذه الفترة بالذات .

كان العسكريون يعملون كلهما من شأنه ، لتمرير مهمة الحاضر ، وكان بن غوريون ، يريد من (مهمة الحاضر) أن تتجاوز نفسها إلى المستقبل ، وقد أجاد العسكريون دراسة فن التوقيتات الحاسمة ، بينما (الرجل المدني) ، كان يرى الحسم بعد دخان المدافع وليس تحتها . .

ثم جاءت الخطة البريطانية أخيراً على يد وزير الخارجية سلوين لويد ، وكاد الموقف أن يتفجّر من جديد ، فوزير الخارجية البريطاني انفرد مع الفرنسيين لإعطائهم الخطة ، ولم يهتم لوجود الوفد الاسرائيلي بأعلى مستوياته ، وعاد وزير الخارجية الفرنسي بينو ، ليحمل خطة الانكليز للوفد الاسرائيلي كما يلي :-

- تبدأ اسرائيل بالعمليات العسكرية ضد مصر .
- توجه بريطانيا وفرنسا إنذاراً واحداً إلى مصر واسرائيل بالانسحاب من منطقة القناة .
- بعد انتهاء مهلة الانذار - الذي لن تقبله مصر - تبدأ الطائرات الانكليزية والفرنسية بضرب المطارات المصرية .

لقد تصرّف لويد وهو يناقش بن غوريون في الجلسة الأخيرة ، تصرّف السيد الذي لا يريد أن يعطي أي امتياز لشريك جلسته ، فقد هدّد بايقاف الحملة ، لأن بريطانيا بمقدورها أن تتفق مع عبد الناصر بخصوص القناة في مدة لا تزيد عن اسبوع ، وأن محادثاته مع

فوزي وزير الخارجية المصرية في نيويورك كانت ايجابية للغاية ، وأن المصريين مستعدون للاعتراف بجمعية مستعملي القناة ، كما أنهم يوافقون على وضع لائحة مشتركة برسوم المرور ، والقبول برقابة دولية على إدارة القناة . . وكل ذلك حسب شرائع الأمم المتحدة وموافقتها . .

وحين سأله بن غوريون : لماذا جاء إلى باريس إذن ؟ أجاب :

- لأن بريطانيا (العظمى) ترى ضرورةً لإنهاء وضع الدكتاتور المصري على طريق امبراطورية الهند . . .

ورماها بجفاء ثم غادر فرنسا ، ولم تصدر عن بن غوريون سوى حركة تحريك مقعده . . .

كان المطلوب من اسرائيل أن تصل القناة في غضون ٤٨ ساعة ، كي ينجح سيناريو الإنذار المطلوب . .

لقد تزاحمت المصادفات على الطريق الزمني الفاصل بين الاجتماعات الثلاثية واليوم (ي) المحدد للعدوان ، فقام الأردن بطرد غلوب وتكليف النابلسي العدو الأول لبريطانيا بالوزارة ، ثم كان اجتماع رؤساء الأركان (المصري والسوري والأردني) في عمّان ، ثم وضع الأردن جيشه تحت تصرف القيادة الموحدة ، وضبطت البحرية الفرنسية السفينة المصرية (آتوس) وهي تنقل الأسلحة إلى المقاومة الجزائرية ، وكانت أزمة الطائرة التي اختطفتها الطائرات الفرنسية وهي تقل القادة الجزائريين قد بلغ صداها أرجاء العالم ، وتضافر كل ما هو مؤيد ومشجع للإقدام على تنفيذ خطة العدوان على مصر . .

قبل خمسة أيام من اليوم (ي) أي في صباح يوم ٢٤ تشرين الأول ، استدعى بن غوريون أركان حربه ، وكانت أسئلته من نوع (أين ، ومتى ، وكيف) ولم تكن من نوع (ماذا لو . . كيف يمكن . .) ، وفهمت القيادة العسكرية أن أسئلة بن غوريون تدعو إلى

الاستنتاج بأنه قرر المشاركة في الحملة . ثم انتقل إلي التفاصيل حسب لوحة الأسئلة التالية* :-

س - ما هو اليوم (ي) بالنسبة لاسرائيل ؟

ج - الإثنين ٢٩ تشرين الأول من العام ١٩٥٦ الساعة الخامسة صباحاً .

س - ما هو اليوم (ي) بالنسبة للإنكليز والفرنسيين ؟

ج - يوم الأربعاء ٣١ تشرين الأول حيث سيقوم الحلفاء بضرب المطارات المصرية مع إنزال لوائين مظليين فرنسيين بالقرب من القناة .

س - أعطوني فكرة عن قوة الغزو العسكرية على الطرف الآخر ؟ .

ج - مجموع قوة الغزو محددة كما نعلم ، بأربع فرقٍ من المظليين والمدرعات تساندهم قوة جويّة مؤلفة من ٤٠٠ طائرة مطاردة و ١٢٠ قاذفة ضخمة ، إضافة إلى فوجين ميكانيكيين للمشاة والمغاوير .

س - هل في نيتهم الاستيلاء على ضفتي القناة حسب المخططات ؟ .

ج - نجهل ذلك .

س - هل في نيتهم الوصول إلى القاهرة إذا لزم الأمر ؟

ج - نجهل ذلك أيضاً ، لكننا نشك في الوصول إلى القاهرة .

س - ما هي مهمات القوات الغازية على ضفتي القناة إذن ؟

ج - منع قواتنا من التوجه غرباً ، ثم منع المصريين من التوجه شرقاً ، وهو ما فهمناه أثناء ، مناقشات باريس الأولى .

---

* لقد أردت من وراء هذه التفاصيل ، إظهار كيفية الأداء في اللحظات الحاسمة في دائرة قيادة العدو السياسية والعسكرية ، وهي ذات مغزى حين تقارن بموقف العربي الحاكم لدى مناقشة ما هو حاسم ومصيري ، يبقى هل من المهم التأكيد أن وراء ذلك أخذ العبرة ليس أكثر ؟ وأن المشاورة الحقيقية لا تعيب الحاكم أبداً ! . . بل ترفع من قدره .

س – ما هو مستقبل جزيرة سيناء في المخططات ؟ .

ج – سمح سلوين لويد لنفسه بأن يقول لنا ، (آمل ألا تستغلواالفرصة لضم سيناء بعد الحرب) .

س – هل يمكن اسقاط عبد الناصر من قبل الجمهور المصري ؟ .

ج – لا يدور في خلدنا أن المصريين سيسقطون نظام عبد الناصر .

س – ماذا عن وضع القوات الإنكليزية في الأردن ؟ .

ج – لا نعتقد أن هذه القوات المتواجدة في عمان والعقبة ستقدم على التحرك .

س – ما هو موقف بريطانيا إذا هاجمنا الأردن أو العراق ؟ أو إذا هوجمنا من قبلهما أو بواحدة منهما ؟ .

ج – ستتدخل بريطانيا لمساعدتهما ، أما إذا هوجمنا فستكتفي بنصائح ضبط النفس .

س – هل هناك تناقض بين الفرنسيين والإنكليز بشأن حدود اسرائيل بعد الحملة؟ .

ج – تناقض خفيف ربما ، ففي حين وافق الفرنسيون على تعديل حدودنا في سيناء واحتلال مضائق تيران ، آثر الانكليز كعادتهم ، أن كل شيء بعد الحملة ، خاضع للنقاش والتشاور .

س – ما الاسم الذي ترونه لإطلاقه على عمليتنا ؟

وقبل الإجابة ، لمعت عيون العسكريين الاسرائيليين ، فالسؤال معناه الموافقة القطعية على العملية التي أصبح اسمها (قادش)* ، وبالسؤال نفسه ، يكون بن غوريون . قد أعطى الضوء الأخضر النهائي ، للذهاب إلى الحرب مع الإنكليز والفرنسيين . ولم يعد ثمة شكوك تساور البعض عن احتمالات التراجع ، فقد أصبحت لحظة الصفر ، تقاس

* قادش حسب التوراة ، هي آخر قرية في سيناء على الحدود الفلسطينية . وقد قبع فيها اليهود أثناء رحيلهم من مصر أيام موسى ، ليالٍ طوال ، قبل الدخول النهائي إلى فلسطين .. فما أكثر ما تقوله التوراة الاسرائيلية ! . . .

بالساعات ، وعلى المعبد الثالث أن يلتقط سانحته الذهبية ، بعد أن بدت مصر وكأنها أسيرة ثلاثة جيوش عالمية .

ثم بدأت الحرب . . .

كانت لوحة التقابل بين القوى المتحاربة تشير إلى انكسار كامل في التوازن ، وكان عبد الناصر يظن للوهلة الأولى ، أن اسرائيل وحدها في الميدان ، إذ لم يصدق أن بريطانيا وفرنسا ، يمكن أن تنجرّا إلى عمل عسكري مشترك مع اسرائيل ضد مصر ، وظل يقلّب الموقف إلى أن رأى بأم عينه ، أسراب الطائرات البريطانية وهي تغير على مطار الماظة القريب من بيته ، وذلك بعد انتهاء مهلة الإنذار الغربي .

لقد هوجمت مصر من ثلاث دول كبرى وهذه هي الحقيقة * .

كانت خطة (قادش) تقضي بتوزيع الجهد الرئيسي بين ثلاثة مجموعات قتالية على النحو التالي :

- مجموعة أوغدا وقد وزعت إلى ثلاثة تشكيلات كل تشكيل سيعمل وفق الخطة على محور خاص به .
- المجموعة الشمالية (المجموعة ٧٧) وهي بقوة لوائي مشاة ولواء مدرع بقيادة العميد حاييم لاسكوف ، وخصص لها المحور الساحلي الشمالي عبر مدينة العريش .

---

* يقلل البعض من أهمية القوات المشاركة في القتال ، وحيث أن الحملة كانت لا تقصد قناة السويس فحسب ، بل اسقاط عبد الناصر ، فقد جاءت اللوحة كما يلي :

١- القوة الإسرائيلية : ٧ ألوية مشاة + ٢ فرق مدرعة + لواء مظلي وهناك ١٨ لواء احتياط بيد القيادة .

٢- القوة البريطانية : فرقة مشاة (٣ ألوية) + فرقة مدرعة + لواء مظلي + لواء كوماندوس بحري .

٣- القوة الفرنسية : فرقة مظلية + لواء مشاة + لواء مغاوير + لواء مظلي خاص .

٤- البحرية الانكليزية العاملة في القتال : ٣ حاملات طائرات + ٤ طرادات + ١٣ مدمرة + ٦ فرقاطات + ٥ غواصات .

٥- البحرية الفرنسية : ٢ حاملات طائرات + ٤ مدمرات + ٨ فرقاطات + ٣ غواصات + سفينة قيادة .

٦- القوى الجوية العاملة في القتال : ٦٠٠ طائرة غربية واسرائيلية من أنواع مختلفة .

- المجموعة القتالية الوسطى (المجموعة ٣٨) وهي كالشمالية بقوة لوائي مشاة ولواء مدرع بقيادة العقيد يهودا دالاش ، ومحور هجومها موقع القسيمة - أم قطف - أبو عجيلة .

- اللواء ٢٠٢ مظلات ، وخصص للمحور الجنوبي من الجبهة ، بقيادة العقيد آرييل شارون ، ويعمل إلى الجنوب منه اللواء التاسع الميكانيكي بقيادة العقيد ابراهام يوفي، وهدفه شرم الشيخ انطلاقاً من ايلات .

وعينت الكتيبة الأولى من اللواء المظلي التابع لشارون ، أن تكون رأس الحربة الأولى ، حين خطط لاسقاطها على الممر الغربي لموقع المتلا ، حيث لا يبعد أكثر من ٤٠ كيلومتراً عن قناة السويس ، وهو ما سيعتبره الغرب مقدمة لتوجيه الإنذار . وفي الوقت ذاته ، أي مع انزال الكتيبة الأولى في موقع المتلا ، يكون اللواء المظلي في الطريق نحو الكونتلا وتمادا ونخل ليؤمن الاتصال مع الكتيبة الأولى في المتلا . وعينت توقيتات البدء للمحورين الشمالي - الساحلي والأوسط ، بتسلسل زمني (الشمالي يوم "ي" + ١ والأوسط يوم "ي" + ٢) ، بحيث تضمن القيادة الاسرائيلية دخول القوات البريطانية والفرنسية في المعركة ، حيث تم تأمين ذريعة الإنذار بكتيبة شارون بالقرب من قناة السويس ، وكانت الكتيبة بأمرة روفائيل ايتان رئيس الأركان المقبل لاسرائيل .

كان الطيران الاسرائيلي (زهاء ٢٠٠ طائرة) حراً في الحركة ، بعد أن أمنت فرنسا غطاءً جوياً لاسرائيل بصورة كاملة ، وقد دعم الطيران الاسرائيلي ، كتيبة المتلا المظلية ، بامدادات تتراوح بين سيارات الجيب والمدافع : (عديمة الارتداد وهاونات) إضافة إلى الذخائر والمياه والمعدّات الطبية اللازمة .

أما اللواء المظلي نفسه ، فقد دعم قبل تحركه بقوات إضافية بلغت زهاء ثلاثة آلاف مقاتل ، إضافة إلى الدبابات (إم اكس) الفرنسية ، كما نقل له على عجل ١٥٠ عربة عسكرية فرنسية حديثة حسب اتفاق سيغر .

كانت أول محطة قتالية لشارون في الكونتلا ، ثم أعقبها السيطرة على تقاطع الطرق في

تمادا ، وأعلنت اسرائيل في التاسعة مساءً من يوم ٢٩/ ١٠ أنها تهاجم قواعد الفدائيين في الكونتلا وتمادا ونخل ، وأدركت القيادة المصرية ، أن هذا المحور في سيناء ، سيؤدي في النهاية إلى قناة السويس ، وقد سارع عبد الناصر والمشير عامر ، إلى إعطاء الأوامر للواء علي عامر قائد الجبهة الشرقية بالتحرك شرق القناة لملاقاة العدو في ممر المتلا الذي وصلت أخباره إلى القيادة المصرية ، وبدلاً من ساعتين (قاعدة فايد - المتلا) فقد استغرق عبور الدبابات المصرية زهاء اثنتي عشرة ساعة ، وكان الخطأ الذي ارتكبه عبد الناصر ، هو توجيهه أن تبقى القناة مفتوحة أمام الملاحة ، مما اضطر علي عامر إلى الاستدارة الطويلة للوصول إلى موقع المتلا خشية عرقلة الملاحة في القناة .

على محور القسيمة - أبو عجيلة في منطقة العوجا ، تمكن الاسرائيليون من السيطرة على ممر ديكا خلف أبو عجيلة ، بعد أن فشلت محاولات المشاة والمدرعات السيطرة على الموقع عدة مرات ، وقد فهم العميد أنور القاضي قائد الميدان في العريش ، أن الهجوم الاسرائيلي باتجاه محور أم قطف - أبو عجيلة ، هو هجوم واسع النطاق ، وليس هدفه قواعد الفدائيين هنا وهناك ، لذلك وجّه أوامره إلى العميد سعد الدين متولي بتحريك لوائه (اللواء الرابع مشاة) من العريش لتعزيز موقع أبو عجيلة ، وتم له ذلك حين باشر باستلام مهامه القيادية في موقع أبو عجيلة ، الساعة الخامسة مساءً ، ثم دفع على الفور بتعزيزات إضافية إلى موقع أم قطف .

قرر الاسرائيليون اسقاط أم قطف بأية وسيلة ، وبدأ التحضير للهجوم من الشمال والغرب بقوة لوائي مشاة وكتيبتي دبابات وكان ذلك عند الفجر ، واصطدمت طلائع القوات المهاجمة بدفاعات أم شيحان (٤ كم شمال شرق أم قطف) . وكانت نتائج الهجوم الأولية مخيبة للآمال ، فقد أصلى النقيب زهدي * ، قائد موقع أم قطف أرتال المهاجمين بوابل من النيران ، بحيث تمكن من تدمير العديد من الآليات ، فيما تناثر المهاجمون في جميع الاتجاهات ، وانتهى الهجوم عملياً قبل أن يبدأ . وقد قرر القائد المصري استثمار نكسة أم قطف الاسرائيلية ، فوجه بتنظيم هجوم معاكس على القوات

---

* لا نعلم أين هذا النقيب ، وما هي أخباره - ليالي الحلمية تعود من جديد . .

المنسحبة من محيط أبو عجيلة ، وأفادت التقارير العسكرية الاسرائيلية ، بأن هذا الهجوم كان قوياً إلى درجة أنه لم يوقفه إلا الطيران . .

كان الوضع قلقاً جراء الاحباطات التي منيت بها القوات الاسرائيلية العاملة على المحور الأوسط ، فالألوية المتعثرة أمام القسيمة - أم قطف كانت قد أصبحت بادية للعيان .

قرر دايان بعناد أشد ، معاودة الهجوم ضد موقع أم قطف ، باشراك كتائب جديدة من الألوية : الرابع والعاشر واللواء ٣٧ الميكانيكي ، ووضع على رأس الهجوم العميد غودير ، وفشل الهجوم ثانيةً ، بعد أن تحطمت آلياته بين حقول الألغام والقصف المدفعي إلى درجة أن قواته تشتّتت في الظلام . . عزل دايان غودير وأحل محله العقيد تال على الفور .

في ذلك الوقت تقريباً (يوم ٢ تشرين الثاني) قررت القيادة الاسرائيلية في تل أبيب صرف النظر نهائياً عن الموقع المصري العنيد (أم قطف) . . وانتهت معركة أبو عجيلة ، بانتصار مصري أكيد ، لكن دون أن يعي أحد حقيقة التضحيات ، التي أدت إلى اليأس المطبق لدى القيادة الاسرائيلية ، بخصوص هذا المحور ، وتركه قائماً على حاله وسط الجبهة . .

على محور المتلا ، شرق القناة ٤٠ كم فقط ، وبسبب من تأخر وصول القوات المصرية ، فقد ترك ذلك مجالاً لحركة شارون السريعة عبر مواقع : الكونتلا - تمادا - نخل ، للوصول إلى ممر متلا وتنظيم الدفاع الدائروي ، بعد أن قدّم الطيران الاسرائيلي دعماً قوياً ، وقد يكون وحيداً ، من أجل عرقلة حركات الالتفاف المصري غير الموفقة على هذا المحور الخطر .

حاول شارون ، خلافاً لتعليمات قيادته ، تحسين مواقعه القتالية في ممر المتلا ، فأرسل دورية باتجاه (مضيق الحيطان) شرق المتلا بحوالي ٤ كم ، وكان يرأس الدورية الرائد مردخاي غور ، إلا أن المصريين في هذا المضيق ، أطلقوا نيران مدافعهم من كهوف الجبال على الدورية ، واعتبرت العملية برمتها ، بمثابة انجاز فاشل لشارون بعد أن تكبدت الدورية

٣٨ قتيلاً و١٢٠ جريحاً ، مقابل خسائر مصرية بلغت زهاء ١٢٥ قتيلاً ، وقبيل منتصف الليل تلقى شارون توبيخاً من دايان ، لأنه تصرف بخلاف التعليمات العسكرية ، وقد بيّن دايان في برقية عاجلة ، أن المصريين يتحركون بمدرعاتهم من بير جفافة إلى الجنوب ، وعلى قوات شارون أن تستعد للمجابهة في المتلا . .

وعند منتصف الطريق بين بير جفافة وممر المتلا ، تسابق الطرفان (المصري والاسرائيلي) لاحتلال موقع بير الحمة الاستراتيجي ، وقد لعب الطيران المصري والطيران الاسرائيلي أدوار مبارزة فوق المنطقة التي ستكون مسرح قتال رهيب في محيط المتلا ، لكن أوامر من بن غوريون عصر يوم ٣١/ ١٠/ ٩٥٦ ، كانت قد صدرت بايقاف القتال وسحب القوات من سيناء (بسبب تأخر الغرب في دخول المعركة) . قرر رئيس الأركان (موشي دايان) خوض الصراع مع رئيسه بن غوريون ، للعدول عن هذا القرار ، وقد توصل إلى حل وسط ، يقضي بموجبه ، وقف العمليات الهجومية ، والاكتفاء بوضع الدفاع المتحرك ، وظهرت بوادر رضا عن العمليات حتى الآن ، في حين قرر المصريون متابعة الهجوم على جميع محاور القتال في سيناء . .

ومع بداية القصف البريطاني - الفرنسي للمطارات المصرية مساء ٣١/ ١٠ وجه عبد الناصر أمراً للقوات المصرية العاملة شرق القناة في سيناء بالعودة فوراً إلى أماكن انتشارها غرب القناة ، تحسباً لانزال مظلي وشيك . .

وبات الجو متاحاً أمام القوات الاسرائيلية بعد انسحاب المصريين من أبو عجيلة وأم قطف والمواقع الأخرى في سيناء ، وألغى دايان أوامره السابقة في التزام خطط الدفاع ، وانتقل إلى الهجوم من جديد ، قاصداً محاور السويس إلى الاسماعيلية ، وبعد معارك شرسة ، تمكن الاسرائيليون من احتلال المحور الساحلي : رفح - العريش - القنطرة - القناة ، وتم عزل لواء غزة تمهيداً لاحتلاله ، وكان قائد الهجوم الميداني العميد حاييم بارليف العامل تحت أمرة العميد لاسكوف ، قد وجه العقيد أهارون دورون باحتلال غزة من ثلاثة محاور تنطلق من الشرق والجنوب والشمال ، وقد أعلن العميد المصري محمد فؤاد الدجاوي قائد القطاع ، استسلام غزة مساء يوم ٢/ ١١/ ٩٥٦ ، بعد انسحاب الجيش

المصري ، وفي اليوم التالي ٣/ ١١ سقطت مدينة خان يونس بعد أن كبدت اللواء الاسرائيلي المهاجم (اللواء ١١) خسائر في الأرواح والعتاد ، وذلك بعد أن صممت سرية من الحرس الوطني الفلسطيني على القتال حتى النهاية قبل أن تسقط المدينة .

بالنسبة إلى شرم الشيخ ، وهو الهدف الأهم في الخطة الاسرائيلية ، فقد تعين على اللواء التاسع ميكانيكي بقيادة العقيد ابراهام حوفي ، التحرك لاحتلال المواقع المشرفة عليه، وقد تحرك اللواء منطلقاً من الكونتلا الساعة العاشرة صباحاً من يوم ٣١/ ١٠ ، ثم تابع توجهه عبر الطريق الصعبة جنوب محور شارون ، بحيث لا يثير انتباه الجيش الأردني، وكان على اللواء أن يقطع مسافة ١٤٠ كيلومترا على طريق مليئة بالرمال . .

وكان في الخطة أن تتحرك كتيبة من كتائب شارون في المتلا إلى الجنوب ، قاطعة الساحل الشرقي لخليج السويس وصولاً إلى رأس سدرة ومنه جنوباً إلى جبل الطور (على بعد حوالي ٤٠ كم من شرم الشيخ) ، وكانت الكتيبة بقيادة روفائييل اتيان . .

وبعد معركة خفيفة في قطاع سدرة ، تمكن ايتان من احتلال حقول النفط في أم سدرة ، حيث تحركت كتيبته إلى جبل الطور بعد الظهر .

كان اللواء التاسع بقيادة حوفي ، قد أنجز مهام قطع الطريق نحو شرم الشيخ ، وتمكن يوم ٣/ ١١ من السيطرة على القرية الساحلية الخالية (دهب) ، وهناك التقت طلائع اللواء بسفينتين اسرائيليتين أبحرتا من ايلات ، لتزويد اللواء بالطعام والمحروقات إضافة إلى دبابات فرنسية حديثة من نوع آ . م . اكس .

وصباح يوم ٣/ ١١ شنت الطائرات الاسرائيلية غاراتها على القوة المصرية المدافعة عن الموقع بقيادة العقيد رؤوف زكي ، وتمكنت القوة المصرية من اسقاط طائرة اسرائيلية وأسر طيارها ، وفهم العقيد زكي من الطيار أن أرتال اسرائيلية مدرعة قادمة لاحتلال رأس نصراني المشرف على مضيق تيران . .

كان الهجوم الأول لحوفي عند منتصف ليل ٤ - ٥/ ١١ من الجانبين الشمالي والغربي لشرم الشيخ ، إلا أن قوات العقيد زكي تمكنت من صد الهجوم مكبدة الكتيبة الأولى منه زهاء ثلاثين إصابة ، مما اضطره إلى سحب الكتيبة ثلاث كيلومترات إلى الوراء .

وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح يوم ١١/٥ عاود حوفي الهجوم ، وبعد ساعات من القتال الشرس ، تمكنت عربات الجيب المزودة بمدافع غير مرتدة من اختراق الفوهة الشمالية لدفاعات شرم الشيخ المصرية ، وقد جُرح العقيد زكي في هذه المعركة جراحاً بليغة ، وكان يليه في القيادة المقدم حنا نجيب ، وقد واصلت الحامية المصرية قتالها العنيد رغم انكسار التوازن وتدخل الطيران الاسرائيلي بمعدل خمسين طلعة يومياً ، ولم يكن أمام المقدم حنا إلا أن أعلن الاستسلام ، وكان ذلك بمثابة مفاجأة قاصمة لحامية شرم الشيخ ، في حين تولى الاسرائيليون تنظيم صفوف ألف أسير مصري ، كانوا - بين ضابط وجندي - في حالة جيدة لمواصلة القتال ! . .

وبوصول كتيبة ايتان المظلية إلى الطرف الجنوبي الغربي من شرم الشيخ ، تكون صفحة الشيخ قد اقفلت ، بانتظار ما سيحدث مع الطرف الآخر من القناة على الضفة الأخرى من قناة السويس ، فقد بدأ القصف الجوي البريطاني - الفرنسي على المطارات المصرية وسكك الحديد الساعة السابعة من مساء يوم ٣١/ ١٠ ، وكانت القوافل البحرية العسكرية قد باشرت الإبحار من مرافئ ڤاليتاً (إيطاليا) ، وكونستانين (فرنسا) على أن تنضم إلى القافلة السفن الحربية المرابطة في الموانئ الجزائرية والقبرصية والمالطية . .

كانت المهمات الأساسية للهجمات الجوية ، تدمير المطارات والطائرات المصرية ابتداءً من الأقصر فمصر العليا إلى سيناء . . ثم عمدت الحكومة البريطانية أمام سيل الاحتجاجات العالمية ، إلى الاسراع بتنفيذ عمليات الانزال والاستيلاء على القناة ، قبل أن تنجح المعارضة الدولية بافشال الحملة . .

أغاظت توجيهات لندن وباريس بضرورة الاسراع في تنفيذ العملية ، كلاً من الجنرال ستوكويل (بريطاني) ونائبه بوفر (الفرنسي) وعلقا بالسباب والشتائم (**على حرب يريد المدنيون خوضها برعونة غير مبررة**) ، لكن تعديلات بالاسراع وجدت طريقها إلى خطة ستوكويل في اليوم التالي .

كانت عملية الانزال التي أخذت الرمز (تلسكوب) تقضي بانزال مظلي على مطار

الجمّيل (٣ كيلومتر غرب بور سعيد) ، وذلك يوم ٥/ ١١ ويتقدم المظليون نحو بور سعيد من الغرب ، في حين يقوم المظليون الفرنسيون بالاستيلاء على بور فؤاد شرقي القناة . كما وضعت خطة خاصة للقوات المحمولة بالحوامات للانزال على مفترق الطرق الرئيسية في محيط منطقة الانزال . . وكانت الخطة تقتضي الاتصال بالاسرائيليين شرق القناة لمهام التغطية اللازمة ، غير أن ستوكويل أناط هذه المهمة بالفرنسيين (للجنرال بوفر) نظراً لحساسية الوضع بين بريطانيا واسرائيل من جهة ، وحساسية الوضع الخاص للجنرال ستوكويل مع الاسرائيليين يوم انسحابه من حيفا أثناء حرب ١٩٤٨ .

عززت القيادة المصرية الوضع الدفاعي لمدينة بور سعيد ، كما تم ارسال أسلحة خفيفة للمواطنين من أجل الدفاع عن المدينة ، وتطوع العميد صلاح الدين الموجي (رئيس أركان القيادة الشرقية) لقيادة القتال في بور سعيد ، ووافقت القيادة المصرية على ذلك .

كان أول ما فعله الموجي ، اسناد المدافعين عن مطار الجميل ، وتخريب مدارج الهبوط فيه ، ومع الفجر (فجر الخامس من تشرين الثاني) بدأت طائرات الحملة بالإغارات المتوالية على بور سعيد وبور توفيق ، بحيث فُهم بأن موعد الانزال قد اقترب . . وفي التاسعة صباحاً (أي بعد أربع ساعات من القصف الجوي) تم إنزال الكتيبة الثالثة من لواء الجنرال بتلر المظلي البريطاني (اللواء ١٦) على أرض محيط المطار وبعد ربع ساعة ، اسقط الفرنسيون ٥٠٠ مظلي آخر من الفوج الثاني جنوب بور سعيد إلى الغرب قليلاً (جسر راسوا) ، وكان المصريون قد أفلحوا بتدمير هذا الجسر من قبل ، وأعقب ذلك قتال عنيف أداره الموجي بكفاءة الرجال . .

بعد الظهر أسقط الفرنسيون كتيبه مظلية أخرى جنوب شرق بور فؤاد ، كما أسقط البريطانيون في الوقت نفسه ، كتيبة مظلية جديدة لتعزيز الوضع حول مطار الجميل .

حاول الموجي كقائد محاصر أن يكسب الوقت بهدنة حربية ، يستطيع من خلالها ابراز الجرحى واخماد الحرائق جراء القصف الجوي ، فاتصل بالمحافظ (الحاكم المدني للمدينة) السيد محمود رياض ، وأبلغه ضرورة الاتفاق على هدنة موقتة . . وكان الموجي بانتظار

النجدات الموعودة من القاهرة . وبالفعل فقد أمكن للموجي اللقاء مع الجنرال بتلر قائد المظليين الانكليز في المنطقة .

طلب الموجي هدنة موقتة لاصلاح محطة المياه لحاجة المدنيين ، غير أن بتلر عرض شروطاً نهائية للاستسلام على أن يتصل الموجي بالقاهرة لاسلكياً . . وأظهر الموجي موافقته على ذلك ، وبذريعة عدم تمكنه من الاتصال مع القاهرة ، أفلح الموجي بتمديد الهدنة الموقته لكسب وقت إضافي . .

خلال الليل تلقى الجنرال ستوكويل أوامر من لندن تفيد بالغاء كل رمايات التمهيد البحرية تجنباً لوقوع خسائر مدنية ، فاكتفى ستوكويل بطلب الدعم الناري المحدود لتغطية القوات النازلة على شواطئ بور سعيد وبور توفيق ، وبالفعل فقد تم التمهيد لمدة ساعة كاملة أعقبها قصف جوي من الطائرات المغيرة على فوهة القناة . . ثم بدأت القوات الرئيسية الممثلة بوحدات الألوية والأفواج والمغاوير والآليات الثقيلة بالنزول على شواطئ بور سعيد وبور فؤاد والكاب وصولاً إلى الاسماعيلية . .

كانت مقاومة الموجي في بور سعيد على أشدّها ، حين تدفقت قوات الحملة لتطويق المدينة من جميع الجهات ، وقبيل الظهر من يوم ٦/١١ ، أي بعد خمس ساعات من نزول القوات الغربية الرئيسية كان الموجي بكل الفروسية يقاتل عند المدخل الشمالي ، على الحد الأمامي للقتال دفاعاً عن بور سعيد ، وبعد نفاد الذخيرة بالكامل ، وقع العميد الموجي في الأسر ، إلا أنه كقائد عالي الجبهة ، رفض كلياً توجيه الأوامر بالاستسلام قائلاً لستوكويل وبوفر ومارشال بارنيت (تستطيعون أسر مصر كلها ، ولكنكم لن تجبروها على الاستسلام! . .) ، وكانت مأثرة تدعو إلى الفخار .

أعلنت بريطانيا موافقتها على الاقتراح الكندي بوقف اطلاق النار ، ثم تبعتها فرنسا بعد ذلك * .

---

* ذعرت بريطانيا وفرنسا لتهديد خروتشوف النووي إذا استمرت الأعمال العدوانية على مصر ، وشعرا بالاطمئنان لردة الفعل الأمريكية للإنذار السوفييتي باستنفار قواتها النووية . ثم كانت مشكلة المجر في الوقت نفسه ، وبدا أن العالم مقبلٌ على نهايته ، جراء السويس واسرائيل والمجر بآن واحد . .

على الصعيد البحري ، فإنه يمكن للبحارة المصريين ، في المدمرة دمياط والمدمرة نصر والمدمرة طارق ، كما يمكن لرجال الضفادع وزوارق الطوربيد على سطوح المياه وتحتها ، في خليج السويس والبحر الأحمر ، وعلى مدى الأفق قبالة الاسكندرية . . أن يفاخروا بأعمالهم الرائعة ضد التفوق الساحق الماحق لقوات الغزو الثلاثي . .

أما اسرائيل فقبلت بوقف اطلاق النار شريطة (**أن تكون مصر مستعدة للسلام الآن ، فإن لم يكن ، فسوف تحترم اسرائيل ، الخطوط الجديدة للهدنة ، طالما فعلت مصر الشيء ذاته ! . .**

وما كاد بن غوريون ، أن يفرغ من تصريحه الأخير ، حتى كان الانذار السوفييتي مبسوطاً على طاولته ، فتقرر أن يسافر وفد اسرائيلي برئاسة غولدا مائير وعضوية دايان وبيريز إلى باريس لاستطلاع الأمر ، وكان جواب باريس واضحاً (ألا تستخفّوا بالإنذار الروسي) . .

سيقول المستشار الألماني أديناور لرئيس الوزارة الفرنسية غي موليه ، ليلة اجتماعه بالوفد الاسرائيلي (**الأفضل ألا تكون لديكم أوهام حول المعونة الأمريكية ففي مثل هذه الحالة ، لن يهرع أحد لمساعدة أحد ، حين تتطاير الصواريخ النووية ، حتى كآخر احتمال من احتمالات الموقف**) .

وكان جواب ايزنهاور الناجح لتوه في انتخابات رئاسية حاسمة قطعياً : (**لا جوائز على العدوان ، عليكم وقف الحرب ، والانسحاب إلى الخطوط السابقة ، والانسحاب من مصر كلياً** . . .) وعلى حين غرة ، التفت ايزنهاور إلى السفير الفرنسي الذي كان يزوره : (**دعني أوضح لك ياسيدي السفير ، فالحياة عبارة عن سُلّم يصل أعلاه إلى السماء ، وإنني أشعر بأنني شديد الاقتراب من طرفه العلوي ، دعني أقدم نفسي لخالقي بيدين نظيفتين لم تلوثهما حرب نووية ضد الإنسان**) (هيكل - ملفات السويس ص ٥٥٩) .

عاد الوفد الاسرائيلي من باريس ومعه إضافة جديدة من السفير الأمريكي بوهلن في موسكو : - (**إن السوفييت يعتزمون تسوية اسرائيل بالأرض إذا لم تستجب للنداءات بالإنسحاب**) .

وكان يوماً داكناً في أروقة مجلس الوزراء الاسرائيلي المتوتر ، حين أعلن بن غوريون قبول كل شيء بما في ذلك الانسحاب من سيناء .

خامسا / الانف المعقوف أو الاستخبارات الاسرائيلية .

ليس من المبالغة في شيء ، أن اسرائيل ظلت تربح نصف حروبها ، عن طريق التجسس أو ما يسمى بالحصول على المعلومات (العسكرية والاجتماعية والاقتصادية العربية) بشتى الطرق المتاحة .

أما الميادين ذات الأهمية البالغة فكان يُسخر لها كلّ ما وصل إليه العالم من تكنولوجيا في السماء أو على الأرض ، بما في ذلك النشاط الفردي . . وإضافة للحصول على المعلومات المتعلقة بالخصم (أو الخصوم بالجمع) ، فإن فرع الموساد الخاص بتنظيم الهجرة اليهودية من أرجاء العالم ، كان أشد الفروع نشاطاً ، سواءً بالدعم المالي الاستثنائي ، أو بدعمه بالعديد من الخبرات الفنية والبشرية مع كل الوسائط اللازمة .

وكعادتها في تبرير الضربات الاستباقية ، فإن اسرائيل ، في حملة اعلامية صاخبة ، محلية ودولية ، راحت تثير الفزع جراء انكسار التوازن بسبب الأسلحة الشرقية المتدفقة على مصر وسوريا ، ونتيجة لهذا التصعيد ، فإن نشاطاً استطلاعياً محموماً ، كان يأخذ طريقه إلى الحدود مع مصر على الدوام . .

أما جهاز أمان (وهو فرع الاستخبارات المدني في اسرائيل) فكان يغذي لجنة الأمن التابعة للوزارة الاسرائيلية (شخص رئيس الوزراء أولاً) ، بكل ما يلزم عن أوضاع المدنيين العرب على الحدود : وفي وثيقة مؤلفة من ١٢ صفحة وضع جهاز أمان ، توقّعاته عن ضربة مقبلة لقطاع غزة (١٩٥٥) ، هذا وسيحاسب رئيس أمان لاسقاطه من توقعاته أمرين خطيرين : -

- الأول : ردة الفعل المصرية التي تبدّت بشن حرب عصابات على نطاق واسع عبر الحدود .
- الثاني : لم يرد في التوقعات أي تنويه أو تقييم ، لامكانية تحوّل مصري نحو الشرق بخصوص السلاح ، وهو تحوّل خطير .

وعلى الفور ، سارعت (أمان) إلى تحسين وضعها التجسسي حين أوجدت فرعين جديدين لها : فرع فني يُعنى بدراسة الميزات الحربية لكل نوع من أنواع السلاح السوڤييتي الجديد ، (أو بتأمين نماذج منه) عن طريق الخارج أو عن طريق أي دولة عربية تستخدم هذا السلاح ، وفرع آخر يُعنى بمراقبة التغلغل العسكري السوڤييتي (الخبراء والمدربين . . الخ) إلى المنطقة ، مع النفوذ السياسي للشيوعيين فيها . .

ونجحت (أمان) مع نهاية كانون الثاني من العام ١٩٥٦ بنقل معلومات ثمينة عن حجم الصفقة التشيكيه لمصر من السلاح * .

وقبيل حملة سيناء بأشهر معدودة ، انتقل اهتمام الأجهزة السرية الاسرائيلية إلى الساحة المصرية ، بعد أن كان مركزاً على أعمال الفدائيين في قطاع غزة والضفة الغربية ، وحل محل الاهتمام الأول لحرب العصابات ، هاجس الاهتمام بترسانة الأسلحة الشرقية لمصر ، وقد زاد في المخاوف ، تأميم مصر لقناة السويس .

كانت الوحدة ١٣١ التابعة لجهاز أمان في سباق مع الزمن ، لتأمين ما يلزم عن المعدات الإضافية (البحرية) الواصلة ليلاً إلى المرافئ المصرية ، كما كلفت بمهام خطيرة تتعلق (بتجميع كل معلومة مفيدة لها مساس بنظام ادارة المعارك في سيناء)وقد هرع قادة الجهاز أنفسهم للمشاركة في جمع هذه المعلومات ، وقد تفرع عنها ، معلومات استراتيجية وتكتيكية ، مثل كيفية توزع القوات المصرية في قواعد الانطلاق ، قوة المجموعات العسكرية النارية ، محاور التقدم الملائمة لسير الدبابات وأنصاف المجنزرات . . . الخ .

وقد كوّن الجيش الاسرائيلي ، نتيجة الاستطلاعات الاستخباراتية المتزايدة ، صورة شبه واضحة (وربما بمساعدة ضباط في الجيش السوڤييتي من أصل يهودي) عن نظم ادارة

---

* تم نقل تقرير شامل إلي رئيس الوزارة الذي قام بتحويله إلى دايان :—
٢٠٠ طائرة ميغ ١٥ + ٥٠ قاذفة اليوشن + ٦٠ آلية نصف مجنزرة بمدافع من عيار ١٢٢ مم + ٢٧٥ دبابة طراز تي ٣٤ . . . الخ .
وقد يكون مصدر التقرير السري ، أحد عملاء اسرائيل في جهاز المخابرات السوڤييتي ، أو أحد أعضاء الحزب الشيوعي ، أو أحد العاملين في القيادة العسكرية السوڤييتية . . أو في القيادة العسكرية العربية ! . .

المعارك التي ستطبقها مصر وسوريا والأردن ، وصولاً إلى الأنظمة على مستوى كتيبة أو حتى سرية في بعض الأحيان . .

في أواسط العام ١٩٥٥ اقترحت أمان على رئيس الأركان الاسرائيلي (فبركة) إشاعة واسعة النطاق ، اقليمياً وعالمياً ، بأن هناك حشوداً عسكرية مصرية في سيناء تقدر بسبعة ألوية هدفها شن حرب في نهاية الصيف ضد اسرائيل ، وفي الحقيقة حتى تاريخ الشائعة لم يكن في سيناء أكثر من لواء مصري واحد ، ثم أفاد جهاز الموساد (الاستخبارات العسكرية) مع نهاية العام ١٩٥٥ ، أن الغرب بات مقتنعاً بضرورة زيادة تسليح اسرائيل لمواجهة المخاطر المصرية المحتملة .

حتى موشي شاريت وزير الدفاع آنذاك ، اعترض على سياسة الجيش الاسرائيلي الداعية لهستريا الحرب ، فقال : (يستطيع أي قارئ للصحف الاسرائيلية أن يشتم رائحة البارود من مدافع الجيش الاعلامية حيث يتم تصويرنا أننا على شفا حرب قادمة ، أستطيع أن أدرك أننا تصنّعنا تلك المبالغات للحصول على المزيد من الأسلحة) .

في الوقت نفسه ، نجحت أمان بتحقيق خدعة تضليليه قبيل حملة سيناء باسبوعين ، حين روّجت عبر وسائل الاعلام المحلية والعالمية ، بأن الهدف الذي تتطلع إليه اسرائيل هو الأردن وليس مصر . . وعزت ذلك (لتأسيس اليقين في الشائعة) ، إلى تزايد حملات الفدائيين من الأراضي الأردنية ضد اسرائيل ، كما عزت إلى سبب آخر ، (قبول الأردن بتمركز لواء عراقي في أراضيه) ، احتمال نشوب الحرب المقبلة بين الأردن واسرائيل ، وكي تدعم مزاعمها التضليلية ، حشدت على الجزء الجنوبي من البحر الميت - عند سدوم - قوات الجنرال شارون ، التي وجّهت مدافعها المتحركة صوب الحدود الأردنية * .

---

* حتى عبد الناصر ، فقد فاتته خطة الخداع الاستراتيجي الاسرائيلية ، وقد ظل يظن لساعات أن الخداع كان مقلوباً ، فالتحرش بمصر صحيح ، ولكن الهدف هو الأردن ، ولذلك فقد ركز عبد الناصر من جانبه على تدعيم دفاعات الأردن وبعث إليه بشحنات من الأسلحة وأسراب الطائرات المقاتلة ! . . وقد زاد في المخاوف أن العراق نفسه بعث بتشكيل يعادل فرقة لمساعدة الأردن ، نتيجة خطة الخداع هذه .

وقبل ساعات من انزال مظليّي شارون فوق ممر المتلا ، فضح أيزنهور المزاعم الاسرائيلية بواسطة برقية أُذيعت على العالم ، بأنه لا أعمال تبعث على القلق في المنطقة من جانب الفدائيين العرب ، كما أنه لا وجود لقوات عراقية في الأردن ، وأن التعبئة الاسرائيلية الآخذة في الازدياد تبعث على القلق .

وفي سبيل نشر الفزع جراء ضرب المدن الاسرائيلية من القاذفات المصرية استخدم الموساد عميلاً له في الاستخبارات المضادة (داخل وكالة الاستخبارات الأمريكية) هو الرائد جيمس أنغلتون ، حيث نشر على نطاق خاص (قناة سرّية إلى المصريين) بأن اسطولاً جوياً مخيفاً للفرنسيين يربض في مطار اللد وهدفه اصطياد الطائرات المصرية المغيرة على المدن الاسرائيلية ، حيث مجال نشاطه الجو الاسرائيلي فقط ، كما أن العميل نفسه ، سرّب في وقت لاحق أنه (ربما كانت هناك اتفاقات سرّية مع الولايات المتحدة للدفاع الجوي عن المدنيين الاسرائيليين) . وقد أتاحت استخبارات الموساد الفرصة لطائرات متيور الاسرائيلية ، حين التقطت نبأ اقلاع طائرة الأليوشن مصرية من مطار دمشق إلى القاهرة وهي تقل على متنها ١٨ ضابطاً مصرياً كبيراً ، من ضباط هيئة الأركان العامة المصرية ، كانوا قد أنجزوا خطة الدفاع المشترك مع سوريا ، وتم اسقاط اليوشن في عرض البحر ليلة ٢٨ تشرين الأول (قبل ساعات من معركة المتلا) ، الأمر الذي حدا بدايان إلى التربيت على كتف الطيار (يوشع تسيدون) الذي أسقط طائرة الأليوشن ، فقال له :

(هل تعلم يا يوشع بأنك أنجزت نصف المعركة الأول ، وعلينا أن نتكفل بالباقي؟ .)* .

واكتفت القيادة الاسرائيلية باسداء التقدير للطيارين ، ولكن دون الاعتراف بمسؤوليتها عن الحادث . .

وقد كتب هيكل أثناء سفرة بحرية مع عبد الناصر إلى يوغوسلافيا ما يلي :

(أعتبر السفر عن طريق البحر أكثر أماناً من الجو ، بسبب اعتقاد ساد آنذاك . بأن

---

* حروب اسرائيل السرية – ايان بلاك . ترجمة عمار جولاق – الأهلية للنشر ص ١٤١ .

اسرائيل استطاعت قبيل حرب السويس ، أن تمتلك أسلحة سرية بمقدورها إسقاط أية طائرة فوق البحر المتوسط) .

لقد تطلبت حملة السويس تعاوناً استخبارياً وثيقاً ، وحتى قبل اجتماعات (سيفر) التي تم فيها التخطيط للغزو الثلاثي (بلدة قريبة من باريس) ، فقد كان الجنرال هيركابي رئيس جهاز أمان في رحلات شبه مكوكية لنظرائه في الاستخبارات المدنية والعسكرية الفرنسية ، وقد انتقد رئيس الموساد يومها (آيسر هاريل) أن تكون أمان في مثل هذا الوضع الخارجي القوى (فيما يجلس الموساد في المقاعد الخلفية) أثناء التحضير لمخططات الحرب في سيفر .

كانت الأهداف المعلنة لاسرائيل في سيفر واضحة تماماً : -

- تحطيم الجيش المصري قبل استفحاله بوصول الأسلحة الشرقية إلى مصر .
- السيطرة على شرم الشيخ وتأمين حرية الملاحة في المضائق .
- وضع حد نهائي لأعمال الفدائيين العرب خارج الحدود .

لكن الهدف السري في سيفر ، لم يكن ليتم الاعلان عنه . . فمدير عام وزارة الدفاع المدني (شيمعون بيريز) لم يكن ليسافر إلى سيفر مع العسكريين الكبار ، لأمور تتعلق بخطط الحرب فوق رمال سيناء ، وقد حدث التحول أثناء المناقشات ، حين سعى بيريز في ذلك اليوم الخريفي للانفراد بوزير الدفاع الفرنسي : بورجيه مونوري ، لاستعادة ما كان قد بُدئ به من قبل : -

" **المفاعل النووي الفرنسي** " . . .

ونيابة عن الحكومة الفرنسية الاشتراكية ، وبعد موافقتها على صفقة سيناء - السويس ، منح وزير الدفاع الفرنسي ، للاسرائيلي المدني ، ما كان يحلم به ، على شكل مفاعل نووي ، وهي المرة الأولى في تاريخ البشرية التي توافق فيها دولة على تزويد أخرى بالقدرة النووية دون متطلبات رسمية موقعة ، تتعلق بأية اجراءات وقائية أو تفتيشية في المستقبل .

والحسن حظ الاسرائيليين ، أو لتعس حظوظ العرب ، فقد ترقى وزير الدفاع مونوري إلى منصب رئيس الوزارة بعد غي موليه المستقيل ، وعارض وزير الخارجية الفرنسي بينو هذه الصفقة التي لا سابق لها في التاريخ ، لكنه سرعان ما تنازل إلى حد المطالبة (بالتشاور مع فرنسا قبل تشغيل المفاعل) وبالطبع وافق بيريز المتحرق للمفاعل على أية وعود تتعلق بالمستقبل ، وكان على بيريز أن يواصل تحطيمه للعقبات البيروقراطية الفرنسية ، حين استنجد ثانية برئيس الوزراء الفرنسي ، لاقناع وزير الطاقة الرافض لهذه الصفقة أيضاً . . وفي آخر يوم له ، وقبل ساعات من حجب الثقة على حكومته ، وقّع مونوري (٢٣ تشرين الأول ١٩٥٧) مع وزير خارجيته بينو الاتفاق مع بيريز وبن ناتان حيث شمل وثيقتين سرّيتين :

- حلف سياسي يحدد التعاون العلمي بين الدولتين .
- اتفاقية تقنية لتقديم مفاعل نووي ذي قدرة كهربائية تبلغ ٢٤ ميغاواط (أي أنه مفاعل ضخم) ، مع توفير التقنية والمهارة اللازمتين لتشغيله . .

وأبرق بيريز إلى بن غوريون بمختصر النبأ السعيد (ها هي حملة سيناء تضع وليداً أعظم من كل ما قيل أو يقال عن نتائج الحملة) . ورد بن غوريون : (تهانينا على انجازك المهم ياشيمون)* ، ثم بدأت رحلة المفاعل النووي الفرنسي لاسرائيل طريق الصعود إلى ذروة السريّة في ديمونة . .

على الصعيد الآخر ، لم تكن نتيجة الحرب بين مصر واسرائيل حاسمة ، لولا التدخل البريطاني - الفرنسي في القتال ، ومعه لا يمكن الجزم تماماً ، فيما ستكون عليه النتائج النهائية للعمليات ، لو أن بريطانيا وفرنسا أحجمتا عن التدخل لسبب عالمي آخر .

فعندما أصدر القائد المصري أوامره بالإنسحاب من سيناء ، إثر التدخل الغربي ، كانت مواقع أبو عجيلة وأم قطف صامدة ، وبالرغم أنه لا يمكن التوقع لهذا الصمود أن ينتقل إلى وضع هجومي ، إلا أن القلق الذي ساور القيادة الاسرائيلية جراء تأخر الغرب في توقيتات

---

* أمراء الموساد - يوسي ميلمان - ترجمة محمود برهوم - المؤسسة العربية للنشر ص ٥٤ .

التدخل المتفق عليها ، كان بادياً بحيث أمر بن غوريون بايقاف القتال والانسحاب من سيناء على الفور .

لم تكن السيطرة الجويّة لاسرائيل بادية في المعارك حتى الآن ، بل غالباً ما كانت تدور حرب مبارزات جوية فوق المواقع ، كما أن اسرائيل كانت خائفة تماماً على مصير المدن الاسرائيلية ، وكان من الممكن أن يتبدل الموقف العسكري لولا التدخل الغربي ، إلا أن ذلك بقي كاحتمال غير مضمون ، أما تدخل الجيوش العربية (السورية ، اللبنانية ، الأردنية وحتى العراقية) فقد كان قائماً ، لولا نصيحة عبد الناصر بعدم التدخل ، وتشير الوقائع ، التي تم الافراج عنها ، أن المصريين دافعوا بنجاح ضد الهجمات الاسرائيلية المتكررة ، والمحمومة على المواقع المصرية المدافعة ، ولم تكن (خبطة) شارون في ممر المتلا ، التي صورت كأسطورة ، لتتم لولا الاستطلاع الكامل المسبق لكافة أوضاع الجبهة المصرية ، (بما فيه الاستطلاع الشخصي) ، وكان المسلك الدفاعي للجيوش العربية هو الطابع المميز ، الذي ظل يعطي صورة النقيض للسوبرمانية الاسرائيلية المدعاة .

فعلى الصعيد العملياتي ، ظلت المواقع المصرية شأنها شأن المواقع العربية الأخرى ، في حالة انتظار دفاعي في جميع المراحل ، وفوق إشاعة الاستكانة في نفسية الجندي العربي ، فقد ظل مدافعاً نموذجياً ، إلا أن الدفاع – في العمليات – لا يمكن أن يكون مقصوداً لذاته ، فهو حالة موقتة من حالات الحرب ، التي لا بد أن يعقبها الهجوم ، قال جنرال كبير ذات يوم (أجنحتي أُهيضت ، قلبي يُخترق . . إذن لم يعد أمامي سوى الهجوم) . .

أما الحديث عن التمارين الحربية الهجومية ، فإنها لم تأخذ طريقها إلي التنفيذ قبل حرب تشرين عملياً .

كانت الجيوش العربية بحلقات تنسيقها الأضعف باستمرار ، بحاجة إلى تحديث في كل شيء ، فقد أظهر الجندي العربي ، عندما كانت تتوفر له القيادة المحلية الحازمة ، عناداً خارقاً في المعارك الدفاعية ، وقد برهنت معركة اللطرون على الجبهة الأردنية عام ١٩٤٨ ، ومعركة مشمار هايرون على الجبهة السورية (العام نفسه) ، ومعارك عراق سويدان

والفالوجة على الجبهة المصرية (العام نفسه أيضاً) ، أن الجندي الذي لا تعوزه الكفاءة والشجاعة في الدفاع ، يمكن أن يكون هو نفسه في الهجوم ، وكان من الممكن أن تؤدي التمارين النظرية في البداية (لمعرفة ما هو موجود على الجانب الآخر من التل - ليدل هارت) مع المناورات الحقيقية والتقاليد المفروضه . . إلى توليد جيل عسكري لا يجيد القتال الهجومي فحسب ، بل ويُسهم في رفع الفن الاستراتيجي القتالي إلى مستوى رفيع ، فمن بين أمم الأرض ، كانت أمة العرب في مرحلتها الإسلامية العظمى ، صاحبة ريادة في هذا المضمار ، إلا أن الهزات الداخلية لم تترك أحداً في مكانه ، وفوق ذلك ، كانت قوافل المسرحين من الأكفاء وغير الأكفاء تجد طريقها إلي عالم الخارجية ،أو أي عالم آخر! . . ، **وازدادت الأمور تعقيداً ، حين هبط العديد من القياديين العسكريين فوق ساحة السياسة بمظلات مفاجئة ، وهكذا تم تقليد خط تمارين السياسة ، بدلاً من تمارين الجيش* ، وكانت المشكلة ، أن السياسة لم تربحهم ولا اشتكت القوات المسلحة لخسرانهم ، وكان أغرب ما في المشهد ، أن الوحدات المقاتلة على خط النار مع اسرائيل ، حفظت عن ظهر قلب طريق الإياب إلى العاصمة ، عندما دشّنَ الزعيم أولى هجماته ضد عالم السياسة في دمشق . . .**

---

* كان الجنرالات الألمان ، (عقدة ضباط اسرائيل) ، تقنيين محترفين قبل أي شيء آخر ، ويقول ليدل هارت في وصفهم (القادة الألمان يتكلمون - ترجمة أكرم ديري والهيثم الأيوبي) ما يلي : -

لقد استغرقت مهنتهم كل أوقاتهم ، ولم يكونوا يهتمون كثيراً بالأمور البعيدة عنها ، وقد تعلموا أن يؤمنوا قسطاً من التخيل الضروري في مجال الاستراتيجية ، فبعد وضع الأسس الضرورية لبناء القوات المسلحة ، كان الشعار الثاني هو المرونة ، حيث ليس من الضروري احراز تقدم متماثل في جميع نقاط انطلاق الهجوم ، واستخدام القوات الاحتياطية من أجل تحطيم عقد المقاومة بالكامل ، بل بالعكس ، ينبغي دفع القوات الاحتياطية مثلاً إلى النقطة التي نجح فيها الهجوم ، ولو سيصبح من الضروري عندئذ نقل مركز الثقل .

الحركة والنار وتمجيد مبدأ المناورة الناجحة ، بتأمين الاتصال الدائم مع الجو ، هي التي تفضي إلى استخدام جيوش ذات أعداد قليلة ، لكنها قادرة على الحركة بكفاءة مع ازدياد التصاقها بعمل الأسلحة الجوية . . .

- الفصل الخامس -

من الأعراب إلى الأحزاب

أولاً / الأحزاب القومية : ماركسية . رومانسية أم فلسفة المالية ؟ ...

قالت الأعراب آمنا .

قرآن كريم.

وسيضيف قائل رابع ، أنها ربما خليط من هذا وذاك ، فقد كان تقسيم سوريا الطبيعية (عامل خارجي في الأساس) مخيباً للآمال الوطنية سواءً في سوريا الطبيعية ، أو ما وراء الطبيعة . . أقصد العرب أجمعين .

ومع أن الوطنيين دون استثناء قد قاموا على استنتاج واحد ، وهو أن التقسيم مصلحة استعمارية أجنبية ، إلا أن سياسة موحدة كمثل الاستنتاج الموحد ، لم تظهر في الأفق ، وكان الوضع بالغ التعقيد .

ففيما عارض الوطنيون في كل أرجاء سوريا الطبيعية ، مثل هذه التقسيمات ، وافق الطائفيون أو العملاء الآخرون على السياسة التقسيمية ، حيث بدا أنها ستكون المقدمة للدويلة الطائفية (إذ أن تقسيم سوريا جاء طائفياً) ، أو هي الدلالة على الشخصية الجماعية الطائفية المستقلة في بحر هذا العالم ، وفي ضوء الواقع المثار ، كان لابد لفرنسا أن تشجع هذه الحميّه وتبعث على إحيائها ، وفي الجبهة المضادة ، كان لا بد للوطنيين من كل دين ومذهب ، أن يعملوا على تجسيد حركة المجتمع الرافضة للتقسيم والانتداب بآن واحد ، وكان الحزب السوري القومي (والاجتماعي فيما بعد) ، الذي أنشأه أنطون سعادة ، هو الحزب المؤهل لالتقاط فكرة التجسيد هذه ، أما الحزب فكان نتاج فكر زعيمه ونشاطه .

وقد بدأ سعادة مغامراته الفكرية حسب نشوء الأمم ، بالتعرض لنشوء النوع البشري ، ونقد التعليلات العلمية والدينية لهذا النشوء ، ثم انتقل إلى بحث عن السلالات البشرية

من حيث مدلولها وعقائدها وتبدلاتها ، وكان للأرض والجغرافيا (البيئة عموماً) نصيب في أفكار سعادة ، **كما أن اجتماعية الإنسان ووجهته البيولوجية وتوزعه ونشوء مجموعاته ، ظلت تشغل أفكار سعادة إلى حين ، وعندما استقرت المجتمعات على نحو من صدف التاريخ ، بدأت رحلة الانتقال من التوحش إلى التمدن ، ومن الثقافة البدائية إلى ثقافة العمران على طريق التطور إلى أعلى .**

وعلى الطريق بين (انفلاش المجتمعات) وظهور دولها ، راح سعادة يخوض غمار حروب فكرية شاقة ، من الدولة في عالم الحيوان ، إلى الجماعة والفرد ، إلى التوتمية والتناسخ ، إلى حقوق الأمومة ، فالزواج بالشراء ثم الزواج بالعقود ، إلى عالم الأرواح ، فالغزو الاتوقراطي ، الاقطاعي ، الأرستقراطي ، إلى الدول الاستبدادية ، والدينية ، فالديمقراطية - القومية .

وانتهت المغامرة بتحديد المتحد (سوريا الطبيعية تشكل متحداً واحداً) ثم إلى تحديد الأمة (وما دمنا قد بلغنا حد الوجدان القومي الذي هو أبرز الظواهر الاجتماعية العامة في العصر ، فقد بلغنا هذا الدين الاجتماعي الخصوصي الذي أعطى الكنعانيون فكرته الأساسية للعالم ، ثم وُصف فيما بعد بالخديعة الكنعانية أو الاثم الكنعاني) .

كان والد سعادة الدكتور خليل سعادة ، أحد المتعلمين اللبنانيين الكثيرين الذين هاجروا من موطنهم الجبلي الجميل والفقير إلى مصر ، ثم ما لبث أن سيطرّ مع زملائه اللبنانيين على الحياة الثقافية والتجارية في أرض النيل ، فأسسوا صحفاً ذاع صيتها إلي اليوم (كالأهرام) ، ودار الهلال ، ومن خلال إسهامه ، فقد تبدى والد سعادة كأستاذ متخصص في اللغات ، حين وضع أوائل القواميس الإنكليزية - العربية .

لم يبق الدكتور خليل في مصر طويلاً ، بل آثر الهجرة كأقرانه في ذاك الزمن إلى بلاد ما خلف أعالي البحار في أمريكا اللاتينية ، حيث كانت البرازيل وجهته ، وهناك أسس مجلة خاصة بالجالية السورية النامية .

ولد أنطون في البرازيل عام ١٩٠٤ ، وسط خليط من الهنود والزنوج الذين لا يتقنّون

غير البرتغالية ، وهناك ظل يطرح على نفسه السؤال الشائك : من نحن ؟ ، وسيقضي الشاب طوال عمره يبحث عن جواب مقنع ، حيث لا ندري - الآن - إنْ كان وجدَهُ أم لا ! . .

كان الجواب الأولي السهل ، هو استبدال الحكم العثماني المستبد ، بآخر وطني يزيل الألم عن صدور الناس ، وكانت القومية العربية هي البديل الواقعي الذي يستمد قوته من ثورة أصبحت واقعاً هي الثورة العربية الكبرى ، لكن أصدقاء والد سعادة ، كانوا يفكرون على نحو آخر : **دولة سورية على الساحل الشرقي للمتوسط** .

لقد تمثلت حقيقتان بالنسبة إلى الشاب العائد لوطنه (أواخر ١٩٢٩) : الشعب السوري المغمور ، ووطن الجغرافيا السوارية .

وقد حدد هذا الوطن مرتين : أولاً في الثلاثينيات ، وكان يمتد من جبال طوروس في الشمال إلى قناة السويس في الجنوب (حد طبيعي وآخر اصطناعي) ومن البحر السوري غرباً إلى الصحراء في الشرق إلى أن تلتقي بنهر دجلة) .

أما التحديد الثاني فجاء جوابه بعد انقضاء الحرب ، حيث ضم إلى الوطن السوري نجمة الهلال في قبرص ، بعد انحراف إلى الشرق ليضم العراق نفسه .

كان سعادة يقول عند عودته إلى لبنان : (إن دعوةً إلهية تحثني على العودة إلى الوطن ، والقيام بحركة تقضي على الانقسام الداخلي وتبني الوحدة والاستقلال) .

لقد بدأ سعادة من الجامعة الأمريكية في بيروت ، حين قبلت ادارة الجامعة مبدأ التدريس الخاص الذي سيقوم به سعادة لصالح الطلاب الراغبين بتعلم اللغة الألمانية* . وما كادت الحرب العالمية الثانية أن تنشب ، حتى كان لسعادة آلاف الأعضاء والمؤيدين .

---

* لم يستطع سعادة أن يصبح محاضراً كاملاً في الجامعة الأمريكية ، لعدم تلقيه علومه وفق الطريقة الأكاديمية المطلوبة .

لكنه نجح في الاتصال بعالم الطلبة ، حين راح يدرس العديد منهم لغات أتقنها كالألمانية والاسبانية والإيطالية في الجامعة نفسها وبموافقة إدارتها .

سينشر سعادة أفكاره السياسية والتاريخية ، بواسطة جريدة خاصة حصل على ترخيص لها ، وهي جريدة الحزب ، وسيسافر في العام ١٩٣٨ إلى أمريكا الجنوبية ، وقد عرج في طريقه على كل من ايطاليا وألمانيا ، لإعجاب أظهره بزعامة البلدين ، ثم تابع رحلته إلى البرازيل والأرجنتين ، لتنظيم فروع حزبيّة في البلدين ، حيث عانى سعادة من الإنقسامات التي بدأت تشطر الصفوف هناك .

وفي غمرة انهماكه بنشاط تبشيري فكري وسياسي (مجلة المعلّم الجديد) ،نشبت الحرب الثانية ، فانقطع اتصاله بالمركز في الوطن الأم ، ولم يعلم إلا بعد حين ، أن السلطات الفرنسية في سوريا ولبنان ، أقدمت على حل الحزب واعتقال أعضائه ، وكان على الحزب أن ينتظر العام ١٩٤٤ (أنظمة الاستقلال قبل الجلاء) لاستئناف نشاطه العلني ، لكن سعادة لم يتمكن من العودة واستلام مهامه القيادية إلا في العام ١٩٤٧ .

أعاد سعادة إلى الأذهان مبدأه في توحيد سوريا الطبيعية ، وشرح مبادئ الحزب القائمة على ضرورة تجاوز كل قوى التجزئة في البلاد ، كما عارض الشعارات العروبية لأنها تدعو إلى التشدد في مجال الدين والتاريخ والثقافة ، وأنها ستكون سبباً في نزاعات دينية وطائفية وعرقية ، كما استنكر سعادة أن تندمج سوريا الطبيعية في دائرة القومية العربية التي هي في منزلة أدنى من السورية القومية ، وقد أنكر الأساس العرقي للقومية العربية ، حيث كثر الحديث عن مزاعم الأصول القبلية لدى العرب . .

كان سعادة يرى في أبحاثه الفكرية ، أن مقومات السورية القومية تستند إلى ثلاث : الجغرافيا والتاريخ والشعب (**إن الأمة تولد من زواج جماعة من الناس ببقعة من الأرض ، أما سيرة هذا الوليد فتكون في تاريخه**) فالوطن المثالي المناسب لهذا التعريف ، هو الممتد من المتوسط إلى الخليج ، ومن طوروس إلى نهاية سيناء ، وقد تآلفت مزايا الخصب والموقع والمناخ فأنبتت عبقرية الشعب الموهوب فوق العادة ، وقد تبنى سعادة تعبير الهلال الخصيب للدلالة على التعيين ، لكنه سرعان ما عاد إلى نبذه ، حين رآه وقد أصبح شعاراً هاشمياً خالياً من المضمون .

في نظر سعادة أيضاً ، فإن تاريخ سوريا ليس هو تاريخ الحكم ، أو الفتح العربي -

الإسلامي ، كما يريد القوميون العرب ، بل هو كل تاريخها الممتد من العصر الحجري حتى الآن . . .

يقول دزموند ستيوارت في كتابه تاريخ الشرق الأوسط - دار النهار ص ٢٨٥ :

(أغضب هذا الحزب كل مصلحة يمكن تصورها ، فقد أوجد اتجاهه العلماني الكراهية له في الجامع والكنيسة ، وضمن له ضمه فلسطين إلى الوطن السوري أحقاد الصهيونية ، وجعله اعتقاده أن رأس المال والعمل يجب أن يتحدا في ظل حكومة أبوية لعنةً في نظر الشيوعيين ، أما القومية العربية ذات المستوى الأدنى ، فأوجدت لسعادة مناوئيه القادمين) .

مع ذلك ، فقد ظل سعادة حريصاً على خطه الثابت ، فالأمة السورية هي إحدى أعظم أمم العالم ، وقد لعبت دورها الخطير في التاريخ ، ومن واجب كل سوري أن يفخر بما قدمته للحضارة . .

ألقى سعادة في العام ١٩٤٨ سلسلة من المحاضرات ، تمّ بموجبها إعادة صياغة في العقيدة السورية ، وقد أراد بذلك أن يميزها عن المبادرة الحرة للرأسمالية ، وخضوع الفرد لعبودية الدولة في الشيوعية ، وقد نبعت لذلك فكرة (المجتمع التعاوني) الذي يرتكز على القومية الاجتماعية ، حيث المجتمع (ليس نتاج إرادة إنسانية اتفقت على الشراكة بموجب عقد اجتماعي) فالفرد ينال مكانته في المجتمع ، ليس على مبدأ الحقوق الطبيعية ، بل من انتسابه للمجتمع واسهامه في تطويره مادياً وإغنائه روحياً .

وقد قال سعادة ذات يوم : إن أكبر دليل على بدائية الإنسان العربي ، هو إخضاعه مصالح الجماعة إلى مصالح الفرد ، لذلك فالقومية الاجتماعية ، تحارب هذا الميل وتعمل على دحره * .

ثم لخص شعاراته :

- سوريا للسوريين والسوريون أمة تامة .

---

* إخضع الصالح العام للصالح الخاص ، ليس دليل بدائية ، لأنه مأثرة العصور التجارية بعد البدائية ، ولا تنقسم الشعوب على الأرجح لمثل هذه الخصال ، بل لفروق في مراحل التطور ، حسب قانون النمو المتفاوت حتى في الأمة الواحدة ، ولعل دمشق في رحلة شتائها وصيفها ، تغلب كل دليل ! . . فالحياة القبلية على مسار التطور متخلفة قياساً إلى حياة التجارة المتقدمة ، مع ذلك فإن مأثرة العام لدى القبيلة أعدل منه بكثير في حياة المدنية التجارية . .

- القضية السورية هي قضية قومية قائمة بذاتها مستقلة كل الاستقلال عن أية قضية أخرى .
- القضية السورية هي قضية الأمة السورية والوطن السوري .
- الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي .
- الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية .

ثم عيّن سعادة حدود الوطن الأربعة على شكل هلال ، ونجمته قبرص .

- الأمة السورية مجتمع واحد .
- تستمد النهضة السورية روحها من مواهب الأمة التاريخية . .
- مصلحة سوريا فوق كل مصلحة .

لقد جذبت أفكار سعادة العديد من الشبان دون تمييز في الجنس أو الدين ، إذ رأوا في ذلك رمزاً جديداً للهوية القومية ، يمكن أن تجرف معها كل الحزازات الطائفية والمحلية ، وكان بمكنة هذا الحزب الفتي الصاعد على طريقة تنظيمات إسبارطة ، أن يكسب المزيد من الأنصار في جميع البلدان العربية المتعطشة لروح جديدة وهمّة مقدامة ، لولا الطباق الذي أقيم بين السورية القومية ، والقومية العربية (كما قال الحصري) ، خاصة وأن العرب والاسلام شيء واحد (في شمال أفريقيا العربية مثلاً وربما في مصر والجزيرة العربية . . .) وباكثار الحزب وتركيزه على الحضارات الكنعانية - الفينيقية فيما بعد - والكلدانية والآرامية والآشورية . . . **فإنه يكون قد تخطى حدود التداول بالنسبة للتاريخين العربي والاسلامي . . وهكذا بدت ضراوة سعادة في الضرب تحت حزام الثقافة والمُثُلْ العربيين، غير مفهومة ولا منطقية ، فالأقوام التي أشير إليها منذ العصر الحجري ، هي سلالات متفرعة عن جذْر واحد ، هكذا يقول التاريخ الذي مازال مفتوحاً حتى الآن ، فإذا كانت الأمة السورية تتحدث العربية ، فهي عربية ، ولا يضعف من هذا الاستنتاج أن الأمة الأمريكية تتحدث الانكليزية** ، أو البرازيلية تتحدث البرتغالية أو الاسبانية اليوم . ولأن بحثنا يرمي في الأساس إلى العودة للأصول ، فإن أمريكا أساساً انجلو - ساكسونية ، وأن البرازيل خواء هندي ، استوطنه الاسبان ، وأن التاريخ ينسخ ما قبله دون شفقة وأن من الأسطورة إحياء آرام وآكاد وكنعان بعد الداهمات التي لم تبق ولم تذر ، وإن إحياء الأمم

القديمة وبعثها من القبور ، هو إعلان راهن باليأس من انتشال هذه الأمة ، وإن رقي العمران واللباس والطعام ، هو فارق مرحلة لا أكثر ، بين من هو خارج السور ومن هو في داخله ، وأن الوحدة الجغرافية لسوريا الطبيعية ، هي وحدة نموذجية بالفعل ، ضمن دائرة أوسع ، وأن الوحدات الجغرافية العربية الأخرى ، هي حلقات في ترتيب السلسلة القومية، **ولم يكن من الضروري ، أن تقوم الساعة في ليلة وحدوية واحدة ،فالوحدات الأقرب هي المهيئة عملياً للتقارب والإتحاد وكان بمقدور وحدة جغرافية أن تنتظر أخرى ، كما لم يكن من الاستراتيجية في شيء أن يتحد البعيد مع البعيد ، كجزء من فلسفة فكرية مركزية ، فالأنظمة السياسية ذاتها ، قابلة للتكيف في اتحاد لا مركزي بين جمهوري وملكي ، ملكي وملكي آخر ، أو جمهوري وجمهوري مثله في الوحدة الجغرافية الواحدة ، ضمن نظم التعددية أو الديمقراطية – البرلمانية الأخرى (من حيث هي رضا وقبول)** .

إن الدولة العربية الواحدة تاريخياً ، لم تكن مركزية في حياتها قط ، فدمشق عاصمة الدولة العظمى ، لم تكن تحكم الفسطاط بنصوص معاوية بل بنصوص والي الفسطاط ، وبغداد لم تكن في زهو امبراطوريتها العباسية ، لتحكم القدس إلا بميثاق عمر ، كذلك فعل الفاطميون والحمدانيون والأيوبيون في مراحل دولهم الكبرى . .

تبقى معضلة العنف التي نشر أشرعتها سعادة كرجل يعتبر الحياة وقفة عز ، وهي معضلة موروثة من عنف عالمي على مقياس أكبر ، فقد سبق لحسن البنا المرشد العام لجماعة الاخوان المسلمين ، أن أسس لظاهرة العنف في مصر ، وانتهى هو نفسه إليها ، ومع تزامن الوقائع بين أضخم حركتين سياسيتين منفصلتين في سوريا ومصر ، كاد العنف الدموي أن يكون شريعة لإحقاق الحق بالقوة ، أو لعلّه قوة الحق وما يمكن الزعم بأنه الحقيقة التي لا حقائق غيرها ، (فالمجتمع معرفة ، والمعرفة قوة – سعادة) .

كان العنف جارياً في العالم كله ، فايطاليّو موسوليني صعدوا إلى السلطة في روما ، بحراب (حقيقة) الأمبراطورية ومجدها الغابر ، وألمانيّو هتلر استولوا على السلطة (بحقيقة) العنصر الألماني الخاص في التاريخ ، قبلهما كانت موسكو تعيش على الحرائق والدماء التي سالت أنهاراً أمام مذبح قصر القيصر ، كذلك جرى في اسبانيا والأرجنتين وغيرهما من بلدان العالم ، حيث بدا أن عالم الحرائق الملتهب ، في الحرب العالمية الثانية ، ينقل عدواه إلى كافة شعوب الأرض .

وبغض النظر عن التمايز بين العقائد إلى درجة الضدّية ، فقد مثلت الايدولوجيات المتعددة : شيوعية ستالين ، فاشية موسوليني ، نازية هتلر ، ثم إسلامية البنا وسوريّة سعادة ، قواعد لأسس فكرية عن مذهب العنف ، وهو هنا ليس منفصلاً أو مقصوداً لذاته ، بل هو جزء من (عقيدة الحق) التي يجب أن تسود .

في مشهد من مشاهد الأسطورة السورية القديمة ، أو في واحدة من أشهر الأساطير عبقرية كتلك المنبجسة من بين النهرين ، يقف إله الكنعان متحدياً الموت كأنه خالقه ، فهو الاستهلالة الافتتاحية على سلّم الصعود إلى الخلود ، ثم ينزع الغلالة السوداء عن عينيه ، (السواد لكم ولأمتي الحياة والمجد) ، وحين كانت رُكَبُ الجناة تصطك هلعاً ، وفي هدأة الليل وسكون نجواه ، ومن برية العشب التي فاحت روائحها من أرجاء الجبل ، كانت روح سعادة تصعد إلى السماء .

(سأبقى مصراً على أن دم الزعيم سيغسلنا جميعاً من الأدران النفسية فنعود إلى بؤرة الاشعاع . . فنحن ننمو ونتقوى الآن ، بدفق القوة من دم الزعيم . .) * .

هذا ما سيقوله جورج عبد المسيح وهو يخلف الزعيم في قيادة الحزب ، ويقول أيضاً (بوركت ياتموز ، فيك ختمت رسالة الحياة لتبدأ حياتها في الصميم ، فيك تم اختتان الأمة بالحديد والنار لمولدها الجديد بالقوة والجمال . . إننا نطلب الموت متى كان الموت طريقاً للحياة . . إنها أمة تأبى القبر مكاناً لها تحت الشمس . . أمة تفتش عن القتال لاحقاق حقها وتحقيق مراميها . . ففي شخص الطاغية في الشام - المقصود هنا حسني الزعيم - وفي نفوس مَنْ حوله من هذه المساوئ حشود ، وفي هذا المركز يجب أن تكون الضربة - يوميات عبد المسيح ص ٢٤١) . (وفي مركز الحكم في الشام ميدان صراع يجب أن يسجل الحق فيه ضربة ساحقة - المصدر السابق) .

في يوميات جورج عبد المسيح ، هناك قفزة طويلة من العام ١٩٥٥ إلى العام ١٩٥٨ ، بحيث تمّ شطب الأحداث خلال العامين ١٩٥٦ و ١٩٥٧ ، وحيث أن الحدث الأهم ، الذي يمكن أن يثير الملابسات الخفية لاغتيال المالكي ، قد تم في العام ١٩٥٦ ، فإن القفز فوق السنوات يمكن أن يكون له ما يبرره ! . .

---

* يوميات جورج عبد المسيح ، خليفة سعادة في عمادة الحزب ، وقد قدم ليومياته إهداءً: إلى المعلم وإلى جميع العاملين بهديه لانتصار الحق .

وللحقيقة فإن عبد المسيح لم يكن قط ، النسخة الثانية من سعادة ، بل لعل من الظلم إقامة المقارنة بين الرجلين . .

غير أن عبد المسيح ، قبل ذلك ١٩٥٤ - ١٩٥٥ وبعده ١٩٥٨ ، لا يرى حرجاً من الافصاح عن العداوة الجليّة ، (الشيو - اشتراكي سيستخدمون شقير والمالكي سُلّماً لهم ثم يرفسونهم - ص ٣٦٤) . (إنهم ينقمون على محمود شوكت لأنه زكى غسان جديد في لومهم لحسين الحكيم على تصرفه في إقحام الجيش بالسياسة - ص ٣٦٥) (إنهم يشترطون نقل غسان جديد إلى الاستيداع أو التقاعد مقابل إرسال مصطفى حمدون إلى الخارج فأين العدل ؟) (ماذا صنع غسان ليتحمل الإهانة - ص ٣٦٥) . (تناحر شقير والمالكي مع الآخرين ، سيدفع بالبلاد إلى مهاوي الشيوعية . . الصفحة السابقة) .

وفي العام ١٩٥٥ يكتب عبد المسيح في يومياته ص ٤٩٧ (في هذا الشهر الربيعي - نيسان - الغيوم ، السياسية تتلبد ، بهيج كلاس يقول للعسلي معكم الحكومة والجيش ، ويكسركم حنا كسواني في داريا ؟ . . فيعده بالصبر) ، (إن الشائعات في هذا الأسبوع تفيد بأن المالكي وجه ضربة للحوراني في مكتبه برئاسة الأركان ، لماذا يتم ترويج هذه الشائعات ؟ . . الصفحة ذاتها) ، ثم يتساءل عبد المسيح في الصفحة ٤٩٨ (لماذا تكثر هواتف التهديد لي بهذا الشكل ؟ شقير والمالكي طالبا الحكومة بتسليمي إلى لبنان ، ما وراء تهويشات الشيوعيين والأكرميين ؟ . . التهديدات بانقلاب عسكري إذا ما رفضت حكومة العسلي اتفاق مصر والشام والسعودية . . . الخ) .

لقد واصل أتباع سعادة طريقه المعمّدة بالدماء ، غير أن كلاً على طريقته ، تماماً كرسل المسيح إلى العالم ، وقد ظهر في الصورة ما يشير إلى سر خصوصيتها بعيداً عن الأصل ، وهكذا تفرعت السورية القومية في الأرض ، شأنها كشأن الأحزاب القومية الأخرى ، مما أتاح للسلطات المعادية اعتبار الحزب خارجاً على القانون ، وبعد سعادة واستشهاد المالكي ، ظلت عقيدة الحزب القومية ، تستأثر بتأييد أجيالها وأجيال القليل ما بعدها ، وكان الضعف المتبدي في التنظيم والأفكار - بعد سعادة - مسؤولاً عن وضعية التعثر ثم وضعية الشرذمة القائمة حالياً ، وقد زاد في عثرات الحزب ، ضراوة العداء له بعد المالكي ، خصوصاً من جانب البعثيين الاشتراكيين والشيوعيين . .

♦ ♦ ♦

ثانياً / القوميون ـ اللغة مفتاح سر الأمة - الارسوزي .

بخلاف الحزب السوري القومي الاجتماعي ، فقد تبنى حزب البعث ، ايدولوجية قومية عربية منذ البداية ، ولا يمكن نظراً لطول تاريخ الحزب (نصف قرن تقريباً) . شأنه كشأن السوري القومي ، والشيوعي ، والاخوان المسلمين ، من ناحية البدايات التاريخية ، أن تتم الإحاطة بأيدولوجية الحزب وتاريخه السياسي ، حيث يتطلب المشروع بحثاً مستقلاً ومتخصصاً ، فضلاً عن المراجع التي لا حصر لها . فالبعث ليس تاريخاً فات زمانه ، فهو مايزال قائماً حاكماً في كل من سوريا والعراق ، وهو ليس كالسوريين القوميين الضاربين أشتاتاً في الوطن والمهاجر بعيداً عن مقاعد السلطة أو المبعدين عنها ، وهو لا يشبه الشيوعيين بعد انكسار مركزهم في موسكو ، والتشظيات التي ضربت الاتحاد السوڤيتي في جمهورياته ومعسكره ، مما أشاع الوساوس في السؤال : مَنْ الذي انتهى ، هل هم الشيوعيون أم الشيوعية ؟ فأية مغامرة طائشة ينطوي عليها السؤال ؟ ثم أن البعث ليس كالاخوان المسلمين الأمميين ، الذين فرّخوا الأجيال والأشياع والحركات . . حتى بلغت مغارب الأرض ومشارقها . . بحيث بات من الصعوبة اجراء مقاربات بين الأصول والفروع الآن . . فالحركات الأصولية ذات المناهج الاسلامية المتعددة ، تمتلك تكتيكات لا حصر لها في طريقة العمل والأداء والبرامج ، والنظرة إلى مستقبل الدولة بعد الجهاد الأكبر . .

وليس ذلك معناه ، أن البعث قد سلم في الامتحان (باعتباره نقيض الآخرين المتماسك ! . .) وبالعكس ، فقد ظل البعث مرشحاً للقسمة أكثر من غيره ، وكثيرة هي السنوات التي توالت على جعله كالعصف المأكول ، لكن وصول البعث إلى السلطتين العراقية والسورية ، عبر مراحل الصعود والهبوط ، مع تكتيكات الأداء الممتازة للحفاظ عليها ، هو الذي أمّن للبعث صيانته من القسمة المحتمة ! . . ومع ذلك ليس من المبالغة القول ، بأن حزب البعث هو المفرّخ الأول لسائر الأجنحة الحزبية القومية . .

بالطبع ، ليس من مهمة هذا الكتاب التعرض للبداية المبكرة ، لنشوء الأفكار القومية على يد عصبة العمل القومي في بلدة قرنايل من جبل لبنان ، فالوزن السياسي في مرحلة ما بين الحربين العالميتين ١٩٣٣ ، لهذه العصبة غير ذي تأثير ، لكن العصبة كقاعدة انطلاق ، ظلت بمثابة الفاتحة الايدولوجية للحركة القومية العربية . وسيكون في انتقال العديد من العصبة إلى الحزب ، ما يمكن أن يشكل تأثيراً في الأحداث اللاحقة . حيث يمثل زكي الارسوزي ، أحد قادتها ومفكريها* .

---

* من قادة العصبة أيضاً : فهمي المحايري ، صبري العسلي ، عثمان الحوراني . فريد زين الدين . زكي الأرسوزي . وهناك مَنْ يقول ، بأن العصبة إنما جاءت للمضاربة على الكتلة الوطنية التي كرهتها فرنسا لتمكنها من تعبئة الشعب حولها في البدايات ! . .

كان من أهداف العصبة تحقيق الأهداف العاجلة المتمثلة باستقلال الأقطار العربية من الانتداب ، وتنظيم المظاهرات الطلابية ضد الحاق لواء الاسكندرون بتركيا ، وتشجيع التنمية في البلدان العربية بعيداً عن الشركات الأجنبية ، والغاء الحواجز الحدودية بين أقطار العروبة ، ووضع خطة اقتصادية شاملة لتحقيق التكامل الوحدوي العربي . . . وتمكنت العصبة من ايجاد جسر واصل مع أوساط المثقفين والطلاب ، وكان فرعها في اسكندرون - الذي يشرف عليه الأرسوزي - من أقوى فروعها في الألوية الأخرى .

وكعادته في امتشاق سيف الفلسفة والنزق ، فقد سارع الأرسوزي ، إلى الابتعاد مع فرعه عن العصبة ، حين أصاب الوهن أوصالها ، وظلت راكدة أمام ما يبيت للواء اسكندرون من مؤامرات . .

فقد تحوّل الأرسوزي إلى انطاكية خلال العام ١٩٣٧ (وأنشأ تجمعاً جديداً باسم (نادي العروبة) وفي النادي راح يؤسس لمكتبة أطلق عليها اسم مكتبة البعث العربي . *) (الدندشي - حزب البعث ص ١٥) .

لم يبق أمام الأرسوزي بعد مؤامرة سلخ اللواء العربي وضمه إلى تركيا ، غير المغادرة إلى دمشق ، حيث نُشر انسحابه من العصبة في العام ١٩٣٩ ، ومن دمشق إلى بغداد ، ثم في صيف العام ١٩٤٠ إلى دمشق من جديد . . .

سيدعو الأرسوزي في أواخر العام ١٩٤٠ إلى اجتماع في منزل السيد عبد الحليم قدور (السبكي - دمشق) وسيضم الاجتماع حسب ذاكرة السيد وهيب الغانم (صبحي زخور ، وائل خوري ، ابراهيم فوزي ، عبد الحليم قدور ، يحي السوقي ، حنا غزال ووهيب الغانم) (وسيعلن عن تأسيس حزب جديد باسم : حزب البعث ، وشعاره النمر المتوثب نحو الفجر - وهيب الغانم - الجذور الواقعية والفكرية لمبادئ البعث العربي - مطبعة عكرمة ص ٤٥) .

لا علاقة للسيد الأرسوزي بحزب البعث العربي الذي نحن بصدده الآن ، ولو أن التسميات جاءت متطابقة ، ويقول السيد جلال السيد في كتابه حزب البعث العربي - دار النهار ص ١٩ (هذا لا ينفي أن السيد الأرسوزي كان يردد كلمة البعث منذ أن كان مدرساً

---

* هذه الفقرات ومايتلوها ، ستكون بالإعتماد على مؤسسين كجلال السيد والرزاز ووهيب الغانم ، وعلى باحثين أجانب وعرب ، حيث سيشار إلى المصدر في متن البحث نفسه .

في دير الزور ، وكان يقترح تأسيس حزب يحمل هذا الاسم كترجمة للكلمة الأجنبية (رينيسانس) التي تعني الولادة الثانية ، كما كان يردد مع هذه الكلمة كلمة أخرى هي : النهضة ، وكان كل هذا في حدود البحث النظري المجرد .).

كان الأرسوزي مفكراً طليعياً مبدعاً ، وقد ظهرت تجلّياته الفكرية أواسط الأربعينات ، حين أصدر في العام ١٩٤٤ كتابه الغني والعميق (عبقرية الأمة في لسانها)* .

ولقد أجبرنا صاحب (الفلسفة الرحمانية - الأستاذ الأرسوزي) أن ندعه يتحدث بنفسه ومن خلال نصوصه ، ذلك أن صاحب الخطاب لا يقبل الإنابة ، وثانياً لأن اللغة التي هي مركز المضمون الفلسفي للأرسوزي ، هي لغة حدسية تقيم اتصالاً مباشراً بين الذات العارفة وموضوع المعرفة وليس من مجالٍ لثالث بينهما . . .

يعلن صاحب (الرحمانية) ، (عن إنشاء فلسفة عربية يتحول بها ما نسجته الحياة عفواً إلى مستوى من الشعور ، بحيث تشترك مع العناية الالهية في تعيين مصيرنا ، حيث نشترك بذلك هذه المرّة ونحن أحرار - المجلد الثاني ص ٤) .

(إن هذه الفلسفة تؤدي بنا إلى نتيجتين هامتين : الأولى إرساء فكرة البعث على قواعد صحيحة ، والثانية اسهام العرب اسهاماً جديداً وحاسماً في التراث الإنساني - المجلد الأول ص ٣٢) .

كما يؤكد في المجلد الأول ص ٣٢ أيضاً أن (**للعرب فلسفة كاملة قائمة في ثنايا لغتهم، لم يعبر عنها حتى الآن أي مفكر آخر تعبيراً كلياً ، إذ أن أحداً منهم لم ينتبه إلى أن الطريق التي تؤدي إليها يجب أن تستند إلى فهم اللغة العربية ، فاللغة العربية بما لها من قوة بيانية خاصة تبدع لكل معنى من المعاني الوجودية الكبرى صورة تستقطبه وتؤديه بأمانة**) .

ويخبرنا الأرسوزي أن هذه الفلسفة خرجت من ذهنه خروج منيرفا من رأس جوبيتر، أي دفعة واحدة ، وذلك عندما كان قائماً على دراسة المعجم العربي ، فقد لاحظ أنه بينما تسرد معاجم اللغات الأوروبية مفرداتها مرتبةً حسب تسلسلها الأبجدي ، يعمد المعجم العربي إلى وضع كل كلمة مع أسرتها المعبرة عنها في المصدر ، **وهو يرى أن هذا الاختلاف ليس مجرد مصادفة ، بل يرجع إلى الاختلاف بين مجموعتين لغويتين في جوهرهما ،**

---

* هناك أربعة مجلدات تشتمل على المؤلفات الكاملة للاستاذ الأرسوزي . وقد صدرت المجلدات عن مطابع التوجيه المعنوي للقوات المسلحة السورية بدمشق .

فالمجموعة العربية أو السامية تعبر عن عقلية أو نظرية عن الوجود ، بينما المجموعة الآرية الغربية ، تعبر عن عقلية أخرى . .

إنها إذن ، فلسفة قومية ثاوية وراء كلام العرب ، وهي فلسفة بمعناها الأعمق ، حين تعبر عن (ماهية الأمة) بجناحيها الإجتماعي والروحي بآن معاً .

فلسفة الأرسوزي هي بعث ما مضى من حقيقة الأمة وجلاء لأصالتها كما تختزنها اللغة ، لغة الضاد .

ذلك لأنه (لما كان صرح ثقافتنا ، من فقه وأدب وفنون ، قد شيد على المعاني المنطوية في الكلمات ، وكانت المعاني ذات جذور في صميم الحياة ، مستقلة كل الاستقلال عن خطل العقل في اجتهاد المجتهدين ، فقد أصبح البعث عندنا في العودة إلى الينبوع ، إلى الحدس المتضمن في الكلمات) ، بعبارة ثانية (إن لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلّي عبقرية أمتنا ، هي مستودع لتراثنا ، فما لنا إلا أن نعود ونحياها عن وعي حتى نبلغ ما بلغه أجدادنا من سؤدد وعزة ، إن مَثَل كلمات لغتنا ، كَمَثَلِ البذرة في النبات ، يضمر فيها المعنى ضمور الحياة في البذرة ، فليس للذهن إلا أن يتَمثلها حتى يصبح الخيال من استجلائه معناها ، بمثابة الموسم من استجلائه كوامن الحياة - المجلد الأول ص ٢٩٨) . (فإذا كان عالم المستحاثات يبعث بخياله الفني في أجزاء الهيكل العظمي المبعثرة في جوف الأرض بالوحدة الحياتية التي أنشأتها ، فالعربي أيضاً بدراسته لسانه الذي تتلخص فيه كافة تجليات أمته دراسة توليدية ، وإتمام ذلك ببعثه الموجات التاريخية التي تحققت فيها هذه التجلّيات بسيطرة الأمة على القدر ، تنكشف له ماهية أمته فيرتقي بهذا الكشف من الناسوت إلى اللاهوت - المجلد الأول ص ١٠٨) .

ويرجع الاختلاف بين اللسان العربي والألسنة الأجنبية الأخرى ، كما يصوّره الأرسوزي ، إلى أن اللسان العربي اشتقاقي البنيان ، فكلماته تعود إلى أصالة العلاقة بين الكلمة ذاتها ومضمونها ، أو إلى العلاقة الطبيعية بين الصورة الصوتية ومعناها ، وها هنا فإن اللسان العربي مُقتبسٌ من الطبيعة دون توسيط ، وهكذا فإن الكلمة العربية ذات جذر في الطبيعة ، واللسان العربي لم يزل محتفظاً بنموه نحو أداة بيانية متكاملة ، أو أنها في سبيلها إلى التكامل منذ ظهور الإنسان وحتى الآن ، (أي عبر مرحلة الانتقال من الكلمات المعبرة عن الهيجان الطبيعي ، إلى الكلمات المعبرة عن الوجدان . . .) ، ويضرب الأرسوزي مثلاً في (الآخ المتوجّعة) وكيف انتقلت إلى (الأخ الإخائية) ، أو (أنّ الأنين) إلى (الأنا الأنانيّة) . . . الخ .

الكلمة العربية في فلسفة الأرسوزي ، ليست رمزاً يلتصق بها المعنى عرضاً واتفاقا ، كما هو الحال في اللغات الأوروبية ، بل إنها صورة تتألف من (صوت مسموع وخيال مرئي) ومن معنى هو قوام تآلفهما ، وقد أدى الخلاف إلى أن الكلمة في اللغات الهندية - الأوروبية ، تتحول من صورة إلى رمز ، فتوحي لصاحبها أن يرى النظام قانوناً في الطبيعة وعدلاً في المجتمع وعقلاً في النفس ، أما الكلمة العربية من حيث بنيانها الاشتقاقي في ذهن متكلمها ، فإنها تقوده إلى المعنى الذي هو **مصدر النظام والعدل والعقل ، وما أن تتجه الاشتقاقات نحو مصدرها في الحدس ، فإنه سرعان ما يتحول من وميض إلى بصيرة ، فتتجاوب في منظومة عائلة الكلمات العربية المفهومات العقلية والمدلولات الحسية . (إن الحدس دلالة الأنغام على الابهام في الأنشودة) . هذا الحدس ، حدس العلاقة بين الكلمات في بنيانها المشترك من جهة ، وحدس العلاقة بين الصورة والمعنى من جهة ثانية ، يكشف لنا عن حقيقة العلاقة الصميمية التي تربط بين أبناء الأمة العربية الواحدة ، إنها العلاقة التي تجد دلالتها العميقة في كلمة (رحمانية) ، حيث الاشتقاق من (الرحم) ، وبصيغتها (رحمان) المتضمنة معنى الاشتراك ، يتم التأكيد على الاتصال الصميمي بين الكائنات ، (أما رمز الاتصال الذي هو (الرحم) فيتجلى حين تكون العلاقة على أتمها بين الجنين وأمه ، حتى إذا استقل الجنين عن أمه ، تكويناً بالولادة ، يبقى الاتصال بينهما رحمانياً - المجلد الثالث ص ٣٣) .**

هل استلهم الأرسوزي فكرة (الاتصال الرحماني) من حدسه ، مصدرَ العلاقة الاشتقاقية - التوليدية التي تنظم أسرة الكلمات في المعجم العربي ؟ أم أنه التقط الفكرة من الفلسفة الأفلاطونية ثم الافلوطينية بعدها ؟ أين حدس برغسون من هذا كله ؟ .

لماذا رفض الأرسوزي منهج التحليل والتركيب القائم على مبدأ السببية ؟ واتجه بدلاً من ذلك إلى المنهج القائم على الاتصال الرحماني ؟ ! . .

يجيب على السؤال ، صديق الأرسوزي الحميم ، ورفيق حياته ، الاستاذ أنطون المقدسي حين يقول بضمير المخاطب **(الواقع أنك أعرضت عن المنهج التحليلي ، ولم تستخدمه إلا لماماً ، وكأنه ثأر لنفسه منك ، حين أبقى فكرك عند حدود الإيحاء الفني يعوزه الربط الدقيق بين المفاهيم والتعبير الشفاف عن المشكلات الفلسفية ، هذا التعبير الذي يستطيع وحده أن يتحدث إلى العقل فيقنعه ، وخير دليل على ما أقول ، هو أنك عند رجوعك إلى التراث العربي ، لم تستعده بل أعدته ، أرى أنك اقتصرت على ترداد الآيات**

الكريمة ، وعلى ذكر أبيات من الشعر العربي الجاهلي ، دون ما تحليل عقلي مفحم ودون ما تفسير ، فكأنك تنطلق من مصادرة لا برهان عليها ، هي أن التراث العربي تعبير عن فكرتك ، يختلف في ألفاظه عنها ، وينطبق معها في معناه ، وهذا أمر لا يقوم عليه برهان - مجلة المعرفة السورية - تموز ١٩٧١ ص ٦٢) .

كما سيقول كاتب المقدمة في المجلد الثالث ما يلي (هو فيما يبدو آخر ممثلي الأفلاطونية - الأفلوطينية لدينا ، وأكثرهم تماسكاً ووضوحاً ، تبناها وعرّبها ، بمعنى أنه ابتدع المفردات والصيغ الأسلوبية اللازمة لأدائها بلسان عربي ، وبمعنى أهم من الأول ، أنه أضاف إليها الجانب الذي تميزت به السياسات العربية فكراً ورأياً عاماً ، حيث نعتقد اعتقادنا الجازم (في عصور الانحطاط خاصة) بأن هناك - وهذا ما يجب أن يكون - زعيماً بطلاً قادراً على أن ينهض بالأمة فيعيد إليها وحدتها وكرامتها - المجلد الثالث ص ١٣) .

لقد ربحت الفلسفة (المثالية) الأرسوزي وخسرته السياسة ، وهنا تناقض الخطاب العربي في اصطدامه بين الفكر والعمل ، فالأفلاطونية أو المنهج الرحماني ، يمكن أن يستريحا على مقعد وثير من مقاعد مغامرة العقل الأولى ، حيث الكون صيغ بموجب فكرة الهية ، أو ميتافيزيائية قبْلية ، أما مع الأهداف التي رمى إليها الأرسوزي ، البعث - النهضة - التقدم والوحدة ، من حيث هي أهداف عقلية ، (فهي تتطلب فعّالية العقل وليس صوفية الحدس ، فالمنهج الرحماني منهج لا عقلاني ، فكيف يمكن بلوغ ثمار العقلانية بطريقة لا عقلانية ؟)* .



---

* محمد عابد الجابري - الخطاب العربي المعاصر - دار الطليعة ص ١٧٣ .

ويضيف : التناقض بين الطابع العقلاني للأهداف والطابع اللاعقلاني للتفكير هو السمة البارزة في الخطاب الفلسفي العربي المعاصر .

ثالثا / الاحزاب القومية في تمميدها الحصري

إن الذي سيعيش من العام ١٨٨٠ إلى العام ١٩٦٨ ، سيرى الكثير من وقائع جيله وأجيال ما بعده ، تلك هي السيرة الطويلة لساطع الحصري ، الذي ولد في اليمن (لأبوين حلبيين) وخدم في الحكومة العثمانية ، بعد أن درس التركية والفرنسية والشريعة الاسلامية ، وعشق الفلسفة الوضعية ، وأصبح وزيراً للمعارف في حكومة فيصل الأولى في دمشق ، ثم مديراً للآثار في العراق ، ثم كمستشار للمعارف في دمشق من جديد ، ثم كرئيس لمعهد الدراسات العربية العليا التابع للجامعة العربية في القاهرة ، وبذلك يكون الحصري أول من أتمّ دورته الكاملة كمخضرم بين العثمانية والعربية .

سيصبح من العسير ، الإحاطة ولو نسبياً ، بما أنتجه الرجل خلال أعوامه التسعين (ناقص سنتين) على صعيد النتاج الأدبي والسياسي الضخم الذي خلّفه وراء ظهره .

مع ذلك لا بد من الإشارة لرؤوس أقلام الحصري ، الفكرية - والسياسية ، مع الدعاء ألا نقع في الخلط بين ما هو أساسي وثانوي في أفكاره الموسوعية .

إن أوضاع العالم العربي السياسية ، هي أوضاع ما بعد الحرب العالمية الأولى ، وإذن فإن الحصري سيجد نفسه في أحضان الثورة العربية الكبرى التي أطلقها الشريف حسين من الحجاز .

لقد شهد الحصري ، كما أسلفنا ، عصرين متجاورين في الزمن ، متناقضين في الأفكار ، فكان لا بد لآرائه أن تتأثر بالاعتبارات السياسية قبل غيرها (من الأفكار الفلسفية التي حملها روّاد السوربون أو الجامعات الفرنسية الأخرى ، حيث تأثر الطلاب : الأرسوزي ، عفلق ، البيطار ، بمناهل فلسفية طغى عليها طابع الغرب واتجاهاته الفكرية).

كان الحصري يرى أن بلوغ هدف القومية العربية ، سيتحقق في الاستقلال ، ثم تعقّبَ الوحدة كخطوة تالية . . وهكذا فإن الأهداف القومية سياسية في الأساس . ونُيست مغامرة ذهنية ، فالعناصر التي تشكل (قومية أي قوم) موجودة لدى العرب ، ولا تحتاج لإقامة الدليل عليها ، وطالما أن التاريخ واحد واللغة واحدة ، إذن فإن هناك ثمة أمة . إنها موجودة في وضعية الكمون ، أو التجزئة ، (وتجزئة الأمة لا تلغي وجودها التاريخي . بل حضورها في التاريخ - المؤلف) ، وحسب الحصري ، **فإن أول مهمة للهدف القومي** ، أن

يعيد الأمة كي تكون حاضرة في التاريخ ، وذلك بالقضاء على التجزئة ومن ثم الانتقال إلى الدولة الواحدة .

كان شعار الحصري ملخصاً بكلمات شعبية بسيطة : **أمة واحدة في دولة واحدة . لذلك كان الهدف الأول (لقومية أمة مجزأة) هو توحيدها وإقامة الدولة الواحدة فوق ربوعها ، فإذا ما فقد جزء من الأمة استقلاله ، فإن القومية هي المسؤولة عن استعادة هذا الإستقلال ، ورد الفرع إلى الأصل .**

يرفض ساطع الحصري رفضاً قاطعاً نظرية الأصل المشترك (أي الوحدة العرقية) للأمة ، ففوق ما هي مناقضة للحقائق العلمية والتاريخية ، فإن الأخذ بهذا المفهوم سيرتب نتائج ضارة أشد الضرر ، كما أنه ليس بمقدور أمة ما الادعاء بنقائها العرقي ، خاصة إذا كانت الأمة (كالأمة العربية) عاشت ألوف سنواتها بين داخل وخارج . .

اعتبر الحصري ، أن الروابط التي تجمع الأمة ، هي روحية وفكرية ، وليست مادية فقط ، فرغم ادراكه لأهمية الدور الذي تلعبه المصالح المادية بين الأفراد والجماعات ، إلا أن هذه المصالح لن تكون سبباً من أسباب القومية بل نتيجة لها ، وقد انتبه الحصري منذ البدايات ، إلى أن هذه المصالح كسيف ذي حدّين ، فمن جهة يمكن أن تلعب دوراً في الوفاق ، ولكنها بنفس القوة ، يمكن أن تميل إلى الخط المعاكس إذا وجدت مستقبلها في بقائه (أي وضع التجزئة) .

أما الدين ، فمع كونه قوة اجتماعية هائلة ، فإنه لا يمكن اعتباره كعنصر مكوّن للأمة ، بل هو لاحق عليها ، وقد نبّه الحصري إلى هذا العنصر الهام والخطير ، من حيث هو (حمّال أوجه واجتهادات) ، فإذا ما ساد دين المعرفة في القرآن (دين طلب العلم وآيات المعرفة والعلم التي لا حصر لها) فإن القومية لا تجد نفسها على جفاء مع الدين ، فديانة التوحيد الاسلامية نزلت على النبي العربي ، ولغة القرآن جاءت عربية ، والأئمة من قريش ، وإيثار حب الوطن من الإيمان ، غير أن الحصري ، كان يجد في (القيم الكلية) أو (الأممية) التي انطوى عليها الاسلام والمسيحية (عكس الديانة اليهودية التي هي قومية بل وعنصرية) ما يمكن أن يهدد الوعي القومي ، أو تأخير إيقاظه ونهوضه .

التاريخ واللغة ، هما ركنا الوجود القومي لأية أمة من الأمم ، هذا ما يؤكده الحصري ، واضعاً العناصر الأخرى ، في مقامات ثانوية أو تكميلية . . فالتاريخ هو تعبير الأمة عن ذكرياتها في حياتها الماضية ووعيها لذاتها ، فإذا ما فقد هذا الوعي ، فإنه لن يسترد إلا باسترداد الأمة لتاريخها التليد .

لقد ميز الحصري بين تاريخ الوقائع (الأحداث) وتاريخ السياق الكلي ، فوجد أن الثاني بكليته الماضوية المجيدة ، هو الذي يخلق الأمل في المستقبل ، وهو تاريخ لا يخص العرب وحدهم (الرسالة الخالدة عنده يمكن أن تكون من نصيب جميع الأمم) ، **فهو لا يضيع وقته بالخصوصية أو التفرديّة أو الخلودية . . العربية ، بل يراها كعلامات فارقة بين الشعوب على طريق التاريخ ليس أكثر . .**

هل يمكن البوح إذن ، أن الأساس الشوفيني الذي يطل برأسه تارة من هنا ، وأخرى من هناك ، كان مصدره الغرب ، الذي لم يتلق الحصري علومه في جامعاته ؟ وهنا لا يمكن التأكيد على أداة المعرفة قبل الإحاطة بالذات العارفة التي كانت تنشر أفكارها وميولها على الطلاب العرب في باريس أو في مهاجر البرازيل والأرجنتين قبلها . .

تنتصر القومية العربية ، حين يتيقظ الشعور القومي لدى العرب ، بكل ثبات ودون تراجع . . وهكذا فقد انحاز الحصري إلى العلمانية كنمط نظام قومي ، فقال بفصل الدين عن الدولة ، وقد آمن الحصري إيماناً كاملاً بهذا الفصل ، من حيث أن الدين (هو أمر يخص ضمير الإنسان الفرد ووجدانه) . . .

انتقد الحصري بلسان لاذع وساخر ، مظاهر الاقليمية المتبدّية في كل من مصر ولبنان ، وكان يرى أن القومية العربية سرعان ما ستجتاح هذه الرسوبات المالحة على قسمات التاريخ العربي ، كما انتقد السورية القومية التي نادى بها سعادة (**لو قبل سعادة أن يمزج بين القومية السورية والقومية العربية عن طريق الثقافة والتاريخ واللغة ، لاستحوذت أيدولوجيته على كامل التأييد دون بلبلة**) ، وأيد في البداية جهود الشبان في البعث الجديد للتشابه الكبير مع مفهومه عن القومية والوحدة ، وما أن رأى أفانين السياسة* تأخذ مجدها في المحاور اللاوحدوية (محور الهاشميين) (محور القاهرة - الرياض) ، ثم محور الإنقلاب على الوحدة السورية - المصرية في الانفصال (حيث وقع على وثيقته الأستاذان أكرم الحوراني وصلاح البيطار ، أي ثلثي قادة الحزب) ، نقول ما أنْ رأى الحصري ذلك بعضه أو كله ، حتى أصدر قراره القائل ، (بأن قادة الحزب دعاةٌ مبطنّون للاقليمية أعداء للوحدة - كتاب الإقليمية جذورها وبذورها - ساطع الحصري - بيروت ١٩٦٣ ص ٤٩) .

---

* يروي جلال السيد في كتابه حزب البعث العربي ص ٥٢ واقعة ، قد تكون هي الأخرى أشاعت ما أشاعت في نفس الاستاذ الحصري ، فقد هاجمه الطلاب رشقاً بالحجارة حين كان يقول بفصل الدين عن الدولة ، أواسط العام ١٩٤٥ ، ولم يدر أحدٌ مَنْ الذي هيأ لهذه العاصفة الداوية . هل هي الكتلة الوطنية ، أم الفرنسيون ، أم رجال الدين . . المهم أن البعث بجريدته آنذاك أخذ موقفاً مسايراً لغضب الطلبة ، وصرح المسؤول يومها : لا نريد أن نقف أمام أعضائنا المحتملين لنصرة شخص غير حزبي .

يقول الدكتور التاريخي المعروف مجيد خدوري (من العراق) في كتابه الاتجاهات السياسية في العالم العربي ص ٢١٤ (لقد درس الحصري التاريخ العربي بعين نافذة ، واستخلص أن ما أعاد الأمة العربية إلى الحياة ، إنما هو التاريخ واللغة ، وبالإضافة إلى أسلوبه العلمي فقد درس شمولية الظواهر الإنسانية ، التي يمكن أن تكون قضيته العربية مندرجة ضمن إطارها ، وانكب على ذلك بكل تجرد وموضوعية ، فخرج أن الأولوية المطلقة هي للوحدة العربية ، وانتقد كل ما يثير العرقلة كالنظم السياسية داخل الوحدة ، كدولة ملكية أو جمهورية ، وأنها مهمة الأجيال اللاحقة) . . .

وعلى مشجب التاريخ (وهو تاريخ وجدان لا تاريخ عقل) ، كان الحصري - وليس وحده بالطبع - يعلّق آمال الصعود إلى المستقبل ، فمن خلال وحدة اللغة في التاريخ الموحد ، يمكن الوصول إلى اليقظة التي تنشأ من خلال نضال الحاضر ضد السيطرة العثمانية، كذلك النضال ضد الاستعمار الأوروبي ، ومثلما استقى النضال وجدانه من وحدة اللغة والتاريخ ، فإن طارئ الخارج ، هو الذي سيعمل على تحريضه (وهكذا يمكن تمديد التاريخ خارج حدوده ، فالتهديد الخارجي - وليست دوافع التطور الداخلي الذاتية - هو الذي شكّل المهماز الرئيسي الذي أيقظ ويوقظ ما في نفوس العرب من شعور قومي ، وهو بذاته الذي دفعهم ويدفعهم إلى ربط الوحدة بالتقدم - الجابري ، الخطاب العربي ص ٩٨) .

لم يعثر الوعي العربي على ما يتحصّن به ، حيال التهديد الخارجي الداهم ، سوى ألوان من قوس قزح الماضي ، وعدا الأحداث المنصرمة التي تؤخذ كشواهد على الجدارة ، فإن اللغة وحدها ، هي التي بقيت (ماضياً) في الحاضر ، فهي التي حملت الروحي والوجداني . عبر مراحل التاريخ المتقلّبة ، وهي التي ظلت جامعة لشعوب عربية ، تزخر بفسيفساء اللوحات الدينية أو العرقية الأخرى ، وهي الرابطة ، التي غابت معها كل الاستثناءات الموجودة في عادات الأقاليم والأقطار ، وكل ما ينجم عن ذلك من مفارقات في الإقتصاد والتطور ، وإضافة إلى كونها لغة التواصل الفكري والروحي . فهي لغة القرآن وبالتالي لغة التراث وما تبقى من التاريخ ، وقد كانت من قبل شرطاً في الاجتهاد الديني (شرط التشريع أن تكون لغته هي اللغة العربية) ، فلماذا لا تكون إذن . هي شرط الوجود القومي أيضاً ؟ . .

إنها والتاريخ العربي - الاسلامي ، ذو الطابع الروحي المهيمن ، شيء واحد . لقد ندمجت في هذا التاريخ فأصبحت سر أسراره (إنها تتمتع بنزعة فطرية وذاتية للتواصل

والاتحاد ليس فقط مع الآخرين ولكن بصورة خاصة مع الكائن الأسمى ، وهنا نسأل . هل الأمة مفهوم يبنيه الذهن انطلاقاً من عوامل تاريخية مادية – طبيعية ، أم هي آية أصولها في الملأ الأعلى وتجلياتها الطبيعية في بنية الأفراد وفي المؤسسات العامة ؟ – الأرسوزي – الأمة العربية ، ماهيتها ورسالتها ص ١٥) .

لم يكن نافلاً ، أن يركز المفكرون القوميون العرب على اللغة كرابطة أساسية قومية ، ويجعلوا من التاريخ توأماً لها ، كما أنه ليس غريباً أن ينحو الحصري نحو بناء (نظرية عربية) في القومية ، أساسها اللغة والتاريخ معاً (فاللغة روح الأمة وحياتها ، والتاريخ وعي الأمة وشعورها)* .

إننا نقرأ في التهديد الخارجي ، ما حضّ على ايقاظ الشعور القومي بدءاً من بزوغ القرن العشرين ، لكن عامل التحريض الخارجي لم يكن من ولادة هذا القرن فحسب ، بل لعله يرجع عميقاً إلى بطن التاريخ العربي قبل الاسلام تحت ضغط تهديد الروم وفارس والأحباش ، وأن هذا العامل نفسه ، كان قد استيقظ في ظل الاسلام ، عندما تحدّت الشعوبية العرب في العصر العباسي ، ثم في فترات لاحقة أثناء الغزو المغولي ، والصليبي ، (والعثماني)* ، والأوروبي ، وأخيراً التهديد الصهيوني للمنطقة ، ويقول عبد العزيز الدوري في دراسات في القومية دار الطليعة ص ٢٢ ما يلي : (**نحن نرى أن أدوار الأزمات في تاريخ العرب ، هي أروع الأدوار ، فحين يكون التحدي على أشده ، يظهر جوهر الأمة وقواها الكامنة في مجهود جبار لتأكيد ذاتها**) .

هل يتوقف الدوري في استنباطه هذا عند حدود التاريخ فقط ، أم أنه يستمهل تاريخنا الحاضر إلى يوم صبحه قريب ، متى ستخرج القوى الكامنة في مجهود جماعي ، للرد على أزمة التجزئة الوبيلة ، أو تحدينا في اسكندرون وعربستان . . والمياه ، أو كارثتنا في فلسطين ونادي المصالحة العربي اليوم ، أو (مسخرتنا) في ثرواتنا ونفطنا العربي ، متى سيحل تأكيد الذات ؟ . .

---

* الحصري – عوامل القومية ، محاضرة ألقاها في بغداد عام ١٩٢٨ ، وهناك كتابه : آراء وأحاديث في الوطنية والقومية .

* من الظلم أن يوضع العثمانيون مع المغول والصليبيين أو الأوروبيين في خانة واحدة . فالدخول العثماني إلى المنطقة هنا لم يكن غزواً على الطريقة الصليبية أو الأوروبية ، بل كان استرداداً لغابر الامبراطورية الاسلامية التي مزّقتها حروب السلالات الحاكمة ، أما الحروب ، في مرج دابق وغيرها ، فكانت مع هؤلاء الحاكمين من السلالات غير العربية في الواقع (قانصوه الغوري وجان برد الغزالي . . الخ) وقد نظر العرب إلى سليم وابنه سليمان القانوني ، كمنقذين لا كغزاة . . أما الأمر فقد اختلف في النهاية عنه في البداية .

رابعا / الاحزاب القومية (أمة الرسالة الخالدة) .

كان الحصري يقول أمة واحدة في دولة واحدة ، وعلى إطلاقه ، فإن الشعار لم يبعث على محاججة التفسير والتأويل مثلما فعلت (الرسالة الخالدة) منذ إطلاقها الأول (إن رسالتنا هي حياتنا ذاتنا . . وكيف يجب أن نكون في المستقبل) .

لم ينته البعث إلى ما بدأ به ، فذلك ضد قوانين التطور ، والتطور لا يعني الارتقاء إلى أعلى على الدوام ، بل إن النكوص سمة من سماته أيضاً ، ويبقى السؤال : التطور إلى أين؟!. .

لقد جرت مياه غزيرة في بردى والفرات والأردن ، منذ أن غادر الشابان عفلق والبيطار ، مقاعدهما الثانوية طلباً للعلم في باريس ، وإلى يوم عودتهما من هناك في العام ١٩٣٣ ، سيكون شيئاً قد تبلور .

خلال أربعة أعوامهما (١٩٢٩ - ١٩٣٣) الدراسية في السوربون ، التصق الشابان بالأفكار السائدة التي كانت تُعد خلاصة عصرها . ففيما كانت سياسة الشيوعيين الفرنسيين (أندريه جيد ورومان رولان) الحادبة على وجوب تحقيق المطالب العادلة للشعب في سوريا ولبنان ، هي الجاذب العملي لدراسة الماركسية* ، كانت الفلسفةالألمانية على يد العباقرة نيتشه وفيخته وهيغل ، تطرق باب الفعالية الإنسانية لشحذ الفكر الفلسفي الشامل ، فمنذ سقراط وأفلاطون وفيثاغورث ، وحتى فلسفة الديالكتيك (جدلية الحركة في مسيرة التاريخ الطبيعي والإنساني) قرر العقل الجرماني الأسمى ، أن يجر كل التاريخ من قذاله إلى تشكيلات (العقل المطلق الهيغلي) من حيث أن التاريخ أحد مخلوقات هذا (العقل) ، مما سيضطر ماركس الشاب في العائلة المقدسة ، أن يدخل الحلبة مصححاً (إن العقل المطلق لا يصنع التاريخ حقيقة إلا في الظاهر ، فالوعي ليس بعيداً عن التطور التاريخي الحقيقي ، وليس من حق الفيلسوف أن يرمق التاريخ بنظرة متعجرفة ، إذا كانت السيرورة تتعلق بصراعات العالم المادية ، إننا نريد أن نبيّن له (أي لهيغل) لماذا يتم الصراع حقيقةً ، وإن وعي ذلك هو شيء تاريخي ، حتى ولو كنا لا نرغبه) .

هذه المطارحات وسواها ، سوف تأخذ بيد الطالبَيْن في باريس ، إلى جادة التحريض بحيث سيتفتّح ذهنيهما على مطارحات وطنية خاصة . .

---

* كان الدافع وراء الاهتمام بالماركسية لدى عفلق والبيطار ، هو الموقف السياسي الذي كان يتخذه الحزب الشيوعي الفرنسي من قضية الاستقلال في سوريا ولبنان ، ولما انفض قادة الشيوعية من الفرنسيين (جيد ورولان) عنها إثر زيارة لموسكو ، اضطر الشابان لابتداع اشتراكية عربية خاصة . .

(لنقل إذن أننا عدنا إلى الوطن نحمل فكرة الاشتراكية كتعبير عن الغايتين اللتين وقفنا أنفسنا على تحقيقهما : مكافحة الاستعمار الأجنبي ، ومكافحة الرجعية الداخلية بكل أشكالها . وقد فهمنا عن طريق الفكرة ذاتها ، أن النضال ضد المستعمر لن يكون صادقاً شاملاً مجدياً إلا إذا كان نضالاً شعبياً ، أي أن الطبقة التي كانت تمثل الحركة الوطنية حتى تلك الفترة ، لا تستطيع أن ترتفع فوق مصالحها الاقتصادية وأنانيتها العائلية وفهمها الاحتكاري ، وبالتالي لا تستطيع أن تصمد في طريق النضال زمناً طويلاً ، وفهمنا أيضاً أن هذا النضال مرتبط أوثق الارتباط بحالة الأمة الفكرية والأخلاقية ، وأنه لا بد لنجوع النضال ضد المستعمر من تهيئة انقلاب فكري يغير المفاهيم القديمة العقيمة ويهز النفوس من الأعماق ، ويخلق لها نظرة أخلاقية جديدة وجدّية) .

ستظل مسألة التقارب مع الشيوعيين قائمة ، حتى الأشهر الأخيرة من عمر ١٩٣٦ ، حين أطلت الجبهة الوطنية الفرنسية المشكلة من الشيوعيين والاشتراكيين في فرنسا ، إذ لم تفعل هذه الجبهة شيئاً جدياً من أجل إعادة الحقوق المهضومة ، ثم ما لبث الحزب الشيوعي السوري أن تحوّل إلى حليف لها (إن لم يكن أداة تنفيذية بأيديها) ، فقد (نسي الشيوعي السوري - هذا ما يقوله عفلق والبيطار - أهدافه في النضال من أجل الاصلاح الاجتماعي ، لأنه كان يبذل جهده ليكون حليف الكتلة الوطنية ملاذ الرجعية السياسية والاجتماعية) .

ثم جاءت نشرة (أندريه جيد) الإنكفائية بعد زيارة له إلى موسكو ، (**إن روسيا لم تحتفظ بالشيوعية الأممية إلا لدعايتها الخارجية ، وإنها في الداخل تمشي حثيثة الخطى نحو نظام التوسع ، شأنها شأن غيرها من الدول الكبرى**) .

ثم جاءت أحداث اسكندرون لتقصم ظهر بعير التقارب ، وليصرح عفلق في إثرها (لن نألوا جهداً في مكافحتها وتحذير النشئ العربي من مخاطرها) .

كان عفلق في فكره ، أقرب ما يكون إلى الكُتّاب الإنسانيين والصوفيين والمثاليين ، وظل مزاجه يتقارب مع كتابات أندريه جيد ورومان رولان وتولستوي ودستويفسكي وأحياناً نيتشه وهيغل ، **إلا أنه لم يكن كاتباً منهجياً إذ لم يعمد إلى وضع كتاب متماسك** ، أما مجموعة مقالاته (أكثرها في مجلة الطليعة) وأحاديثه التي كانت تُجمع بين دفتي كتاب ، فغالباً ما دارت حول محور أساسي واحد ، هو (بعث الأمة العربية) . **كما أنها ظلت تزخر بالأفكار من حيث كونه يتمتع بمخيلة خصبة وصدقية لا تجارى على الصعيد الفكري** . كان معروفاً عن الرجل ، أنه صاحب نصيحة الكلمتين (كن صادقاً) . يقول

دكتور مصطفى دندشلي في كتابه حزب البعث العربي الاشتراكي ص ٣١ عن الاستاذ عفلق ما يلي (**إن قدرته على التصور ، وتواضعه الجم وعزوفه عن البهارج وتفانيه من أجل القضية ، بالإضافة إلى أسلوبه الذي غالباً ما يزخر بالشاعرية واتقاد العاطفة ، وعزلته شبه الصوفية عن المغريات وما تجذبه مظاهر النفوذ والأبهة ، هي التي انطوت عليها الملامح الشخصية للشاب الخجول ، التي جذبت وفتنت حتى سيطرت على روح جيل سوري بأكمله في الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية**) ونقول : **بل وجيل عربي بعدها** . .

لقد جرى حقن مبادئ : الوحدة والحرية والاشتراكية ، التي سُميّت في حينه ثالوث العرب المقدس ، بجرعة ناجعة وضخمة من الفلسفة الميتافيزيائية ، (**ترى هل شطّ الذهن العربي إذ نحا منحىً مثالياً في فهم الأمة ؟ ثم ألا يتفق هذا الذهن مع واقع أمره ؟ هل الأمة مفهوم يبينه الذهن تلخيصاً لعوامل تاريخية طبيعية ؟** - من بقايا الفلسفة الأرسوزية في البعث . .) وهكذا ، فالنضال من أجل تحقيق الوحدة ، لم يُفهم على أنه نضال مستقيم بين محطتين ، مثلهُ مثَل إنسان يريد أن ينسف الحدود السياسية بقرار سياسي . **لكنه فُهم على أنه عملية إعادة بناء ، أو نضال تكوين الشخصية والمجتمع العربيين قبل كل شيء** ، والوحدة لن يتم الوصول إليها إلا إذا تخلّص العرب من أدرانهم الاجتماعية المتمثلة بالتعصب الطائفي والانحياز للعشائرية والارتباطات الإقليمية والتحرر من التناقضات السلبية والتسليم بالقيم الخالدة للإنسان على مر الدهور ، فالوحدة إذن ، ليست مجرد هدف سياسي منفصل ، بل هي بحث دائب ، عن (كنز الحيوية الدفين) للأمة ، وعن منابع روحها القومية والمعنوية في التاريخ . .

يقول عبد البر عيون السود ، الطالب الحمصي النجيب ، الذي لازم استاذه منذ البدايات : **كان على الاستاذ عفلق أن يستلهم نموذجاً حياً في التاريخ العربي ، يكون مرجعاً أو تجسيداً لأفكاره ، التي بدت كأفكار مجردة ، (وفي الحقيقة ، فإن اعجاب عفلق بالحركة التاريخية للاسلام كان قوياً لدرجة أن البعث يجب أن يعيد على نحو جديد هذه التجربة الانسانية . وبعبارة أخرى ، فإن البعث في أساسه ، يستطيع أن يستلهم هذه التجربة العربية الضخمة** *) .

وفي مجال آخر ، سيؤكد رفاق عفلق الأوائل (صدقي اسماعيل ، جلال فاروق الشريف ، عبد البرعيون السود . . وغيرهم) ، أن ميشيل عفلق ، كان يضرب على وتر الأصالة في كل سانحة وفرصة ، وكان يعني بذلك ، أن يقتدي الحزب في مرحلته

---

* نقله د . دندشلي في كتابه : حزب البعث العربي الاشتراكي ص ٣٢ .

التبشيرية ، بمراحل الإنتشار التي قطعتها حركة الاسلام التاريخية ، كما أكدوا جميعاً أن شخصية الرسول العربي كانت ساكنة في نفس عفلق على الدوام (**إن الرسول العربي ، هو الذي يمثل النفس العربية في حقيقتها المطلقة ، ولفهم حياته ، يجب أن نلج إلى الداخل نتحسسها ، وأن نتعرف عليها بالتجربة الحية لا بالذهن ، وأننا في الوقت الحاضر ، نستطيع أن نحيا حياة الرسول العربي – ولو بصورة غير نبوية – ما دام الجميع ينتسب إلى الأمة التي أنجبت محمدا** – في ذكرى الرسول العربي – ميشيل عفلق – من كتاب في سبيل البعث – دار الطليعة – صفحات ٤٢ و ٤٣) .

لم ينظر البعثيون الأوائل على رأسهم الاستاذ عفلق ، إلى الاسلام من زاوية طابعه الآلهي والديني ، وإنما اعتبر الاسلام بمثابة المُفصح عن عبقرية الأمة العربية ، وحيث أن **الأمة هي فكرة خالدة ، تعبر عن نفسها وتتجسد واقعياً عبر مراحل التاريخ ، فإن القومية العربية ، واحدة من تجلّياتها في العصر الراهن ، فهي التعبير الحديث عن ذات الأمة ووعي حقيقتها ، وهكذا تبلغ القومية شأوها حين تعود لتتحد في الاسلام التاريخي ، على اعتبار أن الإثنين (الإسلام والقومية) ليسا شيئاً آخر سوى التجسيد الواعي للأمة في عصرين مختلفين . .**

أما مفهوم الحرية لدى البعث الأول ، فقد ورد عنها في أوراق المبادئ الأساسية* ، الفقرتان الأوليتان : –

آ – الاستعمار وكل ما يمت إليه بصلة ، عمل إجرامي يكافحه العرب بجميع الوسائل الممكنة . . وهم يسعون ضمن إمكاناتهم . . لمساعدة جميع الشعوب المناضلة في سبيل حريتها .

ب – الإنسانية مجموع متضامن في مصلحته ، مشترك في قيمه وحضارته فالعرب يتغذون من الحضارة العالمية ويغذونها ، كما يمدون يد الإخاء إلى الأمم الأخرى . . لايجاد أنظمة عادلة تضمن لجميع الشعوب الرفاهية والسلام والسمو في الخلق والروح .

كما ورد في المبادئ العامة للبعث ما يلي : –

(أن يتم التعاون مع سائر الأمم على كل ما يضمن للإنسانية سيرها القويم نحو الخير

---

* أورده وهيب الغانم في كتابه : الجذور الواقعية والفكرية لمبادئ البعث العربي ص ٢٢٦ – ٢٢٧ .

والرفاهية) ، (المساهمة مع الأمم الأخرى في ايجاد عالم منسجم حر) (ورغبة الأمة الصادقة في أن تجد جميع الأمم الأخرى وهي تتمتع بالحرية) . . . الخ .

هذا ما بين الحرية الإنسانية وحريات الشعوب الأخرى على وجه المثال لا الحصر .

أما بالنسبة لمفهوم الحرية داخل الوطن نفسه ، فهي كما وردت في المبادئ الأساسية ، (حرية الكلام والإجتماع والإعتقاد والفن حرية مقدسة ، لا يمكن لأية سلطة أن تنتقصها) . .

كما ورد في أماكن أخرى (المادة ٤١ من المنهاج مثلاً) أن الدولة مسؤولة عن صيانة حرية القول والنشر والاجتماع والصحافة في حدود المصلحة القومية العربية العليا وتقديم كل الوسائل والامكانات التي تحقق هذه الحرية .

وعن الحريات السياسية العامة يقول البعث :

- قيمة الدولة ناجمة عن انبثاقها عن إرادة الجماهير ، كما أن قدسيتها متوقفة على مدى حريتهم في اختيارها .
- نظام الحكم في الدولة نظام نيابي دستوري ، والسلطة التنفيذية مسؤولة أمام السلطة التشريعية (البرلمان) التي ينتخبها الشعب مباشرة .
- الدستور يكفل للمواطنين العرب ، المساواة المطلقة أمام القانون .
- حرية تشكيل النقابات العمالية والفلاحية حرية مقدسة ويجب تشجيعها .

وإذن ، فإن الحرية في فكر البعث الأول ، جاءت معبرة عن هدفين أساسيين : الاستقلال الوطني ، والحرية الفردية (الوطنية) والانسانية ، ولا يُفهم أن الحرية الاجتماعية أو الاشتراكية ، كانت متخلفة عن ركب الثالوث ، فالثالوث منذ البداية لا انفصام بين شعاراته ، وبمقاربة ذهنية ، تتوجب المجاورة في المسيرة أي على ايقاع المفهوم الإنقلابي الذي ليس هو تحقيق برنامج سياسي فحسب ، بل تحقيق شيء أصدق وأشد عمقاً . . **(إن الانقلاب قبل أن يكون برنامجاً سياسياً أو اجتماعياً هو هذه الحركة الدافعة الأولى ، وهذا التيار النفسي القوي ، هذه المغالبة التي لا بد منها ، والتي لا يفهم أي بعث للأمة بدونها** – في سبيل البعث ص ٢٤٤) .

على أن البعث كان يرمي للتوضيح دائماً ، بين فارق المفهوم المقصود ، بين انقلاب عسكري ، وانقلاب شعبي تاريخي . .

تقول سيلفيا هايم في كتابها عن القومية العربية ١٩٦٢ صفحات ١٦ - ١٧ : (ظل البعث يعتبر السياسة أداةً لإحداث تغيير صميمي لدى العرب . . والمحبة هي الطريق للخلاص من التفرقة والضعف . . وهذه الرؤية الصلبة لحياة سامية جديدة والتي هي غاية العمل السياسي ، أعطت لعفلق هالةً لم يمتلكها غيره من الكتاب العرب القوميين) .

لقد تعلق البعثيون الأوائل ، بفضائل النظام البرلماني ، لا ضدّ نصه وروحه ، بل ضد تلك الألاعيب الخبيثة التي كادت أن تشوّه صورته ، وقد كتب صلاح البيطار في تشرين الأول من العام ١٩٤٦ مقالةً صورت الوضع الدستوري كما رآه البعث في حينه (لا نجهل أن الحكم الدستوري لم يكن حتى اليوم محققاً في مختلف العهود التي مرت على البلاد ، فلا الحكومة حكومة ، ولا المجلس بمجلس ، بل ليس ثمة من دولة ، إنهم يعجبون بل يتصنّعون العجب من قولنا أن الحكم صائر إلى الديكتاتورية ، ولكن هل الديكتاتورية غير هذا الحكم الذي تبغون ، فإذا تمّ إصدار هذا المرسوم* ، فلن يسمح لأحد بالتعبير عن رأيه حيث لا أحزاب ولا جمعيات ، وحتى لا صحف إلا تلك التي يرضى عنها وزير الداخلية) . . .

واضطرت الحكومة ، بعد تشكيل (جبهة الدفاع عن الدستور والحريات العامة) من البعث والنواب المعارضين ، ومظاهرات الشوارع الدامية إلى الغاء المرسوم ٥٠ في تشرين الثاني من العام نفسه .

وسيقول البيطار في افتتاحية البعث أيلول ١٩٤٧ (**لقد قامت حركة البعث العربي على أساس احترام الحرية لدرجة التقديس ، لأنها اعتبرت ضمان الحريات شرطاً لبعث الأمة وأساساً لإنشاء الوطن العربي**) .

الاشتراكية البعثية ، أو الاشتراكية العربية ، اعتبرت بدورها من وجهة فكرية بعثية ، على أنها الرديف الطبيعي للقومية ، حيث الأمة لم تعد تعرف (ذهبَها وذهابها ومذهبها) على يد الاقطاعية - البورجوازية الحاكمة في المدن .

---

* في عهد حكومة سعد الله الجابري ١٩٤٦ ، أصدر وزير الداخلية المرسوم رقم ٥٠ ، حيث أجيز فيه للحكومة مبدأ المراقبة على الصحافة ، والتقنين من الاجتماعات العامة . والحد من نشاط الحركات الحزبية . . . كان وزير الجابري على ما يبدو جندياً صغيراً في أنظمة ما بعده وربما تم ذلك بروح التقمص أو التاريخ ! . .

(إنها ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية * ، لأنها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكانيته وتفتح عبقريته - دستور البعث المادة الرابعة منه) .

كما يقول منهاج الحزب في مادته ٤٢ ما يلي (التفاوت الطبقي نتيجة لوضع اجتماعي فاسد ، لذلك فالحزب يناضل في صف الطبقات الكادحة المضطهدة في المجتمع ، حتى يزول هذا التفاوت . . . لا ميزة لمواطن على آخر سوى كفاءة الفكر ومهارة اليد) .

ولكن إلى أي مدى كان البعث ينطلق من النتائج دون العودة إلى الأسباب ، فالتفاوت الطبقي نتيجة وضع اجتماعي فاسد ، والحقيقة أن الطبقات لم تنشأ نتيجة فساد المجتمعات تماماً ، بل نتيجة التطور الحتمي ، إذ لا شعوب بدون طبقات منذ تاريخ المشاعية الأولى لحياة المجتمعات ، أما الفساد (والأدق اللاإنسانية في العدالة) ، فإنه نتيجة بالفعل ، وليس هو السبب نفسه ، وقد بدا واضحاً أن بلبلة البعث في فكره الاشتراكي ، جاءت خشية الوصول إلى المحطة الماركسية ، إذ من الظلم المقارنة بين اشتراكية خصوصية مصطنعة ، واشتراكية جاءت نتيجة لفلسفة شاملة إثر تطور العلوم في العالم . .

حتى ولو كانت الاشتراكية ماركسية صرفة ، وهي كذلك ، فإنه لا يضير أحداً الاعتراف بخصوصية حيّزها العربي كرافعة لتحرير الطبقات المضطهدة ، لا (كمتاريس عربية) ضد الأحزاب الشيوعية . .

كانت إشتراكية البعث العربية ! . . أقرب ما تكون إلى الإشتراكيات القومية الأخرى ، أما شارتها المميزة ، فهي أنها غير دموية ، وأنها تجنح إلى التطور التدريجي عن طريق التحولات الاجتماعية بموجب تشريع الدساتير وسن القوانين عندما تصبح الجماهير الكادحة هي الأكثرية في نظمها البرلمانية ، (وهو ما أعطى البعث العربي القومي محتواه الايجابي والإنساني - مجيد خدوري - الإتجاهات السياسية في العالم العربي - ص٢١٩) . إلا أن عقيدة البعث ، - يتابع الخدوري ، مع ذلك ظلت غامضة وتجريدية .

يعترض السياسيون أيضاً ، أن البعث لم يتجاوز مرحلة البلاغة الإنشائية ، كي يتقدم ببرامج سياسية واجتماعية واقتصادية ، لتقديمها إلى سلطته الحاكمة عند الضرورة ، إلا أن

---

* إذا كانت الاشتراكية هي وعي الضرورة ، كذلك هي الحرية ، فلماذا إذن تُقصر في إسار الخصوصية العربية ، فمفاهيم الحرية والاشتراكية وحتى القوميات ، هي مفاهيم عالمية . وكان من غير الجائز (تخصيص المفهوم) بل ربما التطبيق) في الساحات الخصوصية لكل أمة على حدة . . . أو لكل شعب في حيزه الجغرافي وأسلوب انتاجه في مراحله المعاشة ؛ كانت الاشتراكية البعثية رداً انفعالياً على الماركسية وليس نقداً لها . .

السلطة كان لها مفهومها عند البعث الأول ، فالبعث حركة فكرية قومية أخلاقية وإنسانية . . وبعد هذا كله تأتي السياسة . هذا ما يقوله جلال السيد في كتابه حزب البعث العربي ص ٤٢ ، ثم يضيف : لذلك ظل البعث مُفضلاً اسم الحركة على اسم الحزب ، حيث (الحركة) تنطبق على أهدافها : القومية والأخلاقية والتكوينية ، أكثر من انطباقها على (اسم الحزب) الذي لا يُعنى إلا بالسياسة .

بين البعث الأول ، وسلطته الحاكمة (شباط أو آذار) ، سلسلة طويلة من المجادلات لا تعرفها الأجيال اللاحقة ، بل لعلّها لا تريد التعرف عليها ، وهذه المجادلات كانت (دليل قلق) الحزب على مستقبله القويم خشية الوقوع في براثن الخطأ أو الخطيئة ، ومن حملة هذه المجادلات مثلاً (المصدر السابق لجلال السيد) ، أن النقاش قبيل المؤتمر التأسيسي كان يثور عند نقطة تدخل الجيش في السياسة ، هل هو مقبول أو مرفوض ؟ . . وهناك مسألة قبول العسكريين في الحزب أم لا ، وكان يقوم الجدل حول مسائل العنف وجواز استخدامه ضد الخصوم أم لا ، كما ثارت نقاط حول مسألة التحالفات مع الأحزاب الأخرى ، (وقد تبين أن هناك أعضاء في الحزب يتعاطفون مع الحزب العربي الاشتراكي ويريدون فتوى بجواز التعاون ليكون ذلك خطوة أولى في سبيل الدمج - المصدر السابق ص ٥٤) .

ولم تكن القيادة تتابع النيّات والمقاصد من وراء ذلك ، بل راحت تدرس المسائل المطروحة بروح مجردة خالية وبعيدة عن الاحتمالات الخلفية وراء كل مسألة مطروحة ، وأن هذه الاحتمالات لم تكن على درجة من السلبية ، قدر ما كانت على درجة من العجالة* .

خامسا / حزبان في حزب . هل تم الدمج حقا ؟ .

ترى لماذا ترفض الذهنية العربية منطق التدرج العقلاني من الأدنى إلى الأعلى ، ومن الجزء إلى الكل ، ومن البسيط إلى المعقد ؟ لماذا ترانا نهجم إلى المُعقّد قبل البسيط ، وإلى الكل قبل الجزء ، وإلى الأعلى قبل الأدنى ، هل هي الذهنية العربية المولّدة من عالم الخيال

---

* عكس العجالة هو البطء ، حيث لا خيار في ظل المرحلة الثانية من حكم الشيشكلي . فقد كانت الأحزاب القومية والشيوعية عرضة للملاحقة والاضطهاد ، وكانت أحياناً عرضة للتقرب لكن حسبما يهوى الشيشكلي نفسه ، وهي تقاليد مكرورة في ظل الأنظمة الفردية العسكرية أو سواها . فطالما أن الحكم فردياً فإن عالم السياسة يجب أن يخرج (من فكر) صاحب القرار الأول . إذ لا شيّة على هذا الفكر من قبل حامله ، فهو الحقيقة التي تبزّ جميع الحقائق ، وهو الصراط الذي ينبغي على الناس إقتداءه وكان الشيشكلي نموذجاً تَرَكَ مدرسةً خلفه .

الشعري مثلاً (لنا الصدر دون العالمين أو القبر) ، فإذا كان ذلك كذلك ، فكم من القرون انصرمت على عالم خيال المعلقات ، والمربد وأمرؤ القيس وزهير و (بانت سعاد) وأسامة والحطيئة وجرير والفرزدق ، إلى يومنا هذا ؟ . . .

لماذا الوحدة الشاملة الجامعة المانعة ، قبل المراحل الموصلة إليها سواءً في الخطوات السياسية أو الإقتصادية (الاتحاد الاقتصادي لوحده يتطلب عقوداً لفكفكة معضلاته الجمركية والنقدية والتكاملية الزراعية - الصناعية - التجارية) ، ثم كيف لا تناقش مسائل مصيرية كتلك التي تتعلق بماهية النظام الدستوري لاتحاد أو وحدة ما ، ونحن هنا لا نقول بالنظام الملكي أو الجمهوري ، لأن ذلك هو المظهر الخارجي وليس (الجوهري) لنظام ما ، فكم من الأنظمة الملكية كانت دستورية - ديمقراطية ، وكم من الأنظمة الجمهورية كانت على عكس ذلك . .

هل هي وطأة التاريخ الطويل لأمة مفككة ؟ هل الصعود إلى أعلى الجبل ، دون البحث في المسالك ، يعود إلى ارتمائنا في القيعان ردحاً طويلاً من أزمان الشدة والبؤس والاضطراب . .

قد يكون بعضاً من ذلك ، أو ذلك كله . .

ونعود إلى السؤال : هل تم الدمج حقاً بين حزبي : البعث العربي والعربي الاشتراكي بحيث بات الحزبان حزباً واحداً دون تمييز . .

لقد أَمْلَتْ الظروف السياسية القاهرة (فترة الشيشكلي الثانية) ، تلك المساعي التي تكللت بالنجاح بعد طول اضطراب وتمنّع .

ونقول (الظروف السياسية) لأنها كانت الدافع الرئيسي (بل ربما الوحيد) لخلق حالة التقارب ، فالإندماج بين الحزبين فيما بعد . ولكي نعرض للحالة السياسية الماثلة آنذاك ، لا بد لنا من الاستنجاد (بمحضر جلال السيد الذهني) عن واقعة الاجتماع الأول بين الأربعة الكبار (ميشيل عفلق ، أكرم الحوراني ، صلاح البيطار وجلال السيد) بغية مناقشة مسألة الدمج . .

يقول جلال السيد ، (المتشدّد ضد الدمج ، وضد أكرم الحوراني معاً) في كتابه حزب البعث ص ٨٩ ما يلي :

في دار الاستاذ صلاح البيطار عقد اجتماع ضم أربعة أشخاص ، لبحث موضوع الدمج بين الحزبين . . استهل أكرم الحوراني الحديث فقال : إننا متفقون في كل شيء ،

وليس بيننا خلاف ومن المصلحة الوطنية أن نكون حزباً واحداً بدلاً من حزبين ، ولا داعي للتمهل في عملية الدمج التي تخدم القضية من كل جوانبها . . .

فقلت (أي جلال السيد) ، كيف ؟ إننا مختلفون جداً ونفي الخلاف بالكلام لا يجدي ما دام الخلاف مستبطناً في النفس . . .

أجاب الحوراني : هل لك أن تعطيني مادة واحدة من مواد هذا الخلاف ؟

فقلت : دعنا من الماضي البعيد ، سأسألك عن أقرب حدَث ، فالإنقلاب الذي قام به العقيد الشيشكلي على سامي الحناوي مثلاً ، كان لك أنت ضلع فيه ، وهو يستهدف منع الاتحاد بين سوريا والعراق ، ونحن - في البعث - من الموافقين على الاتحاد ، فالخلاف إذن أمر واقع . .

أجاب الحوراني : أما أن يكون لي ضلع في الانقلاب فهو مجرد اتهام وأنتم تعلمون أن العسكريين لا يقبلون التوجيه ولا يُطلعون أحداً على نواياهم المقبلة ، وأنا أقول لكم صدقاً ، بأنه ليس لي علم بكل هذا ، أما الاتحاد بين سوريا والعراق ، فقد عرض علينا في مجلس الوزراء السابق ، موضوع عرش سوريا للأمير الوصي عبد الاله ، على أن يبقى القطران مُنفَصلَيْن على شكل دولتين ، فهل هذا هو الاتحاد ؟ **لو عرض علي الاتحاد لكنت موافقاً عليه قبَل كل الموافقين حتى لو كان الاتحاد تحت ظل النظام الملكي ، وأنا مستعد لنشر بيان بتوقيعي يحمل هذا المعنى .**

قال جلال : أنا اكتفيت وللرفاق إذا شاؤوا مناقشة بقية التفصيلات .

هذا ما أورده الاستاذ جلال السيد في كتابه صادقاً بالطبع ، ومن خلال بقية السرد للذكريات ، يستشعر القارئ ، أن المناقشات اللاحقة كانت سياسية وقتية محضة ، إذ لم تتجاوز المرحلة المعاشة سواءً في سوريا أو المنطقة العربية عموماً .

كان الدمج ، رغم قبول ورفض الأجنحة من الحزبين ، عملية سياسية ، نأت عن الانخراط في مسائل الفكر أو (الايدولوجيا) أو مسائل الدستور والمنهج والتنظيم ، حيث اعتقد البعث ، خالقها ومفجّرها ، بأنها من المسائل المقدسة ، التي لا يجوز معها (أو فيها) المجادلة أو الحوار ، وعندما جاء الدمج الرسمي ، كان العربي الاشتراكي مُسلّماً بكل شيء ، فالدستور هو دستور البعث ، والأيدولوجيا هي أيدولوجية البعث ، حتى الانتساب إلى الحزب الجديد ، يتم بصورة فردية للشباب الحزبيين من العربي الاشتراكي ، ولا ينطبق هذا الشرط على الشباب البعثيين (إذ هم في حزبهم) ، وكانت بوادر الأثرة الوحدانية (وما

تلاها من مفاهيم الحزب الواحد ، القائد . .) ترشَح من مسام وثيقة الدمج ، التي لم تحمل من جديد الإتفاق غير الإضافة اليتيمة لاسم الحزب (الذي هو صندوق المعاني - جلال السيد) ألا وهو كلمة (الاشتراكي) ، وهكذا صار (البعث العربي الاشتراكي) ، وبهذه الإضافة أُثيرت الهواجس المضطرمة لدى البعثيين من جديد .

لماذا قبل الحوراني بكل هذا التنازل ، ولماذا كان هو المبادر الأول لعملية الدمج قبل غيره ؟ أهو عن ضعف ، أم عن ضرورة وطنية ؟ . .

وليس كاطلاق تعميمي ، فإن العربي الاشتراكي حين اتمام الدمج ، وحتى قبله ، لم يكن حزباً ضعيفاً خالياً من الفكر ، فقد كان له قوته واندفاعه وبرنامجه السياسي وحتى صحفه في دمشق وحلب ، وقد وقفت كوادر البعث الأولى (وهيب الغانم وعبد البرعيون السود) موقفاً مؤيداً للاندماج ، وقد وضعا المسوغات السياسية لهذه الخطوة :

أولاً / إن حزب البعث أساساً هو تيار فكر ومفكرين دون جند ، وأن ما ينقصه بالتالي هو المرتكزات الشعبية الفلاحية والعمالية والتيار السياسي المحيط بالاستاذ أكرم الحوراني .

ثانياً / إن ظروف النضال الصعبة ضد الديكتاتورية العسكرية (الشيشكلي) تستوجب توحيد كافة القوى الديمقراطية والقومية والتقدمية ، وكخطوة أولى توحيد البعث مع العربي الاشتراكي .

أما على الصعيد العسكري ، فقد ضغط الضباط البعثيون وأنصارهم : (عدنان المالكي - مصطفى حمدون - عبد الغني قنوت) بالاتجاه نفسه لتحقيق غرض الاندماج بين الحزبين .

لقد وقف العديد من شباب البعث مع عملية الدمج ، فناضلوا من أجلها ، وصفقوا لخبر تحقيقها إذ نُظر إليها ، على أنها الدعامة الأقوى لمواصلة النضال الوطني ، وبلوغ الأهداف القومية ، لكن تيار الممانعة الذي وجد نفسه (في أستاذية الفكر ، وازدراء الممارسة ، وصوفية النظرة وطهارة الحزب أو خلفية المواقف ، والاندماج مع مجّة التبغ والتحلّق حول مقاعد الطلبة ، وممارسة دور الأستذة) . . . الخ ، هذا التيار ظل قائماً يرصد الأخطاء والهنّات والسَقَطات التي أصبحت ساحة اهتمامه السلبي ليس إلا . .

كأن الحياة كانت تسير بلا أخطاء ، ولم يكن يتم الانتباه إلى أن مَنْ لا يعمل ، هو وحده الذي لا يخطئ ، وأن العيب ليس في الخطأ أو الوقوع فيه ، بل الخطأ في قبول

استمراره رغم معرفته ، وأن الحياة العربية السياسية ، مليئة بأخطار التجارب المرّة ، كما هي مليئة بالدسائس والمكائد والمؤامرات ، وأن الفكر في ذاته* ، ليس سبباً للتعالي أو العجرفة ، وأن الاندماج كان لحظة تاريخية عظيمة ، وأن الإنفصال كان لحظة نكوص أعظم . .

إن الشيء الهام الذي ينبغي تسجيله هنا ، يكمن في فارق التكوين بين حزبين وقائدين بآن واحد ، فالبعث الذي بدا مكتفياً بأفكاره ينشرها فوق مقاعد الطلاب في الثانويات والجامعة في مرحلة لاحقة ، كان بحاجة ماسة إلى المرتكزات الشعبية (وحزب الشباب) الأول كان قد بدأ فعلياً بامتلاك هذه المرتكزات ، والواقع أن مرحلة سلخ اسكندرون كانت من أكثر المراحل خصباً في حياة الحوراني السياسية ، إذ قَطَعَ علاقته بالسوري القومي علناً دون مواربة * ،فقد جرح التآمر على اللواء نفسيته إلى درجة الشرخ ، وقد وجد في (الاقطاع المتخلّف العثملي) في المنطقة الوسطى ، وسياسات العائلات الكبيرة الصداميّة ، خصوصاً : العظم ، البرازي ، البارودي والحراكي . . . ما ألهبَ مخيلته في الرد بطريقة مماثلة ، طالما أن الدولة وقوانينها تغيب مع وجود هؤلاء في المنطقة ، وطالما أن العائلات الكبيرة كانت مع مصلحة الوطن فقط من خلال مصالحها ، وإنها تشارك (الكتلة الوطنية) في حركة المطالبة بالاستقلال ، ضمن مواقعها ومستقبلها الاجتماعي . .

---

* في الأساس ، كان الاستاذ عفلق متواضعاً إلى درجة الخجل ، وكان يعلم أن ليس ثمة نظرية في البعث ، كانت أفكاره أقرب ما تكون إلى النزوع منها إلى التنظير ، فالعروبة في فكر البعث ، طريقة حياة حديثة ، أكثر منها فكر ، والقومية هي الرمز الآن ، تماماً كما كان الاسلام رمزاً في الماضي ، (إنها قوة تقارب السحر ، وجاذبية لا تناسب بيئتها المادية الواقعية ، وهذه المعاني تنبثق من ماض يضمّ إلى جانب مجده العسكري ، عراقة اللغة ومكانة الصدق في تأكيد وجود الله – جان بيرك ، العرب، طبقة باريس ١٩٥٩) .

* لا يميل أحد في الواقع إلى إعطاء مرحلة الحوراني الشبابية في السوري القومي أية مبالغة إضافية، فالشاب كان يمور بحيوية البحث عن الطريق ، ودليلنا على ذلك يكمن في النتيجة لا الاستنتاج ، إذ لم تترك هذه المرحلة أي أثر على فكره أو عمله السياسيين لاحقاً ، إلا أن حادثة المالكي ، أعادت له عنفه الخاص الذي كان يزاوله في سياسة حياته المبكرة في حماة . . .

في هذا الجو السياسي المضطرب نشأ أكرم الحوراني (١٩٤٠ - ١٩٤٣) ، فيما كان القائدان البعثيان يقدمان استقالتيهما من عالم التعليم ، احتجاجاً على سياسة القمع الفرنسية ضد التلاميذ المتظاهرين ، وكان الفارق بيّناً بين قمع الانتداب وقمعي (الانتداب والاقطاع) في عالم بعيد عن دمشق ونعومتها التاريخية ، إذ لم يكن في سوريا كلها أية منطقة أخرى يشتد فيها التناقض الصارخ بين الريف والمدينة ، بين بؤس الفلاحين وبذخ الإقطاعيين ، بين انحطاط الإنسان إلى درجة الحيوانية واستهتار (الأفندية) بحياته وعائلته ، بناته وأبنائه ، مثل المنطقة الوسطى . .

كان الاقطاع في حماة (رغم أن عائلة الحوراني كانت اقطاعية - دينية - رفاعية هي الأخرى) ، أقرب ما يكون إلى اقطاع القرون الوسطى في ليالي أوروبا المظلمة ، وليس من المبالغة القول ، أن قرى بحالها كانت مملوكة لعائلة واحدة ، وأن عشرة آلاف هكتار هي ملكية طبيعية لأسر متحدرة من أصل تركي أو كردي ، وأن الباب العالي منح هذه المكافآت المجزية لفرسان القمع أواخر سنوات الامبراطورية ، حيث سقطت بدورها جراء هذه السياسة المشؤومة التي جلبت سوء الطالع لسلاطين بني عثمان الأواخر* . . . وهكذا إلى أن يشق الرجل طريقه القومي بالسيف ، حيث رأى لمعانه في ثورة رشيد عالي الكيلاني (١٩٤١) ، فما أن نبا بعتو الانكليز وطغيانهم ، حتى راح يمتشقه على بطاح فلسطين ، بعد أن جند من رفاقه قرابة ثلاثمئة مجاهد انضموا جميعاً إلى جيش الانقاذ بقيادة فوزي القاوقجي .

لقد جرحت فلسطين فؤاد الرجل ، حتى عاد عنيفاً أكثر مما بدا ، ولعل ذلك ما يلقي الضوء على صراعاته النفسية والسياسية اللاحقة . . وبصورة إجمالية ، لم يكن الخطّ السياسي والأيدولوجي للحزب العربي الاشتراكي مختلفاً عن الخط العام لحزب البعث العربي ، فكلاهما كان يسعى إلى عدالة اجتماعية في الداخل ، ووحدة شاملة على الصعيد العربي ، وتحرير المحتل من الأراضي المغتصبة ، وسياسة حياد على الصعيد الدولي . . وبدون فلسفات كبيرة ، أو جزئيات صغيرة ، فإن هذه الخطوط كانت كافية

---

* غالباً ما سنصطدم مع ليبرالي المرحلة الراهنة ، بأن في القول فحشاً أو مبالغة ذهنية ، لكن الحقيقة كانت مريرة ، والحقائق التاريخية لا يلغيها بؤس الحاضر ، وما انطوى عليه من كبائر لن يصل إليها قلم شكسبير أو همنغواي ، هيغل أو ماركس ، فحقائق الحاضر الأسطورية من ناحية الغنى والبطر . تبز الفاطميين والمماليك ، وأواخر قرون الانحطاط العربية ، إنهم لا يمتلكون منطقة ولا حتى مناطق ، الوطن كله رهن أصابعهم ، فقد تحوّل إلى وطن المزرعة ، من الخليج إلى المحيط ، ومن دون ضرورة للتخصيص . .

لتقارب الحزبين إلى درجة جبهوية ، فإنْ لم يكن فإلى درجة اندماجية ، وهذا ما حصل . .

ومما لاشك فيه ، أنه في بعض المناسبات ، ندم كل من عفلق والحوراني على هذا الاندماج ، لكن يبقى من المشكوك فيه ، أمام الصراعات العالمية اللاحقة وتزاحم الأحداث واكتشاف النفط وخلق اسرائيل ، وما جرى بعدها من هجمات داهمة ، أن يستطيع أحدهما منفرداً من تغيير مجرى التاريخ السوري بالشكل الذي قذفت به الحوادث فيما بعد* .

لهذا الكتاب لقاءات أخرى مع البعث العربي الاشتراكي ، حينما تستوجب الأحداث السياسية اللاحقة عقد مثل هذه اللقاءات الضرورية ، من حيث هي مقطع من السياق ، أو لعلها في قطرين عربيين ، سوريا والعراق هي السياق كله ، وعلى هذا ، فإن لقاء كتابنا هذا مع البعث ، سيمتد إلى الفصول اللاحقة في الوحدة والانفصال ، ثم إلى اليمن ودراما الخامس من حزيران ، كذلك من خلال (البذرة الشمعونية في أحداث لبنان الأولى) ثم لبنان الدامي في حربه الأهلية التي طالت عقداً ونصف العقد . . ومن الميثاق الاتحادي بين سوريا والعراق . . وحتى يومنا هذا .

سادسا / يا عمال العالم اتحدوا - الاحزاب الامية .

لم يكن لدينا عمال بالمعنى الأوروبي ، حين أطلق ماركس شعاره العالمي هذا ، فمن أين نأتي بهم ؟ . .

لقد تحدث الحزب الشيوعي في بيانه الأول ، عن الحالة غير المتطورة لصراع الطبقات ، أي الحالة غير المتطورة للتاريخ ، وأفضى ذلك إلى نشوء تكوينات اقتصادية – اجتماعية – سياسية ، توهمت أنها فوق التاريخ ، وفي افرازات لاحقة ، فإن اشتراكيتها كانت فوق الطبقات .

---

* كتبت صحيفة التايمز اللندنية في ٨ تموز ١٩٥٩ تقييماً حول الدمج قالت فيه :

(لم يكن بالنسبة للمعجبين به" أي عفلق" ، بمثابة إنسان ذي سلطان فحسب . بل إنهم يعتبرونه قديساً وقد وصف بأنه غاندي القومية العربية رجل شاحب هزيل ذو حياءيشعر بالألم والصدق العميق وله عادات ذات طابع رصين ، أما الحوراني فهو قائد بالفطرة ، وهو مندفع وشجاع ومتحدث بليغ وداهية ، إنه يكرس نفسه لسياسة عدائية تدفعه إليها طاقة سليمة النية عموماً ، وهو يعيش كاشتراكي لا يمتلك سوى القليل من الماديات ، أما الثقل الذي أمد به الاندماج ، فكان تلك الموهبة في العمل السياسي وتلامذة الجيش والقاعدة الشعبية التي كانت بمثابة معقل للاشتراكيين . فأصبحت معقلاً للبعث العربي الموحد .

ويقول البيان الشيوعي : (خلقت الحالة غير المتطورة من صراع الطبقات نوعاً من الاشتراكيين يعتبرون أنفسهم فوق الطبقات ، إنهم يريدون تحسين كل وضع فردي على حدة ، حتى ميسور الحال ، فالمجتمع وحدة لا تتجزأ * ،لذلك تراهم يتحدثون إلى المجتمع ككل ، دون أي تمييز بين طبقاته ، فكيف يستطيع الناس ، بعد أن يفهموا نظامهم الاجتماعي ، ألا يروا فيه أفضل نظام ممكن لأفضل حالة اجتماعي ممكنة ؟! . .) . وكاحاطة عامة ، لا بد من إثارة نقطة تكون بمثابة الاستهلال ، وهذه النقطة تجول في مملكة السؤال لا الجواب :

لماذا يصبح المرء ماركسياً – شيوعياً ؟ . . ما هو الوضع الذي عليه أن يواجهه بمحمول الثقافة الماركسية ، وهو ما يتضمن فهم هذه الثقافة بالطبع . . هل بمكنة المثقف في العالم الثالث ، أن ينفذ إلى دقائق الماركسية ، فيصير واعياً بخصوصيته وثقافته بماضيه وتاريخه ، تماماً كمثقف العالم الغربي ، الذي فهمها (أي الماركسية) بماضوية مجتمعاته التاريخية، ما قبل الرأسمالية وما بعدها ؟ .

ما الفرق بين أن يكون المثقف كأساس ، من العالم الأول ، أو من العالم الثالث ؟ .

فإذا كانت الثقافة بنية فوقية ، انعكاس للوضع الاجتماعي المادي ، في مرحلة من المراحل ، وهي مقولة ماركسية أيضاً ، ألا ينشب فارق الثقافة ، فارق الفهم وحتى فارق العقل ، بين بنية منعكسة عن الوضع المادي للأول ، وبنية منعكسة عن الوضع المادي للثالث ؟ .

في الحالة الأوروبية الغربية ، فإن الجوانب الاجتماعية المعاشة ، هي التي أتاحت في الغالب الانتقال من (ما قبل الماركسية) إلى (ما بعدها) ، والتشديد هنا ، قائم على أساس من الضرورات الموضوعية المتضمنة سلفاً حالة المجتمع ، البشر ، وحالة اللحظة التي وصل إليها العلم .

أما في العالم الثالث ، فإن الباعث الأول على العكس ، من حيث لن يكون مرماه هو الرفاهية الفردية ، أو العدالة الاجتماعية ، أو الانتاجية الاقتصادية ، ولو أنها جميعاً تلعب دوراً مساعداً . .

---

* لقاؤنا هنا مع الشيوعيين لا مع الشيوعية .. هل كانت العلّة في الماركسية أم في الماركسيين ؟ . وعلى سذاجة السؤال ، أرى أن الجواب مازال مفتوحاً للجميع ، وسواءً كان العطب في الفكر أم في الأداء ، فإن الحقائق المريرة تشير إلى أن هزيمة الاتحاد السوفييتي ، كانت قد صرعت العصور والأجيال . .

فالباعثُ هنا ، ليس أخلاقياً صرفاً ، بالمعنى الأخلاقي لماركسي من منشأ بورجوازي مثقف ، كما أنه ليس إقتصادياً صرفاً ، من حيث هو ، ليس ابن المجتمع ذاته ، الذي وصل إليه ماركس فعمل على تشريحه . .

ماذا هو ؟ أو مَنْ هو المثقف الماركسي ابن عالمه الثالث إذن ؟

إنه قبل كل شيء ، لا بارادته ووعيه ، بل بكونه في سياق الصيرورة التاريخي ، قومي وتاريخي وثقافي . فلو أن الماركسية كانت لا تجد نفسها منطقياً أو بالضرورة في هذه الرؤية الماضية للتاريخ ، لكان من المستحيل تطويعها لمحايثة نضال مرحلي ، هو قبل ماركس وسابق لأيامه ، تماماً مثل المدارس النفسية غير المفهومة في الغرب الآن ، رغم أن مؤثرات الدعاية لها ، تمر بكل بساطة من خارج مضامينها . .

وبكلمات صريحة ، فإن المفهوم المركزي الذي يلعب دوراً كبيراً في اللقاء بين مفكري العالم الثالث وماركس ، هو مفهوم التأخر التاريخي ، وليس تاريخ أعلى المراحل ، حيث لا يتطلب الأول جهودَ الاعداد والانتقاد ، (تبديله لا تفسيره) ، مثلما كان يتطلب تاريخ الرأسمالية الحديث . .

ويتوقف ماركس عند التكوين الاقتصادي – الاجتماعي فيعثر فيه على التناقض بين مستويين من الحقيقة الواقعة ، ظاهرة تأخر أحدهما بالنسبة إلى الآخر ، **فالتاريخ دائماً هكذا كما يقول ، تاريخ التأخر وتاريخ تعويض التأخر ، (التاريخ واحد ولكنه على أعماق مختلفة) ، وستُطلق عبارة التاريخانية ، للدلالة على ما هو محدد تاريخياً ، ويأتي ذلك عند الألمان ، في معارضة مفهوم التاريخ كما دافعت عنه فلسفة الأنوار ، أما التأخر التاريخي ماركسياً ، فيجب أن يُدرك ، أو يُتصور كأمر ناشيء حديث ، إن مفهوم التأخر التاريخي ، يقف عند نقطة الوسط التاريخانية ، فهو ليس بعيداً بُعد التاريخ عن الحاضر ، ولا هو قريب العهد من حاضر التاريخ المعاش ، إذن فهو وسيط ثانوي نسبي وضامر ، لكنه مع ذلك في ميدان التاريخ نفسه ، وقد برزت في الحال نموذجية التجربة الألمانية ، فواقعة التأخر ونسبيته ووعي المفكرين القاطع ، ستوجد جميعها مجتمعة في ظل أفضل الشروط ، فالتاريخانية الألمانية ، عبرت على وجه الدقة ، عن ردة فعل الأمة ، التي تريد انقاذ كل شيء ، لأن لكل شيء معنى ، وقد افترض آخرون ، أن هذا المعنى يكمن في سر أسرار العناية الالهية الخفية ، الخاصة بالألمان ، وما فعله ماركس ، هو انقاذ الايدولوجية من هذا التخصص (هيغل وفيخته) ، فبالنسبة للفلاسفة الألمان لم يكن في الوسع أن**

يكتشف الديالكتيك إلا ألماني ، والتاريخ الشامل لا يمكن أن يكون إلا تاريخ الروح الجرمانية ، وداخل هذه المسألة بالضبط ، راح ماركس يحاول الشفاء من هذه السذاجات ، فقد تم توضيح ما هو جانب رئيسي ، وهو أن المستوى الأعلى لقياس التأخر (التخلف) هو نظام الانتاج ومهما كان مصدره أو تكونه ، فإنه لا يتصل بأمة أو بعرق ، ومشكلة الانقاذ (الانتقال ، التجاوز من التخلف إلى التطور) ، لا تتعلق بمجرد استحواز الوعي ، بل بسلطة النظام العملية ، وعامل الإنقاذ لا يأتي من خارج نظام الانتاج ، وإنما نتيجة هذا النظام نفسه ، ولا ريب أن الوعي ضروري جداً ، لكنه لم يعد كافياً ، وعليه أبقيت إشكالية العالم الثالث من حيث هي معطى أول ، بالنسبة لكل مفكر يعيش فيه ، في حدود هذا العامل من التطور .

وحيث أن هذا العامل مأخوذ من الجملة الجزئية في مذهب ماركس ، باعتباره حادثاً متدخلاً في الفكر وليس عموده المعكوس في الهيغلية ، فإن ذلك أدى بحكم الضرورة ، إلى أن يكون ماركس محللاً للمجتمع الرأسمالي ، ولم تعد المشكلات القومية ، أيا كان مستواها ، اقتصادياً ثقافياً وسياسياً ، تشكل بالنسبة له مشكلات مستقلة ، أو بالأحرى مركزية ، وبدلاً من أن يرى في الثقافات أو الأمم أو العروق الخاضعة للسيطرة ، محركات للتاريخ ، فإنه عمل على تنحيتها إلى مرتبة (موضوعات تاريخ) ، وكانت بؤرته المحرقية توجد دائماً ، حيث توجد الرأسمالية الأكثر تقدماً ، فالرجوع إلى الـ(ما قبل) كان يحاول الافلات منه بصفته عودة إلى الوراء ، بل هو نكوص العلم إلى مرتبة الأيدولوجيا ! . . ويتم هذا التعرض لجميع أشكال الماركسية غير الأوروبية ، بما في ذلك ، الانتصار الريفي المؤسف على يد لينين في الروسيا (يأسف ج . بلاميناتز الماركسي حتى النخاع في مؤلفه : ماركسية جرمانية وشيوعية روسية ص ٣١٧ وما تلاها ، على عدم التناسق مع تفسير المادية – التاريخانية ، من حيث أن الرأسمالية هي التي ستنتحر ، وليس الريفية ، فمادية ماركس تناقض بصفة أساسية العمل الثوري في العالم الثالث ، لأن هذا العالم مازال عالم ما قبل التاريخ ، وليس عالم عصر التاريخ) ، وهنا على الأرجح ، كما يضيف المصدر السابق ، نقطة ضعف الأحزاب الشيوعية الارثوذكسية الستالينية في هذا الانقطاع ، الذي لم تجد منهاجاً لتجاوزه ، أو لإعادة بناء ماركس مثالي باسترجاع الماضي على ضوء ماركس الأخير محلل رأس المال .

كان على الشيوعيين في العالم الثالث ، الحفاظ على الإثنين في حقيقة واقعهما التاريخي ، كأنهما ماركس واحد ، غير أن ماركسيّ العالم الثالث ، لم يجد عملياً ، إلا

ماركس رأس المال ، وهنا كان الاضطرار إلى العودة التشبهيّة بالتاريخانية الألمانية .

في أساس ماركس ، توجد المصادرة على المطلوب ، وهي أن تجديد التاريخ ، يكون هناك ، حيث كان مؤلف رأس المال غير المستكمل ، يبحث عنه ، وكل ما جرى في زمان مكاننا هذا ، لم يكن أكثر من تخلّف مُستَدرك ، أي زمن ضائع لم ينتشل المنطقة من عُثارها ، ذلك أن التاريخ وفقاً لماركس كان ينبغي حيث يكون ، ابتداءً معكوساً من النهايات إلى البدايات ، وتاريخ (ماركس العالم الثالث) كان ينبغي أن يحل حيث وصل ، في منتصف الطريق لإشكالية العالم الآخر ، وبهذا المعنى ، كان من المستحيل على شيوعيّ العالم الثالث أن يتصالح مع ماركس تماماً وفقاً لفهمه ، **فقد رآه مرة بمظهر الليبرالي في ميدان التطور الاجتماعي ، أو بمظهر (العالم) في الميدان النظري ، وأتعس ما رآه ، كما رأت أوروبا في نابليون ، شاكي السلاح قبلَ أوانه ، مدجج بدكتاتورية البروليتاريا ، من حيث هي الحساب الختامي للإنسانية** (الكومونة ، مجابهات العمال الألمان ، الثورة البلشفية . .) .

ترى هل يمكن القول إذن ، أن لكل امرئ ماركسه الذي يُصلي عليه ؟ ! . . ليس هذا تماماً ، فالجوهري ظل يكمن فيما لا يمكن الخلاف عليه ، إنه تمثّل في تلك الحركة الواصلة من الايدولوجي إلى الاجتماعي ، ومن الاجتماعي إلى ما هو علمي ، وكان على الشيوعيين المحليين أن يتعبوا بدلاً من تلقي الجاهز من النهايات ، لخلق حلقة التكامل مع السلسلة التحليلية النقدية ، دون انفصام عن الوضع الخاص في النهاية .

ومن الوقفة الاستهلالية هذه ، ننتقل إلى السؤال من جديد : -

متى تأسس الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان ، ومن هم مؤسسوه ؟

وفيما يبدو أن هناك اختلافاً على التاريخ ، لم تعمل قيادة الحزب على اجلائه ، فبينما يعتقد الناس - وأنا من الجملة - أن الحزب موجود في بلادنا من العام ١٩٣٠ ، لكن ثمة مَنْ يدحض هذا التأريخ ، فجريدة (صوت الشعب) الصادرة في ١٥ أيار من العام ١٩٣٧ تقول في المانشيت العريض : (إن صوت الشعب هي صوتك ، صوتك الرنان الداوي منذ ١٧ عاماً) وهذا معناه أن الحزب كان مؤسساً منذ العام ١٩٢٠ ، غير أن شيئاً من الحجج أو البراهين لا تدعم هذا الإفتراض ، إلا في اعتبار حزب (سبارتكوس الأرمني التقدمي - آرتين مادويان) هو أساس الحزب الشيوعي في المنطقة . .

نيقولا شاوي ، يضع تأريخاً آخر للبدايات ، هو العام ١٩٢٤ ، أما خالد بكداش

فيقول في الخطاب الذي ألقاه في مكتب الحزب (٤ نيسان ١٩٣٨) ما يلي :

(ليعذرنا أخواننا الكتلويون إذا قلنا لهم أن حزبنا وجد قبل الكتلة الوطنية كهيئة سياسية ، فقد نشأت الحركة الشيوعية في بلادنا منذ العام ١٩٢٤ - صوت الشعب ٩ نيسان ١٩٣٨) .

لقد انعقد المؤتمر الوطني الأول للحزب في بيروت بتاريخ ١٠ كانون الثاني من العام ١٩٢٥ وصدرت وثائقه باللغات العربية والفرنسية والأرمنية ، حيث انضمت عصبة سبارتكوس إلى الحزب نهائياً بعد إعادة تنظيم صفوفه ، وانتخب المؤتمر سبعة أعضاء هم قوام اللجنة المركزية آنذاك* .

في العام ١٩٢٦ سيعتقل الفرنسيون أعضاء اللجنة المركزية وسيتم ابعاد جاكوب تيبر سكرتير اللجنة إلى موطن هويته الفلسطينية* . . وستشهد سجون أرواد والقدموس والرقة ، سنتين حافلتين من سنوات نضال النخبة الشيوعية المتمثلة في العديد القليل من الموظفين والعمال . .

ما أن غادر الشيوعيون الأوائل أماكن إقامتهم في المعتقلات (عام ١٩٢٨) ، حتى تنادوا إلى إطلاق نشاط جديد يكون طابعه جماهيري منظماتي تعمل على إشاعته جريدة الفجر الأحمر ، وبانتقال المركز إلى دمشق ، ستشهد حلقة القيادة طلائع المنضمين الجدد ، أمثال أحمد ظاظا وفوزي الزعيم وخالد بكداش ورشاد عيسى ، وكان ذلك في مطلع العام ١٩٣٠ . وقد تميزت أعوام الحزب بين أواخر ١٩٢٩ - ١٩٣٦ بالصراعات حول القيادة ، وكان قبل ذلك قد نشب الخلاف بين جاكوب تيبر والشيوعيين اللبنانيين حول انضواء الحزب في لبنان ، تحت جناح الحزب الأم في فلسطين ، غير أن اللبنانيين رفضوا العرض وآثروا اطلاق تسمية جديدة (حزب الشعب اللبناني) ثم طلبوا ترخيصاً حكومياً ، لاعلان هذا الحزب باسمه الجديد .

سينتصر خط بكداش في الصراع الأخير ، وسيفلح في العام ١٩٣٢ في إبعاد فؤاد شمالي (المصري الأصل) وكانت أول معركة بين الشبان (كان عمر بكداش عام ١٩٣٢ عشرون عاماً فقط) والكهول ، ينتصر فيها الخط الشبابي المجدد حتى على صغر سنّه

---

* منهم : ماديوان ، بويادجيان ، يوسف يزبك ، فؤاد شمالي وجاكوب تيبر من فلسطين .

* في الصراع على سوريا يقول باتريك سيل أن اسمه يوسف برجر ، فيما يؤكد الزرقا ومرقص (اسم جاكوب تيبر) ، هل هما شخص واحد بإسمين مستعارين مختلفين ؟ أم هما اثنان فعلاً ؟ لا أعلم . .

وضآلة خبراته . لقد اشتهر بكداش (قوطرش) بموهبته السياسية المكرسة لخدمة الحزب ، وبمهارته الفائقة في تجنب الاعتقال من حيث أن حارة الأكراد في دمشق (حي ركن الدين لاحقاً) كانت إحدى أهم (المعاصي) التي لا يستطيع جند الدولة الوصول إليها . وحتى يوم الوحدة بين سوريا ومصر ، فقد ظلت القيادة الجديدة (خالد بكداش ، آرتين مادويان ، رفيق رضا ، نيقولا شاوي ، وفرج الله الحلو) ، توجه فعّالية الحزب ونشاطه رغم حظر الأحزاب في دولة الوحدة .

إن بكداش - يقول باتريك سيل - طويل القامة عريض المنكبين غزير الشعر وشعبيته ناجمة عن سحر شخصي أو لدوره كقائد شيوعي ذي نظرة ودهاء بالغين ، لكن شعبيته عكست ملامح خاصة بالشرق الأوسط (فكرديته أتاحت له أتباعاً على أسس عرقية أو دينية ، كما أنه تمتع باحترام باعتباره فرداً بارزاً في وحدة اجتماعية قوية كثيرة الأفراد شديدة الترابط ، فهو ابن احدى الأسر الكبرى في دمشق حيث يفضل الرجال تأييد كبير الأسرة أكثر مما يفعلون نحو زعيم شاب منفرد ، وتكشف أدبيات بكداش السياسية عن عقلية مُجرّبة أقرب إلى العناد منها إلى الأصالة)* .

سيقول جاك راشيه الفرنسي في كتابه : البحث عن اشتراكية في سوريا ص ١٧١ في مزيد من الوصف لبكداش (إنه يقف مع ذلك مع الرعيل الأول من الساسة السوريين البارزين ، وذلك لمهارته في الجدل ولقدرته على الحاق الهزيمة بخصومه وللترابط في آرائه ، فإذا قورن به أكرم الحوراني زعيم الاشتراكية السورية ، لبدا كالهاوي أمام المحترف) .

سيقود بكداش الوفد الشيوعي السوري إلى المؤتمر السابع للأممية في العام ١٩٣٥ ، وسيمضي في موسكو فترة تمرين على اللغة ، كما سيمضي فترة تدريب أخرى في ملاكات البلشفية الشيوعية هناك .

وسيزعم الرفيق رأفت (هو رفيق رضا) أحد القادة البارزين في الحزب ، أن الأعوام من ١٩٣١ إلى نهاية ١٩٣٢ حيث شهدت سوريا لهيباً وطنياً دامياً بهدف النضال من أجل صيانة الدستور من عبث الفرنسيين ، وحماية الجمعية التأسيسية واضعة الدستور باسم الشعب (أنه في هذه الأعوام ، كانت قيادة الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان تنادي في نشراتها بما كانت تخطّه أيدي البسطاء من الأعضاء على الجدران ، بما فيها جدران البرلمان

---

* باتريك سيل عن حنا بطاطو - الصراع على سوريا ص ٢١٤ .

نفسه ، ليسقط الدستور . . . ولتسقط الجمعية التأسيسية الخائنة) ، (**وكانت فضيحة وطنية خطيرة ، اهتز لها قلب الشعب السوري ، مما حداه إلى إرسال اللعنات على رؤوس قائليها والداعين إليها** - رفيق رضا ، جريدة الجماهير ، العدد ٦٧ تاريخ ١٣ تموز ١٩٥٩) .

ثم يدين في موقف لاحق ، سياسة التقارب مع الشيوعيين اليهود ، واضعاً سياسة العداء مع الأحزاب الوطنية في سوريا ، على كاهل هذا التقارب .

ستبدو مواقف الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان أكثر صراحة في العام ١٩٣٦ إبان انتصار الجبهة الشعبية (شيوعيين واشتراكيين) في فرنسا ، فقد غدا الحزب علنياً لأول مرة ، فأصدر جريدته صوت الشعب (التي يقول الياس مرقص عنها بأنها تقليد لاسم صحيفة عبرية هي كول ها عام - القول العام - يوري أفنيري . .) ، تماماً كما قلّد فؤاد شمالي صحيفة الأومانيتيه الفرنسية في اسم صحيفته (الانسانية) ، فضلاً عن الإسم اللاحق لجريدة الحزب (النور) كانت مأخوذة عن الإسم ذاته لصحيفة الحزب الشيوعي الاسرائيلي في العام ١٩٣٤ .

لا نريد الاسترسال طويلاً بايراد الشواهد عن (رفاق الأمس) (أعداء اليوم) إلى الدرجة الشخصية أو الفردية وحتى الثأرية ، وعلينا أن ندع بكداش يتكلم بنفسه* :

كانت سنوات بداية الثلاثينيات سنوات كفاح ضد فرنسا ، وفي مرحلة النضج اللاحقة ، تعلمت أن أهتف ضد الاستعمار الفرنسي ، (لقد تعلمت من ماركس وانجلز ولينين أن كل أمة فيها أمتان واحدة ظالمة وواحدة مظلومة) ، فقد دخلنا السجن لاصدارنا جريدة ممنوعة تحمل اسم (المطرقة والمنجل) ، وكان رشاد عيسى وهيكازيون بوادجيان وسيساك تيلاليان وأنا ، وكان خامسنا مخبراً للأمن الفرنسي . . وعند المرجه في الطريق إلى النظارة هتفنا :

- يسقط الاستعمار . . عاش الاستقلال . . عاش الحزب الشيوعي السوري .

هذا وسيطول الحديث عن فترة السجن (هي بين ٣ إلى ٦ أشهر وهي ألاعيب أطفال بالنسبة إلى سجوننا العربية بعد مراحل الاستقلال وثورات التحرير والتقدم) ثم ينعطف

---

* خالد بكداش يتحدث . اعداد وحوار عماد نداف - من عسال الورد التي هي أكمة قروية من أكمات سلسلة جبال لبنان الشرقية إلى الشمال الغربي قليلاً من دمشق ، حيث يقول بكداش إنها شهدت أول اجتماع له مع ناصر حدّة القادم من يبرود ، ولتفقا على التهامس بخصوص مسألة محددة - ١٩٢٩ - دار الطليعة ص ٢٠ .

بكداش في حديثه ، إلى نوع آخر من النضال ، تمثّل في حركة الاضطرابات (اضراب عمال الترامواي ، والكهرباء والنسيج في دمشق وحمص) ، كذلك اضرابات عمال المطابع في لبنان ، وسياسة المنشورات السرية التي كانت تحفر خطاً بين الجماهير . . .

يتحدث بكداش أيضاً عن منصب الأمين العام الذي لازمه بدءاً من العام ١٩٣٧ (كان عمره خمسة وعشرون عاماً) ، حيث عاد من موسكو التي مكث فيها قرابة عامين ونصف العام ، (فقد انعقد اجتماع لممثلي الكادر ، وصار حكي ، وتناقشنا . . وكان ممثلو جميع المنظمات موجودين في هذا الاجتماع الذي انتخبت فيه - بكداش يتحدث ص ٢٤) .

بين ما قبل الأمانة العامة وما بعدها ، فقد جرت مياه غزيرة في نهر يزيد (فرع من بردى يخترق دمشق من جهة المهاجرين الأدنى إلى الصالحية مروراً بركن الدين . . .) ، حيث يتحدث بكداش عن ذكرياته في مكتب عنبر ، ولقائه في العمل سوية مع أنطون سعادة كمترجمين في جريدة الأيام التي كان يصدرها عارف النكدي من جبل العرب . . . وما يلفت النظر في حديث بكداش ، ترداده لكلمة (الجدع بالمصرية أو الكدع بالسورية) ، ومرحلة القباضايات في ركن الدين والمهاجرين وسوق ساروجة ، وهو لا يكلّ عن إقران (الكدعنة بالطيبة) ، كما أنه يتحدث عن فخري البارودي أحد زعماء الكتلة الوطنية (التي اُتهمَتْ في حينها بالخيانة) يتحدث عنه بلهجة إيجابية مليئة بآيات الوطنية الصادقة .

ما لا يتحدث عنه بكداش بفصاحته المعهودة (أحد الخطباء النادرين في سوريا) ، هي تلك الفترة المتعلقة بقيام الجبهة الشعبية بالدخول إلى حكم فرنسا في العام ١٩٣٦ ، حيث يكتفي بالقول (عندما قامت الجبهة الشعبية في فرنسا حاولنا الاستفادة من هذه الجبهة التي أصبحت في الحكم وذلك من أجل الضغط على فرنسا للانسحاب من سوريا) . .

ثم ينتقل (بكداش يتحدث ص ٣٣) إلى ملامسة مشكلة الدستور ملامسة رقيقة حين يقول (كان لنا معارك كبيرة ، وقد حدثت معارك سياسية كبيرة حول الموقف من فرنسا ، أتذكّرْ منها الآن المعركة الكبيرة حول المادة ١١٦ من الدستور* ، وقد كانت فرنسا قد اضطرت إلى الاعتراف باستقلال سوريا ، وكان يجب وضع دستور للبلاد . إلا أن فرنسا أحبّت "كلمة الحب هذه في غير موضعها تماماً" ، أن يكون في الدستور مادة تسمح لها ، أي للدولة المنتدبة ، بالغاء كل قانون أو مشروع لا توافق عليه) . .

---

* من يحفظ رقم المادة بعد مضي خمسة وخمسين عاماً ، حيث موعد الحوار كان في العام ١٩٩٢ ، فإنه يحفظ تفاصيل أخرى ، فلماذا يسكت بكداش عن الاتهام الموجه ، بأن الشيوعيين كانوا ضد الدستور (أو بعضهم) وضد الجمعية التأسيسية حين تزامن ذلك مع حكم الجبهة الشعبية الفرنسية ؟! . .

لماذا (تحب) فرنسا في عهد جبهتها الشعبية الاشترا شيوعية ، (وتكره) بلؤم في عهود غيرها . . أهو ذاك الوصال مع الشيوعيين الفرنسيين في عهد موريس توريز مثلاً ؟ هل أدى تعاطف الشيوعيين الفرنسيين قبل الظفر بالجبهة ، مع قضية الاستقلال السوري ، إلى إحكام الموقف الرسمي بعد الظفر بالحكم ، بحيث يتماهى الموقفان (ما قبل وما بعد)، عملياً في السياسة الرسمية الخارجية إزاء عدالة المطلب السوري في الاستقلال ؟ . .

لقد أيدت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوري ، المعاهدة السورية – الفرنسية عام ١٩٣٦ ، ودافعت بحرارة لا مثيل لها عن قرب تصديق المعاهدة من الجمعية الوطنية الفرنسية ، (الشواهد في تأكيدات خالد بكداش المتكررة حيث يوجه كلامه للبرجوازية السورية المتشككة دائماً : يريد الاستاذ – المقصود سامي الشمعة الذي يكتب في القبس – أن يعرف موقف فرنسا الصحيح من المعاهدة . . . نحن لا ندري ما الذي يبعث في نفس الاستاذ كل هذا التشاؤم والارتباك ، فالموقف واضح جداً ، وأكثرية الشعب الفرنسي الممثلة في الجبهة الشعبية ومن أحزاب اليسار الديمقراطية وتوابعها تريد التصديق على هذه المعاهدة . . يجب على الشعب السوري أن يظهر صداقته لأصدقائنا الديمقراطيين في فرنسا . . لتشجيعهم على تأييدنا في مقاومة طغاة الشركات وصقور المال – صوت الشعب ٣٠ تموز ١٩٣٧) .

مع حلول ربيع العام ١٩٣٨ سيعلن بكداش في الجريدة نفسها – صوت الشعب – ٢٢ نيسان ١٩٣٨ – (أن المعاهدة ستصدق رغم أنف الفاشست وطغاة المال الفرنسيين ، لأن الجبهة الشعبية هي فرنسا نفسها .) .

لم تحققْ حكومة الجبهة الشعبية برئاسة ليون بلوم ، الذي سيقول عنه بكداش في ٢٨ تشرين الأول من العام ١٩٤٨ – صوت الشعب – بأنه استعماري يتستر برداء كاذب من الاشتراكية والديمقراطية ، لم تحقق أي برنامج يذكر ، (سوى الاعتدال الاستعماري) كسياسة خارجية ازاء المستعمرات ، وبعض الاصلاحات الداخلية المطلبية في فرنسا ، وحين انعقدت جلسة الجمعية الوطنية (البرلمان) الفرنسية للنظر في شأن تصديق المعاهدة مع سوريا ، كان الرهان يغرق في مياه السين .

كانت سياسة الشيوعي السوري في مرحلة الشعبية الفرنسية تلوذ بالصداقة السورية – الفرنسية على أساس من التأييد المطلق لمعاهدة ١٩٣٦ ، كما ظل الخط مواظباً على تأييد الكتلة الوطنية ، واعتبرت الفترة كعهدٍ وطني يتم الدفاع عنه في كل مناسبة . أما وحدة

الصفوف في الأمة السورية ! . . فقد أخذت المقولة نصيبها من سوء التأويل أيضاً . ففي مقالة للسيد بكداش في صوت الشعب بتاريخ ١٩ حزيران من العام ١٩٣٧ كتب ما يلي : (تشغل الآن مسألة وحدة الصفوف محلاً أولياً في السياسة السورية ، ويعتقد بعض اخواننا الوطنيين أن المسألة ليست موضوع بحث من الأساس ، فالصفوف كما يقولون ملمومة والكلمة موحدة ، لكننا لا نعتقدهم مصيبين كل الاصابة فيما يذهبون إليه . نعم إن الأكثرية الساحقة للأمة السورية ، بل الأمة السورية كلها . . مجمعة على وجوب العمل في سبيل حقوقها واستقلالها . . العمل الآن هو لحماية العهد الوطني الجديد وانجاحه . . ونحن لا نتصور أساساً مباشراً لوحدة الصفوف في المرحلة الحاضرة غير هذا الأساس . . لا أحد يرفض أن تكون الكتلة الوطنية شكلاً لاتحاد منظم يضم الهيئات والأحزاب والجماعات . . إنه الاتحاد والتعاون بين الجميع في قلب الكتلة الوطنية على أساس ديمقراطي ، صحيح ومنظم .) .

لم يكن الهيام قد استبد بقيادة الحزب الشيوعي إلى درجة تحقيق وصال كامل مع الكتلة الوطنية ، التي باتت هي الأخرى منقسمة على نفسها جراء التوقيع على المعاهدة السورية- الفرنسية ، فالدكتور عبد الرحمن الشهبندر أحد زعماء حزب الشعب ، بل رئيسه ، وصف المعاهدة بأنها مخيّبة للآمال (لقد كبّلتنا عندما أعطت لفرنسا حق حماية الأقليات الدينية وحق سن القوانين المتعلقة بأحوالها الشخصية) حتى القوتلي أحد زعماء الكتلة البارزين ، فقد لاذ بالصمت ، مؤثراً ترك الوزارة المردمية والانزواء في بيته . .

لم تكن المعاهدة (غير المصدقة من البرلمان الفرنسي) هي الشهد المُصفّى ، بالمقارنة مع المظالم الواقعة على كاهل الشعب آنذاك ، بل لعلها في وصف معتدل ومعقول ، كانت (أفضل المتاح في تلك الظروف - أحمد اللحام مستشار الوفد السوري إلى باريس) .

غير أن مصادر تاريخية تصف الوضع على نحو آخر ، فقد ذكر غالب العياشي في كتابه - الايضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي على سوريا - دار أشقر - بيروت ص ٤٢٥ ما يلي :

كانت الانتخابات النيابية التي خاضتها الكتلة الوطنية بعد توقيع المعاهدة مع الحكومة الفرنسية ، من أسوأ التجارب الديمقراطية التي عرفتها سوريا ، فقد جرت الانتخابات وفضّلت الكتلة زيداً على عمرو ، وأهملت الرجال المخلصين الذين جاهدوا جهاداً وفيّاً في سبيل الوطن ، وتناول بعض الأعضاء في الكتلة الرشوة من المتموّلين في الأقضية

المعروفين بعدائهم لوحدة الوطن ، وذلك من أجل إدخالهم في قوائم الكتلة الانتخابية ، مما دعا الأمة إلى التراجع والذهول) .

سيبعث السيد بكداش في ٣ نيسان ١٩٣٧ برسالة حميمة إلى سكرتير الكتلة الوطنية السيد عفيف الصلح ، يلقي باللائمة فيها على (الموظفين الفاشست من الفرنسيين الموجودين في سوريا) ، وأن (عداءهم للجبهة الشعبية الفرنسية وحكومة ليون بلوم) هو الباعث (لمختلف الدسائس والمؤامرات لعرقلة السير والتقدم في العهد الجديد) كما أنه (غير خاف عليكم ما قامت به العناصر الفاشستية بمعونة الرجعيين المنتشرين في جهاز الحكم من تغذية النعرات الانفصالية التركية بمناسبة ظهور قضية اسكندرون . . .) . لذلك فقد اقترح السيد بكداش على الكتلة ما يلي :

أولاً – القيام بمشاريع مشتركة في باريس وهنا ، ومطالبة حكومة بلوم ووزارة الخارجية الفرنسية بتنظيف جهازها في بلادنا ، واستبدال عناصر الفاشست بعناصر مخلصة . . لاجتياز دور الانتقال بسلام .

ثانياً – اتخاذ التدابير السريعة لتحاشي تكرار حوادث جبل الدروز ووضع حدٍ لدسائس مثيريها . . .

ثالثاً – القيام بمشاريع مشتركة لمطالبة الحكومة الوطنية بتشكيل لجنة تحقيق لدراسة الدسائس والمؤامرات التي يحيكها الفاشست والرجعيون في البلاد .

رابعاً – اتخاذ تدابير ناجعة لوقف دعايات الفاشست الألمان والطليان التي تنتشر عن طريق بعض الصحف والباعة وغيرها من الطرق .

وسيتذكر السيد بكداش في حديثه (بكداش يتحدث – حوار مع عماد نداف ص ٢٨) هذه المرحلة (حيث سمّيناها بمرحلة النضال ضد الفاشية) ، كما (ألفنا عصبة لمكافحة الفاشية وعقدنا عدة اجتماعات شعبية وألقينا الكلمات ، لا من قبل الشيوعيين فقط ، بل وغير الشيوعيين ، ضد الفاشية العالمية ص ٢٨) .

ويتابع بكداش حديث الذكريات فيقول ص ٢٩ المصدر السابق (كذلك كنت في لجنة الدفاع عن لواء اسكندرون مع ممثل عن عصبة العمل القومي . . . وذهبنا شفيق سليمان وسيف الدين المأمون ، وسعيد فتاح وأنا ، إلى اسكندرون ، ونظمنا اجتماعات جماهيرية، لم تقدر تركيا ولا فرنسا على منعها) .

في الوقت الذي انطلق فيه قطار الدفاع عن لواء اسكندرون * ، كان يجري قطار آخر أشد عناداً وتمسكاً ، فقد جرى قطار أتاتورك نحو الجنوب التركي (اسكندرون) مدججاً بالسلاح ، ليبعث بالصورة الواقعية إلى العالم (إن تركيا ماتزال مصرة على وجهة نظرها وليكن ما يكون) ، وكان ذلك في شهر كانون الثاني من العام ١٩٣٧ . ولكن هل كان قطار أتاتورك ليتحرك (وهو الداهية التركي - الغربي) دون علمٍ بمجريات الأمور في باريس ؟ . .

يؤكد محمد علي زرقة في كتابه الجديد (قضية لواء اسكندرونة - الجزء الثاني ص ١٩٧) أن ليون بلوم رئيس وزراء فرنسا المجتمع سراً مع السفير التركي السيد سُعاد دافاز ، كان قد سلّمه رسالة مشؤومة ، تنضح بالمخالفة جهاراً نهاراً لاتفاقية أنقرة (١٩٢١) التي تقضي بتبعية اللواء للدولة السورية ، وكان نص الرسالة يقول : -

(هذه نتيجة عملي وتفكيري ، فإني إذا تقيدت بالوجهة القانونية الصرفة أراني مضطراً إلى الدفاع عما دافعَتْ عنه حكومات فرنسا قبلي ، ولا أرى أن اتفاقية أنقرة تفيد باستقلال اللواء ، وحيث أن التفاهم معدوم من الوجهة القانونية ، لذلك يجب البحث عن طريق آخر ، إنها مهمة مجلس عصبة الأمم ، الذي يملك من السلطة والحرية أكثر مما نملك).

قبيل سلخ اللواء بموجب معاهدة جنيف الفرنسية - التركية عام ١٩٣٨ ، انفردت جريدة فلسطين بنشر خبر مفاده ، أن فرنسا ستجري تعديلاً على المعاهدة الفرنسية - السورية بعد تسوية وضع اللواء نهائياً ، وقد ردت صوت الشعب بتاريخ ١٧ أيلول ١٩٣٧ ، بمقالة فيها من التشريع الدولي والقانوني ، ما يلقم أي فاه بحجر ، حين قالت (نحن نحب بكل قوانا أن نصدق مراسل جريدة فلسطين ، من أن التعديل - إذا صح - سيقتصر على مسألة لواء اسكندرونة فقط ، بل لن يكون هذا التعديل أمراً جديداً ، إذ من الطبيعي أن تنعكس في المعاهدة حلول الاسكندرونة بعد أن صدّقتها عصبة الأمم) . فما أجمل الموضوعية والحياد ! . .

هذا وسيكتب خالد بكداش ، بعد انقضاء سنة ونصف على رسالة بلوم المشؤومة .

---

* يبدو أن تعبير الدفاع عن عروبة اللواء ، لم يكن مستساغاً لا في تلك السنوات ١٩٣٧ - ١٩٣٨ ولا في سنة الحوار مع خالد بكداش ١٩٩٢ ، فهو مافتئ يستخدم عبارة ملغزة (لجنة الدفاع عن لواء اسكندرون ! . .) . ضد الروح الانفصالية لبعض الأتراك . . الإنفصال عن مَنْ ؟! . .

أي بعيد انتقال اللواء إلى جوار ربه في تركيا ، (صوت الشعب ٧ حزيران ١٩٣٨ العدد ١٨٤) ما يلي :

(ليست فرنسا هي التي خيّبت آمال اللواء وآمال العرب ، ليست هي التي تراجعت أمام الاستعمار التركي وتخلّت عن تعهداتها الدولية ورضيت بدوس قرارات عصبة الأمم نفسها ، كلا فرنسا لم تفعل ذلك ، بل فعل ذلك بعض الدبلوماسيين ، فعلت ذلك وزارة الخارجية الفرنسية) . هذا وسيصدر بيان شيوعي تركي يقول : -

إن الحرب العالمية الثانية ، الصراع ضد النازية الهتلرية والفاشية الإيطالية ، الدفاع عن اليسار الفرنسي على أنه هو فرنسا كلها ، الإخاء بين الأقوام (الأتراك ، العلويون ، العرب والأرمن والأرثوذكس في الاسكندرونة - بيان شيوعي باللغة التركية في ١٣ أيار ١٩٣٨) ولننظر إلى عبارتي العلويين والعرب ، والأرمن والأرثوذكس ! . . . ، كذلك الإخاء العربي - التركي عموماً ، حيث انضمت تركيا إلى جبهة الحلفاء ، كذلك الاتحاد السوفييتي الذي انتقل من الحياد إلى الحرب بسبب غباء بربروسة هتلر (الخطة الألمانية لاحتلال الإتحاد السوفييتي - الجبهة الشرقية) ، ثم ترحيب لتفينوف مندوب السوفييت لدى عصبة الأمم حين المصادقة على معاهدة جنيف (التي بموجبها انتقل اللواء من سوريا إلى تركيا) ، بنجاح الحكومة الفرنسية (التي تربطنا معها رابطة صداقة قوية) في تحقيق هذه المعاهدة ، إضافة إلى أحوال العالم الأخرى ، وكل ما هو عامل خارجي وله تماس بمركز الثورة في موسكو . . . ترى هل كان هذا الخط نفسه (ستاليني بالطبع) هو الذي وضع الحزب الشيوعي السوري في إساره ؟ تراه هل تم التغاضي عن (الداخلي الأهم) بكل ما له علاقة بمصير الأمة (وليست الأمة السورية بالطبع) وبمصالحها ، وبمرحلة نضالها الوطني ، كي تتم الإستدارة - أحياناً أو دائماً - لما هو خارجي في الصراع ضد الفاشية ؟ أو النازية ؟ وأين هذا من فرنسا (الشيوعية الاشتراكية . .) التي ظلت تحكم بموجب الانتداب سوريا ولبنان على نسق مماثل - أيام اليمين الفرنسي - بصرف النظر عن التفاصيل التي تهم فرنسا وليس سوريا الجريحة في اللواء ، وفلسطين بعده ! . .

لقد عرض الحزب الشيوعي في سوريا ولبنان مشروع تقسيم فلسطين علناً وبقوة لا تقبل الجدل ، ففي إجتماع للجنتين المركزيتين (السوري واللبناني) يوم ١٧ تشرين الثاني من العام ١٩٤٧ ، جرى التأكيد بموجب بيان صادر تحت عنوان : فلسطين قضية جلاء واستقلال وحرية ، يقول ما يلي :

(إن قضية فلسطين تجتاز مرحلة دقيقة وتتميز بتنوع وتكاثر المؤامرات الاستعمارية الإنكليزية والأمريكية الرامية إلى إخراج هذه القضية عن حقيقتها ، وطمس معالمها وإعطائها الشكل الذي يمكّن المستعمرين من تنفيذ أهدافهم ومطامعهم .

إن المستعمرين الإنكليز ، وقد انضم إليهم في السنين الأخيرة ، المستعمرون الأمريكيون ، قد عملوا دائماً ، لجعل القضية الفلسطينية قضية نزاع عنصري عربي -- يهودي ، ولأجل ذلك سعوا ، يساعدهم زعماء الصهيونية - إلى تغذية التوتر والحقد بين العرب واليهود في فلسطين ، ومنع أي تقارب أو اتفاق بين الطرفين . . ها هم اليوم يستغلون الحالة التي خلقوها لأجل تقسيم فلسطين وإقامة دولتين فيها . . وهدفهم من ذلك هو تثبيت سيطرتهم واستعمارهم واحتلالهم بالتعاون مع خَدَمهم زعماء الصهيونية ودعاتها وعملائها . .

لا ريب أن الأوساط العربية المتصلة مع الإنكليز ، كذلك الأوساط ذات العقلية الاقطاعية الرجعية ، قد ساعدت في تنفيذ مآرب المستعمرين والصهيونيين في الدعوة إلى التقسيم . . وإيجاد الحجج لدعم المزاعم القائلة باستحالة عيش العرب واليهود في دولة واحدة . . .) .

سيصرخ أحد أعمدة الحكمة الماركسية (عبد الله العروي) من وراء صخرة سيزيف ، معلناً الحقيقة الآسرة : (**لنعترف أنه ليس للغرب ولا للشرق إزاء المسألة اليهودية ، موقع قابل للإخضاع إلى منطق عقلاني . . فكون الغرب العثماني والشرق الاشتراكي يستطيعان تدعيم المرامي الصهيونية ، التي هي مُضادة لأيدولوجيتهما ، يضعف هذا الانطلاق نداء المناضل العربي التقدمي . . فعلى المناضل (المثقف) العربي التقدمي أن يتناول المسألة الفلسطينية كفعل وكموقف للغير (سواء كان موقف الغير عقلانياً أم لا) ، فالفعل من حيث أن الأحداث اللاحقة لسقوط فلسطين (انقلابات ، اسقاط ملكيات ، تأميمات . . . الخ) كان بمثابة ردود أفعال على إخفاقات سياسية أو عسكرية مرتجلة - ليس بمعنى التكتيك فحسب ، بل وفقدان استراتيجية مجملة - والفعل المطلوب هو تحديد الموقع بالنسبة للعرب : كمشكلة تأخرهم التاريخي . . أما موقف الغير ، فيجب ألا يختلط ، رغم أهميته ، بضرورة ملاقاة العرب أنفسهم لمكانهم في العالم المعاصر**) (العروي - أزمة المثقفين العرب - ترجمة ذوقان قرقوط ص ١٧٠) .

لم نبتعد عن الموضوع حتى الآن ، فقد جرت مياه غزيرة في الفولغا ، بين كلمات

لينين المبدئية عن الحركة الصهيونية (التي هي في جوهرها خاطئة ورجعية بصورة مطلقة . . وأن فكرة القومية اليهودية تحمل صفة رجعية سافرة لا بالنسبة لمعتنيقها فحسب ، بل لأولئك الذين يسعون لخلق الانسجام بينها وبين الأفكار الاشتراكية) . . قبل لينين كان ماركس يقول (الجذر الدنيوي للجوهر الديني اليهودي يكمن في الرغبة العملية في المصلحة والمنفعة الشخصية . . إنهما يقومان على عالم المتاجرة والمال . . إن التحرر اليهودي لا يمكن أن يكون إلا في إطار تحرير الإنسان الأشمل ، من نظام المتاجرة والمال . . بالتالي فإن التحرر اليهودي في معناه الأخير ، هو تحرير الإنسان من اليهودية نفسها - ماركس - المسألة اليهودية) ، بين كلمات ماركس ، لينين وحتى ستالين (اليهود لا يشكلون أمة) ، وبين التحالفات الجديدة على أرض العالم السياسي (١٩٤٨) في مروحة مصالح واسعة عالمية بين الحلفاء الغربيين والشريك الجديد (الاتحاد السوفييتي) ، ستجد النظرية خصمها اللدود على أرض الواقع العملي الذي لا يرحم ! . .

وقد تدرج الخط الشيوعي في سوريا ولبنان (مصر والعراق أيضاً) إزاء المشكلة الفلسطينية تدرّج الخط ذاته في موسكو ، وعندما وضع غروميكو خياراته أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ١٤/ ٥/ ١٩٤٧ ، كان واضحاً أن موسكو تؤثر قيام دولة واحدة ديمقراطية عربية - يهودية في كل فلسطين بحقوق متساوية (فإذا ظهر أن هذا الخيار غير عملي ، بسبب سوء العلاقات بين العرب واليهود ، فلا بد إذن ، من تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية) .

كان خيار التقسيم - سوفيتياً - ذو أولوية ثانوية ، أو هامشية ، أثناء المعارك على جبهات القتال العالمية (الحرب العالمية الثانية) ، وحين شرع الطرف الرابح في الحرب ، النظر في تقاسم الحصص ، جاء التبرير السوفييتي لدواعي التخلّي عن الدولة الديمقراطية الواحدة ، مقروناً بمسوغ (رفضه من قبل الممثلين العرب) ، الذين ظل يقول عنهم بأنهم (أداة النفوذ الامبريالي في المنطقة - ف . غريغوريف وفدنشكو الصهيونية الدولية ص ٩٣).

على أي حال ، ورغم ضغط الوقائع أحياناً ، فإن موافقة الاتحاد السوفييتي على قرار التقسيم* وما تلاه من اعتراف سريع بالدولة اليهودية في فلسطين ، شكّلا أساساً للريبة

---

* رغم أنه أصبح حجة الحجج لدى العملاء والرجعيين السائرين في ركب بريطانيا أو أمريكا لاحقاً ، إذ لا حقَ لأحد ، أن يلوم السوفييت على هذا الموقف الضدي منا ، طالما أننا كنا ومانزال ضد أنفسنا في هذا الموقف وغيره . . ثم ماذا كنا نريد طبقاً لوزننا ؟ . . لا أحد يعرف! . .

الشعبية لا يستطيع أحد نكرانه ، فجداول العضوية الشيوعية في سوريا ولبنان ، تدنت إلى قاع بئر لا قرار لها ، فمن عشرات الألوف (٣٥ ألف شيوعي في سوريا ولبنان عام ١٩٤٧) إلى بضعة ألوف أو مئات عام ١٩٤٩ ، وكما يقول خالد محي الدين في كتابه والآن أتكلم ص ٥٣ (كنت أنوي مفاتحة عبد الناصر في حقيقة عملي مع منظمة الأيسكرا الشيوعية بغية جذبه إلينا ، إلى أن لاحت موافقة الاتحاد السوفييتي على تقسيم فلسطين ، فعدلت عن ذلك . . . ربما لشعوري أيضاً أن عبد الناصر نفسه لن يوافق على هذا الانضمام . . إنني أضيف سبباً جديداً بدا أنه ينسج مساحة التباعد بيني وبين الأيسكرا) . . .

سيقول السيد بكداش في محاورات لاحقة أن (الحكومات الرجعية العربية هي المسؤولة ، فقد عارضت الاتحاد السوفييتي الصديق حتى اللحظة الأخيرة ولم تخطب ودّه . . صحيح أن اليهود ليسوا أمة ولكنهم كشعب له حق الحياة) .

ضد مَنْ يناضل العربي في وطنه إذن ؟ أليس ضد حكوماته الرجعية ، هل تستأهل فلسطين مثل هذا الموقف لمجرد أن حكومات العرب هي رجعية ، مرتبطة وبليدة أيضاً ؟ هل يجوز للاتحاد السوفييتي ، ماركسياً وليس عربياً ، أن يستدير هذه الاستدارة كلها ، لكون الحكومات العربية الرجعية لم تخطب ودّه ، أسياسة نكايات هي أم سياسة مبادئ ، أو حتى سياسة مصالح ، أيهما نقدّم المبادئ إذا اصطدمت مع المصالح (مثالية طوباوية) أم المصالح إذا اصطدمت مع المبادئ (براغماتية ولا مبدئية) ، هل كانت المسألة هي حق اليهود في الحياة ؟ ومَنْ منعَ عنهم هذه الحياة قبل الهجرة وسياسات الإقتلاع والاستيطان؟ . . ثم هل يدخل الحزب الشيوعي السوري - اللبناني موحداً ، أو الحزب الشيوعي السوري منفرداً في المشاركة بأسباب ما وصلنا إليه تاريخياً ؟ أم أنه ما زال عصياً على النقد باشهار سيف الاتهام ذات اليمين والشمال ، إلى الخصوم والأصدقاء على حد سواء ، هل ما أفرزته ماركسية العالم الثالث من جنوح إلى نصيّة النقل وميكانيكية التجربة المماثلة وإشكالية التفسير بارغام الواقع على التأويل كما نزعم بدلاً من التبديل كما نرمي؟ . .

ما الذي كان من المحتمل أن يجري ، لو أن ماركس أو لينين واجها موقفاً مماثلاً في عالم مماثل ، أم أن السؤال في غير محله (لعدم تكرار العوم أو السباحة في ذات النهر مرتين ! . .) ، أكان لازماً أن نسبح في النهر ذاته ، أم أن الانطباق التام ، المنقول والمطابق لموقف موسكو إزاء الحالات العالمية المتباينة ، هو الذي قاد الأحزاب الشيوعية إلى عنق

الزجاجة ؟ فإذا كانت الجملة الإجتماعية – المادية بما عليها من بُنىً فوقية شاملة ، تعيش مرحلة أخرى (مرحلة موغلة في أساليب الإنتاج على الأقل) ، تختلف بين بلد وآخر ، شعب وآخر (قانون النمو المتفاوت عالمياً) ، إذن لماذا لا تكون الطرق الصاعدة ، المتعرجة والناكسة أحياناً إلى ذروة الجبل ، متباينة بكل ما تقتضيه وعورة الطريق (إذا كانت الحياة على هذه الدرجة من التعقيد ، ما العمل ؟ – لينين) ، متباينة ولا مانع متفارقة ، بكل مرونة التكتيك وتماسك الاستراتيجية ووحدة الغاية ؟

أهي مرحلة الستالينية التي اعتدنا أن نعلق على مشجبها كل هضيمة وذميمة ؟ أم أن هناك شيئاً ذاتياً آخر ، أكثر تعقيداً واتساعاً وعمقاً ؟! . . فإذا ما مضت الستّالينية إلى مكانها (مكانها الموضوعي طبعاً) في التاريخ ، لماذا بقيت أحزابنا الشيوعية قائمة في قلب المرحلة ذاتها ، أهو اعجاب بالمرحلة حقاً ، أم بصاحب الأداء فيها ، **فإذا كان لستالين ميّزة عدم المقايضة على ابنه مقابل مارشال ألماني سقط في الحرب أسيراً ، وإذا كان لستالين نقطة تاريخية كتلك التي تبدّت عملياً في بناء اتحاد سوفييتي عملاق على مستوى العالم ، إذن ، ما هي المشروعية التي تكمن وراء الحنين إلى ستالين عربي ، منزوعاً منه كل نقاط ستالين الجورجي ، عدا سلبياته ؟ . . أم أن ستالينا العربي الذي يحكم بموجب فيض إلهي ، تاريخي وجماهيري ! . . مختصٌ بالحكم على طريقة الملوك ، في أبدية استمراره ، دون الاستعداد لمواجهة تأخرنا التاريخي ، وبالتالي نهوضنا من عثرتنا البليدة ؟ إذا كان ذلك قائماً بحكم العجز التاريخي لشعب فاق تخلّفه كل الإرادات ، لماذا لا يستقيل ؟** . . لماذا يبقى قائماً راضياً بحالة الإنكسار الشاملة ، ضارباً بمواعيده قبل اقتناص السلطة ، عرض الحائط ؟ . .

إن كل شيء ومرةً أخرى يسير ضد العقل ، وهذا يعني أن الواقع المفروض برمته ، كأنه يسير وفقاً لنسقية مقلوبة ، كل شيء فيها يصدم العقل ، ولا يمكننا هنا إلا أن نصرخ مع هيغل الألماني صرخته الشهيرة (ها هي الأيادي التي يَعيشُ الشعب تحت رحمتها ، تشدّ على السلطات كالملزمة الحديدية . . شعبي إن زعماءك يخدعونك) وفي نظرة مُمددة خلف مظهرنا ، نحن هنا أيها السادة أمام عوائق أخلاقية ، فهناك هوّات بين ما نحن وما نريد أن نكون ، بيننا وبين أنفسنا ، بين ما نحن في ظواهرنا وما نحن في بواطننا . (فالتقيّة) أصبحت نظام حياة سائد ، إذ ما يجتمع ثلاثة حتى يذهب الجمع إلى المخاتلة والرياء وتحريف الكلام عن موضعه ، وأكثر من الشأن العام ، فإن الرياء دخَل حتى في مسام حياتنا الاجتماعية والأسروية ، فكم من زوج يكذب ، وكم من الأبناء يعاقرون الفشل

واليأس وانعدام اليقين ، وكم من الفتيات يخادعن أنفسهن وأهلهن في حياة ظاهرية لا تغطّيها إلا قشور النفاق والمجاملات السمجة ، فيما المسالك الخفيّة تبعث على الرعونة والحزن ، ثم إن التفتت الفردي والجماعي لحق بكل شيء ، بحيث أُصيبت المرحلة ، بل والمراحل كلها ، بعطب مُعقّد يندر إصلاحه .

كان صوتاً واحداً بمقدوره دائماً أن يُجمّد الأمة بكاملها ، لسنين طويلة ، فالأمة مازالت تبحث عن بطل منقذ ، ولما كان البحث عن بطل ، يقع في قرون الفروسية ، لا في قرن غزو الفضاء ، فإن ذلك يعني ، أن الانتساب للعصر لم يقرع أبوابنا ، فالبطل هو الذي تُلقى على كاهله كل المهمات والمُلمّات ، إنه الآخر المسؤول ، أما النظّارة ، فإنهم في حالة انتظار للنتائج ، وفي النتائج ما يفرح وما يحزن ، إلا أن النتائج الختامية للأبطال ، غالباً ما تقود إلى عالم من الدموع والبكاء . .

في الطريق إلى القوّة ، أو على طريق الأبطال ، فإن المرحلة عاشت إحدى تجاربها في محطتها اليتيمة في هذا العصر ، أعني الوحدة السورية - المصرية في شباط من العام ١٩٥٨ ، أما الآن فلنرتفع إلى السماء من جديد .

سابعاً / الأحزاب الأممية / الله أكبر ولله الحمد* .

لم يكن (علم الكلام) الذي نشأ وليد الحاجة لما هو وراء الجانب العقائدي - النظري في القرآن الكريم ، أكثر من استجابة لضرورات داخلية (نصوص القرآن الكريم) ، مع ظهور مشكلات سياسية وفكرية بآن واحد . . ورغم تعدد المذاهب بالنسبة لأساتذة علم الكلام ، ووجود التباين في تفسير النص الديني ، أو تأويله ، فإن هذا العلم ، لم يكن يتعدى في حدوده القصوى ، إلا الدفاع عن العقائد الدينية الإيمانية والمسلمات الكبرى بالأدلة العقلية .

لم تكن مهمة (علم الكلام) عموماً ، تكوين أو إنشاء فلسفات من خارج النصوص أو المناهج ، وعلى تباين المناهج ، بين المذاهب الحنبلية أو المعتزلية أو الأشعرية . . . فإن هؤلاء جميعاً لم يبتعدوا عما هو مشترك في سماتهم ، سواءً من حيث التأسيسات أو الوصول إلى النتائج . .

إن القول بأن المعتزلة هم ماديون ، أو ماديون جدليون (طيّب التيزيني)، على أساس

---

* شعار الأخوان المسلمين الأوائل ، وحسن البنا مؤسس الجماعة . انطلق شأنه كشأن رجل الدين ، من مسلّمة إيمانية ، لا نقدية ، فإذا كانت الغاية الفلسفية تقصد الوصول إلى الحقيقة ، فهي موجودة ابتداءاً في المسلمة الإيمانية .

اقتناص نظرات غاية في الجزئية ؛ (كقولهم مثلاً بقدَم العالم والمادة في الزمان - كالفارابي أو ابن سينا وآخرين من سائر الفيضيين . .) . . . هوَ قول يجري على عواهنه ، فطالما أن نقطة البدء (المدبّر ، الدافع ، الصانع هو الله ، العقل أو الفكرة) ، فإن الموجودات المصنوعة الأخرى بما فيها المادة ، نتائج . . ملاحق . . . ليس أكثر .

إن العالم يتحرك بمحرك لا يتحرك هو الله ، إنه يعطي العالم نظامه وحركته (فلسفة يونانية - اسلامية) ، وقد لاحظ ابن رشد وهو يرد على (الغزالي الأشعري) أن تكفير الفلاسفة (حسب تهافت الفلسفة للغزالي) لقولهم بقدم العالم ، هو عدوان وجحود ، فطالما أن أصل العالم نفسه ، بصدوره عن الموجد ، لا يبتعد كل هذا الابتعاد ، فلماذا الاتهام بالشرك إذن ، إن الاتفاق قائمٌ - ابن رشدَ - على أن كل جزئي ، مثل الشجرة في البستان ، أو زيد من الناس ، هو حادث له زمن منه يبتدئ وآخر ينتهي عنده ، (أي أن الجزئي حادث ليس أكثر) ، أما الاختلاف - ابن رشد أيضاً - فهو : متى أوجد الله العالم ككل ؟ وعلم الكلام يقول : إنه كان إلهاً وحده ، وإن العالم وجد في وقت وزمان له ابتداء بعده (أي بعد الله) ، أما نظرية الفيض الإلهي ، فتقول أن العالم أوجده الله مع وجوده (القدم في الزمان) ، وابن طفيل المتحدث بكلام شبيه بكلام ابن رشد ، يؤكد أن الخلاف بين الفلاسفة ، في حدود هذا الموضوع (حدوث العالم في الزمان ، أو قدم الفعل الإلهي) ، هو خلاف لا أهمية له ، طالما أن الفريقين يثبتان وجود موجد للكون ، لا شيء قبله ولا شيء بعده . .

كل هذا وغيره . . كان يعني أن جميع مسائل الفكر الفلسفي والصوفي والكلامي . . في التاريخ الاسلامي ، كانت مناظرات داخل السياق وليس خارجه ، وإن الأخذ بالجزئيات لا ينفي الكليات ، وان سياسة الاستتار خلف التوفيقية بين الدين والفلسفة (كما فعل الفلاسفة من غير الفيضيين كالرازي وابن رشد والكندي . . .) لهو استنتاج غير موفق ، وإن الفلسفة في تلك العهود انداحت من روح العصر نفسه ، إذ لا يمكن أن تسبقه أو تتقدم عليه ، فالمادية كما هي ، وليدة عشرات القرون في مسيرة فلسفة التهافت وتهافت الفلسفة ، وإن فلسفتنا الاسلامية المتماهية مع الفلسفة اليونانية ، كانت مثالية ، روحية ، لاهوتية خالصة ، وإن مسلمتها الأولى إيمانية ، عقلية ، قبل أن تكون نقدية تاريخية شاملة، وأن (عقلها المطلق) لا يوجد إلا على مستوى الأنموذج أو المثال ، وأن (عقلها النسبي) ، مربوط بالتاريخ وتبدل الأزمان ، لذلك فإن مقياسها هو الحدس بالنسبة للبعض، أو المنطق بالنسبة لآخرين ، وان الظاهرة الكبرى في فكرنا الفلسفي هي مشكلة

الميتافيزيق ، (الكون وموجده ، الإنسان ومصيره ، الولادة الثانية بعد الموت . . . الخ)، وأن منهاجيتنا إطلاقية ، بحيث تمتلك الحقيقة لوحدها (أحادية الحقيقة وفكرة الحلول المطلقة ، من صفات الفكر الأساسية في العالم القديم) . . وسينعكس هذا الفكر عموماً في إشاعة الإطلاقية داخل تحزّبنا السياسي ، (من حيث أن التطورات العلمية خصوصاً المتعلقة بالفيزياء ، مجال وبيئة وحركة الجزئيات في الذرّة التي تؤسس خطاً نسبياً - احتمالياً ، أو التطورات الحادثة بالنسبة لعلم الكون والأحياء في نظرية التطور أو في حركة النقد الأوروبية الواسعة لما هو وضعي أو مقدس . . . الخ ، وما لم يدخل إلينا إلا عن طريق النقل أو النص ، ولا فعل لنا في إنشائه . .) هذه التطورات الخارجية ، التي لم يحدث مثيلاً لها في داخلنا القومي ، أدت فيما أدت ، إلى تماسك بنية من الفكر الثابت (عقل)* بات من الصعب اختراقه أو إدخال عناصر جديدة عليه ، إلا بما يتفق معه ، ولا يعمل على الإخلال به ، بحيث يبقى الطارئ الجديد متقولباً ومُمتصاً ضمن كيان بنيته الجماعية - المؤمنة . هذا وسيشق حسن البنّا ، طريقه بعقلانية دينية تجاوزية ، بتحكيم العقل وتجاوزه ، وفق منهاجية صوفيّة تعتمد على الحدس أو المعرفة الشخصية النصيّة .

لقد كان أول ما أثّر في حياته ، هو القرآن الكريم ، الذي حفظه غيباً عن ظهر قلب ، كما أثرّت فيه تعاليم الصوفية وحلقات الذكر ، التي كانت تُدخل الدفء إلى قلوب الفلاحين الفقراء ، فهو ابن فلاح ولد في العام نفسه (١٩٠٦) الذي تسفت فيه حادثة دنشواي المصرية كلَّ وهم للتعايش مع الإنكليز الغرباء (الكفرة) ، فاشترك في المظاهرات اللاهبة سنة ١٩١٩ ، وكان فتىً صغيراً بعد ، ثم بدأ تحدّيه العلني ضدّ كل ما هو تقليد للغرب في العام ١٩٢٩ ، حيث عكف على تأسيس مقدمة الإخوان المسلمين تاريخياً ، ألا وهي جمعية الشبان المسلمين . . (**إن الطلاق بين شريعة الدين وبين قانون الدولة هو كفر فعلي ، فالإسلام هو دين التوحيد الأخير** ، وقد كوّن المسلمون شعباً عظيماً حينما أخلصوا له ، **ويوم نأوا عنه ، تحطّمت فيهم المفاهيم الخُلقية وانهارت مقاييس الفضيلة عندهم**) . .

---

* بغياب العقلانية المطلقة في الفلسفة الخالصة ، يُفرّع حسام الألوسي في مقالته إشكالية العقلانية في الفكر العربي ، بحوث ومناقشات نظّمها المجمع العلمي العراقي في كتاب يحمل العنوان نفسه ص ٧٧ فيقول (في بنية فكرنا أنواع من العقلانية . مثل العقلانية التجاوزية وهي دينية تسفه العقل بمحدوديته وتتجاوز إطاره البشري إلى ما هو علوي وسري . وهناك عقلانية دينية مرنة ، ترى تآلفاً بين الدين والفلسفة والعقل والشريعة ، المعتزلة مثلاً . وهناك عقلانية لاهوتية تعتمد على العقل فقط ، بعد الإقرار بوجود مدبر أسبق للكون . أو إذا هي فهمت العقيدة من الباطن بمستوى الخطاب الفلسفي نفسه ، وهناك عقلانية علمية تقول بفصل الديني عن الدنيوي، وهناك عقلانية شكليّة أو وضعية تجريبية ... الخ .

لم يقبل البنّا ، الحرب المقدسة كامكان نظري فحسب ، بل وبما أن الجهاد ركن من أركان الدين ، فإنه يجب التدرب على القتال المسلح دون تردد ، ولم يرفض حسن البنّا فكرة الإفادة من الغرب المتطور ، بل دعا لأخذ حسناته (في الصناعة والعلم . .) ونبذ سيئاته (في المجتمع والسلوك) ، وفي الواقع العملي ، فقد نجح البنّا في تكوين جماعة اسلامية ذات استقلالية ، سواءً في معاملها أو مخازنها ومطابعها ، وجعَل العنف كحرب مقدّسة وركنية ، جزءاً من استراتيجيته في الجهاد من أجل استرداد جرثومة الدين القويم .

لقد نمت الحركات الاسلامية من خلال الركيزة الأولى للإخوان المسلمين في مصر ، كما أن فكرها بصورة عامة ، كان قد تأثر بشكل جوهري بمدرسة البنّا الأولى ، ثم أن نصوص سيد قطب المتأثر بدوره بكتابات الفيلسوف أبو أعلى المودودي ، والتي ذهبت إلى حد وصف المجتمع ، بأنه مجتمع الردّة إلى العصر الجاهلي ، كان لها الأثر الأكبر في إشاعة العنف الذي هو الطريق الوحيدة لاسترداد الإسلام .

وبسبب من محنة العلاقة بين الإخوان ونظام عبد الناصر ، فإن تنظيم (الجهاز السري) وهو القوات المقاتلة للإخوان ، كان قد بُدء العمل به من جديد . .

غير أن الجماعات الاسلامية في مراحل لاحقة ، كانت قد نمت بشكل أساسي جراء تعثر التجارب القومية واليسارية في العديد من الأقطار ، كما أنها انتشرت بصورة سرّية في سياق انعدام الحوار وقحط الثقافة السياسية ، فقد أُفرغت الثقافة من مضمونها إلا من ثقافة هي نتاج الدولة ، هذا إذا كان ثمة ثقافة للدولة ، وبمعنى أدق ، فإن تهافت الثقافة الرسمية ، مع مصادرة كل ثقافة غير ثقافتها ، هي التي أتاحت لثقافة المسجد أن تنتصر ، وقد حدث الانتصار لا في الأنظمة ذات الطابع العلماني فحسب ، بل وفي الأنظمة المتبجحة باسم الإسلام ، وقد بدا اليوم أن إسلام الرجعية العربية ، هو غير إسلام الجماعات الأصولية في شيء وكل شيء . .

لم يطرح الأوائل من الإخوان المسلمين برنامجاً مفصلاً لعمل المستقبل ، (الدولة ، جوهرها ، علاقتها بالمجتمع وعلاقة المجتمع بها ، مؤسساتها ، نشاطها ، دستورها ، زراعة ، صناعة ، تجارة واقتصاد ، بنوك ، علاقتها مع الخارج الأجنبي . . . الخ) بل عملوا على تلخيص الصحوة الاسلامية بإطلاق شعارات إجمالية كالعودة إلى الأصول في ينابيع الإسلام الأولى ، (والقرآن دستورنا) ثم نشاط لإحياء العمل بموجب أركان الاسلام الخمسة . .

وتدريجياً فقد بدأ الكشف عن مقولات أشد عمقاً واتساعاً وعمليةً ، حين تم الإعلان في أكثر من مناسبة : أن للاسلام معنىً واسعاً ، وأنه ينظم شؤون الناس الدنيوية بما في ذلك القضايا المعاصرة ، تماماً مثلما ينظم شؤون عبادتهم في دينهم . . وأنه لا يقتصر على المسائل الروحية الصرف . . **وبكلمة فإن الاسلام جاء ناظماً لشؤون الدين والدنيا على حد سواء ، فهو إذن دين شامل ، جامع ، عالمي ، حيث تتحتم الأخوة والسلام ، والتعاونُ الصادق بين جميع الشعوب ، إذ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . . أو بعمل صالح يؤديه** . كما أن المؤسسين الأوائل ، وقفوا من (مفهوم الحزب) والحياة الحزبية السياسية ، موقفاً رافضاً ، إذ لا حزبية في الإسلام ، (بمعنى الولاء أو التشيّع ونبش القبلية الجاهلية الأولى) ، وظلّ النداء مدوياً بين جموع نصف مليون من الاخوان المسلمين في مصر وحدها (مع ٢٠٠٠ مركز اسلامي في هذا القطر) حيث في أعياد المسلمين تتكرر لازمة النداء - الإبتهال (لا إله إلا الله وحدَه ، صدق وعدَه وأعزّ جنده ، **وهزم الأحزاب وحده ، لا شيء قبله ولاشيء بعده** . . .) وكان أول ما رُفض هو إطلاق اسم الحزب على الجماعة . .

سيُسأل حسن البنّا ، عن موقف الاسلام من القضايا المعاصرة الناشئة مثل : الديمقراطية ، القومية ، الاشتراكية ، العلمانية ، والشيوعية . . . . فيجيب :

(انظروا إلى جوهر الاسلام في الأساس ، فهو نظام شامل ، يضمن الحرية والمساواة، كما يوفر الرخاء والعدالة للجميع ، وينشر روح الإخاء والخلق الاجتماعي ، فليس من الضروري أن يستعير المسلمون أفكار ومؤسسات من مجتمعات أخرى ، لأن الاسلام يضم جميع القيم والأفكار التي يتطلع إليها المؤمنون به - حسن البنّا - دعوتنا في طور جديد) .

لقد تم التركيز ، بادئ ذي بدء ، لا على طرح نسق إسلامي جديد ، يتماشى مع أفكار العصر ومتغيراته ، بمقدار ما ركّز على خلق جيل جديدٍ يعي أول ما يعي . حقيقة الاسلام في جوهره ، تماماً كما يفسره زعماء الجماعه (أو أُمراؤها) ، وهو الشرط الضروري لحمل المهمة فيما بعد ، **وعلى طريق استرداد مكانة الاسلام السامية في التاريخ سواءً في المجتمع أو الدولة** ، كانت الصبوةُ **لتوليد أمة اسلامية جديدة تعيش عصرها ورسالتها العالمية** . .

ومن أجل قطع هذا الشوط التمهيدي ، أنكر قادة الجماعة ، أن يكون للجماعة أية علاقة بالسياسة ، وكان يشتدّ هذا الإنكار كلما أُثيرت الوساوس حول المرمى الأخير

للدعوة ، وفيما تتضمن إزالة الأنظمة السياسية ، إعادة بناء الدولة الاسلامية السياسية ، وعلى رأسها الخليفة أمير المؤمنين ، على أن هذا الإنكار كان يجد ما ينفيه على أرض الواقع والعمل ، فالجماعة كانت تهاجم (الوجه الآخر للسياسة) حياة التنافس غير المشروعة بين الأحزاب ، والسياسيين المصريين الذين (ذهبوا مذاهب المجون والفساد - وحتى الإرتشاء- في منازعاتهم على كراسي الحكم - المصدر السابق) وفي ذلك اعتراض وعدم رضا (موقف سياسي) في النهاية . .

لم يكتف المؤسسون الأوائل في بداية الأربعينيات ، بموقف السلب من الحياة السياسية المُعاشة ، بل من خلال الواجب الجهادي الأعلى ، دعا حسن البنّا ، في رسائل متعددة ومتشابهة في المضمون ، جميع الملوك والرؤساء العرب والمسلمين ، إلى اتباع تعاليم الشريعة الاسلامية ، والانتهاء عما نهى الاسلام عنه ، وقبيل نشوب الحرب العالمية الثانية بقليل ، كان الاخوان المسلمون ، يظهرون اهتماماً بالنشاطات السياسية الجارية ، بل ويعلنون (١٩٤١) أن منظمتهم ليست جمعية دينية فحسب ، بل وسياسية أيضاً ، وعندما حاول حسن البنّا تقديم نفسه كمرشح إلى البرلمان المصري ، منعه القصر الملكي ، بدفعٍ إنكليزي ، وكانت الحجة أن البلاد لا تحتمل الخلافات وهي عرضةٌ لهجوم خارجي وشيكٍ (حملة رومل الأفريقية) . .

وبينما كانت طلائع الجهاد المقدس الاسلامية تقاتل في حرب فلسطين ، (١٩٤٨-١٩٤٩) مع جيش نظامي تم إرساله على عجل (كرحلة صيد - النقراشي باشا) كان قادة الجماعة الذين حملوا السلاح ، يركزون على القلب في القاهرة (**ما لم تتم السيطرة على السلطة السياسية هناك ، فإنه لا أمل بتحقيق أهداف الجهاد** ، هيوارت دون ، الاتجاهات الدينية والسياسية في مصر - ص ٥٠) . .

ثم انتشرت صيحات الغضب لما جرى في فلسطين ، فذاعت الأقاويل عن ثورة محتملة يهيء لها الإخوان المسلمون ، الأمر الذي حدا بالقصر الخائف ، إلى اتخاذ إجراءات قمعية مسبقة ضد الإخوان المسلمين ، وقد تدرجت خُطب المرشد العام من مجرد الانتقاد ، إلى الهجوم مباشرة ، فوصف رجال الحكم في مصر والديار الاسلامية ، بأنهم ليسوا من المؤمنين بالاسلام في شيء ، وأن الواجب الجهادي (يدعونا لتبديل مؤسسة الحكم الغربية بمؤسسة إسلامية - المصدر السابق) ، لقد فشل النظام السياسي الآخذ بالتدهور في تحقيق التقدم الموعود ، وبدت البلاد وكأنها تسير إلى شفير ثورة مدمرة ،

وأوضح قادة الجماعة من جديد ، أنهم إسوة بالنبي عليه السلام ، ملزمون شرعاً بتحذير الأمة . وأن في الاسلام ، تلك الأدوية الشافية ، لكل الأمراض السياسية والاقتصادية التي تعاني منها الأمة ، وأن الناس ليسوا أحراراً في اختيار نظامهم السياسي ، وأن ارتكاباً للمعصية يكمن في الصمت عما يراه المسلم ويعيشه ، وأن الحكومات التي تقوم على غير عمود الدين ، هي فاسدة ، غير مؤمنة وغير صادقة ومن المحتم اللجوء إلى إقالتها .

لم يكن عنف سيد قطب (معالم في الطريق) قد ظهر جلياً بعد ، رغم أن مؤشراته السابقة ، كانت قد ظهرت في اغتيالات متفرقة لبعض الساسة المصريين (أعداء الله) ، ومع ذلك فإن تعاليم الشيخ البنّا من الناحية السياسية ، كانت تذهب مذاهب التعقل والمرونة والواقعية ، وأدى ذلك ببعض المؤرخين إلى إرسال القول على عواهنه ، فتمّ إطلاق الشائعات حول تعامل سرّي بين القصر والإخوان (ربما كان القصر وراءه) . إلا أن ذلك كان مقروءاً من خلال تكتيكات القصر ضد حزب الوفد ، ومحاولة الاخوان النفاذ من خلال هذا التناقض .

مع ذلك ، سيُقتل الشيخ البنّا على يد حرس القصر الخاص ، وأثبتت الشواهد اللاحقة أن وراء ذلك إرادة ملكية وإنكليزية ، **فأستاذ الاسماعيلية (الشيخ البنّا) أصبح يشكل خطراً داهماً ، وكان قبل اغتياله بقليل يوضح بكل الجرأة والعلن أن الخط السياسي للإخوان يتمثل بدوائر ثلاث : تمثيل صحيح للأمة غير مزوّر ، وحدة كاملة دون تمييز ، ثم إرادة جماعية وطنية . . .**

ومع أن الحُكمَ لله وحده - يقول البنّا - (فإن السيادة منوطة بالأمة ، عن طريق مُمثليها المُنتخبين بصورة شرعية ، حيث المسؤولية أمام الأمة ، أما المسؤولية نفسها فتعني أن رجال الحكم ليسوا سادة الشعب بل خدّامه - دعوتنا في طور جديد - الشيخ حسن البنّا).

وبذلك يُتاح لكلمة الله أن تعلو ، ولتشريع الإسلام أن يتحقق . . .

لم ينظر الاخوان إلى مسألة الخلافة ، نظرة نقلٍ أعمى ، فضرورتها نابعة من ضرورات الحكم ، فالخليفة أو الأمير ، **لا يدخلان في جوهر الدين** ، وما كان مرفوضاً ، **هو الأسس غير الاسلامية ، التي تسير عليها الدولة مع رأسها الحاكم** ، والمسؤولية في النهاية ، **تعود إلى جماع الأمة ، وليست إلى الخليفة الأمير أو الحكم ، مهما كانت تسميته** . . كما لا يجوز - حسب دستور مصر ودول عربية وإسلامية أخرى - أن المسؤولية تُلقى

على بساط الحاكم ، بل إن الدولة مسؤولة فقط أمام ممثلي الأمة الحقيقيين . . كما نظر الاخوان إلى وحدة الأمة كمرتبة من مراتب التقديس ، (**فليس مسلماً مَنْ يعمل أو يوافق أو يصمت عن تشرذم الأمة في الآفاق . . كما أن تناحر الأحزاب المبني على الأثرة المصلحية والفردية ، ساهم في انقسام الأمة إلى شيع شتى مما زاد في الاستخذاء والوهن** – المصدر السابق) .

وفي رسالته إلى مؤتمر الرؤساء في القاهرة بداية الحرب الفلسطينية ، حضّ حسن البنّا على العودة للمبادئ الاسلامية الرشيدة التي توجب الاتفاق على المسائل المتعلقة بمصير الأمة ، كما أن (عليكم أن تسترشدوا تبعاً لمبدأ الشورى في الإسلام ، بآراء العلماء الذين يمثلون الشعب في أمور الدين والدنيا ، وأن تخطّوا أقوالكم وأفعالكم بما يوجبه كتاب الله وسنّة نبيه . .) .

كانت الأنظمة الاقتصادية في ديار الاسلام ، من وجهة نظر الاخوان ، محط اعتراض واتهام ، فهي المسؤولة عن إقامة الفوارق بين الأغنياء والفقراء ، (لدينا ما هو أفضل من النظام الشيوعي ، إذا جاءت حكومة اسلامية تعمل على إحياء ركن الزكاة التام)* ، كذلك هي المسؤولة عن إشاعة الفقر والمرض والأمّيّة على نطاق شامل ، بحيث بات الوضع الاقتصادي في ديار المسلمين متردياً لا يمكن للأمة أن ترضى عنه أو تطيقه . . فكل محاسن المذاهب الاقتصادية الأجنبية يمكن أن توجد في نظام الاسلام الاقتصادي ، فهو أكثر الأنظمة الاقتصادية التي عرفتها البشرية مثاليةً وكمالاً ، إنه الفرد والمجموع بآن واحد ، حقوق الفرد فيه ، تتوقف عند أول اصطدام مع حقوق المجموع ، وضمن أحكام الشرع ، فإن تجميع الثروة الفردي ، ليس ممنوعاً ، بل ما هو ممنوع فيه ، أن توجّه الثروة إلي غير مكانها الصالح ، العامل على تعزيز رفاهية الأمة وزيادة الانتاج والدخل القومي لديها ، **فإذا ما جنح جامع الثروة إلى حياة البذخ والتفاخر والفجور ، أو إلى ما حرّمه كتاب الله وسنة نبيه ، فإن الثروة تُنزع عن مالكها ، وقد استشهد حسن البنّا بقوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم ، وقولوا لهم قولاً معروفا** – الآية الخامسة من سورة النساء) .

---

* ويقول حسن البنا في كتابه مشكلاتنا الاجتماعية ص ٩١ ما يلي : (حرام علينا ، أن تسبقنا روسيا الشيوعية إلى هذه المنقبة الإسلامية) وفي هذا القول تأكيد على الاتجاه الجماعي لبناء اقتصاد الأمة .

وقد أيّد الاخوان المسلمون قول الفقهاء في أن (الثروة ملك مشروع لمن يعمل صالحاً) كما أن الدين يحث الموقنين على استغلال الموارد الطبيعية لزيادة ثراء المجتمع ككل . كما **طرح الاخوان المسلمون الأوائل ، قواعد وافرة لتنظيم الحياة الاقتصادية** ، بما في **ذلك النظام المالي الضريبي وطريقة اصدار النقد والحوالات المصرفية ، لكنهم نهوا عن مال الربح غير المشروع ، كالربا ومبدأ الأخذ بالعمولة والمقامرة والمضاربة والمتاجرة القائمة على التخزين أو الاحتكار ، بل قالوا بتداول الثروة (وأن الناس شركاء في ثلاث** : الماء والكلأ **وأرض المشاع ما فوقها وما تحتها من ثروات)** ، وقد استشهد حسن البنّا بشواهد تاريخية لا حصر لها ، على ايثار الاسلام للعمل ، وقد رفض مبدأ التعويض على العاطل الذي يستطيع العمل ولا يعمل ، ورأى أن من أولى واجبات الدولة تأمين فرص العمل للناس ، ومما قاله (إن الحق بالعمل متأصلٌ في النظام الاسلامي ويجب أن ينظم بالتشريع الحديث) . كما فرض على الدولة مسؤولية توطيد النظام الاقتصادي والاجتماعي بصورة عادلة (**فلا يعزز المسؤول رخاءَه باستعمال نفوذه على حساب الآخرين) ، فالمسؤول هو الخادم للشعب لا سيّده ، (والله وحده هو الحاكم المطلق ، وعلى من ولي السلطة أن يحكم وفقاً لتعاليمه تعالى** - المصدر السابق) .

لم تحتفظ جماعة الاخوان بحقها في إطلاق العموميات الدينية باستشهادات من ماضي التراث الاسلامي فحسب ، بل تدخّلت في التفاصيل الراهنة للحياة الاسلامية ، فعلى صعيد مصر ، أوجبت القيام بدخول عالم الصناعة وتحديث الأساليب الزراعية ، وكانت أول مَنْ نادى بانشاء سد **أسوان وتنفيذ مشروعات ري حديثة واستصلاح المزيد من الأراضي الصالحة للزراعة ، كما نادت بتمصير المؤسسات الكبرى ، ورؤوس الأموال الأجنبية وتأميم المرافق العامة*** . .

---

* يقول روجيه غارودي في كتابه ما يعد الاسلام به - دار الوثبة - ترجمة قصي أتاسي وميشيل واكيم ما يلي : (تنطلق قضية الملكية في الإسلام أساساً ، من مقولة مقدسة وهي أن المُلك لله وحده ، وهو معاكس للمفهوم البرجوازي الغربي للملكية ، ويفضي ذلك إلى نتائج حاسمة ، فالملكية في الشريعة الإسلامية ، ليست امتيازاً للفرد ولا حتى للجماعة . لكنها وظيفة اجتماعية تلبي مقتضيات العناية الالهية ، فإذا ما سادت روح الإسلام الجماعية ، والمتسامية حقاً . فإن خلق مستقبل إنساني وسط عالم يفتقر إلى الروح العليا ، يصبح ممكناً ، ويمكن أن يتم هذا بإيقاد شعلة الأجداد لا النفخ في رمادهم ، فإذا تقيّد المسلمون بهذا ، فقد ينفتح أمام عالم الاسلام ، بل والعالم كله ، مجال بناء عدالة تخصبها القيم الإنسانية على مر الدهور) ص ٥٧ - ٥٩ .

إن القول بأن الاسلام ، بواقع من سلفيته التاريخية ، لا يمتلك خطة حياة معاصرة ، هو قول لا برهان عليه ، فالبرامج والخطوط والسياسات العملية . . . كلها تجري مع الحياة لا قبلها ، فإذا ما وضعت المخططات قبلياً تكون أقرب ما تكون إلى النظرية ، وهي مهما علا شأنها . تظل خاضعة للتطويع والتكييف لمجابهة التحديات العملية ، أما إغلاق باب الاجتهاد . وليس من الضرورة أن يكون سرمدياً دوغمائياً ، فقد جاء كردة فعل على الخطوط والمذاهب الفلسفية التي بدأت تسري بدماء هي خارج دماء الجسم الأصلي للإسلام ، كما أن أحداً لم يزعم باستخلاص تشريع من نص منزل صالح لكل زمان ومكان، ألم يرد في القرآن (ولكل أمة رسول) ألم يرد أيضاً (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم - سورة ابراهيم) . .

وهكذا مثل الاخوان الأوائل مشروع نهضة على أساس من الارتقاء إلى مصاف السلف الصالح في تاريخ الأمة ، كما اجتهدوا في التكيّف مع مستجدات العصر ومتطلباته بشكل لا يتعارض مع جوهر الدين . . إلا أن الأحداث كانت على موعد آخر من تطورات المنطقة وتداعياتها ، ومع تدفق الضباط (عبد الناصر ، كمال الدين حسين ، أنور السادات وخالد محي الدين . . . الخ) ، على تنظيم الاخوان المسلمين قبيل الثورة ومع نشوب حرب فلسطين ، هاجمت موجات شعبية مؤسسات يهودية في القاهرة (كاريكو وشيكو ريل) ، وقد وَضع الاخوان المسلمون على القائمة ، وكان أن سبق حوادث اغتيالات لبعض مسؤولي العدلية والبوليس ، وتم الربط في حوادث العنف هذه ، ما بين قسوة الأحكام وشراسة المطاردة البوليسية ضد الإخوان بمناسبة الحوادث المذكورة ، وهكذا أقدمت حكومة محمود فهمي النقراشي باشا على حل جماعة الاخوان بمرسوم حكومي . .

وردّت جماعة الاخوان باغتيال رئيس الوزراء نفسه في العام ١٩٤٩ ، وكان قاتل النقراشي (عبد المجيد أحمد حسن) ، شقيقاً لأحد ضباط سلاح المدفعية الذي سيشترك مع الضباط الأحرار في الثورة ، ورد القصر والحكومة على اغتيال النقراشي باغتيال حسن البنّا ، وكان ذلك في يوم ١٢ شباط من العام ١٩٤٩ .

وقبل الانتقال إلى نزعة العنف الاسلامية ، هل هي متأصلة أم أنها بمثابة عنف على عنف مقابل ، فقد جرت المياه غزيرة بين النيل وبردى ، حينما عاد شاب سوري (مصطفى السباعي) من القاهرة ، إلى دمشق ، حيث كان من المعجبين المقربين إلى حسن البنّا . وقد فاضت مياه مصر الإسلامية مع النكبة الفلسطينية ، فعملت على تغذية الينابيع السورية ،

وهكذا نبتت على الضفاف ، بذرةُ السباعي في شباب محمد ، وهو تنظيم فرعي مربوط بالاخوان السلمين في مصر .

كانت هذه المنظمة ، قد نشأت على التوازي ، أو ربما بعد ولادات سابقة (للشبان المسلمين في دمشق ، وجمعية الهداية الاسلامية ، في حمص ودار الأرقم في حلب) ، وقامت هذه الفروع الاسلامية بدورها في مقاومة الانتداب الفرنسي في العديد من المدن السورية في منتصف الثلاثينيات ، وكان للسجون الفرنسية دوراً في اندماج هذه المجموعات المنفصلة مدينياً ، وكان لتنظيم شباب محمد الذي أسسه وقاده مصطفى السباعي الفضل الأكبر في توحيد تلك المجموعات التي جاءت في شكل منظمة واحدة . .

في بداية الخمسينات ، أصبح لمنظمة السباعي من القوة الشعبية ، ما مكّن زعيمها من احتلال مقعد له في البرلمان السوري ، وقد بلغت المنظمة ذروتها في فترة الأحكام القاسية (الاعدامات) التي لحقت بمحاولة اغتيال عبد الناصر في الاسكندرية ، فقد قلَبَ المرشد السوري اسم المنظمة إلى جماعة الاخوان المسلمين ، وتمكّن من قيادة المظاهرات الصاخبة في دمشق والمدن السورية الأخرى ، ضد عبد الناصر ومحكمة الثورة المصرية . .

(ستكون دمائي لعنة على الثورة) ، هذا ما سيقوله عبد القادر عودة أحد قادة الاخوان المسلمين ، وهو صاعد إلى حبل المشنقة ، وسيعمل السباعي ببلاغة فاقت حد الوصف ، على إثارة الشعب ضد الثورة المصرية ، حيث سيُرمى عبد الناصر بنعوت الخيانة (وعبادة الدولار)* ! . .

ومنذ ذلك الحين ، فقد بقي الاخوان في سوريا ، محرك عمل سياسي بتأثير ديني داخل المساجد والحلقات الاسلامية الأخرى ، أكثر منهم عامل انتشار ديني على طريقة حسن البنّا ومدرسته . . وكان من الصعب ، كما سيكتشف قادة السوري والبعث والشيوعي ، اقتلاع هذا التيار أو طمسه ، كما أنه لم يكن من القوة ، أمام الضربات والمكائد اللاحقة (سقوط السباعي انتخابياً في عملية البالوتاج ضد رياض المالكي أحد زعماء البعث في حينها) ، كي يصل إلى السيطرة على السلطة في سوريا دون حليف .

* كانت ردة الفعل الشعبية في سوريا عنيفة ضد حركة الاعدامات المتسرعة ، من قبل مجلس قيادة الثورة ، فقد حكمت محكمة الشعب برئاسة جمال سالم وعضوية أنور السادات وحسين الشافعي بأحكام مختلفة على ٨٦٧ من الاخوان المدنيين وعلى ٢٥٤ من العسكريين ، وأعدم محمود عبد اللطيف ويوسف طلعت وهنداوي دوير وابراهيم الطيب وعبد القادر عودة ومحمد فرغلي كما صدر حكم بالإعدام ضدّ المرشد العام حسن الهضيبي إلا أنه خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة بوساطات دولية عربية واسلامية . .

لم يكن العنف جزءاً من استراتيجية الاخوان المسلمين في سوريا، قبل حكم البعث، فقد ظلت المنافسات تدور في إطار الانتخابات البرلمانية أما المواقف ازاء المسائل القومية (اسكندرونة، فلسطين، عربستان . .) أو العالمية، فكانت تجري من خلال المفارقات العقائدية في المحافل والندوات الشعبية، ولقد أصاب المرض الشيخ السباعي إثر سقوطه في انتخابات البالوتاج فأقعده عن العمل، فأنيطت إرشادية الجماعة بالشاب الدمشقي الناعم عصام العطار، وقد جاهر بانتقاد البعث علناً، وأدى ذلك إلى رفض السماح له بالعودة إلى سوريا بعد أن غادر إلى الحج عام ١٩٦٤، وفي العام نفسه أسس الشيخ عبد الرحمن أبو غدة حركة تحرير اسلامية سرية في مدينة حلب، أما في حماة فكانت ظاهرة مروان حديد الداعي إلى الجهاد والعنف والجرأة، تبعث على الاستثارة والإعجاب* . . .

هذا وسيعلن في العام ١٩٦٦ عن مؤامرة جديدة لاغتيال عبد الناصر، سيعدم بموجبها أربعة من كبار قادة الجماعة الاسلامية في مصر، وعلى رأسهم سيد قطب، مؤسس طريقة العنف في الجهاد الإسلامي الحديث . .

لقد لعبت مؤلفات سيد قطب خصوصاً كتابه (معالم في الطريق) دوراً هاماً في التحولات الفكرية التي طرأت على ساحة العمل الاسلامي، وأدت فيما أدت إلى تغيير خارطتها التنظيمية، مع بروز جماعات أخذت بالتركيز على مبدأ الجهاد كضرورة محورية لاحداث التحول بالقوة، وقد حرّك هذه الجماعات مخزون اسلامي في الذاكرة التاريخية الجمعية، تجلى في النصوص التي أعاد انتاجها سيد قطب في المساجد والزوايا والحلقات، تعيد فكرة الجهاد والشهادة لتحيا على امتداد ساحة المواجهات مع النظم غير الاسلامية في ديار المسلمين، ومع الصهيونية وكل أشكال القهر والإنقسام في المنطقة . .

كانت كتابات قطب أشبه ما تكون باستعادة مقاطع من التاريخ الإسلامي في ظاهرات الرفض والإحتجاج والخروج على السلطان، مثلما هي تعبير عن هجوم اتقائي أمام مشاهد اجتماعية - استهلاكية - تتحدى وتستفز وتعدي وتطوق كتلاً بشرية من المحرومين والمسحوقين . .

---

* كان يقول للحاكم العرفي وقتها (١٩٦٤) اللواء أمين الحافظ (ألا أعلم يا أمين . أن الجنة تحت ظلال سيوف القرآن، والأمين هو مَنْ آمن وأمَّنْ . . ألا أعلم أنه بعد خشيتي من الله لا أخشى أحداً، فلا تتوهمن بالسلطان، لأنه لا سلطان إلا لله وحده. رواها لي أحد قادة الشرطة الذي كان مصاحباً لأمين الحافظ أثناء مشكلة حماة الأولى .

ولم يكن نتاج الفكر العنفي عند سيد قطب وليد الأيولوجيا أو الفكر وحده ، بل نتاج تناقضات صارخة في المجتمع والاقتصاد والنفسية مع أنظمة المصالح والتكوينات السياسية والثقافية الأخرى . .

كان عنف قطب في نهاية السجال ، رداً على عنف مقابل ، انعدمت بموجبه كل موضوعات الحوار أو النقاش أو النقد . . وكان هذا الفراغ الاستفزازي يقابله جماهير نازحة من الريف إلى المدينة مع امتلاء بالعطالة والفوضى والفقر ، وفائض من الخريجين ، وشهادات لاعلم فيها ولا عمل لها ، وإنماء معاق حسب مزاجية مرحلية منطلقة من أدمغة عباقرة الإقتصاد الذين هم في خدمة السلطان ، واستبداد سياسي ونخب سلطوية تبحث عن جاهها عبر مواقع السلطة والمال ، وفتات سياسي ثقافي متبق من قيعان وحثالة التجربة النهضوية التي آلت إلى رزم كتب التاريخ ، وتكرار خطاب علماني بأداء عقيدية دوغمائية حصرية لا تؤمن بالإختلاف أو الفروق ولا ترى في الآخر غير خصيم قبلي لها ، ولخلاصها المزعوم . .

مشاهد قومية انفصالية (تجزيئية) تبعث على الرثاء ، مزارع أنظمة قطرية مؤبدة لا تعرف من الوحدة غير خطابها اللفظي ، ثم مأثرة المآثرفي فلسطين ، قبلها اسكندرون وعربستان . . وفراغات خاوية على عروشها .

لقد ولدت فترة القمع التي شهدتها الجماعات الإسلامية خلال فترة الستينات ، جيلاً من أشد الأجيال ميلاً للعنف ، وقد رفض هذا الجيل أي تصالح مع الأنظمة الحاكمة ، واستعدت هذه الفترة التي شُنِقَ سيد قطب في أواخرها ، كي تكون الحاضن للتشكل الجنيني لجماعات العنف الإسلامية أثناء الولادة ، وتجلى ذلك في المظاهر الدموية التي وصلت إليها الأمور في الجماعات المتفرعة الأخرى مثل شباب محمد ، والتكفير والهجرة، وتنظيم الجهاد ، والجماعة الإسلامية في بداية السبعينات * . .

ترى هل كان التطرف مقصوداً لذاته لدى الجماعات الإسلامية المتنوعة ؟ هل يقوم الدليل على الفارق النوعي بين التطرف والجهاد الإسلامي أم هو جزء لايتجزأ منه (على أنه الجهاد نفسه) هل سياسة (ا للامعقول) في العنف المتبدي الآن سواءً في مصر أو الجزائر ،

---

* فرّخت هذه المرحلة تنظيمات اسلامية لاحصر لها ، حماس والجهاد في فلسطين المحتلة . الدعوة في العراق . كذلك منظمة العمل الإسلامي والجبهة الإسلامية القومية في السودان . حركة النهضة والإسلاميون التقدميون في تونس ، الجبهة الإسلامية للإنقاذ ورابطة الدعوة وجماعة الجهاد في الجزائر ، جند الله وحزب التحرير الإسلامي والجهاد المقدس في المغرب . .وغيره كثير .

هي سياسة مبرأة من الأحابيل السلطوية المحلية ، أو حتى الاختراقات الخارجية لوضع جائحة التطرف كله على كاهل الإسلام ، مما يسدد ضربة ماحقة لجوهر الديانة الإسلامية . . ثم إلى متى يظل السؤال حائراً ملتبساً هكذا بلا جواب ؟! . .

◆◆◆◆

- الفصل السادس -

عام الأعاصير العاتية ١٩٥٨

اولاً / هل هو تاريخ ؟ فعل تاريخي ام هروب إلى الامام ؟

يجب أن نقيم تمثالاً واحداً
فقط، لذاك العاهل الذي أراد
توحيد أجزاء مملكته .
هيغل .

إن الولاء لسوريا ككيان إقليمي والإيمان بديمومة بقائها السياسي هكذا ، لا يمكن أن يضرب جذوراً له ، عندما يجابه المواطن بالدعوة إلى الوطن الأكبر ، وتلك هي حقيقة سوريا التاريخية .

كان السوريون (سوريتهم الطبيعية بجناحها الشرقي في العراق) ، يستجيبون إلى دعاوى الوحدة دون فحص ولا تردد ، ولم يكن ثمة قوة اندفاع نحو الوحدة يماثل قوته في الإندفاع السوري نحوها ، كما أن التأكيد الذي جرى على أن سوريا هي قلعة العروبة أو قلبها النابض ، كان يستمد شرعيته من مصادر تاريخية محققة ، فضلاً عن الآمال الأخرى .

فدمشق مركز الخلافة الأول ، وقد كانت مركز السيطرة العربية - الاسلامية على العالم ما بعد المتوسط لعدة قرون ، ثم جاءت بغداد لتستلم الراية بجدارة المقتدر ولتمدّ الدولة (ذات الغيوم الهاطلة) إلى ما وراء بني أمية في آسيا وعلى تخوم أوروبا والصين ، وكان الثلاثي بيروت - دمشق - بغداد ، ركائز الفكرة الأولى للاحتجاج ضد الاستبداد التركي ، وكانت الجمعيات السرية التي تحمل دمها على كفّها ، تجوب المدن والبلدات من استامبول إلى رفح ، وقد تجلت المعارضة على السياسة التركية ، ولو أن الرصاصة المباشرة التي انطلقت من الحجاز على يد الشريف ، مثلّت تلبية لارهاصات الاعتراضات الأولى في بلاد الشام ، فحلم الاستقلال العربي ظل يتمثّل في تلك الزاوية المفتوحة على المتوسط مع عمقها العراقي طوال سنين ، ولم يكن الإعراض عن الهلال الخصيب أو سوريا الكبرى ، يجول في دائرة الملكي أو الجمهوري ، ففيصل كان ملكاً محبوباً في سوريا ، قبل العراق ، والدستور هو الذي يحدد الصلاحيات ، أما المظهر الخارجي لرأس الدولة ، سواءً

كان ملكاً أو رئيس جمهورية ، فيحسمه جوهر النظام السياسي ، ووفق هذا يمكن أن يصبح الملك ديمقراطياً ورئيس الجمهورية فرانكوياً والعكس صحيح . .

يقول جلال السيد بهذا الصدد (حزب البعث العربي ص ١٦٤) : (كانت التجربة الوحدوية الأولى المعروضة على الحزب تتمثل في مشروع لم يلد ، وحدة أو اتحاد الأردن مع العراق . وبعد جدل طويل ومناقشات سياسية وعلمية وقومية ملخصها أن المستوى الاستقلالي في العراق ليس أحسن مما عليه في الأردن ، وأن الوجود البريطاني متماثل فوق الساحتين بنفس القوة ، غير أن الساحة الواحدة للبلدين ستتسع حال الاتحاد أمام الفئات المناضلة من أجل حقوق الشعب في الاستقلال التام) .

ويضيف : (**ما كان يخطر في بال القيادة آنذاك ، أن يكون موضوع الاتحاد موضوعاً يمكن الاختلاف عليه ، سيما والأسباب المطروحة لا تتمتع بالقوة ولا المناعة**) .

مع ذلك فقد بقي الخوف من ارتباط العراق أو الأردن ببريطانيا ، مانعاً دون الاتحاد الطبيعي بين بلدين متجاورين في الجغرافيا والاقتصاد والتقاليد والأمزجة .

في أواسط الخمسينيات ، بعد أن اندثرت الآمال بوحدة واحدة من وحدات سوريا الطبيعية ، بدأ نجم آخر باللمعان ، فمع النيل جرت أحداث جسام ، من الجلاء إلى الأسلحة الشرقية ، ومن تأميم القناة إلى العدوان الثلاثي ، ومن مصر أفريقية إلى مصر عربية ، بل وعالمية بالإشتراك في خطوط العالم المحايد الذي بدأت بالظهور لأول مرّة في تاريخ العلاقات الدولية .

هكذا دخل جمال عبد الناصر ساحة القومية العربية دون منافس . .

في سوريا ، يقول تاريخ محايد ، كان الوضع مختلفاً بعض الشيء ، فإضافة إلى العامل الوحدوي الأصيل لدى قطاعات الشعب المختلفة ، إلا أن ذلك كان يجري بمحاذاة أوضاع داخلية رسمية ، حزبية ، وسياسية أكثر تشويشاً وتعقيداً ، فالجيش الذي تعهّد بعدم التدخل في السياسة ، إثر الإطاحة بالشيشكلي ، كان قريباً منها ، بل لعله كان يفرض نفسه كقوة رئيسية في الحياة السياسية ولاجتماعية ، (سيقول عبد الناصر لصلاح البيطار في أول لقاء لعقد الوحدة ، إنني أمضيت خمس سنوات صعبة لابعاد الجيش عن السياسة)* ، ويتصور بعض البعثيين القدامى ، أن فراغاً قد حدث في حلبة السياسة

---

* قاد المقدم عبد الغني قنوت وحداته المدرعة في قطنا لاقدام اللواء توفيق نظام الدين ، رئيس الأركان العامة . على وضع مشروع مرسوم يقضي بتعيين العميد صباغ ملحقاً عسكرياً في أثينا وعبد الحميد السراج ملحقاً عسكرياً في القاهرة ، مع تبديلات أخرى تشمل رؤساء الشعب في الأركان العامة ، وكان موقف وزير الدفاع مضاداً لمشروع رئيس أركانه ، مما اضطر الأخير إلى تقديم استقالته .

السورية ، وقد أدى بدوره إلى فقدان في التوازن العام ، بحيث بدت سوريا فيها ، مسرحاً لصراع حقيقي بين مصالح الأحزاب والفئات الإجتماعية الملتفة حولها . ولم تكن السلطة السياسية في سوريا تستطيع العمل بموجب مفهوم حكومي واحد ، فالسياسات أصبحت في محاورها ساحة انقسام أكثر منها ساحة استقرار ، وقد ازدادت الأمور تفاقماً بسعار حمّى الصراعات الدولية الكبرى حول اصطياد هذا المكان البارز في المنطقة ، ووصل الأمر ذروته خلال مشكلة حلف بغداد وقضية إغتيال المالكي والمؤامرة الإنكليزية - العراقية على سوريا في العام ١٩٥٦*، وأخيراً التدخل الأمريكي في العام ١٩٥٧ . ثم برزت سياسات الرشاوي والضغوط الخارجية بتدمير الأسس الأخلاقية للمنافسة السياسية في سوريا ، وزادت محطات الإذاعات المتنازعة في بثها لأخبار الانقلابات والمؤامرات وتهديدات الغزو الخارجي ، في جعل السياسة السورية ، وكأنها تدور في حلبة ملاكمة ، ولم تكن هذه هي الشروط المثلى لازدهار فضائل الديمقراطية أو لحسن سير البلاد إلى أمام .

ستكون مؤامرة الخبير الأمريكي المختص (هوارد ستون) آخر هدية أمريكية إلى سوريا قبيل الوحدة ، وقد اكتشفت المخابرات العسكرية التي كان يشرف عليها ضباط بعثيون أو موالون للبعث ، هذه المؤامرة قبل استفحالها ، وقد أذاعت دمشق في نشراتها الإخبارية يوم ١٢ آب ١٩٥٧ تفاصيل المؤامرة الأمريكية باضطلاع الشيشكلي وتنفيذ الحسيني وخطة لاغتيال مجموعة من الضباط الوطنيين السوريين . . وطردت الحكومة السورية ثلاثة ديبلوماسيين أمريكيين لثبوت اشتراكهم في المؤامرة ، فردّت واشنطن بطرد السفير السوري فريد زين الدين ، ثم تحرك الأسطول السادس في عملية عرض العضلات أمام الشواطئ السوريّة ، لكنه لاضطراب الوضع الدولي ، عاد إلى برنامجه الروتيني في البحر الأبيض المتوسط .

سيكون لبعثة لوي أندرسون وكيل وزارة الخارجية الأمريكية إلى تركيا ومحاولة تطبيق مبدأ أيزنهاور ، أكبر الأثر في زيادة اضطراب المنطقة خاصة سوريا ، فإثر هذه الزيارة الاستفزازية ولما نجم عنها من تصريحات عدوانية ضد سوريا (إن الوضع خطير جداً في سوريا ، حيث أصبح هذا البلد مع حليفه المصري فريسة للشيوعية الدولية) ، ثم ليتابع

---

* المؤامرة المعروفة باسم مؤامرة العجلاني وعدنان الأتاسي وهايل سرور وفرزت المملوك ومحمد سليمان الأحمد وحسن الأطرش ونوري مهيد وفيصل العسلي .. وقد أفصحت المحاكمات عن اشتراك العقيد محمد صفا (حكومة سوريا الحرة في العراق) وأديب الشيشكلي مع مجموعة من أنصاره كذلك حزب السوري القومي (جماعة جورج عبد المسيح ضد أسد الأشقر) .. كما حاول ميخائيل إليان تسوية الخلافات بين المشاركين ، إلا أن جهوده لم تفلح ! . .

أندرسون مؤتمره الصحفي متوعداً (بهذه الروح رفعت تقريري إلى وزير الخارجية السيد دالس) ، وحسب خطة أندرسون كما كشفتها صحيفة النجم الأحمر السوڤيتية (١٠ أيلول ١٩٥٧) ، فإن سوريا ستكون معرضة لغزو خارجي من ثلاث دول : اسرائيل وتركيا والعراق . . وقد حذّر بولغانين ثانية ، من أن النزاع المسلح ضد سوريا لن يقتصر على هذه المنطقة فقط (نيبورك تايمز ١٤ أيلول ١٩٥٧) . . .

كان أمراً هاماً وثميناً ، أمام الأحداث الداهمة ، أن تجد سوريا حليفها على ضفاف النيل ، فالأحداث فالأحداث التي دارت منذ القناة لم تدر عبثاً ، وبدت الأهداف متقاربة إلى حد التماثل ، وقد وجد البعث الموجِّه الأساسي للسياسة السورية آنذاك ، أنه يتفق مع القيادة المصرية في جميع المشكلات الرئيسية ، (وقد وجدوا أنهم يتفقون مع عبد الناصر إلى درجة التطابق ، والواقع أنهم ظنّوه وقد أصبح بعثياً مؤمناً بمبادئهم حين تبدّت طريقة تعامله مع الدول الكبرى ووجهات نظره بالاستقلال الوطني التي لا تقبل المساومة - باتريك سيل - الصراع على سوريا - ص ٤٠٥) .

وكان البعث ميالاً في الأساس ، في حركة اعتراض ضمنية على نظرية السوري القومي ، للاتحاد مع مصر إثباتاً للخط العروبي القومي الذي نادى به ، وقد تعلّم البعث من تجاربه المديدة ، أن الاتحاد كبرهان عروبي ، يجب أن يبدأ بمصر ، وفي هذا الصدد يقول ميشيل عفلق (لقد كانت لدينا القناعة منذ البداية ، أنه لا يمكن أن تكون هناك وحدة عربية بدون وجود مصر ، ولا يعود هذا إلى إيماننا بأن مصر مؤهلة لتكون بروسيا العالم العربي لتوحّده بقوة السلاح ، أو إلى ظننا أنه لا يمكن لأي بلد عربي أن يكون مركزاً للتجمع ، وإنما لأننا رأينا قوى مصر المانعة وهي تعمل ، فقد كانت قادرة على أن تعارض بنجاح أية خطوة نحو الوحدة العربية تستبعدها من المشروع ، كما في قصة الهلال الخصيب التي تثبت ذلك حتماً - المصدر السابق ص ٤٠٦) .

لقد تم استخلاص الدرس الرئيسي من خلال المشاريع والخطط والصراعات والمؤامرات التي امتدت وراء سنوات الحرب العالمية الثانية ، كما استعرضها هذا الكتاب وغيره من مئات الكتب الأخرى ، فكان من الحكمة أن يتم اجتذاب مصر إلى فكر العروبة ، **وانتعش رفاق البعث بذكريات المعارك الفاصلة في التاريخ العربي ، حين ضُم جناحا العروبة في أرض الكنانة وديار الشام أيام الصليبيين والمغول والتتار ، وحين تم اكتساح الغزاة بفضل الاتحاد التاريخي المقدس بين دمشق والقاهرة . . .**

(لقد استيقظ عقل عبد الناصر على فكرة العروبة في العام ١٩٥٤ وما بعده ، وكانت هذه المرة الأولى التي بدأ فيها حاكم مصري التفكير بالعالم العربي حسب شروط بعيدة عن الرغبة بالسيطرة ، غير أن الفكرة العربية لم تكن متغلغلة عميقاً في النفس المصرية ، والمصري العادي لظروف تاريخية شتى لم يشعر بحتمية الإنتماء إلى العروبة . لقد آمنا ونحن في حزب البعث بأن اتحاداً مع مصر سوف يغذي فيها نفس العواطف القومية التي ألهبتنا - صلاح البيطار لباتريك سيل في مقابلة خاصة يوم ٢٣ أيلول ١٩٦٠ . المصدر السابق ص ٤٠٦) .

هذا على صعيد الوضع الهرمي للقيادات السياسية بين القطرين ، أو بصورة أدق ، على صعيد عبد الناصر رأس النظام ، وقيادة البعث في سوريا ، أما الثانية فلم تكن هي الأخرى على وداد دائم بعضها مع بعض . . وقد يخطر سؤال طالما أوردته الدوائر الأجنبية على اصطناع ، هل قوبلت الحماسة الشعبية في سوريا بمثلها على ضفاف النيل ؟ . .

وحيث أن الجواب لا يدور في مملكة التشوّف في أسبقية الإنتماء إلى العروبة ، إلا أن التباين كان حاصلاً لأسباب موضوعية : جغرافية واقتصادية وتاريخية . . وأبعد من ذلك ، فإن عوامل موغلة في القدم التاريخي ، أدت إلى مفارقات في أساس نشوء السلطة (وفيما بعد الدولة) هنا وهناك . . فقد أوجدت الضرورة المعيشية - الحياتية ، اختراع التنظيم الكلي (سواءً في تنظيم التصريف ضد فيضانات النهر في بلد نهري ، ثم نشأت ضرورات مستتبعه تضمنت اختراع شبكات الري بما فيها السدود ومواعيد الفيضان السنوية فالمحاصيل . . .) إلى آخر نمط الإنتاج الآسيوي ، وها هنا وُلدت الدولة من ضرورات طبيعية صارمة . .

على الجوانب الأخرى ، فإن الدولة إختراع إجتماعي (ففي الماركسية الإنقسام إلى طبقات هو علّة اختراع الدولة ،وفي الرأسمالية الدولة ضرورة إجتماعية ناشئة عن مصادفة تاريخية) .

الدولة في النمط الاسيوي ، مخلوق طبيعي ، أو بصورة أصح ، هي من مخلوقات ما وراء الطبيعة ، لذا فإن الآلهة غالباً ما خُصصت لمواجهة تحديّات الطبيعة ، في وجه آلهة أخرى ، وما عروس النيل السنوية ، إلا استرضاء لآلهة الفيضان اتقّاء للكارثة ، فكيما يحفظ المجتمع ضمانة بقائه ، كان لا بد لمفهوم السلطة (التنظيم للدفاع عن النفس وتأمين العيش) ، من أن يظهر على درجات في التقديس ، غير أن القائم على مجابهة الطبيعة

وكسر مخاطرها ، لا يمكن أن يكون من ذات مستواها ، فهو بالضرورة من عوالم أخرى فوقها ، وهكذا ليتم تمديد سلطان الخوارق إلى جميع الحواضر الأخرى ، وذلك كما بزغت من شمس الضرورة الإجتماعية – الإنتاجية في الريف من قبل . .

إن شعوراً إنسانياً مديداً في التاريخ ، ظل يطل برأسه مفضياً في سرّه لا علانيته ، بأن آلة الدولة مع رأسها الحاكم سواءً جاءت من دافع الإنقسام الاجتماعي ، أو الضرورة الطبيعية الحتمية ، فإنها من صنع البشر لا من صنع الله ، وما التقديس إلا جزءاً من مكيدة تاريخية ، صممها وأشرف عليها الكهان في كل زمان ومكان ، وقد حسم الإسلام سجالاً تاريخياً قائماً (فالمُلك لله وحده . . أحدٌ أحد) وعلى البشرية أن تدير شؤونها بطاعة الحاكم في غير معصية أو غرور . .

وحيث أن المسلمين ، ليسوا بالضرورة هم أنفسهم الإسلام* ، فإنّ رشوحات ما قبل الإسلام ، ظلت تسري في عروق القائمين على السلطان في الأزمان ، وكانت مصر بعيدة عن (معصومية) استامبول ، إلا أن هذه (المعصومية – الهالة ، القداسة) سرعان ما غادرت احترامها الأول مع مجيء السلاطين الأدنى إلى الخلافة الإسلامية ، وهو ما حصل في بلاد الشام بعيداً عن أرض الكنانة ، ورويداً رويداً ، بدا (يلدز) في عيون الناس ملاذاً سرياً للجواري وخصيان العبيد والمكائد . .

وهبطت الهالة القدسية إلى الأرض ، ومع قدوم الغرب واسقاط الدولة العربية في دمشق ، صارت الحكومات ، الأنظمة ، الدولة مع رأسها محط تندّر لدى أوساط الشعب دون استثناء . . فيما آلة الدولة مع رأسها في مصر هي شيء آخر ، وظلّت كذلك حتى أزاح الضباط الأحرار قناع الوجه المتسربل في قصر عابدين دون مواربة . .

هل أزيلت الملكية مع ذلك من مصر في العام ١٩٥٢ مباشرة ، كما تمّ إزالتها من العراق في العام ١٩٥٨ ، أم أن ثمة فاصلاً ، ظلّ صداه يتردد في القاهرة بين المَلكية التي

---

* تاريخ الدولة الاسلامية ، أو بصورة أدق ، الدول الإسلامية ، طافح بما هو نأي عن الاسلام في جوهره ، فعمر بن عبد العزيز لا يمكن أن يكون متصالحاً مع الحجاج ، حتى عثمان الأموي لا يمكن أن يتصالح مع يزيد من نفس الفرع ، وحتى المراحل بقسماتها الكلية ، كانت متباينة . فالعصر الراشدي ، هو غير الأموي ، والعباسي هو غير الفاطمي ، وظل النزوع إلى دين الدنيا لا إلى دين الآخرة قائماً .

أرادها محمد نجيب* والجمهورية التي قال بها عبد الناصر ؟ ، لابد أن أثراً رجعياً عن الهيبة ، ظل يعمل في نفوس بعض الضباط حتى تلك اللحظة آنذاك .

كانت سياسة مصر إلى حين ، متماوجة بين ميثاق الجامعة العربية ، والتصدي لسياسة الأحلاف الاستعمارية ، مع الحفاظ على النموذج الراهن للتكتلات العربية بزعامة مصر ، والواقع أن الجامعة العربية وضعت نموذجاً للعلاقات العربية في فترة ما بعد الحرب العالمية ، ظل يُعتبر في صالح مصر ، وأُتبع ذلك بحلف الضمان العربي الجماعي عام ١٩٥٠ ، وعلى امتداد عشرة سنوات من العام ١٩٤٨ إلى العام ١٩٥٨ موعد العرب مع الوحدة السورية - المصرية ، فإن الجامعة بدت في نهاية المطاف ، وكأنها ليست أكبر بكثير من مجرد قسم إعلامي ، من أقسام وزارة الخارجية المصرية . .

كانت مصر حتى بُعيد العدوان الثلاثي بقليل عربياً (ساحة جامعة عربية) ، (كما ساحة اعتراض على حلف بغداد) ، وكانت سوريا مع مصر أثناء العدوان قبله وبعده ، ساحة مشروع تاريخي طموح ، ربما التقطه عبد الناصر قبل غيره من ضباط الثورة المصرية . .

كانت سوريا مثلاً ، أول دولة عربية ، ترفض مشروع أيزنهاور ، كما ترفض كل مشاريع الاستيطان للفلسطينيين ، وكان رفض سوريا لكل ما هو أمريكي - غربي يصم الأسماع ، فقد رُفض قطعياً ، مشروع كلاب وجونستون لتقاسم مياه نهر الأردن بين العرب واسرائيل ، واستمر الرفض حتى قيام الوحدة السورية - المصرية ، وكانت قبل ذلك ، قد رفضت الهلال الخصيب ومشروع سوريا الكبرى ، ثم رفضت مشروع (النقطة الرابعة) الأمريكي ، إذ رأت في المعونات الاقتصادية الأمريكية ما يكبل سيادتها السياسية ، وكان الغرب يرى في تشبّث السوريين باستقلالهم ونظامهم الجمهوري البرلماني وعدم الإنصياع لمشاريعه ، إنحيازاً للشيوعية أو لنفوذ الاتحاد السوفييتي . . وكانت سوريا تجد في إسرائيل منذ قيامها ، بل وفي تمهيدات قيامها ، علّة العرب العظمى ، وكانت القاهرة قد استيقظت على أذى اسرائيل المستطير في العدوان الثلاثي ، أو بصورة أدق في العام ١٩٥٥

---

* في الأيام الأولى من الثورة ، ظل الملك في مكانه ، وقد صادق على مرسوم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة علي ماهر باشا بعد استقالة وزارة الهلالي ، كما أصدر مرسوماً بتسمية اللواء محمد نجيب (بعد ترفيعه إلى رتبة فريق ولم يقبل نجيب هذا الترفيع) قائداً عاماً للجيش المصري .

حين هاجمت اسرائيل بكل شراسة الحاقد قطاع غزة فقتلت أربعين جندياً وضابطاً مصرياً ، كما ساقت الآخرين أسرى إلى داخل فلسطين المحتلة . .

وتتفق مجموعة من المؤرخين والسياسيين المتوفين والمعاصرين* ، على نقطة اشتراك واحدة ، وهي أن (الجو الطافح بالآمال والمشاعر الجيّاشة التي سيطرت على الجماهير لدرجة الهذيان ، خاصة بعد اشتداد الحصار على سوريا - أحمد عبد الكريم - حصاد - دار بيسان - ص ٣٨٤) ، كان في قوة دفعه أقوى من أي تفكير وتأمل أو دراسة ، حتى عبد الناصر نفسه (الآخذ باتجاه الاتحاد التدريجي . . معاهدات عسكرية . . اقتصادية) ، وجَد نفسه مسوقاً للموافقة على الطرح الجريء والمباشر ، لمطلب الوحدة الإندماجية الكاملة بين سوريا ومصر ، وذلك عندما عرض عليه الوفد العسكري السوري المؤلف من (عفيف البزرة ، مصطفى حمدون ، عبد الغني قنوت ، أحمد عبد الكريم ، أحمد حنيدي ، طعمة العودة الله ، حسن حدة ، محمد النسر ، ياسين فرجاني ، عبد الله جسومة ، جادو عز الدين ، مصطفى رام حمداني ، أكرم الديري ، وجمال الصوفي) ، المسافر إلى القاهرة - دون استئذان من حكومته - مطالب الجيش السوري وبسطها أمام عبد الناصر . . .

كان ذلك يوم ١٢ كانون الثاني من العام ١٩٥٨ ، وقد ترك الضباط وراءهم أمين النفوري نائب رئيس الأركان العامة ، لتقديم مذكرة تفسيرية إلى الحكومة ، لشرح أسباب رحلة الضباط المفاجئة إلى القاهرة ! . . فيما مثّل الذاهبون إلى القاهرة جميع صفوف الأسلحة في الجيش العربي السوري . سيفهم خالد العظم وزير الدفاع آنذاك ، مضمون الرسالة الصادرة عن مجموعة الضباط في القاهرة ، ولن يجد الزعيم النفوري ، صعوبة في شرح مضمونها ، إلا أنه أضاف بلغة رجل الدولة (سنطلب أن تكون الوحدة اندماجية ، لها دستور واحد ورئيس واحد ، وسلطتان تشريعيتان وتنفيذيتان موحدتان ، ومجلس دفاع أعلى ، يرأسه قائد أعلى للقوات المسلحة المندمجة) ، (ثم حمّلت المذكرة كل حكومة أو فئة تتهاون في تنفيذ هذه الوحدة ، خطورة ونتيجة عملها أمام الشعب - خالد العظم - مذكرات - الجزء الثالث ص ١٢٤) .

---

* أكرم الحوراني ، مجيد خدوري ، خالد العظم ، خالد بكداش ، باتريك سيل ، أحمد عبد الكريم ، أحمد حمروش ، محمود رياض ... يتفق هؤلاء على أن الوضع في سوريا كان جيّاشاً من الناحية الجماهيرية ، بل عاصفاً ، وكان في مثل هذا الجو ، لا يمكن إلا الاستجابة لهذه المشاعر الحقيقية والغامرة .

ولم يخلُ الجو من المفاجأة في مبنى الحكومة السورية ، فقد أذهلت الخطوة من خلف ظهر الحكومة ، العديد من الوزراء والمسؤولين ، وكان ذلك كافياً لو أن الرحلة اتخذت وجهة أخرى غير القاهرة ، لإرسال الجميع إلى محكمة عسكرية بمنطوق الدستور وليس غيره . . وكانت الحكومة التي طأطأت برأسها أمام الريح العاتية ، تجد معاذيرها في وجه القاهرة العربي ، الوطني والقومي ، وكان عبد الناصر شفيع كل شيء في تلك المرحلة . .

لقد قرر مجلس الوزراء السوري أمام المفاجأة ، أن يقرن المحاولة بغطاء شرعي ، فأوفد وزير خارجيته السيد صلاح الدين البيطار الذي كان في سريرته مع محاولة الضباط ، إنْ لم يكن – مع الحوراني – وراءها * . . وهكذا تم إيفاده على عجل ، كي يقف على مفاوضات الضباط في القاهرة ، والاجتماع بعبد الناصر ، ولكن دون تخويله سلطة البحث ، أو الإقرار (لأي مشروع للوحدة مع مصر ، قبل الرجوع إلى كامل مجلس الوزراء في سوريا) . .

كان عبد الناصر ، الذي عاد لتوه من الأقصر في رحلة سياحية مع صديقه جوزيف بروز تيتو ، يرى في اندفاع الضباط السوريين ما يبعث على التأمل أو التريث . **فتقارير محمود رياض ، سفير مصر في سوريا ، تتحدث عن تفاصيل الحياة السياسية (أو العسكرية) في سوريا ، ما يعرفه السوريون ولا يعرفوه ، وتقارير كمال رفعت وثيقة الصلة بالضباط السوريين خاصة المنتمين إلى حزب البعث ، فيها الكثير مما تعرف سوريا ولا تعرف أيضاً . كما أن اتصالاً ثالثاً كان يأخذ طريقه إلى طاولة عبد الناصر ، ذلك الذي تجلّى بتقارير عبد المحسن أبو النور ، ضابط الإرتباط الأول في القيادة العسكرية السورية – المصرية المشتركة . .**

كان عبد الناصر متخوفاً من انقلاب عسكري في سوريا ، إذا ما قامت الوحدة بهذه العجالة ، وقد قال لصلاح البيطار : (جيشكم مُسيّس وقد اعتاد على الانقلابات ، أما أنا

---

* قبل شهرين من سفر الضباط إلى القاهرة ، أي في ١٨ تشرين الثاني من العام ١٩٥٧ ، دعا مجلس النواب السوري برئاسة الاستاذ أكرم الحوراني ، مجلس الأمة المصري برئاسة أنور السادات ، لحضور جلسة حاسمة سيتم فيها التصويت على اتحاد فيدرالي بين سوريا ومصر . وتناوب الحوراني والسادات رئاسة المجلس ، حيث وافق النواب بالإجماع ، كذلك حضر وفد نيابي سوري برئاسة إحسان الجابري وعضوية خالد بكداش وآخرين ، جلسة مماثلة لمجلس الأمة المصري ، الذي وافق بدوره على مشروع الاتحاد المقترح من مجلس النواب السوري .

فقد أمضيت خمس سنوات لابعاد الجيش عن السياسة - أحمد حمروش - عبد الناصر والعرب - الجزء الثالث من قصة الثورة - مكتبة مدبولي ص ٤٧) .

وستطلع جريدة البعث في ١٧ كانون الثاني من العام ١٩٥٨ أي بعيد اجتماع الضباط السوريين بعبد الناصر بخمسة أيام ، بعنوان يحمل مانشيتاً عريضاً يقول : الاتحاد أولاً ، وهو دعوة صريحة ومستعجلة للمباشرة في تحقيق هذا الاتحاد واعلانه على الجماهير **(فالظروف مواتية له في البلدين ، وهو الرد الحاسم على الاستعمار والتخلف والرجعية ، وينبغي ألا تحول فروقات اجتماعية وسياسية ثانوية دون قيامه ، والبعث من ناحيته على استعداد كامل لالغاء هذه الفروق ، وهو يقبل أن يكون دستور مصر قاعدة الاتحاد ونقطة انطلاقه)** .

ويرد جلال السيد على ذلك بإيراد حقيقته الخاصة به حين يقول (**نعم كان هناك دافعاً وحدوياً أصيلاً لدى العرب السوريين ، لكنه لم يكن فريداً وحيداً ، فإلى جانبه دوافع أشد دفعاً وثقلاً ، فالعسكريون شعروا بعدم قدرتهم على تسيير دفة الصراع ككتلة واحدة ، والمدنيون أفلسوا في إدارة الدولة ، وتنافرت الأحزاب وتباعدت النظريات ، ومدت الشيوعية برأسها مهددة أطراف القطر بالإجتياح** - حزب البعث ص ١٦٥) . .

(وكانت الوحدة مع مصر هي مخرج البعث الوحيد للخروج من المسرح بعزّ وكرامة ، لذلك سرعان ما قبل شرط الرئيس عبد الناصر بحل الأحزاب السورية ، فحلّ نفسه - المصدر السابق ص ١٦٦) .

كان البعث حقيقةً أمام امتحان مزدوج وعسير ، فهناك مخاطر متزايدة من احتمال هجوم تركي - غربي مسلح ضد سوريا ، كما أن هناك مشاعر جفوة بدت بالإزدياد من تفاقم نشاط الشيوعيين داخل أوساط الجيش والتحالفات الأخرى (خالد العظم) ، ثم بدت المساجلة الكبرى حول مسألة الوحدة السورية - المصرية وموقف الشيوعيين منه* ، وكانت على الأبواب انتخابات شعبية بلدية تعطي المؤشر للغرب الراصد ، حيث من

---

* كان لنجاح السوفييت الباهر في إطلاق أول قمر اصطناعي إلى الفضاء ، وسياسة تأييد القضية العربية وما أعقبها من سياسة تسليح الجيوش العربية في وجه اسرائيل ، كذلك الموقف من العدوان الثلاثي ضد مصر ، والعديد من المواقف السابقة واللاحقة ، ما مهّد الطريق أمام الأحزاب الشيوعية نحو استقطاب جماهيري واسع ، ويقول بكداش : أما الموقف من الوحدة بين سوريا ومصر . فلم يكن مضاداً ، نحن كنا وما زلنا مع الوحدة المدروسة لوجود فوارق موضوعية بين الأقطار العربية ، وقد رفضنا حلّ حزبنا آنذاك ، وطالبنا بالديمقراطية كما كانت في سوريا ، وحصدنا الحصاد المرير جراء موقف عبد الناصر منا .

المتوقع عدم إحراز نصر حاسم فيها ، ثم كانت رئاسة البعث للمجلس النيابي مهددة بحلول الإنتخابات النيابية الجديدة أوائل العام الجديد (١٩٥٨) ، كما أن بوادر الخلاف مع الشيوعيين (حلفاء الأمس) على مسألة الاتحاد مع مصر ، لن تترك مساحة لعودة الإئتلاف نفسه ، وسيدمر الإنقسام قواعد الجبهة الشعبية الوطنية التي قامت عليها ، مما سيسمح للأحزاب اليمينية ، كالشعب والوطني والاخوان . . من العودة لاحتلال الساحة السياسية وهناك اعتبار آخر ظل يستأثر باهتمام البعث وهو لا يقل خطورة عما سبق ، فالسعودية والعراق والأردن ولبنان ظلّوا على ارتباط مع الغرب بأشكال مختلفة ، فإذا ما تمّ إحياء حلف جديد معزز بمبدأ فراغ ايزنهاور ، فمن المحتمل أن يكون البعث أول المتحدّين في النزال الجديد ، حيث من الصعب تحديد قوة المعركة المقبلة ، شدتها ومداها ومصير المتنافسين فيها . .

وهكذا صار للبعث معاذيره في الشكوك التي ساورته بمدى إخلاص العديد من السياسيين السوريين في هذه الحقبة ، فعلنية التأييد للمشروع كان يخفي وراءه إعراضاً مستتراً ، وقد شعر الضباط على تباين قياداتهم السياسية ، بأن الذهاب إلى عبد الناصر ، هو خير ضمانة لتعزيز الإتجاه دون العودة إلى الوراء ، **وعندما حطت طائرتهم في مطار القاهرة ، كانت المبادرة في وجه من وجوهها ، محصلة صراع طويل ، بين العسكريين والسياسيين ، وهو صراع شغل السياسة السورية منذ العام ١٩٤٩** . غير أن مبادرة الضباط هذه ، كانت شكلاً من أشكال خطة دفاعية مسبقة ، فمنذ سقوط الشيشكلي وربما إغتيال المالكي أيضاً ، لم يحظ الجيش السوري بقائد عام (ذي كاريزما) يتفق عليه الجميع ، فضباط البعث الأساسيين (مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت) لا تسمح لهم رتبهم العسكرية بقيادة الجيش ، رغم سطوع نجمهما في الإنقلاب ضد الشيشكلي وإعادة زمام الأمور إلى المدنيين ، وعفيف البزرة كان محايداً قريباً من الخط الشيوعي ، وقد جيء به كرئيس للأركان السورية ، إثر تهديد من الضباط البعثيين أنفسهم بعد مشكلة قطنا واستقالة رئيس الأركان السابق اللواء توفيق نظام الدين ، وأمين النفوري ومعه كتلة المستقلين القوميين (حنيدي وطعمة وجاد وعز الدين وأكرم الديري)* ، كانوا يمثّلون خطاً حيادياً

---

* عبد الحميد السراج رئيس الشعبة الثانية (المخابرات العسكرية) في حينها . رغم حمويته . فقد ظل يمثل خطاً سرّياً قريباً من البعثيين إلا أن أطواره المتقلّبه وميله الشديد للحذر . واكتسابه خبرة مخابراتية عالية ، ظلت تطبع حياته بميسمها الخاص والشخصي . وكانت هذه الطبائع الخلفية لا ترشحه لمنصب القائد العام للجيش .

أقرب إلى الصداقات الشخصية منها إلى العمل السياسي المنتظم ، رغم أن النفوري كان يلوذ بخالد العظم أحياناً . . . وفي مرحلة من المراحل ، بدت أن هذه الأجنحة المتصارعة خفيةً ، والمتحالفة علناً ، قاب قوسين من الإنفجار ، ومن الطبيعي أن تزداد المخاوف ، طالما أن المتصارعين كانوا على رأس أعمالهم في القوات المسلحة . .

سيكتب شعراوي جمعة وأمين هويدي وكيلا المخابرات المصرية العامة ، تقريراً من سوريا (بعد جولة دامت شهراً كاملاً) وسيقرأ عبد الناصر التقرير (الفروق كبيرة هنا والواقع يختلف ، وقبول الوحدة محفوف بالمخاطر . . النصيحة هي التأجيل) وستؤيد وقائع المباحثات في قصر الطاهرة ، توقعات رجلي المخابرات المصرية ، حين وقع خلاف بين الضباط الحزبيين السوريين والمستقلّين ، كما هدد عبد الله الريماوي مسؤول الحزب في الأردن ، بالاستقالة إذا دُفعت المباحثات نحو الاتحاد الفيدرالي وليس إلى الوحدة الشاملة . وسيختتم عبد اللطيف بغدادي تلك الشهادات بقوله (**لقد قررنا الإستجابة تفادياً لوقوع سوريا في براثن الشيوعيين**) . .

على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من القاهرة ، كان يجري في أنقرة ، اجتماع من نوع آخر ، حين سيدخل مسؤول المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط ولبر كرين ايفلاند إلى مكتب وزير الخارجية الأمريكي دالاس في السفارة الأمريكية بتركيا ، حيث سيدور بين الوزير والمسؤول المخابراتي الحديث التالي * : -

قال الوزير : إن أخي (يقصد آلن دالس مسؤول الـ C.I.A) قد أطراك كثيراً ، كيف ترى خطط ناصر للاستيلاء على سوريا .

وقلت في نفسي ما أصعب هذه البداية ، ومع ذلك فقد رأيت من واجبي ألا أبدأ بالموافقة على آرائه فقلت : -

- إنني لا أرى يا سيدي أن ناصر لديه أي خطط للاستيلاء على سوريا ، فالسوريون هم الذين ذهبوا إليه ، لأنهم خافوا من استيلاء الروس على سوريا ، أو أننا سنشجع العراقيين للقيام بمثل هذه المهمة ، أو أننا كاحتمال ثالث ، سنحاول احداث انقلاب جديد هناك ، فناصر لم يزر سوريا قط ، الشيء الوحيد الذي يمكن لسوريا أن تسهم به في

---

* حبال من الرمل ، ايفلاند مسؤول المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط ، دار طلاس ، ترجمة د . سهيل زكار صفحة ٤٨٧ .

اقتصاديات مصر سيكون عن طريق تصدير (المشمش) وليس غيره . .

قلت هذا وأنا أدرك طبيعة السير على أرض خطرة ، حين يكون مزاج وزير مثل دالس معكراً . . إلا أن الرجل لم يبد إنزعاجاً ، فتماسكت من جديد مطلقاً العنان لرأيي قائلاً :-

- إن موعد الوحدة ، سيدي الوزير ، سيكون خلال أيام على أبعد احتمال .

قال الوزير : ما هو رأي الروس بهذه الخطوة ، لا بد أنهم خلفها . . وغامرت من جديد بإبداء رأي معاكس فقلت :-

- إن ما نعرفه هو أن دمشق والقاهرة لا تذيعان شيئاً عن مواقف السوفييت من الوحدة ، ويخيل إلى أن السوفييت يؤيدون موقف الحزب الشيوعي السوري في معارضته للوحدة ، فهم يفضلون ابقاء الوطن العربي موزعاً ، ذلك أسهل لهم ، كما أنني أوافق رئيسي (يقصد آلن دالس) في عدم ابداء موقف معارض من قبلنا . .

سألني الوزير وهو يرمقني من تحت نظارته :

- لماذا تعتقد أن الموقف المعارض من قبلنا ، سيكون مُضراً بسياستنا ؟ وأجبت على الفور :-

- ياسيدي أنا متأكد أن ناصر يشك بنجاح العملية برمتها ، فقد أرسل فرعنا في القاهرة بتقارير تفيد بأن ناصر قد فوجئ تماماً بكل ما حدث ، ولاشك أن إدانتنا للوحدة ، ستدفع بناصر للاتحاد مع سوريا رغم ارادتنا . . فعندما رفضنا تمويل سد أسوان ، أمم قناة السويس ، وعندما رفضنا تزويده بالأسلحة ، ذهب إلى المعسكر الشرقي للحصول عليها . . .

تنحنح دالس ثم شخر مبدياً عدم رضاه . . إذ لم يكن معجباً بما قلته ، فطلب إلي - في حركة تنم عن انتهاء الجلسة - أن أثابر على عملي الذي أنا بصدده في المنطقة . .

ويتابع إيفلاند روايته فيقول : كنت أعلم أن دالس كان ميالاً لرأي واحد يقول بأن الروس عازمون على أخذ المنطقة بوساطة ناصر ، إلا أن نصيحة عدم التعرض للوحدة كانت قد أخذت منه مأخذاً ، وهكذا طوى البيان الختامي لدول الشرق الأوسط المجتمعة مع دالس في أنقرة (إدانة سوريا في توجهها هذا) ولم يأت البيان على كلمة إعتراضية معادية ضد الوحدة المقترحة . . .

كان عبد الناصر حائراً بين خيارين لكل منهما أسبابه ودواعيه : -

- اختلاف التجربة السياسية والإقتصادية في مصر عنها في سوريا .
- عدم وجود جغرافيا مشتركة .
- طبيعة مراكز القوة في الجيش السوري .
- ثم تهديدات الغرب المحتملة جراء عقد مثل هذه الوحدة المستعجلة .

وكان لخياره الإيجابي دواعيه ومبرراته أيضاً :

- قبول الجيش السوري بقيادته دون تردد * .
- التيار الشعبي المؤيد للوحدة بقوة .
- النظر إلى القومية العربية وهي تتحقق في أول تجربة عملية لها في التاريخ الحديث وهو قائدها الأول .
- حماية سوريا من مخاطر التيارات الخارجية اللاقومية أو المرتبطة بالغرب الاستعماري .

ولكن كان هناك شرطان لعبد الناصر : -

- إبعاد الجيش عن السياسة نهائياً ، سواءً في مصر أو سوريا .
- تكوين قيادة سياسية موحدة وحل الأحزاب السياسية في سوريا .

هذا وسيعترف صلاح الدين البيطار مراراً ، بأنه (**لم نكن نملك برنامجاً محدداً ، واقعياً أو علمياً لدولة الوحدة المقبلة ، لذلك وتحت وطأة التيار الجارف ، اضطرت للتخلي عن فكرة الإتحاد ، والقبول بالوحدة الشاملة ، هكذا كما فرضها العسكريون والشارع من بعدهم**) .

---

* كانت الوحدة بالدرجة الأولى ، هرمُ فَخَار بالنسبة لعبد الناصر ، كما جاءت دليلاً على سمو مقامه ، فبعد أربع سنوات من صراعه ضد الدول الكبرى ، كانت المبادرة السورية تتويجاً قومياً لهذا الصراع ، حيث بدت مصر في صدر المسرح العربي ، كما أن للبعث في سوريا دوراً لم يكن أقل أهمية ، فقد قبل الحزب بكل شيء بما في ذلك التضحية بكيانه التنظيمي وذلك للقناعة المطلقة (بأن خطوة الوحدة أثمن من أن تنهض أمامها أية عراقيل - أكرم الحوراني) ، وأنه لولا البعث لما كانت سوريا - دستورياً - تقبل بشروط عبد الناصر لعقد الوحدة . .

لقد دخل عبد الناصر بيت الوحدة السوري ، بقناعة مشبعة من ماضي مصر ، **حيث تفتحت عيون ابن الصعيد ، على عقود من الخيبات الملكية والحكومية والحزبية ، والإنشاطارات الشعبية بين مؤيد للخديوية ومعارض لها** ، فمنذ أحمد عرابي الخاسر بمرارة في التل الكبير (العام ١٨٨٢) ، ومنذ مصطفى كامل صاحب القلم الحق الذي هو أمضى من السيوف ، حيث لم يسعفه قلمه في رفع الضيم عن مصر ، ومنذ استرداد السودان من الثورة المهدية على يد كيتشنر الإنكليزي ، ومنذ سعد زغلول المُرسَلْ إلى منافي بريطانيا في الجزر النائية ، وبعدها شعاره المرير (مفيش فايدة ياصفيّة) ، إلى مصطفى النحاس والنقراشي واسماعيل صدقي والهلالي . . . الى أن تستكمل دائرة الماضي المصري في ذهن عبد الناصر التاريخي ، حيث سيتم الدخول إلى عالم الوحدة بنفوذ من هذا التاريخ وتأثيره العميق . .

وعلى الضفة الأخرى ، فقد دخلت سوريا بقيادة البعث ومواليه ، بيت الوحدة المصري بمفاهيم مشبعة من تاريخ الشرق وهمومه (هذه المفاهيم المتأثرة بارسالات الغرب) الفكرية والسياسية والقومية ، بحيث لم تكن سوريا سوى قوس من محيط الدائرة الكلية ، فسوريا الصغيرة ليس لها ماض دون ماضي العرب ، وفي مرحلة مبكرة ، دون ماضي سوريا الطبيعية (سورية قومية) ، وفي مرحلة أعلى ، دون ماضي الدولة العربية الواحدة ، وهو الحد الأدنى لأوهام الثورة العربية الكبرى ، **وكانت سوريا جزءاً من هذه الثورة ، إن لم تكن رأسها ، وكانت يد حجازية تطلق النار ، وفي الوقت الذي كانت بريطانيا فيه تحشد ألوف العمال المصريين (فيلق العمل المصري) لأعمال السخرة المتبدية في حفر الخنادق وإقامة الاستحكامات وحفر الآبار ومد السكك الحديدية عبر الصحراء ، كانت الصحراء الأخرى تشهد جحافل اللنبي مع قوات حجازية - شامية وهي تخوض قتالاً ضارياً ضد الجيوش التركية بدءاً من الجزيرة العربية إلى صدر المتوسط وعمقه ، أملاً بتحقيق الدولة العربية الواحدة ، وحين استقر الحجازي فيصل ملكاً على سوريا ، لم يجد مَنْ يمانعه ، وبالعكس فقد كانت دمشق كلها تزغرد لوصول الملك العربي الموعود** .

لقد دخل عالم الوحدة المصرية - السورية ، تاريخَيْن فيهما من التفاوت والانعكاسات ، ما يكفي (للإندهاش) عند أول احتكاك في بداية الطريق . وسينظر خالد بكداش إلى هذه الفروق نظرة سياسية ربما غُلِّفت بما أسماه بالظروف الموضوعية ،

وفي الحقيقة فإن فارق النظرة السياسية هنا عن الموضوعية ، هو الفارق نفسه بين تكتيكين ، ففيما كانت الأولى بإطلاقها تمثل نوعاً من الاستجابة لصوت الجماهير (حيث أن هذا الصوت ، العفوية . . قد لا يكون عاقلاً أحياناً وفي أحيان أخرى يعمل ضد نفسه) ، فإن الفارق الموضوعي بين قطرين عربيين ظل قائماً منذ أيام الإسلام الأولى في صدارته ، وهكذا لتصبح دمشق أمية ، هي غير مدينة ابن أسماء بنت أبي بكر ، ولتصبح الكوفة بعدها ، ارتداداً نحو أصول الصحراء النقية ، عنها في دمشق - بيزنطة لاحقاً * . .

كان بكداش يستهدف الواقع الحقيقي لعدم تماثل الظروف القائمة بين الأقطار العربية ، وكانت الأمة في طور التكوين ، (طالما أنه ليس للأمة دولة واحدة فهي كذلك) ، وكان بكداش يؤكد على ضرورة التمهيد لإقامة علاقات سياسية ، إجتماعية ، إقتصادية . . أخوية بين البلدان العربية المتحررة لخلق جو من الثقة يمكن معه ، ترسيخ أسس التعاون في المجالات بقانون نمو متصاعد . .

هل فشلت الوحدة ، لأن الهادرين من المحيط إلى الخليج ، لم يأخذوا بمثل هذا المنطق المتسلسل العقلاني ، كما سيؤكد بكداش فيما بعد ؟ .

ما هو دور الشيوعي السوري في المبادرة لاطلاق مفهوم وحدوي خاص به قبل الوحدة ؟ . . أم هل اكتفى بنظرية ستالين عن القوميات ؟ ثم هل كان الموقف فعلاً مُؤدى ، أم أنه جاء كردة فعل على ما حصل أو سيحصل ؟ . .

هل تصالح الشيوعي السوري ، مع قوميات أخرى ، غير تلك القوميات الغربية التي نشأت مع ظهور النظام الرأسمالي ، كما حللها ماركس وأصاب في تحليله ، أين هو (ماركس ، السوري اللبناني ، العراقي أو المصري) الذي سيحلل نشوء قومية (البنية الفكرية) ، وليس تطور وسائل الإنتاج المادية ، أو بمعنى آخر ، نشوء قومية (النمط الزراعي - الرعوي) قبل مرحلة إتيانها في صورة متطورة من التاريخ اللاحق . . ما هو

---

* يقول بكداش أيضاً (حمروش ، قصة الثورة الجزء الثالث ص ٥٦) : لم تكن مصر قد تجاوزت مرحلة الحيرة والبحث عن الطريق . . لم تكن قد لجأت إلى الحد من النمو الرأسمالي . . وكانت الاشتراكية التعاونية هي الشعار المرفوع ، وكانت أوهام المصالحات الاجتماعية وحشد كل الطبقات في تنظيم الاتحاد القومي هي الوسيلة السائدة . . . أما في سوريا فكان الوضع مختلفاً . فالأحزاب الحاكمة لها برامجها ، وحزب البعث لم يكن السلطة كلها ، وفيما كانت البرجوازية المصرية تميل إلى العزلة والإنكماش ، كانت البرجوازية السورية خالية من القيود .

مصير ثورات آسيا ، حسب لينين أولاً ، وماوتسي تونغ ثانياً . . وفرانز فانون ليس آخراً بالطبع ؟ . . ما هو موقف الشيوعي السوري من سوريا الكبرى مثلاً ؟ والهلال الخصيب الذي يزيد على سوريا الكبرى ببوابة العرب الشرقية في العراق ؟ هل تم رفض ذلك للوجود الاستعماري القائم في المنطقة آنذاك ؟ أم أن ما رُفض هو الاستعمار والفكرة بآن معاً ؟ . . لا دليل يثبت ذلك أو عكسه تاريخياً ، فالمواقف متقلّبة ، والتبرير اللاحق يجافي أسباب ما قبله ! . .

لقد ربط الشيوعي السوري ، فكرة سوريا الكبرى وهي ذات منشأ سوري قومي في الأساس ، بالاستعمار دائماً ، سواءً كان الاستعمار غربياً محورياً (النازية والفاشية) أم غربياً حلفياً : (بريطانيا وفرنسا) ، ولم يعكس الشيوعي السوري ، وجهة نظر فكرية ، خارج العامل الخارجي ، بحيث يؤدي (داخل الفكرة) نفسها إلى إزالة اللبس الذي ظل محيطاً بموقف الشيوعيين من الوحدات القومية حتى مرحلة متأخرة . . ثم لماذا أخيراً ، تتخذ قوميات شتى في الإتحاد السوڤيتي ، ولا تتخذ القومية الواحدة في موطنها التاريخي - الجغرافي ذات اللغة الواحدة والاقتصاد المتشابه . . الخ .

هل كان ينقص قوميات الإتحاد السوڤييتي تلك الفروق الموضوعية ؟ ما الفرق بين (ألماآتا) وموسكو ؟ أو بين يريڤان ولينغراد ؟ . . أم هل كان الاعتراض على الوحدة ، لا الاتحاد مثلاً ؟ . .

◆◆◆

على صعيد الأحداث فإن ما جرى هو أن جريدة الأهرام القاهرية ، نشرت في عددها الصادر يوم ٢٠ كانون الثاني (أن قراراً تاريخياً قد أُتخذ بعد إجتماع طويل تمّ بين عبد الناصر وكل من البيطار وعفيف البزرة ، وأكدت أن الوحدة دخلت مرحلة حاسمة وعميقة) كما نقلت الأهرام (أن اتفاقاً قد تم على شكل ومحتوى الاتحاد العضوي بين مصر وسوريا)* .

---

* ستنهمر تعابير شتى عن أشكال الوحدة القومية في الانفصال ، ما عرفته البشرية وما لم تعرفه ، فمن الوحدة إلى التحاد ، ومن الفيدرالية إلى الكونفدرالية ، ومن الوحدة المدروسة إلى المشروطة ، ومن المركزية إلى اللامركزية ، ومن الثنائية إلى الثلاثية أو الرباعية (بإضافة ليبيا) وبالرغم من أن الإنفصال عاش ١٥ شهراً ، فإن ما بعده عاش على (الكلام الوحدوي) أربعة وثلاثين عاماً بواقع انفصالي مديد .. ومشروع ! . . .

سيجتمع مجلس الوزراء السوري يوم ٢٢ كانون الثاني للاطلاع على المحضر الذي صيغ إثر اجتماع الضباط السوريين بعبد الناصر في القاهرة ، وسيفاجأ (البعض) من مجلس الوزراء بما جاء في المحضر :

(تتحد سوريا ومصر في دولة واحدة نظامها الجمهوري رئاسي ، يتولى السلطة التنفيذية فيه رئيس الدولة ، والتشريعية مجلس تشريعي واحد منتخب انتخاباً حراً مباشراً من الشعب) ثم تتدرج مراحل التنفيذ باجتماع الرئيسين والحكومتين في القاهرة لاعلان ميلاد الجمهورية العربية المتحدة ، يعقبه اجتماع لمجلسي التشريع في دمشق والقاهرة للتصديق على قيام الدولة الواحدة ، ثم ترشيح رئيس جديد للجمهورية مع تفويضه بإصدار دستور موقت . . كذلك يجري استفتاء للشعب في كلا القطرين ، ثم يعلن رئيس الجمهورية المنتخب وثيقة الدستور الموقت ، ليتم تشكيل وزارة موحدة تقوم بدورها في توحيد مرافق الدولة ، والإشراف على انتخابات الهيئة السياسية الوحيدة : الاتحاد القومي . .

حار مجلس الوزراء السوري المندهش من التوغل بعيداً إلى هذا الحد ، وطالب خالد العظم ووزراء آخرون بتعديل المشروع باتجاه إتحاد فيدرالي ، وفُوض البيطار (وزير الخارجية) من جديد ، باستدراك التعديلات السورية مع عبد الناصر ، وبالفعل فقد سافر البيطار يوم ٢٥ كانون الثاني لطرح الرأي الرسمي السوري أمام عبد الناصر في القاهرة ، إلا أن عبد الناصر كان قد اتخذ قراره النهائي : -

(إما قيام وحدة كاملة وفق الشروط المبلغة إلى الضباط ، أو لا شيء على الإطلاق)* . .

ولم يعد في يد صلاح البيطار ما يحمله * .

---

* لم يقع عبد الناصر تحت اغواء المشروع تماماً ، وظل متردداً في المفاضلة بين تضامن من بعيد ، أو الدخول إلى الحلبة التي بات يعرف عنها الشيء الكثير ، وربما في قرارة نفسه ومن خلال موقفه (إما وإما) كان يريد الإفلات من القفزة إلى المجهول !

* حين نمسي شعب الموافقات المشروطة والمعارضات السمحة ، يقول نيتشه ، يمكن الإستنكاف عن معالجة القضايا الأخرى بمفاهيم التوليد الذهني ، وحيث أن الوحدة التي تريد أن تتخطى جميع أشكال التضارب والشيع والفئات والمصالح السابقة ، فإنها الفرصة التاريخية لولادة الديمقراطية الجديدة . . هذا التوليد الذهني ، يتماهي مع الواقع الظرفي المحدد ، المأمول ، لكنه لا يمثل في الواقع الموضوعي ، أكثر من سعي للتخصيص في الإطار العام ، فالديمقراطية يمكن أن تكون دون وحدة . والوحدة يمكن أن تكون دون ديمقراطية ، الوحدة مع الديمقراطية إرادة إنسانية ، جمعية ما أمكن . لكن تلازمها ليس شرطاً تاريخياً .

كان خيار عبد الناصر النهائي يمضي صُعداً لا نكوص معه ، ومنذ أن بات الشعار في الشارع ، فإنه أصبح من المستحيل استرداده ، أو حتى تمحيصه ، وبدت المفارقة في موقف الضباط المستقلين ، حين أعلنوا من جهتهم ألا شيء غير الوحدة الشاملة مع عبد الناصر ، ومع المشاعر الحقيقية للجماهير ، كانت تنفلت حُمّى مزايدات من عقالها ، واختلط الحابل بالنابل ، بحيث بدا التمييز مستحيلاً بل ونافلاً لا لزوم له . .

سيعلن صبري العسلي في الأول من شباط (تقديراً لخدماته الوحدوية ، كما يريد خالد العظم أن يتندر – المذكرات الجزء الثالث ص ١٥٤) ، بأن (**الوحدة هي ثمرة القومية العربية ، وهي طريق العرب إلى الحرية ، وها نحن نخرج من الأماني إلى التنفيذ لنعلن على الملأ ، ولادة وحدة سورية – مصرية في دولة واحدة اسمها الجمهورية العربية المتحدة**) .

في مجلس النواب السوري ، وبعد التوقيع على وثيقة الوحدة في جو مظاهرة حماسية ، أقر النواب جميعاً ، ترشيح جمال عبد الناصر لرئاسة الجمهورية الجديدة ، وتؤكد المحاضر ، أن جميع النواب كانوا قد حضروا الجلسة ، عدا السيد خالد بكداش الذي غادر سوريا إلى الخارج ، وقد بعث السيد أكرم الحوراني رئيس المجلس النيابي برسالة إلى نظيره السيد أنور السادات ، تضمنت قرارات مجلس النواب السوري ، وهكذا اتخذ مجلس الأمة المصري ، الخطوات ذاتها . في ٢٢ شباط تم الاستفتاء الشعبي في القطرين على انتخاب رئيس الجمهورية ومنحه صلاحيات إصدار الدستور الموقت ، **فكانت النتائج ٩٩,٢٥ بالمائة** ، وفي اليوم نفسه وصل الرئيس عبد الناصر إلى دمشق **لأول مرة في حياته ، فاستقبلته جماهير الشعب بالهتافات المدوّية (فلسطين يا عبد الناصر) (وحّدناها وحّدناها ، وحّدنا أرضها وسماها) . . . وأطل الوجه الجذاب ، حامل العيون الصقرية ، تخط فوديه شعرات الدهر الأشيب ، وظل يبتسم ابتسامة الطيبة المصرية ، من شرفة بيت رئيس الجمهورية السورية ، السيد شكري القوتلي ، حيث سيصبح من الآن فصاعداً ، المواطن العربي الأول** . . وفي الخامس من آذار ١٩٥٨ ، أعلن رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، الدستور الموقت ، ثم أصدر في اليوم التالي مراسيم تشكيل أول حكومة وحدوية في سوريا* (حيث الإقليم الشمالي) ، وأصبح عبد الحميد السراج وزيراً للداخلية وعبد الوهاب حومد للعدل ، وأمين النفوري للمواصلات وأحمد عبد الكريم

---

* السادة : عبد اللطيف بغداد والمشير عامر ، أكرم الحوراني وصبري العسلي نواباً لرئيس الجمهورية .

للشؤون البلدية وفاخر الكيالي للمالية وحسن جبارة للتخطيط وصلاح البيطار وزير دولة وخليل الكلاس للإقتصاد ، أما بقية الوزراء فكانوا من الإقليم الجنوبي . . .

كانت وحدة سوريا ومصر ، صدمة عميقة لنظام القوى القائم في الشرق الأوسط ، إذ أنها أدخلت مصر إلى قلب آسيا العربية ، وقلبت ميزان القوى المحلي ، أو أنها ستعمل على قلبه ، فالهاشميون في العراق طالما تطلعوا إلى إدخال سوريا في فلكهم ، وقد خابت آمالهم بولادة الجمهورية المتحدة الجديدة ، كما شعرت العربية السعودية بتراجع دورها الآن ، حيث طمس العملاق الجديد دورها السابق ، وشعر لبنان بعدم الأمن ، والأردن بعدم الأمان ، أما نقاط ارتكاز القوة العسكرية البريطانية في المنطقة ، فقد أخذت تُعدّ نفسها لمواجهة المد الناصري الجديد . .

كانت سياسة الولايات المتحدة تمشي وفق منظور طاقمها الأمني الكبير ، (وليس طاقم خارجيتها المُنفعل) على قاعدة : **انظر ثم راقب** ، أما الاتحاد السوفييتي فقد بدا **فاتراً تجاه الخطوة الجديدة ، وعلى خطى الدب الروسي ، راح يقيم توازناته المقبلة ، فيما بدا أن الجو المشحون ، راح يطفو على السطح حين تبدّت العداوة الشخصية السافرة بين عبد الناصر وخروتشوف فيما بعد .**

فقد استهلت دولة الوحدة تركيزها ، بما كان عقدة قبلها ، تلك التي تمثلت بمراكز القوة في الجيش الأول ، ولما كان عفيف البزرة هو قائد هذا الجيش ، فقد اعترض على تسريح ٩٤ ضابطاً سورياً من الجيش الأول ، وهو إجراء قام به المشير عامر ، فيما تقول الروايات غير الدقيقة ، بأن المشير كان قد أخذ القائمة من العقيد مصطفى حمدون حيث قام بتحريضه على إجراء التسريحات المذكورة ، والحقيقة أن المشير ، لم يكن بحاجة إلى مثل هذه الخدمات من ضابط بعثي كبير مثل حمدون * ، فهناك السراج ضابط مخابرات الجيش لمدة طويلة ، وهناك عبد المحسن أبو النور ضابط الإرتباط منذ توقيع معاهدة الدفاع المشترك . . **والخلاصة أن عفيف البزرة احتجّ أمام المشير غاضباً على هذه التنقلات والتسريحات ، وفي اليوم التالي على الاحتجاج ، وجد نفسه عن طريق الصحف ، وقد أصبح مستشاراً لوزير التخطيط في سوريا ! . .**

وكانت أول رجّة في عمر الوحدة القصير . .

---

* روى لي السيد مصطفى حمدون ، قصة مغايرة لرواية القائمة ، فحين تم تعيين الضباط البعثيين (عبد الغني قنوت أيضاً) في مناصب وزارية مدنية ، كان لزاماً عليهم أن يحيلوا ما يتعلق بوثائق الضباط البعثيين في الجيش إلى رفاقهم الذين كانوا على رأس واجباتهم في القوات المسلحة . . أما ما حدث بعد ذلك فلا علم له به .

وضمن هذه الظروف المعقدة ، أخذ الوضع العام في الجمهورية الوليدة ، مساراً لم يكن متوقعاً في الأساس ، فقد كانت نظرة البعث إلى أن الاتجاه الوطني - التقدمي ، هو الذي سينظم مسيرة الدولة الجديدة ، وحين بدأ الخلاف حول رئاسة المجلس التنفيذي في سوريا ، بين أكرم الحوراني وصبري العسلي ، بدا أن القاهرة تقف مترددة في نقطة الوسط ، وفي الحقيقة فإن عبد الناصر كان يرى في تعيين البغدادي أو عامر لهذا المنصب ، إبعاداً لأكرم الحوراني الذي يحذره ، ولصبري العسلي الذي لا يثق به . .

ويقول أحمد عبد الكريم ، أن موقف العسكريين بأكثريته المطلقة ، كان إلى جانب ترشيح أكرم الحوراني لرئاسة المجلس التنفيذي في سوريا ، وتم ذلك بالفعل ، بعد أن حسم عبد الناصر أمره بهذا الصدد ، ومع التعيين الجديد سيجرد أكرم الحوراني من مسؤولياته كممثل للحكومة المركزية في المجلس .

ومع هذا التجريد ، سيُسمّى محمود رياض (بطل الوحدة ، كما كانت تُسمّيه الصحافة المصرية) كمستشار شخصي للرئيس لشؤون الإقليم الشمالي ، وسيعطي رياض نفسه (الحق المكتسب) في الإشراف على أعمال المجلس التنفيذي ، وكانت الصحافة المصرية أيضاً ، **تطلق على زوجة السيد رياض (لقب سيدة سوريا الأولى** - نضال البعث الجزء الرابع ص ١٢٤) .

كان رياض يلعب دور الوسيط الفعّال بين الرئيس عبد الناصر وأعضاء المجلس التنفيذي في سوريا ، وكان الحوراني يراقب ذلك بعصبية ومرارة ، وكان عبد المحسن أبو النور ، يلعب نفس الدور على صعيد القوات المسلحة ، فيما إجراءات الإبعاد إلى الإقليم الجنوبي تشمل الضباط القوميين المؤثرين دون هوادة تحت شعار اندماج القوات المسلحة! . . حيث لا عمل في القاهرة . وكان عبد الحميد السراج يلعب (دوره الخاص) في إحكام قبضته على الإقليم الشمالي ، بتشجيع من عبد الناصر ورضاه .

ومع خريف العام ١٩٥٨ ، سيقوم السراج بدوره في اعتقال الشيوعيين السوريين ، حيث يتم تذويب أحد القادة (فرج الله الحلو) بالأسيد ، بعد أن كان قد قضى جراء شدة التعذيب في المعتقل . .

على صعيد الإندماج من ناحية أخرى ، فقد وصل الإقليم الشمالي العديد من مئات الضباط والمعلمين المصريين ، حيث تم تعيينهم في مختلف المحافظات . وسيمارس (البعض) من هؤلاء نزعة سلوكية ذات منشأ مصري أثناء حكم الخديوية أو الملك في

مصر ، الأمر الذي سيُسمع معه ديبُ الإقليمية ، بعد أن تم تجاهل حزب البعث (الموافق على الوحدة) وذي الأكثرية النسبية في مجلس النواب والمناصب الرسمية الأخرى ، من جسم الوحدة التنفيذي .

بالنسبة إلى المعاملات الاقتصادية ، فقد ظهر التباين واضحاً ، بين بيروقراطية القيسوني (وزير الإقتصاد المركزي) ودماثة خليل الكلاس نظيره في سوريا قبيل الوحدة ، وبين الدكتور عزيز صدقي (وزير الصناعة المركزي في حينه) وبين فاخر الكيالي ، نظيره في سوريا قبيل الوحدة أيضاً ، وبدا أن التباين لا يدور في حلبة أشخاص ، بمقدار ما كان دائراً بين نظامين في الأساس ، وقد ظل الصناعيون والتجار السوريون الذين يضطرون للسفر إلى القاهرة بغية الحصول على تراخيص صناعية أو استيرادية ، يعانون من الطريقة البطيئة والمتعالية التي تنتظرهم هناك . .

وفي رواية نادرة من روايات رجال الصناعة السوريين ، أن معارضة صناعية مصرية ، كانت قد أخذت طريقها إلى مكتب الدكتور عبد المنعم القيسوني وزير الاقتصاد آنذاك ، وكانت وثيقة الاحتجاج تطالب بحقوق متساوية مع رجال الأعمال السوريين (صناعة ، تجارة) ، وقد نظر القيسوني في وثيقة الاحتجاج ، فوجد أن موقّعيها هم من أصول سورية أيضاً (شوربجي ، قباني ، سمّاقية) وقد تمصّروا مع الزمن ، فما كان منه إلا أن وضع الوثيقة على الطاولة وقال بهدوء (أنا شايف إنو كلكوا سوريين ببعضكم البعض ، المعارض سوري والمطالب سوري ، إيه ده ما تلاقوا صرفه يا أخي - حمروش - قصة الثورة الجزء الثالث ص ٥٨) .

بعد محاكمات المهداوي الشهيرة في بغداد ، والافصاح عن العلاقات المالية بين صبري العسلي وبغداد السعيد ، سيتقدم العسلي بطلب اعفائه من مسؤولياته ، إلى أن تنتهي اللجنة المشكلة بغرض التحقيق من مهمتها . .

وعلى أثر ذلك ، شكل عبد الناصر حكومة جديدة في السابع من تشرين الأول ١٩٥٨ ، وجاء البغدادي وعامر والحوراني نواباً للرئيس ، وقد أسندت رئاسة المجلس التنفيذي في سوريا إلى المهندس السيد نور الدين كحالة ، وهو رجل تقنيٌ ظل بعيداً عن السياسة وأجوائها المعقّدة ، وراح كل من الحوراني (والبيطار وزير الثقافة آنذاك) يشتكيان من عدم مزاولة صلاحيتيهما للعمل ، حيث مكاتب الوزارة المركزية في فندق (هليوبوليس) بعيداً عن أماكن الوزارات ، يصفق فيها الريح ليداعب ستائرها المسدلة . فيما ظلت الطاولات الرسمية تشتكي من الأوراق التي لا قيمة لها أو عليها .

◆◆◆

كان موقف شمعون في لبنان (سيأتي الحديث عنه) ، المؤيد لمشروع أيزنهاور ، والداعي لمجيء الاسطول السادس إلى شواطئ لبنان ، يؤزم الوضع فوق ما هو مأزوم ، ثم جاءت ثورة تموز في بغداد (سيأتي الحديث عنها لاحقاً) لتزيد الأوضاع انفعالاً ، هذا وسيقول صدّيق شنشل لعبد الناصر في إجتماع معه بعد الثورة (لا أكتمك سيدي ، اثنان قاما بالثورة العراقية ، أحدهما مجنون والآخر نصف عاقل) .

لقد جرت مياه غزيرة في النيل وبردى ، قبل أن يتم تعيين المقدم عبد الكريم النحلاوي كاتم أسرار الجيش الأول في مكتب المشير عامر ، وسيعترض عبد الغني قنوت ، الذي كان وزيراً للعمل والشؤون الاجتماعية على هذا التعيين . . وعندما سأل المشير عبد المحسن أبو النّور* ، عن هوية الضابط أجاب : -

- ليس له هوية ، إنه غير حزبي ، وهو متديّن ومن أهالي الشام . .

وتبين أن مشكلة الضباط (ابعاد وتقريب نقل أو تسريح . .) بدأت تحفر اخدوداً عميقاً بين القيادة المصرية ، والضباط القدامى من السوريين ، ولم تقتصر الأزمة على الحزبيين من الضباط فقط ، بل امتدت لتشمل غير الحزبيين منهم ، وقد وصلت في النهاية إلى أمين النفوري وأحمد عبد الكريم والهنيدي وحتى طعمة العودة الله . هذا وسيفكر آخرون غيرهم ، بالعودة إلى معزوفة الانقلابات ، بانتظار ما ستجلوه الأكمة عما وراءها ، حيث هرم الأخطاء يكبر . .

كانت المشكلة الأخرى بانتظار القشة التي ستقصم ظهر البعير ، حين انفجرت التحديات الاسرائيلية بتحويل مجرى نهر الأردن ، وللتاريخ فإن سوريا كانت أكثر من حساسة تجاه كل ما يتعلق بمشاريع اسرائيل المستقبلية ، وللإنصاف أيضاً ، فإن عبد الناصر كان بدوره يرى خطراً ماحقاً في تحويل النهر على مستقبل المنطقة ، لذلك تقدم الأمين العام للأمم المتحدة داغ همرشولد بمشروع حول النهر ، هو نفسه مشروع جونستون القديم ، الذي سبق لسوريا أن رفضته ، واشتبكت مع اسرائيل (عام ١٩٥٣) عند بوادر تحويله في القطاع الشمالي من الجبهة ، وبتدخلات عالمية أوقفت الإشتباكات على أن تتوقف أعمال اسرائيل

---

* يروي أحمد عبد الكريم في كتابه حصاد ص ٣٩٨ أن عبد المحسن أبو النور زاره ذات يوم في وزارته ، وقد طلب إليه علناً ، مساندة تيار صبري العسلي ضد أكرم الحوراني الذي يصرّ على المطالبة بالصلاحيات ، حيث يجب (تقليم أظافره) ويقول عبد الكريم : لقد فوجئت بهذا الطلب الذي لم أكن أتوقعه ، فقلت : هل هذا أمر من الرئيس ، فقال : لا ، قلت : إذن ما علاقتك أنت بالموضوع . . صعق الرجل لجوابي وخرج من المكتب ممتقع الوجه .

الجارية لتحويل النهر . . وهكذا كان .

أشفع همرشولد مع مشروعه وعوداً بمساعدات مالية إلى الجمهورية العربية المتحدة ، إذا تم الوفاق مع اسرائيل حول هذه المشكلة الحياتية . . وعندما عرض عبد الناصر الأمر (دون قرار مسبق) ، جرت مناقشات حارة بين المسؤولين السوريين والمصريين ، وانطلقت يومها كلمة (مزاودة) لتصم السوريين بسبب موقفهم المتعنت . .

كان عبد الناصر يخشى صداماً متصاعداً ، لم تهيء الجمهورية الوليدة نفسها له ، وكان أكرم الحوراني لا يرى خياراً غير اللجوء إلى مقاومة التحويل (بما نمتلك من قوة) ، وقد بنى عبد الناصر نظرته على ميزان القوى المحلي (بين العرب واسرائيل عموماً) ، كما بنى أكرم الحوراني نظرته على ميزان القوى العالمي ، حيث من المحتمل ، مع إطالة أمد العمليات الحربية ما أمكن ، أن يتدخل مجلس الأمن لفض النزاع ، كما تدخّلَ قبل خمس سنوات للموضوع ذاته . .

وحمي وطيس النقاش حتى بلغ مبلغاً ، فقد صرح عبد الناصر بأنه مع هذه العمليات غير المحسوبة ، قد تقدم الطائرات الإسرائيلية على ضرب دمشق ، وامتعض النفوري من هذا التهديد ، وخرج الصامت الدائم عن صمته فقال : -

- ليست هي المرة الأولى التي تقصف فيها دمشق بالطائرات يا سيدي ، فقبل أن يخرج الفرنسيون منها بأشهر معدودات ، قاموا بتدمير أحيائها بالمدافع والطيران ، حتى مجلس النواب لم يسلم من التدمير .

وتدخل صلاح البيطار مهدئاً ، حيث كان يقف إلى جانب الحوراني في قراره الذاهب إلى التصدي المسلح ، وقبل أن يتكلم التفت عبد الناصر إلى المشير عامر قائلاً :

(والله يا أخ عامر ، إذا كان البحث يجري على هذا النحو ، فلتقم قواتك بالهجوم على اسرائيل منذ الغد - الرواية كلها مأخوذة من حمروش - قصة الثورة الجزء الثالث ص ٦٤-٦٥) .

ويضيف أحمد عبد الكريم في روايته لقصة النهر ، أن أنور السادات الذي ظل صامتاً للنهاية علّق بسخريته المعتادة (يظهر أن السوريين عايزين يحاربوا اسرائيل علشان شويّة ميّه - حصاد ص ٤٠٤) .

ولا شك أن هذا الخلاف قد ترك بصماته ، بحيث أطلق العنان لمخيلات الاتهامات

المتبادلة فيما بعد ، ولو أن تقديرات عبد الناصر ، كانت محكومة يومها ، بواقع الخلاف الناشب مع الإتحاد السوفييتي (١٩٥٩) ، أو بصورة أدق ، بتقاذف العبارات الشخصية! . . بين خروتشوف وعبد الناصر . .

سيختلف مصطفى حمدون ، الذي أيده عبد الناصر في موقفه تجاه الحد الأقصى لملكية الأرض في سوريا ، سيختلف مع المشير ، حيث كان للأخير وجهة نظر أخرى ، وسيصرح عامر العائد من القاهرة إلى دمشق ، بأن مشاكل الإصلاح الزراعي ستحل عن طريق لجنة خاصة سيشكلها هو لهذا الغرض . . وكان ذلك تحدياً لصلاحيات الوزير المختص . . وقبل ذلك بقليل كان وزير الإعلام السوري السيد رياض المالكي قد قدم استقالته لتدخلات المشير المتكررة في عمله ، كما أن الاستقالة من جهة ثانية ، جاءت احتجاجاً على المدرسة الغوغائية التي يديرها الأستاذ أحمد سعيد من صوت العرب . . وقد أعلن المالكي (أن المزايدات والصخب والغوغائية ، أصبحت العمود الناظم لسياستنا الإعلامية) .

لقد تفاقم الوضع حيث بات العمل في سوريا للمشير يعاونه السراج ، وعدم العمل للسوريين في القاهرة ، وبدت مظاهر الإنكفاء مع الطلب المهمل الأخير للحوراني بضرورة المشاركة الفعلية في الحكم ، وقد تبين للبعث ، الخاسر الأكبر في انتخابات الإتحاد القومي ، وما قوبل به من شماتة الأحزاب السورية القديمة ، أن الساحة ليست ساحته ، وأن الأمل في الحصول على الحصة الكبرى في سوريا قد خاب ، وأن الحلم في المشاركة باتخاذ القرارات قد تبخّر .

في نهاية شهر كانون الأول من العام ١٩٥٩ وخلف استقالة المالكي بسبعة أشهر ، قدم أكرم الحوراني وجميع الوزراء البعثيين استقالاتهم من الوزارات المركزية والتنفيذية ، **وأبلغ الرئيس عبد الناصر بنبأ الاستقالات فقبلها على الفور ! . .**

لقد أعلن راديو القاهرة قبول الرئيس لهذه الاستقالات الجماعية في اليوم نفسه ، ولم تترك أجهزة الإعلام صغيرة ولا كبيرة إلا أحصتها ، بحيث صفقت الأبواب جميعاً ، تحت وابل من الإتهامات الفظيعة ، السياسية منها والشخصيّة * . ثم هرع الآخرون لتقديم

---

* كانت إذاعة صوت العرب الداوية ، تطلق العنان لنفسها في توجيه اتهامات مشينة تنأى عن السياسة بحق قادة البعث الثلاثة ، هذا فضلاً عن البذاءات المقذوفة بحق ضباط البعث . حيث صوروا كسكارى أو كقطاع طرق ، وكان هذا الاسلوب جديداً في الحياة السياسية العامة . وقد كان من المألوف أن تختلف مواقف الأحزاب والأشخاص تجاه قضية ما . وكان الخلاف حقاً مشروعاً لكل ذي رأي له الحرية فيما يقول ويفعل ، وصحيح أن الإنقلابات العسكرية كانت تئد الديمقراطية من حين لآخر ، لكن إذاعات حسني الزعيم والحناوي والشيشكلي كانت تطلق لقب (السيد) ضد أي من خصومها السياسيين ! . . .

استقالاتهم بتوقيتات متباينة ، وحتى السراج نفسه ، لم يسلم من الإستقالة من رئاسة المجلس التنفيذي في سوريا حين أعلنت القاهرة النبأ على الملأ قبيل أيلول بأشهر معدودات .

كان عبد الحميد السراج ، الذي بات يئن تحت تصرفات المشير العلنية والسرية ، يفكر بمخرج لنفسه ، وقد وجده في أجهزة المخابرات العسكرية السورية ، كما وجده في لوائين مدرّعين يحيطان بدمشق إحاطة السوار بالمعصم ، وقد فكر عن طريق الرائد جاسم ويس (وهو رائد في الشرطة العسكرية) أن يشاور بعض الناقمين (أو كما كان يبدو له) من العسكريين القدامى ، وهكذا تم التشاور مع النفوري وأحمد عبد الكريم ، ولما لم يلق استجابة تُذكر ، عاد وانكفأ علّه يهتبل فرصة أخرى ، وكان النحلاوي كاتم أسرار المشير (الجيش الأول) قد سبقه في اتخاذ القرار ، فمع فجر الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦١ ، ودون إطلاق نار ، سمع الناس مع تلاوة القرآن ، منادياً يقول (إن القوات السورية المسلحة ، قررت القيام بتصحيح الوحدة من انحرافاتها المتفاقمة ، ووضع حد للتسلط المصري على سوريا) . .

وهكذا كان الإنفصال ! . .

ثانياً / الريح القادمة من البحر - الرئيس المحارب

وطد السفير الأمريكي في لبنان ماك كليتتوك علاقاته المباشرة مع رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون بمجرد الإعلان عن قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وكان من جملة آرائه تعديل الدستور كي يُسمح لشمعون بتجديد انتخابه مرة أخرى ، ولم يمض على مزاولة السفير لعمله رسمياً أكثر من شهر واحد ، وقد جرت تعيينات واستبدالات محمومة على صعيد الدبلوماسية والأجهزة الأمنية CiA في الشرق الأوسط .

كان مسؤول المخابرات الأمريكية في الشرق الأوسط (١٩٥٠ وحتى ١٩٨٠) المستر إيفلاند - يعمل من خلال بار فندق السان جورج في بيروت ، وما أن قدم فيلبي (العميل المزدوج للمخابرات البريطانية والروسية) حتى غير إيفلاند أماكن تردده المعتادة .

فقد أُبلغ إيفلاند من قبل رئيسه آلان دالس ، أن يعيد اتصالاته مع الرئيس شمعون (كانت هناك صداقات خاصة وقديمة بين الرجلين حسبما يروي إيفلاند في كتابه حبال من الرمل) على أن تكون هذه الإتصالات بعيدة عن علم السفير الأمريكي نفسه . وكانت

نصائح الخارجية الأمريكية للرئيس اللبناني في ذلك الوقت ، أن يعلن أنه لا يريد ترشيح نفسه ، كما أنه ليس راغباً بتجديد رئاسته ، ورأت الخارجية الأمريكية مع هذه النصائح ، أن البلاد مقبلة على اضطرابات شديدة ، وقد كلف ايڤلاند بإبلاغ الرئيس شمعون بأن نصائح الخارجية الأمريكية بعدم التجديد أو الترشيح لولاية ثانية ، ما هي إلا نصائح وقتية ، تستدعيها ظروف البلاد الآن ، **وكانت ملاحظة ايڤلاند الأخيرة هي ألا يخبر شمعون السفير الأمريكي بما يجري من ترتيبات خاصة بأجهزة الأمن ، وليس بالخارجية الأمريكية ، وكان ذلك كافياً لتشويش شمعون وطريقة أدائه في المستقبل .**

كان شمعون قد انضم إلى حلف القبول بمشروع أيزنهاور مقابل معونة مالية وعسكرية للبنان ، ولما كان الرؤساء ! . . يعاملون لبنان كمزرعة * ، فإن جزءاً من هذه المعونات (لاقانون لها) ، سيأخذ طريقه إلى حياة الدعة والرفاهية في القصور ، وليالي أوروبا الساهرة خلف البحار ! . .

كانت ديمقراطية لبنان القلقة ، حيث شكل المجتمع فسيفساءه الخاصة ، أقرب ما تكون إلى العيش بالقرب من برميل من الديناميت ، وكان الإخلال بالتوازن بين الطوائف وداخلها أيضاً ، يمثل فتيل الإشتعال تحت هذا البرميل ، وقد أصبح مفهوماً ، أن سياسة التجديد للرئيس شمعون ، أصبحت محل خشية لا من المعارضة فحسب ، بل ومن الطائفة المارونية نفسها ، مما حدا ببطريرك الطائفة المعوشي إلى التحذير من اللعب بالنار .

سيقول شمعون في محاورة مع الصحفيين يوم ٢١ أيار من العام ١٩٥٨ (لم أقل ولا مرة أنني أريد التجديد للرئاسة ، وبالعكس فما قلته أنني لا أريدها ثانية) .

قبل ذلك فقد جرت مياه دافقة في أنهار لبنان العذبة ، فقد جرت صدامات مسلحة بين جماعات المعارضة وقوات الحكومة في شهري آذار ونيسان ، إثر الانتقادات المريرة الموجهة إلى الحكومة ، خاصة لعدم إرسال الولايات المتحدة حسب وعودها لأية مساعدات كان

---

* هذا لا يتوقف على رؤساء الجمهورية فحسب ، ففي لبنان ثلاثة رؤساء وراءهم ثلاث طوائف ، رئيس الجمهورية ووراءه الطائفة المارونية ، ورئيس المجلس النيابي ووراءه الشيعة ، ورئيس مجلس الوزراء ووراءه السنّة ، وقد عُمل بهذا الاتفاق منذ الثلاثينيات ، لكن تفرعات سياسة أخرى ، كانت تعطب المعادلة في كل حين ، وللتاريخ فإن أول رئيس يرد لبنان إلى الطائفية السياسية الدموية هو شمعون ، كذلك فعل الآخرون من ملوك الطوائف .

يتشدق بها وزير الخارجية السيد شارل مالك ، وقد كان ذلك ثمن الإنضمام إلى مبدأ أيزنهاور ، ثم تعاظمت مشاعر العداء للولايات المتحدة ، بموازاة الإصطفاف المضاد إلى جانب الرئيس شمعون ، وأعلن لبنان نفسه ، بأنه أصبح ساحة حرب بين فريقين أو أكثر . . وما زاد الوضع تعقيداً أن الحكومة أعلنت على الملأ ، بأنها ستطلب قرضاً أمريكياً بمبلغ ٢٣٠ مليون دولار لغايات تنموية تتصل بالسنوات الست المقبلة ، فما كان من السفير الأمريكي إلا أن أعلن من جانبه بأنه ليس هناك نيّة لزيادة حجم المساعدات المالية إلى لبنان .

في ٨ أيار اغتيل الصحفي نسيب المتني (صاحب جريدة التلغراف) ، فما لبثت المعارضة في جبهة الاتحاد الوطني ، إلا أن أعلنت الإضراب العام لاغتيال المتني (على يد الحكومة . . .) فيما أنكرت الحكومة من جهتها هذا الإتهام الزائف ، لكن الإضراب الشامل جاء ليعم لبنان كله في الثاني عشر من أيار ، وقد حصد الإضراب في مصادماته مع الحكومة عشرات القتلى والجرحى ، وتولى الجيش مهام إعادة الأمن فيما كانت تدور الإشتباكات في أرجاء متفرقة من البلاد .

وتزامنت الأحداث مع اقتراح مقبول من لدن الأطراف المتقاتلة ، وهو يفضي باستقالة حكومة السيد سامي الصلح وتكليف اللواء فؤاد شهاب (خصم شمعون الماروني) بتشكيل حكومة جديدة ، وألحقت المعارضة بذيله طلباً آخر ، هو أن يعلن رئيس الجمهورية عدم المس بالدستور لتجديد ولاية ثانية ، وقد تصادف أن مأساة الوضع الشعبي كان يحتم القبول بطلبات المعارضة السياسية ، وكان ذلك . . إلا أن طلباً إضافياً – من المعارضة – بإعلان الرئيس لاستقالته فوراً ، كان يضع الأمور في الطريق المسدود ، فقد تصدعت عرى (الجبهة) نفسها ، قبل أن يرفض شمعون هذا الطلب ، ولما فوتح اللواء شهاب بهذا الطلب الإضافي ، أعلن عن رفضه لجميع المساعي السابقة ، ولكي يحفظ خط الرجعة ، أعلن من جهته (أي اللواء شهاب) بأن تكليفه برئاسة الوزارة يعتبر لا دستورياً ، حيث يوجب الدستور أن يكون الرئيس من الطائفة السنيّة .

لقد حَمَيتْ الرؤوس حينما أصرت (الجبهة) على مبدأ استقالة رئيس الجمهورية ، وشن مسلحون بالمئات هجوماً قوياً ضد القصر الجمهوري في بيت الدين ، ثم سقطت صوفر في يد المسلحين ، فيما ظلت القوات اللبنانية المسلحة في وضع المراقب من بعيد* .

---

* وذلك ما أوهى العلاقة بين شمعون وشهاب ، فقد كان يرى الأول أن واجب القوات المسلحة هو الدفاع عن الشرعية مهما كان الأمر ، وكان شهاب يرى في دخول الجيش ساحة الإقتتال السياسي ، ما يجعله نهبة للتشرذم ، فكون الجيش من جميع الطوائف ، إذن لا بد من انقسام وحداته وضباطه حسب الإنتماءات اللبنانية .

خصصت السياسة الأمريكية في هذا الوقت المأزوم ، رجلين لمهمتين ، واحدة إلى جهة الشرعية والأخرى إلى الاتجاه المعاكس تماماً ، فقد تخصص إيڤلاند بالمواظبة على العلاقات المباشرة مع الرئيس اللبناني ، كما تخصص كليتتوك السفير بالذهاب إلى قاعدة المعارضة للوقوف على مطاليبها الواقعية ! . . ووصف الرئيس الأمريكي أيزنهاور بأن ما **يجري في لبنان هو من ايحاء الشيوعية وتنفيذ الجمهورية العربية المتحدة ، وهكذا جرى اغلاق مراكز الحدود مع سوريا ، كما طرد ١٢ ألف سوري من لبنان .**

وازدادت الأوضاع تفاقماً ، حين هدد زعماء الشيعة في الجنوب ، بحرب أهلية شاملة ، (إنْ لم يستقل شمعون من الرئاسة) ، وفي غضون ذلك كان الرئيس الأمريكي يعكف على اجتماعات مشتركة بين الخارجية ومجلس الأمن القومي ورئاسة الأركان لتقويم الحالة اللبنانية ، التي تنذر بمواجهة بين أمريكا والاتحاد السوڤيتي . .

فقد أعلنت دوائر البنتاغون الأمريكي ، أن مدمرات الأسطول السادس ستجوب المياه على مقربة من الشواطئ اللبنانية ، كما أرسلت سفينة بحراسة مدمرة إلى ميناء طرابلس بذريعة إخلاء الرعايا الأمريكيين ، واستأذن السفير خارجيته بترحيل الرعايا حين يرى ذلك ضرورياً ، فأذنت الخارجية الأمريكية له بذلك ، كما أعلن قائد الاسطول السادس الجنرال مالوي بأنه بعد مضاعفة القوات البحرية الأمريكية ، فإن الاسطول سيقوم بمناورات بحرية بالمشاركة مع الاسطول البريطاني في المنطقة ، فيما كانت الدبابات والأعتدة الثقيلة تحط في القواعد الأمريكية المنتشرة في المنطقة وحولها . .

لم تنتظر المعارضة بالطبع ، وصول الدبابات الجديدة إلى جيش الحكومة ، فخاضت أولى معاركها الكبيرة في الشوف بقيادة كمال جنبلاط ، ثم انتشرت المواجهات إلى طرابلس وزغرتا وعكار والجنوب والجبل ، دون أن تستثني العاصمة وضواحيها الغربية .

أعلن شارل مالك وزير الخارجية ، بأن لبنان سيقدم شكوى ضد تدخل الجمهورية العربية المتحدة في الشؤون اللبنانية إلى مجلس الأمن ، إلا أن فريقاً مارونياً كنسياً عالي المستوى ، نصحه بعدم الإقدام على مثل هذه الشكوى ، وأصدر البطريرك مار بولص بطرس المعوشي بياناً من بكركي يقول : (**إن غبطة البطريرك الماروني والشعب اللبناني بأسره ، يعارضان بشدة هذه الشكوى ويدافعان عن استقلال لبنان ، ولا يسمحان أبداً بأن يصبح لبنان كوريا ثانية ، نتيجة للسياسة الخارجية والداخلية التي يتبعها الحاكمون فيه** - واردة في كتاب نقولا ناصيف - آخر العمالقة - دار النهار - ص ٩٨) .

ويضيف السيد نقولا ناصيف - المصدر السابق ص ٩٩ - على لسان البطريرك المعوشي ، بأنه اقترح حين اشتدت الأزمة ، أن يكون اللواء شهاب رئيساً للوزراء في هذه الفترة الصعبة ، وأن يمضي شمعون إجازة مفتوحة في أوروبا ، لكن سامي الصلح سد الطريق بحجة مارونية شهاب ، وأفصح البطريرك بأن الصلح (مريض بحب الكراسي) ، وأن الرئيس جمال عبد الناصر ، كان قد قطع له الوعد الأكيد ، بأنه ليس في صَدَدِ ضمّ لبنان أو حتى الاقتراب من مشكلاته . .

هذا وسيواظب شمعون على إطلاق الإتهامات بأن هناك عدداً ما بين ٣-٤ آلاف مسلح متسلل من سوريا إلى لبنان ، وأن هناك ما بين ٣٠-٣٥ ألف قطعة سلاح موزعة بين رشاشات وهاونات ومضاد للطائرات بين أيدي جيش المعارضة ، وكلها قادمة من الجمهورية العربية المتحدة ، وكانت الأرقام كالعادة تفتقر إلى الدقة . .

اتخذ مجلس الأمن قراراً * بإرسال مراقبين من الأمم المتحدة للاطلاع ميدانياً على سير الأمور عند الحدود بين سوريا ولبنان ، لكن حدود الأمم المتحدة ، هي غير تلك الحدود التي يتم عبرها تهريب كل شيء ، لذلك كانت (لا عملية القرار) تميط اللثام عن واحد من أسرار الألاعيب في السياسة الخفية الأمريكية ، وكان ابتداؤها أن رئيس فريق المراقبة الدولية (السيد غالو بلازا من الأكوادور) أعلن بأن التسرب السوري إلى لبنان كان على مستوى صغير وهو لا يدعو إلى القلق . لقد وضع صناع القرار في مكاتب الخارجية وغرف الـ CiA المعتمة ، ورقة بيضاء لمستقبل لبنان ، بعيداً عن التآكل الشمعوني الذي أصبح محط انتقاد مرير حتى من قبل الرؤوس الكبيرة في الطائفة المارونية ، وفي استدارة مفاجئة نحو الحليف التاريخي الفرنسي ، سيجيب السفير الفرنسي بطرافة نادرة **(ياسيدي ، أنا لا أعرف مَنْ الذي يقود حكومتي في هذه الأيام ، لذا لا يمكنني الوعد بأي شيء ، كما أنني أدعو الله أن تتغير الأحوال إلى الأفضل قريباً** - ايفلاند - ص ٥٠) .

كان شمعون يعتقد ، وربما كان ذلك صحيحاً من الوجهة الدستورية ، أن بإمكانه

---

* فشلت الجامعة العربية كالعادة ، في سياستها المألوفة للخروج من المأزق اللبناني ، غير أنها كانت تفترق عن جامعة العرب سنة ١٩٩٠ ، فعلى الأقل لم تستدع قوات أجنبية لمحاربة الجمهورية العربية المتحدة أو احتلال لبنان ، مثل ما أعلنت عن انسداد أفق الحل العربي في الأزمة الكويتية فتركت المكان فسيحاً في رضىً ضمني لاستدعاء القوات الأمريكية وتدمير العراق ! .

استدعاء القوات الأمريكية للنزول في لبنان ، وقد أطلق دالس وزير الخارجية تصريحاً يتضمن استعداد الولايات المتحدة لمساعدة لبنان (من أجل الحفاظ على استقلاله) . وقد غضب همرشولد لهذا التصريح الذي يتجاهل وجود مراقبة دولية في لبنان ، وقد قام الرئيس الأمريكي بتعديل تصريح وزير الخارجية بإضافة بسيطة (أمريكا على استعداد لمساعدة لبنان ، بالإعتماد على قرارات الأمم المتحدة) وخشي العالم أن يؤدي النزاع اللبناني إلى نشوب أزمة عالمية بين العملاقين ، ثم ما لبث الوزير دالس ، أن أصغى لايماءات مكتومة ، فبعث إلى شمعون بالرسالة السرية الآتية :

إنني واثق تمام الثقة يا سيادة الرئيس ، أنه بمكنتكم إيجاد الحلول الناجعة لمشكلات لبنان الداخلية ، وعليكم أن تفعلوا ذلك دون حرج أو تأخير ، إن انزالنا لقواتنا في لبنان ، سيعطي مادة إعلامية لخصوم أمريكا (ناصر) في المنطقة ، وقد يعمل على تدمير مصالحنا فيها ، إننا لن ندخر جهداً في مساعدتكم من أجل إيجاد الحلول وحماية استقلالكم الوطني ، لكن دون اللجوء لاستخدام القوات الأمريكية ، إنني ممتن لسماع رأيكم من جديد ، كما أتمنى لكم التوفيق في مسعاكم المشروع) (المصدر السابق - ص ٥٠٨) .

قرأ شمعون الرسالة ، ثم التفت إلى حاملها (ايفلاند) وفي عيونه شرر النار :

- **خذها واحتفظ بها للذكرى .**

ويقول ايفلاند : وبالفعل هذا ما فعلته .

وكان الرهان على الرابح الجديد (شهاب) يلوح في الأفق .

لم تؤد الأحداث الصاخبة في الأيام التسعة التي تلت ثورة تموز في بغداد ، إلى تبديل الموقف النهائي من قضية شمعون الخاسرة ، فبالرغم من نزول عشرة آلاف جندي أمريكي في لبنان ، بناء على طلب شمعون رسمياً ، إلا أن هذه القوات لم تكن تستهدف القتال ضد ثوار المعارضة ، إلى جانب شمعون ، فقد أدت الثورة العراقية في تموز والتي فاجأت جميع دوائر الاستخبارات الغربية إلى زعزعة الوضع من جذوره ، وكانت عملية الإنزال الأمريكية ، رغم الطلب الموجه من رئيس الجمهورية ، تستهدف ايجاد قاعدة للإنطلاق نحو البلدان المجاورة ، وليس إلى محاور القتال الداخلية في لبنان .

وتشير أماكن توضع القوات الأمريكية في محيط بيروت فقط إلى غاية المهمة بكل

صراحة ، وقد فُرضت أوامر مشدّدة بعدم الاشتباك مع الثوار اللبنانيين إلا في حالات الدفاع عن النفس ، وكانت بيروت قد تحولت إلى قاعدة أمريكية إضافية في آسيا .

سيجتمع (روبرت مورفي) ، نائب وزير الخارجية الجديد ، بالسفير الأمريكي في بيروت ، وسَيَشي (كليتتوك) بسرّ المقابلة إلى أحد رجالات السياسة اللبنانيين (غصن الزغبي وكان صديقه المقرب) بأن شمعون بات من الماضي ، وأن للتاريخ حرية تتبع أخباره ، وأن الولايات المتحدة ستقوم باختيار خلف له حين انتهاء فترة رئاسته .

هذا وستحدث مجابهة استعراضية بين اللواء شهاب ، الذي أحب أن يأخذ دور يوسف العظمة ، ولكن دون ميسلون ، أي في (ساحة البطيخ) بالقرب من المطار ، عندما أعلن عن رفض القوات اللبنانية المسلحة دخول القوات الأمريكية إلى بيروت ، وسيجد في خمسة وثلاثين ألفاً من جنود البحرية الأمريكية التي تقلّهم وتحرسهم عشرات السفن البحرية الضخمة ومئات الطائرات المحمولة في عرض البحر ، ما يغري على المنازلة الكلامية ، وسيفضّ السفير الأمريكي النزاع الصوري ، باقتراح وسط ، وهو يفضي بإنزال القوات الأمريكية على شكل مجموعات بفواصل زمنية متباعدة بعض الشيء ، وسيتفكه مورفي بسيف شهاب الخشبي ، عندما قاده إلى مرتفع يطل على البحر وقال له : -

سيدي الجنرال ، أترى ذلك الجبل المقيم فوق سطح الماء (يقصد حاملة الطائرات العملاقة - ساراتوغا) ، وصمت شهاب فتابع مورفي بهدوء : -

فوق هذا الجبل نحواً من مئة طائرة ، كل واحدة تحمل سلاحاً نووياً كافياً لازالة بيروت وضواحيها عن وجه الأرض . . إنني هنا يا سيدي الجنرال ، لأتأكد ، وهذه هي مهمتي ، بأنه لن تكون هناك حاجة لأي أمريكي باطلاق طلقة واحدة . .

أكد شهاب بعد فراغ مورفي من تهديده ، بأنه لم يكن ولن يكون هناك أي أعمال إثارة أو تهديد من الجانب اللبناني ، طالما أن القوات الأمريكية تحافظ على حيادها في الصراع الداخلي ، وتابع شهاب : فإذا ما استمر الموقف على هذا النحو ، فإنه بمقدور القوات اللبنانية المسلحة السيطرة على الوضع .

كانت آمال شمعون بعد الهجوم الأخير على قصره ، قد تبددت ، فقد أوضح

مورفي، بأن اشراك الدبابات الأمريكية في قتال القصر ، سيشكل فضيحةً لا سابق لها ، وثارت ثائرة شمعون حين قال :

- أيها السيد مورفي ، يمكنك الرحيل مع قواتك عبر البحر ثانية ، اتركونا لوحدنا ، ثم انتظروا أن يحدث لكم هنا ، ما حدث في العراق .

جادل السفير الأمريكي شمعون قائلاً :

- سيدي الرئيس أقترح عليك قراءة خطاب الرئيس الأمريكي ثانيةً ، فنحن هنا لحماية الرعايا الأمريكيين ، وما سينطوي عليه الموقف بعد أحداث بغداد .

قاطعه شمعون قائلاً :-

- السيد السفير ، عليك أن تقرأ أنت نص طلبي لاستدعاء قواتكم ، ففي الطلب ما يشير إلى مبدأ أيزنهاور علانية . .

ثم تابع شمعون بمرارة : -

لو علم ناصر وثواره ما الذي يجري هنا ، وأن مبدأ أيزنهاور لا معنى له ، فإن قصري هذا سيتحول إلى ركام ، وسأدفن أنا وعائلتي تحته أحياء .

غادر مورفي والسفير قصر شمعون ، وقد همس مورفي في أذن السفير كلمات مقتضبة : (**علينا ألا نعود لهذا القصر ثانية**) .

كان إنقلاب بغداد العاصف ، والذي أودى بحياة العائلة الهاشمية ومعها نوري السعيد وأنصاره ، محط اهتمام السياسة الأمريكية الأول ، وقد تحدث خروتشوف عن إمكانيات الإتحاد السوڤييتي النووية ، فرد أيزنهاور بأنه لا يقبل سياسة الإبتزاز النووي ، ثم دعا لعقد قمة عالمي من أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا والهند ، لبحث مشكلات الشرق الأوسط . .

وبدا أن ثورة العراق ليست شيوعية (كما تم التخيل من خلال راديو موسكو) وأنها ليست ناصرية بمعنى التدبير ، وإن كانت قريبة من الخطاب السياسي الناصري . . وقد تقرر في مؤتمر القمة العالمي المنعقد في إطار مجلس الأمن ، إثبات حسن النية بسحب فرقة أمريكية من لبنان ، على أن يتم إرسال المزيد من المراقبين الدوليين إلى لبنان ، وبنجاح

شارل مالك في انتخابات رئاسة الجمعية العمومية ، كانت الخارجية اللبنانية قد شغرت من مركزها الأول ، كما شغر معها منصب الرئاسة اللبنانية في ٢٣ تموز من العام ١٩٥٨ .

ثم أُرجئت جلسة انتخاب الرئيس في مجلس النواب اللبناني إلى صباح ٣١ منه ، فيما أصر الرئيس شمعون على استحلاب مدة ولايته الدستورية حتى غاية ٢٣ من أيلول ، لآخر قطرة ، وهو الموعد الرسمي لانتهائها .

وقد حددت المعارضة اللبنانية في بيان صادر حول الرئاسة الجديدة مطالبها فيما يلي :

- جلاء القوات الأجنبية من الأراضي اللبنانية .
- قيام حكومة تقبل بها المعارضة الوطنية .
- الحفاظ على مبدأ استقلال لبنان وسيادته .
- الرجوع بلبنان إلى سياسته العربية التضامنية .
- العودة لاتباع مبدأ الحياد الإيجابي عالمياً .

أعلن اللواء شهاب قبوله بمطالب المعارضة السياسية ، وانسحب سبعة من المرشحين للرئاسة هم (بشارة الخوري ، سليم لحود ، فريد قوزما ، إيلي أبو جودة ، جواد بولص ، فيليب حتي ، وألفرد نقاش) وبقي الثامن (السيد ريمون إده) مستمراً بعناد .

لقد تم استيعاب الدرس ، فأُخليت الساحة إلا من اثنين (شهاب وإده) وفاز الأول بثمانية وأربعين صوتاً ، مقابل سبعة للثاني . فبدأت ولاية شهابية قريبة من الجميع (بكركي ، المعارضة ، القاهرة وواشنطن) وبعيدة عن الدرس الذي لم يتعلمه شمعون وآخرون من بعده .

ثالثا / تموز أو الشهر الساخن في بغداد .

لا تبدأ قصة الضباط الأحرار في العراق مع لهيب ثورة تموز في مصر ، كما أُعلن مراراً ، ولو أن الثورة المصرية ، استخدمت كقدوة من أجل تسريع العمل السري وتنشيط خلاياه ، وذلك بإقامة منظمة عسكرية سرّية من أجل الإطاحة بحكم السعيد وخال الملك في بغداد . .

فقد بدأت الرواية منذ حرب فلسطين الأولى ، وكان الضابط الجريء ، الذي خاض

الحروب في صفوف القوات المسلحة العراقية ، المقدم رفعت الحاج سرّي ، هو أبو التنظيم دون منازع .

وعندما نقلّب الصفحات المطوية للعمل السري العسكري آنذاك ، سنصادف أسماءً هي غير تلك الأسماء التي تم تداولها بعد ثورة تموز العراقية ، ولو أن نجوم الثورة ، كانت قد أضاءت مع نهاية العام ١٩٥٤* .

لم يفكر الضباط الأوائل بتدمير النظام الملكي أو مس الملك فيصل (١٨ عاماً) بسوء ، وقد فكروا في البداية بإرسال خطاب سري إلى الملك يتضمن ما آلت إليه البلاد جراء طغيان عبد الآله واستبداد نوري السعيد ، وقد نهاهم المقدم رفعت الحاج سري عن هذه المحاولة خشية أن ينقل الملك الصغير فحوى الرسالة إلى خاله أو إلى السعيد . وقد اختمرت فكرة القضاء على النظام الملكي برمته في العام ١٩٥٥ بعد الإقدام على عقد حلف بغداد .

وعلى تواضعه ، فإن هدف الضباط الأحرار ، لم يكن يتعدى حدود المهمة المباشرة في الإطاحة بنظام الحكم ، فضلاً عن عناوين عامة ، (التحرر السياسي والإقتصادي ، إبعاد النفوذ الإنكليزي وأعوانه ، اتباع سياسة الحياد ، القضاء على الإقطاعية والفساد ، العمل على تحقيق الوحدة العربية) وكانت العناوين متلاقية إلى حد كبير ، مع شعارات الضباط الأحرار في مصر .

وشكّلت الأهداف العامة ، البعيدة والنظرية ، ساحة استقطاب لما يمكن أن يسمى (بجبهة وطنية) ذات فروق ، فقد ابتعد التنظيم عملياً عن الأصول التي أرساها المقدم رفعت ، وبات يفدُ إلى التجمع ضباط من مختلف الميول ، وبالرغم من دخول الشيوعي والديمقراطي والمتديّن ، فإن الاتجاه القومي العام ظل غلاّباً ، ولم يعدم العراق انتهازييه المكوّنين في مرحلة السعيد الطويلة ، حيث كان لهم حصة في تنظيم الضباط الأحرار أيضاً.

---

* مع مغادرة القوات العراقية المحاربة في فلسطين ، أراضي الأردن ، إلى العراق . في نهاية أيار ١٩٤٩ ، بدأ الحديث همساً عن مسؤولية الأنظمة العربية في ضياع فلسطين .. وكان رفعت قد قرر العمل على إنشاء منظمة عسكرية سرّية ، ثم بدأ يفاتح بها المقربين من الوطنيين والقوميين بعد نجاح الثورة المصرية ، فكان منهم : المقدم محي الدين عبد الحميد ، والمقدم رجب عبد المجيد . والمقدم اسماعيل العارف ، والمقدم صالح السامرائي ، والرائد محمد مرهون . والرائد حمدي سعيد . والرائد صبيح غالب ، والنقيب خليل حسين والنقيب صبحي عبد الحميد .. الخ .

لقد أخذ المتذمرون لأسباب مختلفة ، وربما شخصية خاصة ، يفدون إلى الحركة ، الأمر الذي كاد أن يكشفها ، وقد زاد البعث ، الطين بلة ، حين أصدر منشوراً حزبياً ، يحذر من وجود حركة إنقلابية في صفوف الجيش على ارتباط بالإنكليز ، وكان يقصد بذلك حركة لصالح نوري السعيد ، ولكن لَفْت الإنتباه إلى بؤرة الجيش ، كان يهدد بأوخم العواقب .

وقد اجتمع ضباط أحرار مع قادة من حزب البعث (فيصل حبيب الخيزران وتحسين معلّة وشفيق الكمالي) من أجل التنسيق ، دون علم المقدم رفعت ، مما أدى إلى التشديد على العلاقة مع المدنيين في المستقبل .

ومع نهاية العام ١٩٥٤ أقنع اسماعيل العارف العقيد عبد الكريم قاسم بالإنضمام إلى الحركة ، ثم انضم إليها في الوقت نفسه المقدم عبد الوهاب الشواف ، وقبل ذلك بسنة (١٩٥٣) كان النقباء صالح مهدي عماش وقاسم العزاوي وحسن مصطفى قد انضموا إلى الحركة* .

كانت الأخبار المتسربة عن نشوء تنظيم عسكري في الجيش العراقي ، قد أخذت طريقها إلى مبنى رئاسة الأركان العراقية ، إلا أن اللواء الركن عبد المطلب الأمين ، المتعاطف مع الوطنيين ، كان قد حجز التقرير في درج طاولته ، ثم أحرقه ، لكنه نصح رفعت بالكفّ عن التحرك والتزام الحذر ، ثم ما لبث الأمين (لإخلاصه ووطنيته) وهي صفات لا يمكن للمرء أن يخفيها ، أن نقل برتبة وزير مفوض إلى أندونيسيا .

بالنسبة لمراعيد ساعة الصفر ، فقد انتقلت من تاريخ إلى آخر ، لأسباب صُدفية أو إنسانية أخرى ، فقد فكر رفعت باتخاذ موعد للثورة في بداية العام ١٩٥٤ إلا أن تردد قائد سرية الدبابات في كتيبة الملك فيصل المدرعة ، المقدم صالح عبد المجيد السامرائي ، كان قد ضيّع الفرصة .

---

* لم يكن يُسمح بالمناقشات الفكرية أو النظرية كما يحدث في الأحزاب المدنية . فالحفاظ على السرية والتكتم ، كان يمنع الاسترسال في الجلسات ، بحيث تكون محددة ومختصرة وفق التقاليد العسكرية التي لا تسمح بالنقاش أو الاعتراض ، ففي الجيش عادة هناك أمر سرمدي (نفذ ثم اعترض) أما في الخلايا السرية هنا فإن الأمر (نفذ ولا تعترض) ، وكانت الإجتماعات تقتصر على مجرد تلقي الأوامر والتوجيهات والتبيهات مع المواقف المكتفة .

في موعد لاحق (نيسان ١٩٥٤) تم التفكير ثانية ، أثناء تواجد قطعات الجيش في بغداد (لدرء فيضان دجلة الداهم آنذاك) ، إلا أن كآبة الوضع الشعبي وأحزانه حالا دون ذلك أيضاً ، وفي أيلول من العام ١٩٥٦ وبمناسبة إجراء تمرين عسكري ضخم (الفرقتان الأولى والثالثة بقيادة اللواء نجيب الربيعي) اتفق رفعت الحاج سري مع العميد قاسم والعقيد شاكر محمود شكري ، (قادة الألوية الرابع عشر والتاسع عشر) على الاستفادة من التمرين عند خط النهاية في معسكر المنصور ، حيث يتم اعتقال الملك والأمير عبد الآله ونوري السعيد ، مع بعض ضباط الجيش الكبار وفي الوقت نفسه ، تسيطر قطعات حول بغداد على مبنى الإذاعة والبريد والبرق والهاتف ثم لا تلبث قطعات معسكر المنصور أن تنطلق لتعزيزها في بغداد ، وعند اللحظة الأخيرة ، ألغت رئاسة الأركان موعد التمرين لأجل غير مسمّى . .

كانت العيون تراقب ، والآذان تسمع ، والألسنة تلهج ، وكانت فترة خصبة لرفع التقارير من العملاء السريين من كل حدب وصوب ، وكان اتصالاً خفياً قد جرى مع المخابرات العسكرية السورية (السرّاج) لتقييم الموقف إثر العدوان الثلاثي على مصر ، ثم عاد السرّاج ليهمس بحديث ما مع عبد السلام عارف عن طريق رسول ، واستمر هذا التبادل قائماً إلى أن ساقت الأقدار ، عدنان الأتاسي وميخائيل ليان ومنير العجلاني إلى قفص الإتهام بتوريط من بغداد ضد سوريا .

وكانت المؤامرة دافعاً إضافياً لتفعيل حركة الضباط الأحرار في العراق ، وقد آلت الأوضاع مع نهاية العام ١٩٥٦ إلى تشكيل قيادة موحدة للتنظيم ، إلا أن اجتماع الكاظمية الذي حضره كل من : رفعت الحاج سري ، عبد الوهاب الأمين ، اسماعيل العارف ، صالح عبد المجيد ، ولم يحضره كل من : عبد الكريم قاسم ، محي الدين عبد الحميد ، عبد الوهاب الشواف ، كان قد فشل لتغيّب المذكورين .

لقد وصلت الأخبار كاملة إلى الفريق الركن رفيق عارف رئيس الأركان العامة . فاستدعى الضباط فرادى ، وتوعّد بأن مصيرهم سيكون كمصير العقيد صلاح الدين الصباغ (الذي أعدمه نوري السعيد والوصي عبد الآله) ، في حين لم يتخذ أية عقوبات عسكرية أو انضباطية بحقهم ، واكتفى بابعاد اسماعيل العارف (سكرتيره العسكري) إلى واشنطن كملحق عسكري ، ثم بابعاد صالح عبد المجيد كملحق عسكري إلى عمّان ، فيما استقر رفعت الحاج سري في مكاتب التجنيد بعيداً عن بغداد .

سيجد الضباط الأحرار أنفسهم أمام واقعة الضرورة من جديد ، صياغة رأس للهرم القيادي العسكري ، بحيث تكون (لجنة عليا للقيادة) وسيعترض رفعت الحاج سري ضد هذه الفكرة لعدم انسجامها مع السرية المطلوبة ، وكانت وجهة نظره تذهب إلى قيادة مصغرة بدلاً من الإجتماع الموسع الذي تم في بيت الطيار الرائد المتقاعد محمد السبع . وقد وافق المجتمعون على تأليف (اللجنة العليا) بغياب رفعت ، ومع ذلك فقد تم انتخابه عضواً فيها على النحو التالي : -

التسلسل حسب الأقدمية العسكرية فقط :

١ - العميد الركن مُحي عبد الحميد - رئيساً .

٢ - العقيد الركن ناجي طالب .

٣ - العقيد الركن عبد الوهاب أمين .

٤ - العقيد الركن محسن حسين الحسيب .

٥ - العقيد طاهر يحيى .

٦ - العقيد رجب عبد المجيد .

٧ - المقدم الركن عبد الكريم فرحان .

٨ - المقدم الركن صبيح علي غالب .

٩ - المقدم عبد الرحمن عارف .

١٠- المقدم رفعت الحاج سري .

١١- المقدم وصفي طاهر .

١٢- الرائد الطيار المتقاعد محمد السبع .

وفاتحت القيادة الجديدة عبد الكريم قاسم عن طريق وصفي طاهر ، وبعد اجتماع بينه وبين ناجي طالب ، وافق قاسم على الإنضمام للجنة العليا ، وبعد اسبوعين ، حيث موعد اجتماع اللجنة الجديد ، حضر قاسم وبصحبته العقيد عبد السلام عارف حيث فرضه عضواً إضافياً . . وبذلك أصبح عدد أعضاء اللجنة القيادية أربعة عشر عضواً .

لقد تبين فيما بعد - حسب كشوف الأقدمية العسكرية - بأن عبد الكريم قاسم ، كان

أقدم في الرتبة من رئيس اللجنة العميد محي عبد الحميد ، فأعيدت الانتخابات من جديد ، وهكذا صار الوضع كما يلي : -

- العميد الركن عبد الكريم قاسم رئيساً .
- العميد الركن محي عبد الحميد والعقيد الركن ناجي طالب نائبان للرئيس .
- رجب عبد المجيد (عقيد ركن) سكرتيراً عاماً للجنة .

كما اتخذت اللجنة العليا قرارات إضافية منها :

- تشكيل مجلس سيادة من ثلاثة أعضاء تقوم بواجبات رئيس الجمهورية خلال فترة الإنتقال .
- تشكيل مجلس قيادة الثورة من أعضاء اللجنة نفسها .

وتعهد الجميع بعدم تسلم أي منصب سياسي بعد نجاح الثورة * .

كانت القوة الجوية بعيدة عن تنظيم الضباط الأحرار ، وعن طريق عبد الوهاب الشواف ، تم الإتصال بالمقدم الطيار عارف عبد الرزاق ، وعن طريق الرائد ابراهيم جاسم تم الاتصال بالرائد الطيار حردان التكريتي ، وهكذا انضم عارف وحردان إلى الخلايا السرية للتنظيم .

لم يقبل اللواء الركن نجيب الربيعي ، صاحب السمعة الوطنية الحسنة ، بالإنضمام رئيساً للحركة ، رغم استماتة رفعت في تشجيعه ، لكن الربيعي اكتفى بتقديم كل مساندة من خارج اللجنة ، ولعله كان يستذكر سنوات محمد نجيب في الثورة المصرية ، فقد قال ذات مرة للمقدم رفعت متهكماً : (أنا لا أعرف من منكم عبد الناصر ، إذا كنت سأمثل دور محمد نجيب في الثورة ؟! . .) لكن رفعت ، رغم ذلك ، استمر في الاتصال مع هذا الضابط الكبير ولم ينقطع عنه .

سينقل النظام السياسي في بغداد ، اللواء الركن نجيب الربيعي ، قائد الفرقة الثالثة ،

---

* تمت اتفاقات ذات طبيعة أخلاقية أيضاً ، ألا يغدر أحد بأحد ، وألا تُنفذ أحكام بالإعدام ضد أي من ضباط اللجنة مهما كان ، وأن يُكتفى بعزل المخطئ من منصبه ، أو بسجنه إذا أجرم بحق الوطن أو المواطنين . كما كلفت اللجنة بعض ضباطها بالإتصال مع العميدين : ناظم الطبقجلي آمر اللواء الخامس وعبد العزيز العقيلي آمر اللواء الرابع ، ومع العقيد خليل سعيد آمر اللواء الثالث .

والمقاتل المقدام في حرب فلسطين ، إلى منصب تافه ، حيث سيتم تعيينه سفيراً للعراق في السعودية . . سيتم تعيين اللواء الركن غازي الداغستاني ، قائداً للفرقة محله . .

ثم كانت هناك الحلقة الوسيطة* ، بين اللجنة العليا وصغار الضباط في الجيش ، وقد لعبت الحلقة دوراً نشطاً في استقطاب الضباط من صغار الرتب وعلى صعيد جميع صنوف الأسلحة في الجيش ، وقد وصلت هذه الحلقة إلى درجة استطاعت بموجبها أن تضع (خطة عسكرية - سياسية) لبدء الثورة ، وعندما قرأ عبد الكريم قاسم (الجانب العسكري من الخطة فقط دون السياسي) على مسامع اللجنة العليا ، بدا بأن الحلقة الوسيطة باتت تهدد بخطف الدور القيادي ، وتصادف أن الرائد الركن جاسم العزاوي ، قد كال لعبد الكريم قاسم اتهاماً بالجنون أمام سكرتير اللجنة العليا المقدم الركن رجب عبد المجيد ، فخرج الأخير من الإجتماع محتجاً ، غير أن عودة المقدم رفعت الحاج سري (الذي استقال من الجيش في هذه الفترة) إلى اجتماعات اللجنة العليا ، كان قد أصلح الأمور بين القيادة العليا والحلقة الوسيطة . .

ستفشل محاولة جديدة يقودها (الشواف - رفعت) للإنقضاض على قصر الرحاب ليلة الحادي عشر على الثاني عشر من أيار ١٩٥٨ ، وذلك بمناسبة مرور اللواء الخامس عشر في بغداد بعد انتهاء تمرينه في الرطبة ، وتصادَفَ ذلك مع زيارة أمير الكويت لبغداد ، فقد تمكنت قيادة الحركة من تجميع زهاء مئة ضابط في معسكر أبو غريب ، وقبل موعد التنفيذ بساعات قصد الشواف نادي الضباط للاستطلاع فالتقى مصادفة مع الزعيم قاسم والعقيد عبد الرحمن عبد الستار ، حيث طلب إليهما الالتحاق بوحداتهما في معسكر المنصور ، وبالفعل أرسل قاسم رسولاً إلى معسكر جلولاء لإبلاغ عبد السلام عارف بموعد التنفيذ (الليلة) ، وكان معسكر أبو غريب مستعداً ، إلا أن المفاجأة كانت في عدم استعداد اللواء الخامس عشر نفسه ، حيث بعد التمرين مباشرة ، سعى ضباطه المعتمدين ، لأخذ الإجازات والتوجه إلى العاصمة أو المدن الأخرى ، ورأى الشواف تأجيلَ الموعد ، وأبلغ عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف بذلك .

---

* ضمّت الحلقة الوسيطة في نهاية العام ١٩٥٧ كلاً من :

المقدم الركن محمد مجيد ، الرائد الركن خالد مكي الهاشمي ، والرائد الركن عبد الستار عبد اللطيف ، الرائد الركن جاسم العزاوي ، الرائد الركن صبحي عبد الحميد (الذي ننقل وقائع هذه المرحلة من كتابه أسرار ثورة تموز) والرائد الركن ابراهيم جاسم ، والرائد الركن حسن مصطفى والرائد طه الدوري ، وكان لهذه الحلقة دوراً في استعادة روح الشباب للتنظيم .

كانت محاولة أيار درساً متمثلاً حيث بانت من خلاله حقائق الوضع ميدانياً ، فدوائر الأمن العسكرية كانت غائبة عن المراقبة ، وأن لحركة الضباط الأحرار قوة لا يستهان بها ، وأن هذه القوة يجب أن تعمل مجتمعة لا انفرادية لضمان النجاح الأكيد .

في أواخر أيار ستنشب مشادة كلامية بين أعضاء اللجنة العليا ، فينسحب على أثرها عبد السلام عارف ، ومع أن قاسم أيده في موقفه ، إلا أن الأخير واظب على الحفاظ على منصبه في اللجنة ، ومع ذلك فإن حزيران سيشهد موعد انحلال اللجنة بالنظر لاشتداد الخلافات بين أعضائها ، وهكذا ، فإن ما تحسّب منه رفعت الحاج سري ، قد وقع بعد أشهر معدودة من قيام اللجنة القيادية العليا للتنظيم .

ومن أجل رأب الصدع ، فقد تمت محاولة جديدة لتشكيل قيادة عليا (المحاولة من ضباط الحلقة الوسيطة) تضم :

عبد الكريم قاسم - عبد السلام عارف - عبد الوهاب الشواف - رفعت الحاج سري ، مع إضافة ثلاثة أعضاء من الحلقة الوسيطة وعضوين من حركة أيار إلى القيادة الجديدة .

سيعتذر رفعت عن الحضور نظراً لاشتداد المراقبة الأمنية في هذه الفترة ، أو لعلها الذريعة للتملص ، كما يقول ضباط الحلقة الوسيطة ، **ذلك أن رفعت والشواف قررا العمل بعيداً عن فردية عبد السلام وغموض عبد الكريم ، وقد وضعا خطة للإنقلاب يوم ٢٠ من حزيران مع بقية أعضاء اللجنة العليا ، التي تبين أنها مازالت تعمل وأنها لم تحل نفسها إلا ظاهرياً . .**

ستتابع اللجنة المقترحة الجديدة ، اجتماعاتها بهدف التقريب ، حيث بات الوضع ينذر بالإنشقاق بين كتلتين : -

- كتلة الشواف - رفعت .
- كتلة قاسم وعارف .

ولو أن الإنشقاق لم يظهر بعد ، إلا أن وسطاء الخير من الحلقة الوسيطة ، تمكنوا من الإجتماع مع المقدم رفعت ، وعادوا يبسطون أمامه الأهداف العامة للثورة فوافق عليها ، على أن يعود إليهم في اليوم التالي .

كانت الخطط العملية تقضي (بابعاد الملك وعائلته من العراق دون التعرض لأي منهم ،

كما تقضي بمحاكمة الأمير عبد الآله ونوري السعيد ، أمام محاكم القضاء العراقي ، مع مراعاة أصول المحاكم المعمول بها) .

كما ورد في هدف الوحدة القومية ما يلي : - (**بعد الإعتراف الفوري بالجمهورية العربية المتحدة ، يبدأ بعد الشهر الثاني من نجاح الثورة ، مفاتحة الجمهورية العربية المتحدة ، برغبة العراق في الإنضمام إلى الوحدة السورية - المصرية**) . كما ورد في بند الإصلاح السياسي :

(توقف الحياة البرلمانية طيلة فترة الإنتقال ، وتمنع الأحزاب السياسية من ممارسة نشاطها حتى إعلان الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، حيث تُقرر دولة الوحدة أسس الحياة السياسية في البلاد)* .

سيقول عبد السلام عارف ، بأن تفكير عبد الكريم قاسم ، منسجم مع هذه المبادئ دون استثناء ، وقد طلب إلى أعضاء الحلقة الوسيطة (محمد مجيد - صبحي عبد الحميد - جاسم العزاوي وآخرين) التأكد من موقف رفعت الحاج سري النهائي ، فأجيب إلى طلبه ، ثم أوضح الضباط من الحلقة الوسيطة ، بأن رفعت ووصفي طاهر وحسن مصطفى ، على وفاق مع الأهداف التي وضعتها اللجنة الجديدة وأنهم على استعداد لمتابعة العمل .

وآن أوان العمل بالفعل ، لكن بطريقة خاصة ، وكانت إشارة البدء ليلة الثالث عشر على الرابع عشر من تموز .

فقد اغتنم عبد السلام عارف (نائب آمر اللواء ٢٠) فرصة الأوامر بتحريك اللواء من مواضعه إلى الأردن مروراً ببغداد ، وكانت الأوامر عادة أن تتحرك القطعات في وضح النهار ، إلا أن عارف حلّ المشكلة عن طريق عبد الوهاب أمين بصفته رئيس الشعبة الأولى في إدارة الحركات العسكرية في الأركان ، فأصدر له أمراً بوجوب التحرك ليلاً ، وكانت العقبة الأولى قد أُزيحت عن الطريق .

---

* المشكلة في الاستثناءات عادة ، ففترات الإنتقال كانت تنقلب إلى فترات طوال ، بحيث تصبح هي القاعدة والطبيعي هو الإستثناء !.. ألم تر إلى أحكام الطوارئ العربية منذ سقوط فلسطين ، ثم الأحكام العرفية الدائمة ، فالقانون معلق لصالح أحكام استثنائية مضادة ، أي أن معظم الأنظمة العربية تعيش فوق القانون لا تحت ظله .

وكانت الخطة ببساطة تسير وفق الخطوط التالية : -

- تسيطر قطعات بغداد (بأمرة ضباط الحلقة الوسيطة) على معسكر الرشيد وتعتقل رئيس الأركان رفيق عارف .
- يسيطر اللواء ٢٠ بأمرة عارف * ، القادم من جلولاء ، على قصر الرحاب وجميع المرافق الحساسة في بغداد .
- يندفع اللواء ١٩ بأمرة قاسم من معسكر المنصور لتعزيز الموقف في بغداد .
- تعاون كتيبة مدرعات فيصل بأمرة العقيد عبد الرحمن عارف في احكام السيطرة على قاطع الكرخ .
- يقوم الطيارون عارف عبد الرزاق وحردان التكريتي وآخرون بالسيطرة على القواعد الجوية وحماية اللواء ٢٠ أثناء تقدمه إلى بغداد .

وقد جُن جنون ضباط الحلقة الوسيطة خاصة جاسم العزاوي لاستبعاد رفعت من خطة الثورة ، وأصرّ عبد السلام عارف على موقفه بعدم إبلاغ أحد (عدا وصفي طاهر فقط) ، لأن الموقف يتطلب كامل السرية ، وألا وقت للإستشارات الآن ! . . .

كان واضحاً ، أن قاسم وعارف قررا العمل لوحدهما ، وأن مساندة القطعات لهما كانت بمثابة تحصيل حاصل ، ولن يقف القوميون أو البعثيون من ضباط الجيش ، موقف المتفرج ، حين تدق ساعة العمل للإطاحة بنظام حلف بغداد البغيض ، وأن الإلتباس سيكون سيد الموقف ، حين تبدأ المدافع بالعمل ، وأن رفعت مؤسس حركة الضباط الأحرار ، لن يكون بعيداً عن أداء الواجب .

وبالفعل بعد مقاومة طفيفة أمام قصر الرحاب * ، فقد استجابت قطعات الجيش في

---

* كان عبد السلام عارف نائباً لآمر اللواء ٢٠ وقد تمكن بحيلة منه ، إقناع آمر اللواء بالذهاب إلى مقره في الفلوجة لاستقبال لوائه هناك ، وانطلت الخدعة على آمر اللواء حين استحسن الفكرة وذهب مع أركانه إلى الفلوجة مسبقاً ، وهكذا بقي اللواء بأمرة أقدم ضابط فيه وهو العقيد عبد السلام عارف .

* كان مصرع العائلة المالكة في حديقة قصر الرحاب ، نتيجة خطأ ارتكبه أحد حراس القصر ، فقد أطلق النار من مكمنه فوق سطح القصر ، حين رأى العائلة المالكة وعبد الآله يتقدمون للتسليم . وقد أصابت رصاصاته النقيب عبد الله مصطفى ، وارتبك الضباط حين رأوا زميلهم وهو يسقط على الأرض فظنوا أنهم قد وقعوا في خدعة ، وانفلت إطلاق النار على الجميع دون استثناء ..

الموصل (ناظم الطبقجلي) وفي كركوك (عبد الوهاب شاكر) وفي الحبانية (عارف عبد الرزاق) وفي الديوانيّة حيث اعتقل ضباط الثورة اللواء عمر علي قائد الفرقة الأولى ، حين أراد التحرك لحماية النظام في بغداد . .

لم يَعدَمْ نوري السعيد حيلة للهرب ، فقد ظل مختفياً بين الكرخ والكاظمية حتى يوم ١٦ تموز ، حين ستأتي منيّتُه على يد ابن صاحب الدار التي اختبأ فيها (منطقة سعدون) ، وهكذا طويت صفحات الرجل الذي أدار السياسة في المنطقة وخارجها قرابة نصف قرن أو يزيد . .

صار للثورة إذاعة ، وستعلن على الفور ، انتهاء عهد الطغيان ، وتشكيل مجلس سيادة يضم : -

- الفريق الركن محمد نجيب الربيعي .
- السيد محمد مهدي كبة .
- العقيد الركن خالد النقشبندي .

وروعي في المجلس التوازن الطائفي والقومي في البلاد .

ثم تشكلت الوزارة الأولى بعد الثورة :

عبد الكريم قاسم رئيساً للوزارة وزيراً للدفاع .
عبد السلام عارف نائباً للرئيس وزيراً للداخلية .
ناجي طالب وزيراً للشؤون الإجتماعية .
عبد الجبار جومرد وزيراً للخارجية .
محمد صديق شنشل وزيراً للإرشاد .
محمد حديد وزيراً للمالية .
فؤاد الركابي وزيراً للإعمار .
هديب الحاج محمود وزيراً للزراعة .
جابر عمر وزيراً للمعارف
ابراهيم كبة وزيراً للإقتصاد .
محمد صالح محمود وزيراً للصحة .
بابا علي الشيخ وزيراً للمواصلات .
مصطفى علي وزيراً للعدلية .

أما في الجيش ، فقد أحيل على التقاعد ، جميع الضباط الذين هم أقدم رتبةً من عبد الكريم قاسم . ثم صدرت تعيينات جديدة لرئاسة الأركان (العميد الركن أحمد صالح العبدي) وبقية الفرق الأخرى ، إلا أن قراراً بتشكيل مجلس لقيادة الثورة لم يصدر . وكان أول المعارضين لهذه الفكرة عبد السلام عارف ، بتشجيع وتحريض من عبد الكريم قاسم .

لم يكن عبد السلام عارف ، نتيجة لمبادرته وسهولة تحقيق هدفه ، بأكثر من ضابط عجول ، متسرع ومغرور ، فقد عكف بعد معاكسة الضباط القائلين بتشكيل مجلس جماعي لقيادة الثورة بدفعه من قبل قاسم ، إلى الاستخفاف بقاسم نفسه ، وكان يحلو له إطلاق الخطب الرنانة ، فارغة المحتوى إلا من إنشائية ابتدائية* ، أمام ألوية الجيش للحصول على الهتافات لشخصه دون قاسم ، وقد كان يوحي بأنه هو بطل الثورة وقائدها، وبذلك تأسس إيغار الصدر منذ الخطوة الأولى .

سيساهم وصفي طاهر المعين كمرافق دائم لقاسم ، وابن خالة الأخير ، فاضل المهداوي المعين كرئيس للمحكمة العسكرية (تافه ومأفون ، لا يملك لسانه غير السباب) في تحريض قاسم ضد عارف صباح مساء ، وكانا يتعاطفان مع الحزب الشيوعي منذ الأساس .

كان القوميون والشيوعيون في البدايات وما قبلها ، على وفاق بخصوص محاربة العهد الملكي ، وقد اشتركا في جبهة اتحاد وطني إضافة إلى حزب الاستقلال والحزب الوطني الديمقراطي قبل الثورة بقليل ، ثم ما لبث الإنقسام أن أنشب أظافره ، بتزوير برقية على يد السفارة البريطانية في بغداد مفادها أن (عارف سيضطر للتخلص من قاسم) إذا ما وقف ضد الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة ، (وأن عارف سيموت دفاعاً عن هذه الوحدة ، وأنه سيذهب في الوقت المناسب ، لإعلان الولاء لعبد الناصر ، وأن قاسم لن يستطيع الوقوف في وجه هذه الأفكار . . .) إلى آخر البرقية التي دبجتها السفارة البريطانية ونقلها أحد العاملين من الشيوعيين العراقيين فيها إلى أحد أقربائه المقرب من قاسم . .

---

* مثل : لا قصور ولا ثلاجات ، بل جمهورية خاكي ، سماوي ، إلهي ! . .
علماً بأن القوميين كانوا يهتفون له : نحن جنودك يا سلام . . الخ . فيا لفجيعة هذا الوطن برجعييه وتقدميّيه ! . . مما هبّ ودبّ على مقاعد السلطة فيه ، والأنكى أن عارف أراد من (العارفية) أن تكون منافسة للناصرية فيما بعد .

صباح ٧/١٨ سيسافر عارف على رأس وفد إلى دمشق لملاقاة عبد الناصر هناك، وسيطلق العنان لنفسه في ارتجال تصريحات اتفق مرافقوه أنفسهم، بأنها كانت نموذجاً للمراهقة السياسية* ، ومما زاد الأمر تعقيداً تجاهل اسم قاسم من جميع الخطابات والتصريحات . . ومع انتهاء التظاهرة العراقية في دمشق ، تم إعلان اتفاق مبدئي بين الجمهورية العربية المتحدة والعراق يتضمن فيما يتضمن ، تأكيدات على مواثيق الجامعة العربية والدفاع المشترك ، كما شمل الاتفاق (اتخاذ الخطوات العاجلة من أجل التعاون الاقتصادي والثقافي بين البلدين) .

كان قاسم يستذكر تلميحات السير مايكل رايت سفير بريطانيا في العراق من أن ناصر سيبتلع العراق ، وأن وضعه سيكون في مهب الريح بعد ذلك . . ومن غير نظرة إلى الوراء، طفق عبد السلام عارف يبشر بولادة وحدوية جديدة تضم مصر وسوريا والعراق، فتنطلق المظاهرات القومية في الشوارع تأييداً لصراخ عارف وركبه ، وحيث أن المصائر تتقرر في الشوارع ، فقد أدلى الشيوعيون بدلوهم حين نادوا في البداية (فيدرالية فيدرالية ويّا صداقة سوفيتية) ،وفي ذات الوقت ، كانت أسلحة المعونة القادمة من الجمهورية العربية المتحدة ، تتكدس في مخازن القوات العراقية المسلحة ، وكان ذلك أواخر شهر تموز من العام ١٩٥٨ .

وما أن طلعت شمس الأول من آب ، حتى كانت طائرة مورفي وكيل وزارة الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط ، تحط في مطار بغداد .

وكالطبيب الذي يجري فحوصات سريرية ، راح ريتشارد مورفي يسأل قبل الاختبار :

١- هل أنتم على استعداد لتسليم العراق للإتحاد السوفييتي ؟

٢- هل أنتم على استعداد لرمي العراق في أحضان ناصر كما فعلت سوريا ؟

كان قاسم أدهى فطرياً ، من أن يصفه شنشل بمجنون (إذ ما كان صاحبه بمجنون) . .

واطمأن مورفي على صحة المريض ! . . فقد كتب يقول :

(إن قاسم أكد لي وأنا أصدقه ، بأنه لن يجازف بالقيام بالثورة ، في سبيل أن يسلم

---

* أثناء الإجتماع وحين سأل الرئيس عبد الناصر عن أخبار فاضل الجمالي ، هب عارف هبوب العاصفة حين قال لناصر :-

- سيدي أنا جاهز لإرسال رأسه إليك متى أردت . (ثورة الشواف - بقلم العميد المتقاعد خليل ابراهيم حسين - مكتبة بشار ص ٨٣) .

العراق للإتحاد السوفييتي ، ثم أضاف بأنه لم يجازف مع رفاقه لجعل العراق ولاية مصرية ، وقد أعطاني قاسم انطباعاً كرجل داهية يريد أن يلعب على الحبلين بين موسكو والقاهرة . . العراق في مذكرة الدبلوماسيين الأجانب - ترجمة نجدة صفوت ص ٢٦٥) .

ثم وصل مورفي إلى الهدف الأهم حين سأل عن النفط فأُجيب :

(سيحترم العراق التزاماته الدولية السابقة ، وإنه بصدد زيادة كمية الإنتاج من النفط بنسبة ٥٠ بالمئة على الأقل ، وأنه أبلغ عبد الناصر - القول لقاسم طبعاً - بأنه لن يكون هناك أي تعرض لأنابيب النفط في العراق - المصدر السابق) .

كان قاسم يتكلم بشراسة هادئة حين راح يقضم أسنانه كما يقول مورفي : (**حيث الدلائل تشير إلى تسلل كبير لعملاء مصر من ناحية الشمال ، ولم أشك أنه كان مصمماً على صيانة استقلال العراق بعيداً عن القاهرة وموسكو ، وقد أكد لي مراراً ، على الطابع المحلي للثورة ، وأنها صُممت لأسباب وطنية وليست أيدولوجية** - المصدر السابق ص ٢٦٩) .

غادر مورفي العراق يوم السادس من آب (عمر الثورة ثلاثة أسابيع) ، وكان قبلها قد أبرق إلى وزير خارجيته فوستر دالس بمضمون اللقاء ، ثم عقد مؤتمراً صحفياً في بغداد (يوم الخامس من آب) قال فيه :

(لقد أحدثت ثورة العراق صدمةً لدى الغرب ، أما بالنسبة لزيارتي هذه ، فقد حصل لدي انطباع آخر ، إن العراق جادٌ في موقفه السائر على مبدأ الحياد مع الحفاظ على استقلاله الوطني) .

واعترفت الولايات المتحدة بالنظام الجديد في العراق . . .

وكانت بريطانيا أسبق بالإعتراف (١ آب) بعد أن تحققت هي الأخرى بطريقتها . فعند ظهيرة اليوم الأول من الثورة ، طلب مايكل رايت السفير البريطاني في بغداد (من مقرّه الجديد في فندق بغداد الجناح رقم ٢٢٢ ، حيث أحرق الجمهور الغاضب سفارته) طلب موعداً للقاء عاجل مع عبد الكريم قاسم . . . ولم ينتظر السفير طويلاً حين جاءه الجواب بالإيجاب ، وحضر المقابلة كل من عبد السلام عارف ووزير الخارجية والمقدم خليل ابراهيم حسين الذي كان يسجل المقابلة .

ويقول المقدم حسين (ثورة الشواف . ص ٦٤) عن المقابلة ما يلي :-

(لم يسأل السفير عن الرجل البريطاني الذي قُتل خطأً أمام السفارة ، بل كان سؤاله الأول عن الوحدة مع عبد الناصر ، ثم تابع السفير قائلاً دون أن يأخذ الجواب . . إن بريطانيا تعارض الوحدة مع ناصر ، فإذا وصلت آبار النفط هنا إلى يد عبد الناصر ، فلبريطانيا موقف آخر ، وأن على البترول أن يسيل كالمعتاد) .

ولم ينقص السفير سوى أن يكمل : قبل أن يسيل شيءٌ آخر ! . .

سيقوم الملحق العسكري العراقي في لندن ، العميد عبد القادر فائق بعرض خمس ندوات مع محاوريه في التلفزيون البريطاني ، وجميعها تؤكد على نقطتين : -

- الطابع المحلي الإصلاحي لثورة تموز .
- عدم المساس بالتزامات النفط العراقية .

بعد مايكل رايت وريتشارد مورفي ، ستغيب انذارات أنقرة وطهران ، التي كانت تلوح في الأفق ! فقد أثبت الشرق مرة ثانية ، ألا علاقة له بمنطقته ! . . لقد انقسمت ساحة العراق السياسية بعد الثورة بأيام بعد وقوعها ، ولعله من الصعب الإتيان على تفاصيل موضوعاتها حيث الخلاف على كل صغيرة وكبيرة ، وقد ابتدأت بتعيينات الضباط الجديدة ، ثم برفع شعار الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة وتحميل عارف مسؤولية الموقف ، كذلك الخلاف حول استقبال مفتي فلسطين في العراق (كان قاسم يرفض السماح للمفتي بالقدوم إلى العراق ، وكان عارف مع استقباله كبطل قومي في بغداد . وهكذا إلى أن انقلب الموقف بعد اشتداد الأزمة مع عبد الناصر . . فسمح قاسم للمفتي بالمجيء إلى بغداد) ، ثم كانت هناك مشكلة استقبال رشيد عالي الكيلاني الذي أراد العودة لبلده ، (رفض قاسم كالعادة ، ثم تراجع فيما بعد ليرسله إلى محكمة المهداوي في مرحلة لاحقة للحكم عليه بالإعدام مع التخفيف) . ونشب الصراع حول حلّ الجمعيات الماسونية في العراق (لصلة هذه الجمعيات بالصهيونية) كذلك حول مسألة تكريم شهداء أيار ١٩٤١ ، (رد قاسم لماذا لا تكرّمون بكر صدقي ومحمد علي جواد (ابن عمة قاسم) .) ثم عاد الصراع أثناء زيارة الوفد الكويتي برئاسة أحمد الخطيب (زعيم القوميين العرب في الكويت) للعراق مهنئاً ، فدارت تصريحات متناقضة على المكشوف بين قاسم وعارف وذلك يوم ١٩٥٨/٨/٢٨ أي مع وجود الوفد الكويتي في بغداد .

وكان الصراع على دين الدولة ، ففيما أيد قاسم مبدأ العلمانية ، (تبديل الدستور

القديم) ، على طريقة أتاتورك ، وقف عارف إلى جانب الدستور القديم (دين الدولة هو الاسلام) . وبانقلاب قاسم على الجادرجي زعيم الحزب الوطني الديمقراطي . الذي أمضى عمره في معارضة السعيد وأعوانه ، يكون الوضع قد بلغ مأزقاً لا رادَّ لقضائه ، وبالرغم من أن قاسم كان يصف الجادرجي بأنه استاذه ، وأن حزبه (أي حزب الجادرجي) هو حزب قاسم فإن الردة على الرجل ، جاءت إثر تصريح لمراسل التايمز (٣ أيلول) يقول فيه الجادرجي : (**إن العراق جزء من البلدان العربية ، وهو لا يستطيع العيش بمعزل عنها ، وحيث أن الاستعمار كان قد فكك هذه البلدان ، فقد نشأت ظروف خاصة لكل بلد على حدة ، ولكن على البلدان الغنية أن تساعد أخواتها من البلدان الفقيرة عن طريق اتفاقات اقتصادية ، وكخطوة أولى ، لا أجد مانعاً من اتحاد فيدرالي بين العرب ، يشمل النواحي الخارجية والدفاعية مع مناهج لتنسيق الشؤون الإقتصادية والثقافية ، على أن يكون لكل بلد سياسته المستقلة إزاء مشكلاته الداخلية**) .

وقامت القيامة على رأس الجادرجي ومَنْ والاه ! . .

كذلك ثارت مشكلات أدت إلى مزيد من التنازع (قاسم وعارف) ، وقد تبدّت في الموافقة على مرور الأسلحة عبر العراق إلى البصرة ومنها إلى ثوار عُمان ، وكان قاسم يرى في السلاح المُرسل من الجمهورية العربية المتحدة ، بداية التآمر ضده ، وتمكن عارف من إقناعه حين اقترح عليه حراسة قوافل السلاح من الحدود إلى الحدود ، وما أن تهدأ مشكلة حتى تنفجر أخرى ، فهناك سقف تحديد الملكية الزراعية ، وهناك مشكلة تعويض الأستاذ الكبير ساطع الحصري ، حتى وصل الأمر حدّ الاختلاف على وضع الطلاب الراسبين للعام الدراسي ١٩٥٧/١٩٥٨ ، ففيما رأى قاسم وجوب اصدار مرسوم بالغاء نتائجهم واعتبارهم من الناجحين ، اعترض وزير المعارف مع موقف مؤيد من قبل عبد السلام عارف ، وأن هذا المرسوم سيوجه ضربة مدمرة لصدقية التعليم في الجمهورية العراقية . .

كان عارف يقف إلى جانب عودة رشيد عالي الكيلاني إلى البلاد ، كرمز من رموز الوطنية العراقية التاريخية ، وكان يقف ضد عودة الملا البرازاني الذي يعيش في براغ آنذاك . .

وكان قاسم عكس ذلك تماماً ، وحدث الصدام ، وكاد الوضع أن يتفجر ، ثم ما لبث أن تفجّر في الشارع بعيداً عن القيادة * .

ورداً على استقبال الكيلاني من جميع المدن والمحافظات العراقية ، قام الشيوعيون والبارتيون - بتحريض من قاسم - بالتخطيط لاستقبال البرازاني استقبالاً لانظير له من قبل ، ومهدت الصحافة المؤيدة للشيوعيين بتدبيج مقالات صارخة تضفي على الشخصية العظيمة القادمة ، كل آيات التعظيم والتبجيل إلى درجة بدا وكأن البارزاني يقاسم الزعيم في مجزرة الألقاب الموزعة .

ثم أبرق البارازاني من براغ استعداداً للعودة قائلاً :

(فخامة قائدنا المحبوب الزعيم الركن عبد الكريم قاسم بطل الثورة العراقية المجيدة) واعتبر في الرسالة : أن ثورة البرازانيين جزء من سلسلة نضال الشعب العراقي ضد الاستعمار والملكية الفاسدة ، وأن ثورتكم - يا سيدي - قد حققت الهدف المنشود . . . إلى آخر المراءاة والنفاق وانطلق الحزبان (الشيوعي والبارتي) في مباراة ملحمية لاستقبال البرازاني في المطار ، وكادت أن تحدث مذبحة حين استأذن الشيوعيون من قاسم ، (تدمير أوكار الخونة من القوميين) إلا أن قاسم خشي من انهيار الوضع برمته ، فنصح بالكفّ عن الاستفزاز ، والمضي باستقبال الرجل التاريخي بسلام . . .

إن رواية المكالمة الهاتفية التي أرسلها عارف إلى المطار ، تشير إلى مدى السذاجة التي ينطوي عليها الرجل ، إذ يبدو أن ١٤ تموز بالنسبة له كانت ضربة حظ ليس أكثر ، فقد وقع عارف في غضون مكالمة هاتفية لم تتجاوز خمس دقائق في ثلاثة أخطاء قاتلة : -

---

* كان عبد السلام عارف كوزير للداخلية قد اعتمد تقرير السيد سعيد قزاز متصرّف آربيل في العهد الملكي حيث يقول التقرير : لاسلام ولا إعمار ولا اطمئنان ولا استقرار في المنطقة الكردية ما لم يرحل الملا مصطفى البرازاني عنها . ثم أخذ عارف بإحياء التقارير تباعاً ، وكلها تعود إلى العام ١٩٤٥ حيث يقول البرازاني في واحدة من رسائله إلى مستشار وزارة الداخلية الإنكليزي إدمونز: (إنني لا أزال على عهدي معكم حتى الموت ، وإنني والله وبالله وتالله أطلب من جلالة ملك بريطانيا العظمى . ومن همتكم وعدالتها جميع حوائجنا . فبريطانيا أمنا الشفيقة !.. ونحن أولادها!. .) .

وهناك رسائل أخرى تبعث على البكاء ! . .

- هتف إلى صديق له في المطار ، ولما أفرغ ما في جعبته تبين بأن المستقبِل ليس هو الصديق المقصود (إذ كان يقصد صبحي عبد الحميد فرد عليه صَبيح غالب المسافر إلى أنقرة بصفة ملحق عسكري جديد) .
- أفرغ كل ما لديه ، علماً بأن خطوط المسؤولين باتت مراقبة ، وبالذات خطّه هو دون الآخرين .
- ورّط المقصود وغير المقصود في استجواب كاد يأتي على الجميع .

وخلاصة الرواية ، أن عارف أراد توديع رفيقه إلا أن مشاغله حالت دون ذلك ، لذلك كانت مكالمته للإعتذار ليس أكثر ، وكان قد تواجد في المطار لوداع العقيد صبيح غالب ، كل من رفعت الحاج سري رئيس الاستخبارات العسكرية ، والزعيم عزيز داخل ، وفي ذات الساعة كان يتواجد في المطار (يوم ٩ أيلول) كل من العقيد عبد المجيد جليل والمقدم محمد مجيد والرائد صبحي عبد الحميد ، والرائد عبد الرزاق سعيد للسفر على متن طائرة أخرى متوجهة إلى القاهرة (لاتباع دورة تدريبية في شؤون الاستخبارات العسكرية) .

وأخطأ رسول المطار هدفه ، حين ظن أن المكالمة الواردة من عارف ، هي للعقيد صبيح غالب (فيما هي في الحقيقة للرائد صبحي عبد الحميد) ، ولم يستفسر عارف عن هوية الرجل المستقبل ، فأفرغ ما عنده دفعة واحدة ، ولما تيقن العقيد صبيح من أن المكالمة ليست له ، اعتذر قَائلاً : يا سيدي أبو أحمد (عارف) أنا صبيح غالب ؟ فتوقف عارف عن الكلام قائلاً (معلش الحسن أخو الحسين) أرسلْ لي الرائد صبحي عبد الحميد ، وبالفعل عاد الرجل وأرسل له المقصود ، حيث عاد لتكرار التهديد ضد قاسم .

كانت مصلحة مراقبة الهواتف (خلايا شيوعية) قد التقطت صوت عارف وهو يزمجر (الوضع متوتر بين رقم ١ ورقم ٢ ورقم ٢ سوف لن ينتظر طويلاً ، وإذا استمر الوضع سأزيل رقم ١ فقد اتفقت مع ضباط اللواء ٢٠ (لواء عارف أثناء الثورة) وسيكون موعدنا يوم ١٤ أيلول ، لا تنسى ، بلغ تحياتنا إلى الاخوان في الجمهورية العربية المتحدة) .

أجاب صبحي عبد الحميد : سيدي هذا كلام خطير ولا يجوز أن يقال على الهاتف .

رد عارف : لا تهتم ، جماعتنا يسيطرون على كل شيء ! . .

واستقبل عبد الكريم قاسم الرسالة ! . .

مع إقالة عارف من مناصبه ، وإرساله سفيراً إلى بون ، سيصدر رئيس الوزراء (قاسم) مراسيم أخرى بإعفاء جابر عمر من وزارة المعارف (وقف ضد قاسم في قصة الطلاب الراسبين) وإعفاء فؤاد الركابي (صديق عارف في حلّه وترحاله) من وزارة الإعمار ، حيث تم تعيينه بمنصب فخري كوزير دولة لا عمل له .

ستجري مياه غزيرة في دجلة ، حين سيعود عارف من بون ، يوم الخامس من تشرين الثاني ١٩٥٨ دون استئذان أو خبر ، وكانت حجته أن الزعيم وعده قبل مغادرته بالعودة في غضون ثلاثة أسابيع ، فما كان من قاسم إلا أن أودعه السجن رقم ١ .

كان رفعت الحاج سري ، الذي أصبح رئيساً للمخابرات العسكرية ، يكابد مشقة كبيرة في محاولاته ثني الزعيم عن مواقفه المنحازة للشيوعيين والتشدد في وجه عبد السلام عارف ، ولم يُصبْ محاولات رفعت أي نجاح ، وقد حاول العقيد أحمد حسن البكر الذي أصبح قائداً لأحَد أفواج اللواء ٢٠ القيام بالتحرك إلى بغداد ، إلا أن قاسم كان قد استبق الباب بوشاية أحد ضباط البكر له ، فتمّ استجوابه واعتقاله .

في الشهر الأخير من العام ١٩٥٨ ستشهد المحكمة العسكرية في بغداد ، فصلاً من أهم فصول المهزلة المفجعة حين يتم التحقيق مع رشيد عالي الكيلاني رجل الثورة العراقية ضد الاستعمار البريطاني وحاشيته في بغداد ، بتهمة التحريض على الثورة ضد نظام قاسم ، وستصدر المحكمة بقرار من قاسم ، حكماً بالاعدام شنقاً بحق الكيلاني ، إلا أن ظروفاً عراقية وعربية ودولية ، حالت دون التنفيذ ، حيث خشي قاسم من عواقب إعدام الرجل ، الذي حكم عليه الإنكليز بالإعدام عام ١٩٤٣ ، وها هو يُعدم بالنيابة على يد (بطل تموز) .

وباكتشاف المؤامرة المفتعلة ، سيتم تسليم طه الشيخ أحمد ، مسؤولية الأمن والاستخبارات ، ليصبح الرجل الثاني في نظام قاسم ، كما سيتم تجميد مديرية الاستخبارات العسكرية (رفعت الحاج سري) ، مع جميع العاملين فيها ، وقد أصدر قاسم مراسيم بإبعاد العقيد طاهر يحيى عن إدارة الشرطة العامة ، وإسناد الكلية العسكرية إلى العميد داوود الجنابي (شيوعي) ، كما عين العقيد عبد الباقي كاظم (شيوعي) مديراً لشرطة لواء بغداد ، وكان التسلل إلى الوزارات قد بلغ مداه . سيستثمر الشيوعيون فرصة إعلان المؤامرة الكيلانية المدبرة ، ليخرجوا إلى الشوارع في جميع المدن العراقية ، وليهتفوا

جهاراً نهاراً ضد القومية العربية ، كما نشطت المقاومة الشعبية المسلحة ، التي سيطر عليها الشيوعيون ، ونصبّتْ من نفسها دولة داخل الدولة ، وأصبح الثلاثي الرهيب : طه الشيخ أحمد ، أحمد عبد الباقي كاظم ، والميليشيات المسلحة ، بعبعاً ترتعد له فرائص العراق بأسره .

وفي غمرة الفوضى التي رأى فيها قاسم سنداً له ، كانت تتم الاعتقالات الكيفية فتزُجّ الآلاف في السجون بانتظار محاكمات لا تأتي ، وكان من المشين أن يدخل المواطن إلى السجن ثم يخرج منه ، دون أن يعرف ما هي التهمة الموجهة إليه * .

كان كل شيء يجري تأويله على أنه مصلحة لطرف ضد الآخر ، فالوحدة بالضرورة ، ورغم أنف التاريخ ، ستكون للقوميين ضد اليساريين * ، ومجيء مفتي فلسطين تعزيز للقوميين على حساب اليساريين ، فلما وقعت الخصومة بين المفتي وحكومة الوحدة ، تمّ تهليل قاسم لمقدمه إلى بغداد ، وعودة الكيلاني تدعيم للتيار القومي ضد تيار اليسار ، كما أن عودة البرازاني تعضيد لنفوذ اليسار (مسكين تيار اليسار العربي ! . .) ضد التيار القومي ، وتكريم أبناء الشهداء ، يشهر سيوف الأموات قبل الأحياء (هذا من شيعته وهذا من عدوّه) ، ووفد الكويت برئاسة أحمد الخطيب معناه انتصار التيار الوحدوي القومي ، في عُرفْ قاسم واليسار (ليت قاسم بقي حياً ، ليرى ، حين تشتد الخطوب ، عزم القومية الوحدوية العربية في الكويت الآن ! . .) ، والصراع حول دين الدولة ، ترك الأحداث بلا دين ، والسلاح عبر العراق إلى ثوار عُمان تعني المؤامرة ضد اليسار (أو قاسم) في العراق ، (وما جرى في مذبحة البصرة حين تأكد الشيوعيون من الجنود وصفّ الضباط من محتويات الصناديق المرسلة عبر البحر) يؤكد أن المُلكَ عضوض (يا بُني) .

---

* إن مدرسة السجون السياسية في الوطن العربي ، تبعث على الخجل . حتى من الإنتساب للأمة نفسها ، وهذه الحالة المزرية ، هي التي شجعت الغرب على التدخل في شؤوننا الداخلية ، حين راحت كلاب الدفاع عن حقوق الإنسان ، تنبح عند كل مناسبة للضغط أو التخويف .

* نظرية الـ ضد والـ مع هذه ، نحن أمة لا تعرف كيف نختلف فكيف نتفق . فالإختلاف في الآراء ، يعني القطيعة ، والقطيعة تعني الخصومة ، والخصومة تعني سحب السيوف من أغمادها ، وعلى كل صاحب سيف في القبيلة أن يلتحق بأخيه ظالماً أو مظلوماً . لأن الدولة بلا قانون ، وأول من يصرع القانون هو الدولة ، إذن لماذا لا نسبح في برك الثأر والدم؟ . .

كان كل شيء غريباً ، حين بدا أن القائدين (قاسم وعارف) في حلبة من صراع الديكة ، وكانت (الأنا العربية) تعصف بكل شيء .

مع نهاية العام ١٩٥٨ سيُقدَّم عبد السلام عارف إلى المحاكمة ، بتهمة العمل على قلب نظام الحكم ، وكان المهداوي ، كالعادة ، بانتظاره لإعدامه قبل محاكمته . .

غير أن المحاكمة كانت ضرورية لأسباب منها :

- إظهار ثانوية عارف في ثورة تموز .
- مفجّر الثورة ومصممها وخالقها هو الزعيم .
- لم يتم بحث ما يتعلق بالوحدة قبل الثورة .

وكان التلفزيون والإذاعة ينقلان البهتان إلى الناس أجمعين . . وللتاريخ ، فإن عارف هو الذي قاد لواءه إلى بغداد ، وبعد أن تمت له السيطرة جاء دور قاسم مع الآخرين فيما بعد .

وللتاريخ أيضاً ، فإنه لولا حزم عارف في تعيين ساعة صفر الثورة ، لكان من الممكن أن تتبدد مواعيد أخرى ، كانت خاضعة . . من خلال التجارب ، للتكرار أو التردد . وأنه للحقيقة أخيراً ، فإن أحداً من الجيش العراقي أو الحراسات الملكية ، أو حتى أمن عبد الآله أو السعيد ، لم يكن على استعداد حقيقي للدفاع عن قصر الرحاب وما يجري فيه . .

قلَبَ المهداوي التاريخ بجرة قلم ، ثم راح وسط عاصفة من التهريج الهابط ، يكتب على هواه . . وكان قرار الإعدام لعارف مع التخفيف مسرحية هزلية ، هذا وسينام عارف في السجن ، مرسلاً بين الفينة والأخرى (برسائل شوق) إلى الزعيم ! . . وهكذا حتى العام ١٩٦٢ .

وامتدت يد قاسم بتحريض من الشيوعيين إلى الجيش ، فبات يُقصي ويُدني ، حيث طاب للشيوعيين المقام في سلاح المدرعات ومراكز الجيش الأخرى .

سيكون لحوادث إطلاق النار على المتظاهرين وملاحقتهم حتى داخل مسجد الإمام الأعظم في يوم الجيش (٦ كانون الثاني ١٩٥٨) أكبر الأثر في تقديم ستة وزراء لاستقالاتهم دفعة واحدة ، ثم تضامن الشيخ محمد مهدي كبة عضو مجلس السيادة مع

الوزراء المستقيلين ، فقدم استقالته هو الآخر* . ولم يعد الوضع محمولاً . .

كان حزب البعث ، يقلّب الخيارات الممكنة في العراق ، وكان بعض الضباط (الطبقجلي والشواف) قد أقاما اتصالاً مع عبد الحميد السراج وزير الداخلية في الإقليم الشمالي ، وكانت الآراء تتراوح بين اغتيال شخصي لقاسم ، وعصيانات عسكرية في الأطراف (الموصل ، كركوك) ، مع مظاهرات عاصفة في بغداد تدعمها الوحدات العسكرية الموالية . .

وكان رفعت الحاج سري غير الراغب في اهراق المزيد من الدماء ، قد ترأس تنظيم الضباط الأحرار من جديد ، وكان ميالاً لاعتقال قاسم (لا قتله) وابعاده خارج العراق (يجب أن نحاول التخلص من قاسم بطريقة غير القتل ، وما دامت هناك طريقة للخلاص منه فلماذا القتل ؟) ، هكذا ظل يردد رفعت الحاج سري على مسامع التشكيلة الجديدة من الضباط الأحرار ، إلى أن حانت الفرصة للشيوعيين في الموصل . . . فقد أطبق أنصار السلام - قطار السلام - على الموصل ، بعد أن كانت وجهته الحلّة ، فلماذا كانت الموصل بالذات ؟

ومع ذلك ، فإنه يحق لكل حزب سياسي ، أن يقوم بنشاطاته فوق أية بقعة من وطنه ، ولكن ليس بالضرورة في ظروف غليان قد لا تبقي ولا تذر ، وإلا فإن المناسبة لا تكون لغرضها العام والمعلن ، بمقدار ما هي لأغراض خفية أخرى ، وهكذا كان (فأشدّ الدول ديمقراطية تمنع هذه الإحتكاكات) . لقد صمم الشيوعيون على دفع (أنصار سلامهم) من جميع المحافظات العراقية إلى الموصل ، وكانت هذه المدينة (ذات الجغرافيا السورية في الأصل) ، بجماهيرها ذات تقليد وحدوي قديم ، فهي ذات تاريخ سوري مديد ، وجغرافيا عراقية راهنة ، وتكاد تكون الأُسَر واحدة على الحدّين ، وفي الأساس ، ما هو هذا الحد الفاصل بين سوريا والعراق ، غير حد سايكس بيكو والحكّام من بعده ، وفي المحصلة فإن الموصل عربية بسوريّتها وعراقيّتها . .

كانت الموصل تحتفل (بالعيد الأول للوحدة بين سوريا ومصر) وبالمناسبة برفع الأعلام

---

* الوزراء هم : ناجي طالب ، صديق شنشل ، فؤاد الركابي ، عبد الجبار جومرد ، بابا علي ، محمد صالح محمود . وكانوا يشغلون وزارات هامة سبق ذكرها ، وكانت واحدة منها ، كافية إذا ما استقال وزيرها ، للعصف بوزارة تشرشل نفسه ، لكن قاسم كان أقوى من هذه الترّهات السياسية . . فبقي صامداً في مكانه ! . .

الأعلام العراقية وأعلام الجمهورية الموحدة ، وكانت الجماهير تلهج بحياة (الزعيم العربي قاسم) كما تلهج بحياة عبد الناصر ، ثم جاء رسلُ السلام ! . . ومع رسل السلام كان القوميون في الجيش ، يهيئون لساعة صفر لم يحن موعدها بعد ، إلا أن الأحداث المتسارعة كانت قد داهمت الموقف برمته ، فقد طلب عبد الوهاب الشواف قائد اللواء الخامس في الموصل ، من قاسم ، ثني الشيوعيين عن إقامة مؤتمر لأنصار السلام في الموصل ، لكن قاسم تجاهل الطلب ، فلما عاد الشواف إلى الطلب مرة أخرى ، أجابه قاسم :

- يجب أن ينعقد مؤتمر السلام في الموصل .

وهكذا كان لا بد من الإصطدام ، ففي صباح الثامن من آذار ١٩٥٩ أعلن الشواف حركة تمرد ضد بغداد ، دون تنسيق مع القطعات العسكرية الأخرى (الفرقة الثانية بقيادة الطبقجلي ، معسكر الوشاش بقيادة العقيلي ، معسكر الرشيد بقيادة خالد سعيد المدفعي ، حسب الخطة المرسومة ، كذلك الطيران . .) ، لكن الشواف كان قد سيطر على الموصل لوحده .

وترددت المعسكرات باتخاذ موقف ما ، ومما زاد الأمور تعقيداً ، أن قاسم لجأ للمكر كعادته ، فقد أعلن على لسان الطبقجلي (حيث كان هو المرشح لقيادة الضباط الأحرار) بياناً مزوراً يؤيد فيه قاسم ، وفي التاسع من آذار ، وكان الموقف حائراً متردداً ، قامت طائرات حربية بقصف موقع الشواف (الذي ذهبت إذاعته إلى إعلان الثورة والوحدة . . . الخ) ، فأصيب الرجل حيث لم يبرح مقر قيادته ، وأثناء نقله إلى المستشفى الحربي ، هاجمته حشود السلام ، فآثر الانتحار وبقي ضباطه بين معتقل أو هارب إلى سوريا . .

كانت حركة الشواف فزّاعة العراق الأخرى وليست الأخيرة ، فقد نُصبت المشانق فوق كل عمود كهربائي أو شجرة ، واستبيحت الموصل ما بين قتيل مشنوق أو مسحول لمدة اسبوع كامل ، وعاشت الموصل دياجير ظلمتها على أيدي الرعاع حيث لم ينج بيت أو أسرة ، ثم مع برودة الدماء (فقد سيق مَنْ تبقّى إلى عالم المجهول) فزُج الآلاف في السجون ، وكانت معسكرات الرشيد وأبو غريب وأم الطبول ، شاهدة على وحشية تترية عزّ نظيرها ، وكان (السلاميون) يمارسون (حفلات الترفيه) بشكلٍ يندّ عن الوصف ،

حيث تم اختراع أساليب كانت النازية بحاجة إلى تسجيل براءة اختراعها ، وسيق الطيارون إلى محكمة المهداوي فأعدموا في رمضان (نيسان ١٩٥٩) ثم سيق ثلاثة عشر ضابطاً من بينهم (الزعيم الركن كاظم الطبقجلي ورفعت الحاج سري وخليل سليمان وعزيز شهاب وتوفيق علي . . الخ) إلى ساحات أم الطبول حيث نُفذت أحكام إعدام جماعية ، رمياً بالرصاص . .

وطفق العراق على أنات مواويله الحزينة ، يعيش ليالي فراته المظلمة ، فمن مذبحة الموصل إلى مجزرة كركوك (على يد البارزانيين ضد التركمان) ، ومن سجون القوميين إلى مطالبة الشيوعيين المشاركة في الحكم ، مما أدى بقاسم إلى التنصل من أعمالهم ، واتهامهم بارتكاب أبشع المجازر ، ثم وزّع نسخاً مصورة من خطط الإبادة (التي لم تحدث في عهد هولاكو كما قال في خطابه في دير مار يوسف يوم ١٩٥٩/٧/٢٩) وكان قبل ذلك قد اتهم البارازاني وأركان حزبه بارتكاب الأعمال الوحشية شمال العراق ، (وحدث ذلك عندما لاح في الأفق بداية تقارب البارازانيين مع عبد الناصر) .

ولم يعد في جعبة حزب البعث غير الإغتيال . . .

لقد قررت القيادة القطرية لحزب البعث في العراق ، يوم اجتماعها في الأول من تشرين الأول ١٩٥٩ القيام بتنفيذ حكم الشعب بالطاغية قاسم ، وانتُخب لهذه المهمة : صدام حسين (رئيس الجمهورية العراقية الحالي) عبد الوهاب الغريري (سقط شهيداً أثناء العملية) ، سمير النجم ، عبد الكريم الشيخلي ، حاتم الغزاوي ، أحمد طه العزوز ، مع تخصيص آخرين للمراقبة . وكانت خطة الإغتيال مرسومة بالإعتماد على القطعات العسكرية القريبة من بغداد ، حين يعلن رئيس مجلس السيادة علي نجيب الربيعي ورئيس الأركان العامة أحمد صالح العبدي ، قراراً بتشكيل قيادة جديدة للبلاد .

ولقد أُصيب الزعيم برصاصتين غير قاتلتين ، ولزم المستشفى غائباً عن الوعي ، وحاول الربيعي استثمار الفرصة مقنعاً اللواء العبدي بإعلان تنحية قاسم عن الحكم ، إلا أن العبدي اشترط وفاته لإعلان البيان . . رغم أن الوضع العام على صعيد الجيش والشعب كان مهيئاً لاغتنام الفرصة آنذاك .

كان الدرس قاسياً بالنسبة لقاسم ، فقد رأى الموت بعينيه لأول مرة في حياته ، حيث قبع سنوات حكمه التعيسة في دهاليز وزارة الدفاع ، وخلف أسوارها المحصنة . .

وبالعكس تماماً ، فبعد القاء القبض على الفاعلين (عدا صدّام الذي رغم جراحه فإنه ظل يغذّ السير ليلاً والإختباء نهاراً حتى وصل إلى الحدود السورية) فإن محكمة المهداوي أصدرت أحكامها بالإعدام بحق الفاعلين ، وخشي الزعيم من العواقب التي باتت تجرها سياسة محكمة المهداوي الطائشة ، فلم يجسر على التوقيع ، واكتفى بالسجن (عامين) ثم ما لبث أن قال (إن الرحمة أهم من القانون) وأفرج عنهم .

وكانت الكويت واحدة من مهازل مسرحيات قاسم في العراق ، (فقد تكلّم بلشفياً ثم نحى منشفياً) في هذا الموضوع الخطير ، فقد استطاع تجميع كل ما هو تاريخي ، من تبعية الكويت إلى لواء البصرة العراقي ، وكان ذلك في حزيران ١٩٦١ حين وقعت الكويت على معاهدة استقلالها مع البريطانيين ، وقد أعادت تهديدات قاسم الفارغة من كا محتوى ، (إلا محتوى إحراج عبد الناصر) ، القوات البريطانية إلى الكويت من جديد ، وقد انسحب قاسم من المعمعة المفتعلة حين شعر بالموقف العربي المضاد ، كذلك تهديد الغرب لسياسة الضم بالقوة ، (**وحتى سياسة الإنضمام بغير القوة ، طالما أن الأمر يتعلق بالكويت – بئر النفط الذي صار دولة**) وتراجع قاسم حين رأى احمرار العيون ، وفي الأساس فإن إقامة الدنيا بخصوص الكويت ، لم يوازيه سوى الاستعداد اللفظي والتهديدات الكلامية ، **إذ كانت عيون قوات قاسم على وزارة الدفاع ، لا على الكويت . ولن تخيب الكلمات إلهام (الزعيم الأوحد) حين سيقول (لن يضيع حق وراءه مطالب)*** . .

ولكن ماذا قدم الزعيم خلال سنوات حكمه (٤,٦ سنة) للعراق ؟ وهل كان هذا الحكم كله شقاء في شقاء أم ثمة مَنْ يتحدث عن تاريخ هائل (من التهويل) من الإصلاحات الداخلية ؟

سنحتكم إلى مؤرخ لا ينقصه الوقار في حياديته التاريخية (مجيد خدوري – العراق الجمهوري صفحات ٢٢٣ , ٢٢٤ , ٢٢٥)، وسنحاول التركيز على النقطة الهامة في مجمل الإصلاحات الداخلية التي يمكن أن تطال المرافق الإجتماعية والإقتصادية (بما فيها قوانين الإصلاح الزراعي) ألا وهي مشكلة العلاقة مع شركة نفط العراق .

---

* نحن لا نقف ضد هذا الحق العراقي تاريخياً ، فنحن معه ، والكويت كانت جزءاً من ولاية البصرة دون نقاش ، لكن ما ندينه هو تحويل حقوق الأمة إلى ألعاب بهلوانية هدفها (كرسي الداخل) لا غيره . . فمن يريد وحدة الأقطار عليه أن يوحد الكلمة في قطره أولاً، ومن يريد رفعة شعبه ينظم القوانين المستقاة من مدرسة الديمقراطية الحقيقية (البرلمان بالضبط) ولا يزرع أعواد المشانق على طريقة الهمج عند كل منعطف وطريق !. .

ومن حيث أن هذه النقطة هي الأبرز ، في جميع ما قيل أو زُعم ، فإن القصة يمكن تلخيصها وفق ما يلي : -

لم يمض شهر واحد على انفجار تموز ١٩٥٨ ، حتى كانت شركات النفط في العراق ، بأشخاص مدرائها أو مندوبيها ، تهرع إلى المسؤولين الجدد ، الذين وعدوا (رايت الإنكليزي ، ومورفي الأمريكي) بعدم المس بالتزامات العراق النفطية ، وكانت الأجواء السائدة لدى ضباط الثورة (حيث الافتقار إلى المعلومات الدقيقة هو سيد الموقف) تردد أن (الطغمة البائدة - وهو تعبير سياسي عراقي) كانت تفرط بحقوق الشعب العراقي في ثروته النفطية ، ثم جاء قاسم بنفسه يريد (سياسة إنصاف) للشعب العراقي ، وكانت محاولات عديدة يائسة ، قد جرت لرفع حصة العراق من الأرباح منذ العام ١٩٥٩ وحتى العام ٩١٦١ . وفي ٢٨ أيلول من العام ١٩٦١ (موعد الإنفصال في سوريا) ، تشجّع قاسم لرئاسة وفده بنفسه مع فريق وزاري (حيث ترأس الوفد الأجنبي للشركات المستر هـ. فيشر) ، ولم تسفر المفاوضات عن نتيجة ما ، فكان موعدها الآخر في ١١ تشرين الأول من العام نفسه . إلا أن الإجتماع الآخر لم يفلح أيضاً فأصدر قاسم بياناً صاخباً كان من جملة ما قال فيه (إن الشركات النفطية ستحتفظ بآبارها الحالية ، لكنها ستتخلى عن ٩٠ بالمئة من مناطق امتيازها على أن تكون الحكومة والشركات ، شركاء في نسبة العشرة بالمئة الباقية . . كما يجب زيادة حصة الحكومة من الأرباح) وقامت الدنيا ولم تقعد (ماكو زعيم إلا كريم) . فيما الأمر كله لا يعدو مناطق امتياز للمستقبل ! . .

في ١١ كانون الأول من العام ١٩٦١ أصدر قاسم القانون رقم ٨٠ الذي فُهم أو أُفهم خطأً بأن العراق أمم الشركات النفطية الغربية . . وللتاريخ ، يجب إجلاء مشتملات القانون رقم ٨٠ الذي فُهم على هذا النحو أو ذاك . . فالقانون لم يتعرض قيد شعرة لامتيازات النفط المعمول بها في العراق ولو أنه أتى على (مطالبة غامضة) تتمثل برفع نسبة العائد من النفط إلى الخزانة العراقية ، **وما تعرض له القانون بالضبط ، هو تلك المناطق غير المستثمرة في أراضي العراق ، التي لم تكن تعني شيئاً مباشراً بالنسبة للشركات المستثمرة** ، ولو أنها راحت تجادل الزعيم بروح المساومة حول مناطق الإمتياز هذه . .

فقد أعطت الشركات الغربية منذ مطلع الثورة (العام ١٩٥٩) ما نسبته ٥٠ بالمئة من **مناطق الإمتياز للحكومة دون عناء ، وكانت تعلم أن التنقيب هو تكنولوجيا غربية ، وأن السوفييت ليسوا بحاجة إلى النفط ، كما أنهم ليسوا على المستوى التكنولوجي نفسه مع**

الغرب ، ثم في وقت لاحق ، تسامحت الشركات بتوسيع الرقعة ، حين وافقت على رد ما نسبته ٧٥ بالمئة من مناطق الامتياز للحكومة العراقية ، أما ما فعله القانون ٨٠ ، فهو إضافة ١٥ بالمئة للنسبة السابقة بحيث يصبح المجموع المسترد من قبل الحكومة العراقية ٩٠ بالمئة من المناطق المذكورة .

ظن قاسم أن بمقدوره أن يتدخل في معادلة النسبة والتناسب في ما هو واقع بالفعل (زيادة حصة العراق الحالية من الأرباح) فاصطدام بممانعة شرسة ، ولم تجر أية مفاوضات أخرى خلال البقية الباقية من حكم الزعيم .

سيقول علي صالح السعدي القائد الأبرز في ثورة ٨ شباط التي أطاحت بقاسم ، **بأنه في ثورته ، دخل إلى السلطة على قطار أمريكي (وكنتُ من جملة الناس الذين روى السعدي هذا الكلام على مسامعهم) ، وقد ظل يعتقد ، أن قاسم قد ألحق الأذى في السياسة النفطية الغربية في العراق ، أو أن الأمريكيين يريدون طرد الإنكليز من العراق ،** أو أي احتمال آخر كان يقف وراء تفكير السعدي بعد ازاحته ، غير أنه بات من المؤكد ، أن السعدي نفسه كان واهماً ، وأن وهمَه كان منبعثاً من الصدمة ، حيث أزاحه عارف ، وأجهز عليه راديو صوت العرب بإعلاناته الفضائحية .

لم يكن أحد من الغرب وراء إزاحة قاسم ، فقاسم هو نموذج الغرب المحبوب ، أما النماذج السابقة (في العمالة المباشرة للغرب) فقد ولّى زمانها ، ولم يكن قاسم عميلاً في كل الظروف ، بل إنه أدى مهام ما فوق العمالة ، ولكم سيحلو في عيون الغرب ذلك القائد العبقري ، المتوحد ، الواحد ، الأحد ، الذي يُجري الدماء في صفوف شعبه أنهارا ، والذي يقف ضد (كلمة الوحدة وحتى الاتحاد) بكل جنون ، والذي ينام نهاره ويسهر ليله تحسباً للحدث المفاجئ . . . لقد كان قاسم نموذجاً شريفاً لمناقبية النظافة الشخصية ، إذ لم يترك خلفه أكثر من (كوب شايه) على طاولته في وزارة الدفاع ، لكن نرجسيته في التفرد، كانت تفوق الوصف ، ولو أدى (الـمُلك العقيم) إلى وضع العراق فيما يشبه المسلخ .

سينطوي صاحب المكر السيء في غرفة لا يخترق زجاجها الرصاص ، وستتوقف طرق الساحر في اللعب على الحبال ، حيث بات على عداء مع الجميع (القوميين ، البعثيين ، الشيوعيين ، الأكراد ، الشيعة والسنة ، ثم الأكثرية العظمى من ضباط الجيش) وهكذا تدنو ساعة الاستحقاق الأخيرة ، فبالرغم من محاولاته اليائسة لاسترداد أنفاسه من خلال واقعة الإنفصال في سوريا ، إلا أنه تأكد من أن الإنفصال في دمشق ، كان عاجزاً عن إسناد نفسه ، هذا وسيُضطر الزعيم في الأشهر اللاحقة ، لممارسة حياة الإنطواء والعزلة ، حيث سيقلّ ظهوره في المناسبات العامة ، ثم طفق وحيداً شريداً ، يسهر الليل **حتى الفجر ، وينام بعين واحدة في النهار . . وهكذا إلى أن تدوّي أسراب الحبانية في سماء بغداد ، ثم ليندفع الجمهور المنكوب بمساعدة الجيش لتدمير قلعة الجنون الطائش في وزارة الدفاع ، وكان البعث يستبق الباب فيما ستُسمى ثورة الثامن من شباط ١٩٦٣ *، بأنها ثورة الشعب ضد الطغيان الذي لم يشهد له العراق مثيلاً ، وهكذا أعادت أربع سنوات ونصف السنة من حكم قاسم ، العراق والأمة ، إلى الخلف عدّة عقود في الخط البياني لنكوص التاريخ العربي الحديث .**

رابعاً / الإنفصال أو استرداد الوعي التفككي .

سنجد نموذجنا الآخر في وقائع نكوص الأمة ، ما جرى يوم الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦١ ، حين أعلنت دمشق بيانها الأول لتصحيح (الأوضاع غير الشرعية ، ولإزالة الفساد والطغيان ورد الحقوق الشرعية للشعب ، وإننا قبل أن ننفجر ، لم نترك باباً للإصلاح إلا وطرقناه . فكان الصَّدْ ، ولم نجد وسيلة للتحرر واتباع طريق الحرية إلا القوة ، لكي تعود للشعب حريته وللجيش كرامته) .

هذا وسيعدد هيكل في كتابه سنوات الغليان ص ٥٥٥ ، أخطاء عبد الناصر في مسؤولية الإنفصال وفق التدّرج التالي : -

---

*لم نستطع جرياً مع الأحداث ، قطع الرواية القاسمية مع وقوع حدث الإنفصال في سوريا ، أي قبل سقوط قاسم بسنة وأربعة أشهر وعشر أيام ، وهي عمر الإنفصال نفسه بزيادة شهر واحد ، ففي غضون هذه السنة والنصف تقريباً ، كان الوضع ساقطاً قبل سقوطه : يقول يوليوس قيصر لصديقه بروتس يا صديقي لا تنظر إلى السماء هكذا ، فإنه لن يسقط منها سوى المطر ، وانظر إلى ما تحتها ، ذلك أن المستوى ساقط جداً .

- إن عبد الناصر وقع في خطأ الإعتماد على مسلمات قديمة سابقة ، لم يتأكد من استمرار صحتها وصدقها* .
- قبل عبد الناصر تجربة الوحدة من نفس الأوضاع التي كانت قائمة في سوريا ، وهي أوضاع طافحة بالتناقض والنزاع .
- ترك عبد الناصر جيوباً خلفه عند التقدم ، لم يعد لتطهيرها فيما بعد (وبذلك خالف القاعدة الحربية للاستراتيجي الشهير ليدل هارت ، بعد أن طبق قاعدته الأولى في الإختراق) ! . . !
- إن مشكلة سوريا هي أنها كانت تسمح لآمالها بتجاوز وسائلها ، وبهذا كان الإعتماد في التطور على أجهزة الدولة لا الشعب .
- كان عبد الناصر ، شأنه شأن أي ثوري ، يعتمد على الجماهير بطريقة تكاد غيبيه . . وهي لا تستطيع أن تفعل شيئاً أمام قوة السلاح .
- قاس عبد الناصر دمشق بمقياس ما يعرفه في القاهرة ، ولو أنه وصل إلى قلوب السوريين إلا أنه لم يتمكن من مخاطبة عقولهم . .

إلى أن يقول : **لقد بدأت متاعب عبد الناصر في سوريا في وقت مبكر ، أو لعلها على وجه التحديد ، بدأت منذ اليوم التالي لقيام الوحدة .**

إنه في سياق هذا العزف المنفرد على (عود) هيكل ، نعود القهقرى حين تُوظّفْ أدوار التاريخ لإتاحة الفرصة أمام البطل كي يخلق التاريخ على هواه ، فمثل هذا البيان الفكري ، يخشى أكثر ما يخشى مجابهة المجتمع الأهلي ، ركيزة الفعل التاريخي وأرض نشاطه ، ذلك أن المجتمع يتمرد على المعنى (بما فيه معنى الوحدة) عند أول عنصر من عناصر ايقاظ وعيه التفككي* ، إذ أن المجتمع لا يستمد شرعية سيرورته من وثائق

---

* لم أفهم ، ولم يذكر السيد هيكل شيئاً عن ماهية هذه المسلمات القديمة التي لم يعد عبد الناصر لفحص صدقيتها من جديد ، أتراها في الواقع السياسي السوري قبل الوحدة ، أم في الواقع العسكري ، هل المقصود بالمسلمات حزب البعث مثلاً ، ثم كيف تتم حراسة القلعة من خلال المسلمات ؟ . .

* قطبا الموضوع كما جاءا في التحديدات الهيكلية ، عبد الناصر ↔ سوريا أو السوريين ، وهناك في العمق وعي إقليمي تبدّى في الكيانات الإقليمية القائمة ، فأعلام سوريا أو مصر أو العراق أو الأردن صارت فوق علم الثورة العربية . . التي هي ثورة الدولة الواحدة . والمصالح الإقليمية باتت أهم من الأماني القومية ، وهكذا إلى آخر السلسلة ! . . السلطوية الإقليمية .

مبرمجة، تلوذ بالماضي وعينها تائهة في أفق المستقبل ، أما الوقائع فهي كالعادة جمع لا مفرد ، فليس ثمة (مسألة وحدوية) عموماً دون تخصيص ، وقد لعب الخارج الغربي دوراً مركزياً في استنهاض (الفعل الوحدوي) حين قام بتشريح الكيان العربي إلى كيانات مصطنعة ، وفرض هذا الواقع بالقوة على السكان المحليين وفوق إراداتهم ، أما ما يُغْفَل في هذا السياق ، فتلك السيرورات المحلية التي ساعدت على نشوء الدول الإقليمية ، وهي سيرورات لا يجوز ردها إلى الوجه الدولي فقط ، فالقرارات الدولية السايكس - بيكوية لم تنفصل عن وجهها الآخر ، فالكيان الحقوقي اللبناني لا يعود فقط إلى القرار الفرنسي ، أو الصراع الدولي على منطقة الشرق الأوسط ، هكذا كان النموذج الماروني - السياسي - استجابة لقرارات الخارج الغربي ، أو حضاً عليها بصورة أدق ، فيما هناك نماذج أخرى .

إذ لم يكن المقال اللبناني فريداً في وحدانيته ، فقد تدرج تكوين الكيان العراقي بواقع صراع العشائر في الفراتين الأوسط والأسفل ، ضد السلطنة العثمانية ، ثم ما لبث أن طبع العراق بميسمه القطري الخاص ، وهناك المنازعات التي رافقت رسم حدود إمارة شرقي الأردن ، حيث أرجأ البريطانيون بضغط أمريكي (ومحلي الحركة الوهابية) ، رسم خط الحدود إلى حين انتهاء النزاع بين السعوديين الجدد والهاشميين القدامى ، حيث تماهى ذلك مع فراغ خبراء النفط من تحديد المخزون النفطي في الصحراء ، ولم تثمر مساعي الغرب التقسيمية إلا في سياق الصراع الدائر بين المجتمعات الزراعية والمدينية (فلسطين وسوريا) وبين محاور الترحال البدوي من جهة ثانية ، وقد شكلت هذه الملاحظات لازمة ضرورية في كتابات جمال حمدان وصبحي وحيدة وحسين فوزي وأنور عبد الملك وأحمد بهاء الدين (وحسنين هيكل ، الذي سيتم تركيزه على أخطاء البطل ، لا على الاتجاه الوحدوي الذي نشأ في أحضان القطرية في الأساس .

وبالنسبة إلى مصر ، فإن النزعة العربية الوحدوية ، لم تجد متكأً في المجتمع المصري ، إذ ليس بين الأحزاب السياسية التي عرفتها المرحلة الممتدة بين ١٨٨١ إلى ١٩٥٢ أو بصورة أدق إلى (١٩٥٥) ، ما يمكن أن يسمى بحزب وحدوي ، عربي أو قومي . . فالمثقفون المصريون ومن خلفهم أقطاب السياسة المصرية ، كانوا يتوزعون لازمة مصر التاريخية (المصرية والإسلام) دون انفصام بينهما ، وقد أضفَت عروبة الإسلام ، نزعة جنّبت مصر غالباً من إقليمية أرادت السيادة في يوم ما ، ولا يعني ذلك أن العروبة كانت

مختفية تماماً من الحياة السياسية المصرية ، بل كانت موجودة حتى في أضعف حلقات مصر التاريخية ، لا سيما في أفق المحورية السورية - المصرية ، حيث شكلت التحالفات منذ عهود الفاطميين والأيوبيين ثابتاً استراتيجياً مستمراً حتى حرب تشرين في العام ١٩٧٣ .

غير أن هذه التحالفات (المحاور) ، كانت في جزء منها ، شأن الدولة أو الحكم ، لا شأن المجتمع ، فحملة ابراهيم باشا كانت تتويجاً لحملة الحاق هائلة قام بها محمد علي بتحطيم كل المرافق والعلاقات المصرية (القطرية) المستقلة ، وفي حدود الطاقة القصوى لمصر كلها بشرياً ومادياً ، وصل طوسون إلى الدرعية وابراهيم باشا إلى قونيه وكوتاهيه في تركيا . .

لقد أخذ المثقف القومي الوحدوي الناصري (عصمت سيف الدولة) على الحكم المصري نفسه ، طريقته في التعامل مع الحركات القومية المصرية ، ذات المنشأ المستقل عن وحدوية الدولة ، حيث أن الاتحاد القومي ، هو السبيل الوحيد ، لاثبات الهوية القومية! . .

على الطرف الآخر (سوريا ، العراق ، فلسطين ، لبنان والأردن) فقد **أثبتت الحركات القومية ، ضلوعها العميق في ملابسات الصراع القطري ، حتى أن هذه النزعة ، انقلبت في أحيان كثيرة إلى سلاح من أسلحة الصراع على السلطة المحلية ، وإلى وسيلة من وسائل استدرار الدعم ، والسيطرة على الموقع الخاص بالسلطة .**

وتأسيساً على هذا ، ولو صحّ التحليل ، فإن السياسة الوحدوية ، ليست دعوة روحية ترعى قضية تتسامى على السياسة ، بل هي السياسة نفسها حين تسعى إلى الربط بين الوحدة والتاريخ ، كما أنها ليست الهروب من أجل الاحتماء خلف الحركة الاجتماعية حين تصطدم الوحدة ، بأول فشل لها * . . فالإنتساب المبدئي إلى الوحدة (الذي لا يشكل امتيازاً لأحد) ، يعني أول ما يعني المقدرة الكلية الجاهزة ، للإنتقال لما هو أرقى من الكيان القطري بكل ركائزه السياسية والاجتماعية والثقافية والقانونية . . الخ ، التي كانت سائدة قبل التوجه إلى الوحدة ، لا أن نتوسلها (أي الوحدة) كأداة غلبة أو وقاية داخلية ، فنشدها بذلك إلى ما هو أفقر من الوضع الإقليمي السابق ،ولا ريب أن عبد الناصر ، كان

*** في معارك الشعارات الكيفية ، جرت العادة حين الإصطدام بأول عقبة ، أن ننتقل على الطريقة الدون كيشوتية من معركة لأخرى ، والمشكلة أن معركة الـ (ما قبل) كانت خاسرة ، فلا نعود ثانية وثالثة وألف لكي نربحها ، بل نهرب إلى مواقع مستلبة من ثنايا التاريخ ، لتعزيز وضعنا في معركة قد تكون رابحة ، كالتشديد على الاشتراكية بدلاً عن الوحدة مثلاً . .**

قد استخلص الدرس (بعد فواته) ، أثناء المجابهة مع عبد السلام عارف ، حين جاءه الآخر مهرولاً لوحدة اندماجية عاجلة بين مصر والعراق .

كان عبد الناصر على حق ، بل وكل الحق ، حين قال (إنني لا أرى جدوى من وحدة عراقية - مصرية ، ما لم يحقق العراق أولاً شروط وحدته الوطنية الداخلية فينضم إليها الجميع مختارين لا مكرهين - الأهرام ٢٠ شباط ١٩٦٦) .

إن الوحدة بذاتها ، عامل تسريع ، وعنصر تكثيف ، وقطب تفجير للتناقضات القطرية الكامنة ، وما لم تتوج مرحلة ما قبل الوحدة ، بحل تلك التناقضات بشروط الديمقراطية والمواطنة والقانون وكل ما هو متناغم مع الوضع الأرقى (الوحدة) فإن انفجاراً كأيلول سوريا ، يظل هو سيد الموقف ، في كل فرصة وحين ، حيث أكثر من (نحلاوي) على الطريق .

إن هذه النتيجة بدورها ، تفضي إلى التحقق من ثنائية المستوى بحيث لا تتجاهل (الوحدة) المعطى القطري الكياني الذي احتضنته ، فإذا لم يكن الوضع الجديد ، افتعالاً في افتعال ، فإنه يصبح لزاماً على (دولة الوحدة الجديدة) التصدّي لمشكلات الكيانات المتجذرة ، حيث على رأسها مشكلة السلطة الجديدة التي يجب أن تتجاوز نفسها كحكم وصولاً إلى المقومات الاجتماعية الحيّة التي ينهض عليها الحكم (كان عبد الناصر يحكم دمشق من خلال مقاييس ما يعرفه في القاهرة) ، وهذه المقومات لا تتضمن بحال توزيع أرباح السلطة الجديدة كمصالح ومناصب ومُلكية ، بل اختيار تكوين ، أو تركيب سياسي - اجتماعي سلطوي **له سلطة القرار الإقليمي المتماهي مع الوحدوي (بحكم مران تاريخي سابق) ، فيما يظل هذا التركيب يمثل ركيزةً ووجهة تاريخية ، بغالب شعبيته المُطلقة . . وحيث أن الوحدة ليست رداً معاكساً ، على سالب التجزئة فقط ، (الوحدة ليست رجع صدى لفعل الغرب التفككي في دنيا العرب) ، فإنها يجب أن تسعى إلى ما وراء (ما فوق) فعلها الوحدوي ، بحيث لا تتيح مجالاً للأحداث أن تتقدم من وجهها السيء * ، بل أن تبادر بوعي صادر عن تفكير وتخطيط ، لدفع الأحداث من وجهها المعاكس ، (التضامني والوحدوي والديمقراطي) أي من وجهها الإيجابي لسلطة مغايرة .**

---

* الخلاف مع البعثيين حول الصلاحيات وتحويل النهر ، وقبول استقالاتهم قبل أن يجف مدادها . ثم التعويل على الاتحاد القومي (حزب السلطة المختلط ، انفصالي ، ديني ، وحدوي ، ناصري ، بعثي . .) ، كذلك اللجوء إلى الأسلحة القطرية السابقة ، بتنصيب المشير مشيراً منفرداً على البلاد ، وكان قد سبقه مشيرون عديدون إلى الحكم في سوريا ، فأعيدت عقارب الساعة إلى الوراء .

فالمجتمعات العربية في وجه هام من وجوه نهوضها ، قامت على التداخل المُعقّد بين بنى القرابة والنسب ، وبين البنى الطائفية والقومية والسياسية ، إذ لا يعدم مجتمع عربي تضامناً وتعاطفاً وظيفياً وبنيوياً بين علاقات القرابة وعلاقات الطائفة (أنت تولد بالقسر في رحاب أسرة مسلمة إذن فأنت مسلم ، أو في أسرة مسيحية إذن فأنت مسيحي ، مع الإحتفاظ بحق التفرعات الأخرى) ، ثم بين علاقات القرابة والطائفة من جهة والسلطة الحاكمة من جهة أخرى ، ثم بين هذه العلاقات جميعها (وما زلنا في المحلية القطرية) وبين العلاقات مع الأقربين الأوسع (العروبة ، القومية) ، إلا أن هذه العلاقات لا تخلو من الرشوحات الاقتصادية المشتركة ، فإذا ما أضيف العنصر الإقتصادي الأخير (قرابة أسرة مباشرة أو قرابة عشيرة أو قرابة طائفة + العامل الإقتصادي لهذه الجماعة أو تلك) ، فإن ذلك ما يمثل ، كما قال ابن خلدون (عَصَبَ الوثوب إلى السلطة) ، فيتم النزوع إلى قهر محور الالتحام الرئيسي الذي يتمثل في الدولة - الأمة ، إذ مهما حاول التعالي على مصالحه الفئوية ، ومهما اندمج في شروط البناء القومي والوحدة من ضمنه ، فإن استبعاده من السلطة * ، يؤدي إلى الخروج على شرعية الدولة وإطارها ، فإذا ما حظي النزوع (الوثوب) بعوامل مساعدة ، داخل الدولة وخارجها ، فإنه سرعان ما ينقلب إلى عامل سياسي فاعل وحي ، إلى أن يصبح مكوناً من مكونات المعادلة الإقليمية - الدولية في المنطقة .

إن محور الالتحام الرئيسي ، هو محور الوحدة بالطبع ، **ولما كانت قوة هذا المحور تزداد بقوة الدولة القومية ، فإنه يصبح خطراً على المصائر الأطراف المحلية الأخرى ، إذ يُخفّضْ من قدرتها على الحركة والاعتراض والإمتداد ، وقد مارس الشعب دور (التقيّة) في أدوار التاريخ المحمومة منذ الفاطميين وحتى يومنا هذا ، بل لعله قد برع في هذا الفن ، وهكذا لتنطمس الأدوار في غياهب المضمر لا المعلن (إذ يصير النحلاوي كاتم أسرار الجيش الأول في قيادة المشير ، والكزبري راعي الاتحاد القومي) ، إلى آخر الأدوار المقلوبة الأخرى .**

* ليس من الضروري أن يكون الاستبعاد مباشراً ، إذ يمكن للمرء أن يكون مستبعداً من السلطة وهو قائم فيها (البعث وأكرم الحوراني في المراحل الأولى من الوحدة) ، أما النحلاوي وضباط دمشق الذين قاموا بعملية الإنفصال ، فإن الاستبعاد من مركز القرار التجاري مع احتضان قوى اقليمية وأجنبية هو الأساس ، إذ هناك فرق بين استبعاد واستبعاد . . . ولما فهم البعث الراهن قصة دمشق التاريخية ، فإنه سهر على (دلالها) ، إذ يظل مركز القرار السياسي هو الأساس في رحلة الشتاء والصيف !. .

لم يكن السراج وراء الإنفصال كما ظنّ عبد الناصر في لحظات الفجر الأولى ، كما لم يكن الحوراني وراءه ، وإنْ صار أمامه بقوة الواقع الذي لا راد له ، كما أن البعث لم يكن وراءه ولا أمامه ، حين راح يعالج الواقع بالنظر (ضد الإنفصال ومع الوحدة المدروسة ، أو المشروطة . . الخ) ، وكان الوضع مشوشاً ومما زاد في تشويشه تضارب البلاغات (البلاغ رقم ٩ الذي جبّ ما قبله) وتضارب المظاهرات حيث شهدت شوارع دمشق ، مظاهرة مؤيدة ثم انقلبت إلى معارضة (للإنفصال) حين إذاعة البلاغ التاسع ، فيما لاذت المدن السورية الأخرى بالصمت المطبق عدا حلب الواجفة . .

طلب عبد الناصر من المشير ، (مع البلاغ التاسع) استسلاماً كاملاً لقوات التمرد ، ثم خط في رسالة مكتوبة كل ما يصمّ الآذان أو يفتح العيون على شروط المتمردين (فإذا كانت المبادئ موضوع مساومة فقدت كل قداسة فيها ، وإذا ما عاد الجيش في الإقليم الشمالي للتدخل في السياسة يكون قد أخل بأهم شرط من شروطي لقبولها ، وإن الأمة لم تتأخر عن تقديم واجباتها لينوب الجيش عنها ، وإن التاريخ لا يسامحني بقبول مساومة تحفظ شكل النظام ولا تحفظ جوهره ، وأن عناصر التمرد تصرفت اليوم كما كانت تتصرف مع شكري القوتلي ، وإنه لا يسعني من أجل هيبة الدولة أن أقبل بهذا الحل الوسط) .

كان الحل الوسط الذي رفضه عبد الناصر (حيث سيقول الإنفصاليون أنها ذريعة لبيع الوحدة نهائياً) ، يتلخص في خطوط كان المشير قد وافق عليها : -

- إعادة قسم من الضباط المصريين إلى مصر ، مع استرداد قسم من الضباط السوريين الذين لا عمل لهم في القاهرة ، إلى سوريا .
- إسناد مهام حقيقية للضباط المتبقين في مصر (السوريين طبعاً) ، بذات الفعالية الممنوحة للضباط المصريين في سوريا (ذات المستوى والرتبة إن أمكن) .
- إصدار بلاغ عن ضباط الحركة بدمشق لإنهاء الأوضاع الإستثنائية وبالفعل فقد أصدرنا البلاغ رقم ٩ لهذه الغاية .
- إصدار بلاغ من المشير بطي صفحات الماضي وعدم المساءلة في المستقبل .

وفي محطة لاستراق السمع ، التقطت أجهزة الإنفصاليين عن طريق الخط اللاسلكي المفتوح (بين عبد الناصر وعامر وكان الإنفصاليون قد فتحوه عمداً) المكالمة التالية : -

- إزاي توافق يا عامر ، سنطبق الخطة (مطيع السمان – وطن وعسكر – دار بيسان ص٣٣) .

بعد المكالمة ، تقرر ترحيل المشير مع مئات الضباط المصريين ، ثم صدر البلاغ ١٠ الذي ألغى البلاغ السابق ، ليعود بالحركة إلى سيرتها الأولى .

يقول مطيع السمّان * في كتابه الجديد وطن وعسكر ص ٣٤ (حسب اعتقادي المتواضع ، كان قرار الرئيس عبد الناصر للمشير عامر أكبر خطيئة ارتكبها في حياته على صعيد الأمة العربية كلها وعلى صعيد آمالها ، إذ دونها جميع الأخطاء الأخرى ، وهذا بدليل النتائج ، ولو تصرف يومها بمسؤولية حاكم الدولة الواحدة ، لما انتهى هذا الحادث الخطير في القوات المسلحة الشمالية إلى الإنفصال) .

كما يقول عبد الكريم زهر الدين في مذكراته عن فترة الإنفصال في سوريا ص ٥٧ (توجهت إلى المشير وقلت له : أستحلفكم بالله يا سيدي ألا تجعلوا الخلاف يتحكم بمصير الوحدة ، أرجوكم أن تنهوا الوضع مهما كانت المطالب ، وذلك حفاظاً على الوحدة التي نفتديها بالنفس والنفيس . فأجابني المشير : أنا لا أقبل بأي شرط يفرض علي تحت تهديد المدافع . .) .

كما سيقول أحمد عبد الكريم في كتابه حصاد ص ٤٢١ (لقد أذاع راديو دمشق بياناً من قيادة الحركة يشرح فيها الأسباب الداعية للإنفصال ، ويلقي بمسؤولية إنهيار الوحدة على عاتق عبد الناصر وسياسته حيال الإقليم الشمالي ، وسلوك أجهزته التسلطية) .

أحمد حمروش بدوره وفي كتابه قصة الثورة الجزء الثالث ص ٩٢ يقول عن وقائع المفاوضات بين المشير والإنقلابيين ما يلي (كان عبد الناصر صريحاً وواضحاً ، فالمشير واللواء فيصل كانا تحت الحراسة المسلحة ، وقد رُفض إذاعة بيان من قبل المشير بأن الأمور قد انتهت ، لأنه لا يقبل بمبدأ المساومة أو الحلول الوسط ، لأن النضال يفقد كل قداسته إذا قبل بمبدأ المساومة) .

---

* يقول أحمد عبد الكريم في كتابه حصاد ص ٤٢٠ أنّ العقيد مطيع السمّان كان في عداد الإنقلابيين الإنفصاليين منذ البداية ، غير أن السمّان في كتابه وطن وعسكر ص ٣١ يقول بأن العميد عبد الغني دهمان عاتبه لأنه وهو القائد العسكري للمنطقة الوسطى (أي مطيع السمّان) لم يرسل برقية تأييد للحركة المباركة ! . . كذا ، إلا أن السمّان تذرع بانقطاع الخطوط بين حمص ودمشق ، وحتى بعد فتحها من جديد فإنه لم يرسل بأية برقية . .

ويقول هيكل في كتابه سنوات الغليان ص ٥٦٩ (لم يكن عبد الناصر مستعداً لقبول الحلول الوسط ، فقد كان رأيه أن الوحدة لا يمكن أن تعيش على المساومات ، بعد أن قامت على مبادئ ، فإذا اعتمدت على المساومات لكي تعيش فإن الذي يتبقى ليس وحدة. . . وإنما نصف دولة عاجزة كما كان الحال في سوريا قبل الوحدة) . .

ولم يعد أمام عبد الناصر بعد أن قطع الجسور مع المتمردين ، سوى اللجوء إلى القوة من أجل الحفاظ على الوحدة ، وهكذا أصدر الأوامر لوحدات من المظلات المصرية (قوات الصاعقة بقيادة جلال هريدي) بالنزول بواسطة المظلات في اللاذقية ، وكانت اللاذقية وحلب ، قد أعلنتا العصيان بواسطة الراديو ، ضد الحركة الإنفصالية في دمشق ، وهو ما شجع عبد الناصر لإرسال طلائع القوات ، إلا أن توقف إذاعة حلب عن البث ، وعودتها لتأييد الحركة الجديدة ، مما أشاع التردد في موقف القاهرة النهائي ، وقبل أن يخرج عبد الناصر من مبنى الإذاعة (حيث ألقى بيانه المتشدد ضد الإنفصاليين) أصدر قرارين :

الأول / يقضي بعودة المشير إلى مصر إذا كان ذلك ممكناً .

الثاني / وقف العمليات العسكرية ما بدأ منها وما هو موشك على البدء .

وكان تقييم عبد الناصر للموقف نابعاً من (إضافة للعائق الجغرافي) أن قتالاً دموياً قد يحدث بين المصريين والسوريين وهو محظور ينبغي تجنّبه ، وأن دولة الوحدة التي قد تغرق في الدم ، لا مستقبل لها ، فضلاً عن أن الوحدة لا تُفرض قسراً . .

وهكذا صار الإنفصال واقعاً ، خاصة بعد أن تم اعتقال المظليين الهابطين فوق مطار اللاذقية (حميميم) ، وكان عددهم لا يتجاوز مئة وعشرين بين ضابط وصف ضابط وجندي ، وكان في حوزتهم أسلحة خفيفة وخرائط ونقود لبنانية وسورية وتركية (حسب مطيع السمان ، ولم يتجاوز المبلغ المجموع كله أكثر مما يعادل ستين ألف ليرة سورية ، فيما أذاع الإنفصاليون أرقاماً بالملايين عن حمولاتهم المالية ! . .) ، ثم تشكلت حكومة برئاسة السيد مأمون الكزبري (أمين عام الإتحاد القومي حامي الوحدة ! . .) كما تم تعيين اللواء عبد الكريم زهر الدين قائداً عاماً للقوات المسلحة ، ويروي السيد الكزبري أنه تلقى رسالة من السيد شكري القوتلي الموجود في زوريخ للعلاج ، يؤيد فيها (وثبة الجيش المظفرة) ، كما قام السيدان أكرم الحوراني وصلاح البيطار بالتوقيع رغم تحفظ السيد عفلق على

وثيقة ضمت زهاء ثلاثين من ساسة سوريا السابقين ، وهي تفيد بتأييد الوضع على أساس إبعاد الجيش والعودة بسوريا إلى سابق عهدها الديمقراطي قبل الوحدة (ما سمي بوثيقة الإنفصال) .

كان الإعتراف الخارجي الأول ، هو اعتراف الأردن بالوضع الشرعي الجديد في سوريا ، ثم لحقه اعتراف على عجل من الإتحاد السوفييتي (حيث بات نزاع السوفييت مع عبد الناصر على المكشوف بعد أحداث الشواف في العراق) ، ثم توالت الإعترافات العربية والدولية من كل حدب وصوب . . .

لقد قارعت مجتمعاتنا المحلية (القطرية) الاستعمار الغربي بما تمتلك من عصبيات القرابة والدين والمنطقة والاثنية والثقافة واللغة ، لكن لما انتهى الأمر بنجاح القوة الغربية في فرض معاييرها على الأوضاع السائدة في الكيانات الحقوقية القطرية (حيث هي من صناعتها في الأصل) ، فإن الكيانات حاولت الخروج إلى ما هو مضاد (الوحدة القومية) ، بما في حوزتها من معايير ، لا بموجب الخطاب الوحدوي الرومانسي أو المقالي ، الفلسفي الغربي ، وهكذا بدأ النخر يصيب أوصال الدولة الوحدوية المتغذية على الشعارات ، فالنزاعات الإنفصالية لم تتغذ من المؤامرات الأجنبية بقدر ما تغذّت من الجذور المحلية الضاربة باستعمار وبدونه ، ذلك أن جلاء الاستعمار واستقلال الأقطار العربية وتحوّل الطواقم الحاكمة إلى النزعة الوحدوية ، لم يؤد إلى الدولة الواحدة رغم مضي ما يقارب نصف القرن .

لقد حاول منادو الوحدة بعد الإنفصال ، إعادة التجربة من جديد ، ولما كان الإخفاق هو سيد الموقف ، فإن سبباً ما يجب التفتيش عنه ، فإلحاق الإنفصال (وهو ما يجري حتى يومنا هذا) بالسبب السياسي والبحث عن متكأ خارجي له ، يبرئ ساحة النزوع الوحدوي والوضع الإنفصالي القائم بمحاذاته ، كما يلقي باللائمة على (مؤامرة استعمارية) فيها من الخرافة واللبس ، ما يجعل الوضع العربي في حالة ارتهان دائمة ، وبذلك فإن النضال الوحدوي يحرم نفسه من السند التاريخي الوحيد الذي يملكه ويشكل مداه ، (**ويعود ذلك إلى أن الكيانات الحقوقية القطرية ، أمست المعطى التاريخي الراهن ، دون أن يعني ذلك أبداً أنها المعطى الذي يستحيل تجاوزه ، بل إن القول بأن هذه الكيانات أصبحت المعطى لتاريخي ، يعني عكس الثبات تماماً ، إنه يعني أن التجاوز ينبغي أن يتم من داخل ، من قلب المعطى نفسه حيث يستحيل تجاهله والضرب صفحاً عنه** - وضاح شرارة - حول مشكلات الدولة - دار الحداثه ص ٢٣٣) .

لقد ظل محمد حسنين هيكل ، المفكر ، الذي تجاوز هيكل الصحفي منذ عقود ، فأصبح اليوم من أعظم رواد الفكر العربي في السهر على صيانة الخط القومي - (والديمقراطي) ، ظل يبحث عن أسانيد سياسية (صحفية) لواقعة الإنفصال ليجدها تارة في عمالة البعض وقبض الأموال من الخارج (دافع ذاتي) وتارة في الصراع بين ضباط الجيش والسياسيين أو الحكومة الإنفصالية (دافع سياسي) وأخرى في القوانين الإشتراكية الملغاة (دافع استعراضي) . . . الخ ، (سنوات الغليان ص ٧٥٤ - ٧٥٥) ، إلا أنه لم يتوغل في العمق بعيداً عن الاستقطابات التي غلّت قلمه ، إذ لا يمكن أن تكون واقعة الإنفصال (بدوافعها العميقة) عند هيكل العام ١٩٨٨ (موعد صدور سنوات الغليان) هي نفسها عند هيكل في العام المشؤوم ١٩٦١ ، ولما كان هيكل قد أصبح بعيداً عن اضطراب الأشجار داخل الغابة وقت العاصفة ، فقد كان علينا أن نستمع لشيء آخر . . فقد راح يصارع في البحر السياسي للأحداث والمداولات والأشخاص (زيارة بعض ضباط الإنفصال لعبد الناصر في القاهرة يوم ١٣ كانون الثاني ١٩٦٢ مثلاً . .) ، وكأن الإنفصال حدثاً سياسياً شخصياً أو خارجياً ، دون محتوى تاريخي أبعد . . وهكذا تمّ تضييع التقاط فرصة التجربة المريرة ، ليتم تسطيح واقعة الإنفصال ، مثلما تم قبلها (ترميس . من الرومانسية) مفهوم الوحدة على أنها (ثورة الروح ، ثورة الفرد العربي على نفسه ، على خطيئته الطارئة - عبد الله عبد الدايم) وأن (الاشتراكية هي دين الحياة وظفر الحياة على الموت ، فهي بفتحها باب العمل أمام الجميع . . . وسماحها للمواهب البشرية وفضائلها بأن تتفتح . . . تحفظ مُلك الحياة للحياة ، ولا تبقى للموت غير اللحم الجاف والعظام النخرة - عفلق)* ، أما الحرية فقد تاهت ما بين (وعي الضرورة - هيغل) وضرورة الوعي ! . . حين رُبطت بالقسر بين جحافل الجماهير (اللاواعية) وضرورة (نيابة) الداعين عنها ! . .

---

* لا أفهم الآن من أين أتيا بهذا الكلام (سواء عن الوحدة أو الحرية أو الاشتراكية) من الشعر . من التاريخ ، من التجربة أم من العلم ، من المثالية أم من المادية .. لماذا هذا الربط التعسفي بين (ثورة الروح - الوحدة "ودين الحياة - الاشتراكية") ألا يمكن أن تقوم وحدة قومية دون اشتراكية ، والأفضل أن أسأل ، أين هي - في التاريخ تلك الوحدة القومية التي لم تقم إلا على أساس الاشتراكية .. ففتح أبواب العمل .. والمواهب .. والتقريب في الفروق بين الطبقات أصبحت سمة رأسمالية .. بل لعلها ضرورة من ضروريات البقاء ..

بالعودة إلى مسرح الأحداث ، فإن الطاقم الإنفصالي الواعد بالديمقراطية ، (إما وحدة أناشيد ودون ديمقراطية ، أو ديمقراطية مغناة دون وحدة) ، أجرى استفتاءه على الدستور الجديد والانتخابات التشريعية يوم ٢١/ ١١/ ١٩٦١ ، فانتقل الدكتور مأمون الكزبري من رئاسة الوزارة إلى رئاسة المجلس النيابي ، وانتخب السيد ناظم القدسي رئيساً للجمهورية ، ثم تكلف الدكتور معروف الدواليبي بتشكيل وزارة جديدة . . هكذا لتعود الحياة تسري في أوصال حزب الشعب بصورة جلية .

كان حزب الشعب ميالاً للعراق في كل شيء ، وقد واظب على سياسته إذ لم يتنكر لها ، وقد راجت أقاويل شتى عن علاقة رجالات من الحزب مع الوضع العراقي أيام نوري السعيد ، كما راج مثيل لها أيام عبد الكريم قاسم ، فيما كانت اجتماعات الرطبة على الحدود السورية – العراقية بين ناظم القدسي وعبد الكريم قاسم تؤجج النفوس وتعمل على بعث المحورية القديمة من جديد . .

مع وصول الدواليبي إلى رئاسة الوزارة عمت الشائعات أوساط المجتمع السوري (الشعب والجيش معاً ، إذ كان قد سُمح للصحافة المصرية بالدخول إلى سوريا)، بأن غاية الوزارة اليمينية الجديدة ، هي الغاء القوانين الاشتراكية سواءً بالنسبة للأراضي أو المعامل ، وقد نشرت يومها غرف التجارة والصناعة والزراعة في دمشق بياناً طريفاً نقتطف منه ما يتعلق بحصة الدولة من المشاريع المؤممة حيث طال البيان جميع الأوضاع الاقتصادية الزراعية والصناعية والتجارية والنقدية في سوريا أثناء الوحدة .

يقول البيان المذكور ، الصادر بعد الإنفصال بحوالي اسبوعين ما يلي :

(إن حصة الدولة من المشاريع المؤممة كلها لا يتجاوز ما قيمته ١٦٠ مليوناً من الليرات السورية ، حسب سعر السوق ، ولو طرحنا من هذه القيمة جملة رساميل المصارف الأجنبية البالغة ستين مليوناً لظل الباقي ١٠٠ مليون ليرة سورية ، ويقدر لهذه القيمة أن تعطي في أحسن أحوالها عشر ملايين ليرة سورية أي بفائدة سنوية ١٠ بالمئة ، وسيُدفع منها لمالية الدولة كضريبة ٤ ملايين ليرة سورية وهي ضريبة الدخل ، يبقى من جملة الأرباح بعد تخفيض مبلغ الضريبة ٦ ملايين ليرة سورية ومن المتوجب قانونياً أن يوزع من هذا الباقي ١٠ بالمئة (٦٠٠ ألف) لأرباح العمال ، و ١٥ بالمئة (٩٠٠ ألف) ضريبة باسم العمال تأخذها تأمينات الدولة ، فيكون المتبقي من الستة ملايين ٤,٥ مليون ليرة ، يوزع منها على

أصحاب السندات (المساهمين) ما معدله ٤ بالمئة (من قيمة السندات الأصلية البالغة ١٠٠ مليون) وهي هنا ٤ ملايين ليرة **فيبقى للعدالة الاجتماعية نصف مليون فقط ، أي بواقع تسعة قروش لكل مواطن في السنة)** .

مع ذلك ، فإن السيد عبد الكريم زهر الدين في مذكراته عن فترة الإنفصال ص ١٨٦ يروي ما يلي :- (لقد لاحظنا تعطش الحكومة لإلغاء القرارات الاشتراكية بينما كان رأي الجيش تعديل تلك القرارات وليس الغاءها) ، وفي الحقيقة فإن الحكومة في هذه الفترة لم تكن حكومة بل حكومات ، وأن الجيش لم يكن جيشاً بل جيوشاً من السياسات المتضاربة ، إلا أن ذلك لم يؤثر على المعنويات حين يتعلق الأمر بالصراع مع اسرائيل ، فقد نشبت معركة تل النيرب بتاريخ ١٧ آذار من العام ١٩٦٢ في المنطقة المحايدة التي أرادت اسرائيل احتلالها بعد القضاء على المخافر السورية الأمامية بحركة كماشة مؤلفة من شعبتين ، الأولى وتتكون من رتل برّي يلتف وراء المخافر والثانية وتتكون من كتائب إنزال برمائية (بحيرة طبريا) بواسطة الزوارق الحربية ، وقد أفسدت حقول الألغام السورية زخَم الهجوم الإسرائيلي ، فيما انصبّت القذائف فأحالت المنطقة المجردة إلى جحيم ، وقد طالت القذائف كافة المستعمرات الإسرائيلية على خط المواجهة* ، فكانت معركة تل النيرب (اسم التل الذي دارت حوله المعركة) من أنجح المعارك القصيرة مع اسرائيل ، حيث قَدّرَ الجنرال ڤون هورن كبير مراقبي الأمم المتحدة على خطوط الهدنة ، بأن اسرائيل تكبدت زهاء أربعمئة ما بين قتيل وجريح في هذه المعركة .

ستضطرب الأحوال السياسية في عهد الإنفصال ، وستتنامى تيارات سياسية مناهضة كان أهمها : -

- التيار الناصري القومي ، وكان يقوده القوميون العرب .
- التيار الوحدوي البعثي وقادته القيادة القومية بزعامة السيد عفلق .
- التيار البعثي - الاشتراكي القطري وقاده أكرم الحوراني بالتعاون مع بعثيين

---

* كنت يومها أعمل كمدرس في مدرسة بقرية الكرسي الواقعة على ضفاف بحيرة طبريا إلى الشاطئ الجنوبي منها ، وقد شاهدت الحرائق والأشلاء صباح المعركة ، كما ساهمت في الجهود لسحب كافة الآليات الاسرائيلية المحترقة وغيرها مما بقي سالماً فوق أرض المعركة ، وقد عُرضت الآليات المجنزرة المدمرة والمحترقة على الجمهور في ساحة المرجة بدمشق ، ثم في ساحات حلب وحمص وحماة . .

آخرين . وكان هذا التيار مصمماً على عودة الحياة البرلمانية* الليبرالية من خلال الإنفصال الذي أصبح واقعاً لا سبيل معه إلى إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ، وكان الحوراني متعصباً ضدّ عودة الوحدة بزعامة عبد الناصر . فأصدر كراساً في العشرين من آذار ١٩٦٢ (رأي الحوراني في الوحدة العربية) تضمن الإجابة على ثلاثة عشر سؤال بخصوص الوحدة السابقة ، وقد أسهم صوت العرب منذ اليوم الأول للإنفصال بصبّ النار على الزيت ، حين قطع جميع الجسور (وتوعّد الخونة بالسحق) ، وكان يأتي ذكر الحوراني على رأس القائمة حين صُوِّر على أنه وراء الإنفصال ، فانفتحت حمى معركة إعلامية بدأت في شتورا (بطلها المرحوم خليل الكلاس ، وكان متحاملاً على عبد الناصر منذ العام ١٩٥٩ حين توعده الثاني بالتأديب لأنه رفع صوته في وجه عبد الناصر في أحد الإجتماعات وكان الموضوع يتصل بالوضع الإقتصادي في سوريا) وانتهت إلى شكاوى دولية ضد تدخل مصر في الشؤون السورية عن طريق الأجهزة السرّية ، **وقد فتح أكرم الحوراني أخطر معاركه السياسية ، حين اتهم عبد الناصر بالعمالة للولايات المتحدة ، متخذاً من واقعة تحويل النهر ، وخصوصية علاقة ثورة تموز مع السفارة الأمريكية في القاهرة ، ووضع قوات الطوارئ الدولية وشرم الشيخ والمضائق . . دلائل على صحة ما يقول ! . .**

لقد كان الحقد موجهاً أعمى في السياسة ، وللتاريخ ، فإن عبد الناصر لم يتهم الحوراني بوطنيته ولا لمرة واحدة ، وما دون ذلك ، فقد سمح لصوت العرب باشهار جميع الأسلحة التعريضية بالحوراني وجماعته على هواه ، فكان الإتهام إجحافاً بحق تاريخ الرجل ، كما كان اتهام الحوراني المعاكس ، متخاصماً مع الحقائق الوطنية لرجلٍ مثل عبد الناصر . .

سيؤدي الجيَشان الدائر حول الإنفصال وقوانين التأميم والتقارب مع عراق قاسم ، ورموز الشخصيات اليمينية في الحكم ومدرسة الأستاذ أحمد سعيد في صوت العرب ،

---

* شكل أكرم الحوراني كتلة نيابية سماها الكتلة الاشتراكية العربية ، وقد ضمت النواب الآتية أسماءهم :أديب أصفري ، أحمد اليوسفي ، الوليد عبد الرحمن ، خليل كلاس ، عبد الغني قنوت، مصطفى حمدون ، عبد الهادي عباس ، فهمي عاشوري ، عبد العزيز عثمان ، محمد الحسن ، علي عدي ، محمد عطورة ، محمد عبد الكريم ديوب ، محمود الحكيم ، وهيب الغانم ، نواف عامر ، نايف جربوع ، وهي تحوي كل فسيفساء سوريا الإجتماعية والمذهبية .

إلى وضع سوريا فيما يشبه الدوّامة ، هكذا لتستفيق الجماهير على مظلوميتها الإجتماعية بإلغاء (المكاسب الاشتراكية) ، بعد أن استفاقت على ظُلامة أكبر تبدّت في سلب آمالها الوحدوية وازدادت الأمور تعقيداً بالتقرّب من (جزّار العراق - هكذا كان اسمه في صوت العرب) ، إلى أن يتحقق الإنقلاب على الإنقلاب ، في الثامن والعشرين من آذار ١٩٦٢ .

فمع صباح ذلك اليوم من آذار أعلن راديو دمشق عن مسلسل من البلاغات العسكرية الجديدة حملت الأرقام من ٢٦ إلى ٣١ ، وكانت بذلك استكمالاً لسلسلة بلاغات الإنفصال منذ ٢٨ أيلول ، وقد تضمنت هذه البلاغات قبول استقالات جميع المسؤولين ، بدءاً من رئيس الجمهورية ومروراً بحل المجلس النيابي وانتهاءً بقبول استقالة الوزارة التي يرأسها الدكتور الدواليبي ، **وكانت القيادة العامة للجيش ، هي المرجع الأعلى لقبول هذه الاستقالات ، فقد أعلنت صراحة ممارستها للدورين التشريعي والتنفيذي في البلاد ، بعد اعتقالها لكبار المسؤولين بمن فيهم رئيس الجمهورية نفسه . .**

كان الإنقلاب في حد ذاته ، محاولة يائسة لإنقاذ واقعة أيلول ، حين راح زعيم الإنفصال العسكري (عبد الكريم النحلاوي) نفسه بالإتفاق مع القاهرة وبمعاونة الضباط (زهير عقيل ، محمد منصور ، فايز الرفاعي ، مع الدكتور فريد زين الدين ونهاد القاسم وفريق من القوميين العرب) **يذيع بيانات الإنقلاب الوحدوي الجديد** . وقد تمكن كبار العسكريين من تهدئة الوضع (حيث وصل الوضع إلى استنفارات مسلحة تنذر بأوخم العواقب) حين دعوا إلى اجتماع عام (مؤتمر قادة في قاعة المالكي في نادي الضباط القديم)، وقد زاد عدد الضباط الحاضرين على ستين ضابطاً وكان معظمهم من حامية دمشق لا من القطعات الميدانية ، وألقى اللواء زهر الدين (موعظةً) للحفاظ على انضباط الجيش والمحافظة على الوحدة الوطنية والاستقرار في البلاد .

ثم ما لبث أن انعقد مؤتمر عسكري آخر في مدينة حمص ، وقد علق العديد من الضباط على عصيانات حلب وحمص واللاذقية ، بأنها من صنع القاهرة . وان انفرد بعض الضباط بالذهاب لمقابلة عبد الناصر كان من أهم العوامل المشجعة على العصيانات . وأن آخرها هو ما حدث في ٢٨ آذار حيث اعتقل العسكريون الوضع الشرعي في البلاد . (وأن اجتماعنا هذا يجب أن يوقف التدهور واللعب بالوطن بقوة السلاح ، وأن على

الآخرين أن ينصاعوا لقراراتنا من خلال دباباتنا وأن يسمعوا صوتنا من خلال هدير طائراتنا . . . الخ - مطيع السمان - وطن وعسكر - مذكرات ص ١٢٧) * .

وقد كان من أهم نتائج مؤتمر حمص العسكري ، الذي جرى برئاسة قائد القوات الجوية اللواء وديع مقعبري ما يلي : -

- ابعاد مجموعة النحلاوي من الجيش (عبد الغني دهمان ، مهيب الهندي ، هشام عبد ربه ، بسام العسلي ، عادل الحاج علي ، ممدوح حناوي) وتسفيرهم خارج سوريا .
- إعادة تشكيل قيادة جديدة للجيش .
- دراسة الخطوات لإعادة الوحدة مع مصر .
- تشكيل حكومة جديدة .
- إعادة النظر في وضع الضباط المسرحين على يد النحلاوي .
- إصدار عفو عام عن الذين اشتركوا في حوادث حمص (اللواء الخامس) وحلب واللاذقية ، مع التعويض على عائلات القتلى والجرحى من العسكريين في هذه الحوادث .

كذلك تم ابعاد الضباط الذين شاركوا في العصيانات المسلحة وكان على رأس القائمة لؤي الأتاسي وبدر الأعسر .

وما كادت مقررات حمص تخرج من الإجتماع العسكري ، حتى كانت إذاعة حلب تعزف نشيد الوحدة (أعاد الإنفصاليون النشيد السوري القديم) ، وتعلن عن نفسها بأنها إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من حلب ، وأن مطار حلب مفتوح للطائرات والمظليين المصريين من القطر الشقيق ، وأن الذين أقدموا على الإنفصال سيلقون سوء المصير . . . الخ .

كان جاسم علوان على رأس التمرد العسكري الجديد ، حين هاجم بمؤازرة لؤي الأتاسي وبعض المسلحين المدنيين الآخرين مقرّ قيادة المنطقة الشمالية ومطار النيرب وإذاعة

---

* هذا الخط المتشدد هو خط الإنفصال الحقيقي ، الذي بدا في حالة إشهار السيوف في وجه الخطوط البعثية ، الناصرية في الجيش ، وقد ضعف هذا الخط حين رأى خسارة معركته السياسية ، قبل ثورة آذار بزمن ، وقد زاد في ضعفه تناحر الإنفصاليين أنفسهم على المواقع في الجيش .

حلب ومحطة البث في سراقب ، وقد أعلن جاسم علوان نفسه قائداً عاماً على القوات السورية المسلحة (قوات الإقليم الشمالي) وهو برتبة عقيد ، كما أعلن استنفار الجيش . . . واستدعى لواء مشاة احتياط إلى الخدمة . . وكان التمرد كعادة العقيد علوان بالتحضير ، تنقصه جميع الركائز لنجاحه ، وبالرغم من تأييد بعض ضباط البعث (الأقربين إلى الناصرية في تلك الفترة) فقد فشل التمرد وأدى فيما أدى إلى سقوط المزيد من الضباط بين قتيل وجريح (من القتلى مثلاً الرواد أو النقباء نصوح نعّال ، توفيق عرنوس ، جميل القباني وآخرين) ، ويبدو أن الطيران كان قد حسم الموقف بمساعدة رتل مدرع (لواء حمص الخامس) قاده العقيد صبحي الشوريجي .

هذا وستتم محاكمة الفاعلين ، فيما هرب العقيد علوان ، لكن المحكمة لم تتجرأ على أكثر من اصدار الأحكام دون تنفيذ . .

لقد هدأت ثائرة الجيش بوقوع مجزرة حلب غير المدروسة ، وتوسّد السياسيون أمر المرحلة من جديد ، ففي ١٤ نيسان من العام نفسه ، أصدر السيد ناظم القدسي بياناً يعلن فيه عودته للرئاسة بعد أن تخلى الجيش عن السلطات التي وضعها في يديه ، وأن الجيش طلب إليه إعادة تنظيم الكيان الوطني على ضوء الميثاق الوطني الذي أصدره السياسيون والعسكريون بعد أحداث حلب .

كان الميثاق يتضمن خطوات إيجابية في ضرورة الإحتفاظ بالنظام الجمهوري الديمقراطي والبرلماني ، كما تضمن التمسك بحقوق العمال والفلاحين المكتسبة ، والعمل على إقامة الوحدة العربية على أساس من اللامركزية الدستورية والسعي لتشكيل حكومة جديدة ، تعمل على وضع دستور مستوحى من مبادئ الميثاق مع إجراء انتخابات تشريعية بالسرعة الممكنة خلال ما تبقى من العام ١٩٦٢ .

لم يكن الميثاق بعيداً عن مؤثرات الأستاذ الحوراني وحزبه ، حين لاحت في الأفق بوادر استبعاده من قيادة البعث أثناء انعقاد المؤتمر القومي الخامس للحزب في حمص في شهر أيار من العام نفسه* .

---

* انقسم الحزب على نفسه في هذا المؤتمر المعقد في بيت فرحان الأتاسي وخرج منه تيارات ثلاثة بعد تشكيل قيادة الحزب الجديدة من ميشيل عفلق أميناً عاماً ، منيف الرزاز وجمال الشاعر (عن الأردن) ، جبران مجدلاني وعلي جابر (عن لبنان) خالد يشرطي (عن فلسطين) علي صالح السعدي وحمدي عبد المجيد وطالب شبيب (عن العراق) ، وكانت التيارات الثلاثة قد استقرت وفق ما يلي : تيار اردني يقول بعودة الوحدة كما كانت . تيار لبناني يقول بعكس ذلك أي بوحدة مدروسة ومشروطة ، تيار عفلق المعتدل والقائل بوحدة اتحادية .

وهكذا ظهرت إلى الوجود حكومة الدكتور بشير العظمة وبصدور المرسوم رقم ٦٨٠ يوم ١٦ نيسان عن رئيس الجمهورية تكون حكومة العظمة * شبه الإئتلافية (وزيران من البعث العربي الإشتراكي) (وزيران من حزب الشعب) (وزير من الحزب الوطني) وعدد آخر من المستقلين المقربين من هذا الإتجاه أو ذاك مع وزراء فنيين أيضاً ، تكون هذه الحكومة ، هي أفضل ما يمكن أن يقدمه الواقع السياسي في سوريا على الإطلاق في هذه المرحلة الصعبة .

كانت خطة الحكومة ، كما أذاعها وزير الإعلام بصوته (الدكتور عبد الله عبد الدايم)، ترمي إلى تحقيق ما يلي :-

- وضع أسس عامة ومفصلة لموضوع الوحدة مع الأقطار الشقيقة (وكانت قد سرت في هذه الآونة نغمة الوحدة الإتحادية) .
- وضع دستور دائم للبلاد وعرضه على الإستفتاء الشعبي العام .
- وضع قانون جديد للإنتخابات التشريعية في البلاد .
- تنظيم الحريات العامة بما يضمن حياة سياسية ديمقراطية .
- إعادة النظر في المقررات الإقتصادية - الإجتماعية التي اتخذتها الحكومات السابقة بعد ٢٨ أيلول .

ثم وجه رئيس الوزارة بنفسه بياناً من إذاعة دمشق يوم ١٧ نيسان يتضمن الخطوات نفسها التي أذاعها وزير الإعلام من قبل .

ومنذ اليوم الأول لتشكيلها فقد واجهت حكومة العظمة جبهات مقاتلة على الصعيدين الداخلي والعربي .

فعلى الصعيد الداخلي دأب أعضاء المجلس النيابي الذي حُل بقوة العسكر (محور النحلاوي ، عقيل ، الرفاعي . .) على الإعتراض بحجة عدم شرعية الأحداث اللاحقة بعد ٢٨ آذار ، وقد أصر على هذا الموقف زعماء بارزون كالسادة : خالد العظم ، جلال

---

* ألّف الدكتور العظمة كتاباً مريراً يحمل عنواناً أشد مرارة (جيل الهزيمة) ، وقد فضح فيه سياسات الرياء القائمة في الساحة السورية والعربية ، كما أماط اللثام عن مخازي شخصية وأخرى سياسية باتت تلف الحياة العربية ، سواءً منها السياسية أو الخلقية بوجه عام.

السيد ، معروف الدواليبي ، عصام العطار . . . أما القيادة القومية للبعث - عفلق ، فقد سحبت ترشيحها لأربعة وزراء واكتفت بوزير واحد هو الدكتور عبد الدايم الذي ما لبث أن استقال بعد فترة وجيزة ، أما ممثل (القيادة القطّرية للبعث - جناح الحوراني آنذاك) الأستاذ عبد الحليم قدور ، فقد ظل يصارع أهواء العسكريين في وزارته (الداخلية) ، فيما بدت الأمور خارج السيطرة بوطأة ضباط سبق لهم الاشتراك أو التعاطف مع حركة أيلول منذ اندلاعها ، ثم كانت معضلة القيادة العامة للقوات المسلحة ، التي رأت تشكيل لجنة عليا (ضباط أمراء وقادة) كيما تكون إلى جانب رئيس الجمهورية قبل اتخاذ أي من قراراته! . . .

على الصعيد العربي ، فإن إعلام القاهرة تابع القصف بالشدة نفسها دون تمييز ، وكان صوت العرب يذكي أوار اللهب والإقتتال بدعوى استرداد الوحدة المفقودة ، وبالرغم من قول عبد الناصر بأنه (أصبح من المهم الآن احتفاظ سوريا بوحدتها الوطنية قبل المطالبة بعودة الوحدة مع مصر - كلامه للضباط السوريين أثناء مقابلته مع زهير عقيل ، محمد منصور ، الرفاعي . .) إلا أن إذاعات القاهرة لم تهدأ وواظبت على توجيه القذائف الكلامية ليل نهار ، وقد شارك السيد هيكل (بصراحته) الاسبوعية مشاركة فعّالة في النزال . . .

وكان العراق غارقاً في دمائه على يد قاسم والشيوعيين من حوله . أما بن بيلا في الجزائر ، فظل متمسكاً بموقف الضدّ من الإنفصال وكل توابعه من بعده ، وظلت الدول العربية الأخرى على موقفها الحذر من سوريا ، وكانت أحداث سوريا الداخلية تقدم الدليل تلو الدليل ، على مشروعية الريبة التي سلكها الآخرون ، سواء على الصعيد العربي أو الدولي بصورة عامة .

كانت خمسة شهور كافية ، لاقناع الدكتور العظمة بتقديم استقالته إلى السيد رئيس الجمهورية ، وتم ذلك بالفعل يوم الثالث عشر من أيلول في العام ١٩٦٢ .

سيجد خالد العظم المكلف الجديد بتشكيل حكومة تخلف حكومة العظمة ، المتاعب نفسها ، مع معارضة إضافية من قبل الجيش ، وتحت التحذير بانتشار الفوضى واقتراب العسكريين من إنقلاب جديد ، فقد شاركت الجبهة الاشتراكية بثلاثة وزراء في حكومة السيد العظم ، هذا وسيلمع نجم السيد عصام العطار (زعيم الإخوان المسلمين) في هذه

الفترة ، وسيحاول تحدي الكتلة الاشتراكية – الشيوعية من خلال تقرّبه من ضباط الجيش ، أو تقرّب ضباط الجيش منه ، حين لاح في الأفق بوادر عصيان عسكري في معسكري قطنا والكسوة ، وأن النحلاوي بالإتفاق مع الإخوان المسلمين ، كان وراء هذا العصيان الجديد .

لا مجال لممارسة أي نوع من أنواع الديمقراطية في ظل هذه الأجواء ، وقد زادت الأمور تعقيداً حين أصدرت المحكمة العسكرية حكماً باعدام المشتركين في حوادث حلب (ابراهيم العلي ورفاقه) ،فكلف السيد الحوراني كلاً من السيدين مصطفى حمدون وأحمد عبد الكريم (وكانا رفاق سلاح ووزراء في عهد الوحدة والإنفصال) ، كلفهما بمقابلة السيد رئيس الجمهورية لتحذيره من مغبّة التصديق على الأحكام ، وقد شوّش الناصريون والبعثيون موقف الحوراني هذا حين وصفوه بأنه كان وراء أحكام الإعدام ، فكان (جزاء سنّمار) كما قالت العرب في تاريخها . .

كان الرئيس القدسي المتمسك بتقاليد الديمقراطية ، والناظر لاستقلال القضاء بعين الاحترام ، قد بدا له ، أن سوريا تمخر عباب البحر في مركب حائر ، فقد اعترت الفوضى ربابنة السفينة ، فراح كلٌ يريد دفعها إلى اتجاهه الخاص ، فظلت السفينة تميل ذات اليمين وذات الشمال وهي قعيد ، بانتظار الغرق على يد موجة عاتية بدأت تلوح في الأفق ، **فقد قاد النحلاوي بالتحالف مع الإخوان المسلمين ، عصيانات في قطنا والكسوة كما رأينا ، ثم راحت القطعات تتأهب لمواجهة بعضها البعض ، إلى أن بدأت ملامح المعركة بالإنكشاف ، حين أعلن راديو بغداد نبأ الإنقضاض على قاسم في الثامن من شباط ١٩٦٣ ، ثم ما عتمت سوريا – الإنفصال أن أصبحت جاهزة لتسليم نفسها ، كالثمرة اليانعة تسقط من تلقاء نفسها على الأرض ، وهكذا لم يعد للإنفصال مَنْ يحميه ، وهو ما حدَث بعد شهر واحد ، حين أعلنت إذاعة دمشق ، نهاية عهد الإنفصال ، وكان ذلك هو يوم الثامن من اذار ، دون الحاجة لاستخدام السلاح ! . .**

قبل ذلك بخمسة أشهر ، كان الضباط الأحرار في اليمن ، قد وضعوا خطة التحرك للإنقضاض على الحكم الإمامي ، ونجحت الخطة .

ففي اليوم الخامس والعشرين من أيلول لعام ١٩٦٢ ، أعلن المقدم عبد الله جزيلان حالة الطوارئ في تنظيم الضباط الأحرار في اليمن ، وتولى الملازمان عبد الله صبره

وصالح الرحبي مهمة تتبّع أخبار الإمام البدر من خلال النقيب المزروع في قصر الإمام حسين السكري ، وكان الأخير مكلفاً عقب خروج البدر من ديوان الاجتماع باطلاق النار عليه ، وذلك بمثابة ساعة الصفر للتحرك ، إلا أن السكري أخفق في المحاولة فأُلقي القبض عليه ، ثم نَقَل الملازم صالح العروسي ، ياور الإمام الخاص ، للضباط الأحرار ما جرى في القصر عصر ذلك اليوم . . .

كانت القيادة الحقيقية للضباط الأحرار ، المؤلفة من المقدم عبد الله جزيلان والنقيب عبد اللطيف ضيف الله والملازم علي عبد الغني والملازم ناجي الأشول ، والنقيب علي القردعي والعريف عبد الله الديساني . . يعسكرون في الكلية الحربية ، وفي الساعة الحادية عشرة ليلاً تم التحرك داخل مدينة صنعاء بحماية ست دبابات فقط ، وتوجهت المجموعات حسب الخطة إلى المراكز الأساسية نحو قصر البشائر الذي يقيم فيه الإمام ، ثم إذاعة صنعاء ، وما تبقى من المراكز الأخرى وهي قليلة في النظام المتوكلي اليمني . .

في تعز ، فإن حركة الضباط الأحرار بالتحالف مع تنظيم القوميين العرب ومجموعة من الشباب أبناء التجار (هذا التحالف كان بزعامة عبد الغني مطهر وعبد القوي حاميم) كانت تلقّت علماً بساعة التحرك قبل يوم واحد من بدئه في صنعاء ، فكانت التوقيتات صحيحة ، إلّا أن أعطال الدبابات القديمة وهي في المواجهة مع حرس القصر ، وحرس الإذاعة ، كادت أن تودي بالخطة ، وقد ازداد الموقف قتامة حين لم يصل العميد عبد الله السلال (الأعلى رتبة والمتّفق عليه كقائد للثورة - نفس قصة محمد نجيب في مصر ونجيب الربيعي في العراق) إلى مقر القيادة في الموعد المحدد .

لقد تبين أن العميد السلال حاول الوصول بسيارته إلى مقر القيادة الكائن في الكلية الحربية ، إلا أن كثافة النيران منعته من ذلك* ! . .

وقد طلب إلى الثوار إرسال مدرعة له للوصول إلى مقر القيادة ، إلا أن المدرعات الست ، كانت ما بين معطوبة أو معطلة ، الأمر الذي لم يمكّنْ العميد السلال من الوصول إلى المقر إلا في الساعة الرابعة صباحاً .

---

* المفروض أن يكون السلال على رأس قيادته قبل إطلاق النار أو البدء في التحرك ، وكان المقدم جزيلان الذي يلعب دوراً مماثلاً لدور عبد الناصر في الثورة المصرية ، يميل إلى وضع العميد حمود الجائفي في مركز الثورة الأول ، إلا أن صغار الضباط كانوا يميلون إلى العميد السلال ، نظراً لما كان ينطوي عليه من مناقبية عسكرية وتاريخ نضالي وسمعة طيبة .

لجأ العميد السلال إلى إصدار أمر بصفته أمير الحرس ، يقضي بموجبه فتح مخازن السلاح (الموجودة في القصر) للدفاع عن الإمام ، إلا أن الحيلة لم تنطل على حراس القصر ، فطلبوا من السلال أمراً محرراً من الإمام نفسه . . وكان الإمام في هذه اللحظات ينشط في طلب النجدات عن طريق الرسل وأفراد الأسرة المتوكلية ، وقد تمكن الأمير عبد الله بن الحسن (من أبناء عمومة البدر) من تجميع سرية حراسة ملكية لبدء هجوم معاكس ، وكاد وضع الحركة أن يصل إلى عنق الزجاجة المحتم حين بدا الفجر يرسل بأشعته الذهبية فوق مدينة صنعاء التي لم يدركها النوم في الليلة السابقة .

كان سقوط الإذاعة بيد الثوار بعد ليلة عنيفة من المواجهات ، قد شكل الخطوة الأولى على طريق الأمل ، وقد طلب العاملون أمراً بتشغيل الإذاعة فجاءهم الأمر من نائبي المدير العام ، الأستاذ عبد الله حمران والأستاذ عبد العزيز المقالح ، وكان المدير العام الأستاذ أحمد المروني أصلاً من العناصر العسكرية المثقفة المنحازة إلى مطالب الإصلاح والتحرر ، وهكذا انطلقت المارشات العسكرية من الإذاعة ، وكان البيان الأول الذي ألقاه محمد عبد الله الفسيل :

- هنا صنعاء . إذاعة الجمهورية العربية اليمنية .

إذاعة الثوار . إذاعة الأحرار .

ثم تلاها نشيد مصر : الله أكبر .

كانت المعارك على أرض الميدان ما زالت تميل لصالح القصر ، وقد تمكن الملازم علي عبد الغني بمساعدة رفيقه في السلاح الملازم حمود بيدر من السيطرة على ثكنة المدفعية ، كونهما من قوام السلاح نفسه ، وقد عملت الإذاعة عملها ، حين فرّ أمير المدفعية من ثكنته لدى سماعه بلاغات الإذاعة ، وتمكن عبد الغني وحمود ومطهر (ملازمون في سلاح المدفعية) من سحب المدافع المذخرة لاسناد الثوار عند القصر ، وكان الإمام البدر المدافع العنيد ، يدرك أن ذخائر الدبابات قد أوشكت على النفاد ، إلا أن انضمام سلاح المدفعية لهجوم الثوار ، كان قد أحبط خطة البدر لإطالة أمد المقاومة تمهيداً للقضاء على المهاجمين . .

في تطور لاحق ، تمكن الثوار ، بموجب أمر آخر من أمير الحرس ، العميد عبد الله السلال ، من الدخول إلى مخازن الذخيرة في القصر ، حيث تم تحميلها إلى أسلحة

الثوار ، فبدت ملامح عدم الجدوى من المقاومة .

هذا وسينسحب الإمام البدر (الذي أعلنت الإذاعة عن مقتله) من أبواب القصر الخلفية مع لفيف من أقربائه ، ليظهر ثانية في منطقة عمران ، حين سيتراوح موقف القبائل بين مؤيد ومعارض .

على الصعيد الآخر ، فقد وصل العميد حمود الجائفي من الحديدة إلى صنعاء ظهر يوم الخميس الواقع في ٢٦ أيلول ، وكانت سيطرة الثوار قد اكتملت وأحكم طوقها ، وكانت البلاغات تصدر باسم القيادة العليا للجيش ، ولم يكن مجلس قيادة الثورة قد تشكل بعد ، غير أن الركائز الأساسية من صغار الضباط (النقيب عبد اللطيف ضيف الله والملازم علي عبد الغني والملازم أحمد الرحومي والملازم صالح الأشول) كانت قد ترسخت بقيادة المقدم عبد الله جزيلان ، قبل الثورة وأثناءها . .

رفض العميد حمود الجائفي المنصب الأول لقيادة الثورة ، وبارك للعميد السلال بذلك ، إلا أن السلال حاول إقناع العميد الجائفي بالعدول عن موقفه والإنصياع لرغبة الأكثرية من الضباط ، فأصرّ الجائفي على موقفه مهدداً بالإنتحار . . وهكذا أعلنت إذاعة صنعاء أعضاء مجلس قيادة الثورة على النحو التالي :

العميد عبد الله السلال رئيساً للمجلس .

العميد حمود الجائفي ، المقدم عبد الله جزيلان ، النقيب عبد اللطيف ضيف الله ، النقيب محمد قائد سيف ، الملازم علي عبد الغني ، الملازم محمد مفرح والملازم صالح الرحبي ، أعضاء في المجلس .

ثم ما لبثت أن (**دقّت ساعة العمل الثوري**) من إذاعة صنعاء .

كانت تعز ، حيث قيادة الجيش للعميد أحمد الأنسي هناك ، تستعد لاستعراض عسكري تعبيراً عن ولاء الجيش للإمام البدر (وعلى ما يبدو لم يكن إرسال إذاعة صنعاء يصل إلى تعز)* ، وقد قام لفيف من صغار الضباط الذين كانوا على علم بالثورة (النقيب علي الكهالي وسعيد الجناحي ، والملازمون محمد الخاوي وسعد الأشول ومحمد مفرح وآخرون) بمفاتحة العميد الأنسي بما جرى في صنعاء وأن الإمام البدر لم يعد له وجود ،

---

* هناك مصدر آخر يقول إن المشكلة لم تكن في إرسال الإذاعة بل في عدم توفر حتى الإذاعة نفسها ، لأفراد الشعب المنكوب (كتبُ طيبة في اليمن) .

وارتسمت الدهشة على وجه الأنسي ، إلا أنه أراد التأكد من خلال عامل اللاسلكي ، فوجد أن قريبه العميد الجائفي على رأس الثورة ، مع ذلك ، فإن الأنسي بصفته نائب الإمام على الجيش كله ، كان قد عزّ عليه المآل برمته ، فطفق يجادل في حالة من الإنفعال العصبي :

- ومن هو الإمام الجديد الذي سيحل محل الإمام البدر ؟ .

أجاب الملازم خاوي :

- لا أئمة سيدي ، بل جمهورية بقيادة الجائفي .

وارتسمت أمارة الإرتياح على وجه القائد اليمني فقال :

- إذن على بركة الله .

كذلك آل الوضع لصالح الثورة في حَجّة وإب والحديدة وسائر المدن والمناطق اليمنية الأخرى .

كان اليمن قبل الثورة ، يعيش عهود القتامة والعبودية ، بحيث أصبح سجناً من سجون القرون الحجرية ، ومضرب مثل لفداحة التخلف وذيوع الأساطير وعالم الخرافة على يد المتوكل نفسه ، وكانت المدن اليمنية التي تحاكي قرون ما قبل الوسطى ، قد أصبحت موطن النكبات دون رحمة ، ويقول أحد ضباط الثورة الأوائل (السيد سعيد الجناحي في كتابه الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة ، اصدار مركز الأمل للدراسات والنشر ص ٢٢٨) ما يلي : -

(لم تشهد مدينة يمنية مآسي وعبودية القرن العشرين كما شهده لواء الحديدة ، فما من غاز يمخر عباب البحر الأحمر إلا وكانت الحديدة هدفاً له ، فقد احتل البريطانيون الحديدة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولما عجزوا عن الاستقرار فيها ، سلّموها إلى الإدريسي الذي ضمّها إلى الأراضي التي يسيطر عليها في نجران وجيزان ، وأثناء الحرب اليمنية - السعودية عام ١٩٣٤ ، اجتاح الوهابيون تلك المنطقة بحد السيف وقوة الأسلحة النارية التي سلمنها لهم بريطانيا ، وفي الوقت الذي تمكن فيه المقاتلون اليمنيون الأشداء من إغلاق طريق العودة على السعوديين قَبِلَ الإمام يحيى بوقف القتال ، وحين تظاهرت قبيلة الزرانيق في الحديدة ضد الإمام تعرضت لحصد كامل ، ثم اعتقل المئات ممن بقوا على قيد الحياة ليسقوا إلى سجون حجّة حيث مات الجميع في السجون ، إلا أربعة نجوا بأعجوبة ،

ومن أخبار الحديدة أيضاً (شأنها شأن سائر المناطق أو المدن اليمنية) أن حريقاً التهم بيوتها المبنية من الطين والقش ، فلم يهدأ الحريق إلا بعد أن التهم معظم أحياء المدينة ، وكانت الجهالة والأمراض والمجاعات تفتك بالشعب في طول البلاد وعرضها .

كانت مبادئ الثورة الستة التي أذاعها راديو صنعاء ، وأيدها الرئيس عبد الناصر ، لا تختلف كثيراً عن مبادئ الثورة المصرية الأولى ، فقد تم تعدادها بدءاً من التحرر من الإستبداد الداخلي والاستعمار الخارجي ، إلى رفع مستويات الشعب الاقتصادية والثقافية ، ومن بناء مجتمع ديمقراطي تسوده تعاليم الإسلام الحنيف ، إلى بناء جيش وطني قادر على الدفاع عن أراضي الجمهورية الجديدة . . كما عددت المبادئ في الجملة التمسك بمبدأ الحياد الإيجابي ودعم مبادئ التعايش السلمي . . **وما كان من (لوازم) تلك المرحلة .**

على صعيد الجوار الجغرافي ، فإن الخصومة السياسية الحادة بين الجمهورية العربية المتحدة والسعودية كانت قد حفرت أخدوداً عميقاً يصعب ردمه ، فمؤامرة الملك سعود الثانية لاغتيال عبد الناصر (هيكل - سنوات الغليان - ص ٦٢٠) ، كذلك انضمام الأمراء الأحرار (عبد المحسن ، بدر ، فواز وسعد آل سعود) إلى خط القاهرة والمناداة من هناك بواجب اسقاط الملك سعود ، لم تجعل الموقف السعودي تجاه الثورة اليمنية قابلاً للتردد ، وبالرغم من النزاعات الدموية التاريخية بين الأسرتين (جيزان ونجران) ، إلا أن السعودية التي بات الإمام البدر يستقر فيها ، سارعت لاخماد اللهب اليمني منذ اليوم الأول من انتشاره ، وسوف نرى أن التعنت السعودي ، ذهب إلى حد رفض الموقف الأمريكي الداعي لضبط النفس والتفاهم (رسالة الرئيس الأمريكي جون كنيدي إلى الرئيس عبد الناصر والتي تم الاتفاق بعدها على سحب كافة القوات الأجنبية من اليمن وعلى حدودها ، مقابل الاعتراف الأمريكي بالوضع الجديد في صنعاء) مما تم رفضه من الرياض دون تردد .

لم تقبل السعودية ، بعد اضطرام النار بينها وبين المتحدة ، (بسبب هبوط طائرات عسكرية سعودية في مطار الماظة الحربي قريباً من القاهرة ، حيث طلب ربابنتها اللجوء السياسي من المتحدة ، فأجيبوا إلى طلبهم) . . لم تقبل بأنصاف الحلول التي تنذر بأوخم العواقب بالنسبة للمملكةالتي دب في صفوف أمرائها من الأسرة المالكة (الملك سعود ، ضد الأمير فيصل . . .) حريق الصراع والحسَدْ ، وهكذا تم التوجه إلى الحدود اليمنية

بالكميات اللازمة من السلاح والذهب لتحريك القبائل في موجات قتالية داخل اليمن ، وبالفعل فقد سقط أحد قادة الثورة اليمنية العقيد علي عبد المغنى وهو يدافع عن مدينة صعدة اليمنية ، ضد هجوم قبلي سعودي - يمني مشترك .

كان الخطر الجغرافي الآخر ، ينبعث من قاعدة عدن الإنكليزية ، حين وقفت بريطانيا موقفاً متشدداً إزاء ما يجري في اليمن الشمالي ، وقد قال في حينها النائب البريطاني المحافظ جوليان إيمري الذي كان قد رتب مقابلة سرية بين الأمير فيصل مع السير دوغلاس رايت رئيس جهاز M.16 (جهاز المخابرات البريطاني) ، قال عن الوضع اليمني الجديد ما يلي :

(إن نجاح الكولونيل ناصر في الحصول على موطئ قدم لمشروعاته الإنقلابية في الجزيرة العربية ، وهي موطن أهم مصادر البترول واحتياطاته في العالم ، هو نذير شؤم يجب أن تتعاون الأطراف كلها ، ممن لهم مصلحة في ذلك ، على مقاومته ودحضه) .

وكانت الخطوات البريطانية تنحو للنفاذ إلى ما يلي :-

- عدم الإعتراف بالنظام اليمني الجديد والتأثير على أكبر عدد ممكن من الدول لعدم الإعتراف باليمن الجمهوري .
- تحريك قبائل اليمن الكبرى باتجاه المطالبة (برفع ثمن) الولاء للنظام الجديد ، مما لا يمكن منافسته مع الأثمان السعودية .
- يستمر هذا الضغط على القبائل وفق محورين : الأول ويتمثل : **بالمحور العسكري البريطاني في الجنوب والثاني بالمحور الذهبي للسعودية** .
- خلق التحالف السعودي - الأردني من أجل لعب دور عسكري مؤثر على الحدود مع اليمن .

ولأول مرة في التاريخ المعاصر ، يتم الغاء الحساسية السعودية الهاشمية ، حين راحت دفعات من الجيش الأردني النظامي ترابط فوق الأراضي السعودية قريباً من الحدود اليمنية . .

كان العراق بعيداً شريداً في التيه الذي وضعه فيه عبد الكريم قاسم ، وبعد أن بات على عداء مع الجميع ، فإنه واظب على القاعدة القائلة ، **بذهاب جميع الخصوم إلى**

جهنم . . أما الإنفصال في سوريا ، فقد لاذ بالصمت ، علماً بأن البعث القومي - عفلق والبعث القطري - الحوراني ، وكتلة خالد العظم مع الشيوعيين ، طالبوا بالإعتراف بوضع اليمن الجمهوري الجديد .

كان لإيران دور رئيسي أيضاً ، فالشاه كان يعتبر الشاطئ الآخر للخليج العربي حتى مداخل البحر الأحمر ، منطقة أمن لإيران . ثم كان لتركيا والباكستان دور نابع من طبيعة حلف بغداد . . وكان لفرنسا المتواجدة في جيبوتي والجريحة في الجزائر ، أن تهتم بما يجري في اليمن ، وكانت عيون اسرائيل تراقب ما يجري عند مخارج البحر الأحمر بكل السهر والإهتمام . .

وفي مقاربة مع قوى التحالف التي شاركت في ضرب العراق عام ١٩٩٠ ، فإن جيوش المرتزقة كانت تفد إلى السعودية ، طالبةً المال والقتال ضد الثورة في اليمن * .

وكان العالم مازال يلهث رعباً ، مع احتدام أزمة الصواريخ الكوبية ، وما أن تكشفّت عن مسار مسالم في نهايتها ، حتى اندلعت أزمة جديدة تمثلت بالإعتراف السوفييتي بالجمهورية العربية اليمنية ، مع تحذير من مغبة أي تدخل خارجي في الشؤون اليمنية الداخلية ، وأشفع السوفييت تحذيرهم بمساعدات عسكرية ومالية عاجلة .

ثم توجهت الحكومة اليمنية بطلب المساعدة من الجمهورية العربية المتحدة . وظل عبد الناصر حائراً في الموقف الصعب ، إلى أن تراءت له فكرة إرسال المتحمسين من رجاله (لمبدأ التدخل - أنور السادات وكمال الدين رفعت) إلى اليمن بمهمة استقصاء ميداني للأمور هناك .

وعاد السيد السادات يحمل اقتراحاً جزئياً يتمثل بإرسال سرب من الطائرات الحربية (وأن أزيز هذا السرب فوق مواقع التحرش بالثورة اليمنية كفيل ببعثرة المقاومة وانزال الهلع في نفوسها) ، ويقول هيكل : -

---

* الاستعماريون القدامى من الطاقم الإنكليزي كانوا يرددون بسخريتهم المعهودة :

هذه المنطقة من العالم ، أي الشرق الأوسط ، وتحديداً مناطق النفط ، لا تصلح إلا للمال أو القتال، وحين يكون الأول يولد الثاني ، وكلمة مرتزقة هنا ، لا يخفض من واقعيتها ترداد الإذاعات المصرية الأبله لوقعها وتأثيرها ، فقد كانت مافيات المرتزقة الغربية موجودة بالفعل ، وقد قامت بأدوار مؤثرة داخل وخارج اليمن على الحدود ومع القبائل الغائرة في قرون الزمان .

(لقد صنَعت الحوادث لنفسها حركتها الذاتية ، إذ عندما يذهب سرب من الطائرات في بلد بعيد للعمل ، يكون بحاجة إلى حماية أرضية ، والحماية الأرضية بحاجة إلى مأمن يتمثل بالمزيد من الحمايات حولها ، وراحت الحركة الذاتية للحوادث تفرض نفسها - المصدر السابق ص ٦٢٨) .

كانت السعودية قد وصلت إلى نقطة الغليان ، وكان اجتماع الأمير فيصل بالرئيس الأمريكي كنيدي يؤكد أن هدف ناصر التالي هو الأسرة السعودية بكاملها (يوم ٤ تشرين الأول ١٩٦٢) ، وأن مساندة الولايات المتحدة في جهد سعودي - بريطاني مشترك هو المخرج الوحيد . وكان الرئيس الأمريكي يفكر بنقاط متوازنة أخرى للإجابة على شكاوى وطلبات الأمير المستعجلة ، فقد ذهب كنيدي للتأكيد على نقطتين :

١ - مساندة الولايات المتحدة للأسرة السعودية بكل قوة .

٢ - طرد فكرة تأييد الولايات المتحدة لعبد الناصر بصفته الرجل المختار لأمريكا ، كما كان الأمير يعيد ويكرر .

ثم شرح الرئيس الأمريكي حقيقة الموقف من ناصر فقال :

- إننا عندما نساعد ناصر فإننا لا نفرط بالأسرة السعودية ، ونحن نقدم المساعدة لناصر أحياناً من أجل زيادة إمكانياتنا في الضغط عليه .
- إذا سحبت الولايات المتحدة مساعداتها الإقتصادية لناصر ، فإن مصر سوف تذهب إلى السوڤييت وليس أمامها أي طريق آخر .

ومع وصول الأمير فيصل إلى لندن ، كانت طلائع القوات المصرية تحطّ في ميناء الحديدة اليمني ، مما زاد الأمور قتامة في عيون ماكميلان رئيس الوزراء البريطاني ، وعيون وزير خارجيته دوغلاس هيوم .

في الثاني عشر من تشرين الثاني وقّعت الحكومة اليمنية مع الحكومة المصرية معاهدة تعاون عسكري ، وبذلك يكون قد تم وضع الإطار القانوني لتواجد القوات المصرية على الأرض اليمنية ، وقد تزايد هذا التواجد في حدّة تصاعد إلى أن وصل في الذروة زهاء ٦٠ ألف مقاتل مصري من شمال اليمن إلى جنوبه . .

وكان كنيدي مازال متردداً وانتهى تردده بسماعه أخبار التدفق المصري ، فقرر توجيه رسالة إلى عبد الناصر تشمل على المزيج من المرونة والحزم ، وقد خط رسالته مفتتحاً

(بالسيد الرئيس) بعد أن كان يفتتحها بعبارة (عزيزي الرئيس) وقد لاحظ عبد الناصر ذلك ، إلا أن مضمون الرسالة كان يجتذبه إلى مزيد من الإسترسال في قراءتها ، ثم أعاد عبد الناصر قراءة الرسالة من جديد .

كانت خطوط الرسالة بين مرونتها وحزمها تذهب إلى : -

- انسحاب القوات المصرية (أو الأجنبية) من اليمن على مراحل .
- إنهاء المساندة الخارجية للملكيين .
- سحب القوات التي أُدخلت للمناطق المجاورة للحدود اليمنية - السعودية .
- إنشاء نظام مراقبة بين الأطراف المعنية مع قيام طرف ثالث بمساع حميدة لتقريب وجهات النظر .
- تصدر الجمهورية العربية المتحدة بياناً علنياً بما تم الاتفاق عليه .
- تصدر الجمهورية اليمنية بياناً علنياً باحترامها للإلتزامات الدولية . مع نداء لليمنيين في المناطق المجاورة (يقصد نجران وجيزان) بالتزام جانب السكينة والهدوء واحترام القانون .
- أثناء عملية فض الإشتباك ، نأمل في ألا يشترك طرف ما في أنشطة تتعارض مع روح التفاهم .
- بمجرد اصدار البيانات المناسبة ، يمكن إعادة تنشيط بعثة المعونة الأمريكية لليمن كما تبادر الولايات المتحدة بإعلان اعترافها بجمهورية اليمن .

وأبدى عبد الناصر استعداده للموافقة بعد التشاور مع الحكومة اليمنية ، **ثم ما لبثت أن أبرقت القاهرة لواشنطن ببرقية تتضمن الموافقة على مقترحات الرئيس الأمريكي دون استثناء ، واعترفت الولايات المتحدة بالحكومة اليمنية يوم التاسع عشر من شهر كانون الأول ١٩٦٢ .**

وجاء دور السلال ليدلي بدلوه هو الآخر ، فقامت الدنيا ولم تقعد ، حين أعلن غداة الإعتراف الأمريكي باليمن الجمهوري (**أن اليمن يمتلك من الصواريخ ما يمكنه من هدم قصور الرجعية في الرياض على رأس ساكنيها**) ، **وكانت هبّة يمنية تفتقر إلى الواقعية أو السند.**

سيُرسل (المخلص) جون كنيدي كما هي عادته في ختام الرسالة ، بما يعتبر تنديداً بتصريحات صنعاء غير المسؤولة ، وقد ورد في الرسالة الجديدة لعبد الناصر بالحرف ما يلي :

(في يقيني أننا قدمنا فعلاً برهاناً كافياً على صدق اهتمامنا بالعلاقة الطيّبة مع الجمهورية العربية المتحدة ، وقد تذكرون أننا بذلنا كل جهد لكي نتأكد من أن مصالحنا الخاصة في عدن ، وفي الجزيرة العربية مفهومة من جانبكم وإذا استطعنا تحقيق الفهم الكامل على الناحيتين ، فإنني لا أرى سبباً يعوق علاقات تبعث على الرضا بين بلدينا . . . علينا أن نهتدي أيضاً إلى صيغة تهيء لفيصل سنداً علنياً ومقبولاً لفض الإشتباك وفي وسع سفيرنا لديكم ، أن يجلي لكم ما يجول في خاطري) .

وعن تردد بريطانيا في الإعتراف باليمن تقول رسالة كنيدي :

(إن أسباب التردد من جانب الحكومة البريطانية ، إنما تنبعث بوضوح من قلق هذه الحكومة حول عدن ، كما أن التهديدات التي أطلقها السلال مؤخراً لن تؤدي إلا إلى زيادة هذه المخاوف ، في حين أنني أثق أن عبارات التطمين إنما تساعد على اعتراف بريطانيا بحكومة اليمن الحاضرة ، وإنني أرغب رغبة صادقة في حدوث هذا الاعتراف ، لكنني لست في وضع يسمح لي أن أضغط على الحكومة البريطانية كي تعترف ، في الوقت الذي تصدر فيه بيانات غير حكيمة من صنعاء) .

ثم أجاب عبد الناصر برسالة الرد التالية (المقتطفات الأهم) : -

(إن صدور المسعى الأمريكي للتفاهم عنكم شخصياً ، لا بد أن يستبعد من فكرنا كل شك في أن تكون المحاولة كلها مجرد مناورة سياسية ، كما أكد لي رفاقي من خلال تجاربهم السابقة ، وكان رأيي ومازال ، أن الولايات المتحدة حتى وإن أرادت المناورة السياسية ، فإنها ليست بحاجة إلى زج الرئيس نفسه في مثل هذه المحاولة) ، ثم مضى الرئيس عبد الناصر إلى تحديد بعض النقاط العملية في رسالته فقال : (إن الجمهورية العربية المتحدة مازالت مفتوحة الفكر لكل مسعى يعزز السلام القائم على العدل ، كما أنها لا تجد نفسها في وضعية الناصح بعدم جدوى العدوان السعودي على اليمن ، ولا في وضعية المقنع للحكومة البريطانية بعدم جدوى تجاهل الحقائق ، ونحن نؤمن بأن حركة التاريخ سوف تتولى نيابةً عنكم وعنا اقناع الجميع بحتمية التطور ، إلا أن الجمهورية العربية المتحدة ، غير قادرة على الوقوف مكتوفة اليدين أمام محاولات متعمدة ومتكررة للعدوان على حق الشعوب العربية في صنع مستقبلها بكرامة وحريّة .

في الختام ، عزيزي الرئيس ، فإننا نسجل لكم بالتقدير العميق ، كل مشاعركم ومساعيكم الحميدة ، ونتمنى من قلوبنا أن يكتب لها النجاح الذي تستحقه) .

وكان مسرح الأحداث شاملاً لمصالح كبيرة وهائلة ، بحيث بدا التصالح فيما بينها مستحيلاً : -

- فالشركات الأمريكية النفطية والاحتكارات الصناعية العملاقة وشبكات المصارف الضخمة (على رأسها تشيس مانهاتن) ، كانت تعارض خطوة كنيدي في الإعتراف باليمن .
- وكانت بريطانيا تجد الحل الأمثل في استدعاء الدهاء البريطاني ، لتأليب الأوضاع القبلية المتحركة كرمال الصحراء ، حيث ظلت قريبة من خطوط التماس مع هذه القبائل ، ويعني ذلك استنزافاً للقدرة العسكرية والمالية للجمهورية العربية المتحدة .
- وكانت السعودية المنفعلة تقول على لسان أميرها فيصل ، إن أمن الأسرة والبلاد في خطر ، (وأنا غير مستعد لسماع نصائح تأتيني من مصادر بعيدة عن الواقع الذي نواجهه بكل المرارة اليوم) .

وراحت حرب عربية أهلية بدت باردة ، تتحول إلى حرب تزداد سخونتها ، ويغذيها أوار اللهب من كل جانب .

لا مياه جارية عند أقدام مأرب ، ومع ذلك فإن الحياة السياسية اليمنية المشبعة لدى طلاب العلم في الجامعات السورية واللبنانية والعراقية والمصرية ، كانت لا تقف عند طموح ، فمن حزب الشعب الاشتراكي إلى الروابط ، إلى القوميين العرب ، إلى حزب البعث العربي الإشتراكي ، إلى الماركسيين ، ثم إلى الناصريين ، كانت الحياة السياسية اليمنية تتصارع عند كل منعطف ، وكان الصراع يجد طريقه بصورة متصاعدة مع عقل الإدارة المصرية السياسية (السادات) وصاحب سيفها (أنور القاضي) ، وممثل المتحدة في اليمن السفير (أحمد شكري) حين راح يقيم دولةً داخل الدولة . .

وعلى مقربة من أخطاء المصريين في سوريا ، كانت الأخطاء المتشابهة تأخذ طريقها إلى اليمن ، هذا مع الفارق بين المجتمعين العربيين في كل من سوريا واليمن ، ولئن تبدى الأول (سوريا) في حالة وعي على درجة أعلى ، فإن الثاني (اليمن) كان أشد حساسية في حرصه على التقليد وما يمسّ المشاعر الشخصية . . ومن موجة إلى أخرى ، كانت الدساتير تُعلن ، والحكومات تتبدل ، ومراكز الثورة تغيب ، وفي واحدة من مراحلها ، فإن القاهرة أصبحت (المعتقل الودّي) بالنسبة للسياسيين اليمنيين المعارضين ، ويقول

الدكتور أحمد صالح الصياد في كتابه السلطة والمعارضة في اليمن - دار الصداقة ص ٢٧٧ (**لقد وصل الأمر إلى حد احتجاز رئيس الجمهورية نفسه طيلة تسعة أشهر ، بعد أن اختلقت القاهرة مبرر وجوده لـلمعالجة ، والبحث عن حل سياسي للثورة اليمنية . . .**
ولما عاد السلال في الثاني من آب ١٩٦٦ ، وجد أن أجنحة الرجعية اليمنية هي السائدة في أجهزة الدولة ، وكان ذلك يجري بدعم ومباركة المملكة السعودية والإمبريالية العالمية) .

أما الدكتور عبد العزيز المقالح (صاحب الدور الرئيسي في توجيه أمر خطّي بفتح الإذاعة صباحاً باكراً لصوت الثورة اليمنية) فيقول في كتابه ثورة سبتمّبر دراسات وشهادات للتاريخ - ص ١١٤ ما يلي :

(لقد امتدت يد العون لليمن ، في ظروف عربية غاية في السوء وفي ظروف دولية قلقة وبقيادات سياسية واجتماعية غير مؤمنة وغير واعية للدور الطليعي الذي انتدبت مصر نفسها للقيام به . . **فكانت الأخطاء ، وكانت المساومات ، وكان فرضُ أشخاص على الثورة اليمنية ليس لهم بها علاقة لا من قريب أو بعيد . . كما تم استبعاد أشخاص كانوا في صميمها ومن قادتها**) .

غير أن أخطاء القيادة المصرية ، لم تُخفّض من جلال الموقف الذي اتخذه عبد الناصر منذ اليوم الأول لاندلاع الثورة اليمنية ، ومثل هذا القرار الشجاع ، ينبغي أن يظل محفوراً في ذاكرة الجماهير العربية إلى الأبد .

ستولّد الصدمة الهائلة المتسببة بفعل الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، ما يشبه الإنطواء في شخصية عبد الناصر التي ظلت على مستوى عال من الدراماتيكية والجاذبية ، وسيجد في وعورة المشكلة اليمنية ما يبعث على الإقرار بحقائق الأمور ، ففي مؤتمر الخرطوم (صاحب اللاءات الشهير) سيجد عبد الناصر مُتنفساً في الحل الوسط الذي دعت إليه جامعة القمة في العاصمة السودانية ، وسيكون هذا الحل الوسط بتكوين لجنة ثلاثية (من العراق ويُنتخب ممثليها من قبل مصر ، ومن المغرب وتنتخب السعودية ممثلها ، ومن السودان حيث يتم الإتفاق على ممثله من قبل مصر والسعودية) ، بغية إجراء مصالحة شاملة في اليمن ما يُمكّن أطراف النزاع من تشكيل حكومة ملكية - جمهورية مشتركة ، **وهكذا وصلت حزيران إلى صنعاء . .**

هذا وسيصرخ السلال معارضاً الإتفاق ، وحين وصلت اللجنة الثلاثية إلى صنعاء يوم ٣ تشرين الأول ١٩٦٧ ، وجدت في وجهها مظاهرات شعبية تهتف ضد اتفاق الخرطوم (الخائن) ، وأُكرهت اللجنة على الخروج من اليمن مثلما دخلت ، وسقط

العديد من الضحايا اليمنيين والمصريين في ذلك اليوم البائس .

وإلى أن يحين موعد الإنقلاب ضد السلال في الخامس من تشرين الثاني ١٩٦٧ وهو في زيارة لبغداد وموسكو ، فإن اليمن سيشهد سلسلة إضافية من الإنقلابات العسكرية (أو الاغتيالات) على الطريقة السورية دون تعديل .

لقد أعلنت الحكومة اليمنية الجديدة برئاسة محسن العيني (حيث آسندت رئاسة المجلس الجمهوري للقاضي عبد الرحمن الارياني والأركان للفريق العمري) ، أنها ستواصل الجهود التي اتفق عليها قادة العرب في الخرطوم ، وأنها ساعية للمصالحة الوطنية وتحقيق السلام وعودة جميع الملكيين باستثناء الأسرة المتوكلية إلى وطنهم اليمن ، وهكذا تكون الستارة قد أُسدلت على آخر ما في اليمن من فصول ، بعد الفصل الدامي في حزيران . .

♦ ♦ ♦

- الفصل السابع -

في الطريق إلى الهزيمة

أولاً / دولتان لحزب واحد*.

استهلّ عقد الستينات نذير شؤمه بالإنفصال ثم استقر عند الهزيمة المجلجلة في حزيران ، ولم يودعنا إلا مع أيلول الأسود . .

ما بينهما كان بعث العراق . . وبعث سوريا ، وكان الفلسطينيون . . . ثم مات عبد الناصر . . عقدٌ عمره عشرة سنوات في الزمن ، وقرن إلى الوراء في التاريخ .

كان يوم الجمعة الموافق لـ ٨ شباط المصادف لـ ١٤ رمضان من العام ١٩٦٣ ، هو اليوم المحدد للإنقضاض على وزارة الدفاع العراقية حيث يقيم عبد الكريم قاسم ، وكانت الساعة التاسعة والنصف من صباح ذلك اليوم ، وهي ساعة الصفر ، وقد تمكنت مجموعة حزبية مندمجة (بعثية عسكرية ومدنية) من اقتحام منزل قائد القوى الجوية جلال الأوقاتي (وهو شيوعي أو قريب من الشيوعيين) قبل ساعة الصفر المحددة بساعة واحدة فأردته قتيلاً أمام باب منزله .

ثم دوّت الطائرات التي أطلقها عارف عبد الرزاق آمر الحبانية ، وكان يقود السرب المغير على مبنى الدفاع الضابط البعثي الشهير منذز الونداوي . .

كان قاسم قد دلف إلى فراشه في هذا الوقت لينام ، حيث أمضى ليلته في تقليب سجلات الضباط تمهيداً لتسريح ٥٨ ضابطاً ، (كانت ستصدر بعد يوم واحد) ، وحين

---

* العائق الأكبر في وجه استرداد الوحدة المفقودة بين مصر وسوريا ، كان التباعد الجغرافي ، فهل من قبيل المصادفة ألا يتحد العراق وسوريا ليس بينهما مثل ذلك التباعد؟ هل من قبيل المصادفة ألا يتحد البلدان لا في ظل الاستعمار ولا في ظل الاستقلال ولا في ظل صرخات القومية العربية ؟ أم أن هناك خطأ أحمر لا يمكن تجاوزه؟ أم هو (المُلك العقيم) لا أحد يعلم . .

انقضت أول طائرة من طائرات السرب مطلقةً صواريخها باتجاه الجناح الذي يقيم فيه قاسم، ظنّ بأنها محاولة أخرى من محاولات الإغتيال ، وبهدوء نهض من فراشه ، وتوجه إلى مكتب العقيد (وصفي طاهر - شيوعي) ، والذي كان مديراً لمكتبه وملاصقاً له ليل نهار ، وأمره بتحقيق اتصال هاتفي مع اللواء الأوقاتي قائد القوى الجوية ، للاستفسار عن الموقف في القواعد الجويّة ، إلا أن الأوقاتي كان قد غادر الدنيا إلى مثواه الأخير ، ثم عادت طائرة ثانية . . وثالثة ، ومع ذلك ظل قاسم في وضع المتسائل عما إذا كانت محاولة الإغتيال الجوية ، هي محاولة جماعية وليست فردية ، ولم ينجل الموقف أمام قاسم ، إلا بعد أن سمع هدير المدرعات والمظاهرات الصاخبة التي أطلقها حزب البعث ، وهي تقترب من وزارة الدفاع ، وفي اللحظة نفسها ، كانت قوة مشتركة من الجيش والحرس القومي (زهاء ألفين من شباب البعث المسلح) تقتحم مبنى الإذاعة ، لتذيع نبأ مصرع الطاغية ، وهو نبأ يهدف إلى إشاعة البلبلة في صفوف أنصار قاسم ، وكان النبأ الذي انطلق من إذاعة بغداد الساعة العاشرة إلا ثلثاً (بعد عشرة دقائق من ساعة الصفر) ، يقول :

أيها الشعب العراقي الكريم ،لقد تم بعون الله القضاء على حكم عدو الشعب عبد الكريم قاسم ، وزمرته التي سخرت موارد البلاد ، وصادرت الحريات ، وداست الكرامات ، وخانت الأمانات وعطلت القوانين واضطهدت المواطنين . . . إلى آخر البيان .

انطلق الشيوعيون حين سماعهم لبيانات الإذاعة الصباحية ، وبدأوا بالتجمع في أحياء ومراكز ثقلهم الحزبية في بغداد* ، وراحت مكبّرات الصوت تعلن (إلى السلاح أيها الرفاق ، إلى السلاح للقضاء على مؤامرة الإمبريالية والرجعية . . استقلالنا الوطني ومنجزات ثورتنا في خطر جسيم . . خذوا السلاح من مراكز الشرطة . . صادروه من أي مكان . . واخرجوا كالأبطال لضرب المتآمرين ، عملاء الاستعمار) .

توجه الحرس القومي البعثي المنظم والمسلّح ، بقيادة الكادر البعثي وجرت الاصطدامات الدامية بعد عودة الشيوعيين من مظاهرة تأييد لقاسم عبر شارع الرشيد .

لم تكن معركة وزارة الدفاع سهلة كما يمكن تصور الوضع أمام أي مرفق حكومي عادي ، فقد حشد قاسم في هذه القلعة الحصينة زهاء ألف وخمسمئة جندي وضابط

---

* كانت مظاهرات الشيوعيين في شارع الكفاح وباب الشيخ والكاظمية تستنزف فاعلية القوات النظامية المشاركة في الثورة ، وقد تمكن النقيب سعدون غيدان من القضاء على مظاهرة باب الشيخ ، فيما توجه العقيد عبد الغني الراوي على رأس فوج لمواجهة الوضع في الكاظمية .

يمتلكون مدافع مضادة للطائرات وعربات مصفحة ومدافع ضد الدروع . . كما حشد زهاء سريتين مقاتلتين من سرايا الإنضباط العسكري (في سوريا الشرطة العسكرية) . واستمرت المعركة ثلاثين ساعة كاملة ، ثم طلب قاسم من خلال صحفي وسيط (يونس الطائي) الذي كان في وزارة الدفاع ، إذ تصوّر الحدَثْ على أنه شبيه بما جرى في الموصل على يد الشوّاف (مما اضطره تالياً أن يؤثر لعب دور الوسيط) وقد أبلغ قيادة موقع بغداد ، بأن قاسم على استعداد للاستسلام شرط المحافظة على كرامته وحَملْ رتبته العسكرية حتى اللحظة الأخيرة . . ثم توالت الضربات الجوية ورافقها المزيد من دخول القوات المسلحة أرض المعركة ، فاضطر قاسم للخروج من الباب الخلفية لوزارة الدفاع مقابل الجانب المطل على مستشفى الجمهورية ، ومن هناك - بعد أن صفعه جندي التهبت مشاعره - اقتيد مع فاضل المهداوي وطه الشيخ أحمد إلى مبنى الإذاعة حيث نُفّذ بالجميع حكم الإعدام رمياً بالرصاص .

ويقول عبد الكريم فرحان قائد الثكنة الشمالية بباب المعظّم (١٥٠ متر عن وزارة الدفاع) أثناء الثورة ، (**لقد طويت بموت قاسم ، صفحة مليئة بالمآسي . . . وكأن العراق كان قد كُتب عليه منذ استشهاد الإمام حسين بن علي على ثرى كربلاء ، بأن يواجه لعنته الأبدية ، فيقدم المزيد من الضحايا والشهداء والأموال . . ومهما كان ، فإن قاسم كان جريئاً ، شهماً ونزيهاً وعف اللسان ، إلا أن شهوة الحكم وأطماع ذويه ومحازبيه والمنافقين من حوله ، سدت أمام وجهه كل الرؤى ، فكان القدر وكان المصير** - حصاد ثورة ص ٧١) . .

وعلى جناح السرعة ، دون إضاعة للوقت ، فقد صدر بلاغ لترتيب البيت العراقي على النحو التالي :-

- عبد السلام عارف — رئيساً للجمهورية .
- أحمد حسن البكر — رئيساً للوزراء .
- المقدم صالح مهدي عماش — وزيراً للدفاع (أصبح برتبة فريق) .
- علي صالح السعدي — نائباً لرئيس الوزراء وزيراً للداخلية .
- اللواء طاهر يحيى — رئيساً للأركان العامة .
- طالب شبيب — وزيراً للخارجية .
- علي رشيد مصلح — حاكماً عسكرياً .

ثم توالت الأسماء بأكثرية بعثية ظاهرة . . . .

عند مساء اليوم الأول من نشوب الثورة (٨ شباط) ، كانت الثورة ما تزال تصارع مصيرها ومع عناد القتال عند وزارة الدفاع ، ومظاهرات الشيوعيين ، وارتداد بعض القطعات العسكرية في المسيب والبصرة ضد الثورة . . . وموقف موسكو المُحرّض ، كان عبد السلام عارف يهتف لعبد الناصر في القاهرة : (إنني أخوك الوفي الباقي على العهد) .

كان عبد الناصر ساهراً مع ليالي بغداد ، يراقب التطورات عن كثب ، وقد استقر في التاسع من شباط (اليوم الثاني للثورة) على ملاحظات بعث بمجملها إلى عبد الحكيم عامر الذي كان قائماً على ما يجري في اليمن آنذاك ، ومؤدى هذه الملاحظات المستقاة قبل أسابيع من وقوع الثورة بالطبع : -

- أن عارف لا يمثل القوى الحقيقية في الثورة العراقية ضد قاسم .
- أن البعثيين لهم قيادة منظمة ويمثلون حزباً سياسياً قائماً .
- وأن البعث العراقي إنما هو بقيادة عفلق الذي فصل لتوّه أكرم الحوراني من الحزب .
- وأن المشاركين الآخرين من قوميين وناصريين لا قيادة منظمة لهم .

ثم يسترسل عبد الناصر في حساباته قائلاً : -

لكن قيادة الجيش بمعظمها من القوميين ، وهناك الحرس القومي المسلح الذي أنشأه البعثيون ، كما يلاحظ أن الوزارات الحساسة جداً بأيدي البعثيين ، وعلى الرغم من قناعة البعثيين بأنهم هم كحركة عقائدية كانوا وراء الثورة ، إلا أن هذا الدور مبالغ فيه ، فعارف عبد الرزاق قائد سلاح الطيران كان قومياً ومايزال ، كذلك حال عدد كبير من الضباط الذين شاركوا في الثورة . . **لقد نُقل إليّ أن بغداد اليوم (٩ شباط) منعت طبع صور عبد الناصر وعبد السلام عارف كما حالت دون مظاهرات تطالب بالوحدة العربية مع القاهرة، ونظراً لأن عارف لن يقبل بدور صورة في مجلس الثورة ، فإن معارك صامته ستدور داخل هذا المجلس ، ومن غير الطبيعي أن تظل ثورة بدون قائد ، رغم وجود مجلس لقيادة الثورة** (- وثيقة من وثائق هيكل - سنوات الغليان ص ٩٣٠) .

كانت اللجنة العسكرية العليا المشكلة قبيل الثورة قد ضمت الضباط :

أحمد حسن البكر ، صالح مهدي عماش ، حردان التكريتي ، صبحي عبد الحميد ، عبد الستار عبد اللطيف ، ابراهيم جاسم ، خالد حسن فريد وخالد مكي الهاشمي وعبد الكريم فرحان .

غير أن صبحي عبد الحميد (ميول ناصرية) ، آثر الإنسحاب من اللجنة مع نهاية العام ١٩٦٢ قبيل الثورة بأشهر ، وشكل مجموعة عسكرية ضمت عارف عبد الرزاق ، عبد الكريم فرحان ، جاسم العزاوي ، هادي خماس ، عرفان وجدي ، وعدنان أيوب صبري ، وفاروق صبري ، وقد حددت هذه المجموعة ساعة صفرها للثورة آخر يوم من رمضان (الثورة وقعت في ١٤ رمضان) .

ويقول أحد أركان الاتجاه القومي (عبد الكريم فرحان) في التشكيلة العسكرية المنسحبة من كتلة البعث والموازية لها (مهما اختلفت وجهات النظر وتباينت الآراء في تقييم حركة ١٤ رمضان ، ومهما وُصفت أو قيل عنها ، **فإنها دون ريب ، حركة جريئة بدأها حزب البعث صباح الجمعة في الثامن من شباط ، وسرعان ما انضم إليها القوميون بكل طاقاتهم وقواهم ، من حيث كونها معركة مصير العراق كله ، ثم ما لبث الإتجاه القومي أن أخذ دوره في المعركة ، فساهم وأشرف وقاتل في معركة وزارة الدفاع التي استمرت زهاء ثلاثين ساعة كاملة** – حصاد ثورة ص ٦٨) .

لقد عيَّن المجلس الوطني لقيادة الثورة ، العميد صبحي عبد الحميد ، زعيم التشكيلة العسكرية القومية ، في أخطر منصب عسكري ، حين سُمي كرئيس لشعبة تحركات الجيش بعد الثورة ، وهي الشعبة التي كان لها الفضل الأول في نجاح ثورة تموز في العام ١٩٥٨ .

ويقول باتريك سيل في كتابه الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ١٢٨ ما يلي :

(لقد قام أعضاء التنظيم السري لحزب البعث العراقي ، بقيادة علي صالح السعدي وهو شاب خشن ذو خلفية فقيرة ، بتجنيد وتسليح ميليشيا قوامها ألفا مقاتل ، **كما كوّن التنظيم تحالفات مع الضباط القوميين في الجيش وكسبوا إلى جانبهم النقابات المهنية للمحامين والمهندسين والأطباء الذين غالباً ما يشكلون العمود الفقري للطبقة الوسطى في المجتمع**) .

وفي معرض المفارقة عن وضع البعث في سوريا ، يقول الدكتور منيف الرزاز في كتابه التجربة المُرّة – دار غندور ص ٨٦ ما يلي :

(**إن الأمر هنا يختلف تماماً عن الأمر في العراق ، ففي العراق كان هناك تنظيم بعثي في الجيش تابع لقيادة الحزب ، يأتمر بأمرها ، ولا يخرج عن إرادتها ، ولم ينقلب على**

القيادة إلا بعد الثورة بتسعة أشهر ، حين تخلت القيادة عنه* ، أما في سوريا فقد كان التنظيم البعثي في الجيش مستقلاً عن الحزب ، غير منتظم معه ، لا يتبع قيادته ، بل له قيادته المستقلة القائمة بذاتها) .

بعد اسبوعين من هدوء الأوضاع في العراق ، أي في الثاني والعشرين من شباط ، وصل علي صالح السعدي وصالح عماش وطالب شبيب إلى مطار القاهرة ، لحضور الإحتفال بذكرى قيام الجمهورية العربية المتحدة ، وسيتم اللقاء مع عبد الناصر حيث يدوّن ملاحظاته الإضافية على شكل رسالة أخرى إلى عبد الحكيم عامر في اليمن يمكن اختصارها كما يلي : -

- أنه تلقى من عبد السلام عارف (جوابات - أي رسائل) تفيد بتخوفه من البعثيين ، (لكنه لم يذكر ذلك صراحة) ، وهذه الرسائل وصلت إلى القاهرة قبيل وصول الوفد الرسمي .
- أن الوفد العراقي الرسمي كان مكوناً من :
  - علي صالح السعدي : ٣٠ سنة ، صريح مندفع ومغرور ، وقد كان في السجن وقت قيام الثورة ! . .
  - علي صالح عماشة : (ويقصد صالح مهدي عماش) . ٣٨ سنة ، وكان أيضاً في السجن يوم الثورة ، هادئ وذكي . وقد ارتحت إليه ، وهو من جماعة الحاج سري . . لكنه انضم أخيراً إلى حزب البعث* .
  - طالب شبيب : ٢٨ سنة . ذكي . لبق . ومتحدث وقد ارتحت إليه .

---

* من الغريب أن واحداً مثل الدكتور منيف الرزاز يقول بأن التنظيم العسكري البعثي انقلب على قيادته الحزبية بعد تسعة أشهر من الثورة ، إذ ما حدث بالفعل هو أن عبد السلام عارف قام بانقلاب كامل ضد البعث يوم ١٨ تشرين الثاني (أي بعد تسعة أشهر من الثورة) ولم يكن ذلك انقلاباً عسكرياً بعثياً ضد قيادته القومية ، أما الخلافات الناشبة بين أطراف الحزب نفسه (علي صالح السعدي ↔ حازم جواد وطالب شبيب) فهي شيء آخر تماماً .

* يصحح هيكل (سنوات الغليان ص ٦٨٠) فيقول (المقصود هو العقيد رفعت الحاج سري أحد القادة القوميين البارزين في التيار القومي داخل الجيش ... الخ) ولما كان القصد هنا . هو التمييز بين ما هو قومي وما هو بعثي فإننا نود أن نقول :
رفعت الحاج سري من أوائل الضباط القوميين في الجيش العراقي ، بل هو أبو التنظيم العسكري السري في الجيش العراقي بعد سقوط فلسطين بقليل .. وقد ظل يجول في دائرة البعث حتى يوم استشهاده ، حيث لا أحزاب قومية سواه ، أما صالح مهدي عماش ، (فلم ينضم أخيراً إلى حزب البعث) بل انضم منذ البداية ، وأول منشور للحزب وزعه عماش في صفوف الجيش سراً . كان المنشور الصادر ربيع عام ١٩٥٣ (المستندات : العميد صبحي عبد الحميد . أسرار تموز ص ٣١ والعميد صبيح غالب قصة تموز ص ١٧) .

كان عبد الناصر ، رحمه الله ، ملك الملاحظة ، واستاذ علم التمييز ، حين لم تعوزه الفراسة العربية الأصيلة ، من قراءة وجوه الرجال ، والتنبؤ بمصائرهم من خلال آرائهم ومواقفهم وحتى حركات البؤبؤ في عيونهم ، وقد علمته تجارب الثورة المصرية ، وتقلبات الأحوال والأشخاص في مسارها ، أن قلم الاستخبارات (هذا القلم الذي أوعر العرب في كل مكان) ، بدءاً من أشد الأمور خطورة وحتى إطلاق النكات ، هو حجر الزاوية في البناء كله ، ولم يكن عبد الناصر بغافل عما يدور في العراق قبل مجيء الوفد إليه ، بل حتى قبل نشوب الثورة ضد قاسم ، فهناك السفارة المصرية في بغداد ، وكان قبلها ، اتصالات السراج والمخابرات السورية هنا وهناك ، ثم الأنصار والأصدقاء في صفوف الجيش ومنظمات الشعب السياسية والمهنية ، بل إن هناك خطاً قائماً ومشروعاً داخل الثورة العراقية ، هو خط القوميين والناصريين من الضباط الأحرار ، وقد كان هذا الخط مندغماً مع البعث بحيث يصعب التفريق ، ولسنوات طوال ، ظل البعث يطلق على نفسه الخط القومي دون تمييز (رفعت الحاج سري ورفاقه مثلاً) فما أن دقت ثورة شباط باب الكفاح العراقي (ضمن جبهة قومية عامة) ، حتى أخذت الأجهزة السرية المصرية ، بفرز الخطوط وتبيان جذور الرجال السياسية ! . .

ثم يسترسل الرئيس عبد الناصر في رسالته إلى عامر فيقول :

إذا تحررت سوريا من الإنفصال ، فلا مانع لدينا من أن تتحد مع العراق ، فيما يصرّ (عماشة) على أن تعود الوحدة السورية - المصرية أولاً . . وقد كان من جملة ما رواه عماشة عن الأحداث ، أنهم (المقصود البعثيون) ، **اعتقلوا ٨٠٠ ضابط شيوعي منهم ١٥٠ طيار لدرجة أن أسرابهم دون طيارين الآن ، وأنهم اعتقلوا زهاء أربعة آلاف شيوعي ، وقتلوا عدداً كبيراً منهم دون محاكمة** . . . عموماً الموقف في الجيش وبين الفئات القومية لا يدعو إلى الإرتياح . . وقد فهمت من طلعت صدقي أن أمام عبد السلام عارف ثلاثة أشهر فقط (هكذا قال عماشة لطلعت) ، **كما أن السعدي - بعد أن شرب ١٤ كأس ويسكي قال أمام طلعت : إننا لا نريد أن نقابل الرئيس مرة أخرى ، لأنه (بلشفَ ! . .)* الجميع بكلامه وتحليله** ، أما صديق شنشل فيقول : إن عارف يترك الأمور في هذه المرحلة التي ستكثر فيها الأخطاء ، وأن هناك (تجمع قومي في الجيش) والفئات القومية الأخرى ، وفي رأيي أنهم شباب يحتاج إلى رعاية وتوجيه . . ورغم أخطاء البعث فإن من واجبنا الحفاظ على ثورة العراق . . إذ ليس أمامهم إلا اللقاء معنا .

---

* التعبير العامي في اللهجة السورية ربما (بلف) الجميع .

أما الأكراد ، فقد زارني ممثل البرازاني على انفراد ، بعد اصرارهم على ذلك وموافقة الوفد العراقي ، **وقد قال الوفد الكردي ، أنه لا يثق بوعود بغداد ، إلا إذا ضَمنتُ شخصياً هذه الوعود . . والملاحظ أنهم أخذوا وعوداً أثناء الإعداد للثورة ، وبعد نجاحها ، فإن الحكومة في بغداد تتهرب الآن . . .** (وتمت الرسالة) .

كانت تلك الملاحظات مبوبة ومدونة في رسالة طويلة تكاد تشير إلى مستقبل المسار كله دون زوغان ، وفي صباح يوم ٢ آذار (أي بعد تسعة أيام من الرسالة إلى عامر) نشرت جريدة الأوريون البيروتية على صدر صفحاتها تهديدات عصمت شريف قانلي (الناطق الرسمي باسم الملا مصطفى البرازاني) الموجهة إلى الحكومة العراقية :

(**تحقيق استقلال ذاتي سياسي لكردستان ، وسحب القوات العراقية منها ، وتحويل الميليشيات الكردية المسلحة إلى جيش نظامي وحديث ، وتوزيع الدخل القومي للدولة من البترول بنسبة ٧٠ بالمئة لكردستان ، فإذا لم تعترف الحكومة العراقية بهذه المطالب رسمياً ، وبطريقة عملية في مدة أقصاها أسبوعين . . فإن لجنة الدفاع عن حقوق الشعب الكردي ستطلب من اللواء البرازاني المسلح . . معاودة الكفاح حتى التحرير الكامل لكردستان العراق .**) .

ولم تكن هذه (العنتريات) لتمضي ، لولا أن اكتشف الوفد البرازاني في القاهرة ، مدى هشاشة الأوضاع بين القوى المتنافرة في الثورة العراقية ، وتأكيداً على ذلك ، فإنه بعد يوم واحد من تهديدات الناطق الرسمي ، راح البرازاني نفسه يشهر سيفه (**إن النظام العراقي الجديد هو أكثر ضعفاً من نظام قاسم ، حتى يكون بمقدوره خوض المعركة ضد الأكراد ، لذلك فإنني ألح بشدة أن تتحقق حالياً كل مطالبنا**) .

وكانت أصداء اجتماعات القاهرة ترن في الآذان ، كما لم تبخل موسكو وجميع العواصم الشيوعية بالتحريض ضد الثورة (التي هي امبريالية أمريكية) في جميع الحسابات ! . .

وقد زاد الإندفاع المتهور للخط القومي برمته (إذ لماذا يُتهم البعثيون فقط) في معاملة الشيوعيين بالمثل (سياسة السحل التي تنتزع من الإنسان روحه ويقينه) وكان ترداد (البادئ أظلم) يصمّ الآذان في شوارع بغداد والموصل وكركوك ، ثم كانت همجية ضد همجيات سابقة ! . .

يوم ٨ آذار أي بعد شهر بالضبط من سقوط نظام قاسم في العراق ، تحركت دمشق ، واسقطت بقايا نظام الإنفصال الذي كان ما يزال ، مُمسكاً بدفة الحكم في سوريا .

لقد أدت أحداث بغداد إلى تغيير في مجريات السياسة العربية ، فالعراق الذي عزله

قاسم ووضعه خارج المسار العربي عاد ودخل إلى الحلبة الرئيسية للسياسة العربية ، كما أدت الأحداث إلى تبديل وضع البعث نفسه ، فبعد أن كان ممزق الأوصال ولا يوجد منه إلا بقايا مهلهلة في سوريا وبقايا أكثر هشاشة في لبنان والأردن ، فإنه بدا الآن وعلى حين غرة (دمشق - بغداد) كقوة راديكالية قومية ، تضاهي عبد الناصر نفسه ، وكان هذا التبدل الجذري في أوضاع العراق قد منح البعث السوري تشجيعاً معنوياً لا حدود له ، ومع أن الأستاذ عفلق . كان يعي مغبة العمل المتسرع للبعث في سوريا ، إلا أن اللجنة العسكرية للبعث * ، كانت قد تجاهلت هذا التحذير . لقد قرر رجال اللجنة العسكرية ، المضي قدماً، آخذين على عاتقهم كل المسؤولية ، وكانت ساعة الصفر بالنسبة لهم ، هو يوم السابع من آذار ، وكان ذلك بالإتفاق مع ضباط آخرين أعلى رتبة ومن مشارب سياسية وشخصية مختلفة ، وكان أبرزهم زياد الحريري ، وراشد القتيني ومجد الصوفي . . وكانوا جميعاً على رأس قطعاتهم العسكرية أو إداراتهم الأخرى ، وقد حدث ما يعكر صفو الخطة بتوقيتها المرسوم ، حين داهمت المخابرات العسكرية مكان المخططين قبل يوم واحد ، وقد بذل الأسد قصارى جهده لابلاغ الوحدات بارجاء التحرك إلى اليوم التالي ، وفي ليلة السابع على الثامن من آذار قاد العقيد زياد الحريري لواءً مقاتلاً سحبه من الجبهة ، بينما تحرك لواء آخر من منطقة السويداء ، وانحصر اللواء المدرع المتميز في الكسوة فآثر قائده التسليم ، وقد وثب العقيد محمد عمران مرتدياً بزته العسكرية لقيادة اللواء دون تباطؤ ، وقد آثر لواء قطنا الذي يقوده العقيد وداد بشير الحياد ، إذ لم يبد أي تحرك في وجه اللواء القادم من الجبهة ، ومع استثمار الكسوة وتحييد قطنا تابعت قوات الحريري تقدمها نحو دمشق ، فضربت طوقاً حول مديرية البريد والهاتف ، ثم انشقت كتيبة من اللواء بقيادة النقيب سليم حاطوم لتسيطر على محطة الإذاعة ، وتم احتلال وزارة الدفاع ومقر قيادة الجيش دون قتال .

في الصباح كان صلاح جديد يصل إلى المدينة على دراجة هوائية ليستلم مكتب شؤون

---

* اللجنة العسكرية كانت قد شكلت سراً في القاهرة أثناء الوحدة السورية - المصرية . وقد ضمت الضباط المتواجدين في القاهرة آنذاك : محمد عمران . صلاح جديد . حافظ الأسد عبد الكريم الجندي . أحمد المير . ويؤكد الرزاز في تجربته المرة ص ٩١ ، أن حزب البعث (القيادة) لم يقم بثورة ٨ آذار بل اللجنة العسكرية ، والحزب لم يشترك رسمياً لا في التخطيط أو التهيئة ، ولا في التوقيت أو التنفيذ ! . .

الضباط . وكانت اللحظة الأهم في حياة الأسد العسكرية ، هي تلك التي تجلت في الإنقضاض - على رأس سرية مدرعة - على قاعدة الضمير الجوية ، وقد كانت أهم القواعد خطراً لصالح الإنفصاليين * .

عند ضحى ذلك اليوم ، اجتمع صانعوا الإنقلاب في مقر قيادة الجيش للاحتفال بانتصارهم السريع والمبهر ، إذ لم يكن الإنقلاب في حقيقته سوى نزهة مكشوفة ، وقد هدر الناصريون وقليل من البعثيين في شوارع دمشق ، وربما المدن السورية الأخرى ، وكانت حلب قد تجاوبت مع أصداء البلاغ الأول الذي سيهدر به كعادته (الدكتور) صابر فلحوط ، حيث (شاعر الثورة) يتفنن في الإلقاء والأسلوب : -

(منذ فجر التاريخ العربي وسوريا تلعب دوراً ايجابياً في حمل راية العروبة والوحدة ، وكانت سوريا العربية وشعبها لا يعترفون بحدود قطرهم . . وإنما يعيشون دائماً وأبداً في حدود الوطن العربي الكبير . . حتى أن النشيد السوري لم يحو كلمة واحدة عن سوريا . . الخ) .

وحميَ وطيس المبالغات البعثية في البلاغات ، حين نسي (شاعر الثورة) (ربوع الشآم بروج العُلى . .) في النشيد العربي السوري ، على أن الترداد القومي هو الغلاّب في الأناشيد الوطنية السورية ، وهو كلام لا يتجافى مع وقائع التاريخ .

لقد توغل بيان آذار حين أعاد ترداد المبادئ القومية الماثلة في : الوحدة العربية ، والحياد الإيجابي ، وتأييد ثورة اليمن ، ومباركة ثورة العراق ، واستعداد النظام الثوري الجديد في دمشق لمد يده إلى القاهرة وبغداد وصنعاء والجزائر . . وإلى كل الأحرار في كل مكان .

وكان الرئيس جمال عبد الناصر يجري حساباته من جديد ، فقد علم أن العقيد لؤي الأتاسي الذي رقي لرتبة فريق وعين قائداً عاماً للجيش ، كان حبيس سجن المزة حين وقوع الإنقلاب (نفس الإيقاع مع بعض قادة الثورة العراقية) وأن تعيينه رئيساً للمجلس الوطني لقيادة الثورة بعد وقوعها ، يعني أن هناك مساومات بين أطراف متعددة جعلتهم يلجأون

---

* يقول الرئيس الأسد في ذكريات له عن الواقعة ، أنه هدد بقصف القاعدة إن لم تستسلم . وكان ذلك أثناء المفاوضات مع ضباط القاعدة الجوية ، وقد انبرى أحدهم صائحاً : هل تعتقد أننا سنستسلم للناصريين ؟ فأجاب الأسد بهدوء : (بالأمس فقط كنا في السجن معاً ، وأنت تعلم بأنني بعثي لا ناصري) . كان عصّاصة آمر سلاح الجو قبل ذلك قد اطلق طائرتين على الأرجح لضرب القوات المتمردة ، إلا أن ذلك لم يكن مجدياً واستسلمت القاعدة .

إلى وضع طرف لم يشترك في العملية على رأس قادتها . . إلا أن عبد الناصر عدل عن تشريح الأطراف في حركة آذار ، حين أرضته إنسانياً ، برقية قادمة من المجلس الوطني في سوريا تقول :

الرئيس جمال عبد الناصر - القاهرة .

لقد ثأرنا من الإنفصال وغسلنا عاره .

هذا وسيؤكد اللواء عبد الكريم زهر الدين في مذكراته عن الإنفصال (أن الفئات الرئيسية التي قامت بحركة الثامن من آذار هي :

الناصريون ، البعثيون ، القوميون العرب ، الوحدويون الاشتراكيون ، وكانت تجري فيما بينها الإتصالات بصورة شبه علنية ، وكان اسم زياد الحريري يتردد على كل لسان في الأوساط العسكرية السورية) .

في البيان التاسع من بيانات حركة آذار ، سيتم ترفيع الضباط البعثيين من اللجنة العسكرية ، كما سيتم الحاق ثلاثين ضابطاً بعثياً في صفوف القوات المسلحة العاملة ، وسيكلف الأستاذ صلاح الدين البيطار بتشكيل الوزارة من قبل المجلس الوطني ، وبعد بضعة أيام ، سيتم توسيع المجلس لأهداف شكلية ليضمّ مجموعة من المدنيين على رأسهم الأستاذ ميشيل عفلق ، وصلاح البيطار ومنصور الأطرش .

ويستذكر الأستاذ منصور الأطرش ، ابن زعيم الثورة سلطان باشا الأطرش ، وخريج السوربون وأحد قادة الحزب القدامى ، يستذكر آلية العمل في هذا المجلس فيقول : (كان الضباط يتركوننا نتكلم ، مع أنهم حسبما اكتشفنا فيما بعد ، يكونون قد اتفقوا فيما بينهم سلفاً على القرارات التي ستتخذ ، وحين فقدت أعصابي ذات يوم قلت لهم : لماذا لا يتكلم هؤلاء السادة ؟ هل لي أن أقترح أن يعيّنوا ضابط ارتباط بيننا وبينهم ليوصل لنا آراءهم ؟ وتنازل محمد عمران في النهاية وأعطانا نحن المدنيين بعض المعلومات غير الواضحة عن مخططاتهم . نقله باتريك سيل في كتابه الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ١٣٣) .

لقد ارتكب الحزب خطيئته الأولى ، كما سيقول الرزاز (التجربة المرّة ص ٩٢) بعد إنقلاب آذار ، حين ترك العلاقة عائمة غير محددة بينه وبين بعثيي الجيش ، وكان عليه أن يحدد منذ الأيام الأولى ، قبل قبوله تحمل مسؤولية الحكم ، أن ترسم العلاقة وفق طريقين، إما أن يتبع التنظيم العسكري قيادة الحزب ، وإما أن تعتبر العلاقة نوعاً من التحالف بين تنظيمين بعثيين مستقلّين ، وفي الحالة الأخيرة ، يمكن للحزب أن يرسم سياسته وينفذها ، أو أن ينسحب من هذا التحالف عند الضرورة) .

لقد انحصرت نقمة اللجنة العسكرية منذ البدايات ضد قادة الحزب الثلاثة (عفلق والحوراني والبيطار) **ولو أنه بالنسبة للأسد ورفاقه ، فإنهم كانوا قد تأثروا لسوء الحظ الذي حلّ بالحوراني ، حين صُدم الضباط الذين كانوا يحترمونه ويثقون به ، عندما رأوه يرفع رايته على السارية الإنفصالية** . . . هذا وسيوضع فشل الحزب طوال السنوات السابقة على كاهل الأساتذة الثلاثة ، كما تمّتْ أحاديث شتى عن حل الحزب ! . (كشرط من شروط عبد الناصر لتحقيق الوحدة) ، وبالرغم من أن اللجنة العسكرية البعثية كانت ضد الإنفصال بكل قوة ، إلا أنها لم تكن مع إعادة الوحدة الفورية مع عبد الناصر .

إن اللجنة العسكرية بحد ذاتها ، حين دخولها بالقسر ، معترك السياسة من الباب الأوسع ، منذ أيام النفي في القاهرة ، فإنها تكون بذلك قد أصبحت حزباً أو نواة حزب (عسكري) ، إذ لم يكن أحد من قيادات الحزب التقليدية ، على علم بتشكيلها ولا بأهدافها أو نشاطاتها وإذا كان الضباط البعثيون قد لعبوا دوراً فعالاً في حركة ٢٨ آذار ١٩٦٢ أثناء حكم الإنفصال) ، وحين تم إبعاد العديد من الضباط البعثيين بعد حركة آذار الفاشلة ، فإنه لم يبق في الجيش عملياً ، سوى صلاح جديد وسليمان حداد وسليم حاطوم، ومن خارج الجيش كان محمد عمران (عقل اللجنة العسكرية) يعمل على تغذية اللجنة بالضباط المسرحين وضباط الإحتياط . ويؤكد نسيم سفرجلاني أحد قادة البعث اللاحقين . أن أغلبية أعضاء اللجنة العسكرية كانوا على اتصال دائم بما يسمى (بالمحور) الذاهب من دمشق إلى حمص فاللاذقية ، ثم ليتفرع عند حمص إلى حلب ودير الزور ، وقد ازداد نشاط اللجنة حين أقامت جسراً مع العسكريين المنضوين سابقاً تحت كتلة الحوراني والقطريين عن طريق عبد البر عيون السود في حمص ، ووهيب الغانم في اللاذقية ومصلح سالم في دير الزور . . .

على الضفة الأخرى ، كان عبد الكريم الجندي يقيم جسراً عن طريق ابن عمه سامي الجندي مع الوحدويين الإشتراكيين ، ودخل أحمد المير ومزيد الهنيدي حلبة القطريين بتحقيق الإتصال مع السيد رياض المالكي ، كما أن عمران وحاطوم توليا أمر الحركة الناصرية ، ويضيف عبد الكريم زهر الدين (بما في ذلك الإتصال مع سفارة الجمهورية العربية المتحدة في بيروت - ذكريات الإنفصال ص ٣٠٣ وما بعدها) .

وهكذا فقد نجح التحالف المبني على خطط سريّة متفاوتة ، عدا خطة واحدة علنية . هي اسقاط الحكم الإنفصالي في سوريا .

وقد شكل البيطار الوزارة بنصف بعثي ، (جمال الأتاسي ، منصور الأطرش ، عبد

الكريم زهور . وليد طالب ، شبلي العيسمي ، سامي الدروبي وابراهيم ماخوس) وعن القوميين العرب (هاني الهندي وجهاد ضاحي) وعن الوحدويين الاشتراكيين (سامي الجندي وسامي صوفان) وعن المجموعات الناصرية (نهاد القاسم وعبد الوهاب حومد) وقد اشترك ضابطان في وزارة البيطار أحدهما بعثي (اللواء أمين الحافظ كوزير للداخلية) والآخر ناصري هو اللواء محمد الصوفي كوزير للدفاع ، وقد وفّى البعثيون بوعودهم (قبل الثورة) لزياد الحريري حين أسندوا إليه منصب رئيس الأركان العامة ، كما تم تسمية اللواء راشد القطيني نائباً لرئيس الأركان .

أما المجلس الوطني فكان عن بكرة أبيه من البعثيين (١٣ عضواً) باستثناء اثنين منه هما : لؤي الأتاسي وزياد الحريري .

مع ذلك ، فإن نجوم اللجنة العسكرية ظلت ساطعة من وراء حجاب ، فقد آثر مؤسسو اللجنة ومحركو فاعليتها متابعة (اللعبة) من وراء الكواليس ، ثم سعوا تدريجياً لتثبيت مواقعهم داخل القوة الحقيقية في البلاد : القوات المسلحة .

ولم تمهل الأحداث المتسارعة ، بما فيها المظاهرات الصاخبة ، التي نظّمها القوميون العرب والناصريين بجميع أجنحتهم ، لم تمهل اللجنة العسكرية لترتيب أوضاع البيت الذي فازت باحتلاله ، فقد أدى الصخب الشعبي مع ضغط الاتجاهات الناصرية في الحكومة والجيش ، إلى دفع البعثيين للذهاب إلى القاهرة من جديد .

وكان يوم الرابع عشر من آذار (عمر الحركة الآذارية أسبوع) هو موعد الوصول إلى مطار القاهرة .

لقد جرت المباحثات (الثلاثية) بين المصريين والسوريين أولاً ، في جو مفعم بالتهاني والتبريكات إلى أن حضر الوفد العراقي من بغداد .

لم يكن تتبع المفاوضات بالتفصيل لما فيها من حشو الكلام كما ورد في (محاضر محادثات الوحدة - دار الكفاح - بيروت . رياض طه ٢٥١ صفحة) أو اقتطاف بعض المقاطع من المناقشات (كما فعل هيكل في سنوات الغليان ص ٦٨٩ إلى ص ٦٩٩) هو كل شيء في هذه اللحظات الخطيرة في تاريخ العرب ، إذ من السهل التقاط هذه العبارة أو تلك ، لترتيب المسؤوليات أو إطلاق الإتهامات ، **وقد أظهرت المحادثات بصورة جليّة النوايا الخفيّة لدى كل فريق ، كذلك السرعة الفائقة التي طرحت معها وعولجت فيها قضايا على أشد درجة من الخطورة ، وقد (ترأس الرئيس عبد الناصر الوفود الثلاثة طوال الجلسات ، وقد نجح ببراعة ، أمام الرأي العام العربي في إخفاء ثغرات الضعف في نظامه ،**

وقد وجد البعثيون أنفسهم في جو ثقيل وحالة مشتتة ووضع هو أقرب ما يكون إلى وضع المتهم - مصطفى دندشلي . حزب البعث . اطروحة دكتوراة مقدمة لجامعة السوربون في باريس . ص ٢٣٦) .

استمرت المفاوضات بصورة متقطعة حوالي الشهر (١٤ آذار إلى ١٧ نيسان) وقد ساد في اسبوعها الأول حوار طرشان حقيقي ، فجميع المشاركين يتحدثون عن الآمال . . والآلام . . والوحدة من حيث هي المصير ، لكن الوقائع على الأرض (في سوريا والعراق) كانت تجري في مستقر لها ، فقد كان البعثيون والناصريون يصلون إلى حد الاشتباك في شوارع سوريا والعراق ، وقد وصل الأمر إلى حد الاقتتال يوم قام بومدين بزيارة إلى دمشق .

ومن الملاحظ أن سير المفاوضات بدا متشنجاً ، حين رفض عبد الناصر استرداد وحدة مع سوريا يحكمها البعث ، وقد تم القاء اللائمة في فشل الوحدة من قبل على كاهل البعث ، حين أوصل صوت العرب الأمور إلى مداها فاتهم البعث بالخيانة مع جريمة الإنفصال . . لكن الواقع كان شيئاً آخر ، فعبد الناصر كان يحسب بدقة ، أن وحدة ثلاثية ، يكون الطرف الثاني فيها هو البعث في سوريا والعراق ، ستكون وحدة قد ينعدم التكافؤ فيها ، وقد تصبح مصر (أقلية) داخل قوام الوحدة المنشودة ، على الضفة الأخرى ، فإن البعث (في سوريا تحديداً) ، كان مصمماً على عدم الخضوع لأي ضغط مصري أو لأية شروط شخصية كما حصل في مفاوضات الوحدة السابقة ، فهو (أي البعث) لم يصل إلى السلطة في بغداد إلا مع جريان الدماء ، وقد كابد في سوريا عناء المخابرات السراجية ، ثم راح يكابدها بعد أن أضحى منفياً في دوائر القاهرة . ولم تفعل مخابرات الإنفصال أقل من ذلك في تعقبها للبعثيين وزجهم في السجون .

في المحصلة ، فإن الممارسات بدت خاوية منذ البدايات ، إذ لم تكن المحادثات سوى ستار دخان يحجب الخلافات العميقة في وجهات النظر المحورية . وطوال المحادثات ، يقول باتريك سيل في كتابه الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ١٣٧ (كان عبد الناصر يتبنى لهجة أبوية وبالنسبة للبعثيين السوريين استفزازية ، وظل يضغط من أجل الوصول إلى عملية دمج سياسية في الأقطار الثلاثة في تركيب حزبي واحد يكون تحت قيادته المركزية) . وقد هدد بنشر المحاضر لإيقاظ غضب الجماهير ، وهو تهديد تم تنفيذه فيما بعد ، مما سبّب خيبة وإرباكاً لكل من عفلق والبيطار ، إذ أظهرهما كمفاوضين رديئين وحتى متلعثمين يتحسسان طريقهما بحثاً عن الكلمات المفقودة : (بالنسبة لعفلق ، كان

يقول صوت العرب ، فإن بادئته في الكلام أصبحت معروفة : أنا في رأيي . . ثم يتعثر بين يعني ويعني . . وفي الحقيقة فإنه (ميعنيش حاجة)) ! . . كما أطلقت الإذاعات المصرية تهكمات مريرة ضد فهد الشاعر ، حين كانت تقول بسخرية (وجاء الدور على . . الأخ فهد ! . .) . لقد حان الوقت لنستمع إلى هيكل في تعليقه النهائي (سنوات الغليان ص ٦٩٨) على ما جرى . .

يقول هيكل : وتشعبت المحادثات وطالت وبرزت آراء واجتهادات واتضحت أسرار وحقائق ، وبدا واضحاً لجمال عبد الناصر ، أن هناك رغبة حقيقية وإن تكن مكبوتة بين جناحي البعث في سوريا والعراق في إنشاء (وحدة بعث) ، تكون هي الطرف الآخر في الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة . ولم يكن لدى عبد الناصر في أعماق أعماقه اعتراض على قيام وحدة بين العراق وسوريا ، كذلك كان يعتقد أن بعث العراق يختلف عن بعث سوريا ، وكان يشعر بأنه يفهم بعث العراق ويتعاطف معه أكثر كما قال هو نفسه للسيد علي صالح السعدي ، وعلى أي حال ، فإذا كان ذلك هو ما تريده الحكومتان في بغداد ودمشق ، فليكن إعلانه صريحاً من ناحيتهما حتى يعرف الناس بالضبط ، ما هم مقبلين عليه ، وفي هذه الحالة ، فلا داعي لإقحامه هو في الموضوع واستغلاله كستار لتصرفات غيره ، وفي كل الأحوال فإنه لم يكن على استعداد للدخول في تجربة وحدوية جديدة لا يستطيع أن يضمن مسارها ، ولا أن يتحمل نتائجها . . .

صحيح - يتابع هيكل - أنه تم التوقيع في النهاية على بيان مشترك (بيان ١٧ نيسان) لإنشاء جمهورية عربية متحدة ، تضم مصر وسوريا والعراق ، وتكون القاهرة عاصمتها ، لكنه كان يعرف منذ اللحظة الأولى أن هذا الميثاق لن يدخل حيز التنفيذ . وهكذا ولد اتفاق نيسان ميّتاً .

ومع نهاية أيار طفقت جريدة الأهرام القاهرية تنشر عن تسجيلات (ممتجة) محاضر محادثات الوحدة الثلاثية ، ثم نقلت مصادر البعث إلى الإعلام قولها بأن ما نشر (لا يمثل الحقيقة كاملة ، وإن انفراد طرف واحد بالنشر في هذا الوقت بالذات ودون اتفاق مسبق مع الطرفين الآخرين سوريا والعراق أمر يدعو إلى الاستغراب ، إذ كيف يمكن لجلسة واحدة استغرق فيها النقاش خمس ساعات كاملة ، أن تذاع في ساعة ونصف الساعة فقطّ)* ، وظل راديو القاهرة يهدر ، والأهرام تنشر (**فالقاهرة هكذا منذ بداية الثورة ، وعلى مَنْ**

---

* **محاضر محادثات الوحدة - دار الكفاح بيروت . رياض طه ص ٥ .**

وقد تضمن هذا الكتاب من القطع المتوسط ، ٢٥١ صفحة بين رأي ورأي ، ووقائل وقائل ، حتى خروج ميثاق ١٧ نيسان .

يفاوضها أن يعلم مسبقاً بأنها سوف تنشر الأسرار متى وجدت ضرورة لذلك ، ودون استئذان من أحد – جريدة الكفاح البيروتية – ٢٦/ ٦/ ١٩٦٣) .

ومع شهر أيار نفسه ، قام البعث العسكري في سوريا ، بتسريح ما يقارب من خمسين من الضباط الموالين للقاهرة ، فقدم وزير الدفاع محمد الصوفي ونائب رئيس الأركان راشد القطيني استقالتهما . ثم لحق بهما خمسة من الوزراء الناصريين ، وهنا نظّم الناصريون مظاهرات عاصفة في مدينة حلب (٨ و ٩ أيار) وقد طلبت اللجنة العسكرية إلى أمين الحافظ بصفته وزيراً للداخلية ، أن يوقف الاضطرابات في حلب ويعيد النظام ، فكان أن قُتل خمسون شخصاً ما بين متظاهر وحكومي ، ثم أغلق وزير الداخلية بقرار مكاتب حركة القوميين العرب ، وزج آخرين منّهم داخل السجون ، وتصاعدت حركات التطهير في صفوف الجيش والأمن والحكومة ، **ويدا أن ميثاق نيسان قد التحق بذمة التاريخ ، حين أصبحت المسألة بالنسبة للبعثيين هي أن يكونوا إما في عداد أموات السلطة أو في عداد أسيادها ! . .**

في ١٨ تموز (عمر حركة آذار أربعة أشهر وعشرة أيام) ، رتب جاسم علوان بدعم من حركة القوميين العرب والأنشطة الاستخباراتية الأخرى ، هجوماً مسلحاً في وضح النهار ، وكان الهجوم يرمي إلى احتلال وزارة الدفاع السورية (رئاسة الأركان المطلة على ساحة الأمويين بدمشق) مع احتلال مواز للإذاعة ودور الحكومة الأخرى ، وعلى ما يبدو ، فإن البعث كان عالماً بالهجوم قبًل وقوعه (المخابرات في هذه الآونة كانت شديدة الإختلاط ما بين بعثي وناصري وآخرين) ، وهكذا خرج أمين الحافظ وبيده رشاشه يقود المواجهة ضد انقلاب علوان الفاشل ، وقد حصدت الساعات المتهورة من الطرفين ، المئات من العسكريين (وقد قُتل بائع بطيخ مسكين كان يجلس خلف بطيخاته عند الزاوية الغربية من الساحة) ، وخلال ساعات في محاكم ميدانية أسرع من البرق ، تمَّ اعدام سبعة وعشرين ضابطاً في مكان الجرم وزمانه ، ولم تهدأ المذبحة إلا بعد أن فرّ جاسم علوان حين يئس من النتيجة ، وكأن الرجل كان على موعد مع الحظ العاثر طوال حياته ومحاولاته ، إذ ما انفكَ يغالب فشلاً إثر فشل ، وعلى الأرجح فإن عيون غيره كانت أقوى من عيونه ! . .

ثم اندلعت نيران حرب إعلامية لا تُبقي ولا تذر ، فقد شن عبد الناصر هجوماً ضد البعثيين (الفاسقين القتلة) ووصفهم **بأنهم طلاب حكم ولو على جثث الشعب ، وأعلن رسمياً إنسحابه من اتفاقية نيسان ، فيما بدا أن طريق الإفتراق أصبح باتجاه واحد لا سبيل للارتداد فيه .**

على ضفة دجلة ، وقبل أقل من شهر ، على هجوم جاسم علوان بهدف استئصال البعث من سوريا ، اندلعت معارك المطالبة الكردية (حزيران ١٩٦٣) شمال العراق ، وزاد النار ضراماً ، ذلك الاستهلال الوحشي لصفحات الثورة الأولى ، حين ذُبح الشيوعيون أو سحلوا إنتقاماً لوحشية الشيوعيين في الموصل ، وقد هرب العديد منهم إلى الجبال الشمالية اتقاء لمجازر البعث* ، أو الالتحاق بالثورة الكردية الجديدة ، وكالمعتاد فقد هبّتْ القيادة الجديدة في بغداد لارسال ألوية الجيش إلى الشمال (قرابة ١١ لواء) وتمكنت هذه الألوية بمساعدة لواء سوري قاده اللواء فهد الشاعر ، من السيطرة على المدن والطرق الرئيسية المؤدية لها ، إلا أنها لم تستطع الصعود إلى الجبال ، وأدت هذه الحرب التي ستكون طويلة بلا نهاية ، إلى نشوب خلاف حاد بين أطراف مختلفة من قيادات الحزب والجيش معاً ، وزاد في الغطرسة الكردية (في عدم سماعها لمقترحات بغداد) ، تلك الأصوات المنبعثة من الإعلام المصري ، **حيث كانت القاهرة ترى حقوقاً للأكراد لا يمكن تجاهلها ، ومع ذلك فقد سكت الإعلام المصري عن حقيقة المطالب الكردية ، التي وصلت إلى حد المطالبة بإنشاء جيش كردي خاص ، واقتسام موارد البترول بنسب مضحكة (٧٠ بالمئة لكردستان) ، مع منح الاستقلال الذاتي لكردستان العراق . . وكان الربيع مثقلاً بهواء مشبع بالعطور الزكية ، حين كانت المخابرات الإسرائيلية (ديڤيد كمحي - الخيار الأخير ص ٢٣٧) تجري اتصالات لها مع الملا مصطفى البرازاني ، وحين نضج الطعام ، كانت الأموال والأسلحة والأعتدة الطبية تأخذ طريقها من أورشليم عبر شاه إيران إلى الجبال الكردية . . (وبذلك أمكن الحيلولة دون وصول الجيش العراقي إلى الجبهة الشرقية ، حيث يشكل وجوده تهديداً كبيراً لأمن اسرائيل** - المصدر ذاته ص ٢٣٨) ، هذا وسيغذي عبد السلام عارف نشوب الخلافات البعثية على كل الأصعدة ، وسيخدم المؤتمر القومي السادس لحزب البعث ، وما انطوى عليه من نتائج ، عبد السلام في مسعاه ، ولو أن عارف فيما بعد ، كان قد تعرض لانقلاب ناصري ، قاده عارف عبد الرزاق رئيس الوزارة أثناء وجود (الرئيس) في مؤتمر القمة المنعقد في المغرب (حصاد ثورة الفرحان . ص١٧٦) * .

قبل محاولة عبد الرزاق الناصرية بسنتين كان المؤتمر القومي السادس للبعث ينعقد في دمشق ، وبلغ عدد المشتركين في عضويته ، ٧٣ حزبياً ، يمثلون الوطن العربي ، لكن

---

* الحرس القومي هو المقابل العُنفي لميليشيات السلام المسلحة لدى الشيوعيين ، وعندما كان يلتقي هذا الطرف بذاك ، فإنه لا سبيل إلى التفاهم إلا بالعنف ، وقد عملت المخابرات المركزية الأمريكية على إضرام الذر ، حين راحت تسرّب من سفارتها في بغداد ، قوائم بأسماء الشيوعيين أيام قاسم . .

* يقول المصدر نفسه أن عارف شتم القومية والوحدة وغمز من قناة ناصر ص ١٧٨ .

جلّهم من العراق وسوريا ، ولأول مرة في تاريخه ، بدأ البعث يتحدث عن اليسار واليمين، كأنه في الجمعية الوطنية الفرنسية أيام الثورة ، وقد لاح في الأفق ، بوادر انتقادات غاية في العنف ، راحت تطال سياسة الحزب وايدولوجيته وكل كتاباته السابقة .
وقد ذهبت إحدى التوصيات إلى حد (إعادة النظر في كل ما كتب سواء نشر داخل الحزب أو خارجه لجعله منسجماً مع التطورات الفكرية الجديدة . . وكان ياسين الحافظ أحد الشيوعيين الداخلين لتوّهم إلى عضوية البعث ، هو كاتب التقرير العقائدي للمؤتمر ، ولما كان الحافظ قائداً في الحزب الشيوعي ، فقد دخل البعث من أوسع أبوابه كقائد أيضاً ! . .
لقد محى التقرير العقائدي بجرة واحدة ، كل ما تعب عليه الأخَوان عفلق والبيطار دون أن يأسف لشيء ، ففي الوحدة العربية (**لم يستشرف الحزب دليلاً نظرياً لإنارة الطريق إلى الوحدة فيرسم اسلوب تحققها وضمانات حمايتها وتطورها** . . .) وفي الحرية كان عفلق يؤكد على شيء نظري (**لا علاقة له بالواقع ، فالحرية هي التي تسمح للشعب أن يعرف أين يذهب خبزه اليومي وكيف تُبذَّر ثرواته وثمار عمله وانتاجه**) وكان على الحزب أن يقول بالديمقراطية الشعبية لا بالحرية ، وفي الاشتراكية (**فإن التأكيد على القومية الإشتراكية دون توضيح الأسس النظرية ، أدى إلى نوع من العصبية القومية ، تجاه الفكر الإشتراكي العالمي ، فبقيت اشتراكية الحزب التي سميت (بالعربية) مجرد كلمة خالية من أي مضمون)**.

ثم راح الحافظ يفيض من مخزونه الماركسي فوق بحيرة السد البعثية ، تمهيداً لإزاحة الحزب التقليدي وتوليد آخر جديد ، قد لا يكون له علاقة بالحزب غير حمل اسمه . .

وحشد العراقيون والسوريون من مدنيين وعسكريين قواتهم الضاربة في المؤتمر ، فسقط في الإنتخابات الحزبية كل من : صلاح الدين البيطار (رئيس الحكومة السورية) ومعه الأسماء من ذوي (خمسة نجوم) : شبلي العيسمي ، خالد يشرطي ، علي جابر ، عبد المجيد الرافعي ومالك أمين ، بحيث لم يبق للبنان في القيادة مَنْ يمثّله ! . .

وكان الاتجاه الجديد الذي أعلن عن نفسه في القيادة القومية المنتخبة (باستثناء عفلق الذي لم يرغب بترشيح نفسه ، إلا أن انتخابه تمّ كرمز لا أكثر) ، يوحي بانقلاب خطير داخل البعث ، هذا إذا لم يكن قد تمّ توليد حزب آخر من داخل البعث ، لا علاقة له به .

كان الفائزون من أصحاب الثورة اليسارية الجديدة : (علي صالح السعدي ، حمدي عبد المجيد ، محسن الشيخ راضي ، جبران مجدلاني ، منيف الرزاز ، خالد العلي ، حمود الشوفي ، ثم من العسكريين حيث لا علاقة لهم بالخط الجديد سوى صلاح جديد : أمين

الحافظ . صلاح جديد . أحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش) وبالطبع ظل ميشيل عفلق كصورة تاريخية أميناً عاماً للحزب .

ها قد وصلنا إلى بغداد مع نهاية المؤتمر القومي السادس ، لنجد الخطوط قد تفارقت ، وأن الأجنحة في الجسم الواحد ، بدأت تعاكس بعضها في عملية التحليق .

كان البعثيون العراقيون في بازار مؤتمر دمشق السادس ، كالفلاحين الهابطين إلى المدينة لأول مرة - كما يتفكه أهل المدن - فقد وجدوا (الخط اليساري بالطبع) على حين غرّة ، قاعدة أرخميدس ، في وضوح النظر السوري وثوريته ! . . وقد رأوا ذلك مجسداً في التقريرين السياسي والعقائدي للمؤتمر ، إلا أن الصراع الداخلي في العراق ، كان قد بدأ قبل ذلك بقليل أو كثير ، فحازم جواد المتطلع إلى زعامة الحزب ، يسانده طالب شبيب ، كان يسعى منذ البداية لتثبيت مواقعه داخل صفوف الجيش ، وبصفته وزير دولة لشؤون رئاسة الجمهورية ، فقد تمكن من إقامة علاقات واسعة ، كما اتفق مع عارف على الإطاحة بعلي صالح السعدي . .

ولم تكن أخطاء السعدي وتهوّره أكثر من عوامل مساعدة لإقصائه ، وبالفعل فقد حافظ الرجل على أخطائه بايقاظ الغرائز الدموية فيما يعرف (برجال حرسه القومي) ، وقد مارس الحرس القومي ، سياسة هي فوق الدولة والجيش بآن معاً ، وكان الرعاع غير الملتزمين بالقوانين ، ولا حتى بالإنضباط الحزبي ، كثيراً ما يعمدون إلى توقيف المارة من الناس (وقد جرى ذلك فعلاً مع واحد من ألوية الجيش) لسؤالهم عن أي شيء يخطر ببال الملوّح برشاشه في وجه المواطن العادي . .

فقد حان وقت الحساب ، حين رتب حازم جواد مع طالب شبيب ومجموعة مؤيدة من الضباط ، مؤامرة إلقاء القبض على السعدي وشحنه في أول طائرة متجهة إلى مدريد دون حتى جواز سفر . وكان ذلك في ١١ من تشرين الثاني ١٩٦٣* .

سارع ميشيل عفلق إلى العراق مع لفيف من أعضاء القيادة القومية لحل النزاع الخطير ، وقد وجد بداية الحل في القرار الصادر عن القيادة القومية بحل القيادة القطرية في العراق ، ثم في القرار الأخطر ، الداعي لإدارة شؤون العراق ، من قبل القيادة القومية بصورة مباشرة . .

---

* كان عارف يلعب ورقة جواد داخل الحزب ، فحين كان يتم اجتماع قيادي حزبي لانتخاب أعضاء احتياطيين في القطرية العراقية بدلاً من الأعضاء الذين تم انتخابهم في القيادة القومية ، دخل المقدم حسين المهداوي شاهراً سلاحه ومعه مجموعة من العسكريين ، واعتقلوا علي صالح السعدي ، حمدي عبد المجيد ، محسن الشيخ راضي ، هاني فكيكي . . واقتيدوا إلى طائرة مدريد . ثم انتخبت قيادة جديدة على رأسها : البكر . عماش . جواد . شبيب . الونداوي . . . الخ .

ومع تسفير السعدي ورفاقه إلى مدريد ، وانتخاب قيادة قطرية جديدة برئاسة أحمد حسن البكر ، كانت إذاعة بغداد المُسيّطَر عليها من الحرس القومي ، تذيع نداءات نارية ، بدا معها العراق وكأنه على شفير حرب أهلية طاحنة ، وهكذا لم يكن أمام عفلق والوفد المرافق له (أمين الحافظ وصلاح جديد) سوى أن يدعو لحل القيادة القطرية الاستثنائية ، مع نشاطات لتهدئة النفوس والخواطر . .

كان أول قرار اتخذته القيادة القومية المشرفة على شؤون العراق ، هو ذلك القرار الخاطئ الذي أودى بالبعث على يد عارف ، حين شكلت القيادة القومية مكتباً عسكرياً عراقياً يضم في غالبيته ضباطاً موالين لعبد السلام عارف ، أو من الحاملين على سقطات البعث في مسلك حرسه القومي واتحاد نقاباته العمالية أو الفلاحية المسلحة . وهكذا صدق ظن صديق شنشل حين قال لعبد الناصر : إن عبد السلام عارف سيبقى بعيداً عن الواجهة في هذه المرحلة التي ستعم فيها الأخطاء كل مكان . . **ولم يعد عارف بعيداً عن الواجهة الآن ، فقد تمكن دون عناء من قطف الثمرة اليانعة في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٣ ، وكان البعث قد قضى في الحكم ، وهناً على وهن ، مدة المحمول في بطن أمه : تسعة أشهر أو نيف ! . .**

أما الحيلة التي انطلت على الجميع ، فتتمثل فيما أطلقه عارف صباح إنقلابه بالذات ، من أن هذه الحركة (وكان ينقص أن يسميها المباركة ! . .) ليست موجهة ضد حزب البعث كحزب ، بل ضد (العناصر المتطرفة والمغامرة) وضد سلوك الحرس القومي الاستفزازي وغير المسؤول .

وصدّقَ أمين الحافظ الموجود في بغداد الرواية كلها حين قال : كما أخبرونا فإن الهدف من الحركة ، هو ضبط الأوضاع المتردية . . لا أكثر ولا أقل ! . .

ثم ما لبث عارف أن أعلن إخلاصه لميثاق الوحدة الثلاثية (١٧ نيسان) مع مصر ، وحث عبد الناصر على إحياء الميثاق من جديد ، **فيما هرع أحمد سعيد إلى مذياع صوت العرب ، يدعو العراقيين الأمجاد ، لذبح عفلق ورفاقه في بغداد قبل أن يفلتوا هذه المرة . . وهكذا تم الخروج من جنّة الرشيد بصورة غير كريمة ، وكانت بُذرت حبّةٌ في أرض الشقاق السياسي مع القاهرة من جديد .**

لقد تطايرت الإتهامات داخل أوساط الحزب باتجاه المسؤول عن الكارثة في العراق . وكان الاتجاه يميل غالباً إلى لوم الخط اليساري المتطرف ، وقد أدى تحالف تكتيكي جديد بين الضباط والقيادة ، وهو تحالف مكرس لمحاربة الاتجاه الماركسي في الحزب ، إلى طرد كل

من علي صالح السعدي ، وحمود الشوفي من الحزب ، أما فيلسوف سوريا الماركسي - الناصري ياسين الحافظ فقد تم طرده هو الآخر ، فيما أعلنت الحكومة عدم رغبتها في بقائه بدمشق ، **فغادرها ليبحث عن فجر اشتراكي جديد في بيروت ، مدينة الحرية والتواصل ،** وأما في العراق فقد تم تعيين قيادة سرية موقتة ، تدير شؤون الحزب في العراق ، وكان صدام حسين الذي لم يكن متورطاً في الأحداث (ربما لصغر رتبته الحزبية لصغر سنّه) ، أحد الشباب الذين سيكون لهم دور بارز في الأحداث اللاحقة . .

لقد مضى النصف الأول من عقد الستينات ، وكانت راياته معقودة للهزيمة في كل مكان ، إذ كانت الهزيمة الأولى تتمثل لا في إخفاق المحاولة الثلاثية للوحدة فقط ، بل في التحول من مشروع الوفاق إلى مشروع النزاع ، وكانت العلاقة بين جناحي البعث في العراق وسوريا من جهة ومصر من جهة أخرى ، تعتريها أجواء عاصفة من الكراهية والمرارة ، وصلت إلى حد إسالة الدماء في الشوارع . ثم كانت الهزيمة المرّة في وحدة الجغرافيا الواحدة ، حين أخفق البعث في إقامة نواة فيدرالية على الأقل (دفاع ، إقتصاد ، سياسة خارجية . . .) بين شطري سوريا والعراق الموضوعين تحت حكم الحزب الواحد ، حيث كانت المشاكل القطرية . . والحزبية . . وداخل الحزب الواحد . . لا تترك متنفساً يمكن النفاذ منه إلى ما هو خارج الحدود القطرية المحلية الراسخة . . لقد خبت الجذوة التي تأججت فوق سماوات القاهرة وبغداد ودمشق ، وهكذا خبَتْ الوحدة الجغرافية في ظل الحزب الواحد بعدها ، وكان كل شيء على الأرض ، يجري عكس التيار والأماني الذهنية لجماهير ما فتئت تحلم ! . .

وللحق فإن الخطاب القومي العربي ، في هذه المرحلة ، ما قبلها وبعدها ، ظل يجول (مباحثات الوحدة السورية المصرية ١٩٥٨ ومحادثات الوحدة الثلاثية ١٩٦٣ . . ومحادثات الوحدات الملَكية قبل ذلك . . الخ) وفي الممكنات الذهنية الذاتية ، بعيداً عن الظروف الموضوعية القائمة ، والهرولة إلى الوحدة الكاملة فوراً ، هو الشاهد ، وكان الهروب إلى (ما بعد) الواقع العربي ، بمثابة المؤسس الأول للإخفاق ، وعلى سبيل المثال ، فإن تكبيل الوحدة (بشرط) التقدمية ، أو الاشتراكية ، هو نوع من إحالة ممكن على ممكن آخر (ونفس المعنى إذا شُرطت وحدة قطر بآخر بشرط نجاح حزب واحد في البلدين) ، وبالتالي فإن العلاقة ستكون بالضرورة هي علاقة (الممكن) بالواقع الذي قد لا ينتسب إليه ، حيث في عالم (الإمكان) يمكن البرهنة صورياً على القضية وعكسها بآن واحد .

صحيح أن عالم الفكر ، يجب أن يذهب إلى تحقيق الممكن ، ولكن ليس (أي ممكن) ،

بل الممكن الذي تسمح شروطه الموضوعية ، بهذا القدر أو ذاك ، بتحقيقه ، أما ما يزكّي ما هو ممكن على غيره ، فذلك يعني أن الأول يستجيب للمعطيات الواقعية بل يقع في اتجاه تطورها ، هذا مع العلم ، أن تبديل الواقع القائم ، لن يصبح ممكناً إلا بعد فهم عميق لثوابته ومتغيراته ، ولقوانينه التركيبية والنسبية ، بعبارة أدق ، جعل فهم الواقع ، موضوعاً للعقل لا للعاطفة ، وتأسيساً ، فقد اختار حكماء الوحدة الثنائية السورية - المصرية (ممكنهم) في تحقيق الوحدة ، على أساس عاطفي من الخوف والرغبة بان واحد ، فالتهديد الخارجي (هو خوف) ، ووحدة العرب هي قوتهم (رغبة) ، فهُما مؤسسا الوحدة الأولى (وحدة ١٩٥٨) ، كما أن الهواجس نفسها كانت تتحكم بسير المحادثات الثلاثية دون غياب ، فيما ظلت المعطيات الموضوعية الدقيقة (اقتصاد - سياسة - مجتمعات - وخطوط سياسية وحزبية أخرى . . .) موضوعة على الهامش أو مطويّة الصفحات . .

لقد كان صراع الرغبة والخوف في التاريخ الإنساني كله ، هو الدافع للهروب إما إلى الوراء أو إلى الأمام ، وذلك ما يفسر استعدادات الخطوط الوحدوية للذهاب إلى أقصى التشدد أو إلى أقصى الإعتدال ، بين طلب (القليل) من الوحدة (تعاون اقتصادي ، عسكري . . على الورق) ، وبين (عدم القبول) بأقل من وحدة شاملة وفورية ، كذلك بين الخطوط السياسية الذاهبة من مجرد (تصفية آثار العدوان) إلى تعميم ثورة فلسطينية لاهبة في كل أرجاء الوطن العربي ! . . ومن اشتراكية إصلاحية هادئة ومتدرجة ، إلى اشتراكية جذرية تذهب إلى حد تأميم حانوت صغير لبيع الأحذية ، وما فعَلتْ التجارب غير المقروءة في هذا العالم ! . .

سنعترف بأن الخطاب القومي العربي ، نجح يوماً في إلهاب الصفوف مشرقاً ومغرباً باتجاه التطلع إلى تاريخ الأمة ذات الدولة الواحدة ، لكن هذا (الإلهاب) كان ، وظل يرتكز إلى مقولات عاطفية ووجدانية بعيداً عن عالم المقولات العقلية - الواقعية التي لها مسيس العلاقة بالبنى الاجتماعية والهياكل الاقتصادية ومواضيع الصراعات وأسس التنمية والسياسات الدولية . . . فالعقل القومي مازال حتى يومنا هذا يؤثر تنظير (الممكنات العاطفية) على تفسير أو حل إشكالات المعطيات الواقعية ، كما أنه عقل يقوم على مبدأ (اهتبال الفرصة) قبل فوات الأوان ، أي قبل أن يصرعنا الزمن ، وحيث أن الزمن ليس أكثر من إطار لفاعلية الإنسان أثناء دوران الأرض ، فإنه لا يكون مسؤولاً عن شيء ، بل المسؤول هو الإنسان نفسه الذي يحيا الزمن ، إنه العقل الذي يرتب ويقود الحياة في الزمن .

لماذا توقفت المساعي العربية القومية من أجل الوصول إلى وحدة جديدة بعد فشل المحادثات الثلاثية في العام ١٩٦٣ وحتى يومنا هذا ؟ .

هل الفشل في مشروع وحدوي ، كائناً مَنْ كان المسؤول ، يُعدّ بمثابة سبب ختامي لوقف المشروع من أساسه ، هل صحيح أن (العوامل الموضوعية) هي الحائل القائم الشامخ الذي لا سبيل إلى التعامل معه ؟ أم أن ثمة عوامل أخرى ذاتية مثلاً ؟ أليس التربع على العرش المحلي وفق قاعدة (أراح واستراح) هو السبب الذاتي بعينه ؟ ألم يعد عيباً من عيوب حياتنا السياسية المفضوحة ، أن نظل قائمين في العزلة الإقليمية ، نتحدث عن الوحدة القومية (الآن لم يعد أحد يتحدث حتى مجرد الحديث) كطالب علامة نجاح في مقرر اللغة العربية بفرعها الإنشائي . .

أليس ثمة علاقة بين (الذاتي والموضوعي) لدرجة أن الثاني استنسخ من الأول كل هبوطه وأنانيته وعرش حكمه ؟ . .

لقد انقلب حزب الوحدة البعثي ، على نفسه في العراق ، ثم ما لبثت عدوى الإنقسامات العنيفة أن انتقلت إلى البعث السوري ، فسقط مؤسس الحزب نفسه ، ثم تبعه رئيس الدولة (حامل كل الألقاب الرسمية) السيد أمين الحافظ ، ثم تلا ذلك آخرون . . فقد قامت الدنيا ولم تقعد فجر ٢٣ شباط من العام ١٩٦٦ عندما احتدم النزاع المسلح ، وراح هدير الدبابات في الشوارع الأمامية والخلفية للعاصمة المذعورة بعد هجعة قليلة من النوم . . يروع القيام والنيام على حد سواء .

لم تكن الأحوال نموذجية لاجراء تقارب مع دولة الحزب هناك ، فالعراق في ظل البعث وما بعده ، ابتعد عن سوريا أكثر من ابتعاد سوريا عنه أيام نوري السعيد ، واستعدت سوريا لمعاملة العراق بالمثل ، ثم راح الشقاق بين أجنحة الحزب الواحد ، يرخي سدوله في ليل طويل مظلم . وكادت الأحوال تصل إلى حد الحشود العسكرية المتقابلة على الحدود ، أما فترة عارف في العراق ، حيث سقط الرجل مع طائرته ، ثم فترة أخيه من بعده ، (وراثية على ما يبدو) ، فكانت أقرب ما تكون إلى رد العراق إلى إقليمية منعزلة ، أو محاصرة ، وذلك بعد أن ذهب عارف مذهباً في تقليد عبد الناصر ، لجعل المرحلة (عارفية لا ناصرية) ، فأذن الفراق مع القاهرة ، بعد أن قام عارف عبد الرزاق قائد سلاح الجو السابق والمُبعد ، بمحاولة انقلابه (حزيران ١٩٦٥) بمعرفة ودعم من القاهرة . للاطاحة بعارف وهو في القمة .

كانت القاهرة ، هي الأخرى ، منشغلةً (بمقبرة الأناضول) في اليمن . ثم أصبح الإنشغال انهماكاً مع تفاقم النزاع مع جوار اليمن (السعودية) وتقلبات الأحوال فيه . ومع أفول كنيدي من الرئاسة الأمريكية باغتياله ، ومقدم جونسون راعي البقر (وعشيق ماتيلدا كريم اليهودية) ، أصبح الإنهماك تورطاً ، فقد وصل عديد الجيش المصري مع كامل مستلزماته القتالية والمادية ، زهاء ٦٠ ألف مقاتل ، تحيط بهم من الداخل . قبائل غائرة في قرون الزمان ، كما يحيط بهم من الخارج ، كل حادي وحارس ومنتفع من موارد (الدم العربي الأسود) ، من شبه الجزيرة السعودية إلى دويلات آبار النفط في الخليج ، وكان على عبد الناصر أن يعيد النظر في الحساب ، فلا القبائل هي القبائل ، ولا التاريخ هو التاريخ ، وفهم عبد الناصر ، أن مدارس التربية في القاهرة ، وكل عاصمة عربية أخرى ، كانت تكذب في رواياتها عن تاريخ العرب ، فتنزع كل سواد مُتشح ، لتقيم محله جداراً متصلاً من بياض الأجداد ، (خوفاً على الروح المعنوية للطّلاب) ، ولم يخطر في بال المدرسة التربوية العربية ، أن الصغار سيصبحون كبارا ، وسيفهم بعدئذ ، كل كبير تاريخه على هواه ! . .

في التاريخ أيضاً ، كان الفلسطينيون يعلنون عن أنفسهم في العام ١٩٦٥ ، بأن دورهم قد جاء للتعامل مع قضيتهم الوطنية التي أوعرها الآخرون .

ثانيا / الباحثون عن هوية .. وبندقية .

يروي جيل الفتيان من مواليد منتصف الثلاثينات ، قصص الرحيل المكلومة (صلاح خلف ، أبو علي إياد ، خليل الوزير ، محمود عباس . . . الخ) من فلسطين ، وحيث أن الروايات الحزينة ، تتشعب حسب وجهة تشرّدها ، فإنها ظلت تنطوي على تفاصيل متزامنة ومتباينة ، أما القاسم المشترك الأعظم لهذه الروايات فيكاد يكون أقرب إلى اللوعة والشجن والبكاء .

بالنسبة لهذا الجيل لم يكن ثمة مشارب سياسية مختلفة ، فبالإضافة إلى كونه غض الإهاب ، فإنه أضطر لترك تحصيله العلمي وراءه مثلما ترك الفلسطينيون كل شيء وراءهم على حاله بانتظار الوعد العربي .

ما عُرف عن فلسطين في هذا المقطع التاريخي من حياة العرب ، أنها كانت جامعة سلمية لجميع الأديان والطوائف دون استثناء ، وكانت مسحة العروبة هي السائدة لدى المجتمع والحياة السياسية فيه ، ولم يكن لأحد أن يشذّ عن هذه القاعدة الراسخة من قواعد

بقايا الثورة العربية الكبرى ، وكان كل ما يدور في أرجاء سياسات أحزابها ، ومناهج تربيتها التعليمية ، في المدارس أو الكليات ، أو حتى في أحاديث العامة في المنازل والشوارع والأرياف ، إنما كان يدور حول فلسطين والعرب والمستقبل .

لم تكن المحلية الفلسطينية في تلك الظروف ، تأخذ طريقها ، حتى في السر المخبوء ، فالأحزاب الرئيسية المتعارضة (الاستقلال والدفاع) كانت تتبارى في المبالغات العروبية ، وقد أدت المنافسة إلى حد الإتهام أحياناً . .

كانت الوحدة العربية ، كما طرقتها ثورة الشريف حسين ، هي خشبة الخلاص الوحيدة لفلسطين* ، وكانت فلسطين تنظر إلى ما وراء أطرافها الأربعة للحصول على الوعد الداوي آنذاك ، النجدة العربية ، وقد أدت النكسة في العام ١٩٤٨ إلى خيبة أمل مريرة ، ظلت تطبع حياة الخيمة بالإحباط والذل والكآبة . .

كانت المخيمات التي أنشئت على عجل ، وصمة خزي في جبين الأمة والعالم ، فبالإضافة إلى انتفاء كل ما هو إنساني فيها ، فإنها أقامت الدليل على فقدان الحس الإنساني والكرامة بآن واحد . وما كان يخفف من وقع الألم ، ذلك الشعور الطيب الصادر عن جميع السكان ، وما يحمله من التضامن الأخوي مع الأشقاء من أبناء النكبة ، **ولقد أزال هذا التضامن في سوريا والأردن ولبنان ، شيئاً من هول الصدمة وألم المصير الذي آل إليه فرع من أمة واحدة** ، فما كادت أيام الشتاء تقترب ، حتى بدا أن الفلسطيني تحت الخيمة ، إنما يصارع البشر والطبيعة وما وراءها ، مما سيؤخذ على الفلسطينيين من أبناء هذا الجيل ، نزوعهم نحو اللاإيمانية والكفر بعدالة السماء ، وقد صوّر أحدهم (خالد الحسن) بنجاح ، صور العصبية في قلب المحنة فقال : -

إن ذلك كان طبيعياً لأبعد الحدود ، فالنبي نفسه ص ، حين اشتد عليه الكرب ، واجتمعت قريش والعرب ضده ، قال داعياً ربه : -

يا رب ، لئن لم تنصر عبادك المؤمنين في يومنا هذا ، فإنك لن تجد مَنْ يعبدك بعده . .

---

* قال لي والدي ذات مرة وهو ينظر إلى الشرق من بحيرة طبريا : لئن لم يأتنا المدَدُ من هناك ، فإن فلسطين ستضيع إلى الأبد . .

ولما سألته : ماذا يقصد بكلمة هناك ، حيث كان عمري تسعة أعوام ، أجابني على الفور : سوريا يا بني . . وما أظنه أن شمال فلسطين كله كان ينظر إلى سوريا ولبنان والأردن بنفس اللهفة . كما أن الجنوب كان ينظر لمصر نفس النظرة ! .

ويتابع الحسن متسائلاً : **ألم ينطوي الدعاء على مزيج من الرجاء والوعيد بآن واحد ؟ . .**

وعلى أعمدة الكهرباء ، كان يخرج ذلك الجيل من قبور الحياة للتحدي ، وعلى أعمدة النور في الشوارع ، كان الجيل نفسه ، يتخرج من الجامعات العربية وعلى رأسها جامعة دمشق ، وهو يحمل أعلى درجات التفوق ، لا بحكم ذكاء خاص ، أو أي اصطفاء آخر ، بل بحكم الضرورة الحاسمة ، التي كانت تعني الصراع من أجل البقاء أو الدفاع عن النفس حتى آخر قطرة . .

هذا وسيهاجر العديد من هذا الجيل المتيّم بقضيته وأسرته ، إلى بلاد الميسرة النفطية ، حيث السعودية والخليج ، جمالٌ وخيَم ورمال ، فيما آثر العديد الآخر ، شتاتاً خلف أعالي البحار ، وسينهض منَ هذا الجَيل في عقود السبعينات والثمانينات وحتى عقدنا هذا ، أساتذة الكراسي المحترمة في الجامعات العالمية ، وحدث ذلك ، رغم حروب وتهديدات اللوبي الصهيوني المستميته (اقرأ كتاب بول فندلي نائب الكونغرس الأمريكي ، من يجرؤ على الكلام) ، ضد كا ما هو عربي ومُتفتح وصاحب ذكاء وريادة . .

كان الآباء والجدّات قبيل رحيل الأبناء أو الأحفاد ، ما فتئوا يحملون مفاتيح ديارهم الفلسطينية بانتظار الوعد ، كانوا يعدّون على سبّحات صلواتهم ما تبقى لهم من أيامٍ في المنافي الموقتة ، وطالت الأيام لتصبح شهورا ، ثم طالت الشهور واستطالت ، وصارٌ من المؤكد ، أن المؤقت أصبح دائماً ، وأن الدائم أصبح نمط حياة مستقر ، وأن الرسمية العربية لم تزحزح اسرائيل ، إلا في حمأة الخطاب وسخونة الكلام ، وما كادت الحقائق الكئيبة تشي بالظهور ، حتى ذهبت المعارك الداخلية أو المحورية ، تزداد سعاراً ، وقد تبدى أن ذلك سيظل يجري دون طائل . .

لقد أذنت الليالي الحالكات ، بعد مضي سبعة عشر عاماً (١٩٦٥) ، من العيش داخل الأسلاك ، للوضع الحبيس أن يشق غلاف المشيمة ليرى القادم الجديد بنفسه نور مصيره ، ومهما كان ثمن النتائج ، فإن السلاح هو الحكم الوحيد ، وعند الحدود في سوريا أو الأردن ، راح بضعة أشخاص لا يتجاوزون عدد أيام الأسبوع ، يلقون بما اشتروه على حسابهم من قنابل ، ثم كانت المقدمة النارية الأخرى على واجهة مدينة بيسان ، فاحياء تقليد الإحتكام إلى السلاح ليس جديداً في تاريخ الأمم ، بل لعلّ ڤيتنام والجزائر وكوبا والكونغو . . . كانت قد سبقت الثورة الفلسطينية الجديدة لهذا الإحتكام .

لدى قادة فتح الأوائل ، فإن الرومانسية الثورية وصلت إلى الأوج في هذه المرحلة الرجراجة ، وفي السفارة الجزائرية في القاهرة نفسها ، سيقول صاحب الرقم الصعب .

عرفات . أن الفلسطينيين لن يكونوا أدوات بيد الأنظمة العربية (نهاية العام ١٩٦٧) ، وأن الثورة الفلسطينية ستكون الحافز الأكيد والثابت لجمع شمل العرب وتوحيدهم ، لا العكس ، وذلك كما يدّعي جميع المنتمين للجامعة العربية ، من سعوديين وناصريين وبعثيين وغيرهم ، وكان الكلام المرتجل يضرب على الوتر الحساس . . **لقد اندفع الفلسطينيون الأوائل ، بعد عقود من الخيبات ، في سبيل نزع الوصاية الرسمية العربية عن كاهلهم ، وكان كنياتا ولومومبا وهوتشي منه ، وفيديل كاسترو ، وبن بيلا ، نماذج محتذاة** ، بعد أن حرروا بلاداً لا تختلف كثيراً عما ينوون تحريره ، فكانت فلسطين بذلك ، مثل كينيا ، أو الكونغو ، أو ڤيتنام ، أو مثل كوبا والجزائر . .

ثم راح هؤلاء القادة الأوائل ، في عملية انكباب على المطالعات النظرية ، التراثية الإسلامية والعربية ، القومية أو الشيوعية ، الوطنية أو الماركسية ، يجرون المقارنات من قريب أو بعيد ، بين جميع الذين ينادون ويحللون مذهب العنف الثوري ، من لينين إلى تروتسكي ، ومن ماوتسي تونغ إلى فرانز فانون ، ومن جياب إلى بومدين مروراً بريجيه دوبريه صاحب الثورة على الثورة ! . .

كانت المقاربة بسيطة ومتواضعة ، فإذا كان أساتذة اسرائيل ، وأولياء نعمتها ووجودها واستمرارها ، أمريكا وفرنسا ، قد انهزمتا في ڤيتنام والجزائر ، فلماذا إذن لا يمكن إلحاق الهزيمة بالتلميذة اسرائيل ؟ . .

مع ذلك ، فقد قرر قادة فتح (الذين سيصبحون قادة منظمة التحرير) ، عدم اتباع السياسة الطائشة القائلة (برمي اليهود في البحر)* . . فقد أعلنوا مشروعاً سياسياً توافقياً ، يستند إلى مقولة الدولة الفلسطينية الموحدة ، الديمقراطية واللادينية ، يعيش في ظلها المواطنون من مسلمين ومسيحيين ويهود بصورة متساوية أمام القانون ، وهذا يضمن بقاء الجميع فوق أرض فلسطين (اقتراح السوڤييت قبل التقسيم) . .

ومنذ البدايات ، فقد رُفض المشروع من الجانبين العربي والإسرائيلي ، وعلى ما يبدو فإن فكرة المواطنة المشتركة ، كما يقول ايريك رولو ، في كتابه (الفلسطينيون من حرب إلى حرب ص ٤) كانت قد نبتت على أرض غزة حين وقوع العدوان الثلاثي على مصر في

---

* لقد أتهم الشقيري ظلماً وبهتاناً ، أنه قال برمي اليهود في البحر ، وكان وراء إطلاق هذه الشائعة المضخمة ، ماكينات الصهيونية الإعلامية ، التي ما لبث الغرب أن اقتفى أثرها ، فعمم الواقعة التي ستصبح متكأ استشهادات متكررة ودائمة ، الشقيري نفسه نفى ذلك مراراً وتكراراً ، وأكد بالتسجيل أن الذي قاله هو عكس ذلك تماماً ، (نحن أصحاب الأرض التاريخيين ، ولن نقبل لتاريخنا هذا أن يُلقى في البحر) فعجباً . .

العام ١٩٥٦ ، ويشير رولو بناء على مقابلات مع قادة فتح ، الذين كانوا فتياناً أثناء العدوان الثلاثي ، (بأن هؤلاء الفتيان أنفسهم ، كانوا يقيمون علاقة صداقات وتآخي مع الفتيان اليهود الذين كانوا يشاطروهم نفس النظرة ، وكثيراً ما كان ينشد الجميع أغاني مشتركة كانوا قد تعلموها منذ طفولتهم قبل سقوط فلسطين – المصدر السابق . .) .

وقد خاب فأل القادة الفلسطينيون ، حين أثبتت الأحداث اللاحقة أن اليهود الشرقيين من أبناء فلسطين والمنطقة العربية ، كانوا أشد بأساً عندما أصبح الخيار بين اسرائيل التوراة ، وفلسطين ديمقراطية ، وذلك عكس ما صنع العديد من أبناء شعب فرنسا وأمريكا ، حين تخلّوا عن أطماع حكوماتهم في ڤيتنام والجزائر ، بل وقاوموا مثل هذه الأطماع ذات النزوع غير الإنساني ، وبالعكس فقد صوّت اليهود الشرقيون بمجملهم لصالح اليمين الإسرائيلي الأشد تطرفاً ، زد على ذلك أنهم نادوا باحتلال المزيد من الأراضي العربية ، ولم يقف مع الفلسطينيين في محنتهم ، وسائر أدوار شتاتهم ، إلا تلك البقية الهزيلة التي قد تمتلك نائباً أو نائبين في الكنيست من مجموعات العلمانيين اليساريين وأنصار السلام ، وحركة السلام الآن فيما بعد . .

لقد عزم الإسرائيليون بجميع فئاتهم الأساسية وأجناسهم الملوّنة ، على ألا يقصوا من دستور مجتمع ديني ، ضمن دولة ديمقراطية افتراضية ، تكون الديمقراطية فيها للإسرائيليين وليس لغيرهم ، وقد اقتضت ضرورات الظهور أمام العالم ، إنكاراً اسرائيلياً للتمييز ، وكيما يعزز الإنكار بشاهد واقعي ، فقد سُمح للتجمعات الفلسطينية داخل فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨ ، بممارسة حق الإنتخاب والترشيح لعضوية الكنيست ، لكن بعد أن عملت أجهزة الموساد والشين بيت عملها التقسيمي ، التناحري بين هذه الأوساط . .

أخذ الإسرائيليون بمجموع أكثرياتهم الساحقة ، يرفضون بدورهم ، أي حق لغيرهم بالمواطنة الكاملة ، فزعيم الدبلوماسية الإسرائيلية القديم آبا ايبن صرح لصحيفة لوموند أواسط عام ١٩٦٨ ، أن سرحان سرحان قاتل روبيرت كنيدي ، هو فلسطيني كان يعيش في مدينة القدس ، ثم أكدت جولدا مائير (مايرسون سابقاً) ، أن الفلسطينيين يعتبرون أنفسهم سكان سوريا الجنوبية ، فلماذا لا يذهبون إلى هناك ؟ . . وفي الأزمات كان يرد سيل من التهديدات بالموت ، لكل صحفي اسرائيلي أو غربي ، يحاول أن يجرؤ على الكلام ، ويروي بول فندلي صاحب كتاب مَنْ يجرؤ على الكلام ، فصولاً كاملة من تهديدات اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة (لأي شخص يرد في ذهنه انتقاد اسرائيل أو حتى بعض المسؤولين (يقصد شارون) عن المجزرة البشعة التي ارتكبت بحق الفلسطينيين في مخيمات صبرا وشاتيلا ص ٣١٠) .

قبل لاءات الخرطوم بعقدين من الزمن ، كان الإسرائيليون يمارسون لاءاتهم الفعلية (وليست اللفظية ! . .) بحق عرب فلسطين سواء كانوا في الداخل أو في الشتات : -

- ليس لهم حق في تقرير مصيرهم .
- ليس لهم حق في تشكيل دولة .
- ليس لهم حق في اختيار ممثليهم .

وليس من قبيل المصادفة ، أن يجتمع العمل والليكود على حق واحد ، أو حقيقة واحدة ، هي ألا مكان للفلسطينيين في أرض اسرائيل ! . .

أمام هذه الصخرة الصهيونية من القسوة والظلم ، وأمام العالم العربي المتردد ، الضعيف المجزأ والمنقسم ، كان لا بد للعامل الفلسطيني أن يقتحم الساحة ، بعد أن أُضيفتْ منظمة فلسطينية ، وجُعلت في عداد (الدول) القائمة في مجلس الجامعة العربية! . .

في ١/١/ ١٩٦٥ هبط رجل اسمه ياسر عرفات إلى المنطقة المنخفضة من فلسطين ، وألقى مع قلة من رفاقه ، بقنابل يدوية على دورية اسرائيلية كانت في مهمة روتينية لها ، وأمام بيسان على ضفاف نهر الأردن ، سيوزع عرفات قنابل يدوية على رفاقه ، وكانت القنابل من النوع البسيط ، حيث لم يكن لها حلقات للإمساك بها ، وبدلاً عن الحلقة المعدنية ، كان الساحب مربوطاً بخيط من النايلون ، ولما سأل أحد رفاق عرفات :

- أبهذه القنابل نحرر فلسطين ؟! . .

أجاب الرجل بعد أن ارتسمت على وجهه مسحة من العذاب : -

- نعم . هذا الخيط الذي لا يعجبك ، سنجر به الحلقة ، وبها سوف نأتي بالرشاش ومن الرشاش إلى المدفع فالدبابة . .

كان يقصد عرفات ، أن ألف ميل تبدأ بخطوة أولى ، وهذا ما كان ماوتسي تونغ قد قاله قبله . .

عام ١٩٦٦ وبعد خروجه من السجن في سوريا ، كان عرفات مع رفاق له في فتح ، يستخدمون لأول مرة في حياتهم مدفع الهاون في قصف المستعمرات الإسرائيلية من الحدود اللبنانية ، وكانت مغامرة خطيرة ، ذلك أن مدفع الهاون - الذي استخدمه عرفات بنفسه - كان من أخطر الأسلحة ، الذي يقيم الدليل على موقع صاحبه ، ولما كان مداه لا يتجاوز كيلومتراً واحداً ، فإنه من السهل حتى بالنسبة لمدفع الدبابة (ما بين ٢-٣ كم) أن

يصطاده ، ولم تكن المشكلة بذاتها قائمة من هذا الإحتمال ، بل لعل المشكلة قد وقعت بالفعل . حين أحاط الجنود اللبنانيون بالدورية الفدائية الصغيرة ، واقتادوها إلى أحد السجون اللبنانية ، حيث أقامت هناك خمسين يوماً كاملة ، ولم يعرف اللبنانيون مَنْ هم هؤلاء وإلى أين يمضون ؟ . .

كان معسكر الهامة (قرية قرب دمشق) يعج بالوافدين الجدد ، من الذين لم يكن لهم تاريخ سلاح أو انضباط ، وقد بدأت الثورة الفلسطينية خطواتها الأولى من هذا المعسكر ، الذي لم تكن تضن عليه سوريا ، بتقديم كل أشكال المعونة المطلوبة . . وكان القادة في المراحل الأولى ، على استعداد لتنفيذ ما يقولون ، ثم كانوا يتقدمون التنفيذ فيما يقولون ، لذلك عندما ولدت النويات العسكرية الأولى ، فإنها ولدت منضبطة حيث طبقت القاعدة القرآنية الذهبية (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) ، ولم يكن الخوف من القصاص هو دافع الالتزام أو الانضباط ، بل راح القادة من فتح (جميعهم كان قد وصل إلى نيل الشهادات الجامعية العليا) ، يشرحون ويثقفون بدءاً من الحرب الثورية الصينية وانتهاء بحرب الغوار في ڤيتنام والجزائر وكوبا وأفريقيا . . .

لم يكن في معسكر الهامة آنذاك (٩٦٦ - ٩٦٧) أكثر من خمسمئة مقاتل فلسطيني ، هم نواة العمل الفدائي الفلسطيني ، وحين قامت حرب العام ١٩٦٧ ، تسرب معظمهم بقيادة عرفات ، وراء خطوط العدو ، حيث كانوا يحاولون إعاقة تقدم القوات الإسرائيلية ، وحين تأكدت الهزيمة الكبرى ، عادوا أدراجهم إلى دمشق ، وعلى أثر الهزيمة المدوية ، انقسم مؤتمر فتح المنعقد بتاريخ ١٢ حزيران من عام الهزيمة نفسه ، بين تيار يقول بعدم جدوى الكفاح المسلح (الهزيمة - اليأس - القنوط) ، واقترحوا القاء السلاح والعودة للإنضمام إما إلى الجيوش المهزومة أو العودة إلى أسرهم في المخيمات من جديد .

وقبل أن يغلق مؤتمر فتح صفحات الجدل ، كان عرفات وأبو علي إياد وصلاح خلف وخليل الوزير يقلقون داخل اسرائيل لعدم التمتع بالإسترخاء في ظل النصر الخاطف والمُقتنص . .

كانت فكرة الصراع الذي يحتاج إلى التحضير لمدد طويلة ، قد فرضت نفسها على الفلسطينيين الذين ظلّوا في حالة انتظار صابر ، وقد لجأ قادة فتح إلى عقيدة حرب العصابات ، لأن هذه العقيدة ليست بحاجة إلى انتظار الإصلاحات الاجتماعية والوطنية للوصول إلى الوحدة القومية ، بل لعل أكثر من قائد في فتح ، كان يرى أن الحرب الشعبية ، يمكن أن تلعب دوراً فاعلاً لدفع الإصلاحات المنشودة إلى أمام ، وإضافة لذلك ،

فإن مشاركة الجماهير بهذا النوع من الصراع ، يمكن أن يدفع الرأي العام إلى التخلي عن سلبيته التي سجنته الأنظمة في إسارها ، وفي تطورات لاحقة ، يمكن لحرب العصابات أن تنتشر لتصبح حرب الشعب بجميع إمكاناته وفاعلياته ، أما هذه الحرب ، فلن تكون حدثاً خاطفاً (كما يفهم العسكريون مجريات الحروب) ، بل هي حرب استنزاف طويلة المدى ، تؤول إلى نزيف اسرائيلي ، لا ينفع معه التفوق العسكري أو التكنولوجي ، كما لا ينفع معه تدخل القوى الأجنبية المساندة لاسرائيل . .

سيقول كلاوز ڤيتز المنظر الألماني الأهم ، في كتابه الاستراتيجي العميق : حول الحرب ما يلي : -

إن بدء خروج الثوار ، يجب أن يصحبه مناخ ملائم للتحولات التاريخية ، ومن المؤكد مع ذلك ، أن العمليات العسكرية الناشئة بفعل حرب الغوار ، لن تؤدي إلى نصر كاسح ، كما في الجيوش النظامية ، حتى ولو كانت ناجحة ، ذلك أنها تستلزم زمناً طويلاً كي تصل إلى الأوج ، ونادراً ما يتحمل الشعب العبء كله ، دون أن يحظى بمساعدات حقيقية ، ولهذا فإن الأزمة الناجمة ، بين دخول الثوار والتحاق الشعب ، تتطلب إما أن تكون المنطقة المقررة لمسرح العمليات واسعة جداً ، وإما ألا يوجد تناسب بين المعتدي والدولة المعتدى عليها على صعيد الجغرافيا والسكان ، لذا فإن الحرب الشعبية هي المتكأ لعمليات عسكرية نظامية قادمة ، ضمن خطة عامة ومدروسة . وقد قلب الڤيتناميون فلسفة كلاوز ڤيتز الحربية ، عندما تمكّنوا ببطولات اسطورية متواضعة ، من التحوّل من مجموعات غوار ، إلى تنظيمات عسكرية شبه نظامية ، ثم إلى جيش نظامي . .

غير أن كلاوز ڤيتز كان ، بفضل عبقرية خاصة ، قد تنبأ لاحتمال مماثل ، فشرطه بشروط عُدت بمثابة قوانين : -

- أنْ تدار العمليات من داخل البلاد كأساس ، ثم لا مانع من نشاطات خارجية مساعدة .
- أن يمتد مسرح العمليات على رقعة واسعة ، مع تضامن أجزاء من الجوار الجغرافي على الأقل .
- أن تكون مساندة الشعب للثوار مساندة شبه إجماعية .
- أن تكون البلاد صعبة التضاريس .

ثم يذهب كلاوز ڤيتز إلى شرح تاكتيكات حرب الغوار في المعارك ، حيث التقسيم

إلى وحدات سريعة وصغيرة . . والضرب في المؤخرة وعلى الأجناب . . وعدم الإصطدام في معارك تأخذ طابعاً نظامياً . . ثم تجنب الثبات في المواضع لأكثر من ليلة واحدة . .

أما الموسوعة البريطانية * ، فتتحدث عن الموضوع ذاته ، بطريقة أخرى فتقول : إن عبارة تكتيك حرب العصابات ، هي ذات مسمى خاطئ ، فتكتيك الكمائن ، والكر والفر ، والتسلل خلف صفوف العدو ليلاً ، ليس خاصاً بحرب العصابات ، فقد نمت وتطورت هذه التكتيكات حتى في الحروب القبلية القديمة ، وبقيت لسنين طويلة عناصر ثابتة في تكتيكات المشاة النظامية ، وربما جرى عليها التعديل فيما بعد ، لتتناسق مع قوى ووسائط وساحات بصورة أكثر ، كما لتتناسق مع أسلحة جديدة ووسائل اتصال حديثة ، ولعل المهارات المكتسبة من التجارب أصبحت تشكل فصلاً من فصولها ، ولو أن هذه التاكتيكات في الأساس ، تبقى من الناحية العملية ، هي نفسها . . أما على الصعيد الاستراتيجي ، فإن وحدات حرب الغوار هي بطبيعتها قوى استراتيجية أكثر منها تكتيكية ، فمن حيث كونها غير نظامية ، وليست جزءاً من جيش مُنظّم ، يجعلها هيولية لا يمكن الإمساك بها ، وانتشارها المشتت يجعلها عسيرة على الجهود الحربية التركيزية ، ومهمتها الأساسية هي مساعدة القوى النظامية في تحقيق الإنتصار في الحرب ، وهي تستطيع تدمير قوى العدو ، لكنها لا تستطيع الحاق الهزيمة بها ، ونظراً لمميزاتها ، كالسرعة والحركة والإحتمال والاستقلال عن أسلحة الجيش النظامي الثقيلة . . والشؤون الخلفية (امداد ، تموين ، وقود ، طعام ، إسعاف . . . الخ) ، فإنها مع المعرفة التامة بتضاريس بلدانيّتها ، تستطيع إجبار العدو على التوزع ، أو على عرقلته ، وتعديل خط المجهود الحربي الرئيسي لديه . . . وهكذا إلى أن يجبر على توسيع جبهات عملياته فيضعف ، فإذا ما تحوّل السكان الأصليون لمساندة الجيش الوطني ، الذي يمكن أن يكون قد تشكل من إعادة تنظيم الوحدات الغوارية وفق أسس القطعات الكبيرة ، في الجيش النظامي ، فإن الأمل بهزيمة العدو ، يكون قد شارف على الاقتراب من الواقع . . .

ولم تكن فتنح على استعداد لمناظرات أكاديمية ذات طابع نظري ، فضلاً عن كونها

---

* إن الهدف من هذه المقاربات النظرية ، هو محاولة الوصول إلى جواب على السؤال : لماذا لم تستطع الثورة الفلسطينية تقليد مثيلاتها في ڤيتنام أو الجزائر أو كوبا . . وواضح سلفاً . أنه لا يوجد نقاط التقاء من حيث اختلاف الدنيا والشعوب والظروف ، هذا مفهوم ، لكن هناك أشياء أخرى كانت تفترق في عالمنا الفلسطيني - العربي أيضاً .

متأتية عن مجتمعات أخرى ، إضافة إلى الاستعراضات اليسارية القويّة (الجبهة الشعبية . القيادة العامة . الديمقراطية . . .) التي بدأت بالدخول إلى ساحة الكفاح المسلح ، بل لعل فتح كانت تمثل تيارات وطنية متعددة ، أكثر منها فصيل مبني على أسس عقائدية ، وكانت تجد في الجدل الدائر حول هذا الشكل أو ذاك من الحرب الشعبية ، مضيعة للوقت ، **بعد أن تمّ التأكد من أن كل حرب تنتج قوانينها الخاصة ، وأن المسألة ليست في علم الحرب الفيزيائي . . أو الرياضي ، وأن الإنسان بمسيرة خطأه وصوابه ، يقوم بالتصحيح المطلوب ، وأن التجربة والتدريب هما الأساس ، وأن الإنسان هو صانع الحروب وقوانينها على الأرض . .**

ها هم الفلسطينيون قادمون إذن ، وليكن ما يكون ، ولن يكون ما هو قادم ، هو الأسوأ ، فعندما تمّ تشكيل منظمة التحرير الفلسطينية على يد القمة المنعقدة في القاهرة للبحث في السبل التي تحول دون تحويل نهر الأردن من قبل اسرائيل ، التقط الفلسطينيون الفكرة وكان يدور في خلدهم مشروع آخر ، فالجامعة العربية بتكوينها وأنظمة دولها أبعد ما تكون عن توليد منظمة شعبية حقيقية ، وهي لحسابات أخرى في القاهرة ، تتصل بمحاور القوى العربية ، وربما الفلسطينية ، لا تجد أنسب من المحامي الفلسطيني اللامع ، السيد أحمد الشقيري لقيادة السفينة الفلسطينية وسط الأمواج الصاخبة لبحر عربي ، إلا أن سوريا كانت قد خرجت عن الخط العام الذي رسمته الجامعة العربية للمنظمة الفلسطينية*.

وبدعم من سوريا ، بدأت الحركة الفدائية الفلسطينية رحلة الخروج من الإسار الرسمي المضروب ، ثم أخذت تطوّر زخمها الخاص بها ، ومع لمعان نجم المقاومة ، فقد أخذ عبد الناصر بعين الاعتبار ، خطّ الصعود الذاتي الفلسطيني ، إلا أنه كان يشعر بأن بؤر الانفجار في العالم العربي ، تناثرت بشكل يدعو إلى القلق (وقد كان في أعماقه يحسُّ بأن المسائل يجب ألا تنفلت ، رغم كل الآمال الحبيسة - الإنفجار - هيكل ص ٧٦٩) .

كان أحمد بن بيلا ، هو الرئيس العربي الأول ، الذي فتح صدره ، لاستقبال الشباب من الثوار الفلسطينيين ، واستمع لهم . . وكانت الثورة الجزائرية ترى في انتقادات عبد الناصر للمشروع ، ما يسبب اضطراباً في الساحة التحررية العربية ، وفي محاورة مع

---

* تقتضي الأمانة التاريخية للتكرار مجدداً ، أن الموقف الذي اتخذه القطر العربي السوري تجاه العمل الفدائي الفلسطيني ، منذ مطلع الستينات ، كان موقفاً قومياً صادراً عن الشعور بأن فلسطين هي الجزء الآخر من سوريا ، وقد جاء الموقف مُصدّقاً لآيات التوقعات الفلسطينية من جهة مقابلة . .

الرئيس الجزائري الأسبق يقول بن بيلا : -

(أنا قلت للأخ ناصر حرفياً ، والله انني أشتم في هؤلاء الرجال رائحة زكية لا أشتم مثلها في أي رجل آخر - محمد خليفة الصحافي المصري في كراسه : بن بيلا - حديث معرفي شامل - دار الوحدة - بيروت ص ٢٦٩)* .

على الصعيد العملي ، كما يقول باتريك سيل - الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ٢٠٤ - **فإنه لولا المساعدات الفعلية السورية ، فإن فعالية المقاومة الفلسطينية لا تتجاوز (وخزات دبابيس) بالنسبة لاسرائيل ، سيما وأن الأردن ولبنان كانا يفعلان ما في وسعهما لمنع الفدائيين من العمل والإنطلاق من أرضيهما** . وفي كتاب وليم كونت بمشاركة فؤاد جابر وآن موزلي ص ١٤٧ والمعنون : السياسات المتعلقة بالوطنية الفلسطينية قبل حرب حزيران ، يقول الكتاب : في السنوات التي سبقت حرب حزيران ، **فإن القوات المسلحة الأردنية واللبنانية ، قتلت من الفدائيين الفلسطينيين أثناء ذهابهم وإيابهم من وإلى الأرض المحتلة أكثر مما قتل الإسرائيليون ، ولعل أول شهيد من شهداء الثورة الفلسطينية كان قد سقط على أيدي القوات اللبنانية المسلحة . .**

في سوريا ذات الإحساس التاريخي العميق بالقضية الفلسطينية ، فإن عقيدة البعث كانت تعطي الأولوية المطلقة لفلسطين ، وقد اجتذب مفهوم الحرب الشعبية العديد من قادة الحزب في تلك الفترة ، وقد يكون تمتع منظمة التحرير بالحظوة الرسمية المصرية أيام السيد الشقيري ، هو الدافع الآخر لموقف سوريا من الفدائيين ، حيث بدأت سُحُبُ المشاحنات تهطل من سماوات دمشق والقاهرة بشكل صريح .

لقد رأت سوريا في الفدائيين الفلسطينيين من جهة أخرى ، قوة قد تملأ الفراغ المشبع بخيبة الأمل جراء قتالها غير المتكافئ مع اسرائيل على المناطق المجردة من السلاح . . وسيقول الرئيس الأسد في مقابلة مع باتريك سيل : (**في سوريا بالذات امتلأت رئتا المقاومة الفلسطينية بالأوكسجين**) ، ولو أن الرئيس السوري ، ربما من موقع الضابط المحترف ، **لم يسبغ تلك الهالة الخيالية على مشروع الحرب الشعبية ، إذ كان يرى الحرب**

---

* في محاولة أخرى لجر أحمد بن بيلا من قبل الصحفي المصري من أن فتح قد أسست من قبل التيار الرجعي العربي المضاد لحركة القومية . . . وأن فتح نحت منحى الصدام مع عبد الناصر . . . . يجيب بن بيلا (المصدر نفسه ص ٢٧٠) : -

أنا لا أقر أن فتح ظاهرة رجعية ، بل ظاهرة معبرة عن مطامح الشعب الفلسطيني . . وبخصوص منحى الصدام مع الأخ ناصر ، فإنني لم ألحظه ربما لأنني كنت في السجن ، لكنني لم أكن أقرأ شيئاً عن هذا داخل السجن . . وأن الأخطاء والعقبات هي وقائع إنسانية تتحكم في جميع الثورات .

بين قوات نظامية مسلحة ، وأن المقاومة الفلسطينية لا تستطيع أن تكون لاعباً رئيسياً في الحروب الحديثة .

مع هذه الفترة ، أو ما قبلها ، كانت الساحة الفلسطينية قد اكتمل نصابها مع توافد العديد من المنظمات السياسية إليها ، وقبل ذلك ، كان الحكيم جورج حبش ، قد اقتطع من حركته (حركة القوميين العرب) كل الملاكات الفلسطينية لتأسيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، إلا أن سائر الرفاق الآخرين في الحركة (من العرب غير الفلسطينيين) ، آثروا الالتحاق بالمنظمة الجديدة ، حين رأوا أن الحركة في الأساس ، إنما أُنشئت من أجل فلسطين وبسببها . .

ثم جاءت منظمة جبريل (الفلسطيني الذي كان ضابطاً في الجيش السوري) ، وكان رفيقه بُشناق هو القائد الميداني للعمليات الفدائية . . . ثم هرعت المنظمات المتفرعة عن أحزاب عربية ذات جذور في الساحة الفلسطينية ، تلتها العشرات من المنظمات الصغيرة التي انطلقت من تحسس عام بمرارة الوضع الفلسطيني ، ولم تكن مسائل الفكر السياسي تمثل أهمية بارزة بالنسبة لها ، وقد أثبتت التطورات اللاحقة أن معظم هذه التنظيمات لم تجد (عقبات) فكرية تحول بينها وبين الإندماج مع فتح* .

وكانت الملامح الرئيسية للمرحلة الذاهبة إلى الهزيمة عربياً ، تختصر نفسها في شواهد، عزلة الجماهير العربية بسبب اليأس وانسداد الأفق بتشابك الاتهامات المتبادلة (بعث وناصر بالدرجة الأولى) ، ووقوع الكفاح الفلسطيني المسلح فريسة لحملات تشكيكية على صعيد الأنظمة الرسمية ، أو المؤسسات الحزبية والحركات الشعبية اليسارية الأخرى ، وقد كان التصرف الفعلي ، للأنظمة العربية الرسمية ، باستثناء سوريا (طبعاً اليمن وشمال أفريقيا العربي ، خاصة الجزائر . . .) تقف ضدّ العمل الفدائي من حيث أنه سياسة توريط سابقة لظروفها وأوانها . . ثم كانت سياسات السجن والإبعاد حتى درجة إطلاق النار على الفدائيين العائدين من مهماتهم داخل الحدود أو عندها ، وربما جرى بعض التعاون السري مع إسرائيل ، لحصر حركات الفدائيين واقتفاء آثارهم ، هذا فضلاً عن تكنولوجيا الحماية الحدودية الحديثة ، التي بدأت اسرائيل بنصبها على طول الحدود مع مع الدول العربية .

---

* فالاسهالات الرسمية العربية الطنانة ، بما تشتمل عليه من أفكار وسياسات ورؤى وطموحات . . كانت قد طبقت الآفاق ، ولم يعد بوسع المواطن العربي في مرحلة التراجع من التنابذ والتشهير . يعرف أين يضع قدمه ، وكردة فعل على الكلام . . والنظريات . . والسياسات المزعومة . فإن سياسة الصمت التي اتبعتها فتح ، مع البيانات العسكرية المبالغ فيها أحياناً ، كانت هي السياسة التي تحبّذها الجماهير فكل البنادق نحو اسرائيل .

كانت معاناة الكفاح الفلسطيني من الحصار الإعلامي العربي والإسرائيلي والعالمي ، بحيث ظهر صوته خافتاً غير قادر على الوصول إلى أسماع الجماهير الفلسطينية والعربية والرأي العام العالمي . . ثم كان العجز واضحاً في العمليات العسكرية الحقيقية ، حيث سُدت منافذ الحدود بأيد عربية وراءها تكنولوجية ويقظة اسرائيليتين دائمتين ، فاضطرت الثورة لتغطية العجز بمبالغات عملياتية أو رقمية ، كما ذهبت أحياناً أخرى ، إلى حد اختراع بلاغات وهمية لا أساس لها على أرض الواقع ، وزاد الطين بلة ، أن التنافس بين المنظمات أدى إلى ادعاء العمليات كل منظمة لنفسها ، وبين المبالغات والاختراعات والتنسيبات ، وقعت الجماهير في بلبلة اغتنمتها أجهزة الإعلام المعادية ، بحيث بدأت تظهر (ولدنة) العمل الفدائي ، ومراهقاته السياسية .

غير أن ذلك ، لم يحل دون سمات أخرى ، ففكرة العمل الفدائي ، أي الحرب الشعبية ، كانت فكرة تمردية ، أو لعلها ثورة على المطلب الكلاسيكي بتحرير فلسطين بعد انجاز معاملات معقدة كالوحدة أولاً ، أو الاشتراكية أولاً ، أو إشاعة الديمقراطية قومياً قبل التحرير . . كما أن فكرة الإنطلاق من قواعد على الأراضي العربية المجاورة ، كانت تؤدي افتراضياً ، إلى جر القوى العربية لاقتفاء أثر المقاومة في اسناد عملياتها وتعزيز هجماتها ، وقد جرى ذلك بالفعل ، لأول مرة (وللأسف لآخر مرة) ، في معركة الكرامة المشرفة ، عند وادي الأردن ، فقد اقتحمت كتيبة أردنية شجاعة ، أرض النزال الدائر بين الفلسطينيين والإسرائيليين ، وخرجت اسرائيل من القتال لأول مرة في تاريخها العسكري أيضاً ، مما حدا بالملك الشاب حسين ، إلى اعتلاء برج دبابة ، ملوحاً بعمرته العسكرية إلى الجنود والفدائيين بآن واحد . . ثم كان ضعف الإرتباط التنظيمي الفلسطيني لظروف قسرية ، هي نفسها ، تلك التي تحكم الحدود والسدود بين العرب . . ثم ازدادت الأمور انفعالاً ، حين تم التركيز على اقليمية فلسطينية ، تريد أن تتحرر من وصاية عربية سقيمة ، مما حدا برجل من وزن بن بيلا لأن يقول : **يجب على الثورة الفلسطينية أن تحافظ على استقلالية قرارها ، ما دامت الحكومات العربية على ما هي عليه ، وحين تكون حكومات جادة ، وطنية وثورية ، فإن القرار الفلسطيني المستقل ، يكف عن استقلاليته القطرية ، ليجد نفسه في حالة استقلال جماعية ، مع المحيط الوطني ، أو القومي العربي . . فالدول العربية ظلت تخشى قوة المقاومة ، ولو أنها تحالفت مع مواطنيها وعقدت العزم على مساندة المقاومة مهما كانت نتائج الصراع مع اسرائيل ، باختصار لو أنها صبرت على الألم ، جراء التضامن الشامل مع الثورة ، لكانت أوضاعنا على العكس مما ترى الآن** (- حديث معرفي شامل . محمد خليفة مع بن بيلا ص ٢٨٧) .

◆◆◆

– الفصل الثامن –

حزيران . قاصمة الظهر العربي

اولا / الهزيمة التي اغرقتنا في الظلام .

في ظروف الحرب الحديثة ، ومقدرة الطيران اللامحدودة ، فإن قوة الضربة الاستباقية هي أقرب ما تكون إلى الضربة القاضية في حلبات الملاكمة ، هذا إذا لم يُنقل الصريع إلى العناية المركزة في حالة نزف دماغي يؤذن بالرحيل الأبدي .

نحن الآن في العام ١٩٩٥ ، وقد مضى ما يقارب ثلاثة عقود على الهزيمة ، وما زلنا كالسكارى في المركز منها ، فالقول بأننا خسرنا معركة ولم نخسر حرباً (عبد الناصر) ، كان قد أُطلق إما لتبرير الهزيمة ، أو الحيلولة دون سقوط الأمة في الإنهيار الشامل ، والحقيقة أنه مع السادات وبعده ، فقد كُنّا قد خسرنا المعركة والحرب بآن معاً ، كما أننا خسرنا أنفسنا بالمواصلة المحمومة للنزاع الأسطوري بين سوريا والعراق ! . . ثم إن الحقيقة التي لا تنازع ، هي أن عبد الناصر نفسه ، لو بُعث من جديد ، ورأى ما رأينا ، في الحرب الأهلية اللبنانية ، وكامب ديفيد ، وتدمير العراق ، لعاد إلى مثواه دون ندم ، وسيجري ذلك حتى لو تدفقت المظاهرات الشعبية في شوارع الدنيا كلها وليس في شوارع القاهرة فحسب .

تاريخياً نحن الآن في العام ١٩٦٣ ، وقد نأت حالة التمزق العربي عن كل وصف ، فقرار إنشاء القيادة العربية الموحدة ، حسب تقارير الأركان العربية ، مازال حبراً على الورق ، رغم مضي ثلاثة أعوام على اتخاذه (أُتخذ في العام ١٩٦٠) ، وكان العسكريون يلقون باللائمة على الأوضاع السياسية المتنافرة بين الحكام العرب .

كان الوضع العربي نموذجياً لتلقّي أية هزيمة على يد الإسرائيليين في العامين ٩٦٥ – ٩٦٦ دون عناء أو ربما على يد قبائل الزولو أيضاً ، فقد استقر الوضع القطري في العراق (هذا إذا كان له أن يشهد الاستقرار ! . .) على تسريح الألوف من ضباط الجيش من كافة صنوف الأسلحة ، خلال الثورات المتعاقبة ، من قاسم إلى عارف مروراً بمرحلة البعث في

شباط إلى تشرين الثاني من العام ١٩٦٣ ، وهكذا أصبحت القيادة العسكرية للجيش ، هي قيادة النظام ، والحفاظ على بقائه . .

ولم تكن سوريا تشكل استثناء للقاعدة ، فإذا ما أُخذ تاريخ سوريا بدءاً من الإنقلاب الأول لحسني الزعيم ، وانتهاء بحركة ٢٣ شباط ١٩٦٦ ضد أمين الحافظ ، **لضاق صدر السجلات العسكرية في عدد الضباط المسرحين من الجيش السوري لسبب محدد ، أو لمجرد الاكتفاء بالشبهة . .**

وكان وضع الأردن ، الذي بدأ يعد العدة لمواجهات قادمة على الطريق ، مع المقاومة الفلسطينية ، يزداد تعقيداً في تحالفاته الجديدة مع السعوديين (إرسال القوات الأردنية إلى الحدود اليمنية) ، كما بدا أن وضع النزاع المضمر مع السوريين ، قد أخذ بالظهور إلى ساحة العلن ، وكانت أحداث جسام ، مثل اغتيال هزاع المجالي ، وانفجار سيارة سورية مُلغّمة عند نقطة الحدود الأردنية في مدينة الرمثا ، تكاد تودي بالوضع إلى درجة الإصطدام المسلح بين البلدين ، ونتيجة لحشر الأردن نفسه في النزاع اليمني ، فقد حظي بغضب مصر حتى الأُذنين ، فراحت الإذاعات المصرية توجه قذائفها إلى الأسرة الهاشمية دون تمييز ، كما وقف عبد الناصر نفسه ، ينعت الملك بشتى النعوت إلى درجة وصل فيه الخطاب حدَّ السباب . .

وبمناسبة الإحتفال بذكرى الوحدة السورية – المصرية عام ١٩٦٦ ، وقف عبد الناصر أيضاً ، **مهاجماً مشروع الملك فيصل في دعوته لإنشاء حلف اسلامي ، وقد وصف الحلف بأنه امتداد لحلف بغداد ، وأنه من بنات أفكار أمريكا والوكالة اليهودية** ، ثم راح ينسف العائلة السعودية من جذورها . . فقد قرر عبد الناصر في هذه المرحلة المضنية ، **بأنه لا فائدة ترجى من اللقاء مع الرجعيين ، بعد كل ما رآه وسمعه في السياسات السلمية السابقة التي مارسها ازاءهم في اللقاءات والمؤتمرات . .**

الملك فيصل من جهته ، ولما كان يفتقر إلى « كاريزما » عبد الناصر ، فقد قرر التوجه إلى الرد بطريقة أخرى ، **طريقة فيها ما يكفي من أصالة مكر الأعراب ، ودهاء ابن النفط الحديث .**

تقول الرسالة التي بعثها الملك فيصل إلى الرئيس جونسون (وهي وثيقة حملت تاريخ ٢٧ ديسمبر ١٩٦٦ الموافق لـ١٥ رمضان ١٣٨٦ ، كما حملت رقم ٣٤٢ من أرقام وثائق مجلس الوزراء السعودي) ما يلي : -

. . . من كل ما تقدم يا فخامة الرئيس ، ومما عرضناه بإيجاز ، يتبين لكم أن مصر هي العدو الأكبرَ لنا جميعاً ، وأن هذا العدو إن تُرك يُحرّض ويَدعمْ الأعداء عسكرياً وإعلامياً ، فلن يأتي عام ١٩٧٠ - كما قال الخبير الكبير في ادارتكم السيد كيم روزفلت - وعرشنا ومصالحنا في الوجود .

لذلك فإنني أبارك ، ما سبق للخبراء الأمريكان في مملكتنا ، أن اقترحوه ، لأتقدم بالاقتراحات التالية : -

- أن تقوم أمريكا بدعم اسرائيل بهجوم خاطف على مصر تستولي به على أهم الأماكن حيوية في مصر ، لتضطرها بذلك ، لا إلى سحب جيشها صاغرة من اليمن فقط*، بل لاشغال مصر باسرائيل عنا مدة طويلة لن يرفع بعدها أي مصري رأسه خلف القناة ، ليحاول إعادة مطامع محمد علي وعبد الناصر في وحدة عربية .

بذلك نعطي لأنفسنا مهلة طويلة لتصفية أجساد المبادئ الهدامة ، لا في مملكتنا فحسب، بل وفي البلاد العربية . . ومن ثمّ بعدها ، لا مانع لدينا من إعطاء المعونات لمصر وشبيهاتها من الدول العربية اقتداء بهذا القول (ارحموا شرّير قومٍ ذُل) وكذلك لاتقاء أصواتهم الكريهة في الإعلام .

- سوريا هي الثانية التي يجب ألا تسلم من هذا الهجوم ، مع اقتطاع جزء من أراضيها ، كيلا تتفرغ هي الأخرى فتندفع لسد الفراغ بعد سقوط مصر .

- لا بد أيضاً من الاستيلاء على الضفة الغربية وقطاع غزة ، كيلا يبقى للفلسطينيين أي مجال للتحرك ، وحتى لا تستغلهم أية دولة عربية بحجة تحرير فلسطين ، وحينها ينقطع أمل الخارجين منهم بالعودة . . . كما يسهل توطين الباقي في الدول العربية .

- نرى ضرورة تقوية الملا مصطفى البرازاني شمال العراق ، بغرض إقامة حكومة كردية مهمتها إشغال أي حكم في بغداد يريد أن ينادي بالوحدة العربية شمال مملكتنا في أرض العراق ، سواء في الحاضر أو المستقبل ، علماً أننا بدأنا منذ العام الماضي (١٩٦٥) بإمداد البرازاني بالمال والسلاح من داخل العراق ، أو عن طريق تركيا وإيران .

---

* في العبارات المذكورة وما بعدها ، يقطر الملك فيصل سماً زعافاً من خلال التعبير نفسه ، فسحب الجيش وهو صاغر . . ثم كيلا يرفع المصري رأسه . . تصفية أجساد المبادئ الهدامة . . ارحموا شرّير قوم ذل . . . وكل ما يثير ذكريات المواقف مع الصليبيين والتتار . . .

يا فخامة الرئيس .

إنكم ونحن متضامنين جميعاً سنضمن لمصالحنا المشتركة ولمصيرنا المعلّق ، بتنفيذ هذه المقترحات أو عدم تنفيذها ، دوام البقاء أو عدمه .

أخيراً . .

انتهز هذه الفرصة لأجدد الإعراب لفخامتكم عما أرجوه لكم من عزّة ، وللولايات المتحدة من نصر وسؤدد ولمستقبل علاقاتنا ببعض من نمو وارتباط أوثق وازدهار .

المخلص : فيصل بن عبد العزيز

ملك المملكة العربية السعودية .

٢٧ ديسمبر ١٩٦٦

الموافق ١٥ رمضان ١٣٨٦

◆◆◆

لقد حسم عبد الناصر الجدل بقوله إنه لا يستطيع الجلوس مع القوى الرجعية في مؤتمرات قمة قادمة ، وإن الجمهورية العربية المتحدة لن تذهب ، وإنه سيطلب إلى الجامعة العربية تأجيل القمم إلى أجل غير مسمى ، فالمسألة كلها باتت واضحة : فإما عمالة أو وطنية ولا حلول وسط .

وهكذا أخفقت قمة الجزائر ، فيما كان تحت الرماد ما كان .

كان الإسرائيليون على الطرف الآخر ، يهنئون أنفسهم احتفالاً بنقل مركز حكومتهم من تل أبيب إلى القدس ، وقد حضر الإحتفال وزراء وممثلون لواحد وأربعين دولة عالمية ، رغم كل قرارات الأمم المتحدة ! . .

وفي تشرين الثاني من العام ١٩٦٦ ، ورداً على الهجمات الفدائية المتزايدة عبر الحدود الطويلة بين الأردن واسرائيل ، شنَّ الاسرائيليون هجوماً انتقامياً على قرية السمّوع ، وقد سقط ستون من العرب المدنيين والعسكريين ما بين قتيل وجريح ، أما بيوت القرية فقد تطايرت في السماء جراء نسفها بعد الهجوم ، من قبل الهندسة العسكرية الاسرائيلية . .

وفي لحظات من التوتر والانفعال ، اتهم راديو عمان جميع العرب بإجادة سياسة التبجح والجعجعة التي لا تورث طحناً ، كما هاجم عبد الناصر لتأمينه حرية الملاحة للسفن الاسرائيلية في مضائق تيران ، ولام الجيش المصري لاختبائه خلف قوات الطوارئ الدولية.

مع السمّوع ، وفي الرابع من تشرين الثاني تحديداً ، كان يخرج إلى النور ، ميثاق اتفاق لمعاهدة دفاعية مشتركة بين سوريا ومصر ، وقبل ذلك وعلى أثر الإنقلاب الذي أطاح بالرئيس أمين الحافظ (٢٣ شباط ١٩٦٦) فقد بدا قادة الحركة البعثية الجديدة ، بمنظر ودود تجاه عبد الناصر ، ثم راحت إذاعة دمشق ، تظهر محاسن اللقاء العربي - التقدمي ، وفي هذه المرحلة الخطرة من حياة العرب ، تمّ توجه وفد وزاري سوري إلى القاهرة في شهر حزيران من العام نفسه ، ولأول مرة منذ ثلاث سنوات يلتقي الرئيس ناصر بوفد سوري بعثي ، فقد كان حبل الوصال منقطعاً ، منذ بدأ الرئيس أمين الحافظ باتباع سياسة (معلّقات شعرية) مع عرب الجاهلية وعرب ما بعد الإسلام ، وكان يرى الحاق الهزيمة باسرائيل كاحتمال قريب ، إذا أمكن للعرب مجتمعين تجهيز أربعين فرقة عسكرية مدججة ، وكان أمين الحافظ في أحلامه الجريئة ، يرى الواقع العربي - بوحي تقاليد الشهامة والنشامى - وكأنه مستعدٌ للاستدارة في رفة عين واحدة ، ثم وبصفته المسؤول المباشر ، عن مجزرة ١٨ تموز ١٩٦٣ ، التي أصابت الناصريين في مقتل بدمشق ، فقد حظي بكراهية عبد الناصر حتى موعد سقوطه . . علماً بأنه كان واحداً من أكثرية تمثل توجيهات الحزب وأوامره .

كانت السياسات السورية - المصرية ، تلتقي عند نقاط التقاطع المشتركة بين الطرفين ، ولو أن العديد من هذه النقاط ، كانت تعود إلى خفايا قطرية قسرية : فموقف سوريا أمام الإعتداءات الإسرائيلية المتكررة عند المناطق المجردة على الحدود ، بات موقفاً انفرادياً صعباً ، وما لم تلتق دمشق بحليف قوي مثل عبد الناصر ، فإن احتمالات هجوم اسرائيلي عاصف يهدد دمشق نفسها كان وارداً في الحسبان ، وقد غذّت الدبلوماسية السوڤيتية بمعلومات عسكرية تفيد بإمكانية انقلاب هذا الإحتمال إلى واقع . .

كان موقف مصر من القضية اليمنية الشائكة ، قد وصل إلى مداه ، فالمتطلبات اليمنية باتت جد مكلفة ، والقوات المصرية المتواجدة في اليمن ، أصبحت توازي ثلث القوات المصرية ، إضافة إلى كونها من نُخَب القوات عتاداً وتدريباً .

وعلى السطح ، فإن تقارب المواقف المصرية - السورية ، إزاء المقاومة الفلسطينية ، والخطوط الاجتماعية (حركة التأميمات الواسعة في سوريا) ، وما آلت إليه الأوضاع نتيجة التهافت الرجعي على الاستقواء بالدول الأجنبية ، والإنضمام تحت أجنحتها السياسية ، ذلك وسواه ، أدى إلى مزيد من التقارب بين سوريا ومصر .

وكمحصلة للتقارب مع الوضع الجديد في سوريا ، فقد وافق عبد الناصر على إبرام ميثاق للدفاع المشترك بين مصر وسوريا يوم ٤ تشرين الثاني من العام ١٩٦٦ ، لكن عبد

الناصر ظل واعياً لما يمكن أن يحمله هذا الميثاق من مخاطر لا لزوم لها ، وسرعان ما علق هيكل في الأهرام بعد ثلاثة أيام من الميثاق قائلاً (**هذه الإتفاقية لا تلزم القاهرة بالتدخل اتوماتيكياً لصدّ كل غارة انتقامية تشنها اسرائيل ضد سوريا**) هذا وسيقول أحد المحنكين الفرنسيين (جان لاكوتير) معلقاً على الاتفاقية بعد حرب الأيام الستة (**في الحقيقة يمكننا القول ، بأن حرب الأيام الستة إنما بدأت يوم الرابع من تشرين الثاني ١٩٦٦ ، حين أبرم عبد الناصر معاهدة دفاع مشترك مع السوريين**) . . وبالطبع لم يكن ذلك صحيحاً في جميع الأحوال ، فالحرب التي بدأت تلوح على الجبهة السورية ، كانت تقصد الجبهة المصرية ، والحرب التي بدأت من قوات الطوارئ كانت تقصد الإسماعيلية ، ثم إن الحرب التي انطلقت بذريعة إغلاق المضائق ، كانت تقصد قناة السويس . . **والحرب كلها بركائزها الثلاث : أمريكا واسرائيل والسعودية ، كان هدفها الأول والأخير ، اسقاط عبد الناصر حياً أو ميتاً في مصر . .**

وكاستطالة لحرب المواقع الثابتة بين سوريا واسرائيل ، فقد تصاعدت الاشتباكات على الحدود بالقرب من المناطق المنزوعة من السلاح وبسببها ، وطوال أشهر السنة التي استهلها العام ١٩٦٧ ، فقد كان أخطر هذه الاشتباكات حتى تاريخه ، ذلك الاشتباك العنيف الذي تصاعد فوق بحيرة طبريا وصولاً إلى مستعمرات الواجهة الحدودية ، وسرعان ما نشب اشتباك جوي ، سقطت على إثره ست طائرات سورية أثناء المعركة ، **وهكذا فقد أدت الخدمة الجليلة ! . . للطيار العراقي الخائن منير روفا ، الذي هبط بطائرته الميغ ٢١ (وكانت ما زالت سراً من أسرار العسكرية السوفيتية) يوم ١٦ آب ١٩٦٦ في مطار شمال اسرائيل ، لقاء مليون دولار ، أدت هذه العملية التجسسية الفظيعة ، إلى الوقوف على كل ما تملكه الطائرة من ميزات فنية وقتالية ، فيما غَفَتْ نواطير عبد الرحمن عارف من المخابرات العسكرية العراقية عن أداء الواجب ، إلا واجب حراسة القلعة في الداخل** ، كذلك باتت معظم المهام المنوطة بأجهزة الاستخبارات العربية الأخرى ، فقد عاث كوهين في سوريا فساداً لمدة ثلاثة أعوام كاملة قبل إلقاء القبض عليه في كانون الثاني من العام ١٩٦٥ . وبصرف النظر عن المبالغات المسرفة أو الخيالية في دوره المؤدى ، فإن دوره الأخطر ، كان يقع في سهولة وصوله إلى مصاف القيادات العليا في سوريا ، وقد عقب أهارون ياريف رئيس الاستخبارات العسكرية في حينه بقوله (لقد كان كوهين عميلاً جيداً ، إذا أخذنا بعين الاعتبار فقط ، صلاته الوثيقة مع السوريين المرموقين . .) فيما ذهب روفائيل ايتان أحد قادة الموساد في حينه أيضاً إلى القول (إن كوهين جاسوس بائس ، فقد تصرّف في دمشق بكل الاستخفاف والغباء) .

هذا وسيعلّق الفريق أول محمد فوزي على دور المخابرات الحربية المصرية بقوله (إن تقارير مخابراتنا مع الأسف ، كانت مضللة جداً ، وقد انتشرت الآثار التخريبية لهذه التقارير بين القوات انتشاراً خطيراً * ، فالقول أن اسرائيل لن تهاجم . . وأن معنوياتها متردية . . وأن التردد والبلبلة متفشية في صفوف العدو ، **هو قول أقرب للتصدير الإعلامي (الخاطئ أيضاً) من الحقائق الاستخباراتية التي تتوقف عليها كل حركة من حركات القوات المسلحة ، وقد أدى ذلك الإنحطاط بالشعور بالمسؤولية ، إلى انخفاض درجة الاستعداد يوماً بعد يوم ، والمشكلة الأسوأ أن هذا ، كان يحدث على صعيد القوات والقادة بأن واحد . .) .**

وفي هذه الأجواء المشحونة ، وبالنظر إلى التقارير العسكرية الموضوعة على طاولة عبد الناصر ، وما حدث في الأجواء السورية ، فقد قرر عبد الناصر إرسال الفريق أول محمد صدقي محمود قائد القوات الجوية المصرية إلى دمشق ، للقاء مع قائد القوى الجوية السورية ، وزير الدفاع ، الفريق حافظ الأسد ، وكانت المهمة في ظاهرها ، بحث الأوضاع المستجدة على الحدود مع اسرائيل ، إلا أن الإطلاع على حقائق الاشتباكات الجوية ، كان هو الدافع المحرك للمهمة ، وفي ١٢ نيسان ١٩٦٧ كان الفريق صدقي يرفع بتقريره المفصل إلى المشير عامر ، والذي نقله بدوره إلى الرئيس عبد الناصر . .

لم يكن سقوط الطائرات السورية ، ليقرع جرس الإنذار في مكاتب القيادة العربية الموحدة ، إذ لأول مرة تقدم اسرائيل على إطلاق أسراب عديدة من طيرانها المقاتل إلى سماء المعركة (ستين طائرة على مستويات ارتفاعات مختلفة) ، **وكأن المعركة كانت تدور في إطار خطة استراتيجية شاملة ، لهدف قادم ما ، أكثر منها معركة متصاعدة في زمن محدد . . وكان السوريون منهمكين بمواصلة إطلاق النار على الحدود ، مع تسهيل مهمات الفدائيين الفلسطينيين ما وراء الحدود . . ومن الصعب القول أن أحداً التقط نوايا ما وراء المعركة الجوية كمقدمة لحرب فاصلة .**

لقد اتسمت تصريحات القادة الإسرائيليين في هذه الفترة بالعنف ، وكانت سوريا هدفها ، فقد قال الجنرال اسحاق رابين ، رئيس الأركان الاسرائيلية يومها (**لن يعرف نظام**

---

* لم يتعرف الأخ الأكبر لكوهين واسمه موريس على شخصية المرسل من دمشق إلا بعد أن باح كوهين بتوجيه سلام خاص لزوجته ناديا كما ذكر اسم ابنته ، ساعتئذ تعرف موريس القائم على جهاز الالتقاط في الموساد بتل أبيب على شخصية أخيه ، وكان قبل ذلك ، قد أرسل كوهين بمئة برقية (٩ دقائق لكل برقية) ومع ذلك لم يتعرف الأخ على أخيه !. . .

في الشرق الأدنى الأمان والاستقرار ما لم تُقلب حكومة دمشق) ، ثم ساعده رئيس الوزراء الاسرائيلي ليفي أشكول في **ممهدات نصب الشراك** ، فقال :

(نظراً للإعتداءات السورية المتكررة التي بلغت ١٤ اعتداءً في الشهر الماضي (يقصد شهر آذار) ، فإننا نرى أنفسنا مجبرين على اتخاذ إجراءات حاسمة تفوق تلك التي اتخذناها في معركة السابع من نيسان (ويقصد المعركة الجوية) . .

وهكذا بدأت الخطة بالتركيز على سوريا . . فيما المقصود مصر .

وشارك بن غوريون (رئيس الوزراء المستقيل) القابع في النقب ، في حملة التضليل الكبرى ، فعزف هو الآخر على نغمة التركيز المقصودة فقال **(كان يجب على هذا العدد الكبير من الطيران الإسرائيلي في سماء المعركة ، أن يحطم قوة سوريا العسكرية ، لا أن يستعرض نفسه في سماء دمشق) . .**

وهكذا تكون دارة التركيز على الجبهة السورية قد اكتملت . .

في ٢٨ نيسان من العام ١٩٦٧ كان السيد أنور السادات في موسكو ، ولم تكن موسكو هي جهة القصد ، بل كوريا الشمالية ، وقد طلب وكيل وزارة الخارجية السوفييتية (سيمونوف) لقاءً مع السادات على عجل ، وشعر السادات أن الموضوعات المثارة في مستهل الحديث (مجاملات عادية . . . الموقف من السعودية وأحداث اليمن . . الخ) ، ليست هي الموضوعات التي تستدعي طلب المقابلة ، ولم يكذب سيمونوف ملاحظة السادات ، فقد طفق على الفور يثير موضوع سوريا ، وذكر فيما ذكر ، أن السفير الاسرائيلي في موسكو ، سلّم كوسيجين رسالة من أشكول تدعو إلى التنديد بالتحرشات السورية على الحدود الاسرائيلية ، وقد سمع السفير الاسرائيلي من كوسيجين تقريعاً شديداً لقيام اسرائيل بحشد قواتها ضد سوريا ، فأجاب السفير بأنه مخول بنفي مثل هذه الحشود التي كثر الحديث عنها في هذه الأيام ، وأن ليفي أشكول طلب (إلى سفيركم لدينا - السفير السوفييتي في تل أبيب) أن يذهب إلى الجبهة الشمالية بنفسه ، وليرى بعينه حقيقة ما يثار . . فأجابه كوسيجين : **لدى الاتحاد السوفييتي ما يمكنه من معرفة الحقائق على الأرض دون الحاجة لاستخدام مثل هذه الحيل ، فالمواقع يمكن ترتيبها في أي وقت ، أما عيون أقمارنا الفضائية فإنها لا تكذب** ، وهكذا رفض كوسيجين دعاوى السفير الإسرائيلي في موسكو ، كما رفض السفير السوفييتي في تل أبيب دعاوى أشكول من قبل . .

كان كوسيجين ، رئيس مجلس الوزراء السوفييتي ، ينتهز فرصة وجود السادات في موسكو ، لتحقيق لقاء قمة في اليوم التالي (٢٩ نيسان) ، ومع الدقائق الأولى للاجتماع ، راح كوسيجين يستفسر عن الموقف في سوريا والاستفزازات الإسرائيلية الموجهة إليها ، وما هي آخر (الأخبار والتحليلات) في القاهرة ، فرد السادات بتواضع : -

- سيادة الرئيس ، أنتم تعرفون المواقف في المنطقة أكثر منا ، ولديكم وسائلكم لمتابعة كل ما يدور ، ونحن هنا جئنا لنسمع بأكثر مما نتكلم . .

وفتح السادات شهية كوسيجين للبدء ثم الاسترسال ، فما كانت قضية في المنطقة إلا وأتى عليها ، بدءاً من إيران - الشاه وحتى أقاصي الشمال الافريقي ، مروراً بشبه الجزيرة العربية واليمن شماله وجنوبه . .

إلا أن ما تم التركيز عليه أيضاً ، هو ضرورة مساندة الجبهة السورية ، حيث يبيّت الإسرائيليون فخاً لايقاع سوريا فيه . .

لقد زرعت المخابرات الإسرائيلية ، و الأمريكية ، ثم الغربية ، بذرة الشكوك لدى موسكو ، بأن الوجهة الإسرائيلية المقبلة ، هي سوريا ، ومما زاد الأمور ظلالاً ، أن السادات وهو في طريق العودة من كوريا الشمالية ، حطّ في مطار موسكو ثانية ، لتكون المقابلة هذه المرة ، مع رئيس الدولة السوفييتية نيقولاي بودغورني . . ومرة أخرى كان بودغورني مشغولاً بالحشود الاسرائيلية على الحدود السورية ، وكان مما قاله لأنور السادات (**اسمع يا صديقي ، سوريا تواجه موقفاً صعباً ونحن سنساعد سوريا في الموقف الذي تواجهه ، وقد أخطرنا الرئيس ناصر في القاهرة ، بما نمتلك من معلومات .**).

وفي نفس اليوم (١٣ أيار) كان وكيل المخابرات السوفيتية (ك . ج . ب) (الرفيق سيرجي) ، يسلم رسالة الرئاسة السوفيتية إلى مدير المخابرات المصرية العامة ، لينقلها بدوره إلى عبد الناصر * .

كان فحوى الرسالة : أن هناك حشوداً اسرائيلية بحجم أحد عشر لواءً تتجمع على الواجهة السورية . .

وكانت وكالات الأنباء العالمية ، الأمريكية والإنكليزية والفرنسية ، تؤكد اقتراب النذر علي الجبهة السورية ، وقد ذهبت وكالة الأنباء الفرنسية ، إلى حد التكهّنْ ، بأن

---

* كان السوفييت في مثل هذه الأحوال ، وحفاظاً على السرية المطلقة ، يفضلون رجال المخابرات الكبار كرُسلٍ مع الرئاسة في مصر ، وقد كانت خشيتهم من أطقم السفارات كعملاء مزدوجين في محلها ، إذ غالباً ما فضحت الأوضاع فيما بعد ، وجود هذا الإحتمال .

اسرائيل بعد عرضها العسكري بمناسبة إقامة الدولة العبرية (١٥ أيار) ستقوم بشن هجوم كاسح ضد سوريا ، كما عاد رئيس الوزارة الاسرائيلية إلى التهديد من جديد ، ثم أدلى رئيس الأركان بدلوه فقال (ردة فعل اسرائيل هذه المرة ، ستكون مختلفة نوعياً ، فطالما أن سوريا وراء أعمال التخريب ، فلا بد إذن من مواجهة حتمية شاملة) . .

وما بين البحر الأحمر والمتوسط ، كانت حاملات الطائرات الأمريكية والبريطانية تجوب البحار من غير إشارة لطبيعة مهامها ، وفي نيويورك كان يوثانت الأمين العام للأمم المتحدة ، يرجو الأطراف المتقابلة على الحدود بين سوريا واسرائيل بعدم استخدام لغة القوة .

مع عيد العمال العالمي (الأول من أيار ١٩٦٧) كان الملك حسين قد بلّغ الفريق عبد المنعم رياض ، أن لديه معلومات تنبئ بخطة يسهم فيها النظام الجديد في سوريا مع بعض القوى الخارجية ، لجر عبد الناصر إلى مصيدة الحرب ، وطلب إليه أن يبلّغ جميع المعلومات بحذافيرها إلى عبد الناصر ، وبالفعل فقد رفع رياض تقريره التسلسلي عن طريق القائد الأعلى الفريق علي علي عامر قائد القيادة العربية المشتركة ، طالباً رفعه إلى الرئيس دون تلكؤ نظراً للأهمية . .

ويقول هيكل في الإنفجار ص ٤٤٠ (تدفقت مياه كثيرة تحت الجسور من الساعة التي قام فيها الفريق عبد المنعم رياض بكتابة تقريره ، إلى الساعة التي قرأه فيها عبد الناصر . . وعلى أي حال فليس من المؤكد أن قراءة مبكرة لذلك التقرير كان من شأنها تغيير مجرى الحوادث .). (إذ بين التقرير وقراءته ١٣ يوماً - فانظر يا رعاك الله) .

وفي الساعة السادسة من عصر يوم ١٣ أيار اتصل عبد الناصر بالمشير عامر وتم الاتفاق على عقد اجتماع طارئ لجميع قادة أركان حرب القوات المسلحة المصرية صباح ١٤ أيار ، وبعد الحديث المطول ، عن ضرورة إجراء استعدادات شاملة ، وايفاد الفريق أول محمد فوزي إلى سوريا لاطلاع القيادة هناك ، على ما تقرر اتخاذه من إجراءات إزاء احتمالات تصاعد الموقف ، كانت طائرة السادات القادمة من موسكو تحط فوق مطار القاهرة الدولي .

لقد شرح السادات ما سمعه في موسكو في الليلة ذاتها دون تأجيل . .

قام عبد الناصر بدوره ، في عملية استعراض لخطوط أفكاره فقال ما مؤداه : -

- لقد حملت الأخبار والأنباء والتصريحات أن اسرائيل على استعداد للزحف واحتلال دمشق نفسها واسقاط النظام فيها .

- إن التهديد الموجّه لسوريا حقيقي ، والدليل عليه هو حجم الحشود التي لم يؤكدها الاتحاد السوفييتي فحسب ، بل ومصادر أخرى صديقة .
- قد تكون التهديدات نفسية أكثر منها واقعية ، ومع ذلك فإن الأثر النفسي سيؤثر على الجبهة الداخلية في سوريا .
- إذا حدث بالفعل ، وسقط النظام في سوريا ، نتيجة عمل عسكري أو نفسي ، فإن تداعيات السقوط ستصل إلى العراق .
- بسقوط دمشق وبغداد في براثن الرجعية العربية ، فإن الجبهة الشرقية ستنهار .
- سيجر ذلك حتماً إلى إحساس بالإحباط لدى الجماهير العربية في كل مكان .
- إحتمال التنبّه أو الإحساس بالخطر ، سيؤدي إلى نوع من اليقظة العربية ، ولكن بعد أن يكون قد فات زمانها . .

وفي يوم ١٥ أيار ، أصدر المشير عامر نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة القرارات العسكرية التالية :-

- ترفع درجة الاستعداد للقوات المسلحة إلى درجة الاستعداد الكامل للقتال اعتباراً من سغت ١٤٣٠ من يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ .
- تتحرك التشكيلات والوحدات المقررة في خطط العمليات من أماكن ايوائها (هكذا في الأصل) الحالية إلى مناطق تمركزها المحددة .
- تكون القوات المسلحة ، مستعدة استعداداً كاملاً لتنفيذ جميع مهام القتال على جبهة اسرائيل في ضوء تطورات الموقف .

يقول موشي دايان عن عملية تحريك القوات المصرية إلى جبهة سيناء ، في كتابه الفاشية ص ٢٥٧ ما يلي : -

(لقد قرر عبد الناصر أن يقوم بعملية استعراضية ، بعد أن اعتاد كسب الحرب بالمناورات السياسية ، فحرّك لهذا الغرض فرقتين عسكريتين إضافيتين تجاه الجبهة في سيناء، وقد تبلغ رئيس أركان حربنا ، وهو في ملعب القدس ، يشاهد استعراضاً عسكرياً احتفاء بيوم الاستقلال ، أنباء هذه الحشود الجديدة ، وكان على حق ، حين قرر فوراً أن المبادهة المصرية ، هي إيذان بعمل عسكري مكشوف تقوم به مصر حيال اسرائيل .) وأضاف (لقد أراد عبد الناصر أن يثبت لسوريا ، استعداد مصر للوقوف إلى جانبها ،

لإجبار اسرائيل على نقل جزء من قواتها إلى الجبهة المصرية ، أما خطوة عبد الناصر الثانية فقد تجلت بطلب سحب القوات الدولية من الحدود الدولية بين مصر واسرائيل (نقطة غزة- ايلات فقط) ، وقد أبلغ الجنرال شرقاوي ، الجنرال الهندي ريكي ، قائد القوات الدولية ، بأن مصر قد تقدمت بهذا الطلب لأن انفجار الحرب مع اسرائيل أمر محتمل ، ولذا فإنها ترى أن يتم سحب القوات من الحدود الدولية ، على أن يستثنى قطاع غزة ومنطقة شرم الشيخ من هذا الطلب) .

كان (الكاهن البوذي - يوثانت) الأمين العام للأمم المتحدة ، على استعداد لسماع الطلب المصري ، من منطلق أن القوات الدولية موجودة أساساً بموافقة مصرية ، وأن وجودها الكلي أو الجزئي ، رهن بالسيادة المصرية على أراضيها ، خاصة وأن اسرائيل لم توافق يومها على وجود قوات دولية داخل حدودها ، وكان رالف بانش مساعد يوثانت ، يمثل بالفعل ، عين الإدارة الأمريكية داخل أروقة الأمم المتحدة ،فقد دأب على استرضاء الإدارة الأمريكية بشتى السبل ، وكان من أوائل الملوّنين الذين قذفت بهم الإدارة الأمريكية إلى مسرح الأمم المتحدة ، وربما كان ذلك سبباً في تهافته على جعل الوجهة الأمريكية ، هي العليا في المؤسسة الدولية .

لقد انطلق بانش من فلسفة بقاء القوات بأسرها ، أو لا قوات بالمرّة ، وقد حرّض يوثانت قبل ذلك ، على عدم قبول الطلب المصري شكلياً ، كونه صادراً عن القوات المصرية المسلحة ، وليس عن الحكومة المصرية إلى الأمم المتحدة ، وقد استنبت شقاقاً آخر عنوانه ، مناقشة وإقرار الطلب المصري من الأمم المتحدة ذاتها ، وليس من أمينها العام ، أو ممثله الجنرال ريكي في المنطقة . . وقد حاولت الولايات المتحدة ، الدخول من خلال أزمة بانش - يوثانت المفتعلة ، لتضع يدها على مفتاح الأزمة نفسه ، فقررت أنَّ نيويورك هي صاحبة الإختصاص ، وما لم تسمع نيويورك ، رسمياً من الحكومة المصرية ، رغبتها بسحب كامل القوات ، فإن الاستجابة ستكون صعبة ، أو حتى مستحيلة . .

كانت مصر التي بدأت بدخول المصيدة ، واقعة تحت ضغطين : إما أن تسحب طلبها السابق بانسحاب جزئي ، وهو ما سيضع القاهرة في موقف صعب تجاه جماهير الأمة الغاضبة ، أو تنصاع (لحبكة بانش التآمرية) ، فتطلب سحب جميع القوات من المنطقة ولا خيار . .

لقد جاء دور الدبلوماسية المصرية التي يقودها السيد محمود رياض (وزير الخارجية) آنذاك ، فخط كتاباً إلى يوثانت يتضمن ما يلي :-

السيد الأمين العام للأمم المتحدة .

إن حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، تتشرف بإخطار سعادتكم أنها قد قررت إنهاء وجود القوات الدولية التابعة للأمم المتحدة ، على أراضي الجمهورية العربية المتحدة ، وقطاع غزة ، وعلى هذا الأساس فإنني أطلب اتخاذ الإجراءات اللازمة لسحب هذه القوات في أسرع وقت ممكن .

أنتهز هذه الفرصة لأعبر لسعادتكم عن عرفاني وأصدق تحياتي .

بعدها جرت مناقشات عديدة في أروقة الأمم المتحدة ، واتّضح أن مواقف الأطراف الغربية لم تكن في اتجاه متشابه ، فبريطانيا وكندا واسرائيل بالطبع ، رفضوا أن تكون صلاحية سحب القوات ، بيد الأمين العام ، الذي كان قد أصدر قراره بسحبها فعلاً ، وكان الموقف الأمريكي يشذّ عن القاعدة ، فقد سأل رالف بانش السفير المصري في واشنطن السيد عوض القوني ، عن السرعة التي ترغب بها مصر لسحب القوات . . كما راح يسأل عن المعدات التي ستتركها قوات الطوارئ ، وفيما إذا كانت مصر على استعداد لشرائها بسعر معقول ، كما أخذ يسأل عن هوية الطائرات التي تفضلها مصر لنقل القوات ! . . وكل ما يلزم لدخول المصيدة عن طواعية . .

كانت رسالة السفير مصطفى كامل على الضفة الأخرى من المحيط ، التي بعث بها من واشنطن تثير الدهشة والاستغراب ، فمن بين لقاءاته مع الدبلوماسيين الأمريكيين (١٩ أيار) ، كان لقاؤه الأهم مع السفير لوشيوس باتل مساعد وزير الخارجية الأمريكية لشؤون الشرق الأوسط ، وقد أوضح كامل أن السفير باتل طلب إليه توجيه حكومته إلى ضبط النفس مع الحرص التام على تجنب الزلل أو عدم مراعاة الحساب الدقيق في الموقف الحساس والمتفجر ، كما أكد السفير باتل لمصطفى كامل مراراً ، أن الحكومة الإسرائيلية بعد اتصالات متكررة مع حكومة الولايات المتحدة ، أعربت عن عدم استهدافها لأية دولة عربية ، وأنها غير راغبة بشن عمليات عسكرية مكلفة ، في الوقت الذي تجنح فيه ، إلى الإهتمام بخطط التنمية ورفع مستوى المعيشة بالنسبة للمواطن الإسرائيلي ! . . .

إن الوثائق السرية الأمريكية طوال أعوام الـ ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ، والنصف الأول من العام ١٩٦٧ تظهر بجلاء أن مؤسسات الإدارة الأمريكية كانت تقف وراء الرئيس الأمريكي في خياره الإسرائيلي دون تحفظ ، كما أن هناك رجالات (الأخوين روستو أحدهما مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي والآخر مساعد وزير الخارجية للأمن القومي أيضاً ، وهما بالطبع يهوديان . . ووكيل الخارجية اليهودي كاتزنباخ) كانوا يدفعون بالرئيس

الأمريكي كي يكون وراء اسرائيل في كل شيء ، ولئن أسلم الرئيس الأمريكي لهؤلاء عقله، فإن سيدة من وراء حجاب ماكر ، كانت تناديه ليسلم قلبه . . وكانت المرأة اليهودية (ماتيلدا كريم) ، وهي ليست يهودية بالدين ، بمقدار ما كانت صهيونية بالعنصر * ، قد دخلت إلى قلب جونسون العجوز من خلال شريانه الأبهر . . وكانت تروي الدوائر الأمريكية بأصوات خفيضة ، مدى خطورة العلاقة بين العجوز التكساسي والشابة التي تمتلك جمالاً أخاذاً وحيوية متدفقة ، وقد دعا ذلك ناقداً مدققاً مثل (دونالد نيف) لأن يقول في كتابه عن حرب حزيران ص ١٥٨ (إنه من سوء الحظ أن الرئيس الأمريكي أسلم نفسه لعواطف امرأة متحيزة في ساعات عصيبة ومعقدة ، بعوامل وأجواء أزمة دولية خطيرة) .

في الثالث والعشرين من شهر أيار ، حطت طائرة الأمين العام للأمم المتحدة يوثانت في مطار القاهرة الدولي ، وقبل أن يجتمع بالرئيس عبد الناصر ، أصدرت موسكو بيانها ، وما لبثت واشنطن أن هرعت لاطلاق بيان مقابل ، وكان واضحاً أن حرب البيانات هذه ، إنما وجهة القصد فيها ، هي القاهرة التي يزورها يوثانت في هذه الساعات العصيبة .

كان البيان السوفييتي أقل من الإنذار وأكبر من التنديد ، بمطامع العسكرية الصهيونية في اسرائيل ، فقد كان تحذيراً لاسرائيل ، من الذهاب بعيداً في غيّها للعدوان على سوريا ، كما راح البيان يؤكد على الموقف الصلب الذي سيتخذه الاتحاد السوفييتي تجاه المعتدي . .

وكان البيان الأمريكي ، يمتلئ أسفاً ، لفشل اتفاقيات الهدنة في المنطقة ، وللإنسحاب العاجل لقوات الطوارئ الدولية ولحشد القوات المسلحة على الحدود ، ثم راح يركز على نقطة بدت محوريتها في متن البيان كله : إغلاق خليج العقبة في وجه السفن الإسرائيلية . ثم كان اجتماع يوثانت بصحبة أودبول كبير المراقبين والجنرال ريكي القائد العام لقوات الطوارئ . . مع عبد الناصر .

كانت أفكار يوثانت تذهب إلى حل وسط ، يتم بموجبه تجميد الموقف برمته ، فتمتنع اسرائيل عن إرسال سفنها عبر المضائق ، كما يمتنع الطرف المصري عن إجراءات التفتيش ،

---

* ماتيلدا كريم من أب سويسري مسيحي وأم إيطالية مسيحية أيضاً ، أما دخولها في اليهودية . فغير مشروع وفق المفهوم الديني العبري ، وقد تم ادخالها إلى (دين الموساد) عن طريق عشيقها اليهودي عضو عصابة شتيرن المسمى داڤيد دانون ، وهنا لا ضرورة للأم اليهودية كي يصبح المرء يهودياً !..

واتفق الجميع بعد مناقشات حول تبعية المضائق تاريخياً لمصر * ، على أن يصدر بيان من الأمم المتحدة ، تناشد الأطراف جميعاً ، بضبط النفس ، وترك خمسة عشر يوماً للأمم المتحدة ، يمكن أن تصل من خلالها ، إلى حل للمأزق . ووافقت الحكومة المصرية على هذا العرض .

وتوالت الحوادث ، وتبخّر مشروع يوثانت ، باقتراح الإدارة الأمريكية تشكيل قوة دولية بحرية من الدول الغربية الثلاث ، ودعوة إيطاليا والداغرك والسويد ، (والاتحاد السوفييتي إذا أراد) لحماية حرية الإبحار ، وأن هذا المبدأ الخطير (مبدأ حرية البحار) الذي تتعرض له مصر اليوم ، يؤسس لظاهرة لا يمكن للمجتمع الدولي أن يقبل بها . .

ثم كانت الملاحظة الثانية ، التي نقلتها وزارة الداخلية المصرية إلى عبد الناصر بتقرير مكتوم وسري ، وهي تتضمن بدء ترحيل الرعايا الأمريكيين من مصر بصورة هادئة . .

كان النفط العربي يتدفق ، والإحتياطي الإسرائيلي يُستدعى ، والسفن الأمريكية تقترب . . وكان فصلاً من فصول امتحان عسير ، تمر به الأمة في الفترة العصيبة .

لقد دأب الأمريكيون على إرسال الرسل والرسائل ، لإيهام مصر بأن الإسرائيليين لن يطلقوا الطلقة الأولى ، رغم رفضهم لمشروع يوثانت بتجميد الموقف لمدة اسبوعين ، ثم راحت ماكينة الإعلام الأمريكية تؤكد على نقاط لا يُفهم منها سوى إكراه مصر على التراجع عن موقفها ، **فالولايات المتحدة ترى ضرورة بقاء قوات الطوارئ الدولية ، وكان ذلك كله تدليساً في تدليس ، حيث لم يخف الاخوان روستو فرحتهما بسرعة إنجاز ترحيل القوات الدولية** ، ثم أشارت الصحافة الأمريكية إلى رفض الولايات المتحدة لتوجه أية قوات مصرية إلى شرم الشيخ ، قبل أن تصدر حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، تصريحاً رسمياً وعلنياً بضمان حرية الملاحة في المضائق ، وألا تدخل هذه القوات قطاع غزة ، وأن تظل الأمم المتحدة ووكالاتها هي المسؤولة الإدارية في القطاع ، وأن تعود أخيراً جميع القوات المصرية من سيناء إلى أماكن تواجدها قبل الحملة ، كذلك القوات الإسرائيلية . .

وفي اليوم ذاته (٢٨ أيار) أعلن راديو القاهرة ، تعيين السيد زكريا محي الدين قائداً عاماً للمقاومة الشعبية ، وقد **توجّه الوزراء المستقيلون قبل عدة سنوات من هذا التاريخ :**

---

* يستذكر المرء وقائع حديثة عن الأصول التاريخية لتبعية بعض المناطق لدول قائمة في التاريخ ، ومن يطّلع على مناقشات عبد الناصر مع يوثانت ، في حق مصر بالمضائق الإقليمية (ميل واحد فقط) ، يتذكر حق العراق في إطلالة على البحر ، إذ هل يعقل أن امبراطورية بابل كلها ، لا بحر لها ، وأن البحر كلّه لبئر النفط الذي صار دولة ؟! . .

عبد اللطيف بغدادي وكمال الدين حسين وحسن ابراهيم ، بالإضافة إلى كونهم أعضاء في مجلس قيادة الثورة (سابقاً) توجّهوا إلى منزل عبد الناصر ، للمطالبة بدور لهم في المعركة . .

ويؤكد كمال الدين حسين وحسن ابراهيم أن المقابلة لم تستمر طويلاً ، (نصف ساعة فقط) ، وإنهما تأكدا أن عبد الناصر لم يكن بصدد الحرب نهائياً ، فقد قال لهم (أنا لن أبدأ الحرب ، وعلى الأرجح أن سياسياً آخر بعدي ، هو الذي سيأخذكم إلى تل أبيب . . وكان يتكلم بمرارة عن حالة الجيش المصري – حمروش – قصة الثورة الجزء الخامس ص ١٢٧) .

ويروي الكاتب الإنكليزي ناتنج في كتابه ناصر ص ٨٢ ، أن المقابلة بين عبد الناصر وحرسه القديم (يقصد البغدادي ، وحسين ، وابراهيم) ، كانت من المقابلات النادرة ، حيث أُتيح لعبد الناصر أن يسمع آراءً صريحة بلا خوف أو تردد ، **فقد ظل رفاق السلاح القدامى ، في حالة من التوتر والإستفسار عن كل شيء إلا أن المهلة القصيرة التي حظي بها رفاق عبد الناصر ، كانت قد قطعت عليهم سبل استكمال المبادهة أو حتى المشاركة** . . (في اسرائيل يُؤتى بالمتقاعدين والعاملين) .

وفي كتابه عن حرب الأيام الستة ، يقول رودلف ونستون تشرشل ، (كان عبد الناصر يشكل فكرة خاطئة عن قوة اسرائيل الحربية ، نظراً للمعلومات غير الدقيقة التي تزوّده بها دوائر استخباراته العسكرية ، **وليست هناك من أسباب واهية توضح لنا أن عبد الناصر كان يسعى فعلاً إلى التسبب بنزاع مسلح يعلم نتائجه على الأرجح** . .) .

وفي الثلاثين من أيار ، حطت الطائرة الملكية الأردنية فوق مطار القاهرة الدولي ، وكانت المفاجأة بالنسبة للعاديين من الناس ، شبه كاملة ، فنيران المعارك الإعلامية المتبادلة لم تكن لتنقطع إلا مع وصول الفريق عبد المنعم رياض إلى عمان لمقابلة الملك بناء على طلب الأخير في الأول من أيار ، ثم ساد صمت مترقّب ، طوال الفترة من بداية أيار وحتى نهايته بين عمان والقاهرة ، وقد بدت السحب الداكنة بالإنقشاع حين شعر عبد الناصر ، بأن رسالة الملك ، عبر الفريق رياض ، كانت تحمل نصيحة قلبية ، فضلاً عن الإشارات الذاهبة لطي صفحة الماضي ، ومدِّ يد التعاون من جديد . . وتبادل عبد الناصر مع الملك حسين كلمات الترحيب الشديدة التي كانت تشير بالفعل إلى الإيذان ببدء رحلة جديدة ، ثم أذاع راديو عمان ، بأن المملكة الأردنية الهاشمية والجمهورية العربية المتحدة ، توصلتا إلى إبرام اتفاقية للدفاع المشترك ، وقبل هذا الإعلان كان الرئيس عبد الناصر والملك حسين قد اجتمعا مدة ٦ ساعات كاملة ، ثم جاء التعليق من اسرائيل : (**يبدو أن الملك حسين** ، لا

يريد أن يفوته شرف القتال مع إخوانه العرب ، وهكذا دعا نفسه إلى ورطة لن يخرج منها سالماً ! . .) إلا أن النظام السياسي في سوريا ، رغم معاهدة الحسين – ناصر الجديدة ، واظب في حملة هجوم تشهيرية ضد النظام الأردني والقائم عليه دون توقف . . .

كذلك لم تتحسن العلاقة فعلياً ، بين الأردن ومنظمة التحرير ، فقد طلب أحمد الشقيري ، إدخال خمسة آلاف مقاتل فلسطيني إلى الجبهة الأردنية ، ورفض الملك هذا الطلب ، بذريعة أن الحرب إذا ما نشبت ، ستكون حرب جيوش نظامية ، وكان كل ما وافق عليه الملك ، هو إعادة فتح مكاتب منظمة التحرير التي كان الأردن قد أغلقها في مرحلة سابقة .

السعودية من جهتها ، أعلنت على الفور ، وقف مساعدتها للأردن ، بعد أن وضع الملك يده بيد عبد الناصر ، وعلى الضفة الغربية للأردن ، كانت اسرائيل – رغم توجيهها النصائح للملك – تدبر في سرّها خطة لجر الملك إلى المعركة ، تكون الضحية فيها الضفة الغربية ومدينة القدس على حد سواء .

في الرابع من حزيران ، وبينما كان الملك حسين ، يعقد مؤتمراً صحفياً في عمان ، لشرح أهداف زيارته المفاجئة إلى القاهرة ، وما انطوى ليها من اتفاق الدفاع المشترك ، أخطر عبد الناصر الملك ، بأن العراق قد وافق على الإنضمام للمعاهدة العسكرية مع الأردن ، ثم أعلن راديو بغداد ، أن العراق سيوقف البترول عن أي بلد يساند اسرائيل في عدوانها علي العرب ، كما هدد الكويت بوقف شحن البترول في حال وقوف الدول الغربية إلى جانب اسرائيل . .

وكان لدخول القوات العراقية أراضي الأردن ، الذريعة الثالثة لقيام اسرائيل بشن الحرب ، بعد سحب قوات الطوارئ وإقفال المضائق في شرم الشيخ .

ولا شك أن هذه الإجراءات المستعجلة ، لم تجد مستوىً قيادياً عالياً لديه من تجارب الحروب أو التدريبات الصارمة ، ما يفضي بها إلى التعامل مع الأحداث المتسارعة . فقد ظلت القيادات العسكرية العربية ، في هذا البلد أو ذاك ، مواقع أثرة سياسية أو شخصية لرأس النظام أو نائب القائد الأعلى ، ولم تكن الجدارة أو الأقدمية المنطوية على ميزات الدراية والحنكة ودورات الأركان الحقيقية ، لتؤخذ في الحسبان ، وكان هناك ما هو أخطر . فالتقارير الحساسة لا تأخذ طريقها في التوقيتات المناسبة ، أما عيون القوات المسلحة ، فقد أصابها من العقم والاستخفاف ، ما لم يؤد إلى الحصول على معلومات دقيقة وتفصيلية عن أوضاع القوات المسلحة المعادية ، ثم إن نظريات لا علاقة لها بالحروب الحديثة .

وأغلب الظن أنها كانت تقع في دائرة الموالاة الشخصية ، ذهبت إلى حد فصم صنوف الأسلحة ، بما يكفل الاستقلال لكل منها في العمل ، فقائد الطيران المصري الفريق صدقي مثلاً ، رفض أن تعمل الوحدات الكبيرة ، (أوغدا في اسرائيل) بمنطق الوحدة الواحدة التي تضم جميع فروع الأسلحة تحت أمرة القائد الأكبر في التشكيل ، وأصر أن تبقى القوات الجوية ذات قيادة خاصة ، وقد وافقه المشير عامر على هذا الرأي ، حيث بدأ المشير بالتصرف عسكرياً دون الرجوع أحياناً للرئاسة . .

وكانت القيادات العسكرية في غير مصر ، قيادات سياسية بالدرجة الأولى ، إذ غالباً ما ظلت التدريبات والمناورات بعيدة جداً عن أجواء الحروب الحقيقية ، وقد نأى الضباط القادة عن التماس المعارف المتطورة في الحروب ، واكتفوا (بكلاسيكية) ما تعلّموه في كليات الأركان ، التي غالباً ما ينقلب فيها حتى الضابط القائد ، إلى (روح طالب) ، يسعى للهروب من الدرس أو التمرين ، بحجج واهية ، وكان لدى الخبراء السوفييت ، مشكلة عويصة ، وعلى جديّة معظم هؤلاء الخبراء ، فقد تحوّلوا مع الزمن ، بفعل العدوى ، إلى مجموعات من الكسالى ، طالما أن طلاّبَ المعرفة ، على هذه الدرجة من الزوغان (**كان الجنرال الإسرائيلي تال يفك الدبابة إلى ألف قطعة ليعود إلى تركيبها ثانية**)* ، ثم كانت مشكلة ثانية وثالثة . . **فالخبراء السوفييت بينهم وبين اتهامهم بالتدخل في شؤون السيادة شعرة ، ولا يستطيع الجنرال الخبير ، أن يرغم جنرالاً مثله في القوات الوطنية ، أن يفعل هذا ولا يفعل ذاك ، وزاد الطين بلة ، أن تكنولوجيا السلاح لدى الغرب ، أواخر الستينات وما بعدها ، بدأت بالتفوق بما لا يحمل الجدل ، وكان ذلك يجري على جميع أصعدة السلاح** . .

وكانت القوات المسلحة ، بصفتها جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الشامل ، خاضعة بدورها إلى ذات الظروف التي تحكم المجتمع بأسره ، فالجندي أو المُجند ، غالباً ما لا يعرف القراءة أو الكتابة ، والضابط الحديث ، على مسافة شهادة من العلم (الثانوية العامة) ، لم تضع في يديه أكثر من تجاوز مرحلة ما بعد الأميّة ، وكانت المدن قد ابتعدت عن الجيوش وأحوالها منذ أواسط الستينات ، وقد آثرت ترك المجال رحباً لأبناء الريف ، ومن الناحية المنطقية ، أو حتى الموضوعية ، فإن سرعة ابن المدينة ، على التكيف مع الآلة أو

---

* منذ أن استراح موسى بن نصير في محكمة الأمويين ، فكفّ عن إرسال الجواري من بلاد الغال والسنغال .. ونحن ما زلنا نعمل على تفكيك جسم الأمة .. أو المرأة إلى مليون قطعة !.. ألا يقوم الفارق بين تفكيك وتفكيك ؟!..

الميكانيكا أو التكنولوجيا ، لأسباب تاريخية واجتماعية ، تفوق بكثير استجابة ابن الريف لاستيعاب أسلحة حديثة متطورة ، باتت على درجة من التعقيد ، وعندما صدرت تعليمات القيادات العسكرية العامة ، باعلان حالة الطوارئ ، واستدعاء الإحتياطي ، كانت نسبة التنفيذ في مصر مثلاً ٦٢ بالمئة * ، وكم من الضباط والجنود الاحتياط ، هرعوا إلى جبهات القتال بملابسهم المدنية ، أو عن طريق سيارات خاصة عابرة . .

هذا وسيقول القائد العام للقوات المتقدمة في سيناء ، الفريق عبد المحسن مرتجى ، أن الأخطاء ظلت تتناوب منذ بدء الاستدعاء إلى ساعات توزيع القوات وصولاً إلى مواضع التمركز ، ولم يكن بمقدور أحد ، مقاومة هذه الأخطاء ، أو حتى الإفصاح عنها ، فعجلة القوات المسلحة ، بدأت تدور باتجاه المعركة ، ولو أن المشير عامر كان قد أفصح للجنرال مرتجى بأن المعركة على الأغلب ، سياسية وليست حربية (فما أسرع دخول العسكريين في عالم السياسة ! . .) ، وتقول إحدى الروايات غير الموثوقة (حمروش الجزء الخامس قصة الثورة ص ١٣١) أن شمس بدران وزير الدفاع المصري آنذاك (رتبة ومعلومات يوزباشي) رد على أحد زملائه في الوزارة ، حين سأله عن الموقف حال تدخل أمريكا ، فأجاب (بدران) : إن قواتنا المسلحة كفيلة بمواجهة الموقف ، وأتْبَعَ ذلك بضحكة ساخرة ! . .) .

كان عبد الناصر من جهته فعلاً ، يعتقد أنه ليس بمقدور اسرائيل ، **أن تهاجم وحدها دون سند غربي ، وكانت تلوح في مخيلته نسخة ثانية عن سويس أخرى ، وحين تجادل مع الصحفيّ البريطاني أنطوني ناتنج ، بأن اسرائيل قادرة أن تعمل بمفردها هذه المرة ، كان يرد عبد الناصر بالنفي قائلاً : تؤكد لي جميع المعلومات ، أن طائرات الميغ والسوخوي ، أفضل من كل ما تمتلكه اسرائيل من أسلحة** . . فلما عاد ناتنج لمقابلة عبد الناصر بعد الحرب ، أجابه الرئيس :

كنت أعلم مدى تفوق اسرائيل ، ودليلي أنني أخطرت القيادة المسلحة ، أن تتوقع هجوماً اسرائيلياً منفرداً ، لكن تصريحات ما قبل الحرب العلنية ، لا يمكن أن تذهب إلى التسليم بواقعة تفوّق العدو أصلاً .

---

* كان هناك خطة تعبئة موضوعة لعام ١٩٦٧ ، وكانت الخطة تتطلب تعبئة ١٣٠ ألف جندي وضابط ، وما تم تعبئته بالفعل هو ٨٠٦٥٠ أي بفارق ٣٨ ألف عن العدد المطلوب ، وسوف نرى أن عديد الجيش الإسرائيلي مقابل الدول العربية الثلاث (مصر وسوريا والأردن) وما أرسل من وحدات عراقية وجزائرية وسعودية . . الخ ، ظل متفوقاً. ٢٥٠ ألف لإسرائيل ، و ٢٢٨ ألف لكل العرب في المقابل .

على الضفة الأخرى من الجانب الإسرائيلي ، فقد كانت كلمة السر المطلقة هي التدريب والنظام ، **إذ هناك أيقونة من العهد القديم ، اسمها السريّة** ، وحتى يوم الجمعة الواقع في الثاني من حزيران ، لم تكن القيادات السياسية العربية أو العسكرية ، تعرف ما الذي يدور في اسرائيل بالفعل ، فيما كانت المناقشات العسكرية المتقدمة ، قد وصلت حد الجدال ، بين مخطط عسكري ذي مراحل ، وهو ما يمثل وجهة نظر الحكومة المدنية على رأسها أشكول ، ومخطط عسكري يرمي إلى الضربة الواحدة القاضية (موشي دايان ، أريك شارون ، يسرائيل تال ، وابراهام يوفي ، وغيرهم من الجنرالات على الجبهة الشمالية) .

لقد طلب دايان وزير الدفاع ، إلى جميع القادة الأركان ، أن يضعوا مخططاتهم الحربية تحت تصرف رئيس الأركان وأعوانه . وبالفعل فإن قادة الجبهة الجنوبية (تال ، شارون ، يوفي) وضعوا بالإشتراك ، مخططاً هجومياً واحداً ، **يعتمد في ركائزه الأساسية، على دروس الحرب المستفادة أثناء حرب العام ١٩٥٦** . كذلك فعل قادة الجبهات الأخرى . . وقد حظي قطاع غزة والضفة الغربية بالجزء الأوفى من الخطط العسكرية ، فيما انصب الجهد الرئيسي **(على إبادة زهرة القوات المسلحة المصرية ، قبل أن تتركز أو تتكيف مع طبيعة الصحراء** ، وقد كان في تيه خمسة ضباط مصريين ووقوعهم أسرى في أيدي قواتنا ، ما يقيم الدليل على أن قادة القوات أنفسهم ، عاجزون عن التكيف مع هذه العدوّة التي اسمها الصحراء- أريك شارون- مذكرات - مكتبة بيسان ص ٢٤٠) .

ويتابع شارون (قائد أوغدا في الجبهة الجنوبية وكانت المجندة يائيل دايان ابنة وزير الدفاع تعمل كمراسلة حربية في الأوغدا) ، أن وجهة نظر الهجوم الشامل (دون مراحل) هي التي فازت في النهاية ، فشعرنا بأنفسنا أننا كنا جاهزين للإنقضاض عند الإشارة الأولى . .

كان دايان ، بعد مجادلات ساخنة وسط حكومة أشكول ، قد أستدعي في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم الخميس الواقع في الأول من حزيران ، لإبلاغه (من قبل أشكول) رغبة مجلس الوزراء بتعيينه في منصب وزير الدفاع ، ثم ما لبث أشكول أن أبلغه رسمياً في الساعة السابعة مساءً تلفونياً قائلاً (دايان . لقد أصبحت وزير دفاعنا) ، وسيقول دايان للصحفي البريطاني ونستون تشرشل الإبن ، (لقد كانوا بحاجة إلى دخول ٨٠ ألف جندي مصري بحوزتهم ألف دبابة إلى سيناء ، من أجل إعادتي إلى الحكم) . وكان هذا القول الساخر موجهاً إلى حكومة أشكول ، التي سيصفها العسكريون في إسرائيل ، بأنها حكومة شاحبة ، مترددة ومشلولة ، حين بدا تلعثمها حتى في عشر أيام الأزمة الصعبة .

لا مكان للتحزّب في مثل هذه الأيام العصيبة ، هذا ما انطوت عليه الأيام الأولى من شهر حزيران في الوسط السياسي - العسكري ، الإسرائيلي . . فقد تم استدعاء الجنرال احتياط زفي تسور ، رئيس هيئة الأركان السابق (نظراً لخبراته وتجاربه الواسعة) كي يكون مساعداً لوزير الدفاع ، وقد قبل تسور المهمة بصدر رحب ، كما طلب دايان من تسور اشراك بن غوريون في القرارات العسكرية والسياسية ، وتطوع لهذه المهمة أيضاً ، كما أُستدعي إلى الخدمة على عجل ، جميع الضباط الكبار من الإحتياطيين الذين خاضوا معارك ١٩٤٨ . ١٩٥٦ ، وما بينهما ، إما ليكونوا على رأس القوات العاملة قبل المعركة ، أو في مكاتب الأركان العامة وأجهزة الاستطلاع أو الاستخبارات العسكرية ، وكان من أهم الأسماء اللامعة التي تم استدعاءها أيضاً ، هو الجنرال احتياط ييغال يادين رئيس الأركان الأسبق ، وعميد معهد الآثار في الجامعة العبرية ، كما أن هؤلاء الجنرالات كان قد سبق لهم العمل على كافة الجبهات الإسرائيلية من الشمال إلى الجنوب ، ولو أن أحدهم ، كان يفضل جبهة ما لشعوره بما يشبه التخصص في شؤونها (شارون والجبهة الجنوبية مثلاً ، إيليعازر والجبهة الشمالية أيضاً . . . الخ) .

كانت القوانين الناظمة لصلاحيات الوزراء ، تنص على أن لوزير الدفاع الحق بالرد اتوماتيكياً على أية مبادرة عسكرية معادية لاسرائيل ، دون العودة لأحد ، إلا أن قراراً بمستوى إعلان حالة الحرب ، أو بمستوى شن هجوم واسع النطاق . . كان يتطلب مصادقة اللجنة الأمنية التابعة لمجلس الوزراء (مجلس وزراء مصغر يضم رئيس الوزارة وبعض الوزراء المدنيين ووزير الدفاع ورئيس أركانه) مع بعض قادة أجهزة الاستخبارات إن لزم الأمر ، وإلا يُكتفى بالحلقة الأصغر مع وزير الدفاع ، حرصاً على السرية . .

كان الشعور السائد حتى ذلك اليوم (٣ حزيران) في اسرائيل ، أن كل شيء قد انتهى ، وأن على شباب اسرائيل ، ذكورها وإناثها ، شيبها وشبّانها ، أن يخرجوا بتنسيق ودفعة واحدة إلى القتال ، وقد كان موشي شاريت الذي أصبح في التحالف الوطني هو الآخر ، يقول : إن تفادي الحرب أصبح مستحيلاً ، وينبغي الإنخراط بها في أقرب وقت ، وقد أيده دايان ونصحه أن يهمس بملاحظته هذه في أذن أشكول . .

صباح الرابع من حزيران ، كان آبا ايبان ، يفتتح اجتماع مجلس الوزراء الإسرائيلي باستعراض التطورات الدبلوماسية ، وقد أفاض في تحليل الموقف الأمريكي الداعي إلى حرية الملاحة في خليج العقبة ، مع تشكيل قوة بحرية غربية لضمان هذه الحرية ، كما انتقل إيبان إلى شرح الموقف السوفييتي ، فأخرج من ملفّه مذكرة مكتوبة تقول : (إن حكومة

الاتحاد السوفييتي ، تود أن تذكر ، أنها ستفعل كل ما في وسعها لتفادي الصدامات العسكرية في المنطقة ، وأن جهودها حالياً في هذا الاتجاه ، أما إذا تسببت اسرائيل في اندلاع الحرب ، فعليها أن تتحمل عواقبها كاملة) .

بالنسبة لفرنسا ، يتابع رئيس الدبلوماسية الإسرائيلية إيبان ، فإن موقف ديغول لا يتزحزح ، وأن فرنسا تشجب أعمال العنف من أية جهة صدرت ، وأنها ستتعامل مع الموقف إنطلاقاً من البادئ الأول باطلاق الرصاص ، وأن مسألة حرية الملاحة في خليج العقبة ، يجب أن تحل مع مسألة اللاجئين الفلسطينيين . .

هذا وسيقول ديغول للسفير الإسرائيلي في باريس (**سنة ٩٦٧ ليست هي سنة ١٩٥٦ ، فقبل عشرة سنوات لم أكن في الحكم ، وان العالم قد تغير ، وسنوقف عنكم السلاح لا لشيء ، إنما لنجنبكم اغواء يدعوكم إلى فتح ملف الحرب في هذه الأيام**) . .

وكانت انكلترا هي الورقة الأخيرة في جعبة إيبان ، فقد شرح تماهي الموقف البريطاني مع دعوة جونسون لتشكيل قوة حربية بحرية مشتركة ، كما أكد وجهة نظر رئيس وزرائها ، هارولد ويلسون ، بوجوب ضمان حرية الملاحة في العقبة .

ثم جاء دور رئيس الإستخبارات العسكرية ، أهارون ياريف ، فبدأ بشرح تفصيلي عن تحرك القوات العسكرية العربية على سائر الجبهات ، مع الإشارة إلى اللواء الكويتي المُصفّح ، وفوج القوات العراقية في الأردن ، وبعد أن أفاض في تفاصيل حجم القوات المصرية والسورية والأردنية المتمركزة على طول الحدود مع اسرائيل (مع بيان شامل عن نوعية أسلحتها البرية والجوية والبحرية) فإنه راح يستحث الخطى لعملٍ في توقّيته الصحيح .

كان دايان قد قدم سلسلة من التحليلات العسكرية للوضع موضحاً ، أن تغيّرين أساسيين طرآ على الوضع السابق : جهود مصر لإقناع الأردن بفتح الجبهة الشرقية ، واستعداد القادة العسكريين في مصر لشن هجوم وقائي مسبق ، (ومما يمكن الإشارة إليه ، أن مصر أرسلت على عجل وحدتي كوماندوس إلى الأردن ، بمهمات هجومية ، ومع الأخذ بأن المصريين لن يشنوا هجومهم غداً ، فإنهم توّاقون مع ذلك لتوجيه الضربة الأولى ، فإذا ما توصلوا إلى قناعة كاملة ، بأن اسرائيل ستكون البادئة ، فإنهم سيحركون هجومهم قبلنا ولو بساعات ، وهذا ما يفقد اسرائيل عنصر المفاجأة - دايان . الفاشية - دار المسيرة ص ٢٨٠) .

ويتابع دايان : **فمن يقول بانتظار أسبوع لتأمين التغطية السياسية قد يكون على حق ، لكن مَنْ يرى أن الحرب واقعة لا محالة ، لا يسعه أن يتجاهل أهمية الأيام بل الساعات ، وفي مثل هذه الحالة كيف يمكن طلب الإنتظار اسبوعاً بحاله .**

ثم أكدَّ دايان ، بأن وقت اتخاذ القرار قد حان ، وأن مفاجأة العدو ، تعني القضاء على مئة طائرة جاثمة الآن فوق مطاراته ، وأن الضربة الأولى هي التي تغير ميزان القوى في غضون ساعات . .

وشدد دايان على أهمية المفاجأة (فهي العنصر الأساس لانتصارنا) ، (**وهي التي ستجبر عدونا على القتال بشروطنا التي نفرضها على الأرض ، وهو ما سيمكننا من مجابهة الجبهات الأخرى بقوات محدودة**) ، ويتابع قائلاً في وصف أهمية الضربة الأولى ، (إن وجود مئات المدرعات المصرية على طول الطرقات المؤدية من سيناء إلى اسرائيل ، مع الاستعدادات الخلفية القائمة على قدم وساق ، **يعني أن الضربة الأولى بالنسبة لإسرائيل ستكون قاتلة ، وما علينا إلا أن نوجه نحن الضربة الأولى . . هذا هو جوهر النقاش** – المصدر السابق) .

وجاء دور رئيس الوزراء أشكول كي يتكلم ، وكانت كلماته متقطعة مترددة ، فقد فهم العسكريون من كلامه ، أن الولايات المتحدة بعثت برسالة تعد فيها بضمان حرية الملاحة في المضائق ، لكن ما هو غير مشجع ، يتابع أشكول ، هو قول الرئيس الأمريكي ، بأن الأمم المتحدة هي التي ستتولى حل المشكلة ، فإنْ لم تتمكن ، فإن القوى البحرية الغربية ، هي التي ستقوم بدورها في ضمان حرية الملاحة . . ووصف أشكول رسالة الرئيس الأمريكي بأنها محرجة ، لكن المميّز فيها ، هي أنها أكثر إيجابية من موقف ديغول (**فهي تتيح لنا جواز التكيّف مع الظروف بما يضمن أمن اسرائيل**) . .

واتفقت اللجنة الأمنية الوزارية ، على جواب مفتوح للرئيس الأمريكي ، بحيث لا يرد في الرسالة الجوابية الإسرائيلية ، ما يضطر الإدارة الأمريكية لارسال رسالة أخرى ، أو أن اسرائيل في حالة انتظار لتوجيهات أمريكية جديدة ! . .

ويصف دايان أشكول قائلاً : لم يكن هذا الرجل ، عكس بن غوريون تماماً ، يحب لفظة كلمة الحرب ، بل اكتفى في نهاية الإجتماع بالقول (ربما كنا خدمنا اسرائيل أكثر ، لو أننا تحركنا قبل ثلاثة أو أربعة أيام ، بعيداً عن انتظار نتائج الدبلوماسية) .

وفهم العسكريون من جديد ، بأن أشكول أطلق يدهم في التعامل مع الوضع القائم ،

وبالفعل ، فقد انتهى الإجتماع باقتراح يفضي إلى ترك القوات المسلحة كي تقرر هي بنفسها ، زمان ومكان المعركة ، وكان اقتراح دايان بالتوجه إلى الهجوم فجر الخامس من حزيران هو الفائز .

عاد دايان ورئيس أركانه رابين إلى تل أبيب (حيث كان مقر الوزارة الإسرائيلية الجديد في مدينة القدس) ، يقلبان الخيارات في مكتب رئيس العمليات الإسرائيلية ، وتم الإتفاق على :-

- أن تكون الضفة الغربية ومدينة القدس ، هي الضربة التالية ، بعد الفراغ من الجبهة الجنوبية بست ساعات .

- أن يتم ضبط النفس بالنسبة للجبهة السورية أثناء الهجوم على الضفة والقدس ، والاكتفاء بالرد على النار بالمثل (مع إغارات جوية) ، بانتظار أوامر لاحقة .

وفهم داڤيد اليعازر قائد المنطقة الشمالية ، مضمون هذا الأمر دون التباس ، إذ عليه أن ينتظر دوره بعد الإنتهاء من الجبهتين : الجنوبية والأردنية . .

وكانت الخطة ، أن تقوم ثلاثمائة وخمسون طائرة حربية ، بالهجوم على دفعتين (بفاصل ساعة بين الموجة الأولى والثانية) ضد المطارات المصرية في سيناء والقناة والدلتا والصعيد . . وفي ذات الوقت ، تتحرك القوات البرّية عبر المحاور الثلاثة : الشريط الساحلي شمال سيناء ويقود تشكيله القتالي الجنرال اسرائيل تال ، والمحور الأوسط ويقوده الجنرال ابراهام يوفي ووجهته جبل لبنى ، بير جفافة إلى الإسماعيلية ، والمحور الجنوبي ويقود تشكيلاته أريك شارون ووجهته أبو عجيلة ، القسيمة ، الكونتلا ، نخل ، ثم يلتقي مع تشكيلات يوفي عند ممري المتلا والجدي ، لتصبح القناة تحت السيطرة ما بين الإسماعيلية والسويس ، أما الجزء الشمالي منها ما بين بور سعيد والإسماعيلية فهي من مسؤولية تشكيلات الجنرال تال .

وهكذا كان اليوم (ي) هو : ٥ حزيران من العام ١٩٦٧ ، وكانت ساعة الصفر المقررة هي : ٤٥ , ٧ من صباح اليوم (ي) . وكان على الطائرات الإسرائيلية أن تنطلق في وقتها المحدد . .

لم يكن اختيار ساعة الصفر ليجري عبثاً ، ففي الخامس من حزيران . (وهذا الشهر مبارك في التوراة) ، كانت الدبلوماسية ما بين مصر والولايات المتحدة ، قد وصلت إلى ذروتها ، بانتظار سفر السيد محي الدين زكريا إلى واشنطن في اليوم التالي (في ٦

حزيران). وكما صرح دين راسك وزير الخارجية بعد الهجوم الإسرائيلي ، فإنه (ربما ساعدنا اسرائيل في الضغط على الزناد حين قمنا بابلاغها عن موعد زيارة السيد زكريا محي الدين إلى واشنطن) . .

أما العوامل الأخرى في اختيار التوقيت (حالة الطقس ، الضباب فوق منطقة الدلتا ، إراحة الطيارين ليلة نوم كاملة ، مواعيد مجيء الطيارين المصريين بواسطة حافلات منتظمة إلى قواعدهم* . . . الخ) ، هذه العوامل وغيرها ، كانت الأهم في اختيار الموعد الإسرائيلي لبدء الهجوم . .

إن الهجوم الجوي الإسرائيلي ، على القواعد الجوية المصرية (١١ قاعدة) قد جرى على موجتين ، ففي الموجة الأولى ضربت ١٨٣ طائرة اسرائيلية ما بين (٧,٤٥ - ٨,٥٥ صباح الخامس من حزيران) = (٨,٤٥ - ٩,٥٥ بتوقيت القاهرة) ، إحدى عشرة قاعدة جوية مصرية ، وتقول تقارير سلاح الجو الإسرائيلي ، بأنه تم تدمير ١٩٧ طائرة مصرية منها ١٨٩ طائرة على الأرض ، و ٨ طائرات في معارك جوية . . كما تم تدمير ستة مطارات منها ٤ في سيناء و ٢ غربي القناة في فايد وكبريت ، كما تم تحطيم ١١ محطة رادار بين سيناء وخلف القناة . . وفي الموجة الثانية ، بعد انتهاء الموجة الأولى من مهمتها مباشرة ، انطلقت ١٦٤ طائرة اسرائيلية لتقصف ١٤ قاعدة جوية مصرية ، منها ٦ قواعد سبق لطائرات الموجة الأولى أن قصفتها و ٨ قواعد جديدة في أعالي الصعيد ، وكان من نتائج إغارات الموجة الثانية تحطيم ١٠٧ طائرات مصرية إضافية ، وكانت قاعدة أبو صوير وحدها تشهد تدمير ٦١ طائرة مصرية مقاتلة .

كان عدد الطائرات الإسرائيلية المُسقطة ، حسب بلاغ أذيع من راديو القاهرة الساعة الثامنة من مساء ٥ حزيران ، هو ٨٦ طائرة اسرائيلية معادية (٢٥ بالمئة من السلاح الجوي الإسرائيلي) ، أما راديو اسرائيل فاكتفى بإحدى عشرة طائرة ، قُتل من طياريها ستة ، وأسر اثنان وجرح ثلاثة . . وهكذا تكون مصر في جميع الأحوال قد فقدت ٧٥ بالمئة من قوتها الجوية الضاربة . لقد أقلعت الطائرات الإسرائيلية من قواعدها المختبئة في الجنوب ، على ارتفاع منخفض تحاشياً لعيون الرادارات المصرية ، كما تم الإيعاز باغلاق الإتصال

---

* كان طيارو قاعدة انشاص الجوية المصرية ، يسهرون حتى الفجر مع أغاني السيدة المطربة شريفة ماهر ، وقد قيل الكثير في تأويل هذه الظاهرة ، بحيث عُزيت إلى عمل من أعمال المخابرات الإسرائيلية . . الخ ، ولكن ما هو الفرق بين أن يكون الطيار ساهراً في حفلة أو نائماً في مسكنه ؟ . .

اللاسلكي أثناء المهمة ، حتى في حال سقوط الطائرة أو اضطرار الطيار للقفز منها . أما قاعدة العريش الجوية ، فإنه تم تدمير الطائرات المصرية دون استخدام الصواريخ . بل الإكتفاء بالرشاشات ، وذلك بغية عدم تعطيل المدرجات ، التي سيستخدمها سلاح الطيران الإسرائيلي ، بعد سقوط المدينة في أيدي القوات البرية . .

في الساعة الثانية عشر من ظهر الخامس من حزيران ، انطلقت ثمانون طائرة اسرائيلية مقاتلة قاذفة . باتجاه القواعد الجوية في الأردن وسوريا ، وانقضت على موجات بمعدل ١٥ إغارة ، على مطاري المفرق وعمان ، وكانت المحصلة تدمير سلاح الجو الأردني البالغ زهاء ثلاثين طائرة حربية من نوع الهوكر هنتر . . وبعد ربع ساعة فقط ، كانت المطارات السورية في المزة والضمير واللاذقية وحلب ، تتعرض لهجوم اسرائيلي جوي مماثل ، أدى إلى خسارة خمسين طائرة حربية سورية (من أصل ١١٤ طائرة) ، كذلك فقد العراق خمس طائرات حربية في هجوم جوي على مطار إتش ثري H-3 .

أما خسائر اسرائيل في الموجة الثالثة (الأردن ، سوريا) ، فقد ذكرت الإذاعة الإسرائيلية فقدان عشرة طائرات مع مقتل ٥ طيارين وجرح اثنين وأسر اثنين آخرين وتمكن العاشر من النجاة والهرب . .

غير أن ذلك كان معناه بلغة التقارير العسكرية ، خسارة سوريا لخمسين بالمئة من قوتها الجوية ، كما أن الأردن ، خسر في هذه الجولة ، كامل قدرته الجوية المحاربة دون نقصان ! . . وفي النهاية فإن العدد الكامل للطائرات الحربية المدمرة في كل من مصر وسوريا والأردن كان قد وصل إلى رقم ٣٧٥ طائرة ، وهناك روايات أخرى تقول بخسارة ٤١٥ طائرة حربية عربية ، وتحطيم ٢٨ مطاراً حربياً ، والخلاصة فإن سلاح الطيران العربي ، كان قد أُخرج من المعركة بصورة حاسمة* .

كانت صدمة المشير عامر بفقدان القوات الجوية أكبر من أن تستوعبها مقدرته الجسدية أو النفسية ، فالحرب الخاطفة التي شنتها اسرائيل في الجو ، تركت القوات البرية في سيناء

---

* إن مصير معركة حزيران ، كان قد تقرر في الحقيقة ، خلال ثلاث ساعات ونصف الساعة بدءاً من أول صاروخ مقذوف من قبل الموجة الجوية الإسرائيلية الأولى ، وحتى وقف اطلاق النار رسمياً في ٩ حزيران ، وفيما عدا ذلك فإن الصورة لا تعدو كونها تفاصيل على صعيد القتال البري أو البحري ، فالضربة الإسرائيلية المسددة بمنتهى النجاح ، أدت إلى نتيجتين حتميتين :- فقدان القيادة العسكرية العربية توازنها ، وأن الجيش المصري بصورة خاصة أصبح في وضع ميؤوس منه . حين قررت حقائق السماء ما يجري على أرض الرمال في سيناء .

دون غطاء ، ومع الإمتياز الكامل الذي تحقق لسلاح الجو الإسرائيلي فوق ميادين القتال (من القنيطرة السورية إلى القنطرة المصرية) ، فإن القتال تحوّل في الواقع إلى مجزرة ، خاصة بالنسبة للقوات المتمركزة في صحراء سيناء ، وقد كان هذا هو الوضع الذي دعا المشير عامر ، لاتخاذ قراره بالإنسحاب يوم ٦ حزيران ، وهو قرار منطقي من ناحية المبدأ ، إنما جاءت الكارثة الثانية في طريقة اتخاذه وأسلوب تنفيذه . . ويقول الفريق صلاح الحديدي في كتابه عن حرب حزيران (**وصلت الفوضى نتيجة تشابك الأوامر ، وإشاعة جو من اليأس ، وانتشار روح الهزيمة ، إلى أن قراراً مصيرياً ضخماً ، يقول بالإنسحاب من سيناء بكافة القوات ، كان قد اتخذ من المشير دون العودة إلى المستشارين أو الخبراء العسكريين المحترفين ، وظل قادة القطعات في سيناء جاهلين بما اتخذ من قرارات عليا ، ولم يكتشفوا الموضوع إلا عن طريق المصادفة ، بانسحاب قطعات من هنا وهناك ، وقد حاول البعض من هؤلاء القادة ، الإمساك بزمام الموقف . . لكن دون جدوى**) . .

لم يُصدرْ المشير عامر قرار الإنسحاب بمفرده ، لكن بالإتفاق مع القائد الأعلى الرئيس جمال عبد النّاصر ، ولم يكن القرار خاطئاً من الوجهة العسكرية ، ولو أن بعضاً من قادة مجلس الثورة القدامى (الشافعي ، وكمال حسين وحسن ابراهيم) نصحوا بضرورة الإلتحام المدرع تحييداً للطيران ، إلا أن هذه المشورات وعكسها ، كانت قد غابت في ظل السواد القاتم المُنبعث من دخان الطائرات والدبابات المحترقة في كل مكان ! . .

لقد أدت عملية الإنهيار الجماعية إلى مزيج من العدوى وفقدان الثقة ، فالفرقة الثانية المصرية بقيادة اللواء نصّار ، كانت من أوائل الفرق المنسحبة ، وحدث ذلك دون إخطار مسبق ، لا إلى قائد الجيش ، ولا إلى قائد الجبهة ، أو حتى فادة التشكيلات المجاورة ، وقد بدأ الإنسحاب هرولة ليلة السادس على السابع من حزيران ، وأفضى ذلك إلى ترك المعدات والأسلحة الثقيلة في أماكنها ، وسرت العدوى تباعاً إلى الجبهة السورية والأردنية ، وقبل الإنهيار ، كانت قد فُقدت السيطرة نهائياً - وبصورة جماعية - على القوات المسلحة ، كما فقدت الإتصالات ، وبات الإنسحاب ارتجالياً أو كيفياً ، إلى درجة أن الجيش الإسرائيلي كان يندفع إلى الجبهات العربية ، دون قتال جدي يذكر ، خلا بعض المواقع التي آثر فيها الرجال الموت على طريقة الأشجار ، حيث تموت الشجرة وهي واقفة بعناد .

وتذكر بعض السجلات التقريبية شبه المحايدة (تريفور دوبوي . الحروب العربية - الإسرائيلية ، ترجمة اللواء جبرائيل بيطار - مركز الدراسات العسكرية بدمشق ص ٤٤٤)

بعض أرقام الخسائر من القتلى والجرحى على كافة الجبهات وفق ما يلي :-

- اسرائيل : ٩٨٣ قتيلاً منها : ٣٠٣ على الجبهة المصرية و ٥٥٣ على الجبهة الأردنية و ١٢٧ قتيلاً على الجبهة السورية .
- اسرائيل : ٤٥١٧ جريحاً منها : ١٤٥٠ على الجبهة المصرية و ٢٤٤٢ جريحاً على الجبهة الأردنية و ٦٢٥ على الجبهة السورية .
- اسرائيل : ٣٩٤ دبابة مدمرة : منها ١٢٢ دبابة على الجبهة المصرية ، ١١٢ على الجبهة الأردنية و ١٦٠ دبابة على الجبهة السورية .
- مصر : ٣٠٠٠ قتيل و ٥٠٠٠ جريح ، ٤٩٨٠ مفقود (ما بين أسير وتائه في الصحراء ، وقد مات الجزء الأعظم من التائهين كما تبين فيما بعد) .
- الأردن : ٦٩٦ قتيل و ٤٢١ جريح و ٢٠٠٠ مفقود .
- سوريا : ٦٠٠ قتيل و ٧٠٠ جريح و ٥٧٠ مفقود .
- مصر : تدمير ٧٠٠ دبابة والأردن ١٧٩ دبابة وسوريا ٨٦ دبابة مدمرة .

أما العراق فقد جرح من جنوده ١٥ جندياً في الإغارة على قاعدة إتش ثري .

والحاصل ، أنه بعد نجاح الضربة الجوية ، انتقل خيار اسرائيل بسرعة ، من ميادين القتال إلى ميدان السياسة ، حيث حدد الجنرال دايان مطالبه إلى القوات الإسرائيلية المسلحة وفق ما يلي :-

- تدمير أكبر حجم ممكن من السلاح السوفييتي في المنطقة .
- تحطيم معنويات الجيش المصري وإذلاله باطلاق النشيد الوطني الإسرائيلي (هاتكفاه) ، عبر مكبرات الصوت إلى المدن المصرية الواقعة على قناة السويس .
- الوصول بالهزيمة العسكرية إلى حد إهانة مصر ، حيث لا يعود لها مكان الصدارة في العالم العربي .
- إشراك كل العوامل السالفة ، مع غيرها ، قدر المستطاع لإسقاط نظام عبد الناصر في مصر .

---

* إن موقع تل الفخار السوري في القطاع الشمالي من الجبهة ، ظل يقاتل وحيداً حتى يوم السبت الواقع في العاشر من حزيران ، ويعترف دايان في مذكراته قائلاً : لقد أخرّ هذا الموقع توقيتات هجومنا فترة سبع ساعات كاملة ، حين واظب على المقاومة باصرار (الفاشية. ص ٣٠٢).

- الظفر بالهدف الأكبر ، استرداد يهودا والسامرة (الضفة الغربية) وكذلك إعادة توحيد أورشليم (القدس) كعاصمة أبدية لإسرائيل .

ثم جلس دايان إلى جوار هاتفه ينتظر مكالمات الإستسلام أو التسليم بالأمر الإسرائيلي الواقع من قبل الحكام العرب ، إلا أن ذلك لم يحدث ، ثم قبل موته ربما بأشهر ، كان قد اقتنع بأنها ليست الطريقة النموذجية لاستجلاب السلام ، أو فرضه بلغة القوّة . .

في مقابل ذلك ، على ضفة النيل ، فإن التخطيط المصري (السياسي والعسكري) كان مكشوفاً بل مقروءاً في كتاب ، فرابين في مذكراته ، كان يعلم أن مصر لن تهاجم ، وكما يقول دايان ، فإن الدفع بفرقتين مصريتين إلى جبهة القتال في سيناء لا يمكن أن يعني الهجوم ، بالنسبة للحكومة المصرية ، وحتى عندما وصل عديد القوات المصرية إلى ما يقارب ثمانين ألفاً عدا الأنساق الخلفية ، مع ما يقارب ٩٠٠ دبابة مصرية ، فإن هذه القوات بمجموعها غير كافية للهجوم على اسرائيل أو الحاق الهزيمة بجيشها (حيث تستطيع اسرائيل في قرابة ثلاثة أيام تجنيد ربع مليون من الإحتياطي المقاتل فعلاً ، إضافة إلى ما يقارب ستين ألفاً في الخدمة العسكرية الدائمة) .

من الناحية العسكرية أيضاً ، فقد دخل العرب الحرب بمعلومات صحفية أو سياحية عن حقيقة الوضع العسكري الإسرائيلي ، حتى العديد البشري المقاتل في اسرائيل كان يفوق مجموع ما حشده العرب من رجال قواتهم المسلحة (٢٥٠ ألف لإسرائيل و ٢٢٨ ألف للعرب مجتمعين) ، وكان العنصر الحاسم في المعركة ، إضافة لما ذكر ، يكمن في درجة التفوق الكاسحة ، في المعلومات الشاملة والدقيقة ، التي حصل عليها جهاز الأمن الإسرائيلي قبل المعركة * . .

سيقول قائلهم أيضاً ، أن المؤامرة كانت أكبر من طاقة عبد الناصر ، بل وأكبر من طاقة مصر ، وأنها كانت من المحتم ، ذاهبة إلى عبد الناصر نفسه ، كما ستطال مصر في النتيجة ، وكان من الأفضل أن **نقول بأن طاقة عبد الناصر والثورة المصرية كانت أقلّ من أن**

---

* أذاع راديو اسرائيل ليلة السادس على السابع من حزيران ، نص مكالمة هاتفية بصوت عبد الناصر وصوت الملك حسين ، وكان واضحاً أن إقحام حاملات الطائرات الأمريكية والبريطانية في الضربة الجوية ، كان هدفه تبرير الهزيمة ، كما جرت مبارزات أخرى عن عزم اسرائيل على اسقاط النظم السياسية ، بحيث بدت أن هذه هي الأهداف الحقيقية لشن اسرائيل الحرب ، وكان كل ذلك تبريراً في تبرير .

تقف على قدميها في منازلة السلاح مع اسرائيل ، وأن طاقة مصر مع كل العرب كانت أدنى من موازين التحضير وحقائق القوة ، وأن حالة الإقامة في مفهوم الدفاع الحربي ، كانت غير متصالحة مع مواعيد التحرير ، وأن الإنتظار خمسة عشر عاماً أخرى ، كما كان يأمل عبد الناصر في تفكير أحادي يُطلب فيه تثبيت الزمان على الجانب الإسرائيلي ، لن يُقدّم بل يؤخر ، وأن اسرائيل كانت متفوقة في كل شيء له علاقة بمفهوم الحروب النظامية ، وأن البون كان ، ثم صار شاسعاً بين ما استقر عليه العرب ، وما تجاوزته اسرائيل (مئة رأس نووي على الأقل)*.

ولم يتهرب عبد الناصر من إعلانه لتحمّل المسؤولية وحيداً فريداً في عالمٍ ليس أهلاً لتحمّل المسؤوليات ، فقد أعلن يوم التاسع من حزيران فيما الألم يعصر وجهه :-

أقول لكم بصدق ، ورغم أية عوامل أخرى قد أكون بنيت عليها موقفي ، فإنني على استعداد لتحمل المسؤولية كلها ، فقد اتخذت قراراً ، أريدكم جميعاً أن تساعدوني عليه ، لقد قررتُ أن أتنحى تماماً ونهائياً عن أي منصب رسمي أو أي دور سياسي ، وأن أعود إلى صفوف الجماهير أؤدي واجبي معها كأي مواطن ، إن قوى الاستعمار تتصور أن جمال عبد الناصر هو عدوها ، وأريد أن أكون واضحاً أمامهم إنها الأمة العربية كلها وليس جمال عبد الناصر . .) .

وطفق يكرر في إيمانية مطلقة . . إن الحذر لا ينجي من القدر . . .

كان عبد الناصر قبل إعلان استقالته بيوم واحد ، قد أرسل تحذيراً إلى الدكتور نور الدين الأتاسي ، رئيس الجمهورية السورية آنذاك ، يقول فيه : -

(إننا هُزمنا في هذه الجولة ، والواجب يحتم علي في هذه الأوقات الحزينة ، أن أرجوكم في قبول وقف إطلاق النار على الجبهة السورية ، فقد قررنا في مصر قبوله بعد الخسائر التي لحقت بنا ، وإني أفعل ذلك بحسٍّ المسؤولية التاريخية والقومية وبقلب مثقل بالهموم ، ودافعي إلى هذا الطلب هو الحرص على سلامة الجيش السوري ، وعلينا أن ندّخر من قوانا لمرحلة أخرى) .

---

* هذا مع إعطاء كل الأهمية لعلاقة اسرائيل التاريخية بالغرب ، فنحن أيضاً كان لنا علاقة بالشرق الشيوعي ، وهو شرق نووي تكنولوجي في إحدى مراحله ، فمصر وسوريا والعراق والجزائر والعمل الفلسطيني ثم ليبيا . . . وكل هذه الدول الفاعلة في منطقة الصراع كان لها علاقات سلاح مع المعسكر الشيوعي ، فلماذا القاء اللوم على الخارج المعادي دائماً ؟!، فارق تكنولوجيا ، أم فارق همم ؟ . .

كانت الأركان الإسرائيلية حتى موعد إصدار القرار بوقف القتال ، مترددة بالنسبة إلى الجبهة السورية ، وكان رأي رابين رئيس الأركان العامة ، يشاركه مدير العمليات العسكرية عيزار وايزمن . هو متابعة الهجوم ضد المواقع السورية في الجولان ، بعد أن طلب أشكول من وزير خارجيته ايبان اللعب على الوقت بالمماطلة في قضية قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار ، إلا أن دايان ، كان يعارض هذا الرأي بحجة عدم إغضاب الولايات المتحدة التي وافقت على حرب محدودة مع اسرائيل * ، ضد مصر فقط ، إلا أن دايان عدل عن رأيه في منتصف الليل فيما وصفه (بشكليات قرارات وقف إطلاق النار) ، ثم دعا الجنرال داڤيد اليعازر قائد المنطقة الشمالية ، وأوعز إليه بتطبيق خطة الهجوم المتعلقة بالجولان ، وسيقول دايان في مذكراته (قصة حياتي) ، قد يكون من الملائم لنا ألا نترك الجيش السوري مصدر ازعاج لا مبرر له ، بعد أن انتهت مصادر التهديد على الجبهة الجنوبية ، وبعد وصولنا إلى القدس . . ولهذا قررتُ أن الفرصة يجب ألا تضيع في (شكليات) قرار وقف إطلاق النار ، وهو ما دعاني إلى تغيير رأيي) .

أما الرئيس الأمريكي جونسون ، فيقول في مذكراته : (الحقيقة أننا لم نكن نعلم بنوايا اسرائيل تجاه سوريا) .

كان الهجوم الإسرائيلي الذي استهدف مرتفعات الجولان ، خارقاً قرار وقف إطلاق النار ، مدعاة لاستفزاز الكرملين بصورة شديدة ، فقد خطَّ كوسيجين وقتها رسالة تُنذر بأن الاتحاد السوڤييتي على استعداد بالتعاون مع الولايات المتحدة ، أو لوحده ، أن يفرض قرار وقف إطلاق النار ، وقرأ جونسون الرسالة المستعجلة ، وردد بهدوء : أنا جاهز ، وسأل وزير الخارجية راسك ، أين هو الأسطول السادس الآن ؟ ثم ما لبث أن وجه أمراً بصفته القائد الأعلى للقوات المسلحة : على الأسطول السادس أن يتوجه بكامل قوته لحراسة الشواطئ الإسرائيلية ضد أي غزو من خارج المنطقة . . والتفت إلى دين راسك وزير الخارجية قائلاً بسخرية : لا حاجة للرد على كوسيجين ، فسوف تراه أقماره الصناعية .

وفي ساعات تمكنت اسرائيل من احتلال مرتفعات الجولان ، ولا ريب أن الإعلان

---

* تقول الروايات إن قصف سفينة التجسس الأمريكية ليبرتي من قبل الطائرات الإسرائيلية له علاقة بقصّة الهجوم على الضفة والجولان ، فالسفينة الأمريكية المتقدمة تكنولوجياً ، كان بمقدورها التقاط جميع الاتصالات اللاسلكية والسلكية بين الجيوش ، أو داخل الجيش الواحد ، ولما كانت اسرائيل تبتغي عدم إيصال ما يجري في وقته إلى الإدارة الأمريكية فإنها قررت (دايان ، رابين . وايزمن . هود) تعطيل ليبرتي بقصفها من الجو ، مما أدى إلى سقوط ٨٥ بحاراً بين قتيل وجريح .

عن سقوط مدينة القنيطرة قبل موعد سقوطها بالفعل ، إنما جاء لتسخين درجة الحرارة في أوصال الكرملين ، ولم يكن النظام السياسي في سوريا ، يعلم شيئاً عن حقائق ما دار عبر الخطوط الساخنة بين موسكو وواشنطن ، وأن الأسطول السادس أصبح في وضعية استعداد للدفاع عن شواطئ اسرائيل ، وأن الإعلان عن سقوط القنيطرة ، كان خطأً تكتيكياً ، أدى إلى انهيار المعنويات بصورة كاملة . .

وحين كتب جونسون - بعد تحريك اسطوله - رسالة جوابية إلى كوسيجين ، كان احتلال الجولان حقيقة واقعة . .

ثم كان وقف إطلاق النار قد تحقق لأسبابه الطبيعية ليس إلا .

◆◆◆

كان قرار التنحي من قبل عبد الناصر ، الذي أذاعه بنفسه لمدة ٢٠ دقيقة ، نتيجة طبيعية لانهيار القوات المسلحة والآثار المريرة للهزيمة وتخبط القادة على جميع المستويات السياسية والعسكرية ، **في بحر من الظلام لا يريد أن ينبلج صبحه ، وقد فوجئت القيادة والشعب باتخاذه في لحظة مليئة بالحزن والغيظ ، فقد بكت الأمة حظها العاثر على مر الزمان ، وقد شاعت غيمة من الذهول ، لفّتْ العالم العربي من أقصاه إلى أدناه ، وبين مصدق ومكذّب ، راحت الجماهير تستمع إلى الإذاعات ، دون أن تعرف ما الذي حصل وكيف ومتى** ؟ ، ومع ذلك فإنه لا وقت لترتيب المسؤوليات ، فالجيش الإسرائيلي على ضفاف السويس وفوق ذرى الجولان ، وفي قلب القدس . . وكانت الجماهير ، تنطلق لأول مرة ، في اندفاعات بركانية عفوية (لا رئيس إلا ناصر) (ارفض ارفض يازكريا عبد الناصر ميه الميه) ، ولم يكذب زكريا محي الدين أهله ، فقد فوجئ هو الآخر ، بتنازل عبد الناصر له ، وصمم على الرفض ، وقد أصر على إذاعة بيان رافض بنفسه . .

كانت القاهرة سابحة في ظلام مميت ، وقد احتشدت الجماهير ليلة التاسع من حزيران في ساحات القاهرة وشوارعها حتى الصباح ، وزاد الأمر خطورة ، أن سكان الأقاليم من الدلتا والصعيد ، بدأوا بالتقاطر على القاهرة ، كإنسان فقد عقله ، وقد راح مجلس الأمة المصري برئاسة السادات ، يناشد عبد الناصر العدول عن الاستقالة ، ثم اجتمع مجلس الوزراء في ساعة متأخرة من الليل ، وأطلق نداءً بالإجماع إلى عبد الناصر ، أن يعود إلى المسؤولية في هذه الأيام الحالكة ، وقد ظل الشعب قائماً ، نائماً في الساحات والشوارع طوال ليلتين كاملتين ، وقد ظهر في الأفق بوادر عصيان لا يبقي ولا يذر ، فقد كانت الجماهير على استعداد لحرق القاهرة ، إذا لم يعد عبد الناصر ، وفي لحظة من التحامل

المُمضّ . قام عبد الناصر من غرفة نومه مكلوماً ، يرد على هاتف مجلس الأمة . وكان السادات على الطرف الآخر ، وما هي إلا لحظات حاسمة ، حتى انطلق لسان السادات معلناً : -

(لقد تحدثت إلى الرئيس عبر الهاتف ، إنه لا يستطيع الوصول إلينا ، لأن الجماهير سدّت جميع المنافذ في الساحات والطرقات ، وقد أبلغني لتوّه ، بأنه لا يستطيع إلا أن يمتثل لإرادة الشعب ، - تصفيق حاد لمدة خمس دقائق - وسوف يهبه كل قواه حتى النَفَس الأخير ، ولسوف يبقى في منصبه حتى تتم تصفية آثار العدوان مهما كان الثمن) .

كان على عبد الناصر أن يجابه المستقبل ، من الموقع الذي وصلت إليه الأحداث ، وبالفعل فقد سجل يوم ١١ حزيران بداية مرحلة جديدة في صفوف القوات المسلّحة . التي أصبحت فعلياً دون قيادة . ظل المشير ووزير حربيته شمس بدران مع ضباط آخرين ، بعيدين عن الأضواء ، وقد غذّت عودة عبد الناصر عن استقالته ، مشاعر المقرّبين من المشير كي يحذو حذو عبد الناصر ، إذ كان قد قدم استقالته هو الآخر .

وكان أول ما أعلنه راديو القاهرة الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر يوم ١١ حزيران ، اقصاء الألوية ، بعد قبوله استقالة المشير وبدران من منصبيهما* .

فقد عزل جميع القادة الكبار في القيادات البحرية والجوية والبريّة . . فيما أُسند منصب القائد العام للفريق أول محمد فوزي ، ومنصب قيادة السلاح الجوي للواء مدكور أبو العز ، وبذلك خلا الجيش نسبياً ولأول مرة ، من جميع (الرتب الإصطناعية) التي نقلت ضباط تموز بقفزة واحدة على الورق ! . . إلى مراتب الأمراء (والجنرالات العظام) . . .

وعلى الرغم من أن التغيير ، كان حدثاً بحد ذاته ، إلا أن مسافة الألف ميل ، كانت مازالت قائمة ، وللإنصاف فإن العرب كلهم ، وليست مصر وحدها ، وحتى منتصف القرن العشرين ، لم يكونوا قد نعرفوا بعد على فكرة الحرب ، وعلى دورها في صب وصهر وصياغة معادن الأمم ، فالعالم عاش تجاربه المريرة خلال حربين عالميتين ، طالما

---

* من المؤسف حقاً أن المشير انتحر تعاطياً بالسم ، بعد مضي شهرين على جلاء الحقائق في المعركة التي قادها ، وقد حدث ذلك بعد مشاحنات عقيمة عن المسؤوليات مع جمال عبد الناصر ! . . وإثر التغييرات العسكرية ، مرة ثانية كان (المُلكُ العضوض) وراء واقعة الإنتحار ، وليست الخيبة ، التي أدت إلى إغراقنا جميعاً في بحر من ظلام دامس حتى يومنا هذا ، ينتحرُ من أجل المُلك ولا ينتحر بسبب الهزيمة المشينة ؟! . .

دارت رحاها فوق الأرض العربية ، بعيداً عن أهلها ، وللحق ، فإن (أحمد ماهر باشا) رئيس حزب السعديين في مصر ، هو الوحيد الذي طالب يوماً ، بضرورة اشراك الجيش المصري ، في المعارك العالمية ، وقد رفض القصر والمندوب السامي والشعب طلبه على حد سواء، ثم فوجئت الأمة بنداء الواجب القتالي في فلسطين ، فشاركت جيوش عربية على عجل ، دون تقاليد جماعية عميقة لمفهوم الحرب ، ويصف هيكل في فقرة أخاذة هذا الوضع فيقول في كتابه الإنفجار ص ٨٠٦ :

(والمحصلة فإن العرب ، لم يختبروا عمق العلاقة بين الأوطان والرجال والسلاح ولا نُبل الشعب القابل للتعبئة ، المنتظر للقرار والمندفع إلى المهمة ، تجنيداً أو تطوعاً بشرف المواطنة ، ولا أحسّوا بتلك الكبرياء الحزينة لآلاف الشباب الذاهبين إلى ميادين القتال في وضح النهار ، ولا استشعروا ذلك الشجَن الفرِح للعائدين من ميادين القتال ، وفي خيالهم صور رفاقهم الذين سقطوا هناك ، وأمام عيونهم أحباب لهم في الوطن ينتظرونهم بسعادة مفعمة بالإعتزاز ، ولم يعرفوا تلك الحياة الشاقة المجيدة التي تخلقها رفقة السلاح ، حيث يتقدم رجل إلى مواقع الخطر ، أو ينسحب إلى حصون الأمان ، في حماية رجل آخر لن يتركه لينجو بنفسه . . لأن الكل واثق أنه قدر مشترك ومصير واحد) .

وهكذا في مرحلة مصيرية من تاريخ الأمة ، ظلت فكرة الحرب ، تتمثل في عنصرين لا غير : قوات تتحرك تحت فضاء مكشوف ، وأغاني حماسية تملأ ذلك الفضاء ، ولم يكن ذلك بالوضع النموذجي لاستعداد أمة لخوض الحرب ، مستوعبةً فكرتها مؤمنة بضرورتها ، مقبلة عليها جاهزة لتضحياتها ، **لا على طريقة النصر أو الموت ، بل على طريقة ذات اتجاه علمي واحد ، التخطيط لموت الأعداء ، لا لرجال الوطن . . فثنائية الشهادة أو النصر ، ظلت ماضية على طريق وحيدة هي الشهادة ، ولم تكحل الأمة عيونها بمرأى النصر الناجز ولو لمرة واحدة . .**

كان تفكير عبد الناصر ، والإدارة السياسية – العسكرية ، يمتد إلى ما بعد الهزيمة ، وقد طُرح شعار إزالة آثار العدوان ، بمسعى العودة الجادة ، لبناء ما تهدم من القوات المسلحة سواءً على صعيد السلاح أو الرجال ، وبالرغم من النزق العربي ، (حادثة المشادة الشهيرة بين بومدين والقادة السوفييت ، وحوادث أخرى ، سببها الخلط العربي الذي لم يفرق ما

بين صداقة سوفيتية - عربية ، وتحالف أمريكي - صهيوني * ! . .) ، فإن الاتحاد السوفييتي ، عاد لبناء القوات المسلحة المصرية ، بأفضل مما كانت عليه قبل الحرب ، وقد أثّر مؤتمر شيوعي واسع لجميع الأحزاب الشيوعية في موسكو ، كما أثّر موقف تيتو وبقية دول عدم الإنحياز في الموقف ، مما أدى إلى قطع العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بصورة جماعية ، عدا بولونيا ذات الثلث اليهودي المُتحكّم ! . .

أواخر تشرين الثاني من عام الهزيمة ، سيناقش عبد الناصر مع الفريق الأول محمد فوزي ، والفريق عبد المنعم رياض (شهيد الواجب) واللواء صادق مدير المخابرات العسكرية الجديد ، احتمالات تنشيط الموقف العسكري على الجبهة ، وكان رأي عبد الناصر يذهب إلى الضرورات التالية :

- إن تحمية الوضع على الجبهة الجديدة ، له ضرورة حاسمة ، بحيث لا يذهب ظن أمريكا واسرائيل إلى أن الخطوط الجديدة ، أصبحت خطوط هدنة قديمة قائمة ومعترف بها .
- إن العمل العسكري ضروري لإشعار العالم ، بأن المنطقة لن تهدأ وأن الأزمة باقية ما دامت المناورات الأمريكية - الإسرائيلية قائمة في المنطقة .
- إن تنشيط العمليات على الجبهة ، سيرفع الأمة من درك الإحباط الذي وصلت إليه .
- إن المواجهات العسكرية ، حتى من المواقع الثابتة ، ستؤدي إلى تطعيم بالنار للقوات المسلحة المصرية .
- إن استمرار الاشتباكات يؤدي إلى استمرار حالة الطوارئ في الجيش الإسرائيلي ، أي استمرار تجميد ثلث الطاقة الإسرائيلية بعيداً عن العمل .
- إن العمليات القتالية ، وما سيسمى بحرب الإستنزاف ، هي التي ستعيد للجيش المصري صورته الأصلية ، من جيش منسحب إلى جيش مقاتل ، عكس ما أرادته اسرائيل وأمريكا من وراء حرب حزيران . .

---

* مع ذلك ، فإن اسرائيل لم تركن تماماً لهذا التحالف رغم قوّته ، فقد راحت تسعى لبناء قوتها العسكرية ، اعتماداً على قدرتها الذاتية ما أمكن ، ورغم أن التزود بالسلاح الأمريكي كان قائماً على قدم وساق ، فإن اسرائيل حاولت من جهتها عدم تعريض نفسها للرهان الوحيد : الاعتماد على الخارج ، وتشهد صناعات شتى على صعيد الأسلحة والمعدات والطيران على استخدام كل الطاقة الأمريكية ، لاحالتها إلى طاقة اسرائيلية خاصة ! . .

وكانت كلها ممهدات لما أُطلق عليه بحرب الاستنزاف ، من أجل الوصول إلى فكرة العبور ، **وهو ما أسس له عبد الناصر من قبل ، حين أدرك أن ما أُخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة .**

♦ ♦ ♦

ثانيا / تداعيات ما بعد الهزيمة ..

لم تكن هزيمة حزيران وقفاً على مصر ، ولو أنها المتضرر الأكبر فيها ، ولأول مرة منذ تاريخها ، تنتقل المشكلة الفلسطينية على الأرض ، من مستواها الإقليمي - الغيري . . . إلى المستوى القومي عملياً ، باحتلال أجزاء من مصر وسوريا والأردن . .

لقد بدا بالفعل ، لا بتأثير الفصاحة وقوة الخطاب ، أن اسرائيل دولة توسعية ، وأن لها قفزة في كل عشرة سنوات تقريباً ، وأن ما تستحوزه يتهوّد بالهجرة ، **وأن سياسة الضم القانوني ، حسب شريعة التوراة ، مسألة حقيقية لا تهديدية ، وأن صحراء سيناء ، هي جائزة اسرائيل للسلام مع مصر ، وأن يهودا والسامرة والأهم منهما القدس ، هي جائزة النوراة لاسرائيل . . وأن موضوع الجولان ، هو حجر الزاوية ، للقضاء على مفهوم الجبهة الشرقية إلى الأبد ، بعد أن تم القضاء عليها من داخل البيت العربي نفسه . .**

في ١٢ تموز من عام النكبة الثانية (فلسطين هي النكبة الأولى) ، هرع العرب إلى القاهرة للتفتيش عن سبيل جديد ، من أجل الخروج من عنق الزجاجة التي وضعتهم فيها اسرائيل ، فقد وصل إلى القاهرة ، هواري بومدين ، وعبد الرحمن عارف ، واسماعيل الأزهري ، وما لبث أن انضم في اليوم التالي ، الدكتور نور الدين الأتاسي ، كما أشار محمد أحمد محجوب رئيس وزراء السودان ، برسالة من خلف البحار (الأمم المتحدة) ، أن يتريثوا في القمة إلى حين وصوله . . . إذ لديه معلومات من مركز القرار العالمي على ما يبدو . . . وكانت أفكار محجوب ، تدور في فلك ما اجتمع الرؤساء من أجله في القاهرة، فقد شرح إمكانية توحيد جهد عربي مشترك ، على الأصعدة السياسية والعسكرية والاقتصادية ، كما أشار إلى اقتراح يدعو لإيفاد الرئيس الجزائري بومدين إلى موسكو ، من أجل جس النبض في إمكانية دعمٍ عسكري جديد .

وبالفعل فقد سافر الرئيسان بومدين وعارف يوم ١٧ تموز إلى موسكو ، وفهما من هناك نقاطاً أساسية تدور حول المحاور التالية :

- أن الإتحاد السوفييتي سيعود إلى إمداد أصدقائه في مصر وسوريا بالسلاح ، بُغية إعادة بناء القوات المسلحة ، كما أنه لن يبخل بالخبراء السوفييت في هذا المجال . .
- أن فكرة استئناف القتال ، بحاجة إلى ما بين ثلاث إلى أربع سنوات ، لتأخذ طريقها إلى التحقق . .

من جهته ، فقد بادر الملك حسين إلى الدعوة لمؤتمر قمة عربي ، فكانت الخرطوم محطّ اللقاء ، نظراً لموقفها المعتدل والمقبول من جميع الأطراف ! . .

قبل الخرطوم بقليل ، فقد هرع الشيوخ والوزراء المختصون في عالم النفط والمالية والإقتصاد (١٣ دولة عربية) إلى بغداد يوم ١٣ تموز للنظر في مطالبات الجماهير الآخذة بالإتساع ، والتي تنادي بقطع البترول العربي عن الدول التي ساندت العدوان ، وصدرت توصيات المؤتمر الوزاري في بغداد ، حيث قضت بوقف الضخ مع مراعاة أحوال واقتصاديات الدول المنتجة للبترول .

وفي ٢٩ آب تم نقل التوصيات إلى مؤتمر القمة الذي باشر أعماله في اليوم نفسه ، وكانت الخرطوم قد استقبلت عبد الناصر استقبالاً كان بمثابة الاستفتاء الشعبي ، لقائد يحمل على كتفيه مسؤولية الهزيمة والتحرير معاً ! . . ثم كانت المرة الأولى التي يلتقي فيها مع خصمه اللدود ، الملك فيصل* .

كان أول ما تغاضى عنه مؤتمر الخرطوم ، هي تلك التوصيات القادمة من مؤتمر بغداد الوزاري ، والتي قضت بوقف الضخ وسحب الأرصدة العربية من مصارف الولايات المتحدة وبريطانيا ، وكانت هذه الخطوة التسووية ، ترمي إلى عدم إغضاب دول النفط الحاضرة في القمة ، خاصة وأن الملك فيصل أشار في تساؤل ساخر :-

كيف يُطلب إلينا العون بالمال ، فيما يقترح آخرون ، باغلاق مصدر المال لدينا ؟ (بالطبع لأن مال النفط على طريقة كل يوم بيومه ! . .) .

---

* حضر مؤتمر الخرطوم كل من الرؤساء والملوك : جمال عبد الناصر ، الملك حسين ، الملك فيصل ، اسماعيل الأزهري ، عبد الرحمن عارف وعبد الله السلال وصباح السالم الصباح وشارل الحلو وأحمد الشقيري . كما حضر مندوبو الملوك أو الرؤساء : الأمير حسن الرضا مندوباً عن ملك ليبيا ، والباهي الأدغم مندوباً عن الرئيس التونسي بورقيبة ، وعبد العزيز بوتفليقة مندوباً عن الرئيس الجزائري ، والدكتور محمد بن هيمة رئيس وزراء المغرب ممثل الملك الحسن . ورفضت سوريا حضور القمة !. . .

ثم استقر الرأي على مواصلة الضخ ، بعد أن وافق ملك السعودية وأمير الكويت ومندوب الملك الليبي ، على توزيع المساعدة المالية :

٩٥ مليون جنيه استرليني لمصر ، و ٤٠ مليون جنيه استرليني للأردن ، وخمسة ملايين لمنظمة التحرير . . وانتقل المؤتمر إلى المناقشات السياسية حيث اقترح عبد الناصر ترك حرية الاتصال للملك حسين لحل مشكلة الضفة والقطاع ومدينة القدس ، واعترض الشقيري ، إلا أن أحداً لم يكن على استعداد لسماع خلاف جديد ، تدور أسبابه على أرض باتت في يد العدو وتحت احتلاله . .

والخلاصة ، فإن قمة الخرطوم ، اتفقت على شعارات نهائية ، هي بمثابة رفض للهزيمة، ثم كانت اللاءات المعروفة (لا صلح ولا اعتراف ولا مفاوضة ، والإصرار هلى حقوق الشعب الفلسطيني في أرضه . .) ، حيث انطبعت تلك المرحلة بسياسة ظاهرية شاملة ، هي سياسة الرفض لكل اقتراح يتصل بنتائج الهزيمة المشينة . .

في الأمم المتحدة ، سيصدر في تشرين الثاني من العام ١٩٦٧ القرار المعروف برقم ٢٤٢ بعد اجتماعات عقيمة دامت زهاء ستة أشهر ، شهد خلالها مجلس الأمن أربعة مشاريع كبرى (سوڤيتية - أمريكية - دول عدم الإنحياز - ودول أمريكا اللاتينية) . . .

كان القرار ٢٤٢ الذي صاغه اللورد الإنكليزي كارادون لوحة رائعة للدهاء والمكر والالتباس التي تنضحُ بها روايات شكسبير التاريخية ، فالأراضي المحتلة جُردت من تعريفها ، (بحيث باتت أراض محتلة) ، كما أن مشكلة الفلسطينيين أصبحت (مجرد مشكلة لاجئين مع الاستعداد لتكيّف ضنين) ، لا يتعدى آفاق التعويض على أهل الشتات . . ثم وعد جونسون ، أن تكون التعديلات بالنسبة لحدود اسرائيل الجديدة ، في أضيق الحدود ، فوافقت اسرائيل على القرار القاضي بوجوب التفاوض للوصول إلى التسويات المطلوبة ، ثم وافقت مصر والأردن ، ورفض العراق وسوريا والجزائر والسودان هذا القرار ، وهكذا سقطت لاءات الخرطوم عند أول هزة لفرع الشجرة ! . .

وبالرغم من موافقة مصر والأردن على القرار ٢٤٢ ، وجهود غونار يارنغ ، الوسيط الدولي لحل النزاع عن طريق التفاوض المكوكي ، فإن المرحلة التي أطلق عليها عبد الناصر اسم مرحلة الصمود ، كانت تشهد تراشقاً مدفعياً عبر القناة ، كما أن الإنتقال إلى مرحلة الردع ، باطلاق الصواريخ ، بعد بناء جدار الصواريخ السوڤييتي ، والإشتباكات الجوية المحدودة ، كانت هي الأخرى قد بدأت أيضاً .

في سوريا أثارت فترة ما بعد الكارثة مشادات عنيفة بين القادة ، فقد اهتزّ حزب البعث ، كما اهتزّت قياداته العليا وسائر أعضاء الحكومة التي كانت قائمة أثناء سقوط الجولان ، وكالعادة ، فقد ألقى العسكريون باللائمة على القيادة المدنية ، لجرّها البلاد والعرب ، إلى حرب لا تكافؤ فيها ، فيما راح المدنيون يكيلون الإتهام للعسكريين بعدم الكفاءة ، وقد طالب العديد من أعضاء الحزب ، بتحريض من القيادة المدنية ، بوجوب استقالة جميع العسكريين المسؤولين ، بدءاً من وزير الدفاع مروراً بقائد الجبهة وانتهاء بقادة بعض القطعات العسكرية الأخرى ، إلا أن فترة الشجار توقفت موقتاً عندما أدرك المتشاجرون أنه إنْ لم يرصّوا صفوفهم فإن النظام بأكمله سيكون عرضة للسقوط ، خاصة وأن ضباطاً قدامى ، حاولوا الدخول إلى سوريا بأمل الإشتراك في القتال ضد اسرائيل عن طريق الأردن أو لبنان (حاطوم وجمعة وآخرون) وما قيل يومها . .

هذا وسيطلق نظام البعث في سوريا ، سراح بعض السجناء السياسيين في يوم الهجوم الإسرائيلي على الجولان (٩ حزيران) وكان على رأس هذه الدفعة ، محمد عمران وأمين الحافظ ومنصور الأطرش * .

في تلك الفترة ، لم يكن البعث ليحظى بأية شعبية على الإطلاق ، وقد ارتفعت لا شعبيته إلى درجة أعلى من السلبية بعد الهزيمة ، وراح أصحاب السياسة في المقاهي والمنازل وفي الإجتماعات الخاصة ، يتحدثون عن الاحتفاظ بزهرة القوات المسلحة السورية في محيط دمشق ، للحفاظ على النظام لا الحفاظ على البلد ، ولم يكن ثمة أحد مستعداً للإعتراف بالشجاعة التي أبداها بعض المقاتلين بالفعل أثناء الهجوم الإسرائيلي ، رغم أن وزير الدفاع الإسرائيلي نفسه ، اعترف لموقع تل الفخار بكل الجدارة والإحترام ، أما الأطباء الثلاثة (الأتاسي ، زعين ، ماخوس) فإن وجودهم كان كافياً لوصم سوريا بأنها مريضة (أطباء ثلاثة لرئاسة بلد واحد ! . .) فضلاً عن أن خطبهم النارية كانت قد أدت إلى اشتعال الأزمة ، أما الآن ، فقد بدوا أطفالاً في اللعبة الدولية ، حين ظلوا يعيشون في عالم من صنع الخيال ، حيث الشعارات المدوية ، تحل محل العمل الحقيقي . .

---

* يقول أمين الحافظ بأن العديد من أصدقائه في لبنان ، طلبوا إليه تجميع الضباط المسرحين في ساحتي الأردن ولبنان ، للقيام بانقلاب بعد تحقيق الإتصال مع بعض القطعات المتناثرة بعد الحرب . إلا أنه رفض خشية أن يسجل التاريخ كما قال ، مساعدته لإسرائيل في خلق الفوضى في سوريا . بينما يذكر منصور الأطرش الذي أفرج عنه أيضاً : أستذكر تلك الفترة بمرارة ، إذ لم يكن من المستساغ أن تعرف أننا كنا مدينين بحريتنا للهزيمة (الأسد والصراع على الشرق الأوسط - باتريك سيل) .

وقد زاد الطين بلّة ، حين راح الإعلام السوري ، ينطلق بحماقة كاملة ، ليعلن بأن اسرائيل لم تحقق أهدافها بالحرب ، طالما أنها أخفقت في إسقاط النظام البعثي ، وكانت استعارة غير موفقة من إذاعة موسكو ، حين أعلنت بطريقة من حشو الكلام ، أن اسرائيل فشلت في اسقاط الحكومة التقدمية بدمشق . . **وكان ينقص أهداف اسرائيل غير المحققة ، الدخول إلى دمشق ، أو القاهرة (الأولى باتت تبعد عن المدفعية الإسرائيلية ٦٠ كيلومتراً والثانية في حدود مئة كيلومتر) لكي تتحقق الأهداف دون نقصان ! . .**

وكان هناك موضوع الفدائيين الفلسطينيين ، الذي دار الخلاف حوله ، فالقيادة القطرية بزعامة جديد ، كانت ترى في الإلتزام بحرب التحرير الشعبية ، ما يضمن إقلاق اسرائيل ، وجرّ العرب إلى معركة شاملة ، وكان العسكريون بزعامة حافظ الأسد ، يرون بألا يُسمح للفلسطينيين بأن يتصرفوا على هواهم ، فقد أفادت اسرائيل من طريقتهم في شن إغارات غير ناجعة ، فقصفت الحدود وقراها ، ثم هددت سوريا نفسها واستدرجت مصر إلى حرب خاسرة . . وقد كان العسكريون عموماً ، لا يؤمنون بحرب التحرير الشعبية ، كطريقة للتغلب على اسرائيل . .

ثم انفتحت مشكلة (الصراعات الطبقية) في سوريا ، وموضوع العزلة القاتلة التي سجن نظام القيادة القطرية نفسه داخلها ، وقد عزّز رفْضُ سوريا حضور قمة الخرطوم ، ورفض قرارات مجلس الأمن ، من هذه العزلة التي امتلأت بطوفان من التنظير السياسي . .

ثم امتدت النزاعات إلى كيفية إعادة بناء الحزب ، بعد أن أوعره النزاع مع القيادة القومية ، ومجموعات أمين الحافظ ومحمد عمران ، وفيما إذا كان الحزب سيعتمد سياسة الإنغلاق أو الإنفتاح . . فقد كان السيد صلاح جديد ، الأمين القطري المساعد ، يرى في فتح أبواب الحزب مشرعة وهو في السلطة للوافدين الجدد ، سياسة تحمل خبايا انتهازية ، وكان يرى السيد وزير الدفاع حافظ الأسد ، أن الإنفتاح بقدر ، يعيد نشاط الدورة الدموية في أوصال الحزب ، وقد علّق يومها ، **بأن الإنغلاق يجعل من الحزب بركة ماء راكدة ، وبذلك لن يستطيع التكيّف مع جريان القيادات السياسية في البلد ، كما طالت النزاعات حول مسألة العلاقة مع الأحزاب الأخرى .**

لقد استهلّ السجنُ السياسي ، الأشهر الأولى من عام ما بعد الهزيمة ، ١٩٦٨ ، إذ لم يبق حزب وطني أو قومي (باستثناء الشيوعيين والإخوان المسلمين) ، لم يذهب لزيارة سجون سوريا في المزة والشيخ حسن والقلعة وأقبية المخابرات السياسية ، وهكذا اجتمعت

جبهة وطنية - قومية دون ميثاق ، ما بين القوميين العرب (جورج حبش) ، والاشتراكيين العرب (عبد الغني قنوت) ، والسوريين القوميين (عصام المحايري) ، والعديد من أنصار القيادة القومية لحزب البعث ، مع مزيج من الشيوعيين أنصار الخط الصيني واليساريين من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . . وكان عبد الكريم الجندي يزهو مفتخراً أثناء تفقده (الأسرى) من أعداء الثورة والإشتراكية ، إذ غالباً ما كانت دروسه التثقيفية تتم بعد منتصف الليل ، بواسطة السياط أو أجهزة الكهرباء والحرمان من النوم ! . .

كان مفهوم الحزب الواحد أو القائد ، النسخة المستعارة من السوفييت ، أو كوريا ، أو فيتنام ، يأكل رؤوس الثوريين المتطلعين إلى الهدف باتجاه واحد ، ولم تكن المرحلة الإنتاجية (السمة العامة للإنتاج الزراعي ونسبياً الرعوي . .) ولا المرحلة الوطنية التي تنضح بوجود اسرائيل على حدود دمشق . . لتؤخذ في الحسبان ، وبالعكس ، فقد شمل مفهوم التأميمات المؤسس على نظرية الصراع الطبقي ، كل مؤسسة وحانوت ودكان ! . . دون مراعاة لأوضاع الطبقات الكبرى والوسطى أو الصغرى ، **وقد روى لي أحد الرفاق القادة في الحزب يومها ، أن العديد من المؤسسات التي خضعت لحركة التأميم ، كانت عناوينها تؤخذ من دليل الهاتف ! . .**

على الصعيد الخارجي ، فإن فضيحة جعل الأسطول السادس الأمريكي ، طعماً للسمك في البحر ، (نور الدين الأتاسي) ، كانت تطبق الآفاق هزواً و (تنكيتاً) ، وقد كانت سوريا في حالة أشبه ما تكون بالقطيعة التامة مع الدول العربية باستثناء الجزائر البعيدة ، ولم تَسعَدْ سوريا بالطبع ، بأخبار الإنقلاب العراقي البعثي (المؤيد لعفلق) يوم ١٧ تموز ١٩٦٨ ، حيث اكتفت جريدة البعث الصادرة في دمشق بالتعليق تحت زاوية ميّتة (راديو بغداد يذيع نبأ انقلاب عسكري) دون أي تفصيل آخر .

ستجري مياه دافقة تحت الجسور في دجلة ، منذ أن سقطت طائرة الهليوكبتر ، التي تقل الرئيس عبد السلام عارف ، من بلدة القرنة العراقية إلى مدينة البصرة ، وسيؤتى بالأخ الأكبر عبد الرحمن عارف كرئيس بديل للجمهورية ، فيما دارت الرهانات حول شخصيّتين قويّتين : الزعيم العسكري ذو التأثير النافذ في أوساط الجيش عبد العزيز العقيلي . . أو الشخصية المدنية التي حظيت بشعبية عراقية وتأييد ناصري ، رئيس الوزارة عبد الرحمن البزاز في عهد الرئيس المتوفى آنذاك .

وقد آل اجتماع مشترك بين مجلس الدفاع الوطني (١٢ ضابط و ٨ وزراء بينهم ثلاثة من أصول عسكرية) ومجلس الوزراء ، آل إلى انتخاب عبد الرحمن عارف ، لظروف

غالباً ما اتسمت بالعاطفة الإنسانية ، بالنظر للحادث المؤسف الذي أدى إلى وفاة أخيه . .

كان عارف بالطبع مثل أخيه ، ينتمي إلى عائلة فقيرة تدعي النسب العربي الصريح ، فقد ولد في الكرخ ، لأب كان قد نزح إلى بغداد من منطقة الفرات الأوسط ، وهي غالباً ما كانت منطقة اضطراب وتمرّد ، إذ أن المنطقة مازالت الموطن الرئيسي لقبائل عربية موغلة في القدم ، وقد ظلت العائلة تفخر بعمّها الشيخ ضاري ، حتى بعد وصول الأخوين عارف إلى سدة الرئاسة ، وحكاية الشيخ ضاري ، هي أنه هاجم أحد كولونيلات الإنكليز (كولونيل ليتشمان) وأرداه قتيلاً ، وقد حُكم على الشيخ ضاري بالسجن المؤبد ، وبالفعل لم يخرج من السجن إلا بعد أن فارق الحياة . .

◆◆◆

سيوسّد أمر تشكيل الوزارة إلى الرجل القوي عبد الرحمن البزاز ، وسيذيع البزاز برنامجاً من اثنتي عشرة نقطة لحل المشكلة الكردية (الاعتراف بالقضية الكردية كقضية قومية ، إصدار قانون المحافظات على هذا الأساس ، الإعتراف باللغة الكردية إلى جانب العربية في الشمال ، تمثيل الأكراد في المجلس الوطني حسب نسبة السكان ، مشاركة الأكراد في المناصب الحكومية والقضائية والخارجية ، تخصيص منح دراسية للسكان الأكراد ، تعيين كبار الموظفين في الشمال من الأشقاء الأكراد ، إعطاء حق إصدار الصحف والمجلات باللغة الكردية أو العربية حسب مُقدّم الطلب ، إصدار عفو عام ، إعمار المناطق المهدمة في محافظات الشمال ، عودة الجميع ممن اضطروا للمغادرة أو الهجرة بسبب أحداث العنف . . . الخ) .

وبسبب من تواتر الأحداث ، من حيث أن الوضع برمته أصبح ضعيفاً ، فقد قدّم البزاز استقالته ، قبل أن يخرج مشروعه إلى النور ، وحل محلّه متشدد هو اللواء ناجي طالب . . وفي هذه الفترة ، سيتّهم القوميون العرب الأكراد بصلات خارجية مشبوهة ، كما سيرد الأكراد بجميع دعاوى التعصب والشوفينية التي تنطوي عليها سياسات القوميين والبعثيين . .

وفي هذه الأجواء المشحونة ، دخل قائد الطيران السابق عارف عبد الرزاق إلى منطقة الموصل خلسة (أوائل حزيران ١٩٦٦) قادماً من القاهرة ، وخطط لانقلاب عسكري جديد ، يقوده الطيران بمساعدة الفرقة الرابعة (في الموصل) تحت قيادة الزعيم يونس عطار باشي . . وبإخفاق الهجوم واستسلام الطيارين (خمسة) وتراجع قائد الفرقة الرابعة ، اقتيد المتآمرون إلى السجن . .

وقد أصدر عبد الرحمن عارف مرسوماً يقضي بالعفو عن المعتقلين في حادثة عارف عبد الرزاق ، كما أن عارفاً نفسه ، أُطلق سراحه بعد عام واحد من الحادثة . .

لم يكن للشعب رأي في الصراع القائم بين العسكريين ، ولو أن هناك آراء كانت تقول ، بابتعاد عبد الرحمن عارف عن السياسات العربية ، وميله لأخذ العراق إلى صور من التفاهم مع الجوار الأقرب ، تركيا وإيران . .

لقد استقر الوضع السياسي في العراق ، بعد جملة من الإهتزازات الداخلية والخارجية (هزيمة حزيران ، وهرب الطيار منير روفا بطائرته إلى اسرائيل) ، على حقائق أهمها : -

- المجموعات الوحدوية الناصرية القائلة بالوحدة الفورية ويمثلها عارف عبد الرزاق ، عبد الهادي الراوي وعبد الستار عبد اللطيف ، ويؤيدهم ضباط قدامى مثل صبحي عبد الحميد وعبد الكريم فرحان .
- الضباط البعثيون الذين عارضوا زعامة عبد الناصر للوحدة العربية مع الإخلاص لمبدأ الوحدة المتكافئ ، وقد تزعم هذه المجموعة ، أحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وحردان التكريتي .
- مجموعة معتدلة يتزعمها ناجي طالب ، وهي تدعو لوحدة تدريجية مرحلية ، تقوم على أساس المساواة بين الأطراف ، وقد أيد هذا الخط الضابط القديم رجب عبد المجيد ثم انضم إليه لاحقاً صبحي عبد الحميد وغيره . .

على الطرف الآخر ، فقد مثل الزعيم عبد العزيز العقيلي يسانده رشيد مصلح واسماعيل مصطفى ، دعوة لدور عراقي مستقل ، وقد أعربت هذه المجموعة عن رغبتها بإقامة حكومة تمثل الشعب ، مع اعتماد التعددية وإعادة النظام الحزبي للبلاد . .

مع حكومة ناجي طالب ، ستثور مشكلة إعادة تقدير الأرباح لشركة النفط العراقية ، والتي تقدمت بها الحكومة السورية (يوسف زعين وابراهيم ماخوس)* مما سيؤدي إلى البلبلة والتصدع ، فقد وافق رئيس الحكومة العراقية (طالب) على الطلبات السورية المشروعة ، إلا أن الجماعات السياسية الأخرى في الوزارة ، وجدت في موقف رئيس

---

* كان الطلب الذي تقدمت به الحكومة السورية للحكومة العراقية ، يرمي إلى إعادة تقدير أرباح شركة النفط ، حيث أحس السوريون بالغبن في نسب توزيع العوائد ، وقد حذر العراق من أن المطالب السورية ستضعه في حالة خسارة جسيمة بالنسبة لدخله القومي ، مما ثارت معه ثائرة أعضاء الوزارة ضد رئيسها ناجي طالب .

الحكومة ، ما يدعو للإستغراب والخسارة في الدخل القومي ، وقد تحلى رئيس الوزارة في هذه القضية بالصبر ، وأدى هدوءه إلى الإمساك بزمام المشكلة ، فقد سعى لتهدئة المتحمسين ضد المطالب السورية في العراق ، كما سعى إلى موقف وسط مع المطالب السورية (كان السوريون يطالبون باعادة التقدير لسنوات طويلة ماضية) ، وفي النهاية استقرت المباحثات على رفع عائدات المصب والترانزيت في الأراضي السورية بنسبة خمسين بالمئة ، وأن الحسابات ستجري ما بين العامين ١٩٥٦ و ١٩٦٥ .

مع تسوية الأمور ، فقد بدا أن مشكلة السوريين حُلّت على حساب العراق وليس على حساب آخر ، وأمام ضغط المعارضة الوزارية ، اضطرت حكومة ناجي طالب إلى تقديم استقالتها بعد مضي شهرين من حل الأزمة .

سيعود عبد الرحمن عارف رئيس الجمهورية ، إلى سياسة الجمع بين رئاسة الجمهورية ورئاسة الحكومة ، وقد وازن عارف بين نوابه لرئاسة الوزارة بحيث اختار (طاهر يحي - سني - ويتمتع بتأييد الفئات المعتدلة ، وعبد الغني الراوي - سني - ويتمتع بتأييد الوطنيين المعتدلين ، واسماعيل مصطفى - شيعي - ويتمتع باحترام الضباط الوطنيين ، وفؤاد عارف - كردي - وهو يحظى بثقة الملا مصطفى البرازاني . . .) .

ثم داهمت أحداث حزيران ، وزارة عارف الجديدة ، وهو الذي لم تهدأ حروب العراق الداخلية (الأكراد) في عهده يوماً واحداً ، فلم يكن أمامه الكثير ليفعله في الحرب الإسرائيلية المباغتة ، وفي ١٩ تموز من العام ١٩٦٧ ، انسحب عارف من منصب رئيس الوزارة مكتفياً برئاسة الدولة ، وقد كلف طاهر يحيى بتشكيل وزارة جديدة ، تضم سبعة وزراء فقط ، وقد دخلوا إلى الوزارة مع الأزمة بآن واحد . وبسبب من تدهور الأوضاع الداخلية ، فقد رفع زعماء المعارضة ، التماسات لرئيس الجمهورية تدعو للمطالبة بالإصلاح ، كما طالبت إحدى العرائض المقدمة بتاريخ ١٦ نيسان ١٩٦٨ بما يلي :-

- تعيين مجلس وطني من ثلاثين عضواً يخول حق إصدار القوانين ريثما يتم انتخاب مجلس الأمة .
- استبدال الوزارة الحالية بوزارة إئتلاف وطني واسع ، مهمتها :-

آ - تسوية المشكلة الكردية .

ب - دعوة القيادة العسكرية المشتركة للإجتماع ، (جميع الدول المجاورة لإسرائيل) .

جـ - إجراء انتخابات عامة في غضون سنتين .

د - متابعة الطابع التقدمي والوطني لنظام الحكم في العراق .

- تحسين الأوضاع المعيشية للمواطنين .

- تحقيق حرية المواطن وضمان أمنه الداخلي واحترام القانون .

وتقترب مطالب العريضة هذه ، من صيغة إملاء شروط ، خاصة عندما يُفهم بأن موقعي العريضة ، هم : أحمد حسن البكر ، ناجي طالب ، عارف عبد الرزاق ، وعبد العزيز العقيلي . . . الخ ، أي كافة الإتجاهات البعثية والقومية والوحدوية والوطنية في العراق .

ولم تتمكن حكومة طاهر يحيى ، ومن ورائها رئيس الجمهورية ، من الصمود ، فقد أدى التحالف الواسع للمعارضة عسكرياً ومدنياً ، كضباط وأحزاب واتجاهات ، إلى شل الحكومة ، وقد ازدادت الأمور تعقيداً ، حين حاول طاهر يحيى ، استرضاء الزعامة الكردية بتعيين وزيرين كرديين يقترحهما الملا مصطفى ، فدارت الأقاويل حول موضوع الحكم الذاتي المستقل للأكراد ، وهكذا وجدت حركة ١٧ تموز ١٩٦٨ بزعامة أحمد حسن البكر ، طريقها إلى القصر ، دون دماء ، وذلك لأول مرة في تاريخ العراق الجمهوري الحديث ! . .

على ضفة القناة ، وما أن حلّ شهر تموز (شهر بعد الكارثة) ، حتى كانت المدفعية المصرية ، تدك نقاط المراقبة الإسرائيلية من شمال القناة حتى جنوبها ، وبهدف تخفيف الضغط على القوات البرية الإسرائيلية ، شنت الطائرات الإسرائيلية هجوماً ضد مرابض المدفعية والدبابات المصرية في مواجهة القنطرة ورأس العش ، ورغم فعّالية الإغارات ، إلا أن المدفعية المصرية عاودت توجيه قذائفها بعد يوم واحد من القصف الجوي . . وبين تموز وتشرين الأول من العام ١٩٦٧ ، شهدت مياه القناة تبادلاً مستمراً لإطلاق نيران المدفعية والدبابات ، كما شهدت إغراق زورق اسرائيلي ، أراد أن يمتحن نفسه في عبور القناة . وهكذا وجد الإسرائيليون أنفسهم في معركة بعيدة عن خطوط الإمداد ، كما وجدوا أنفسهم وقد انكشفوا تحت سماء الصحراء ، فكان لا بد من إقامة تحصينات مسلحة . وهو ما سيعرف بخط بارليف (٣٠ قاعدة اسمنتية تتسع كل واحدة لعشرين جندياً بكامل مهماتهم وعتادهم وأسلحتهم ، بفاصل ٣ كم بين القاعدة والأخرى . .) وهذا الخط سيمتد على طول القناة وحتى السويس .

في الحادي والعشرين من شهر تشرين الأول ١٩٦٧ ، أبحرت المدمرة إيلات من مكمنها جنوب يافا ، لأعمال الدورية قبالة ساحل سيناء ، وما أن وصلت زهاء ١٢ ميل بحري مقابل ميناء بور سعيد ، حتى انطلقت زوارق الطوربيد المصرية من نوع (أوزا - سوفييتية) ، ووجهت لإيلات ثلاثة صواريخ مدمرة ، واستغاثت المدمرة إيلات دون جدوى ، فقد كانت الإصابات مباشرة ، بحيث أن استغاثتها لم تدم أكثر من دقائق معدودة ، وغرقت إيلات بعد مقتل ٤٧ بحاراً وجرح ٩١ آخرين (من مجموع ٢٠٠ بحار على ظهرها) ، وانتقم الإسرائيليون بقصف مصافي السويس والمدنيين على حد سواء . .

كان الجيش المصري قد بدأ يسترد أنفاسه بعد أشهر قليلة من الهزيمة ، وقد غذّت القيادة العسكرية الجديدة بعد المشير ، كل آيات الإنضباط الصارمة ، مع استرداد المعنويات ، والإنكباب على التمرينات المُعمَّدة بالنار بصورة متلاحقة ، وقد أدت فعّالية الخبراء السوفييت ، مع تعويضات الأسلحة الهائلة في هذه المرحلة ، إلى تأسيس مرحلة الردع ، بعد الصمود ، **مع صياغة خطط للعبور في المستقبل إذا لم تفلح المساعي الدبلوماسية لإزالة آثار العدوان .**

مع استهلال السنة الجديدة (آذار ١٩٦٨) ، تلقت منظمة فتح الفلسطينية ، رسالة غريبة من رئيس المكتب الثاني الأردني غازي عربيات (الاستخبارات العسكرية) ، يلتمس فيها إجراء محادثة هامة مع قادة فتح . . وترددت فتح في الإجابة ، إلا أنها بناء على رغبة عرفات وافقت على الإجتماع مع رجل الأمن الأول في المملكة .

كانت فتح منذ العام ١٩٦٥ وحتى عشية الحرب في حزيران ، قد قامت بما يقارب من مئتي عملية على طول الحدود العربية - الاسرائيلية ، ويقول صلاح خلف (أبو إياد) في كتابه (فلسطيني بلا هوية ص ٨٩) أنه (بالرغم من أن هذه العمليات كانت في نطاق متواضع ، بحيث أنها لم تعرّض أمن الدولة العبرية للخطر ، إلا أنها ساهمت في إقلاق الكيان الإسرائيلي بحيث أجبرته على السهر مع تعطيل طفيف لآلية انتاجه ، ويا لسخرية القدرِ ، حين راحت اسرائيل تتهم الدول العربية بتشجيع ودعم الحركة الفدائية . التي لم يحنُ عليها سوى سوريا في تلك المرحلة)* .

---

* يقول أبو إياد في صفحات أخرى من كتابه ، أنه كان يلزم هزيمة مثل هزيمة حزيران . كي يسمعنا وزير الدفاع المصري شمس بدران ، الذي كان معنا في منتهى الفظاظة والعجرفة . كما أن صلاح نصر حاول اغواء فاروق القدومي بالعمل لحساب المخابرات المصرية عن طريق المال وأجمل بنات القاهرة ، كما يروي واقعة السجن المريرة في سوريا ، (أما الصحافة الأردنية . فكانت تتهمنا بأننا عملاء للسي آي إيه ، أي المخابرات المركزية الأمريكية !. .

والخلاصة أن عرفات وأبو إياد اجتمعا مع رئيس الأمن الأردني السيد عربيات يوم ١٠ آذار في أحد منازل قرية الكرامة ، وقد أفصح عربيات عن معلومات مصدرها المخابرات المركزية الأمريكية تشير إلى اقتراب موعد هجوم اسرائيلي كبير على طول الحدود الأردنية يهدف إلى تحطيم قواعد المقاومة على الحدود ، وقد نَصَح عربيات بضرورة اللقاء العاجل مع رئيس الأركان الأردنية اللواء عامر خماش ، وبالفعل فقد حدث اللقاء يوم ١٨ آذار ، أي بعد اسبوع من اللقاء بالسيد عربيات ، وبعد النصائح العسكرية المُحقّة ، بعدم المجابهة مع جيش نظامي ، قال خماش : عليكم أن تقوا أنفسكم بأسرع ما يمكن . . غير أن اعتبارات سياسية دفعت فتح لمخالفة النصائح ، فقد قال عرفات : **ما رأيكم سيدي ، لو أخلينا الساحة مرة أخرى أمام الإسرائيليين ، ألا يكفي ما حدث في حزيران ، أليس علينا نحن على الأقل كفدائيين أن نعطي الأمثولة مرة واحدة ، وأن نبرهن أن في العرب عرقاً ينبض ، ثم ختم أبو إياد الكلام قائلاً : علينا أن نسعى لتقويض اسطورة الجيش الذي لا يقهر حتى لو أدى ذلك إلى افنائنا جميعاً . . والتفت أبو عمار إلى خماش وهو يودعه :-**

- أتدري ، في هذا المسدس تسع طلقات ، وقد ادخرت الأخيرة لنفسي . . ثم خرج . .

بعد تحذير اللواء الخماش بثلاثة أيام فقط (٢١ آذار) ، شنّ الإسرائيليون هجومهم الموعود ﴾ بالفعل ، وبدأت المدفعية البعيدة بالرمايات التمهيدية تساندها طائرات سلاح الجو ، فيما أرتال الدبابات تعبر جسري دامية والملك حسين ، والطائرات المروحية تلقي بالمظليين خلف خطوط المقاومة والجيش الأردني ، وقد تبيّن أن الهجوم الإسرائيلي كان بعرض ٨٠ كيلومترا ، غير أن وجهته الرئيسية كانت نحو الكرامة ، وكان في المنطقة حوالي ٣٠٠ فدائي ، وقد أصدر اللواء مشهور حديثة قائد الفرقة الأردنية الأولى في المنطقة ، أوامره النهائية بفتح النار ، وقد طلب إلى قادة ألويته ألا يسمحوا بمرور الإسرائيليين إلا على أجسادهم (وأقسم الجميع على القرآن بألاّ إنسحاب) ، وما هي إلا دقائق ، حتى تحولت المنطقة إلى جحيم ، وهبط الفدائيون من التلال ليخوضوا معركة مجابهة وبالسلاح الأبيض أحياناً ، وتعرض عرفات وصلاح خلف للموت مرتين ، وتواصلت المعارك حتى مغيب الشمس ، وبعدها شرعت الشؤون الخلفية الاسرائيلية بتجميع موتاها وجرحاها مقدمة للإنسحاب ، ومع الإنسحاب دمّروا ثلاثة أرباع قرية الكرامة ، لكن الهدف الرئيسي من الهجوم لم يتحقق ، فقد ظل الفدائيون بمؤازرة حقيقية من الجيش الأردني ، يقاتلون حتى النهاية ، وكانت النهاية هي انسحاب الجيش الإسرائيلي وليس بقاءه ، وكانت الكرامة محط أساطير ينشرها الشعب المُخيّب من حزيران ونتائجها ! . .

لقد هرع الملك حسين نفسه ، يصحبه كبار الشخصيات الملكية ، العسكرية والمدنية . وقد اعتلى الملك برج دبابة أردنية ، وأخذ يلوح بالعلم العربي للجماهير المحتشدة التي أمّتْ الكرامة من كل مكان ، وبعد أيام كانت المعدات الإسرائيلية المدمرة والتي تركت في أرض المعركة ، تعرض في مسيرة عسكرية داخل شوارع عمّان ، ثم جاء الدور السياسي على المقاومة ، فقد بدأ يحيى حمودة ، خليفة أحمد الشقيري ، استعداده لعقد دورة للمجلس الوطني الفلسطيني ، فأجرى اتصالات لتوزيع مقاعد المجلس خاصة مع حركة فتح ، حيث أصبح الفدائيون يمثلون عنصراً رئيسياً في المجلس . .

وخلال شهر تموز ١٩٦٨ عقد المجلس الوطني الفلسطيني اجتماعه في القاهرة . وتميز بطابع مختلف عن المجالس السابقة ، فقد اختفى معظم الزعماء الذين تواجدوا في عهد الشقيري ، وفي المقابل أصبحت المنظمات الفدائية هي الكتلة الرئيسية في المجلس ، وعندما اتضح أن سيطرة فتح على المجلس باتت مؤكدة ، عمد الجميع إلى اعتبار منظمة التحرير بمثابة الإطار الأعلى الذي يضم كافة المنظمات الفلسطينية ، خاصة وأن المنظمة حظيت باعتراف عربي ودولي نسبياً ، وفي الدورة المنعقدة في شهر شباط ١٩٦٩ في القاهرة ، تم انتخاب عرفات رئيساً للجنة التنفيذية وهي القيادة العليا لمنظمة التحرير الفلسطينية .

ويقول آشر سسر ، الكاتب اليهودي في كراسه : الخط الأخضر بين الأردن وفلسطين (سيرة وصفي التل السياسية) - دار الأزمنة للنشر - ترجمة جودت السعد ص ١١٥ ما يلي : -

(منذ الكرامة ، فقد أدرك الملك حسين ، الخطر الكامن في استمرار العمل الفدائي لكنه فضّل التساهل على أمل ايجاد فرصة مناسبة للتوصل إلى تسوية مع الفدائيين ، فقد تلقى تهديدات اسرائيلية متكررة ، ونصائح عربية لا تقل خطورة ، ومع ذلك فقد آثر الروية ، لأسباب أقلها أن أكثر من نصف شعبه هو من الفلسطينيين أيضاً) .

وفي هذا الوقت الذي يشير إليه الكاتب اليهودي إلى (تهديدات اسرائيلية ونصائح عربية) كان الملك فيصل صاحب الرسالة الشهيرة إلى الرئيس الأمريكي جونسون قبل حزيران الكارثة ، يبعث برسالة تاريخية ! . . أخرى إلى الملك حسين ، وقد جاءت الرسالة بتاريخ ٣ كانون الثاني ١٩٦٩ وتحمل رقم الوثيقة ٤١٢ من مجلس الوزراء السعودي على النحو التالي : -

صاحب الجلالة الملك حسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية ، حفظه الله .

يا صاحب الجلالة .

سبق لي أن تحدثت لجلالتكم - كشقيق يسرّه ما يسركم ويضرّه ما يضركم - عن الحالة التي وصل إليها الأردن الشقيق ، بوجود ما يسمى (بالمقاومة الفلسطينية) ، وأفصحت لجلالتكم عن يقيني القاطع أن هذه (المقاومة)* سوف تستغل ضدكم وتتحول من اسمها الظاهري (مقاومة فلسطينية) إلى (مقاومة) ضدكم وضد شعبكم إنْ أنتم تهاونتم بترك حبالها على الغوارب . والآن . . وبعد أن اتضح لجلالتكم أمرها جلياً ، فإنه لا يسعني إلا أن أكرر نصحي للاستفادة من هذا الوقت السانح لجلالتكم بمبادرة القضاء المبرم على هذه (المقاومة) . فبادروا أيها الأخ العظيم قبل أن يحدث ما نتوقعه بين يوم وآخر ، وما نخشى عقباه باستبدال حكمكم لا قدر الله ، بحكم هذه (المقاومة الفلسطينية) ، ومن ثمّ يأتي دورنا نحن ، حين يتحول الأردن من دولة شقيقة إلى وبال ثورة علينا ، فننشغل بمحاربة ثورتين شيوعيتين ، واحدة في جنوب مملكتنا والأخرى في شمالها ، حيث يصبح الأردن الشقيق كالجنوب المسمى باليمن الديمقراطي ، والذي لم نزل نتعاون وإياكم في مكافحة مَنْ أفسدوه .

فإنْ لم يصبح الأردن دولة شيوعية بانتصار (المقاومة) لا سمح الله ، فإنه سيصبح بالتأكيد ولا محالة دولة ناصرية أو بعثية أو قومية ! . . **وكل هذه التسميات وإن اختلفت مجاريها ، فإنها تصب في قعر بؤرة واحدة ، هي بؤرة الهدم ضدّنا ، وضد أصدقائنا الأمريكان والإنكليز وأنصار النظام الغربي .**

لذلك ، فإنني أعرض مجدداً على جلالتكم - كشقيق لكم - رأينا النهائي ورغبتنا الملحّة ، بالقضاء على كل هذه الزمر المفسدة المجتمعة في الأردن باسم (مقاومة اسرائيل) ، **بينما - يشهد الله - أن شرّ اسرائيل لا وجود له ، أمام شرور تلك الزمر المفسدة .**

وبهذه الرسالة ، ما أردنا إلا تكرار عرض خدماتنا لجلالتكم بتحمل كافة المصروفات ، **وما ستتكلفونه من مال وسلاح وذخيرة في سبيل مقاومة (المقاومة) .**

وإلا ، فإنني وأسرتي الصديقة التي ترى في هذا الرأي ، وتقرّه كما تعلمون ، **سننضم جميعاً ضدكم ، لنشكل الطرف الآخر لمقاومتكم ومقاومة هذه (المقاومة) غير الشريفة . .**

---

* جميع الأقواس هنا ، من وضع الملك فيصل نفسه ، وبالطبع فهو يقصد التخفيض من قيمة الكلمة ، فهو سيعتبر المقاومة أنها ضد العرب ، وأنها شيوعية ، كما نرى من الاسترسال في قراءة هذه الرسالة المتزامنة مع النكبة الكبرى ! . .

لأننا بذلك لا ندافع عن كيانكم فقط ، بل عن كياننا أيضاً .

وبانتظار الرد من جلالتكم ، أدعو الله أن يحميكم من كل مكروه وأن يأخذ بيدنا لاحباط كل ما يحيط بنا من أخطار المفسدين الملحدين .

١٤ شوال ١٣٨٨ هـ
الموافق ٣ يناير ١٩٦٩ م.

أخوكم المخلص .
فيصل بن عبد العزيز آل سعود
ملك المملكة العربية السعودية

مع رسالة الملك فيصل ، كان رئيس الأركان الإسرائيلي الجديد حاييم بارليف يقيم تحصيناته على الخط الذي أخذ اسمه (في شباط ١٩٦٩) ، وكان خلف التحصينات الإسمنتية المسلحة (بكلفة ٤ مليار دولار) ، يتحشد خط الدفاع الأول المكون من (أوغدا مدرعة) ، كما أن خطاً ثانياً وراء سواتر من الأكياس الترابية كانت تصطف دبابات النسق الثاني ، أما النسق الثالث عند الممرات ومحاور الطرق الرئيسية ، فكان يتألف من وحدات مشتركة من الدبابات والمدفعية والصواريخ ، إضافة إلى مقرات القيادة تحت الأرض ، مع كل ما يلزم من وقود ومياه وكهرباء وورشات صيانة ومستودعات . .

ثم بدأت حرب الاستنزاف في الثامن من آذار ١٩٦٩ ، وقد بوشر الجهد برمايات مدفعية مصرية كثيفة ، وأعلن الرئيس عبد الناصر بدء حرب الاستنزاف في هذا اليوم رسمياً ، وكان عبد الناصر قد مرحَل العمليات وفق الآتي :-

- الفترة ما بين حزيران ٩٦٧ وآب ١٩٦٨ وأطلق عليها اسم مرحلة التحدي .
- الفترة ما بين أيلول ٩٦٨ وشباط ١٩٦٩ وأطلق عليها اسم مرحلة الردع أو الدفاع النشيط .
- الفترة ما بين آذار ١٩٦٩ وحتى توقيت العبور وأُطلق عليها مرحلة الاستنزاف .

كان عبد الناصر يرمي مع ضباط أركانه الجدد إلى :-

- تدمير خط بارليف (لم يستطع منذ البداية تحطيمه لعدم وصول السلاح السوفييتي بعد) ، أي تدمير كافة التحصينات على طول القناة .
- منع الاسرائيليين من إعادة بنائها بعد تدميرها .
- جعل الحياة مستحيلة للقوات الاسرائيلية على الضفة الشرقية لقناة السويس .
- زرع الروح الهجومية في قلوب الضباط والجنود .
- البدء بتنفيذ عمليات كوماندوس للعبور .

لقد دامت مرحلة الاستنزاف زهاء ثلاثة أشهر ، ومنذ اليوم الأول من بدء إطلاقها ، استشهد مهندسها الأول الفريق عبد المنعم رياض (٩ آذار ١٩٦٩) رئيس الأركان العامة. وهو يشرف بنفسه على إدارة القصف من موقع عسكري على مقربة من الإسماعيلية ، لم يفتّ استشهاد رئيس الأركان من عزيمة القوات المصرية ، بل بالعكس ، **فقد كان يوم استشهاده هو يوم زمجرة المدافع المصرية ، حيث لاذت المدفعية الاسرائيلية بالصمت ، واختبأ الجنود الاسرائيليون تحت الأرض في الأوكار ، ولم ينشط في ذلك اليوم إلا الطيران الإسرائيلي ، الذي ظن لأول وهلة ، بأن كثافة القصف المصري إنما يرمي لشن هجوم مفاجئ ، ولم تكن اسرائيل تعلم بأن جنون القصف ، كان لإذكاء روح سيد الشهداء على الجبهة المصرية . . .**

لقد حل الفريق أحمد اسماعيل ، محل القائد الشهيد في منصب رئاسة الأركان العامة ، وكانت مصر تعمّد شرفها بالدم ، بعد أن فرّط بالأمانة قادة الجيش في مصر من قبل . .

وعلى الفور ، فقد أطلق القائد الجديد (اسماعيل) وحدة مغاوير مصرية تقدر بحوالي سرية (مئة ضابط وجندي) ، باتجاه الضفة الشرقية في مواجهة بور توفيق نهاراً جهاراً ، وقد تمكنت الوحدة من تدمير تشكيل اسرائيلي مدرع (إذ لم تفلت دبابة من التدمير إلا بعد أن زج رئيس الأركان الإسرائيلي طيرانه في المعركة ، ومع ذلك فقد عادت وحدة الكوماندوس المصرية بأقل الشهداء التي يمكن أن تشهدها معركة هجومية - الحروب العربية الإسرائيلية . تريفور دوبوي . مركز الدراسات العسكرية بدمشق - ص ٤٧٩).

وفي أيلول من العام ١٩٦٩ ، قام الطيران المصري بتوجيه أول ضربة جوية واسعة على المواقع الإسرائيلية في سيناء ، وبالرغم من خسارة تسع طائرات ، فإن القوات الجوية المصرية استردت عافيتها ومعنوياتها بعد الضربة الأليمة في حزيران . .

لم تكن القذائف المتبادلة عبر القناة ، مع الإغارات التكتيكية والمنازلات الجوية ، تشير إلى تحول في الموقف العسكري ، (رغم أن الأداء أفضل بما لا يقارن من أداء حزيران) ، ومع ذلك فقد تمكن التفوق الغربي لدى اسرائيل ، من تدمير صواريخ وأجهزة رادارات ، وكانت الصدمة في تفكيك أحد الرادارات العملاقة (٧ طن) من جزيرة شدوان المصرية ، ونقله كما هو ، إلى اسرائيل ومن ثمّ إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد بات تركيز القصف الجوي الاسرائيلي مقلقاً ، بل لعل اسرائيل أرادته عنيفاً لاقناع القيادة المصرية بعدم جدوى التخطيط لعبور القناة ، وردت مصر ببناء سلسلة من قواعد الصواريخ على طول

القناة ، ومرة أخرى كان رد اسرائيل نقل المعركة إلى العمق المصري ، حيث طال الطيران الإسرائيلي أهدافاً إقتصادية حيوية (مثل جسر نجع حمادي وهو خزان مائي) ، وكان القصد إغراق المناطق الزراعية تحته . . ثم ضرَبَ الطيران منشآت في طره ، وعاد لقصف معامل الحديد في أبو زعبل ، حيث أدى ذلك إلى مقتل ٧٠ عاملاً مدنياً ، ولم توفر الطائرات الاسرائيلية مدرسة بحر البقر الابتدائية ، حيث قُتل جراء الغارة ثلاثون طفلاً من تلاميذ المدرسة ، وقد انطرحت أمام القيادة المصرية مشكلتان :

- كيف يمكن صد الغارات في العمق المصري ؟
- كيف يمكن التعرض للطيران المنخفض قبل مدة مناسبة ؟ .

وسافر عبد الناصر إلى موسكو في الثاني والعشرين من كانون الثاني من مطلع العام ١٩٧٠ ، وعلى الفور ودون استراحة ، دار نقاش مع القيادة السوڤيتية المدنية والعسكرية ، ثم بدأ عبد الناصر يشرح أسبابه التي دعته لزيارة موسكو في هذا الوقت :-

بدأ عبد الناصر بشرح رهانه على الجبهة الدبلوماسية ، التي تُركت للأربعة الكبار دون جدوى . . ثم تعرض إلى وساطة جونار يارنج التي أفشلتها اسرائيل . .

وقال : لقد اشتعلت الجبهة الحربية من جديد ، نتيجة للجمود واليأس من حل سياسي ، وأصبح الموقف المتصاعد يهدد بالإنفجار . .

أما على الصعيد العسكري ، فقد ترك عبد الناصر ، الحديث لكبير الخبراء السوڤييت في مصر ، ليشرح حقائق الموقف . .

كان حديث كبير الخبراء ، يقترب من مسألة حساسة ، إذ نوّه إلى ضرورة تزويد مصر بأسلحة أكثر حداثة لحل مشكلتين :-

- الدفاع الفعال عن العمق المصري .
- أجهزة لكشف الطيران المنخفض .

وتناول عبد الناصر المسألة دون تفويت للوقت ، فقد طالب بأحدث الصواريخ السوڤيتية آنذاك (سام ٣) ، ولما فهم أن التدريب عليها ، قد يحتاج إلى أشهر ، طالب بأطقم سوڤيتية للعمل عليها ، ريثما يتم تدريب الدفاعات الجوية المصرية ، وهمس غريشكو جنرال الإتحاد السوڤييتي في اذن بريجينيف بكلام ما ، ما لبث أن توضح بتوجيه سؤال من قبل بريجينيف لعبد الناصر :-

- لكن القواعد المطلوبة بحاجة إلى حماية جوية من قبل الطيران نفسه ، مع الطيارين المتدربين عليه من قبل .

ووافق عبد الناصر على القواعد وأطقمها ، والطائرات السوڤيتية الحامية لها ، وكان قرار السوڤييت بالموافقة ، يعتبر بمثابة نقل للمعركة من أجوائها التصادمية المحلية إلى أجواء عالمية . .

وبعد شهر واحد من زيارة عبد الناصر لموسكو ، كانت قواعد صواريخ سام ٣ والطائرات المعدلة من نوع ميج ٢١ - ج ، تستقر وفق خطة دفاعية ، في المواضع المقررة لها . .

سيعلق آبا إيبان على هذه المرحلة ، وسيفرح العرب للتعليق بأنها مرحلة تساقط الطيران الإسرائيلي السريع ، وفي مهمة له في واشنطن ، راح على طريقة المتسول الإسرائيلي الشاطر ، يصف الوضع بالنسبة لسلاح الطيران الإسرائيلي ، بأنه وضع مأساوي ومتآكل ! . . وكانت طريقة يهودية تاريخية في نشر الرعب قبل أوانه ، تمهيداً لملء شبكة الإبتزاز بالصيد الوفير . .

كانت معارك القناة على أشدها ، رغم جنوح اسرائيل لضرب كل شيء في مصر ابتداء من الجنوب وحتى الشواطئ الساحلية ، إلا أنه لوحظ بالفعل ، امتناع الطيران الإسرائيلي عن المغامرات غير المحسوبة ، لظهور أسلحة فتاكة (سام ٣) في سماء المعركة ، وقد توقف الطيران الإسرائيلي عن الإغارات في مرحلة لاحقة . .

كان عبد الناصر وقتها قد حطّ ثانية في مطار موسكو سراً (١ تموز ١٩٧٠) ، وراح يشرح أسبابه للزيارة : (لقد خطر لي ، أنه من الضروري أن نتفق معاً الآن على تحليل مشترك للموقف ، فإذا ما توصلنا لذلك ، فإنه يسهل علينا اتخاذ الخطوات العملية اللازمة لمواجهته) .

وراح عبد الناصر ، ينتقل في تسلسل للوقائع والأحداث ، من نقطة لأخرى ، حيث ابتدأ بتقليب الاحتمالات بعد الثورة الليبية ، وباستعراض التصريحات النارية لقيادة جولدا مائير الجديدة ، كما استشهد بمقابلات صحفية لكبار المسؤولين الإسرائيليين في حكومة مائير ، وقرأ تصريحاً لإيبان يقول فيه : -

(لأول مرة سواء في عهد القياصرة أو النظام الشيوعي ، يصل الروس إلى البحر الأبيض المتوسط ، فإذا ما فُتحت قناة السويس أمامهم ، فإنهم لا بد أن يصلوا إلى البحر

الأحمر والمحيط الهندي) ، واستخلص عبد الناصر ، أن هزيمة أخرى تلحق بالعرب ، سيكون من شأنها إخراج السوڤييت من المنطقة بأسرها .

وانتقل عبد الناصر إلى المعلومات التي وصلته عن نصوص مبادرة أمريكية جديدة (يعرضها علينا السيد روجرز وزير الخارجية الأمريكية) ، (وأنا أشعر أن بوسعي قبولها) لما يلي :-

- لقد أدت زيارتي الأخيرة لكم في كانون الثاني بداية العام ، إلى تبديل في ميزان القوة نسبياً ، وهناك أخبار وصلتني اليوم ، تقول باسقاط أربع طائرات اسرائيلية في معركة جوية واحدة .

نظر غريتشكو إلى بريجينيف وهمس في أذنه ، فما كان من بريجينيف إلا أن صحح :-

- سيادة الرئيس ، يقول خبراؤنا لديكم ، أن عدد الطائرات الإسرائيلية المسقطة اليوم هي تسع وليس أربع طائرات .

أجاب عبد الناصر مبتسماً : أخبار طيّبة إن شاء الله .

وتنحنح بريجنيف مشيراً لإفساح المجال بمتابعة الحديث :-

- نعم سيادة الرئيس ، نحن هنا لنسمع منك . قال بريجنيف .

وتابع عبد الناصر : -

- إذن السبب الأول لموافقتي على مبادرة روجرز ، يكمن في تحول نسبي في المقابلة العسكرية الدائرة على جبهات القتال .
- السبب الثاني هو أننا لا نريد للأمور أن تفلت من السيطرة ، فبوجودكم معنا بسلاحكم ورجالكم ، يمكن أن نتسبب في مواجهة صريحة بينكم وبين الأمريكيين وهذا ما لا نريده . .
- إن مبادرة روجرز تنص على وقف إطلاق النار لمدة ثلاثة أشهر ، وهي فرصة مواتية لاعادة التحشد والتركيز ببناء حائط الصواريخ والتقاط الأنفاس .

وتدخل بريجنيف هنا فقال : - صديقنا ناصر ، هل تقبل مبادرة روجرز وهي تحمل علماً أمريكياً ؟ . ثم تحدث عن ضرورة مبادرة مشتركة سوڤيتية - أمريكية . .

ورد عبد الناصر : نعم ، إنني أقبلها لأنها تحمل علماً أمريكياً ، فهي المرة الأولى التي

تتحرك فيها أمريكا بجدية تحت وطأة أوضاع متغيرة على الجبهة ، وهي المرة الأولى التي تشير فيها وثيقة أمريكية للإنسحاب بصورة صريحة . .

وبدا أن القيادة السوفيتية ، غير راغبة في صدّ ما رآه عبد الناصر مفيداً في هذه المرحلة ، ثم عادت للقيادة طمأنيتها ، حين أخبر عبد الناصر السوفييت ، بأن طائرات الفانتوم والسكاي هوك ، المسقطة فوق الأراضي المصرية ، ستنقل إلى موسكو مباشرة ، لإجراء الفحوصات اللازمة عليها . . ثم طالب عبد الناصر بأسلحة جديدة (تكون في النهار الكترونية ، وتعمل في الليل على الأشعة تحت الحمراء) ، وفهم السوفييت أن خيار الحرب ، هو الماثل في تفكير عبد الناصر ، وأن لعبة روجرز ، لم تكن أكثر من محاولة لربح الوقت * .

◆◆◆

على ضفاف نهر بردى الضحلة في هذا الوقت من السنة (شباط ١٩٧٠) ، كانت دمشق تتناقل في (خابية بلال - مؤذن الرسول) أحاديث تتصل بانتحار أو مصرع رئيس مكتب الأمن القومي ، العقيد عبد الكريم الجندي ، ولم يكن هذا الشهر هو الأفضل في سوريا ، فحادثة الجندي بدت صغيرة أمام مجريات الأحداث الكبرى ، فقد حلت جولدا مائير الصلبة ، محل أشكول بوفاته ، كما ختم رابين السفير الإسرائيلي الجديد في واشنطن، على أفضل العلاقات الوثيقة بين تل أبيب وواشنطن ، وبعد خيبة روجرز في مبادرته ، آلت الخارجية الأمريكية بيد الكامن لها هنري كيسنجر ، حيث سيظهر هذا الألماني - اليهودي ، كأقوى لاعب أو متلاعب بمصائر المنطقة ، كما شهد الشهر نفسه (شباط) ، استيلاء عرفات البالغ منَ العمر ٣٩ عاماً على منظمة التحرير الفلسطينية ، مع تحويل المنظمة من قاعة خطابات ، إلى ساحة مقاتلة ، وفي آذار ، كان عبد الناصر يؤجج نيران حرب الاستنزاف اللاهبة فوق قناة السويس ، ثم هجر مليون مصري على ضفاف القناة منازلهم إلى الداخل ، وفي شهر نيسان عم الاضطراب أرض لبنان، حيث انخرطت حكومته الضعيفة في منازلات طويلة ومدمّرة مع الفدائيين الفلسطينيين الذين ساندوا الحركة الوطنية اللبنانية في موقفها .

---

* وضع عبد الناصر أمام بريجنيف قائمة بطلبات الأسلحة الجديدة وفق ما يلي :
١٤٢ محرك لطائرات ميج المعدلة ، ٥٠ طائرة هليوكبتر كبيرة من نوع سي ١٨ . سرب من قاذفات اليوشن تي يو ١٦ ، قطع غيار لـ ١٦٠ طائرة ميج ١٧ ، قنابل نابالم وقنابل ضد الممرات، كذلك معدات عبور ومعدات قتال ليلي ، وما يوصله إلى الضفة الأخرى .

لقد انتصبت أمام القيادة السياسية في سوريا ، مشكلتان ، وكانت الأولى تتعلق بالسلام (مبادرة روجرز) ، والثانية تتعلق بالسياسة المتبعة مع الفدائيين الفلسطينيين في المستقبل .

لم يكن الرأي العام في سوريا مستعداً لتسوية تبدو خضوعاً لاسرائيل ، كما أن الوضع العربي الغاضب جراء المؤامرة المزدوجة الأمريكية - الاسرائيلية لم يكن هو الآخر على استعداد لسماع كلمات تتعلق بالتسوية في ظل وضع تكون السيادة فيه لاسرائيل ، حتى عبد المنعم رياض ، القائد العسكري الذي استشهد على ضفاف القناة ، كان قد صرح قبل أيام من استشهاده : (**إن شرف القتال يمتد لما هو أبعد من الهدف العسكري ، ولو خرجنا من هذه الأزمة بحل دبلوماسي حتى وإن كان مقبولاً ، فإن هذا البلد سيتحول إلى مرتعٍ للسماسرة في النهار ، وإلى مرتعٍ للغواني في الليل ! . .**) .

وللحقيقة ، فإن القيادة السورية ، لم تكن مختلفة حول (سلام الأمريكيين) ، فالقيادة القطرية بزعامة صلاح جديد ، كانت ترفض مبادرة روجرز ، كما رفضت من قبل قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، وشنت صحيفة الحزب يومها حملة ساخرة ضد ما أسمته بـ (سلام القبور) ، أما عبد الناصر والملك حسين ، فقد حظيا بحملة مماثلة لقبولهما قرار مجلس الأمن ومبادرة روجرز .

ولم يكن السيد وزير الدفاع ، حافظ الأسد ، القطب المقابل في معادلة القيادة السياسية ، أقل انتقاداً من رفاقه لمشروع روجرز ، لكنه كان يرى عدم الجدوى في رفض التسوية كمبدأ ، ثم شرح كيف يمكن أن يكون البلد ، ضد أية تسوية منحازة ، غير مشرفة ، وكيف يمكن اغتنام فرصة تسوية عادلة ومشرفة . .

كان السيد وزير الدفاع ، متعاطفاً مع موقف الرئيس عبد الناصر ، فيما كان رفاقه ينظرون إلى عبد الناصر بريبة رغم حرب الإستنزاف الباهظة ، وفي معرض مقابلة مع السيد باتريك سيل (الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ٢٥٥) يقول الأسد : (كلما تحدث عبد الناصر عن السلام ، كان زملائي يعترضون ، ولم يكن الأمر متعلقاً بمهمة يارنغ أو مشروع روجرز فحسب ، بل لقد كان زملائي يعترضون على كل فرضياته ومقولاته . كانوا ضدّ أي شيء يقوله عن السلام ، وكان يبدو كما لو أن أي شيء يقوله عن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ سيُحسب ضده) .

ومن الواضح أن وزير الدفاع في موقفه هذا ، كان يرى أن الرفض السلفي الشامل ضد أي نوع من أنواع التسوية ، هو شيء غير معقول بالتأكيد .

أما الخلاف الأكثر حدة ، فكان يدور حول قضية الفدائيين الفلسطينيين ، فبينما كان السيد صلاح جديد الأمين القطري المساعد لحزب البعث ، يرى فلسفة خاصة في حرب التحرير الشعبية ، إذ هي محايثة لتلك الثورات ، ابتداء من حرب الأنصار في الصين (ماوتسي تونغ) ومروراً بحرب ڤيتنام ضد الأمريكيين (جياب) ، ثم حرب الأقربين في الجزائر وعدن ، وغيرها من الثورات التي بدأت بحروب شعبية لتنتهي إلى صراعات جيوش نظامية في المعركة ومن خلالها . . . الخ ، وفيما رأى جديد أيضاً في الثورة الفلسطينية مقدمة ، أو مشروع ثورة عربية ، كان السيد وزير الدفاع حافظ الأسد قد فقد حماسته تجاه المشروع برمته ، فقد فهم كضابط محترف ، أن القتال ضد اسرائيل يجب أن يبدأ وينتهي بجيوش نظامية ، وأن المقاومة الفلسطينية ليس بمقدورها مهما كان مستقبلها ، أن تؤثر في ميزان القوى مع اسرائيل ، هذا من الوجهة النظرية ، أما على الصعيد العملي ، فقد رأى الأسد ، أن المقاومة الفلسطينية بدأت تشكل عبئاً ، لكونها تزود اسرائيل بالحجج للإعتداء على المناطق الحدودية ، هذا إذا لم يمتد التصعيد ليطال مدناً داخلية ، والأنكى والأهم ، أن المقاومة الفلسطينية لم تنضبط داخل شعارها الأول : عدم التدخل في الشؤون الداخلية ، فهناك إشارات قادمة من لبنان والأردن ، تنبئ بتهديد الاستقرار السياسي في القطرين المذكورين ، وأن رجحان كفة المقاومة بعد هزيمة الجيوش النظامية في حزيران ، سيشكل خطراً لا حدود له ، والمحصلة ، أن الأسد ، كان يرى في المقاومة مخاطرة أمنية لا يمكن حساب نتائجها ، أكثر منها مصدر إلهام لمشروع ثوري مُقبل . .

سيقول صلاح خلف أبو إياد ، في كتابه فلسطيني بلا هوية ص ٨٤ ، وبعيداً عن الخلافات داخل لجنة البعث العسكرية في سوريا ، (لقد كانت سلطات دمشق منذ أن بدأنا ، ودون أن تحاربنا ، تعمد إلى مناورات لاحتوائنا والسيطرة علينا ، فراحت تعمل على تسريب عناصر مؤيدة لها داخل صفوفنا ، وحالة يوسف عرابي ومحمد حشمة هي واحدة من هذه الحالات ، فما أن دخلا صفوف العاصفة ، حتى راحت المماحكات والخلافات حول النظريات والعقائد والطابع السياسي لفلسطين المحررة ! . . وهكذا إلى أن قُتلا في نهاية شهر شباط ١٩٦٦ برصاصات متبادلة . . ولم يتضح لنا حتى اليوم (١٩٨٩) كيف قُتلا ؟ . .

المهم أن سلطات دمشق البعثية ارتابت في أن نكون وراء تصفيتهما مما أدى إلى اعتقال : ياسر عرفات ، أبو جهاد ، أبو علي إياد ، أبو صبري . . وكذلك سبعة من أعضاء فتح ، ثم ما لبثوا أن جُرّموا بالإغتيال . .) وفهمنا أن مفتاح القضية هو بيد وزير الدفاع نفسه . .

وفي العام ١٩٦٦ أقام البعث منظمته الفلسطينية الفدائية الخاصة تحت اسم (الصاعقة)، وسيلعب صلاح جديد بهذه الورقة كمقابل لنفوذ وزير الدفاع داخل أوساط الجيش ، وفي مرحلة لاحقة ، سيزور السيد وزير الدفاع حافظ الأسد ، مدينة عمان (١٩٦٩) (وسيرى عن كثب طبيعة التحدي الذي يوجهه الفدائيون ضد سلطة عربية قائمة، فقد وجد بذهول ونفور ، أن العاصمة الأردنية كانت مليئة بملصقات فيها شعارات تقول (كل السلطة للمقاومة) وكان هناك فدائيون يتبخترون في الشوارع ويهينون الضباط والجنود النظاميين - باتريك سيل - الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ٢٥٧).

أما صلاح خلف ، فيرد على الاتهامات بقوله :-

(لقد كان من الصعب في بعض الأحيان تمييز التطرف السياسي من الاستفزاز الذي يدبره العملاء المأجورون ، فازدهار الشعارات اليسارية مثل كل السلطة للمقاومة ، وتوزيع صور لينين في شوارع عمان والمدن الأخرى ، حتى داخل المساجد ، والدعوات إلى إقامة النظام الإشتراكي ، كل ذلك كان ينم عن وعي طفولي إجرامي . . . من الصحيح أيضاً أن سلوكنا نحن لم يكن غاية في التماسك ، فقد نحونا منحى اهمال الأردني الأصل ، لصالح الفلسطيني ، ثم ان الفدائيين الذين كانوا فخورين بقوتهم ومآثرهم ، كثيراً ما أظهروا شعوراً بالتفوق وعدم المسؤولية والغطرسة . . . والشيء الأخطر هو موقفهم ازاء الجيش الأردني الذي كان يعامل كعدو بأكثر مما يعامل كحليف مقبل . .

غير أن الصحيح أيضاً ، هو أن النظام الأردني كان قد تفنن في حفر الهوة بين الفدائيين والقوات الملكية * ، وذلك بإثارة جميع أشكال النزاعات الآخذة بالتصعيد الإقليمي . .).

كما ذكر أبو إياد السياسة الأردنية (في مدّ الحبل للفدائيين ، ذلك الحبل الذي سيشنقون أنفسهم به) ! . . (فلسطيني بلا هوية - ص ١٣١ - ١٣٢).

في مقابلة لباتريك سيل مع الرئيس الأسد يوم ١٢ أيار من العام ١٩٨٥ ، يقول الكاتب الإنكليزي على لسان الرئيس :-

(لم أكن في حياتي كلها مؤيداً للفوضى على الإطلاق ولن أكون ، فالفوضى لا

---

* يروي صلاح خلف قصة أبو الرائد عضو المكتب السياسي في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . فقد واظب المذكور في خطاباته الجماهيرية ، على مهاجمة الملك وأسرته علناً ، وكانت كلماته من البذاءة ، حسب قول أبو إياد (بحيث لم أستطع سماعها حتى النهاية) بل إنني انسحبت من أحد المهرجانات التي خطب فيها أبو الرائد . . . وقد تبيّن بعد وقت طويل !.. أنه كان عميلاً للمخابرات الأردنية فطردته الشعبية من صفوفها ، بعد فوات الأوان . . (المصدر نفسه ص ١٣٠).

تؤدي إلا إلى الآلام ، ولا تحصد أية نتائج ، وكنت أود لو تبقى المقاومة الفلسطينية نقية ومتحررة من التورط في الشؤون الداخلية للأقطار العربية . . . إنني أومن أيضاً أن للفلسطينيين حقاً في ايجاد أرضية ينطلق منها نضالهم ، في سوريا والأردن ولبنان ومصر وأي مكان آخر ، هذا هو رأيي منذ البداية وهو لا يزال رأيي اليوم) .

ويضيف باتريك سيل (كان هذا مأزقاً لم يُقدَّر للأسد أن يحله بسهولة - الأسد ص ٢٥٨) .

هذا ويستذكر رياض الريس ودينا نحاس في كتابهما (فدائيون من أجل فلسطين) المطبوع في لندن عام ١٩٧٩ ، أمراً توجيهياً صادراً عن وزارة الدفاع السورية يوم ١٢ أيار من العام ١٩٦٩ يحدد بموجبه السماح لمجموعة معيّنة بالدخول إلى القطر ، كما لا يسمح بإقامة معسكرات لتدريب الفدائيين أو ساحات الرمي إلا في مناطق تحددها وزارة الدفاع . . . وفوق كل شيء لا يستطيعون الإغارة على المناطق المحتلة إنطلاقاً من سوريا إلا بأذونات خطية صادرة عن وزارة الدفاع . .

وهكذا تم ضبط الحركة على الجبهة السورية ، وهو ما لم يحدث على الجبهتين الداخلية والحدودية في الأردن .

في نهاية شهر آب من العام ١٩٧٠ ، كان قطران عربيان على الأقل ، قد التحقا بمشروع روجرز ، مصر والأردن ، وما أن بدأ هذا المشروع بسريان وقف إطلاق النار على الجبهة المصرية (أوقف العمل بحرب الإستنزاف) ، حتى كان الملك حسين يحط في الإسكندرية حيث حظي باستقبال حار من الرئيس عبد الناصر (٧ آب) ، ولدى عودة الملك من الزيارة المستعجلة ، عمّت الشائعات أجواء الأردن ، بأن الحسين قد حصل على خط أخضر من عبد الناصر ، يبيح بموجبه ضرب حركة المقاومة إنْ واظبت على عنادها في رفض المشروع ، أو تحدي السلطات الشرعية في الأردن ، وفي هذه الأجواء ، انعقد اجتماع شامل ضم ما كان يسمى بمجلس المقاومة المركزي ، وكان هذا المجلس ، يمثل كافة فصائل المقاومة دون استثناء ، وقد كان السؤال المثار يومئذ هو ، هل ينبغي التصدّي لنظام عبد الناصر ؟ أو العمل على إرسال مندوبين سعياً وراء نمط تعايش ، وعدم قطع الجسور مع القاهرة ، وباستثناء (فتح) و (الصاعقة) فقد كان الجميع مع سياسة المجازفة ضد عبد الناصر ونظام حكمه ، وكان السبب هو روجرز وليس غيره . .

وبالفعل ، وبعيداً عن تصويت مجلس المقاومة المركزي ، فقد سافر وفدٌ عن المقاومة ضم عرفات والقدومي وصلاح خلف وهايل عبد الحميد عن فتح ، وضافي جمعاني عن

الصاعقة وابراهيم بكر عن المستقلين ، إلى الاسكندرية لمقابلة عبد الناصر هناك .

كانت الأجواء مشحونة ، حين بدا عبد الناصر بوجهه العبوس ، وهو يستقبل وفد المقاومة ، وطال الاجتماع حتى جاوز سبع ساعات كاملة ، كان المتحدث الرئيسي فيها هو عبد الناصر نفسه :

(أنا لا أفهم كيف تهاجمونني دون أن تقفوا على حقيقة بواعثي لقبول روجرز اليوم! . .).

ثم أضاف : أنا لا أفعل مثلكم ، إنني أُقدر مشاعركم التي تقودكم إلى رفض أية تسوية مع اسرائيل ، بما فيها مشروع روجرز . . إنني موقن تماماً ، أن حظ المشروع بالنجاح ، هو واحد بالألف ، فاسرائيل لن تقبل الإنسحاب من كامل الأراضي العربية المحتلة ، ونحن لا نقبل بأقل من ذلك ، وسيخسر المشروع في غمرة خلاف الموقفين ، وعلينا أن نطيل فترة الخلاف هذه لكسب الوقت ، ثم قال : (سوف نستغلّ وقف إطلاق النار الساري حالياً ، لننصب الصواريخ السوڤيتية الحديثة على طول القناة) فهل يُعقل أن تكونوا ضدّ ذلك؟! . .

وراح عبد الناصر ، يروي مقاطع من محادثاته مع قادة السوڤييت في الكرملين ، مشيراً إلى الطرح ذاته الذي أقنع القيادة هناك .

ثم استرسل عبد الناصر وهو يوجه سؤاله مازحاً إلى عرفات :

(أخ عرفات ، كم تظن أنه يلزمكم من السنين كي تدمروا الدولة الصهيونية وتبنوا دولتكم الموحدة – الديمقراطية على كامل فلسطين المحررة ؟! . .).

ولم يجب عرفات . وهنا التفت عبد الناصر إلى الجميع وقال :-

السياسة أيها الأخوة ، كما نعرفها جميعاً ، هي فن الممكن ، وليست فلسفة المستحيل ، أنا حسب ظني أعتقد بأن دويلة فلسطينية في الضفة والقطاع ، هي خير من لاشيء على الإطلاق . .

وانقضى الجزء الأول من المباحثات ، وبدا أن عبد الناصر عاد إلى حالة من الإرتياح الظاهرة ، فدعا الضيوف إلى جلسة عشاء وعمل بآن واحد .

في المساء تحدث عبد الناصر في جو وديّ ، عن ملابسات اجتماعه الأخير مع الملك حسين فقال :

(أنا أعلم أن المخابرات الأردنية أشاعت أنني شجعت الملك حسين على ضربكم ، لكن العكس هو الصحيح ، فقد نصحته بتجنّب الوقوع في الشرك . فالاصطدام مع

المقاومة . هو خسارة جماعية لكل الأطراف ، وقد عدت ثانية لاسداء نصحي حين زارني برفقة رئيس وزرائه السيد عبد المنعم الرفاعي) ، وانفض الإجتماع في ساعة متأخرة من الليل ، وغادر الوفد الفلسطيني مصر وهو نصف مطمئن ، حين بدا من خلال الاشتباكات المتفرقة في عمان والمدن الأردنية الأخرى ، أن نصائح عبد الناصر ذهبت أدراج الرياح .

وازدادت الأمور تعقيداً ، وسط الأجواء المتلبدة في سماء عمان ، حين أقدمت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (الدكتور جورج حبش) ، أو المناضل الفلسطيني(وديع حداد) على اختطاف أربع طائرات (٦ أيلول) ضخمة مدنية ، حيث اقتيدت الطائرات إلى مدرج هبوط قديم قرب مدينة الزرقا ، وازداد الوضع حرجاً ، حين أطلقت الجبهة على مدرج الهبوط ، اسم (مطار الثورة) وبذلك تم توجيه إهانة جديدة للملك .

كان الدكتور جورج حبش قد غادر عمان إلى كوريا الشمالية قبل ما يقارب الشهر على وقوع الأزمة الخطيرة ، وكانت بغداد نفسها ، تطلق نداءً مدوياً ، بضرورة إيقاف (قراصنة الجو) عند حدّهم ، وإطلاق سراح الرهائن من الركاب المدنيين ، الذين قد لا يكون لهم أدنى علاقة بالصراع الدائر في المنطقة ، وقد وجّه الجميع انذارهم لحركة فتح رغم مناهضتها الصريحة والطويلة لمثل هذا النوع من العمليات ، وقد طلبوا أخيراً قيام فتح بطرد الشعبية من حلف المقاومة الفلسطينية ، ولم يفلح عرفات بأكثر من إصدار قرار بتعليق عضوية الشعبية في اللجنة المركزية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وقد بدا الإجراء متهافتاً ضعيفاً ، حين صمم قادة الشعبية على تفجير الطائرات بالديناميت ، فيما سيق بعض الركاب كرهائن إلى مناطق متفرقة شمال الأردن . .

لقد جيء بالذريعة من صاحبها ، فقرر الملك حسم الموقف بمواجهة شاملة ، فقد عقد اجتماعاً خطيراً حضره كل من المسؤولين والمستشارين من بينهم وصفي التل ، وزيد الرفاعي رئيسي الديوان الملكي ولفيف من كبار الضباط على رأسهم زيد بن شاكر نائب رئيس الأركان العامة واللواء قاسم المعايطة والعميد مازن العجلوني . . وساد قصر الحُمَّر ليلة ١٦ أيلول جو شبيه بأجواء الحرب ، حين وضعت الخطط الكفيلة بطرد الفدائيين دون استثناء من الأردن .

أعلن راديو عمان صباح يوم ١٦ أيلول ، تشكيل وزارة عسكرية برءاسة العميد محمد داوود وقد اختير لأنه فلسطيني الأصل (من قرية أبو ديس القريبة من القدس) .

كانت تقديرات الجيش (وعلى رأس العسكريين وصفي التل ، الذي ارتدى بزته العسكرية من جديد)، أنَّ طرد المقاومة لا يحتمل أكثر ما بين ٤٨ إلى ٧٢ ساعة ، شريطة

هجوم مكثف ومركز ، وكانت الفترة الأطول حسب توقعات عمان ، مدعاة للتدخل من أطراف عربية أو دولية للوصول إلى حل وسط لا ترغب به عمان .

في اليوم نفسه (١٦ أيلول) وجه عرفات نداء استغاثة إلى كافة ملوك ورؤساء الدول العربية ، ولم يجد النداء أصداء فعّالة ، وفي غداة اليوم التالي ، شنت القوات الأردنية هجوماً عاماً ضد الفدائيين ، لم تسلم منه أحياء عمان نفسها .

في جبل الحسين ، حيث مقر قيادة فتح العسكرية ، احتل الجيش المقر دون عناء ، أما المقر الآخر في حي الأشرفية ، فكان عصياً على أي اقتحام . .

كان عرفات يحاول جاهداً الاتصال بالملك ، إلا أن أحداً على الطرف الآخر لم يجب ، واضطرت قيادة عاجلة للفدائيين إلى التفرق ما بين المخيمات وجبل لويبدة والحسين والأشرفية . . وبعد فرض نظام منع التجول ،أخذت القوات الملكية بتمشيط المناطق والشوارع والحارات في عمان ، وقد تم مصادفة ، اعتقال ابراهيم بكر ، كأول قائد يقع في الأسر بين أيدي القوات التي بدأت بتفتيش الأحياء والمنازل ، ثم تلاه صلاح خلف وبهجت أبو غربية وفاروق القدومي ، وقد سيق الجميع مع عشرات من الفلسطينيين الآخرين ، إلى معسكر الطبربور القريب من عمان والمستخدم كمعسكر اعتقال .

ويقول أبو إياد في مذكراته (فلسطيني بلا هوية - صلاح خلف ص ١٤١) :

(كان الاستقبال الذي حظينا به في المعسكر يشير إلى سوء الطالع ، فقد خلعوا أحذيتنا ونزعوا كافة أمتعتنا الشخصية قبل أن يأخذونا حفاة إلى زنزانات تحت الأرض ، وكانت زنزانتي تبلغ المترين طولاً والمتر الواحد عرضاً ، مظلمة قذرة تفوح منها رائحة الرطوبة والغائط بحيث أن حيواناً لا يستطيع تحمّلها ، ولم أكن كئيباً يائساً من مصيرنا المحتوم ، الذي هو الإعدام ، بمقدار ما كنت مكتئباً للوثة الشرف التي سنوصم بها بعد مقتلنا ، ففي حين تم اعتقالنا دون تفكير بالمجابهة أصلاً ، حيث اعتقلنا أربعتنا دون أن يكون بحوزتنا سلاح ، فإنه سيجري الآن وصفنا بأننا استسلمنا كجبناء في أرض المعركة) .

ويتابع صلاح خلف : كان ضباط الحرس يفضون إلينا بمعلومات يشيرون إلى سريّتها وخطورتها ، وكانت غالبية المعلومات تتصل بعرفات ، (وقد تلقينا أكثر من عشرين خبراً عن عرفات ، تقع ما بين الاستسلام والإعتراف والقتل . . . في حين أن عرفات هو الوحيد

الذي بقي سالماً بعيداً عن الأسر ، متحصناً في أوكار منيعة بين عمان والمخيمات الفلسطينية)* . .

في الثامن عشر من أيلول ، اقتحمت قطعات سورية مدرعة الأراضي الأردنية لتوفير الحماية لمثلث اربد – الرمثا – جرش ، الذي ما زال بيد المقاومة ، هذا فضلاً عن أحياء في عمان كانت ما تزال بيد المقاومة أيضاً ، وفي الفترة ما بين ٢٠ أيلول و ٢٢ منه ، اصطدمت القوات السورية باللواء الأردني المدرع ٤٠ ، وهو من أفضل الألوية الملكية على الإطلاق ، وبدخول الطيران الأردني ساحة القتال ، خسر السوريون الذين لم يستخدموا طيرانهم بالمقابل ، العديد من الجنود والدبابات ، وقد تراجع السوريون عندما علت أصوات موسكو والقاهرة ، خشية تدخل أمريكي – اسرائيلي مشترك ، كما وصف المطّلعون يومها ، أن توجيهاً عسكرياً أمريكياً صدر للأسطول السادس بالتحرك ، ولبست قوات المارينز خوذها القتالية ، فيما سرت شائعة ، بأن أغطية الصواريخ النووية قد أُزيحت عن رؤوسها لأول مرة بعد كوبا .

ويقول آشر سسر الكاتب اليهودي في كتابه الخط الأخضر بين الأردن وفلسطين ص ١١٧ (لا شك أن عوامل محلية وعربية ودولية ، هي التي حالت دون تورط السوريين بمزيد من التدخل العسكري في الأردن ، إذ كان السوريون ينظرون بخطورة بالغة إلى احتمال تدخل اسرائيل ، وقد لعب النزاع المحلي بين القيادات في سوريا دوراً حين تحفظ وزير الدفاع السوري ضد استخدام الطيران في المعركة ، وقد وقفت الولايات المتحدة موقفاً لا يقبل التراجع بخصوص الأزمة في الأردن ، وقد طالبت موسكو والقاهرة لممارسة الضغط على دمشق من أجل الإنسحاب من الأردن) .

بالنسبة للوحدات العراقية المرابطة في الأردن ، فلم تكن أوفر حظاً في مد يد العون للمقاومة الفلسطينية ، فقد أسمع ضابط مخابرات أردني السيدين صلاح خلف وفاروق القدومي ، شريطاً مسجلاً لمكالمة هاتفية بين الملك ووزير الدفاع العراقي آنذاك ، حردان التكريتي ، يقول فيها الوزير العراقي للملك :

---

* يروي صلاح خلف قصة اتفاق مع المسؤولين الأردنيين يوم ٢٣ أيلول على وقف إطلاق النار . مع انسحابات من المخيمات والمدن . . . الخ ، شريطة عرض الإتفاق على عرفات لأخذ مصادقته عليه ، وكان ذلك شرطاً لازماً لسريان الإتفاق ، من حيث أن السجين قد لا يصلح كطرف مقابل في أي اتفاق . لكن إذاعة عمان أذاعت نص الإتفاق فوراً ، دون عرضه على عرفات أو أي قائد آخر خارج السجن . .

- إن قواتنا وفقاً لتعهداتنا لن تتحرك . . وقد دارت المعارك بالأمس قريباً من معسكراتنا ، إلا أن الأوامر بعدم التحرك كانت صارمة جداً . .

أرسل القادة والرؤساء الذين يجتمعون في القاهرة وفداً ضم : الرئيس السوداني جعفر النميري ، ورئيس الوزراء التونسي الباهي الأدغم ووزير الدفاع الكويتي الشيخ سعد العبد الله ، والفريق صادق رئيس المخابرات العسكرية المصرية ، وكان هذا الأخير قد استبق الباب إلى عمان قبل الوفد بيومين ، وطالب وفق رسالة شخصية من عبد الناصر ، باطلاق سراح قادة المقاومة ، وبصورة خاصة : صلاح خلف وفاروق القدومي ، وقد أصر صادق على طلبه هذا قائلاً للملك :

- لقد أوصيت من قبل الرئيس ألا أعود إلى القاهرة ، إلا وهؤلاء في صحبتي . .

قرر الوفد العودة إلى القاهرة من عمان مساءً ، بعد أن أجيب إلى طلبه باطلاق سراح قادة المقاومة (صلاح خلف ، بهجت أبو غربية ، فاروق القدومي وابراهيم بكر) ، وقد فوجئ الجميع وهم في الطائرة إلى القاهرة ، بخبر اتفاق جديد بين الملك والرئيس السوداني ، مُوافقٌ عليه من قبل القادة في الطائرة ، يدعو لوقف إطلاق النار والقاء السلاح . . . ثم ثارت ثائرة الأربعة ، حين صرخوا بوجه النميري : هذا باطل ، لاغ ، لا علم لنا بهذا الإتفاق ، وكان الأجدر أن تتحرى عن عرفات هناك ، بدلاً من تلفيق اتفاقات مشينة . . .

صمت النميري ، ولكنه قرر ألا يعود إلى عمان ثانية .

في مطار القاهرة ، التقى قادة المقاومة الناجين ، بعبد الناصر ، ومن هناك بعد الترحيب ، غادر الجميع إلى قصر القبة ، حيث كان رؤساء الدول العربية بانتظار نتائج الوفد العائد من عمان . .

وبعد العرض الذي قدمه قادة المقاومة للرؤساء (الذين بدوا أكثر بروداً في النهاية) ، قام عبد الناصر بايصال صلاح خلف والقدومي إلى فندق هيلتون القاهرة ، الذي كان يقيم فيه معظم أيام اجتماع القمة في القاهرة ، وهناك اعتذر عن تأخره في المبادرة (حوالي خمسة أيام من المعارك في الأردن) ظناً منه أن المواجهات كانت تجري في إطار أوضاع مماثلة في السابق ، وقد طلب إلى خلف والقدومي ، أية مساعدة يستطيع أن يقدمها الآن ! . .

أجاب أبو إياد ، أنه ينبغي الإسراع بايجاد الوسائل اللازمة لاخراج عرفات الذي مازال يقاتل في مقر الأشرفية ، إذ أن الأردن لن يوقف المعركة طالما أن رئيس المنظمة مازال

حياً في أراضيه . . ورد عبد الناصر : إن الفريق صادق سيكلف بتركيز خطة لإخراج عرفات .

كانت العودة الثانية للوفد صعبة ، حين رفض النميري رئاسة الوفد إلى عمان ثانية ، لكنه عاد واستنكف نتيجة ضغط عبد الناصر نفسه ، فوافق على المهمة التي كلفه بها الرؤساء . . وهناك في عمان ، اعتذر الفريق صادق عن مصاحبة الوفد إلى القصر ، بحجة مهمة عاجلة إلى السفارة المصرية في عمان ، على أن يلتحق بالوفد بعد نصف ساعة على الأكثر . . ومن السفارة اتصل صادق بواسطة شيفرة مرمزة بقيادة عرفات ، وكانت الشيفرة مجهولة من قبل المخابرات الأردنية ، واتفق صادق وعرفات على اللقاء في مكان ما من الأحياء التي مازالت تحت السيطرة ، ومن هذا المكان ، ارتدى الجميع عباءات كويتية إلى طائرة الوفد نفسه في المطار ، وعاد صادق إلى الوفد المجتمع مع الملك في القصر . .

تذرع الملك بالمشاكل الداخلية التي حالت دون حضوره مؤتمر القمة في القاهرة ، لكن هاتفاً من عبد الناصر نفسه ، كان يعلمه بتمكن عرفات من الفرار ، (وهو موجود الآن لدينا هنا في القاهرة) ، فعدل الملك عن رفضه حضور القمة ، وعاد الوفد بطائرته إلى القاهرة ، ثم ما لبث أن لحقه الملك في اليوم التالي .

وغداة توقيع اتفاق الحسين - عرفات في القاهرة يوم ٢٨ أيلول من العام ١٩٧٠ ، كان أصدقاء فلسطينيون في القاهرة ، يصغون إلى المذياع لسماع أخبار الإتفاق الجديد ، **وفجأة دون سبب ظاهر ، انقطع الإرسال الإعتيادي ، ورنّت في الأرجاء آيات من الذكر الحكيم ، كانت بصوت المقرئ الوقور مصطفى اسماعيل ، وخالج الجميع شعور مريب إزاء علامة الحداد هذه ، ثم ما لبث أن أعلن الصوت الباكي وفاة جمال عبد الناصر .**

مات الرجل الذي كان لتوه يكابد موقفاً علّه ينفذ من خلاله إلى إزالة الغمامة السوداء تحت السماوات وفي الصدور ، مات أسير الفالوجة في الحصار وقائد تموز في التاريخ ، وبطل القناة في الجغرافيا . . مات ابن الصعيد ، صاحب العصا الغليظة ، الذي ما اعتراه اليأس من اجتراح معجزة لتحرير الأرض المفقودة ، مات مالئ الدنيا وشاغل الناس ، خاصة في ترتيب المسؤوليات التاريخية : عن الإنفصال أو هزيمة حزيران ، ثم مات الإنسان ابن الإنسان ، الذي يخطئ ويصيب ، وإنْ كان خطأه ، كصاحب قرار أول ، لتميد منه الجبال . . مات وهو يغالب المستحيل ضد رجعية خارجة لتوها من نفق العصر الحجري ، وهي فوق ذلك ضليعة في علم واحد هو التواطؤ ، كما مات وهو يكابد مشقّة عظمى ضد مراهقة سياسية خارجة لتوها من صفحات الكتب أو من تجارب مقروءة عن

الظروف والشروط وإنسان الثورة البعيد . . مات قتيلاً من هول المفاجأة التاريخية ، لأمة غافية في الأشعار والأقدار وحكايات عنترة وأبي زيد والزير وألف ليلة من ليالي صحاريّ تخبئ تحت كل حبة رمل فيها ، مشروع رؤى وخرافات ، لها نصيب في الخيال ، بأكثر مما لها نصيب في الواقع ، مات وهو يجر الخيال المتفاخر ، علّه ينقلب معه إلى واقع حي يعيش وضعه ورسالته . . مات الرجل هكذا . . تركنا . . ومشى إلى التاريخ .

وكان على الأمة أن تلتقي برجل فيه من بساطة الرجال في وادي النيل ، ما يبعث على الحيرة المغفلة بالتعاطف ، وكانت الصفحة المقبلة* ، هي حكاية الأمة مع رجل اسمه أنور السادات . . لقد انتقلت إلى الرجل مسؤوليات من الوزن الذي طالما كان بعيداً عنها ، وكان عليه أن يراجع ملفات لا قبل له بالصبر عليها ، ثم ما لبث أن طلب ملخصاً شديداً ، كوصفة طبية ، عن كل ملف من الملفات ، وأمام خيار الحرب أو السلام ، استغرق السادات في التفكير ، سابحاً في بحر ليس له قرار ، ولا يظهر له من على البعد شاطئ . .

◆◆◆

على مقربة من عجلة المدفع ، التي يلفها علم الجمهورية العربية المتحدة ، ووسط الجموع الباكية بكاء الثكالى ، النائحة نواح المكلومين ، كان حافظ الأسد يسير وئيداً مُطرقاً وكان ذلك هو يوم الأول من تشرين الأول ، حيث يوارى قائد الأمة إلى مثواه الأخير .

كان يفكر بعد أفول النجم العربي ، كيف يمكن للمرء أن يدافع عن منطقه وفكره ونفسه وحيداً وسط هذا العالم الموحش ، وكانت الأوضاع في سوريا ، بعد أن لفح لهيب الأردن وجوه الجميع ، تبدو خاوية على عروشها ، فالحكومة باتت أقرب ما تكون إلى الشلل ، والجهاز الحزبي في حالة انقسام لا يُحسد عليها ، وبدا أن دمشق على موعد مع الحدث الذي يمكن أن يقيلها من عثرتها . .

ولم يكن التدخل السوري لحماية الفدائيين في الأردن ، بعيداً عن موافقة وزير الدفاع حافظ الأسد ، كما يشاع عادة ، بل إن التدخل المحسوب ، كان في صلب سياسته . ولو

---

* لو قرأ الناس ، وهذا مستحيل بالطبع ، صفحات أنور السادات الماضية . لما استبد بهم وهم الإنطباع عن بساطة السادات ، فالرجل لم يكن بسيطاً كما يبدو ، أو من خلال أدواره المتنقلة والهامشية في الثورة المصرية ، فالسادات قارئ البلاغ الأول للثورة المصرية . كان صاحب تاريخ لعله أقرب إلى الروايات البوليسية منه إلى أي شيء آخر . .

أن ذلك كان يطرح لديه ، مشكلة حماية المقاومة من التصفية ، لا الإطاحة بنظام الملك . .

كانت تلك الحملة العسكرية القصيرة (خمسة أيام) ، مثالاً صارخاً لديه ، على (عقم) الحرب الشعبية عندما تضطر للاصطدام بالجيوش النظامية ، وقد أدى إنكفاء التدخل السوري لأسباب شتى ، إلى نشوء تضارب بين نظرية مصلحة الدولة - الإقليمية ، ونظرية العمل الفدائي الذي لا يستطيع أن يتحاشى كما توّهم ، مسألة التدخل في الشؤون الداخلية . فالشؤون الداخلية العربية ، خاصة في دول السوار المحيط باسرائيل ، هي شؤون فلسطينية في التحليل النهائي ، فأي اتفاق أو قرار ، سلم أو حرب ، واقعة حدودية أو داخلية . . . الخ ، ستنعكس دون استئذان في صلب العمل الوطني لمنظمة التحرير ، بشقّيه السياسي والمسلح ، وسوف يتم التعامل مع هذا الإنعكاس سواءً كان موجباً أو سالباً ، ومن خلال هذا التعامل (حيث ليس بمقدور المنظمة أن تكون حالة سياسية متجاهلة) ، سيتم تفسير المئات من الأحداث والمواقف والمؤتمرات ، على أنها تدخل في شؤون السيادة القطرية ، وفي قراءات متأنية لدوافع ما خلف الأحداث ، كان المرء يعثر على أكوام من (دوافع التوريط) ، الصادرة من داخل بعض فصائل المقاومة ، أو من داخل أجهزة النظم السياسية العربية نفسها . . وكان الهدف كما قيل (هو مد الحبل الذي ستشنق المقاومة نفسها به) ! . .

خارج المنطقة وفي واشنطن ، فقد نظر الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ومستشاره للأمن القومي يومذاك السيد هنري كيسنجر ، إلى ما جرى في الأردن ، على أنه لعبة من ألعاب موسكو ، لكسب موقع جديد ، وقد ظلت الإدارة الأمريكية تنظر إلى حركة المقاومة الفلسطينية والنظام السياسي في سوريا ، على أنهما بيادق على رقعة الشطرنج السوڤيتية ، ومقابل ذلك فإن المعونات السخية لاسرائيل ، كانت تأخذ دوافعها من الإطراء المفتعل لذلك الشريك الصغير والقوي ، الذي قذف به حُسن الطالع الأمريكي ، إلى هذه المنطقة من العالم .

في سنواته في البيت الأبيض يقول هنري كيسنجر (بوسطن ١٩٧٩ ص ٦١٨) :

(لو فشلنا في التحرك ، فإن أزمة الشرق الأوسط كانت ستزداد عمقاً وتعقيداً عند استيلاء المتشددين والسوڤيات المشرفين عليهم ، على زمام المبادرة في الأردن) ، وكانت الإدارة الأمريكية تأخذ شواهدها من الجسر السوڤييتي المسلّح الذي كان يحطّ فوق أراضي وادي النيل ، وفيما عرف بحرب الإستنزاف وصدّ الطيران الإسرائيلي في العمق المصري .

وبعد أن قرأتْ الإدارة الأمريكية صفحات الموقف في مصر بصورة خاطئة ، راحت

تضاعف خطأها باعادة تسيير جسر جوي جديد لتسليح اسرائيل ، وقد نجح كيسنجر في تصوير الوجود السوفييتي المتزايد ، كما نجح في تصوير التدخل السوري في الأردن . على أنه من وحي موسكو ، وطلب نيكسون من تل أبيب صراحة ، احتواء ما تراه واشنطن ، تهديداً سوفيتياً خطيراً . .

في الواحد والعشرين من أيلول ، كان كيسنجر والسفير الإسرائيلي في واشنطن اسحاق رابين ، قد صادقا على خطة عاجلة (بعد موافقة نيكسون) ، تقوم عناصرها على شن هجمات جوية اسرائيلية ضد القوات السورية المتوغلة في الأردن ، وإطلاق سلاح المدرعات الإسرائيلي نحو مثلث اربد - الرمثا - جرش لاسترداد المنطقة من أيدي الفدائيين والسوريين ، وفي ٢٢ أيلول ، أي قبل يوم واحد من تنفيذ الخطة الإسرائيلية . سارع السوريون لسحب قواتهم إلى الجانب السوري من الحدود الدولية ، أما إعلام واشنطن ، فقد هلل لانسحاب السوريين ، كما أن الادارة لم تنس نصيبها من الابتهاج ، فأرسل كيسنجر برسالة مفعمة بالرياء إلى جولدا مائير يقول فيها : -

(إن الرئيس الأمريكي ، لن ينسى أبداً دور اسرائيل في منع التدهور في الأردن ، وفي محاولة قلب نظام الحكم هناك ، وقد قال إن الولايات المتحدة محظوظة في أن يكون لها حليف كإسرائيل في الشرق الأوسط ، وأن هذه الأحداث ستؤخذ بعين الإعتبار في أية تطورات مقبلة) (المصدر السابق) .

سيقول رابين في مذكراته (لندن ١٩٧٩ ص ١٤٨) : **(إنه لم يسمع في حياته شيئاً أفضل من هذا . . فقد أصبح موضوع (الخيار الأردني) ، منذ ذلك الحين ، ولسنوات طويلة ، يجنّب اسرائيل الحاجة لمواجهة القضية الفلسطينية بشكل مباشر)** .

لقد نظرت الإدارة الأمريكية إلى أزمة الأردن ، من منظور الصراع العالمي على مناطق النفوذ ، ولم تبال كثيراً لمعاناة المنطقة برمتها ، جراء الاذلال الصهيوني للكرامة العربية بعد هزيمة حزيران ، ثم إن الإدارة الأمريكية لم تنظر إلى الظلم الواقع على كاهل المشردين المُضافين إلى تشرد الشعب الفلسطيني بأسره ، ولا إلى تاريخه أو حقوقه المشروعة في أرضه ، فالطموح العالمي لإلحاق الهزيمة بالروس ، كان يخالطه طموح اسرائيلي بالحاق هزيمة مماثلة ، تبقيها صاحبة اليد الطولى على العرب في المنطقة . وكانت الولايات المتحدة، قد نظرت إلى اسرائيل كشريك في الصراع العالمي ، (وليس كحليف في الصراع الإقليمي فحسب) ، منذ أن تم إلحاق الهزيمة بالعرب ، وبالسلاح السوفييتي على حد سواء في معركة حزيران الفاجعة ، وقد قال أحد مساعدي كيسنجر المرموقين ، المؤرخ الأمريكي

فيما بعد وليام ب. كوانت في كتابه عقد من القرارات ، ترجمة عبد الكريم ناصيف ص ١٧٤ (**إن أمريكا باتت تنظر لاسرائيل على أنها الشريك الصغير المفيد في إدارة الاختبار العالمي لصراع الإرادات بين القوى العظمى . . . فقد أصبح التوازن العسكري يعتبر مفتاحاً للاستقرار ، وأصبحت الأسلحة المرسلة إلى اسرائيل والأردن تفوق مبادرات السلام أفضلية . . ولم يكرس إلا القليل من الإهتمام لحوادث التطورات السياسية في المنطقة ، بما فيها مظاهر الإحباط المتزايدة في مصر وسوريا وبين الفلسطينيين أو للفعالية المتزايدة لدى العرب الذين بدأوا يدركون القوة الكامنة التي يملكونها بسبب النفط**) . .

ولم تؤد أزمة الأردن إلى تكليف اسرائيل بحفظ الإستقرار في الشرق الأوسط نيابة عن أمريكا فقط ، إنما أدت أيضاً إلى تدشين علاقة استراتيجية بين الطرفين تجاوزت حدود الشرق الأوسط وامتدت إلى أفريقيا وأمريكا الوسطى وعموماً إلى العلاقة ما بين الشرق والغرب ، فقد قامت اسرائيل بتقديم كل عون خفي أو علني دفاعاً عن المصالح الأمريكية ، كي تُكافأ من ثمّ بالدعم الأمريكي لتحقيق التفوق المنشود للسيطرة الإقليمية .

وكان الوضع العربي أثناء أيلول ، معقداً كالعادة ، إلا أن مؤتمراً للقمة في القاهرة ، كان يحاول الخروج من عنق الزجاجة ، فالعلاقة بين الفدائيين والأردن ، أصبحت في أسوأ حالاتها ، بعد أن ضربها مسٌّ من جنون النار والدم ، كما أن العلاقة بين سوريا والأردن ، وصلت إلى أخطر تطوراتها بدخول الجيش السوري أراضي الأردن ، مما اضطر الملك حسين إلى حد التهديد بالاستنجاد بالجيش الأمريكي ، وفي روايات أخرى ، بالجيش الإسرائيلي نفسه ، أما على صعيد الفدائيين والفلسطينيين عموماً ، فقد فقدوا الثقة بالجميع ، خاصة عندما اتفق عبد الناصر والملك حسين على مشروع روجرز ، كذلك عندما عمد السوريون إلى سحب قواتهم على عجل ، فيما وقف الجيش العراقي المرابط في الأردن (زهاء ٢٠ ألف جندي عراقي) ، موقف المتفرج أمام سياسة الأرض المحروقة ضد الفلسطينيين ، وكان بادياً أن مسرح الأزمة لن يكف عن التشظي ، إلا باعلان النبأ المفجع لوفاة عبد الناصر . .

غير أن الأزمة التي طالت الأوضاع العربية العامة ، لم يكن لها كبير صلة بصراع القيادة السياسية داخل سوريا ، ففي سوريا ، كان الخلاف قائماً داخل مراكز القوة في الحزب والجيش قبل أزمة أيلول ، وربما أن هذه الأزمة لتزامنها النسبي مع حركة التصحيح التي قادها وزير الدفاع حافظ الأسد ، افترضت على أنها العامل الأقرب لتفجير الأزمة ، وفي رواية للدبلوماسي الجزائري القديم ، الأخضر الإبراهيمي ، أن رئيس الدولة نور

الدين الأتاسي ، قال للدبلوماسي الجزائري على مأدبة عشاء وفي صوته رنّة من الحزن :

(يا صديقي ، لا تناقش معي أية قضايا جدّية ، إن وزير الدفاع هو المسؤول ، إذهب واجتمع به) . . وفهم الإبراهيمي آنذاك ، أن الأمر كله قد آل ولو بشكل غير رسمي ، إلى وزير الدفاع ، وباختفاء عبد الناصر عن المسرح ، سقطت الخيمة الأبوية التي كانت تظلل الجميع ، وبدا أنه لا مندوحة من الدفاع عن النفس وسط عالم موحش ، ومع ذلك ، فقد سافر حافظ الأسد إلى القاهرة لحضور جنازة التشييع في الأول من تشرين الأول ، وهناك شاهد تدفق النيل مع دموع الحزن المصري الهائل ، وعند عودته إلى دمشق ، وجد عاصمة خاوية دون حكومة حقيقية ، وكان الحزب قد بدا وكأن الصراعات قد أنهكته ، إلا أن الأمين القطري المساعد السيد صلاح جديد ، لم يكن أمامه سوى الجهاز الحزبي ليلعب بورقته ، مع ورقة أقل شأناً هي منظمة الصاعقة الفدائية . .

فقد دعا ، وكان مازال مسيطراً على الجهاز الحزبي ، إلى عقد مؤتمر استثنائي للقيادة القومية يوم ٣٠ من تشرين الأول ، وكان أول عمل للمؤتمر ، أن طلب إلى وزير الدفاع التوقف عن إجراء مناقلات في الجيش طيلة فترة انعقاد المؤتمر ، إلا أن وزير الدفاع حافظ الأسد ، رفض الإقتراح بشكل قاطع ، وقد سخر الأسد من منتقديه المتطرفين وجابههم بطريقة قاسية (لم يعد لأحد أن يختفي وراء عبد الناصر ليطلق تهديداته الجوفاء ضد اسرائيل) . . وقد أعلن بصراحة أنه (من الأفضل الكف عن أعمال الاستفزاز المجانية التي يستغلّها العدو ليفرض علينا معركة ، ليس الجيش السوري في حالة تسمح له أن يخوضها أصلاً ، ناهيك عن أن يكسبها - جريدة لوموند الفرنسية ١٨ تشرين الثاني ١٩٧٠) .

وفي موجة مجابهة ، ذهب المؤتمر إلى حد المطالبة بإقالة وزير الدفاع وصديقه المقرب مصطفى طلاس من منصبيهما في الجيش والحكومة . . إلا أن هذه المطالبات ذهبت أدراج الرياح ، حين أدرك المطالبون أنهم خسروا معركتهم الحقيقية وأنهم قد دحروا بالفعل . .

عندما انتهى المؤتمر ، كان كل شيء في محله ، فقد خُيّر بعض الخصوم بين العمل في السفارات السورية وهي الملجأ التقليدي للخاسرين ، وبين العودة للحزب في ظل الحركة التصحيحية ، وبالطبع فقد سيق القادة من أنصار السيد صلاح جديد إلى سجن المزة القريب من دمشق . . حيث مكث الجميع مدداً متفاوتة وطويلة هناك .

لقد كانت حركة تشرين انقلاباً أبيض ، لم ترق فيه نقطة دم واحدة ، بل لعلها لم تكن انقلاباً حين اتخذت اسم الحركة التصحيحية ، وبذلك بدت كامتداد لثورة آذار أو استرداد لها ولهويتها الحزبية البعثية ، وقد زار العقيد القذافي دمشق يوم الحركة نفسها ، كما أرسل

العراقيون بوزير خارجيتهم السيد عبد الكريم الشيخلي حاملاً رسالة تهنئة من النظام البعثي في العراق إلى قائد الحركة ، الرئيس حافظ الأسد .

وفي السنوات التي تلت حركة التصحيح في سوريا ، كان الأسد يفكر في الدروس المستفادة من مرحلة ما قبل التصحيح ، ثم ما لبث أن عكف على مخطط تفصيلي يتم بموجبه تصريف الشؤون السياسية والإقتصادية والاجتماعية في سوريا . .

وكان أهم ما ركز عليه في العام ١٩٧٠ نفسه ، هو الحاجة إلى استرداد الوحدة الوطنية للبلاد بعد سنوات من الفرقة والخصام ، ولتبديد الرأي القائل بأن حكام سوريا بعد آذار ، هم مجموعة من الضباط القساة المجهولين ، فقد بدأ الأسد مرحلته الأولى بالطواف على سائر المحافظات السورية ، حيث كانت تذبح الخراف بالعشرات على مدخل المدينة الرئيسية في المحافظة ، فيما كان يهرع المواطنون من كل الشرائح الاجتماعية لاستقبال القائد المنقذ ، وهكذا خرج حافظ الأسد من الإسار الضيق الذي كانت تفرضه مدرسة صلاح جديد في الحكم ، وبدا في هذه المرة ، أن هناك شعوراً شعبياً حقيقياً ، بأن سوريا ستشهد بداية مرحلة جديدة ، خاصة حين تمت الدعوة في مرحلة لاحقة ، للأحزاب السياسية (الوطنية والتقدمية من الشيوعيين والاشتراكيين والناصريين) للحوار العميق ، من أجل إصدار ميثاق وطني عام ، يتم بموجبه تأسيس جبهة وطنية تقدمية ، حيث كمن الخطأ في عدم توجيه الدعوة الجادة لفصائل الحركات الأصولية الوطنية للمشاركة في مقاعد الجبهة أو مجالس الشعب ، من حيث أن الصراع مع اسرائيل كان يستلزم حشد جميع القوى الشعبية (بصرف النظر عن الأيدولوجيات) كما أكد أحد قادة الجبهة البارزين عبد الغني قنوت مراراً ، وأن الجبهة الأصولية **كتنظيم أو مدارس مساجد** تشكل نصف المجتمع بل أكثر دون تهوين أو تهويل * .

◆ ◆ ◆

---

* من غير المنطق مواجهة الحركات الأصولية بعنف سلطوي ، أو حجر هذه الحركات في مواقع المعارضة أبداً ، ومهما كان حتى لو أدت النتائج في وضع إنتخابي شبه محايد إلى الفوز الساحق فإنه لابد من احترام هذه النتائج ، ليتحول مَنْ كان حاكماً إلى وضعية معارضة ديمقراطية بعد ذلك . هل يمكن الوصول إلى تحقيق هذه الأوهام الطائرة في الفضاء ! . .

– الفصل التاسع –

في الطريق إلى رمضان

اولا / تحرير . تحريك . ام هو عامل الفزع من حزيران ثانية ! ..

في الحرب يمكن أن تكون التوقيتات من الخطورة ، بحيث يصبح اليوم مبكراً وغداً متأخراً جداً .

بين اليوم والغد ساعات وبين العبور والنهوض إلى الممرات أيام ..

ترى هل كان بمقدور تشرين ذاتياً ، أن تكسر اسرائيل في الشمال والجنوب بآن واحد .. أم ماذا ؟ ..

لا برهنة أكيدة على أي من الفرضيات المثارة حتى الآن ، فالتحضير لتشرين كان موروثاً من أيام عبد الناصر حتى ما بعد أيار من العام ١٩٧١ ، ومع ذلك ، فلم يكن العام ١٩٧١ هو العام المفضل بالنسبة للرئيس السادات ، ففيه شهد السادات حربه الكبرى ضد مراكز القوى في مصر ، وقد أعلن (عن اضطرار) بأنه عام الحسم ، وكان يعلم أنه لم يكن كذلك ، ثم كانت رحلة العسل القصيرة مع الرئيس الليبي معمر القذافي ، ولم يكن ينقص السادات سوى أن يقتحم عليه في خلوته (مع الرئيس القذافي ورئيس الحكومة السورية السيد محمود الأيوبي في مرسى مطروح) شابان من قادة المقاومة هما : صلاح خلف وفاروق القدومي ليزفّا إليه (البشارة ! . .) بأن الصدام اندلع مجدداً في الأردن ، وطفق صلاح خلف يطلق التهديدات (ضد أولئك المتفرجين على المشهد الدموي) . . وقد ظن الناس يومها أن النزاعات بين الحكومة الأردنية والفدائيين الفلسطينيين قد انتهت مع نهاية أيلول ١٩٧٠ ، حين تم التوقيع على اتفاق ما بين الملك حسين وياسر عرفات بحضور عبد الناصر وتأثيره ، لكن الحقيقة المؤلمة ، هي ما جرى بعد وفاة عبد الناصر بعام تقريباً ، (تموز ١٩٧١) ، فقد أُسدلت الستارة على آخر فصل من فصول المسرحية الدامية . وشُتت زهاء ثلاثة آلاف مقاتل فلسطيني ما بين الحدود السورية واللبنانية ، بما فيها الحدود الإسرائيلية

الإسرائيلية أيضاً ، فيما عرف باليوم الدامي في عجلون وجرش .

كانت هذه المشكلة الفلسطينية - الأردنية المنغصة ، واحدة من المنغّصات التي أدمن عليها السادات طوال العام ١٩٧١ علماً أنه مع نهاية هذا العام واستقبال العام الجديد ١٩٧٢ ، كان السادات قد حقق مكاسب مصيرية لا شك فيها :

من ناحية فإن الحظ الذي حالفه ومال إليه ، بإلقائه القبض على رئاسة الجمهورية ، قد ظل على حلف معه حتى النهاية بخصوص معركة مراكز القوة بعد غياب عبد الناصر ، وكان من الممكن ، بسهولة في وقت من الأوقات ، أن تنقلب ضده موازين قوى ، لا قبل لقدراته ومهاراته على وقف أقدارها ، إلا أن ذلك كان موقوفاً على براعة القطب الآخر ، أو الأقطاب الأخرى ، حيث راحت في قناعة راضية ، تفسح في المجال عريضاً ، أمام نائب عبد الناصر وصديق عمره . .

لقد استطاع الرئيس السادات ، أن يحدد مواضع التحدي منذ اللحظات الأولى لنشوب معركة الرئاسة المضمرة ، وقد وضع يده على العنصر الحاسم : القوات المسلحة ، وكان خياره هذا نابعاً من تبصّره بحقائق القوة في التاريخ السياسي لمصر وغيرها من البلدان العربية الأخرى . .

وكان تشخيصه الثاني ، أن الحل السلمي في جزء كبير منه بيد أمريكا ، وأن الحرب في جزء أكبر بيد الاتحاد السوفييتي ، وبالنسبة لتركيبته الشخصية فقد كان ميالاً للحل السلمي ، وقد أوردت وقائع شتى تشير إلى ارتياحه للتعامل مع الأمريكيين الذين كان يراهم أكثر انفتاحاً ودراماتيكية من السوفييت ، هذا فضلاً عن أنه لم يُقصّر في إرسال إيماءات عن الرغبة باللقاء مع أي من زعماء الإدارة الأمريكية آنذاك ، وعلى وجه الخصوص هنري كيسنجر . .

بالنسبة للسادات أيضاً ، فإن الحرب شبيهة بالطلاق في الإسلام ، فهي أبغض أنواع الحلال عند الله ، إذ لا يجوز الإقتراب منها أو ممارستها ، إلا بانسداد جميع المنافذ ، أو استعصاء جميع الحلول الممكنة الأخرى . .

والحقيقة أن السادات ، كان قد فتح نافذة مع واشنطن في العام ١٩٧١ ، إلا أن النافذة لم يكن بمقدورها أن تولج السادات وخلفه أربعين مليوناً من المصريين ، وإلى الوراء منهم يقف على الدور ، عشرات الملايين من السوريين والفلسطينيين والأردنيين واللبنانيين . .

وكان السادات بحاجة إلى بوابة تاريخية عريضة ، أو لعلّها بوابات ، تفسح له ولغيره

مجال الدخول إلى واشنطن . . إلا أن واشنطن كانت تصفق هذه البوابة في وجهه ، حتى تتأكد من عدم ممارسته الألعاب السياسية معها . وزاد الأمر تعقيداً ، حين راح يعلن - بتهديدية مكشوفة - بأن عام ١٩٧١ هو عام الحسم مع اسرائيل . . وقد شعر بعد ذلك أن هذا التهديد المرسل ، لا يشكل ضغطاً حقيقياً على الأطراف المعادية (أمريكا واسرائيل) بأكثر مما يشكل ضغطاً عليه هو نفسه ، وأن الحركات البسماركية قد فات أوانها ، وأن القوى العظمى لم تعد بحاجة إلى مصاحبة قوة إقليمية تذهب معها إلى حافة الهاوية ، خاصة إذا كانت هذه القوة الإقليمية لا تمتلك من أسباب تهديداتها غير الوعيد أو الإنفعال ، وقد خصمت قصة الحسم من مصداقية السادات في حينها ، الشيء الكثير أمام الجيش والشعب . . وراحت (النكات) المصرية المتطايرة تحت السماء (وفوق الضباب) تدخل كل زقاق ومقهى وبيت . .

وقد استمسك السادات بالعروة الوثقى بين الهند والباكستان حين راحت حرب كشمير (خريف ١٩٧١) بينهما ، تعوّضه عن خرافة الضباب بواقع عالمي محتمل . . ثم راحت مشاكل داخلية أقل وطأة من مشكلة الرئاسة ، تضغط عليه ، فهناك الحكومة الجديدة التي يزمع باصدار مرسوم لتشكيلها ، وهناك وزارة الخارجية التي ستولد فراغاً هائلاً برغبة محمود فوزي ، معلم الدبلوماسية المصرية ، الركون إلى بيته وذويه في استراحة محارب قضى طول عمره الطويل في معارك الدبلوماسية المصرية في الملكية والجمهورية ، ثم كانت العلاقة التي بدأت بالتردي مع الرئيس الليبي معمر القذافي ، وكان الملك فيصل الذي يتابع مخططه بعناد ومثابرة ، حين لم يبخلْ بتقديم النصح للسادات ، بضرورة إجراء مصالحة كاملة مع الإخوان المسلمين في مصر ، مع الإبتعاد عن الأشرار من القوميين والناصريين والشيوعيين . . وأن سلاح الإيمان لدى الشباب المسلم في المدارس والجامعات قادرٌ على التصدي ضد حملة الأفكار الملحدة . . وبدا أن السادات كان يستسيغ نصائح الفيصل ، إلى درجة أنه وضع في حسابه أن يكون (الرئيس المؤمن) قبل أن يسبقه إلى هذا الوصف أحد . .

كان الشباب المؤمن بالناصرية على الضفة الأخرى ، يملأ مواقع لا سبيل إلى ردها أو إغلاقها كالجامعات المصرية في الصعيد والمدن الكبرى ، وقد خلقت محازبة السادات للتكتلات الشبابية الدينية ، مع تسليح بعضها بأدوات غير مسموح بها في النشاط الطلابي ، السياسي وغير السياسي عموماً ، إلى نوع من المواجهات كادت تقضي على الحياة الدراسية من أساسها ، خاصة وأن فكر المعجزات المنتظرة ، بعد الهزيمة المريرة ، أخذ

بالنهوض مرة أخرى ، وقد لاقت المعجزات قبولاً أوفر شعبية في الصعيد وغيره من الأرجاء الفلاحية الأخرى في مصر ، بحيث بدت الإحتكاكات الطائفية بين المسلمين والأقباط أمراً واقعاً فوق أرضية اجتماعية وفكرية طالما أُخصبت على يد أعداء الأمة الواحدة . .

ثم كانت هناك سياسة الإنفتاح على الصعيد الاقتصادي فقط ! . . فلقد آمن السادات هكذا ، بأن مصر قادرة ذاتياً ، إذا ما أُتيح لها الخروج من خضم الصراع مع اسرائيل ، أن تكون جنّة المنطقة ، فالرساميل الذاهبة للتسلح ، يمكن أن ترتد سمناً وعسلاً مُصفّى ، لكل مواطن مصري ، وقد بلغ مبلغاً في تصوير كنوز مصر على أنها تلك الأموال المصرية العاملة في الخارج ، أو تلك الجواهر والحلي المخبأة في ظلمات الخزائن والصناديق الشخصية الأخرى ، وقد أعلن للشعب صراحة (أنه يريد أن تخرج الأموال من تحت البلاطة لتجري في أيدي الناس ، كما أنه يريد أن تخرج المجوهرات الحبيسة في ظلمات الخزائن ، لتضيء معلقة على الصدور ، مدلاة من الآذان ، أو محيطة بالمعاصم والأصابع ، دون خوف ولا حرج) . وكان يظن أن الاقتصاد المصري يمكن أن يسترد عافيته ، إذا ما أحسن المقاولون ورجال الأعمال نواياهم ، تجاه أمتهم وبلدهم . .

كان السادات بهذه التصورات يجري تغييرات بعيدة المدى في المجتمع المصري ، وكانت التصورات بعيدة في جوهرها عن المدرسة السياسية الناصرية ، كما أنها ليست متماهية تماماً مع الفكر الإسلامي الذي يريد الجيل المؤمن أن تتحلى الدولة به . . ثم راح السادات يحارب بطريقته الدونكشوتيه مسلحاً ببرنامج على شكل مقتطفات من هنا وهناك ، وما لبث أن واجه مشكلةً ، هي أن أدوات التغيير اللازمة لم تكن متاحة له ، لا في جيل الناصرية ، ولا عند الجيل المسلم . . وقد راحت القوة الجديدة (أو كما كانت تسمى بالطبقة الجديدة) الصاعدة مع بزوغ عقد السبعينات لا في مصر وحدها ، بل والعالم العربي عموماً ، تسوغ للرئيس السادات ، طرق أبواب الكنوز السوداء هناك فوق الصحارى والرمال ، بما يخدم المجهود الحربي المصري ، أو يدفع في عجلة اقتصاده ، علماً أنه كان يعي جيداً ، وهو المتمرس في الأسفار والترحال ، تلك الخطوط الحمراء التي تحدد حركة البترو - دولار العربية في الخارج وطريقة سيرها * .

---

* يقال والعهدة على خبراء الزراعة العرب ، أن السودان وحده ، إذا ما استصلحت تربته الخصبة وسيقت مياهه إلى حيث يلزم ، فإنه يستطيع إطعام كل الأمة العربية من المحيط إلى الخليج ، ومع ذلك فإن هذه واحدة من الممنوعات ، فكيف إذا اتصل الأمر بدعم المجهود الحربي المصري (ذي الثلاثة أرغفة الأمريكية من كل أربعة) ترى هل كان السادات يغافل عن حقائق سير الأموال النفطية العربية ؟

مع حلول العام ١٩٧٢ ، كان السادات واقعاً في حيرة الإختيار بين ضابطين كبيرين لوزارة الحربية بعد الفريق محمد فوزي الذي قدم استقالته بسبب توجيهات رئيس الجمهورية الموالية للأمريكان ، وقد هلل السادات في سره لمغادرة أحد أخطر الأعمدة الناصرية في نظامه ، أما الحيرة في اختيار البديل ، فكان مبعثها ، أن الفريق أول محمد أحمد صادق ، كان من المتصدّين الرئيسيين للفريق أول محمد فوزي (بعد إقحام الجيش في خلاف سياسي مع الرئيس) ، وقد حفظ السادات للفريق صادق هذا المعروف ! . . لكنه من جهة أخرى ، كان يراه امتداداً للوطنية المصرية التي كان عبد المنعم رياض يتحلى بها دون وجل ، فصادق كان على غرار رياض ، لا يتحمل كلاماً عن الحرب المحدودة مع اسرائيل ، وكانت نظريته تقول إما الحرب حتى النهاية أو لا حرب ، فمحدودية الحرب ليست أكثر من وهم في رؤوس الساسة ، من حيث أنها تقف في منتصف طريق الهدف السياسي ، ثم لا تلبث أن تتراجع إلى ضده . .

وكان اللواء أحمد اسماعيل علي هو خيار السادات الأصلي ، (عشية ١٣ أيار ١٩٧١) ، إلا أن ظروف السلطة السياسية ، هي التي قادت السادات على غير رضىً ، لتسليم منصب وزارة الحربية ، للرجل الذي لا يكف عن المجادلة ، حول ما يلزم وما لا يلزم وكيف ؟ . . وعلى كره منه ، كان صادق يجلس على المقعد الوثير خلف طاولة وزير الحربية المصرية . .

يقول هيكل في كتابه اكتوبر ٧٣ ، السلاح والسياسة ص ٢٤٧ ، عن أشكال التضارب بين الرئيس ووزير حربيته ما يلي :

لقد تركز التضارب بين الرجلين في رؤوس موضوعات ثلاثة :

- شكل العمليات المحتملة ، ومداها وأيها الممكن وأيها الصعب وأيها المستحيل .
- نوعية الأسلحة المطلوبة وسياسة الاتحاد السوفييتي إزاء توريدها .
- مشكلة الخبراء السوفييت وحدود اختصاصاتهم وتأثير ذلك على مستويات القيادة والسيطرة .

لقد كان بمقدور المؤرخين من ذوي النزاهة أن يزعموا ، أن ذريعة التدخل السوفييتي - عن طريق الخبراء - في صلب القيادة والسيطرة ، لم يكن قائماً بالأساس . وإنما التدخل كان قائماً في صلب مستويات التدريب والتكنولوجيا التي يتعرف عليها الضباط والجنود لأول مرة في مهنتهم العسكرية ، فعبد الناصر هو الذي أحرج السوفييت بطلب أحدث الصواريخ المضادة للطائرات مع العاملين عليها ، كما أنه لم يتوان عن الموافقة السريعة على

مبدأ اصطحاب الطائرات الحربية الحديثة مع طيّاريها لحماية قواعد الصواريخ سواءً في العمق المصري أو على واجهة القناة ، ولا شك أن (الحبكة) في ذريعة طرد الخبراء السوڤييت ، كانت بإيماءة خارجية ، لعب فيها الطرفان السعودي والإيراني الدور الأهم .

كان الفريق صادق بالفعل مستاءاً من تصرف بعض الضباط من الخبراء السوڤييت ، وكضابط مصري قديم ، بدا له أن السلاح الغربي هو الأكفأ لمعركته اللامحدودة والحاسمة ، ثم في خلط غريب ما بين السياسة والسلاح ، كان صادق يرى ضرورة التحول من السلاح الشرقي (الدفاعي) إلى السلاح الغربي (الهجومي) ، وكان يسنده في أفكاره اللواء محمد علي فهمي قائد الدفاع الجوي ، واللواء عبد القادر حسن قائد الإمداد العسكري ، واللواء محمود عبد الرحمن قائد سلاح البحرية . . . وآخرون من كبار ضباط القوات المسلحة المصرية ، وقد قاد الفريق صادق اتجاهاً محلياً ملتبساً في صفوف القوات المسلحة ضد الخبراء السوڤييت ، وبدا أنه يسرق الأضواء من رئيسه ، وسوف يعزو هيكل - مع التأكيد على الأسباب الخارجية الأخرى - إلى هذا العامل (شعبية صادق في الجيش) تسريع قرار السادات في طرد الخبراء السوڤييت . .

لم يكن الفريق صادق رغم خلافاته المتكررة مع الخبراء السوڤييت ، يريد أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه في السادس من تموز ، موعد مصر مع قرار سحب الخبراء السوڤييت ، وفي يوم الجمعة المصادف لـ ٧ تموز (بعد اتخاذ القرار بيوم واحد) ، كان صادق يصلّي مع السادات في مسجد القناطر الخيرية ، وبعد أداء الصلاة حاول صادق أن يثني الرئيس بتسوية وسطية ، بحيث لا تظهر المسألة كقضية سياسية كبيرة ، بل مجرد عملية تبديل ما بين الخبراء ونظرائهم من العسكريين المصريين الذين أتموا شوط التدريب على هذه الأنواع من الأسلحة ، ثم حاول ثانية وثالثة ، إلا أن السادات اكتفى بالقول : (خلاص يا صادق ، لقد اتخذت القرار وانتهى) .

كان الأمير سلطان وزير الدفاع والطيران السعودي (منذ أن خلقه الله) ، عائداً لتوه من زيارة سرية لواشنطن ، وكان على ما يبدو حاملاً لرسالة مهمة من الرئيس الأمريكي إلى الرئيس المصري ، وكان الأمير آخر مَنْ التقاهم السادات يوم اتخاذ القرار في السادس من تموز ١٩٧٢ .

كان بريجنيف الذي فرغ لتوّه من اجتماع مع الرئيس الأمريكي نيكسون (دافع فيه عن حق المصريين باسترداد أراضيهم) أول المسؤولين السوڤييت ، الذي تلقى مكالمة مذهلة من سفيره في مصر السيد ڤينوغرادوف ، ينبئه فيها عن فحوى القرار الخطير الذي اتخذه

السادات بحق الخبراء السوفييت ، وكان تعليقه الأولي والهادئ : **لقد أعطى السادات للأمريكيين أقصى ما يحلمون به ، ولكن ويا للأسف ، دون ثمن مقابل . .**

وكانت رسالة بريجنيف للسادات بعد قرار الطرد ، هادئة مثل تعليقه : (**لقد بذل السوفييت ما في وسعهم لعرض وجهة النظر المصرية أمام الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون الذي حضر إلى موسكو أول من أمس . . . إن القلق يساورنا بسبب ما تتلقونه من تقارير كاذبة ضد الإتحاد السوفيتي . . . إننا في الوقت نفسه سنواصل تأييدنا الدبلوماسي والعسكري لقضية مصر العادلة . . كما أنه من المهم لدينا أن ترتفع الروح المعنوية السياسية والعسكرية للقوات المسلحة المصرية ، لشحنها بالشجاعة والتصميم واليقظة ، وتوجيهها في الصراع ضد الإمبريالية والصهيونية ، لا ضد حلفائها السوفييت**) . .

وظل السادات يستمع حتى نهاية الرسالة ، التي كان ڤينوغرادوف يلقيها على مسامعه . . ثم ما لبث السادات أن أملى على السفير السوفييتي رسالة جوابية ، تضمنت الشكر والعرفان لما قدّمه السوفييت من عون لمصر ، كما تضمنت شكوى من تباطؤ الإمداد العسكري السوفييتي ، وأن الفنيين السوفييت الموجودين في مصر قبل المجموعات الأخيرة ، يمكنهم البقاء إذا رغبوا فيه ، وأن الأسلحة السوفيتية المتواجدة على الأرض المصرية (التابعة للخبراء) يمكن شراؤها أو سحبها ، وأن اجتماعاً بموجب معاهدة الصداقة المصرية - السوفيتية يجب أن يتم على أعلى المستويات بصورة عاجلة . .

وفهم السفير السوفييتي ، مغزى التراجع النسبي الذي أظهره الرئيس المصري ، فرد بذكاء :-

- يمكنكم سيدي ، اعتبار رسالة الرفيق برجنيف ، بأنها تجري في إطار موقت من العلاقة بين بلدينا . .

لكن أصداء الطرد الداوية ، كانت قد بلغت مسامع العالم كله ، ويروي ادوارد شيهان في كتابه عن العرب والإسرائيليين وكيسنجر ، ص ٢٢ (أن كيسنجر صعق من النبأ ، لكنه عاد ليتساءل أمام معاونيه : لماذا قدم لنا السادات هذه المكرمة ؟ لماذا فعلها قبل أن يتصل بي؟ لماذا لم يطلب إلينا كل أنواع التنازلات التي يمكن أن نقدمها له ثمناً لهذه التصفية . . ثم راح بغضب يتساءل : أين هي المخابرات المركزية الأمريكية ، لماذا نسمع مثل هذا النبأ الخطير من وكالات الأنباء ؟! . .) .

على الطرف الآخر من مكاتب الكرملين المغلقة ، كان يسري شعور بالغضب

والصدمة ، ثم ما لبث استنفار الكرامة أن هدأ تدريجياً أمام اعتبارات الاتحاد السوفييتي الاستراتيجية . .

كانت القيادة العسكرية السوفيتية ممثلة بالمارشال جريشكو ، ترى في السادات لاعباً خاسراً في النزال ، وأن مصر أصبحت مخزناً للسلاح السوفييتي المتكدس ، وفي واحدة من مبارياته مع الفريق صادق ، راح جريشكو يتلو قائمة بمفردات جميع صنوف الأسلحة التي تمتلكها مصر مقابل الأسلحة الاسرائيلية ، وقد خلص إلى أن إجمالي النسبة هي ٢ إلى واحد لصالح مصر في بعض الصنوف ، و ٣ إلى واحد في صنف السلاح البحري ، وكان مما قاله جريشكو آنذاك : (**يحسن ألا نترك أنفسنا مشجباً يعلق السادات عليه تردده أمام ضباط الجيش المصري ، وأمام الشعب المصري ، بل وأمام كل أصدقائنا في العالم العربي**) ، ثم ترددت صيحة مدوّية أخرى كان مصدرها رئاسة أركان الجيوش السوفيتية حين قالت : (إن الاستراتيجية العالمية للإتحاد السوفييتي باتت بعد قرار السادات ، مكشوفة ومعرضة للخطر ، وهو ما لا يمكننا التغاضي عنه أو السماح به) . .

وقد نظرت القيادة السوفيتية السياسية ، إلى المخاطر بالمنظار نفسه ، إلا أنها راحت تعمل على تهدئة اللعبة ، حين أُخطرت بزيارة بعثة مصرية يرأسها الدكتور عزيز صدقي رئيس الوزراء ، إلى موسكو من جديد . .

لم تكن هذه البعثة في نظر السادات ، أكثر من عملية تبريد خواطر ، لكنه مع ذلك وربما من قبيل التعجيز فقد حمّلها بقائمة طلبات جديدة من الأسلحة الحديثة ، كان يتوقع إهمالها ، ولما عاد صدقي من موسكو ، وقعت المفاجأة على رأس الرئيس وقوع الزلزلة ، فقد وافق السوفييت على الطلبات الجديدة بحذافيرها ، وأكثر من ذلك ، فقد وافقوا على تسريع إرسال المتأخر من الطلبيات السابقة .

لقد أصاب السادات مسٌّ من جنون الرضا والارتياب بآن واحد ، فمن ناحية شعر وهو المَلكْ ، بأن سياسة (قلع الجزمة) هي سياسة ناجعة ، وأنه حسب تعبيره هو (أن هذه السياَسة هي التي ردت إلى الروس وعيهم . . فجاؤوا يبوسون الأيدي ! . .) .

أما الشك الذي ضرب دماغه ، فكان يحوم حول مغزى هذه الموافقة السخيّة بعد كل ما حصل ؟ . فهل تراهم يريدون إغراقه في بحر من السلاح ، بهدف توريطه في معركة لن يكسبها ؟! . . ومن ثمّ يفرضون عليه في النهاية كامل شروطهم في لحظة من لحظات هزيمة جديدة ؟ . .

كان السادات حتى نهاية تشرين الأول من العام ١٩٧٢ ، مايزال يرقب بعيون مفتوحة ما يجري داخل القوات المسلحة * ، وقد بدا أن الشخصية الرئيسية التي ساعدته في انقلابه ضد مراكز القوى المصرية (أيار ١٩٧١) والذي يشغل منصب وزير الحربية (الفريق صادق) ، أصبح مدفوعاً بتحريض من مقربّيه ، لأن يلعب دور مواجهة مع الرئيس . ويبدو أن التقارير الأمنية العسكرية ، كانت تعزز هذه الفكرة في رأس السادات ، وقد وصل الأمر إلى حد اتهام صادق ، بتشكيل خلية عسكرية سرية (لجنة إنقاذ مصر) هدفها القيام بانقلاب عسكري يطيح بالسادات ، وقبل وقوع المحذور (حتى كاحتمال) ، فقد سارع السادات باصدار قرار يوم ٢٦ تشرين الأول ، يقضي باعفاء صادق من منصبه كوزير للحربية ، ثم أحاله فيما بعد إلى (محكمة عادلة ! . .) ليدافع عن نفسه وشرفه العسكري . . ولما تبيّن ألاّ صحة لكل ما قيل ويُقال ، **خرج الرجل ليجد راحته في فسحة تصوّف إيمانية لم تنقطع إلا بوفاته حبيساً مقهوراً . . وكانت تلك إحدى التراجيديات العسكرية العربية المؤلمة ، التي طالما أُعيد تكرارها في الحياة السياسية والعسكرية في أرجاء الوطن كله .**

وكان الخَـلَف ، الجنرال البدين ، الفريق أول أحمد اسماعيل علي ، وسيعدد الفريق سعد الدين الشاذلي ، رئيس الأركان المصرية آنذاك ، مناقلبة الوزير الجديد ، تلك التي دفعت بالسادات إلى تعيينه كوزير للحربية (في منزل الرئيس بالجيزة ! . .) .

يقول الشاذلي في مذكراته عن حرب اكتوبر ، دار الكرمل للدراسات والنشر ص ١٩٤ وما بعدها ، أن تعيين الفريق أحمد اسماعيل علي ، جاء نتيجةً لما يلي :-

١ - لكراهيته الشديدة لعبد الناصر ، إذ طرده من منصب رئيس الأركان ، بسبب نجاح هجومين اسرائيليين في ولايته العسكرية (ستة أشهر فقط) وكان الهجوم الأول يتمثل في إغارة ليلية دمَّر الإسرائيليون خلالها زورقي طوربيد مصريين في البحر الأحمر ، والثاني بعد أيام ، وتتمثل في عملية إنزال برمائية في منطقة الزعفرانة بقوة سرية دبابات وسرية عربات مجنزرة ، ولم يعلم يومها رئيس الأركان (أحمد اسماعيل علي) بواقعة الهجوم إلا بعد تحقيق هدف الهجوم والإنسحاب في اليوم التالي . .

---

* منذ عهد عبد الناصر ، ورئيس الأركان العامة ، لا علاقة له بدوائر الجيش الثلاث : المخابرات العسكرية ، شؤون الضباط ، الشؤون المالية ، وكانت هذه الدوائر ترتبط رأساً برئيس الجمهورية عن طريق وسيط اسمه وزير الحربية ، وكان الوحيد الذي اخترق هذه الآلية ، المشير عامر . لا لشيء بل لأنه كان عضواً في مجلس قيادة الثورة فقط ! . .

٢ - لولائه المطلق للسادات ، إذ مَحضّه السادات ثقته حين قام باعادته إلى الجيش (بعد طرده) وعهد إليه بمنصب رئيس الهيئة العامة للمخابرات المصرية . . ثم ما لبث أن قدّم له، ما لم يكن له أن يحلم به : وزارة الحربية المصرية .

٣ - أنَّ شخصيته العسكرية ، باتت ضعيفة ، بعد أن صُدمت بحقائق الهجمات الإسرائيلية ضد المواقع المصرية أثناء توليه رئاسة الأركان ، فأصبح يفضل أن يتلقى الأوامر وينفذها على أن يصدرها ، بصفته أعلى منصب عسكري في القوات المسلحة .

٤ - أن مشكلة أحمد اسماعيل الإنسانية ، كان يعرفها السادات قبل إسناد هذا المنصب الخطير له ، وهو أنه كان **مصاباً بمرض السرطان ، وأنه مع كانون الأول من العام ١٩٧٤ ، كان قد توفي بسببه . . وقد اعترف السادات بأن الأطباء كانوا قد أخطروه بمرض الفريق اسماعيل ، وأنه نتيجة لذلك قد يكون من المحتم عدم قدرته على اتخاذ القرارات** ..

٥ - أن الوزير الجديد ، لم يكن محبوباً أصلاً من ضباط وأفراد القوات المسلحة ، أولاً لغطرسته الشخصية . . وثانياً لأن عبد الناصر سبق وطرده من صفوف القوات المسلحة .

٦ - أن السادات كان يعلم مسبقاً ، أن وزير الحربية الجديد ، على خلافات سابقة وحادة مع الفريق الشاذلي رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة ، **وبذلك يضمن (عدم اتفاق) القوات المسلحة ضده** . .

هذا وستنعكس الخلافات الحادة بين وزير الحربية ورئيس أركان الجيش ، أثناء سير العمليات الحربية بما ينذر بأوخم العواقب ، ولم يكن الفريق اسماعيل بذلك الضابط الاستراتيجي - الميداني ، الذي يحق له التدخل في خطط كانت الأركان قد تعبت على وضعها خلال السنوات الثلاث السابقة ، لكنه بكيفية ما ، كان صوت السادات في داخل المعركة ، وقد ظلت الخلافات (حتى وقف إطلاق النار) تدور بين اعتبارين عسكريين أساسيين : وهل كانت المهمة للتحرير أم للتحريك ؟ . .

◆◆◆

في سوريا وبعد أن استقر الوضع لحركة التصحيح بقيادة حافظ الأسد ، كانت الحاجة

إلى خوض جولة أخرى من القتال لاسترداد الجولان ومسح عار الهزيمة في حزيران تفرض نفسها على ساحة الأحداث والوقائع ، فقد تبدت اسرائيل أكثر من أي وقت مضى ، كدولة عدوان وتوسع ، فضلاً عن كونها ثكنة حربية مقاتلة لصالح الغرب ، وكان الأسد يرى ألا فائدة ترجى من وراء تسوية تتم عن طريق المفاوضات معها ، فما لم يتم تعديل الموازين العسكرية ، فإن شيئاً لن يكره اسرائيل على العودة إلى ما وراء حدود الرابع من حزيران ، وأكثر من ذلك ، فإن اسرائيل كانت قد احتلت تلك المناطق الواسعة الشاسعة ، لا لتنسحب منها تماماً ، فهناك القدس ، العاصمة الأبدية لاسرائيل ، وهناك سياسة الضم الصادرة عن الكنيست لضرورات توسعية (مهاجرين) أو أمنية (خطوط جيّدة للإنتقال إلى وثبة أخرى في المستقبل ، وليس كحدود دفاعية كما تزعم اسرائيل) ، ثم هناك في الأراضي المحتلة ، ما يسمح للاستخدام كورقة مساومة ، على الإقرار بوجود اسرائيل النهائي ، وما يسمى عادة بعملية السلام . . ثم هناك أوراق مساومات أخرى ، تظهر في حينها ، عند خيارات تتعلق باقتصاديات المنطقة ، نفطها ومياهها بل ومصيرها في المستقبل . .

كان تقييم الحرب التي لا بد منها ، سائداً في سوريا ، ولم يكن خارج هذا التقييم إلا قلة قليلة من الناس ، فسوريا بصرف النظر عن أنظمتها السياسية المتعاقبة بعد الاستقلال ، فتحت أعينها ، وهي لـمّا تسترد أنفاسها بعد ، على اسرائيل وأهوال ما سيصدر عنها من استعمار جماعي استيطاني ، وقد نسي الشعب وهو مايزال إلى جوار الماضي القريب ، مرارة الظلم الفرنسي يوم صنع الغرب اسرائيل ، وقد نُظر إليها من جميع الأحزاب والهيئات والأفراد بلا استثناء على أنها الطّامة الكبرى التي تهدد لا مصير سوريا فحسب ، بل ومصير كل الأمة العربية ، **وما كان يزيد على العرب في سوريا ، ذلك الإرتباط التاريخي الحميم بفلسطين** ، وكان هذا الإرتباط يصدر عن مسلمة شعبية لا مراء فيها ، **وهي أن فلسطين هي الجزء الجنوبي من سوريا ، وأن رفح – وليست القنيطرة – هي آخر مدينة عربية سورية في الجنوب . .**

كان هذا الإدراك المحسوس ، ينشئ علاقة تنابذ ، تقترب من حد المستحيل إذا ما تم التفكير بتلافيها ، **فسوريا الكبرى في المنطقة تعني تلاشي اسرائيل في الصغر** ، **واسرائيل كبرى تعني زوال سوريا بتفكيكها** ، **وقد شكلّت هذه المعادلة التي لا خيار ثالث في أفق احتمالاتها ، مسيرة الحياة السياسية الشعبية في سوريا دون جدال** ، وبذلك فإن سوريا لم تكن مستعدة أيدولوجياً ونفسياً ، لسماع أي تقارب مع العدو التاريخي للأمة . بل لعل أي

بلد عربي آخر (باستثناء الحركات الإسلامية في جميع البلدان) ، لم يكن على درجة قياس الميزان نفسه ، **وقد أدرك الشعب هنا ، منذ سنوات الصراع المبكرة ، أن الصراع نفسه هو صراع وجود لا صراع حدود ، علماً بأن بلداناً عربية أخرى ، كانت تفتش عن صياغات لعيشٍ مشترك ، تحت وطأة التسليم بالأمر الواقع .**

كان الأسد من أجل مجرد التفكير بشن الحرب بحاجة إلى قطع أشواط من الخطوات الأولية ، فهو بحاجة إلى كسر طوق العزلة الذي فُرض على سوريا إقليمياً ودولياً ، وقد وقع اختياره أول ما وقع على القاهرة ، حليفة الأمس والتاريخ في المصير المشترك ، فبعد عشرة أيام من فوزه بالسلطة ، قام برحلة طيران إلى القاهرة ، وقد أعلن بعد لقاء قمة مع السادات ، أن سوريا على استعداد للإنضمام إلى الاتحاد الثلاثي المقترح بين مصر وليبيا والسودان ، وسرعان ما انفتحت الأبواب الأخرى باتجاه لبنان وتونس والمغرب والمملكة العربية السعودية . .

وبالنسبة لدولة النفط الكبرى ، فقد أُعيد العمل بالأنبوب النفطي المعطوب ، الذي ينقل النفط من السعودية إلى البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي السورية ، كما تم الإيعاز لغلق محطة الإذاعة التي كانت تبث من دمشق ، داعية للثورة في شبه الجزيرة العربية . .

بعد شهرين ونصف الشهر ، قصد الأسد الوجهة الأكثر أهمية على الإطلاق ، حيث سافر إلى موسكو في شباط من العام ١٩٧١ وهناك تعرف على الماريشال غريشكو وزير الدفاع السوفييتي، وباعتبار أن الزيارة لا تجري للمرة الأولى ، فقد شكلّت هذه الأخيرة، علاقة امتداد عمرها خمسة عشر عاماً ، وبالرغم من حذر السوفييت من القادم الجديد إلى زعامة سوريا ، فقد شادت الزيارة بناء فوق قاعدة سبق لها أن أُقيمت دون إطالة أو تعثر . .

كانت القيادة السابقة للحركة التصحيحية للإنصاف ، قد أقامت علاقات عميقة مع الإتحاد السوفييتي ، إلى درجة وصمت معها سوريا بأنها باتت على أعتاب الشيوعية العالمية، لكن الحقيقة زيضاً ، أن الشعارات والمواقف وكلام الأيدولوجيا ، المتهور أحياناً ، كان يلقى صداً مستتراً من موسكو ، فالاتحاد السوفييتي الذي بدأ يميل إلى سياسة التعايش السلمي مع الغرب الرأسمالي ، كان يرسي أول خطواته العملية بشتى أنواع التقارب ، بعد أن أعياه سباق التسلح العالمي ، وقد وصل الموقف مداه سنوات حرب النجوم ، التي بدت وكأنها ستلتهم كل ناتج السوفييت الإقتصادي دون أن تبقي شيئاً لحياة الشعب اليومية . .

وكانت بوادر هذه الكارثة ، قد بدت منذ وقت مبكر أيام القيادة الثلاثية لمجموعة بريجنيف . .

كان الأسد قد ترك الخطابات وراءه ، حيث بدا له بعد طول تأمل ، أن العلاقات بين الدول ، خاصة كتلك التي تنشأ بين دولة صغيرة وأخرى عظمى ، لا يمكن أن تثمر دون النظر إلى المصالح المتبادلة ، وربما فهم الأسد من خلال تاريخ التجربة ، أن موسكو لا يمكن أن تصل في علاقاتها مع دمشق أو القاهرة ، مثلما هي العلاقة بين واشنطن وتل أبيب ، وكان ذلك لأكثر من سبب تاريخي وواقعي ونفسي . .

كان الأسد يعرف أولويات المصالح السوفيتية في المنطقة ، فالسوفييت وهذا حق ، يريدون أن يكون لهم موطئ قدم في المنطقة ، كالتسهيلات البحرية والجوية ، كما يريدون أن يكون لهم كلمة في عملية السلام لا تقل عن كلمة الولايات المتحدة ، ثم إنهم لا يرون تفسيراً لسياسة التقرب من الدولة العالمية (أمريكا) التي واظبت على مدّ العدو المصيري للعرب ، بكافة أسباب الحياة العسكرية والاقتصادية . . وكان الأسد من القادة الذين فهموا واحترموا مثل هذه المصالح ، لدولة وحيدة ، تدعم العرب بالدبلوماسية والسلاح ، ورغم أن بداية العلاقات لم تكن صافية بلا غيوم ، فإن الأسد تمكن في النهاية من خلال تكتيكاته من الحصول على ما كان يلزم سوريا من أسلحة حديثة وبكميات كافية من موسكو ، وحين فهمت موسكو طبيعة الأسد وعقليته ، فإنها بدت حريصة أكثر من أي وقت مضى ، للحفاظ على ودّية العلاقة مع سوريا دون تعكير . .

لقد أهمل الأسد منذ العام ١٩٦٧ وحتى العام ١٩٧٤ ، أي علاقة مع الغرب ، خاصة الولايات المتحدة ، التي كان يمقتها بل ويحقد عليها ، وفي الوقت الذي بدا أن الدول العربية التي قطعت علاقاتها مع أمريكا وبريطانيا إثر عدوان حزيران ، قابلة لإعادة العلاقات عند أول مبادرة ، فقد أقفل الأسد هذا الاحتمال بالنسبة لسوريا ، وربما تفسيراً لذلك ، أن جهد الأسد كان منصباً على التسلح وليس على المناورة السياسية ، فضلاً عن أن الولايات المتحدة كانت منهمكة بمناورات أكبر (تلك التي تجلت بسياسة الاعتراف ، والإنفتاح على الصين الشيوعية ، تمهيداً للمرور من خلال الصدع الشيوعي الكبير) ، إلى حالة ما سُمّي بالتعايش السلمي ، انتهاءً بموسكو . .

كذلك كانت أزمة الطاقة تشكل مصدر قلق غربي راح يتزايد وضوحاً في الأفق ، فقد صعد سعر النفط بسرعة مع بداية العام ١٩٧١ ، وكانت سياسة الإنتاج الأمريكية النفطية ، تتوقف عند خط أحمر لا تتعداه ، وكانت شركات النفط الأمريكية قد انتابها القلق حول الوضع ، ولم يكن الرئيس الأمريكي ، نيكسون وقتها ، على استعداد للظهور بمظهر العاجز ، وقد أبدى الزوار القادمون من السعودية ، ميل الملك فيصل لاستعمال لعبة

الضغط البترولية ، ما لم يجبر الغرب اسرائيل على الإنسحاب من الأراضي العربية المحتلة ، وفي هذه الأجواء كان التوتر في الشرق الأوسط قد ازداد حدة (بمقتل السفير الأمريكي في الخرطوم ومساعده الأمني جورج مور على يد أيلول الأسود ، كما أن حادثة ميونيخ كانت ماتزال طازجة) ، وتلا ذلك حادثة الإغارة الاسرائيلية على الفردان في بيروت ، حيث اغتيل ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية ، فضلاً عن أن يأس السادات من محاولات التقرّب من حلول تسووية كانت قد أفشلتها جولدا مائير ، مما جعل الاستعدادات الحربية المصرية ، أقرب إلى التصميم من أي وقت مضى ، وكانت فضيحة ووتر جيت آخذة بالإنتشار حين تمّت التضحية بمساعدي نيكسون (هالدمان وليخمان) ، فيما راح نيكسون نفسه مع صفيّه كيسنجر ، يحاولان الدفاع في معركة لاحت بأنها خاسرة . .

كان كيسنجر المتوثب لانتزاع الخارجية من روجرز ، يرى في المنظور المتعلق بالنزاع العربي - الإسرائيلي ومبادرات السلام الصادرة عن خارجية روجرز ما يمكن وصفه بالكارثة حين كانت تعلن على الملأ ، فتحظى بصيب من الهجمات المنطلقة من اسرائيل والعرب واللوبي الصهيوني في أمريكا . . وقد رأى أن فشل مبادرات الخارجية الأمريكية كان يُعزى لتلك العلنية الدعائية في الوقت الذي تفتقر فيه الولايات المتحدة لأداة فعّالة في منطقة الأحداث ، وذلك بعكس ڤيتنام تماماً ، لذلك فإن قراره المسبق ، كان يدعو لإيجاد جانب ذي كتلة متراصة يمكنه التعويل عليه تمهيداً للانطلاق إلى الجانب الآخر ، وبهذه الطريقة تضمن الولايات المتحدة عدم تعرّضها للهجوم من الجانبين معاً ، فاتقاء الهجوم أولاً ، هو الذي يشكل خطوة السير الأولى في التقدم نحو الهدف . .

كان كيسنجر يرى أيضاً ، لا معقولية المفاوضات بين الجانبين ، دون دفعهما خطوة باتجاه التقارب ، شريطة أن يظل الاتحاد السوڤييتي بحالة عزل عما يجري ، ولو أن الدبلوماسية الناجحة تتطلب اشراك السوڤييت في كل شكليات (الخطوة) قبل ابتدائها وأثناءها ولكن بعيداً عن نتائج تجميعها ، وكان من الضروري بالنسبة لكيسنجر تجزئة المفاوضات وتقسيمها إلى مراحل بحيث تقبلها اسرائيل ، ولا يعترض عليها الطرف (أو الأطراف) العربية المقابلة ، ومن ثم ينبغي أن تتقدم المفاوضات خطوة - خطوة ، وأن أي رفض لهذا المخرج سيضيّع على العرب فرصة استثمار الوقت الذي يعمل لصالح اسرائيل .

وهكذا ، فإن كيسنجر استمر في محاولاته للفصل بين جبهة وأخرى ، ثم الفصل بين السيادة كمفهوم والأمن كضرورة ، وحسب وجهة نظره ، فإن الخطوة التي يمكن أن تشق

طريقها كواقع عملي ، هي الخطوة التي تتجه إلى سيناء ، فزحزحة اسرائيل عن هذا المكان ، سيكون أسهل من زحزحتها عن خطوط وقف النار الأخرى .

في ٢٢ آب من العام ١٩٧٣ ، قام نيكسون بحركة دراماتيكية ، حين أعلن فجأة ، تعيين هنري كيسنجر في منصب وزير الخارجية بدلاً من روجرز ، وقد وافق نيكسون على أن يظل منصب مستشار الرئيس لشؤون الأمن القومي بيد كيسنجر أيضاً ، وهكذا **صار اليهودي - الألماني ، يجمع أعلى ما في الإدارة الأمريكية من سلطات ، الخارجية والأمن** ، وبدا أن كيسنجر ينافس الرئيس نفسه على سلطاته ، وقد تجلى ذلك عملياً ، حين راحت فضيحة ووتر جيت تأكل رأس الرئيس الأمريكي بتداعياتها المتلاحقة .

وما كاد كيسنجر أن يدخل من باب الخارجية حتى خرج إلى الأمم المتحدة ليجتمع بمعظم مندوبي الدول العربية ليقدم نفسه كوسيط معقول (**رغم ما يُثار عن أصلي اليهودي - هكذا قال للمندوبين وهو يمازحهم**) ، وقد وعد أن يعمل من أجل الحل السلمي ، لكنه حذّر المندوبين العرب من أن عليهم ألا يتوقعوا المعجزات ، فهو لا يعد إلا بما كان يستطيع أن يفي به ، وهو سيفي بكل ما يعدُ به ، وخلال الأسبوعين التاليين ، كان كيسنجر قد اجتمع مع معظم وزراء خارجية الدول العربية ، كذلك مع وزير الخارجية الاسرائيلي ، وعلى وجه الإجمال ، فقد كان كيسنجر راضياً عن نتائج غزوته الأولى كوزير للخارجية في ميدان دبلوماسية الشرق الأوسط .

في القاهرة ، كان الرئيس أنور السادات ، يستمع إلى تقارير مندوبيه ووزرائه إلى كيسنجر ، وقد أحس أخيراً بأنه أمام لحظة الحقيقة ، فحتى هذه اللحظة كان ما يزال يعلق آماله على البيت الأبيض ، ووزارة الخارجية بشخص رجل الدبلوماسية الجديد كيسنجر ، وقد تحقق له ما أراد ، لكن لا البيت الأبيض ولا الخارجية الأمريكية كانا قد فتحا له باب المخرج ، رغم كل ما أرسله من مرونة المواقف وطلاوة الحديث ، وعلى وجه القطع ، فقد كان ربيع العام ١٩٧٣ مع نهاية شهر آذار هو نهاية الطريق ، فقد بدأ السادات يدرك أنه لا خلاص عن طريق الحل ، ولا مخرج من المفاوضات ، وأنه لم يعد هناك مناص من طريق الحرب ، بل لعل الحرب هي الطريق إلى الحل وقد بدأ يرتب نفسه على هذا الأساس .

في نيسان من العام ١٩٧٣ طار الرئيس حافظ الأسد سراً إلى القاهرة ، ومن هناك توجه برفقة الرئيس السادات يصحبهما قائد القوى الجوية المصرية حسني مبارك إلى الاسكندرية ، وعلى مدى ساعات طويلة خلال يومين سرّيين ، ناقش المجتمعون خططاً عسكرية مفصلة على الجبهتين المصرية والسورية ، وقد تم تثبيت الخطوط الرئيسية لمعركة

تشرين ، أو أيار ، ثم بدأ الايقاع بالتسارع ، ودون مضيعة للوقت ، فقد سافر الرئيس الأسد إلى موسكو طلباً للمزيد من الطائرات وقواعد الصواريخ الجويّة ، التي تعمل على المستويين المنخفض والمرتفع ، ثم عاد إلى سوريا مصطحباً معه قائد القوى الجوية المارشال كوتاخوف ، وكان في ذلك دلالة على أن السوڤييت (القسم العلوي من القيادة فقط) ، علموا بأن الحرب قادمة لا ريب فيها . .

كان السوڤييت مع ذلك ، يخشون المجابهة الكبرى في المنطقة ، والتي قد تؤدي إلى العصف بسياسة الوفاق الوليدة مع الغرب ، لكنهم في الوقت نفسه ، كانوا على علم تام ، بالأولويات الأكثر إلحاحاً بالنسبة للعرب - مصر وسوريا - الذين فقدوا أراضيهم في العام ١٩٦٧ ، ومع ذلك فقد أشار كل من بريجنيف ووزير خارجيته غروميكو في اجتماع سان كليمنتي بكاليفورنيا (٢٣ حزيران ١٩٧٣) ، مع الرئيس الأمريكي نيكسون ومستشاره للأمن القومي كيسنجر آنذاك ، أشارا إلى ضرورة الوصول إلى حل في منطقة الشرق الأوسط ، وكان الحل السوڤييتي يتلخص بخطوات بسيطة وواضحة :-

- انسحاب اسرائيل إلى حدود الرابع من حزيران قبل الحرب .
- يعلن عن إنهاء حالة الحرب بين العرب واسرائيل .
- يتم التوقيع على سلام نهائي بعد المفاوضات مع الفلسطينيين .

ورفض كيسنجر العرض ، (لانحيازه إلى العرب ولتعزيزه النفوذ السوڤييتي في المنطقة - كيسنجر ، سنوات الإضطراب ص ٢٩٧) .

كانت الإتصالات بين القاهرة ودمشق على المستوى العسكري ، قد أخذت بزيارة وزير الحربية المصرية الفريق أول أحمد اسماعيل علي ، قوة حركة ذاتية ، وساعدتها علاقة ثقة بدت وطيدة ، بين الرئيسين الأسد والسادات ، ثم توالت اجتماعات التنسيق العسكري الذاهبة إلى أدق التفاصيل في التوقيتات ، الشهر واليوم والساعة ، وكانت عملية رفع درجة الاستعدادات في القوات المسلحة المصرية والسورية ، قد لفتت نظر اسرائيل في أواسط أيار ، فأعلنت حالة تعبئة جزئية . . ثم راحت القاهرة ودمشق تلعبان على أوتار التكتيكات لإخفاء ما يجري ، وقد بدا لاسرائيل ثانية ، أن ما يجري ، هدفه الضغط ليس أكثر ، وقد وصف الفريق الشاذلي رئيس أركان الحرب المصري ، العديد من خطط الخداع التكتيكي والتعبوي والاستراتيجي والسياسي ، التي اعتمدتها القيادتان المصرية والسورية قبيل نشوب المعركة ، فهل جرى خداع بالتوازي على جبهة الحلفاء ، شركاء القتال في المعركة ؟ تقول الوقائع بما لا يدع مجالاً للإلتباس ، أن السادات الذي كان يظهر حرصه

الشديد في مسألة التكتم على اتفاق الحرب ، هو الذي أباح للسيد كمال أدهم المستشار الخاص للملك فيصل ، ومدير المخابرات السعودية يوم ٢٠ أيار ١٩٧٣ بواقعة الإتفاق مع سوريا للذهاب إلى الحرب ، وقد أظهر المستشار السعودي ، استعداد المملكة لتحمل نصيبها في معركة التحرير المقبلة ، كما جرى تبادل الرسائل بين الملك فيصل والرئيس السادات ، حول سرب من طائرات اللايتنج البريطانية يمكن تقديمه إلى مصر قبل المعركة ، وكان شرطاً غريباً أن يقود السرب طيارون مصريون ، لعدم وجود طيارين سعوديين متدربين على هذا النوع من السلاح ، ولما أمر الشاذلي بارسال الطيارين المصريين للتدرب قبل الاستخدام (على هذا النوع من الطائرات) ، تبيّن أن نواقصها لا تسمح باستخدامها ، وأن المدربين أنفسهم غير موجودين ، وتم العدول عن الفكرة من أساسها* ، فيما ربحت السعودية موقف التأييد والحصول على النبأ الأهم من مصادره الوثيقة ، وفي رحلات مكوكية لاحقة ، سيطلب السيد أدهم من الملك فيصل ، ضرورة الضغط على السادات من أجل تأخير البدء في المعركة حتى تمام الاستعداد ! . . ولم يفصح هيكل ناقل الخبر ، من هو الطرف المعني بتمام الاستعداد هذا ؟ . .

وكان ذلك أول الغيث . .

القطرة الثانية من غيث السادات في تشرين ، وقبل اندلاع المعارك بأسابيع قليلة ، أنه كان قد اجتمع مع قادة المقاومة الفلسطينية (صلاح خلف وفاروق القدومي ٥ أيلول ١٩٧٣) ، وأعلن أمامهما أنه سيشن الحرب ضد اسرائيل مع سوريا قبل نهاية العام الجاري ، وأنه وضع (خطة الشرارة) وهي الاسم الرمزي للعملية ، كما بادر إلى القول بكل بساطة (هذه الحرب لن تكون كاملة ، بل سيكون هدفها إخراج المشكلة العربية من المأزق . . ثم بعد هذا ، نذهب معاً إلى مؤتمر السلام - فلسطيني بلا هوية . صلاح خلف ص ١٩٦ ، ويضيف : ثم طلب إلينا - المصدر نفسه - أن نتكتم بأقصى قدر ممكن ، حتى في محادثاتنا مع الرئيس السوري حافظ الأسد ، الذي لا ينبغي أن يطلع على هذه المحادثة .) .

ثم كانت هناك ، الاجتماعات السرية المصرية - الإيرانية ، (أردشير زاهدي زوج ابنة الشاه ووزير خارجيته مع السفير المصري في واشنطن أشرف غربال) وما نجم عنها من نقل

---

* طلب السادات بدلاً عن ذلك ، تسديد قيمة سربي ميراج فرنسي ، حيث أن القوات الجوية المصرية . أنهت مسألة التدرب على هذا النوع من الطيران ، وأصبح جاهزاً للعمل قبل وقوع الحرب بقليل .

مطول لآراء كيسنجر في تلك الفترة ، والتي تدور كلها أو جلّها حول محور وحيد هو ، تجزئة المفاوضات بين اسرائيل والأطراف العربية الأخرى ، على أن تكون الخطوة الأولى بادئة بمصر (حيث الإنسحاب الإسرائيلي إلى أي مدىً أفضل من الوضع المتجمد الحالي) . .

أما المحور الآخر ، وهو ملاحظة طائرة من كيسنجر :-

- أن تتحرر مصر من قيود المشكلة الفلسطينية .

وقرأ الرئيس السادات ، رسائل أركان النظام الشاهنشاهي القادمة من جنيف وواشنطن ، وأمعن التفكير طويلاً ، فحقائق القوة على الأرض لا سبيل إلي إنكارها ، وها هو المنتصر يمعن في إرسال حلوله كما يراها هو من طرف مصلحة واحدة ، وإذن لا مفر من اللجوء إلى الحرب .

كانت خطط الحرب تبحث في غرف العمليات على الخرائط ، وفي مكاتب وزراء الدفاع ورؤساء الأركان ، وقادة الجيوش والأسلحة ، ومن ناحية أخرى ، كانت الهزيمة المريرة في حزيران ، قد حولت الشعب العربي إلى مادة من اليورانيوم قابلة للإنشطار عند أول هجوم نيوتروني لها ، وكان الاحتلال الإسرائيلي هو قذيفة النيوترون المطلوبة ، ثم كان الصلف الإسرائيلي ، والتواطؤ الأمريكي ، بمثابة الإشارة لبدء إطلاق القذيفة ، وما لبثت أن نواة الذرة الثقيلة ، النقية والمخصبة ، أن انفلقت مطلقة قوة جبارة من عقالها ، وكانت تشرين على القناة وفوق الجولان .



ثانيا / عن الرجال الذين اقتحموا الأسطورة

قبل ليلة من صبيب الجحيم ، ليلة الخامس على السادس من تشرين الأول ، تسلل رجال من الجند المجهولين إلى الشاطئ الشرقي من قناة السويس ، وكان هدفهم إغلاق الأنابيب التي تنقل السائل الملتهب إلى سطح مياه القناة ، وتبع الجند رجال من الصاعقة المصرية للعمل خلف خطوط التحصينات المعادية حال مرور الطائرات الحربية الصديقة على الارتفاعات المنخفضة المخصصة لها . ثم عبرت مائتا طائرة مصرية على ارتفاع كاد يلامس الساتر الترابي (٢٣ متر) الذي أقامته اسرائيل أمام حصون بارليف . بعد خمس دقائق فقط من عبور الطائرات ، فتح زهاء ثلاثة آلاف مدفع وهاون صبيب نارهم باتجاه الحصون ، وكان هذا التمهيد الناري ، الذي ماثله تمهيد آخر على الجبهة الشمالية في ساعة

واحدة (الثانية بعد الظهر من يوم ٦ تشرين الأول) ، يؤذن بقرب انبلاج فجر جديد .

وتحت ستر نيران المدفعية التي حولت المنطقة إلى زلزلة ، جاء دور المهندسين الذين عبروا على عجل للتأكد من إغلاق المواسير النارية ، ثم ما لبث القصف المدفعي أن انتقل إلى العمق ، تاركاً لقوات الصاعقة مهمة احتلال المصاطب الخلفية لخطّ بارليف ، والتي تبعد عنه ما بين كيلومتراً إلى كيلومترين في العمق .

وشرع اللواء البرمائي رقم ١٣٠ بعبور البحيرات المُرّة بقوة مئة دبابة برمائية . . ثم جاء دور سرية المشاة لعبور بحيرة التمساح باستخدام تسع مركبات مائية . . (فيا لبهاء القوّة - السادات) .

ثم بدأت الموجة الأولى من المشاة بركوب القوارب المطاطية ، وراحت تجذّف وتشق مياه القناة نحو الشاطئ الشرقي ، ومع كل ضربة مجذاف ، كان يتعالى النداء (الله اكبر) ، وكان النداء يتصاعد من حناجر وقلوب أربعة آلاف رجل يمتطون سبعمائة وعشرين قارباً متقدماً بثبات نحو محو عار الهزيمة . . .

لم يتمكن العدو حتى هذه اللحظة (الثانية وعشرون دقيقة) من رفع درجة استعداده القتالي بصورة منظمة ، وعلى عجل فقد قام الجنرال غونين ، قائد المنطقة الجنوبية بدفع دبابات اسرائيلية لنجدة خط بارليف ، وكانت الصاعقة المصرية التي سبقته لاحتلال المصاطب جاهزة للتصدي ، فقامت بتدمير عدد منها ، فيما لاذت الأخريات بالفرار .

بدأت هندسة الجيش المصري باستخدام خراطيم المياه ذات الضغط العالي (سبق لها التدرب عليها عند سد أسوان باشراف خبراء سوفييت) ، لفتح ثغرات في الساتر الترابي ، وقد ساهم في المجهود الكبير قرابة سبعمئة مهندس بحوزتهم أربعمئة مضخة قوية ، وكان المهندسون يقومون بفتح الثغرات في الفواصل المحددة بمعدل مئتي متر للسرية وأربعمئة متر للكتيبة وثمانمئة للواء .

ثم عادت القوارب التي نقلت الموجة الأولى من المشاة كي تنقل الموجات اللاحقة ، وفي الساعة الثالثة (أي بعد ساعة من بدء الهجوم) دخل الطيران الإسرائيلي سماء المعركة ، وتمكن رجال الدفاع الجوي من إسقاط سبع طائرات اسرائيلية ، وكان هدف الهجوم الجوي الإسرائيلي ، هو منع الجيش المصري من تشغيل معدّياته المائية أو بناء جسوره العائمة فوق مياه القناة ، إلا أن سلاح الهندسة المصري ، في الساعة الثامنة والنصف مساءً ، كان قد أتم تشغيل ٣١ معدية لحمل الجنود والآليات الخفيفة ، ثم أعلن

قائد الهندسة العاملة في القناة عن تثبيت أول جسر ثقيل بمقدوره حمل الدبابات الثقيلة ، وتوالى بناء الجسور تحت تراشق المدافع وإغارات الطيران ، وكان وضع الجسور على القناة حتى الساعة الحادية عشر ليلاً كما يلي : -

- تم تثبيت ٨ جسور ثقيلة بين ضفتي القناة .
- تم بناء ٤ جسور من النوع الوسط بين الضفتين .
- المعدّيات (٣١ معدية) تعمل بكامل طاقتها بنجاح .
- ثم فتح ٦٠ ثغرة في الساتر الترابي تسمح بمرور القوات من جميع المستويات .

ومع هذا الإنجاز من قبل الهندسة المصرية ، كانت الدفاعات الجوية ، قد أسقطت ٢٧ طائرة اسرائيلية (الساعة الحادية عشر والنصف من ليلة السابع من أكتوبر) .

مع فجر السابع من تشرين ، كانت القوات المصرية قد حققت نجاحاً حاسماً قلّ نظيره ، فقد عبرت أصعب مانع مائي في العالم ، ثم قامت بتحطيم خط بارليف عملياً في غضون ١٨ ساعة ، وهو رقم قياسي لم تحققه أية عملية عبور في تاريخ الإنسانية العسكري ، أما خسائرنا - حسب كشوف رئيس الأركان المصري - الفريق الشاذلي فكانت : -

(٥ طائرات و ٢٠ دبابة و ٢٨٠ شهيداً ويمثل ذلك ٥ , ٢ ٪ في الطائرات ، و ٢٪ في الدبابات و ٣ , ٠٪ في الرجال ، أما العدو فقد خسر ٣٠ طائرة و ٣٠٠ دبابة وعدة مئات من القتلى وآلاف من الجرحى ، كما خسر خط بارليف بكامله - مذكرات اكتوبر - الفريق الشاذلي ص ٣٣٦) .

كانت الخسائر الإسرائيلية التي سجلها الشاذلي في كشوفه نتيجة للمعركة البريّة التي حدثت في الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر اليوم التالي ، تشير إلى الصورة التالية ، فقد ردّت سرايا دبابات اللواء مندلر على الهجوم المصري بهجوم اسرائيلي معاكس ، وأمر الجنرال مندلر وحدات دباباته لملاقاة المهاجمين عند حصون بارليف (النسق الثاني للخط) ، وقد وجه قائد وحدات المشاة المصري التي سبق لها أن تقاطرت على المصاطب الخلفية لخط بارليف ، ألا يتم التعامل مع الدبابات الإسرائيلية بأكثر من مئتي متر ، وكان هذا هو المدى المجدي للآر . ب . ج . ٧ المستخدم بكثافة من قبل سلاح المشاة ، وقد لقّن المشاة المصريون مندلر درساً لن ينساه حتى بعد موته ، فقد حصدت المدفعية المضادة للدرع ، زهاء مئة دبابة أحالتها إلى جمرات لاهبة ، واضطر مندلر بعد هذا الدرس الباهظ ، إلى التراجع بنصف عدد فرقته المدرعة ، وحين عاود الهجوم ثانية ، تكبد زهاء مئة دبابة أخرى ، وما أن خيّم المساء ، حتى كانت فرقة مندلر لا تمتلك أكثر من مئة دبابة هاربة إلى الشرق .

على الضفة الأخرى، وخلال يوم السابع من تشرين ، كان تدفق الدبابات المصرية والجنود ما زال منتظماً على الجسور ، وقد بلغت حتى نهاية المعركة ضد فرقة مندلر ، زهاء مئة ألف رجل ، وخمسمئة دبابة ، وآلاف المدافع المقطورة . .

داخل اسرائيل فقد تسارعت تدابير إجراء التعبئة الشاملة ، ولم يكن يُعرف سوى القليل عن مجريات الأمور على الجبهتين ، وبسبب المفاجأة والنواقص التي ظهرت في عملية الاستدعاء السريعة ، والنواقص الأخرى في المعدات وعدم جاهزية بعضها الآخر . . . فقد عمت الفوضى ، إلا أن الآلية عادت إلى الانتظام ليلة السابع على الثامن من تشرين ، حين دفعت القيادة الإسرائيلية بفرقتي احتياط إلى سيناء ، للتعويض عن فرقة مندلر التي خرجت من المعركة . .

لقد شلّت قواعد الصواريخ المضادة للطائرات ، والتي تم استخدامها بفاعلية ، تلك العمليات المبهرة ، التي دأبت اسرائيل على تكرارها ، ويبدو أنه في اليومين الأوليين للقتال ، كانت اسرائيل قد خسرت ثلاثين طائرة على الجبهة المصرية وعدد مماثل على الجبهة السورية ، وقد ذكر الرائد الهولندي (مالن كروت) من قوة الطوارئ على الجبهة السورية ، أنه من بين خمس طائرات اسرائيلية في سماء الجولان ، كانت تصابُ أربعة ، أما لماذا لم تسقط جميعها فوق أرض القتال ، فإنما يعود إلى طبيعة الصاروخ السوفييتي ستريلا ، الذي رغم دقته الفائقة ، فإنه لم يكن يمتلك القوة التدميرية لصواريخ سام الضخمة . . وحسب وقائع القتال الدامغة ، فإن الطيران الإسرائيلي طوال يومين لم يفلح إلا في إصابة جسر واحد من الجسور العشرين المنصوبة فوق قناة السويس . . ويعزو أحد ضباط الهندسة المصرية إصابة الجسر لقذيفة مدفعية اسرائيلية وليس للطيران نفسه . .

على الجبهة السورية ، فقد واجه الهجوم عقبات لا تقل خطورة عن تلك التي تعرض لها الجيش المصري أثناء اقتحام القناة ، فعلى طول الخط البنفسجي (خط وقف إطلاق النار بعد حزيران ١٩٦٧) كانت اسرائيل قد حفرت خندقاً مضاداً للدبابات بعمق أربعة أمتار وعرض يتراوح بين خمسة وسبعة أمتار ، وقد اعترض الخندق جميع المحاور الممكنة إلى الجولان ، كما شيّد خلفه وعلى أجنابه العديد من الدشم الإسمنتية المسلحة ، بحيث غُرز ثلاثة أرباعها تحت الأرض ، فيما كانت أحدث الأجهزة الالكترونية المنصوبة فوق جبل الشيخ (٢٠٠٠ متر) ترصد ما يدور حتى في العاصمة السورية ، وإلى ما ورائها حتى الأفق الممتد بين سوريا وتركيا ، وقد بلغ عدد الدشم المزروعة على المحاور في الجولان ، زهاء ١٥٠ دشمة ، جُعلت بمثابة مصائد للدبابات ، وخلف الدشم المحصنة ، كانت تقف

سرايا الدبابات المناوية وبطاريات مدفعية طويلة ومتوسطة ، وقد زوّد الأمريكيون اسرائيل بأحدث مدافع (الـ : م . د) ضد الدرع من نوع تاو المحمول على سيارات جيب ، وهو خفيف الحركة ، يستطيع أن يتنقل في أقل من ساعة من أقصى الجولان في القطاع الشمالي إلى أدناه في الجنوبي * حسب الأوامر ، أما المرصد المنيع فوق جبل الشيخ ، فقد استأثر باهتمام القوات الخاصة السورية ، حين تم التدريب على اقتحامه طوال أشهر ما قبل اندلاع الحرب . . وبالفعل فقد سقط هذا المرصد بأيدي رجال القوات الخاصة حيث حطّت الحوامات فوقه وعلى أجنابه منذ الساعات الأولى لاندلاع القتال . .

وفي نطاق جبهة الجولان الضيّقة التي تتناثر فيها الصخور البركانية ، حشدت القيادة الشمالية ما يربو على ثمانين ألف مقاتل ، وكان الحشد على نسقين أحدهما متقدم والآخر احتياطي بيد القيادة ، وقد زوّدت الأنساق بأكثر من ألف وأربعمئة دبابة ، وكان زهاء ألف مدفع ما بين ميداني ومضاد للطيران ، قد وضعوا في خدمة المعركة ، هذا فضلاً عن الطيران ومئة بطارية من صواريخ سام ذات الأجيال المختلفة .

في ٦ تشرين أول يوم من أيام الحرب ، زجت القيادة العسكرية السورية ، (بعد احتلال مرصد جبل الشيخ) بفرق المشاة الثلاث وهي على التوالي : الفرقة الخامسة والسابعة والتاسعة ، وقد ألحق بكل منها لواء مدرع لمصادمة الدشم والحواجز الاسرائيلية على المحاور ، وبسبب احتلال المرصد ، فقد باتت قيادة توجيه النيران الإسرائيلية أشبه ما تكون بانسان أعمى ، وقد مكن ذلك سلاح المدفعية السوري من إصابة أهدافه بطريقة أفضل من السابق .

لقد نصت الخطة العسكرية السورية ، على أن تقوم الفرقة السابعة مشاة بالخرق قرب محور الحميدية في الشمال ، وأن تتجه غرباً نحو الجزء الأعلى من نهر الأردن عبر محور واسط ، أما الفرقة الخامسة فتخترق الجولان في الجنوب عبر محاور الجوخدار وفيق والعال ، ثم تتقدم بخط مواز للفرقة السابعة باتجاه شمال بحيرة طبريا .

أما الفرقة التاسعة ، فكان عليها أن تحتل سلسلة من المرتفعات جنوب القنيطرة لقطع الطريق العرضاني بين القنيطرة والعال ، (وهو محور يصل القطاعات الثلاثة عرضانياً

---

* قُدّر لنا ، نحن ضباط الاحتياط في سلاح المدرعات السوري ، أن نشتبك مع هذا المدفع الخطر . حيث من أهم ميزاته قائس المسافة الليزري على مسافات أطول من قائس الدبابة ، مع سرعة التنقل والمرونة الكاملة . . . (المؤلف) .

بعضها مع بعض) ، حتى مستعمرة عين جيف على التلة الجنوبية من بحيرة طبريا ، وكان قطاع الجهد بالنسبة للفرقة التاسعة يقع في القطاع الأوسط بين الشمالي (السابعة) والجنوبي (الفرقة الخامسة) ، وهكذا يكون بمكنة الخطة أن تحقق تطويقاً للقوات الاسرائيلية بين فكي كماشه (شمال - جنوب) إضافة إلى تطويق مدينة القنيطرة . هذا وقد أُنيط بالتجريدة المغربية بقيادة اللواء صفراوي مهمة احتلال مسعدة وبانياس أسفل السفوح الجنوبية لجبل الشيخ .

أما النسق الثاني للجيش السوري الميداني ، فقد تألف من فرقتين مدرعتين ، هي الأولى والثالثة ، وكانت الخطط الموضوعة لهاتين الفرقتين ، استثمار نجاح أية فرقة من فرق النسق الأول ، بحيث حسب الاتجاهات المحددة ، تدخل فرقة مدرعة ما ، لتطوير الهجوم والاشتباك مع العدو في العمق .

ولم تكن القيادة الاسرائيلية بغافلة عما يجري في الجولان ، فقد أمر الجنرال دايان على الفور ، بتعزيز اللواء المدرع الإسرائيلي (باراك) الموجود أصلاً في مواضع دفاعية في الجولان ، بلواء مدرع آخر ، هو اللواء السابع ، الذي كان متوضعاً في صحراء النقب بقيادة العقيد بن غال ، ولم يُسحب هذا اللواء كما ظُن لأول وهلة من مواضعه في القطاع الجنوبي الإسرائيلي إلى القطاع الشمالي بهذه السرعة الأسطورية ، بل إن ما حدث فعلاً ، هو أن دايان سحب عناصره البشرية فقط ، فيما تم صرف تسعين دبابة مخزنة من احتياطي القيادة الشمالية ، وهكذا تمكن هذا اللواء في ساعات معدودة من التمركز خلف قرية كفرنفاخ ، وهي قرية متقدمة تقع في الوسط بين القطاعين السوريين الأوسط والجنوبي ، بحيث يتاح له مرونة الحركة في العمل على واجهات القطاعات الثلاثة . .



بدأ الهجوم السوري الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السادس من تشرين الأول ، بالتنسيق مع الهجوم المصري ، بوابل من قصف مدفعي عنيف ، وبضربات جويّة قوية على امتداد الجبهة البالغة ٦٥ كيلومترا ، وبعد زهاء ساعة من القصف المتواصل . تحركت الفرق الثلاث حسب الخطط المرسومة ، ففي الشمال هاجمت الفرقة السابعة باتجاه نحو الجنوب الغربي عبر الحميدية جنوب قرية تل شيحة ، على طول طريق اسمه (طريق الروم) . . . وفي الجنوب قامت الفرقة الخامسة بالهجوم جبهياً على محور الجوخدار باتجاه عام . شمال غرب وعلى امتداد خط التابلاين . وبين هذين المحورين الرئيسيين ، هاجمت الفرقة

التاسعة باتجاه عام نحو الغرب ، في قطاع بين القنيطرة (على يمين جناح الفرقة) وقرية كودنا إلى اليسار ، وقد تألَّف رأس الهجوم لكل من الفرقتين السابعة والخامسة ، من رتلين متوازيين في النسق الأول ، والرتل الثالث إلى الخلف قليلاً مع قائد ورئيس أركان الفرقة (العقيدة الشرقية) ، وبدأ الجهد بمهاجمة الخطوط الإسرائيلية الأمامية ، وقد بدت الفرقة الخامسة المتحركة على طريق التابلاين بوضع أفضل تنظيماً وقيادة من الفرقتين السابعة والتاسعة . . .

طلب الجنرال روفائيل ايتان قائد المنطقة الشمالية ، إلى قائد اللواء الإسرائيلي المدرع باراك ، أن يُركّز جهوده في القطاع جنوب القنيطرة الذي بدأ يتعرض لضغط هجومي سوري متزايد . وقد أسند إيتان لنفسه ، كتيبةً من دبابات اللواء السابع المدرع ، كمهمة للدفاع عن المنطقة شمال القنيطرة ، وما بين شمال القنيطرة وجنوبها ، كان إيتان قد حشد زهاء مئة وخمسين دبابة على واجهات القتال ، في حين أصبح القطاع الشمالي وجزء من الأوسط من مسؤولية اللواء المدرع السابع ، فيما القطاع الجنوبي من مسؤولية اللواء المدرع باراك ، هذا إضافة إلى الدشم وحقول الألغام . . . مع ذلك فإن يوم ٨ تشرين ، شهد واقعة انهيار اللواء المدرع الاسرائيلي باراك ، حين زجت القيادة السورية الفرقة الأولى المدرعة على المحور بين الفرقتين التاسعة والخامسة لاستثمار التقدم الذي أحرزته الفرقة الخامسة ، حيث تمكنت من قطع مسافة عشرة كيلومترات في عمق جبهة الجولان ، وقد تمكن الجناح الأيسر من الفرقة ، ومن خلال المشارف المرتفعة ، مشاهدة سهل الحولة وبحيرة طبرية بكل وضوح . .

تابع الهجوم السوري إيقاعه على كافة الجبهات ، رغم الخسائر على الخندق م/ د الإسرائيلي ، وأدرك العقيد بن شوحام قائد اللواء المدرع باهظ خسارته لسبعين بالمئة من دباباته ، فآثر ترك قيادته في كفرنفاخ منسحباً باتجاه شمال غرب إلى الخشنية ، وبعد أن فقد اتصاله مع كافة وحداته الأمامية ، اشتبك في معركة حامية مع القوات المدرعة السورية غربي الخشنية ، حيث احترق مع دبابته في موقع المعركة ، ولم يصدر عن اسرائيل موت أحد أهم قادتها في سلاح المدرعات إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها فيما بعد . .

كان محور تقدم الفرقة المدرعة السورية الأولى ، يتجه متسلسلاً عبر الخشنية من كفرنفاخ إلى جسر بنات يعقوب فنهر الأردن الشمالي ، حتى الاشراف على وادي الحولة . . وحتى الساعة الواحدة والنصف من ظهيرة يوم الثامن من تشرين ، فقد اعتبر إيتان المثلث الأوسط من الجبهة ما بين كفرنفاخ الخشنية واليعربية ، بحكم الساقط عسكرياً .

وقد نقل هو نفسه مقرّ قيادته إلى الخلف بالقرب من العليقة زهاء سبعة كيلومترات وراء ميادين القتال . .

عند الساعة العاشرة من مساء يوم الثامن من تشرين ، تناهى إلى أسماع القيادة السياسية الإسرائيلية ، آخر أخبار المعارك على جبهة الشمال ، فاقترح دايان الإنسحاب إلى خط مناسب للدفاع ، لكن جولدا مائير آثرت استشارة الجنرال بارليف التي كانت تثق في ثقافته وقدراته العسكرية ، وقد طلب الاذن بالتوجه إلى الجبهة الشمالية ، فطلبت مائير أن يرتدي لباسه العسكري والتوجه فوراً إلى هناك ، وعند النهاية الشمالية الشرقية لبحيرة طبرية ، كان بارليف يعطي الأولوية لتشكيلات الاحتياط الجاهزة من الدبابات ، (دون انتظار استكمال الوحدة القتالية بالكامل) ، وقد فهم الجنرال لانر قائد الفرقة الاحتياطية للدبابات المعدة للزج في المعركة ، اسلوب بارليف فوافق عليه ، وسرعان ما تجمعت زهاء مئة دبابة على خطوط المواجهة في القطاع الجنوبي . . وفي الليل تحسن وضع الدفاع الاسرائيلي ، حين كانت دبابات الجنرال لانر الإحتياطية ، تتواتر إلى مناطق القتال حول مثلث كفرنفاخ وجنوب مدينة القنيطرة ، وحول قرية العال عقدة المواصلات الجنوبية ، وقد أدى القتال المحصور (لعدم إمكانية المناورة عند حوافي المسيلات والأودية الشتائية المحفورة إلى وادي الأردن) ، إلى معارك تصادمية بين الدبابات كانت تصل في بعض الأحيان إلى بضعة أمتار ، وقد حدث تناطح بالدبابات في أكثر من مناسبة ، وقد شهدت المنطقة الممتدة من الخشنية إلى وادي الأردن ، مقبرة دبابات حقيقية ، ومع أشعة الشمس من صباح التاسع من تشرين ، ظهر بوضوح ما بين ٢٥٠ - ٣٠٠ دبابة سورية واسرائيلية ، إما مدمرة أو معطوبة أو محترقة . . لكن تعزيزات القوات الاسرائيلية المتدفقة من جنوب وشمال بحيرة طبرية ، كانت ماتزال منتظمة إلى أن بلغت زهاء ثلاث فرق مشكلة ما بين مدرع وميكانيكي وحامل للمدافع المضادة للدرع ، وقد قدّر الاستراتيجيون عدد طلعات سلاح الجو الاسرائيلي خلال الأيام الثلاثة ٧ و ٨ و ٩ تشرين بحوالي ١٨٠٠ طلعة بمعدل ٦٠٠ طلعة في اليوم الواحد ، هذا وقد بلغت الطلعات الجوية الاسرائيلية ، خلال الحرب كلها على الجبهتين السورية والمصرية زهاء عشرة آلاف طلعة ، فيما قدرت القيادات العسكرية العربية في كل من مصر وسوريا ، ضعف هذا العدد من الطلعات الجوية على الجبهتين معاً . . .

في القطاع الشمالي ، فقد استمر الهجوم السوري بقوة الفرقة السابعة التي زُجّ بنسقها الثاني في المعركة ، وقد اضطر قائد اللواء المدرع الاسرائيلي المدافع عن المنطقة بين تل

الشيخة وتل الأحمر برمايات مساعدة من تل أبو الندى ، إلى اصدار الأوامر بالتراجع إلى العمق للتشبث بخط دفاعي جديد ، وقد تمكنت دبابات النسق الثاني من الفرقة السابعة السورية من اقتحام بعض الهضاب إلى الشمال الغربي من مدينة القنيطرة ، وهكذا أصبح وضع اللواء السابع الاسرائيلي ميئوساً منه .

وفي صباح التاسع من تشرين الساعة العاشرة ، تلقى بن غال قائد اللواء السابع مكالمة لاسلكية من الجنرال إيتان تقول : (**اصمد يا بن غال ، اصمد ، امنحني نصف ساعة وسوف ترى التعزيزات التي سأدفعها إليك) ، لكن الموقف الاسرائيلي على قطاع بن غال كان يتزايد سوءاً خاصة حين اقتحمت عشرة حوامات سورية سماء المعركة ، وأنزلت سرايا مشاة بالقرب من قرية بقعاتا ، وهكذا بات الجناح اليميني للفرقة السورية ، على مقربة من المحور الواصل إلى مستعمرتي دان وكريات شمونة الاسرائيلية .**

طلب الجنرال إيتان على الفور ، دعماً جوياً ، كما طلب إلى قائد اللواء جولاني الذي يقاتل بغير نتيجة على السفوح الغربية لجبل الشيخ لاسترداد المرصد ، أن يتدخل لايقاف تدفق المشاة السوريين بالقرب من بقعاتا ، وفي هذا الوقت شن الطيران الاسرائيلي زهاء ثلاثين غارة جوية في غضون ساعتين ، وكانت الغارات كلها منصبة على المنطقة الواقعة بالقرب من سفوح تل الشيخة ، ومع تواتر قوات الاحتياط للفرق الاسرائيلية القادمة من العمق ، بدأت أرتال الدبابات السورية بالتراجع ، وبعد قليل بدأ انسحاب المشاة السوريين من المناطق المجاورة لقرية بقعاتا ، وهنا يمكن القول بأن المعركة في القطاع الشمالي قد توقفت . . وفي يوم الأربعاء العاشر من تشرين الأول تابعت الفرق الاسرائيلية الثلاث تقدمها تحت مظلة من طائرات الهليوكبتر الاسرائيلية ، نحو الخط البنفسجي ، ويبدو أن الجولة الأولى من القتال العنيف ، أفقد السوريين زهاء تسعمئة دبابة ، فيما خسر الاسرائيليون عدداً أقل لطبيعة دورهم الدفاعي في المعركة .

على الجبهة المصرية ، وخلال المنازلات المضادة لسلاح الدروع ، لم يكن رتل الجنرال آدان المدرع ، أوفر حظاً من رتل مندلر قبله ، فقد تحرك الجنرال المذكور على رأس فرقة مدرعة على المحور الشمالي ، وبالقرب من موقع (روماني) بدأ رتله يتعرض للضرب من المغاوير المصريين ، وقد اضطر إلى التوقف طيلة يوم كامل ، حين بدا أن بقايا فرقة مندلر تحاول الإنضمام إلى فرقته . . وقد أصدر الجنرال غونين قائد المنطقة الجنوبية ، الأمر إلى شارون بالتهيؤ للسير على المحور الأوسط من سيناء ، إلا أنه عاد واستدعى قادة الفرق الثلاث (مندلر ، آدان ، شارون) لاجتماع قيادة في مقر قيادته في قرية أم خشيبة . .

كان واضحاً أن القيادة العسكرية الاسرائيلية قد أصيبت بالصدمة التي أدت إلى الارتباك ، وقد حاول المجتمعون في أم خشيبة بعد نقاشات عن الهجوم والهجوم المعاكس، الوصول إلى الحقائق على الأرض :

- ماذا حل بحصون بارليف ؟
- ماذا يفعل المصريون وأين هم الآن تماماً ؟
- كيف ومتى تسترد القوات الاسرائيلية المبادرة ؟ .

وقد آثر رئيس الأركان الإسرائيلي ديڤيد اليعازار ، ترك السؤالين الأول والثاني دون جواب من حيث تضارب المعلومات الواردة من جبهات القتال، وقد وصل إلى استنتاج يقوم على أساس إيقاف تقدم المصريين بهجمات حذرة ومحدودة تتم عرضانياً على القناة، وقد حذر من الهجوم الجبهي، على أن تستثمر إحدى الفرق تطور القتال في حالة من حالاته ، للعبور إلى الضفة الغربية من القناة ، والالتفاف وراء إحدى الفرق المصرية التي بات نصفها شرق القناة ونصفها الآخر إلى الغرب منها . .

كان على فرقة آدان أن تجري هجماتها المحدودة في القطاع الشمالي من القناة ، وكان على شارون أن يجرّب حظه في الجنوب بمواجهة الاسماعيلية . .

وقد رفض الجنرال غونين ، طلب شارون بضرورة شن هجوم فوري ومباشر لإنقاذ من تبقى في حصون بارليف ، وقال :-

- أريك ، لقد خسرنا اليوم الفائت مئتي دبابة نتيجة للهجمات الإنفعالية غير المُنسّقة، فاصدع لما تُؤمر به . .

لكنه أضاف : إذا تبدل الموقف ، فإنه يمكن النظر في اقتراحك هذا . وهكذا تقيّد شارون بالأوامر ، وظل بعيداً عن القناة ، يتابع هجماته التعرضية المحدودة .

في تلك الأثناء من التطورات الحربية ، كانت الفرقة ١٨ التي يقودها العميد فؤاد عزيز غالي ، قد استردت مدينة القنطرة شرق ، وفي مركز المدينة ، رفع المشاة المصريون ، علم الجمهورية العربية المصرية على مبنى البلدية .

وقبالة القنطرة والفردان نشر الجنرال آدان لوائين مدرعين فيما استبقى الثالث في النسق الخلفي كاحتياط ، وهكذا فقد توفر للجنرال آدان صبيحة الثامن من تشرين مئتي دبابة جاهزة للقتال ، ودون مضيعة للوقت ، فقد وزع أوامره على قادة ألويته الثلاثة للعمل وفق خطة الهجمات المحدودة من شمال القناة إلى جنوبها حسب أوامر خلال الليل ، اعتبرت

بمثابة تغيير للخطة ، فقد وجه غونين نداءً لاسلكياً للجنرال آدان يأمره بموجبه باحتلال الجسر المصري القريب من الفردان ، وقد نشأ جدل بسبب هذا التعديل الذي فات أوانه ، كما أن آدان طلب إذا ما تم الإصرار على الخطة الجديدة ، دعماً جوياً مع عديد بشري وسلاح مدفعية . . ويحلل الاستراتيجيون تبديل غونين للخطة ، بأن ذلك حدث بسبب معلومات توافرت لدى قائد الجبهة الجنوبية بظهور ملامح انهيار مصري ، وقد عاد آدان ليؤكد أن هذه المعلومات تفتقر إلى الدقة ، وأن المصريين من خلال المواجهات الميدانية ، مصممون على القتال ، وهكذا انشطرت خطة آدان في الهجوم إلى قسمين ، ففيما نفذ اللواء الشمالي لفرقته خطة هجوم محدودة ، تكبد خلالها بعض الخسائر في الدبابات والرجال ، أمر لواءه المدرع في الجناح اليساري بالهجوم جبهياً باتجاه القناة نحو جسر فردان ، وفي غضون دقائق احترقت زهاء عشرين دبابة (عشرة دقائق) ، فتوقف الهجوم ، وعاد آدان يوجّه أوامره إلى اللواء الثالث بمتابعة الهجوم باتجاه الجسر المطلوب ، إلا أن هذا اللواء بدوره تعرض لنيران كثيفة من قذائف الساغر (مدفع م . د) وقذائف الآر . ب . ج . ٧ مما أفقده توازنه ، وقد آثر قائد اللواء الاسرائيلي أمام ضغط المصريين الانسحاب بكتائبه الثلاث إلى الوراء ، إلا أن الكتيبة التي يقودها المقدم عساف ياجوري في أقصى اليسار ، كانت قد وقعت في كمين قويّ ، نصبه قائد الفرقة المصرية الثانية (من الجيش الثاني) العميد حسن أبو سعدى ، وقد وقعت الكتيبة (في مقبرة أعدها المصريون لها - حسب تعبير آدان) ، وكان المقدم ياجوري نفسه ، يقع في الأسر ، بعد أن امّحت كتيبته من الوجود .

نقصت فرقة آدان خلال المعارك ، ما يعادل لواءً كاملاً ، وكان عليه حسب أوامر تالية من الجنرال غونين ، أن يوسع نطاق جبهته ليغطي قطاعاً يمتد من البحيرات الكبرى شمالاً إلى الدفرسوار جنوباً (مع بقاء الأعين مفتوحة على واجهة القنطرة) ، وهكذا كلف آدان بتغطية جبهة عرضها حوالي أربعين كيلومتراً ، وفي الساعة الثانية عشر ظهراً أوعز غونين إلى الجنرال شارون الذي يقاتل بألويته المدرعة في مواجهة الاسماعيلية ضد الفرقتين المصريتين ٢ و ١٦ ، أوعز له أن يتحرك بفرقته نحو الجنوب ، وجُنّ جنون شارون حين بدا هذا الأمر من قائد الجبهة الجنوبية غونين ، بأنه سيعطي إشارة انسحاب أمام تقدم القوات المصرية ، لكن غونين رد بفظاظة على احتجاج شارون :

- اسمع اريك ، إنها الأوامر وليس بمقدور أحد أن يرفع صوته في وجهها . . تحرَّك فوراً باتجاه السويس ، وعليك أن تهاجم من هناك باتجاه الشمال الغربي للقضاء على رأس الجسر الذي يرسيه الجيش المصري الثالث هناك .

ثم طلب غونين من الجنرال آدان أن يشغل المنطقة المواجهة للاسماعيلية التي ستخليها قوات شارون .

أعلن آدان بأنه لم يبق لديه سوى ١٢٠ دبابة ، وأن النطاق المطلوب من القنطرة إلى الاسماعيلية بحاجة إلى ضعف هذا العدد على الأقل ، فأجاب غونين : عليك المحاولة .

أصدر آدان أوامر إلى أحد قادة كتائبه بالتوجه نحو واجهة الاسماعيلية ليحل محل القسم المنسحب من قوات شارون ، وخشية التفاف المصريين حول جناحه الجنوبي المكشوف ، طلب إلى قائد الكتيبة أن يتحرك بالرتل (دبابة وراء الأخرى) نحو مرتفع (التاليا) جنوب وشرق الاسماعيلية بالقرب من المزرعة الصينية ، ولكن ما خشي منه آدان فعله المصريون ، فقد التفت كتائب مشاة من الجيش الثاني المصري حول جناح آدان الجنوبي المكشوف ، وأمطرت الكتيبة المتقدمة نحو المزرعة الصينية بقذائف مضادة للدروع ، ومن هناك بدأ قائد الكتيبة الإسرائيلي بتوجيه نداء استغاثة ، لكن آدان الذي أدرك الموقف اليائس ، أمر قائد الكتيبة بالإنسحاب والعودة إلى الانضمام للوحدات العاملة بعيداً عن الاسماعيلية .

أبلغ الجنرال آدان قائد الجبهة غونين بفشله في الوصول إلى المنطقة المقابلة للاسماعيلية ، فأصدر غونين أوامر معاكسة لشارون بالعودة إلى مواضعه السابقة ، وتحقيق اتصال مع قوات آدان لاحتمال شن هجوم مشترك انطلاقاً من المزرعة الصينية باتجاه جسر الجيش الثاني مقابل الاسماعيلية ، فأفاد شارون بأنه لا يستطيع تنفيذ هذه الخطة ، لكنه يستطيع تنفيذ خطة أخرى باتجاه قناة السويس انطلاقاً من منطقة وسط ، ما بين المزرعة الصينية والبحيرات المرّة ، إلا أنه لم يوضح لغونين كيف يمكّنه تنفيذ هذه الخطة ولا يستطيع تنفيذ خطة مشتركة مع آدان ، وهنا رفض غونين خطة شارون الجديدة ، ووجه إليه أمراً بالعودة إلى مواضعه السابقة والإكتفاء بصد الهجمات المصرية ، بانتظار أوامر أخرى .

سيقول غونين قائد المنطقة الجنوبية في وقت لاحق : (**لو عرف المصريون مدى التخبط الذي أصابنا يومي ٧ و ٨ تشرين ، ولو استطاعوا تكثيف هجومهم واختراق جبهة آدان الضعيفة لم يكن ليفصلهم عن تل أبيب سوى فرقة شارون**) (الحروب العربية - الإسرائيلية ، الكولونيل تريفور دوبوي - مركز الدراسات العسكرية بدمشق ص ٥٥٤ - ترجمة اللواء جبرائيل بيطار)* .

---

* يعلق الفريق الشاذلي على معارك الدبابات واصفاً الفرق بين حركة الوحدات المدرعة الإسرائيلية الحرة ، وحركة المدرعات المصرية المرتبطة حسب الخطط بحركة المشاة ، ويعزو ذلك إلى ضعف القوات الجوية عموماً ، فالوحدات المدرعة الاسرائيلية كانت تناور وتتحرك بمنتهى الحريّة للتغطية الجوية ، بينما كنا نستخدم دباباتنا كمدافع متحركة مع صفوف المشاة ، وعندما بدّلنا هذا الاسلوب بقرار سياسي ، خسرنا خلال ساعتين ٢٥٠ دبابة !..

لم يقف المصريون جامدين طيلة الفترة التي كانت تدور فيها المعارك في قطاعي آدان وشارون، فقد شنت الفرقة ١٩ مشاة من قوام الجيش الثالث، هجوماً باتجاه الحصون الاسرائيلية في منطقة عيون موسى، وتمكنت من الاستيلاء عليها، وقد ترك الاسرائيليون أثناء تراجعهم مدافع فرنسية ضخمة من عيار ١٥٥م، وقامت هندسة الفرقة المصرية بتدمير الحصون بغية سحب هذه المدافع منها، إلا أن شدة التفجير كانت قد أتت على الحصون والمدافع بآن واحد.

وفي يوم العاشر من تشرين، قام لواء المشاة الأول من الفرقة ١٩ بالتحرك (قبل حلول الظلام - حسب الأوامر) نحو الهدف التالي منطلقاً من عيون موسى إلى منطقة سدر، وقد ارتأى قائد اللواء أن يتحرك قبل غروب الشمس في الوقت الذي فيه كان قد تم التأكيد من قبل قائد الفرقة على عدم التحرك إلا بحلول الظلام، وهكذا فقد رصد الطيران الإسرائيلي حركة اللواء باتجاه الجنوب، وتركه يتوغل بعيداً عن حماية صواريخ سام التابعة للفرقة، وقد أدى هذا الخطأ، إلى تعرض اللواء لهجوم جوي ليلي شرس، الأمر الذي أدى إلى إخراجه من المعركة نهائياً، وذلك بعد أن فقد زهاء سبعين بالمئة من قواته وعتاده .. ومع ذلك فحتى يوم الخميس الواقع في ١١ تشرين، فإن وضع جبهات القتال المصرية كان ممتازاً من الناحيتين المادية والمعنوية، **إلى أن جاءت الفكرة السياسية عن طريق وزير الحربية (وربما بدوره أو بالتأكيد من خلال رئيس الجمهورية) وكانت الفكرة تقول بتطوير الهجوم نحو المضائق في سيناء، وقد اعترض رئيس الأركان الفريق الشاذلي على هذه الفكرة للأسباب التالية :-**

- هناك تسعمئة دبابة اسرائيلية على خطوط المواجهة مازالت بحالة جاهزية ممتازة للقتال.

- يؤمن الغطاء الجوي الإسرائيلي حركة المناورة الواسعة للدبابات الاسرائيلية، فيما لا تحظى قواتنا بهذا الغطاء، ولا حتى بأقل منه بكثير.

- قواعد سام الصاروخية المتحركة ضد الطيران المعادي قليلة وليس بمقدورها تغطية جميع القوات المصرية المهاجمة.

وقد استشهد الشاذلي أمام وزير الحربية، بحادثة لواء المشاة التابع للجيش الثالث الذي دُمِّر بكامله قبل يوم نتيجةً لمثل هذا الخطأ.. **وبدا أن وزير الحربية قد أغلق الموضوع في وجه رئيس الأركان.**

في اليوم التالي (١٢ تشرين) عاد وزير الحربية للمطالبة ثانية بتطوير الهجوم نحو المضائق (١٥ كيلومتراً شرق القناة) ، وقد قال هذه المرّة : **القرار سياسي ، ويجب تنفيذه بدءاً من صباح يوم ١٣ اكتوبر ، وذلك للتخفيف عن الجبهة السورية . وصمت رئيس الأركان ، فما كان بمقدوره إلا أن ينفذ مثل هذا القرار السياسي ، وعلى عجل فقد تم توزيع خطط الهجوم المعدة سابقاً على قادة الجيشين الثاني والثالث .**

أبدى اللواء سعد مأمون قائد الجيش الثاني امتعاضه لمثل هذه الأوامر غير المدروسة ، وطلب إلى الشاذلي أن ينقل لوزير الحربية رغبته في الإستقالة من الجيش . كذلك فعل اللواء عبد المنعم واصل ، قائد الجيش الثالث .

طلب وزير الحربية بعد سماعه أخبار الرغبة بالاستقالات ، اجتماع قادة في المركز ١٠ (مركز سري لقيادة الجيش المصري في موقع متقدم من الجبهة) وامتد الإجتماع زهاء خمس ساعات كرر خلالها قادة الجيوش مخاوفهم من هذه القفزة في المجهول ، ومع إصرار وزير الحربية ، فإنه لم يكن بالإمكان سوى الظفر بتأجيل الهجوم من فجر ١٣ اكتوبر إلى فجر ١٤ أكتوبر .

وكانت خطة الهجوم تتلخص في التالي :-

- لواء مدرع باتجاه ممر متلا في القطاع الجنوبي .
- لواء مشاة ميكانيكي باتجاه ممر الجدي في القطاع الجنوبي .
- لواءان مدرعان باتجاه موقع الطاسة في القطاع الأوسط .
- لواء مدرع باتجاه موقع بالوظة في القطاع الشمالي .

وبالمختصر ، فقد كان على القوات المصرية أن تطور هجوماً بقوة ٤٠٠ دبابة في مواجهة ٦٠٠ دبابة اسرائيلية قائمة على حراسة المضائق المطلوبة ، حسب استطلاعات أرضية وجويّة .

لقد نجح العدو في استدراج القوات الاستراتيجية المصرية إلى مقبرة أعدها بعناية ، وكان بارليف قد تولى القيادة بنفسه عوضاً عن الجنرال غونين ، وبعد أن توغلت القوات المصرية مسافة من ١٠ - ١٢ كم باتجاه المضائق ، دارت رحى معارك طاحنة مع الدبابات الإسرائيلية المعززة بطائرات الهليوكبتر القانصة للدبابات ، كما استخدم الاسرائيليون مدافع تاو الأمريكية الحديثة المحمولة على عربات الجيب ، وخسر الجيش المصري ٢٥٠ دبابة في ظرف ساعتين ، أي مجموع ما فقدته القوات المصرية خلال ثمانية أيام منذ

العبور، وقد تأكد لرئيس الأركان المصري، وقادة الجيشين الثاني والثالث، صحة ما تنبئوا به قبل الهجوم، وفي الساعة الثانية من بعد ظهر يوم ١٤ أكتوبر، كانت بقايا القوات المصرية تقفل عائدة إلى المواضع التي انطلقت منها بشكل محزن.

كانت معركة ١٤ تشرين، أول ضربة جسيمة يتلقاها الجيش المصري بعد العبور، بحيث شكلت انعطافاً تمهيدياً لفاصل الدراما المقبلة عند ثغرة الدفرسوار، ونتيجة للصدمة النفسية، فقد أُخلي اللواء سعد مأمون إلى أحد مستشفيات القوات المسلحة، طوال يومين كاملين، وبدا أن انهياراً نفسياً كاد يعصف بالجميع، خاصة أولئك الذين حذّروا من مغبة هجوم مكشوف إلى هذه الدرجة *، علماً أنه مع تطور العمليات، فإن الجنرال بارليف الذي أشرف على معركة الدروع، طلب الإذن من وزير الدفاع ورئيسة الوزراء مائير، استثمار الفرصة السانحة لشن هجوم معاكس ضد المنسحبين، مع إمكانية تطوير هذا الهجوم، على الجانب الغربي من قناة السويس، ولأسباب دولية أو عسكرية، فقد رفض الجنرال دايان وزير الدفاع هذا الإقتراح.

بين العاشر والرابع عشر من تشرين، حدثت تطورات مهمة ذات علاقة بالجبهة الشمالية، فقد أعلن العراق عن دخوله الحرب رسمياً، وكان قد دفع إلى هضبة الجولان السورية، زهاء ١٨ ألف رجل مع عدة مئات من الدبابات وآليات المشاة الميكانيكية، كما وضع مئة طائرة مقاتلة متأهبة في أقرب قواعد جوية، إلى سوريا والأردن.. وفي اليوم نفسه، أعلن الأردن عن إعلان حالة التعبئة ودعوة الإحتياطي إلى صفوف القوات المسلحة.

من جهة ثانية، فقد فشلت جهود اللواء جولاني الاسرائيلي باسترداد مرصد جبل الشيخ للمرة الثالثة، إلا أن الإسرائيليين بعد أيام الدفاع الأولى ٧ و ٨ و ٩ من تشرين، وضعوا خيارات ثلاثة للانتقال إلى الهجوم ما بعد الخط البنفسجي، وكان الخيار الأول هو التقدم انطلاقاً من شمال الجولان باتجاه دمشق لتهديد العاصمة السورية، حيث يشكل جبل الشيخ حماية لجناح هجومهم اليساري.. أما الخيار الثاني فتبدى في قطع طريق دمشق - درعا، حيث تهديد العاصمة يكون في مثل هذا الخيار من الناحية الجنوبية والشرقية لمدينة دمشق، والخيار الثالث، هو التقدم بهجوم عريض، يشمل كافة قطاعات الجبهة، بحيث

---

* يقول الفريق الشاذلي رئيس الأركان، الذي وقف بصلابة ضد فكرة الهجوم إلى الممرات، أنه أجرى سيناريوهات عديدة، لشن مثل هذا الهجوم من قبل، إلا أن قلة القواعد الصاروخية المتحركة ضد الطيران، كان يحول دون تنفيذ هذه الفكرة على الدوام، ومع ذلك فإن قرار الهجوم كان سياسياً قبل كل شيء..

يُحرم الدفاع السوري من ميزة التركيز ، إلا أن هذا الخيار كان قد استبعد بالنظر إلى احتياجاته العسكرية الكبيرة . . وكان الخيار الأول في التقدم نحو دمشق انطلاقاً من القطاع الشمالي ، هو الراجح .

في الحادي عشر من تشرين ، شنت الأرتال الاسرائيلية المدرعة أول هجوم لها عبر الخط البنفسجي (خط الهدنة القائم بعد حرب حزيران) ، وقد انقسمت إلى ثلاثة أسهم ، الشمالي باتجاه حَضَر - مزرعة بيت جن ، والأوسط باتجاه خان أرنبة وتل شمس ، أما الجنوبي ، فقد هيأ لانر فرقته للخرق عبر الطريق الرئيسي بين القنيطرة ودمشق .

أحرز الهجوم الاسرائيلي تقدماً عند تقاطع الطريق بالقرب من حضر ، إلا أن الهجوم الاسرائيلي عند التقاطع في خان أرنبة ، خسر عشرين دبابة فأوقف إيتان التقدم عبر هذا المحور ، وتحت ستار من القذائف المتبادلة ، تم سحب بعض الوحدات السورية ، بطريقة منظمة ، إلى مواقع دفاعية تبادلية بالقرب من سعسع ، وكانت الفرقة المدرعة السورية الثالثة ، قد أقامت لها خطاً دفاعياً إلى الجنوب الغربي من العاصمة دمشق بالقرب من سعسع أيضاً ، وهكذا بدت الدفاعات الجديدة متينة نسبياً ، إلا أن حجم الخسائر السورية من الدبابات كان قد بلغ زهاء ألف دبابة مع انقضاء اليوم السادس من القتال ، وكان الدفاع الجوي السوري قد تعرض لأضخم هجوم جوي اسرائيلي يوم التاسع من تشرين ، مما أصاب النظام الصاروخي ببعض الخلل ، حين كان عليه أن ينتقل من موضع إلى آخر ، كما أن أهدافاً حيوية استراتيجية (موانىء ، محطّات كهرباء ، مصانع ، مصافي بترول ومنشآت أخرى تعرّضت لقصف شامل ، في الثاني عشر من تشرين ، تمكنت فرقة لانر الاسرائيلية من تحقيق خرق على المحور عبر قرية جبا وكفرناسج ، وكانت تقصد في مهمتها احتلال تل الشعار ، منحرفة إلى الشمال نحو دير العدس شرقي قرية كناكر ، وكان الهدف هو تطويق الدفاعات السورية غربي سعسع ، حيث كانت الفرقة المدرعة السورية الثالثة ، تصدّ هجوم إيتان القادم من شمال المحور الاسرائيلي ، وفيما كان الجنرال لانر يهيىء لمساعدة إيتان ، لاحظ من خلال المنظار الحربي ، فوق تل الشعار ، أعمدة عالية من الغبار تحتها زهاء مئة دبابة ، تتقدم نحو جناح فرقته الأيمن والمكشوف ، ولم يكن لانر يعرف حقيقة الوضعية القتالية الجديدة الناشئة ، لكنه سرعان ما أُخطر بأن هذه القوات المهاجمة ، هي الفرقة المدرعة العراقية الثالثة ، وهكذا سارع لانر إلى سحب اللوائين ١٧ و ١٩ المدرعين من كناكر ، فيما أمر لوائين آخرين ٧٦ و ٢٠ بالإنتشار والتأهب لملاقاة الهجوم العراقي المدرع من وضعية دفاعية ثابتة ، وهكذا اضطر لانر إلى صرف النظر عن محاولة تطويق الدفاعات

السورية خلف جبهة سعسع ، بانتظار التعامل مع القادم الجديد ، حيث بوصول اللواء الثالث ، تعزز وضع الفرقة العراقية ، (زهاء ثلاثمئة دبابة) وفي صباح يوم ١٣ تشرين بدأ العراقيون تقدمهم باتجاه تل الشعار الذي سبق لقوات لانر احتلاله ، ومع انتشار زهاء مئتي دبابة اسرائيلية مع مئة مدفع مضاد للدرع من نوع تاو المحمولة على عربات الجيب ، تعرض الهجوم العراقي المدرع لخسائر فادحة ، فقد أعطب ودُمّر خلال الساعات الأولى من الهجوم قرابة خمسين دبابة وعربة عراقية ، وكان اللواء الميكانيكي العراقي الثامن ، أكثر تعرضاً للخسارة في الرجال والعتاد ، **وقد مهر العراقيون أرض العرب في الجولان بدماء زكية من أرض الرافدين ، ورغم تواضع النتائج لأول هجمة عراقية في أرض المعركة ، فإنه كان لتقاطر القوات العراقية السريع ، أعظم الأثر في إفساح المجال للقوات السورية المدافعة بالتحرك لسد ثغرة حضر - بيت جن ، كما أصبح بمقدور بقية القوات المدافعة أن تتحرك على المحاور الخطرة بعد أن تم تأمين الجناح اليساري للقوات السورية ، بالفرقة العراقية ،** ولم يتح لهذه الفرقة أن تجرب حظّها ثانية ، بسبب توقف الهجوم الاسرائيلي بالكامل ، والإنتقال إلى مواضع التحصين والدفاع ، فيما كانت الفرقة المدرعة السورية الثالثة ، قد تمكنت من إيقاف التقدم الاسرائيلي على محور سعسع طوال أيام ١١ و ١٢ ، ١٣ من تشرين ، وكان الهجوم بقوة فرقتين اسرائيليتين قادهما إيتان ولانر ، فيما كانت فرقة بيليد الثالثة ، بانتظار الأوامر لتعميق الهجوم . .

على الجبهة المصرية ، وإثر الهجوم المدرع الخاسر ، الذي أُطلقت بموجبه الدبابات نحو المضائق ، فإن الوضع ظل واجماً متوثّباً ، لا ينقصه سوى إعادة تصوير وضع القوات المصرية قبل الهجوم (١٤ تشرين) وبعده . .

فقد كان مجموع ما تمتلك مصر من الدبابات عند اندلاع الحرب ١٧٠٠ دبابة ، وقد تم حشد ١٣٥٠ دبابة باتجاه القناة ، كما وزّعت ١٠٠ دبابة أخرى باتجاه مناطق محتملة قريباً من البحر الأحمر ، وتم الاحتفاظ بالباقي (٢٥٠ دبابة) كاحتياطي استراتيجي .

وطبقاً للخطة ، فقد تحتم على الجيشين الثاني والثالث العبور نحو شرق القناة بقوة ١٠٢٠ دبابة وأن يتم الاحتفاظ بـ ٣٣٠ دبابة غرب القناة لحماية ظهر الجيشين العابرين ، وقد وزّعت بدورها على ملاكات الفرقة ٢١ المكلفة بحماية ظهر الجيش الثاني والفرقة ٤ المكلفة بحماية ظهر الجيش الثالث ، وكان بمقدور هاتين الفرقتين غرب القناة ، سحق أي اختراق تقوم به القوات الاسرائيلية على طول القناة .

لم يكن صحيحاً أن فتحة الدفرسوار الواقعة بين رأس البحيرات المرّة والحزام الأخضر

على طول القناة العذبة الموازية لقناة السويس وهي حدّ الفصل بين الجيشين الثاني والثالث . هذه الفتحة التي يعرفها المصريون جيداً ، كانت هكذا بلا حماية . . إلا أن قرار تطوير الهجوم الذي اتخذ مساء يوم ١٢ تشرين ونُفّذ يوم ١٤ تشرين ، كان قد دفع الفرقتين ٢١ و ٤ المرابطتين غرب القناة لمقاومة أي خرق محتمل ، إلى شرق القناة لتعزيز الهجوم المقترح . ولم يعد غرب القناة لمواجهة احتمال الخرق ، سوى لواء مدرع واحد ، وهكذا اختلت الموازين وأصبح الموقف مثالياً لاجراء خرق إلى الجهة الغربية من القناة . وفي حوالي الساعة الواحدة والنصف من ظهر يوم ١٣ تشرين ، حلقت طائرات استطلاع من نوع أمريكي ، على ارتفاعات شاهقة ، وقامت بمسح شامل لأوضاع القوات المصرية على طرفي القناة بدءاً من القنطرة شمالاً وحتى السويس جنوباً ، وقد خرجت من المجال الجوي المصري دون أن تصاب بأذى *.

طالب رئيس الأركان المصري الفريق الشاذلي ، استعادة الفرقتين الاحتياطيتين ٢١ و ٤ إلى غرب القناة بعد فشل الهجوم باتجاه الممرات ، وذلك لإعادة التوازن إلى الموقف الدفاعي على جانبي القناة ، وقد أشفع طلبه باقتراح مكتوب إلى وزير الحربية الفريق أول أحمد اسماعيل ، إلا أن الاقتراح رُفض لأسباب معنوية قد تؤثر على نفسية الجنود في المعركة ، وذلك كما جاء في أسباب الرفض ، وأنَّ العدو قد يزيد من ضغطه عندما يرى (قواتنا وهي تنسحب إلى الجانب الغربي من القناة) ، وإضافة لذلك ، **فإن سبباً سياسياً آخر كان وراء رفض سحب القوات إلى الغرب ، وهو أن السادات كان قد قرر يومها إلقاء خطاب قوي أمام مجلس الشعب المصري ، تصل أصداؤه إلى أمريكا واسرائيل ، بل والعالم أجمع !..**

(أيها الاخوة والأخوات. . لقد فكرت أن أبعث إلى الرئيس ريتشارد نيكسون بخطاب نحدد فيه موقفنا بوضوح . . لكنني ترددت خشية إساءة التفكير . . وقررت عوضاً عن ذلك ، أن أوجه له كلمة مفتوحة من هنا . . رسالة لا يمليها الخوف ولكن تمليها الثقة . . رسالة تصدر عن رغبة حقيقية في صونْ السلام ودعم الوفاق . . .).

ثم راح الرئيس السادات في خطابه يوم ١٦ اكتوبر ، يحدد نقاط مشروعه للسلام وفق

---

* أفاد قائد الدفاعات الجوية المصرية اللواء محمد علي فهمي ، أن الطائرات الاستطلاعية هي من نوع SR.71 الأمريكية ، وكانت تحلق خارج أمدية الصواريخ على ارتفاع يبلغ ثلاثين كيلومتراً . بسرعة ٣ ماك في الساعة ، ولم يكن في تلك الفترة مَنْ يستطيع اللحاق بها سوى الطائرة السوفيتية من نوع ميج ٢٥ التي لم تكن متوفرة آنذاك .

المحاور التالية :-

- لقد قاتلنا وسنستمر في القتال لتحرير أراضينا واحترام الحقوق المشروعة لشعب فلسطين .
- على استعداد لوقف إطلاق النار على أساس الإنسحاب الاسرائيلي إلى خطوط ما قبل الخامس من حزيران ١٩٦٧ .
- على استعداد كامل لحضور مؤتمر للسلام في الأمم المتحدة، بعد انسحاب اسرائيل من الأراضي المحتلة .
- سوف تُبذل الجهود من أجل إقناع القادة العرب وممثلي الشعب الفلسطيني لحضور المؤتمر الدولي للسلام .
- على استعداد هذه الساعة ، بل وهذه الدقيقة للبدء بتطهير قناة السويس ، وقد صدرت الأوامر بالفعل للمباشرة بالتطهير حال إتمام تحرير الضفة الشرقية للقناة .
- لسنا على استعداد بعد الآن ، لسماع وعود مبهمة أو عبارات مطّاطة ، تقبل كل تأويل وتستنزف الوقت بما لا رجاء فيه . .

كانت جولدا مائير قد أجلت خطابها لسماع خطاب السادات أولاً ، ولإضطرارها حضور جلسة مغلقة للجنة الأمن والدفاع في الكنيست الاسرائيلي ، ثم بعد ذلك راحت تتدفق عبارة وراء أخرى :-

- إن اسرائيل لا تُعاني وحدها من الدور الشرير الذي يضطلع به الإتحاد السوفييتي بل والعالم الحر بأجمعه .

(وكان ذلك لاستثارة الرأي العام الأمريكي وأوروبا) . .

- إن اسرائيل ترفض شروط وقف إطلاق النار وفق المشروعات التي تناقش في مجلس الأمن في هذه الأيام .
- **ثم كانت القنبلة في ختام الخطاب : (إن قواتنا تحارب بشجاعة على ضفتي القناة شرقاً وغرباً . . .) .**

كان السادات بعد فراغه من خطابه وعودته من مجلس الشعب إلى قصر الطاهرة ، لا يعلم شيئاً عن حقيقة ما يدور على ضفاف القناة ، إلا أنه تلقى خبراً عن طريق برقية صادرة عن وكالة الأسيوشيتد برس تقول بأن القوات الإسرائيلية تحارب شرق وغرب القناة وهو ما أعلنته رئيسة الوزراء الإسرائيلي مائير .

وبدا أن السادات قد استنكر ما قرأ ، وقد عوّل على الإتصال السريع بوزير حربيته الفريق اسماعيل ، حيث أفاده بأن هناك :

(شوية دبابات غرب الدفرسوار تبرجس كده) * ! . .

وعند الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٦ اكتوبر ، كانت وكالات الأنباء ملأى بأخبار المعارك الطاحنة غرب فتحة الدفرسوار المشؤومة .

يقول الفريق الشاذلي في مذكراته معترفاً : لقد فشلت قيادة الجيش الأمامية في تحديد حجم ومكان القوات المعادية غرب القناة ، علماً بأن قواعد لصواريخ سام على عمق ١٥ كيلومتراً غرب القناة ، كانت قد هوجمت من قبل دبابات معادية .

بعد ظهر يوم ١٦ تشرين ، عُقد اجتماع قادة برئاسة وزير الحربية في مركز القيادة رقم ١٠ وكان الخلاف واضحاً بين الوزير ورئيس أركانه ، فقد طلب الوزير أن تقوم الفرقة الرابعة ومن ضمنها اللواء المدرع ٢٥ بتوجيه ضربة لسد الثغرة في الدفرسوار من الناحية الشرقية لقناة السويس ، وكان اقتراحه هذا مسكوناً بفزع سحب القوات من الشرق إلى الغرب ، غير أن رئيس الأركان ظل يطالب بتطبيق الخطة الموضوعة أصلاً لهذه الفرقة ، وذلك بسحبها ليلاً إلى مواضعها القتالية غرب القناة ، على أن تقوم بتوجيه الضربة من الغرب إلى الشرق باتجاه الثغرة صباح اليوم التالي . وكان رئيس الأركان يرى ميزة إضافية لهذه الخطّة ، وهي أن الفرقة الرابعة ستكون مغطاة تماماً بشبكة من الدفاعات الجوية ، فضلاً عن أنها مأمونة الأجناب عند قتالها منطلقة من الغرب إلى الشرق ، وقد أيد قائد الجيش الثالث اللواء واصل ، كما أيد قائد الفرقة الرابعة مقترحات رئيس الأركان ، إلا أن وزير الحربية استمر على موقفه . .

وبعد ساعات قليلة وصل الرئيس إلى مركز القيادة العسكري ، وما أن سمع باقتراح سحب جزء من القوات إلى غرب القناة ، حتى جُنّ جنونه ، وراح يضرب على الطاولة بعد أن فقد أعصابه تماماً ، ثم راح يهدد بالإحالة إلى المحاكم الميدانية : (كل من يقترح سحب القوات من شرق القناة ! . .) ، وقد خشي الشاذلي وقواد فرقه ، من سورة الغضب التي انتابت السادات ، وأدركوا أن الرئيس في وضع يصعب معه التفريق بين الإنسحاب (على طريقة العام ١٩٦٧) ، وبين المناورة بالقوات (على طريقة جيوش العالم حسب

---

* البرجسه في اللهجة العامة المصرية ، هي رقص الخيل ، وليس معروفاً حتى اليوم . فيما إذا كان وزير الحربية لا يعلم حقاً ما يدور ، أو أنه أراد إخفاء الحقيقة عن السادات ، وهو يعلم !..

المستجدات والضرورات) ، ثم أغلق الاجتماع بعاصفة هوجاء من صخب التقريع ، قائلاً (مفيش قوات تنسحب من الشرق ، عليكم سد الثغرة بالقوات المتوافرة غرب القناة) وانصرف . . وفهم الجميع لماذا يصرّ وزير الحربية على مقترحاته ، خشية غضب السادات وبطشه ! . .

كان الوضع العسكري ، قد أصبح عقيماً عند الثغرة مع فجر يوم ١٧ تشرين الأول ، فقد تسلل إلى غرب القناة خلال يوم وليلة ، لوائين اسرائيليين الأول مدرع والآخر مشاة ، وكانت فرقة مدرعة من ثلاثة ألوية تابعة للجنرال شارون ، تقف متأهبة للعبور بعد أن سُدَّت جميع المحاور على الجانب الشرقي للقناة ، خشية هجوم قوات مصرية من الشمال الشرقي أو الجنوب ، إلا أن التشكيلات الأساسية المصرية ، الجيش الثاني والثالث شرق القناة ، ظلت بناء على الأوامر العليا ، مرتبطة بمواقعها دون حراك ، فيما أُسند للفرقة ٢١ المصرية المنهكة جراء القتال الضاري خلال ثلاثة أيام سابقة ، مهمة سد الثغرة من الجانب الشرقي لقناة السويس ، وكان على اللواء المدرع ٢٥ وحده مهاجمة القوات الإسرائيلية من جهة الجنوب بمحاذاة الضفة الشرقية للقناة ، وقد وقع اللواء في كمين نصبته فرقة شارون المتأهبة للعبور ، فدمر تدميراً كاملاً ، فيما راح يصرخ اللواء واصل قائد الجيش الثالث ، على الجهاز (لا حول ولا قوة إلا بالله ، الرحمة للشهداء ، وبالله المُستعان) ، وقد بكى الشاذلي عند سماعه صراخ اللواء واصل ، ولكن كان عليه أن يجمع شتاته ، بعد أن انقلب الوضع في الجبهة على نحو خطير . .

لقد سارت معركة الدفرسوار ، وفق أوامر السادات ، الذي سبق له أن وعد القادة العسكريين بعدم التدخل (شوفو شغلكم وأنا بانتظار النتائج - يوم ٥ اكتوبر-) ، ووفق اللوحة المختصرة التالية :

- أخفق اللواء المصري ١١٦ مشاة المتقدم من الغرب إلى الشرق بسد الثغرة ، نظراً للتفوق الاسرائيلي غرب القناة نفسها (لواء مدرع + لواء مشاة فجر ١٧ اكتوبر).
- نجحت الفرقة المدرعة المصرية ٢١ بقطع الطريق المؤدي إلى الدفرسوار من الجانب الشرقي للثغرة ، إلا أنها فشلت في سد المحور الرئيسي للتسرب الاسرائيلي من جهة جنوب الثغرة ، حيث قوات الفرقتين الاسرائيليتين للجنرالين شارون وبيرن .
- دمر اللواء المدرع المصري ٢٥ في مواجهة غير متكافئة نهائياً، بينه وبين ثلاثة ألوية اسرائيلية مدرعة جنوب الثغرة على الشاطئ الشرقي لرأس البحيرات المرّة . .

وهكذا مع ليلة الثامن عشر من تشرين ، كان الاسرائيليون يقيمون رؤوس الجسور لعبور ٦ ألوية مدرعة مع لوائي مشاة ، (نصفها بقيادة شارون والنصف الآخر بقيادة الجنرال بيرن) ، ثم أخذت القوات الاسرائيلية بالإلتفاف في شكل مروحة خلف الجيش الثالث المصري ، فضلاً عن إبادة الجزء الأعظم من قواعد الصواريخ الجوية ، مما أتاح المجال حراً ، لمعاودة نشاط الطيران الإسرائيلي فوق القوات المصرية دون تعكير . .

أصر المجلس العسكري الأعلى المشكل من القادة : رئيس الأركان العامة سعد الدين الشاذلي ، عبد الغني الجمسي رئيس عمليات الجيش ، محمد علي فهمي قائد سلاح الدفاع الجوي ، حسني مبارك قائد القوى الجوية ، سعيد الماحي قائد سلاح المدفعية ، فؤاد نصار رئيس المخابرات العسكرية . . على ضرورة استدعاء الرئيس ، يوم ١٩ تشرين الأول ، إلى مركز القيادة رقم ١٠ لشرح الموقف الجديد ، الذي ينبئ بقرب وقوع كارثة عسكرية . .

وقد اعترض وزير الحربية بحجة الوقت المتأخر ، إلا أن إصرار رئيس الأركان وموافقة القادة العسكريين على موقفه ، أدى إلى تراجع الوزير ، وبالفعل فقد تم الاتصال بالسادات ، فوافق على الحضور ، وفي الساعة الحادية عشر والنصف ليلاً . كان السادات في غرفة وزير الحربية الملاصقة لقاعة مكتب القادة . .

طلب السادات إلى كل قائد عسكري ، أن يعيد على مسامعه تقييم الموقف وفق المستجدات الحاصلة ، إلا أنه لم يطلب من رئيس الأركان العامة الفريق الشاذلي أن يبدي رأيه في الوضع القائم . . وبعد أن فرغ الجميع ، رد السادات بكل عناد (لن نقوم بسحب أي جندي من الشرق) ، وكان الموقف غريباً ، بعد المحاولة الخامسة لإنقاذ الموقف ، وخاصة أن نصف قوات الجبهة الجنوبية للجيش الاسرائيلي ، أصبحت شرق وغرب القناة عند الدفرسوار ، وأن القوات المصرية الرئيسيةفي وسط الجبهة وشمالها ، يتم تثبيتها بألوية مدرعة اسرائيلية زهيدة ، ناحية الجانب الشرقي للقناة ، فيما يقاتل اللواء المظلّي ١٥٠ المصري مع لواء مشاة آخر ، جميع القوات الاسرائيلية التي بدأت بالإنقسام شمالاً نحو الاسماعيلية ، وجنوباً نحو السويس غرب القناة وبموازاتها . .

ليلة التاسع عشر على العشرين من اكتوبر ، دفعت القيادة الإسرائيلية بفرقة مدرعة ثالثة غرب القناة ، بقيادة الجنرال ماغن ، وخلال القتال الضاري (استماتة اللواء المظلي المصري في القتال ضد قوات شارون المتقدمة نحو الاسماعيلية) فإنه في الأيام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ من تشرين لم تتمكن القوات المندفعة من خلال الثغرة ، سوى احتلال بضعة

كيلومترات (١٠ كم في رقع قتالية متداخلة) ، بحيث تشابكت الأوضاع إلى درجة يمكن معها القول ، بأن قوات الطرفين ، باتت تطوق كل منها مؤخرة الطرف الآخر ، ولم تفلح القوات الإسرائيلية بإحكام الطوق حول الجيش الثالث المصري إلا بعد أن استفادت من وقف إطلاق النار يوم ٢٢ اكتوبر ، حيث فشل شارون في الاسماعيلية ، ونجح كل من بيرن وماغن ، في دفع فرقتيهما باتجاه الجنوب نحو مدينة السويس ، إلا أن تشكيلة زهيدة من وحدات المشاة والوحدات الإدارية ، نجحت في إيقاف التقدم الاسرائيلي نحو المدينة ، وفي صباح الثالث والعشرين من تشرين ، أطلق الاتحاد السوفييتي أول إنذار له بعد أن استنفر زهاء فرقتين مظليتين (٥٠ ألف مظلي) ، وردَّ نيكسون على الإنذار بالمثل ، فاستنفر قوات المارينز المصحوبة بحماية الأسطول السادس العامل في المنطقة ، وكان العالم بعد أزمة الصواريخ الكوبية ، يلتقط أنفاسه خشية اندلاع حرب عالمية لا تبقي ولا تذر ، وبالغ كيسنجر في تصوير الوضع المقدم على كارثة . .

عملياً ، فقد توقفت حرب تشرين على الجانب المصري يوم ٢٨ منه ، بوصول قوات الأمم المتحدة إلى خطوط الاشتباكات ، وقد طالبت مصر بعودة القوات إلى سابق وضعها يوم قرار الأمم المتحدة بوقف إطلاق النار في ٢٢ من تشرين ، إلا أن اسرائيل ، قالت على لسان دايان ، بأن الله وحده ، يعلم كيف كانت الخطوط في اليوم المذكور . . ورفضت الاقتراح .

كان كيسنجر الذي سمع خطاب السادات عن السلام في مجلس الشعب المصري قبل الثغرة ، واستغاثته بالسوفييت بعدها ، قد لمح فرصة ثمينة ، بوضع مصر على طريق منفرد نحو السلام مع اسرائيل ، وهذا ما قدر له أن يكون أكبر كابوس للشريك الذي لم يتم التشاور معه حول أسس وقف إطلاق النار ، لذلك فقد رفضت سوريا ، رغم علمها أنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً بمفردها ، قرار وقف إطلاق النار ، وفي اليوم نفسه الذي اتخذ فيه القرار (ليلة ٢٢/ ٢٣ تشرين) ، شن الاسرائيليون هجوماً مركزاً مدعوماً بالطائرات والحوامات ، وتمكنوا من استرداد الموقع الحصين في مرصد جبل الشيخ . . وأمام ضيق الخيارات المتاحة ، فقد قبلت سوريا بقرار وقف إطلاق النار تحت الرقم ٣٣٨ ، الذي لم ينص على كلمة (الإنسحاب) أو (فلسطين) ، وكان ذلك في وقت متأخر من اليوم ٢٣ تشرين الأول بعد مشاورات عربية وداخلية . .

في النهاية استطاعت الولايات المتحدة عن طريق مبعوثها القوي كيسنجر ، أن تثني اسرائيل عن بلوغ الإنتقام بالنسبة للسادات ، حيث رأى كيسنجر في الرئيس المعتدل ما

ينفع اسرائيل نفسها ، بأكثر مما يضرّها ، وأنها الفاتحة لسلم منفرد ، يعقبه سلام على الجبهات المجزأة العربية ، وأن الحكمة تقتضي إرضاء الشريك الأقوى بين العرب ، وأن سيناء رملية كثمن لإخراج مصر من دائرة الصراع ، أفضل من مصر محاربة بسبب سيناء وفلسطين .

◆◆◆

ثالثاً / لا حرب بلا أخطاء .. ولكن !..

لا تُرى أخطاء الحرب كمجهود بشري متكامل إلا بعد وقوعها ، كما أن التاريخ البشري كله ، لم يشر إلى حرب خالصة من الشوائب والعثرات أو الأخطاء ، وتلك هي طبائع الحياة ، فإدارة مئات الألوف من البشر ، مع ما يلزمهم من مئات الألوف من أطنان الحديد والعتاد والمهمات التي قد يصل وزنها إلى ثلاثين كيلوغراماً على ظهر الجندي المشاة . . مع براكين النار المندلعة ، كلها أعقدُ من أن تُساق بعصاة ماريشال ، إذ أن عصاة الماريشال للسلم لا للحرب . . ولا شك أن الفرق الموضوعي عادة ، ينشأ بين فريق أقل خطأ من الفريق الآخر ، وهو ما سيرسم في النهاية آفاق الحرب ونتائجها من بعيد . .

إن الحرب في الأساس ، مسألة نظرية محضة ، وهي كسائر النظريات تحظى بنصيبها من الفشل أو النجاح أثناء إحالتها إلى الواقع ، ومع ساعة الصفر ، تجري الخطط والنفوس البشرية معها كشلال حطّته المقادير من عل ، فإذا هو بمجراه الرئيسي يرتطم في القيعان ، فيما تتناثر ملايين ذراته ذات اليمين وذات الشمال ، بعد مركز السقوط أو قبله . . . ومهما قيل عن حرب تشرين ، فإن مبدأها الأول ، هو أن الإنسان العربي العادي هو بطلُها الحقيقي ، وفوق البطولة والمشاعر المتصاعدة في الدراما الإنسانية ، فإن النجاح والفشل ، هو قانون الحياة المزدوج ، أما التعريض بمقولة التحريك على الجبهة المصرية ، فأغلب الظن أنه جرى لاحقاً لا كفرضية بل كنتيجة ، حين خسرت الجبهة المصرية (يوم ١٤ تشرين) أكثر من ثلث عتادها المدرع في معركة الممرات الفاشلة ، وكانت الصدمة تقع كفأس فوق الرأس ، ومع ذلك ، فإن الوضع عملياً ، لم يكن مظلماً إلى الدرجة التي فيها تصوّره ، أو تمّ تصويره للرئيس المصري آنذاك .

كانت سلبيات تشرين ، تكمن في عدم التنسيق الكامل بين الجبهتين المصرية والسورية عملياتياً ، وباستثناء التحضير المسبق ، يوم البدء وساعة الصفر ، فإن الجبهتين انطلقتا

بايقاع خاص لكل منهما ، مع درجة من الاستقلال التام في حرية الحركة ، والاندفاع والتوقف والتراجع ثم التقدم من جديد . . . في الوقت الذي كان على القائد العام للجبهتين (وزير الحربية المصري) أن يصارع الساعات والدقائق ، فيما يرى أولا يرى وجوب تحقيقه وتكييفه مع المجرى العام ، لحركة القوات شرق القناة وغرب الخندق على جبهة الجولان ، وللتاريخ ، فإن أحداً لم يطلب من القائد العام رأياً ، ولا هو تطوع بنفسه للإشراف ، على ما كان يحلم به ، وهو أن يكون مونتجمري العرب في حرب تشرين . . .
ولم يكن التنسيق العسكري اليومي مفقوداً بين الجبهتين فحسب ، بل والتنسيق السياسي أيضاً ، ففيما راح السادات يوم ١٦ أكتوبر يلقي خطابه الشهير في مجلس الأمة المصري ، متحدثاً عن مشروع للسلام بعد إيقاف الحرب ، كانت دمشق ، على الطرف الآخر من الكوكب ، غير عالمة بما جرى ، وما يدور ، وهي شريكة النار والدم والمصير على جبهات القتال الملتهبة في كل مكان . .

على الجبهات المتباعدة أيضاً ، فإن معركة القطاع الشمالي حول مدينة القنيطرة السورية ، أديرت بعقلية الفرسان ، رغم أن الحروب الحديثة قد باعدت بينها وبين حروب الفرسان منذ قرون ، وربما كان هاجس استرداد المدينة بالذات هو المسيطر ، مما أفقد القوات السورية مرونة الإنسحاب ، والتهيؤ لمناورة أخرى ، وكان وضع القوات المعادية الهزيل ، يسمح باجراء أي نوع من المناورات البديلة ، كتثبيت قطاع ، واستثمار الفوز في قطاع آخر* ، تماماً مثل ما فعلت القوات الاسرائيلية على قطاعات الجبهة المصرية يوم الثغرة ، حين قامت بمناورات خداعية في مواجهة الجيش الثاني وجزء من الجزء الثالث ، حيث كان الهدف ، تثبيت الحجم الأكبر من قوة الجيش المصري ، بوحدات مدرعة متواضعة ، فيما الجهد الرئيسي (ثلاث فرق مدرعة بحدود ٦٠٠ دبابة مع وحدات مشاة تبلغ فرقتين) ، كان ينصب على العبور من ثغرة الدفرسوار إلي الناحية الغربية من قناة السويس . .

ومن وحي الجبهات المتفارقة ، فإن رسالة السادات إلى كيسنجر في ذروة الإنتصار العظيم يوم ٧ أكتوبر ، كان لها أبلغ الأثر في نفسية اليهودي المراوغ ، فقد التقف عبارة (**إن مصر لا تنوي توسيع مدى أو عمق العمليات الحالية الدائرة على الجبهة المصرية**) . وكانت

---

* من خلال قراءتي لمجريات الحرب يوماً بيوم ، على الجبهتين السورية والمصرية ، فإن عشرات من حالات الانسحاب الاسرائيلية كانت تتم على عجل ، حين يصبح الوضع ميئوساً منه ، والشاهد على ذلك ، هو ما كانت تفعله فرقة آدان على القطاع الشمالي في الجبهة المصرية ، عشرات الارتدادات إلى الخلف ، ولما كان الجنرال مندلر قبله قد ركب رأسه ، فقد أضاع فرقته أثناء مناطحة الجبل المصري .

الرسالة في مبناها ومعناها ، تشير إلى الرغبة في العودة إلى سياسات ما قبل المعركة ، دون النظر إلى تضحيات الرجال ، وما رسمته الحرب على الأرض من حقائق ، وكانت الرسالة بالنسبة لكيسنجر ، مرآة تعكس ما يجول في دواخل السادات من أحوال وأفكار ، لذلك بدأ التفكير بمضاعفة الجسر الجوي الأمريكي ، إلى اسرائيل ، (وإن كسر الهجوم العربي هو مفتاح الطريق إلى الحل الذي يفكر به) . .

ثم كان الخطأ الأكبر ، في الإنتظار على الضفة الشرقية لقناة السويس لمدة أربعة أيام كاملة (من ٦ تشرين وحتى غاية اليوم العاشر منه) ، فيما عُرف وأُعلن عن وقفة تعبوية ! . .

وهناك مثل يجري على ألسن القادة الاستراتيجيين يقول : في الحرب ، فإن حساسية التوقيتات تبلغ من الخطورة مدىً ، بحيث يصبح اليوم مبكراً وغداً متأخراً جداً ، وما كان للجيش المصري أن يقف هكذا دون اغتنام فراغ الجبهة المقابلة نسبياً ، أيام ٨ و ٩ و ١٠ من تشرين ، وممرات سيناء المفتاحية تقف أمامه جاهزة لاستقباله بأقل الخسائر الممكنة ، (ما بين ٢٥ - ٣٠ كم شرق القناة) ، ورغم أقمار السوفييت الصناعية التي أشارت إلى خلو الجبهة المقابلة من وحدات اسرائيلية كبيرة ، فإن تقييم دايان نفسه للموقف ، **كان يقترح إنسحاباً طويلاً إلى الحدود الدولية وترك سيناء كجبهة ميئوس منها بعد سقوط معظم الحصون على خط بارليف . . وكان ذلك في الثامن من تشرين ، وهو شاهد إضافي ، على عقم المبالغة في الاحتراز ضد سطوة الطيران الإسرائيلي ، الذي كان منهمكاً بمعظمه (٥٠٠ طلعة جوية يومياً) ضد التقدم السوري الأخطر في الجولان*** . .

وعلى ما يبدو فإن القيادة المصرية ظلت مسكونة بهاجس الفزع من نتائج حرب حزيران ، وما فعله الطيران الإسرائيلي ، بوحدات كانت تائهة في الصحراء ، حيث لا ضبط ولا ربط ، ولا اتصال ولا أوامر ، حتى ولا قيادة حقيقية آنذاك ! . . كما يروي كيسنجر في مذكراته ، أن جولدا مائير يوم العاشر من تشرين ، ظلت تصرخ فالتة الأعصاب ، (أوقفوا الوحش الروسي وإلا فإن الكارثة قادمة ! . .) وراحت تطالب بوقف فوري لإطلاق النار .

---

* كان دايان يصرخ يومها : ديغانيا أهمْ ، ديغانيا أهمْ . . ومستعمرة ديغانيا الواقعة جنوب بحيرة طبرية ، هي المستعمرة التي ولد فيها دايان ، داخل بيت ريفي في قرية فرعية اسمها نهلال عام ١٩١٥ ، وكان معنى صراخه يومها ، أن القوات السورية تقترب من حركة القلب في اسرائيل ، فيما تباعد سيناء ، اسرائيل عن مصر ، مئات الكيلومترات . .

ومع اليوم المبكر ، أضاع المصريون فرصة الإندفاع - غير الخطر - نحو الممرات ، إلا أنهم مع الغد المتأخر ، حاولوا التقاط الفرصة من جديد ، وقد أجمعت الروايات كلها ، على أن تحرك المصريين المتأخر نحو الممرات ، كان بسبب فكرة - غير استراتيجية بالطبع ، مفادها . تخفيف الضغط عن الجبهة الشمالية * ، إلا أن الجبهة الشمالية يوم الهجوم المصري وقبله أثناء الاستعداد (١٣ - ١٤ تشرين) ، لم تكن في حالة ملتهبة باستثناء محاولات الخرق التي تقوم بها الفرق الاسرائيلية ضد المواقع الدفاعية السورية التي انتظمت من جديد ، سواءً بوصول القوات العراقية (زهاء ٣٠٠ دبابة و ١٨ ألف جندي) ، أو بوصول أفضل لواء اردني مدرع هو اللواء ٤٠ ، هذا وسيخسر المصريون في هذا الهجوم ، الذي عُدّ انعطافاً في سير الحرب ، زهاء ٢٥٠ دبابة في ساعات ، أي أكثر من مجموع ما خسرته الجبهة المصرية من دبابات طوال اسبوع من القتال ، وسيمهد الإنكفاء المصري الخطير ، مع ما رافقه من سحب القوات الاحتياطية الاستراتيجية من غرب القناة إلى شرقها . لعمليات خرق اسرائيلية بصورة نموذجية ، حيث أفادت عيون أمريكا الصناعية في السماء ، خلو الجبهة المصرية على الجانب الغربي من القوات . .

ثم تأتي الطامة الكبرى ، في عدم التمييز بين الإنسحاب الذليل ، والمناورة المطلوبة أثناء العمليات ، فقد رفض السادات بكل حزم ، يوم ١٧ تشرين الأول (بعد مضي يوم على ثغرة الدفرسوار) ، سحب أية وحدة قتالية مهمة من شرق القناة إلى غربها ، وقد تراءى له هذا الانسحاب كهزيمة مريرة ، فيما كانت تقتضي الضرورة العاجلة ، بسحب الفرقة ٢١ المعززة بلوائين مدرعين ، (وهي في الأساس فرقة احتياطية في العمق المصري) كانت مخصصة لسد ثغرة الدفرسوار نفسها ، وغيرها من الثغرات المحتملة ، وأكثر من ذلك ، فقد هدد (أصحاب الأفكار الإنهزامية) بالإحالة إلى المحاكم الميدانية ، فيما ظل يصرخ (لن أسحب جندياً واحداً من شرق القناة . . .) .

كانت الـ ٦٠٠ دبابة الإسرائيلية ، التي قاتلت دفاعاً عن الممرات يوم ١٤ تشرين ، هي نفسها التي تقتحم غرب السويس عن طريق الثغرة ، **مما حدا بشارون أن يتبجح : (أتحدث إليكم من أفريقيا)** ولو أن السادات وافق على المناورة المصيرية ، بسحب قطعات الاحتياط

---

* أشار الفريق الشاذلي في مجلس الدفاع العربي المشترك ، التابع لجامعة الدول العربية، إلى أن جبهة عسكرية محلية ، لا تستطيع رفع الضغط الاسرائيلي على جبهة محلية أخرى. فاسرائيل لا تسحب قواتها المدرعة من جانب لآخر كما أشيع ، بل هي تسحب العديد البشري فقط ، القادة والأطقم والجنود ، أما الأسلحة والعتاد والذخائر .. وكل المهمات الأخرى ، فتكون جاهزة ومخزنة في مستودعات احتياطية تابعة لكل قيادة جبهة على حدة ، هذا فضلاً عن تفوق الطيران ..

المصرية (التي كانت بلا عمل بعد فشل الهجوم نحو الممرات) ، يوم ١٥ تشرين ، لكان **على شارون أن يصمت في آسيا ، حين تمكن لواءان فقط (لواء مظلي على طريق الاسماعيلية ، ولواء مشاة على طريق السويس إلى الجنوب) من تثبيت القوات الاسرائيلية المزدلفة خلف الثغرة بقوة ثلاثة ألوية مدرعة ، ومن عدم تمكينها من التحرك الطليق طيلة الفترة من يوم الخرق في ١٦ تشرين إلى يوم وقف إطلاق النار في ٢٢ منه**، وما كان لاسرائيل أن تتمكن من تطويق الجيش الثالث ومهاجمة مدينة السويس ، إلا في الأيام التالية لوقف إطلاق النار أي في ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ من شهر تشرين الأول ، حين كانت تحكم سيطرتها خلف الجيش بوثبات عسكرية مفاجئة وتدريجية دون قتال حقيقي ، وقد أدى هذا الوضع الخطر ، كما تم التنويه عنه ، إلى اقتراب القوتين الأعظم من حدود المواجهة ، وتجلّى ذلك في الاستنفارات العلنية على جميع المستويات النووية والتقليدية ، كما أدى بدوره إلى انفلات الموقف مع عوارض لظهور التصرفات العصبية على مستوى القيادة المصرية ، فقد واظب السادات على إرسال رسائل الشكوى إلى كيسنجر ، ثم أبدى استعداده لقبول مراقبين دوليين على الخطوط القتالية ، وعاد عن رأيه ليقترح طلب قوات أمريكية - سوفيتية للمراقبة . . وحسب مقترحات كيسنجر نفسه ، فقد عدل السادات عن اقتراحاته السابقة ، ليقبل أخيراً بدخول مصر في مفاوضات عسكرية مباشرة (عبد الغني الجمسي ، وأهارون ياريف) عند الكيلومتر ١٠١ بين القاهرة والسويس ، وقد حدث ذلك كله ، قبل أن يكلف اللاعب الكبير نفسه بزيارة المنطقة بعد ، وقد تراءى لصانع المعجزات أنه يستطيع أن يفعل كثيراً في منطقة المعجزات بعد تحييد أطراف العالم الأخرى ، فالشرق الأوسط هو أكبر جائزة يقدمها كيسنجر لنفسه ثم لنفسه ، ومن بعد إلى أمريكا ، واسرائيل .

كان كيسنجر الذي لم يعرف المنطقة ، إلا عبر تاريخها وتقاريرها ، وأساطير الشعوب فيها ، يعد نفسه لأول زيارة لها يوم الخامس من تشرين الثاني ، وكانت الوجهة القاهرة - تل أبيب بالطبع . . أما تل أبيب ، فكان يعرف عنها الكثير ، وربما بدت له كيهودي يملك زمام أمريكا - بعد ضجة وترجيت - أنها هي القصد الحقيقي من وراء الزيارة ، وبالطبع راح يراجع تقارير مستفيضة عن الصغيرة والكبيرة في منطقة الشرق الأوسط ، قبل توجهه إلى المطار في اليوم التالي ، وقد لفت نظره تقريران فاحتفظ بهما في حقيبته الدبلوماسية .

كان التقرير الأول ، يحمل عنواناً طريفاً هو : الشيخ والخيمة* ، وقد أسهب التقرير

---

* من كتاب هيكل اكتوبر ٧٣ . السلاح والسياسة ص ٦٥٦ ، صادر عن مركز الأهرام للطباعة والنشر .

في التحدث عن آلية صنع القرار العربي ، الذي هو في العرف والعادة بيد شيخ القبيلة ، سواءً كان هذا الشيخ يضع فوق رأسه عقالاً أو قبعة عسكرية ، والقرار في جميع الأحوال في النهاية تحت سلطة رجل واحد ، فهو يسمع من خاصته حكايات تقترب وتبتعد ، تشرد وتؤوب ، ثم لا تلبث دون تسلسل أن ترتد في الغالب إلى روايات من الماضي البعيد أو القريب ، ودون سابق إنذار تحط فوق الحاضر لتلهمه آيات من الأحلام الهائمة حول مستقبله ، وبين الماضي والمستقبل عبر الحاضر ، يكون النصَبُ قد أخذ مأخذاً من الشيخ الذي ما يني يهز رأسه بين مصدق ومندهش ، ثم يخلص من وعثائه فينطق في النهاية ، (بالحكمة المقطّرة) وهكذا تتحول هزات الرأس الواقعة ما بين الطرب والتأمل لتصبح لها قوة القانون . .

واستخلص كيسنجر من تقريره هذا ، أن القرار العربي في يد زعيم واحد ، فهو لا يلتزم بشيء إلا إذا هز رأسه بالقبول ، وإذن فإن الوقت الثمين يجب ألا يضيع مع غيره من مجلس القبيلة على أية حال . .

وكان التقرير الثاني ، الذي أعجب كيسنجر عن المنطقة ، يحمل عنواناً أشد طرافة هو : السوق . وقد تعرض التقرير بالتفصيل ، لأسلوب التفاوض العربي الذي يشبه إلى حد بعيد ، مزايدات ومناقصات الشراء - أو البيع في الأسواق العربية غير المترابطة في شيء - فهي تبدأ بأعلى الأسعار (الانسحاب الشامل ، الكامل ، العادل . .) ، ثم تروح في روح مساومة ، بين الصياح والغضب والحزن تتراجع عما طلبته في البداية ، ثم تعود فتكرر القسَم العظيم ، بأن البضاعة المعروضة ، هي أحسن بضائع الدنيا ، وفي خاتمة المطاف ، بعد أن يظهر الزبون نيّته في الإعراض ، يوافق صاحب القرار ، أو البضاعة ، على البيع بنصف الثمن ، وأحياناً بربعه ، . . . وقد أضاف كيسنجر على هذين التقريرين عبارة كان قد التقطها من مقال لهيكل يقول فيه :-

إن الفارق بين الفكر الاستراتيجي الاسرائيلي ، والفكر الاستراتيجي العربي هو أن الاسرائيليين يلعبون الشطرنج ، في حين أن العرب ، يلعبون طاولة النرد . . .

ويقول الكاتب الأمريكي والتر ايزاك سون في دراسة له عن كيسنجر تحت عنوان قصة حياة - دار شوستر - نيويورك ص ٥٣٨ ، أن هنري كيسنجر قبل سفره إلى الشرق الأوسط ، كان قد رتّب أوضاعه وفق المحاور الاستراتيجية التالية :-

- عدم إضاعة الوقت فيما تطلبه مصر وهو البحث عن خطوط وقف إطلاق النار يوم ٢٢ تشرين الأول ، والذهاب إلى مدى أبعد ، وذلك بالذهاب إلى فك إشتباك كامل بين مصر واسرائيل . وهذه خطوة .

- عدم الوقوف عند نقطة تجميد القوات في الخطوة الأولى ، وتطيير اقتراح شكلي يتضمن عقد مؤتمر سلام في جنيف ، يكون الاتحاد السوفييتي موجوداً فيه وبعيداً عنه ، كما أن المؤتمر يجب ألا يحجب دور كيسنجر الخاص كصانع سلام أول .
- بما أن العرب جميعهم (يهرولون إلينا – أي إلى أمريكا) ، فإنه من المحتم ، ألا يكون الاتحاد السوفييتي بعيداً فحسب ، بل وتلك العجوز المتصابية التي اسمها أوروبا أيضاً ، وتلك هي الخطوة الثالثة .
- كي يعتاد العرب على قدرة أمريكا النافذة يجب أن يتمرنوا على سياسة الخطوة الخطوة ، بحيث يتم الذهاب إلى كل هدف محدود بعيداً عن الهدف الآخر . فطريقة المفاوضات هي طريقة ثنائية ، مع مصر أولاً ، ثم مع سوريا وربما في وقت لاحق يتم الوصول إلى ثنائية الأردن – اسرائيل . . **وكان كيسنجر يحفظ عن ظهر قلب قانوناً سياسياً يقول بتأجيل كل ما هو حسّاس في المفاوضات إلى آخر المراحل** * .

والطريف أن هذه المسائل المؤجلة ، هي لب النزاع في النهاية ، إلا أن الشروع بحل المسائل الأولية ، كفيل بخلق الجو الملائم ، للإنتقال إلى المسائل الحسّاسة فيما بعد على نحو أو آخر ، حيث يكون بمقدور كل طرف تقديم التنازل عند نقطة الوسط المطلوبة . .

كانت أوراق السادات الموفورة بين يديه ، تعطي الإشارة تلو الإشارة . على أن الوضع ليس ضعيفاً إلى الدرجة التي يتخيّلها بنفسه ، فوضع الجبهة العسكرية ، استعاد تماسكه بعد سيل السلاح القادم من المعسكر الشيوعي بعد الخرق ، وأن القوات المسلحة جاهزة للقيام بواجبها تجاه مفخرة العبور التي لا تريد لها أن تضيع في زحام المناورات السياسية ، وكانت الورقة الثانية أن اسرائيل التي انتشرت عسكرياً من القنيطرة السورية إلى السويس المصرية (زهاء ٥٠٠ كم) ، لا تستطيع الصمود طويلاً تجاه صعوبة هذا الوضع من الناحية العملية ، وأن حالة التعبئة الطويلة ، تكلفها أكلافاً باهظة في الصناعة والزراعة وحتى في القوات المسلحة ، وكانت اسرائيل توّاقة للخروج من هذا المأزق على عجل ، لكنها واظبت على سياسة عض الأصابع . . علماً بأن الخلافات الداخلية (على التقصير في يوم الغفران) قد

---

* تماماً كما حصل في اتفاق أوسلو بين اسرائيل والفلسطينيين ، فمدرسة كيسنجر هي التي بقيت صامدة ، وما هو حسّاس في أوسلو (الدولة ، أو الكيان ، القدس ، فلسطينيي العام ١٩٦٧ والعام ١٩٤٨ . . كل ذلك مؤجل إلى أن يحين وقته ! . . هذا إذا حان وقته ! . .

بدأت تفور وتصعد إلى السطح ، بينما العالم العربي بأسره يقف إلى جانب مصر وسوريا بأكثر ما يكون من القول وتواضع الفعل إلا أن هذا الموقف كان فعالاً على الأقل في مواجهة الولايات المتحدة . . فالورقة الثالثة وهي استخدام سلاح النفط . . رغم القصور أو التأخر في التطبيق على عادة أهل النفط العربي - كانت قد شغلت حيزاً مهماً من تفكير كيسنجر ، بحيث سيفصح للسادات بعد المقابلة ، أن (**أوروبا المنافقة لا تهمّه حتى لو ماتت من الصقيع شتاء العام المقبل) وأن العرب إذا بالغوا في حرب النفط ضد الولايات المتحدة ، فسوف ينقلب ذلك إلى ضد ما يبتغون من وراء استخدامه . .**

ثم كانت هناك أوراق أخرى قائمة ، فموقف السوفييت بات مرهفاً لما يمكن أن يؤول إليه الوضع بعد زيارة كيسنجر لمنطقة الشرق الأوسط ، وهناك ورقة الأسرى الاسرائيليين في مصر وسوريا (٣٨ طيار في مصر وحدها) ، كما أن ورقة حصار باب المندب كانت قائمة منذ زمن ، وهناك قناة السويس والعلاقات الدبلوماسية المقطوعة بين مصر والولايات المتحدة الأمريكية . . . الخ .

كان كيسنجر بالمقابل يملك أوراقاً ذات بعد نظري ألماني ومسحة من الواقعية الأمريكية تقول :- **بأن السادات ليس مطمئناً إلى وضعه العسكري على جبهات القتال ، وأن ذلك حاضراً في طلباته المتكررة كي تقدم أمريكا الضمان الكافي لمنع اسرائيل من شن هجوم إضافي غرب القناة . . أما الشاهد الآخر في ورقة كيسنجر الثانية ، فيقول أن السادات ، رغم سياسته الودية الظاهرية - فإنه ليس على علاقة طيبة مع الاتحاد السوفييتي ، ولا هو على ذات الود مع الرئيس حافظ الأسد ، كما أن شركاءه في المعركة الأخرى ، معركة النفط ، ليسوا على استعداد للذهاب بالمراهنة الخطرة إلى نهاية الشوط ، بل إن شوط النفط مع أمريكا ، أقرب منه إلى أية قضية عربية لا تهم الخليج ولا غناء حاديه في الحل والترحال إلى بلاد الأضواء المكهربة في لندن وباريس . . ثم كانت الورقة التي تحمل خبث اليهودي التاريخي ، تلك التي كانت تتوقع هجوماً سياسياً سافراً من لدن قادة العرب الآخرين : الأسد والقذافي والبكر وعرفات . . ضد ما سيُسمى بمؤامرة كيسنجر التي سيقبلها السادات . .**

كان كيسنجر يعمل على ايقاع استفراد مصر ، وكان لازماً بالنسبة له ، أن يثور الآخرون ضد هذا الاستفراد ، وبذلك تقع مصر كالثمرة الناضجة ، بعيداً عن مشاكسة القادة الآخرين ، الذين عليهم ، أن يبقوا خارج المعادلة الكيسنجرية في المرحلة الأولى .

ثم كان اللقاء المتوقع بين السادات وكيسنجر صباح يوم السابع من تشرين الثاني .

ودخل شيخ القبيلة إلى اجتماع ثنائي مغلق مع خصيم الأمس صديق اليوم ، ويروي كيسنجر في مذكراته سنوات القلاقل ، شيئاً عن شدة دهشته لاستقبال السادات الحار في (**الوقت الذي كنتُ فيه أمثل بلداً ما زال يصل نفسه مع اسرائيل بجسور جوية لا تتوقف ، ضد المصريين والعرب الذين يقاتلون بسلاح سوفييتي للقضاء على حليفة أمريكا الرئيسية في المنطقة**) .

وعلى طريقة دخان البابا المنتخب في الفاتيكان ، فإن كرادلة الأمريكيين والمصريين ، كانوا بالعكس ، خارج الاجتماع المغلق لمدة ثلاث ساعات متواصلة ، بعدها صدرت ورقة تشتمل على نقاط ست ، كان كيسنجر قد قدمها للسادات (بعد استدعاء مساعده سيسكو) ، وكانت النقاط المذكورة من وضع جولدا مائير وطاقمها الحكومي ، في حين أظهرها كيسنجر وكأنها اقتراحات من الخارجية الأمريكية :-

١- الاحترام الدقيق لوقف إطلاق النار .

٢- الموافقة على مناقشة موضوع العودة إلى خطوط ٢٢ اكتوبر .

٣- تتلقى مدينة السويس امدادات الماء والغذاء دون عرقلة .

٤- تتلقى القوات المصرية شرق القناة امدادات غير عسكرية دون عائق .

٥- تستبدل نقاط المراقبة الاسرائيلية على طريق القاهرة - السويس بنقاط مراقبة دولية .

٦- بمجرد استكمال وضع المراقبين الدوليين على طريق القاهرة - السويس فإنه يتم على الفور تبادل الأسرى * . .

وما أذنت شمس ذلك النهار بالغروب ، حتى كان راديو القاهرة ، يعلن ويعيد نص الاتفاقية ، مع إعلان إضافي : عودة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة على مستوى السفراء .

في التاسع من تشرين الثاني ، أعلنت جولدا مائير باسم الحكومة الاسرائيلية ، موافقتها (على نقاطها) الست ، وتقرر أن يتم التوقيع على بنود الاتفاقية خلال اجتماعات

---

* مرة ثانية فإن كيسنجر يعترف في مذكرات سبق ذكرها ، أن النقاط المذكورة كانت من بنات أفكار الحكومة الاسرائيلية نفسها ، ولما سأل جولدا عمّا تعنيه هذه الأفكار ، أجابت دون تردد : لاشيء . . وعلى ما يبدو وفي لعبة التعجيز حاولت مائير العودة عن نقاطها حين راحت في محاولة جديدة تشطب وتعدّل في النقاط ، مما أثار حفيظة كيسنجر ورهطه الأمريكي . . .

الكيلومتر ١٠١ بحضور قائد قوات الطوارئ الدولية ، الجنرال سيلاسفو ، حيث ارتأى كيسنجر أن تتم الخطوة في اتفاق فك الإرتباط ، داخل الأمم المتحدة ، وبهذا المعنى فقد أحال الاتفاق برمته إلى السكرتير العام للأمم المتحدة السيد كورت ڤالدهايم .

ومن اللافت للنظر ، أنه بعد خلافات بين الجانبين المصري والإسرائيلي ، أثناء تفسير الاتفاق ، (الجمسي - ياريف) ، فإن التوجيهات الرئاسية المصرية ، قضت بأن يتم توقيع الوثيقة أولاً ، ومن ثم يجري تفكيك ملابسات التفاصيل التي كانت سبباً في الخلاف ! . . في وقت لاحق ، وكانت مدرسة عجيبة في عالم الخياطة ، التي تقص أولاً ثم تقيس ! . .

كان رد فعل الرئيس الأسد على النقاط ، يقول بأن الاتفاق الذي تم بخصوص تبادل الأسرى ، مقابل انسحاب اسرائيلي عن بعض المواقع ، ليس أكثر من مقايضة رخيصة ، خاصة وأن تلك المواقع سيجري تسليمها إلى قوات الأمم المتحدة لا إلى القوات المصرية ، وأن التبادل أصلاً ، كان يجب أن يتم في إطار تسوية شاملة ، لا في إطار تسوية جزئية بسيطة ، وعن طريق الدكتور أشرف مروان ، بعث الأسد بملاحظات إضافية تقول : -

- إن العرض نفسه (تبادل الأسرى مقابل انسحابات جزئية) قد قُدّم إلى سوريا ، لكن سوريا ترى تنفيذ اتفاقية جنيف التي توجب إعادة السكان المدنيين إلى قراهم ، وأن يتم تبادل أسماء الأسرى بموجب قوائم رسمية قبل الإقدام على عملية التبادل .
- بالنسبة لمؤتمر السلام فإن سوريا ترى ضرورة حضور دول أوروبا الغربية لما كان لها من مواقف مشرفة أثناء الصراع .
- الأسلوب المتبع في المفاوضات يجب أن يكون على غرار مفاوضات رودس (أي لا مفاوضات مباشرة مع الإسرائيليين) .
- وأن المفاوضين العرب يجب أن يجلسوا خلف لوحة واحدة تحت اسم اللجنة العربية (لا على طريقة اللجان الإقليمية ، سورية ، مصرية) .
- وأنه لا بد من حضور الفلسطينيين منذ الدقيقة الأولى للمؤتمر ، لأنه لا حل في الأساس ، دون حل المشكلة الفلسطينية .

ثم أبدى الأسد أسفه لموقف بعض العسكريين في القيادة المصرية ، (ذلك الموقف الذي يريد أن يؤثر على اتخاذ القرارات السياسية) ، كما أبدى عدم ارتياحه لزيارة كيسنجر (التي لم يكن لها من هدف سوى مصلحة اسرائيل) .

كانت كل نقطة من نقاط الاتفاق تزداد تعقيداً أثناء المفاوضات الميدانية المتصلة بالرجال والأراضي وصنوف الأسلحة على ضفتي القناة ، كما وصلت إلى عنق الزجاجة حين اتصل الأمر بأعماق هزيلة للإنسحاب من الضفة الغربية إلى الشرقية أمام الممرات ، وقد حاول السادات أن يستعيد عزمه بالإعلان القوي ، أن مضيق باب المندب سيظل مسدوداً في وجه اسرائيل ، وأن جائحة النفط ضد حلفاء اسرائيل ستظل سياسة قائمة ، طالما أن اسرائيل لا تظهر المرونة الكافية في المفاوضات ، وقد استشعرت أمريكا ضرورة التقدم إلى موقع حازم حيال السادات ، فأرسل نيكسون برسالة فيها من الوعيد ، أكثر ما تحتوي على اللباقة ، وكان الوضع قد وصل إلى نهاية متردية مع السوفييت ، ولم يعد أمام السادات إلا أن يستقبل كيسنجر من جديد . .

كان الموعد الذي ضربته أمريكا لمؤتمر السلام ، يقع كاجتماع افتتاحي في ١٨ كانون الثاني أواخر العام ١٩٧٣ ، وكان على المؤتمر أن ينتظر حتى تتكشف نتائج الانتخابات الإسرائيلية منتصف العام ١٩٧٤ ، ثم نتائج الانتخابات الأمريكية قبل أن تستفحل فضيحة ووترجيت التي عصفت بالرئيس الأمريكي نفسه . .

وكان مع الحل والترحال في كل زيارة من زيارات كيسنجر ، يجري طرح أزمة الطاقة المتفاقمة ، فقد أعلن الملك فيصل ، ألا سبيل إلى رفع الحظر إلا مع استرداد القدس وانسحاب القوات الاسرائيلية من الأراضي العربية ، وأن كيسنجر قال (إن أصواتاً أمريكية وعالمية تطالبنا باحتلال منابع النفط في الخليج ، وأن وزارة الدفاع أعدت خططاً بالفعل لمثل هذه الطوارئ ، وأن الإدارة الأمريكية ما تزال تأخذ موقف المعارضة لهذا السيناريو ، لكنه، لو بقيت سياسة الحظر قائمة ، فإن ڤيتو الإدارة سيرتفع عن احتمال عمل عسكري واسع النطاق ، فاحتكار الطاقة لن يظل مع العرب إلى أمد طويل ، فهناك بدائل للنفط تلوح في الأفق ، وأنه من غير الحكمة ، أن يجازف العرب باستخدام سلاح لهم ، قد ينقلب عليهم ، فضلاً عن أن هذا الرهان ، هو مجازفة حقيقية بحق المستقبل أيضاً) . ثم يضيف :-

(يظهر أن العمل مع الملك فيصل محفوف بالمخاطر ، فالقدس التي يطالب بها ، هي بؤرة المشكلة كلها ، ولا بد لي هنا من أن أعود لأذكّره بتاريخ العلاقة بين الصهيونية والشيوعية **وهي نظريته (أي نظرية الملك فيصل) العظيمة في تفسير التاريخ**) .

مع نهاية الاسبوع الثاني من شهر كانون الأول ، ستحط طائرة كيسنجر فوق مطار القاهرة من جديد ، ويوم ١٤ منه ، كانت الجلسة التي قدم لها كيسنجر باسلوب بالغ

الدهاء، حيث كان قد قرأ تقارير عن غيظ السادات من هذه (الوليّة التي اسمها جولدا مائير)، وبطريقة شبه شاعرية ، راح كيسنجر يقدم لكلامه عن شخصية (المرأة المسنّة التي هالها ما أحدثته حرب تشرين) ، ثم أعلن عن (الأم الرؤوم التي تسهر على حياة أبنائها ومصير شعبها) ، ثم عن السيدة الرئيسة التي قد تكون مظلومة مع أجنحة حزبها ، وآراء عسكرييها وأركان حكومتها ، وهي غير الإنسانة التي يحنق عليها الرئيس * .

سينسب كيسنجر إلى عامل الضعف الإنساني ، تلك الرسالة التي سطرها السادات إلى جولدا مائير في تلك الجلسة ، كما سيستبعد محمد حسنين هيكل ، نظرية المؤامرة التي يفسر بموجبها التاريخ ، كلُ مُقعد وكسول ، فيما سيصف آخرون انزلاق السادات هذا ، بأنه مؤامرة ناجزة حيكت فصولها في واشنطن وخُتم عليها في الرباط وطهران . .

وكانت الرسالة التي أودعها السادات محفظة كيسنجر تقول :-

(عندما أتكلم عن السلام الآن ، فأنا أعني ما أقول ، إننا لم نتقابل من قبل ، ولكن لدينا الآن جهود الدكتور كيسنجر ، فدعينا في هذه الأوقات ، نستخدم هذه الجهود ونتحدث إلى بعضنا من خلاله) .

كانت خطوة السادات في اقتحام ظلام المجهول ، هي أولى الخطوات التي أدارت بالقسر ، ابرة البوصلة العربية من اتجاهها الجغرافي والتاريخي ، إلى اتجاه أقل ما فيه أنه يقلب الحقائق العلمية والإنسانية، ولما تلقت مائير النبأ ، قرأته ثم أعادت قراءته من جديد، وكانت قد سمعت من قبل شيئاً على لسان مناحيم بيجن ، عن خبث الفلاح المصري ، وكان إلى جانبها في اللحظة العسيرة ، ييجال آلون العسكري الأول الموثوق لديها ، فأعطته الرسالة وما أن فرغ منها ، حتى بانت الدهشة على قسمات وجهه ، حتى أن هول الصدمه منعته من التعليق ، وعلى الطريقة الشكّية التي لا إيمان بعدها حسب التاريخ اليهودي ، فإن (الوليّة – حسب تعبير السادات) راحت تتساءل ثم بصوت مرتفع تسأل :

---

* تروي واقعة شعبية قصة فلاح اختصم مع جاره على تحديد أرضهما ، وحاول الفلاح كالعادة . أن يأخذ حقه بذراعه ، إلا أن ابناً متعلماً له ، نصحه باللجوء إلى القانون ، فأبدى موافقته على ذلك ، وفي اليوم الأول للجلسة ، راح محامي الفلاح يعدد مناقبية موكله التي لا تلثم ، ثم راح يشكو إلى الله ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . . وهنا استفاق الفلاح الموكل . وسأل القاضي وهو يبكي :- سيدي هل أنا مظلوم إلى هذا الحد الذي يقول عنه المحامي . .
ربما دُهشت مائير من ظلامتها على لسان محاميها كيسنجر أمام الرئيس المصري ذي القلب الحنون !. . وهي ليست أسطورة .

تراه لماذا يفعل هذا ؟ هل وراء خبث الفلاح المصري لعبة جديدة ؟ وراحت تغرق في بحر متلاطم من السؤال وضدّه . .

كان الفلاح المصري الطيب ، الذي تعلّم على يد أخيه في المدينة ، (شيئاً من بلادي . . بلادي . . لك حبي وفؤادي . . وأصبح عندي الآن بندقية . . .) يودّ لو نهض عبد الناصر من قبره ، ليرى ماذا فعل المتعلم ابن المدينة وابن الصعيد على ضفاف القناة ، فقد سمع أحدهم جنّه يقول له عند (الغيط) (واد يا عبد المتعال خلّي عينك عا القنال) وكان المصري الطيّب الآخر ، قد خضّب ثرى السويس ورمال سيناء وتراب القنطرة والإسماعيلية بدم سخي طهور ، ثم كان مَنْ التحق إلى جوار الملأ الأعلى وهو يطلق ملء الجوارح والصدر الله اكبر . . الله اكبر . . ثم جاء دور الفلاّح السوري النشوان ، باقتراب أجل الأسطورة المجوسية من نهايتها المحتومة ، أما ابن المدينة من دمشق وحماة وحلب . . . فكانت عيونه كوالد يوسف في القرآن ، تتفتح على شميم حطين . . ورائحة البريّة عند حوافي النهر المقدّس عبر التاريخ ، وكان دور الفلسطيني الذي يتقدّم جميع الصفوف . . .

وكان عبور وعبور ، عبور من التاريخ وعبور إليه ، وكانت قصة تشرين المفعمة بالرجاء ، تمثل إرادة التحوّل من الضفة إلى الأخرى على ساحل التاريخ الرحب . . ثم كانت قصة تشرين ، إرادة التحول من وضع المستقبل البليد ، إلى وضع المرسل الباني ، ولأول مرّة في تاريخهم الحديث ، تروي شهريار قصة الليلة الثانية بعد الألف ، حكاية زفاف أسطوري مع المجد . . حين ظفر الفارس بعروس فؤاده ، ثم ما لبث أن مات ليلة زفافه .

◆◆◆

رابعاً / فتش عن النفط دائماً .. أو الليلة الثانية بعد الألف .

لم تكن الشعارات الدالة على هوية الأحزاب الوطنية أو القومية أو اليسارية ، بدءاً من نهاية عقد الأربعينات وحتى نهاية عقد الستينات ، تعتبر النفط العربي كثروة باطنية تحمل أثرة خصوصية معينة ، وبالعكس فقد اعتبرت الأحزاب السياسية العربية ، فروع الإقتصاد الأخرى ، كالزراعة أو الصناعة ، هي التي تحظى بالأهمية الأولى ، فقد وضعت برامج هنا وهناك ، وقد اتصل القسم الإقتصادي من هذه البرامج بالتخطيط التنموي على أساس القدرة الذاتية للأقطار العربية ، كما أن سياسة التكامل الاقتصادية بين هذه الأقطار غالباً ما

بنيت على ركائز زراعية وصناعية بمواد أولية (توجد هنا ولا توجد هناك) ، كما بُنبيت على أسسٍ خدمية وسياحية أخرى . .

كانت النظرية تقول ، أن العالم العربي بمقدوره ذاتياً ، أن يكمل بعضه البعض اقتصادياً ، على أساس أن (المتوفر هنا) يمكن أن يسد (الشاغر هناك) والعكس بالعكس ، فيما إذا تمكنت الأمة من تذليل أزمتها السياسية الناجمة عن التجزئة ، وأن الدولة العربية الواحدة . بمقدورها أن تتقارب مع دولة كبرى ، لما تكتنفه باطن أراضيها وظاهرها ، من ثروات يمكن أن تُعد ولا تُحصى ، خاصة في ظل نهج علمي شامل . .

كان الشعار الأول ، الذي أطلقه حزب البعث ، بترول العرب للعرب ، يحمل معنىً عدائياً للشركات الغربية المسيطرة على النفط من المنبع حتى آخر مستهلك خلف أعالي البحار ، بأكثر مما يحمل رؤية خاصة لأهمية هذه السلعة ، وما ستلعبه من رسم للمصائر في المستقبل . . وفي الحقيقة فإن النفط العربي بدأ يأخذ مكانته (كسيّد للثروة العربية) مع أواخر عقد الستينات من هذا القرن .

غير أن مراكز الدراسات الجيولوجية الغربية ، كانت على موعد مع النفط العربي ، أو نفط المنطقة عموماً ، قبل ذلك بكثير ، وفي غمرة الصراع العالمي بين القوى العظمى بعد الحرب العالمية الثانية ، فقد انتبه الغرب جيداً ، إلى حركات خصمه المقبل ، الاتحاد السوفييتي وكتلته الشيوعية . .

كانت هذه الدراسات تعلم أن الاتحاد السوفييتي بلدٌ مصدر للنفط ، لكنه مع تفاقم احتياجاته كدولة عظمى ، سيصبح بلداً مستورداً مع غروب القرن الذي ما عتم أن حفل بمفاجآت غير منتظرة . .

وقبل أن تضع الحرب العالمية أوزارها ، فقد كتب ترومان الرئيس الأمريكي خطاباً إلى ستالين يقول فيه :

(يواصل الاتحاد السوفييتي أعمال الاحتلال ، وقد رأيت من واجبي شخصياً ، إحاطتكم علماً ، بأنني قد أصدرت الأوامر لقادتنا العسكريين لتحريك قواتنا الأرضية والبحرية والجويّة ، باتجاه الشرق الأدنى ، كما أن أمريكا لا يمكنها أن تغض النظر عن هذه المنطقة الحيوية بالنسبة لمصالحها وأمنها على الإطلاق) .

ويتابع ترومان تعليقه (وبالفعل فقد فعل ستالين ما كنت أعرف أنه سيفعله . . وسحب قواته من المنطقة الدافئة) .

كان تحذير ترومان قد بُني على أساس من التقديرات الغربية تقول ، بأن اقتراب السوڤييت من اليونان وتركيا وايران ، سيشكل الوصلة الأخيرة في الطريق إلى خليج المياه الدافئة ، وامعاناً في الحذر ، فقد طالب ترومان من الكونغرس الأمريكي منحَه صلاحيات إضافية ، بُغية تعزيز القوة البحرية الأمريكية في حوض البحر المتوسط ، وهكذا ففي العام ١٩٤٨ طفت على وجه الماء القوة الخاصة السادسة الأمريكية ، وسيصبح اسمها فيما بعد ، الأسطول السادس الأمريكي ، وعلى الفور ودون مضيعة للوقت ، فقد باشر الأسطول باستخدام قواعد له في ليبيا وتركيا والسعودية ، وكان ذلك أول وجود عسكري أمريكي في المنطقة بسبب النفط . .

وبالطبع ، فقد انتقل الدور المباشر للقوة البحرية الأمريكية إلى مياه الخليج ، خاصة عندما رسمت دوائر البنتاغون ثلاثة افتراضات لتهديدات النفط هي :-

١ - الاضطرابات الداخلية ٢ - الحصار ٣ - الغزو .

أما الدراسة الخاصة بالغزو فقد ذهبت بدورها إلى أربعة احتمالات :

- الغزو عن طريق قوة محلية مستقلة * .
- الغزو عن طريق قوة محلية مدعومة من السوڤييت .
- الغزو عن طريق بعض أشكال الضم بالقوة (وهنا المقصود العراق) أو ايران بالدرجة الثانية .
- الغزو السوڤييتي المباشر .

ثم راحت الدراسات الإفتراضية في تفرعات خططية ، تبحث في تأمين حماية الحقول نفسها ببناء قواعد عسكرية قريبة منها مع كل ما يلزم ، ومع الإفتراض المشؤوم بوقوع أحداث مثلاً ، فإن الخطة الناجحة تقتضي وجوب ما يلي :-

- الحفاظ على منشآت النفط سليمة بشكل دائم .
- استمرار حمايتها لأشهر بل ربما لسنوات .
- استصلاح الموجودات المحطمة بسرعة حال وجود تخريب .
- تشغيل المنشآت فوراً ودون أخذ الإذن من أحد .
- ضمان ممر بحري آمن على الدوام لنقل المخزون النفطي .

---

* تعتبر أمريكا أية انتفاضة وطنية محلية ، بمثابة الغزو أيضاً .

ثم كانت القواعد الضخمة ، على شكل مدن تحت الأرض سواءً في الظهران أو الدمام وينبع ، وما لبثت أن ازدادت انتشاراً في المنطقة العربية - الإسلامية ، بدءاً من طهران وحتى الدار البيضاء في المغرب .

وأكثر من أي وقت مضى ، فقد بدت الظروف سانحة حين لاحت الفرصة من وراء أكمة تشرين ، لانتزاع دور قيادي تلعبه المملكة القائمة على نوافير النفط إلى الجانب الشرقي من البحر الأحمر ، فلطالما عاثت الخديوية منذ محمد علي باشا ، فساداً في أرض (الوهابية) المتشددة ، وقد أزفت الساعة لرد الكيل بعد أن تراءى في الأفق ، مدى الاحتياطات الضخمة الواقعة كأعباء غير محتملة ، على كاهل الدول المحاربة ، مصر أولاً ، ثم سوريا بالدرجة الثانية . .

وكان ثمن الدور جاهزاً باستمرار ، وبدا بالفعل أن النفط السعودي يريد التحول من خنادقه الدفاعية (أيام عبد الناصر) للإنتقال إلى الهجوم الآن بسلاح بترو الدولار الأخضر ، الذي أخذ يعم المنطقة . .

ستوصم المرحلة الممتدة من بداية السبعينات وحتى أواخر عقد الثمانينات ، بأنها (مرحلة الحقبة السعودية - هيكل) ، ولم يكن أذكى من الملك فيصل ليلعب هذا الدور عن جدارة .

كان سهلاً على الملك فيصل الذي خلت له الساحة بوفاة عبد الناصر (بل ربما قبل وفاته في مؤتمر قمة الخرطوم) ، والذي بدأ لتوّه يتلقى رسائل الولع من الرئيس السادات ، أن يفكر بالتحوّل لالتقاف دور طالما كانت المملكة تصبو إليه ، وقد ارتفعت درجة حرارة الطموح الغريزي للملك مؤهل ، حين تلقى ذات مرة ، رسالة من السادات ، يرجوه فيها أن يكون مسؤولاً عن الأوضاع الداخلية في مصر ، أثناء غيابه عنها ، وكانت اليمن قد حُلّت في قمة الخرطوم وفق طريقة ليست بعيدة عن هوى المملكة وتأثيرها ، وها هي المملكة تدخل حرب تشرين باستخدام سلاح النفط ، ثم زاد في العزم ، أن ترتيبات الحظر المتخذة في الكويت كانت تفرض نسبة لا تقل عن ٥ بالمئة ضد الدول المؤيدة لاسرائيل ، فرفعها الملك فيصل إلى نسبة ١٥ بالمئة بالنسبة إلى السعودية ، ثم ختم على الحظر ، بوعيد إضافي هو الصلاة في المسجد الأقصى ، بل في قدسٍ عربية إسلامية لا شيّة عليها . . وربما كان ذلك قد كلفه حياته فيما بعد .

كان الملك فيصل داهية من دهاة العرب الذين لا تلين لهم قناة ، فقد قارع كل خصومه من عبد الناصر وحتى أخيه الملك سعود دون وجل ولا تردد ، فالملك كان مقاتلاً شرساً في

صفوف جيش أبيه من قبل ، وقد صدّق وعده ووعيده بنفسه ، حين راح في سياسة غضب معلنة ، يكيل الاتهام تلو الاتهام للولايات المتحدة الأمريكية ، وقد ذهب إلى حدّ تصنيفها كاحدى رموز الشر المألوفة لديه : الصهيونية والشيوعية في هذا العالم ، ولما كانت أمريكا كبلد مولع بالمقامرة أساساً ، (إذ تقبل بأي رهان ، حتى الرهان على لون الملبس الداخلي للمغنية الأمريكية مادونا ، التي لا تجد بدورها حرَجاً في الكشف عنه ، وأحياناً الكشف عما تحته) . **فإنها لا تقبل رهاناً واحداً يتعلق بالنفط ، (إنه أساس نمط حياتنا اليوم ، ولن نقبل لكائن مَنْ كان في العالم أجمع ، أن يعبث به** – جورج بوش) .

إن محدودية الزمن الذي سيعيشه النفط في عالمنا هذا * ، تؤدي على الفور ، إلى نشوب مشكلات ثلاث ، الأولى وتتعلق بسياسة الإنتاج ، والثانية تتصل بسياسات التسعير ، أما الثالثة فتتعلق بسياسات التخزين الهائلة للمدى البعيد .

ويقول ادوار سعيد ، إن الولايات المتحدة لا تستطيع الإعلان بشكل عدواني وهي تمثل ٦٪ من سكان الأرض ، بأنها تمتلك الحق في استهلاك ٣٥٪ من الطاقة العالمية ، فأية مصالح ، بل وأية عدالة ؟ . .

بتاريخ ١٣ كانون الأول من العام ١٩٧٤ ، سيصرح كيسنجر إلى مجلة بيزنس ويك (إن الولايات المتحدة ، قد تقوم بعمل عسكري للسيطرة على أسعار النفط ، وسيكون ذلك عملاً خطراً ، أنا لستُ من القائلين بعدم استخدام القوة في جميع الحالات ، بل إن أحد أهم استخدام القوة ، هو ظهور نزاع حول الأسعار ، أما السبب الثاني ، فيكمن في حصول عملية خنق للعالم الصناعي) .

قبل هذا التصريح بعام ، كانت الأوبك قد رفعت سعر البترول بنسبة ١٢٪ وكان الملك فيصل قد أعلن أن بلاده لن تستطيع مواصلة ارتباطاتها مع الولايات المتحدة ، إذا لم يتوقف دعم واشنطن لاسرائيل ، على الأقل ، لصالح نهج محايد ، وفي مقابلة تلفزيونية أذيعت في ٣١ آب ١٩٧٣ ، أعلن فيصل :–

(إن المملكة العربية السعودية لا ترغب في الأساس ، وضع قيود على شحنات النفط إلى أمريكا ، لكن مساندة أمريكا المفتوحة لاسرائيل ، تجعل من الصعب على المملكة أن تحافظ على سياستها المعتادة لتلبية احتياجات الأمريكيين من النفط ، أو حتى أنْ تواصل موقفها الودي تجاه واشنطن).

---

* يبدو من خلال عمليات المسح الحالية للمخزون العام في العالم ، أن نفط الشرق الأوسط ، لن يعمر إلى ما بعد منتصف القرن المقبل ، وهناك مَنْ يعطي موعداً للنفاد في العام ٢٠٣٠ فإذا ما استمرت سياسات النهب القائمة فإن مدن الملح ستعود ثانية إلى عادة الغوص في الخليج ! . .

كانت الولايات المتحدة حتى ما قبل نذر تشرين ، قد انتقلت من سياسة الحد من استيراد بترول الشرق الأوسط ، حماية للإمدادات المحلية ، إلى سياسة جديدة تؤكد على ضمان حرية السوق النفطية ، وهي سياسة ترمي إلى الحفاظ على المخزون الأمريكي الداخلي ، حيث بترول العالم آخذ في النفاد .

مع نشوب الحرب في الشرق الأوسط عام ١٩٧٣ ، أعلن المنتجون العرب عن حظر نفطي ضد الدول المؤيدة لاسرائيل ، كما تم في اجتماع عُقد في الكويت رفع سعر البترول من جديد بنسبة ١٧ ٪ ليصل سعر البرميل الواحد إلى ٣,٦٥ دولاراً أمريكياً .

كان بترول الخليج يزود أوروبا بأكثر من نصف احتياجاتها النفطية ، واليابان بثمانين بالمئة من احتياجاتها . والولايات المتحدة بنسبة ثلث احتياجاتها ، ومع العام ١٩٨٣ ، فإن الولايات المتحدة أصبحت أكبر مستورد لنفط الأوبك ، حيث وصلت نسبة استيرادها من مجموع الكمية المنتجة للأوبك زهاء ٦٠ بالمئة سنوياً . .

في ٣١ تشرين الأول من عام الحرب نفسه ، رفع الملك فيصل نسبة الحظر السعودي للنفط من ٥ بالمئة ، حيث هي النسبة المقررة للحظر في اجتماع الكويت ، إلى ١٥ بالمئة ، وبالرغم من تعويض شركات التسويق الدولية عن هذا الانقطاع المفاجئ ، وتحايل شركات النقل في موانئ التحميل والتفريغ ، فإن عجزاً يقارب ١٢ بالمئة من مجمل الإمدادات للولايات المتحدة قد وقع . .

وصرّح كيسنجر بغضب (**إن المنتجين قد بدأوا في تفجير المجابهة**) ، ثم أيد الرئيس الأمريكي الجديد جيرالدفورد تصريح وزير خارجيته كيسنجر فقال : (**إن القوة ستستخدم لإحداث تغيير غالي الثمن . . إنني لا أستطيع ضبط الأمور إذا اختنق العالم الصناعي أو العالم الحر جراء السياسات المتبعة لبعض المنتجين**) . .

إن العديد من الباحثين ذوي العيون المفتوحة والضمائر الحرة ، أفادوا بأن الميل إلى تضخيم الحظر والتأثير الذي تركه على ساحة الطاقة العالمية ، لم يكن متوازناً على الإطلاق ، فأعظم الضرر كان قد لحق باليابان ، وهي دولة كبرى ، كانت على غير ود مع اسرائيل ، كما أن الضرر بالدرجة الثانية كان قد أصاب أوروبا ، أما أمريكا فكانت أقل المستوردين ضرراً ، (ووفقاً لمختلف التقديرات ، فإن السوق العالمية كانت تخسر مع الحظر يومياً زهاء ٢ مليون برميل) (الكسندر بريماكوف - نفط الشرق الأوسط والاحتكارات الدولية - دار ألف باء ترجمة بسام خليل صفحة ٦٢) ، ويتابع بريماكوف : -

(هذه الخسارة بحد ذاتها لم يكن بوسعها الإخلال باستقرار الصناعة القائمة على الطاقة النفطية في العالم الرأسمالي ، باستثناء اليابان ، **إلا أن تخفيض الإنتاج في الدول العربية المصدرة للنفط ، والغموض الذي اكتنف مستقبل الإمدادات النفطية العالمية ، كل ذلك ساعد دون شك على رفع الأسعار من ١٦ دولار للبرميل الواحد إلى ٢٠ في الأسواق الحرة ، وقد ساهمت الشركات النفطية المستقلة – مع اوبك – في رفع الأسعار بهذا الشكل الحاد** ، وبعد مناقشات مضطربة ، وصلت إلى درجة التهديد ، تمّ التوصل في ڤيينا إلى حل وسط . فقد تم الاتفاق على ١٢,٦٥ دولاراً أمريكياً كسعر للبرميل من النفط المقياس ، وبذلك يكون سعر البرميل بالمتوسط قد قفز في غضون أقل من سنة ، وفي غمرة تشرين من ١٢,٥ دولار إلى السعر المذكور وهو ١٢,٦٥ دولار .

وعلى خطى مصدّق في ايران ، فقد تم في الأعوام ١٩٧١ – ١٩٧٢ – ١٩٧٣ – ١٩٧٤ ، تأميم امتيازات النفط الأجنبية في الشرق الأوسط ، وكانت الدولة البادئة هي الجزائر (١٩٧٠) ثم لحقتها ليبيا (١٩٧١) ، **أما التأميمات الفعّالة فقد حدثت في العراق ، حين قامت الحكومة في العام ١٩٧٢ بتأميم شركة نفط العراق ، ثم أتبعتها في العامين ١٩٧٣ – ١٩٧٥ بتأميم شركتي نفط الموصل في الشمال والبصرة في الجنوب . . وقد كان التأميم كاملاً ، بحيث شجع ذلك كلاً من حكومتي قطر والإمارات (دبي) على اقتفاء الأثر العراقي ، فأقدمتا على التأميم الكامل في العام ١٩٧٦ .**

لقد ترافق تحرير الأسعار باستعادة السيادة القانونية على المصالح النفطية ، وما لبثت المملكة السعودية أن وجدت نفسها مضطرة إلى السير في ركاب متنوّري منظمة الأوبك الوطنيين ، وهكذا تم بصورة تدريجية شراء أسهم الشركات النفطية العاملة في أراضي المملكة ، وبالفعل فقد كانت السعودية هي الدولة الأكثر ابطاءً في الركب النفطي ، سواء في مجال المطالبة برفع الأسعار أو تحقيق السيادة على الثروة الوطنية الأولى (والأخيرة) في البلاد ، فهي لم تنته من المفاوضات الطويلة لشراء أسهم الإئتلاف النفطي للشركات في أراضيها إلا سنة ١٩٧٩ ، لكن مسلك السعودية أصبح هو الحاسم ، باعتبارها العملاق النفطي الأول في المنطقة ، ومن ثمّ فقد آن الأوان ، للوصول إلى تسوية بين مَنْ لا يملك ومَنْ يملك في دنيا العرب . . .

كان شعار بترول العرب للعرب ، قد سقط منذ حين ، وعلى وجه التحديد ، فإنه شهد سقوطه المريع في مؤتمر الخرطوم ، حيث كرست القمة انتصار (المعتدلين) التام وعلى رأسهم السعودية والمغرب وتونس على (المتطرفين) وبصورة أساسية ، سوريا والعراق

والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية ، وهكذا أصبحت السعودية (بعد أن تحقق لها ما تريده من اليمن) ، وسائر الأمارات النفطية في مقدمتها الكويت ، هي سيدة الموقف في العالم العربي ، أما الواقعة التاريخية الجديرة بالملاحظة ، فهي أن تحوّل الأزمان باتجاه الحقبة النفطية ، (أو السعودية) ، قد تم على يد دولتين أو مملكتين نفطيتين محافظتين ، هما السعودية وليبيا (قبل القذافي بالطبع) ومع هاتين المملكتين ، فقد بدت الكويت ، كشريك لا يقل أهمية في تقديم المعونات المالية المنتظمة لما أصبح يُسمى بدول المواجهة ، أي الدول التي احتلت اسرائيل أجزاء من أراضيها في حزيران ، وقد تم اعتبار هذه المعونة المنتظمة على أنها استخدام إيجابي وبديل (للشعار الطائش ! . .) بترول العرب للعرب ، وهكذا بات قسم من العائدات النفطية يوظف في إعادة بناء القدرة الاقتصادية والعسكرية للأقطار العربية التي عانت من هجمات الجيش الإسرائيلي ، أي مصر وسوريا والأردن .

وبالطبع لم يكن هذا السخاء دون مقابل ، فقد سبق لعبد الناصر أن قبل بانسحاب الجيش المصري على مراحل من اليمن ، حين بدا أن المصريين والسعوديين يقتتلون عبر اليمنيين ، وهكذا تم اسقاط الخطوة الأولى لاقتراب (غير المعتدلين) من شبه الجزيرة العربية ، والواقع أن الانسحاب المصري من اليمن ، كان قد سدّد أول ضربة قاصمة للجذرية الناصرية . . ومن ثمّ لم يبق في مواجهة (الوهابيين الجدد) في السعودية ، المؤيدة بحرارة للغرب ، سوى (الرومانسية الثورية) لبعض فصائل المقاومة الفلسطينية ، كذلك اليسار صاحب الطبعة السورية ، الذي وضع حداً له الفريق حافظ الأسد في حركته التصحيحية عام ١٩٧٠ ، أما الخط المتصلب الذي كانت تنادي به جزائر بومدين ، فقد تلاشى بعيداً في سراب شمال أفريقيا العربية النائي عن الأحداث . .

كان العراق منشغلاً في هذه الحقبة (كما في أية حقبة أخرى) ، بهمومه مع الأكراد والإيرانيين ، وما كان لرفضه أن يلعب دوراً مؤثراً بأكثر من المواقف النظرية المبدئية . . . والمحصلة ، أن المنطقة بأسرها ، ستنخرط بفعل الإزدياد الهائل للثروة النفطية ، في عمليات تنمية مرتجلة عمادها الأول والأخير هو الغرب نفسه ذلك الصديق الأثير ، وعبر شركاته الصناعية الكبرى المتعددة الجنسيات . . والمخططات .

بعد لعام ١٩٧٣ وبوقوع حرب تشرين ، وإثر تضاعف أسعار النفط كما أشرنا ، فقد تم التركيز على إحياء فكرة صندوق عربي للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ومع هذا التضامن الاقتصادي العربي ، فقد شكّل النفط سلاحاً رهيباً في يد مالكيه ، فالدول النفطية أصبحت تموّل القسم الأعظم من المشاريع والمؤسسات التي تعكس دور النفط ، وروحه

وأسلوب خياراته وتوجهاته . . ثم بدأت الدول المستفيدة ، تألف أسلوب العيش على المساعدات ، وتختار لوجه السلّة في أنظمتها الحاكمة ، نمط حياة لا يعكس إطلاقاً كفاية الناتج الإجمالي للإقتصاد الذاتي ، أو كفاية الجهود التنموية القطرية الداخلية ، ومع هذا التواتر . فقد تشكلت (طبقة شيوخ) جديدة ، لكن في بلدان غير نفطية ، وهكذا بدا أن السعودية ومن ورائها دول الخليج النفطية ، قد كسبت الرهان على اصطياد المرحلة المقبلة . . .

هكذا تبدلت الصورة السياسية للعالم العربي تبدلاً منظوراً مع مطلع السبعينات . فقد انكفأت اليسارية إنكفاءً شبه تام ، من سورية والأردن ، كما وضعت الماركسية نفسها في أقفاص اتهامات عديدة في مصر والسودان وليبيا ، كما أن العراق كان متصادماً مع الشيوعيين في المرحلة وما قبلها ، وراحت الجزائر اليائسة من الوقوع المتعمّد في حضن النفط ، تُسائل نفسها **عن عزلة إقليمية ، تجرب فيها حظّها في التصنيع المتصاعد ، وكان أحد أنصار (طبقة الشيوخ الجديدة) قد روى حكاية عن مشروع سندبادي تصير الجزائر بموجبه : يابان الشرق الأوسط ! . .**

ومع هذه التحولات الدراماتيكية ، شرعت الأنظمة العسكرية العربية ، تدخل في فضاء النفط المدهش ، فجميع القادة الذين التقفوا مقاليد السلطة في مطلع السبعينات ، كانوا لا يزالون في مواقعهم في مطلع الثمانينات ، ففي تونس فقَد زعيم المعارضة ابن صالح حظوته مع بداية ١٩٧٠ ، ثم كان التوجه (الراديكالي) نحو الغرب ، وفي الجزائر فرض بومدين نفسه كرجل الانضباط والطاعة ومشاريع التنمية الطموحة ، ولا ريب أن الدينامية التي كانت قد جعلت العديد من الأقطار العربية ، أرضاً خصبة للإنقلابات العسكرية ، وهي ذات دلالات شخصية وسياسية وأحياناً فكرية ، **هذه الدينامية أصبحت أثراً بعد عين ، مع استقرار حقبة النفط ، ومع استثناءات نادرة هنا وهناك ، فقد أخلى الرأي العام العربي جيشاناته لصالح مسرح سياسي وقور ، كما أن حركات الجماهير في المدن ، التي طالما أحيت حفلات النجوم من الضباط الباحثين (عن كل أماني الجماهير) قررت إخلاء الحلبة من (رقص مولوي) هائم ليس لليله من إصباح .**

منذ ذلك الحين ، فإن النفط اقتحم حياة المجتمع العربي دون استئذان ، ولسوف يصير منذ هدوء المدافع في حرب تشرين ، هو الطاغية الحقيقي والوحيد لهذا المجتمع ، فيلتهمه شيئاً فشيئاً بصورة محققة ، ولسوف يحيي النفط رميم حياة القبائل العربية لا كما كانت في التاريخ ، بل بما يراد لها أن تكون في قسمة الجغرافيا العربية التي لا تحول ولا تزول .

ولسوف يقصم النفط ظهر الأمة في حكاياتها عن الدولة الواحدة . . والعدالة . . وفضول أموال الأغنياء عند ابن الخطاب . . بل إنه سيخنق الطبقات الأكثر حرماناً في المجتمعات العربية . وسوف يحيل الطبقة الشغوفة بالمُثل العليا ، (ربما كانت هي الطبقة الوسطى في عالمنا الثالث) ، إلى أبواق صدى للمعلم النفطي الجديد ، بعد أن تم قضمها بالتدريج ، في عملية رشوة جماعية ، لم يشهد لها التاريخ مثيلاً من قبل . .

هذا ولن يكون ورثة المرحلة التاريخية الآفلة ، مرحلة الملحمة الناصرية ، وحلم القومية الرومانسي ، مع صناديد الرجّة اليسارية ، أكثر من صورة على الكربون لأبطال رحلوا ، وسوف نلتقي بهؤلاء الورثة في الحركة الوطنية اللبنانية وفي حركات المقاومة الفلسطينية التي أُعيد بناؤها في لبنان ، ثم في التصدّيات اللفظيةالصاخبة ضد كل مشاريع التنازلات أمام الإمبريالية أو الصهيونية كما راحت تتجسد في اتفاقات الكامب ، بعد اتفاقتي سيناء ، **وما خلا الجمهور الذي بدأت الأنظمة السياسية تصنعه لنفسها ، سواءً في المؤسسات التشريعية والتنفيذية ، أو مؤسسات الطائفية والعشائرية والأسروية ، وفي القضاء وقصور صاحبة الجلالة (الصحافة ومعها كل وسائل الإعلام) ، وغيرها من المؤسسات النقابية والمحلية الأخرى ، فإن الجماهير العادية ، وهي الأوسع بالطبع ، بدت وكأن لعبة المساومات داخل الأقنعة المزركشة لا تروق لها ، ولأن المجتمع العربي المرهق من الأسفل والمتخم من الأعلى ، ما عاد بمقدوره بعد محاولة تشرين ، أن يتنطح لدور سياسي مبادر ، فإنه آثر حياة الدعة والتسليم (بقضاء الله وقدره) ، خاصة وأن دول المعونة النفطية ، أظهرت ميلاً لاستخدام عصا الحجاج ، ما لا قبل للناس بمقاومته ، ولأول مرة في تاريخ البشرية ، تبدو آلة الدولة كمؤسسة قمعية ، أقوى بما لا يقاس من مجموع قدرة الجماهير ، فالنفط قد ساهم فيما ساهم ، بالحصول على أحدث الأجهزة التكنولوجية ، لصالح أجهزة الأمن المحلية ، وبدا أن العالم الأول يتساوى في فعالية التكنولوجيا مع العالم الثالث ، فقط فيما يمس الأمن ونجاعة نشاطاته ، فيما الكهرباء (التي دخلت إست دريد لحام في إحدى مسرحياته قبل دخولها القرية) ، والطرقات إلى عالم الأرياف وحتى بعض المدن ، بل ومستويات الخدمات ، والمعيشة كلها من رغيف الخبز وحتى أسعار اللحوم ، مع ما يرافقها من آليات العمل الحكومية الطاوية والوئيدة إلا بما يسمح به النظام السياسي أولا يسمح . . . وغير ذلك مما يبعث على الذهول والقنوط والعجب ! . .**

لم يكن ينقص الأنظمة المعتمدة بكثير أو قليل على المعونة النفطية . سوى الدلع والولع والغطرسة ، تلك التي تبدت لدى أبناء المسؤولين ، كظاهرة متفشية من أبناء أمراء النفط ، وكان على القوانين المزدراة ، أو المواطنين المحتَقرين ، انتظار معجزة لا بشرية بل إلهية ، للخروج من الحظ العاثر ، الذي وضعها في عداد هذه الأمة ، وفي زمنها الأسوأ خاصة عندما يكون الإحتكام لعصا الحجاج فيما يدفن عمر بن عبد العزيز مع تاريخه ونسله . .

كانت حرب تشرين في نتائجها البعيدة مسؤولة عن فواجع ثلاث :-

- طغيان النفط على جميع المستويات السياسية والمعيشية والإجتماعية .
- غياب الجماهير أو غيبوبتها عن التأثير في دوافع قرارمتخذ ، وبالمحصلة عن كل ما له علاقة بالشأن المصيري العام .
- ثم الخاتمة المريعة في عقد الصلح مع اسرائيل دون منظور له علاقة بالمستقبل ، والمحزن أن ذلك انتهى إلى تدمير بلدين عربيين هما العراق وليبيا .

أما النفط فكان له الأرجحية في كل ما ذكر ولم يُذكر ! . .

لقد ذهب النفط العربي إلى كل مكان في العالم * ، من سوهو في لندن إلى بيغال في باريس ، ومن الفليبين إلى تايوان ، بحثاً عن الرق والرقيق من جميع الألوان بدءاً بالأبيض وانتهاء بالأسود ، كما لم يدع النفط المُظفّر بلداً في طريقه إلا واكتسحه من لاس فيجاس في الولايات المتحدة إلى الأمارة الخضراء في مونت كارلو بحثاً عن الخروج من الضجر أو الكآبة ، فيما يتم الذهاب إلى عوالم مكهربة ، أخاذة ، فيها من حياة المتعة والتمتع ، ما يكفي لسقوط شلالات من الورق الأخضر فوق الموائد الخضراء والنساء . . فيما يبكي أطفال الخليل وصعيد مصر والسودان ، وكل الأصعدة الأخرى ، من الجوع . .

وما بين الرق والرقيق (وربما الرقة) ، وموائد الغرب الخضراء ، بدت عوالم أخرى لم تكن في الحسبان ، وربما أخذت هذه العوالم من الإنسان كرامته ووعيه ، وفي حفلة خدر تسري كدبيب النمل في الدم ، راح عالم من المخدرات يحلّق في السماوات ليرتد إلى أرضها ، في واقعة جريمة مستنكرة ، أو إثم مُرتكب . . وكان النفط سخياً على الرق والقمار وعالم المخدرات الأمثل بأكثر من سخائه على أية قيمة أخرى ! . .

كانت دولارات النفط (المسموح بإنفاقها غربياً) ، تذهب إلى كل ما هو شائن حضيضي ومنحط ، خاصة أمام الغرب الصامت ، والذي كان صمته من ذهب أسود ، وهكذا بدا الطائش المتخلف ، صاحب الجمل في عري الصحراء ، كأكبر عدو للمدنية والقانون والحضارة ، وقد رأى الكون بأكمله وهو يستجيب إلى نزواته وترّهاته ، فتوهّم بأنه على حق فيما يأمر وينهي ، وأن العالم الخسيس الذي لا يعرف المُثل إلا في الكتب ،

---

* باستثناء مكان واحد لا يذهب إليه النفط العربي ، وهذا المكان يعرفه الجميع . إنه موطن التنمية الحقيقي لبناء قوة المستقبل ، والشاهد فإن أراضي السودان الشاسعة والصالحة لم يذهب إليها النفط . بل آثر الذهاب لإنقاذ حدائق الحيوان في أوروبا كمثل من الأمثال . . .

هو عالم المال دون جدال . . . وصار العربي الآخر ، حتى من الخليج نفسه ، أو من بلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا العربي ، يُنظر له نظرة الجمع ، كأبله مستطير ، من بلاد الثروة السائبة أو المستباحة في مزارع آبائه وأجداده ، بحيث تمّ الربط بينه وبين صورة (الحمار الذي يحمل أسفارا) فلا هو قرأ ما فيها ، ولا استخرج الحكمة من بين سطورها ، كما صار اسم البترول بديلاً لاسم العربي حسب بطاقة هويته ، في حلّه وترحاله * .

ثم ما لبثت الصهيونية أن اقتحمت مجال القابلية النفطية المخجلة ، فأشاعتها على الجمع العربي كله ، فقد وجهت حرابها المسمومة لطعن العربي في صميم تاريخه ورسالته وجدارته ، وكان الشاهد النفطي يعمل على تعزيز التخرّصات الصادرة عن الصهيونية ، ملكة اللعبة في عالم الإعلام ، **فالنموذج النفطي الغارق في بحر المتعة والاستهلاك ، هو نفسه النموذج العربي الذي لا يرى الغرب سواه ، أما حضارات سبعة آلاف عام ، فقد طويت في زحام التاريخ ، أو أن رمال الصحارى المتحركة ، كانت قد دفنتها ، لصالح أثر قيمي جديد هو النفط ، ولم تكن صورة الجمل لتغيب بعيداً عن أبراج آبار النفط الحديدية ، وكانت عملية الجمع بين البئر والجمل ، ترمز إلى صورتي الضدّ في هذا العالم ! . .**

كان الجمل العربي ، وما يزال ، هو دليل الغرب الوحيد ، إلى مواطن العرب في كل مكان ، ومن أجل اندماج المشهد ، فإن الصحراء هي ما تلزم الجمل ، فأوطان العرب صحارى ، ولولا النفط الذي اكتشفه (هو خالقه) الغرب ، لظلّ العرب هناك ، تأكل عيونهم رمال الصحراء المتطايرة في كل اتجاه . . ومع أن الغرب هو صاحب نظرية الرفق بالحيوان إلى درجة مرَضيَة ، فإنه في سريرته ظل يحتفظ بنظرة احتقار لحيوان الجمل ، وربما كانت الصورة المركبة لثلاثي : العربي الذي هو نفسه برميل النفط الأصم ، وحيوان الجمل الأبله . . هي التي دفعت الغربي بتحريض صهيوني ، لازدراء هذا الحيوان من دون غيره . . وكانت عقوبة الجمَل الذي يجرّه الحمار مثلاً يُحتذى في التاريخ .

من جهة غير رمزية ، فإن النفط بصفته ثروة طبيعية مخبوءة ، غير مصنوعة ، فإنه سرعان ما ساهم في تكوين رساميل سهلة بدت كرافعة في عملية الإنتقال من الفقر إلى الغنى لكن بصورة موقتة ، فدور النفط لم يكن سوى صنع الغنى لأقل من ١ بالمئة من مجموع الـ ٥ بالمئة لأمة تمتد من المحيط إلى الخليج ، وغير حياة الرفاهية والإتكال ، فقد

---

* في لندن : سألني أحد الإنكليز ذات مرة عن موطني ، فأجبت من فلسطين ، الإقليم الجنوبي من سوريا فأجاب كالأبله : آه ، آه ، بترول يوم . . علماً أنه لا شيء فيّ يدل على ذلك ، لا المسلك ولا الملبس ولا حتى شقة السكن المتواضعة ، ربما كانت بشرتي الداكنة هي شاهده على ذلك ! . .

أشاع النفط حياةً فيها من ضروب السمسرة وروح الاستهلاك ، ما قضى على التطور الطبيعي لأمة تعتمد طريقة التنمية الحقيقية كاسلوب لحياة الأجيال في الحاضر والمستقبل، وهكذا ليصير النفط بنداً خفياً من بنود الدخل المتأرجح لشعب يعيش عند خط الفقر أو دونه. وهكذا لم يلعب النفط خلال ثلاثة عقود من تاريخ ارتفاع أسعاره (دخل السعودية من النفط في العام ١٩٧٤ فقط بلغ ٢٨,٦٠ مليار دولار أمريكي) ، دور رافعة تنموية. وما عدا الشروط التي تضعها الولايات المتحدة ، لاسداء المعونات النفطية العربية ، للعرب أو الآخرين ، فإن هذه المعونات تذهب إلى حاجات الاستهلاك السنوية ، أو إلى عالم الخدمات في مجال محطات الكهرباء ، أو محطات الإذاعة ، وعالم السياحة وبناء المساجد الاسطورية ذات الطراز الشرقي البديع . . . الخ.

لم يذهب النفط إلى عالم الزراعة في سوريا أو مصر أو الأردن مثلاً ، كما لم يجد طريقه إلى عالم الصناعة الممكن ، وفي هذا المجال كان يجد طريقه فقط ، إما إلى شراء مواد أولية لعالم من الصناعات التحويلية الخفيفة ، أو إلى صناعة التسويق السياحي ، أو ، وهذا هو الأهم ، **إلى صناعة التسويق الأمني ، فيما بقيت ألوف الهكتارات الزراعية ، في مصر وسوريا والأردن والسودان ، تنتظر غوثاً استراتيجياً في سبيل الاستصلاح وبناء شبكات الري ، التي تذهب مياهها اليوم هدرا . .**

ولا يستطيع النفط العربي الدفاع عن نفسه ، أمام نهبين داهمين :-

- النهب الأول ويتم عن طريق مالكيه المحليين ، بحيث أدى ذلك حتى إلى توجيه نقد أمريكي ، طال الطريقة التي يبذر بموجبها أمراء السعودية أموال النفط في العالم . .
- النهب الثاني ، وهو الأساس ، ويتجلى فيما تمارسه الشركات الغربية القائمة على الحقول من المنبع حتى المصب .

فقد ذكر المختصون أن هذه الثروة يتمّ نهبها وفق أساليب شتى ، ليتم استقرارها أخيراً في (حضن المركز) الغربي وعلى رأسه الولايات المتحدة ، فزيادة الأسعار تموت مع ارتفاع نسبة التضخم العالمية ، ثم إن الفرق بين السعر الرسمي للبرميل والسعر الحقيقي يأكل ثلث قيمة المدفوع للدولة المنتجة ، أما الأسلوب الأخطر في سياسات النهب الشاملة ، فتكمن في إعادة تدوير العائدات النفطية ، بحيث أن هذه العائدات يتم تحويلها إلى المركز بشكل مباشر أو غير مباشر وفق ما يلي :-

- **عن طريق الاستثمارات الاستبدالية التي تقوم في الأساس على الصناعات البترولية** ، وبالرغم أن هذه الصناعات تقوم بانتاج سلع تتمتع بأهمية بالغة بالنسبة للغرب ، فإن هذه الصناعات لا مستقبل لها (نموذجها مركز جبيل السعودي بعشرات المليارات) ، فالشركات البترولية التي تحتكر انتاج الطاقة تستعد منذ الآن لمواجهة انتهاء العصر البترولي ، وبالمحصلة فإن هذه الشركات تسعى بكل جهودها لدفع البلدان المنتجة للنفط ، كي تقوم بتأمين حاجة هذه الصناعات من الاستثمارات المطلوبة ، وقد بلغت التقديرات الأمريكية للإستثمارات المطلوبة خلال العقد من ١٩٧٥ - ١٩٨٥ ، زهاء ٣٥٠ مليار دولار أي بمعدل ٣٥ ملياراً لكل سنة ، وهذه القيمة مأخوذة أساساً من أثمان النفط الخام للسعودية وكل الخليج العربي . وحيث أن الصناعات البترولية تستند بشكل أساسي على المعامل الكاملة لآليات التكنولوجيا الأمريكية ، فإن هذه التجهيزات يتم تسعيرها وفق طرق تؤدي إلى حصد الأرباح الحقيقية على حساب البلدان المساهمة في استثمار هذه الشركات . .

- **عن طريق الهبات والسرقات** ، وليس في نية هذا الكتاب أصلاً توضيح أو تفسير آلية السرقات النفطية أو تقدير قيمتها ، فهناك خبراء عدة تناولوا هذه القضية ، يضاف إلى ذلك الأكلاف الفادحة بين كلفة البرميل في الشرق الأوسط ، عنه في الولايات المتحدة أو بريطانيا ، كذلك الفارق في أجور العمال ، حيث يستقر في جيوب الشركات المستثمرة . .

- **المساعدات والقروض** . فقد تخلصت الولايات المتحدة من حمل ثقيل ، ورمته على ظهر البلدان المنتجة للنفط ، وبالقدر الذي كانت فيه المساعدات أو القروض الأمريكية تنخفض ، كانت ترتفع مسؤولية البلدان المنتجة من أجل تأمين وحفظ وتماسك النظام العالمي ! . . فهناك سلف أو قروض لفرنسا كذلك لبريطانيا على تجهيزات مقبلة ، قد يطول أمد تسليمها وقد يقصر ، كما أن هناك مليارات تُدفع كمساعدات لبنغلاديش وباكستان وأفغانستان والسنغال ، كما أن حصة السعودية والخليج وايران من أجل فتح قناة السويس وإعمار بورسعيد وصلت بعد حرب تشرين زهاء ٢,٥ مليار دولار ، أما الولايات المتحدة فتوجّه هبات النفط لديها باتجاه الجامعات وانتشال شركات الطيران وما له علاقة بالمستقبل .

- **هروب الرساميل الوطنية بشتى الطرق** . فقد خرج في العام ١٩٧٥ ما يقدر بـ ٦ مليارات دولار نفطي سعياً وراء التثمير في الخارج ، على شكل ودائع وتوظيفات سرعان ما تذوب أرباحها في معدلات التضخم المتزايدة ، هذا فضلاً عن التلاعب بأسعار الصرف بين الدولار والعملات المحلية على شكل عمليات مد وجزر بين الشروق والغروب . . وما له علاقة بجنون البورصة وتقلبات أسعار أسهمها بصورة وحشية تبعث على الإنتحار .

- **عن طريق النظام المصـرفي العـالمي** . فالمصارف الأمريكية ووراءها المصارف الأوروبية تحاول إقناع أعضاء منظمة الأوبيك ، بتوزيع ودائعها المالية على بنوك عالمية عدة، لتقاسم المخاطر بصورة مشتركة ، وقد رفضت المصارف العملاقة (تشيز مانهاتن ، سيتي بانك . . الخ) استقبال ودائع جديدة للنفط في العام ١٩٧٥ ، كما أنها أعلنت عن تخفيض في سعر الفائدة على هذه الودائع ، وهذه الإجراءات وُضعت ، كي تذهب ودائع النفط إلى مجالات استثمارية غربية أخرى غير البنوك ، فيما المشاريع بطبيعتها غالباً ما تكون استثمارات طويلة الأمد ، وبذلك يصبح للبترو-دولار دوراً إيجابياً تستفيد منه اقتصاديات الولايات المتحدة المتعطشة دائماً لضخّ أموال جديدة . .

لقد صرح السيد رضا صلاح ، أحد مدراء شركات النفط الإيرانية ، على هذه المسألة بقوله : (**كل شيء يسير بشكل جيد ، فالفوائض تأخذ طريقها إلى الولايات المتحدة على شكل ودائع قصيرة الأمد في البداية ، ثم تخرج إلى مجال المدى المتوسط ، ثم تستقر في مجال التوظيفات بعيدة المدى**) .

وفي تشرين الثاني من العام ١٩٧٤ صرح كيسنجر لجريدة ليموند الفرنسية ، بأنه (يجب السعي لتوفير رصيد مالي من أموال البترو - دولار قدره ٣٠ مليار دولار ، كي تتم مساعدة البلدان الصناعية في تغطية العجز في ميزان مدفوعاتها) .

- **عن طريق زيادة الاحتياطات من العملات الأجنبية** . فقد زادت البلدان المنتجة للنفط من هذه الإحتياطات بحيث ارتفعت من نسبة ٧ بالمئة من الاحتياطات العالمية في العام ١٩٧٣ ، إلى نسبة ٩ بالمئة من مجموع هذه الاحتياطات في العام ١٩٧٤ ، وبلغة الأرقام ، فإن الخليج وحده (السعودية على رأسه بالطبع) ، رفع احتياطاته من العملات الأجنبية مما يساوي ٢٢ مليار دولار ، إلى ما يساوي ٣١,٣٨ مليار دولار ، وهذه الاحتياطات مودعة بالطبع في الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو اجراء تم تنفيذه في مدة سنة واحدة .

أما إعادة التدوير (أو بشكل أوضح إعادة النهب) بصورة غير مباشرة ، وهي الأخطر في التأثير على اقتصاديات البلدان المصدرة للنفط ، **فتتم عن طريق استيراد كامل السلع والخدمات ، ما يلزم ولا يلزم من سوق الاقتصاد الأمريكي - الأوروبي** . كذلك سياسة شراء الأسلحة (بالمليارات) والتكاليف المتعلقة بسياسة الدفاع عن (العالم الحر) ، وما يتعلق منها بحفظ الأمن الداخلي ونفقات نشاطاته الاستخباراتية وأكلاف أجهزته الحديثة، كذلك التكاليف المتعلقة بتشجيع السياحة (النفطية) باتجاه الشواطئ الأوروبية في فرنسا

وبريطانيا وإيطاليا واليونان . . مع التركيز على الشواطئ الشهيرة الأمريكية في فلوريدا (ميامي) أو في كاليفورنيا ، أو إلى هناك حيث عاصمة القمار في العالم كله ، لاس فيجاس ، ويكفي أن نستذكر التكاليف الأخيرة لحرب الخليج التي تم بموجبها تدمير العراق ، حيث وصلت زهاء ستين مليار دولار (ففي كل عام يكتشف الإقتصاديون الأمريكيون خطأ في حساب حرب العراق ، فيرفعون قيمة الفاتورة من جديد) . . وغيره مما أوصل البلدان الغنية بسبب النفط إلى بلدان تعلن عن عجزها وحالة تقشفها إلى درجة أن الولايات المتحدة نفسها تحدثت علناً عن أنظمة (الفساد والإفساد) التي تعيشها العائلات الحاكمة في الخليج ، بحيث يجب التركيز على سياسات إصلاحية تتفق وروح العصر ، لا وروح الأثرة السلطوية التي تحوّل الوطن إلى مزرعة والشعب إلى قطيع . . .

◆◆◆

– الفصل العاشر –

لبنان – ساحة اقتتال نفسه والمنطقة والعالم

اولاً / تاريخ النشاز

إن انفجار لبنان جاء بمزيج مركب :–
القابلية الذاتية وصراع المنطقة ثم الحبكة الخارجية . .
بانفصال هذه العناصر ، ظل لبنان يعيش تاريخه السلمي ، على شكل تاجر فينيقي ، كان قد ترك المذاهب وراء ظهره . .

يقولون ومنذ الدولة الأموية الأولى، فإن جبل لبنان باتفاق مع بيزنطة أو بخصومة معها، ظل يلعب دور مقاوم لرياح التغيير التاريخية ، فلبنان كان على الدوام أحد معاصي الدولة فوق الجبل ، ولما كانت الدول الحاكمة ، لا تأبه لما يجري فوق الجبال ، طالما أن كل شيء يجري دون تعكير ، فقد تُرك الناس وشأنهم هناك ، وفيما بعد ، ولأسباب سياسية مجللة بدواعي مذهبية ، كما جرى عادة في كل الإنشطارات الأخرى ، فقدتم الضخ في أوصال الجبل المشاكس والنفخ في أوداجه لدرجة الإحتقان ، فبدا أن لبنان يشكل شذوذاً على المنطقة وتاريخها الطويل .

منذ بداية الفتح الاسلامي بقوة العرب ، عمل العرب المسيحيون من أبناء غسان ومنذر، وهم الأكثر علماً وخبرة من بني جلدتهم القادمين من الجزيرة العربية ، كأطباء ووزراء وموظفين ذوي خبرة في عالم المال والنقد والطب والزراعة ، وفي القرن الذي أعقب هذا الفتح ، صدَّرت بلاد الشام وحدها ، خمسة باباوات إلي العالم ، أما القديس يوحنا الدمشقي والشاعر العربي المسيحي الأهم في ذلك العصر وهو الأخطل ، فقد ارتسما مع غيرهما ، على قسمات مرحلة بأسرها ، ويقول تاريخ الفتح ، أن أدلاّء خالد بن الوليد إلى سوريا كانوا من العرب المسيحيين ، وسيلعب العرب المسيحيون دور مؤسس للدولة العربية الأولى ، كما سيتم عن طريقهم بفضل معارفهم اللغوية نقل الحضارة اليونانية عبر الترجمات المتلونة للفلسفة والطب والرياضيات والهندسة . . . الخ .

وفي الوقت الذي كانت فيه أواخر الامبراطورية الرومانية ، تعيش (بيزنطيّتها) ، وتأمل من أبناء كنيستها في المنطقة ، كالموارنة في لبنان ، والأرمن أو اليعاقبة في تركيا ، والنسطوريين والكلدانيين في العراق . . كان الأقباط والأرثوذكس ، وهم أكبر المجموعات العربية المسيحية في المنطقة ، يرفضون الإنضمام إلى مطالب كنيسة غربية بدت أقل أهمية في كل شيء . .

مع حملات الصليبيين التي دامت زهاء قرنين ، سيتم التأكد أن العرب المسيحيين هنا ، لم يكونوا أوفر حظاً من العرب المسلمين في التعرض للإضطهاد والنهب وعدم التمييز ، وحينما تمكنت القوى الأوروبية من انتزاع امتيازات الامبراطورية العثمانية ، أعلنت نفسها كحامية للمسيحيين في المنطقة ، وقد ساهمت هذه الحماية نفسها بمكائد غربية ، من إظهار المسيحيين كطبقات ممتازة أو مميزة في المجتمع ، ولأسباب باتت مكشوفة ، وخلال أحداث الحرب العالمية الأولى ، دأب الغرب عن طريق وسائل شتى ، على تحريض الطائفة الأرمنية في تركيا لانتزاع حقوقها بالقوة ، فكانت الحصيلة مليون قتيل أرمني ، أو هكذا قدم الغرب احصائياته التي تفتقر بهذا المنحى إلى الأمانة * .

في لبنان ، رفض الأرمن الذين يعيشون بأكثريتهم المطلقة في المناطق المارونية ، الانحياز إلى أي طرف من أطراف الصراع ، كما رفضوا بشكل خاص ، دفع الأتاوات إلى الميليشيات الكتائبية ، وكان ذلك قبل وقوع الإنفجار بسنوات . .

كان لبنان في التاريخ ، هو الممول الأول لمادة الخشب ، الذي استخدمه الفينيقيون طيلة ألفي سنة لبناء سفنهم البحرية ، كما استخدمه فراعنة مصر والامبراطورية الرومانية ، كما أعطت غابات الأرز الكثيفة ، مادة الزيت التي سيستخدمها المصريون في التحنيط ، وقد اعتاد أحد أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت على القول (**في التاريخ وفي كل مرة يموت فيها مصري ، كان اللبناني يكسب مالاً**) .

لقد سكن الفينيقيون مدناً متباعدة ومستقلة ، لكنها كلها ، كانت محاذية للساحل ، وينقل المؤرخون عن فينيقيا هذه ، **أنها كانت ناقلة للثقافة أكثر منها مبدعة لها ، وقد أدى النشاط التجاري للفنيقيين إلى نوع من التمازج الثقافي بين عوالم ذلك العالم ، من صيدون (صيدا) إلى قرطاجة (تونس) ، ومن تونس إلى اسبانيا وما وراءها فيما بعد .**

---

* لا يعلم إلا الله عدد قتلى اليهود على يد النازية العالمية ، ومع ذلك هناك أكثر من مصدر يؤكد أن ضحايا الهيلوكست من اليهود على يد النازية ، لم يتجاوز ثلث العدد الذي قدمته دوائر الصهيونية العالمية ، والتي مازالت إسرائيل تحتفل سنوياً بذكرى المأساة تحت اسم : الكارثة والبطولة ! . .

وقد أصبحت المدن الفينيقية الساحلية في جبيل وبيروت وصيدا وصور مراكز لتقاطع ثقافات شتى ، وذلك لأن هذه المدن عملياً ، شكلت النقاط الحساسة للطرق التجارية من وإلى الغرب والشرق معاً .

ولقد استمر لبنان طيلة تاريخه في دور مماثل للدور الفينيقي ، **حيث لم يكن لدى اللبنانيين المعاصرين أي إحساس حقيقي بالدولة ، فالمدن الفينيقية حسب إشارات التاريخ ، لم تتحد فعلياً إلا تحت ظل هيمنة خارجية ، وهناك في شمال بيروت ، على ضفاف نهر الكلب ، لوحة كبيرة نُحت عليها أسماء الشعوب التي مرّت وهُزمت ، بينهم الحثيون والآشوريون واليونانيون والرومان ، كذلك في العصر الحديث : فرنسا وبريطانيا . . وفي الحقيقة فإن ما كان يهم الغزاة ليس الصعود إلى الجبال ، طالما أن طرق الاتصال مفتوحة ، وأن الضرائب تُجبى بانتظام . .**

طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فقد نفخ الغرب في النظرية القائلة (بلا عروبة) الموارنة وانفصال هذه الطائفة عن تاريخ المنطقة ، علماً أن شطراً كبيراً من الطائفة المارونية ، يتباهى بأقدمية هجرته من الجزيرة - قبل العرب المسلمين - بل يؤكد حسب شجرة النسب عميقة الجذور ، انتسابه إلى هذه القبيلة العربية أو تلك . . . ودون هوادة ، فقد واظب نتاج مؤلفين كنسيين في القرنين المذكورين ، على إقامة برهان فرضية (اللاعرب) بالنسبة للطائفة المارونية . . هذا وسيعلق أحد الصحفيين الغربيين بخبث (**لقد فشلت كل النظريات ، فشراسة الحرب الأهلية الداخلية في لبنان ، واستطالة أمدها ، بحيث تجاوزت أمد حربين عالميتين ، تثبت أن الجميع يتحدرون من أصل عربي - قبلي ، واحد**) ! . .

لا سبيل في هذا البحث غير المخصص ، للتوغل عميقاً في أصول المارونية التاريخية والاجتماعية والمذهبية ، على يد منشئها القديس الحموي ربما . . ما ر مارون*، بل تكفي الإشارة إلى جانب الطباع الخشنة التي ربما ورثوها من الوادي المعاكس لطبائع الجريان في الكون (العاصي) ، أو تلك التي ورثوها من الجبال ، فيما جنون العظمة قادهم إلى القول يوماً ما أن (الله كبير ، وعظيم . . ولكن مَنْ هو الذي يصل إلى مرتبة مارمارون ؟ . .)! . عبر تحريك التناقضات المذهبية التي استقرت في لبنان ، اعتمد العرب المسيحيون في لبنان - أثناء طغيان إدارات الامبراطورية العثمانية - على دعم قناصل الغرب في بيروت ، ومن العام ١٨٤٠ دعم الفرنسيون الموارنة ، كما دعم البريطانيون خصومهم من العرب الدروز . أما الروس فجعلوا أنفسهم حماة للإرثوذكس العرب أما بروسيا والنمسا فنافستا فرنسا في

---

* هناك رواية تاريخية تقول بأن جدّ القديس مارون جاء من فرنسا مع الحملات الصليبية .

دعم الكاثوليك والموارنة في المنطقة ، وهكذا وصلت التدخلات إلى حد القول ، بأن فنجان قهوة إذا ما سقط فوق أرض لبنانية ، فإنه يتسبب في قيام كارثة بين لندن وباريس أو بين برلين وموسكو . .

مع حملة ابراهيم باشا انطلاقاً من مصر إلى بلاد الشام ، انتقل مركز الثقل البريطاني إلى فلسطين ولبنان ، لكن بشير الثاني الذي ينظر إليه اللبنانيون كبطل قومي ، كان قد أُرغم على مغادرة البلاد ، وقد دشنت المرحلة (حملة ابراهيم باشا وتراجعه) أوضاع عنف مريرة بين اللبنانيين (حيث غُطي البلد بسلسلة متناغمة من الوحشية ، فلا يمر فصل دون أمير منفي أو منافس قتيل ومنطقة خاضعة – المقيم الإنكليزي ديفيد أوركهارت في بيروت عام ١٨٥٧ – مذكرات) .

كانت التوترات في المجتمع اللبناني نفسه ، عاملاً من عوامل تغذية العنف باستمرار ، وقد نجمت التوترات عن ضغوطات مناطقية وديموغرافية ، وفي السنوات الأخيرة من حكم بشير الثاني ، بتشجيع من ابراهيم باشا ، أثرى المسيحيون بشكل ملحوظ ، وكان ذلك بحكم سعي ابراهيم باشا لكسب رضى الغرب في معركته ضد الأتراك ، وحتى انفجار الوضع في لبنان أواسط السبعينات ، فقد كان التبجح غير المسؤول ، عن الغنى والمباهاة بالوجاهة العائلية والإفراط في التغاضي عن مخاطر الظلم وسوء العدالة يسود كل شيء . . .

ففيما كدس زعماء المارونية السياسية ، الثروات بشتى أشكالها ، غرق الدروز في بحر من الإهمال والفقر والتجاهل ، ومع سقوط بشير الثاني ، عاد زعماء الدروز من المنافي ليطالبوا بممتلكاتهم التي سطا عليها الموارنة في كل من دير القمر ومناطق الشوف ابان عهد بشير ، رجل الفاتح المصري .

إلا أن المواجهات بين الموارنة والدروز ، لم تكن هي الأسباب الوحيدة للتوتر في الجبل ، ففي قلب الطائفة المارونية ، ثار فلاحو كسروان ضد أسيادهم الاقطاعيين وطالبوا بالعدالة ، وكان ذلك بتأثير رجال الدين أنفسهم ، وقد رفض الاقطاعيون الموارنة كلاً من مطالب فلاحيهم ، كذلك مطالب زعماء الدروز بإعادة ممتلكاتهم ، وفي العام ١٨٦٠ نجح الإنضباط الدرزي في كسب المعركة ، رغم تفوق الموارنة بالعدد والسلاح ، ذلك أن صراعاتهم الداخلية كانت قد أضعفتهم على نحو خطير ، وكانت الحصيلة ، عشرة آلاف

قتيل من الموارنة في المناطق الدرزية ، مع مئة ألف آخرين شُرّدوا تحت السماء دون مأوى . . وبالطبع فإن السلطات التركية ، كانت تتمتع بجريان الدماء التي كانت تسيل بسخاء في صفوف الخصمين اللدودين . .

كانت النتيجة على صعيد العالم ، وصاية ست دول أوروبية على الجبل ، الذي جُعل مقاطعة مستقلة محكومة بمجلس إداري منتخب يرأسه مسيحي من الامبراطورية العثمانية ، ولكن ليس من لبنان كله . . ومنذ ذلك الوقت ، فإن مسألة مَنْ يحكم ومَنْ يسيطر ، هي التي ستطغى على قسمات المراحل حتى يومنا هذا .

سيقول أمين الجميل الابن البكر للشيخ بيار الجميل زعيم الكتائب ، وهو ثامن رؤساء الجمهورية بعد الاستقلال ، (أن الحرب ليست هي القدر المحتوم للبنان ، ولا ريب أن جيلاً من اللبنانيين عاش على دوي المدافع ولم يعرف غير الصراع المسلح ، وهذا ما شوّه لبنان وجعل صورته مرادفة للعنف والشراسة ، لكن ما لاريب فيه أيضاً ، أن السلام الذي قام سابقاً في ربوع لبنان لم يكن بدوره أسطورة حاكتها المُخيِّلة ، ولا ستاراً نضجت وراءه نزاعات لم يكن بالمستطاع تداركها ، أو نزعة دفينةً إلى القتال ، ومن يعرف لبنان ولو معرفة يسيرة ، يدرك أنه بطبع أبنائه وتقاليدهم بلد مسالم ، فالطبيعة فيه ودّية بشوشة بخضرتها السخية وإطلالته على البحر توحي بالسكينة والهدوء ، أما جبالنا الخضراء فليس فيها ما يوحش ، فهي تحتضن قرى تسير فيها الحياة وديعة هانئة – الرهان الكبير ص ٨٦)* .

وبالطبع ليس ذلك صحيحاً ، فلو أن جمال الطبيعة على النسق ذاته ، هو الذي يؤدي إلى جمال طباع الإنسان والتعايش في سلام غامر مع الآخرين ، لكانت أوروبا الأشد اخضراراً وبهاءً وبحاراً . . . هي سيدة السلام في القرون ! . .

(وفي لبنان – يتابع الجميل المصدر السابق – أقام الاسلام والمسيحية ، بينهما منذ قرون عقداً يتسم بالتعقل والحكمة وروابط الصداقة والمحبة ، أما تقاليدنا الديمقراطية القائمة على الحوار والتسامح ، فقد وطّدت العلاقات الطيّبة بين أبناء الديانتين الكبيرتين) **تلك هي المسألة إذن . . الديمقراطية** . . ولنستمع إلى كمال جنبلاط في كتابه ثورة في عالم الإنسان يقول : –

---

* مع ذلك ، فإن سلام لبنان الأهلي ، كان على الدوام سلام إرغام ، إما من قبل جماعة أهلية داخلية تمت سيادتها لأسباب داخلية وخارجية معقدة ، أو بحكم سيطرة قوى أجنبية على لبنان كله . . عدا ذلك فغالباً ما كان سلام لبنان مشوباً بالتوتر . .

- إن أزمة الديمقراطية في لبنان تكمن في أن (الفرد) لا الشخص أو الشخصية الإنسانية هي مبتغاها ومستند إنطلاقها ومحور صيرورتها ، وفي الحقيقة فإن الفرد هو إمكانية ، وهو إنسان بالقوة لا إنسان بالفعل ، وهكذا فإنه لا يوجد في المعنى السامي والأكيد للحرية ، إلا حين يحيا مع المجموع ، لا على المجموع ، فيصبح ويصير إنساناً ، أي شخصاً تحققت فيه الإنسانية فامحت أنانيتها الفردية الشاملة من نفسه ، بل يمكن أن يقال أنه تجاوز نفسه نحو هدف (الرسالة والوضع) الاجتماعيين للشعب من كل مذهب ولون .
- أزمة الديمقراطية الثانية – والكلام مازال لجنبلاط – مشتقة أو متفرعة عن الأزمة الأولى ، فهي تذهب في لبنان كما في معظم الوطن العربي ، إلى الإنسان الفرد ، لا الإنسان الاجتماعي أو المجتمعي ، فالفرد لا يركز الأنظمة والدساتير والقوانين كلها في الدولة ، على مفهوم الإنسان الإجتماعي بذاته ، فالديمقراطية هنا ، تعني المحافظة على الثبات في النسبة والتناسب ، وهي كلها في خدمة الفردية أو الطائفية ، وفي ذلك ما سيؤدي دائماً إلى الفوضى والاقتتال والإنحلال . .
- الديمقراطية التي هي وعي الضرورة ، يجب أن تستمد فلسفتها الحياتية من واقع العدالة ، فالحاجات والمصالح والنزعات يجب ألا تكون لفريق دون آخر ، أو لطائفة دون أخرى ، أما تحقيق حاجات الجسد والثروة والجاه ، فهي ما تعمل له (الديمقراطية القائمة) في لبنان .
- الديمقراطية هي التميز المتبصر في التراث الاجتماعي والتقني والحضاري بين ما هو صالح وما هو طالح ، فالمجتمع والدولة في النهاية هما جماع ما يعكسه الإنسان فيهما ، فإنْ كان التصوّر أنانياً فردياً ، جاء المجتمع والدولة على الشاكلة نفسها ، ثم لا تلبث هذه الصورة أن ترتد إلى المواطن نفسه بجميع ما يقذفه المجتمع من أنماط حياة وتقاليد وتراث . .

ويختتم كمال جنبلاط مطارحته بالقول : كل ما في الحياة الاجتماعية والسياسية في لبنان ، وما تم تناقله من موروثات ، يجب إعادة النظر فيه وتوجيهه من جديد ، وفق اعتبارات العصر والتطور ، وما لم ينجح لبنان في الامتحان العسير ، فإنه رغم قشوره الزاهية ، سيظل يتخبط في جوهره ، بعلل الإنقسامات المستطيرة للأثرة الطائفية وجاه العائلات . . .

ويعترف أمين الجميل في كتابه الرهان الكبير - دار النهار - ص ٨٧ ، أنه رغم الازدهار العظيم والبحبوحة التي عاشها لبنان أوائل الخمسينات وما بعدها ، فقد أدرك المسؤولون اللبنانيون دقة الوضع الاجتماعي وما أصيب به من حساسية خطيرة ، وبفعل نشوء تجمعات سكنية كثيفة شكلت حزام البؤس حول المدن ، كانت المشاكل تتفاقم ، ثم مالبثت الطبقات الوسطى أن انضمت إلى جموع المطالبين بالإصلاح الاجتماعي . . وقد نهض في تلك الفترة مع بداية الستينات ، جيل من الشباب له انتماءات نقابية - مهنية ، يتمتع بالنشاط والطموح وروح الرفض ، وأخذ يطالب بالتبديل والتجديد ورفع مستوى المعيشة للطبقات الشعبية ، وبحق الأجيال الصاعدة في الإسهام بإدارة البلاد وتجديد الطبقات السياسية الحاكمة فيها . . .

ويتابع الجميل سرده للأحداث فيقول : ثلاث هجرات فلسطينية دخلت إلى لبنان بطرق مشروعة وغير مشروعة ، فهناك هجرة العام ١٩٤٨ والعام ١٩٦٧ بعد هزيمة حزيران ، كذلك الهجرة الثالثة (وهي الأخطر) عقب سحق المقاومة الفلسطينية في الأردن في العام ١٩٧٠ . وقد امتاز الفلسطينيون في لبنان بأنهم لم يعودوا لاجئي العام ١٩٤٨ ، بل أمسى لاجئو الأمس أرباب المقاومة اليوم (ص ٩١ من المصدر نفسه) ، وما أن حل العام ١٩٧٤ حتى أصبحوا (دولة ضمن الدولة) وبدأ تحركهم السياسي يخرج من حدود المخيمات بالتدريج ، هذا مع التنظيم والنشاط على الصعيد العسكري *.

ولاختصار المحاججة ، سنترك الكلام لألبير منصور الذي لا بد من مرافقته مع كتابه موت جمهورية صفحات ٦٧ و ٦٨ وما بعدها ، حيث يقول :

شكل عهد شارل الحلو التحول في عملية بناء الدولة ، فاعتباراً من منتصف هذا العهد (العام ١٩٦٧) بدأ العد العكسي للإنهيار الكبير ، وقد تمثلت عملية التحول بأحداث أربعة مع لقاء خطّين أحدهما من خارج لبنان والآخر من داخله .

لقد بدأ شارل الحلو منذ انتخابه رئيساً ، وكان يُحضّر لتقويض العهد الشهابي ، رغم أن فؤاد شهاب هو الذي قام بترشيحه لرئاسة الجمهورية ، (وربما بمسعى من فيليب تقلا). وقد أطلق الرئيس الحلو ، العنان لشائعة اختلافه مع المكتب الثاني بحجة تطاول هذا الأخير على الحياة الديمقراطية في البلد ، ثم بدأ بتجميع الحلفاء والأنصار لخوض المعركة ضد نفوذ

---

* كيف يمكن فهم حركة المقاومة عسكرياً وسياسياً على أنها مقاومة داخل المخيمات . ألم يكن هدف المقاومة محاربة اسرائيل على الحدود أو داخل الأرض المحتلة ، أما إذا كان المقصود هو التحالفات السياسية مع الأطراف في الداخل . فسنترك المجال هنا لألبير منصور ليتحدث عن تلك الفترة . .

المكتب الثاني ، الذي لا يعني آنذاك ، سوى تصفية الشهابيين من مركزه . .

وكانت الأحداث الأربعة التي تعرضنا لذكرها آنفاً تتمثل في :-

- **الهزيمة المريرة في الخامس من حزيران عام ١٩٦٧ .**
- **انطلاقة المقاومة الفلسطينية في مشروع جديد للكفاح المسلح .**
- **قيام الحلف الثلاثي بين كميل شمعون وبيير الجميل وريمون إده .**
- **التصديق على اتفاقية القاهرة بين الحكومة والمنظمة .**

أما الخطّان الملتقيان فاقليمي تمثل في صعود الثورة الفلسطينية وما رافقها من دعم عربي ولبناني ، ومحلي تجلى في شل عصب الدولة وهو جهاز الأمن ، أو ما كان يسمى بالمكتب الثاني) .

وبرأي ألبير منصور ، وهو رأي راجح بلا مراء ، **فإن الحلف الثلاثي الذي تشكل بزعامة كميل شمعون وبيير الجميل وريمون إده آنذاك ، هو الذي أعاد فرز اللبنانيين على أساس طائفي ، بعد أن كانوا قد فرزوا على أساس سياسي وطني .**

فمنذ عهد إميل إده ، وفي أيامه وبعده في أيام بشارة الخوري ، كان الفرز السياسي يقوم على أساس كتلوي أو دستوري بشكل عام ، لا على أساس مسلم ومسيحي كما حصل بعد إعلان هذا الحلف المشؤوم .

لقد كان للحلف الثلاثي أسوأ الأثر في تحضير لبنان لتمزيق وحدته الوطنية ، والقضاء على تجربة العيش المشترك ، وشق الصف الوطني بين أديان وأديان ، ثم بين شيع وشيع ، بحيث بدت أحداث العام ١٩٥٨ ألعاب أطفال أمام ما سيجرّه هذا الحلف من كوارث قامت على الوهم ليس أكثر . . ويضيف إلى ذلك : فقد صدّع الحلف الذي جاء معاكساً لنهج الشهابية ، أو نكاية بهذا النهج ، كل ميل للإنضمام إلى مرحلة المواجهة مع اسرائيل بعد الهزيمة .

وبالعكس فبدلاً من مجاراة هواجس كل المنطقة وأمانيها ، مثلما كانت مماشاة الشهابية للخط الناصري دون أي أذى للبنان ، فقد أعاد الحلف عملياً لبنان إلى العهد الشمعوني أواخر الخمسينات ، ثم استدار الجهد بعد الفرز الطائفي ، ليأخذ شكل رأس حربة ضد المقاومة الفلسطينية ، ورغم أن هذه المقاومة ، ليست ملاكاً هابطاً من السماء ، حيث مسلك بعض أفرادها وحتى منظماتها وأجنحتها تبعث على الحنق ، إلا أن الدائرة المبيّتة ، كانت تدور لا فوق رأس المقاومة فحسب ، بل وكل فلسطيني على الهوية أيضاً ، وقد اتخذ

الصراع في وجه الثورة الفلسطينية منحىً طائفياً ، رغم أن هذا الشوه أقل سوءات الشعب الفلسطيني عموماً ، لا لشيء ، وإنما ببساطة ، لأن المجتمع (المجتمعات) الفلسطيني المشرذم فوق غطاء الأرض وتحت سحب سماواتها ، لا يصلح لإقامة معايير طائفية مثل المجتمعات العربية الأخرى ، فضلاً عن أن هذه المعايير ، كان قد تم القضاء عليها ، أثناء ثورات فلسطين المتعاقبة ، منذ بداية عقد العشرينات وحتى الغروب الأخير لشمس الأقصى والقيامة عن فلسطين .

ففي رواية لاميل الغوري نائب الحاج أمين الحسيني (خمسون عاماً من النضال) يقول :-

(حدث ذلك بعد أن هاجم المجاهدون العرب إحدى المستعمرات اليهودية على طريق القدس - يافا ، وقد حصلت القيادة الوطنية على معلومات تفيد بأن اليهود يخططون لنسف المسجد الأقصى انتقاماً لعملية المستعمرة المذكورة ، فطلبت القيادة أربعين متطوعاً لحراسة المسجد ليل نهار ، ولشدّ ما أصبنا بالدهشة حين تقدم زهاء مئة شاب لحماية المسجد ، كان معظمهم من العرب المسيحيين) .

مع الحلف الثلاثي ، كانت المسألة خارج الإرادة ، تأخذ أبعاداً أخرى ، ففي منتصف عهد شارل الحلو وقعت هزيمة الخامس من حزيران ، وأخذت تنتشر الدعوة إلى الكفاح المسلح كبديل لحروب الجيوش النظامية ، وكان نشاط المقاومة بين صفوف الشعب ، يتطلب مساحة من الحرية أوسع من تلك التي رسختها ضوابط الأمن في العهد الشهابي ، وبمحاولة الإنقلاب الفاشلة ، التي أقدم عليها الحزب السوري القومي في لبنان ، فقد تم قضم الكثير من رحابة الحريات التي أدمن عليها المجتمع اللبناني منذ رحيل العثمانيين والفرنسيين من بعد ، وهكذا كان التحوّل يجتاح مقدرة السلطة في فرض النظام ، إذ لا يعرف لبنان طوال تاريخه المستقل ، حكومة تستطيع أن تفرض ما تريده بالكامل ، ومن خلال تفاقم الاصطفاف بين القوى والأحزاب والشخصيات وراءها شرائح شعبية متعارضة ، فقد لمح الفلسطيني فرصةً للخروج من الغيتو المفروض بصلف الدرك أو بقوة الجيش . .

كان هذا الغيتو الضارب عميقاً في جذور الفقر والمرض والمذلة ، قد بدأ يعكس تحولاً أقرب ما يكون إلى التمرد ، ففي أسبابه ودواعيه الاجتماعية والوطنية ما يكفي للتفسير أو التبرير ، وهكذا بدأ اللاجئ يتحول تدريجياً إلى مقاتل من أجل انتزاع حقه ، وسوف يتلبّس هذا الشعور الغامر روح جيل بأكمله ، كما أنه سيدخل في روع أجيال ما بعده ، فقد

أدرك الفلسطيني ، ولو بالوهم ، بأنه لأول مرة في تاريخ ظلمه وظلامته ، يحمل قضيته بنفسه ، وربما صمّم على الموت في سبيل ألا تنتزعها منه أية وصاية أخرى . .

كانت الصدامات للحيلولة دون خروج المقاتل الجديد ، تتم في البداية ، داخل المخيمات أو على أطرافها ، ثم انتشرت إلى خارجها إلى أن جاء اتفاق القاهرة ، ليضع تصوراً مشتركاً عن تنظيم رحلة الخروج على مضض ، وستقوم قائمة السيادة كالعادة ، لا كما يتصوّرها لبنان عن نفسه فحسب ، بل كما تصورتها أقطار عربية أخرى ، وهكذا بدأت مسرحية استدرار العطف على لبنان الضعيف ، الذي يتعرض لخطر داهم ، ثم قلب الشيخ بيير الجميل المعادلة ، حين أعلن أن قوة لبنان في ضعفه . . ثم بعد ذلك بدأ العمل ! . .

ففي بداية الأحداث ، كان الاجتماع الثلاثي بين أركان الموارنة في بكركي ، والذي حضره إلى جانب البطريرك كل من كميل شمعون وبيير الجميل وريمون إده ، هو بداية الشرارة التي لم تتوقف ، فقد نقل بيير إده ، وهو صادق في كل ما يقول ، عن الإجتماع ما يلي : (لقد دعوتُ المجتمعين إلى ضرورة التفاهم مع المقاومة الفلسطينية ، وذلك لتجنب ما كنتُ أتوقعه من أحداث ، ولمنع الإنهيار الكبير الذي بدأت نُذره تلوح في الأفق ، وقد أصرّ الشيخ الجميل على رفض الفكرة وواظب على عناده حين قال : نستطيع أن ننهي أمر المقاومة في أسبوعين) .

هكذا تورطت ، أو وُرطت ميليشيا الكتائب في وعد وهمي ، يرمي للقضاء على المقاومة على طريقة جريان السكين في الزبدة ، وقد شجّع هذا الأمل ، ما كان يجري في الأردن عقب أحداث أيلول ، ولعل تلزيم الكتائب بالمخطط كان يرمي (موت جمهورية ألبير منصور ص ٧٣) إلى ما يلي :-

- الرغبة في القضاء على التجربة اللبنانية الديمقراطية ، التي بدت شذوذاً في مسار المنطقة العام .

- القضاء على العيش المشترك ، لا بإثارة النزعات الطائفية فحسب ، بل وسكب الدم بين صفوفها ، بحيث يتم قطع جميع الجسور التاريخية ، وهي خطة أقرب لاسرائيل منها لأمريكا .

- إنهاء دور الحكومة والجيش اللبنانيين ، والحلول محلهما في كل المسارات المقبلة .

هناك إذن ، مقاومة فلسطينية تحصنت بالسلاح والمخيمات والتحالفات السياسية خوفاً من تصفية محتملة ذاقت مرارتها في أيلول ، فما عادت تدرك حدود التحصن أو التجاوز

عليه ، وهناك ميليشيا طائفية تدربت وتسلحت برعاية رسمية وعناية أجنبية للحلول محل النظام والجيش، للقيام بما قد لا يستطيع الجيش عليه ، وهناك الجارة سوريا ، التي كانت في معركة السيطرة على قرار إدارة الصراع مع اسرائيل ، بما في ذلك بالطبع الورقتين الفلسطينية واللبنانية ، وهناك اسرائيل الدؤوبة على زرع الأوهام والفتن ، وتحريض الأطراف مع تقديم الدعم لإذكاء الصراع الدموي بحيث لا يبقى لبنان ولا فلسطين ، مع تثبيت سوريا في الزاوية الميّتة ، وكانت تلك هي حصة (سوريا الكبرى) في النزاع مع اسرائيل ، أما مصر التي دأبت على توجيه النصح من بعيد ، فإن مخططاً آخر كان قد رُسم لها . .

لقد بدأت الحرب الأهلية اللبنانية على ما تقتضيه الأصول بمذبحة ، فبعد ظهر الثالث عشر من نيسان في العام ١٩٧٥ كانت سيارة باص تقل عدداً من الفلسطينيين واللبنانيين ، تجتاز عين الرمانة ذي الغلبة المسيحية ، ولم يكن في وسع هذه السيارة أن تسلك طريقاً آخر لتنقل ركابها من مخيم صبرا حيث كانوا يشاركون في مهرجان شعبي إلى أماكن سكناهم في مخيم آخر ، هو مخيم تل الزعتر ، وفي الوقت الذي كان الشيخ بيير الجميل يدشن كنيسة في عين الرمانة ، حيث يحيط به المدججون من ميليشيا الكتائب ، انهمرت على السيارة زخات من الرصاص بحيث بدا أن المقصود قتل جميع مَنْ في السيارة ، ولم يكن في حيازة ركاب السيارة أي سلاح يدافعون به عن أنفسهم ، فكان أن سقط بعض القتلى والجرحى في البداية ، ولما كان ذلك غير المطلوب ، فقد اندفع المهاجمون يجهزون على البقية الباقية ، التي مازالت بين الحياة والموت ، ولم تهدأ ثائرة (الأبطال) من المهاجمين ، إلا بعد أن تم حصدُ جميع مَنْ في السيارة ، وقد أخرج الأمن اللبناني ثلاثين جثة كانت متناثرة فوق وتحت مقاعد السيارة في الداخل . . وكانت الغيمة الأولى التي أسقطت المطر مدرارا . . وشكلت الحادثة الأساس لأفظع النزاعات المسلحة في التاريخ ، خاصة إذا كان المقصود ، إبادة نصف الشعب على يد نصفه الآخر ، وأن تظل مطحنة الحوادث تطحن القاتل بعد القتيل ، في دوران لا يتوقف .

لم تكن – قبل الحادثة – علاقة المقاومة مع الزعماء المسيحيين سيئة إلى درجة بشاعة الجريمة المنكرة ، بل لعلها لم تكن سيئة في البدايات على الإطلاق ، فالمقاومة التي تعلمت درساً لا يستهان به على يد حماة الإسلام هناك ، كانت تعلم أن درساً آخر بانتظارها على يد حماة المسيحية هنا ، لذلك فقد رسمت أشكالاً متلونة من علاقات الصداقة والتعاون مع كافة التشكيلات خاصة مع الطوائف الرئيسية في المجتمع اللبناني ، وكثيراً ما التقى قادة

لمقاومة خاصة عرفات مع قادة المسيحيين من أمثال كميل شمعون وبيير الجميل وريمون إده وآخرين . وكان الجو غالباً أقرب ما يكون إلى المودة والمزاح ، وكان شمعون حتى جريمة الرمانة ، يظهر ميلاً للاعتدال يبلغ حداً نموذجياً ، في حين كان سلوك زعيم الكتائب يبعث على الحيرة والدهشة ، فهو غالباً ما يكون دمثاً معقولاً وميالاً للتسوية في كل مسألة مثارة . . وفي الاجتماعات الخاصة مع قادة المقاومة ، كان يبدي آراء أقرب ما تكون إلى النصائح الأبوية ، منها إلى النصائح الزجرية ، لكنه بعد انفضاض الإجتماع مباشرة ، كان يلهب الدنيا بتصريحات معادية واضحة للفلسطينيين دون حدود ، وكانت المقاومة تجد في هذه الإزدواجية ، سبباً يتّصل في مراعاة مشاعر أنصاره ليس أكثر ، لكنه باتصال الأحداث وتفاقمها ، بدا أن تعبئة الرأي العام المسيحي ، هو المطلوب لساعة الصفر التي ستحين ضد المقاومة الفلسطينية ، وفي الظاهر ، فإن كل شيء كان يسير إلى تورط الكتائب في مذبحة عين الرمانة ، ولكن بعد تفكك الجيش وجهاز الأمن المتمثل في المكتب الثاني اللبناني ، انتقلت وثائق تشير إلى تورط المكتب الثاني نفسه بقيادة العقيد جول بستاني مع حزب كميل شمعون (الوطنيين الأحرار) في المذبحة ، وعلى ما تبدّى فإن الكتائب لا دور لها في الواقعة الدموية ، سوى أن مندّسين في صفوفها ، كانوا سابقاً في حزب الوطنيين الأحرار ، هم الذين قاموا بمشاركة عناصر من المكتب الثاني في الجريمة ، وقد رفض العقيد بستاني هذه الاتهامات ، إلا أن مخابرات دمشق ، أيدت المعلومات التي حصلت عليها المقاومة من مكاتب الأمن اللبناني السريّة .

لقد أحدثت الوقائع المكتشفة صدمة عنيفة داخل أوساط المقاومة ، فكميل شمعون الذي يصلح لأوسكار ذهبي في أي مشهد تمثيلي ، كان يفيض عذوبة ورقّة أثناء الحديث عن واجب المقاومة ودورها الكفاحي ، وفي الوقت الذي كان فيه هذا الهرم الوقور يتحدث (مع تعديل أنيق لوضع نظارته الطبية) ، كانت شلالات السلاح تصل خفية إلى موانئه المحروسة بإحكام ، وكان شمعون يوزع السلاح على أنصاره ، ثم يبيع الفائض بأسعار خيالية إلى حلفائه الكتائبيين ، وحين سئل بعد شهر من المجزرة (من قبل عرفات) عمّن يُفترض أنه وراءها من قيادات الكتائب أجاب :

– أخي أبو عمار ، يلزمني بعض الوقت لكي أقر معك بأن المجزرة كانت نتيجة مؤامرة مبيّتة ، كما يلزمني وقت أطول ، كي أعرف مَنْ من الكتائب وراءها ! . .

كانت استراتيجية شمعون (الشمعونية أولاً وأخيراً) ترمي للوصول إلى ثلاثة أهداف متتالية :

- أن يتم الإيمان به كزعيم وطني لبناني متحمس لمطالب المسلمين اللبنانيين تماماً كتحمسه لمطالب المسيحيين .
- أن يظفر بثقة تامة من قبل المقاومة الفلسطينية وذلك نقيض توجهات الجميل وإده . .
- أن يتبوأ مركزاً ممتازاً داخل الحكومة اللبنانية يمكّنه من لعب دور مناور للوصول إلى المركز الأول .
- أن يكون بطل الانتخابات المقبلة لرئاسة الجمهورية .

كان سليمان فرنجية ، بطل مذبحة الكنيسة هو الآخر ، قد استدعى بصفته رئيساً للجمهورية ، قادة المقاومة الفلسطينية ، وقد أوصى عدداً من ضباط الجيش (المسلمين فقط) بحضور هذا الاجتماع . .

وقد قال فرنجية كلمته التي يريد أن يقولها * ، فإذا (**ما استمرت ملصقاتكم على الجدران في الأحياء المسيحية بالتعاون مع القوى اليسارية السفيهة ، فلا تندهشوا والحالة هذه من وقوع مجازر مثل مجزرة عين الرمانة**) .

ملصقات إذن ، مقابل مجازر . . وتلك هي الرئاسة في لبنان .

وكالعادة ، لا أحد يصدّق الشارد الفلسطيني في دعواه عن التمييز بين عمل وعمل ، فقد تناويت الحكاية عن عمل يُراد له أن يكون القشة التي تقصم ظهر البعير . فالمخيمات كانت بؤرة للفقر والمرض والتخلف والإذلال ، فيما يُراد لأبنائها المنضوين لتوّهم تحت جناح المقاومة ، أن يتصرفوا تصرّف الأديب الأريب ، للمدلل خرّيج اليسوعية أو الجامعة الأمريكية أو المقاصد الإسلامية . .

فالفلسطيني الذي انقطع مورده وعلمه ، ووجد نفسه فجأة تحت ذُلّ السؤال والمعونة التي أشبه ما تكون بالصدقة ، لا يستطيع أن ينتج فلسطينياً غير مشاكس . وهي طبيعة إنسانية للرد على عالم ليس فيه غير الاحتقار والحرمان ، ومن أجل معاقبة الولد (الأزعر) كان لا بدّ من معاقبة والديه ، وفي (ارتقاء آخر) كان لا بد من معاقبة المخيم كله . . مع الثورة التي تدافع عنه . .

---

* يتباهى رهط الرئاسة اللبنانية غالباً بالدفاع عن القضية الفلسطينية كأنها قضية آتية إليهم من الصين . أما فرنجية فكان يزيد على ذلك ، أنه هو الذي عرّف العالم بعدالة القضية حين رافع عنها في الأمم المتحدة . متكلماً باسم الأمة العربية كلها ! . . فيا لفلسطين المسكينة التي عاشت وماتت على وقع عدالة القرارات . . .

ثم ينطرح السؤال ، هل كانت المقاومة فصيلاً طائفياً من فصائل المنطقة ، كي تُحال على الاسلام في مواجهة المسيحية مثلاً ؟ أو لحساب طرف ضد آخر اقليمي النزعة في توجهه ومجراه وهواه . . ألم يكن من أبرز قادة المقاومة الفلسطينية ، أولئك الذين يتحلون بتقدير الشعب الفلسطيني كله مثل جورج حبش أو وديع حداد ، أو نايف حواتمة أو الشهيد كمال ناصر ؟ .

وبدون خطابات أو استرسال ، **فإن الجميع كان يعلم ، أن ميكروبة الطائفية لم تكن لتجد الجو المناسب لها في حضانة الشعب الفلسطيني ، فمخيمات تل الزعتر وصبرا وشاتيلا وعين الحلوة . . لم يكن لديها الوقت الكافي لممارسة هذه الترهات أو الفانتزيّة ، حيث تصطّف أكواخ الطين والتنك كقبور أحياء ، جنباً إلى جنب من غير تمييز بين القرآن والإنجيل* .**

لم يكن صحيحاً ، أن المقاومة الفلسطينية ، بعد درس الأردن ، كانت تسعى للتحالف مع طرف لبناني ضد طرف آخر ، فمثل هذا الاتهام المزدوج كان يرمي إلى تأليب الطرف المسيحي ضد المقاومة ، والحقيقة أن المقاومة منذ الأيام الأولى من انتقالها إلى لبنان مركزياً، كانت تسعى لإقامة توازن متعادل بين كافة الطوائف السياسية اللبنانية ، وذلك لأن مصلحتها كانت تقتضي إقامة علاقات حسنة مع كافة أوساط الشعب دون استثناء ، فضلاً عن أن المقاومة رغم جبهوية أفكارها السياسية ، فإن عمودها الأساسي كان علمانياً ، فإذا ما أريد إرجاع حركة المقاومة إلى أصولها التاريخية ، فإنها تبدو كمروحة اتجاهات تضم من البعثي إلى الشيوعي إلى القومي العربي ثم إلى الفلسطيني الوطني بمسحة تديّن غاية في التسامح ، إلى المتوهم بالترفع عن كافة الإنتماءات الحزبية ، وما يسمى بالمستقل ، وكان من الممكن أن تجد المقاومة بين صفوفها (جاسوساً لاسرائيل مثلاً) ، لكنها عبر مسيرتها لم تعثر على رجل واحد ، كانت مهمته تغذية الروح الطائفية في أوساطها . .

والخلاصة أنه منذ أحداث أيلول في الأردن ، فإن الكتائب والوطنيين الأحرار ، يساندهما رتل من قادة الرهبانية المارونية ، أخذوا بالإستعداد للمواجهة الدموية مع المقاومة الفلسطينية ، (نحن شعب من الفلاحين العتيدين والمحاربين وسندفع أي ثمنٍ كان لطردكم

---

* كم يحزنني وأنا استذكر من خلال هذه السطور ، أن بين قتلى تل الزعتر كان رفيق طفولتي في طبريا بفلسطين حيث الباب بالباب ، كان اسمه عيسى هو الآخر ، وكانت والدتي كلما خرجت من المنزل ، تودعني تحت رعاية أمه (أم عيسى) وكان يتراءى لي وأنا طفل صغير ، أنها تشبه إلى حد ما جدتنا مريم ، حيث المُحيّا الطلق والوجه المشرب بحمرة إلهية كوردة نديّة . . أم عيسى كانت في عداد القتلى أيضاً ! . .

من هنا) . . هذا ما سيقوله الأب بولس نعمان إلى ياسر عرفات ، علماً بأن الأب نعمان ، كان عميد كلية الفلسفة في جامعة الكسليك ، ثم يضيف قائلاً ببرود : (لقد ذبحت بيدي مسلماً لبنانياً وآخر فلسطينياً على سبيل الإنذار ، وأقول لكم أيضاً ، إنني جمعت الرهبان ورؤساء الميليشيات لأطلب إليهم أن يحذو حذوي على اسم الله وبركة الكنيسة المقدسة – صلاح خلف ، فلسطيني بلا هوية ص ٢٦٣) وفي موضع آخر يقول خلف (لقد دعاني أمين الجميل ابن زعيم الكتائب البكر لزيارة مخيم تدريب عسكري تابع للكتائب ، وقد راعني هذا الحشد المنظم للرجال واللباس والسلاح ودمغة الصليب ، وعندما سألت السيد **الجميّل عن هدف هذا التحضير أجابني : لأسباب دفاعية صرفة ، وعندما سألته : ولكن ضدَّ مَنْ ستدافعون عن أنفسكم ؟ أجابني ببرود : ضدكم** – المصدر السابق ص ٢٦٤) .

في المراحل الأولى ، أي في نهاية ربيع العام ١٩٧٥ رفض اللبنانيون من الموارنة ، اعتبار ما يدور إنما هو حرب أهلية ، فالبلد كان ينهار بسرعة بادية للعيان ، ولبنان بأسره أصبح خارج السيطرة وكأن الشيطان قد تملكه ، وخلال ستة عشر شهراً من العنف ، فقد لبنان ذو الثلاثة ملايين آنذاك ، زهاء ٣٥ ألف قتيل من جميع مواطنيه ، وكان معظمهم من المدنيين ، أي كأن الولايات المتحدة مثلاً ، فقدت ما يوازي مليونين ونصف من سكانها ، وقد يكون ضعفي هذا العدد ، لأن الإحصاءات في لبنان ، تظل هي الأخرى موضع شك دائم ، ومع ذلك ، فإن العنف لم يتوقف أبداً ، ولم يبادر أحد للتخلي عن جزء من مصالحه وعناده . .

في خريف العام ١٩٧٥ كان المنظر رهيباً ، فقد اختفت بيروت التي يعرفها الجميع ، واحترق الحي التجاري في قلبها حيث صرخ أحدُ قادة ميليشيات الكتائب (نحن بنيناه ونحن ندمّره وسنبنيه من جديد ! . .) ، وكانت غيوم الدخان الأسود تتصاعد إلى عنان السماء ، وكان أشد **ما في بيروت تحريقاً ، هو الوحدة القومية ، أو النهضة الثقافية ، ذلك التأثير الفكري ، موروثات قرن كامل ، دُمِّرت دون هوادة ، وفُتِّت قطعاً في ظلام القرون الوسطى ، ترى هل هو الرفض الغريزي لدور بيروت نحو الداخل العربي ، أم هو التبييت الغربي ، لبلد الكهرباء والمصارف على يد أبنائه الأعداء ؟ . .**

فقد كانت بيروت آخر المدن المشرقية الكبيرة التي تشتعل نشاطاً في المركز الوسط على شاطئ المتوسط بين المغرب واستامبول ، وقد قادت الحيوية الفائقة للشعب اللبناني ، إلى أن يعمل في كل شيء ، **من السياحة إلى الصناعة إلى إتقان أوسع عدد من اللغات ، والسيارات ، واللباس ، إلى القمار والكحول والمخدرات ، وقد باتت البارات الأسطورية**

في بور سعيد والإسكندرية والسويس شيئاً من الماضي ، أمام بار السان جورج مثلاً أو غيره من البارات البيروتية المختبئة خلف ظلال الشموع وأجسام الشمع من بيغال وسوهو . .

كان لبيروت جانب صغير من ميامي بيتش الأمريكية في فلوريدا ، وكان القطاع الغربي من بيروت ، أكثر بهاءً وفخفخةً من أي قطاع آخر ، وكان عرب الجبال (الموارنة) في القطاع الشرقي من العاصمة ، أقل انفتاحاً من بقية المسيحيين والمسلمين حيث دور السينما والملاهي الليلية والمكاتب الفخمة والأبنية على الطراز الغربي أو الأمريكي ، وحين يميل عرب الجبال إلى الراحة والترويح عن النفس ، كانوا يهرعون إلى شارع الحمرا حيث الصدمة بالإندهاش والتعجّب . . أما في الأحياء الراقية ، فقد صدّق اللبنانيون أنفسهم عما روّجوه لحياة الوفرة والرغد في كتبهم السياحية ، وبالفعل ، فقد كانت بعض العائلات من كل جنس ودين ، تتزلج صباحاً فوق ثلوج مرتفعات الجبال ، لتتناول غداءها في مرفأ جبيل القديم ، ثم تنتقل لتناول العشاء في كازينو لبنان حيث راقصات الليدو من باريس مع الغانيات ذوات الاختصاص في فتح زجاجات الويسكي وأشياء أخرى . .

كان لبنان في الستينات وحتى وقوع الكارثة ، موئل التباهي وأنخاب الشمبانيا لأهله الأثرياء وللغربيين القادمين لأية مهمة ، ثمّ لبارونات البترو دولار من امبراطورية أحمد زكي اليماني ، أو مَنْ هو أعلى كعباً في هذه الامبراطورية من سلالات الملوك والأمراء . .

على الضفة الأخرى من الحياة الخلفية ، كان هناك ما يشير إلى البؤس الأسود والقساوة والشظف ، كذلك إلى الفقراء المحرومين من فرص التعليم والعمل ، ومن الخَدمات كلها ، ومن أية مواصفات لحياة مدنية العصر ، وكان لبنان في هذه الأجواء وقبلها ملاذاً لكل مُضطهد ومكروه وطريد من نظام بلده ، وقد وصل الأمر أن بات لكل اتجاه سياسي أو ايدولوجيٍ ، مقهاه في الحمرا ، حيث يتمكن كل (ملتقط) من انتليجنسيا المخابرات العالمية ، من معرفة ما يدور لا في لبنان وحده ، بل وكل العالم العربي وإلى جانبه العالمين الغربي والشرقي على حد سواء .

كانت الأخبار في بلد البارات والمقاهي الرصيفيةوفنادق النجوم الخمسة ، وهونغ كونغ وميامي والريفيرا . . بلد الـ(شوهيدا شيري . . هاوز بيزنس . .) تنتقل فور وقوعها أو ربما قبل وقوعها بكثير . . كل هذا وسواه ، لفظ أنفاسه الأخيرة في بيروت في العام ١٩٧٥ حيث حرب الأهداف التي لا تتسع لها قائمة . .

لقد بانت بيروت للعرب والعالم ، ساحة حرب حقيقية ومسرحاً لقتال الأعداء من

كل جهة عبر جيوش خاصة ، وفي الوقت الذي كانت بيروت فيه تعاني سكرات الاحتضار ، كانت الأنظمة العربية تذرف دموع التماسيح على وداعها ، ومع نهاية العام المشؤوم ، كان قد غادر لبنان عشرات الألوف من الجاليات الأجنبية ، ومئات الألوف من سكانه القادرين على السفر والإقامة والعيش في الخارج .

أمام دهشة اللبنانيين لاتساع الحرائق وامتداد الحرب الدموية ، لم يقم الأمريكيون بفعل شيء ملموس ، وقد تفوّه بعض الديلوماسيين الأمريكيين أمام أصدقاء موثوقين ، أن كيسنجر رغم ساحريته ، فإنه في العادة لا يمسك ملفين بآن واحد ، فقد كان مشغولاً باتفاقيات سيناء ، وكسب الجبهة المصرية بعزل مصر عن الصراع ، إلا أن السياسة السرّية للمخابرات المركزية الأمريكية بالتعاون مع الموساد ، كانت ترمي إلى مساعدة الميليشيات المسيحية للبقاء في ساحة القتال ريثما تنضج الظروف ، وكان مكتب أثينا التابع للمخابرات الأمريكية ، هو الذي يتولى هذه المهام .

لقد ساق كمال جنبلاط وآخرون غيره ، وقائع ثابتة تشير إلى تقديم المخابرات الأمريكية مبلغاً وقدره (٢٥٠ مليون دولار) لاسرائيل ، بغية تفجير الحرب في لبنان وإرسال السلاح والمعدات إلى الميليشيا المسيحية ، كما أيّد السناتور الأمريكي جيمس أبو رزق هذه الاتهامات ، التي تقول بتوزيع الأموال على اسرائيل لأهداف آسيوية وأفريقية . . ومع المساعدات الخفيّة ، كانت الدبلوماسية الأمريكية تُصرّ على شرطين يجب فهمهما من قبل اللبنانيين :-

- المارينز لن ينزلوا على الشواطئ اللبنانية .
- وأن على الجبهة المسيحية أن تكون قويّة كي تتمكن من التفاوض من مركز قوة لا من مركز ضعف .

وفي يومياته كتب كميل شمعون يوم ٢ نيسان من العام ١٩٧٦ (**لم أتوهم يوماً أن الأميركان سيأتون إلى لبنان لنصرة المسيحيين ، لكن في جعبتي سهم آخر ، وهو تبادل الرأي مع زوّار مهمين يفضّلون التكتم**) وكان ذلك يعني لقاءه السري مع وزير الدفاع الاسرائيلي شمعون بيريز على متن سفينة اسرائيلية في عمق مرفأ جونيه (**وستعلمون أن هذا اللقاء سوف يؤتي ثماره إذا استمرت المعارك في لبنان**) .

ويقول جوناثان راندل ، مراسل صحيفة الواشنطن بوست في كتابه (الذهاب في كل الاتجاهات . امراء الحرب المسيحيون والمغامرة الاسرائيلية ص ١٤٨) ما يلي : -

رغم انقاذ السوريين للجبهة المسيحية في الحرب ، وتحوّل الجيش السوري إلى قوة حماية لهم ، فإن ذلك لم يرض لا الكتائب ولا نمور شمعون ، وفي جلبة من الجنون راح المسيحيون ينشرون إشاعات مفادها أن أمريكا عرضت عليهم الرحيل الجماعي على متن سفن أمريكية إلى كندا أو الولايات المتحدة ، وقد فعل الأمريكيون ذلك لا بصفتهم مسيحيين بل بصفتهم أنذال التاريخ والمصلحة النفطية ، وهكذا لن نصبح أبداً في شتات فلسطيني جديد ، حتى لو لم يبق واحد منا على قيد الحياة . . .

وفي غمرة الجنون نفسه ، استؤنفت الحرب مجدداً مع نهاية العام ١٩٧٥ ، كما عنفت الساحة باقتتالات طائفية وصلت إلى حد البربرية ، وبدأت الأرض اللبنانية تنتقل مما يسمى بحرب إلى مذبحة ، ففي السادس من كانون الأول عام ١٩٧٥ ، وما سُمي بيوم (السبت الأسود) ، أقدمت الميليشيات المسيحية ، على خطف أكثر من مئتي لبناني مسلم (ألبير منصور - موت جمهورية ص ٧١) ، وقتلتهم جميعاً دون سبب ، اللهم عدا هويتهم المذهبية ، ومع الجريمة المدوّية يقول منصور (**فقد بدأت تطلّ النوايا التقسيمية والمشاريع المدمرة لصيغة العيش المشترك ، وذلك بتنظيف المناطق على أساس طائفي ، وسائر المخططات الوهمية ، ذات النتائج التدميرية**) .

ورداً على عملية السبت الأسود ، أطلق التحالف بين فصائل المقاومة وأحزاب الحركة الوطنية التقدمية ، هجومه المعاكس ، لاحتلال الفنادق وسط العاصمة ، وكانت الغاية كما يشير إليها ألبير منصور (هي الحيلولة دون ردّات فعل طائفية قد تلحق الأذى بالتجمعات المسيحية المتبقية في المناطق الإسلامية ، **ورغم النجاح في التخفيف من ردات الفعل الطائفية ، إلا أن حرب الفنادق كانت قد أسهمت في توسيع إطار الحرب وزيادتها قساوة وضراوة**) .

كانت الدبلوماسية الأمريكية التي فهمت الخطاب اللبناني الرّنان ، مع ما رافقه من جنون الذبح على الهوية ، **وما اعتاد عليه اللبنانيون في تكرار لازمة الـ (ستة آلاف سنة من الأمجاد) ، أن كلمةً واحدة لا تستطيع إضافتها على مسامع قادة متحجّرين تجاوزوا السبعين من العمر ، وكان اللوبي الصهيوني الأمريكي ، ووراءه اسرائيل ، يغذي أفكار ترك لبنان يموت بحماقاته . .**

كان لبنان في هذه المرحلة الحساسة ، بالنسبة إلى أمريكا ، شأناً ثانوياً في المنطقة ، فهي لا تريد أن تقع تغييرات دراماتيكية ، غير ما عوّلت عليه في سيناء ، كخطوة استراتيجية أولى ، كما أن لبنان كله ، حسب تقارير أمريكية إضافية ، لا يستطيع التسبب

بحرب جديدة في الشرق الأوسط ، وبالعكس ، **فإن عوامل محتملة لحرب اقليمية في المنطقة ، يجب أن تذهب كلها إلى لبنان ، وكانت هذه السياسة الميكيافيلية في الحقيقة ، تنطوي على شيء من الاحتقار (لهذا الـ "لبنان" الذي لا نعرف إذا كان موجوداً في الأساس أم لا ، فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا يتعرض كيانٌ بهذه الغرابة لكل هذه الهزات الداخلية** – جوناثان – مصدر سبق ذكره ص ١٤٩) .

ويجيب الكاتب نفسه : **ربما لأن لبنان هو اختراع فرنسي ، وواشنطن لا تتحمس كثيراً لمنتجات الاستعمار الفرنسي في هذا العالم . . فضلاً عن أن حجم فواتير النفط العربي الذي تضاعف بسرعة هائلة مؤذناً بدخول عصر مليارات البترودولار ، أصبح لا يتلاءم مع أحوال هذه العاصمة الصغيرة الصاخبة ، وأنه بات من الأفضل أن تتجه هذه المليارات ، دون وسيط متبجح ، رأساً إلى تشيس مانهاتن وسيتي بانك وباركليز ، من أن تتجه عبر بنوك غير مأمونة في بلد صغير وصاخب .**

ومع إغماض العيون عما يدور في لبنان ، مع تشجيعه سرياً ، **فقد بدا أن أمريكا توافق على أدوار اقليمية منضبطه لدول فاعلة ومجاورة** ، وعلى إيقاع التطورات المقبلة المرسومة للمنطقة ، كان لبنان ، يشكل ساحّات اقتتال نفسه وقوى غيره في المنطقة والعالم أجمع . ومع صراعات القوى بالنيابة ، بدا أن ليل لبنان ليس له آخر .

على صعيد اسرائيل ، ومنذ أن اندلعت الحرب الأهلية في ربيع العام ١٩٧٥ ، فقد أصبح جنوب لبنان للمفارقة ، منطقة سلام نادرة في بلد يئن من هول الدمار ووطأة الدماء ، وكان السبب واضحاً لا يحتاج إلى تفسير ، فالفدائيون الفلسطينيون مع حلفائهم من عرب الجنوب ، توجهوا إلى بيروت للمشاركة في المعارك الدائرة هناك . واستثمرت اسرائيل الوضع الصعب لمسيحيي عرب الجنوب ، وتدخلت في اللحظة المواتية لتقيم (جدارها الطيب) على الشريط الحدودي بين لبنان وفلسطين ، ثم ما لبثت أن تمددت باتجاه مناطق جنوبية أخرى ، وخلال سنوات الصراع في المركز ، نُجحت اسرائيل في وقف العمل الفدائي عبر الحدود ، وأصبحت التجمعات المسيحية المعزولة في الجنوب ، شبكة صيد لتحقيق حلم اسرائيل (بن غوريون بالذات) ، في توليد كائن جنيني ما يلبث أن يدب على الأرض ، وبعين مزدوجة على الليطاني وقرى الموارنة في الجنوب ، راحت اسرائيل تعمل ، وكانت الولايات المتحدة على ثقة ، بأن اسرائيل تتقدم داخل المشكلة اللبنانية ، بما لا يؤثر على الأوضاع التي تريدها أمريكا من المنطقة . .

وكان داني شمعون قائد ميليشيا النمور ، قد حقق أول اتصال له مع قادة اسرائيل

السياسيين والعسكريين ، ولم تظهر ثمار هذا الاتصال (دبابات شيرمان - مدافع ثقيلة - أجهزة الكترونية متقدمة) إلا بعد دخول القوات السورية إلى لبنان في ربيع العام ١٩٧٦ .

لقد بدأ الاعداد لانتخابات الرئاسة في ظل صراع مستحكم بين القوى المتشابكة في تحالفات محلية وعربية ودولية ، وقد برز إلى الساحة مرشحان : ريمون إده وإلياس سركيس .

وكان الأول يحظى بتأييد الكتلة الاسلامية بزعامة صائب سلام وكتلة ريمون إده نفسها ، وحزب الكتلة الوطنية وكتلة بعلبك والهرمل والعديد من النواب المستقلين . . أما في حركة المقاومة الفلسطينية ، فقد بدا أن فتح تقف إلى جانب إده في ترشيحه للرئاسة ، **مع الإشارة إلى أن المعركة لا تخصّها في شيء من قريب أو بعيد .**

كان المرشح الثاني ، يحظى بتأييد أهم ، فقد أيد حزب الكتائب والأحرار والرهبانيات ومعظم الشخصيات المسيحية المستقلة مع الشهابيين وسليمان فرنجية السيد الياس سركيس لرئاسة الجمهورية ، أما سوريا وجناح من المقاومة (أحمد جبريل والصاعقة) فقد أيدوا وعملوا ، لإنجاح سركيس في معركته المرتقبة .

وبدون معركة مرتقبة ولا غير مرتقبة ، أعلن ريمون إده انسحابه من الترشيح ، ويروي ريمون إده أسبابه للإنسحاب فيقول :

ما حدث أن الإدارة الأمريكية قبيل الانتخابات بأيام ، أرسلت ممثلاً لها هو السيد دين براون ، وقد أعلن عن نفسه موفداً من قبل الرئيس الأمريكي إلى لبنان ، وقد قابلني براون (والكلام لإده) ودار بيننا النقاش التالي :-

- **سيد إده ، ما هو الحل الذي ستعتمدوه إذا أُنتخبتم كرئيس لجمهورية لبنان .**
- **سأستخدم الجيش اللبناني لاعادة فرض النظام .**
- **لكن الجيش فقد قوته ، ولا طاقة له بذلك ، ولا بد لك من الاستعانة بقوى أخرى .**
- **ساعتئذ أطلب مساعدة القبعات الزرق (يقصد القوات الدولية) .**
- **لكنها لن تأتي .**
- **تقصد لن تسمحوا لها بأن تأتي . . إذن ما هو المطلوب ؟**
- **قد يكون من الأفضل الاستعانة بالجيش السوري مثلاً ؟**
- **لا لن استعين إلا بجيش لبناني أو قوة دولية من الأمم المتحدة .**

- **لكن السيد سركيس على استعداد لطلب العون من جيرانه السوريين ، وهو ما نراه مناسباً .**
- **حسناً ، لا نريد مزيداً من الدماء ، سأسحب ترشيحي غداً * . .**

كان موقف القادة في المقاومة الفلسطينية أقرب إلى الارتباك منه إلى الحسم ، وعدا القيادة العامة والصاعقة ، فإن أحداً لم يعلن عن تأييد أو رفض ما ليس له علاقة به ، ثم إن المقاومة لا تريد الدخول في نزاع مع سوريا حول هوية الرئيس المقبل للبنان . ويقول صلاح خلف (كنا نطفو فوق بحر هائج بأمواج التخبط) ، والواقع أن جزءاً من الحركة الوطنية اللبنانية كان يؤيد انتخاب سركيس ، لكنه ما عتم أن تراجع ضده تحدياً لسوريا ، وكان ثمة جناحاً من الجبهة اللبنانية يفضل ريمون إده للرئاسة ، **أما كميل شمعون فقد طلب ثمناً باهظاً لتصويت كتلته ، جانب هذا المرشح أو ذاك ، ويذكر جوناثان رندل في كتابه (الذهاب في كل الاتجاهات)* أن أربعة ملايين ليرة لبنانية ، كانت كافية لإعادة الصواب إلى رأس كميل شمعون العنيد .**

أمام الخيارات الصعبة ، فقد اختارت المقاومة موقفاً معتدلاً ، سينعكس (تخلياً عن الحلفاء) برأي ألبير منصور ، وذلك حين أعلنت عن تأمين طريق آمن إلى المجلس النيابي يوم التصويت ، فيما أصرّ جنبلاط والكتلة الوطنية على مواظبة إمطار كل الطرق المؤدية إلى المجلس بالقذائف ، للحيلولة دون إكمال النصاب المصطنع . .

صحيح أن المقاومة ، كانت ميّالة بحكم تعاملها مع الأطراف جميعاً ، إلى نجاح العميد ريمون إده لرئاسة الجمهورية ، وكان يظهر ذلك في الاحترام العميق لشخص العميد رغم تباين المواقف ، إلا أن سركيس بنظر المقاومة ، لم يكن شمعونياً ولا كتائبياً . (وقد يستطيع إذا ما توفرت له الوسائل ، أن يخدم مصالح البلاد العليا - المصدر السابق) .

أما أحد خبثاء الدبلوماسية الأمريكية في حينه ، فقد وصف الرئيس سركيس ، بأنه أقرب إلى قضيب معكرونة مسلوق يراد إدخاله من ثقب باب وإخراجه من الطرف الآخر مع ذلك دون تهشيم . .

لكن انتخاب الرئيس سركيس لم يحل المشكلات القائمة ، بل إنها على العكس ، فبسبب من تركيب شخصية الرجل ، وميله للتردد والموادعة ، مع غلبة روح سياسة

---

* موت جمهورية - ألبير منصور - دار الجديد ص ٨١ .

* يحمل كتاب رندل عنواناً آخر بالعربية هو : حرب الألف سنة .. حتى آخر مسيحي

الإرضاء للجميع ، والتمنع عن دخول مواجهات حاسمة لإنقاذ البلد من الإحتضار . . فقد ازدادت المعارك الناشبة ضراوة ، وبدا أن رأب الصدع اللبناني لا سبيل إليه ، فقوى الداخل المتقاتلة . أصبحت غير متصالحة مع العقل ، وأن تصالحها الوحيد هو مع زنادها المستنفر ليل نهار ، ثم فاضت المياه فوق السد ، حين استشعر كل طرف ، بأن انتصار الطرف الآخر يمثل نهاية له ، وقد نما خيار (إما قاتل أو مقتول) في تلك الحقبة ، بحيث تحول الصراع من مفهوم الحرب ، إلى مفهوم القتل ، وقد ظهر المشهد الـ (ما قبل تاريخي) لاسرائيل كفرصة سانحة ، ومع انتشار القتال إلى كل مكان في المدن والسهول والجبال ، فقد آثرت سوريا التي هالها ازدياد حدة القتال ووحشيته ، أن تتخذ قراراً مباشراً في لبنان ، خشية أن يجر النزاع إلى تدخل اسرائيل ،حيث بدأت بالضرب على وتر حماية المسيحيين ، أو على الأقل ، إلى تدخل القوات الأطلسية ، حيث بدا العالم متوافقاً مع أي إجراء لإيقاف شلال الدم المسفوح في لبنان .

في ١٥ أيار من العام ١٩٧٦ ، سافر وفد من المقاومة برئاسة عرفات إلى دمشق لوضع أسس جديدة للتنسيق بعد غيوم ملبدة في العلاقة بين الطرفين ، وكان بانتظار الوفد الفلسطيني رئيس مجلس الوزراء الليبي السيد عبد السلام جلود الذي وَفدَ للوساطة ، وقد راح السيد جلود يعيد إلى الأذهان درساً تاريخياً في أخطاء المقاومة ، وكان مما قاله ، أن المقاومة في لبنان ، سلحت عشرات الألوف من الماركسيين والشيوعيين ، (بخلاف مبدأ اللاشرقية واللاغربية الليبي) ، كما أن فتح (والكلام للسيد جلود) ساندت في الانتخابات البلدية الأخيرة ، للضفة الغربية ، مرشحين شيوعيين ، وأن المقاومة تقف ضد توحيد سوريا ولبنان في دولة واحدة . . .

ولفهم الموقف السوري بصورة أوضح ، فإن كريم بقردوني صاحب كتاب السلام المفقود ص ٢١ ، يلخص الوضع في ذات اليوم على النحو التالي :

(لقد بدت لي صورة الموقف السوري في غاية الوضوح ، دعم غير محدود للرئيس سركيس وللجبهة اللبنانية ، ونزاع مفتوح ضد كمال جنبلاط والفلسطينيين ، وتحذير من كل تدخل يرمي إلى الحد من الدور السوري في لبنان ، وقبول خطة الرئيس سركيس للسلام بشرط أن يعمل بحزم دون الخضوع لابتزاز الحركة الوطنية) .

ويتابع بقردوني (وقد أضاف الرئيس السوري ، لاشيء يمنع الرئيس سركيس من التفاوض مع الحركة الوطنية ، ولكن دون شروط مسبقة ، على أن يتم ذلك انطلاقاً من موقف قوة . . فنحن هنا لا نحقد على أحد ، وبقدر ما يدعم جنبلاط الرئيس سركيس ،

بقدر ما نستطيع تجاوز خلافاتنا معه ، سألتقي الليلة ياسر عرفات ، وسأدعوه إلى تقديم التأييد للرئيس المنتخب ، ليس من المعقول ولا من المقبول ، أن تتحول المقاومة الفلسطينية إلى فصيل من فصائل الحركة الوطنية ، فإذا شاءت المقاومة أن تتحد بالحركة الوطنية ، فإنها تصبح شبيهة بأي حزب من الأحزاب السياسية اللبنانية ، وستفقد طابعها الثوري الفلسطيني ، وفي مثل هذه الحالة ، سأعاملها كما أعامل الأحزاب اللبنانية الأخرى - كريم بقرادوني - المصدر نفسه) .

أخيراً يقول بقردوني عن ذكريات لقائه بالرئيس الأسد يوم ١٦ أيار من العام ١٩٧٦ ، وهو نفس يوم اجتماع الرئيس مع عرفات وخلف ، أن الرئيس حافظ الأسد قال لكريم بقردوني : (الأميركيون هم أساس العلّة ، يحاولون التهويل عليّ ليحولوا دون تدخلي في لبنان ، يبحثون عن طريقة لمنعي من الحركة وتدويخي ، لكنني سأدوّخهم وأعرقل مساعيهم . . إنهم رعاع . . . أما فرنسا فهي توعز بإرسال عناصر مسلحة ، لا تختلف عن قوة التدخل في لبنان . . هذا غير مقبول ، هذه الأمور كلها لن تحل شيئاً - ص٢٢ المصدر نفسه) .

كان الخط المعروف والمألوف عن الموقف تجاه لبنان ، سواءً في أمريكا أو اسرائيل ، هو تحذير سوريا من مغبة الدخول إلى لبنان ، بل البقاء بعيداً خارج الحلبة اللبنانية ، وكان الغرض هو ترك اللبنانيين والفلسطينيين في معركة - مذبحة ، تتوقف من تلقاء ذاتها بعد تصفية دمائها ، وظلت تلك هي غرائز اسرائيل منذ اندلاع الحرب ، كذلك تماشت هذه الغرائز مع غريزة كيسنجر التقسيمية في الأساس ، إلا أن باتريك سيل في كتابه - الأسد والصراع على الشرق الأوسط ص ٤٥٢ ، يشير إلى تحوّل آخر : (**فقد خطر لكيسنجر أن السياسة الصحيحة لم تكن بالتأكيد في تحذير سوريا من الدخول ، بل من عدمه ، فبدلاً من أن يُقال إذا دخلتم فسوف تدخل اسرائيل ، يجب أن يقال ، إذا لم تدخلوا ، فإن اسرائيل ستدخل بالتأكيد**) .

كان كيسنجر يعي تماماً ، أن أهم وأقوى المخاوف في سوريا ، هو دخول اسرائيل لبنان بحجة إنقاذ المسيحيين أو الأقليات الأخرى فيه ، كما أنه أدرك ، أن كبح التقدم الذي أحرزته الحركة الوطنية والمقاومة الفلسطينية ضد القوات المسيحية أوائل الحرب . كان هدفه منع الذريعة لتدخل خارجي اسرائيلي أو غير إسرائيلي ، ولا بد أن كيسنجر قد استطاب المفارقة الهائلة ، لموقف تضطر فيه سوريا للتصادم مع حلفائها ، وذلك لمنعهم من التسبب في مزيد من صراخ الجبهة المسيحية ، التي ظلت على قيد شعرة من تقديم طلب رسمي لعون اسرائيل .

كان ضمان النتيجة أو السيناريو الذي أعده كيسنجر بعناية يتطلب تحريك بعض الخيوط الضرورية ، إذ يجب اقناع اسرائيل بقبول دخول السوريين دون ردة فعل عسكرية ، كذلك إشاعة الطمأنينة بأن الولايات المتحدة لن تعارض هذا الدخول ، وفي الوقت نفسه كان يجب أن يستمر القتال على الأرض إذا أُريد للسيناريو أن ينجح ، ذلك أن القتال إذا توقف ، فإنه لن يكون هناك سبب يبرر الدخول . ولم تكن اسرائيل تقتنع بالحكمة الكيسنجرية الجديدة بتلك السهولة ، فهدف اسرائيل كان دائماً ، تحجيم دور سوريا ، لا تركها تتوسّع على هواها ، ففي تصريح لرابين (شباط ١٩٧٥) (إن سوريا تلعب بالنار وهي تحاول إنشاء جبهة شرقية ضد اسرائيل) كذلك هدد دايان الملك حسين الذي بدأ بالتقارب مع سوريا ، بأنه سينشر على الملأ ، خفايا اتصالات الملك مع قادة اسرائيل ، أما ريتشارد مورفي سفير أمريكا في دمشق ، فإنه كان قد نقل ما مفاده ، أن اسرائيل تنظر إلى الدخول السوري إلى لبنان ، على أنه تهديد خطير لأمنها ، وعزز مورفي تحذيره قائلاً : وفي مثل هذه الحالة ، فإن الولايات المتحدة ، لا تستطيع ضبط الجماح الاسرائيلي . .

في أوائل أيار من العام ١٩٧٦ ، فإن كيسنجر حسب ما يقول باتريك سيل - المصدر السابق ص ٤٥٣ - حصل على تأييد غير متوقع لخطته اللبنانية الجديدة ، فقد أبلغ مردخاي غور رئيس الأركان الاسرائيلي ، الذي كان يجتمع مع رئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية شلومو غازيت ، موافقة الحكومة الاسرائيلية مبدئياً ، وأن على كيسنجر أن يقابل وزير الخارجية ييغال آلون للوقوف على التفاصيل .

وهكذا تم وضع كل شيء في محله كأساس لما زعم على أنه اتفاقية الخط الأحمر ، وهي اتفاقية غير مكتوبة ولا موقعة ، ولا يعترف بها السوريون ، ويقول زئيف شيف الصحفي الاسرائيلي الشهير ، في مقالة له نشرتها مجلة فورن بوليسي* ، ذائعة الصيت في العالم ، وهي مجلة النخبة السياسية في أمريكا ، أن اسرائيل قبلت بوجود قوات سورية في أجزاء محدودة من لبنان ، سواءً في البحر أو الجو أو على الأرض ،كذلك فإن نقل صواريخ سام إلى الأراضي اللبنانية يعتبر تجاوزاً لما قبلت به اسرائيل . .

وكان ذلك في نهاية أيار من العام ١٩٧٦ ، حين شعرت سوريا بضرورة التحرك العسكري نحو الساحة اللبنانية ، ولم يكن دخول ستة آلاف جندي كبداية ، عبارة عن فكرة طارئة ، لم يتم لها الاعداد مسبقاً ، بل ثمة إرهاصات سابقة كانت تدل عليها ،

---

* العدد ٥٥ الذي صدر في صيف العام ١٩٨٤ ، والمقالة بعنوان : التعامل مع سوريا .

فهناك برنامج إلياس سركيس الذي كان يدعو إلى الوفاق الوطني ، فأرادت سوريا انجاحه . وهناك وحدات من جيش التحرير الفلسطيني مع قوات لمنظمة الصاعقة الفلسطينية . تم إدخالها إلى لبنان في خطة كانت ترمي لكبح جماح المتحاربين وتأمين الحماية لمجلس النواب اللبناني ، مع تأمين ازدلاف النواب للتصويت على مقعد الرئاسة فيه ، كما أن هناك الاجتماع العاصف الذي حدث في السابع والعشرين من آذار عام ١٩٧٦ بين الرئيس الأسد . وزعيم الحركة الوطنية في لبنان السيد كمال جنبلاط ، ويقال أن الإجتماع امتد إلى ما يجاوز سبع ساعات ، تمّ فيها استعراض كل شيء ، فيما لم يتم التوصل إلى اتفاق على شيء . وفي العام ١٩٨٦ بتاريخ ١٢/٣٠ سيصرح وليد جنبلاط ، بأن والده في ربيع العام ١٩٧٦ . الذي كان يلتف حوله الناصريون والقوميون العرب والفلسطينيون والشيوعيون ، بل وجميع اللبنانيين المعادين للكتائب والنمور ، إنما كان على بُعد خطوات من النصر على الجبهة المارونية السياسية ، قبل دخول الجيش السوري إلى لبنان .

وكان جنبلاط في نظر الرئيس الأسد ، زعيماً محلياً منعه طموحه الشخصي من أن يرى الصورة بأبعادها الكاملة ، ورغم تأييد الرئيس الأسد لسياسة إصلاحية شاملة في لبنان، إلا أنه كان يستنكر الاضطراب المؤسس على العنف للوصول إلى سياسة إصلاحية، أما جنبلاط فيدافع عن نفسه في كتابه هذه وصيتي حين يقول : لم يكن الهدف النهائي من اكتساح مواقع الميليشيات المسيحية ، هو إزاحة القوة السياسية للمارونية من الخارطة اللبنانية ، وإن عملاً كهذا لا يخطر ببال أحد ، كان همّنا أن يأتي هؤلاء إلى طاولة مفاوضات ترمي إلى تحقيق اصلاح جذري في الحياة السياسية اللبنانية ، على أن يتم ذلك دون (النظرة من فوق) كما اعتادت المارونية السياسية عبر تاريخ لبنان الطويل على التعامل معنا . .

أما نظرة الرئيس الأسد إلى المقاومة الفلسطينية فكانت وفق منحيين : فمن الناحية الفكرية السياسية ، كان الرئيس الأسد ينظر إلى المقاومة على أنها هي الحق المشروع ، الذي يجب دعمه وتأييده حتى النهاية ، أما من الناحية العملية اليومية ، فإن نظرة الرئيس الأسد، كانت تتلخص في أن المقاومة باتت مصدراً للمتاعب ، وأن عرفات وصلاح خلف وجورج حبش لم يتعلموا شيئاً من درس الأردن في لبنان .

كان عرفات قد زار دمشق ثلاث مرات في ثلاثة أشهر آذار ونيسان وأيار من العام ١٩٧٦ ، وعلى ما ذكر ، فإن نتائج الزيارات لم تكن أفضل حظاً من زيارة كمال جنبلاط لدمشق ، ففي أواسط نيسان من العام نفسه ، ألقى الرئيس الأسد خطاباً قال فيه (إننا ضد

اولئك الذين يصرّون على استمرار القتال ، فهناك مؤامرة كبيرة تحاك ضد الأمة العربية ، وعلى اخوتنا في القيادة الفلسطينية أن يفهموا ويعوا هذه المؤامرة ، فهم هدفها الأول).

كان العراق ومصر كلاهما ، يضغطان على المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية لمقاومة النفوذ السوري في لبنان ، وكان عرفات الذي استشعر أن نصف لبنان إلى جانبه ، يرفض أن تملي عليه سوريا موقفها في لبنان ، تماماً كما كان جنبلاط يستشعر القوة الكفيلة بتقليم أظافر العسكرية المسيحية ، فضلاً عن تأييد الاتحاد السوفييتي ومجموعته الشيوعية في صراعه ضد اليمين اللبناني المتطرف ، وكانت قوى وتحالفات معقدة ، داخلية وعربية ودولية . . وأدى ذلك كله إلى متابعة الحرب ، التي قُدّر لها أن تكون ضد سوريا في النهاية.

كانت ليلة ما من ليالي أيار أو حزيران (٣١ أيار على حزيران) هي المرة الأولى التي يستخدم فيها الرئيس الأسد ، القوة المسلحة للجيش بعد حرب تشرين ، لكن حرب العبور إلى سيناء والجولان ، أو إلى التاريخ واسترداد الكرامة ، هي غير قرار الدخول إلى لبنان الذي أُسيء فهمه على نطاق شعبي واسع ، كما أن سوريا بقرارها هذا ، حظيت بفقدان التعاون مع الاتحاد السوفييتي ومجموعته الاشتراكية ، ولكن إلى حين .

رفضت القيادة الفلسطينية انذارات الجيش السوري الداعية إلى القاء السلاح والإنسحاب من المناطق المسيحية التي احتلتها ، وقد وقعت اشتباكات حادة على طريق دمشق - بيروت ، كذلك في ميناء صيدا وفي (أرض فتح) على سفوح جبل الشيخ ، وحول ميناء طرابلس في الشمال ، ومع استخدام المدفعية الثقيلة والطيران ، فقد أصبح نصف لبنان أو أكثر بيد السيطرة السورية ، وكان لمعركة صيدا أصداء مؤلمة وجارحة ، حين اختلط دم الأشقاء ، أبناء الأسرة الواحدة ، والوطن الواحد ، في معركة أقرب ما تكون إلى استرجاع صدى التاريخ في الجمل أو صفين ، أو غيرهما من الحروب الداخلية بين القوات نفسها مع العرب المسلمين .

ثم كانت مجزرة مخيم تل الزعتر في ٢٢ حزيران من العام ١٩٧٦ ، الممتد إلى ضواحي بيروت الشرقية ، حيث شنت قوات النمور الشمعونية بقيادة الإبن (القتيل على يد الكتائب) داني شمعون ، أول هجوم لها ضد المخيم ، وقد أمطرته فلول الجيش اللبناني ، وما تبقى منه بقيادة ميشيل عون وجول بستاني والملازم فؤاد الأشقر ، بسبعة آلاف قذيفة في الأسبوع الأول للهجوم ، ثم ما لبثت ميليشيات الكتائب أن التحقت (بالمعركة المشرفة) التي دامت اثنين وخمسين يوماً ، أُسقط خلالها ستون ألف قذيفة فوق رأس

ثلاثين ألف ساكن جُلّهم من الفلسطينيين (وأكثر من ٢٠ بالمئة منهم من العرب المسيحيين) كذلك من عرب الشيعة الذين قطنوا هذا المخيم منذ عشرات السنين* .

هذا ويروي سركيس نعوم في كتابه (ميشيل عون حلم أم وهم ، مطبعة المتوسط ص ٢٧) أن التحضير لمخيم تل الزعتر ، بدأ صباح يوم الثلاثاء الواقع في ٢٢ حزيران من العام ١٩٧٦ في ثكنة مار شعيا بين قيادة الجيش وتنظيم الرهبانيات ونمور شمعون ، وفي الساعة السادسة من الصباح التالي ، انطلقت المدافع تصب حممها نحو دير مار روكز . لكن مجموعة مسلحة من ميليشيات الكتائب عند مفترق عين سعادة ، حاولت منع استكمال الهجوم المدفعي ، حيث كان الشيخ بيير الجميل يعارض العملية في البداية ، ثم انضم إليها بعد اسبوع ، وكان الهجوم يرمي إلى إرغام الفدائيين على تسليم سلاحهم إلى الجيش والإنسحاب من المخيم ، وكان تقدير القيادة أن المعركة قد تستغرق ما بين أربعة أيام إلى اسبوع كحد أقصى ، إلا أن المخيم صمد أكثر من خمسين يوماً ، وكانت النتائج مروعة ووحشية ، وقد قال عون لصديقه جورج عدوان (شايف . . ما هذا الذي فعلوه في المخيم . . إنه فوق المذبحة وأشرس من الوحشية . . .) ، ويتابع سركيس نعوم قوله على لسان عون : (لم يكن لسوريا على الرغم من الاعلام الفلسطيني الواسع في ذلك الحين أي علاقة في عملية تل الزعتر ، فسوريا كان يهمها بالدرجة الأولى نجاح الرئيس المنتخب إلياس سركيس في إقفال الملف العسكري للبنان ، وليس فتحه . .) .

والحقيقة أن انتصار تل الزعتر ، كان مشروع إبادة بالأسلوب الفاشي المبرمج ، فقد كان المهاجمون يعلمون تماماً ، أن المخيم بموقعه المطوّق بحزام مسيحي دون حرب منذ الأساس ، والمحاصر منذ أشهر ، لا تستطيع المقاومة أن تقدم له شيئاً حاسماً ، لذلك فقد وضعت المقاومة والحركة الوطنية ، صيغة اقتراح - قبل اندلاع القتال بشهر - يتم بموجبها تسليم جميع القرى المسيحية في الجبل ، والتي بحوزة المقاومة ، إلى ميليشيات الكتائب ، لقاء فك الحصار عن المخيم ، وقد رفض الشيخ بيير الجميل العرض ، مؤثراً اهتبال الفرصة لتحقيق انتصار عسكري على المخيم ، مع إزالته من الوجود .

---

* تبجّحت ميليشيا النمور والكتائب يومها ، أن المخيم كان قذىً في عيون بيروت الشرقية الجميلة . وأن منظره كان يبعث على الغثيان والقرف ، ولكن ألم يكن الجنوب اللبناني كله ، شاهدا على التمييز . كان لبنان الجنوبي كأنه ليس جزءاً من لبنان المدن الجميلة والمكهربة . . وفي رواية أخرى . فإن جرافات البترودولار هي التي أخذت مخيم تل الزعتر في طريقها ، ويالها من طريقة مليئة بالمدنية والحضارة ؟!. . والمشاريع الإنشائية أيضاً .

في السادس من آب ، وبعد سقوط منطقة جسر الباشا والنبعة ، وافقت المقاومة على إخلاء المخيم من العسكريين والمدنيين على حد سواء ، وقد عُقد الاتفاق عن طريق ممثل الجامعة العربية ، فيما تتكفل قوة السلام العربية والصليب الأحمر ، اخلاء المخيم من محاربيه وساكنيه دون استسلام لأحد . . وأثناء عملية الاخلاء ، وفيما كان المدنيون من كل جنس وسن ، يخرجون إلى الحافلات المعدة عند محاور الخروج الرئيسية في المخيم ، فتح النمور والكتائبيون نيران جهنم على المدنيين من الخارجين إلى الحافلات ، كما انقضّت وحدات النمور على التجمعات الأخرى داخل المخيم ، دون تمييز ، وكانت المحصلة في يوم واحد ، ثلاثة آلاف قتيل ، ذُبح معظمهم ، فيما سيق عديد آخر إلى جهات مجهولة ، ليظلّوا إلى الأبد هناك ، وكانت المذبحة صورة مسبقة لما سيجري في صبرا وشاتيلا في العام ١٩٨٢ ، كذلك حرب المخيمات في العامين ١٩٨٦ و ١٩٨٧ ، حيث سيشعر الجميع ، بأن الفرصة باتت مهيأة لمزيد من الأعمال الوحشية ، فيما ستتحول الحرب الأهلية إلى حرب مذابح ، تحفر هوّة عميقة بين القوى والأطراف والمصائر ، ومن عين الرمانة إلى تل الزعتر ، كان صبيب الدم الفلسطيني لا يتوقف . .

لقد أدى انقلاب التحالف بين سوريا والمقاومة الفلسطينية إلى إصابة الجميع بالصدمة المروعة ، ولم تُخف اسرائيل حبورها الغامر لما حصل ، فصرّح رابين يوم ٤/ ٦/ ١٩٧٦ ، **أن اسرائيل لا ترى دَاعياً للتشويش على أحد في لبنان ، المهم أن العرب يقتلون العرب ، والأهم أن سوريا في مواجهة حاسمة مع (إرهابيي عرفات)** . .

قطع السادات علاقاته الدبلوماسية مع سوريا ، وهي مهمة كان ينتظرها على أثير أية ذريعة ، ثم ما لبث العراق أن حرّك قواته إلى الحدود مع سوريا ، وطالبت الحركة الوطنية اللبنانية بزعامة كمال جنبلاط مع قادة المقاومة الفلسطينية تدخل الأمم المتحدة أو فرنسا أو أية جهة كانت ، وما لبث النفط أن أطل برأسه حين نقلت التقارير عزم الدول النفطية العربية ، قطع المعونات عن سوريا ، ونقلت الوكالات الغربية أنباء هجمات هنا وهناك ضد السفارات السورية في الخارج على يد عرب مقيمين . . . وقد روّع موسكو ، أن أنصار التحالف الواحد في المنطقة يقتتلون فوق أراضي لبنان ، فأسرع رئيس الوزراء كوسيجين إلى المنطقة ، لكنْ بعد فوات الأوان ، وعلقت وكالة تاس ، أنه وبعد الدخول السوري إلى لبنان ، فإن جريان الدم يتضخم باستمرار ، وبعد عشرة أعوام سيتذكر الرئيس الأسد تلك المحنة ، خاصة الجانب السوڤييتي منها فيقول : (كان هناك نكسة في علاقاتنا مع الاتحاد السوڤييتي ، وانتهت بعض التزامات معيّنة فيما بيننا . لقد كان من الصعب عليهم أن

يفهموا طبيعة علاقاتنا بلبنان – الاذاعات العالمية . إذاعة لندن يوم ٣١/ ١٢/ ١٩٨٥).

لقد ظلّ الرئيس الأسد على قناعة كاملة حتى النهاية ، بأن قرار الدخول إلى لبنان ، كان صحيحاً من الوجهتين التكتيكية والأخلاقية ، وقد اضطر لقتال حلفائه ، لأنهم لم يكونوا على المستوى نفسه ، في رؤية طبيعة صراع الموت والحياة الذي تخوضه سوريا مع اسرائيل . .

ومع تطور الأحداث في منتصف تشرين الأول ، قبلت سوريا دعوة من السعودية لعقد قمة مصالحة في الرياض ، وفي المؤتمر تمّ اقتراح إرسال وحدات رمزية عربية تحت اسم قوات الردع ، ووافقت السعودية والكويت على تمويل هذه القوات ، التي تشكل القوات السورية فيها العمود الفقري ، وأُعيد الفلسطينيون إلى مخيماتهم تحت شعار التقيد باتفاق القاهرة ، وبدا أن الشجارات المريرة بين القادة يتم رأبها بعناقات ظاهرية ، وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول تمّ انجاز قمة تكميلية أوسع في القاهرة ، ومع طلب الشرعية اللبنانية والموافقة العربية ، دخلت القوات السورية غرب بيروت يوم الخامس عشر من تشرين الثاني ، فغادرت الميليشيات المسلحة التابعة للحركة الوطنية المدينة ، ومع خروج قوات الحركة الوطنية وانكفاء الفلسطينيين إلى المخيمات ، يكون الإعلان قد تم عن انتهاء الحرب الأهلية في لبنان .

بعد أربعة أشهر من اجتماعات القمة في الرياض والقاهرة ، عقد المجلس الوطني الفلسطيني دورته الاعتيادية في القاهرة ، وكان ذلك في منتصف آذار من العام ١٩٧٧ ، أما جدول الأعمال فكان يتسع للمزيد من النقاط المثارة حول لبنان ، وفيما كان القابل والرافض يتحدث كل منهما ، عن آرائه وحججه وتقييماته ، وقع النبأ المروّع عن اغتيال جنبلاط يوم ١٦ آذار ١٩٧٧ ، وقوع الصاعقة على رأس الجميع ، ومع الوجوم واختلاطات الهمهمة المصحوبة بالمفاجأة ، ارتفع صوت يقول : أيها الأخوة ، لقد مات أبو الحركة الوطنية في لبنان ، وبموته تكون طعنة نجلاء قد سددت لا للبنان فحسب ، ولا لفلسطين فقط ، بل إلى العالم العربي كله ، ذاك أن جنبلاط كان رمزاً لحركة التحرر الوطني ، والكرامة . .

وكان المتحدث هو صلاح خلف ، الذي سيلحقه بعد عقد ونيف من الزمن . .

مع اغتيال جنبلاط ، يكون المسرح اللبناني ، قد خسر أحد أهم أركانه ، وهكذا لتسدل الستارة على نهاية الفصل المعقد ، لإحدى تراجيديات العرب في العصر الحديث .

لقد قبل المسيحيون مساعدة سوريا في مرحلة بدت وكأنها أقرب ما تكون إلى الخسارة الجسيمة . إلا أن الميليشيات المسلحة للكتائب والنمور وحراس الأرز وقوات الرهبانيات إلى آخر القائمة . لم تكن على الجادة مع سوريا ، بل بالعكس ، فقد عزم الشمعونيون ، سيتلوهم الكتائبيون ، على طلب ضمانات صريحة من اسرائيل ، وهكذا راحت الأسلحة والأموال والخبراء تتدفق من اسرائيل إلى المناطق المارونية عن طريق ميناء جونية ، فيما راح (صوت الأمل) الاسرائيلي بأصوات عربية يلعلع من إذاعة في الجنوب ، وكان (الجدار الطيب) الذي أسسه الاسرائيليون في تموز من العام ١٩٧٦ ، يعمل بكفاءة منتظمة ، فهناك مجالات العمل المفتوحة للبنانيين المحرومين في الجنوب ، وهناك التظاهرة برعاية إنسانية صحية وطبيّة ، كما أن أسواق اسرائيل مفتوحة على مصراعيها لاستقبال المنتجات اللبنانية . . . وهكذا تمكنت اسرائيل من تحويل العديد من عشّاق الأوراق الخضراء إلى عيون ساهرة لمصلحة (الأمن الجماعي) ، وبحلول تشرين الأول سنة ١٩٧٦ (موعد قمة الرياض ومن بعده القاهرة) ، كان صوت الأمل الجنوبي يعلن عن ولادة جيش الجنوب الذي يقوده سعد حداد ، وكانت مهمة هذا الجيش ، هي العمل كجهاز انذار مبكر على طول الحدود اللبنانية الفلسطينية ، ضد هجمات المقاومة الفدائية المفاجئة ، وهكذا أصبحت اسرائيل جزءاً من المسرح السياسي اللبناني ، سواءً بتحقيق التحالفات الداخلية ، أو بسياسة الضرب المفتوح لكل المناطق اللبنانية .

لقد توج العنف الاسرائيلي نفسه ، بالإجتياح الكبير الذي حصل في العام ١٩٧٨ ، فالتدمير للجنوب ، كان على مستوى ما حصل في ڤيتنام ، وارتكبت فظائع لا مثيل لها ، فقد قضى مدنيون بالمئات تحت وابل القصف الجوي والبري دون تمييز ، ونزح أكثر من مئتي ألف باتجاه الوسط والشمال ، ثم تراجع الفلسطينيون شمالاً فوق الليطاني ، ولم تتوقف همجية الهجوم ، إلا بعد رسالة إنذار من الرئيس الأمريكي كارتر إلى رئيس الوزراء الاسرائيلي ميناحيم بيجن ، فقد كانت كامب ديڤيد على أشدها ، وبدا أن اسرائيل ستدمر المفاوضات بمسعاها التوجه نحو جنوب لبنان ، وهكذا قبل أن يستسلم بيجن ، فقد سلّم الشريط الحدودي بأكمله إلى الرائد سعد حداد ، ثم انسحب الجيش الإسرائيلي من المساحات التي احتلها في الجنوب ، نتيجة غضبة (القسيس) كارتر .

كان كارتر مزارع الفستق المعمداني العقيدة ، يقرأ الإنجيل المقدس ، وتقرير معهد بروكنغر المعنون : نحو سلام في الشرق الأوسط ، وقد وجّه الخوف من نشوب حرب جديدة في المنطقة ، مع ما سيتبعها من احتمالات أزمة طاقة جديدة ، كل اهتمامات كارتر

نحو السياسة الخارجية إزاء المنطقة . . وعلى الرغم من أن كارتر كان قد اصطدم مع الإسرائيليين في العديد من المناسبات لأسباب تتعلق (بعدالة الموقف) من الأطراف جميعاً في المنطقة ، وهي سياسة لم تألفها اسرائيل من الولايات المتحدة سابقاً ، إلا أن كارتر كان يجتهد من أجل جمع الأطراف الرئيسية في جنيف ، وكان لبنان بالنسبة له ، أولوية ثالثة أو حتى رابعة في المنطقة ، بعد مصر وسوريا والأردن وشعب فلسطين * . .

وطيلة العام ١٩٧٨ ، فقد دأبت الولايات المتحدة وفرنسا على محاولات ترمي لإقناع قادة المارونية السياسية ، بعدم الإرتماء في أحضان اسرائيل ، ويقول كميل شمعون في يومياته ، أن سفير فرنسا السيد هوبير أندريه ، ظل ينصحه بقوله : إن اسرائيل غير مستعدة لشن حرب من أجل المسيحيين ، وأن هدفها هو إشعال الحرائق بينكم وبين السوريين والفلسطينيين . . أما باركر السفير الأمريكي فقد نصح شمعون بعدم إقامة الخيار على الرهان الاسرائيلي ، إلا أن شمعون الذي اعتاد ألا يسمع إلا لنفسه ، فقد سافر فجر ٢٣ آب بحراً إلى اسرائيل حيث تم استقباله في منزل بيجن ، وبحضور دايان وزير الخارجية آنذاك ، وعازر وايزمن وزير الدفاع في حكومة بيجن ، راح يجري الكلام عن لبنان وجوار لبنان . . هذا وستتحدث التسريبات اللاحقة ، أن بيجن أعطى الإنطباع لشمعون بأن اسرائيل ستساعد المسيحيين للتخلص من السوريين في لبنان ، إلا أن المحور الرئيسي للمسيرة السياسية في المنطقة ، لم يكن يسمح لبيجن بإدارة الظهر للاستراتيجية الأمريكية التي بدأت بالظهور في السادس من أيلول عام ١٩٧٨ لتنتهي في الثامن عشر منه باعلان نجاح المفاوضات في كامب ديڤيد بين المصريين والاسرائيليين . . ومنذ ذلك الحين ، سيعود لبنان ثانية مرآة انعكاس لتداعيات الإتفاقية الجديدة ، حيث ستندلع الإشتباكات بين الميليشيات المسيحية والقوات السورية بأشد ما تكون ، وسيصرح نائب الرئيس الأمريكي وولتر مونديل ، بتزامن مع وزير الخارجية الفرنسي دي غرينغو ، بأن البادئ في النزاع هم المسيحيون ، وأنه لولا إثارتهم للقوات السورية ، ما كان لهذا الصراع أن يتجدد . .

---

* نظر الاسرائيليون إلى الرئيس الأمريكي كارتر نظرة ابن المدينة إلى الفلاح ، فهو ذو مسحة تديّنية يلزمها الكثير من أجل النضج السياسي ، (وردت في مذكرات رابين) ، وكان أكثر ما يضايق الاسرائيليين من كارتر ، أنه كان يطرح اقتراحاته لتسوية شاملة دون تشاور مسبق مع تل أبيب على طريقة كيسنجر . . وبدا أن الفلاح القادم من مزارع الفستق ، سيسبب متاعب جمّة لاسرائيل . لذلك كان التوجه نحو اللوبي الصهيوني في أمريكا ! . .

وما بين أيلول وتشرين الأول ، إثر اندلاع المعارك ، ظل شباب النمور والكتائب ، يسهرون على الشاطئ الليلة تلو الليلة ، بانتظار المنقذ الجديد ، إلا أن انزالاً اسرائيلياً متوقعاً لم يحدث على الإطلاق :

- أنذال ، أنذال . . هؤلاء الكلاب .

هذا ما سيصرخ به دون وعي ، الرئيس كميل شمعون ، حين قرأ الرد على برقيته من بيجن :-

(نأسف لعدم استطاعتنا القتال إلى جانبكم) والأنكى أن الرد كان بلا اسم ولا توقيع . .

ومن غرفته المحصنة تحت الأرض ، التي بقي فيها أثناء القصف السوري الشديد ، دعا شمعون اسرائيل ثانية (إذ لم ييأس) ، كي تكون على مستوى الوعد ، ثم أطلق تصريحاً إلى الجيروزليم بوست : (**إن الأمر كله يعتمد على مصداقية الوعود الاسرائيلية**) ، وعندما سأله المراسل عما يقصده بعبارة (**الأمر كله**) أجاب :

- **بالطبع دولة مسيحية تغطي عشرة آلاف كيلومتراً مربعاً . .**

وظل فاه المراسل فاغراً حين أدرك تحت صفعة الدهشة ، أن شمعون يريد السيطرة على لبنان كله ، حتى لو أدى ذلك إلى محو الأطراف الأخرى من الوجود . . .

لقد انتقل لبنان أثناء أحداثه الأهلية من مرحلة إلى أخرى ، فمن مرحلة السيطرة الفلسطينية - والوطنية اللبنانية ، إلى مرحلة السيطرة لصالح القرار السوري وانتعاش الجبهة اللبنانية ، إلى مرحلة الإقتسام بين سوريا والفلسطينيين واسرائيل (ما بين ١٩٧٨ و ١٩٨٢) ، ثم مرحلة السيطرة الكاملة باحتلال اسرائيل لبنان كله مع إعلان رحيل المقاومة الفلسطينية وسقوط العاصمة بيروت (٩٨٢ وحتى نهاية ١٩٨٣) إلى مرحلة الإنسحاب الاسرائيلي وحضور قوات الأطلسي ، ثم إلى انسحاب الأخيرة وانهيار الجيش اللبناني للمرة الثالثة * ، وعودة سيطرة الميليشيات من جديد .

كان الصراع الدامي ينتقل بين الأطراف والتحالفات والقوى ، إلى درجة أثارت الاستغراب والدهشة وإلى ما يمكن أن يسمى بعبثية القتال الداخلي في لبنان ، فقد انتقل

---

* الإنهيار الأول حدث أثناء حرب السنتين ٩٧٥-١٩٧٦ ، أما الثاني فحدث أثناء حكم الرئيس سركيس ، حين تصدى الجيش لميليشيا القوات اللبنانية في موقعة عين الرمانة . أما الثالث فحدث أثناء رئاسة أمين الجميل في معارك الضاحية الجنوبية ١٩٨٤ .

الصراع بين السوريين من جهة والحركة الوطنية والفلسطينيين من جهة أخرى . إلى الصراع المسلح المكشوف بين القوات السورية والكتائب (الجبهة اللبنانية) في الفياضية والأشرفية وزحلة ، وبدا أن الجبهة اللبنانية أخذت في الإنشقاق الدموي بين أطرافها ، حين وقعت مجزرة إهدن (مقتل طوني فرنجية) ومجزرة الصفرا بعدها ، فبرزت حرب الوجاهة العائلية داخل المارونية السياسية نفسها .

ومع زيارة السادات المروعة إلى القدس يوم ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧ ، فإن قوات الردع تراجعت عن تجريد المقاومة الفلسطينية من سلاحها ، ووضعت على الرف ، مسألة العودة إلى تطبيق بنود اتفاق القاهرة ، كما فشلت الجبهة اللبنانية (الكتائب - القوات - النمور - الأرز - الرهبانيات . . الخ) ، بالقيام بهذه المهمة وحدها ، فقررت اسرائيل أن تقوم بالمهمة مباشرة دون الاعتماد على أحد ، وهو ما يفسر الإجتياح الشامل لجنوب لبنان (إلى ما وراء الليطاني) في آذار من العام ١٩٧٨ ، وكما أسلفنا فمع انذار كارتر ، وطلب مجلس الأمن ، فإن الاجتياح الإسرائيلي عاد أدراجه بعد (حركة تجميل) في الشريط الحدودي لصالح جيش الجنوب بقيادة حدّاد .

في نيسان من العام نفسه (١٩٧٨) ، أطلقت القوات اللبنانية (جيش الكتائب المسلح) ، شعار المطالبة باخراج السوريين من لبنان ، وكانت الذريعة عدم العمل بأحكام اتفاقية القاهرة ، كما أن الفلسطينيين لم يجردوا من السلاح . .

كان مفهوماً أن صراع القوات مع السوريين يرمي إلى :-

- إشغال السوريين في لبنان ، في الوقت الذي وصلت فيه المفاوضات بين مصر واسرائيل إلى درجة حساسة .
- إمكانية تحقيق حلم السيطرة الكامل للجبهة اللبنانية على كافة المناطق اللبنانية .
- ثم هناك خيارات أخرى نحو التقسيم . . .

وقد بلغ القتال ذروته في حرب الأشرفية ، حيث تجاوز مئة يوم من القصف المتبادل ليل نهار .

وداخل الجبهة اللبنانية ، فإن (الانتصار) الذي حققه بشير الجميّل ، باغتيال طوني فرنجية ، و (الانتصار) الذي حققه ضد الشمعونيين في الصفرا تحت شعار توحيد (البندقية المسيحية) ، هذه (الانتصارات) ما سبقها وما تلاها * ، أدت إلى الإنعزال وتدمير

---

* سبق مجزرة إهدن وقتل السيد طوني فرنجية ، ومذبحة الصفرا ضد النمور الشمعونيين . محاولات اعتداء على حياة العميد ريمون إده ، وقد غادر العميد لبنان إلى فرنسا . حيث رأى بعينيه شريعة الغاب التي تحكم القتال الوحشي في لبنان .

الوشائج القائمة على الأخوة بين أبناء الطائفة المارونية ، **وهكذا بدأت إرهاصات هزيمة المشروع الماروني أمام المشاريع الإقليمية ، حيث مزقت حروب النجل الثاني للشيخ بيير الجميّل ، صفوف المسيحيين شر ممزق . .**

لقد زُرعت الفتنة بين الموارنة فأخذت تنمو في الأرض الخصبة لنزاعات القوى والدول والصراع مع اسرائيل ، **بحيث بدت حرب الإلغاء ، بين جيش عون وميليشيات القوات اللبنانية كأنها آخر الوصلة على طريق حرب الألف عام ، حتى آخر مسيحي ، كما يقول الكاتب الأمريكي جوناثان راندل .**

كان همّ بشير الجميل ، الذي يتنقل من حرب إلى أخرى (الأشرفية ثم زحلة) ، ينصبُّ على تأمين جغرافيا مسيحية متصلة وواسعة ، تدين له بالولاء من أجل حكم لبنان في المستقبل ، وكان قد انتخب مدينة زحلة للحرب ، لأنها ذات ثقل مسيحي أولاً ، ولأنها ثانياً على التخوم مع القوات السورية ، وكانت المعركة بمثابة (كلمة السر) ، للاجتياح الاسرائيلي الشامل في حزيران من العام ١٩٨٢ .

◆◆◆

ثانيا / الاجتياح الشامل ، أو الشتات الفلسطيني الآخر وليس الأخير .

يقول الجنرال بن غال قائد المنطقة الشمالية لاسرائيل ، أنه كان يدرك منذ زمن سيكولوجية الميليشيات المسيحية ، وإضافة إلى ذلك فقد أعلن مع استفزازات زحلة ، (أن المصالح الاسرائيلية والمسيحية متطابقة لأن كلاهما يرغب في إرغام سوريا على الانسحاب من لبنان) ، ويتابع (فإذا ما ساد الهدوء ثلاث سنوات أخرى ، فسوف يُنسى حتى الوجود المسيحي نفسه) ، وبتعبير آخر ، فقد كانت زحلة معركة (إما أن تُخاض الآن ، وإما التفريط بالوجود كله) ، ثم أرسل إلى بشير الجميل يقول (أنتم مهددون بانفجار سيؤدي إلى كارثة) . .

ومن أجل درء ما لا يُتوقع ، فقد انكب الاسرائيليون من حمائم وصقور على دراسة الأزمة المثارة في زحلة ، وما يمكن أن ينجم عنها من عواقب محتملة . . فقرارات اسرائيل في هذه الآونة ، لم تعد تمتد إلى مسيحيي لبنان والسوريين والفلسطينيين فقط ، بل إلى القاهرة طرف الصفقة في كامب ديفيد ، وبدرجة أهم بالطبع ، إلى واشنطن نفسها . .

لقد نظر بيجن وجنرالاته إلى لبنان ، على أنه الفخ المبهم ، لأكثر بلدان الشرق

الأوسط غموضاً وتعقيداً ، إذ أن لبنان ليس سيناء خاوية بلا سكان ، وهو ليس ضفة غربية أو غزة مثلما سبق لاسرائيل أن عرفتها جيداً بالاحتلال الطويل ، فلبنان هو البلد صاحب الكثافة العليا للسكان في كل منطقة الشرق الأوسط ، (٥ , ٣ مليون نسمة على عشرة آلاف كيلومتر مربع) ، وهو خليط عجيب غريب من الناس ، فالحرب إذا ما نشبت ، فإنها تنشب بمنتهى الشراسة ، ثم ما يلبث أن يتمازج القاتل مع القتيل ، وكم من مرة طُلبت الهدنة ، من أجل جلسة صفاء لبنانية لهذا الطرف أو ذاك ، وفي مطارحات من الزجل اللبناني المقذع ، كان الجميع يثبتون أنهم يتنسبون للجد الأكبر في أعماق أنسابهم وسلالاتهم بل وقبائلهم التاريخية قبل التاريخ نفسه . .

لقد صرخ شمعون بيريز ، وكان زعيماً للمعارضة آنذاك ، في وجه بيجن بعد مجزرة صبرا وشاتيلا قائلاً :-

(ماذا يفعل الجنود الإسرائيليون في بيروت الغربية ، ألم تدرس تاريخ هذه المدينة الذي يعج بالجنون والعبَث ، ألم ترها وكأنها خارجة من مستشفى للأمراض العصبية ، ألم تدرس تاريخها المشبع بالأسرار ، حيث تعجز الشياطين عن ولوجه ؟! . .).

وكانت وجهة بيجن مع ذلك ، قد استقرت على خيار الضرب الآن . . فسوريا متشاجرة مع مصر ، بل ومتعادية بصورة لا تقبل الرجعة مع نظام السادات الذي جرّ مصر إلى هاوية الخروج من الصف العربي والتفرّد بالصلح مع اسرائيل ، ولم يكن العام ١٩٨٢ عموماً هو العام المفضل بالنسبة للنظام السياسي في سوريا ، فقد اندلعت أعمال عنف داخلية شملت جميع المحافظات ، وصدَر في العاشر من شباط ، بداية العام نفسه ، بيانان ، أحدهما من وزارة الخارجية الأمريكية ، والآخر من جماعة الاخوان المسلمين في ألمانيا الغربية ، يعلنان خبر التمرد في مدينة حماة ، وكانت الأحداث الدموية قد جاوزت اسبوعها الأول ، حين استدعت الخارجية السورية السفير الأمريكي روبرت غانيلي ، وأخطرته بعدم رضا سوريا عن موقف الإعلام الأمريكي ، وأن السلاح الذي تستخدمه المعارضة الأصولية هو سلاح أمريكي . .

وفوق الوضع الداخلي الذي بدا في منتهى الخطورة ، فإن العلاقة مع العراق ، الذي كان يغذّي جماعات المعارضة الداخلية ، كانت تعيش أسوأ سنواتها السياسية ، فقد وصل الأمر درجة الحشد العسكري على الحدود ، ثم كانت العلاقة مع الأردن الذي اتهمته سوريا بدعم الإخوان المسلمين بالمال والسلاح ، ويقول باتريك سيل في كتابه الأسد صفحة ٥٤٢ (بأنه قُدّر للملك حسين بعد مضي خمس سنوات على الأحداث في سوريا بأن يعترف

بمساعدة الأردن للجماعات الإسلامية آنذاك) ، وقد أدى موقف سوريا إلى جانب إيران إلى اضطراب في العلاقة بين بلدان النفط العربية وسوريا ، ولو أن دول الخليج على رأسها السعودية ، بقيت كعادتها ، على مسافة غير تناحرية مع المواقف المتضاربة من الحرب ، علماً بأنها ظلّت تقدّم المال لتغذية المجهود الحربي العراقي ، دون انقطاع ! . .

وفي المحصلة ، فإن العام ١٩٨٢ قدّم نفسه منذ البداية ، على أنه (عام الحسم) ضد التضامن العربي في كل شيء ، إذ لم يكن أحد مع أحد ، وبالعكس ، فإنّ أحداً كان ضد الآخر ، في أكثر من ساحة سياسية عربية ، فهناك النفط الخائف على نفسه من ايران ثم من العراق ، وهناك المقاومة الفلسطينية بعالم ارتيابها وظنونها مما جرى ويجري في المنطقة ، وهناك المارونية السياسية التي تصالحت مع الهدف القائل بطرد المقاومة الفلسطينية ، واخراج السوريين من لبنان ، كما أن هناك الحرب العراقية - الايرانية التي تلتهم قدرة البلدين الإسلاميين ، وهناك الأكراد ، أما على الصعيد العالمي ، فهناك أكثر من بؤرة ساخنة كانت تجر العمالقة إليها دون لبنان ! . .

كان السيناريو الذي أعجب ميناحيم بيجن ، يذهب إلى مدى أعمق في تجريب صلاحية الاتفاقية الجديدة بين مصر واسرائيل ، فاتفاقية كامب ديفيد في الأساس ، كان ثمنها شبه جزيرة سيناء ، ولكنها بالنسبة لاسرائيل أثمن من ذلك بكثير ، فهي إخراج مصر من معادلة الصراع واستفراد العرب كل قطر بقطره فيما بعد . . وكان ذلك عملياً يعني إخراج الثقلين البشري والعسكري من المعركة ، وقد ضربت أوهام سيناء رأس السادات حين ظنّ بأن عالم الوفرة قادم على الطريق إذا هو خرج من (كلفة) الصراع مع اسرائيل ، وكان على بيجن من جهته ، أن يجرب مصداقية المعاهدة ، فإذا هاجمت اسرائيل لبنان وسكت المصريون ، فإن النار ستندلع بين العرب من جديد . . كما أن بيجن أزال سراً من أسراره ، حين أعلن في اللجنة الوزارية الأمنية المصغرة : (إن سحق الجيش السوري ، أهم قوة عسكرية بغياب مصر ، سيسمح لاسرائيل بعشر سنوات على الأقل من الأمان المطلوب لبناء اسرائيل كبرى) (جوناثان - مصدر سبق ذكره ص ١٨٠) .

كان الحوار صاخباً بين المعسكرين السياسيين الكبيرين في اسرائيل ، ففيما رأى بيجن ضرورة العمل المباشر لاجتثاث البنية التحتية للمقاومة نهائياً من لبنان ، مع استكمال العملية ، باخراج السوريين كمهمة حربية تالية ، فإن حزب العمل كان يرى تأليب الداخل اللبناني ، وتزويد جميع أطرافه بالسلاح ، لإطالة أمد الصراع الذي سيعصر الجميع في النهاية ، سياسة أبعد مدى وأكثر عقلانية من مخاطر اجتياح مباشر . .

وقد زاد من ضراوة الهجوم ضد بيجن ، أن رئيس المخابرات العسكرية الاسرائيلية نفسه الجنرال يهوشاع ساغي الذي كان خصماً لتحالف الموساد مع بشير الجميل والقوات عموماً ، أدلى بتصريح ساخر يقول فيه (**إن تعبير المذبحة الذي درجت الجبهة اللبنانية المسيحية على تكراره ، هو محض دعاية مبتذلة ، فطيلة حصار زحلة مع كل المعارك ضد السوريين لم يقع أكثر من ١٥٠ قتيلاً ، وهو رقم لا يعدو لعبة أطفال ، إذا ما قورن مع ضحايا تل الزعتر**) . .

سيصرح بشير الجميل ، بعد أن يئس من مجيء قوات النجدة الاسرائيلية إلى زحلة بقوله : (لقد فقد الاسرائيليون ثقتهم بأنفسهم ، إذ لم يعودوا كما كانوا في الأربعينات والخمسينات والستينات . . **يبدو أننا نحن اليوم ، هم ما كانوا بالأمس**)* . .

هذه الثقة العمياء بالنفس ، أدت في النهاية إلى اخراجه من مسرح الحياة بالنسف الإنفجاري مع كل أركانه في بيت الكتائب ، فقد كان بشير الجميل على علم بتفاصيل الخطة الاسرائيلية الرامية للاجتياح الكبير في الرابع من حزيران عام ١٩٨٢ ، وقد أعد العدة لرئاسته على أنغام المعزوفة نفسها ، وفوق ما رمت إليه اسرائيل ، من تدمير المقاومة الفلسطينية واخراج السوريين من لبنان ، فقد أرادت حليفاً متيناً لها في لبنان ، يستطيع إقامة اتفاق متصالح مع اسرائيل . . فإنْ لم يكن على نمط كامب ديڤيد ، فعلى الأقل في الطريق إليه . .

بعد حوالي اسبوعين من القتال مع المقاومة الفلسطينية في الجنوب وصل الجيش الاسرائيلي إلى مشارف العاصمة بيروت ، فأحكم حصاره حولها ، (ورغم بطولة الملك ! . .) صاحب الدفرسوار ، فإنه لم يتمكن من دخولها إلا مع مغيب اليوم الثمانين لحصارها ، وقد يرجع ذلك أولاً ، إلى بطولة القوات المشتركة الفلسطينية والسورية واللبنانية في الدفاع المستميت ، حيث الاستسلام يعني الموت في حياة الخزي الشاروني ، كما أن الحصار الطويل مرده إلى خشية شارون من وقوع قتلى بعدد لا تستطيع حكومته الصمود أمامه ، وقد اعتادت اسرائيل ترك الثمرة العربية ، في معاركها السابقة ، تسقط من جراء نضجها ، وهو ما لم يحدث في بيروت . .

---

* ترى هل كان الشاب المغامر على الطريقة الأمريكية ، يتحدث من عندَياته أم كان يُوحى إليه . فبشير الجميل ذو العقود الثلاثة ، وبحكم كونه الابن الأكثر شراسة وعناداً لدى آل الجميّل كلهم . لم يكن متصالحاً على ما يبدو مع الحكمة ، أو الثقافة بشكل أعم ، ولكم يحزن المرء أن أبناء الوجاهات اللبنانية ، غالباً ما ظهروا بمظهر الكاوبوي أثناء تراجيديا لبنان الحزينة ! . .

كانت المحصلة ، كما يعرفها الجميع ، وبعد مداولات شتى مع المبعوث الأمريكي ذي الأصل اللبناني فيليب حبيب ، قد آلت في النهاية إلى خروج المقاومة بعد تدمير البنية التحتية للبنان كله ، كما انكفأت القوات السورية ، حين لاح صراع غير متكافئ ، يُراد جرها إليه ، ومع ذلك ، فقد قدمت سوريا حسب احصاءات رسمية ١٢٠٠ شهيد و ٣٠٠٠ جريح و ٣٠٠ دبابة و ٧٦ طائرة غير العديد من بطاريات الصواريخ الجوية التي تم تدميرها ، فيما فقد العدو الاسرائيلي حسب احصاءاته ٣٥٠ قتيلاً و ٢٠٠٠ جريح وما بين ١٢ إلى ١٤ طائرة حربية . ثم أعلنت النتائج النهائية فيما بعد ، بروز النجم الصاعد بشير الجميل ، المحمول إلى ولاية رئاسية تحت الحراب الاسرائيلية . .

كانت الذريعة للغزو كالعادة ، محاولة اغتيال السفير الاسرائيلي أمام فندق دورشستر في لندن . . فبدأ التمهيد للغزو بقصف عنيف ثم بدأ الاجتياح بعد يومين من القصف المتواصل أي في السادس من حزيران ، وفي غضون أيام اندفع الجنرال شارون قائد الحملة إلى الشمال ، ورغم ادعاء اسرائيل المتواصل عن حملة (سلامة الجليل) بعمق أربعين كيلومتراً ، إلا أن دبابات شارون ما لبثت أن تحركت إلى منطقة الشوف ، وفي ١٣ حزيران ، طوقت الآليات الاسرائيلية قصر بعبدا ، مركز الحكم اللبناني ورمز سيادته ، وبدا أن شارون لا يقيم أي وزن لحلفائه في شرق بيروت ، فقد كان العمل اسرائيلياً ، بصرف النظر عن هامش التحالف مع الصغار ، وكان على العمل نفسه أن يؤدي نتائج اسرائيلية قبل أي اعتبار آخر . .

أعلنت الدولة العبرية بعد افتضاح كذبة (الأربعين كيلومتراً) ، أنها تقوم بخدمة جلى للمنطقة والعالم بأسره ، حين تندفع لتدمير (مركز الإرهاب) في العالم ، ثم أشار شارون في مرحلة لاحقة ، أنه لا يغزو لبنان ، بل يحرره من النيرين الفلسطيني والسوري ، اللّذين حطّا على كاهله مثل طائر شؤم . .

هذا وستعصف الخيلاء من جديد ، في صفوف أركان الصقور الاسرائيليين ، حين بدأوا بوضع المعادلة الجديدة ، حسب فنّ الأمر الواقع أمام أمريكا ، ومن أن صاحب الزيارة القتيل في القاهرة ، كان على حق حين رأى مفاتيح واشنطن ، وقوة أدائها على يد الجيش الاسرائيلي . .

وهكذا ، فقد رحلت آخر قوة مسلحة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وكان على كادر المنظمة أن يهرع وراءها ، كذلك تم إسقاط النفوذ السوري في لبنان ، وها هي بيروت تستعد لإبرام اتفاق جديد مع اسرائيل ، وسيكون أيار هو موعد هذا الإتفاق وزمانه . .

إن صور الفظاعات التي أُرتكبت أثناء الاجتياح وبعده لا يمكن أن تعزز الزعم الاسرائيلي ، عن داڤيد يهودي وهو يصارع المتوحش جوليات العربي ، إلا في مسألة تاريخية هي الغدر * ، ولم يكن العالم كله ، مسروراً بما أصبح يشاهد ويسمع ، فقد نقلت أجهزة التلفزة العالمية ، صور الاعتقالات لآلاف الفلسطينيين واللبنانيين وتركهم موثوقي الأيدي والأرجل تحت هجير الشمس المحرقة ، ثم كانت هناك عشرات من صور التعذيب والإذلال في شتى المناطق اللبنانية عدا المناطق الحليفة بالطبع . .

في أواخر تموز من العام ١٩٨٢ ، استعدت المقاومة للرحيل من بلد المرابع والفتنة ، والأخوة والجنون ، وفي الثلاثين من آب ، بدأت المقاومة بالرحيل ، فكان الشتات الآخر لشعب يحمل صليبه على ظهره . .

مع رحيل آخر فدائي فلسطيني من لبنان ، أطلق ريغان الرئيس الأمريكي الجديد ، مشروعاً هزلياً للتسوية : (**على الفلسطينيين ألا يحلموا بدويلة في الضفة الغربية أو قطاع غزة ، بل عليهم البحث عن خلاصهم إلى جانب الملك حسين في المناطق المذكورة ، وعلى اسرائيل أن تتوقف عن ضم الأراضي وإقامة المستوطنات ، مع إلغاء التي أقامتها في المناطق المحتلة**) .

وخلافاً للاتفاقات مع المبعوث الأمريكي فيليب حبيب ، رد بيجن على مبادرة ريغان ، بالتقدم شمالاً بحجة نزع الألغام من الطرقات ، وهكذا أطل جيش شارون على مخيمي اللاجئين في صبرا وشاتيلا في منطقة بئر حسن . .

تملّك الغيظ الإدارة الأمريكية جراء هذا الخرق الجديد ، فطالبت اسرائيل بالتراجع إلى مواضعها السابقة ، إلا أن بيجن كان قد سارع إلى الرد (لن نتزحزح سنتيمتراً واحداً ، فالمنطقة الجديدة ، هي منطقة أمن لسلامة جنود جيش الدفاع) ، واضطرت أمريكا إلى التراجع .

لم يعد أمام الأمريكيين سوى الدخول على خط بشير الجميل ، حيث قُدمت النصيحة له بعدم توقيع اتفاق سلام منفرد مع اسرائيل . .

كانت أمريكا قد ناءت تحت أثقال برامج المساعدات الخارجية ، خاصة أن اسرائيل

---

* تقول الاسطورة أن جوليات كان يتهيأ لصراع جسماني مع داڤيد ، إلا أن هذا الأخير الذي قاس حجمه وعزمه أمام جوليات ، آثر اللجوء إلى خدعة القتال من بعيد ، فرماه بحجر من أداة مقلاع ، فأصيب بمقتل ، وهكذا اخترق الراعي كل شرائع القتال المعروفة من قبل فأصبح بطلاً . .

أصبحت ذات حصة ثابتة (زهاء ٤ مليارات دولار سنوياً) ويعدها في الدرجة ما بعد الثالثة مصر ، ثم إن أمريكا لا تريد أن تضيف حملاً آخراً اسمه لبنان .

فلبنان ليس طرفاً كبيراً في الصراع مع اسرائيل ، وكان على بشير الجميّل أن يسعى بدلاً من التردد ، أو الذهاب إلى الخيار الاسرائيلي ، من أجل مصالحة وطنية واسعة في الداخل . وهي بطاقة دخوله ، كما رأتها الولايات المتحدة ، إلى مقعد الرئاسة في الأساس .

وفي جميع الظروف ، فإن الرئيس رونالد ريغان ، لم يكن على استعداد لخوض مواجهة مع اسرائيل ، فرغم انتقاداته المتكررة لعملية الغزو ، إلا أن إدارته كانت تتجنّب مغبة التزام عسكري في لبنان . .

في الساعة الرابعة وعشر دقائق من بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في ١٤ أيلول ، ومن غير سلام مع نفسه والآخرين ، دوى انفجار هائل في بيت الكتائب بسبب شحنة ناسفة بلغت يومها ٥٠ كغ من مادة متفجرة وقد تم تفجيرها بواسطة جهاز ياباني يقوم بالتفجير عن بعد . . وقُتل الرئيس الجديد قبل أن يصل إلى أحلامه . .

وكان بشير الرئيس المنتخب ، يعقد اجتماعاً مع كوادر حزبه ، وهو الاجتماع المعتاد اسبوعياً يوم كل ثلاثاء ، وقد قرر لهذا الاجتماع أن يكون وداعياً لرفاق السلاح ، قبل اسبوع من تسلمه السلطة رسمياً .

كان المبنى الأصفر في شارع ساسين يتألف من ثلاثة طوابق وينتصب على رأس تلة تطل على بوابة المتحف وهي بوابة تفصل بين جناحي العاصمة منذ اندلاع الحرب ، ومع نسف المبنى ، فقد أدى الانفجار إلى اصابة المساكن المجاورة بأضرار بالغة ، وهرعت فرق الإنقاذ التابعة للجيش الاسرائيلي ، تساعدها الحوامات وفرق الاسعاف من أجل انتشال القتلى والجرحى وازالة الأنقاض .

وتساءل الناس عن مصير الرئيس الشاب (٣٤ سنة) فأعلن راديو صوت لبنان الكتائبي ، بأن الرئيس ليس سليماً فحسب ، وإنما يعمل هناك مع فرق الانقاذ ويؤدي واجبه . . ثم تراجع الراديو قليلاً ، ليعلن عن جرح طفيف في ساق الرئيس ، وما عتمت الموسيقى الجنائزية أن أعلنت الخبر اليقين من تلقاء نفسها ، فقد انتقل الرئيس الجديد إلى السماء بدلاً من بعبدا . .

مات الرئيس بشير الجميّل الذي حمل طموحات أبيه عن جداره . . وقبل موته

بأسابيع ، كان قد أطلق تحدّياً علنياً يقول :

(هناك شــعب زائد في هذا الوجــود ، هو شــعب فلسطين) ، لذلك سيُتــهم الفلسطينيون أو السوريون بقتله ، وقد راجت أخبار مفادها ، أن بشيراً بعد اجتماعه المعروف في نهاريا مع بيجن وشارون ورئيس الأركان الاسرائيلي إيتان ، كان قد اعترض على مطالب شارون الفظة والمستعجلة ، ثم أبدى عزوفاً عن معاهدة منفردة مع اسرائيل قبل أوانها . .

مع ذلك ، فإن أول من وجّه التهنئة لرئاسته ، كان مناحيم بيجن (اهنئكم من صميم القلب لانتخابكم . حفظكم الله أيها الصديق العزيز وأعانكم على انجاز مهمتكم التاريخية من أجل حرية لبنان واستقلاله . صديقكم المخلص ميناحيم بيجن) .

لقد اختلطت الأقاويل والشائعات عن المخططين والمنفذين لعملية الاغتيال إلا أن الفاعل كان قد عُرف بسبب خطأ ارتكبه في مكالمة شقيقته هاتفياً سعياً لتهريبها من المبنى نفسه قبل لحظات من انفجاره . . وقد تبيّن أن الحزب السوري القومي الاجتماعي كان وراء العملية على ما يبدو .

وكان وراء العملية أيضاً ، ١٨٠٠٠ قتيل و ٣٠٠٠٠ جريح فقدهم شعب سوريا ولبنان وفلسطين جراء حملة شارون التي أوصلت بشير إلى الرئاسة . . وكان على هذه الحملة التي وصلت إلى أوج نشوتها برحيل المقاومة الفلسطينية وتراجع القوات السورية ، أن تقتحم بيروت الغربية وهي غاية الخطة الأخيرة للحملة . .

وهكذا لأول مرة في تاريخها الحربي ، تحتل اسرائيل عاصمة عربية . . إلا أن أمراً من الجنرال شارون إلى قواته كان يقول (**يُحظّر على قوات جيش الدفـاع ، الدخـول إلى مخيمات اللاجئين ، فعملية تمشيط هذه المخيمات وتطهيرها هي مهمة سيتولاها الكتائبيون أو قوات الجيش اللبناني**) . . .

بعد إنجاز الاحتلال عسكرياً (بيروت الغربية فقط) ، استقبل الجنرال أمير دروري قائد الحملة ميدانياً ، الرئيس الجديد للقوات اللبنانية فادي أفرام (الذي سيتحول فيما بعد إلى رجل أعمال كبير) ، وسأله فيما إذا كانت القوات جاهزة للدخول إلى مخيمي صبرا وشاتيلا ، فأجاب المحارب القواتي (نعم . . وحالاً) ! . .

حصلت القوات على الضوء الأخضر للمذبحة المرتقبة ، وهكذا بدأ التنفيذ بتقدم القوات اللبنانية برئاسة فادي أفرام وإيلي حبيقة بقوة قدرت بألف رجل مدججين بالسلاح

والحقد (وقد سمع الضباط الاسرائيليون الذين كانوا على اتصال دائم مع القوات اللبنانية لمقتضيات التطهير ، عبارات عنف صاخبة من نوع : سنذبحهم هذه المرة ، سنجعل الدم يسيل حتى الركب - آمنون كابليوك - تحقيق حول مجزرة . ص ٤٢) .

أصبح كل شارع وحي وحارة في المخيمين ، يروي قصته التي لا تُصدّق ، فقد نقل الصحفيون والدبلوماسيون الأمريكيون والأوروبيون بينهم سفير فرنسا السيد بول مارك هنري ، روايات عما تبقى من أطلال مدمرة ، بينما مئات الجثث المبعثرة ذات الأعضاء المُقطّعة تنتثر فوق الأرض وتحت ركامها . .

لم يفلت من المذبحة ، لا صغير ولا كبير ، امرأة أو رجل ، طفل أو بالغ ، (**فالشعب الزائد - بشير الجميل - يجب أن يُحذف من الوجود**) . .

مرحى للصغير . . مرحى للصغير . .

هكذا صرخ بيير ديمرون الكاتب الفرنسي ، في كتابه الذي أصدره بعد عدوان حزيران الاسرائيلي تحت عنوان : ضد اسرائيل . . لكنه بعد أن أفرغ كل ما عنده من حقائق ، جعل خاتمةً لكتابه تقول :

(اعلموا أن المؤلف لا يوافق على آرائه . . إذن ديمرون مع اسرائيل لا ضدها . .) وكانت صرخة غاية في السخرية والاستهزاء . . ثم أضاف يقول في اهدائه ، آخر الكتاب لا في مقدمته :-

- إلى الفلسطينيين الذين يقسرهم الغرب منذ عقود ، على دفع ثمن جرائمه وديونه قبل اليهود .
- إلى العرب كلهم ، الذين استُذلّوا من خلال هؤلاء الفلسطينيين وأهينوا معهم بلا حدود .
- إلى الفرنسيين من أصل يهودي الذين يرفضون أن يكونوا ضالعين في هذا العار .
- إلى اليهود أنفسهم ، الذين ما زالوا يقتنعون بحق الآخر في الحياة والحرية . . . أُقدم ما عندي لأستعفي بعده من العيش بين الذئاب .

ثم تجيء الصرخة على لسان اليهودي عمانوئيل ليفن حين يقول في الأوريان الفرنسية :

المسيح لاجئ فلسطيني بلا ريب ، أما أنا فيهودي ، أفهم ذلك وأراه ، لماذا كان كل

هذا الغرب المسيحي أعمى ، لماذا انحاز إلى الأكثرين غنى وقوة وقدرة ، إلى اولئك الذين أسلموا للموت ذاك الإنسان الرباني المسكين ، ومع ذلك فإنهم يعتبرون المسيح مسيحهم ، فيا للهول ، مَنْ قتل المسيح إذن ؟ إنكَ لا تلبث أن تعلم إذا لم تكن عرفت بعد . . كل شيء عن هذا دون الرجوع إلى التاريخ ، بل مما يجري من مآسي فوق رأس هذا الشعب المطارد تحت كل سماء وفوق كل مكان . . .

وتتلاحق أرقام الضحايا إلى أن تستقر حسب الوكالات العالمية إلى ما بين ٣٠٠٠ و ٣٥٠٠ ضحية من أصل ٢٠ ألف هم مجموع ما في المخيمين الفلسطينين ، وكل ذلك في أربعين ساعة لاغير . . فمرحي للصغير . .

الكوميديا الإضافية ، هي أن القوات اللبنانية شكلت لجنة تحقيق بخصوص المجزرة ، أما رئيس اللجنة ، فهو نفسه ، ايلي حبيقة ، الراهب المتبتل في صومعة الدفاع عن الحق ، ويروي آمنون كابليوك - مصدر سبق ذكره - أن معاون حبيقة المدعو ميشيل ، قال لمراسل التلفزيون الاسرائيلي (قتلت وحدي خمسة عشر فلسطينياً ، لا يهم التمييز هنا ، طالما أن شعاري هو أن أفضل الفلسطينيين هو الفلسطيني الميّت) .

اشتبكت اسرائيل مع نفسها بخصوص المذبحة المشينة ، وتقاذف العمال والليكود الشتائم من على منبر الكنيست وقد وصل الأمر إلى حد الفضيحة ، حين سأل شارون النائب المعارض شمعون بيريز بفظاظة مألوفة :-

(أنت يا سيد بيريز ، عندما كنت وزيراً للدفاع ، أين كان ضبّاط جيش الدفاع أثناء مذابح تل الزعتر ، أتحداك أن تقول أين كانوا . . وماذا كانوا يفعلون ؟ . .) .

وأسدلت الستارة على فصول المسرحية التي بدت أنها تدين الجميع ، **لم يبق على المسرح سوى ثياب رثة تحملها امرأة تزرع صبرا ذهاباً وإيابا ، تمشي وتمشي ولا تتوقف ، كانت على موعد مع خمس عشرة جثة من أهلها ، بينهم طفل عمره أربعة أشهر ، توقفت فجأة بعد أن أوحي لها بأنها استدلت على القبر الجماعي ، ثم راحت تهيل التراب على رأسها وتنوح : إلى أين من هنا ؟ إلى أين أذهب الآن ؟ ثم دوّت رصاصات قنص كأنها تقول : إلى جهنم ، فالفلسطيني الطيّب هو الفلسطيني الذي يموت في الحال :-**

وألقت عصاها واستقرت على النوى
كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

ثم فازت المذبحة باوسكار من راوندا ، أو على فيلم مشترك من انتاج شركة

متروجولدين ماير لكن ببطولة قواتية ، أو لعلها هي الفوز المبين في مضمار ماراتون نازي عزَّ نظيره ، تحت ظلال الصليب المعقوف ، فيا للصليب المسكين . .

بعد المجزرة التي هزت ضمير العالم ، اضطرت أمريكا وفرنسا وإيطاليا . . إلى الإعلان عن إرسال قوات حماية ، لمساعدة الدولة في حفظ النظام والأمن إلى حين استرداد الجيش عافيته ، وكانت معركة خلافة الرئيس القتيل على أشدها ، وخشية فوز كميل شمعون الذي صرح علانية أنه في حال انتخابه سيذهب إلى توقيع معاهدة مع اسرائيل ، فقد آثر الجميع ترجيح كفة السيد أمين الجميل ، الذي أعلن رفضه لمثل هذه الارتباطات ، وهكذا تسلم الجميل مهام رئاسته خلفاً لأخيه ، ثم شكلت حكومة برئاسة شفيق الوزان ، وتميزت فترة الرئاسة الجديدة بمرحلتين ، حاول الرئيس في الأولى حل المشاكل مع الاسرائيليين ففشل (إلا بمعاهدة صلح وسلام) ، كما أنه فشل في الثانية مع السوريين حيث بدا أنه يقف بَيْنَ بين ٌ .

سيعرض الرئيس الجميل اتفاقاً مع الاسرائيليين في السابع عشر من أيار ١٩٨٣ ، وكان من أهم بنوده :-

- استعادة الجنود الاسرائيليين الأسرى سواء بيد القوات السورية ، أو بيد المنظمات الفلسطينية مع استرداد جثث أو رفات الجنود القتلى في العملية الاسرائيلية .
- إنسحاب متزامن بين القوات السورية وما بقي من عناصر فلسطينية من جهة ، والإنسحاب الإسرائيلي المطلوب .
- في حال عدم الاستجابة بخصوص القتلى أو الأسرى ، فإن اسرائيل تحتفظ بحقها في تعليق بنود الاتفاقية .

فإذا ما استمرت الأوضاع دون حل ، فإن اسرائيل تلغي الاتفاقية من طرفها ، وستسعى إلى حماية وضعها بطرقها الخاصة .

كانت اسرائيل ترمي من وراء الاتفاق الجديد ، إلى فرض معاهدة لا على اللبنانيين فقط ، بل وعلى السوريين والفلسطينيين أيضاً ، خاصة أن في الإتفاقية ما يؤدي أو يسمح بحقوق التدخل عبر الحدود في كل مناسبة أو سانحة ، من سوانح الترتيبات الأمنية المفروضة في الاتفاقية .

لم تكن اسرائيل في الأصل ! . . ، راغبة في تنفيذ الاتفاق بل في توقيعه فقط ،

ومصدر هذا التناقض ، هو ما حصل مع الكونغرس الأمريكي ، حين تجاوزت اسرائيل مدى الأربعين كيلومترا للعملية ، فحظيت بغضب الكونغرس وتصديقه لقرار الحظر ضد اسرائيل (يذكر هنا خاصة مشروع طائرة لافي الاسرائيلية - الأمريكية) ، وكمحاولة إرضاء ظاهرية ، فقد أظهرت اسرائيل نفسها بمظهر الحادب على الاتفاق الراعي له دون تعجيز ! . . أما وزير الخارجية جورج شولتز ، فعلى عادته في أرباح شركات النفط ، فقد كان يهمه ربحه الشخصي بتوقيع الاتفاق ثم إلى جهنم ، تنفيذه أو عدم تنفيذه فيما بعد . . إضافة إلى أن اسرائيل كانت ترغب جدياً في الحصول على مكافأة جراء عملية سلامة الجليل ، وهي أنه لا انسحاب دون صلح كامل مع لبنان . . ولعل ذلك من باب قراءة التاريخ بعد وقوعه ، فإن الاتفاق لم يكتب له النجاح للأسباب التالية :- (موت جمهورية - ألبير منصور ص ١٩٨ وما بعدها) :-

- أن الرئيس أمين الجميل نفسه ، كان متردداً بين التوقيع وعدمه (عينٌ على سوريا وأخرى على اسرائيل) ، لذلك فقد صمم على تصويت كامل غير منقوص من جانب النواب على الاتفاق ، وتلك من الفرضيات المستحيلة خاصة في برلمان لبنان .

- أن الادارة الأمريكية يومها ، كانت غاضبة من مشاكسة ولدها المدلل في المنطقة ، حيث أفرط في تجاوز الوعود والحدود ، مما أدى إلى سريان شائعة تقول ، أن أمريكا نصحت الجميّل بعدم التوقيع . .

- أن اسرائيل نفسها ، كانت تريد ما هو أبعد من مجرد الاتفاق بمعاهدة سلام معها ، حيث كان القصد المزدوج ، تحقيق الاتفاق مع اخراج السوريين من لبنان .

- أن سوريا استردت مبادرتها بتسليح أمل والاشتراكيين ومجموعات من العمل الفدائي الفلسطيني ، ثم تحالفت مع الثورة الاسلامية في إيران ، فكان أن تدفق المجاهدون من طلائع حزب الله إلى الضاحية الجنوبية . وهكذا دخل إلى معادلة الصراع ، طرف ايراني مسلم ، كان بمثابة الجبهة الأمامية المسلحة لسوريا في لبنان .

وبالعودة إلى المزاج الاسرائيلي ، فإن تحقيقات لجنة كاهان الخاصة بمجزرة صبرا وشاتيلا ، كانت قد أفضت إلى مسؤولية الجيش الاسرائيلي في موقع المذبحة ، فأدى ذلك

إلى سباب شارون واستقالته . . ثم تعالى الصراخ يقوده حزب العمل ، بضرورة الإنسحاب من لبنان ، خاصة أن الفلسطينيين قد غادروه .

وفي المحصلة ، فقد امتنع الرئيس الجميّل عن ابرام الاتفاق رسمياً وأدى ذلك كله إلى إسقاطه . .

لقد فقدت اسرائيل الأمل ، بتوقيع كامب ديڤيد جديدة مع لبنان ، فعادت إلى المخطط الأصلي ، وهكذا كانت حرب الجبل بين المسيحيين والدروز .

فخلال صيف العام ١٩٨٣ ، أعادت اسرائيل إلى الأذهان ، حلم تحقيق دويلة درزية تضم مناطق الشوف وعاليه ووادي التيم وراشيا وحاصبيا مع جبل العرب في سوريا متصلاً بالجولان ومنفتحاً على إقليم الخرّوب إلى البوابة البحرية في صيدا . . وكان ذلك من ضمن المشروع الصهيوني الرامي لتفتيت المنطقة بشكل دويلات طائفية ، أو دويلات محكومة بأقليات طائفية الأمر الذي يتحف المنطقة بعدم الاستقرار على الدوام . . هذا وسيُقال على لسان الماكرين ، ممّن يحبون صب الزيت على النار بأن الشوف الذي أُودع فيه كل سلاح المقاومة الثقيل ، لم يطلق طلقة واحدة ضد الغزاة الاسرائيليين غداة الاجتياح ، وكما يرى ألبير منصور في كتابه موت جمهورية ، فإن السبب بالطبع ، لا يعود إلى ما درجت اسرائيل على إشاعته بكل خبث ومقدرة ، من أن هناك اتفاقاً مع قادة الشوف على الالتزام بعدم إطلاق النار ، وأن العديد من الجنود الاسرائيليين هم من أصل درزي فلسطيني . . وإلى آخر المعزوفة ، بل إن ألبير منصور يرفض هذا كله ، فالدروز مقاتلون أشداء وهم عرب قبل أن يكونوا أي شيء آخر ، والمشكلة أصلاً ، كما تقع عادة في البلدان القائمة على أسس صراعات دينية أو مذهبية ، تنصب على ما هو محلي بالدرجة الأولى ، فاسرائيل سبق لها وأن تحالفت مع الخُصوم التاريخيين لقوى الجبهة اللبنانية ، أما العرب – باستثناء سوري غير متكافئ – فلا وجود لهم على أرض الواقعة ، فإذا ما تصدى الشوف وأقرباؤه إلى الجيش الاسرائيلي ، فسيجد نفسه وحيداً في المعركة ، لا أمام جبهة واحدة بل أمام جبهات ، وقد يكون في ذلك معركة الوجود بأسره ، لذلك عوّل الشوف على الإنحناء أمام الريح . .

مشكلة أخرى يطرحها منصور ، هي مشكلة الحرية السياسية ، فما من مجتمع مقموع سواءً بالسيطرة السياسية ، أو السيطرة القيادية الأبوية (البطريركية) ، يستطيع الدفاع عن حريته ، سواءً ضد غزاة الخارج ، أو قاهري الداخل ، فقد كانت قيادة وليد جنبلاط عكس قيادة أبيه في لبنان ، حيث قراراته قيادية سلطوية فردية ، ولما كانت العقلية المهذبة للعربي

الدرزي ـ لا تخرج عن الطاعة للكبار ، فإن في قرار منع التصدي ، ما يحمل على الحكمة والاتعاظ . .

كانت القوات اللبنانية صاحبة المصائب ، قد توغلت في جبل الموزاييك المتعايش منذ قرون ، وكان التوغل قد تم مع تقدم الاجتياح الاسرائيلي وبدعم منه ، ثم ما لبث الجيش الاسرائيلي أن بدأ باخلاء مواقعه ، دون السماح لقوات نظامية من الجيش اللبناني بالحلول محل القوات المنسحبة ، وهكذا تم تهيئة الجو لفرصة اقتتالية من جديد ، فقد شن وليد جنبلاط على الفور هجوماً بمشاركة فلسطينية ودعم سوري ضد المواقع المسيحية في الجبل ، فانسحب سمير جعجع قائد القوات اللبنانية في المنطقة ، وتابع انسحابه حتى استقر في دير القمر ، ولولا تدخل القوات الاسرائيلية لتغطية انسحابه التالي ، لما كان بمقدوره أن يفعل ، وكالعادة ففي نشوة النصر والانتقام لصبرا وشاتيلا ، أخذ المهاجمون في تدمير كل من يعترض أو لا يعترض طريقهم . . وبدا ذلك جلياً في نسف البيوت والكنائس خلافاً لوصيّة قائد الحرية في الإسلام ، ابن الخطاب :- (**لا تقتلوا شيخاً ولا امرأة أو طفلاً ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تهدموا كنائس وبيع يُذكر فيها اسم الله**) مهما كان .

وكان جنون الذبح على الذبح ، قد انتصب شاهداً على ذرى الجبل الذي عاش التعايش المشترك منذ قرون . .

حين سئل أحد قادة القوات اللبنانية عن حريق الجبل ، الذي تسببوا فيه أجاب دون اكتراث (لا تعير اهتماماً لما حصل ، على كل حال إنهم ليسوا مسيحيينا - جوناثان رندل - مصدر سبق ذكره ص ٢٢٧ دار العهد للنشر .) وكان بذلك يقصد أن غالبية القتلى في الجبل ، إنما هم من الكاثوليك والروم الأرثوذكس وليسوا من الموارنة .

إن مشهد الآلاف من اللاجئين المسيحيين وألفين أو أكثر من بقايا الميليشيات القواتية المهزومة والمحاصرة في دير القمر ، يعيد إلى الأذهان صوراً لا تقل قتامة عما كان يحصل في عين الرمانة وتل الزعتر وصبرا وشاتيلا ، فالدموية المجنونة كانت تجري دون كابح في سبيل التهام السلطة والإنسان ، ويبدو أن القوات اللبنانية التي كانت ترى في دير ياسين نموذجاً محتذى ، بقيت عاجزة عن تعلم الدرس . . . فهي ليست اسرائيل ثانية بنظر الغرب ولن تكون ، إلا أنها مع ذلك ظلت تسعى إلى اسرائيل دون يأس ، وكان الوقت قد تأخر على دويلة جديدة لا لزوم لها . لم يعد أمام الجميل ، إرضاءً لشيعته إلا اتخاذ منهج التمييز بين المناطق التي باتت الدولة تشرف عليها ، ففيما كان القانون يطبق على بيروت الغربيّة ، كانت بيروت الشرقية تحكم بقانون قواتي حديدي ، لا يجوز لا للدولة ولا

لغيرها، أن تتدخل فيه ، وقد سُميت حكومة الوزان ذات يوم ، بأنها حكومة كورنيش المزرعة (شارع من شوارع بيروت الغربية) وكان واضحاً أن السيد الوزان ، لا يستطيع تبديلاً للأوضاع دون تضامن آلة الدولة كلها ، وعلى رأسها دعم رئيس الجمهورية نفسه، غير أن الرئيس الجميّل بدلاً من ذلك ، ظلّ يرى في بيروت الشرقية ، (مرابع حماه وعشيرته) ، ملاذاً شرعياً ومحمية قانونية لا يجوز الاقتراب منها أو المساس بها ، مما أثار الاضطراب بين الصفوف من جديد ، **لقد بدت مظاهر التحيّز جليّة واضحة ، لرئيس يُفترض أنه للجميع** . . ويذهب بعض الضالعين ممن عاشروا الرئيس وعرفوه ، أن شخصية الرئيس نفسه كانت نقيض أخيه ، فهي ضعيفة في صفوف القوات ، وقد أدى صعود القوّاد من ذوي (خمسة نجوم) أمثال أفرام وجعجع وحبيقة وما اتصل بهم من إنجازات ! . . إلى تلاشي شخصية ابن مؤسس الكتائب البكر ، الذي يتقن لغة المرافعات المصرفية بأكثر من أي لغة أخرى . .

صار لبنان عملياً ، أثناء ولاية الرئيس أمين الجميل ، بلداً لحكومتين ، وربما أكثر ، وبدا أن ذلك ربما يؤول إلى التقسيم دون الحاجة لاعلان ذلك رسمياً .

وقد شكل الوضع بتدنيه واضطرابه ، فرصة مواتية لسوريا وحلفائها للعودة إلى قلب الساحة ، بعد أن وُضعوا بالغزو الاسرائيلي على أطرافها ، وكانت جبهة الخلاص الوطني، التي تشكلت بدعم من السوريين ، وبأطرافها الاسلامية والمسيحية (رشيد كرامي، سليمان فرنجية ، وليد جنبلاط ، نبيه بري . .) قد أخذت بالظهور في ساحة الفعل اللبناني ، وكان أمام سوريا كخطوة تالية ، زعزعة الوجود الأطلسي في لبنان ، بحيث يرى خسارته الحقيقية في الاستمرار بهذا الوجود ، وهكذا قُيّض للبنان أن يشهد أعظم عملياته الانتحارية في تدمير فرع السفارة الأمريكية في رأس بيروت ، ثم الطامة الكبرى في المقتلة التي تعرّض لها المارينز على طريق المطار . . كذلك فإن عملية انتحارية أخرى ، كانت قد استهدفت القوات المظلية الفرنسية في الرملة البيضاء . وتقول تقارير الجيش الأمريكي ، أن أكثر من خمسين قتيلاً أمريكياً ولبنانياً سقطوا في الضربة الأولى . وأنه بنتيجة الهجوم الانتحاري الذي استهدف مقر المارينز ، فقد قُتل ٢٣٩ ضابطاً وجندياً أمريكياً ، و ٥٨ مظلياً فرنسياً ، وهكذا تكون القوات الأمريكية والفرنسية ، قد مُنيت بأفدح الخسائر منذ الهزيمة في ڤيتنام .

لقد تجاهلت حكومة ريغان طويلاً ، وذلك على عكس تقارير الادارات السابقة ، أن سوريا ، بعد أن أغدق اندروبوف سيد الكرملين الجديد ، كل ما في وسعه لتعزيز وضعها

والوقوف على رجليها وبعد أن أصبحت وحيدة في المواجهة ، كانت قد أصبحت قوة إقليمية تمتلك حقائقها فوق الأرض اللبنانية ، **وعن ذلك سيُصرح الرئيس الأسد مباشرة (إن شولتز لن يكون عرّاب كامب ديڤيد في لبنان) والمشكلة أن كيسنجر نفسه ، كان قد أوضح أكثر من مرة (أنه لا حرب دون مصر ولا سلام دون سوريا في المنطقة)** .

كان على الأمريكيين أن يعرفوا ، اتعاظاً بأخطاء الآخرين ، وقد عرفوا في وقت لاحق على ما يبدو ، أن التهديد بالتدخل العسكري في لبنان (مع فزّاعة نيوجرسي) ، كان دائماً أقل أهمية بما لايقاس من خطط الأمن الأمريكية في الخليج ، حيث لا يتناسب الاستخدام العسكري الضخم (كما جرى لاحقاً مع العراق) مع المردود الفعلي لكلفة التدخل البشرية والاقتصادية لذلك ، وفي حركة أمريكية صرفة ، **أو على الطريقة الأمريكية إياها ، فقد طالبت الخارجية الأمريكية حكومة لبنان (أمين الجميل) بدفع أثمان القذائف التي أطلقتها البارجة نيوجرسي ضد مناطق الشوف ، بناء على طلب رسمي من الحكومة اللبنانية ، أي من الرئيس الجميّل نفسه ! . .**

لم يكن لبنان بنظر أمريكا ، وهي سياسة استخفاف مألوفة ، أكثر من بنك ومرتع استجمام أو سياحة ، ولما كان لبنان ، قد دمّر مزاياه بنفسه ، فإن مزيداً من الإقامة فيه ، لا تعني إلا الخسارة ، أو الرهان على لا شيء في المستقبل .

◆ ◆ ◆

لقد جاء لبنان بحربه الأهلية الطويلة ، ليشكل غاطساً إضافياً ، له وزنه في الانحدار نحو القاع ، أو ربما تغذية للمسيرة الناكسة لجماع الأمة ، إذ طوال عقد ونصف ، أو ما مجموعه عدد سنوات الحربين العالميتين ، وهو يقتتل دون هدف مقنع ، وكانت الحرب في جانبها الأسوأ ، محاولة إرغام التاريخ على العودة ، أو ما يقال عادة إعادة عقارب الزمن إلى الوراء ، فقد استنتجت المارونية السياسية ، من خلال سقوط العرب في حزيران ، وطرد الفلسطينيين من الأردن في أيلول ، ثم ثغرة الدفرسوار واتفاقيات سيناء بعدها الكامب ، أن بمقدورها أن تلعب لعبتها المواتية ، مع عدم انتباه إلى أن التاريخ لا يتكرر ، **فعالم المصالح اليوم ، كان قد غادر منذ قرون ، عالم الأمس بدءاً من الحروب الصليبية ، وانتهاءً بوصايتي بريطانيا وفرنسا على المنطقة ، ومع ذلك فقد انقلبت الحرب التي هي السياسة بوسائل أخرى ، إلى السياسة الغبيّة التي لم تكن تعني غير الحرب من أجل الحرب ، تماماً كالفن من أجل الفن ، وحين تعجز الأطراف المتحاربة عن الوصول إلى نقطة الوسط على الأقل ، أو عن الوصول إلى الاعتراف بشيءٍ من حق الآخر ، فإن ذلك كان**

يعني ، أن مسّاً من الخيال ضرب القوم ، وأن انفلات دواعي الجنون الـ (ما قبل تاريخية) ، هي التي أرتجت على الحكمة ، وسيطرت على كل شيء . .

لقد بدت العبثية لشعب متذابح ذي كيان غريب ، وكأنها غير قابلة للترجل أو التراجع . وقد صرحت الدبلوماسية الأمريكية ذات يوم ، بأنه ليس من المهم أن تفتتح اللعبة في بلد كلبنان ، بل المهم معرفة كيف يمكن اختتامها ، ومتى وأين ؟ . .

فبعد مؤتمري القمة في الرياض والقاهرة ، وما نجم عنهما من مصالحات ظرفية ، مع إيجاز قوات الردع المشكلة ، العمل في لبنان من أجل استرداد النظام والأمن ، لم يتوقف القتال ، وبدا أن التورط يراد له أن يكون جماعياً ، كما أن القتال في كل مرحلة ، كان يشتعل لدوافع خارجية خفيّة.

كان لبنان يشتعل ثم يهدأ في استراحة محارب إرغامية ، ثم يعود ليشتعل بأقوى مما كان عليه ، وكانت الأهداف أقل شأناً من أن يراق لها دم مواطن واحد ، فالرئاسة والحصص في البرلمان ، والتمثيل في الحكومة ، والمصالح والوجاهة ، هي محاور لبنان الاقتتالية ، وبالطبع فإن هذا ، كان ينجم عن حالة موروثة ومريضة ، ولعل المرء يعجب أشد العجب ، كيف أن هذا الـ (لبنان) الذي شق طريق أمته نحو أفكار النهضة والديمقراطية ، وأشياء كثيرة من مبادئ الثورة الفرنسية ، ولا يستطيع هو بنفسه ، أن ينهض لازالة عثرته المشينة ، فيما هو طائفي ومعمول به ، ولا يجد المرء تفسيراً لهذا ، سوى أن لبنان أصبح عاجزاً تماماً عن مقاومة اغواءات الخارج وما يخطط إليه ، **علماً بأن آخرين ، يقولون بجوهر الفينيقية التي تعامل الأشياء والأحداث والإنسان ، بمنطق التاجر الذي لا همّ له سوى أن يربح . . فإذا ما اجتمع اغواء الخارج ونفسية التاجر ، فإنه يمكن للمرء أن يعثر على شعاع من تأويل لما جرى . .**

غير أن ذلك كله ،كان على انتساب مع الماضي ليس أكثر ، فمشكلة لبنان الأكثر خطورة في الحاضر ، هو أنه أصبح ساحة صراعات القوى في المنطقة ، وقد ربط العديد من الساسة الكبار ، مصير لبنان بمصير المشكلة الأم ، ألا وهي المشكلة الفلسطينية ، وقد رأى هؤلاء ، أن لبنان لن يهدأ ، طالما أن عوامل الصراع في المنطقة مازالت قائمة . .

كان الجانب الاجتماعي في القِتال له دوره ، وغالباً ما شهدت الساحة اللبنانية قتالاً بين من يملك (المارونية السياسية بالتقاسم مع وجه السلة السني والشيعي والدرزي) وبين مَنْ لا يملك (من الموارنة أنفسهم مع الغالبية الشعبية العظمى ، من الشيعة والسنة

والدروز) ، ثم انتقل القتال بعد هندسة الجبهة اللبنانية ليصبح على الهوية الدينية دون تمييز ، وفي مرحلة أشد قتامة ، انتقل الإقتتال ما بين أبناء الطائفة الواحدة ، وكان الفلسطيني (المسلم أو المسيحي سيان) هو (جوكر) القتلى في كل زمان ومكان . .

في مرحلة متقدمة ، سيُهدّم الصراع الطاحن على الملكية والشرعية ، بين دكتور القوات الصاعد سمير جعجع ، وجنرال الجيش ميشيل عون ، ما تبقى من أوابد المنطق أو الحكمة في لبنان ، وبذلك يكون الصراع قد أغلق ملفه الاجتماعي ، ليتوجه إلى المذهبية الدينية ، ثم ليغادر الحلقة إلى قلب كل طائفة على حدة ، ثم ليستقر أخيراً كصراع ديكة بين ملوك الطوائف أنفسهم ، وبذلك يكون لبنان ، قد انتقل برضاه ، وفي غفلة من غياب سيادة العقل ورجحان الحكمة ، إلى الدخول في تاريخ القرون الوسطى دون منازع .

لقد حاذر العالم كله الاقتراب من هذا المستنقع الدبق في لبنان ، ولولا أن سوريا ، استطاعت أن تنفذ من خلال تعقيدات عالمية واقليمية ، حيث أريد للبنان أن يكون جزءاً من حصة سوريا التفاوضية في المستقبل . . لكان على لبنان أن يفتش قبل زواله على من ينعيه وقد لا يجد .

حَسَنَةٌ واحدة فقط ، كانت من ايجابيات حرب المكابرة في لبنان ، وتتجلى هذه الحَسنة في الاعتراف : (لماذا لم يتم الاعتراف قبل هذه المراهقة الجهنمية ؟) حيث يقول أحد قساوسة بكركي لصحفي أمريكي (**يبدو أن عالم اليوم قد تغير تماماً ، فقد أصبحنا على قناعة أن المساومة تجري على دم المسيح يومياً ، عندما يتصل الأمر ببرميل نفط يُراد له أن يغادر المنطقة**) .

وكان حرياً بالقس الجليل أن يسمعنا صوته قبل الفجائع في الرمانة أو تل الزعتر ، أو حتى صبرا وشاتيلا ، وكم كان حرياً أيضاً أن يسمعنا الشيخ الجليل صوته (مع كل شيوخ الحكمة الآخرين) ، ما يتعلق بسلام الاسلام وسماحته ، بعيداً عن طبيعة الردة المخجلة على الهوية الدينية في بلاد الأديان كلّها . .

لقد تعلّم لبنان بعد طول مأساة ، كما سيتعلم غيره بقوة التجربة المريرة لا بحكمة العقل ، أنّ ما يحرك عالم اليوم ، هو شيء آخر ، بعيداً عن الشرق وأمثال الشرق . فقد قرر عالم هذا القرن ، بل وقرون قبله ، أن يضع فلسفة حياته باتجاه براغماتي واحد ، وقد تخاصمت هذه الفلسفة مع كل فلسفات القيم منذ وقت طويل ، وكان على براغماتية المصالح الشخصية والعامة ، أن تكنس من طريقها كل المُثل البالية التي فات زمانها

وانقضى . ولو أن ذلك سيتم على حساب الانسانية في العالم الآخر ، ولعلّ الخُطب الباكية في المساجد والكنائس ، على كل ما هو غير إنساني في هذا العالم ، لن تحظى في النهاية بأكثر من ساكب دمعة على ظلم الإنسان للإنسان ، أو على الدم المهراق الذي ظل يفتدي مصارف النقد العالمية في مشاريع مصالح مزرية ومشينة ، وسوف يكتشف الشرق مع نهاية هذا القرن ، أو لعلّه اكتشف منذ زمن ، أن القلب الذي يحبه أصبح عقلاً ، وأن العين أضحت شعاع لايزر أكثر منها أداة رؤية أو بكاء ، وأن لسان المتكلم بات إذاعة ، وأن الأذن المرهفة أصبحت لاقطاً لاسلكياً ، وأن أحشاء الإنسان اليوم ، تُرى وتُسمع كأنها على المنضدة ، وأن استبدال أي عضو من أعضاء الإنسان ، أصبح عرضاً طبيعياً في (مسلخ) الطب الحديث . . . وأن العرب مازالوا في آخر الصفوف ، وأن الأنبياء الذين نقاتل تحت بيارقهم وأسمائهم . . لا يسعهم إلا أن يطلّوا من السماء ، بعد أن علت وجوههم علائم الدهشة والاستنكار ، لا لعالم فرغ من احتلال الطبيعة لتوه فحسب ، بل لعالم وقح يريد احتلال حتى ما وراء الطبيعة ، بتكرار الإنسان في جينيّاته وما يسمى بعلم الوراثة ، اليوم ، ولعلّ القرن المقبل هو عالم ما بعد الطبيعة ، حين سيكتشف الإنسان مجرات الفضاءات الأخرى ، أما العربي ، فما زال نائماً في قرون الماضي السحيق ، فصاحب المُلك العربي في ظل غفوة شعبه أو غيبوبته ، لا يستطيع التخلّي عمّا ورثه تحت واقية رأسه ، سواء كان عقالاً أو قبعة عسكرية ، فالمُلكُ مُلكه هو ، والوطن مزرعة خيله ، والأمن أمان نفسه ونظامه ، والجيش لادامة هذا النظام بأكثر مما هو لثغور حدوده ، وأن امتشاق السيف لمجرد ظنونه في وجه أبيه وأخيه وطالبي مُلكه هو الشرف بعينه ، وأن الاستراتيجية الواقعية تتلخص في الحفاظ على مأثرة (بغداد تكفيني) ، وللحق والتاريخ ، **فإن مأثرة ثمانية عقود من الثورة العربية الكبرى ، وما سجّله هذا الكتاب حتى الآن ، تكمن في تحويل الأنظمة العربية بجمع ما لا يجمع ، الكيانات (السايكس بيكوية) إلى واقع ، والتجزئة إلى حقيقة راسخة ، والإقليمية إلى وطنية مدعاة ، والمغنم القطري إلى حماية دولية ، وفلسطين إلى اسرائيل ، وثروة العرب إلى بؤس لحياتهم ، والخلافة إلى دولة والدولة إلى مُلك (أكسروية يا معاوية) والمُلك إلى وراثة ، والشورى إلى تاريخ ، ووحدانية الله إلى وحدانية السلطان ، وطاعة الرعية إلى عَصاة الرُعاة ، (فليلة أمن في ظل سلطان جائر ، أفضل من ألف ليلة من الفوضى في ظل سلَطان عادل ! . .) فالعدالة بالضرورة قرينة الفوضى ، والاستبداد قرين الأمان ، أما ما هو مطلوب لتسخير التاريخ والشواهد ، والآيات والأحاديث والأحكام والفتاوى . . من أجل إدامة العرش وامتداد العروش بعده ، فموجود على صفحات المداهنين المرائين من كل صنف ولون ، ثم أليس غريباً ، أن**

كل شعراء السلاطين في يومنا هذا ، وما يمتلكه إعلام العرب داخل الوطن الأسير والعالم كله، أصبح من نصيب النفط وما يدور في فلكه . . من أنظمة متسولة ومداهنة ! .

◆◆◆ ◆◆◆

◆◆◆

ثم ماذا عن الجزء الثاني من الكتاب قبل وصولنا إلى مدريد ؟ إذ ما من شك أن مدريد كانت هي طريق الوصول الطبيعي إلى الاتفاقيات الثنائية في أوسلو وبعدها في وادي عربة، وعلى غرار السياق نفسه ، فقد آلت الأحداث الدامية بعد خروج المقاومة من لبنان إلى توليد أحداث كبرى كان لها مسيس العلاقة بما يجري في مركز الصراع هنا ، ثم بدرجة أقوى من أجل كسر احتمال نشوء قوة اقليمية أو أكثر على تخوم النفط في الخليج وهو ما سيتضمنه الجزء الثاني من كتابنا عقود من الخيبات ، فهناك في ذمتنا ما يزال عقد ونصف من الأحداث الزاخرة بدءاً من بيروت وانتهاءً بمدريد ، ثم ما بينهما من حرب ضروس بين إيران والعراق حيث خُتِمَ على نشوء القوة الاقليمية التي أكَلَتها ثمانية أعوام من الحرب بين البلدين ، وسيأتي الجزء الثاني على ما جرى بين مصر واسرائيل نتيجة الكامب ، ثم عودة ثانية إلى لبنان فالتقارب السوري العراقي عبر الميثاق وبعدها إلى انفصام عرى التقارب والقرابة بين القطرين اللذين لم يبق غيرهما كقوة نزال في الساحة لداهمات المستقبل . . ولكن ! . .

سيعود الجزء الثاني للإتيان على ذكر الكارثة المروعة توأم حزيران الثانية وما اصطلح عليه بحرب الخليج الثانية هذا إن لم تكن أشد سوادا ، ومن الكارثة المروعة مباشرة إلى مدريد قبل أن تجف دماء الرافدين ، وستلتهم صفحات الكتاب الثاني العديد من الآراء والآراء المضادة حول خيار أمة بدت **وكأنها لا للحرب ولا للسلام** ،ومن غير سلام مع نفسه ، راحت عقود تلتف حول عنق المصير العربي ، لا بصفتنا (دعاة حرب حقيقيين) وليتنا كنا كذلك ، بل دعاة دعوى ناشئة من الاخفاق المستطير لا في الحروب فحسب بل وكل شيء أيضاً ، ومن هنا تأتي الخشية من سلام مخفق أيضاً ، أو من سلام غير متكافئ يجري في أشد ما في تاريخ الأمة من ظلام .

ومن مدريد إلى اوسلو ، كانت النقلة البليدة غير مفاجئة إلا بمقدار ما أُبعد المواطن العربي عن حياته ومصيره .

وفي المحصلة سينتهي الكتاب إلى تراجيديا إغريقية ، أو بصورة أدق عربية ، فعقود الزمن الغارقة في الظلام هي التي مازالت فائزة حتى يومنا هذا ، وحيث أن الكتاب يجول في مملكة السؤال ، فإن الاجابة عن (ما العمل) ؟ ستبقى مؤجلة إلى حين أو على الأقل، كما يُقال في عالم الطب ، تشخيص المرض ثم وصف الدواء ، بحيث لا يحمل خطأً جديداً يضيف بموجبه عقداً جديداً لعقود الخيبة التي مازالت ترفل فيها أمة غافية بين الأقدار والأعذار حتى الآن . . .

أرجو الله أن نقوى على ذلك إذ هناك مثل يقول :

إنني أقول الحقيقة يا بني لا بمقدار ما أعرف بل بمقدار ما أجرؤ ، وإنني أجرؤ أقل فأقل مع تقدم العمر حين أرى عصا الحجاج المسلطة على رأس شعبنا من المحيط إلى الخليج وعندها سأقول مع بيير ديمرون الفرنسي : هذه هي آرائي وليس لي حق الموافقة عليها في النهاية . . .

-----.

﴿ مراجع الكتاب ﴾

الفصل الأول :-

١ - مجلة فكر - لبنان خريف العام ١٩٩١ .

٢ - نبوخذ نصر . ج . ر . تابوي .

٣ - فلسطين أرض السلالات . روجيه غارودي .

٤ - مدينة ازيس - التاريخ الحقيقي للعرب . بيير روسش .

٥ - مخطوطات البحر الميت . حسين عمر حمادة .

٦ - كتاب العهد القديم .

٧ - التوسع في المخيلة الغربية - ألبرت حوراني .

٨ - النسبية . أ . أينشتاين .

٩ - أعظم أحداث العالم . موريس شربل .

١٠ - فكرة ما عن الجمهورية تقودني إلى ... بيير شوفمنان .

١١ - حرب العالمين الأولى . صبحي جديدي .

١٢ - تاريخ الشرق الأوسط . ديزموند ستيورت .

١٣ - السلطان الأحمر . جون هاسلب .

١٤ - أعمدة الحكمة السبعة . ت . أ . لورنس .

١٥ - تاريخ الأقطار العربية . فلاديمير لوتسكي .

١٦ - المخفي من حياة لورنس العرب . ناتالي وسمبسون .

١٧ - لا سامية حكومتنا الحالية - مذكرات . ادوين مونتاج .

١٨ - سوريا والعهد الفيصلي . يوسف الحكيم .

١٩ - مذكرات عوني عبد الهادي .

٢٠ - وثائق الخارجية البريطانية . سجل رقم ٨١ .

٢١ - صاندي تايمز - الأوبزيرفر - آذار ١٩٢٠ .

٢٢ - الاقتراب من العَظَمة . لورد د . ونترثون .

٢٣ – حول الحركة العربية الحديثة . محمد عزت دروزة .

٢٤ – مجلة النهج السورية . أعوام مختلفة .

٢٥ – نضال البعث . الجزء الأول .

٢٦ – نشوء الأمم . أنطون سعادة .

٢٧ – تاريخ الأقطار العربية المعاصر . باحثون سوفييت .

٢٨ – مذكرات الملك عبد الله . مصطفى الخرسا .

٢٩ – المحفوظات العامة لملفات سلاح الطيران الملكي البريطاني سجل رقم ٣٧٫٨.

٣٠ – الخليج بيننا – قطرة نفط بقطرة دم . حمدان حمدان .

٣١ – تاريخ الحزب الوطني الديمقراطي في العراق . كامل الجادرجي .

٣٢ – رياح السموم . رياض نجيب الريِّس .

٣٣ – مجلة العرب – فلسطين . عجاج نويهض . أعداد مختلفة عام ١٩٣٥ .

٣٤ – جريدة الجامعة العربية – فلسطين . أعداد مختلفة ١٩٣٤ .

٣٥ – المقاومة العربية في فلسطين . ناجي علّوش .

٣٦ – أوراق جميل مردم بك . سلمى مردم بك .

٣٧ – مذكرات الجنرال ديغول .

٣٨ – وثائق من مجلس النواب السوري تعود للعام ١٩٤٥ .

٣٩ – سوريا . التحدي والمواجهة . وليد المعلّم .

٤٠ – وثائق الحزب الشيوعي السوري تعود للعام ١٩٤٥ .

٤١ – تاريخ أمة في حياة رجل . مجموعة من الكتاب السوريين .

٤٢ – والآن أتكلم . خالد محي الدين .

٤٣ – الخارجية البريطانية . المحفوظات العامة لعام ١٩٤٦ .

٤٤ – قصة ثورة . مصر والعسكريون . أحمد حمروش .

٤٥ – مذكرات محسن البرازي . د . خيرية قاسمية .

٤٦ – مذكرات محمد مهدي كبّة ومنشورات حزب الاستقلال العراقي .

٤٧ – ذكريات وعبر . مذكرات فاضل الجمالي .

٤٨ – أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية . أحمد الشقيري .

٤٩ – تاريخ الهاغاناة . دافيد بن غوريون .

الفصل الثاني : -

١ - مذكرات خالد العظم . الأجزاء الثلاثة .

٢ - استقلال العرب والوحدة ١٩٤٣ . نوري السعيد .

٣ - محاضر من جلسات مجلس النواب العراقي . أعوام ٩٤٣ - ١٩٤٤ .

٤ - الوحدة العربية . أحمد طربين .

٥ - الهاشميون وفلسطين . أنيس صايغ .

٦ - جريدة الأخبار المصرية . أعداد مختلفة في العام ١٩٤٧ .

٧ - مذكرات السيد نجيب الأرمنازي - لندن .

٨ - صحف مختلفة :

- صحيفة الحياة أعداد مختلفة من العام ١٩٥٢ .
- صحيفة الأهرام أعداد مختلفة من العام ١٩٤٩ .
- الايكونومست . ١٩٤٧ .

٩ - العراق وقضايا الشرق العربي . ممدوح الروسان .

١٠ - بريطانيا والعرب خلال خمسين عاماً . جون غلوب (باشا) .

١١ - الايضاحات السياسية . غالب عياشي .

١٢ - ذكريات نائب . حبيب كحالة .

١٣ - المضحك المبكي السورية . أعداد متفرقة ..

الفصل الثالث :-

١ - الحروب العربية الاسرائيلية . كابتن تريفور دوبوي .

٢ - الفاشيّة . يوميات موشي دايان .

٣ - كارثة فلسطين - مذكرات عبد الله التل .

٤ - الصراع على سوريا . باتريك سيل .

٥ - مذكرات عادل أرسلان .

٦ - أسير دمشق . فضل الله أبو منصور .

٧ - صحيفة لوريان البيروتية . أعداد ١٩٥١ .

الفصل الرابع : -

١ - حزب البعث العربي . جلال السيِّد .
٢ - فلسفة الثورة . جمال عبد الناصر .
٣ - يا ولدي هذا عمك جمال . أنور السادات .
٤ - جريدة الأخبار القاهرية . أعداد . ١٩٥٣ .
٥ - اتفاقية الجلاء مع مصر . أنتوني ناتنغ .
٦ - ملفات السويس . محمد حسنين هيكل .
٧ - مذكرات . أنتوني إيدن
٨ - إذاعات . .B.B.C نيسان وحزيران ١٩٥٤ .
٩ - جريدة البناء السورية . أعداد . شباط ١٩٥٥ .
١٠ - لماذا قُتل يونس عبد الرحيم . سلسلة إصدار الحزب السوري القومي .
١١ - الجرّاح ومحكمة اغتيال المالكي . سلسلة حزبية .
١٢ - جريدة الأيام الدمشقية . أعداد حزيران ١٩٥٦ .
١٣ - جريدة البلاد العراقية . أعداد كانون أول ١٩٥٦ .
١٤ - حروب اسرائيل السرّية . إيان بلاك .
١٥ - امراء الموساد . يوسي ميلمان .
١٦ - القادة الألمان يتكلمون . ليدل هارت .

الفصل الخامس : -

١ - مجلة المعلم الجديد في المهجر - الأرجنتين والبرازيل .
مقالات لأنطون سعادة - متفرقات .
٢ - من يوميات جورج عبد المسيح .. إذاعة خاصة بجناح من السوري القومي .
٣ - حزب البعث . د . مصطفى الدندشلي .
٤ - الجذور الواقعية والفكرية لمبادئ البعث العربي . د . وهيب الغانم .
٥ - عبقرية الأمة في لسانها . زكي الأرسوزي .
٦ - مجلة المعرفة السورية . أنطون مقدسي .
٧ - الخطاب العربي المعاصر . محمد عابد الجابري .
٨ - الأقليات جذورها وبذورها . ساطع الحصري .

٩ – الاتجاهات السياسية في العالم العربي . مجيد خدوري .

١٠ – الأمة العربية ماهيتها في الوطنية والقومية . ساطع الحصري .

١٢ – دراسات في القومية . عبد العزيز الدوري .

١٣ – في سبيل البعث . ميشيل عفلق .

١٤ – القومية العربية . سيلفيا هايم .

١٥ – العرب في التاريخ . جان بيرك .

١٦ – البيان الشيوعي . كارل ماركس .

١٧ – ماركسية جرمانية وشيوعية روسية . ج . بلامي ناتز .

١٨ – جريدة صوت الشعب . خريف العام ١٩٣٧ .

١٩ – البحث عن اشتراكية في سوريا . جاك راشّيه .

٢٠ – جريدة الجماهير . أعداد ١٩٥٩ .

٢١ – خالد بكداش يتحدث . عماد نداف .

٢٢ – قضية لواء اسكندرون . محمد علي الزرقة .

٢٣ – أزمة المثقفين العرب . عبد الله العروي .

٢٤ – المسألة اليهودية . كارل ماركس .

٢٥ – الصهيونية الدولية . ف . غريغوريف و فدنشكو .

٢٦ – ما العمل ؟ لينين .

٢٧ – اشكالية العقلانية في الفكر العربي . حسام الألوسي .

٢٨ – دعوتنا في طور جديد . الشيخ حسن البنّا .

٢٩ – الاتجاهات الدينية والسياسية في مصر . هيوارت دون .

٣٠ – معالم في الطريق . سيّد قطب .

٣١ – مشكلاتنا الاجتماعية . الشيخ حسن البنّا .

٣٢ – ما يعد الاسلام به . روجيه غارودي .

٣٣ – نيويورك تايمز . أعداد . أيلول ١٩٥٧ .

٣٤ – مقابلة مع صلاح البيطار . باتريك سيل . من كتابه الأسد والصراع على الشرق الأوسط .

الفصل السادس : –

١ – حصاد . أحمد عبد الكريم .
٢ – قصة الثورة . عبد الناصر والعرب . أحمد حمروش الجزء الثالث .
٣ – حبال من الرمل . ويلبر كرين ايفلاند .
٤ – آخر العمالقة . نيقولا ناصيف .
٥ – أسرار ثورة تموز. صبحي عبد الحميد .
٦ – ثورة الشواف . خليل ابراهيم حسين .
٧ – العراق في مذكرة الدبلوماسيين الأجانب . نجدة صفوت .
٨ – العراق الجمهوري . مجيد خدّوري .
٩ – سنوات الغليان . محمد حسنين هيكل .
١٠ – مصر مجتمع جديد . عصمت سيف الدولة .
١١ – جريدة الأهرام . أعداد . شباط ١٩٦٦ .
١٢ – وطن وعسكر . مطيع السمان .
١٣ – مذكرات عبد الكريم زهر الدين عن فترة الانفصال .
١٤ – حول مشكلات الدولة . وضّاح شرارة .
١٥ – جيل الهزيمة . بشير العظمة .
١٦ – الحركة الوطنية اليمنية من الثورة إلى الوحدة . سعيد الجناحي .
١٧ – السلطة والمعارضة في اليمن . د . أحمد الصياد
١٨ – ثورة سبتمبر . شهادات للتاريخ . د . عبد العزيز المقالح .

الفصل السابع : –

١ – حصاد ثورة . عبد الكريم الفرحان .
٢ – قصة تموز . صبيح غالب .

٣ – الأوريون البيروتية . آذار ١٩٦٣ .

٤ – محاضر محادثات الوحدة . رياض طه .

٥ – الخيار الأخير . داڤيد كمحي .

٦ – مَنْ يجرؤ على الكلام . بول فندلي .

٧ – الفلسطينيون من حرب إلى حرب . إريك رولو .

٨ – حول الحرب . كلاوز ڤيتز .

٩ – الموسوعة العسكرية البريطانية . حرب العصابات .

١٠ – الإنفجار . محمد حسنين هيكل .

١١ – بن بيلا . حديث معرفي شامل . محمد خليفة .

١٢ – السياسات المتعلقة بالوطنية الفلسطينية . وليم كوانت .

الفصل الثامن : –

١ – حرب حزيران بين العرب واسرائيل . دونالد نيف .

٢ – قصة الثورة . خريف عبد الناصر . أحمد حمروش الجزء الخامس .

٣ – ناصـر . انتوني ناتنغ .

٤ – حرب الأيام الستة . رودولف ونستون تشرشل .

٥ – مذكرات آرييل شارون . ترجمة أنطون عبيد .

٦ – حرب حزيران . الفريق صلاح الحديدي .

٧ – قصة حياتي . موشي دايان .

٨ – مذكرات الرئيس الأمريكي جونسون .

٩ – فلسطيني بلا هوية . صلاح خلف . لقاءات مع ايريك رولو .

١٠ – الخط الأخضر بين الأردن وفلسطين . سيرة وصفي التل . آشر سسر .

١١ – فدائيون من أجل فلسطين . رياض الريس ودينا نحاس .

١٢ – مذكرات كيسنجر في البيت الأبيض . الأجزاء الأربعة .

١٣ – مذكرات . اسحاق رابين .

١٤ – عقد من القرارات . وليم كوانت .

١٥ – اكتوبر ١٩٧٣ عن السلاح والسياسة . محمد حسنين هيكل .

١٦ – العرب والاسرائيليون وكيسنجر . ادوارد شيهان .

١٧ – حرب اكتوبر . مذكرات الفريق سعد الدين الشاذلي .

١٨ – الطريق إلى رمضان . محمد حسنين هيكل .

الفصل التاسع : –

١ – سنوات الاضطراب . هنري كيسنجر .

٢ – قصة حياة كيسنجر . والتر إيزاك سون .

٣ – نفط الشرق الأوسط والاحتكارات الدولية . الكسندر بريماكوف .

٤ – النفط والسيطرة . أبو الحسن بني صدر .

٥ – انفجار المشرق العربي . د . جورج قرم .

٦ – عرفات الرقم الصعب . د . رشيدة مهران .

٧ – الإنحياز . ستيفن غرين .

٨ – محاضرات في فلسفة التاريخ . ج . ف . هيغل .

٩ – عند مفترق الطرق . محمد حسنين هيكل .

١٠ – حديث المبادرة . محمد حسنين هيكل .

١١ – نظام الطائفية من الدولة إلى القبيلة . برهان غليون .

١٢ – درب السلام الصعب . هنري كيسنجر .

الفصل العاشر : –

١ – مذكرات دافيد أوركهارت المقيم الإنكليزي في بيروت عام ١٨٧٥ .

٢ – ثورة في عالم الإنسان . كمال جنبلاط .

٣ – الرهان الكبير . أمين الجميِّل .

٤ – موت جمهورية . ألبير منصور .

٥ – خمسون عاماً من النضال في فلسطين . اميل الغوري .

٦ – الذهاب في كل الاتجاهات . جوناثان راندل .

٧ – السلام المفقود . كريم بقردوني .

٨ – ميشيل عون . حلم أم وهم . سركيس نعوم .

٩ – يوميات حرب الاجتياح . حركة فتح .

١٠ – في التجربة الثورية الفلسطينية . د . حسام الخطيب .

١١ – السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة . محمد حسنين هيكل .

١٢ – التآمر ضد العرب . أناتولي آجار شيف .

١٣ – تحقيق حول مجزرة . أمنون كابليوك .

١٤ – ضد اسرائيل . بيير ديمرون .

١٥ – الانقلاب على الطائف . ألبير منصور .

« المحتويــــات »